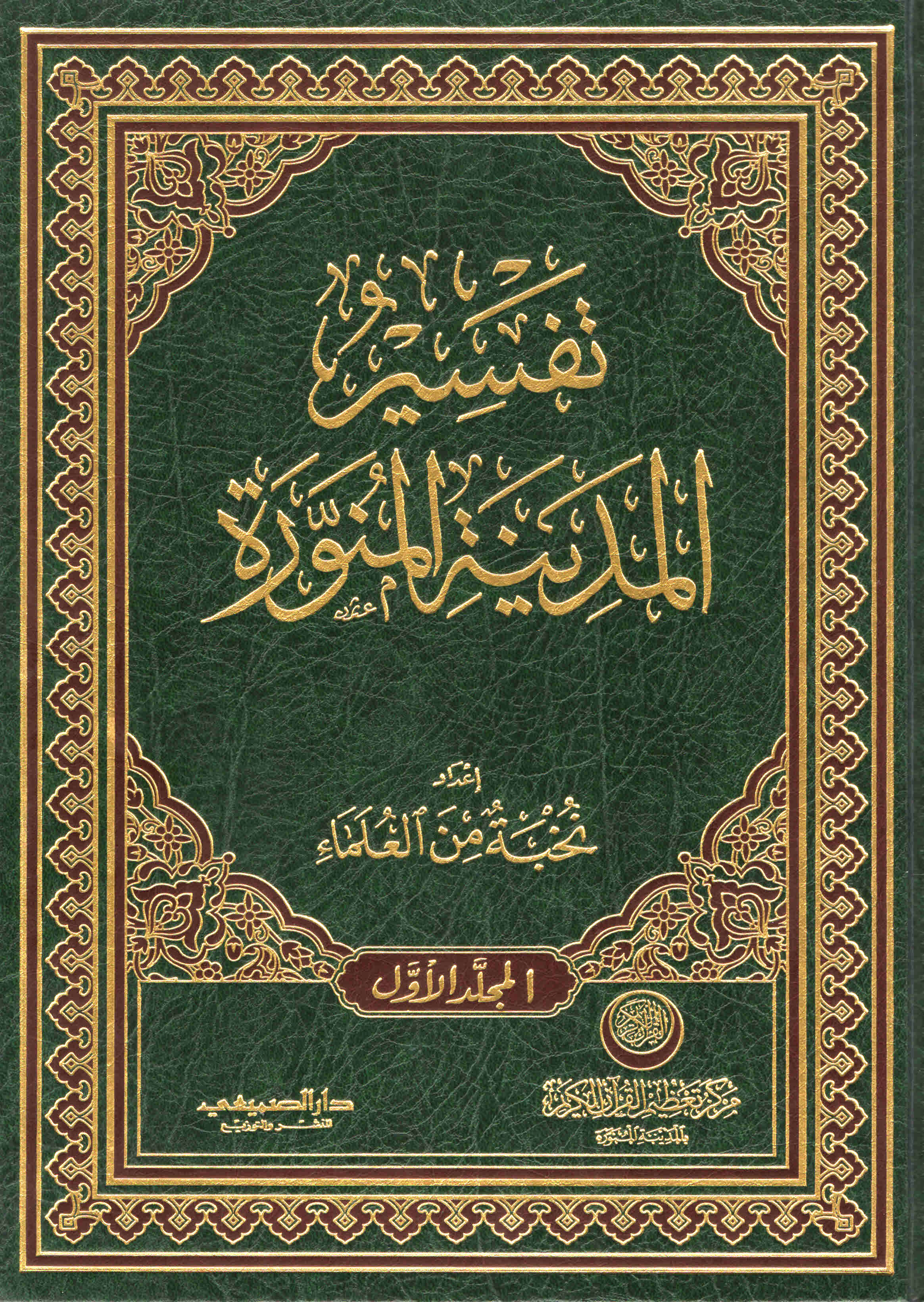
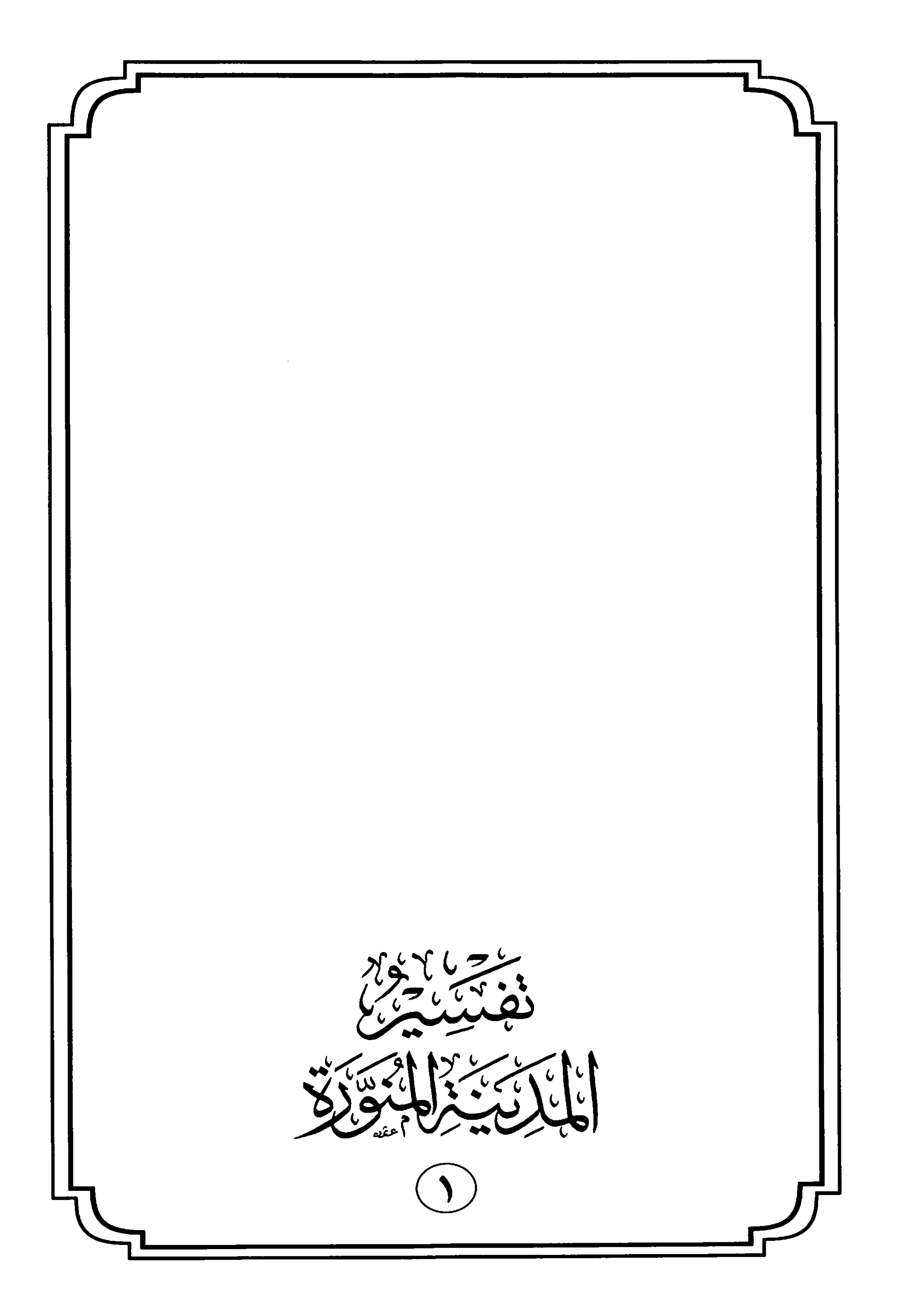

تفسير
المدينة المنورة
إعداد
نخبة من العلماء
المجلد الأول
مركز تعظيم القرآن الكريم
بالمدينة المنورة
دار الصميعي
للنشر والتوزيع



تفسير
المدينة المنورة
١

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص.ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢ هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com



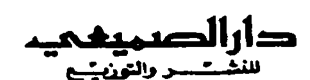
تفسير المدينة المنورة

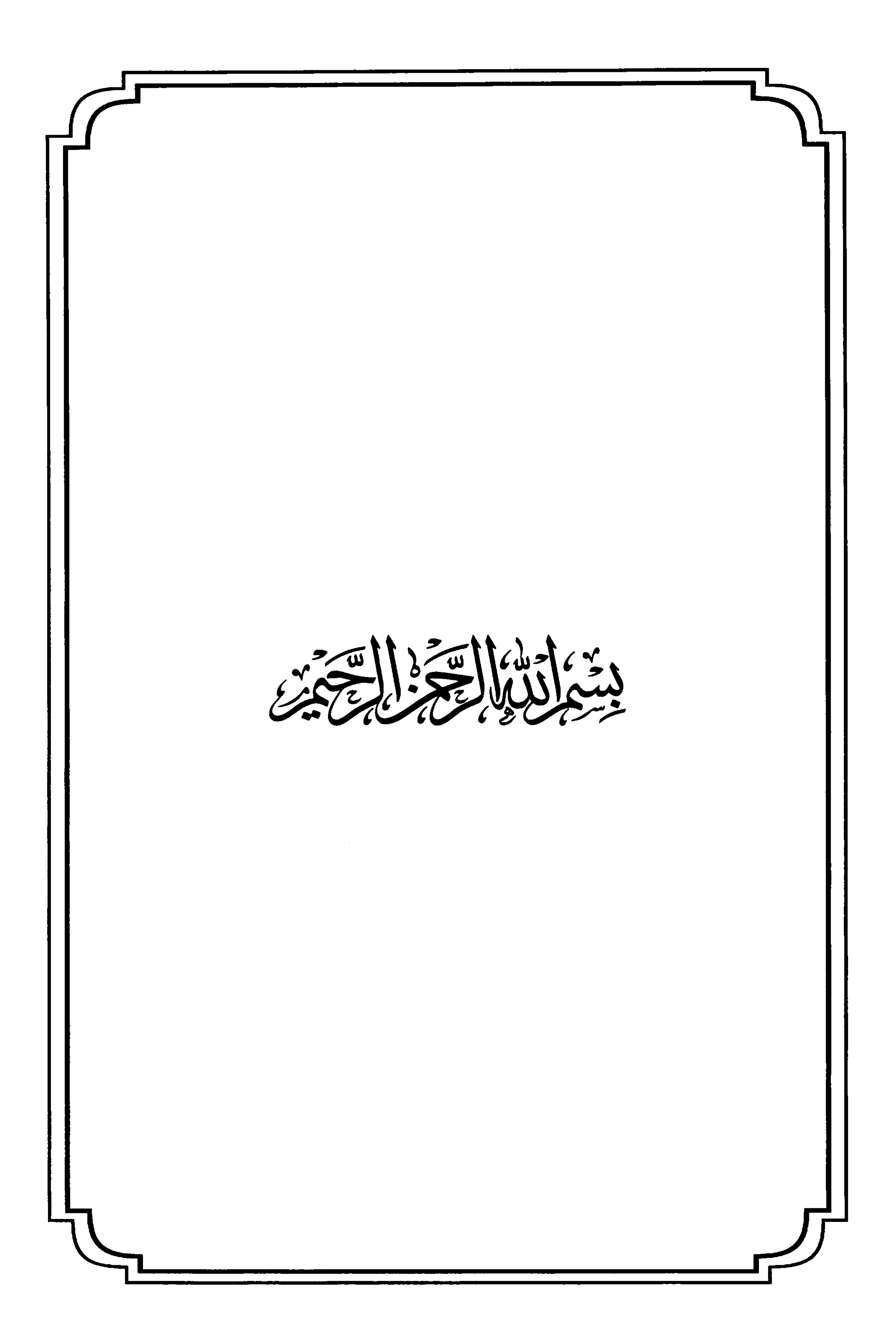
إعداد

نخبة من العلماء

المجلد الأول






بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي أنزل كتابه الكريم نوراً وهدى ورحمة للعالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أفضل الأنبياء والمرسلين نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

فإنّ من تعظيم القرآن الكريم تدبّر آياته ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ، إذ هو السبيل الموصل إلى الغاية العظمى من العمل به واتباعه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ الآية ، ولمآ كان الأمر كذلك فإنّ التدبّر الصحيح النافع لا يحصل ويتحقق إلا بمعرفة معاني الآيات وتفسيرها وما تدعو إليه وتهدف ، ومن هذا المنطلق الهام عزم القائمون بمركز تعظيم القرآن الكريم على تأليف تفسير للقرآن الكريم يحقق المراد جامعاً بين الأصالة والمعاصرة ، وليكون عونا على التدبّر المبنيّ على الأثر الصحيح ومراعاة العصر ومستجداته علماً وواقعاً، بما يسهم في صياغة حياة الفرد والمجتمع والأمة على هدايته ومنهجه الوسطي المعتدل بأحكامه وحكمه وإعجازه ، والذي يؤثر بدوره في الارتقاء بأحوال الناس وأعمالهم وعلومهم ، وهذا هو المرجوّ والأمل يوم تكاثرت المشكلات وتعددت صور الخلل ، وليس من مخرج إلا هدي القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة .

وقد اختير اسم لهذا التفسير يدل على مكان شريف ألف فيه وصدر منه ، فيكون المقام مقامين والشرف شرفين ، شرف العلوم وهو القرآن الكريم وشرف المكان وهو المدينة المنورة ، مدينة الرسول المصطفى ﷺ مهبط الوحي ودار الهجرة وعاصمة الاسلام الأولى ، كما هي الأرض المباركة التي شهدت حياة الرسول ﷺ الانموذج الحي الأمثل لهذا القرآن الكريم لمن أراد تطبيقه والعمل بهديه فكان الاسم : (تفسير المدينة المنورة).

وكذلك تميز هذا التفسير – ولله الحمد والمنّه – بأسلوبه ومنهجه وضوابطه ، فكان الأسلوب مبتكراً يتناسب مع كل فئات المجتمع ويلبّي رغبة المبتدئين والمثقفين وطلاب العلم ، وأمّا المنهج فقد ضبط بخطة جامعة للضوابط التالية :

– بيان مقاصد القرآن الكريم .

– الاعتماد على الرواية الصحيحة والراجح من الأقوال وترك الروايات الضعيفة والاسرائيليات .

– صياغة العبارة الفصيحة في تضمين الأساليب البلاغية والأوجه الإعرابية ، وعند تعدّد أوجه الإعراب يعتمد على الأرجح .

– إيراد إعجاز القرآن العلمي والبياني في الفوائد والاستنباطات .

– العناية بالاستنباطات التربوية والطبية والفلكية والمستقبلية وعلوم أخرى ، إضافة إلى الفوائد العقدية والفقهية والدعوية والتاريخية والبلاغة دون استطراد وإسهاب .

– اعتماد مذهب السلف باجتناب التأويل في تفسير آيات الأسماء والصفات الإلهية .

– ترك إيراد الخلافات اللغوية والمذهبية باختيار الراجح من الأقوال ، أو الجمع بين الأقوال الوجيهة .

– ترك الحكايات والاستطرادات الفقهية والنحوية .

– اعتماد رواية حفص بن عاصم .

– مراعاة الصياغة لتيسير الترجمة إلى لغات أخرى .

خدمة للتفسير وتيسيراً على قرائه أرفق به نسخة إلكترونية تحتوي على ملاحق بيانية وفهارس فنية أهمها :

– فهرس الآيات والأحاديث والآثار .

– ملحق الصور والخرائط .

– ملحق مقاطع الفيديو .

– ملحق علم المستقبل .

- ملحق تراجم الأعلام المذكورين في التفسير .

- ملحق كشافات الفوائد والاستنباطات .

وقد تمّ اختيار نخبة من علماء التفسير لكتابة تفسير المدينة المنورة على الضوابط السابقة الذكر ، وبدأ العمل ثمّ كانت المراجعة ، واكتمل الإنجاز في عامين ولله الحمد والمنّه .

أمّا الأساتذة المشاركون في التفسير فهم على النحو التالي :

أ.د. أحمد بن خالد شكري (أستاذ القراءات والتفسير في الجامعة الأردنية)

أ.د. أحمد بن عدنان الزعبي (أستاذ القراءات في جامعة طيبة)

أ.د. أحمد بن محمد الخراط (مدير الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)

أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية)

أ.د. حكمت بن بشير ياسين (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية - ورئيس المجلس العلمي في مركز تعظيم القرآن الكريم)

أ.د. عماد بن زهير حافظ (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم- وعميد شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية)

أ.د. مبارك بن محمد رحمة (أستاذ التفسير في جامعة أم درمان)

أ.د. محمد بن آيدن (أستاذ التفسير في جامعة قطر)

أ.د. محمد بن عبدالرحمن الشايع (أستاذ التفسير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ورئيس هيئة تحرير مجلة تبيان)

أ.د. محمد بن عبدالعزيز العواجي (أستاذ التفسير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية)

وقد أكرمني الله تعالى بمراجعة التفسير على أعماله ولله الفضل والمنّة، وشاركني في مراجعته فضيلة الأستاذ الدكتور حكمت بن بشير ياسين ، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الخراط، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي .

وفي المقام أقدم شكري الجزيل وعظيم التقدير للأساتذة المفسرين الكرام على ما بذلوه من جهد كريم وعمل نبيل جعله الله في موازين حسناتهم ورفعة لدرجاتهم .

كما أقدم الشكر والتقدير للمجلس العلمي بالمركز ، وأخصّ بالشكر فضيلة الأستاذ الدكتور حكمت بن بشير ياسين رئيس المجلس الذي بذل جهداً كبيراً في متابعته لمراحل تنفيذ هذا التفسير المبارك خطوة بخطوة حتى إتمامه فجزاه الله خير الجزاء .

والشكر موصول لأعضاء مجلس إدارة المركز على جهودهم المباركة في إدارة أعماله وتحقيق مصالحه وأخصّ بالشكر فضيلة الدكتور أحمد بن عبدالله سليماني نائب رئيس مجلس الإدارة .

وختاماً أرفع أسمى آيات الشكر وأعظم عبارات التقدير إلى مقام خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود وإلى ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود وإلى ولي ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود على ما يقدمونه من جهود عظيمة في خدمة القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة نشراً وتعليماً وحكماً وتسليماً، كما أرفع جزيل الشكر وأطيب التقدير إلى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود أمير منطقة المدينة المنورة ورئيس مجلس أمناء مؤسسة المدينة المنورة الخيرية لتنمية المجتمع على كريم رعايته ودعمه للمركز وبرامجه ، كما الشكر موصول لمجلس أمناء المؤسسة ولأمينها العام سعادة الدكتور بهجت بن محمود جنيد على تعاونهم ودعمهم المتواصل .

والله أسأل أن ينفع بهذا السفر الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د. عماد بن زهير حافظ

رئيس مجلس إدارة مركز تعظيم القرآن الكريم

والمشرف على تفسير المدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله، أنزل القرآن وعلَّم البيان، والصلاة والسلام على سيد المرسلين والمفسرين، وعلى من اهتدى بهديه وأخذ بحكمته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ الأُمم تتطلَّع إلى الرقيِّ بأحوالها، وتطوير إمكاناتها، وعلاج مشكلاتها، لتبلغ أعلى سُلَّم في الحضارة، ويطمح بعضها إلى التسابق المحموم من خلال تطوير العلوم، فنشأت بيوت الخبرة وحقول العقول لتجهيز المراكز العلمية المتفوقة، وقد بلغت بعض الدول قصب السبق في ذلك، ونالت القدح المعلَّى والكأس المحلَّى، فحصدت الكثير من الجوائز العالمية، وبَزَّت أقرانها، فتربَّعت عرش التقنية الحديثة، وخدمت البشرية بالاكتشافات الحديثة والتقنية المبتكرة، لكنها لم تأبه بالنكسات والنكبات التي تصيب البشرية، كما عجزت عن معالجة المشكلات الاجتماعية المعاصرة والصراعات القاهرة، ومواجهة التحديات المستقبلية بمختلف ألوانها وأسلحتها التي تهدد بلدانهم خاصة، والعالم عامة.

فهذا علم المستقبل يُنذر بوقائع مخيفة، وصراعات عنيفة تأكل الأخضر واليابس، وتبلع الغالب والمغلوب، وتشهد بذلك الكوارث النووية، وصناعة أسلحة الدمار الشامل، وانتشار الإشعاعات الفضائية، والتهاون في إجراء التجارب الكيميائية والنووية والبيولوجية، وزيادة تضخم أعداد الجريمة في العباد والبلاد[1]، وتصاعد نسبة التلوث البيئي والجنسي والفكري: أما التلوُّث البيئي فقد حصب الأرض والبحر والفضاء بالنفايات الكيميائية والنووية وبالإشعاعات الراديوية والنووية. وأما التلوث الجنسي فقد حصد أرواح الملايين من البشر، وحصر ملايين أخرى، فمنهم من يحتضر، ومنهم من ينتظر. وأما التلوث الفكري فقد حَجَّر العقول، وبَدَّد الحلول، وركب صهوة جياد صراع الحضارات حتى قتل عشرات الملايين، وشرَّد عشرات الملايين، وزرع الرعب والخوف في نفوس مئات الملايين، وبقي كثير من الناس

---

(١) ولهذا نرى المجتمعات التي استفادت من الهدي الرباني تكون فيها نسبة الجريمة أقل بكثير من الآخرين وعلى سبيل المثال المملكة العربية السعودية؛ فإن نسبة الجرائم فيها أقل بكثير من بقية الدول في العالم. ينظر كتابي: عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان ص٤٨٩.

مطالَبين بنظام سياسي دخيل، يموج بالاضطرابات السياسية والفوضى الاجتماعية، إذ يقسِّم المجتمع الواحد إلى كتل سياسية متنافرة وأحزاب متناحرة؛ لذا وقد تأثرت الأُمة بهذا الواقع الأليم الذي كاد يسيطر عليه قانون الغاب، بل مسّ الأُمة غبار ذلك القانون.

ويحاول نخبة من العقلاء والشرفاء والعلماء والخبراء أن يوقفوا هذا الطوفان، ويصححوا مسار الطغيان.

ولكن مهما طُرِحَ من نظريات بشرية وإصلاحات وَضْعية، فإنها لا ترقى في كل حال من الأحوال إلى كمال وجمال المنهج الرباني مهما غَيَّرت من قوانينها، ومهما بَدَّلت من دستورها وبنودها، لأنها منبثقة من علم إنسان لا يبلغ مثقال حبة من علم الخالق سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولما كان القرآن الكريم متضمناً وشاملاً لذلك المنهج الأصيل الذي له القدرة على إصلاح كل منهج دخيل، لأنه منهج حياة صالح لكل زمان ومكان، من أجل ذلك كان لزاماً على أرباب التفسير أن يقوموا بواجبهم، ويفسروا القرآن الكريم تفسيراً معاصراً تتجلى فيه الهداية الربانية والمنح الإلهية من خلال بيان مقاصده العالية ومعالمه الغالية، وأن يكون مواكباً للمستجدات العلمية مستحضراً الحاجات، مستوعباً الفوائد والعلوم التي تحتاج إليها الأُمة والبشرية؛ لفَهْمِ معالمه، وإدراك أهمية حكمه وأحكامه، والعمل بها تدريجياً حسب الطاقات والأولويات، ولتفقه الأُمة الأحكام الربانية، ولتجمعَ بين الاعتقاد النظري والعملي حتى تستأنف ارتقاءها الحضاري.

من هنا تتجلَّى أهمية تفسير القرآن الكريم بمنهج يراعي الواقع المعاصر، وأن يكون إخراجه بطريقة التفسير الإجمالي المختصر المحرر؛ ليخاطِبَ جميع طبقات المجتمع من الخبراء والعلماء والمثقفين وغيرهم، فهو تبصرة للمبتدئين، وتذكرة للمتبصرين، وتيسير فَهْمِ القرآن، وتدبره للعمل بأحكامه والارتقاء بالاستفادة من مقاصده.

من أجل ذلك كانت صياغة التفسير بمنهجية مبتكرة ذات رواية معتبرة ودراية محررة، بفوائد مثمرة، واستنباطات منيرة؛ تُبرز المزايا المعاصرة، وتحذر من الرزايا الخطيرة المدمرة، وذلك بالاعتماد على الروايات الصحيحة، والعبارة الفصيحة المستندة إلى الإعراب الراجح(١)، المتضمنة ضروب البلاغة، كأساليب المدح(٢)، والتعظيم والتفخيم(٣)، وأساليب الذمّ(٤)، والتوبيخ(٥)، والإنكار(٦)، وأصناف التأكيد من القسم(٧)، والعناية بإيراد وجوه الإعجاز العلمي ضمن الفوائد والاستنباطات، وتدوين ما جاد به القلم من البديع لمزيد من توضيح المعاني، وتجميل المباني، وإثبات علامات الترقيم التي تَفْصِلُ الأقوال في الحوار، وتؤكد أساليب الإنكار وبيان التعجب من الأحوال والأخبار، وقد روعي ضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

---

(١) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: إنَّ (ما) هنا موصولة وليست نافية، فيكون المعنى: يُعَلِّمون الناس السحر ويعلمون الذي أُنزل على الملكين هاروت وماروت في مدينة بابل التي لا تزال باقية في العراق، وهذان الملكان فضحا السحرة بأنهم كفرة، وأن السحر كفر، فلا يعلمان من أحد إلا بعد النصيحة، إذ يقولان: إنّا اختبار وابتلاء لتعليم السحر الذي هو كفر فلا تكفر.

(٢) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، هؤلاء أصحاب المنزلة العالية الذين اجتمعت فيهم هذه الأوصاف هم الذين على هدى عظيم وهو: دين الإسلام الذي أمر به الخالق سبحانه، وهؤلاء هم الفائزون بحياة طيبة في الدنيا، وجنّة عظيمة في الآخرة.

(٣) كما في سورة القدر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، إنّنا لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة – أنزلنا القرآن العظيم في ليلة مُباركة الشرف من شهر رمضان المُبارك.

(٤) كما في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فهؤلاء البعداء عن رحمة الله سبحانه من أهل النار ماكثين فيها أبداً.

(٥) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١]، يفضح الله المنافقين الذين يُظهرون الطاعة لرسول الله ﷺ.

(٦) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ينكر الله تعالى على الكفّار موبِّخاً لهم: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي أوجدكم من العدم، ثمَّ يميتكم بعد انقضاء آجالكم، ثم يعيدكم أحياء يوم البعث، ثمّ ترجعون لنيل الثواب أو العقاب؟!

(٧) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [سورة البقرة: ٩٢]، قسماً لقد جاءكم موسى عليه السلام بالمعجزات الواضحات.

وصُدِّر التفسير بذكر مكان النزول، ثم ذكر ما صَحَّ في فضائل السور إن وجد، ثم بيان مقاصد السورة[1]، ثم ذكر ما صَحَّ في أسباب النزول ليعين على فهم التفسير، ثم التفسير بالمنهج المذكور وختامه بذكر الفوائد العلمية والتربوية، والاستنباطات الفريدة، ليكون محاكياً العلوم المعاصرة للارتقاء بها بالتكميل والتجميل[2]؛ ليسهم في تحقيق متطلبات العصر في الاقتصاد المعرفي.

وتميَّز هذا التفسير بإضافات جديدة كالوقوف النبوية في غير رؤوس الآي[3]، والدراسات المستقبلية[4]، والاستنباطات الفلكية[5]، والفوائد العلمية الجديدة كالفوائد الطبية، والتربوية، والإعجاز العلمي، والإيجاز الفني بالإنجاز التقني من خلال الاستفادة من النسخة الالكترونية المرافقة للتفسير وتحتوي على ملاحق بيانية وفهارس فنية، وهي كما يلي:

١- فهرس الآيات.
٢- فهرس الأحاديث.
٣- فهرس الآثار.
٤- ملحق الصور والخرائط.
٥- ملحق مقاطع الفيديو.
٦- ملحق آيات علم المستقبل.
٧- ملحق بتراجم الأعلام المذكورين في التفسير.
٨- ملحق بكشاف الفوائد والاستنباطات.
٩- فهرس المصادر والمراجع.
١٠- فهرس المحتويات.

وأما النسخة الورقية من التفسير فيذكر في آخرها فقط فهرس المحتويات للاختصار، وما ورد من صور وخرائط فإن الإحالات إلى الملحق في أول ورود الآية ذات العلاقة بالصورة، وما ورد من آيات أخرى فيها علاقة بالصورة فلا يُذكر، خشية التكرار، وما رود من تفسير

---

(١) وقد فُصلت المقاصد في عدة فقرات لمعرفة المزيد عن غايات السورة وثمرة نتائجها.

(٢) ينظر محاضرتي بعنوان «الاستنباطات المبتكرة من قصة الإسراء والمعراج» في جامعة الملك عبد العزيز كلية الاقتصاد والإدارة في آخر العام الدراسي١٤٣١هـ ومحاضرتي بعنوان «استثمار الهدي النبوي في الارتقاء بالعلوم» في الجامعة الإسلامية ٢٠/ ٥/ ١٤٣٤هـ بمناسبة افتتاح معرض الكتاب الثلاثين.

(٣) ينظر على سبيل المثال: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥).

(٤) ينظر: ملحق آيات علم المستقبل في النسخة الالكترونية.

(٥) ينظر على سبيل المثال: تفسير سورة التوبة آية (٣٦).

طبي في الفوائد والاستنباطات فإنه بقلم سعادة الدكتور محمد جميل الحبال، وما حرره سعادته خاص بتفسير المدينة المنورة، وقد اختصر ليتناسب مع حجم الفوائد والاستنباطات، وما ورد من رمز حرف (ح) فهو إشارة إلى تعليقاتي.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل لرعاة هذا المشروع ذوي الأيادي البيضاء الذين قاموا بدفع جميع نفقات التفسير منذ البداية إلى الطباعة، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء وأجزل لهم المثوبة في الدارين.

كما أقدم الشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى سعادة الأستاذ الدكتور عماد بن زهير حافظ رئيس مجلس إدارة مركز تعظيم القرآن فقد بذل جهوداً كريمة في إشرافه على هذا التفسير منذ وضع الخطة إلى وضع فهارسه وقد واكب ذلك الإشراف المراجعة التي تميزت بالملحوظات السديدة والآراء الرشيدة التي أضفت على التفسير زيادة في البيان، والشكر موصول إلى جميع المشاركين في هذا التفسير وأخص الأساتذة الذين شاركوا في التفسير وصبروا على الالتزام بالمنهج المقرر فلهم فائق التقدير على جهودهم في صياغة التفسير والعناية بالتحرير، كما أشكر سعادة الأستاذ عبد الله الصميعي مدير عام دار الصميعي للنشر وأمين الجمعية العلمية السعودية للناشرين، الذي قام بنشر هذا التفسير.

والله تعالى ولي التوفيق.

بقلم:

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

النزول: مكية.

فضائل السورة:

هي أعظم سورة في القرآن؛ فعن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنت أصلِّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكَّرته، فقال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته. (صحيح البخاري ٨/ ٣٨١، برقم ٤٧٠٣ - التفسير - سورة الحج، باب فضل ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، ورقم ٥٠٠٦ - كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ. سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم، لم يُفْتَح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم. فسَلَّم وقال: أَبْشِرْ بنورَين أوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبي قبلُ: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيته. (صحيح مسلم - صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة برقم ٨٠٦).

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية، فقالت: إنَّ سيد الحي سليم، وإن نَفَرَنا غُيَّبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبِنُه برقية، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبناً، فلمّا رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأمِّ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي - أو نسأل - النبي ﷺ. فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: وما كان يدريه أنها رُقْية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم. (صحيح البخاري - فضائل القرآن - باب فضل الفاتحة برقم ٥٠٠٧).

والسليم: اللديغ. غُيَّب: جمع غائب. نأبنه: أي: ما كنَّا نعلم أنَّه يرقى. (كما في النهاية في غريب الحديث).

المقاصد:

١ - تقرير العبودية والربوبية لله تعالى.

٢ - الإيمان بأسماء الله الحسنى.

٣- الوعد بسعة رحمة الله تعالى، والوعيد من الحساب يوم القيامة.

٤ - الاعتقاد بالبعث للخلائق.

٥ - تحقيق معنى «لا إله إلا الله» في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٦ - طلب العون من الله تعالى.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١ - البسملة: أبدأ بذكر اسم الله المعبود بحق، المتصف بسعة رحمته للخلق جميعاً في الدنيا، وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

٢ - كل المحامد بالثناء والشكر والتحميد لله تعالى المعبود بحق، إذ هو خالق الخلائق أجمعين، وكل هذه المخلوقات بأنواعها وأصنافها تلهج بحمده في كل زمان ومكان، في الدنيا والآخرة، وفي السموات والأرض وما بينهما.

وبذلك ينبغي للمؤمن أن يستشعر أنَّ الكون كله بأشيائه وزمانه ومكانه يلهج بالحمد لله حتى ينسجم مع هذا الكون الذَّاكر، وكي يهتف معه بهذا الذِّكر العظيم الذي يحبه الله تعالى، إذ استهلَّ به القرآن العظيم، وبدأ به أعظم سورة في القرآن الكريم، فكان براعةً للاستهلال، وروعة في الخضوع والاستذلال، فهو حقيق بتلك المحامد كلها جميعاً؛ لأنه الخالق الذي سخَّر جميع هذا الكون للإنسان، وكل خلائق الكون تنعم ببركات الرحمات ليل نهار بالأرزاق والمصالح.

٣ - ومن صفاته العُلى سبحانه وتعالى: الرحمة، فالرحمن الذي يرحم جميع الخلائق، والرحيم الذي يرحم المؤمنين. والرحمة صفة عظيمة من صفات الله تعالى العُلى؛ إذ تدور في فلكها جميع الصفات، والصفات كلها رحمات متنوعات، ورحمته وسعت كل الأشياء جميعاً، ولله تعالى مئة رحمة. أنزل الله رحمة واحدة تتراحم فيها الخلائق في الدنيا، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة ليوم القيامة للتخفيف عن العباد حسب مشيئته سبحانه. وهذا التأخير لنزول بقية الرحمات من رحمته الواسعة.

٤ - ومن رحمته أيضاً أنه جعل يوم الجزاء على الأعمال؛ لينتصر للمظلوم، ويجازي العباد بالثواب أو العقاب، فهو يتصرَّف في هذا اليوم، فيغفر لِـمَنْ يشاء، ويعذب مَنْ يشاء بعدله وكرمه. وفي ذلك ترغيب في رحمته، وترهيب من يوم الجزاء.

٥ - وهذا الكمال في الحساب، والجلال في التدبير والأسباب، والجمال في التكريم للأحباب، يستحق إفراده وحده بالعبودية كلها له، فنستمدُّ منه العون فلا يعتمد إلا عليه، ولا يُستند إلا إليه، إذ هو مُدَبِّر أمور الخلائق. ومن ذلك التدبير والتكريم أنه عَلَّمَنا كيف نَخُصُّه بالعبادة؟ فنطيع أوامره سبحانه، وننزجر عن

نواهيه، ونطلب منه العون، وعَلَّمنا كيف يكون إخلاص العبادة له سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟

٦-٧- وبما أنَّ الدعاء وطلب الرجاء من أعظم سبل تحقيق العبودية، فقد جاء التوجيه أن نتوسَّل إليه سبحانه وحده، ونتضرع إليه وحده بطلب التوفيق والإرشاد إلى الطريق الصحيح والدين السميح، ألا وهو دين الإسلام للعمل بأحكامه وحِكَمِه. هذا الدين العظيم الذي دان به النبيُّون والصدِّيقون والشهداء، واطمأنَّت به قلوبهم، وقَرَّت به أعينهم، وارتقت به نفوسهم؛ لأنَّهم تذوَّقوا حلاوته، وعرفوا قيمة قيمه، وعلوَّ علومه، وسموَّ سنامه، وأدركوا خصائصه وميزاته عن الأديان الأخرى التي وقع فيها التحريف والتزييف، كما حصل في اليهود الَّذين غضب الله عليهم؛ بسبب شركهم بالله، وتحريفهم التوراة، وكما حصل للنصارى الذين ضَلُّوا الطريق الصحيح؛ بسبب شركهم وتحريفهم الإنجيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وفيها تأكيد الدعاء السابق، وطلب البراءة من الشرك والضلال والإضلال، وذلك بعد طلب التوفيق إلى تحقيق العبودية بالولاء لله، وأنبيائه كلهم أجمعين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بدأ الله تعالى القرآن العظيم بالبسملة، وفيه توجيه وإرشاد لبدء كل أمر بالبسملة.

٢- انتظمت السورة ثلاثة مقاصد تعليمية هي كليات الدين وغاياته؛ ففيها التربية على معرفة المعبود وتوحيده بأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والتربية على معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى عبادته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والتربية على معرفة الثمرة و الجزاء المترتب على سلوك الطريق أو مجانبته ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وسور القرآن وآياته كلها ترجع إلى هذه الكليات الثلاث.

٣- البداءة في التربية والتعليم بالكليات من أفضل الطرق التربوية التي تعين في تثبيت المعلومة وضبطها ومعرفة مآلها؛ لأنَّها تقوم على ربط الفروع بأصولها، والمسائل بأدلتها، والوسائل بغاياتها. ومعرفة ذلك من الفاتحة يفيد في تدبر القرآن وتبين مقاصده.

٤- يرشد مطلع السورة إلى الثناء على الله تعالى، والحمد له سبحانه.

٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى.

٦- ومن أسباب تحقيق الهداية: الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

٧- أهمية الدعاء في العبادة والتضرع إلى الله تعالى وحده.

٨- دين الإسلام منهج الحياة.

٩- التحذير من الشرك والتحريف.

١٠- النصيحة لليهود والنصارى بأن يصححوا منهجهم.

١١- سِرُّ تسميتها بالسبع المثاني أنَّ آياتها نُرَدِّدها في كل الصلوات، وتكرارها للتذكير بمعانيها واستحضارها، ولتجديد العهد مع الله تعالى.

١٢- تجيبُ السورةُ الكريمة عن الأسئلة الثلاثة: من أين، وإلى أين، وما طريق النجاة؟ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالذي خلقه، ودبَّر مصالحه ومعاشه في هذا الكون هو الله رب العالمين، وطريق النجاة هو إخلاص العبادة، والاستعانة بالله، وطلب الهداية منه.

١٣- حتى يلهجَ اللسانُ بالحمدِ، ويَنْبِضُ به القلبُ، لابُدَّ من تَذَكُّرِ نِعَمِ الله تعالى التي سَخَّرها للإنسان لاستحضارِها، واستشعارِ عظمةِ الخالقِ جلَّ وعلا، ورحمته التي وَسِعَتْ كل شيء ومعونته وهدايته لعباده.

١٤- تشير كلمة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ إلى ضرورة العمل والأخذ بالأسباب؛ لأنَّ الاستعانة هي طلب العون من الله تعالى على أداء عمل أو إتمامه.

١٥- حُسْنُ التأدُّبِ مع الله تعالى في الدعاء، من ذلك تمجيدُه تعالى وتعظيمُه وحمدُه بين يدي الدعاء.

١٦- الهداية والتوفيق من الله تعالى، وكما نستعين بالله تعالى في سائر أمورنا وجميع أحوالنا، كذلك نستهديه تعالى، ونسأله أن يثبِّتنا على طريق الهداية، ويزيدنا هدى على هدى، ويُجنبنا طرق الضلال.

١٧- الصراط المستقيم هو الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [التوبة:١٦١-١٦٣]، فقد ذكر الله ﷻ أن الصراط المستقيم هو دين إبراهيم، كما في الآية الأولى، ثمَّ بَيَّنَ أن هذا الدين هو الإسلام، كما في الآية الثانية، وقد ثبت هذا التفسير عن النواس بن سِمعان الأنصاري ﷺ عن رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً طويلاً والشاهد فيه: «والصراط: الإسلام».

١٨- أشكل على بعض المفسرين المعاصرين تفسير ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم اليهود، وتفسير ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ أنَّهم النصارى، حتى إنَّ بعضهم ترك هذا التفسير، علماً أن هذا التفسير مُجْمَعٌ عليه عند المفسرين من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر، ويتردد الإشكال على ألسنة بعض المسلمين وغير المسلمين من أنَّه كيف يُوصف اليهود والنصارى بذلك؟!

الجواب: هذا أسلوب تربوي وخطاب ربَّاني لعباده الذين أخطؤوا المنهج الصحيح، فإنَّ الله تعالى خالقهم وسيِّدهم، فهو سبحانه يخاطب عباده بما يشاء وكيف يشاء، فتارة يخاطبهم بأجمل نداء: يا بني إسرائيل، يا أهل الكتاب، وتارة يخاطبهم باليهود والنصارى، وتارة يخاطبهم بقوم موسى. وهذا التنوع في الأسلوب ليس فقط لليهود والنصارى، وإنَّما للبشرية جميعاً، فتارة يخاطبها بالإنسان، وتارة بالكفار والكفور، وهي من صيغ المبالغة في الكفر والجُحود لنِعَم الله تعالى، وهذا أشد ممَّا سبق. وكل هذا من رحمته بعباده؛ فهو يُوَبِّخهم حتى ينقذهم من العذاب والنَّكال، وهو مالك الملك، ورب العالمين، فله أن يستخدم ما يشاء، وكل ذلك في صالح البشرية، وهو غيور على عباده، رحيم بهم، غفور لِـمَنْ تاب وأناب، وعفو عن العقاب، وكريم في الثواب، فكل أسلوب من هذه الأساليب يُستخدم حسب المقام وحسب السياق، وكل ذلك إثارة وتنبيه لهم حتى يسلكوا المنهج الصحيح.

١٩ - وردت الكليات الثلاث في سورة الفاتحة على ترتيب بديع يدل على منهج القرآن في تربية النفوس، ومراعاة استعداداتها، وتهيئتها للتربية والتعليم، إذ بدأها بالغاية من تَعَلُّم القرآن وتدبُّره، وأتبعها ببيان وسائل تحقيق تلك الغاية، ثمَّ ختمها ببيان النتائج.

النزول: مدنية.

فضائل السورة:

عن أبي أُمامة الباهلي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوَين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غَيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافَّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة. فإن أَخْذَها بركة، وتَرْكها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَةُ»، وقال معاوية ﷺ: بلغني أنَّ البطلة السحرة.

(صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم ٨٠٤).

الزهراوان: المنيرتان. والغَيايتان: الغَيَاية: كلُّ شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه كالسَّحابة وغيرها.

و عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:«لا تجعلوا بيوتكم مقابر. إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة». (صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة، برقم٧٨٠).

وأخرج الشيخان بسنديهما عن أُسيد بن حضير ﷺ قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسَكَنَتْ، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ، فجالت الفرس، فانصرف. وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حَدَّث النبي ﷺ فقال: اقرأ يابن حضير، اقرأ يا بن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعتُ رأسي فانصرفت إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ماذا؟ قال: لا، قال: تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم.

(صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة، ٩/ ٩٣ برقم ٥٠١٨. وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، برقم ٧٩٦. واللفظ للبخاري). ومعنى جالت: دارت.

المقاصد:

١ - القرآن هداية للمؤمنين به.

٢- بيان صفات المتقين.

٣- توحيد العبودية باجتماع العبادة القلبية والبدنية.

٤- بيان ثمرة الإيمان.

٥- اجتماع أركان الإيمان الستة.

٦- تقرير الإيمان بالغيب.

٧- تقرير معجزات الأنبياء.

٨- تقرير الإيمان بالكتب السماوية.

٩- تقرير عقيدة البعث.

١٠- إقامة الحجج على صدق رسالة نبيِّنا محمد ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين.

١١- دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد.

١٢- بيان كثير من أحكام العبادات والمعاملات.

١٣- الوصية بالعفو والتسامح بين المسلمين ومع غيرهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١-٥- هذه الحروف المقطعة العربية التي تشير إلى الإعجاز البياني نزل بها هذا القرآن العظيم الذي لاشكَّ فيه، ومهما تخبَّط الجاحدون والمشركون فلا يفقهون بركاته، ولا يتذوقون حلاوته، أما الذين يحذرون ارتكاب الجرائم والمحرمات فإنَّهم يستلهمون هداياته بتصديقه وتعظيمه والعمل به، هؤلاء يتميَّزون بصفات عالية، فهم يُصَدِّقون بعظمة الخالق واليوم الآخر، ويحافظون على إقامة الصلاة باستيفاء أركانها وشروطها، ويتصدَّقون من أموالهم للمستحقين والمحتاجين، ويُصَدِّقون بهذا القرآن وبالوحي الذي نزل به جبريل على الصادق الأمين نبينا رسول الله ﷺ، ويُصَدِّقون بما أنزل من الكتب والصحف على الأنبياء والمرسلين، ويُصَدِّقون بيوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء. هؤلاء أصحاب الدرجات العالية والمقامات الغالية، هم الفائزون بالنعيم المقيم، والأجر الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسمية السورة بسورة البقرة إشارة إلى قصة البقرة وما فيها من تَعَنُّتِ اليهود، وتشددهم في الحوار.

٢- الإشارة إلى الإعجاز البياني للقرآن بذكر الحروف المقطَّعة. قال الشوكاني: «وقال قطرب، والفراء، وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها؛ ليكون عَجْزُهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم». (فتح القدير ١/ ١٦).

٣- بيان أنَّ من أخص خصائص التربية القرآنية وَصْلَ العلم النافع بالعمل الصالح، والقوة العلمية بالقوة العملية، فهديُ القرآن للمتقين في بيان الصراط المنجي، وفي حث السير عليه.

٤- وجوب التصديق بالقرآن الكريم.

٥- بيان أنَّ أهل الهداية والتقوى هم القدوة الصالحة في ميزان القرآن، وهم الذين جمعوا بين هداية البيان وهداية التوفيق ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

٦- وَصْفُ الهدى بأنّه من ربهم؛ للتنويه بذلك الهدى وتشريفه، مع الإشارة بأنهم محلُّ العناية من الله، وكذلك إضافة الرب إليهم إضافة تعظيم لشأن المضاف إليه بالقرينة.

٧- بيان أنَّ تربية الناس على سلوك الهداية تتمُّ عن طريق تنمية العقل، وتسديده بما يصلحه، وهو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ... وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وبحماية الجوارح وقيامها بما ينفعها وهو الإسلام ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وتغذية الروح بما يسمو بها وهو اليقين والإحسان ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٨- إنَّ التصديق بالغيب من عند الله تعالى هو إحاطة بعلوم المستقبل المذكورة في القرآن العظيم؛ إذ ورد فيه أمور مستقبلية في الدنيا والآخرة، وقد وقع بعضها، وسيقع بعضها الآخر حسب وقت وقوعه في الدُّنيا والآخرة.

٩- عظمة فَضْلِ الإيمان بالغيب، فقد روى أبو عبيدة بن الجراح ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أَحَدٌ خير منَّا؟ أَسْلَمْنا وجاهَدْنا معك، قال: «نعم، قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني». (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٨٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٦).

١٠-وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين ومعاندين وضالِّين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين، وكافرين - مصارحين وهم المعاندون - وضالِّين وهم المنافقون، وإجمالهم في الفاتحة، وتفصيلهم هنا، من بديع الأساليب القرآنية، وهو من باب الإجمال ثمَّ التفصيل.

١١-وجوب الصلاة والزكاة، واقتران الصلاة بالزكاة جمع بين العبادة البدنية والمالية.

١٢-وجوب الإيمان بالغيب.

١٣-وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

١٤-مَنْ طَبَعَ الله على قلبه فلا تنفع معه الهداية.

١٥-جاء التعبير بالمضارع كما وقع في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ ليشمل ذلك الذين أقاموا الصلاة فيما مضى، وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية، والذين هم بصدد إقامة الصلاة، وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاؤوا مِنْ بعدهم؛ إذ المضارع صالح لذلك كله. وقوله: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جيء بالمسند إليه مُقَدَّماً على المسند الفعلي لإفادة تقوية الخبر؛ إذ هو إيقان ثابت عندهم من قبل مجيء الإسلام على الإجمال.

١٦-أخرج ابن رسته في كتاب الإيمان بسنده الصحيح عن ابن مسعود قال: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٤٤٦، وصححه الحافظ ابن حجر ، تغليق التعليق ٢/ ٢٢، والعيني، عمدة القاري ١/ ١٣٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾

التفسير:

٦-٧- يخبر الله تعالى أن الذين كذَّبوا الله تعالى ورسوله ﷺ لا ينفعهم واعظ، ولا يردعهم رادع؛ لمكابرتهم وغباوتهم، وعُذْراً للنبي ﷺ في الحرص على إيمانهم، فهم مستمرون على كفرهم في الحالتين: في حالة وَعْظِهم ودعوتهم، وفي حالة تَرْكِهم؛ لأنَّ الله تعالى قد طبع على قلوبهم، فلا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ منها، فلا يدركون ما ينفعهم، وطُبِعَ على أسماعهم، فلا يسمعون ما يفيدهم، وجعل على أبصارهم غطاء يمنعهم من النظر الذي ينفعهم، وذلك عقوبتهم في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب شديد الألم.

٨-٩- وهذا الصنف من الناس هم المنافقون، كما سمّاهم الله تعالى في مطلع سورة المنافقون ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[النساء: ١٤٢]، وفي هذه الآيات يحذِّر الله من مَكْرِهم، فهم يقولون صَدَّقْنا بالله تعالى وبيوم القيامة، ولكن هذا الإيمان لم يتجاوز الأفواه ولم يدخل القلوب، فهم كاذبون وليسوا بمؤمنين. وهذا الكذب منهم تحايل على الله تعالى وعباده المؤمنين بإضمار كفرهم وإظهار الإيمان، وضرر ذلك يعود على أنفسهم، ومن شدة جهلهم أنهم لا يُحِسُّون بذلك.

١٠ - إنَّ سبب الغفلة عن هذا الظاهر كون آلة إدراكهم مريضة، شغلها المرض عن إدراك ما ينفعها، فهي لا تجنح إلا إلى ما يؤذيها. في قلوبهم شك ونفاق وحقد، وبسبب ذلك ابتلاهم بالمعاصي اللاحقة التي يستحقون عليها العقوبة، ولهم عذاب موجع بسبب كذبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من المنافقين في كل زمان؛ لأنَّ هذه الصفات ملازمة لهم، فهي علامات تدل على نفاقهم.

٢- التنفير من الاتصاف بخصال المنافقين.

٣- الإيمان لا يكفي فيه القول، بل لابُدَّ من تصديقه بالعمل.

٤- كذب المنافقين سبب في زيادة عذابهم.

٥- الكفر يُعمي ويُصِمُّ.

٦- إنباء عن أمر مستقبلي بأنَّ الكفار الذين طُبِعَ على قلوبهم لا يؤمنون.

٧- مصير الكفار الخلود في النار.

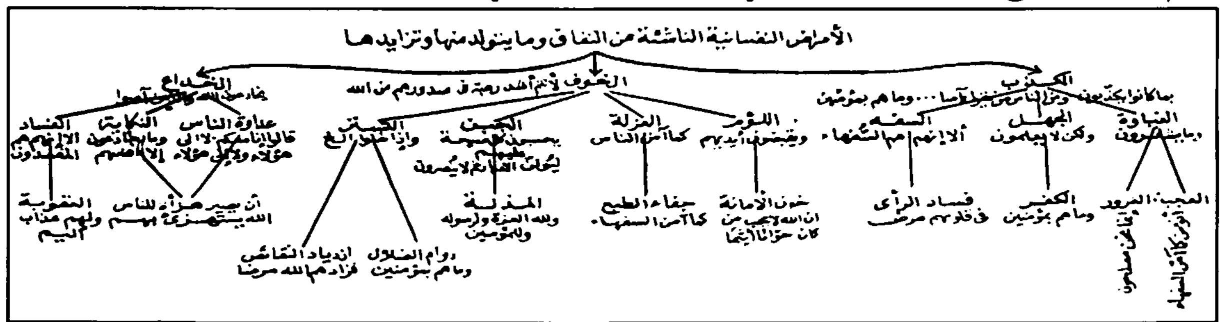
٨- في الآية (٨) إخبار عن كذب المنافقين في الماضي والمستقبل.

٩- في الآية (٩) إخبار عن خداع المنافقين في الماضي والمستقبل.

١٠- إنَّ ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية، وذكر الكافرين في آيتين فقط دليل على خطورة هذا الصنف، وفي الوقت نفسه بيان لجدلهم وما فيه من السخف، كما كشف عن الصفات التي تعتريهم من الخوف والضعف.

١١- ابتدأت قصتهم بالتنبيه على ضعف عقولهم وخفة حلومهم، من حيث إنَّ مَحَطَّ حالهم أنهم يُخادعون مَنْ لا يجوز عليه الخداع.

١٢- قال ابن عاشور: «﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وبيان لسببه في الواقع؛ ليدفع بذلك تَعَجُّبَ المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم». (التحرير والتنوير: ١/ ٢٥٠). ثم رسم مخططاً لأنواع الأمراض النفسية التي تنشأ من النفاق، وهي:



بصر الذي هو اسم لا مصدر. وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر؛ فإنَّ التقديم مؤذن بأهمية المقدَّم، وذلك لأنَّ السمع آلة لتلقي المعارف التي فيها كمال العقل.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

١١-١٢- ولما أخبر تعالى عن بواطنهم أتبعه من الظاهر ما يدلُّ عليه، فبيَّن أنهم إذا نُهُوا عن الفساد العام ادَّعوا الصلاح العام بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ وبناؤه للمجهول إشارة إلى عصيانهم لكل قائل كائناً مَنْ كان، فإذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض كفِعْل المعاصي أخذتهم العزة بالإثم، وادَّعوا بأنَّهم مصلحون. ثمَّ نبه الله تعالى على أنَّ هؤلاء هم المفسدون، فكشف كَذِبَهم، وبَيَّن أنه بسبب جهلهم لا يحسون بذلك. فردَّ عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذي قالوه؛ لأنَّ تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه، فيفيد قوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ قصر الإفساد عليهم.. فإنَّ أفعالهم التي يبتهجون بها، ويزعمونها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة آيلة إلى فساد عام لا محالة، إلا أنهم لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه، وللغشاوة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق.

١٣- وإذا نُصح هؤلاء المنافقون أن يُصَدِّقوا بالله تعالى، كما صَدَّق المؤمنون بمحمد ﷺ، رفضوا واستنكروا، فعزموا على التبرؤ من الإيمان على أبلغ وجه، إذ جعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيهاً بإيمان الجهلة؛ تشنيعاً له وتعريضاً بالمسلمين، فنفى عنهم العلم، فظنُّهم أنَّ ما هم عليه من الكفر رُشْدٌ، وأن ما تَقَلَّده المسلمون من الإيمان سفه، يدل على انتفاء العلم عنهم. وقالوا: أنصدق مثل تصديق الجهلة؟ فرَدَّ الله تعالى عليهم بأنهم هم الجهلة، ومن جهلهم أنهم لا يعلمون حقيقة حالهم ومآلهم.

١٤- ولَمَّا بَيَّن نفاقهم وعلته وسيرتهم عند دعاء الداعي إلى الحق بهذه الآيات، بَيَّنَ سيرتهم في أقوالهم مخادعين بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا ﴾ فهؤلاء المنافقون إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنَّهم على الإيمان، وإذا انفردوا بزعماء الكفر أقرُّوا بأنهم على ملة الكفر، وأن ما يقولونه للمؤمنين هو استخفاف وسخرية بهم.

وأمَّا قولهم لقومهم ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ بالتأكيد، فذلك لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر، وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم، فاحتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم، وكذلك قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾.

١٥-١٦- ذكر الله تعالى عقوبة استهزائهم: بأنَّه ﷻ يستهزئ بهم ويُمْهِلهم؛ ليزدادوا في فجورهم وكفرهم، وهم حائرون. هؤلاء المنافقون البعداء عن الحقِّ استحَبُّوا الضلالة على الهدى، ورغبوا في الضلالة رغبةَ المشتري في السلعة الخاسرة، فما كسبوا شيئاً طيباً، بل حرموا أنفسهم من الهداية، وسقطوا في الغواية.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١١-١٢) إخبار عن فساد المنافقين في الماضي والمستقبل.

٢- في الآية (١٣) إخبار عن استهزاء المنافقين في الماضي والمستقبل.

٣- في الآية (١٤) إخبار عن مكر المنافقين في الماضي والمستقبل.

٤- المنافقون مفسدون في الأرض.

٥- ولاء المنافقين لأسيادهم الطواغيت.

٦- استهزاء المنافقين بالمؤمنين، والجزاء من جنس العمل.

٧- إمهال الله تعالى المنافقين واستدراجهم بالنعم.

٨- خسارة المنافقين في الدنيا والآخرة.

٩- عدم استفادة المنافقين من النِّعم في سمعهم وعقلهم ولسانهم.

١٠- سخافة عقول المنافقين.

١١- المنافقون يتخبطون في حياتهم.

١٢- قال الحرالي: «ولما كان حال الطمأنينة بالإيمان إصلاحاً، وجب أن يكون اضطرابهم فيه إفساداً، ولاسيما مع ظنهم أنَّ كونهم مع هؤلاء تارة ومع هؤلاء تارة من الحكمة والإصلاح، وهو عين الإفساد؛ لأنَّه بالحقيقة مخالفة هؤلاء وهؤلاء، فقد أفسدوا طرفي الإيمان والكفر». (ينظر: نظم الدرر ١/ ٤٥).

١٣- أغلب المفسدين في الأرض يزعمون دائماً أنَّهم مصلحون.

١٤- وقد ذكر ابن عاشور مراتب فساد المنافقين:

أولها: إفسادهم أنفسهم بالإصرار على تلك الأدواء القلبية التي أشرنا إليها فيما مضى، وما يترتب عليها من المذام، ويتولد من المفاسد.

الثانية: إفسادهم الناس ببث تلك الصفات والدعوة إليها، وإفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساوئهم، كما قال نوح ؑ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

الثالث: إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع، كإلقاء النميمة والعداوة، وتسعير الفتن، وتأليب الأحزاب على المسلمين، وإحداث العقبات في طريق المصلحين. (التحرير والتنوير: ١/ ٢٨٠).

١٥-وقال أيضاً: «وجيء في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بإفادة التجدد من الفعل المضارع أي: تجدَّد إملاء الله لهم زماناً إلى أن يأخذهم العذاب.. وإنما أضاف الطغيان لضمير المنافقين ولم يقل: في الطغيان بتعريف الجنس، كما قال في سورة الأعراف (٢٠٢): ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ إشارة إلى تفظيع شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه، وأنهم اختصُّوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم. والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ بمعنى المعرَّف بلام الجنس، فيفيد التركيب قَصْرَ المسند على المسند إليه، وهو قَصْرٌ ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها، إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين». (التحرير والتنوير ١/ ٢٩٥، ٢٩٢، ٢٩٠).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٧-١٨- صفة هؤلاء المنافقين في إعلانهم الإسلامَ مثلُ صفة من كان في ليلة مظلمة، فاجتهد لطلب النور، فلما وجده أنار ما حوله، وانتفع به مدَّة وجيزة، ثم انطفأ، فصار في ظلام شديد لا يبصر، وهو مع ذلك أصمُّ لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لا يبصر، لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان.

١٩- كما شبَّه حالهم بتمثيل آخر لتقرير المعنى، وكشف جوانب أخرى، إذ مثَّل لأحوال المنافقين المترددة بين جواذب ودوافع حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال مطر من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه. (ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٣١٠).

فالمعنى صفتهم كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة فيها مطر كثيف ذو ظلمات من السحب، يصاحبه رعد مخيف، وبرق وصواعق حارقة، يضعون أصابعهم في آذانهم من الخوف، وكلما لمع البرق رأوا الطريق

فمشوا، فإذا ذهب البرق تحيروا، فكذلك المنافقون كلما تكلموا بكلمة الإخلاص أضاءت لهم فمشوا، وكلما شَكُّوا تحيروا، وتاهوا في الظلمات، فهم في خوف من المؤمنين؛ لأنهم يحسبون كل صيحة عليهم، والله تعالى قد أحاط بهم علماً، وسيجازيهم على أعمالهم.

٢٠ - وهذا البرق يقارب أن يأخذ أبصارهم من شدة اللمع، فهم حتى في أثناء الإضاءة كانوا في خطر، وهذه الإضاءة تسعفهم قليلاً في المشي، فإذا ذهب هذا البرق وقفوا حائرين، ولو أراد الله تعالى لَسَلَبَ سَمْعَهم بقاصف الرعد، وأخذ أبصارهم بخاطف البرق، ثم علل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال، وهو قادر على ذلك، وعلى كل شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ضرب الأمثال القرآنية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ من الأساليب التربوية النافعة في إقامة الحجة على الكافرين وفي تربية المؤمنين؛ لأنها تحقق مقصودين عظيمين، تقريب المعنى للمتدبِّر، والاعتبار بوجه الشبه بين المثل وما ضُرب له. وفي ذلك تربية للعقل على المقايسة بين المحسوسات والمجردات.

٢ - بيان اضطراب نفوس المنافقين.

٣ - تقرير عظمة قدرة الله تعالى.

٤ - لما فرغ من المثل كشف المراد بظلماتهم بأنها ما في آذانهم من الثقل المانع من الانتفاع بالسماع، وما في ألسنتهم من الخرس عن كلام الخير الناشئ عن عدم الإدراك الناشئ عن عمى البصائر، وفساد الضمائر والسرائر.

٥ - والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء، لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم، وهو هنا من قبيل التشبيه لا من الاستعارة؛ لأنَّ فيه ذِكْرَ المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، وهي لفظ ﴿مثل﴾، فجملة ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ واقعة من الجمل الماضية موقع البيان والتقرير، فكان بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال، فلذلك فصلت ولم تعطف.

٦ - وجمع الضمير في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ مع كونه راعى جانب الضمير المفرد في قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ مراعاة للحال المشبهة وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها، وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى المنافقين لا إلى ﴿ٱلَّذِى﴾.

٧- واختيار لفظ النور في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون الضوء ودون النار؛ لأنَّ لفظ النور أنسب، فالذي يشبه النار من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن.

٨- والرعد والبرق ينشآن في السحاب من أثر كهربائي عند التقاء الشحنات السالبة بالشحنات الموجبة، وينظر: صورة البرق في الملحق.

٩- ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ للتعليل أي: لأجل الصواعق؛ إذ الصواعق هي علة جعل الأصابع في الآذان، ولا ضير في كون الجعل لاتقائها.

١٠- قال ابن عاشور: «ومن بديع هذا التمثيل أنه مع ما احتوى عليه من مجموع الهيئة المركبة المشبهة بها حال المنافقين حين منازعة الجواذب لنفوسهم من جواذب الاهتداء وترقبها ما يفاض على نفوسهم من قبول دعوة النبي وإرشاده مع جواذب الإصرار على الكفر، وذَبِّهم عن أنفسهم أن يعلق بها ذلك الإرشاد حينما يخلون إلى شياطينهم. والتمثيل هنا لحال المنافقين حين حضورهم مجلس رسول الله ﷺ وسماعهم القرآن، وما فيه من آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التي مُثِّلت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ بنوع إطلاق وتقييد». (التحرير والتنوير ١/ ٣١٥، ٣١٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢١-٢٢- بعد بيان أقسام أحوال الناس الثلاث، يناديهم ﷻ ويأمرهم بإقرار العبودية له سبحانه؛ إذ هو الذي خلقهم ومَنْ قبلهم منذ عهد آدم ؑ. وتأكيد هذا الأمر العظيم للوصول إلى مقام المتقين الذين يخافون الله تعالى؛ لنيل الثواب الكريم والنجاة من العذاب الأليم. وهذا الخلق لآدم وذريته بعد أن خلق

السموات والأرض، فمهَّد الأرض سكناً بالأرزاق والنعم، وهيأ السماء سقفاً محفوظاً ورزقاً كريماً من المياه التي تخرج بها ثمرات الأرض ويرزق بها دوابَّها، فتزهو أنواع النبات أزواجاً، وترتع بها أصناف الحيوان أفواجاً.

وإذا كان الله تعالى هو رازق البشرية وجب عليهم إفراده وحده سبحانه بالشكر والعبادة؛ من أجل ذلك ينهى عباده عن الإشراك به باتخاذ المعبودات غيره، كصرف العبادة للبشر من الأنبياء والصالحين، وللحجر من القبور والأصنام، وللبقر من الأنعام، فكل ذلك فيه ارتكاب لأعظم الجرائم، ألا وهي جريمة الشرك، وأنتم ذوو علم بما تزعمون، فهم يدركون أن الله الخالق المنعم هو الذي يستحق العبادة وحده. وقد صحَّ عن ابن مسعود ﷺ أنه سأل النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك».

(صحيح البخاري: تفسير سورة البقرة، برقم ٤٤٧٧. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠ برقم ٨٦).

٢٣- ثمَّ يؤكد سبحانه أَمْرَ إفراد العبودية له، فيخاطب مشركي مكة الذين كذَّبوا الصادق المصدوق ﷺ، فيتحدَّاهم وفيهم أساطين البلاغة وأمراء البيان، إذا كانوا يشكُّون في صدق النبي ﷺ في نزول القرآن الكريم عليه، فليؤلفوا ويَصيغوا مثل هذا القرآن ولو سورة واحدة، بل فليستعينوا بآلهتهم المزعومة من دون الله تعالى لعمل ذلك إن كانوا صادقين، وهو مستحيل إذ يُبَلِّغهم سبحانه بالنتيجة بأنهم لم يقدروا على ذلك، ولن يقدروا مستقبلاً، مهما بذلوا من الجهد والكد، ثمَّ يحذِّرهم من العقاب على جرمهم الكُبَّار، إنه النار المركبة من حجارة الكبريت وأكوام اللحوم والشحوم من أجساد الكفار التي تسيل منها الدهون، فتُسَعَّر تلك النيران، وتتصاعد منها أعمدة الدخان.

٢٤-٢٥- وإذا كان هذا الإنذار للمكذبين والجاحدين بالله تعالى والآخرة، فإنَّ المؤمنين المصدقين بالله تعالى ورسوله ﷺ لهم البشرى، ولما ذكر المبشِّر أتبعه المبشَّر به فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: متعددة، ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يبشرهم بالبساتين المكتظة بالأشجار التي تجري تحتها الأنهار ذات الثمار التي تشبه ثمار الدنيا باللون والشكل، لكنها تختلف في الطعم والحجم. ومع هذا النعيم المقيم لهم ما يؤنسهم من الأزواج المطهرة من كل أذى ومستقذر، ولقد استجاب الرسول الكريم ﷺ لهذا الأمر وبشر الناس بالجنة وسعادة الدارَين، وكتب الترغيب حافلة بالبُشريات النبوية.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هو أول أمر في القرآن الكريم فيه الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده بأسلوب تربوي يعتمد على إيقاظ الفطرة بتذكيرها بخالقها ومربيها والمنعم عليها.

٢- في الآية (٢١) ربط العمل بالغايات القريبة والبعيدة، وهو أقوى ربط في التربية على الطاعات والثبات عليها؛ فأما الغايات القريبة فهي عبادة الله تعالى ومعرفته بأفعاله وأسمائه وصفاته، وأما الغايات البعيدة فهي نيل رضاه ورؤية وجهه سبحانه والفوز بالجنة.

٣- وفي هذه الآية أيضاً: استعمال الأساليب التربوية الثلاثة؛ الإقناع والتأثير وإيقاظ الفطرة، فالدعوة إلى التأمل في خلق الإنسان وفي الاعتبار في ما أنعم الله على عباده ممَّا في السموات والأرض إيقاظ للفطرة لتعود إلى ربها الحق، وفي إعلان التحدي لِـمَنْ يأتي بمثل القرآن إقناع للعقل باستحقاق الله لعبادته دون غيره، وفي تخويف الله عباده باتقاء النار. وكلما نوَّع المربي في الأساليب وعدَّدها كان ذلك أفضل في التأديب والتنشئة الطيبة.

٤- توحيد العبودية سبب للوصول إلى درجة التقوى للنجاة من العذاب ونيل الثواب.

٥- القرآن معجز؛ ولهذا تحدَّى الله تعالى المشركين أن يأتوا بأقصر سورة من القرآن كسورة الكوثر.

٦- النهي الشديد عن الشرك بالله تعالى.

٧- تعتبر الثمار كالأرحام الحاوية للأجنة أو البذور، فالثمرات أرحام النباتات والبذور أجنتها، والثمرات تحتوي على البذور الجديدة التي تضمن استمرار وجود النوع النباتي، ولولا فَضْلُ الله ثم الثمرات لانقرضت أنواع النباتات من الكون. (علم النبات في القرآن الكريم: السيد عبد الستار المليجي، ص ٣١).

٨- بشرى المؤمنين بجنات النعيم.

٩- وجوب عبادة الله وحده.

١٠- الأصل في الأشياء والنعم الإباحة إلا ما حرم الله تعالى.

١١- ورُتِّبت هذه النعم الدالة على الخالق، الداعية إلى شكره أحكمَ ترتيبٍ، فقد قدَّم الإنسان لأنَّه أعرف بنفسه والنعمة عليه أدعى إلى الشكر، وثَنَّى بمَنْ قبله لأنَّه أعرف بنوعه، وثَلَّث بالأرض؛ لأنَّها مسكنه الذي لابُدَّ له منه، وربَّع بالسماء لأنَّها سقفه، وخمَّس بالماء؛ لأنَّه كالأثر والمنفعة الخارجة منها وما يخرج بسببه من الرزق.

١٢- الترهيب من النار، فهي جاهزة لعقاب أهلها.

١٣- الزوجات في الجنة خالية من أيِّ قذارة.

١٤-اقتران ذكر السماء بالأرض تكرر كثيراً في القرآن إشارة إلى اشتراك السماء والأرض في الخلق، فهما كانتا متصلتين ثم فُصِلَتا كما في قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [التوبة: ٣٦].

وينظر المزيد في: سورة التوبة في الآية (٣٦).

١٥-وردت البشرى بعد ذكر جزاء الكفار؛ للدلالة على أن العمل يُجزى بمثله، وهذا غاية العدل الرباني.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

٢٦- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن الحسن بن أبي الربيع قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة قال: لما ذكر الله تبارك وتعالى العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بالُ العنكبوت والذباب يُذْكَران؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

ثم قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقتادة. والإسناد إلى قتادة حسن، وكون هذا السبب رُوي من طرق أخرى فإن هذه الطرق المرسلة يقوي بعضها بعضاً. (يُنظر: التفسير الصحيح ١/ ١٢٨).

التفسير:

إنَّ الله تعالى لا يخشى أن يُشبِّه شيئاً بشيء، ولو كان تشبيهاً بأصغر شيء كالبعوضة وما دونها، مما ضربه الله مثلاً لَعَجَزَ كل ما يُعبد من دون الله تعالى، فأما المؤمنون فيُصَدِّقون، ويعلمون حكمة الله تعالى في التشبيه بالصغير، وغيره من خلقه، وأما الكفار فيستنكرون مراد الله تعالى من ضرب المثل بهذه المخلوقات الصغيرة، ورَدَّ الله تعالى عليهم بأن المراد هو الاختبار؛ لذلك يَصْرِفُ الله تعالى بهذا المثل ناساً كثيرين عن الحق؛ لاستنكارهم له، واعتراضهم عليه، ويُوَفِّق به غيرهم إلى مزيد من الإيمان والهداية. والله تعالى لا يصرف عن الحق إلا الخارجين عن طاعته.

٢٧- ومن صفات هؤلاء الكفار: أنهم ينكثون عهد الله الذي أخذه عليهم بأن يؤمنوا به ويطيعوه، وأنهم يخالفون أوامره، ومنها: قَطْعُ الأرحام، ومقاطعة الرسول ﷺ، ونشر الفساد في الأرض. أولئك هم الذين حرموا أنفسهم من الحياة الطيبة في الدنيا، والجنَّة في الآخرة.

٢٨- ومن أجل ذلك الكفر أنكر الله تعالى على الكفَّار موبِّخاً لهم: كيف يقع منكم الجحود بالله الذي أوجدكم من العدم، ثمَّ يميتكم بعد انقضاء آجالكم، ثمَّ يعيدكم أحياء يوم البعث، ثمَّ ترجعون لنيل الثواب أو العقاب؟

٢٩- ومن نِعَمِ الله تعالى عليكم أيُّها الناس: أنَّه هو الذي خلق لأجلكم كلَّ ما في الأرض من النِّعم التي تنتفعون بها، ثم قصد إلى خلق السموات السبع، فأتمَّهنَّ على أحسن وجه، وهو قد أحاط بكل شيء علماً.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الإيمان بأي مثل يذكر في القرآن الكريم، وتقرير البعث.

٢- قال الحرالي: «ولما كان ضرب المثل متعلقاً بمثل وممثل كان الضرب واقعاً عليهما، فكان لذلك متعدياً إلى مفعولين: مثلاً ما وبعوضة». (ينظر: نظم الدرر: ١/ ٧٦).

٣- النص القرآني يفيد أن أنثى البعوض وحدها هي الناقلة للأمراض، ومن ثَمَّ كانت مناط التحدي. تعبير ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ يشمل المعنيين المتضادين معاً أي ما يفوقها ضآلة في الحجم حتى لا يُرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامة في البنيان. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٧٤-١٧٩).

٤- تحريم نقض المواثيق.

٥- تحريم قطيعة الأرحام.

٦- إثبات صفة الاستواء لله تعالى.

٧- نِعَمُ الله كثيرة عظيمة، ويجب أن تقابل بالشكر، وأعظم شكره عبادته وحده.

٨- إثبات صفة العلم لله تعالى، وأنه يعلم كل شيء، ولا غرابة فإنه خالق كل شيء، والإيمان بإثبات هذه الصفة العظيمة ترتقي بحياة المؤمن؛ لأنه يجب عليه أن يراعي ذلك في أقواله وأفعاله. وهذا من ثمرات الإيمان بهذه الصفة الكريمة، فعلى المؤمن الذي يثبت هذه الصفة أن يراقب الله تعالى في السرِّ والعلن، وفي القول والعمل.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٠- واذكر - أيُّها الرسول - للعباد حين قال ربُّك للملائكة عليهم السلام: إني خالق في الأرض قوماً يخلف بعضهم بعضاً لعمارتها. ثم سألتْ الملائكة الله تعالى عن الحكمة من خلق هؤلاء مع أنَّه فيهم مَنْ يفسد في الأرض بأنواع المعاصي، ويسفك الدماء بغير حق، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نَذْكُرُك، ونُعَظِّمك، ونُنَزِّهك عن كلِّ نقص. فأجابهم الله تعالى: بأنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة من الحكمة في خلق هذا الصنف.

٣١- ولما أعلم سبحانه الملائكة أنَّ الأمر على خلاف ما ظَنُّوا، شرع في إقامة الدليل عليه، فقال عاطفاً على قوله (قال): ﴿وَعَلَّمَ﴾ أي: لإقامة الدليل على ذلك. فعلَّم اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام أسماء الأشياء كلِّها، فعَلَّمه الاسم والمسمَّى، ثمَّ عرض المسمَّيات على الملائكة قائلاً لهم: أخبروني بأسماء هذه المسمَّيات، إن كنتم صادقين في أنَّكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم.

٣٢- أجابت الملائكة بكل أدب وتعظيم: إننا نُقَدِّسك، وننزِّهك من الاعتراض عليك، ليس لنا عِلْمٌ إلا ما علمتنا إياه، إنك أنت وحدك العليم بشؤون خلقك، الحكيم في أقوالك وأفعالك.

٣٣- حين ذلك أمر الله تعالى آدم أن يخبر الملائكة بأسماء هذه الأشياء التي لم تعرفها الملائكة، فلما أخبرهم آدم بها قال الله للملائكة: ألم أخبركم أني أعلم ما خَفِيَ عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تُظْهرونه وما تُخْفُونه؟!

٣٤- واذكر - أيُّها الرسول - للعباد كيف كرَّم الله تعالى آدم وفَضَّله؟ حين أمر الملائكة أن يسجدوا له تكريماً له، فأطاعوه جميعاً إلا إبليس امتنع عن السجود، وأظهر كبره، فصار من العاصين لأمر الله تعالى، وهذا الأمر بالسجود قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

الفوائد والاستنباطات:

١ - فَضْلُ آدم عليه السلام وذريته في جعله خليفة في الأرض.

٢ - عداوة إبليس لآدم عليه السلام وذريته منذ خلقه.

٣- بيان فضل العلم، ومكانة العلماء.

٤ - سؤال الملائكة لله تعالى سؤال استفهام، وليس سؤال اعتراض.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ يُستنبط منه أنه سبحانه خلق آدم، ثم عَلَّمه، وجاءت تسمية آدم من عند الله تعالى، فكما هو أول مخلوق من البشر فكذلك ترتيب اسمه بين الأسماء، إذ يتصدَّر الأسماء كلها دائماً في كل معجم وفي كل فهرس.

٦- صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً.. فكلُّ مَنْ يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يَزَلِ الخلق ينقص حتى الآن». (صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب خلق آدم، برقم ٣٣٢٦. وصحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٨٣ برقم ٢٨٤٠. واللفظ للبخاري).

٧- فَضْلُ آدم عليه السلام وشَرَفُه بما علَّمه الله تعالى.

٨- تقرير قدرة الله تعالى في تعليمه آدم أسماء الموجودات.

٩- السجود الذي أمر الله به الملائكة أن يسجدوا لآدم هو تكريمه طاعةً لله وامتثالاً لأمره.

١٠ - الإشارة إلى اعتقاد إبليس أنه أفضل من آدم.

١١ - الملائكة لا تعلم الغيب.

١٢ - جاءت تسمية آدم من عند الله تعالى، فكما هو أول مخلوق من البشر، وكذا ترتيب اسمه بين الأسماء يتصدَّر الأسماء دائماً في كل معجم وكل فهرس.

١٣ -قال الشيخ الشنقيطي عند الآية (٣٤) : «لم يبيِّن هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بَيَّنه في مواضع أخر كقوله:﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[الأعراف: ١٢]».

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩) ﴾

التفسير:

٣٥- وأكرم الله تعالى آدم بأن يسكن هو وزوجته حواء الجنة، وأن يتمتعا بثمارها هنيئاً واسعاً في أيِّ مكان يشاءان فيها، وألَّا يقربا الشجرة التي نُهيا عنها حتى لا يقعا في المعصية، فيكونا من المخالفين لأمر الله تعالى.

٣٦- فلمَّا رأى الشيطان ذلك التكريم قام يوسوس لهما حتى أكلا من الشجرة، فأوقعهما في المعصية، فتسبَّب في إخراجهما من الجنة، فأمر الله تعالى أن يهبطوا إلى الأرض، وأخبرهم بما سيقع بينهم من العداوة وكيد الشيطان لهم فيها، وجعل لهم في الأرض قراراً وأرزاقاً إلى وقت انتهاء الأجل.

٣٧- فتلقَّن آدمُ كلماتٍ ألهمه الله تعالى إياها توبة واستغفاراً، فتقبَّلَ منه، وغفر له. إنه تعالى هو التوَّاب على مَنْ تاب من عباده المذنبين، الرحيم بهم برحمته الواسعة.

٣٨- ثمَّ أمر الله تعالى بهبوطهم جميعاً من الجنَّة، وبَشَّرهم وذرياتهم المتعاقبة بأنَّه ستأتيهم الهداية إلى الحق، فمَنْ عَمِلَ بها لم يُصِبْه فزع ولا ندم ولا حسرة.

٣٩- والذين كذَّبوا بآيات الله وبراهينه فأولئك مصيرهم النار، يلازمونها ماكثين فيها، لا يخرجون منها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير خَلْقِ الله الجنة وأنها موجودة.

٢ - بدء خلق آدم وحواء في الجنة. وقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ يوحي أن حواء قد خُلِقَتْ. وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خَلْقِها، كما صح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «استوصُوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذَهَبْتَ تُقيمه كَسَرْتَه، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء». (فتح الباري - أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته برقم ٣٣٣١، وصحيح مسلم - الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ٦٠. واللفظ للبخاري. قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: قيل فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل: من ضلعه القصير).

٣- التحذير من إغواء إبليس وجنده.

٤- رحمة الله بعباده بقبول التوبة النصوح.

٥- شدة عداوة الشيطان لآدم عليه السلام.

٦- تقرير عاقبة المعصية التي أخرجت آدم من الجنة كما قال ﷻ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

٧- وجوب التوبة من الذنب الذي يرتكبه العبد.

٨- معصية الله والخروج على أمره سبب لشقاء الإنسان.

٩- قبول الله تعالى توبة التائب توبة نصوحاً.

١٠- عداوة الشيطان للإنسان عداوة قديمة؛ ولذا على المسلم ألَّا يستجيب لوساوسه، وأن يبتعدَ عن طريقه.

١١- علاج الوسوسة الاستعانة بالله، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

١٢- في الآية (٣٨) إخبار عن أمان المهتدين في الماضي والمستقبل.

١٣- الكلمات التي تَلَقَّاها من ربه هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] كما صحَّ عن قتادة فيما رواه عبد الرزاق عن معمر عنه. (التفسير ١/ ٣٥).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٠- يُنادي الله تعالى بني إسرائيل، وهم ذريَّة يعقوب عليه السلام - وهو نبي الله تعالى - أن اذكُروا نِعَمي الكثيرة عليكم، وأتمُّوا وصيتي لكم بأن تؤمنوا بالرسل وإقامة الشريعة، فإن قمتم بذلك فسأجازيكم بسعادة الدنيا والآخرة، وإياي وحدي فخافوني.

٤١- وآمنوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ موافقاً لما نزل من التوراة، ولا تكونوا من السباقين بالكفر به، ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي بالدنيا وشهواتها، وإياي وحدي فخافوني، فاعملوا بطاعتي، واتركوا معصيتي.

٤٢- ولا تخلطوا الحق من الله بالباطل من عندكم، ولا تُخفوا الحق، ومنه البشارة الواضحة في كتابكم ببعثة النبي ﷺ، وصفته، وأنتم تعلمون أنه نبي حق.

٤٣- وأقيموا الصلاة المفروضة على المسلمين، وأدُّوا الزكاة الواجبة للمستحقين، وصَلُّوا مع جماعة المسلمين، واركعوا معهم بصدق ويقين.

٤٤- كيف تأمرون الناس بالعمل الصالح، وتتركون أنفسكم يا أحبار اليهود، وأنتم تقرؤون التوراة التي تنهى عن ذلك؟! أفلا تدركون سوء عملكم؟

٤٥-٤٦- واطلبوا العون من الله تعالى بواسطة الصبر بأنواعه وبالصلاة، وإنَّ هذه الصلاة لَثقيلة إلا على الذين يخافون الله تعالى، الذين يوقنون أنَّهم سيلاقون الله تعالى بعد موتهم، وأنَّهم مبعوثون يوم القيامة للثواب والعقاب.

٤٧- يُنادي الله تعالى ذرية يعقوب عليه السلام: أن اذكُروا نِعَمي الكثيرة عليكم، ومنها: تفضيلكم على العالمين في زمانكم.

٤٨- واحذروا يوم القيامة، وهو يوم لا تُغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا يقبل الله شفاعةً في الكافرين، ولا تنفعهم الفدية، ولو كانت تساوي أموال الأرض جميعاً، ولا يستطيع أحد أن ينقذهم من عذاب نار جهنَّم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تذكير بني إسرائيل إكرامَ الله لهم.

٢- التحذير من خلط الحق بالباطل.

٣- إسرائيل هو يعقوب نبيُّ الله ﷺ، كما ثبت عن ابن مسعود ﷺ فيما رواه عبد بن حميد بسنده عنه، وحَسَّنه الحافظ ابن حجر. (فتح الباري ٦/ ٣٧٣).

٤- وجوب الوفاء بالعهد مع الله بطاعته، والعهد مع عباده في أمور دنياهم.

٥- تحريم كتمان الحق، كما قال ﷻ: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا تشديد في الإثم، وقال في كتمانه الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٦- فضيلة الاستعانة بالصبر، فقد أمر الله عباده أن يصبروا على ما يلاقونه في جهادهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة، كما أمرهم بذلك رسول الله ﷺ، فكان إذا نزل به أمرٌ فَزَعَ إلى الصلاة.

٧- فضل بني إسرائيل على أهل زمانهم.

٨- الصلاة تخفف وطأة المشاكل، كما ثبت عن النبي ﷺ عن حذيفة: كان إذا حَزَبَه أمرٌ صلى.
(أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ بالليل برقم١٣١٩، وحسَّنه الألباني، صحيح الجامع الصغير ٤/ ٢١٥).

٩- وجوب تقوى الله تعالى.

١٠- المؤمن الصادق هو الذي وافق قوله عمله، فلا يقول ما لا يفعل.

١١- من الكبائر أن يأمر الرجل بالمعروف ولا يقوم به، وأن ينهى عن المنكر ويأتيه، فقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أيْ فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». (صحيح البخاري- بدء الخلق، باب صفة النار برقم ٢٩٨٩. وصحيح مسلم- الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله برقم ٢٩٨٩. واللفظ للبخاري).

١٢- المراد بالتفضيل على العالمين أي: عالم أهل زمانهم، كما صحَّ عن قتادة فيما رواه عبدالرزاق عن معمر عنه. (التفسير ١/ ٣٥).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٤٩- يُذَكِّر الله تعالى ذريَّة يعقوب عليه السلام بنعمه الكثيرة عليهم، كما في الآيات الثلاث عشرة الآتية، وذلك حين أنقذ آباءهم من ظُلم فرعون وأعوانه الذين كانوا يذيقونهم أشد التعذيب، فهم يقتلون الذكور، ويتركون الإناث أحياء للخدمة والامتهان. وفي هذا العذاب المهين اختبار عظيم من خالقهم الحكيم.

٥٠- واذكروا حين شققنا لكم شمال البحر الأحمر حتى صار طريقاً يابساً؛ لتسيروا فيه، فتتخلصوا من الإبادة، واذكروا حين أغرقنا فرعون وأتباعه وأنتم ترونهم وهم يغرقون. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يُبيِّنْ هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بيَّنها في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٠ – ٦٤]». (أضواء البيان: ١/ ١٣٨).

٥١- واذكروا حين وعد الله تعالى موسى عليه السلام عند جبل الطور - يقع في صحراء سيناء شمال البحر الأحمر - بعد أربعين ليلة لإعطائه التوراة، فلما عاد وجدكم قد عبدتم العجل، وأنتم ظالمون لأنفسكم بهذا الشرك.

٥٢- ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد عبادتكم العجل؛ كي تشكروا الله تعالى بالقول والفعل.

٥٣- واذكروا حين أنزلنا على نبيّكم موسى عليه السلام التوراة التي يُفَرَّقُ بها بين الحقِّ والباطل؛ كي تسترشدوا بنوره وهديه.

٥٤- واذكروا حين قال موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل: إنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل، فتوبوا إلى خالقكم، بأن يقتل بعضكم بعضاً. وهذا خير لكم من عذاب النار في الآخرة، فأطعتم الأمر، فتقبَّل الله تعالى توبتكم. إنه تعالى كثير التوبة على عباده، واسع الرحمة بهم.

٥٥- واذكروا حين قلتم لنبيكم موسى: لن نُصَدِّقَك في دعوتك لنا إلى غاية أن نرى الله علانية. ففاجأناكم بنار محرقة من السماء رأيتموها عياناً، فأهلكتكم بغتة.

٥٦- ثمَّ أحييناكم - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - من بعد موتكم بالنار المحرقة؛ كي تشكروا الله تعالى بالقول والفعل.

٥٧- وجعلنا السحاب مظللاً عليكم؛ ليقيكم حرَّ الشمس، وأنزلنا عليكم طعاماً حلواً، وطيراً شهياً، كُلوا مما لذَّ من الطعام الحلال الذي رزقناكم إياه، وما ظلمونا بجحودهم النعم، وإنما ظلموا أنفسهم؛ لأنَّ ضرر العصيان واقع عليهم بالنِّقم.

٥٨- يُذَكِّر الله تعالى ذريَّة يعقوب عليه السلام حين قال لآبائهم: ادخلوا بيت المقدس، فكلوا وتمتعوا مما فيها من النِّعم كما تشاؤون عيشاً واسعاً، وادخلوا باب بيت المقدس مُنْحَنين متذلِّلين لله تعالى، واسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، فمَنْ يفعل ذلك نستجب له، وسنزيد أرباب الإحسان ثواباً وتكريماً.

٥٩- فغيَّر المعتدون منهم أمر الله تعالى، إذ دخلوا زحفاً على مؤخِّرة أجسامهم دون انحناء، ولم يسألوا الله تعالى المغفرة، وإنما قالوا: (حَبَّة في شَعْرة) استهزاءً بأمر الله تعالى، فكان الجزاء أن نزَّل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى، وهذا العذاب هو الطاعون.

(كما في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، برقم ٣٤٧٣).

الفوائد والاستنباطات:

١ - الرعاية الربانية لعباده المؤمنين.

٢- تقرير الإيمان بالتوراة التي أعطيت موسى عليه السلام.

٣- تقرير عقوبة العصاة والظالمين، وقبول توبة التائبين.

٤- نَجَّى الله بني إسرائيل في يوم عاشوراء، كما صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نَجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه. (صحيح البخاري- الصيام، باب صيام يوم عاشوراء برقم٢٠٠٤. وصحيح مسلم- الصيام، باب أي يوم يصام عاشوراء. واللفظ للبخاري).

٥- تحريم الشرك بالله تعالى وشدة عقوبته.

٦- الطاعة سبب للمغفرة وزيادة الحسنات.

٧- معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر، ونجاته مع قومه.

٨- بَيَّنَ النبي ﷺ مخالفة بني إسرائيل القولية والفعلية عند دخولهم الباب، فقد صحَّ عنه أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حِطَّة حبة في شعرة. (صحيح البخاري- تفسير سورة البقرة برقم ٤٤٧٩).

٩- ينظر: خارطة صحراء سيناء؛ لبيان مكان الغرق والنجاة في الملحق.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٠- واذكروا حين دعا موسى عليه السلام الله تعالى أن يسقي قومه من بني إسرائيل حينما احتاجوا إلى الماء، واشتدَّ بهم العطش في أثناء التيه في صحراء سيناء - الواقعة شمال البحر الأحمر - فاستجبنا له، إذ قلنا له: اضرب بعصاك الحجر ففعل، فأخرج الله تعالى من الماء اثنتي عشرة عيناً بعدد قبائلهم المعروفة بالأسباط، فعرفت كل قبيلة العين التي تشرب منها، وأباح لهم الطعام والشراب، ونهاهم عن السعي بالفساد والخراب.

٦١- واذكروا - يا ذرية يعقوب عليه السلام - حين بطر أجدادكم، إذ لم يصبروا على قلة أنواع النعم التي كانت تتنزل عليهم من دون تعب ولا نَصَبٍ، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى بأن يرزقهم مما يخرج من نبات الأرض: من الخضر والبقول والقثاء والحنطة والعدس والبصل، فتعجَّب موسى عليه السلام من ذلك واستنكر عليهم، كيف تُفَضِّلون هذه الأصناف على تلك النعم التي تفضَّل الله بها عليكم؟! وأن هذه الأصناف التي طلبتموها متوافرة في كل مدينة، فإذا دخلتم أي بلدة فيها زراعة فستجدون مُرادكم. وبسبب هذا البطر والعناد عُوقبوا بالذِّلة، وفقر النفوس، وبغضب من الله تعالى؛ لأنهم يُكَذِّبون بآيات الله تعالى، ويقتلون الأنبياء ظلماً، وذلك بسبب التمرد على أوامر الله تعالى، والاعتداء على الحقوق.

٦٢- إنَّ الذين صَدَّقوا الله ورسوله، واليهود والنصارى والذين خرجوا عن دين اليهود والنصارى هؤلاء إذا صَدَّقوا بالله واليوم الآخر، وقاموا بالأعمال الصالحة، فلهم ثواب إيمانهم وعملهم، ولا يعتريهم خوف من عقاب. وهؤلاء الذين كانوا قبل البعثة النبوية، أما ما بعد البعثة فإنهم مأمورون بأن يؤمنوا بالنبي ﷺ.

٦٣- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خيانة اليهود في نَقْضهم للعهود، وتَعَنُّتهم اللدود، ومكرهم بأولياء الله، وتحريفهم لكلام الله، كما في الآيات الثماني عشرة الآتية: واذكروا ياذريّة يعقوب حين أخذنا عليكم العهد المغلظ زمن موسى، واقتلعنا جبل الطور، وجعلناه فوقكم كالظلة تهديداً وتخويفاً؛ لتعملوا بما في التوراة بكل هِمَّةٍ وامتثال، ولتقرؤوا ما فيها، كي تَصُونوا أنفسكم من العقاب، وتفوزوا بالثواب.

٦٤- ثم إنكم أعرضتم بعد ذلك العهد والتهديد، فلولا تدارُكُكم بلطف الله تعالى، وتأخيره العذاب عنكم، لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٦١) إخبار عن ذِلَّة اليهود في الماضي والمستقبل ومَسْكَنَتِهم، ومن هذه الأدلة حرصهم الشديد على الحياة الدنيا.

٢- في الآية (٦٢) إخبار عن أمر مستقبلي، وبشرى لجميع الأديان في المستقبل إذا آمنوا، فلهم أجرهم عند الله تعالى.

٣- العقوبة في الدنيا موعظة للأُمم.

٤- استجابة الله تعالى لموسى عليه السلام.

٥- التحذير من مؤامرات الاعتداء من اليهود.

٦- عدم انتفاع اليهود بالمعجزات والتهديدات.

٧- عقوبة المسخ إلى قردة على الحقيقة وليس على المجاز، وهو المسخ الذي أخبر به النبي ﷺ. وفيه الرد على نظرية دارون أن أصل الإنسان قرد.

٨- ينظر: خريطة سيناء؛ لبيان مدينة إيلات كما في الملحق.

٩- الآية (٦٢) منسوخة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقد ورد نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الطبري وابن أبي حاتم عنه بسند ثابت. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ١٦٩).

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- قسماً لقد علمتم جريمة أسلافكم في مدينة (إيلات) - وتقع شمال البحر الأحمر في خليج العقبة- هؤلاء الذين تجاوزوا أمر الله تعالى حين نهاهم عن صيد السمك يوم السبت، لكنهم خالفوا، فعاقبهم بالمسخ في الدنيا إلى قردة أَذِلَّة. وهذا المسخ حقيقة لا مجاز.

٦٦- فجعلنا عقوبة المسخ في مدينة (إيلات) عبرة لِـمَنْ عاصرهم، ولِـمَنْ يأتي بعدهم، وتذكرة للذين يخافون العقاب، ويرجون من الله الثواب.

٦٧- واذكروا حين قال موسى لقومه من بني إسرائيل: إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة؛ وذلك لكشف معرفة القاتل الذي قتل رجلاً منهم، إذ طلب منهم أن يذبحوا أيَّ بقرة، ولكنهم تَشَدَّدُوا واستنكروا على نبيهم موسى مستكبرين: أتسخر منا يا موسى؟ فرَدَّ عليهم قائلاً: أعتصم وأستجير بالله أن أكون من السفهاء الجهلة الذين يستهزئون بعباده.

٦٨- لكنهم كَرَّروا تعنُّتهم، فقالوا: اسأل ربك أن يبيِّن لنا صفة تلك البقرة، فأجابهم بأَنَّ الله تعالى أخبرني بأنها ليست مُسِنَّة، ولا صغيرة، بل وسط بينهما، فنفِّذوا ذلك الأمر.

٦٩- ثم تمادَوا في تَعَنُّتهم، فقالوا: اسأل ربك أن يبيِّن لنا لونها، فأجابهم بأَنَّها بقرة صفراء شديدة الصفرة تبهج الناظر إليها، لصفاء لونها وحسنه.

٧٠- ثم لَـجُّوا في تشددهم، فطلبوا من موسى أن يسأل الله ليبيِّن لهم صفات أخرى؛ لأنَّ جنس البقر تشابه عليهم، وأنهم سيهتدون إلى معرفة البقرة بمشيئة الله تعالى.

٧١- فأجابهم موسى بأن الله تعالى يقول لكم: إنها بقرة لم يُذِلَّها العمل، ولا تُستخدم في سقي الزرع كالدواب النواضح المستعملة لإخراج المياه من الآبار، وسليمة من العيوب، لا لون فيها يخالف سائر جسدها. قالوا: الآن جئت بالبيان الواضح. فبحثوا عن بقرة فذبحوها، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لندرة وجود مثل هذه البقرة، وخوفاً من الفضيحة بكشف القاتل.

٧٢- واذكروا حين قتل أحدكم رجلاً منكم فاختلفتم فيمَنْ هو القاتل؟ والله تعالى مُظْهِرٌ ما تُخفون من أمر القتل.

٧٣- فأمرنا أن يُضرب القتيل بأحد أعضاء البقرة المذبوحة، فضربوه فأحياه الله، وأخبر بقاتله، وهكذا يحيي الله الموتى بقدرته، ويُريكم علاماته الدالة على كمال قدرته؛ كي تتفكروا بعقولكم، وتُدْرِكوا قدرة الله على البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من جرائم اليهود.

٢- تشديد اليهود سبب في تشديد الله عليهم.

٣- تقديم السؤالات على بيان سبب ذبح البقرة هو تأكيدٌ لتَشَدُّد اليهود، وتَعَنُّتِهم.

٤- سوء أدب اليهود مع رسول الله موسى ﷺ بقوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

٥- فضح اليهود في دسائس القتل.

٦- الإيمان بالبعث بأن الله تعالى يحيي الموتى.

٧- قال الشيخ الشنقيطي في قصة أهل السبت: «أجملَ قصتهم هنا وفصَّلها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥]».

٨- ينظر: خارطة موقع مدينة إيلات في الملحق.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٤- وبعد رؤية هذه الآيات الواضحات لم تُذْعنوا ولم تستجيبوا، مما أدَّى إلى قسوة قلوبكم، إذ لم تؤثر فيها الموعظة، فهذه القلوب لم تَلِنْ، ولن تخشع، فهي مثل الصخرة، بل هي أشد قسوة منها؛ لأن الصخور تتأثر، وبعضها يخرج منه المياه الكثيرة فتجري أنهاراً، وبعضها يتصدَّع فتخرج منه العيون، وبعضها يهوي من أعالي الجبال خوفاً من الله تعالى، وليس الله بغافل عما تعملون، بل هو عالم به.

٧٥- أفترجُون - أيُّها المؤمنون - أن يُصَدِّقكم اليهود، ويَدْخُلوا في دينكم؟ وثمة طائفة من أحبارهم كانوا يسمعون كلام الله في التوراة وما فيها من الأحكام، ثمَّ يتعمَّدون تغييره من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنَّهم يرتكبون الإجرام بتحريف الكلام.

٧٦- وإذا لَقِيَ منافقو اليهود الذين صَدَّقوا بالله ورسوله قالوا: صَدَّقْنا أن محمداً رسول الله، وإذا انفرد بعضهم ببعض قالوا عاتبين ومستنكرين عليهم: أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ؛ لتكون الحجة للمؤمنين عليكم يوم القيامة؟ أفليس لكم عقول تمنعكم من ذلك الحديث، وترفع عنكم الملامة؟!

٧٧- أولا يعلم هؤلاء اليهود الضالُّون أنَّ الله تعالى يعلم ما يخفون من الكفر، وما يظهرون من الإيمان المكذوب؟

٧٨- ومن هؤلاء اليهود طائفة من الجهلة العوامِّ الذين لا يعلمون القراءة والكتابة، ولا يعرفون من التوراة سوى سماع الأكاذيب والظنون الفاسدة.

٧٩- يُهَدِّد الله تعالى، ويتوعَّد بالهلاك لهؤلاء الذين يحرِّفون التوراة، ويزعمون أنَّها منزَّلة من عند الله تعالى؛ لينالوا به عرض الدنيا. وهذا الوعيد بالهلاك بسبب تحريفهم التوراة، ويُؤكِّد ذلك التهديد؛ بسبب ما يجمعون من المال الحرام.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير شدة قسوة قلوب اليهود.

٢- الحجر الرملي هو الحجر الوحيد الذي تتوافر فيه شروط ثلاثة (يسمح للمياه أن تتحرك بداخله بسهولة ويسر - يسمح بتخزين كميات هائلة من المياه في جوف الأرض - تخرج المياه منه عذبة صالحة للشرب مكونة عيوناً عذبة). ويعتبر الحجر الجيري أكثر الصخور امتلاءً بالشقوق في العالم؛ لأنَّه الأقل قدرة على امتصاص الماء؛ لضيق المسام بين الحبيبات. (أسس علم الجيولوجيا: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٢٥).

٣- عِظَمُ خطورة تغيير أحكام الله تعالى.

٤- فَضْحُ مؤامرات اليهود والتحذير من مكايدهم.

٥- شدة عقوبة الذين يتلاعبون بأحكام الله تعالى.

٦- فَضْحُ اليهود لخداعهم باستخدام منهج المنافقين.

٧- ينظر: صورة الأنهار التي تتفجر من الحجارة، كما في الملحق.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ ۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- وقالت طائفة مغرورة من اليهود للنبي ﷺ: لن ندخل النار إلا أياماً قلائل. فرَدَّ الله تعالى عليهم بأن يجيبهم النبيُّ ﷺ منكراً عليهم، ومبطلاً دعواهم: هل أعطاكم الله الميثاق بهذا؟ فإن الله لا يُخلف العهد، بل إنكم تفترون على الله الكذب.

٨١- ليس الأمر كما زعمتم، بل الحقُّ حكم الله تعالى: أنَّ مَنْ اقترف خطيئة، وتمادى في الوقوع في الآثام، كالشرك بالله، ولم يَتُبْ، فهؤلاء البعداء عن رحمة الله سبحانه من أهل النار ماكثون فيها أبداً.

٨٢- وأمَّا الذين صَدَّقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، وعملوا بذلك فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية أهل الجنَّة، هم فيها ماكثون، لا يخرجون منها أبداً.

٨٣- واذكروا يا ذريَّة يعقوب عليه السلام - لِما لنا من العظمة - حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة، بأن تُوَحِّدوا الله سبحانه، وتُخْلِصُوا له العبادة، وأن تُحْسِنُوا بالوالدين إحساناً بالقول والفعل، وأن تُحْسِنُوا بأصحاب القرابة، والأولاد الذين فقدوا آباءهم ولم يبلغوا الحلم، وبالمساكين الذين أسكنتهم الحاجة، ولا يملكون ما يغنيهم، وأن تقولوا للناس أطيب الكلام، وتُؤَدُّوا فرض الصلاة في وقتها والزكاة لمستحقيها، ثمَّ أعرضتم ورفضتم ذلك الميثاق إلا نفراً قليلاً أوفَوا به، وأنتم مستمرون في إعراضكم.

٨٤- واذكروا حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة ألَّا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يعتدي بعضكم على بعض بالطرد من داره، والإجلاء عن الأوطان، ثم اعترفتم بذلك الميثاق وأنتم تشهدون بلُزومِه وصحته.

٨٥- ثمَّ أنتم هؤلاء اليهود المعاصرون للعهد النبوي تنقضون ذلك الميثاق، فيقتل بعضكم بعضاً، ويطرد بعضكم بعضاً، متعاونين في ذلك مع غيركم بالبغي والظلم، وإذا وقع أحدهم في الأسر، وأراد أن يفدي نفسه بمال وافقتم على ذلك حسب حكم التوراة كما تزعمون، أفتُصَدِّقون وتعملون ببعض أحكام التوراة وتكذِّبون ببعض؟ ما أقبح هذا الفعلَ، فليس عقوبة مَنْ يفعل ذلك منكم إلا ذُلَّاً وهواناً في الدنيا، وفي يوم القيامةِ يُلاقون أشد العذاب الموجع، وليس الله بغافل عن أفعالكم وجرائمكم، وسيحاسبكم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير المواثيق التي أخذت على بني إسرائيل ومخالفتهم لها.

٢ - لا يتحقق الإيمان إلا بأخذ كل ما جاء من عند الله.

٣ - التحذير من اليهود بأنَّ سفك الدماء والتهجير من شيمهم فيما بينهم، فكيف يكون المصير مع غيرهم؟

٤ - التحذير مِنْ نَقْضِ اليهود للمواثيق؛ لأنَّهم نقضوا المواثيق الربانية، فمِنْ بابِ أَوْلَى نقض مواثيق الآخرين.

٥ - وجوب الإيمان بكلِّ ما جاء من عند الله تعالى من غير تفريق.

٦ - ثبوت العقاب لِـمَنْ يؤمن ببعض ما جاء من عند الله، ويكفر ببعضها الآخر.

٧ - المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل كلها أحكام ترتقي بالمجتمع، وتحقق له الأمن، ولكنهم تركوها.

٨ - اتفاق الأديان في التوحيد والأحكام.

٩ - وجوب رعاية حقوق الخلق وحسن التعامل معهم بعد حَقِّ الله تعالى.

١٠ - التنبيه على عِظَمِ جُرْمِ مَنْ قال على الله تعالى بغير علم، والتحذير منه، وأنَّه مسلك من مسالك اليهود وطباعهم المنحرفة.

١١ - عدل الله تعالى في جزائه على خلقه، وإحسانه على عباده المؤمنين.

١٢ - وجوب مراقبة الله تعالى في السرِّ والعلن، إذ هو سبحانه مُطَّلع على أعمال العباد غير غافل عنه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

٨٦- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة ﷺ: يامعشر يهود، اتقوا الله وأسْلِمُوا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال سلام ابن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وماهو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

التفسير:

هؤلاء البعداء عن الحقِّ من اليهود الذين استحَبُّوا عَرَضَ الدنيا الفانية على نعيم الآخرة الباقية، فلا يفتَّر عنهم عذاب جهنم، وليس لهم ناصر ينصرهم من ذلك.

٨٧- وقسماً لقد أعطينا موسى ﵇ التوراة، وبعثنا بعد ذلك جمعاً من الرسل، وأعطينا عيسى بن مريم المعجزات الباهرات، وعَزَّزناه وقَوّيناه بجبريل ﵇، ثمَّ يُوَبِّخ الله تعالى المستكبرين والقتلة من اليهود: أفكلَّما جاءكم رسول من عند الله يخالف شهواتكم ومعاصيكم استعليتم عليه، فطائفة منهم كذَّبتموهم، وطائفة قتلتموهم؟

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن مسعود ﷺ: «روح القدس جبريل».

٨٨- ولمَّا دعا النبي ﷺ اليهود إلى الإسلام رفضوا، وصَرَّحوا أنَّ قلوبهم لا تفقه؛ لأنها مغلقة ومغطاة تمنعهم من الاستجابة لدعوته. فرَدَّ عليهم الله تعالى: بأنَّ الله طردهم وأبعدهم من رحمته؛ بسبب تكذيبهم النبي ﷺ، فلا يؤمن منهم إلا القليل، أو يؤمنون قليلاً ببعض الكتاب.

٨٩- وحينما جاءهم النبي ﷺ بالقرآن من عند الله موافقاً لما معهم من التوراة قبل تحريفها، وكانوا قبل بعثة النبي ﷺ يستنصرون به على أعدائهم من المشركين، فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ جحدوا به وكذبوه، وبسبب ذلك استحقوا الطَّرد من رحمة الله تعالى.

٩٠- يذم الله تعالى كفرة اليهود الذين استحبوا لأنفسهم الباطل، ورَضُوا به، بتكذيبهم القرآن العظيم حسداً للنبي ﷺ والمؤمنين على نعمة إنزال القرآن الكريم، فاستحقوا العقوبة بغضب من الله تعالى يتلوه غضب؛ لكثرة جرائمهم، وللمكذبين عذاب أليم يُذِلُّهم.

٩١- وإذا دُعِيَ هؤلاء اليهود إلى الإيمان بالله تعالى، فإنَّهم يرفضون، ويزعمون أنهم يصدقون بالتوراة، ويكذِّبون بما أُنزل من الكتب بعد نزول التوراة، ولقد كَذَبوا على أنفسهم؛ لأنَّ ما نزل من القرآن العظيم حق موافق ومؤيِّد لما في التوراة قبل تحريفها، ويردُّ الله تعالى عليهم بأمر النبي ﷺ أن يستنكر عليهم بقوله: إذا كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم، فلماذا تقتلون أنبياءكم من قبل؟!

الفوائد والاستنباطات:

١- اليهود يعلمون رسالة رسول الله ﷺ.

٢- خسارة اليهود في الآخرة.

٣- قال الشيخ الشنقيطي في بيان البينات: «لم يبيِّنْ هنا ما هذه البينات؟ ولكنه بَيَّنها في مواضع أُخَرَ كقوله: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾» [آل عمران: ٤٩].

٤- ينظر: صورة شجرة المرسلين؛ لبيان الرسل من بعد موسى، كما في الملحق.

٥- المؤمن الحق هو الذي لا يستبدل بدينه عَرَضاً من الدنيا الزائلة.

٦- اتِّباع هوى النفس سبيل للاستكبار عن الحق، ورَدُّه مع ظهور الحجَّة والبرهان.

٧- التنبيه على ذمِّ الحسد، وأنَّه من طبائع اليهود، والتحذير من الاتِّصاف به بسوء عاقبته في الدارين.

٨- تراكم السيئات وتتابعها دون التوبة والرجوع عنها مدعاةٌ لتتابُعِ غضب الله تعالى على أهلها.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

التفسير:

٩٢- قسماً لقد جاءكم موسى عليه السلام بالمعجزات الواضحات، ثم عبدتم العجل من بعد غياب موسى، حينما ذهب إلى جبل الطور في صحراء سيناء، وأنتم بذلك ظالمون لأنفسكم ولغيركم بتجاوزكم لحق الله تعالى.

٩٣- واذكروا حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ثم نقضتم العهد، فهددناكم برفعنا لجبل الطور الذي جعلناه كالظلة فوق رؤوسكم، وأمرناكم أن تعملوا بالعهد بعزم وحزم، وإلا أسقطنا الجبل عليكم. فأجبتم بأنّكم سمعتم القول، وعصيتم الأمر؛ لأنَّ عبادة العجل قد تغلغلت حتى خلصت إلى قلوبكم وامتزجت بها، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَذُمَّهم على هذه الجريمة فيقول: بئس هذا العمل والضلال إن كنتم مصدِّقين بالله ورسوله.

٩٤- أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ على أولئك اليهود الذين زعموا أن الجنة خاصة بهم، فليَدْعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا صادقين في دعواهم.

٩٥- ولن يفعلوا ذلك أبداً بسبب اقترافهم الجرائم التي سيحاسبون عليها. والله تعالى ذو علم بذنوب المعتدين. أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لو تمنَّى اليهودُ الموتَ لَماتوا».

الفوائد والاستنباطات:

١- سبب تَعَنُّت بني إسرائيل هو تكذيبهم موسى عليه السلام.

٢- شدة حرص اليهود على الحياة.

٣- الظلم درجات، وأشده الشرك بالله تعالى.

٤- إرسال الله تعالى موسى عليه السلام بالمعجزات التي نفعت بني إسرائيل في علاج مشكلاتهم، وسَدِّ احتياجاتهم.

٥- ينظر: صورة جبل الطور في صحراء سيناء، كما في الملحق.

٦- بيان عادة اليهود في نقض المواثيق.

٧- زعم اليهود أن الجنة لهم خاصة.

٨- الردُّ على مزاعم اليهود.

٩- الإيمان لا يتحقَّق بالدَّعوى، فدليله العمل بمقتضياته من الطاعة والاتِّباع.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٦- سبب النزول:

أخرج البخاري بسنده عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام ﷺ بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً، قال: جبريل. قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحديث، وفي رواية للإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم صَرَّح بسبب النزول. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٢).

التفسير:

يُؤَكِّد الله تعالى أنَّ محمداً ﷺ سيجد هؤلاء اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة الدنيا، وأشد حرصاً من الذين أشركوا، واقتصروا على حب الدنيا؛ لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة، يتمنى اليهودي لو يَطُول عمره، فيعيش ألف سنة، ولكن هذا التعمير في الحياة لا يُنْجيه ولا يبعده عن عذاب الله. والله تعالى مُطَّلع على أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

٩٧-٩٨- أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ على اليهود الذين يعادون جبريل ﷺ فيقول: مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نَزَّل القرآن الكريم على قلبك بأمر الله تعالى موافقاً للكتب المنزلة المتقدمة، وفيه الهداية

الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ومَنْ كان عدواً لله بمخالفة دينه، وعدواً لملائكته بكراهيتهم، وعدواً لرسله بتكذيبهم، فإن الله تعالى عدو لهؤلاء الجاحدين.

٩٩- وقسماً لقد أنزلنا - لِما لنا من العظمة والقدرة - إليك أيُّها الرسول الدلائل الباهرة والبراهين الساطعة التي تدلُّ على صدق رسالتك، وما يكذِّب بها إلا المخالفون أمر الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإخبار عن أمر مستقبلي في محبة اليهود الحياة الدنيا على مرِّ الأزمان؛ لأنهم لم يصدقوا بالآخرة.

٢- في الآية (٩٨) إخبار عن أمر مستقبلي بأن كلَّ الذين يعادون الملائكة، فإنَّ الله عدوٌّ لهم، وسيجازيهم على ذلك.

٣- عداوة اليهود لجبريل لأنه يفضح مؤامراتهم، ويهتك أستارهم ومكايدهم.

٤ - تأييد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ.

٥- القرآن متوافق مع الكتب السماوية قبل تحريفها.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣ ﴾

١٠٠ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال مالك بن الصيف - اليهودي - حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ، والله ما عهد إلينا في محمد ولا أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم ﴾.

(ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٤).

التفسير:

يُوَبِّخ الله تعالى أولئك اليهود الذين تكرَّر منهم إبرام العهود، ثمَّ تنقضه طائفة منهم؛ لأنَّ أكثر اليهود لا يُصَدِّقون برسالة النبيِّ ﷺ.

١٠١ - وحينما جاء اليهودَ محمَّدٌ ﷺ بالقرآن الكريم الموافق لما معهم من البشارات الباقية في التوراة، ترك طائفة من علمائهم التوراة وأعرضوا عنها؛ لأنَّها تَدُلُّ على نبوَّة محمَّد ﷺ، كأنَّه لم يَرِد فيها ذِكْرُ النبي ﷺ، ولم يعلموا شيئاً عنه!

١٠٢ - ولمَّا أهمل هؤلاء اليهود الحقَّ من ربِّهم سلكوا طريق الباطل، واقتفَوا آثار السحرة التي كانت تقرؤها الشياطين على عهد سليمان عليه الصلاة والسلام وتنسبها إليه، فبرَّأ الله تعالى سليمان من السحر بقوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ ﴾، فإنَّه لم يكن ساحراً، ولم يُعَلِّم الناس السحر، ولكنَّ الشياطين كفروا بتعليم الناس السحر، وبتعليمهم التفريق بين الزوجين الذي أُنزل على الملكين هاروت وماروت في مدينة

بابل التي لا تزال باقية في العراق. وهذان الـمَلَكان فضحا السحرة بأنهم كفرة، وأنَّ السحر كفر، فلا يُعَلِّمان من أحد إلا بعد النصيحة، إذ يقولان: إنَّا اختبار وابتلاء بتعليم السحر الذي هو كفر فلا تكفر. فمن خاف الله نجا، فيتعلم الناس الراغبون في ذلك من الملكين، ولا يستطيع السحرة أن يضروا بالسحر أحداً إلا بمشيئة الله، وهذا الذي يتعلمونه إنما هو أعظم ضرر لهم؛ لما فيه من الأذى والشرك؛ لأنَّه استعانة بغير الله تعالى، فلا ينفعهم ذلك أبداً. ولقد علم اليهود وتحققوا بأنَّ من اختار السحر، وترك الحق ما له في الآخرة من نصيب في الخير، ثم ذمَّهم الله تعالى على فِعْلِهم هذا، بأن استحَبُّوا السحر والكفر، وتركوا الإيمان فلم يكن لهم نصيب في الجنَّة بالآخرة، ولو كان اليهود يعلمون علماً ينتفعون به لما فعلوا ذلك.

١٠٣ – ولو أنَّ اليهود صدقوا بالله وخافوه، لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، لو كانوا يدركون عظمة ثواب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٠٠) إخبار عن نقض اليهود للعهود في الماضي والمستقبل.

٢- في الآية (١٠٢) إخبار عن تعليم الشياطين السحر في الماضي والمستقبل.

٣- تقرير نبأ رسالة النبي ﷺ في التوراة.

٤- براءة سليمان عليه السلام من السحر.

٥- تقرير إتباع اليهود للسحر.

٦- تقرير حقيقة السحر.

٧- التحذير من استمرار اليهود في نقض العهود في كل زمان.

٨- إنكار اليهود رسالة النبي ﷺ.

٩- ينظر: خريطة محافظة بابل في العراق، وفيها تمثال اسمه أسد بابل، كما في الملحق.

١٠-تَعَلُّم السحر كفر.

١١-هاروت وماروت مَلَكان مطيعان لله تعالى.

١٢-من أعمال السحر التفريق بين الزوجين وهو محرَّم، ولتقويض مهمات السحرة يُسْتَحَبُّ التقريب بين الزوجين والإصلاح بينهما، ووجوب التواصل بين الزوجين في جميع أنواع التواصُل والتقارب، والدليل الحديث التالي في الفائدة التالية.

١٣-من أهم الكبائر التي يسعى لها إبليس: التفريق بين الزوجين، كما صحَّ عن النبي ﷺ :«إن إبليس يضع عرشه على الماء. ثم يبعث سراياه. فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا

وكذا. فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ماتركته حتى فَرَّقْتُ بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت». (صحيح مسلم، صفات المنافقين برقم ٢٨١٣).

١٤- السحرة لا يقدرون أن يَضُرُّوا أحداً، أو يسحروا إلا بما كتب الله تعالى.

١٥- معرفة اليهود بمصير السحرة ومريديهم في الآخرة بسبب استحبابهم السحر.

١٦- وَهِمَ كثير من المفسرين في تفسير الآية (١٠٢) بسبب إعراب (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ نافية، والواو استئنافية، والصحيح أنَّها موصولة بمعنى (الذي)، والواو عاطفة.

١٧- إنَّ المؤمن المهتدي بهدي الله وشرعه يطلب العلم النافع، ولا يتعلَّم ما يضره ولا ينفعه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤- نهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا للنبيِّ ﷺ: راعِنا، أي: أَرْعِنا سمعك، وراعِ أحوالنا، قاصدين أن يجعلهم موضع رعايته، وأمرهم الله أن يقولوا: انظرنا، أي: انظرْ إلينا وتَعَهَّدْنا؛ وذلك لأن اليهود كانوا يقولون هذه الكلمة (راعنا) يقصدون سَبَّه ونسبته إلى الرعونة والحماقة، وللمكذِّبين لله ورسوله عذاب موجع. قال القاسمي: «وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة النساء آية (٤٦): ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. (محاسن التأويل ٢/ ٢١٦).

١٠٥- ما يحبُّ كفرة أهل الكتاب والمشركين أن ينزِّل الله عليكم - أيُّها المؤمنون - أيَّ خير من ربِّكم، والله يختص بالنبوَّة والهداية مَنْ يشاء من عباده، وهو صاحب العطاء الكثير الذي لا ينفد.

١٠٦ - ما نُبَدِّل من حكم آية أو نمحها من قلبك - أيُّها الرسول - ننزِّلْ أنفع لكم منها، أو ننزِّلْ آية شبيهة بها، ألم تعلم - يا رسول الله - أنت وأُمَّتك أنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء؟

١٠٧ - ألم تعلَمْ - أيُّها الرسول - أنت وأُمَّتك أنَّ الله هو المتصرِّف في شؤون الخلق في السموات السبع والأرضين السبع، وليس لكم ولي من دون الله يتولى شؤونكم، ولا مُعين ينجيكم من عذاب الله؟

١٠٨ - أتريدون - أيها الناس - أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل؟ ومَن استحبَّ الكفر، وترك الإيمان، فقد خرج عن دين الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير علو قدر النبي محمد ﷺ عند الله تعالى.

٢ - تقرير حسد المشركين والكفار من أهل الكتاب للمؤمنين.

٣- في الآية (١٠٥) إخبار عن حسد كفَّار أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين.

٤ - تقرير حقيقة النَّسْخ في القرآن الكريم، وأنَّه نعمة من الله تعالى على عباده.

٥- النهي للصحابة ﷺ عن قول (راعِنا) للنبي ﷺ لمخالفة اليهود الذين يُسيئون الأدب مع أنبياء الله تعالى صلى الله عليهم وسلم.

٦- حماية النبي ﷺ من استهزاء اليهود.

٧- وجوب التأدب مع النبي ﷺ.

٨- التحذير من عداوة المشركين وكفرة أهل الكتاب.

٩- الرد على من يُنكر النَّسْخ، وهو رفع حكم شرعي بحكم شرعي متأخر عنه.

١٠ -النهي عن سؤال النبي ﷺ عن أشياء مسكوت عنها في القرآن والسنة، فقد صحَّ عنه أنه قال: «إن أعظم المسلمين جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يُحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، وصحَّ عنه أيضاً أنه قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فَأْتوا منه ما استطعتم». (صحيح البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من كثرة السؤال برقم ٧٢٨٩ – وباب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم ٧٢٨٨. وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه برقم ١٣٣٧).

١١ -الإشارة إلى اقتران خلق السموات والأرض، وينظر: تفسير سورة التوبة الآية (٣٦).

١٢ -لا ناصر إلا الله تعالى، فهو ينصر مَنْ يشاء بما يشاء.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾

١٠٩ - سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فكان حيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذ خصَّهم الله برسوله، وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٠).

التفسير:

حرص كثير من اليهود والنصارى على أن يرجعوكم بعد إيمانكم كفّاراً بالله، بسبب حقدهم الدفين في نفوسهم، من بعد ما ظهر لهم صدق محمد ﷺ ورسالته، وأعرضوا عنه، فلا تؤاخذوهم ولا تُقرِّعوهم، إلى أن ينزِّل الله تعالى حكماً آخر، كالإذن بقتالهم. إنَّ الله على كل المخلوقات قدير، لا يعجزه منها شيء.

فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ نسخ ذلك كله بقوله: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥]، وقوله: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، فنسخ هذا. وصحَّ عن النبي ﷺ أنه كان وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول

الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا. (صحيح البخاري - التفسير- آل عمران، باب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ برقم ٤٥٦٦).

١١٠ - يأمر الله تعالى المؤمنين بأداء الصلاة في أوقاتها وأركانها، وبدفع الزكاة المفروضة للمستحقين، وكل خير يقومون به يجدون ثوابه عند الله في الآخرة. إن الله بصير لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

١١١ - زعم اليهود أن الجنة خاصة بهم، وكذلك زعم النصارى، وهذه أوهام باطلة تمنَّوها على الله تعالى بغير حق، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم، بأن يأتوا بالحجة والدليل على صحة ما يزعمونه إن كانوا صادقين في ادعائهم.

١١٢ - إن دخول الجنة ليس بالأماني والتمني، بل يدخل الجنة من أخلص العبادة لله تعالى، وهو متبع للرسول ﷺ، فمن فعل ذلك فله الثواب من عند الله بالجنة، ولا خوف عليه من العذاب، ولا يعتريه حزن على ما فاته من متاع الدنيا الزائل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٠٩) إخبار عن سعي كُفَّار اليهود والنصارى إلى ردَّة المؤمنين في الماضي والمستقبل.

٢ - تقرير عداوة كفرة أهل الكتاب للمؤمنين.

٣ - أهمية الإخلاص في دخول الجنة.

٤ - في الآية (١١٠) إخبار عن أمر مستقبلي وبشرى للمؤمنين أنَّ كلَّ ما يفعلون من خير صغير أو كبير فإنَّ ثوابه عند الله تعالى مضمون.

٥ - التحذير من مكايد كفرة أهل الكتاب في إيقاع المؤمنين في دائرة الكفر والإلحاد.

٦ - شدة حسد كفرة أهل الكتاب للمؤمنين.

٧ - الترغيب في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٨ - الرد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنَّ الجنة خاصة بهم.

٩ - إشارة لما للصلاة والزكاة من أثر واضح في تحصين الفرد والمجتمع من مكايد الأعداء.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

١١٣- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ. فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء، وجحد بنبوة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

وأخرج الطبري بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله ﷻ أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٧- ٢٠٨).

التفسير:

اتهم اليهود النصارى بأنهم ليسوا على شيء من الحقّ، وكذلك اتهم النصارى اليهود بأنهم ليسوا على شيء من الحقّ، والحال أنّ هؤلاء القائلين يقرؤون التوراة والإنجيل، وكذلك قال الجهلة من مشركي العرب: إنّ محمّداً ليس على شيء من الحقّ، فالله تعالى يفصل بينهم جميعاً فيما اختلفوا فيه من أمر الدين.

١١٤- يتوعَّد الله تعالى ويوبِّخ الذين يمنعون عبادة الله في المساجد، ويعملون على هدمها وتخريبها، بأنه لا أحد أشدُّ ظلماً من هؤلاء الظالمين، وهؤلاء لا ينبغي أن يدخلوا المساجد إلا على خوف ووَجَل من العقوبة، وجزاؤهم في الدنيا ذل وهوان، وفي الآخرة عذاب شديد موجع.

١١٥- ولله تعالى ملك المشرق والمغرب، فأي جهة تتجهون إليها في صلاتكم فهناك قبلة الله تعالى، وهي الكعبة المشرَّفة، إن الله واسع الرحمة بعباده، عليم بأقوالهم وأفعالهم.

١١٦- افترى كل من اليهود والنصارى والمشركين على الله تعالى، بأنه اتخذ لنفسه ولداً! تقدَّس وتنزَّه وتعالى عما يفترون، فليس الأمر كما يقولون، بل كل المخلوقات ملك له، خاضعة ومنقادة له.

١١٧- وهو خالق السموات والأرض على غير مثال سبق، وإذا قدَّر أمراً فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ فيكون. وقال ابن كثير عند هذه الآية: «يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدَّر أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، كن - أي مرة واحدة فيكون -، أي: فيوجد على وَفْقِ ما أراد كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]».

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العداوة بين اليهود والنصارى.

٢- خطورة مَنْعِ الذِّكر في المساجد وتخريبها.

٣- في الآية (١١٤) إخبار عن أمر مستقبلي في العقوبة بالدنيا والآخرة لِـمَنْ منع ذكر الله تعالى في المساجد.

٤- تقرير التوجه في الصلاة إلى الكعبة المشرفة.

٥- اختلاف اليهود والنصارى واستعلاء بعضهم على بعض.

٦- تحريم كل ما يمنع ذكر الله تعالى في المساجد.

٧- تحريم تخريب مساجد الله تعالى، ووجوب حمايتها من المخربين والعابثين.

٨- الأمر بإعمار مساجد الله تعالى مادياً ومعنوياً.

٩- عدم تمكين مخرِّبي المساجد أن يدخلوها بحُرية.

١٠-إثبات صفة الوجه لله تعالى ليس في الآية (١١٥)، وإنما في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]؛ لأنَّ المراد بقوله تعالى وجه الله هو الكعبة، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٠٩).

١١-الإشارة إلى اقتران خلق السموات والأرض، وينظر: تفسير سورة التوبة الآية (٣٦).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

١١٨-سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢١١).

التفسير:

من عناد مشركي العرب أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يُكَلِّمهم الله تعالى، أو يأتيهم بمعجزة تدل على صدق نبوته. ومثل هذا القول قاله اليهود والنصارى، فقلوبهم متفقة على هذا التعنُّت والتشدد، على الرغم من وقوع المعجزات الظاهرة التي وَضَّحناها للذين يصدِّقون بالله تصديقاً جازماً.

١١٩- إنَّا - بما لدينا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أرسلناك يا محمَّد ﷺ بالدين الحق مبشراً بنعيم الجنة، مخوِّفاً من عذاب النار، وأنت لست مسؤولاً عن المكذِّبين الملازمين نار جهنم يوم القيامة، وإنما عليك البلاغ.

١٢٠- ليس اليهود والنصارى براضين عنك أيُّها الرسول، ولا عن أُمتك أبداً، إلى أن تحقق غايتهم، باتِّباع دينهم وأهوائهم، قل لهم: إنَّ دين الإسلام هو الدين الصحيح. وقسماً إن وافقتهم على ذلك بعد ما جاءك من القرآن، فليس لك ولي ولا نصير ينصرك من دون الله تعالى.

١٢١- يخبر الله تعالى أنَّ اليهود والنصارى الذين يقرؤون كتبهم قراءة صحيحة دون تحريف، ويتبعونها حقَّ الاتِّباع، فأولئك أصحاب الدرجات العالية هم المصدِّقون بالله ورسوله، وكذلك حال من أُنزِل عليهم القرآن، وأما الذين يحرفون ويبدلون هذه الكتب العظيمة، فهؤلاء البعداء عن الحق خسروا السعادتين في الدنيا والآخرة.

١٢٢-١٢٣- ينادي الله تعالى ذريَّة يعقوب عليه السلام: أن يعترفوا بنِعَمِ الله تعالى الكثيرة عليهم، ومنها جَعْلُهم أفضل الناس في عالمي زمانهم بكثرة أنبيائهم، وما أنزل عليهم من الكتب العظيمة، ثم حَذَّرهم من يوم الحساب، إذ لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل الله منها فدية تنقذها من العذاب، ولا تنفعها شفاعة أحد، ولا أحد يدفع عنها عذاب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- حقيقة إصرار اليهود والنصارى على إغواء المسلمين.

٢- بيان مكانة مسلمة أهل الكتاب.

٣- الجهل يوقع في المهالك.

٤- تشبُّه المشركين بكفرة أهل الكتاب.

٥- الإنباء عن أمر مستقبلي بعدم رضا اليهود والنصارى عن أهل الإيمان في كل زمان.

٦- التحذير من مواطأة اليهود والنصارى وأتباعهم.

٧- النبي ﷺ غير مسؤول عن الذين يكفرون برسالته.

٨- في الآية (١٢١) إخبار عن خسارة كُفَّار أهل الكتاب في الماضي والمستقبل.

٩- وجوب شكر الله تعالى على نعمه العظيمة.

١٠-الآية (١٢٠) يبينها قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة:١٤٥].

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

التفسير:

١٢٤- يُذَكِّر الله تعالى رسوله ﷺ حين اختبر إبراهيم عليه السلام بشرائع من الأوامر والنواهي، فقام بحَقِّها تماماً، فبَشَّره الله تعالى بأنه سيجعله للناس قدوة، فسأل إبراهيم ربه أن يجعل من نسله أئمة. واستجاب الله له، وأعلمه أنَّ الظالمين منهم لا يشملهم هذا المقام، بسبب تجاوزهم حدود الله تعالى.

١٢٥- واذكر - أيُّها الرسول - للناس حين جعلنا البيت العتيق ملاذاً ومرجعاً للمسلمين، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، وجعلنا فيه طمأنينة للنفس من الاعتداء، ثم أمر الله تعالى بأن يتخذوا من موضع الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بناء الكعبة مكاناً للصلاة فيه، وأوصى إبراهيم وابنه إسماعيل أن يصونا البيت من كل دَنَس ورِجْس من أجل المتعبدين الذين يطوفون حول الكعبة، والمقيمين للعبادة، والمصلين فيه.

١٢٦- واذكر أيضاً حين دعا إبراهيم ربه: أن اجعل مكة بلداً تطمئن فيه النفوس، وارزقْ أهلَه المؤمنين أنواع الثمرات، فاستجاب الله تعالى، وذكر أنه مَنْ كفر منهم فيرزقه قليلاً من النعم، ثم يُلْجئه مرغماً إلى عذاب النار، وبئس المآل الذي يصير إليه في جهنم.

١٢٧-١٢٩- واذكر أيضاً - أيُّها الرسول - للناس حين رفع إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام بناء أسس الكعبة حال كونهما يسألان الله تعالى: ربَّنا تَقَبَّلْ منَّا أعمالنا ودعاءنا. إنَّك أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأحوالهم، ربَّنا واجعلنا نحن ومِنْ نَسْلِنا خاضعين لك منقادين لحكمك، وعَلِّمْنا شعائر عبادتنا لك، ومناسك حجِّنا، وتجاوز عن ذنوبنا، إنَّك أنت التوَّاب على من يتوب من عبادك، الرحيم بهم، ربَّنا وابعث في ذريتنا رسولاً يقرأ عليهم آياتك، ويُعَلِّمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من المعاصي. إنك أنت

العزيز في نقمته، الحكيم في أمره، وقد استجاب الله تعالى لهذا الدعاء العظيم، كما ثبت عن النبي ﷺ قوله: أنا دعوة أبي إبراهيم. (وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٦٠٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٥٤٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- علو مكانة نبي الله إبراهيم عليه السلام.

٢- استجابة نبي الله إبراهيم عليه السلام لجميع الأوامر الربانية.

٣- مقام إبراهيم كان ملتصقاً بالبيت، ثمَّ أخَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسهيلاً للطائفين.

(يُنظر: فتح الباري ٨/ ١٦٩)

٤- يُنظر: صورة المقام وبيان آثار الأقدام، كما في الملحق.

٥- يُنظر: صورة قواعد إبراهيم عليه السلام، كما في الملحق.

٦- بركة دعاء إبراهيم لا تزال قائمة، ولا نزال ننعم بها في هذه البلاد المباركة.

٧- في الآية (١٢٦) إخبار عن استجابة الله تعالى لدعاء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام في الماضي والمستقبل.

٨- إثبات صفة السمع والعلم والرحمة والعزة والحكمة لله تعالى. والإيمان القلبي بهذه الصفات يستوجب الإيمان العملي بها؛ لأنَّ إثبات صفة السمع والعلم لله تعالى يقتضي مراعاة ذلك في الأقوال والأفعال. وهذا الاعتقاد عندما يشع بنوره إلى ميدان الحياة اليومية يأتي بثمرات باهرات، فهي عين سبيل الرشاد الذي يرقى بالعباد إلى المزايا العالية، ويحفظ البلاد من الرزايا البالية؛ إذ يتسم المؤمن بحفظ لسانه من الزلل والخلل؛ لأنَّه يعتقد بأنَّ الله تعالى يسمع ما يقول، وكذلك تتجلى في المؤمن ظاهرة عظيمة ألا وهي حِفْظُ جوارحه من الظلم، وصونها من الوقوع في الحرمات والموبقات؛ لأنَّه يعتقد بأنَّ الله تعالى يرى هذه الجوارح وما تفعله من الخير والحسنات، وما تجترحه من الشر والسيئات. وإنْ عمل المجتمع بهذا الاعتقاد رأينا الأخلاق تسمو، والحق يسود.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

التفسير:

١٣٠- ومَنْ يترك دين الإسلام إلا مَنْ استخفَّ نفسه وظلمها. وقسماً لقد اخترنا إبراهيم عليه السلام في الدنيا نبياً ورسولاً، وإنه يوم القيامة لمن المقربين ذوي الدرجات العلى. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا ما مِلَّة إبراهيم؟ وبيَّنها بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] فصرَّح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]».

١٣١-١٣٢- واذكر - أيُّها الرسول - حين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن ينقاد مطيعاً لله، فاستجاب لذلك معظِّماً لله بوصفه ربِّ العالمين، ووصَّى إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام أبناءهما بذلك، منادين أبناءهم: إن الله اختار لكم دين الإسلام، فاثبتوا عليه حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به.

١٣٣- يُوَبِّخ الله تعالى مشركي العرب وكفرة بني إسرائيل: أكنتم حاضرين حين جاء الموتُ يعقوب عليه السلام، إذ سأل بنيه ما تعبدون من بعدي؟ فأجابوه: نعبد إلهك الواحد، وهو إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق - عليهم الصلاة والسلام - نُوَحِّده بالألوهية، ونحن له منقادون حقّاً.

١٣٤- تلك جماعة قد مضت، لها جزاء ما عملت، ولكم جزاء ما عملتم، وأنتم غير مسؤولين يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا، بل كل نفس وطائفة مسؤولة عن عملها.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من تَرْكِ دين الإسلام؛ لما فيه من الظلم على النفس والآخرين.

٢- الاستجابة لوصية نبي الله إبراهيم عليه السلام لأبنائه وأحفاده.

٣- استجابة يعقوب لدعوة التوحيد.

٤- استجابة أبناء يعقوب لوصية يعقوب في الثبات على التوحيد.

٥- النسب لا يشفع، وإنما العمل هو الذي يُسأل عنه.

٦- في الآيات درس في أهمّية تربية الأبناء على التوحيد والحقِّ، والاطمئنان على ثباتهم عليه.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

١٣٥- سبب النزول:

أخرج ابن إسحاق بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾. (يُنظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٤٤).

التفسير:

دعا اليهود أُمةَ محمد ﷺ بأن يدخلوا اليهودية، زاعمين أنهم على الهدى والحق، وكذلك دعا النصارى، فأمر الله نبيه ﷺ أن يردَّ عليهم: بأن الهداية أن نتبع الملة الحنيفية السمحة التي على التوحيد، وهي ملة إبراهيم، وما كان إبراهيم من عبدة الأوثان.

١٣٦- ثمَّ أمر الله تعالى المؤمنين بأن يعلنوا لليهود: أنّنا صَدَّقْنا بالله تعالى، وبالقرآن، وبما أنزل من الصحف والكتب إلى إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، وحفيده يعقوب، والأسباط من ولد يعقوب، وصَدَّقنا بالتوراة والإنجيل، وبما أوتي النبيون جميعاً من وحي الله تعالى، لا نُفَرِّق بين أحد منهم، ونحن منقادون لعبادة الله. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يُبيِّن هنا ما أوتيه موسى وعيسى، ولكنه بيَّنه في مواضع أُخَرَ. فذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله:﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]».

١٣٧- فإن صَدَّق كفرة اليهود والنصارى بمثل الذي صدَّقتم به فقد أصابوا الحق، وإن أعرضوا عن ذلك، فاعلم أنهم يريدون عداوتك وخلافك، وسيكفيك الله شرَّهم، وينصرك عليهم. والله هو السميع

لأقوالهم، العليم بأحوالهم، وقد أنجز الله وعده وهزم الأحزاب وحده، فكفى نبيَّه ﷺ ومَكَّنه من أعدائه فقتل قريظة، وسباهم وأجلى بني النضير. (صحيح البخاري - المغازي- باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم وباب حديث بني النضير ومخرجه إليهم).

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من دعوة اليهود والنصارى.

٢- الردُّ على اليهود والنصارى في دعوتهم للمسلمين أن يدخلوا في دينهم.

٣- تقرير الإيمان بالكتب السماوية وبالرسل والأنبياء.

٤- ذَمُّ المخالفين لدين الإسلام.

٥- إثبات صفتي السمع والعلم لله تعالى.

٦- ينظر: شجرة الأنبياء؛ لبيان أبناء إبراهيم وذرية يعقوب - عليهم صلوات الله وسلامه-، كما في الملحق.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

التفسير:

١٣٨- قل - أيُّها الرسول - لهؤلاء اليهود والنصارى: الزموا الإسلام، وهو دين الله، فليس هناك أحسن من دين الإسلام، ونحن له موحِّدون.

١٣٩-١٤٠- يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يُوَبِّخَهم: أتناظروننا في توحيد الله والانقياد له، وهو ربُّ الجميع، يتصرف فينا وفيكم، ونحن بُرآء منكم، ولنا جزاء أعمالنا، وأنتم بُرآء منَّا، ولكم جزاء أعمالكم، ونحن له مخلصون في عبادتنا وطاعتنا، بل تَدَّعون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من ولد يعقوب كانوا على دين اليهود أو النصارى؟ قل لهم أيُّها الرسول: أأنتم أعلم بدينهم أم الله تعالى؟ وقد

شهد الله لهم بدين الإسلام، ولا أحد أشد ظلماً منكم حين تُسِرُّون وتُخْفون شهادة ثابتة في كتبكم المنزلة من عند الله تعالى، وما الله بغافل عن شيء من أعمالكم.

١٤١ - تلك جماعة قد مضت، لها جزاء ما عملت، ولكم جزاء ما عملتم، وأنتم غير مسؤولين يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا، بل كل نفس مسؤولة عن عملها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان عظمة دين الإسلام.

٢ - الردُّ على اليهود والنصارى الذين يزعمون أن إبراهيم على ديانتهم.

٣ - إفحام اليهود والنصارى في الحوار وإقامة الحجة عليهم.

٤ - عِظَمُ خطر كتمان العلم، وأنَّ ذلك من أعظم الظلم.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

١٤٢ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما صُرِفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ونافع بن أبي نافع، فقالوا: يا محمد، ما وَلَّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك! وإنما يريدون فتنته عن دينه. فأنزل الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾». (واللفظ للطبري. تفسير الطبري برقم ٢١٤٩ وتفسير سورة البقرة - الثاني برقم (٨) لابن أبي حاتم، ودلائل النبوة ٢/ ٥٧٥. قال الحافظ ابن حجر: «وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما» (فتح الباري ١/ ٩٧).

التفسير:

يُنبئ الله تعالى نبيَّنا محمداً ﷺ عن أمر مستقبلي أنه سيقول الجهلة من ضعفاء العقول من اليهود والمشركين في سخرية: ما سببُ تحَوُّلِ المسلمين عن قِبلتهم - وهي بيت المقدس - التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم؟ ثمَّ أمر الله تعالى نبيه أن يردَّ عليهم: أنَّ المشرق والمغرب ملك لله، يرشد مَنْ يريد من عباده إلى الطريق القويم، وهو دين الإسلام.

١٤٣- سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت وأنه صلى- أو صلَّاها - صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل مِمَّنْ كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل قِبَلَ البيت رجال قتلوا لم نَدْرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ١٤١ برقم ٤٤٨٦، تفسير سورة البقرة، باب ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. وصحيح مسلم برقم ٥٢٥، المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة. واللفظ للبخاري).

التفسير:

يمدح الله تعالى المسلمين: كما هديناكم إلى دين الإسلام جعلناكم أُمة عدولاً؛ كي تشهدوا على الأُمم في الآخرة أنَّ رسلهم قد بَلَّغتهم الدعوة، وكذلك يكون الرسول شهيداً عليكم، بأنه بَلَّغكم الرسالة المكلف بها. وما جعلنا هذا التحويل في القبلة إلا اختباراً؛ ليظهر ويتميَّز المطيع للرسول مِمَّنْ يُشَكِّك في الدين، ويرتدَّ عن دين الإسلام، وإنَّ تحويل القبلة لثقيلٌ شاقٌّ إلا على الذين هداهم الله تعالى، فهو سهل عليهم، وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يتقبلها منكم ويثيبكم عليها؛ لأنَّ الله تعالى ذو رأفة بعباده، ورحيم بهم.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلغت؟ فيقول :نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جَلَّ ذِكْرُه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل». (صحيح البخاري برقم ٤٤٨٧ - تفسير سورة البقرة، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾).

١٤٤- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم ﷺ، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾؟ [البقرة:١٤٢]. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١٤٢]». (واللفظ للطبري. وأخرجه

النحاس من طريق بكر بن سهل (الناسخ والمنسوخ ١/ ٥٨-٥٩)، والبيهقي (السنن الكبرى ٢/ ١٢-١٣) من طريق عثمان بن سعيد الدارمي، كلاهما عن عبد الله بن صالح به).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما الناس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام. فاستداروا إلى الكعبة». (صحيح البخاري برقم ٤٤٨٨ - باب التفسير﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾. وصحيح مسلم برقم ٥٢٦ - المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة).

التفسير:

يؤكِّد الله تعالى لك - يا محمَّد - أنَّه يرى تكرار تَطَلُّعِك إلى جهة السماء، وتحليق بصرك فيها، راجياً الله تعالى نزول الأمر بتحوُّل القبلة إلى الكعبة، فتوجَّه في صلاتك نحو الكعبة، وفي أي مكان كنتم أيها المسلمون، وأردتم الصلاة، فتوجَّهوا نحوها، وإن اليهود والنصارى واثقون إن تَحَوُّلَك إلى الكعبة لهو الحق الثابت في كتبهم، وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء المكذبون، وسيجازيهم على ذلك.

١٤٥- وقسماً - أيُّها الرسول - إن جئت اليهود والنصارى بكلِّ معجزة تدلُّ على صدقك ليتبعوا قبلتك، ما تبعوا قبلتك كفراً وعناداً؛ لأنَّ اتباع القبلة دليل على اتباعك، ولست أنت بتابع قبلتهم، وكذلك النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أنَّ اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، وقسماً إن وافَقْتَ أهواءهم بعد ما جاءك من الوحي أنك على الحق، فستكون من الظالمين لأنفسهم. وفيه تحذير لِـمَنْ يَتَّبِعُ أهواء أهل الكتاب وغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إعلام الله تعالى رسوله ﷺ عَـمَّا سيقوله الجهلة عن القبلة.

٢- ذكر الدكتور محمد جميل الحبَّال الإعجاز العددي فقال:

أ- إنَّ سورة البقرة هي من أطول سور القرآن الكريم، ومجموع عدد آياتها هو (٢٨٦) آية، والثانية ترتيباً في المصحف الشريف والآية رقم (١٤٣) هي نصفها حيث إن: (٢٨٦÷٢=١٤٣).

ب- إنَّ عدد كلمات هذه الآية هو (٤٥) كلمة، وعدد حروفها هو (١٩٤) حرفاً، وإن موقع كلمة ﴿وَسَطًا ﴾ في هذه الآية هو الرابع، وكلمة ﴿وَسَطًا ﴾ تتألف من أربعة حروف، والعدد (٤) يقع في وسط رقم الآية (١٤٣).

ج- إنَّ الكلمة الوسطية (المركز) في هذه الآية هي رقم (٢٣) وهي كلمة ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ حيث إنه ﷺ هو المثال الأعلى والقدوة الصالحة في الوسطية في أحواله.

٣- الثناء على الأُمة العدل.

٤- اختبار وتمحيص في شأن تحويل القبلة، وينظر: صورة بيت المقدس في الملحق.

٥- الرعاية الربانية للنبي ﷺ، وتحقيق رغبته في التحول إلى الكعبة.

٦- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ لم يبين هنا: هل هو شهيد عليهم في الدنيا والآخرة؟ ولكنه بَيَّن في موضع آخر: أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢]». (أضواء البيان ١/ ١٤٩).

٧- تشدُّد أغلب اليهود والنصارى، وتعنُّتهم في عدم اتباع الحق، والإنباء عن أمر مستقبلي في ذلك.

٨- خطورة اتباع ضُلَّال اليهود والنصارى.

٩- قبول الله تعالى عمل عباده، ما دام الباعث عليه طاعته سبحانه.

١٠- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار عِلْماً لم يكن يعلمه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون. وقد بَيَّنَ أنه لا يستفيد بالاختبار عِلْماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾». (أضواء البيان ١/ ١٤٩).

١١- قال ابن عاشور: «الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ استثناء من علل وأحوال، أي: ما جعلنا ذلك لسببٍ وفي حال إلا لنُظْهِرَ مِنْ كان صادق الإيمان في الحالتين: حالةِ تشريع استقبال بيت المقدس، وحالةِ تحويل الاستقبال إلى الكعبة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٣).

١٢- التذييل بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تأكيدٌ لعدم إضاعة إيمانهم، ومِنَّةٌ وتعليم بأنَّ الحكم المنسوخ إنما يلغي العمل به في المستقبل لا في ماضٍ.

١٣- التنبيه على خطورة الردَّة بعد الإيمان.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

التفسير:

١٤٦- يخبر الله تعالى أنَّ علماء اليهود والنصارى يدركون أنَّ البيت الحرام هو القبلة بعينها، كما يعرفون أبناءهم، وكذلك معرفة صفة النبيِّ ﷺ وما جاء به، وإنَّ طائفةً منهم لَيُخْفُون الحقَّ، كصفة النبيِّ ﷺ وأمر القبلة، وهم يعلمون ذلك يقيناً من كتبهم.

١٤٧- اعلم - أيُّها الرسول - أنَّ الحق هو ما أعلمك ربُّك من القرآن العظيم، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين أنَّ اليهود والنصارى قد كتموا ذلك الحق.

١٤٨- ولكلِّ أهلِ ملةٍ من الملل وِجْهَةٌ يتوجَّه إليها كل فرد منها في صلاته، فبادروا وتسابقوا - أيها المؤمنون - إلى الإحسان والعمل الصالح، وسيبعثكم الله جميعاً يوم القيامة. إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء.

١٤٩-١٥٠- يأمر الله تعالى رسول الله محمَّداً ﷺ وأُمَّته بتحَرِّي استقبال القبلة إلى الكعبة: من أيِّ مكان خَرَجْتَ مسافراً فتوجَّهْ في صلاتك نحو الكعبة. وهذا الأمر هو الحق الثابت من الله، وما الله بغافل عما تعملون، وسيجازيكم على ذلك. وأينما حَلَلْتَ فتوجَّهْ نحو الكعبة، وأينما كنتم - معشر المسلمين - في أي بلد فتوجَّهوا نحو الكعبة؛ لكيلا يحتجَّ المخالفون لكم في أمر القبلة. أما أهل العداوة والعناد فسيستمرون على جدالكم، فلا تخافوهم وخافوني بطاعتي؛ ولكي أُتِمَّ عليكم فضلي؛ كي تهتدوا إلى اتباع الحق.

١٥١- وكما أتممت عليكم نعمتي، كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم، يقرأ عليكم آيات القرآن الموضحة لأمور الدين، ويطهر نفوسكم من المعاصي، ويعلمكم القرآن الكريم والسنة المشرفة، ويعلمكم ما كنتم تجهلونه من أمور الدنيا والآخرة. قال ابن عاشور: «تشبيه للعلتين من قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ وقوله:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، أي: ذلك من نعمتي عليكم كنعمة إرسال محمد ﷺ، وجعل الإرسال مشبهاً به لأنَّه أسبق وأظهر تحقيقاً للمشبه». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٨).

١٥٢ – فاذكروني بالعبادة أذكركم بالمغفرة والثواب، واشكروا لي نعمي، ولا تجحدوها.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:«يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تَقَرَّبَ إليَّ شِبراً تقربتُ إليه ذراعاً؛ وإن تَقَرَّب إليَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلة». (صحيح البخاري- باب التوحيد، قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ برقم ٧٤٠٥. وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٦١ – الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم ٢٦٧٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «حذف ما أضيف إليه (كل) هنا لدلالة المقام عليه، وتقدير هذا المحذوف (أُمَّة)؛ لأنَّ الكلام كله في اختلاف الأمم في أمر القبلة». (التحرير والتنوير:٢/ ٤٢).

٢- إصرار أهل الكتاب على عدم التصديق بنبوة سيدنا محمد ﷺ، مع أنهم يعلمون حقاً صفته، وأن شأن تحويل القبلة من عند الله تعالى.

٣- وجوب التوجُّه إلى الكعبة في الصلاة.

٤- قوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ عطف على الجملة التي قبله، وأُعيد لفظ الجملة السالفة ليُبنى عليه التعليل بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾.

٥- قال ابن عاشور: «تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين، وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات. والقصد من ذلك كله التنويه بشأن استقبال الكعبة، والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريراً للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الردِّ على المنكرين». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٥).

٦- تقرير الرسالة لسيدنا محمد ﷺ، وبيان مكانته في عِلْمِه وحكمته.

٧- بيان فضل الذكر لله تعالى، وبه تدوم النعم.

٨- لا خوف من الإرجاف وحرب الإشاعة الصادرة من العدو.

٩- المقصود من خطاب النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ تحذير الأُمة.

١٠ – إنَّ العارف بالحقِّ مسؤول ومطالب باتِّباعه والالتزام به، وشأنه أوجب من الجاهل به.

١١ – فضيلة المسابقة إلى الخيرات والطَّاعات.

١٢ -التنبيه لوجوب مراقبة الله تعالى، وأنَّه سبحانه مُطَّلع على أعمال عباده.

١٣ -عِظَمُ نعمة الله على عباده بإرساله الرسول محمَّد ﷺ، ووجوب شكر هذه النعمة العظيمة باتِّباعه، والالتزام بما جاء به.

١٤ -في الآية (١٥٢) إخبار عن أمر مستقبلي عن ذكر الله تعالى للمؤمنين إذا ذكروه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

التفسير:

١٥٣- يا أيُّها المصدِّقون بالله تعالى ورسوله ﷺ، اطلبوا العون من الله بواسطة الصبر على المصائب والطاعة، وتَرْك المعاصي، وبالصلاة التي تقوي الصلة بالله تعالى. إنَّ الله ينصر، ويوفق الصابرين.

١٥٤- ولا تَصِفُوا شهداء الجهاد في سبيل الله بأنهم أموات، بل هم أحياء في قبورهم، ولكن لا تدركون ذلك؛ لأنه لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى.

١٥٥-١٥٦- يقسم الله تعالى للمؤمنين مؤكِّداً أنه سيختبرهم بشيء من أنواع البلاء، كالخوف من الأعداء، والجوع، وذهاب بعض الأموال، وفقدان بعض الأحباب، ونقص في الثمرات بالآفات. وبَشِّرْ - أيُّها الرسول - الصابرين على ذلك بالجنة، ثمَّ وصف الصابرين بأنَّهم إذا تعرضوا لنكبة ذكروا الله تعالى: إنَّا عبيد لله، يتصرف فينا كيف يشاء، وإننا مبعوثون ليوم الجزاء.

١٥٧- هؤلاء الصابرون لهم مكانة عالية عند الله تعالى، يستحقون الثناء والرحمة من الله تعالى، ويشهد لهم بأنهم مهتدون إلى الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «افتُتح الكلام بالنداء، لأنَّ فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم، فإنَّ شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدَّم قبلها ما يهيئ النفس لقولها؛ لتستأنس بها قبل أن تَفْجَأها».

(التحرير والتنوير: ٢/ ٥١).

٢- قال ابن عاشور: «جيء بكلمة (شيء) تهويناً للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢] ولذلك جاء هنا بكلمة (شيء) ». (التحرير والتنوير: ٢/ ٥٤).

٣- في الآية (١٥٥) إخبار عن وقوع الخوف والجوع في الماضي والمستقبل.

٤- ثبت في فضل الاسترجاع، عن أُم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أَجِرْني في مصيبتي، واخلُفْ لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقالت: إن لي بنتاً، وأنا غيور، فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة. (صحيح مسلم - كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة برقم ٩١٨).

٥- الصلاة والصبر من أعظم الأمور المساعدة على الابتلاء.

٦- الابتلاء في الحياة الدنيا سُنَّة الله تعالى في خلقه، والابتلاء المذكور في النقص. وثمة ابتلاء آخر بالزيادة والخيرات، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣].

٧- فضل مقام المؤمن إذا ابتلى فصبر، فإنه يستحق الرحمة والثناء من الله تعالى. وهذه هي الهداية العظمى.

٨- يُسَنُّ قول: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون» عند وقوع المصائب؛ لما لهذه الكلمة من فضل كبير.

٩- مكانة الشهداء العالية عند الله تعالى، وأنَّهم أحياء عند ربِّهم يرزقون.

١٠- فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

١٥٨ - سبب النزول:

عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أنه قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد شيئاً ألا يطَّوَّف بهما. فقالت عائشة: لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه ألا يطَّوَّف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار: كانوا يُهِلُّون لمناة، وكانت مناة حَذْو قُدَيد، وكانوا يتحرجون أن يطَّوَّفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. (صحيح البخاري- التفسير، سورة البقرة، باب ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ برقم ٤٤٩٥. وصحيح مسلم - كتاب الحج، باب بيان أنَّ السعي بين الصفا والمروة ركن، برقم ١٢٧٧).

التفسير:

إن جبلَي الصفا والمروة من معالم العبادة للسعي في الحج والعمرة، فمَنْ قصد البيت الحرام حاجّاً أو معتمراً فلا حرج عليه أن يسعى بينهما، حتى ولو كان المشركون يسعون بينهما، ويتقربون إلى الأصنام، بل يجب عليه السعي، ومَنْ تطوع بالحج أو العمرة بعد قضاء حجه، أو فعل خيراً أياً كان، فإنَّ الله تعالى شاكر له، يثيبه على تطوعه، عليم بأعمال عباده. وأخرج مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت رجع إلى الركن، فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: «إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أبدأ بما بدأ الله به» فبدأ بالصفا. (صحيح مسلم -كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم ١٢١٨). انظر: الآية (٢٣٣) من السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

١٥٩-١٦٠- إنَّ الذين يُخْفُون ما أنزلنا من الآيات الواضحة، والعلم الذي تَحْصُل به الهداية إلى الإسلام من بعد بيانه في التوراة والإنجيل. أولئك البُعَداء عن الحقِّ يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة الملائكةُ والمؤمنون والناس أجمعون، إلا الذين ندموا على كتمانهم، وبَيَّنوا للناس ما أخفوه، فأولئك أصحاب الدرجات العالية، أَقْبَلُ توبتهم، وأنا الله تَوَّاب على مَنْ تاب، رحيم بعباده.

١٦١-١٦٢- إنَّ الذين كذَّبوا بالله ورسوله، واستمروا على ذلك حتى ماتوا، عقوبتهم الطرد من رحمة الله، ويدعو عليهم باللعنة: الملائكةُ والناسُ أجمعون. وهؤلاء الكفار ماكثون في اللعنة ومقيمون في النار، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب، ولا هم يُمْهَلون.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا ما اللاعنون؟ ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾».

٢- وجوب السعي بين الصفا والمروة في فريضة الحج.

٣- قال ابن عاشور: «الكتمان يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، ويكون بإزالته من الكتاب أصلاً، وهو ظاهره، قال تعالى: ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ [الأنعام: ٩١]، ويكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع؛ لأنَّ إخفاء المعنى كتمان له. وحُذِفَ متعلق ﴿يَكۡتُمُونَ﴾ الدال على المكتوم عنه للتعميم، أي: يكتمون ذلك عن كل أحد ليتأتَّى نسيانه وإضاعته». (التحرير والتنوير: ٢/ ٦٦).

٤- نفي الإثم لا يقتضي عدم الوجوب.

٥- فضل التطوع في العبادات.

٦- تحريم كَتْم العلم وشدة عذاب مَنْ فعل ذلك.

٧- قبول الله تعالى توبة التائب.

٨- جزاء الكفار الطرد من رحمة الله تعالى.

٩- قال ابن عاشور: «جاء في الآية (١٦٠) نَظْمٌ بديع تقديره: إلا الذين تابوا انقطعت عنهم اللعنة، فأتوب عليهم، أي: أرضى، وزاد توسُّط اسم الإشارة للدلالة على التعليل، وهو إيجاز بديع».

(التحرير والتنوير ٢/ ٧١).

١٠-يُنظر: صورة جبل الصفا وجبل المروة في الملحق.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾

التفسير:

١٦٣ - ومعبودكم - أيها الناس- هو الله وحده المستحق للعبادة، لا شريك له، متفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وعبودية خلقه له، لا معبود بحق إلا هو، المتصف بسعة رحمته للخلق جميعاً في الدنيا، وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

١٦٤ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم ووكيع وأحمد (كما في تفسير ابن كثير) بسند حسن عن أبي الضحى في قول الله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال: «لما نزلت هذه الآية عجب المشركون، وقالوا: إن محمداً يقول: إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾».

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن عطاء بن أبي رباح نحوه. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٢٥٥).

التفسير:

إنَّ في إيجاد السموات السبع بعظمتها، والأرضين السبعِ بمياهها ويابسها وطبقاتها، واختلافِ الليل والنهار بأحوالها وتتابعها، والسفنِ التي تسير في البحر لنفع الناس بالسفر والتجارة، والذي أنزل الله من المطر فأحيا به الأرض فصارت خضراء بعد جفافها، ونشر فيها من كل أصناف الحيوانات، وتسيير الرياح،

والسحاب الذي تدفعه الرياح بين السماء والأرض، لَدلالاتٍ واضحة على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيته لقوم يتفكَّرون، ويفهمون أدلته واستحقاقه وحده للعبادة.

قال ابن عاشور: «والدابَّة: ما دبَّ على وجه الأرض وقد أذنت كلمة ﴿كُلِّ﴾ بأنَّ المراد جميع الأنواع، فانتفى احتمال أن يراد من الدابة خصوص ذوات الأربع». (التحرير والتنوير: ٢/ ٨٣).

١٦٥ - وبعض الناس المشركين يعبد من دون الله سبحانه أوثاناً يجعلونهم نظراء لله، ويحبُّونهم كحبِّ الله تعالى، والذين صَدَّقوا بالله ورسوله أعظم حبَّاً لله من أولئك المشركين، ولو يعلم المشركون حين يشاهدون عذاب النار أنَّ الله سبحانه هو المتفرِّد بالقوَّة والتصرُّف، وأنَّ الله يعذِّب عذاباً شديد الألم، لَمَا أشركوا بالله سبحانه.

١٦٦ -١٦٧ - وعند هذه المشاهدة للعذاب يتخاصم قادة الكفر مع تابعيهم، وتزول الروابط والمودة بينهم، ويقول أولئك الأتباع: يا ليت لنا عودة إلى الدنيا. ليعلنوا براءتهم من قادتهم، كصنيعهم في البراءة من تابعيهم، وكما أراهم الله تعالى العذاب كذلك يُريهم أعمالهم الخبيثة ندامات عليهم، وليسوا بخارجين من النار أبداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أشار هنا إلى تخاصم أهل النار. وقد بيَّن منه غير ما ذكر هنا في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾». [سبأ: ٣١ - ٣٣].

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير توحيد العبودية.

٢ - إثبات صفة الرحمة لله تعالى.

٣ - وجوب حبِّ الله تعالى، فمَنْ أَحَبَّ اللهَ أحبَّه اللهُ.

٤ - كل المخلوقات في الكون دلائل ساطعة على وحدانية الله تعالى.

٥ - ينظر: صورة جريان الفلك في الملحق.

٦- قال ابن عاشور: «من فوائد هذه الرياح الإعانة على تكوين السحاب، ونَقْله من موضع إلى موضع، وتنقية الكرة الهوائية مما يحل بها من الجراثيم المضرة. وهذان الأمران موضع عبرة ونعمة لأهل العلم. وقد اختير التعبير بلفظ التصريف هنا دون نحو لفظ التبديل أو الاختلاف؛ لأنه اللفظ الذي يصلح معناه لحكاية ما في نفس الأمر من حال الرياح؛ لأن التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة، وقد علمت أن منشأ الريح هو صَرْفُ بعض الهواء إلى مكان، وصَرْفُ غيره إلى مكانه الذي كان فيه». (التحرير والتنوير ٢/ ٨٥).

٧- في الآخرة تزول العلائق بين الكفار من الأسياد وتابعيهم.

٨- يتحسر أتباع الطواغيت على علاقاتهم الدنيوية الخاسرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

التفسير:

١٦٨-١٦٩- يخاطب الله تعالى البشر جميعاً، كلوا من رزق الله حالة كونه مباحاً مستلَذّاً طاهراً، ولا تتبعوا مسالك الشيطان؛ إنَّه عدو لكم ظاهر العداوة. ومن هذه العداوة: أنّه يأمركم بفعل المعاصي والكبائر، وأن تفتروا على الله سبحانه الكذب، بتحريم ما أحلَّ الله لكم، وتحليل ما حرَّم عليكم. و ﴿لو﴾ للشرط، وجوابها محذوف دلَّ عليه الكلام السابق، تقديره: لاتَّبَعُوهم. (انظر: التحرير والتنوير: ١٠٥).

١٧٠- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فرغَّبهم فيه، وحَذَّرهم عذابَ الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وَجَدْنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك من قولهما: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾.

التفسير:

وإذا نُصِحَ الكفار بأن يتَّبعوا هدي القرآن العظيم، رفضوا وأجابوا: لا نَتَّبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. فردَّ الله عليهم موبِّخاً لهم: أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر، ولا بصيرة ترشدهم إلى الخير؟

١٧١- شبَّه الذين كذبوا الله وداعيهم إلى الإيمان بحال الراعي الذي يصيح بالبهائم وهي لا تفهم، وإنما تنقاد للصوت فقط، هؤلاء المكذبون صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا ينطقون بخير، عُمْيٌ عن الهدى، فهم لا يدركون ما ينفعهم.

١٧٢- يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، قد أَبَحْنا لكم الأطعمة المستلذة الحلال التي رزقناكم، واشكروا الله تعالى على نعمه بالقول والفعل ، إن كنتم حقّاً مطيعين له تعبدونه وحده.

١٧٣- لَمَّا ذكر الله تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، كالميتة التي لم تُذبح بطريقة شرعية، وهي ميتة البر، لا ميتة البحر من السمك والجراد، وحَرَّم عليكم الدم المسفوح غير الجامد كالكبد والطحال، وحرَّم عليكم لحم الخنزير كله، وما ذُبِح لغير الله، فمَنْ ألجأته الضرورة بسبب الجوع الشديد، ولم يجد شيئاً من الحلال، فأكل من هذه المحرمات من غير إفساد ولا إسراف، فلا ذنب عليه في ذلك. إنَّ الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم. قال الحافظ ابن كثير: «وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦] وحديث العنبر في الصحيح. وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته». اهـ. وصححه الترمذي (السنن - الطهارة ١/ ١٠٠، ١٠١) وصححه البخاري فيما سأله الترمذي عنه (علل الترمذي ١/ ١٣٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٤٠) وقال البيهقي: حديث صحيح (المعرفة ١/ ١٥٢) وقال البغوي: صحيح متفق على صحته (شرح السنة ٢/ ٥٥) وصححه ابن الملقن، وقال ابن كثير: إسناده جيد (التفسير ٦/ ١٢٦). والألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٦٧).

الفوائد والاستنباطات:

١- مصدر الأحكام من الله تعالى، فهو الذي يحرم ويحلل.

٢- أباح الله تعالى الطيبات، وحرَّم الخبائث.

٣- الأصل في الأشياء الحِلُّ.

٤- تحريم اتباع الشهوات والشبهات.

٥- الشيطان يُسَوِّل للإنسان المعاصي.

٦- الكفار وَلِعُوا بتقليد الآباء في الشرك.

٧- تحريم الميتة ولحم الخنزير، وكل ما في الخنزير لا يجوز الانتفاع به.

٨- جواز أكل ما حرَّم الله بقَدْر عند الضرورة، أي: عندما تهدد الحياة بالموت.

٩- قال الشيخ الشنقيطي:«لم يبيِّن هنا سبب اضطراره، ولم يبيِّنْ المراد بالباغي والعادي، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أنَّ سبب الاضطرار المذكور المخمصة، وهي الجوع وهو قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة: ٣] وأشار إلى أنَّ المراد بالباغي والعادي المتجانف للإثم، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة: ٣] والمتجانف: المائل، ومنه قول الأعشى:

تَجانَفُ عن حِجْرِ اليمامة ناقتي وما قَصَدَتْ من أهلها لِسِوائِكا

فيُفهم من الآية أنَّ الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها».

١٠-الدَّعوة إلى التنبُّه، والحذر من الوسائل والسبل التي يزينها الشيطان للعباد لإيصالهم إلى المعاصي وطرق الضَّلال والغَواية.

١١-قال الأستاذ الدكتور محمد جميل الحبَّال: «ما ورد في الآية الثالثة من سورة المائدة في تحريم أكل الموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع: فإنها جميعاً تشترك بانحباس الدم عند موتها بأحد هذه الطرق المذكورة حيث يشكل الدم المحتبس والملوث داخلها مرتعاً خصباً لنمو الجراثيم وتكاثرها وبالتالي إنتقالها إلى مَنْ يأكلها ولكن إذا أدركت وفيها حياة وتم تذكيتها (ذبحها بالطريقة الشرعية) وخروج القسم الأكبر من دمها فإنها في هذه الحالة يكون أكلها حلالاً». وقال أيضاً: «حَرَّمَ الله تعالى شرب الدم المسفوح (السائل) لأنه قد يكون موطناً لبعض الجراثيم والفيروسات والطفيليات. فالدم المسفوح هو أفضل بيئة لتكاثرها لذلك يضع الطب اليوم مقاييس صارمة للتأكد من خلوه من هذه العوامل في حالة التبرع بالدم. كما يستعمل الدم بالمختبرات المايكروبايولوجية (علم الأحياء المجهرية) كوسط زرعي جيد للتحري عن وجود الجراثيم في النموذج المراد فحصه لكونه مادة مناسبة لنموها وتسمى(Blood Agar)».

١٢-قال الأستاذ الدكتور محمد علي البار: «الأمراض الفيروسية التي يسهم الخنزير في نقلها للإنسان: تعتبر قائمة الأمراض الفيروسية التي تصيب الخنزير طويلة حقاً، وينتقل بعضاً منها إلى الإنسان، ويصيبه ويعرف هذا النوع من الأمراض «بالأمراض حيوانية المصدر» zoonosis. وبعض هذه الأمراض التي تصيب الإنسان خطير وبعضها بسيط، وهناك بعض الأمراض التي تصيب الإنسان بصفة رئيسية فإذا انتقل الفيروس إلى الخنزير يتكاثر الفيروس في خلايا الخنزير بكميات كبيرة ومن ثم ينتقل إلى الإنسان مرة أخرى بدون أن تتغير صفات الفيروس وفي بعض الأحيان يتكاثر الفيروس في خلايا الخنزير، ويختلط بفيروسات أخرى من الخنزير مشابهة له في الصفات الوراثية؛ ويحدث نتيجة لذلك خروج فيروس جديد يحمل صفات مشتركة بين الفيروس الإنساني والفيروس الخنزيري. وقال أيضاً: «الأمراض البكترية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان:

١. الحمى المالطية. ٢. السالمونيلا. ٣. داء البريميات. ٤. داء ليستر. ٥. ميكروبات الكلوستريديا. ٦. الجمرة الخبيثة. ٧. الميكروبات اللاهوائية الأخرى. ٨. ميكروبات المكورات السبحية. ٩.دوسنتاريا الخنزير. ١٠.مرض الراعوم. ١١.ميكروبات الباستوريلا. ١٢.الدرن. ١٣.يرسينيا الأمعاء. ١٤. المفطورة الرئوية». (الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير ص١٣٩-١٦١-٢١١ الدار السعودية للنشر والتوزيع).

١٣-قال الدكتور محمد جميل الحبال: «حَرَّمَ المولى ﷻ أكل الميتة لأن أكلها يكون ضاراً، فموتها ربما كان نتيجة لمرض جرثومي مُعْدٍ أو طفيلي قد ينتقل الى آكل لحم الميتة، حيث إنه عند موتها تتوقف الدورة الدموية والتنفس، وتتكاثر الجراثيم الموجودة طبيعياً في الجسم، وتصبح مؤذية مسببة للأمراض، وتنتقل من أحشاء الميت الى عضلاته، مايجعل أكلَها ضاراً، كما أن تحلُّل أعضاء الحيوان الميت ينتج عنه مواد كيمياوية ضارة».

وقال أيضاً: «الخنزير حيوانٌ لاحم و عشبي تجتمع فيه الصفات السبعية والبهيمية، وهو موغل في القذارة يأكل كل شيء، فيأكل القمامات والفضلات والنجاسات بشراهة ونهم فيكنسها! وهو مفترس يأكل الجرذ والفئران وغيرها، كما يأكل الجيف حتى جيف أقرانه! لذلك كان رجساً، كما وصفته الآية الكريمة، فضلا أنه عديم الغيرة حتى على عائلته.

إن الأمراض التي تصيب الخنزير كثيرة تقارب (٤٥٠) مرضاً، والأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان على نوعين، الأول: الأمراض المعدية (الطفيلية)، والثاني: الأمراض العضوية (الجسمية غير الطفيلية).

فمن النوع الأول (الأمراض الطفيلية):

فالخنزير وسيط لنقل مايقرب من (٧٥) مرضاً طفيلياً إلى الإنسان بعضها خطير وقاتل، ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٣٧) مرضاً وبائياً مُعْدِياً، وتشاركه بعض الحيوانات بنَقْلِ بقية الأمراض، لكنه يبقى المصدر الرئيس لهذه الأمراض، وهذه الأوبئة تنتقل من الخنزير الى الإنسان بطرق مختلفة أهمها:

أ- عن طريق مخالطته أثناء تربيته أو التعامل مع منتجاته (أمراض مهنية): وهي لا تقل عن (٣٢) وباءً تصيب غالباً عمال الزرائب والمجازر والبيطريين، ومنها: أنواع من الفطور العميقة، والزحار، والديدان، والزحار الزقي، و الحمّى اليابانية الدماغية، والتهاب الفم البثري الساري.

ب- عن طريق تلوث الطعام والشراب بفضلاته: وهي لا تقل عن (٢٨) مرضاً، منها: الزحار، والإسكاريس، والانسمام الوشقي، والديدان القنفذية والكبدية والمفلطحة وشوكية الرأس، والدودة المسلحة الخنزيرية، والشعيرات الحلزونية، وغيرها.

ج- عن طريق تناول لحمه ومنتجاته: وهي أكثر من (١٦) مرضاً، منها: داء المبيضات، وداء الحويصلات الخنزيرية، والحمَّى المالطية، والدودة الكبدية، وداء وايل، والدودة الحلزونية الشريطية، والسل، وغيرها.

ومن النوع الثاني (الأمراض العضوية غير الطفيلية):

أ- السرطان: يحتوي جسم الخنزير على كميات كبيرة من هرمون النمو (Growth Hormone)، والهرمونات المنمِّية للغدد التناسلية (Gonadotrophis)، لذلك تزداد الإصابة بالسرطان عند آكلي لحم الخنزير، فقد أظهرت الدراسات الطبية وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم والبنكرياس والكبد والمرارة بصورة عامة عند الجنسين، وسرطان الثدي وعنق وبطانة الرحم عند المرأة بصورة خاصة.

ب- السمنة، وأمراض الشرايين، والقلب: يوجد الدهن في الخنزير متداخلاً مع أنسجة لحمه وبكميات كبيرة؛ لذلك يبدو لون لحمه وردياً (أحمر فاتح) خلافاً للحوم البقر والغنم والمواشي والدجاج، التي يكون فيها الدهن على شكل نسيج دهني شبه مستقل عن النسيج العضلي، فضلاً أن دهون الخنزير من النوع المشبع الذي لا تقدر إنزيمات الجهاز الهضمي للإنسان على هضمها بسهولة، بخلاف الحيوانات المجترة آكلة العشب، مسبباً ذلك الإصابة بازدياد الدهونات الضارة، كالكلسترول الضار، والغليسيريديات الثلاثية (Dyslipidemia) التي تساعد بدورها على الإصابة بالمجموعة التالية من الأمراض: كتصلُّب الشرايين، والذبحة الصدرية، والجلطات الوعائية القلبية والدماغية، وضغط الدم، وحصوات المرارة، والسمنة، وداء السكر البولي، وما يتبع ذلك من مضاعفاتٍ مرضيةٍ خطيرة .

ج- التهاب المفاصل: يحتوي لحم الخنزير على كميات كبيرة من حامض البوليك (Uric Acid)، حيث إن جسمه لا يتخلص إلا من قدر قليل منه لا يزيد عن ٣٪، بينما يتخلَّص الانسان من ٩٠٪ من هذا الحامض، مسبباً بإصابة آكلي لحمه بالتهاب المفاصل، وداء النقرس، وأمراض في الكلى.

د- الأمراض التحسُّسية: يحتوي لحم الخنزير على كميات عالية من مركبات الهستامين والامدازول (Histmamine and Imidazole) مسبِّبةً عند آكليها أمراضاً تحسُّسية جلدية، مثل: الأكزيما، والشري، والحكَّة، والتهاب الجلد العصبي، وغيرها، واذا امتنع آكلو لحم الخنزير عن أكله مطلقاً فإن هذه الأمراض التحسسية تختفي! مما يثبت تسبب أكل لحم الخنزير بحدوثها».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

التفسير:

١٧٤ - إنَّ علماء اليهود والنصارى الذين يُخفون ما أنزل الله في التوراة من الحق والهدى، وشأن صفة نبيِّنا محمد ﷺ؛ لقاء عوض حقير من حطام الدنيا، هؤلاء ما يأكلون في بطونهم إلا حراماً يوردهم نار جهنم، ولا يُكلمهم الله كلام رضا يوم القيامة، ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، ولهم عذاب موجع.

١٧٥ - هؤلاء البعداء عن الحقِّ اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فعجباً لصبرهم وجرأتهم على عمل أهل النار.

١٧٦ - ذلك العذاب بسبب أنَّ الله تعالى نَزَّل كتبه على رسله فيها الحق الثابت فحرَّفوه. وإنَّ اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم بأن آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، وهم في خلاف بعيد عن الحق، وفي عداء أكيد للمؤمنين.

١٧٧ - ليس فعل الخير محصوراً في أن يتوجه المصلي في صلاته نحو المشرق أو المغرب، وإنما الخير كل الخير هو أن يؤمن الإنسان بالله تعالى، وبيوم القيامة، وبالملائكة، وبالكتب المنزلة جميعاً، وبالرسل كافة من غير تفريق، وأعطى المال - مع شدة حبِّه له - لذوي قرابته، واليتامى الذين مات آباؤهم ولم يبلغوا الحُلم، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة، والمسافرين الذين انقطعوا عن مالهم، والسائلين الذين يطلبون العون، وفي الرقاب لتخليص الأسرى والأرقَّاء بالفداء، وأدّى الصلاة في أوقاتها، وأدّى الزكاة لمستحقيها، وأوفى بالعهد، وصبر في حالة الفقر والمرض وفي شدَّة القتال. هؤلاء أصحاب الدرجات العالية الذين جمعوا بين هذه الصفات، هم الذين صدقوا في إيمانهم بالقول والعمل، وهم الذين حَذِروا عقاب الله وخافوا منه.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا ما المراد بالبأس؟ ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البأس القتال، وهو قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨] كما هو ظاهر من سياق الكلام».

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان مصير الذين يكتمون الحق.

٢ - يجب على العلماء بيان شرع الله تعالى، إلا في حالات نادرة كالإكراه.

٣ - البرُّ هو كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من الإيمان والأعمال الصالحة.

٤ - قال ابن عاشور: «حصل بنصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هنا فائدتان: إحداهما عامة في كلِّ قطع من النعوت، فقد نُقل عن أبي علي الفارسي أنه إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف إعرابها، ولا تُجعل كلها جارية على موصوفها. الفائدة الثانية: أنَّ في نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بتقدير أخُصُّ أو أمدح تنبيهاً على خصيصة الصابرين، ومزية صفتهم التي هي الصبر». (التحرير والتنوير: ١٣٢).

٥ - بيان صفات المتقين والصادقين في الآية (١٧٧).

٦ - الذين اختلفوا في كتبهم من اليهود والنصارى يبقون دائماً في خصام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٨) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٨١) فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٨٢) ﴾

التفسير:

١٧٨ - يا أيها المؤمنون، فُرض عليكم القصاص من القاتل عمداً، يقوم به ولي الأمر أو مَنْ ينوبه، على أساس المساواة والمماثلة، فيُقتل الحرُّ بمثله، ويُقتل العبد بمثله، والأنثى بمثلها، ويُقتل الرجل بالمرأة، ولا يُقتل المسلم بالكافر كما صحَّ عن النبي ﷺ، كما لا يُقتل الحرُّ بالعبد؛ لعدم المساواة والمماثلة. فمَنْ سامحه وليُّ المقتول، أو بعضُ الأولياء، فإنَّ القصاص يسقط، وتجب على القاتل الدية - وهي مبلغ مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه - ويلتزم الطرفان بالحقوق، فعلى الذي عفا أن يطلب الدية من القاتل بدون عنف ولا تشديد، ويُنْظره إذا كان معسراً، وعلى القاتل دفع الدية وألَّا يماطل. ذلك العفو هو تيسيرٌ من خالقكم ورحمة بكم، بإسقاط القصاص وانتفاع أولياء المقتول بالمال، فمَنْ اعتدى بعد العفو، كقتل القاتل، أو قتل أقاربه، أو غير ذلك من الظلم، فعقابه عذاب موجع.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في بني إسرائيل القِصاص، ولم تكن فيهم الدِّية، فقال الله ﷻ لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ بالمعروف ويؤدى بإحسان ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ كتب على مَنْ كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قتل بعد قبول الدية. (صحيح البخاري - العلم، باب ٣٩ برقم ١١١. وصحيح مسلم - الحج، باب فضل المدينة برقم ١٣٧٠). عن علي ﷺ مرفوعاً: «لا يقتل مسلم بكافر».

وقد نصَّ الإمام إسماعيل القاضي الجهضمي في كتابه (أحكام القرآن) على الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فقال: «الجمع بين الآيتين أولى، فتُحْمَلُ النفس على المكافئة». (الفتح ١٢/ ١٩٨).

١٧٩- ولكم - أيُّها الناس - في حكم عقوبة القصاص حياة آمنة للمجتمع يا ذوي العقول السليمة، كي تحذروا عقاب الله في الدارين، وهؤلاء أصحاب العقول السليمة هم أهل الطاعة لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

١٨٠- سبب النزول:

ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فكان لايرث مع الوالدين غيرهم، إلا وصية إن كانت للأقربين، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾[النساء:١١] فبيَّن الله سبحانه ميراث الوالدين، وأقرَّ وصية الأقربين في ثلث مال الميت. (التفسير الصحيح ١/ ٢٧١).

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها قال: «يرحم الله ابن عفراء». قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير. (صحيح البخاري - الوصايا - ب٢ برقم٢٧٤٢. وصحيح مسلم - الوصية - باب الوصية بالثلث برقم ١٦٢٨)

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقه لا وصية لوارث». (أخرجه أحمد (المسند ٤/ ١٨٧) والترمذي وقال: حسن صحيح (السنن- الوصايا- باب ما جاء لا وصية لوارث برقم٢١٢١) وذكر الحافظ ابن حجر له شواهد كثيرة، ونقل عن الشافعي أنه متواتر (فتح الباري ٥/ ٣٧٢). وصححه الألباني وقال: إنه متواتر، نقلاً عن السيوطي (الإرواء برقم ١٦٥٥).

التفسير:

فُرِضَ عليكم - أيها المؤمنون - إذا أشرف أحدكم على الموت إن ترك مالاً فلْيُوصِ بجزء من ماله للوالدين والأقربين بالعدل والإحسان، وذلك واجب على المتقين الذين يخافون الله، ثمَّ نُسِخَ حكم الوصية للوارث، وبقيت الوصية لغير الورثة.

١٨١- فمَنْ غَيَّر هذه الوصية بعد ما سمعها من الموصي فإنما الذنب على مَنْ غَيَّر. إنَّ الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم.

١٨٢- فمَنْ علم من الموصي ميلاً عن الحقِّ خطأً أو عمداً، فأصلح بين الورثة والموصى له ما وقع من الخلاف بسبب الوصية بإثبات الحقِّ، فلا ذنب عليه في هذا التعديل. إنَّ الله عظيم المغفرة لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «أُعيد الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنَّ هذا صنف من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامي، واستتباب نظامه وأمنه، حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها». (التحرير والتنوير: ١٣٣).

٢- وجوب إقامة حدِّ القصاص على المجرمين الجناة.

٣- وجوب المساواة في القصاص.

٤- وجوب دفع الدية على القاتل إذا أعفى أولياء المقتول.

٥- الدعوة إلى العفو.

٦- إقامة حدِّ القصاص أَمْنٌ لحياة المجتمع.

٧- التنكير في ﴿حَيَوٰةٌ﴾ للتعظيم بقرينة المقام، أي: في القصاص حياة لكم أي: لنفوسكم؛ فإن فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أُهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس.

٨- قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ من جوامع الكلم، فاق ما كان سائراً مسرى المثل عند العرب وهو قولهم: (القتل أَنْفَى لِلْقَتْل)». (التحرير والتنوير: ١٤٤).

٩- وجوب تنفيذ الوصية إذا كانت خالية من المخالفات الشرعية.

١٠- خصَّ هذا الحق بالمتقين ترغيباً في الرضا به، فليس في الآية دليل على أنَّ هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة.

١١- يجوز التعديل في الوصية إذا عُلِمَ أن الموصي تلاعب بها.

١٢- استحباب إكرام الأقربين المحتاجين من الإرث.

١٣- إنَّ في تشريع القصاص إقامةً لحقوق الإنسان، ورعاية لها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

التفسير:

١٨٣ - يا أيها المؤمنون، فُرض عليكم الصيام، كما فرضه الله على الأُمم السابقة؛ كي تكونوا من المتقين لله، المجتنبين لمحارمه. وذكر العلَّامة ابن عاشور ثلاثة أغراض للتشبيه، أحدها: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها لأنَّها شرعها الله قبل الإسلام لِـمَنْ كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطِّراد صلاحها ووفرة ثوابها. والغرض الثاني: أنَّ في التشبيه بالسابقين تهويناً على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم؛ فإنَّ في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب. والغرض الثالث: إثارة العزائم للقيام بهذه الفريضة حتى لا يكونوا مقصِّرين في قبول هذا الفرض. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصيام وما لأجله شُرِع، فهو في قوة المفعول لأجله لكُتب. (التحرير والتنوير: ٢/ ١٥٤-١٥٥-١٥٦).

١٨٤ - فرض الله عليكم صيام أيام محدَّدة بأيام شهر رمضان. فمَنْ كان من المكلفين مريضاً يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً سفر قصر - مسافة (٨٩) كيلاً تقريباً - فله أن يفطر، ويجب عليه صيام عدد من أيام أُخر بقدر الأيام التي أفطرها، وعلى الذين يستطيعون صيامه، فهم مخيرون بين الإطعام والصيام. وهذا الإطعام يكون للمسكين قدر نصف صاع من البر، أو صاع من تمر، فمَنْ أطعم أكثر من مسكين واحد،

وزاد على قدر الفدية فهو أفضل وأكثر ثواباً، والصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية، إن كنتم تعلمون فضل الصيام، ثمَّ نُسخ هذا التخيير العام بالآية التي تليها، وبقيت رخصة الإفطار وصوم عدَّة من أيام أُخَرَ للمريض والمسافر.

عن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: «لما نزلت ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ كان مَنْ أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها». (صحيح البخاري - التفسير، باب ٢٦ برقم ٤٥٠٧).

١٨٥ - يذكر الله تعالى فضل شهر الصيام؛ لما تميز بنزول القرآن العظيم فيه، أنزله الله هادياً للناس إلى الحق، فيه أوضح الدلائل على هدى الله، وفيه بيان الفارق بين الحق والباطل. فمَنْ حضر منكم الشهر وكان صحيحاً مقيماً فليَصُمْ نهاره، ومَنْ كان مريضاً يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً سفر قصر، فله أن يفطر، ثم يقضي عدد تلك الأيام التي أفطر فيها. يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم، ولا يريد بكم المشقة؛ ولتتموا عدة الصيام شهراً، ولتختموا الصيام بالذكر والتكبير لله تعالى في عيد الفطر على ما أرشدكم إليه من معالم الدين؛ ولكي تشكروا الله بالفعل والقول على فضله. عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرَ رمضان فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تَرَوْه. فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له». (صحيح البخاري - الصوم، باب ١١ برقم ١٩٠٦. وصحيح مسلم - الصيام برقم ٧٦٠).

١٨٦ - وإذا سألك - أيُّها الرسول - عبادي عني فأجبهم بأنّي قريب، أسمع ما يسألون، وأجيب سؤال السائل، فَلْيطيعوني، وليصدِّقوا بي؛ كي يهتدوا إلى سعادة الدارين.

١٨٧ - سبب النزول:

عن البراء ﵁ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإنَّ قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها:أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قالت: خيبةٌ لك، فلما انتصف النهار غُشِي عليه. فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾. (صحيح البخاري ، الصوم باب ١٥ ،برقم ١٩١٥).

عن سهل بن سعد ﵁ قال: «أنزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل من النهار».

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة، باب ٢٨ برقم ٤٥١١).

التفسير:

أحَلَّ الله تعالى لكم - أيُّها المؤمنون - في ليالي شهر رمضان جماع نسائكم، هنَّ سكن لكم، وأنتم سكن لهنَّ، عَلِمَ الله أنكم تخونون أنفسكم في جماع نسائكم، حينما كان الصوم يبدأ عند نوم الصائم بعد الإفطار - ثمَّ نُسخ هذا الحكم - فتاب عليكم، وغفر لكم، بأن وَسَّع عليكم، فالآن بعد أن نُسخ هذا الحكم يجوز لكم جماعهن حتى مطلع الفجر، واطلبوا بنكاحهن ما قدَّره الله لكم من الأولاد، ومباح لكم الأكل والشرب حتى يطلع الفجر عند ظهور النور في الأفق، ويتميز من ظلمة الليل، ثم أمسكوا عن الطعام والشراب ونكاح النساء إلى الليل بغروب الشمس، ولا يجوز لكم نكاح النساء حالة كونكم مقيمين في المساجد للاعتكاف. تلك الأحكام العظيمة التي شرعها الله فلا تخالفوها. وبمثل هذا التوضيح يبيِّن الله أحكام دينه للناس؛ ليطيعوا ربهم، ويحذروا مخالفة أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨٣) استعمال لأسلوب المقايسة القائم على مقارنته بغيره، وفي ذلك تحفيز للناس على الامتثال؛ إذ النفسُ ميالةٌ إلى محاكاة غيرها، والتفاعل معها. فيشعرها ذلك بعدم الوحشة والغرابة.

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ استخدام لأسلوب الترغيب الذي يحرك النفوس للامتثال لما يجنيه من الخير في الحال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وإما في المآل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق.

٣- فرضية صيام شهر رمضان.

٤- غاية الصوم تحقيق تقوى الله.

٥- فرض الصيام في الأديان كلها.

٦- قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «إن الصيام يشتمل على مرحلتي الهدم و البناء (Catabolisim and Anabolisim) لأنسجة الجسم وخلاياه، فبعد وجبتي الإفطار والسحور (والتي تعادل وجبتي العشاء والفطور الصباحي)، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وبعد إكمال فترة امتصاص وجبة السحور يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين (النشويات) (Glucogen) أولاً، والدهون (الشحوم) (Fat) ثانياً، والبروتين (الزلال) (Protein) ثالثاً وأخيراً ليمد الجسم بالطاقة اللازمة أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام، ويحقق بذلك الفوائد الكثيرة والتي سنذكرها لاحقاً، وحتى نتعرف على هذه الفوائد علينا معرفة آلية وفسلجة عمل الصوم، وذلك من خلال العمليات الاستقلابية (الأيضية) (Metabolism) التي تصاحبه، ومن أهمها:

أ- راحة الجهاز الهضمي: يُمَكِّن الصيام الجهاز الهضمي وملحقاته من أداء وظائفه على أكمل وجه، وذلك بعد تناول الطعام والشراب (الوجبة الغذائية) الذي يستغرق هضمها وامتصاصها نحو خمس ساعات (مدة الهضم والامتصاص)، إن مدة الصيام في رمضان تتراوح مابين ١٢-١٦ ساعة في المتوسط، وخلايا الجسم تتغذى باستمرار، ولاينقطع عنها التزود بالطاقة، ولكن في حالة الصيام يبدأ الصيام الحقيقي بعد ٧-١١ ساعة (مدة ما بعد الامتصاص) وذلك بعد وجبة السحور؛ لذلك كان حَثُّ النبي ﷺ وتأكيده على ضرورة تناول وجبة السحور، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحَّروا.. فإن في السحور بركة» متفق عليه. وذلك لإمداد الجسم بوجبة بناء، وبالإمكان تقليص فترة ما بعد الامتصاص إلى أقل زمن ممكن عن طريق تأخير السحور وتعجيل الإفطار، كما جاء ذلك في سنته ﷺ حيث قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور» متفق عليه. وفي ذلك يحقق الصوم راحة فسيولوجية لآليات الهضم والامتصاص، وذلك بعدم إدخال الجديد من الطعام والشراب على الوجبة الغذائية أثناء هضمها وامتصاصها.

ب- تنظيف الأمعاء: تسريع آليات الانقباضات الخاصة (Migrating Motor Complex) في الجهاز الهضمي بتنظيف الأمعاء من الفضلات، وتحقِّق بعض الراحة من عملها المستمر السابق في التقلصات والإفرازات.

ج- تنشيط آليات الاستقلاب (العمليات الأيضية) (Metabolism): حيث يتم تفعيل هذه الآليات في البناء والهدم للنشويات والدهون والبروتينات في الخلايا، لتقوم بوظائفها على أكمل وجه، حيث إنه بعد امتصاص وجبة السحور وإكمال عمليات البناء تبدأ عمليات الهدم والاستقلاب للمخزون الغذائي في الجسم خاصة من كلايكوجين الكبد ودهونه، وكذلك من الدهون المتراكمة في الجسم، فتنشط آليات تحلل كلايكوجين وأكسدة الدهون وتحلل البروتين وتكوين الكلوكوز الجديد منه. إن الجسم إذا اقتصر على البناء فقط وكان همه التخزين للغذاء في داخله، فإن آليات البناء تغلب آليات الهدم، فيعتري الأخيرة (لعدم استخدامها) وهن تدريجي، وترهل في الجسم وظائفه، وتظهر ملامحه عند تعرض الجسم لشدة مفاجئة بانقطاع الطعام أو الشراب عنه في الصحة أو المرض، فقد لا يستطيع هذا الإنسان مواصلة حياته أو مقاومة مرضه، كالجيش في حالة السلم، فإنه إن لم يقم بالمناورات والتدريبات وتنشيط قواته الدائمية والاحتياطية بين فترة وأخرى، فإنه سيصاب بالترهل والضعف، ولا يستطيع تفعيل قواته، وخاصة الإحتياطي منها عند الحالات الطارئة!.

د- إزالة السموم والدهون من الكبد: إن عمليات الهدم (Catabolism) في الكبد أثناء الصيام تغلب عمليات البناء (Anabolism)، فيوفر ذلك فرصة للكبد بطرح السموم المتراكمة في خلايا الجسم وإزالة سُمِّيتها (Detoxification)، وكذلك التخلص من الدهون المتراكمة فيه، خاصة لدى الأشخاص الذين يعانون من السمنة والبدانة وتراكم الدهون الكبدية (Fatty Liver)، فضلاً أنه في الصوم تتحول كميات كبيرة من الدهون المخزونة في الجسم (خاصة في الأحشاء الداخلية وتحت الجلد) إلى الكبد، حيث تؤكسد فيه ويُنتفع بها، وتستخرج السموم الذائبة فيها ويُتخلص منها مع بقايا نفايات الجسد، كما أن الدهون المتجمعة في الكبد تساعد مادة الكولستيرول الموجودة فيه على زيادة إنتاج مركبات الصفراء من الكبد (Bile Acids and Salts)، والتي تقوم بدورها بإذابة هذه المواد السامة والتخلص منها مع البراز.

هـ- تكوين المركبات الحيوية من البروتين: بالنسبة للبروتين فإن الأحماض الأمينية (AminoAcids) هي الوحدات الأساسية له، والتي بدورها تشكل البنية الأساسية للخلايا، وفي الصوم تتجمع الأحماض الأمينية الناتجة عن عمليات هدم الغذاء في الكبد ويحدث تحول داخلي واسع النطاق لها (Interconversion)، ودمجها مع جزيئات أخرى كالبيورين والبيروفين (Purines and Prophyins)؛ لصناعة أنواع جديدة من البروتينات الخلوية والبلازمية والهرمونات، وغير ذلك من المركبات الحيوية.

و- منظومة الغدد الصماء وتنشيطها: يُمكِّن الصيام الغدد الصماء (الهورمونات) ذات العلاقة بعمليات الاستقلاب في فترة ما بعد الامتصاص من أداء وظائفها في تنظيم وإفراز هرموناتها الحيوية على أتم حال، وذلك بتنشيط آليات التثبيط والتنبيه لها يومياً، ولفترة دورية ثابتة ومتغيرة طوال العام، مثل هرمونيّ البناء، وهما هرمون النمو والإنسولين (Growth Hormone and Insuline)، وهورموني الجلوكاجون والكورتيزول (Glugacon and Cortisol)، كهرمونات هدم من ناحية أخرى، وكذلك تحفيز بقية الغدد الصماء المطلوبة وتنشيطها، كالهرمون المضاد لإدرار البول (ADH)، وزيادة القدرة على عمل الكلى لامتصاص الماء، ولتركيز أملاح البول، والمحافظة على معدلات الأملاح، وقوة التناضح (الأسموزية) في مصل الدم ضمن معدلاتها الطبيعية، وتتحسن هذه الخاصية بمرور أيام الصوم في رمضان بالرغم من ازدياد درجة الحرارة وامتداد ساعات الصوم من بداية الشهر إلى نهايته في بعض الفصول! حيث وجد أن المعدلات الاسموزية في مصل الدم في نهاية رمضان مساءً (قبل الإفطار) مساوٍ لمعدلاتها في بدايته صباحاً للأيام الأولى منه، حيث يتأقلم ويتهيأ الجسم بهذه الآلية.

ز- التحرير الذاتي (الداخلي) للماء: إن الله ﷻ جعل للجسم البشري مقدرة على صنع الماء من خلال العمليات والتحولات الكيميائية العديدة التي تحدث في جميع خلايا الجسم، إذ يتكون الماء أثناء العمليات الأيضية المختلفة (Metabolisim)، وقد قدَّر العلماء كمية هذا الماء من ثلث إلى نصف لتر يومياً. ويسمى التحرر الذاتي (الداخلي) للماء (Intrinsic Water)، وفي حاله الصيام يتحرر (٤) ملم مكعب من الماء عند تحلل كل غرام واحد من كلايكوجين الكبد (والذي تزداد كميته بمرور أيام الصوم في رمضان)، محققاً بذلك التروية الداخلية للجسد، ومزيلاً للعطش عند الصائم! وصولاً بالمحافظة على المستويات الطبيعية للأسموزية في الدم (Serum Osmolality)، كما جاء أعلاه.

ح- التكوين الذاتي (الداخلي) للجلوكوز: كما خلق الله للإنسان ماءً داخلياً فقد خلق له طعاماً داخلياً أيضاً! فمن نفايات أكسدة الجلوكوز يُصنَّع الجلوكوز مرَّة أخرى (الذي هو من أهم مصادر الطاقة للجسم وخلاياه)، حيث يتحول كل من حمض اللاكتيك والبيروفيت (Lactic acid & Pyruvate) إلى جلوكوز مرة أخرى! حيث تتوجه هذه النفايات إلى الكبد، فيجعلها وقوداً لتصنيع جلوكوز جديد في الكبد، ويتكون يومياً حوالي (٣٦) جراماً من هذا الجلوكوز الجديد من هذين الحمضين، غير الذي يتكون من الجليسرول والأحماض الأمينية (Glycerol & Amino acid)».

وقال أيضاً: «بناءً على ما ذكرنا أعلاه عن آليات عمل الصوم فإن أهم فوائده الصحية وحسب ما توصل إليه الطبّ حديثاً - وهو غيض من فيض - بأنَّ الصوم الصحيح وقاية وشفاء لكثير من الأمراض، من أهمِّها: زيادة الوزن - داء السمنة — وما يرافقها من مضاعفات، كارتفاع ضغط الدم، وداء السكر، خاصة من النوع الثاني، والمتلازمة الأيضية (Metabolic Syndrome)، وتصلب الشرايين، والتهاب المفاصل العظمي، وحصوات المرارة، والكبد الدهني- تَشَحُّم الكبد -، والقصور الوظيفي في مختلف أعضاء الجسم، فضلاً أن الصوم يقوي جهاز المناعة والقلب، والدورة الدموية، والجهاز العضلي، ويقوي الذاكرة والملكات الذهنية في الإنسان، ويوصي بعض الأطباء النفسيين إلى علاج مرضاهم بالصوم من حالات: القلق النفسي، وعصاب الوسواس القهري، وجموح الرغبة الجنسية، والعادات الضارة: كالتدخين، والخمر، والمخدرات والإدمان عليها، حيث إن الصوم مدرسة الصبر، والصبر نصف الإيمان، والصائم الحقيقي سيد على أهوائه وشهواته وتصرفاته السلوكية، ويقوي إرادته! وقد يكتشف الطب مستقبلاً كثيراً من الفوائد الصحية للصوم وقاية وعلاجاً».

٧- الترخيص لِـمَنْ لا يستطيع الصيام من المرضى بالإفطار، ودفع الفدية أو القضاء.

٨- عظمة شهر رمضان لأنَّ فيه نزول القرآن الكريم.

٩- جواز الإفطار في السفر والقضاء بعد ذلك.

١٠-بشرى استجابة الدعاء، وأن الله تعالى قريب من عباده بعلمه. قال ابن عاشور: «قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ولم يَقُلْ: فقل لهم: إني قريب؛ إيجازاً لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيهاً على أنَّ السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل. وفيه لطيفة قرآنية، وهي إيهام أنَّ الله تعالى تَوَلَّى جوابهم عن سؤالهم بنفسه؛ إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة النبي ﷺ؛ تنبيهاً على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء. وفي هذه الآية إيماء إلى أنَّ الصائم مَرْجُوُّ الإجابة، وإلى أنَّ شهر رمضان مَرْجُوَّةٌ دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان». (التحرير والتنوير: ٢/ ١٧٦-١٧٧).

١١-جواز الجماع والأكل والشرب ليلاً.

١٢-لا يجوز الجماع عند عقد النية على الاعتكاف.

١٣-وجوب الإمساك عن الطعام والشراب والجماع، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

١٤-ينظر: صورة بزوغ الفجر، كما في الملحق.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

التفسير:

١٨٨- ينهى الله تعالى عن أخذ أموال الناس بغير وجه شرعي، كما ينهى عن دفع الرشوة إلى الحكام؛ ليُعينوكم على أَخْذِ قَدْرٍ من المال بالباطل، وأنتم تعلمون تحريم ذلك عليكم.

١٨٩ - سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الجيد عن أبي العالية قال: «بَلَغنا أنهم قالوا: يا رسول الله لِمَ خُلقت الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدَّة نسائهم ومحل دينهم». وأخرجه الطبري بنحوه بسند حسن عن قتادة، فيتقوَّى المرسَل بالمرسَل. (التفسير الصحيح ١/ ٢٨٦).

عن البراء ﷺ قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾».

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة - باب ٢٩ برقم ٤٥١٢).

التفسير:

يُبيِّن الله تعالى الفائدة والحكمة من أحوال الأهلة في كل شهر بالزيادة والنقصان، فيذكر أنَّ الصحابة ﷺ سألوا النبي ﷺ عنها، فأجاب الله تعالى: بأنها علامات يعرف بها الناس أوقات عباداتهم المحددة بوقت، كالصيام، والحج، والزكاة، وغيرها من المصالح، وليس عمل الخير الاقتداء بموروث الجاهلية، بأن تدخلوا المنازل من ظهورها حين تُحْرِمون بالحج أو العمرة، ولكن الخير هو في تقوى الله، بالتزام أوامره واجتناب معاصيه، وادخلوا المنازل من أبوابها، واخشوا الله تعالى في أحكامه؛ كي تفوزوا بسعادة الدارين.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ لم يصرح هنا بالمراد بمن اتقى، ولكنه بَيَّنه بقوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

١٩٠ - يُعَلِّم الله تعالى المؤمنين أصول الجهاد في سبيل الله للتعامل مع المحاربين للإسلام والمسلمين، فيخاطب المؤمنين: قاتلوا الذين يقاتلونكم من الكفار لنصرة دين الله، ولا تعتدوا على المحاربين بالتمثيل، ولا على غير المحاربين من النساء والأطفال والعجزة، ثم أكَّدَ سبحانه هذا النهي بنفيه محبَّته للمعتدين، وسيعاقبهم.

١٩١ - واقتلوا المشركين المحارِبين الذين بدؤوكم بالقتال أينما وُجِدوا إلا في المسجد الحرام، وأخْرِجوهم من ديارهم مثل ما أخرجوكم من مكّة. وهذا الأمر أهمية؛ لأنَّ الشرك وفتنة المؤمنين عن دينهم أعظم

جرماً من قتلهم، ولا تبدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدؤوكم بالقتال فيه، فإن قاتلوكم فيه فقاتِلوهم فيه. مثلَ ذلك العقاب يكون جزاء المكذِّبين لله ورسوله.

١٩٢ - فإن رجعوا عن الكفر والقتال فكُفُّوا عنهم، فإنَّ الله غفور لعباده، رحيم بهم، والإسلام يَجُبُّ ما قبله.

١٩٣ - وقاتلوا المشركين المحاربين حتى لا تكون فتنة للمسلمين عن دينهم، وحتى لا يبقى شِرك بالله، ويبقى الدين لله وحده خالصاً، فإنْ كَفُّوا عن الكفر والقتال فكُفُّوا عنهم، فلا عقوبة إلا على المُصِرِّين على شركهم، ومحاربتهم للمسلمين.

١٩٤ - ومَنْ قاتلكم في الأشهر الحرم - وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب - فقاتلوه فيها، وهكذا في كل الحرمات والمقدسات الزمانية والمكانية، وغيرها، فإن الجزاء من جنس العمل بالمثل. فمَنْ استباح قَتْلَ النفس البريئة هُدر دمه، وللمعتدَى عليه ردُّ العدوان بمثله، وخافوا الله مِن تَجاوُزِ حدوده، واعلموا أنَّ الله مع المتقين بالعون والنصر.

١٩٥ - سبب النزول:

عن حذيفة ﷺ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: «نزلت في النفقة».

(صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة - باب ٣١ برقم ٤٥١٦).

التفسير:

وبما أنَّ القتال في سبيل الله يحتاج إلى المال، فقد أمر الله تعالى بإنفاق المال لنصرة دين الله والجهاد في سبيل الله، كما نهى عن تَعَرُّض النفس للهلاك بسبب البخل وعدم الإنفاق الذي يؤثر في مسار الجهاد في سبيل الله، وأحسنوا في الإنفاق والإخلاص في العمل. إنَّ الله يحب الذين يُحْسِنون لأنفسهم وأُمتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٢ - تحريم دفع الرشوة لأي مسؤول.

٣ - قرار الحاكم ما يدل عليه الظاهر، لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّم حلالاً.

٤ - ينظر: صورة الأهلة، كما في الملحق.

٥ - الآية (١٨٩) فيها تنبيه على وصل العلم بالعمل والسؤال عما فيه عمل لتربية الفكر على البحث فيما يترتب عليه فائدة تعود على المرء بما يصلح دينه وآخرته.

٦- في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اهتمام بحقيقة المفهوم والمصطلح وأن تسمية الأشياء على غير حقيقتها مضر بسلوك الفرد وتصوره. ومرجع ذلك في الدين كتاب الله وسنة رسوله، فالخير ما دلانا عليه والشر ما حذرانا منه.

٧- وجوب جهاد الدفع إذا اعتُدِي على الوطن أو على المسلمين.

٨- تحريم الاعتداء في الحرب على الأطفال والنساء والتمثيل بالأسرى.

٩- تحريم القتال في المسجد الحرام إلا إذا باشر العدوُّ القتالَ فيه.

١٠- تحريم القتال في الأشهر الحرم.

١١- وجوب إيقاف القتال إذا توقف العدو عن القتال.

١٢- من استباح دَمَ غيره حُلَّ إباحة دمه، سواء في الحرم أو في الأشهر الحرم وغيرهما.

١٣- وجوب المماثلة في ردِّ الاعتداء. ويُستنبط من ذلك وجوب الإعداد لكل ما تحتاج إليه الأُمة، حسبما تمتلكه الأُمم الأخرى.

١٤- ترك الإنفاق في سبيل الله يؤدي إلى الضعف والبوار.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ فإنَّه يحب مَنْ أحسن في القول والعمل.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾

١٩٦- سبب النزول:

عن كعب بن عجرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ وقف عليه ورأسه يتهافت قملاً، فقال: أيؤذيك هوامُّك؟ قلت: نعم. قال: فاحلق رأسك. قال: ففيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ

﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فقال لي رسول الله ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام، أو تَصَدَّقْ بعذق بين ستة مساكين، أو انسك ما تيسر». (صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة - باب ٣٢ برقم ٤٥١٧. وصحيح مسلم - الحج - باب ١٠ برقم ٨١، واللفظ لمسلم).

وفي رواية لمسلم بلفظ: «احلق رأسك ثم اذبح شاة نُسُكاً». (الصحيح - الحج برقم ٨٤).

التفسير:

وأدُّوا مناسك الحج والعمرة على وجه التمام والكمال بأركانهما وشروطهما، قاصدين بهما وجه الله، فإن منعكم من إتمامهما عدو أو مرض أو نازلة وأنتم حُرم، فيجب عليكم ذَبْحُ ما تيسَّر من الإبل أو البقر أو الغنم للتحلُّل من الإحرام، ولا تحلقوا رؤوسكم للإحلال من الإحرام حتى يُذْبَحَ الهدي في الحرم أو في مكان الإحصار، ثم يحل من إحرامه. ومَنْ كان مريضاً، أو برأسه علَّة تستوجب الحلق، فليحلق، ويجب عليه فدية يخير فيها: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو إهداء شاة لفقراء الحرم. فإذا كنتم في صحة وأمن من الخوف، فمَنْ استمتع بالعمرة إلى الحج - أي: تحلَّل بعمرة فاستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب، والنساء، وغيرها - أو قَرَنَ العمرة بالحجِّ فعليه ذَبْحُ ما تيسر من الهدي - المذكور سابقاً - ، فمَنْ لم يملك ثمن الهدي، فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة منها في أشهر الحج، والسبعة الأخرى يصومها عند الفراغ من أعمال الحج والرجوع إلى الأهل. تلك عشرة أيام كاملة لابد من صيامها. وذلك الحكم في التمتع والهدي لغير أهل الحرم المقيمين في مكة. واتقوا الله في أحكامه، واعلموا أنَّ الله شديد العقاب لِـمَنْ خالف أمره.

١٩٧- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾».

(صحيح البخاري - الحج، باب ٦ برقم ١٥٢٣).

التفسير:

زمن الحجِّ يستغرق أشهراً معلومات، وهي: شوَّال، وذو القعدة، وذو الحجَّة أو عشر من ذي الحجَّة، فمَنْ ألزم نفسه الحج بالإحرام فيحرم عليه الجماع ودواعيه، ويحرم عليه المعاصي، والجدال الذي يفضي إلى النزاع. وما تفعلوا في الحج من أعمال البر يعلمه الله ويثيب عليه، وتزودوا للحج بزاد الطعام والنفقة، وللآخرة بالعمل الصالح، فإنَّ خير ما تزودتم به هو التقوى، وخافوا عذابي يا أصحاب العقول السليمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:... وأشهر الحج التي ذكر الله تعالى: شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن تمتع في هذه الأشهر فعليه دم أو صوم. (صحيح البخاري - الحج، باب ٣٧ برقم ١٥٧٢).

١٩٨ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثّموا أن يَتَّجِروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج». (صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة، باب ٣٤ برقم ٤٥١٩).

التفسير:

لا حرج ولا إثم عليكم أن تطلبوا الرزق بالربح من التجارة أيام الحج، فإن انطلقتم من عرفات إلى المزدلفة فاذكروا الله باتباع النبي ﷺ، وإن كنتم من قبل هذا الهدي لَـمِنَ الجاهلين البعيدين عن الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العناية بشعائر الحج والعمرة والقيام بها حسبما أمر الله تعالى، ومنها إتمام الحج والعمرة لِـمَنْ بدأ فيهما من الميقات، فلا يجوز له التحلل منهما قبل تمام الحج، ما لم يتعرض لإحصار.

٢- التيسير للمحرم في الحج: فله أن يتحلل من الإحرام إن أصابه مرض أو فاجأه عدو، يَفْدي عن ذلك ما تيسر من الإبل أو البقر أو الغنم، وله أن يحلق إذا أصيب بأذى في رأسه، ويدفع فدية ذلك.

٣- إباحة التمتع في الحج من التيسير في الحج.

٤- في الآية (١٩٧) بيان أن التخلص من هذه الآفات يحتاج إلى دفع نوازع الشر وإعمال العقل الذي يختار الأبقى على الفاني ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

٥- تحريم الجماع ودواعيه في الحج، وكذلك تحريم الجدال فيما لا ينفع.

٦- الحثُّ على أعمال البرّ في الحج.

٧- جواز التجارة والعمل للمحرم في الحج.

٨- ينظر: صورة موقع عرفات ومزدلفة، كما في الملحق.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

التفسير:

١٩٩- ثم اندفعوا من المزدلفة صباح يوم العيد لرمي الجمار وذبح الهدي وبقية أعمال الحج. وهذا يشمل أيضاً أمر الاندفاع من عرفات التي أفاض منها إبراهيم ﷺ، مخالفين بذلك مَنْ لا يقف بها من أهل الجاهلية، واسألوا الله تعالى المغفرة. إنَّه غفور لعباده المستغفرين، رحيم بهم.

٢٠٠- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهمَّ اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام وِلادٍ حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

(ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٣٠٣).

التفسير:

فإذا فرغتم من أعمال الحج، فأكثروا من ذكر الله بالتهليل والتكبير والثناء، مثل ذكر مفاخر أسلافكم، بل أكثر ذكراً وتضرعاً، فمِنَ الناس من يقتصر على طلب الدنيا وما فيها، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة نصيب؛ لأنَّ همَّهم الدنيا.

٢٠١- ومِنَ الناس طائفة من المؤمنين يسألون الله تعالى من نِعَمِ الدنيا، وكذلك يسألونه الجنة في الآخرة، وأن ينجيهم من عذاب النار.

٢٠٢- أولئك أصحاب الدرجات العالية الذين جمعوا بدعائهم سعادة الدارين لهم ثواب عظيم؛ بسبب ما قدَّموه من الأعمال الصالحة. والله سريع الحساب لجميع خلقه.

٢٠٣- واذكروا الله تعالى تعظيماً وشكراً له في أيام التشريق الثلاثة (١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجَّة) فمَنْ أراد التعجل بالخروج من منى قبل غروب الشمس في اليوم الثاني عشر فلا حرج عليه، فقد قضى حَجَّه، إن كان قد اتقى الله في حَجِّه ولم يرفث ولم يفسق، ومَنْ تأخر إلى اليوم الثالث عشر فلا حرج عليه، إن اتقى الله في حجِّه. وخافوا الله في جميع أموركم، واعلموا أنكم مجموعون إلى الله في الآخرة؛ لنيل الجزاء.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النحر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يقول: مَنْ نفر من مِنَى في يومين بعد النحر فلا إثم عليه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخره فلا حرج عليه.

٢٠٤-٢٠٥- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أصيبت هذه السرية أصحاب خبيب بالرجيع بين مكة والمدينة، فقال رجال من المنافقين: يا ويحَ هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدَّوا رسالة صاحبهم! فأنزل الله ﷻ في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يظهر بلسانه من الإسلام ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ أي: من النفاق ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: ذو جدال إذا كلَّمك وراجعك ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: خرج من عندك ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب عمله ولا يرضاه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الذين شَرَوا أنفسهم لله بالجهاد في سبيل الله والقيام بحقه حتى هلكوا على ذلك - يعني هذه السرية -

أخرج الشيخان عن عائشة مرفوعاً: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ».

(صحيح البخاري- تفسير سورة البقرة، باب ٣٧ برقم ٤٥٢٣، وصحيح مسلم- العلم، باب الألد الخصم برقم ٢٦٦٨).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ والمسلمين من المنافقين: وبعض الناس من المنافقين يروقك - أيها النبي - قوله في الدنيا بفصاحته ومجاملته للمؤمنين، ويحلف على صدق ما في قلبه من محبة الرسول والإسلام، وهو أشد الناس عداوة وخصومة للمؤمنين، وإذا انصرف عنك بذل جهوده ليفسد في الأرض بالتخريب، ويدمِّر الزرع وذرية الإنسان ونسل الحيوان. والله لا يحب عمل الفساد، ولا يرضى به.

٢٠٦- وإذا وُعِظَ ذلك المنافق، وذُكِّر بالله والخوف منه، فإنه يرفض، وتحمله الأنفة والكِبْر على الاستمرار بفعل الفساد والملابسة للإثم والظلم، فعقابه نار جهنم تكفيه، وبئس الموضع الذي يُؤْويه.

٢٠٧- وبعض الناس من المؤمنين يبيع نفسه طلباً لرضا الله عنه بالجهاد في سبيل الله، والقيام بحقه حتى بلوغ أجله. والله شديد الرأفة بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - جواز التعجل بالخروج من منى قبل غروب الشمس في اليوم الثاني عشر.

٢ - من علامات المنافقين القول الجميل مع العمل السيئ.

٣- تحذير المؤمنين من مكر المنافقين.

٤ - المنافق يرفض النصيحة والوعظ غالباً.

٥ - يقول الخبراء: من وسائل المفسدين في الأرض في إهلاك الحرث:

أ- استخدام كيماويات خطرة بتركيزات مميتة للمزروعات ومبيدة للثروة النباتية في الدول المعادية لها. ومن أشهر هذه المواد الحربية مادة T4D وهي تسبب حدوث سرطانات في جسم النبات، واستخدام القنابل الذرية والهيدروجينية.

ب- إحراق النباتات بالقنابل الحارقة مثل النابالم الشديد الاشتعال وغيره من وسائل الإحراق.

(الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٧٦-٧٧).

٦ - إنَّ المؤمن إذا أخطأ أو أذنب لم تأخذه أنفةٌ ولا كِبْرٌ عن الاعتراف بالذنب، والإقلاع عنه حال النصيحة له.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٠٨- يخاطب الله جميع المؤمنين: ادخلوا في الإسلام بكلِّيته، عاملين بجميع أحكامه، وادخلوا في السلم جميعاً، ولا تتبعوا مسالك الشيطان وأعماله. إنه لكم عدو ظاهر العداوة، ومن ذلك إشعال الفتن بينكم.

٢٠٩- فإن اتبعتم مسالك الشيطان، وعَدَلْتم عن طريق الحق بعد ما قامت عليكم الحجج الواضحة، فاعلموا أنَّ الله عزيز في انتقامه، حكيم في أحكامه.

٢١٠- يُنكر الله على الكفار ويهددهم: ما ينتظر هؤلاء الكفار بعد قيام الحجج الواضحة إلا أن يأتيهم الله فيما يشاء في كُتَل مُظِلَّةٍ من السحاب، وأن تأتي الملائكة المكلَّفون بأمور العباد لتنفيذ أمر الله فيهم، وإلى الله مرجع أمور العالمين.

٢١١- يوبِّخ الله بني إسرائيل في زمن النبيِّ ﷺ، فيأمر نبيَّه ﷺ أن يسأل ذريَّة يعقوب عليه السلام: كم أعطيناهم من المعجزات الواضحة التي تُرْشدهم إلى الحقِّ، ولكنَّهم جحدوها وحَرَّفوها. ومَنْ يجحد الحقَّ ويغيِّره بعد معرفته فإنَّ الله شديد العقاب له.

٢١٢- جُعلت شهوات الدنيا قرة عين للذين كذَّبوا بالله ورسوله، وهم يهزؤون بالمؤمنين. والذين خافوا الله فوق الذين كفروا يوم القيامة؛ لأنهم في درجات عالية من الجنة، ويضحكون من الكفار الذين سيستقرون في الدرك الأسفل من النار، والله يمنح الرزق الواسع مَنْ يشاء من خلقه بغير حساب.

قال ابن عاشور:«حُذف فاعل التزيين؛ لأن المزيِّن لهم أمور كثيرة: منها خَلْقُ بعض الأشياء حسنة بديعة كمحاسن الذوات والمناظر، ومنها إلقاء حُسن بعض الأشياء في نفوسهم، وهي غير حسنة كقتل النفس. وقوله:﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على جملة ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلخ، وهذه حالة أعجب من التي قبلها، وهي حالة التباهي والغرور؛ إذ لم يقتصروا على افتتانهم بزهرة الحياة الدنيا حتى سخروا بمَنْ لم ينسج على منوالهم من المؤمنين». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

٢١٣- كان الناس منذ زمن آدم إلى زمن نوح متفقين على الإيمان بالله تعالى، ثم اختلفوا، فبعث الله الأنبياء هداية للبشر، مبشِّرين المؤمنين بالجنة، ومُنذرين الكفار من النار، وأنزل معهم الكتب السماوية بالحق الثابت ليحكموا بما فيها بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف في الكتب السماوية إلا اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل؛ إذ فيها الأدلة الواضحة على صدق الكتاب ونبيه محمد ﷺ. وهذا الخلاف من أجل الظلم والحسد، فوَفَّق الله المؤمنين بفضله إلى تمييز الحق من الباطل، والله يُوَفِّق مَنْ يشاء من عباده إلى الطريق القويم.

أخرج الطبري والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومُنذرين. قال: «وكذلك هي في قراءة عبدالله: «كان الناس أُمة واحدة فاختلفوا».

(وصححه الحاكم ووافقه الذهبي- المستدرك ٢/ ٥٤٦. وصحح إسناده ابن كثير في التفسير ١/ ٢٥٠).

قال ابن عاشور: «والتعريض بأهل الكتاب - وهم أشهر أهل الشرائع يومئذٍ - فيما صنعوا بكتبهم من الاختلاف فيها، وهذا من بديع استطراد القرآن في توبيخ أهل الكتاب. وجيء بالموصول دون غيره من المعرفات لما في الصلة من الأمر العجيب، وهو أن يكون المختلفون في مقصد الكتاب هم الذين أعطوا الكتاب؛ ليزيلوا به الخلاف بين الناس، فأصبحوا هم سبب خلاف فيه». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- طريق الإسلام واحد، وطرق الشيطان متعددة.

٢- التحذير من مداخل الشيطان.

٣- تقرير أنَّ الله ﷻ يأتي في ظُلَلٍ من الغمام يوم القيامة للحساب.

٤- إعطاء الله تعالى لبني إسرائيل الكثير من الآيات الباهرة والدلائل الظاهرة، ولكنهم لم يَرْعَوْها حق رعايتها.

٥- مَنْ جَحَدَ نِعَم الله تعالى استحق العقاب.

٦- غرور الكفار بملذات الدنيا أحد أسباب السخرية بالمؤمنين.

٧- مقام المؤمنين في الآخرة أعلى وأغلى من منازل الكفار.

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لم يبين هنا فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة، ولكنه بيَّن ذلك في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٥] وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

٩- قال ابن عاشور: «الآية (٢١٣) تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين، أي: في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافاً في أصول الشريعة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٤).

١٠- البشرية كانت على التوحيد مدة عشرة قرون من الزمن، ثم دَبَّ الشرك فيها.

١١- من رحمة الله تعالى إرسال الرسل للتبشير بالجنة، والتحذير من النار.

١٢- الرجوع إلى حكم الله تعالى لحلِّ الخلاف والنزاع.

١٣- المؤمنون يتبعون الحق، فيرشدهم الله إلى الطريق الصحيح.

١٤- في الآية (٢١٢) إخبار عن أمر مستقبلي عن رزق الله تعالى بغير حساب لِـمَنْ يشاء من عباده.

١٥- في الآية (٢١٣) إخبار عن أمر مستقبلي عن هداية الله تعالى إلى الإسلام لِـمَنْ يشاء.

١٦- ينظر: شجرة الأنبياء والرسل، كما في الملحق.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

التفسير:

٢١٤- هل تظنون - أيها المؤمنون - أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان وحده، ولمَّا يُصبكم الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين سبقوا، فقد أصابهم الفقر، والمرض، والرعب، وأُزعجوا بأنواع من البلايا، حتى استبطأ الرسول والمؤمنون معه النصر من الله تعالى، فيقولون: متى يأتينا نَصْرُ الله الذي وُعِدْنا به؟ ألا فأَبْشِرُوا بالنصر، فإنه قد حان أوانه.

٢١٥- يسألك أصحابك أيها النبيُّ: ماذا ينفقون؟، وعلى مَنْ ينفقون؟ فأجبهم: أنفقوا ما تيسر من أصناف المال الحلال للوالدين والأقربين من أهليكم، واليتامى الذين فقدوا آباءهم، ولم يَبْلُغوا الحُلُمَ، والفقراء، والمسافرين الذين فارقوا أموالهم، وما تقدِّموا من خير فإن الله عالم به، ومجازٍ عليه.

٢١٦- فُرض عليكم - أيُّها المؤمنون - قتال الكفار لحماية الدين وأهله، وهو شاقٌّ تستثقله النفوس؛ لما فيه من التضحيات، وربما تكرهونه وهو خير لكم، وقد تحبون الراحة وترك القتال وهو شرٌّ لكم. وهذا الفرض فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ويكون فرض عين على كل مسلم إذا داهم العدو بلاد المسلمين. والله يعلم ما فيه مصالحكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فاستجيبوا لله.

٢١٧- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فجلس. فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، فقال: «لا تُكْرِهَنَّ أحداً على السير معك من أصحابك». فلما قرأ الكتاب، استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلَقُوا ابن الحضرمي، فقتلوه. ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى؟ فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ الآية. (وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١١)، وحسنه الحافظ ابن حجر (العجاب في بيان الأسباب ق ٨٧ ب) وصححه السيوطي في الدر المنثور).

التفسير:

يسألك بعض الناس - أيها النبيُّ - عن جواز القتال في الشهر الحرام في شهر رجب عندما قُتل أحد المشركين على أيدي أحد المسلمين، فجاء الجواب: قل يا محمد: القتال فيه ذنب عظيم، ولكن منعكم في الشهر الحرام عن الدخول في الإسلام، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم النبي ﷺ والمؤمنين من أهل مكة أعظم ذنباً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والشرك الذي أنتم عليه، وفتنة المؤمنين عن دينهم أكبر إثماً من القتل. ولا يزال الكفار يقاتلونكم أيها المؤمنون، وهذا القتال مستمر حتى يردُّوكم عن دينكم إلى الكفر إن تمكنوا من ذلك، ومن تنازل إلى رغبتهم منكم، وارتدَّ عن دينه فمات على الكفر، فأولئك البعداء عن الحقّ بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا والآخرة، وأولئك البعداء عن رحمة الله أهل النار هم فيها ماكثون أبداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ لم يبين هنا هل استطاعوا ذلك أولا؟ ولكنه بَيَّن في موضع آخر أنهم لم يستطيعوا، وأنهم حصل لهم اليأس من رد المؤمنين عن دينهم، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] وبَيَّنَ في مواضع أخر أنه مظهر دين الإسلام على كل دين كقوله في براءة، والصف، والفتح ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٨]».

٢١٨- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: «بعث رسول الله ﷺ رهطاً، وبعث عليهم عبد الله بن جحش فقال بعض المشركين: إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾».

(التفسير الصحيح ١/ ٣١٧).

التفسير:

إنَّ المؤمنين الذين عملوا الصالحات، والذين فارقوا الأهل والأوطان، وقاتلوا الأعداء لإعلاء كلمة الله، أولئك أصحاب المنزلة العالية يرغبون في ثواب الله وفضله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «﴿أم﴾ في الإضراب كـ «بل» إلا أنَّ «أم» تؤذن بالاستفهام، وهو هنا تقرير بذلك وإنكاره إن كان حاصلاً أي: بل أَحَسِبْتُم أن تدخلوا دون بلوى، وهو حسبان باطل لا ينبغي اعتقاده». (التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٧).

٢- من حكمة الله تعالى ابتلاء الأُمة؛ للتعوَّد على الصبر والمرابطة حتى تؤهل للنصر.

٣- وجوب الصبر على الأذى والعذاب فإنه اختبار للمؤمنين، والمهم أن ينجحوا في هذا الاختبار.

٤- وَعْدُ الله حق بنصره لعباده المؤمنين.

٥- خير النفقة ما كانت للوالدين والأقرب فالأقرب.

٦- فرضية الجهاد للدفاع عن الدين والوطن والمسلمين، وإعلاء كلمة الله تعالى.

٧- من حكم تحريم القتال في الأشهر الحرم تأمين سبل الحج والعمرة.

٨- تحذير المؤمنين من فتن الكفار، وخطورة الردة فإنَّها تحبط أعمال الدنيا.

٩- بيان فضل مَنْ يهاجر ويجاهد في سبيل الله ابتغاء رحمة الله ومغفرته.

١٠- قال ابن عاشور: «حكمة تشريع قتل المرتد - مع أنَّ الكافر بالأصالة لا يُقتل- أن الارتداد خروج فرد أو جماعة من الجماعة الإسلامية فهو بخروجه من الإسلام بعد الدخول فيه ينادي على أنَّه لما خالط هذا الدين وجده غير صالح، ووجد ما كان عليه قبل ذلك أصلح، فهذا تعريض بالدين واستخفاف به، وفيه أيضاً تمهيد طريق لِـمَنْ يريد أن ينسلَّ من هذا الدين وذلك يقضي إلى انحلال الجماعة».

(التحرير والتنوير: ٢/ ٣١٩).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

٢١٩-٢٢٠- سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية في سورة البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ قال: فدُعِيَ عمرُ، فقُرئت عليه. فقال: اللهم بيّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أَنْ لا يقربَنَّ الصلاة سكران، فدُعِيَ عمر، فقُرِئَتْ عليه. فقال: اللهم بيّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة. فدُعِيَ عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.

(مسند الإمام أحمد برقم ٣٧٨، وأبو داود (السنن، الأشربة برقم٣٦٧٠)، والترمذي (السنن - التفسير برقم٣٠٤٩)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٢٧٨)، ونقل ابن كثير تصحيحه عن علي بن المديني. وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وصححه محققو المسند (١/ ٤٤٢ برقم ٣٧٨).

التفسير:

يسألك المسلمون - أيُّها الرسول - عن حكم الخمر، وهو كل مسكر خامر العقل. ويسألونك عن حكم القمار - وهو أَخْذُ المال وإعطاؤه بالمقامرة، وهي المغالبات التي فيها عوض من الطرفين - قل لهم: في تعاطيها ذنب كبير، ومفاسد كثيرة، وفيهما أيضاً منافع مالية ضئيلة لكنها خبيثة، وجرمهما أكبر من نفعهما؛ لما فيهما من الصَّدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، ووقوع العداوة، وكان هذا تدرُّجاً وتمهيداً لتحريمهما. ويسألونك عن القدر الذي ينفقونه في سبيل الله، قل: أنفقوا ما زاد على الحاجة ونفقة العيال. مثل ذلك التوضيح يبيّن الله لكم الآيات والأحكام؛ كي تتأملوا في سعادة الدارين.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لم يبيِّن هنا ما هذا الإثم الكبير؟ ولكنه بيَّن في آية أخرى أنه إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والصَّدّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]».

ويسألونك عن معايشة اليتامى ومخالطتهم والإشراف على شؤونهم وأموالهم. قل لهم: العيش معهم لإرشادهم والمحافظة على أموالهم خير من تركهم، وإن تخالطوا أموالهم مع أموالكم فلكم ذلك؛ لأنهم إخوانكم في الدين، وعلى الأخ أن يحافظ على مصلحة أخيه، والله يعلم المفسد لأموالهم، بأكْلِها وتضييعها، ويعلم المصلح لها بتنميتها وإصلاحها. وفي ذلك وَعْدٌ ووعيد. ولو أراد الله لَضَيَّق عليكم بتحريم المخالطة، ولكنه يَسَّرَ لكم الأمر. إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره.

٢٢١- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من نكاح المشركات: لا تتزوجوا المشركات الوثنيات حتى يدخلن في الإسلام، واعلموا أن التزوج بمملوكة مسلمة خير من حُرَّةٍ مشركة، وإن أعجبتكم المشركة بجمالها أو مالها، ولا تُزَوِّجُوا المشركين بالمؤمنات، وتزويج مملوك مؤمن خير من حرٍّ مشرك، وإن أعجبكم المشرك، فهؤلاء المتصفون بالشرك البعداء عن رحمة الله يدعون كلَّ مَنْ يعاشرهم إلى الخبائث الموجبة للنار، والله يدعوكم إلى هذا الدينِ، الإسلامِ المؤدي إلى الجنة ومغفرة الذنوب، ويوضِّح الله آياته وأحكامه للناس؛ لكي يتعظوا.

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر عمومه شمول الكتابيات، ولكنه بيَّن في آية أخرى أن الكتابيات لسن داخلات في هذا التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥] فإن قيل: الكتابيات لا يدخلن في اسم المشركات بدليل قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] والعطف يقتضي المغايرة، فالجواب: أن أهل الكتاب داخلون في اسم المشركين كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣١]».

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله:﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥]. (ينظر: التفسير الصحيح ١/ ٣٢١).

الفوائد والاستنباطات:

١ – قال الدكتور محمد جميل الحبّال: «إن الخمر هي من المشروبات المسكِرة التي تحتوي على مادة مخدرة سامة لخلايا الجسم عامة، وللخلايا العصبية خاصة، وهي الكحول الأثيلي(Ethyl Alcohol-Ethanol) الذي يؤدي الى الإدمان، والإدمان هو التعلق الجسدي والنفسي (Addiction- Physical and Psychological) بالمادة المخدِّرة، واللجوء إلى زيادة الجرعة منها تدريجياً للحصول على المفعول المخدر نفسه الذي يحصل عليه المدمن سابقاً، ويحصل ذلك حتى لو تناولها الشخص بكميات قليلة وبصورة دائمية، حيث إن مفعولها تراكمي، وينتج عنه عشرات الأمراض في مختلف أجهزة الجسم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ- الجهاز الهضمي: التهابات وتقرحات ونزيف وتصلب وضمور وسرطان يصيب مختلف أعضاء الجهاز الهضمي، كالفم والمريء والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد (التهاب وتشمع وسرطان الكبد الكحولي) (Alcoholic Hepatitis, Cirrhosis and Cancer).

ب- القلب وجهاز الدوران: ارتفاع ضغط الدم، والخنّاق الصدري، وتضخم عضلة القلب مع قصوره (اعتلال القلب الكحولي-Alcoholic Cardiomyopathy)، واضطراب في النظم القلبية (Dysarrhythmias) وتصلب الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية (الأوعية الدموية) نتيجة لتراكم الدهون على جدرانها، فتصبح متصلبة ضيقة مؤدية للإصابة بالجلطات القلبية والدماغية، وكذلك في الأطراف لقلة التروية الدموية (Ischemia).

ج- الجهاز العصبي: ضمور في المخ والمخيخ في رجفة، وتراجُعٌ في القوى الفكرية وداء الصرع، والتهاب الأعصاب الكحولي في الأطراف (Alcoholic Peripheral Neuropathy)، واضطراب في التصرفات السلوكية والشعورية، وعُصاب وذُهان حاد و مزمن، واكتئاب وصداع، وضياع عقلي حاد أو مزمن مع غيبوبة (Alcoholic Encephalopathy).

د- الجهاز البولي والتناسلي: قصور في عمل الكليتين، وتضخم وسرطان البروستات، وسرطان المثانة، وضعف الباءة بالرغم من زيادة الشعور بالإثارة الجنسية، والإصابة بالعقم.

هـ- السرطان: إن ثلث الأمراض السرطانية هي نتيجة إدمان الخمر والتدخين.

و- أمراض المرأة: إن جسم المرأة لا يتحمل نصف الكمية التي يتحملها الرجل من الكحول، والكفيلة بإحداث جميع الأمراض الوبيلة المذكورة أعلاه وغيرها، فضلاً عن إصابتها باضطراب الدورات الشهرية، وكثرة الإجهاض، والتشوهات الخلقية في الجنين في حالة الحمل، وولادة أجنَّة ناقصة تسمى بـ(متلازمة الجنين الكحولي) (Alcohol Fetal Syndrome).

ز- كثرة حالات دخول المستشفيات بسبب الخمر: في بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. تسبب الخمر بدخول أكثر من ٤٠٪ من نزلاء المستشفيات بمختلف الأمراض المتعلقة بها. وفي مستشفيات الأمراض العقلية في هذه البلدان ايضاً فإن مابين ثلث ونصف نزلائها هم من المرضى الذين يتعاطون الكحول بكثافة».

٢- تحريم شرب الخمر، ودلَّت النصوص الشرعيَّة على أنَّها من كبائر الذنوب.

٣- تحريم لعب القمار، ودلَّت النصوص الشرعيَّة على أنَّه من كبائر الذنوب.

٤- بيان حق رعاية اليتيم وتنمية أمواله.

٥- تحريم زواج المشركات وتحريم تزويج المشركين من المؤمنات.

٦- جواز نكاح الكتابية المحصنة، وكَرِهَ ذلك بعضُ أهل العلم.

٧- تحريم نكاح المرأة المسلمة الرجلَ المشرك أو الكتابي.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

٢٢٢- سبب النزول:

عن أنس ﷺ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت. فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من

أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما. فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لبن إلى النبي ﷺ. فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما.

(صحيح مسلم - الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها برقم٣٠٢) (لم يَجِدْ: لم يغضبْ).

التفسير:

ويسألك - أيُّها الرسول - المؤمنون عن جماع النساء وقت الحيض. قل لهم: الجماع وقت الحيض مستقذر، يضر بالدنيا والآخرة، فلا يجوز ذلك، فاجتنبوا جماع النساء في مدة الحيض حتى ينقطع الدم، فإذا انقطع الدم واغتسلن، فجامعوهنَّ في الفرج الذي أحلَّه الله. إنَّ الله يحبُّ المكثرين من الاستغفار، والمتنزهين عن الفواحش والأقذار.

٢٢٣- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. (صحيح البخاري - تفسير سورة البقرة برقم ٤٥٢٨. وصحيح مسلم - النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها برقم١١٧ - ١١٨).

التفسير:

زوجاتكم موضع نسلكم، وزَرْعُ نُطَفِكم، فجامِعُوهُنَّ في الفرج بأيّ كيفية شئتم، وأَحْسِنوا لأنفسكم بفعل الأعمال الصالحة، وخافوا الله وتيقَّنوا أنكم ملاقوه يوم القيامة للحساب، وبشِّر المؤمنين بالجنة وما فيها.

٢٢٤- ينهى الله تعالى المؤمنين أن يجعلوا الحلف بالله مانعاً من فعل الخير والتقوى والصلح بين الناس، وذلك بأن يُدعَوا إلى فعل خير أو صلح، فيحتجُّوا بأنهم أقسموا ألا يفعلوا ذلك، بل ينبغي فِعْلُ الخير والتكفير عن اليمين، والله سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأفعال.

عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ مرفوعاً: «وإذا حَلَفْتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفِّر عن يمينك وَأْتِ الذي هو خير». (صحيح البخاري - الأيمان والنذور، باب ١ برقم١٦٢٢).

٢٢٥- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قالت: أُنْزِلَتْ في قوله: لا والله، وبلى والله.

(صحيح البخاري ١١/ ٥٤٧ برقم٦٦٦٣ - الأيمان والنذور، باب ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾).

التفسير:

يعفو الله عنكم إذا حلفتم بغير قصد، فلا ذنب عليكم ولا كفَّارة، ولكن يعاقبكم بما قَصَدَتْه قلوبُكم. والله غفور لِـمَنْ تاب، حليم على مَنْ عصاه لا يعاجل بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجماع وقت الحيض فيه أذى للرجل والمرأة.

٢- جواز إتيان الرجل زوجته مقبلة ومدبرة إذا كان في صمام واحد، بشرط أن يكون في فرجها.

٣- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «أذى المحيض أنواع:

أ- منها قذارة دم الحيض أو نجاسته، كما في العرف الفقهي.

ب- ومنها أن جريانه في وقته لا يمكن ضبطه كما يضبط البول والغائط .

ج- ومنها كراهته؛ لأنَّه يمنع الصلاة والصوم.

د- ومنها أنه يتضمن تغيرات نسيجية وكيميائية وحيوية في المجرى التناسلي ويجعله عرضة للالتهاب، حيث تكون بطانة الرحم متقرِّحة تماماً، كما يكون الجلد مسلوخاً، فهو معرض بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح، ومن المعلوم طبياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر المايكروبات ونموها، وتقل مقاومة الرحم للمايكروبات الغازية نتيجة لذلك، ويصبح القضيب يشكل خطراً داهماً على الرحم. ومما يزيد الطين بِلَّةً أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض، إذ يقل إفراز المهبل للحامض الذي يقتل المايكروبات، كما تقل المواد المطهرة الموجودة في المهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها، ليس ذلك فحسب، ولكن جدار المهبل المكوَّن من عدة طبقات من الخلايا يرق أثناء الحيض، ويصبح جداره رقيقاً ومكوناً من طبقة رقيقة من الخلايا، لهذا فإن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض ليس إلا إدخالاً للمايكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم، كما أن وجود الدم يساعد في نمو تلك المايكروبات وتكاثرها، ولا يقتصر الأذى على الحائض في وَطْئِها، وإنما ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وَطِئها أيضاً بتكاثر المايكروبات، والتهاب قناة مجرى البول لدى الرجل، وتنتقل المايكروبات إلى البروستات والمثانة وبقية المسالك البولية، وذلك أنه ما من نجاسة إلا ويتوقع حصول الضرر من التلوث بها. فلما كان المحيض كذلك اقتضى الأمر أخذ الاحتياط لئلَّا يتحول الأذى إلى ضرر، وذلك بتكرار تنظيف المنطقة في فترة الحيض، وعدم تركه يتراكم برائحته الكريهة، وكذلك بالامتناع عن الجماع».

٤- قال ابن عاشور: «﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ غاية للنهي فإذا آمنَّ زال النهي، ولذلك إذا أسلم المشرك ولم تسلم زوجته تَبِين منه إلا إذا أسلمت عقب إسلامه بدون تأخير». (التحرير والتنوير: ٢/ ٣٤٣).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ جاء النهي عن قربانهم تأكيداً للأمر باعتزالهنَّ، وتبييناً للمراد من الاعتزال، وأنه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان.

٦- قال ابن عاشور: «الفاء في ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فاء فصيحة لابتناء ما بعدها على تقرر أن النساء حرث لهم، لاسيما إذا كانوا قد سألوا عن ذلك بلسان المقال أو بلسان الحال». (التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣)

٧- النهي عن كثرة الحلف بالله تعالى.

٨- جواز قول: لا والله، وبلى والله، من غير تأكيد وعزم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾

التفسير:

٢٢٦-٢٢٧- للذين يحلفون بالله ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن: انتظار أربعة أشهر، فإن رجعوا عن يمينهم، فإن الله غفور لما وقع منهم من الحلف؛ بسبب رجوعهم، رحيم بهم، وإن قصدوا الطلاق باستمرارهم على اليمين وترك الجماع، فإن الله سميع لأقوالهم، عليم بمقاصدهم.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليل الجواب، أي: فحنثهم في يمين الإيلاء مغفور لهم؛ لأن الله غفور رحيم، وفيه إيذان بأن الإيلاء حرام. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ دليل الجواب، أي: فقد لزمهم وأمضى طلاقهم، فقد حدَّ الله للرجال في الإيلاء أجلاً محدوداً، لا يتجاوزونه، فإما أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإما أن يُطَلِّقُوا». (التحرير والتنوير: ٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

٢٢٨- وعدة النساء المطلقات: انتظار من غير زواج بآخر ثلاث حيضات، أو ثلاثة أطهار، حسب مصلحة الزوجين في الأخذ بالأقل زمناً أو بالأكثر، ويحرم عليهن إخفاء ما خلق الله في أرحامهن من الحمل أو الحيض، إن كنَّ يصدقن بالله واليوم الآخر.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ ظاهر هذه الآية شمولها لجميع المطلقات، ولكنه بيّن في آيات أُخَرَ خروج بعض المطلقات من هذا العموم، كالحوامل المنصوص على أن عِدَّتَهن وَضْعُ الحمل، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]. وكالمطلقات قبل الدخول المنصوص على أنهن لا عدة عليهن أصلاً، بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٩]. وأزواج المطلَّقات أحقُّ بمراجعتهنَّ في فترة العدة إن قصدوا الصلح والخير، وللزوجات على الرجال من الحقوق مثل ما عليهنَّ من الواجبات بحسن المعاشرة، وللرجال على النساء منزلة زائدة هي القِوامة، بسبب الإنفاق، والقيام بمسؤولية الجهاد. والله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره.. ولم يبيِّن هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء، ولكنه أشار لها في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء:٣٤] وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة وضَعْفها الخَلْقيين الطبيعيين، بقوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨] وأشار بقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] إلى أن الكامل في وصفه وقوته وخلقته يناسب حاله أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقة».

٢٢٩- سبب النزول:

أخرج مالك والترمذي والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح عن عروة بن الزبير ﷺ: كان الرجل إذا طَلَّق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عِدَّتُها كان ذلك له، وإن طلَّقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته، فطلَّقها، حتى إذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طَلَّقها، ثم قال: لا والله لا آويك إلي، ولا تَحِلِّين أبداً، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ مَنْ كان طَلَّقَ منهم، أو لم يطلق. واللفظ لمالك. (الموطأ - الطلاق - باب جامع الطلاق ٢/ ٥٨٨. السنن - الطلاق واللعان ٣/ ٤٨٨. وأخرجه الترمذي والحاكم وصححه (المستدرك ٢/ ٢٧٩، ٢٨٠) والبيهقي (السنن الكبرى ٧/ ٣٣٣) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على الطبري كلهم عن عروة عن عائشة وتكلم في سنده بسبب يعلى بن شبيب، ولكنه رُوي من طرق مرسلة تقويه).

التفسير:

الطلاق المشروع الذي تجوز بعده الرجعة مرتان، واحدة ثم الأخرى، وبعد كل طلقة ينبغي إمساك المرأة بحسن العشرة، أو فراق بإحسان وطيب قول، مع إعطائها هدية أو شيئاً من المال، ولا يحلُّ لكم - أيها الأزواج - أخذُ شيء مما أعطيتموهن من المهر أو غيره، إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة، فحينئذ يَعْرِضان أمرهما على الأولياء أو الحُكَّام. فإن ظهر أنهما لا يقومان بالحقوق الزوجية، فلا إثم على الطرفين إذا أرادت الزوجة أن تختلع، بأن تدفع المرأة ثمن مهرها، أو شيئاً من المال، فلا إثم عليهما بذلك. تلك الأحكام العالية القَدْرِ فلا تتجاوزوها، ومن يتجاوزها فأولئك البعداء عن الحقِّ، وهم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم.

٢٣٠- فإن طلَّق الزوج زوجته طلقة ثالثة فلا تحلُّ له رجعتها حتى تتزوج زوجاً آخر زواجاً صحيحاً دائماً، ويجامعها فيه بصدق رغبة، فإن طَلَّقَها الزوج الثاني، أو مات عنها وانقضت عدتها، فلا حرج على الزوج الأول والمرأة أن يتزوجا بعقد جديد إن علما أنهما سيقيمان أحكام الله. وتلك أحكام الله يوضحها لقوم يعلمون حقَّ أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- المحافظة على حقِّ المرأة إذا حلف الزوج إنه لا يجامعها للإضرار بها.

٢- تقرير تشريع الطلاق والالتزام بأحكامه وعدم التساهل فيه.

٣- يحقُّ للزوج مراجعة مطلقته إذا لم تكن عِدَّتُها قد انتهت، ولا يجوز لها أن تُخْطَبَ، ولا أن تتزوج خلال هذه المدة.

٤- بما أنه ثبت عن جمع من الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله أنَّ القُرءَ هو الحيض، وكذلك ثبت عن جَمْعٍ منهم أنه الطهر، فيمكن الجمع بين القولين أن يُنْظَر في حال الزوجين: فإذا كان ثمة أمل في الصلح فيؤخذ أبعد الأجلين لإتاحة الفرصة للصلح، وأما إذا كان الأمر قد بلغ أَشُدَّه من الخلاف، وأنه لا أمل في الصلح، فيؤخذ أقصر الأجلين للتفريق بينهما بأقرب وقت للقضاء على الخلاف.

٥- لا يجوز للمرأة المطلقة إذا ثبت أنها حامل أن تكتم ذلك، كما لا يحل لها أن تكتم وقت حيضها أو طهرها.

٦- إذا طلق الزوج زوجته طلقة ثالثة حَرُمَتْ عليه إلا بعد نكاح صحيح غير محلل، أو بعد وفاة زوجها.

٧- من التيسير في الدين أنَّ الطلاق مفرق، ويملك الزوج مراجعة زوجته بعد كل طلقة من الطلقتين.

٨- قال ابن عاشور: «﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ هي أحكامه وشرائعه، شبهت بالحدود، لأن المكلف لا يتجاوزها فكأنه يقف عندها». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٠).

٩- قال الدكتور محمد جميل الحبال عن الآية (٢٢٨): «إن كون عدة المطلقة ثلاثة قروء - حيضات - تكفي لنفي الحمل، وذلك أن المتخصص في طب النساء والتوليد يجد نسبة قليلة من الحوامل تخالف القاعدة العامة في عدم الحيض أثناء الحمل، فهي قد تحمل ويحصل عندها نزف فيسيولوجي يشبه دم الحيض، وذلك نتيجه انغراس البيضة الملحقة في بطانة الرحم Implantation في نهاية الأسبوع الثالث من آخر دورة شهرية - قرء -، أو نهاية الأسبوع الأول لبدء الحمل، أي: في موعد الدورة الشهرية تقريباً، وقد يحصل كذلك نزف فيسيولوجي ثانٍ مابين الأسبوع السابع والثامن للحمل نتيجة انخفاض نسبة هرمون البروجيستيرون Progesteron في هذه الفترة، حيث تقل نسبته لتوقف تكوينه من الجسم الأصفر Corpus Luteum في المبيض وتحول إفرازه إلى المشيمة Placenta، حيث يؤدي هذا الانخفاض أثناء التحول في تكوينه وإفرازه لحدوث نزف رحمي يشبه الدورة الشهرية الثانية، مما يجعل الحامل تعتقد أنه حيض للمرة الثانية وهي حامل ولكنها تجهل ذلك، ولكن لا يحدث نزف فيسيولوجي ثالث يلتبس على الحامل، ما عدا في حالات النزف الناتج عن الإسقاط المهدد أو المحتم التي يحدث غالباً في الأشهر أو الأسابيع الأولى للحمل، وفي أي وقت منه، وبضمنه موعد الدورة الشهرية السابق، ويكون عادة مصحوباً بأعراض وعلامات طبية أخرى معروفة. وهذه هي الحكمة في تشريع الطلاق، إذ جعل الله ﷻ مدة العدة لثلاث حيضات - قروء-، حيث إن الحامل قد تَسْتحيض -يحصل عندها دم يشبه الحيض- مرة أحياناً، ومرتين نادراً - الأسباب الفسيولوجية المذكورة أعلاه -، بينما لا يمكن أن تستحيض للمرة الثالثة، وبذلك تعرف أنها حامل، فتنتهي عدتها في هذه الحالة بعد وَضْعِ حَمْلِها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]».

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٣١- يخيِّر الله تعالى الأزواج بين أمرين: وإذا طَلَّقتم نساءكم مرَّة أو مرَّتين، فقاربن انتهاء عدتهنَّ، فراجعوهنَّ قبل انتهاء العدَّة بنيَّة حسن العشرة، أو اتركوهنَّ حتى تنقضي العدَّة بإحسان من غير تطويل العدة عليهنَّ، ولا ترجعوهنَّ بقصد الإضرار بهنَّ، كالإلجاء إلى الخلع وغيره، ومَنْ يمسكها للإضرار بها فقد عرَّض نفسه للعقوبة، ولا تهزؤوا بأحكام الله سبحانه، واذكروا فضل الله عليكم، وما أنزل عليكم القرآن العظيم والسنَّة المشرَّفة، واشكروه على ذلك. يُذَكِّركم الله ويرشدكم فخافوه، واعلموا أنَّه أحاط بكلِّ شيء علماً.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم؛ لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت، وفوات المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات. وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٣).

٢٣٢- وإذا طَلَّقتم نساءكم طلاقاً رجعياً مرةً أو مرتين وانتهت عدتهنَّ فلا تمنعوهنَّ - أيها الأولياء - من العودة إلى أزواجهنَّ إذا رضي كلٌّ منهما بالآخر بحسن العشرة. وذلك النهي يتعظ به المؤمن بالله وباليوم الآخر، وذلك النهي العالي القدر أطهر وأنفع لكم. والله تعالى يعلم ما فيه الصلاح، وأنتم لا تعلمون. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضاء عدَّتهن بالفعل، ولكنه بيَّن في موضع آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فاتضح من تلك الآية أن معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربنَ انقضاء العدة، وأشرفنَ على بلوغ أجلها.

أخرج البخاري عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار ﷺ طَلَّقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها فأبى معقل فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

(صحيح البخاري – التفسير – سورة البقرة، باب ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ برقم٤٥٢٩).

الفوائد والاستنباطات:

١ – النهي عن الإضرار بالزوجة، وعدم التساهل في حقها عند الفراق.

٢ – قال ابن عاشور:«قوله: ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾ جُرَّ باللام ولم يعطف بالفاء؛ لأن الجر باللام هو أصل التعليل، وحَذْفُ مفعول (تعتدوا)؛ ليشمل الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله تعالى، فتكون اللام مستعملة في التعليل والعاقبة». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤٠٣).

٣ – التأكيد المغلظ للالتزام بأحكام الطلاق.

٤ – على الأولياء أن يراعوا المراضاة بين الزوجين، فلا ينبغي منعهن من الرجوع إلى بيت الزوجية.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

التفسير:

٢٣٣ – يجب على الأمهات إرضاع أولادهنَّ سنتين كاملتين لِـمَنْ أراد كمال الرضاعة، ويجوز ما دونها برضا الوالدين، ويجب على الآباء نفقة الوالدات المطلقات للطعام والكسوة، من غير إسراف ولا تقتير؛ لأنَّ الله لا يشُقُّ على النفوس، ولا يحمِّلُها فوق قدرتها، ولا يجوز إضرار الوالدة بسبب ولدها، ويجب على وارث الأب الوصي على المولود مثل الواجب الذي كان على أبيه من نفقة المرضعة وكسوتها. فإذا أراد الوالدان فطام الولد عن الرضاع قبل الحولين بعد التشاور، فلا إثم عليهما، وإن اتفق الوالدان على إرضاع المولود من مرضعة أخرى غير والدته، فلا حرج عليهما، إذا سَلَّم الأب ما ينبغي أن يعطيه بإحسان دون تقصير. وخافوا الله، واعلموا أن الله بصير بأعمالكم وأقوالكم.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ انتقال إلى حالة إرضاع الطفل غير والدته إذا تعذَّر على الوالدة إرضاعه، لمرضها، أو تزوجها أو إن أبت ذلك حيث يجوز لها الإباء، أي: إن أردتم أن تطلبوا الإرضاع لأولادكم فلا إثم في ذلك». (التحرير والتنوير: ٢/ ٤١٨).

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان حقِّ الطفل في الرضاعة. قال الدكتور محمد جميل الحبال عن الآية (٢٣٣): «فيها إشارة طبية إلى أهمية وأفضلية إتمام الرضاعة لمدة عامين، وقد أثبتت الدراسات والبحوث الطبية أفضلية وأهمية الرضاعة الطبيعية (رضاعة الثدي) مقارنة للرضاعة البقرية أو الصناعية (رضاعة القنينة) للمحافظة على الصحة الجسمية والنفسية للطفل وللأُم على حد سواء، حيث أوصت تقارير منظمة الصحة العالمية والجمعيات الطبية العالمية المتخصصة بطب الأطفال، فضلاً عن منظمة اليونسيف بالاستمرار على الرضاعة الأمومية لأطول مدة ممكنة وحتى العامين؛ لأنَّ هؤلاء الأطفال يكونون أَقَلَّ إصابة بالأمراض العضوية والانتقالية والنفسية مقارنة بغيرهم من الأطفال الذين لا ترضعهم أُمهاتهم».

٢- أهمية المشاورة بين الزوجين في تربية الطفل ورضاعه.

٣- جواز اتخاذ المرضعات إذا تعسر الرضاع من الأُم.

٤- تحريم المضارة بين الأب والأُم، فلا تمتنع الأُم عن إرضاعه إضراراً بأبيه، ولا يجوز مَنْعُ الأُم من ذلك.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٣٤- والذين يموتون من الأزواج ويتركون زوجات، يجب عليهنَّ عدة الحِداد أربعة أشهر وعشرة أيام، فلا يتزوَّجْنَ، ولا يتزيَّنَّ، ولا يخرجنَ من منزل الزوجية إلا لحاجة، فإذا انتهت هذه المدة فلا إثم عليكم يا أولياء النساء إن رجعنَ إلى أحوالهنَّ المعتادة بحسب المتعارف عليه شرعاً. والله بكل ما تعملون خبير، وسيجازيكم عليها. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل مُتَوَفًّ عنها تعتدُّ بأربعة أشهر وعشر، ولكنه بيَّن في موضع آخر أن محلَّ ذلك مالم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً كانت عدَّتها وَضْعَ حَمْلِها، وذلك في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ويزيده إيضاحاً ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية رضي الله عنها في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيام، وكون عدة الحامل المتوفَّى عنها بوضع حَمْلِها هو الحقُّ، كما ثبت عنه ﷺ خلافاً لِـمَنْ قال: تعتدُّ بأقصى الأجلين ا.هـ».

٢٣٥- ولا ذنب عليكم - أيها الرجال - في التلميح بخطبة النساء المعتدات بسبب وفاة الزوج، أو الطلاق البائن، ولا حرج عليكم فيما أخفيتم في أنفسكم من الرغبة في زواجهنَّ بعد انتهاء عدتِهنَّ. عَلِمَ الله أنكم ستذكرونهنَّ في أنفسكم، ولكن احذروا أن تواعِدُوهنَّ على النكاح سرّاً في أثناء العدة، إلا أن تقولوا قولاً حسناً، كالقول: إنَّك جميلة، أو صالحة. ولا تعقدوا عقد الزواج حتى تنتهي العدة، واعلموا أنَّ الله تعالى يعلم ما في أنفسكم فخافوه، واعلموا أن الله غفور لعباده، حليم عليهم لا يعاجلهم بالعقوبة.

٢٣٦- لا ذنب عليكم إذا طلَّقتم النساء قبل الجماع، وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهراً، وقَدِّموا لهنَّ هدية أو مالاً بحسب قَدْرِ سَعَةِ الرزق على الوجه المعروف شرعاً، وهو حق ثابت على الذين يحسنون معاملة المطلقة.

٢٣٧- وإذا طَلَّقتم النساء ولم تَدْخُلوا بهنَّ، وقد حَدَّدْتُم لهنَّ مقدار المهر، فالواجب عليكم أن تدفعوا لهنَّ نصف المهر، إلا أن تتنازل المطلقة عن المهر كله أو بعضه، أو يتسامح الزوج، بأن يترك للمطلقة المهر كله، أو يسقط ولي أمرها المهر، وأن تتسامحوا أيها الرجال والنساء فإنه أقرب إلى مخافة الله، ولا تنسوا الإحسان بينكم. إن الله بكل ما تعملون بصير.

الفوائد والاستنباطات:

١- حِداد المرأة على الزوج (١٣٠) يوماً لاستبراء رحمها من زوجها المتوفَّى. وفيه تعبير عن مكانة الزوج.

٢- جواز التعريض بخطبة النساء المعتدَّات بسبب وفاة الزوج، أو الطلاق البائن.

٣- الحثُّ على إعطاء الهدية للمطلقة.

٤- حقُّ المرأة في أخذ نصف المهر إذا طُلِّقت ولم يُدْخَلْ بها، ولها حقُّ التنازل عن ذلك، وكذا لوليها حقُّ التنازل عن أخذ نصف المهر.

٥- الحثُّ على العفو والتسامح في الحقوق المالية.

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

٢٣٨- سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ قال: نزلت هذه الآية: (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر). فقرأناها ما شاء الله. ثم نسخها الله. فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾. فقال رجل كان جالساً عند شقيق له: هي إذن صلاة العصر. فقال البراء: قد أخبرتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله؟ والله أعلم. (صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١/ ٤٣٨ برقم٦٣١).

التفسير:

حافظوا - أيُّها المؤمنون - على إقامة الصلوات الخمس، بأدائها في أوقاتها بشروطها وأركانها، وحافظوا على صلاة العصر، وداوموا على عبادة الله والصلاة خاشعين ومطيعين.

٢٣٩- فإن خفتم من عدوٍ لكم، فصَلُّوا صلاة الخوف، مشاةً على الأقدام، أو راكبين، مستقبلي القبلة، أو غير مستقبليها، فإذا زال الخوف، فصَلُّوا صلاة الآمنين. واذكروا الله فيها كما عَلَّمكم من الشرائع، ما لم تكونوا على علم به.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - كان إذا سُئِل عن صلاة الخوف قال: يتقدم الإمام وطائفة من الناس، فيصلي بهم الإمام ركعة، وتكون طائفة منهم بينهم وبين العدو لم يصلوا، فإذا صلى الذين معه ركعة استأخروا مكان الذين لم يصلوا ولا يسلمون، ويتقدم الذين لم يُصَلُّوا فيصلون معه ركعة، ثم ينصرف الإمام وقد صلى ركعتين، فيقوم كل واحد من الطائفتين، فيصلون لأنفسهم ركعة بعد أن ينصرف الإمام، فيكون كل واحد من الطائفتين قد صَلَّى ركعتين. فإن كان خوف هو أشد من ذلك صَلَّوا رجالاً قياماً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها. قال مالك: قال نافع: «لا أرى عبدالله ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ». (صحيح البخاري ٨/ ١٩٩ برقم٤٥٥٣ - كتاب التفسير، باب سورة البقرة).

٢٤٠- والذين يموتون من الأزواج ويتركون زوجاتهم فليوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تُمتع أزواجهنَّ بعدهم سنة كاملة بالنفقة والسكنى، ولا يُخْرَجْنَ من سكن أزواجهنَّ، فإن خرجن باختيارهنَّ فلا حرج عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ من تَرْكِ الحداد والإقامة والتزيُّن ونحوه من الأمور المباحة بعد انقضاء عدَّة الوفاة. والله عزيز في ملكه، حكيم في أحكامه. وهذا الحكم نُسخ بآيات المواريث، وبإيجاب عدَّةِ الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام. أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فنسخ ذلك بآية الميراث، بما فرض لهنَّ من الربع والثمن، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً.

(وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود - الطلاق، باب نسخ متاع المتوفى عنها برقم٢٠١٢).

٢٤١- ويحقُّ للمطلَّقات عموماً، المدخول بهنَّ وغير المدخول بهنَّ، متعة من كسوة ونفقة بإحسان، وبالقدر المستطاع للأزواج. وهذه المتعة حقٌّ واجب على المتقين الذين يخافون الله تعالى.

٢٤٢- مثل ذلك البيان الواضح في الحقوق يبيِّن الله لكم أحكام الشريعة؛ كي تفهموها وتعملوا بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب المحافظة على الصلوات المفروضة، ولاسيما صلاة العصر.

٢- وجوب إقامة الصلاة حتى في ميدان القتال، وفي هذا دلالة على عظم أهمِّيتها ومنزلتها.

٣- الحث على إكرام المطلقة بمالٍ أو لباسٍ أو هدية.

٤- حقُّ المرأة في النفقة والسكن بعد موت الزوج.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٢٤٣- ألم تسمع - أيُّها الرسول - خبر الألوف الكثيرة من الذين فَرُّوا من أرضهم خوفاً من أسباب الموت، فلم ينجوا، فأماتهم الله جميعاً، ثم تَفَضَّل عليهم فأحياهم؟ إنَّ الله لذو فضل وإحسان، ومن فضله إحياء هؤلاء بعد إماتتهم وجعلهم عبرة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله.

٢٤٤- وبعد هذه الموعظة أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال لنصرة دين الله، فإنَّ الجهاد في سبيل الله لا يقرِّب أجلاً ولا يبعده، ثم أكَّدَ هذا الحكم بأنَّ الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

٢٤٥- وبما أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى عَتَاد، فقد رَغَّب الله تعالى في الإنفاق في سبيل الله، وجعل مقابل ذلك مضاعفة الأجر الجزيل، والله هو الرزَّاق، يقلل على مَنْ يشاء، ويوسع على مَنْ يشاء، وإليه ترجعون يوم القيامة؛ لنيل الجزاء.

٢٤٦- ثمَّ قَصَّ الله تعالى بعض وقائع الجهاد: ألم تعلم - أيُّها الرسول - قصَّة أشراف الناس من بني إسرائيل بعد وفاة موسى ﷺ؟ حين سألوا نبياً لهم أن يولِّي عليهم قائداً خبيراً بالقتال؛ لقتال أعدائهم في سبيل الله، فأجابهم: أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثمَّ لا تقاتلوا، وتجبُنوا من العدو. فاستنكروا قائلين: وأيُّ عذرٍ يمنعُنا من القتال وقد طَرَدَنا العدوُّ من بلادنا، وسبى أبناءنا؟ فلمَّا فرض الله عليهم القتال: تخلَّفوا إلا قليلاً منهم ثبتوا على العهد، والله عليم بالظالمين الذين يخالفون عهد الله تعالى.

٢٤٧- وقال لهم نبيُّهم ﷺ: إنَّ الله قد أرسل إليكم طالوت قائداً، فاستنكروا قائلين: كيف يكون طالوت قائداً علينا وهو فقير، ونحن أحقُّ منه بهذا المقام؟ فردَّ عليهم نبيهم بأن الله اختاره عليكم، وزاده سعة في العلم، وقوة في الجسم. والله يعطي سلطانه مَنْ يشاء من عباده، والله واسع الفضل، عليم بكل شيء.

٢٤٨- وقال لهم نبيُّهم ﷺ مُسْتَدِلّاً على صدق طالوت: إنَّ علامة مُلك طالوت أن يأتيكم الصندوق الذي فيه التوراة، فيه طمأنينة ورحمة من خالقكم، وفيه بقية من آثار آل موسى ﷺ وآل هارون ﷺ تحمله الملائكة حتى تضعه في بيت طالوت. إن في ذلك لَأعظمَ برهانٍ لكم على اختياره، إن كنتم مصدِّقين بالله واليوم الآخر.

الفوائد والاستنباطات:

١- لا يجوز الخروج من البلد الذي يحلُّ به مرض مُعْدٍ كالطاعون؛ لما في ذلك من الفرار من قَدَرِ الله تعالى.

٢- قضاء الآجال بيد الله تعالى، فلا ينفع الحذر من الموت، كما قال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

٣- فضل الإنفاق في سبيل الله تعالى في مضاعفة الثواب والبركات في الدارين.

٤- التحذير من ترك الدفاع عن الوطن، وعدم نصرة المظلوم.

٥- الغنى بالمال ليس مقياساً على صلاحية القيادة، بل لابد من المؤهل العلمي والجسدي.

٦- في الآية (٢٤٧) إخبار عن أمر مستقبلي عن إعطاء الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء.

٧- تقرير معجزة التابوت فيه سكينة.

٨- موعظة أنَّ الأُمة التي تعصي الله تعالى وتتعدى حدوده، يُسَلِّط عليها الأعداء فيهزمونها.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾

التفسير:

٢٤٩- فلمّا خرج طالوت بجنوده من بيت المقدس لقتال العدو، قال طالوت: إنَّ الله ممتحنكم على الصبر والطاعة بنهر تعبرونه، فمَنْ شَرِب منه فليس من أتباعي، ومَنْ لم يشرب منه فإنه من أتباعي، إلا مَنْ أخذ بيده قليلاً من الماء فلا حرج عليه، فشربوا منه وعصوا الأمر إلا قليلاً منهم، وعددهم ثلاثمئة وبضعة عشر، بعدد أصحاب بدر ﷺ، فلمّا عبر طالوت النهر ومعه هذه القلة ورأوا كثرة عدد العدو قال بعضهم: لا قدرة لنا على قتال الطاغية جالوت وجيشه الكثير. فردَّ المؤمنون بلقاء الله: كم من جماعة قليلة صابرة انتصرت على جماعة كبيرة بمشيئة الله، والله مع الصابرين بنصره وتوفيقه.

قال البراء ﷺ: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممَّنْ شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر: بضعة عشر وثلاثمئة. قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن».

(صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر ٧/ ٢٩٠ برقم٣٩٥٧).

٢٥٠- ولما ظهرت الفئة المؤمنة للطاغية جالوت وجيشه في ميدان القتال دعوا الله: ربنا أَنْزِلْ على قلوبنا صبراً عظيماً، وثبتنا في ميدان القتال، وانصرنا على القوم الكافرين.

٢٥١- فاستجاب الله دعاءهم فنصرهم، وهزموا جيش جالوت بإذن الله، وقتل داود ﷺ جالوت، قائد جيش الكفرة، وداود هو أحد جنود طالوت، وهو والد سليمان ﷺ، ثم أعطى اللهُ داودَ الملكَ والنبوَّة

في بني إسرائيل، وعَلَّمه ربه مما يشاء من العلوم، ولولا أن يدفع الله شرَّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، ولكن الله ذو فضل على المخلوقين جميعاً.

٢٥٢- هذه آيات الله العالية القدر التي قصصناها عليك أيُّها الرسول بالصدق بواسطة جبريل عليه السلام، وإنَّك من المرسلين الصادقين حقّاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أهمية اختبار الجند عند المواقف الحاسمة.

٢ - وجوب طاعة الجند لقائدهم الشرعي وإلا تعرضوا للهزيمة.

٣- فضل الدعاء في المعركة بالصبر والتثبيت ثم النصر.

٤ - بشرى للفئة المؤمنة بالنصر، وإن قل عددها وعدتها.

٥ - من حكمة الله تعالى أن يُسَلِّط على القوي مَنْ هو أقوى منه، فيهزمه، ويسلط على الطاغية مَنْ هو أقوى منه.

٦ - إنَّ من سنن الله تعالى لمنع الفساد في الأرض ما يكون من دَفْعِه سبحانه النَّاس بعضهم ببعض، فيردّ شرَّ الأشرار بجهاد الأخيار.

٧- تثبيت الله لرسوله ﷺ بما يُنزِّل عليه من آياته البيِّنات.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾

التفسير:

٢٥٣- أولئك الرسل - أصحاب المنازل العالية - فَضَّل الله بعضهم على بعض، فمنهم مَنْ كلَّم الله، كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ورفع بعض الرسل درجات عالية، كإبراهيم وإدريس ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وأعطى عيسى بن مريم المعجزات العظيمة، وأيَّده بجبريل. ولو أراد الله ما اقتتل الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الرسل من بعد مجيء الأدلة والمعجزات، ولكن اختلفت أُمم الأنبياء حتى اقتتلوا: فمنهم مَنْ صدَّق بالله، ومنهم مَنْ جحده. ولو أراد الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا، ولكنَّ الله يفعل ما يريد أن يفعله.

٢٥٤- يأمر الله المؤمنين بالإنفاق في شتى طرق الخير من مال الله الذي منحهم إياه، فيأمرهم بدفع الزكاة والصدقات قبل مجيء يوم القيامة الذي لا تستطيعون أن تفدوا فيه أنفسكم بمال، ولا تجدون حبيباً يدفع عنكم العذاب، والمُكَذِّبون بالله هم المعتدون على أنفسهم، وعلى غيرهم.

٢٥٥- فضل آية الكرسي:

عن أُبَي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر».

(صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم ٨١٠).

ومن فضلها: أنَّها إذا قُرئت عند النوم فإن قارئها لا يقربه شيطان حتى يصبح، ويبقى محفوظاً بحفظ الله تعالى. (أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ الصحيح، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلاً فترك الوكيل شيئاً برقم ٢٣١١).

التفسير:

الله هو الذي له جميع معاني الألوهية، ولا يستحق العبودية إلا هو، الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بجلاله، القائم على كل شيء، لا يعتريه نعاس، ولا يغلبه نوم، مالك جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يملك أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، يحيط علمه ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية، وما خلفهم من الأمور الماضية، ولا يَطَّلع أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله، وكرسيه العظيم الذي هو موضع القدمين وسع السموات السبع والأرض السبع، ولا يثقله سبحانه حفظ السموات والأرض، وهو العليُّ بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، العظيم الذي اجتمعت فيه جميع صفات العظمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الكرسي موضع القدمين. (أخرجه وكيع في تفسيره كما صرح ابن كثير في التفسير، وأخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٨٢) وذكره الهيثمي ونسبه إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦).

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير التفاضل بين الرسل.

٢ - التعجيب والتحذير من فِعْلِ الأمم في التقاتل.

٣- وجوب الإنفاق في سبيل الله تعالى.

٤ - فضل آية الكرسي وفائدتها في الرقية.

٥ - دَلَّت الآية على تحقيق العبودية المطلقة لله تعالى.

٦ - جملة ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ مقررة لمضمون جملة (الله الحي القيوم)، فالجملة منزَّلة مَنْزِلَة البيان لمعنى الحي القيوم؛ ولذلك فصلت عن التي قبلها.

٧- الاستفهام في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ مستعمل في الإنكار والنفي بقرينة الاستثناء منه بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٨- قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تقرير لما تضمنته الجمل كلها من عظمة الله تعالى وكبريائه وعلمه وقدرته، وبيان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه.

٩ - على المؤمن بالله تعالى أن يستشعر عظمة الخالق ﷻ فيما دلَّت عليه هذه الآية العظيمة (آية الكرسي)، وأن يحقِّق العبوديَّة الخالصة له ﷻ من خلال أسمائه وصفاته العليا، وقد اشتملت هذه الآية على أعظمها، وكانت بذلك أعظم آية في القرآن الكريم.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

٢٥٦- سبب النزول:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾. قال أبو داود: «المقلات: التي لا يعيش لها ولد». (أخرجه أبو داود في السنن ٣/ ٥٨ – كتاب الجهاد – باب في الأسير يكره على الإسلام. وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١/ ٣٥٢، برقم١٤٠) وقال محقق الإحسان:«إسناده صحيح على شرطهما». وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود برقم ٢٣٣٣).

التفسير:

لا تجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، فدلائله يتضح بها الحق من الباطل، فمَنْ يجحد بكل ما عُبِدَ من دون الله ويصدِّق بالله، فقد استقام على دين الإسلام، واستمر عليه. والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

قال ابن عاشور: «تعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأُمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه». (التحرير والتنوير٢/ ٤٩٩)

٢٥٧- الله سبحانه ناصر الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، يخرجهم من الضلالة إلى الهدى، والذين كَذَّبوا الله ورسوله يقودهم الشيطان، فيخرجهم من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هم الملازمون للنار الدَّائمون فيها أبداً.

٢٥٨- يقصُّ الله تعالى على رسوله محمَّد ﷺ القصَّة العجيبة التي وقعت بين إبراهيم عليه السلام والطاغية النمروذ بن كنعان: ألم تعلم بالذي جادل إبراهيم في توحيد الله تعالى وربوبيته؛ لأنَّ الله تعالى أعطاه المُلك فتجبَّر، وسأل إبراهيم: مَنْ ربك؟ فأجابه: ربِّي الذي يُحيي الخلائق ويميتها. قال زاعماً: أنا أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قَتْلَه، وأستبقي من أردت استبقاءه. فردَّ عليه إبراهيم: إنَّ الله يطلع الشمس من المشرق، فأطْلِعْها من المغرب، فتحيَّر هذا الكافر وأُفحم؟ والله لا يهدي الظالمين إلى الصراط المستقيم. أخرج آدم بسنده الصحيح عن مجاهد قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾، قال: هو نمروذ بن كنعان.

٢٥٩- أو هل علمت - أيُّها الرسول - مثل الذي مرَّ على بلدة خالية من السكَّان، خاوية من البنيان، فقال: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام ثمَّ أحياه، وأرسل إليه مَنْ عنده علم بحال هذا الرجل. قال: كم بَقِيتَ في هذا المكان؟ قال: بَقِيتُ يوماً أو بعض يوم. فأَخْبَره الحقيقة بأنه بقي ميتاً مئة عام، وطلب إليه أن ينظر إلى طعامه وشرابه، فإذا هو لم يتغير، وأن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظاماً متناثرة؟ وليكون مثالاً مُشاهَداً دليلاً على البعث بعد الموت، وانظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض، ونَضُمُّ أجزاءها، ثم نسترها باللحم، ثم نعيد إليها الحياة؟ فلمَّا رأى ذلك رأي العين تيقَّن أنَّ الله على كل شيء قدير، ومن ذلك: البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ تقرير حرية الاعتقاد، فلا إجبار على إدخال الناس في الإسلام، ولكن بعضهم استدل بهذه الآية على أنَّ لكل فرد الحرية في أن يختار أي دين، وهذا مجانب للصواب، ولا ينطبق على المسلمين لأنَّها رِدَّةٌ محضة، وكفر صريح.

٢- أشارت الآية إلى أن هذه فائدة المؤمن تنفعه في دنياه بأن يكون على الحق والبصيرة، وذلك مما تطلبه النفوس، وأشارت إلى فائدة ذلك في الآخرة بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الذي هو تعريض بالوعد والثواب.

٣- الآية دليل على جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد، والقرآن مملوء بذلك، وأما ما نُهِيَ عنه من الجدل فهو جدال المكابرة والتعصُّب وترويج الباطل والخطأ.

٤- بشرى الله تعالى بنصره للمؤمنين.

٥- تقرير عقيدة البعث وقدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

٦- في القصة موعظة عظيمة.

٧- ينظر: صورة منطقة النمرود وما فيها من الأوثان، كما في الملحق.

٨- ينظر: صورة النخل، كما في الملحق.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٢٦٠- واذكر- أيُّها الرسول- حين طلب إبراهيم عليه السلام إلى ربِّه أن يريه كيفية البعث، فأجابه الله تعالى: أوَلم تصدِّق؟ قال: بلى، ولكن سألت ذلك؛ ليزداد يقيني باجتماع الرؤية والإيمان. قال: فخذ أربعة طيور، فضُمَّهن إليك واذْبَحْهُنَّ وقَطِّعهنَّ، ثم اجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً، ثم نادِهنَّ، يجئن إليك مسرعات. فنادى إبراهيم، فإذا كل جزء يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مسرعة. واعلم أن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. ا.هـ. وعلى هذا فإن إبراهيم لم يشك، وإنما أراد التأكد والاطمئنان». (صحيح البخاري - كتاب التفسير- سورة البقرة - باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ٨/ ٤٩ برقم ٤٥٣٧).

٢٦١- يحثُّ الله تعالى على إنفاق الأموال في سبيل الله، فيُشَبِّه الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله بزارع حبَّة أنبتت سبع سنابل في ساق واحدة، في كل سنبلة مئة حبَّة، والله يضاعف عطاءه لِـمَنْ يشاء. والله واسع الفضل، عليم بأقوال وأفعال عباده.

٢٦٢- يمدح الله الذين يُعطون من أموالهم في الخير والبر، ثم لا يعقبون ذلك بالمنِّ والأذى، كالتحدث عن مقدار العطاء ونحوه، والإساءة بالقول أو الفعل، فهؤلاء الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات لهم ثوابهم عند ربهم، ولا خوف عليهم عند الحساب، ولا هم يحزنون على شيء من حطام الدنيا.

٢٦٣- كلامٌ حسن، ودعاء الرجل لأخيه المسلم، وسترٌ منه عليه؛ لما عَلِم من سوء حالته، خيرٌ من صدقة يعقبها إساءة من قول أو فعل مكروه. والله غني عمَّا يتصدقون به، حليم لا يعاجل العقوبة.

٢٦٤- يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، لا تحبطوا ثواب صدقاتكم بسبب المنِّ على الفقراء وأذاهم بالقول أو الفعل، كالمنافق المرائي الذي ينفق ماله ليحمده الناس، وهو لا يصدِّق بالله ولا بيوم القيامة. فمثل هذا كمثل حجر أملس عليه تراب، فهطل عليه مطر غزير، فأزال عنه التراب، وبقي أجرد لا ينبت شيئاً، فكذلك هؤلاء المراؤون تضمحلُّ أعمالُهم عند الله، ولا يجدون شيئاً من الثواب على إنفاقهم. والله لا يهدي المكذِّبين بالله إلى الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦٠) إخبار عن أمر مستقبلي عن ثواب الله تعالى لِـمَنْ ينفق في سبيله، ومضاعفة ذلك الثواب.

٢- قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تشبيه حال جزائهم وبركتهم.

٣- جملة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ إلى آخرها مستأنفة استئنافاً بيانياً، وتنكير ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ للتقليل، أي: أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى.

٤- فَضْلُ الله تعالى على عباده بمضاعفة الحسنات أضعافاً كثيرة تبلغ سبعمئة ضعف، ومِنْ فَضْلِه أيضاً أنَّه لا يضاعف السيئات.

٥- التحذير من التمنن على الفقراء والمحتاجين فإنه يُبْطِلُ العمل، ويمحق الثواب.

٦- الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة المصحوبة بإساءة.

٧- خطر الرياء؛ فإنه محبط للأعمال.

٨- المنفق المؤمن لا يُتْبِعُ نفقته منّاً ولا أذى، بل يجمِّلها بالكلمة الطيبة المظهرة لمشاعر الأخوَّة والمحبَّة في تواضع واحترام للمنفق عليه.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

التفسير:

٢٦٥- وصفة الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا الله، وثقةً من أنفسهم بصدق وعده، تشبه الحديقة الواقعة في أرض مرتفعة، هطلت عليها أمطار غزيرة، فتضاعف ثمرها، وإن لم تسقط عليها الأمطار الغزيرة فمطر خفيف يكفيها. والله بكلِّ ما تعملون بصير.

٢٦٦- سبب النزول:

قال عمر ﷺ يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «فِيمَ ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا بن أخي قل ولا تُحقِّر نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لِرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله». (الصحيح برقم ٤٥٣٨ - تفسير سورة البقرة، باب قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾).

التفسير:

هل يحب أحدكم أن يكون له بستان حافل بأشجار النخيل والعنب، تجري من تحت أشجاره المياه العذبة، وله فيه من كل أصناف الثمرات، وأدركته الشيخوخة، وله أولاد صغار في حاجة إلى البستان، فأصابته عاصفة شديدة فيها نار فأحرقته؟ وهذا تشبيه بنفقة المرائي وهي تضيع يوم القيامة. مثلَ ذلك يوضِّح الله لكم الآيات لكي تتأملوا، فتُخلصوا في نفقاتكم.

٢٦٧- سبب النزول:

عن البراء بن عازب ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ قال: «نزلت في الأنصار، كانت الأنصار تُخرِج - إذا كان جذاذ النخل - من حيطانها أقناء البسر، فيعلقونه على حدِّ رأس أسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فيعمد أحدهم فيُدْخل قِنْوَ الحشف، يظن أنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمَنْ فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ يقول: لو أُهدي لكم لم تَقْبلوه إلا على استحياء من صاحبه...». (هذا حديث غريب صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك ٢/ ٢٨٥).

التفسير:

يأمر الله تعالى المؤمنين أن يتصدقوا من أطيب مالهم الذي كسبوه، وممَّا رزقهم الله من الأرض، كالزرع والثمار والمعادن، ونهاهم عن تَعَمُّد الرديء منه؛ لأنهم لو أُعْطُوه لم يأخذوه إلا إذا تساهلوا، بغضِّ النظر عنه زهداً فيه، فكيف تؤدُّون منه حقَّ الله؟! واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم، محمود في جميع أفعاله وأقواله.

٢٦٨- الشيطان يُخَوِّفُكم الفقر إذا أنفقتم أو قصدتم الإنفاق، ويأمركم بالمعاصي، والله تعالى يَعِدُكم على إنفاقكم غفراناً لمعاصيكم ورزقاً واسعاً. والله واسع الفضل، عليم بالأعمال والأقوال.

٢٦٩- يرزق الله الإصابة للحق مَنْ يشاء من عباده، ومَنْ حَظِيَ بذلك فقد أعطاه الله خيراً عظيماً، وما يتعظ بهذا إلا أصحاب العقول السليمة.

٢٧٠- وما بذلتم من مال، كثيراً كان أو قليلاً للصدقة، أو ألزمتم أنفسكم شيئاً من مال أو عمل صالح فإنَّ الله يعلمه ويُحْصيه ويثيبكم عليه. وليس للذين يتعدَّون على الحقوق من أنصارٍ يوم القيامة.

٢٧١- إن تُظْهروا صدقاتكم خالية من الرياء فذلك محمود لكم، وإن تعطوها الفقراء سرّاً فهو خيرٌ لكم من إظهارها، وهذه الصدقات تمحو الذنوب. والله بكل ما تعملون خبير.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان أهمية كفاية الماء ودوره في زيادة الإنتاج، إذ إن وابلاً واحداً لا يغطي الحاجة المائية للجنة وزروعها وأشجارها طوال مواسم النمو والأزهار والأثمار والنضوج. (تأثير التعرية المطرية في التربة، ص ٩).

٢ - أثبت العلم الحديث أن الندى له دور مهم في حياة النبات، حيث إن هناك مدداً مائياً لن ينقطع، وهو الندى الذي تعتمد عليه النباتات أكثر من اعتمادها على مياه الأمطار في بعض البيئات؛ لكونها تستطيع أن تمتص قطرات الماء المتكاثفة على سطح أوراقها، ولما له من أهمية كبرى، فإنَّ الوسائل التكنولوجية الحديثة اتجهت إلى إنشاء مصائد للضباب في سقاية مزروعات المناطق الجافة. (أهمية الندى (الطل): من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص١).

٣- يقرر العلماء أن البيئة المثلى لزراعة أشجار الثمار هي بيئة «الروابي»، حيث إنها أراضٍ مسطحة مرتفعة دون الجبل وفوق التل، وهذه حقيقة علمية أثبتتها التجارب على مدى عقود متتالية. (إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران يحيى وزيري ص ١٦٣).

٤ - يقول الخبراء: إنَّ الإعصار يهاجم الأرض فجأة فلا يُبقي ولا يذر، ويصاحب الإعصار نار، وذلك من جراء التقاء شحنات كهربائية مرتفعة القيمة والجهد مع الأشجار والجبال والموجودات، فيكون لمرور التيار الشديد في الأجسام التي تقابله وتقاومه شرارة هائلة يحترق بها كل ما يصادفها. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم : الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١٠٦-١٠٧).

٥ - بيان فضل الإنفاق في التكافل الاجتماعي؛ لأنَّ المجتمع المؤمن يَتَّسِمُ بالإنفاق والتَّكافل.

٦ - ينبغي أن يكون الإنفاق من المال الحلال الطيب.

٧- لا يجوز إخراج الرديء من المال أو الطعام.

٨ - أثبت العلم الحديث أنَّ هناك أنواعاً من الأعفان تُفْرِز في الثمار المريضة أنواعاً من السموم الفطرية تُعرف باسم (افلاتوكسين) تسبب للإنسان سرطانات خطيرة وأمراضاً مستعصية. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١١٠).

٩ - التحذير من وساوس الشيطان في التثبيط والإغواء.

١٠ - الحكمة موهبة من الله تعالى.

١١ - فضل صدقة السر، وجواز الصدقة في العلن، شرطَ ألَّا يشوبها رياء.

١٢ - الإنفاق مهما كان قليلاً فإن أجره عند الله ثابت.

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾

٢٧٢- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يعطوا لأنسبائهم من المشركين، فسألوا فرخَّص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

(أخرجه النسائي في التفسير ١/ ٢٨٢ برقم٧٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (برقم ٣٢٤٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤ برقم١٢٤٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٥،٤/ ١٩١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٤) في رواية البزار: ورجاله ثقات. وقال ابن حجر في (مختصر زوائد البزار ٢/ ٧٥ برقم١٤٥٠): صحيح).

التفسير:

يُخَفِّف الله تعالى عن نبيِّه محمَّد ﷺ في دعوته للكفَّار، بأنَّك لست مسؤولاً عن توفيقهم للهداية، ولكنَّ الله يوفِّق مَنْ يشاء لهدايته إلى الإسلام، وما تبذلوا - أيُّها المؤمنون - من مال، كثيراً كان أو قليلاً، فلأنفسكم ثوابه، والمؤمنون لا ينفقون إلا طلباً لرضا الله، وما تنفقوا من مالٍ فثوابه يكون لكم مضاعفاً، لا تُنقصون شيئاً من ذلك.

٢٧٣- قدِّموا صدقاتكم للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله أو لطلب العلم، إذ لا يستطيعون السفر طلباً للرزق، يظنهم مَنْ لا يعرفهم غير محتاجين إلى الصدقة؛ لأنهم لا يسألون الناس،

تعرف فقرهم من علامات الحاجة عليهم، لا يطلبون العون، وإذا طَلَبوا لم يُلِحُّوا بالسؤال. وما تتصدقوا به من مال في سبيل الله، فالله به عليم، وسيجازيكم عليه.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبين هنا سبب فقرهم، ولكنه بيَّن في سورة الحشر أن سبب فقرهم هو إخراج الكفار لهم من ديارهم وأموالهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾».

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال:«الذي لا يجد غنىً يُغنيه. ولا يُفْطَنُ له، فيُتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». (صحيح مسلم - الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ٢/ ٢١٩ برقم ١٠٣ . وصحيح البخاري - التفسير، باب لا يسألون الناس إلحافاً ٨/ ٢٠٢ برقم ٤٥٣٩).

٢٧٤- الذين يُقدِّمون أموالهم في سبيل الله كل وقت، ليلاً ونهاراً، خفيةً وجهاراً، فلهم ثوابهم عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم الحساب، ولا يحزنون على ما فاتهم من متاع الدنيا.

٢٧٥- يحذِّر الله تعالى من وبال أكل الربا في الدنيا والآخرة - والربا هو ما زاد على مقدار القرض أو البيع - فيُخبر أنَّ الذين يتعاملون بالربا لا يقومون من قبورهم في الآخرة إلا كما يقوم الذي يصرعه الشيطان من الجنون، ذلك بسبب قولهم: إنما البيع مثل الربا، أي: كلاهما حلال، فردَّ الله عليهم بالفرق بينهما، فقد أحلَّ البيع وحرَّم الربا؛ لما في البيع والشراء مِنْ نفعٍ للعباد، ولما في الربا من الاستغلال والضياع. فمَنِ اتعظ بالنهي عن الربا فلا إثم عليه وأمره إلى الله في المستقبل، ومَنْ رجع إلى الربا معتقداً حِلَّه فأولئك البعداء عن الحقِّ ملازمون للنار، لا يخرجون منها.

٢٧٦- يُنقص الله الربا ويُذهب بركته، ويبارك في المال الذي أخرجت صدقته. والله لا يحب كلَّ مُتمادٍ بالكفر والإثم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أحقُّ الناس بالصدقة الفقراء الذين لا يسألون الناس، بل يتعففون.

٢- الداعية غير مكلف بأن يهتدي المدعو؛ فإن ذلك التوفيق للهداية بيد الله تعالى.

٣- بشارة الله للمؤمنين المنفقين بعظيم أجرهم عنده، وبأمنهم واطمئنانهم يوم القيامة، فلا خوف عليهم ولا حزن.

٤- خطر أكل الربا في الدنيا والآخرة.

٥- تحريم الربا، وجواز البيع الذي يعود نَفْعُه على البائع والمشتري.

٦- مَنْ يَتُب عن أكل الربا فإنَّ الله تعالى يقبل توبته، ومَنْ يعتقد أنه حلال ويُنْكِر تحريمه، فإن النار مثواه خالداً فيها!.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧٧- يخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين صدَّقوا الله ورسوله وأحسنوا عملاً، وأدَّوا الصلاة في أوقاتها بشروطها وأركانها، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم الحساب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

٢٧٨- يُنَبِّه الله تعالى المؤمنين: أنْ خافُوا الله، واتركوا طلب ما بقي لكم من زيادة على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل تحريم الربا، إن كنتم مُصَدِّقين بالله ورسله.

٢٧٩- فإن لم تنتهوا عن التعامل بالربا فكونوا على يقين من أنكم في حرب من الله ورسوله؛ للعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن رجعتم عن أكل الربا فلكم أخْذُ ما أقرضتم دون زيادة، لا تعتدون على أحد بأخذ ما زاد على رأس المال، ولا يعتدي عليكم أحد بنقص ما أقرضتم.

٢٨٠- وإن كان المستدين مُعْسِراً غير قادر على وفاء الدَّين فأمهلوه إلى وقت اليسر، وإن تنازلتم عن الدَّين أو عن بعضه فهو أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فضل ذلك.

٢٨١- وخافوا يوم القيامة الذي ترجعون فيه إلى الله ليحاسبكم، فيجازي كلَّ فرد بما عمل من خير أو شرٍّ، دون نقص في الثواب، ولا زيادة في العقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل إمهال المعسر عظيم عند الله تعالى. عن حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «تلقَّت الملائكة روح رجل ممَّنْ كان قبلكم، فقالوا: أعَمِلْتَ من الخير شيئاً؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنْظِرُوا ويتجاوزوا عن الموسر. قال: فتجاوزوا عنه». (صحيح البخاري ٤/ ٣٠٧ برقم ٢٠٧٧ - البيوع، ٩باب من أنظر موسراً).

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا». (صحيح البخاري برقم٤٥٤٤) - تفسير سورة البقرة، باب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ . وعلق الحافظ ابن حجر بقوله: وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق جماعة من التابعين وزاد عن ابن جريج قال: يقولون إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وروى عن غيره أقل من ذلك وأكثر فقيل: إحدى وعشرين، وقيل: سبعاً. وطريق الجمع بين هذين القولين: أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن. (الفتح ٨/ ٢٠٥).

٣- استرداد رأس المال من المَدِين بلا زيادة ولا نقصان عدالة.

٤ - وجوب إنظار المعسر، وفيه رعاية للمعسرين.

٥- أسلوب الترغيب من أساليب القرآن التربويَّة للنفوس في حَثِّها على الصَّالحات، وإبعادها عن السيئات.

٦- التذكير بالآخرة وما فيها من الحساب والوفاء من أساليب القرآن التربويَّة في إصلاح النفوس.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

التفسير:

٢٨٢- يا أيها المؤمنون، إذا أَقْرض بعضكم بعضاً إلى وقت معلوم وجب أن تكتبوه، وليكتب عقد القرض كاتب عادل بالحق، ولا يمتنع كاتب من الكتابة حسب شرع الله، وليقم المستدين بإملاء ما عليه من الدَّين، وليَخَفِ الله ربَّه، ولا ينقص من دينه شيئاً.

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أنَّ كتابة الدَّين واجبة؛ لأنَّ الأمر من الله يدل على الوجوب، ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ لأن الرهن لا يجب إجماعاً، وهو بدل من الكتابة عند تَعَذُّرها في الآية، فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً. وصرَّح بعدم الوجوب بقوله: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾».

فإن كان المستدين سيئ التصرف، أو كان صغيراً أو مجنوناً، أو لم يقدر على الكلام، فليتولَّ الإملاءَ وَلِيُّه أو وَصِيُّه، واطلبوا مع الكتابة أن يشهد شاهدان مسلمان عدلان، فإن لم يوجد رجلان فاطلبوا شهادة رجل وامرأتين ترضون شهادتهم، حتى إذا نسيت إحداهما ذكَّرتها الأخرى، ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة إذا طُلب منهم ذلك.

ولا تَملُّوا أن تكتبوا الدَّين قليلاً كان أو كثيراً إلى وقت حلول موعده. ذلكم الذي أمرناكم به أعدل عند الله، وأثبت للشهادة، وأقرب ألا تشكُّوا في قدر الدَّين والأجل، إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوضاً فلا بأس بعدم كتابته، وأشهِدُوا على التبايع سواءً كان البيع حاضراً أو دَيناً. ومن الواجب على الشاهد والكاتب أداء الشهادة والكتابة على حقيقتها، ولا يجوز للدائن والمستدين إلحاق الضرر بالكاتب والشاهد بالتحريف والتبديل في الكتابة، أو الامتناع من الشهادة، أو تكليفهما بمشقة كالسفر الطويل.

وإن فعلتم ما نُهيتم عنه فقد خرجتم عن طاعة الله، وخافوا الله، ويُعَلِّمكم الله العلم النافع الذي فيه سعادة الدارين، والله بكلِّ شيء أحاط علماً سبحانه.

٢٨٣- وإن كنتم - أيها المتداينون - مسافرين ولم تجدوا كاتباً لعقد المداينة، فليقَدِّم المستدين شيئاً يكون عنده ضماناً لحقِّه؛ كي يردَّ المستدين ما عليه من دين، فإن وثق بعضكم ببعض فلا حرج من ترك الكتابة والرهن، وليدفع المستدين للمؤتمن دَينه المستحق عليه، وليراقب الله ولا يَخُنِ الأمانة، ولا تُخْفُوا الشهادة أيها الشهود، ومن يُخْفِ الشهادة يأثم ويعاقب. والله بكل ما تعملون عليم لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب كتابة الدَّين قليلاً كان أو كثيراً، وتحديد أجله.

٢- وجوب الإشهاد في الدين برجلين من المسلمين، أو رجل وامرأتين.

٣- وجوب استجابة الشهداء إذا دعوا لها.

٤- وجوب الإشهاد على البيع في الأشياء الكبيرة، كالعقار والمزارع.

٥- جواز الرهن في السفر والحضر توثيقاً للدين وضماناً للمال.

٦- آية الدَّين أطول آية في القرآن الكريم، وهي شاهدة على عظمة التشريع القرآني؛ بما فيها من تفصيلات دقيقة في أمر الدَّين والاحتياط للدَّائن والمدين.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ (٢٨٤) ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرٗا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٨٦) ﴾

٢٨٤- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أَيْ رسول الله! كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق. الصلاة والصيام والجهاد والصدقة. وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذَلَّتْ بها ألسنتهم. فأنزل الله في إثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (قال: نعم) ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرٗا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (قال: نعم) ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (قال: نعم) ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (قال: نعم).

(صحيح مسلم ١/ ١١٥-١١٦ - كتاب الإيمان، باب بيان أنه ﷻ لم يكلف إلا ما يطاق).

التفسير:

يخبر الله تعالى أنَّ له ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهنَّ وما بينهنَّ، وأنَّه المُطَّلع على كل شيء يفعله العباد مما يظهرونه ومما يخفونه في نفوسهم، وسيحاسبهم على ذلك، فيعفو عمَّنْ يشاء، ويعاقب

مَنْ يشاء. والله على كل شيء قدير، وقد تفضَّل الله تعالى على هذه الأُمة بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس من غير فِعْلٍ.

عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: أحسبه ابن عمر - ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. (صحيح البخاري برقم ٤٥٤٦ -كتاب التفسير- باب ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾، وباب ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ برقم٤٥).

٢٨٥- صدَّق النبي ﷺ بما أُوحي إليه من ربه، وصدَّق به المؤمنون معه، كل فرد منهم صدَّق بالله ربّاً ومعبوداً بحق، وبملائكته أجمعين، وكتبه المنزَّلة، ورسله جميعاً بدون تفرقة وإنكار لبعضهم. وقال الرسول والمؤمنون: سمعنا يا ربنا ما أوصيت به، وأَطَعْنا في ذلك، نرجو أن تغفر لنا ذنوبنا، أنت وَلِيُّنا، وإليك المرجع.

٢٨٦- لا يأمر الله تعالى عباده بالأمور الشاقة التي هي فوق الطاقة البشرية، وإنما يأمرهم على قدر المستطاع، فمَنْ فعل خيراً نال خيراً، ومَنْ فعل شرّاً نال شرّاً، ويعلِّم الله عباده الدعاء: ياخالقنا لا تُعَذِّبنا بسبب النسيان أو الخطأ من غير قصد، ولا تشقَّ علينا بالأمور الشاقة التي كَلَّفت بها مَنْ قبلنا من المعاندين، ربنا ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف، وسامحنا واستر علينا ذنوبنا، وارحمنا برحمتك الواسعة، أنت وليُّ أمرنا، فانصرنا على الذين جحدوا دينك.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

٢- وجوب الإيمان بجميع المرسلين.

٣- وجوب السمع والطاعة للنبي ﷺ.

٤- رحمة الله ﷻ بعباده بألَّا يكلفهم فوق قوتهم وقدرتهم، ولا يحاسبهم على ما يدور في خواطرهم إلا ما عزموا عليه، فإنَّه يحاسبهم عليه.

٥- من رحمة الله ﷻ ألَّا يؤاخَذَ الناسي والمخطئ غير العمد. ومن رحمته أن عَلَّمَنا هذا الدعاء العظيم، وقد بشَّر بالاستجابة وضَمِنَها.

النزول: مدنية.

فضل السورة: تَقَدَّم مقروناً بفضل سورة البقرة.

المقاصد:

١- تقرير توحيد العبوديَّة والربوبيَّة.

٢- إقامة الحجَّة على النصارى عامَّة، ونصارى نجران خاصَّة.

٣- بيان عظمة الله تعالى في الخلق والتدبير والرزق.

٤- الإيمان بكتب الله تعالى ورسله، والقدر خيره وشرِّه.

٥- إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام.

٦- أهمِّية الاتحاد بين المسلمين، والتحذير من الفرقة والتشرذم.

٧- عَرْضُ غزوة أُحد عرضاً دقيقاً، مصحوباً بالتوجيهات القرآنية المبيِّنَة لأسباب النصر القرآنية، وبناء مجتمع الإيمان وأفراده، وتميزه عن مجتمع الشرك والنفاق.

٨- بيان جملة من الأحكام الشرعية، كفريضة الحج، وأحكام القتال، وتحريم الربا، وترهيب مانعي الزكاة.

٩- بيان فَضْلِ الذكر والدعاء.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١ - هذه الحروف المقطعة تقدَّم الكلام عليها في مطلع سورة البقرة، وتشير إلى إعجاز القرآن.

٢ - فَضْلُ الآية:

قال النبي ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾». (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٥١٧ برقم ٣٤٧٨-كتاب الدعوات، باب ٦٥. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني: حسن. صحيح الترمذي برقم٢٧٦٤).

التفسير:

الله لا معبود بحقٍّ إلا هو، الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بعظمته، القائم على كلِّ شيء.

٣-٤ - نَزَّل عليك - أيُّها الرسول - القرآن بالحقِّ الذي لا ريب فيه، موافقاً لما قبله من كتب ورسل، وأنزل التوراة على موسى ﷺ، والإنجيل على عيسى ﷺ، من قبل نزول القرآن؛ لأجل هداية الناس إلى الإسلام، وأنزل ما يفرق بين الحقِّ والباطل. إنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله التي بَيَّنها الله في القرآن وغيره لهم عذاب عظيم موجع. والله عزيز في ملكوته، ذو انتقام ممَّن كذَّب بآياته.

٥-٦- إنَّ الله يعلم كلَّ شيء، ظاهراً أو باطناً في الأرض والسماء، هو وحده الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء: من ذكرٍ أو أنثى، شقي أو سعيد. لا معبودَ بحقٍّ سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في تدبيره.

الفوائد والاستنباطات:

١ - القرآن الكريم معجز.

٢ - تقرير هداية القرآن الكريم.

٣ - تقرير نزول القرآن والتوراة والإنجيل.

٤- قال رسول الله ﷺ: «أُنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لِستّ مَضَيْنَ من رمضان، والإنجيل لثلاثَ عشرةَ خلت من رمضان، وأُنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان». (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٧، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة برقم١٥٧٥).

٥- تأكيد توحيد العبوديَّة.

٦- وجوب مراقبة الله تعالى وخشيته في السر والعلن.

٧- خَلْقُ الإنسان في رحم أُمِّه حسب مشيئة الله تعالى.

٨- في الآية (٦) إخبار عن أمر مستقبلي في خلق الله تعالى الجنين في الرحم كيف يشاء.

٩- ينظر: صورة مراحل خلق الإنسان في الرحم، كما في الملحق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٧- هو الله وحده الذي أنزل عليك - يا محمَّد - القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هنَّ أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود. ومنه آيات أُخَرُ فيها اشتباه على كثير من الناس أو بعضهم في الدَّلالة. فمَنْ كان في قلبه شكٌّ وانحراف عن الحقِّ يأخذون من الآيات المتشابهات، فيستدلون بها على مقاصدهم الفاسدة، ويحرِّفونها على حسب مذاهبهم الباطلة ليُضِلُّوا الناس. ولا يعلم بيان المتشابه وحقيقته إلا الله تعالى. والعلماء المتضلِّعون في العلم يؤمنون بالمتشابه والمحكم؛ لأنَّه كلَّه من عند الله تعالى. وما يتعظ ويتدبَّر المعاني على وجهها الصحيح إلا أصحاب العقول المهتدية.

٨-٩- وهؤلاء العلماء يطلبون من الله الثبات على الحقِّ، فيتضرَّعون قائلين: يا ربَّنا لا تُمِلْ قلوبنا عن الحقِّ الذي هديتنا إليه، وارزقنا من عندك رحمة واسعة، إنَّك أنت الوهَّاب، كريم العطاء لِـمَنْ تشاء، ياربَّنا

إنَّك ستجمع بين خَلْقك ليوم لا شكَّ فيه وهو يوم القيامة. إنَّ الله وعدُه حقٌّ، لا يُخلف ما وعدَ به العبادَ، كالبعث وغيره.

١٠ - إنَّ الذين كذَّبوا الله سبحانه لن تَدْفَعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم عذاب الله، وأولئك البعداء عن الحقِّ هم حطب النار يوم القيامة.

١١ - حال الكافرين في تكذيبهم بآيات الله شبيهة بحال قوم فرعون والذين من قبلهم من الكفَّار، كقوم نوح وهود وصالح أنكروا آيات الله، فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم. والله شديد الأخذ، أليم العذاب.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ موقع كاف التشبيه موقع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبَّه به، والتقدير: دأبُهم في ذلك كدأب آل فرعون، أي: عادتهم وشأنهم كشأن آل فرعون».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٣٣).

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب العمل بالمحكم.

٢ - وجوب الإيمان بالمتشابه.

٣ - العلماء الربَّانيون لا يعلمون المتشابه، لكنَّهم يؤمنون به.

٤ - على المؤمن أن يقف أمام المتشابهات من الآيات موقف العلماء الربانيين، فيفوِّض العلم بحقيقتها لله تعالى، ولا يتجاوز حدَّه من العلم.

٥ - حَذَّر النبيُّ ﷺ من الذين يتبعون المتشابه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم». (صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٣ برقم ٢٦٦٥ - كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، واللفظ له. وصحيح البخاري ٨/ ٢٠٩ برقم٤٥٤٧ - كتاب التفسير - سورة آل عمران).

٦ - تعليم الله تعالى المؤمنين الأدعية العظيمة، ومن أهمِّها طلب الثبات على الدين والحقِّ.

٧ - سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك مَنْ كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تُكَذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه». يتدارؤون: يختلفون.

(أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم٦٧٤١، وصححه محققه. وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع برقم٢٣٧٠).

٨- قال ابن عاشور: «من بدائع البلاغة أن ذكر في القصر فعل أنزل، الذي هو مختص بالله تعالى، إذ الإنزال يرادف الوحي، ولا يكون إلا من الله، بخلاف ما لو قال هو الذي آتاك الكتاب».

(التحرير والتنوير: ٣/ ١٤).

٩- قال ابن عاشور: «في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق؛ لأنَّه لما قَسَّم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني، تَشَوَّفت النفس إلى معرفة تَلَقِّي الناس للمتشابه. أمَّا المحكم فتَلَقِّي الناس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه». (التحرير والتنوير:٣/ ٢١).

١٠-وجوب الدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى.

١١-أموال الكفَّار وأولادهم لن تنفعهم في الآخرة.

١٢- الاعتبار بأحوال الأُمم الماضية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٢- يُبَشِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ ومهدِّداً الكافرين: قل لهم إنَّكم ستُهْزَمُون في الدنيا، وتُجمعون وتُساقون إلى جهنَّم؛ لتكون مستقراً لكم ومأوى، وساء ذلك مستقراً ومأوى.

١٣ - قل يا محمَّد للكفَّار: لقد كان لكم عبرة واضحة في طائفتين تقابلتا في معركة (بدر)، إحداهما: تقاتل من أجل نصرة دين الله، وهم المؤمنون، وعلى رأسهم محمَّد ﷺ، والأخرى: كفَّار قريش يرون المؤمنين ضِعفين عياناً. والله يُقَوِّي بنصره مَنْ يشاء. إنَّ في ذلك لموعظة لأصحاب البصائر الحكيمة.

١٤ - حُسِّن للناس الميل نحو الشهوات من النساء، وجُبِلُوا على حُبِّ كثرة البنين، والأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضَّة، والخيل الأصيلة المعلَّمة، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والمزارع الغنَّاء، ذلك ما يُمَتَّعُ به في الدنيا الزائلة. والله عنده حسن المنقلب وهو الجنَّة.

١٥ - يأمر الله تعالى محمَّداً ﷺ بأن يبشِّر المؤمنين بالجنَّة ويُشَوِّقهم إليها: هل أُخبركم بخير من هذه الشهوات؟ لِـمَنْ خاف الله: جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها المياه العذبة من الأنهار ماكثين فيها أبداً، وفيها أزواج مُطَهَّرة من عيوب النساء ومن عيوب الرجال- فالطهارة حسِّية ومعنوية للجنسين- ولهم رضوان دائم من الله. والله عليم بأحوال العباد.

١٦ -١٧- من صفات المتقين أنَّهم يَدْعُون الله، يقولون: يا ربَّنا إنَّنا صَدَّقْنا بك، فلا تؤاخذنا على ما فَعَلْنا من ذنوب، ونَجِّنا من عذاب النار. وأنَّهم يصبرون على الابتلاء، ويصدقون في أقوالهم وأفعالهم، ويطيعون الله، وينفقون من أموالهم سرَّاً وعلانية، ويستغفرون ربَّهم في وقت السحر آخر الليل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بشرى للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ بالنصر.

٢ - في الآية (١٣) إخبار مستقبلي عن تأييد الله تعالى بنصره لِـمَنْ يشاء.

٣- الاختبار بزينة الحياة الدنيا من النساء والبنين والأموال.

٤ - الآخرة أفضل وأمثل من زينة الحياة الدنيا.

٥- المؤمن التقي لا تفتنه الشهوات.

٦- الثناء على المستغفرين والصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين في سبيل الله تعالى.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - شهادة عظيمة يشهد بها الله تعالى أنَّه المتفرِّد بالعبودية، وكذلك تشهد الملائكة والعلماء على قيامه بالعدل، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو سبحانه، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وشهادة الربِّ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة... وأمَّا شهادته بفِعْلِه فهو ما نَصَبَه من الأدلَّة الدَّالَّة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل». (مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٨).

١٩ - يُخبر الله تعالى بأنَّه لا دين يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتِّباع الرسل فيما بعثهم الله به كلَّ حين حتى خُتِمُوا بمحمَّد ﷺ. وما اختلف اليهود والنصارى إلا من بعد ما جاءهم العلم بأمر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل فأنكروه حسداً، وبغى بعضهم على بعض. ومن يكذِّب بدلائل الله على توحيده فإنَّ الله سريع الجزاء لعباده.

٢٠ - يُعَلِّم الله تعالى محمَّداً ﷺ كيف يناظر أهل الكتاب: فإن جادلوك في شأن الدين فقل لهم: إنَّني أخلصت عبادتي لله وحده، أنا ومَنِ اتبعني من المؤمنين. وقل لأهل الكتاب ولمشركي العرب: هل قَبِلْتم الإسلام؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم، وإن أعرضوا فإنَّما عليك أن تُبَلِّغَهم ما أُنزل إليك. والله عليم بمَنْ يستحق الهداية ممَّنْ يستحق الضلالة، لا يخفى عليه شيء.

٢١-٢٢- إنَّ الذين يُكَذِّبون بدلائل الحق، ويقتلون الأنبياء ظلماً، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل، فبشِّرهم بعذاب موجع. أولئك البعداء عن رحمة الله الذين يتصفون بتلك الجرائم الخطيرة بطلت حسناتهم في الدارَين، وليس لهم ناصر من عذاب الله تعالى.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال المؤكِّدة لمضمون جملة ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ إذ لا يكون قَتْلُ النبيين إلا بغير حق. والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فِعْلِهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٢).

٢٣- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المِدْراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً! فقال رسول الله ﷺ: فهلمُّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم! فأبيا عليه، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ١٨).

التفسير:

يُخاطب الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ مُنكِراً على اليهود والنصارى: ألا تعجب من هؤلاء الذين يَدْعُون إلى الحقِّ المذكور في التوراة والإنجيل؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، فترفض طائفة منهم، وهم مُعْرِضون عن سماعه؟

٢٤-٢٥- هذا الإعراض عن الحقِّ بسبب ادِّعائهم أنَّهم لن يُعَذَّبوا إلا أياماً قليلة، فقد خدعوا أنفسهم بهذا الكذب. فكيف يكون حالهم يوم بعثهم الذي لاشكَّ في وقوعه، ونالت كلُّ نفس جزاءها العادل على ما عملت، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة؟.

قال ابن عاشور: (كيف) هنا خبر لمحذوف دلَّ على نوعه السياق، و (إذا) ظرف منتصب بالذي عمل في مظروفه، وهو ما في (كيف) من معنى الاستفهام التفظيعي كقولك: كيف أنت إذا لقيت العدو؟ (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٦).

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما فُتِحَتْ خيبر أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ها هنا من يهود»، فجمعوا له، فقال: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقِيَّ عنه؟» فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. فقال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». قالوا: صدقت. قال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كَذَبْنا عرفت كذبنا كما عرفته في

أبينا. فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال: «هل أنتم صادقِيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟» قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يَضُرَّك.

(الصحيح برقم ٣١٦٩ - الجزية والموادعة - باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد تضمَّنَتْ هذه الآية ثلاثة فصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّه قائم بالقسط، وأنَّه العزيز الحكيم، فتضمَّنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمَّنت عدله المنافي للظلم، وتضمَّنت عزَّته وحكمته المنافية للذلِّ والسفه، وتضمَّنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه، ففيها إثبات التوحيد». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٤).

٢- قال ابن عاشور: «هذا شروعٌ في أول غرض أنزلت فيه هذه السورة: غرض مُحاجَّة نصارى نجران. فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن والتوراة والإنجيل، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأنَّ هَدْيَه يفوق هدي ما قبله من الكتب». (التحرير والتنوير: ٣/ ٤٥).

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإثبات شهادة أولي العلم يتضمَّن أنَّ الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين، الملائكة والبشر، وهذا متَّفق عليه، يشهدون أن لا إله إلا الله، ويشهدون بما شهد به لنفسه». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٠).

٤- بيان فضل العلماء.

٥- وجوب التحاكم إلى شرع الله تعالى.

٦- الرد على مزاعم اليهود الذين زعموا أنَّهم لم تمسَّهم النَّار إلا فترة يسيرة.

٧- الحذر من الاختلاف في الدِّين، والتفرُّق والتشرذم.

٨- قال ابن عاشور: «الاستفهام المستعمَلُ في الاستبطاء والتحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. وجيء بصيغة الماضي في قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ دون أن يقول: أتُسْلِمون على خلاف مقتضى الظاهر، للتنبيه على أنه يرجو تحقُّق إسلامهم، حتى يكون كالحاصل في الماضي».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٥٩).

٩- الردُّ على مزاعم اليهود الذين زعموا أنهم لن تمسهم النار إلا وقتاً يسيراً.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٧- يُرشد الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ والمؤمنين كيف يَدْعُونه ويُعَظِّمونه؟ فيقولون: يا الله، يا مالك الملك، تهب الملك والمال لِـمَنْ تشاء من عبادك، وتمنع مَنْ تشاء، وترفع مَنْ تشاء، وتخفض مَنْ تشاء، بيدك الخير وحدك، إنَّك على فِعْل كلِّ شيء قدير، لا يقدر على ذلك غيرك. تُدْخِلُ ما نَقَصْتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتَزيد من ساعات النهار، وتُدْخِلُ ساعات النهار في ساعات الليل، فتَزيد من ساعات الليل. وتُخرج الشيء الحيَّ من الشيء الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج النبات الأخضر من الحبوب اليابسة، وتخرج الشيء الميت من الحي، كإخراج الحَبِّ اليابس من النبات الأخضر، وتعطي مَنْ شئت مِن المال ما لا يقدر على إحصائه.

٢٨- لا تتخذوا - أيُّها المؤمنون - الكفَّار ظَهْراً وأنصاراً، ومَنْ يتولَّهم فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة فلا حرج في ذلك. ويُخَوِّفكم الله من نفسه أن تخالفوه. وإلى الله مرجعكم وحسابكم.

٢٩- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يخبر المؤمنين: إن تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم أو تظهروه، فإنَّ الله قد أحاط به علماً، وأحاط بكلِّ شيء في السموات السبع والأرضين السبع. والله على كلِّ شيء قدير لا يتعذَّر عليه شيء أراده.

٣٠- فليحذر الذين يخالفون أمره يوم القيامة، إذ تجد كلُّ نفس عملها من خيرٍ مهما قلَّ أو كثر مشاهداً، وتجد ما اقترفته من ذنوب تتمنَّى أن تكون بعيدة عن ذلك العمل بُعْداً شاسعاً خوفاً من الحساب، ويحذِّركم الله نفسه أن تسخطوها عليكم بفعل المعاصي، والله عظيم الرأفة بعباده.

٣١-٣٢- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يبلِّغ كلَّ مَن ادَّعى أنَّه يحبُّ الله تعالى حقّاً فعليه اتِّباعه وتصديقه ﷺ، فإنَّ ذلك علامة محبَّة الله لهم، فهؤلاء يَحْظَون بمحبَّة الله تعالى ومغفرته لذنوبهم. والله عظيم المغفرة لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم، وهو اتِّباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أَحَبَّهم، وجزاء الشرط وثواب العمل ومُسَبَّب السبب لا يكون إلا بعده لا قبله». (مجموع الفتاوى ٧/ ٤٤٣).

ثمَّ أمرهم بطاعة الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، فإن أعرضوا فإنَّ الله لا يحبُّ الجاحدين للحقِّ ويسخط عليهم. عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أَعْدَدْتَ لها؟» قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنتَ مع من أحببت». (صحيح البخاري ١٠/ ٥٥٧ برقم ٦١٧١- كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦) إخبار عن أمر مستقبلي في إعطاء الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن نزع الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار عن أمر مستقبلي في معزَّة الله تعالى لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن إذلال الله تعالى لِـمَنْ يشاء.

٢- تعليم الله تعالى النبي ﷺ وأُمته بهذا الدعاء العظيم.

٣- فضل الدعاء بهاتين الآيتين العظيمتين.

٤- قال ابن عاشور: «خُصَّ الخير هنا لأنَّ المقام مقام تَرَجِّي المسلمين الخير من الله». (التحرير والتنوير ٣/ ٦٨).

٥- في الآية (٢٧) إخبار عن أمر مستقبلي في رزق الله تعالى لِـمَنْ يشاء بغير حساب.

٦- ينظر: صورة ولوج وتكوير الليل والنهار، كما في الملحق

٧- تحريم موالاة المؤمنين للكفار، وهذه الموالاة المحرمة لها عدة حالات منها:

أ- الموالاة بالقلب كمَنْ يواليهم وقلبه متعلق بهم، ويُظهر للمسلمين خلاف ما يبطنه لهم من العداوة.

ب- تحسين صورة الكافرين في نفوس المؤمنين.

ج- الموالاة الناتجة عن التساهل مع الكفار في تركهم ينشرون الردة عن الإسلام.

د- التواطؤ معهم على إضعاف المؤمنين.

٨- قال ابن عاشور: «انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن، والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤوف، فجعل محبة الله فعلاً للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة».

(التحرير والتنوير: ٣/ ٧٨).

٩- محبَّة الله تعالى تكون بإخلاص العبوديَّة له سبحانه.

١٠- كثير من الناس اليوم يَدَّعون محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ وهم قائمون على المعاصي والمنكرات وكبائر الذنوب، وهذا مخالف لدعواهم فإن المُحِبَّ لِـمَنْ يحب مطيع، فعلى هؤلاء أن يتقوا الله ويرجعوا عمَّا هم فيه حتى تصدق دعواهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٤- إنَّ الله اختار الأنبياء آدم ونوحاً والمؤمنين من ذريَّة إبراهيم وذريَّة عمران، كمريم وعيسى عليه السلام، وفضَّلهم على العالمين في زمانهم. وهؤلاء الأنبياء والرسل سُلالة متواصلة في النيَّة والإخلاص لله والتوحيد له. والله سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم.

٣٥- واذكر - أيُّها الرسول - قِصَّة امرأة عمران واسمها: (حنة بنت فاقوذ) حين حملت دعت: يا ربِّ إنِّي نذرت لعبادتك ما أحمله في بطني خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة (بيت المقدس) فتقبَّل منِّي نَذْري. إنَّك أنت السميع لدعائي، العليم بقصدي.

٣٦- وحينما وَلَدَت امرأة عمران ابنتها (مريم) قالت متأسِّفة: يا ربِّ إنِّي وضعتها أنثى- والله تعالى أعلم بما ولدت - وليس الذَّكَرُ الذي يصلح لخدمة (بيت المقدس) كالأنثى التي لا تستطيع ذلك، وإنِّي سَمَّيْتُ هذه الأنثى (مريم)، وإنِّي أجيرها بك وذريتها من الشيطان المطرود من رحمة الله.

٣٧- فتقبَّلَ الله مريم نَذْراً لأُمِّها أحسن القبول، وتَوَلَّى مريم بالعناية، وأنبتها نباتاً حسناً وشكلاً مليحاً، وهيَّأ الله تعالى زكريا (زوج خالتها) أن يتكفَّل مريم، وأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما جاء مريم

لرعايتها وجد عندها رزقاً كريماً فيسألها متعجِّباً: يا مريم من أين لك هذا الرزق؟ فأجابت: هو رزق من فضل الله. إنَّ الله يرزق مَنْ يشاء من عباده بغير إحصاء ولا حدود.

٣٨- لَمَّا رأى زكريا عليه السلام الرعاية الربَّانية لمريم دعا: يا ربِّ ارزقني من فضلك ولداً مباركاً، إنَّك يا الله تسمع دعاء مَنْ دعاك.

٣٩- فاستجاب الله له دعاءه وناداه جبريل عليه السلام ومَنْ معه من الملائكة حال كون زكريا عليه السلام قائماً في المحراب يُصلِّي: إنَّ الله يبشِّرك بأنَّك سترزق بولد اسمه (يحيى) مصدِّقاً بعيسى بن مريم، وسيكون يحيى سيداً في قومه، زاهداً في شهوة النساء، وممتنعاً عن المُحَرَّمات، ونبيَّاً من أهل الصلاح.

٤٠- سأل زكريا ربَّه مُتحقِّقاً من البشارة: يا ربِّ كيف يُوْجَدُ لي غلام وقد أدركَتْني الشيخوخة، وامرأتي عقيم لا تلد؟ فأجابه ربُّه: مثل ذلك الخلق غير المعتاد يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا القدر الذي بلغ من الكِبَر، ولكنه بَيَّن في سورة مريم أنه بلغ من الكبر عِتِيّاً. وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] والعِتِيُّ: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر».

٤١- طلب زكريا أن يطمئنَّ: يا ربِّ اجعل لي علامة أستأنس بها على تحقيق البشارة؟ فأُجيب: بأنَّ علامتك عجزك عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، واذكر خالقك ذِكراً كثيراً، وسَبِّحه تعظيماً وتنزيهاً له في الصباح والمساء.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الله تعالى على مَنْ يشاء من عباده الذين اصطفى، ومنهم مريم الصدِّيقة.

٢- بشرى الاستجابة لزكريا عليه السلام بأن يَهَبَ الله تعالى الذرية لِـمَنْ دعاه من الصالحين.

٣- الاستفادة من القصص في استجلاب الخير، ومنه ما ذُكِرَ في هذه القصة العظيمة.

٤- فضل الدُّعاء وذِكْرِ الله تعالى.

٥- في الآيتين (٣٣ - ٣٤) تنبيه على مكانة الأسرة المسلمة عند الله تعالى وأهميتها في تماسك المجتمع المسلم وقوته. وأن آل إبراهيم وآل عمران أسرتان مباركتان فيهما الأنبياء والصالحون.

٦- في الآيتين (٣٦) و(٣٨) أصل من أصول تربية الأولاد وهو الاستعانة بالله على تربيتهم ورعايتهم، وطلب التوفيق من الله تعالى في تحمل مسؤولية تنشئتهم، والدعاء لهم بالصلاح والفلاح.

٧- في الآية (٣٧) دليل على صحة قاعدة السلف التربوية «التأديب من الآباء، والصلاح من الله تعالى».

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٢-٤٣- هذا إخبار من الله تعالى للنبيِّ ﷺ بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك: إنَّ الله اجتباكِ وزكَّاكِ من كلِّ عيب، واجتباك مرَّة أخرى لتفضيلك على نساء العالمين، يا مريم أكثري من الطاعة والشكر والخضوع لربِّكِ، وصَلِّي مع المصلِّين.

٤٤- ذلك الذي قصصناه عليك - يا محمَّد - من عظيم أخبار الغيب التي أعلمناك إيَّاها، وما كنت مع المتنازعين حين اقترعوا على حضانة مريم بإلقاء أقلامهم، فمَنْ وقف قلمه فهو الكافل، فوقف قلم زكريا، وما كنت عندهم إذ يختلفون، ويتسابقون على ثواب الله.

٤٥- واذكر - أيُّها الرسول - حين نادت الملائكة مريم: إنَّ الله يبشِّرك بمولود يحصل بكلمة من الله وهي ﴿ كن ﴾ فيكون بأمر الله تعالى، اسمه المسيح عيسى بن مريم، ذو جاه عظيم في الدنيا بالنبوَّة، وفي الآخرة بعُلُوِّ الدرجة؛ لأنَّه من المقرَّبين إلى الله يوم القيامة. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبين هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنَّها هي سبب في وجوده، من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بيَّنَ في موضع

آخر أنها لفظة ﴿كن﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]».

٤٦ - ومن خصائصه في الدنيا: أنّه يكلّم الناس وهو طفل رضيع في المهد حين قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [سورة مريم: ٣٠-٣٣]، ويُكلّم الناس في حالة الشيخوخة حين يوحي الله إليه، وهو من الصالحين في قوله الفصيح، وعمله الصحيح.

٤٧ - تعجَّبت مريم من وجود الولد دون زواج: كيف يكون لي ولد ولم يقربني رجل؟! فأجابها الوحي: مثل تلك المعجزة يخلق الله ما يشاء من العدم، إذا أراد شيئاً فإنّما يأمره بكلمة ﴿كن﴾ فيكون كما أراد.

٤٨ - ويُعلِّمه الكتابة وسنن الأنبياء، والتوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل عليه.

٤٩ - ويبعثه رسولاً إلى ذريَّة يعقوب عليه السلام داعياً لهم: أنّي أتيتكم ببرهان من خالقكم يدلُّ على صدق رسالتي، حيث إنّي أصوّر لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ في تلك الصورة، فتصير طيراً بمشيئة الله، وأُشفي الأعمى والمصاب بالبرص، وأُحيي مَنْ كان ميتاً بإذن الله، وأُخبركم بما أكلتم، وما خبَّأتم في مساكنكم. إنَّ في ذلك البرهان البعيد عن الشكِّ لدليلاً واضحاً على صدق نبوّتي إن كنتم مصدِّقين بالله ورسله.

٥٠ - وأُرسلت إليكم مُصَدِّقاً لما سبقني من شريعة التوراة، ولأبيح لكم بعض ما حُرِّم عليكم من قبل، وجئتكم بمعجزات من ربِّكم، فخافوا الله وأطيعوني، وتابعوني في ديني.

٥١ - إنَّ الله الذي أرسلني إليكم وحده ربِّي وربُّكم، فاعبدوه وحده لا شريك له، وهذا هو الطريق القويم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان فضل مريم رضي الله عنها.

٢ - تقرير نبوة عيسى عليه السلام وبيان فضله.

٣ - بيان فضل الركوع والسجود.

٤ - هذه القصَّة من دلائل النبوَّة؛ فهي من قبيل الإخبار بغيب الماضي.

٥ - إظهار عظمة قدرة الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام بقوله (كن) فيكون.

٦ - الردُّ على مَنْ قال بعقيدة التثليث بأن عيسى على التوحيد، ويدعو إلى توحيد العبودية لله تعالى.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٢- فلمَّا دعا عيسى عليه السلام اليهود واستشعر منهم الإصرار على التكذيب نادى: مَنْ أعواني في الدعوة إلى الله؟ قال أصحاب عيسى الأصفياء: نحن أنصار دين الله، صَدَّقْنا بالله، واشهد لنا بأنَّا منقادون لله وحده.

٥٣- ودَعوا: يا ربَّنا إنَّنا صدَّقنا بالذي أنزلت من الوحي، وامتثلنا أوامر رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا من الذين شهدوا لك بالوحدانية.

٥٤- وتآمر كفرة اليهود على عيسى عليه السلام ، وقرَّروا أن يقتلوه، ومكر الله بهم بأن ألقى الله شبَهَ عيسى على رجل منهم، فقتلوه وظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسى، ورفع الله عيسى إلى السماء، ولهذا قال: والله خير الماكرين؛ لأنَّه مكرٌ بحق، وأعظم من مكرهم.

٥٥- يُذكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ حين أنقذ الله تعالى عيسى عليه السلام قال: يا عيسى إنِّي قابضك من الأرض، ورافعك إليَّ، ومنجيك من خبث الكفَّار ومكرهم، وجاعل الذين صَدَّقوا بنبوَّتك منصورين على الذين جحدوا نبوَّتك إلى قيام الساعة، ثمَّ يكون مآلُكم إليَّ جميعاً، فأقضي بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه من أمر عيسى عليه السلام.

٥٦- فأمَّا المكذِّبون بالله ورسله فأعذِّبهم عذاباً شديد الوجع في الدنيا بشتَّى العقوبات، وفي الآخرة بجهنَّم، وليس لهم أعوان يدفعون عنهم عذاب نار جهنَّم.

٥٧- وأمَّا المؤمنون الذين يقومون بالأعمال الصالحة فيعطيهم الله ثوابهم تامَّاً. والله لا يحبُّ المعتدين المخالفين أمره.

٥٨- ذلك الخبر العظيم الذي نقرؤه عليك - يا محمَّد - بواسطة جبريل من البراهين الواضحة التي تدلُّ على صدق نبوَّتك، وصحة القرآن ذي الحكمة الفاصلة بين الحقِّ والباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - مَنْ يمكر بالأنبياء والدعاة فإنَّ الله تعالى يمكر به عاجلاً أو آجلاً.

٢ - إنَّ الله تعالى ناصر رسله بأسباب متعددة، ومن أهمِّها ما يُهيِّئه لهم من الأنصار المؤمنين.

٣- تقرير رَفْعِ عيسى عليه الصلاة والسلام حياً، خلافاً للذين يعتقدون أنه قُتِلَ مصلوباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

٤ - جزاء المكذِّبين للرسل العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير:

٥٩- إنَّ شَبَهَ عيسى في خلقه من غير أب كشبه آدم خلقه الله من تراب، ثمَّ أوجده بكلمة (كن) فكان.

٦٠-٦١- هذا هو الحقُّ الذي جاء من ربِّك - أيُّها الرسول - في شأن عيسى عليه السلام، فاستمر على يقينك، ولا تكن من المرتابين في بطلان اعتقاد اليهود بشأن عيسى عليه السلام. فمَنْ جادلك في شأن عيسى بعد ما وضح لك الحقُّ من الوحي فقل لهم: هَلُمُّوا نجتمع ونُحْضِرُ الأبناء والنساء من الطرفين، ثم نتضرَّع إلى الله بالدعاء أن يُنْزِلَ عقوبته ولعنته على الكاذبين في شأن عيسى عليه السلام.

٦٢- يؤكِّد الله تعالى أنَّ خبر عيسى عليه السلام الذي أنبأتك به هو الحقُّ الواقع، وليس ثمة معبود يستحقُّ العبادة إلا الله وحده. وإنّ الله لهو العزيز في ملكه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

٦٣- فإن أعرضوا عن هذا الحق فهذا هو الفساد. والله عليم بالمفسدين وسيعاقبهم.

٦٤- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يدعو اليهود والنصارى إلى كلمة عدل وهي: لا إله إلا الله، فنلتزم بها جميعاً، وألا تكون عبادتنا إلا لله وحده، ولا نجعل له أيَّ شريك، ولا يطيع بعضنا بعضاً في عبادة لغير الله، فإن أعرضوا عمَّا دُعُوا إليه فقولوا لهم: اشهدوا علينا بأنَّا مسلمون، منقادون لله.

الفوائد والاستنباطات:

١- اشتراك آدم وعيسى عليهما السلام في كيفية الخلق من غير أب، وخَلْقُ آدم أعجب من خَلْق عيسى عليه السلام.

٢- قال ابن عاشور: «يستفاد من قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى آخره، التعريض بالذين عبدوا المسيح كلهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ١١٧).

٣- مشروعية المباهلة، وهي الابتهال إلى الله تعالى أن يجعل اللعنة على الكاذبين.

٤- التنصيص على أنَّ هذا القصص هو الحق فيه إشارة إلى القصص غير الحق في التوراة والإنجيل.

٥- وصف الرافضين لدعوة الإيمان بالمفسدين.

٦- في الآية (٦٤) دليل على جواز استخدام الحوار والحجاج مع غير المسلمين عموماً وأهل الكتاب خصوصاً.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- يُوَبِّخ الله تعالى اليهود والنصارى الذين قالوا: إنَّ إبراهيم كان على مِلَّتهم، فيقول لهم: لِمَ تُجادلون في ذلك وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد عهد إبراهيم؟ أفلا تدركون فساد قولكم؟

٦٦- يُنبِّه الله تعالى أهل الكتاب، ويُوَبِّخهم أنَّهم قد جادلوا محمَّداً ﷺ فيما لهم به علم من التوراة والإنجيل، فلماذا تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو الزعم بأنَّ إبراهيم ﷺ كان على دينكم؟ والله يعلم الحقَّ، وأنتم لا تدركونه.

٦٧-٦٨- تكذيبٌ من الله دعوى الذين جادلوا في إبراهيم بأنَّه كان على مِلَّتهم، بل كان مُتَّبعاً لأمر الله، متذلِّلاً له، وما كان من الذين يشركون مع الله غيره. إنَّ أحقَّ الناس بالانتماء لإبراهيم هم الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي محمَّد ﷺ والذين صَدَّقوا به. والله ناصر الذين صَدَّقوا بالله ورسله.

٦٩- يُخبر الله تعالى عن حسد جماعة من اليهود بأنَّهم تمنَّوا لو يَصُدُّون المسلمين عن دينهم، فيهلكونهم، وما يهلكون بفعلهم هذا إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يدركون ذلك.

٧٠- ينكر الله على اليهود والنصارى: لِمَ تُكَذِّبون بالقرآن والمعجزات التي أُنزلت على محمَّد ﷺ وأنتم تعلمون أنَّ ذلك حقّ؟

٧١- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية، حتى نُلَبِّس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧١-٧٣]. (التفسير الصحيح ٢/ ٣٨).

التفسير:

ثمَّ يُوَبِّخهم بقوله: لِمَ تخلطون بين الحقِّ المنزل في الكتب السماوية، والباطل الذي فيه التحريف، وتُخْفُون الحقَّ ومنه صفة النبيِّ ﷺ وأنتم تُوقنون بذلك؟

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العبودية لله تعالى على جميع البشر الذين بلغتهم الدعوة.

٢- قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أفاد الاستدراك بعد نفي الضدِّ حصراً لحال إبراهيم فيما يوافق أصول الإسلام، وعطف قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لييئس مشركو العرب من أن يكونوا على مِلَّة إبراهيم». (التحرير والتنوير: ١٢٢-١٢٣).

٣- إبطال مزاعم أهل الكتاب أنَّ إبراهيم ﷺ على مِلَّتِهم؛ لأنَّه توفي قبل نزول التوراة والإنجيل، بل هو على الإسلام.

٤- تحريم الكذب على الله تعالى وعلى أنبيائه صلوات الله عليهم، وتحريم المُحاجَّة بلا علم.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير:

٧٢-٧٣- وقال الضالُّون من علماء اليهود لأتباعهم: صَدِّقوا بالقرآن أوَّل النهار، ثمَّ اكفروا به آخر النهار؛ كي يرتدَّ المسلمون عن دينهم، ولا تُصَدِّقوا إلا مَنْ كان يهودياً. ثمَّ أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم. قل: إنَّ أمر الهداية إلى الحقِّ ليس بأيديكم، وإنَّما هو هدى الله يهدي إلى الحقِّ مَنْ يشاء. ثمَّ ذكر حسد اليهود وقولهم: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلَّمون، فيساوونكم في العلم. ثمَّ ردَّ عليهم: قل يا محمَّد إنَّ الهداية والعطاء كلّه بيد الله وتحت تصرُّفِه يعطيه مَنْ يشاء. والله واسع الإنعام، عليم بمَنَ يستحقُّ الإكرام.

٧٤- يبشِّر الله المؤمنين بأنَّه يختص مَنْ يشاء من خلقه بالنبوَّة والهداية إلى الإيمان، والله صاحب الفضل العظيم على عباده.

٧٥- يُخبر الله تعالى عن أهل الكتاب: أنَّ منهم طائفة أمناء، لو أمَّنتهم على مالٍ كثير يُؤَدُّونه إليك، ومنهم طائفة لو أمَّنتهم على دينار أو أقلَّ لا يَرُدُّونه إليك، إلا ما دمت ملازماً لهم بالمطالبة؛ وذلك بسبب سوء اعتقادهم بأنَّه لا حرج عليهم في ظلم العرب والأُمم الأخرى غير اليهود، واستباحة أموالهم. وهذا القول افتراء على الله، وهم يعلمون أنَّهم مفترون.

٧٦- حقّاً لقد افتروا على الله الكذب، ولكن مَنْ أوفى بعهد الله من القيام بحقوق الله وحقوق خَلْقِه، وخاف الله بامتثال أوامره، فإنَّ الله يحبُّ الذين يَتَّقونه بأداء الحقوق التي أوصى بها سبحانه.

٧٧- سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: أقام رجل سِلْعَتَه، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطها. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

(صحيح البخاري ٥/ ٢٨٦ برقم ٢٦٧٥- الشهادات، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حلف يمين صبرٍ؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يُحَدِّثك أبو عبد الرحمن؟ قلنا كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عَمٍّ لي، قال النبي ﷺ: «بيِّنتك أو يمينه». فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «مَنْ حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».

(صحيح البخاري ٨/ ٦٠-٦١ كتاب التفسير، باب سورة آل عمران-الآية... برقم ٤٥٤٩-٤٥٥٠، وصحيح مسلم ١/ ١٢٢-١٢٣برقم ١٣٣٨- كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار).

التفسير:

إنَّ الذين يعتاضون عمَّا ائتمنهم الله عليه من العهود والوصايا العظيمة بحطام الدنيا القليل لا نصيب لهم في الآخرة، ولا يكلِّمهم الله بما يَسُرُّهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ولا يُطَهِّرهم من الذنوب، ولهم عذاب موجع.

٧٨- يُحَذِّر الله من تحريف المُضلِّين من اليهود؛ إذ ينطقون بكلام ليس من التوراة؛ ليوهموا غيرهم، فيدَّعوا أنَّ هذا من كلام الله، وليس هو من عند الله، ويفترون على الله الكذب، وهم متيقِّنون أنَّهم مفترون.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من بعض أهل الكتاب الذين يَوَدُّون صرف المسلمين عن دينهم.

٢- التحذير من خداع الذين يدخلون الإسلام من أجل التشكيك.

٣- كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي، ومعناها شخص أو إنسان، وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلا في حيز النفي، فيفيد العموم.

٤- في الآية (٧٤) إخبار مستقبلي عن تخصيص الله تعالى برحمته لِـمَنْ يشاء، وفيه بشرى للمؤمنين.

٥- ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب، وهو مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦- قال ابن عاشور في الآية (٧٧): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّ في خيانة الأمانة إبطالاً للعهد، وللحِلْفِ الذي بينهم وبين المسلمين وقريش». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٥).

٧- وجوب أداء الأمانة على مَنْ اؤتمن عليها.

٨- بيان ما كان يفعله بعض اليهود من التحريف والتبديل في التوراة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

٧٩-٨٠- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني أو كما قال»، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

(التفسير الصحيح ٢/ ٤٣).

التفسير:

يَرُدُّ الله على أحبار اليهود والنصارى الذين دعاهم رسول الله ﷺ، فقالوا له بمكر وتكبُّر: أتريد أن نعبدك؟ فأجابهم الله: أنَّه لا يصحُّ لبشر يُنزل اللهُ عليه الكتابَ والملك والنبوَّة أن يأمر الناس أن يعبدوه! ولكن يأمرهم بأن يكونوا حكماء علماء عاملين بما أنزل عليهم، وبما كانوا يدرسونه، ولا يأمركم بأن تجعلوا الملائكة والأنبياء آلهة من دون الله، وهل يعقل أن يأمركم بالجحود بالله بعد خضوعكم وانقيادكم لله تعالى؟! قال ابن عاشور: «قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ نَفْيٌ لاستحقاق أحد لذلك القول، واللام فيه للاستحقاق». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٩).

٨١- يُذَكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ حين أخذ الله العهد المؤكَّد من أنبياء أهل الكتاب: قسماً لئن أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثمَّ جاءكم رسول موافق لما معكم، وجب عليكم أن تُصَدِّقوه وتُعِينُوه حقّاً. فهل وافقتم، واعترفتم بذلك، وأخذتم على ذلك عهدي؟ فأجاب الأنبياء: أقررنا ووافقنا. ثمَّ أمرهم الله أن يشهد بعضهم على بعض، وأنَّه شاهد على إقرارهم وشهادتهم.

٨٢- فمَنْ أعرض عن الإيمان بعد هذا العهد، فأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى، وهم الخارجون عن طاعة ربِّهم.

٨٣- يُنْكِرُ الله تعالى على الفاسقين: أيبتغي هؤلاء ديناً غير الإسلام، وقد خضع له كلُّ مَنْ في السموات السبع والأرض طوعاً كالمؤمنين، وكرهاً كالكفَّار؟ وإلى الله يرجع الجميع يوم الحساب.

٨٤- يؤكِّد الله تعالى أهمية الإيمان، فيأمر النبيَّ ﷺ وأُمته أن يعلنوا عن إيمانهم الكامل الشامل، وهو التصديق بالله العظيم وبالقرآن الكريم، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام والأسباط، وهم القبائل من ذريَّة أولاد يعقوب ﷺ، وما أعطى الله موسى وعيسى عليهما السلام من التوراة والإنجيل، وما أُوتي النبيون من ربِّهم، لا نُفَرِّق بين أحد من هؤلاء، ونحن لله تعالى وحده منقادون بالطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تنزيه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أن يدعوا الناس إلى عبادتهم؛ لأن ذلك شرك محض.

٢- تحريم كل عبادة لغير الله تعالى.

٣- الإنكار الشديد على مَنْ يُعرض عن دين الإسلام، ويبتغي غيره.

٤- وجوب الإيمان بكل ما جاء به رسل الله تعالى، ووجوب الإيمان بالكتب التي أنزلت عليهم.

٥- ينظر: شجرة الأنبياء في الملحق.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

٨٥- سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]، فأنزل الله ﷻ بعد: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ٤٦).

التفسير:

ومَنْ سلك طريقاً غير ما شرعه الله سبحانه من الدين فلن يتقبَّلَ الله منه، ويشمل ذلك الأوَّلين والآخرين، ويوم القيامة سيُعاقَب، وهو من الخاسرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبيَّن أنَّ الدِّين الذي رضيه ويقبله من عباده الإسلام، ولا يكون الدِّين في محلِّ الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل». (مجموع الفتاوى ٧/ ٣٦٠).

٨٦- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد، ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وإنَّه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه فأسلم». (أخرجه النسائي في السنن ٧/ ١٠٧ كتاب تحريم الدم، باب توبة المرتد، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/ ٣٢٩ برقم ٤٤٧٧) قال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/ ١٤٢) قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي).

التفسير:

كيف يرشد الله إلى الصواب، ويُوَفِّق للإيمان قوماً ارتدوا، فجحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ بعد تصديقهم إياه وإقرارهم أنَّه رسول الله حقّاً، وأنَّ البراهين التي جاء بها تدلُّ على صحَّة نبوَّته؟ والله لا يوفِّق للحقِّ القوم المعتدين.

٨٧-٨٩- أولئك البعيدون عن الحقِّ الذين ارتدُّوا جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وتلعنهم الملائكة والناس جميعاً، ماكثين في النار دائماً لا يُرفع عنهم العذاب ولا هم يُمْهَلُون، إلا الذين رجعوا عن الردَّة بالتوبة النصوح، وأصلحوا العمل، فإنَّ الله يتقبَّل منهم، فهو غفور للذنوب، رحيم بعباده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنَّ من ازداد كفراً بعد إيمانه لن تُقبل توبته، وفَرَّق بين الكفر المزيد كفراً، والكفر المجرَّد، في قبول التوبة من الثاني دون الأوَّل، فمن زعم أنَّ كلَّ كفر بعد الإيمان تُقبل منه التوبة فقد خالف نصَّ القرآن». (الصارم المسلول ٣٧٤).

٩٠-٩١- يتوعَّد الله تعالى الذين ارتدُّوا، ثمَّ ازدادوا كفراً بمعاداة المؤمنين، بأنَّ الله لن يقبل توبتهم؛ لأنَّهم ضلُّوا وأصرُّوا على الضلال. وكذلك الذين جحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ، وماتوا على ذلك، فلن يقبل الله من أحدهم يوم القيامة لو فدى نفسه بملء الأرض ذهباً من العذاب، وعقابهم عذاب موجع، وما لهم من أعوان يخلِّصونهم منه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٨٥) إخبار مستقبلي عن عدم قبول الله تعالى لِـمَنْ يريد غير دين الإسلام.

٢ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الدِّين عند الله الإسلام في كلِّ زمان ومكان». (الجواب الصحيح ٢/ ١١٧).

٣- الإسلام هو دين الحق.

٤ - التحذير من الإعراض عن الدِّين.

٥- في الآية (٩٠) إخبار عن أمر مستقبلي في أن الله تعالى لا يقبل توبة الكفَّار، إذا ازدادوا كفراً بعد إيمانهم.

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٩٣) فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧) ﴾

التفسير:

٩٢- لن تنالوا - أيُّها المؤمنون - ثواب البرِّ، وهو الجنَّة؛ حتى تَتَصَدَّقوا ممَّا تحبون. وما تنفقوا من قليل أو كثير فإنَّ الله عليم به، وسيثيبكم عليه.

٩٣- جميع الأطعمة كانت حلالاً لذريَّة يعقوب عليه السلام، إلا ما حَرَّم يعقوب على نفسه، كلحوم الإبل وألبانها، فقد نذر ذلك حين أُصِيبَ بمرض، من قبل أن تنزل التوراة على موسى، ثمَّ حَرَّم ذلك ذريَّةُ يعقوب اتِّباعاً لأبيهم، فأمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم: بأن يأتُوا بالتوراة، فيقرؤوها إن كانوا صادقين في ادِّعائهم تحريم لحوم الإبل وألبانها.

٩٤- فمَنْ اختلق منهم الكذب على الله من بعد بيان الحقِّ في التوراة، فأولئك البعداء عن رحمة الله، هم المعتدُون بقولهم الباطل.

٩٥- قل يا محمَّد لهؤلاء الكاذبين: صدق الله فيما أخبر به، فاتَّبِعُوا دين الإسلام والاستقامة عليه، وما كان إبراهيم عليه السلام من الذين يعبدون الأوثان.

٩٦-٩٧- يخبر الله تعالى بعظمة بيته الحرام، فهو أوَّل البيوت التي بُنيت لعبادة الله في الأرض الذي يقع في (مكَّة)، وفيه البركة والهداية للناس أجمعين، وفيه علامات واضحة منها: مقام إبراهيم - وهو الحِجْرُ الذي كان يقف عليه في أثناء بناء الكعبة - وفيه الأمن، فمَنْ دخله كان آمناً على نفسه. وقد أوجب الله على مَنْ يستطيع حجَّ هذا البيت، ومَنْ أنكر فريضة الحجِّ فإنَّ الله غني عنه وعن الناس أجمعين.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلتُ: يا رسول الله أي مسجد وُضِعَ أولَ؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم المسجد الأقصى» قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون». ثم قال: «حيثُما أدركتكَ الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد». (الصحيح ٦/ ٤٥٨ برقم٣٤٢٥-كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾).

الفوائد والاستنباطات:

١ - الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، وأن ينفق الشيء الجيِّد غير الرديء.

٢- الردُّ على مزاعم اليهود، وأمرهم باتِّباع دين إبراهيم ﷺ، وهو الإسلام.

٣- وجوب الأمن لِـمَنْ دخل البيت الحرام ولكن هذا لا يمنع أَخْذُ الجاني بجنايته.

٤- الحج ركن من أركان الإسلام، وهو مرة واحدة في العمر.

٥- قال ابن عاشور في الآية (٩٧): «في هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف ﴿عَلَى﴾ الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٦٧).

٦- من الآيات البينات في الحرم المكي:

أ- ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة: فالكعبة المشرفة مبنية بأضلاعها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً، وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة ينفي إمكانية كونه عملاً بشرياً.

ب- الحجر الأسود من أحجار السماء؛ لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص.

ج- مقام إبراهيم ﷺ يحمل طبعة قدميه.

د- بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي، لتدفق الماء منه على مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، من قلب صخور نارية ومتحولة شديدة التبلور. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٨٧-٥٩٤). وينظر: صورة مقام إبراهيم، كما في الملحق.

٧- ثبت علمياً حمايةُ مكة المكرمة من الهزات الأرضية والثورات البركانية، على الرغم من وجود أكثر من تسعين ألف كيلو متر مربع من الطفوح البركانية وآلاف الفوهات البركانية على طول أرض الحجاز، وعلى الرغم من هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض الهزات الأرضية الخفيفة، ولعدد من التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة على ندرة حدوث ذلك. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٩٥-٦٠٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

التفسير:

٩٨-٩٩- يُنْكِرُ اللهُ على اليهود والنصارى، فيأمر محمَّداً ﷺ أن يقول لهم: لِمَ تجحدون بآيات الله الدالَّةِ على صدق رسالة محمَّد ﷺ، والله شهيد على أفعالكم؟ وكذلك يُنكر عليهم: لِمَ تمنعون المؤمنين عن دين الله ونبيِّه بالشبهات والفتن والتحريف، وأنتم تعلمون أنَّهم على الحقِّ؟ وليس الله بغافل عن صنيعكم.

١٠٠- يحذِّر الله المؤمنين من طاعة طائفة من مكرة اليهود والنصارى، فإنَّهم حريصون على إضلالكم، وانتكاسكم في الكفر بعد الإيمان.

١٠١- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم والطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت بين الأوس والخزرج حرب في الجاهلية، فبينما هم يوماً جلوس إذ ذكروا ما بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ٢/ ٥٧).

التفسير:

ثمَّ حَثَّهم على الثبات على الإيمان واستبعاد الكفر: كيف تجحدون بالله وآيات القرآن تقرأ عليكم، وفيكم سنَّة رسول الله ﷺ؟ ومَنْ يتمسَّك بالإسلام فقد وُفِّق إلى الطريق الصحيح.

١٠٢- يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، خافوا الله الخوف الواجب، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وداوموا على الالتزام بالإسلام إلى آخر حياتكم.

١٠٣- وتمسَّكوا جميعاً بالقرآن العظيم، واحذروا من التفرُّق والاختلاف المذموم، واشكروا الله على نعمته عليكم بالائتلاف بينكم، وجمع الكلمة بعد أن كنتم متعادِين في الجاهلية، فغَدَوْتُم بفضل الله عليكم مصاحبين نعمته، متآخين متحابِّين، وكنتم أوشكتم الوقوع في نار جهنَّم، فأنقذكم منها بالإسلام. وبمثل ذلك البيان الواضح يُفَصِّل الله لكم آياته الدالَّة على الخير؛ كي تهتدوا إلى طريق الرشاد والتوفيق.

عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحَرَّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وِسادةً فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأُحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومَنْ مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية».

(أخرجه مسلم الصحيح ٣/ ١٤٧٨ برقم ١٨٥١ - كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن).

الفوائد والاستنباطات:

١- إنكار الله تعالى على أهل الكتاب جحودهم برسالة رسول الله محمد ﷺ.

٢- تحذير المؤمنين من طاعة أعدائهم لأنهم يسعون إلى إعادتهم إلى الضلال.

٣- في الآية (١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في خطر طاعة أهل الكتاب؛ الذين يسعون إلى رِدَّة المؤمنين إلى الكفر.

٤- قال ابن عاشور في الآية (١٠١): «في الآية دلالة على عِظَم قَدْرِ الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول ﷺ فإنَّ وجوده عصمة من ضلالهم».

(التحرير والتنوير: ٣/ ١٧٢).

٥- إنكار الله تعالى على الذين يسمعون كلام أعدائهم ويصدقونهم.

٦- وجوب الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ.

٧- وجوب الوحدة بين الأُمة، والنهي عن الاختلاف في العقيدة والأصول، أمَّا الاختلافُ الفقهي المبني على الفروع فلا بأس به.

٨- مَنْ أخذ بالقرآن والسنَّة فقد نال الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

٩- رحمة الله تعالى بالخَلْقِ، إذ بعث لهم رسول الله محمَّداً ﷺ.

١٠- في الآية (١٠١) بَيَّنَ الله تعالى لعباده وسائل التربية على تحقيق كلمة التوحيد عن طريق: معرفته تعالى بالكتاب والسنة بفهم سلف الأُمة.

١١-في الآيتين (١٠٣) و (١٠٤) بَيّنَ الله تعالى أن الوسائل التربوية لتحقيق الأخوة تتم بأمرين هما: شكر الله على هذه النعمة ومعرفة قدرها، حيث ذكر نعمة الأخوة مرتين في الآية لبيان مكانتها عند الله تعالى. والتعاون على الطاعة والإصلاح والدعوة.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤- يؤكِّد الله تعالى وجوب إيجاد جماعة من المؤمنين يدعون إلى الإسلام، ويأمرون بطاعة ربِّهم وينهون عن معصيته، وأولئك أصحاب المنزلة العالية القائمون بهذه الأعمال هم الفائزون بالجنَّة.

١٠٥- نهى الله المؤمنين عن التفرقة والعداوة، كما تفرَّق اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة، وأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى لهم عذاب شديد مؤلم.

١٠٦-١٠٧- يتفاوت الخلق يوم القيامة، إذ تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين حسناً بطاعتهم، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين سوءاً بمعاصيهم، فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم فيُوَبَّخون: أكذَّبتم بعد ما عرفتم الحقَّ بالبراهين الواضحة؟ فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم، وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم ففي جنَّة الله ماكثين فيها أبداً.

١٠٨- تلك الآيات العالية القدر والحجج العظيمة نَقُصُّها عليك يا محمَّد بالصدق. ولا يريد الله ظلم أيِّ أحدٍ من المخلوقين.

١٠٩ - ولله وحده ملك السموات السبع والأرَضين السبع، وإليه مصير المخلوقين؛ ليجازيهم.

١١٠ - هذا تفضيل من الله لهذه الأُمَّة بما تميَّزت به، فإنَّهم خير الناس يأمرون الناس بما أمر به الله ورسوله ﷺ، وينهون عمَّا نهى عنه الله ورسوله ﷺ، ويُصدِّقون بالله، ولو صدَّق اليهود والنصارى رسالة النبيِّ ﷺ لكان إيمانهم أنفع لهم عند ربِّهم، بعضهم يصدِّقون بذلك، وأكثرهم خارجون عن طاعة الله.

١١١ - هؤلاء الفسقة من أهل الكتاب لن يستطيعوا أن يَضُرُّوكم إلا بألفاظ سيئة، وإن يقاتلوكم يُهزموا مُوَلِّين الأدبار هرباً، ثمَّ هم مخذولون فلا ناصر لهم.

١١٢ - وهؤلاء الكفرة من أهل الكتاب أُلزموا الذلَّة والهوان أينما وجدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس، يأمنون على أنفسهم وأموالهم، ورجعوا مستحقين لغضب الله، فلَزِمَتْهم المذلَّة والاستكانة بسبب تكذيبهم بآيات الله واستمرارهم على قَتْلِ الأنبياء ظُلماً. ذلك العقاب بسبب معاصيهم وتجاوزهم أوامر الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند الآية (١١٢): «بيَّن سبحانه أنَّهم أينما ثقفوا فعليهم الذلَّة إلا مع العهد، فعُلِمَ أنَّ مَنْ له عهد وحبل لا ذلَّة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإنَّ المسكنة قد تكون مع عدم الذلّة». (الصارم المسلول ٢٧).

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عن حذيفة بن اليمان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تَدْعُونه فلا يستجاب لكم». (أخرجه الترمذي في السنن ٤/ ٤٦٨ برقم ٢١٦٩ -كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسنه الألباني وانظر (صحيح سنن الترمذي برقم١٧٦٢).

٢ - تحريم الاختلاف والفرقة والتشرذم.

٣ - قال ابن عاشور: «حَذَفَ مفاعيل: يدعون ويأمرون وينهون؛ لقصد التعميم أي: يَدْعون كل أحد كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥]». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٨١).

٤ - تتصدَّر الأُمَّةُ الخيريَّةَ على الأمم إذا قامت بحقِّ الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - العقوبة تحلُّ بالأُمم إذا خالفوا أوامر الله تعالى، كما حصل لليهود.

٦ - جرائم اليهود قديمة ومتكرِّرة.

٧ - بشرى الله تعالى للمؤمنين أنَّ اليهود لن ينتصروا في قتالهم معهم، بل ستكون الهزيمة عاقبتهم.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

التفسير:

١١٣-١١٤ - ليس أهل الكتاب متساوين في الصفات: منهم طائفة مطيعة لله عادلة يُرَتِّلون القرآن في صلاة التهجُّد، ذاكرين الله مُتَذَلِّلين له، يُصَدِّقون بالله تعالى وبالبعث يوم القيامة، ويأمرون بما أمر الله من الخير، وينهون عمّا نهى الله عنه من الشر، ويُسابقون إلى فعل الخيرات. وأولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اتصفوا بهذه الصفات من عباد الله الصالحين.

١١٥ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومَنْ أسلم من اليهود معهم، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار اليهود وأهل الكفار منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا أشرارنا! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(التفسير الصحيح ٢/ ٦٧).

التفسير:

وما يُقَدِّموا من أعمال الخير فلن يضيع ثوابه عند الله سبحانه. والله ذو علم بمَنِ اتَّقاه بطاعته واجتناب معصيته.

١١٦- إنَّ الذين كذَّبوا بالله ورسوله لن تنفعهم أموالهم وذريَّاتهم شيئاً في التخلُّص من عذاب الله. وأولئك البعداء عن رحمة الله ملازمون للنار، ماكثون فيها أبداً.

١١٧- شَبَّه ما يتصدَّق به المكذِّبون بالله ورسوله في وجوه الخير في الدنيا، بريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر فدمَّرَتْه، وما ظلمهم الله بضياع ثواب أعمالهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر.

١١٨- يُنادي الله تعالى المؤمنين ويُحَذِّرهم: لا تتخذوا غير المؤمنين أصدقاء وأصفياء تطلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يُقَصِّرون في إفساد أموركم، إذ هم يحرصون على إرهاقكم والضرر بكم، وقد ظهرت علامات الكراهية من ألسنتهم، وما تضمره قلوبهم أعظم، قد وَضَّحْنا لكم الحجج، إن كنتم تعقلون أمر الله وموعظته.

١١٩- ينبِّه الله تعالى المؤمنين الذين وقعوا في موالاة المنافقين الذين يُظهرون الإيمان، فيحبُّهم المؤمنون وهم لا يحبُّون المؤمنين! وأنتم - أيُّها المؤمنون - تؤمنون بكلِّ ما أنزل الله من كتب، ولكنّهم لا يؤمنون بكتابكم، وإذا قابلوكم أعلنوا الإيمان بأفواههم، وإذا انفردوا فيما بينهم تحسَّروا وعَضُّوا أطراف أصابعهم من الحقد والغضب؛ لما يرون من قوَّة المسلمين، ثمَّ أمر الله تعالى نبيه أن يدعو عليهم بالهلاك كَمَداً وأسفاً. إنَّ الله ذو علم بما تُضْمِرُ الصدور.

١٢٠- ومن بلايا هؤلاء - أيُّها المؤمنون -: أنهم إن أكرمكم الله بفضلٍ وخير يحزنوا، وإن تقع بكم نازلة أو مكروه يفرحوا بذلك، وإن تصبروا على أذاهم وعلى المصائب، وتخافوا الله في طاعته لا تضرّكم عداوتهم شيئاً. إنَّ الله أحاط علماً بما يفسدون، وسيعاقبون على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- الثناء على المؤمنين من أهل الكتاب، وبيان فضلهم وثوابهم.

٢- مهما أنفق الكفَّار في الدنيا فإنَّها لن تنفعهم في الآخرة.

٣- مَنْ أشرك بالله تعالى، أو مات كافراً فلن ينفعه عمله الصالح.

٤- تنزيه الله تعالى عن الظلم، وأنَّ أهل الكفر هم الذين يظلمون أنفسهم.

٥- في الآية (١١٥) إخبار عن أمر مستقبلي في ثواب الله تعالى المؤمنين من أهل الكتاب على كلِّ فعل خير، وأنَّ أموال المشركين وأولادهم لا تُغْنيهم شيء من الله تعالى.

٦- تحذير المؤمنين من موالاة الذين تبدو منهم العداوة للمسلمين.

٧- عدم جواز شهادة العدو على عدوه.

٨- بيان صفات أعداء المسلمين، فهم لا يريدون لهم الخير.

٩- حقد أهل الباطل على جماعة المسلمين.

١٠-في الآية (١٢٠) إخبار عن أمر مستقبلي في استياء المشركين إذا مَسَّ المؤمنين حسنة، وعن فرح المشركين إذا أصاب المؤمنين سيئة، وعن عدم قدرة المشركين الإضرار بالمؤمنين فيها إذا صبروا، واتقوا الله.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢١- واذكر - أيُّها الرسول - غزوة أُحد، حين خَرَجْتَ من بيتك صباحاً تُرَتِّب صفوف القتال ومواقعه للصحابة المشاركين في هذه الغزوة. والله سميع للأقوال، عليم بالأفعال.

١٢٢- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب - وقال سفيان مرة: وما يَسُرُّني - أنها لم تنزل، لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٧٣ برقم ٤٥٥٨ -كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ٤/ ١٩٤٩ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار ﷺ).

التفسير:

واذكر أيضاً - أيها الرسول - حين وسوس الشيطان في بني سلمة وبني حارثة، إذ جاءتهم فكرة الرجوع عن القتال يوم أُحد، ولكنَّ الله دفع عنهما هذه الوسوسة وحفظهم منها. وعلى الله وحده فليتوكَّل المؤمنون، وبه يستعينون.

١٢٣- قسماً لقد نصركم الله - أيُّها المؤمنون - على المشركين يوم بدر - بلدة تبعد عن المدينة (١٦٠) كيلاً جنوباً - وأنتم قلَّة (ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً) فاتقوا الله تعالى بطاعته؛ كي تبلغوا مقام الشاكرين لنعمه.

١٢٤- واذكر - أيُّها الرسول - حين تُطَمْئِنُ هذه القلَّة وتبشِّرهم بالمدد من الله: ألا يكفيكم أن يعينكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلِين من السماء؟

١٢٥- نعم يكفيكم ذلك، وبشرى ثانية لكم: إن تثبتوا تجاه العدو، وتخافوا الله بطاعته، ويأتيكم كفَّار مكَّة فجأة من ساعتهم هذه، فإنَّ خالقكم يعينكم بخمسة آلاف من الملائكة، مُعَلَّمين بعلامات يعرفونهم بها.

١٢٦-١٢٧- وما جعل الله هذا العون إلا بشارة لكم، ولتسكن قلوبكم من الاضطراب. وما هذا النصر إلا من عند الله وحده العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره. ودَبَّر هذا التدبير ليهلك طائفة من الكفَّار، أو يغيظهم ويخزيهم فيرجعوا مهزومين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مُهِمَّة القائد تنظيم صفوف الجند، ووَضْع الخطَّة المحكمة في القتال.

٢- التحذير من الخلاف والفرقة، ولاسيما في ميدان المعركة.

٣- وجوب التوكل على الله في كل أمر يهم به المسلم، فهو من أسباب النصر.

٤- وجوب شكره سبحانه على ما أنعم.

٥- بيان منزلة الصبر وفضله في القتال.

٦- حقيقة اشتراك الملائكة في المعركة.

٧- ينظر: خريطة غزوة بدر، كما في الملحق.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

١٢٨ - سبب النزول:

عن أنس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرت رباعيته يوم أُحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه، ويقول: «كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم، وكَسَروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾. (الصحيح ٣/ ١٤١٧ برقم١٧٩١ - كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد).

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعوَ لأحد قَنَتَ بعد الركوع، فربَّما قال إذا قال: سمع الله لِـمَنْ حمده اللهم ربنا لك الحمد: «اللهم انْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ، واجعلها سنين كسني يوسف» يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً» - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية. (صحيح البخاري ٨/ ٧٤ برقم٤٥٦٠ - كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ١/ ٤٦٦ -كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة نحوه).

التفسير:

ليس لك - أيُّها الرسول- من أمر الخلق إلا أن تُنَفِّذ فيهم أمري، إنَّما أمرهم كلُّه إلى الله، فإمَّا أن يقبل توبة مَنْ تابوا، أو يعاقبهم على كفرهم، فإنَّهم معتدون.

١٢٩ - ولله وحده ملك جميع ما في السموات السبع وما في الأرضين السبع، يتصرَّف في ملكه، فيغفر لِـمَنْ يشاء من عباده برحمته، ويعذِّب مَنْ يشاء بعدله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

وينظر: تفسير آخر سورة البقرة الآية (٢٨٤).

١٣٠-١٣١- ينهى الله المؤمنين عن التعامل بالربا في القرض، بأخذ زيادة على رؤوس الأموال، مهما قَلَّت أو كَثُرت، فإنَّها تتراكم كلَّما مرَّت السنون، وخافوا الله في أحكامه؛ كي تفوزوا بالجنَّة. ثمَّ يؤكِّد الله ذلك بالتخويف من نار جهنم التي هَيَّأها عقوبة للكافرين. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٤).

١٣٢- وأطيعوا الله تعالى والرسول ﷺ في كلِّ أمر ونهي؛ كي تنالوا رحمة الله تعالى.

وينظر: سورة آل عمران الآية (٣٢).

١٣٣- وسابقوا - أيُّها المؤمنون - بالأعمال الصالحة؛ لتنالوا من ربِّكم مغفرة لذنوبكم، وتدخلوا جنَّة واسعة عرضها كعرض السموات والأرض، هَيَّأها الله للذين يخافونه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

١٣٤-١٣٥- صفة هؤلاء المتقين أنَّهم يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، ويكتمون غضبهم بالصبر، ويتجاوزون عَمَّنْ أساء لهم. والله يحبُّ الذين يُحسنون في تعاملهم، ويطلبون المغفرة من الله إذا ارتكبوا كبيرة أو صغيرة، وهم موقنون أنَّه لا يغفر الذنوب إلا هو، فلا يقيمون على ما اقترفوا من المعاصي، فهم يعلمون بقبح المعاصي، وإن تابوا منها تاب الله عليهم.

١٣٦- هؤلاء أصحاب الدرجات العالية الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات لهم منزلة رفيعة عند ربِّهم من المغفرة للذنوب وجنات تجري من تحت أشجارها المياه العذبة ماكثين فيها أبداً، ونِعْمَتِ الجنَّة ثواباً للعاملين بأحكام الله. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٥).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «مناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تَقَدَّم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين، ولَمَّا كان شأن المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحداً، ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تُدَبِّره اليهود، جمع الله مكايد الفريقين بذكر غزوة أُحد». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٠٤).

٢- تحريم الربا بكلِّ أنواعه.

٣- بشرى الله تعالى عباده بالمغفرة لِـمَنْ يسارع في التوبة.

٤- التحذير من الإصرار على المعصية، وبيان فضل عدم الإصرار عليها.

٥- عظمة حجم الجنَّة.

٦- فضل العفو عن الخطأ، وكظم الغيظ.

٧- وجوب الاستغفار من الأخطاء والمحرمات التي يقع فيها العباد.

٨- في الآية (١٣٣) يربي الله تعالى عباده على طلب رضا الله تعالى وإرادة الآخرة بالتماس الطاعات والمسابقة إليها.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣٧ - قد مضت من قبلكم - أيُّها المؤمنون - طرائق الله تعالى في عقاب الأُمم الظالمة بالهلاك، فامشوا في الأرض؛ لتعتبروا فانظروا مصير المكذِّبين لله ورسله.

١٣٨ - هذا القرآن العظيم فيه بيان شافٍ للناس عامَّة، وإرشاد وعبرة للمتقين خاصَّةً.

١٣٩ - يُعَزِّي الله تعالى الصحابة ﷺ على ما أصابهم من الجراح والقتل يوم أُحد: لا تضعفوا عن جهاد عدوِّكم، ولا تَهِنُوا وَهْناً بالشكِّ في وعد الله بنصر دينه حتى ولو غُلِبتم، ولا تأسَوا لما أصابكم، فإنَّكم أنتم الظاهرون عليهم إن كنتم مصدِّقي رسولِ الله ﷺ فيما يَعِدُكم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهم الأعلَون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا، وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة:

ليسوا مفاريحَ إن نالَتْ رماحُهم يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا». (جامع الرسائل ٢/ ٣٦١).

١٤٠ - إنْ أصابكم جراح أو قَتْلُ سبعين من المسلمين يوم أُحد، فقد أصاب الكافرين جراح وقتل مثل ذلك يوم بدر. وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين المسلمين والمشركين ما بين نصر وهزيمة؛ ليختبرهم، فيتميَّز المؤمن الصادق من غيره، ويصطفي منكم مَنْ ينال الشهادة في سبيل الله. والله لا يُحِبُّ المعتدين بل يعاقبهم.

١٤١ - وليبتلي الله تعالى المؤمنين بالمصيبة التي نزلت بهم، فيتخَلَّصوا من المنافقين، ويستأصل الكافرين وينقصهم.

١٤٢- أظننتم أن تدخلوا الجنَّة ولَمَّا يتبيَّنْ لعبادي المؤمنون المبتَلَون بالشدائد، والمجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون عند البأس؟

١٤٣- ولقد كنتم تطلبون الشهادة في سبيل الله قبل غزوة أُحد، فها قد حصل ما كنتم تريدون، فرابطوا وقاتلوا واصبروا.

١٤٤- يُنكر الله تعالى على الذين هَمُّوا بالردَّة عندما أُشيع قتل النبيِّ محمَّد ﷺ في غزوة أُحد: ليس محمَّد إلا رسولاً قد مضت قبله رسل، فمنهم مَنْ مات، ومنهم مَنْ قُتل، أفإن مات بانقضاء أجله، أو قتله الكفَّار ارتددتم عن دينكم؟ ومن يرتدَّ عن دينه فلا يضرُّ الله شيئاً، وسيثيب الله الشاكرين قولاً وعملاً وثباتاً على الدين. قال الشيخ الشنقيطي: «أنكر الله في هذه الآية على مَنْ ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]».

١٤٥- لا يمكن أن يموت أحد إلا بقضاء الله وقدره، وقد كَتَبَ لكلِّ نفس أجلها في كتاب مؤقَّت بوقت محدَّد. ومَنْ يطلب بعمله ثواب الدنيا نعطه، منها وليس له في الآخرة من نصيب، ومَنْ يطلب ثواب الآخرة أعطيناه أجره كاملاً، مع ما قسمناه له في الدنيا، وسنثيب الشاكرين الذين يُعَظِّمون الله في القول والفعل. هذه الآية مقيدة بمشيئة الله تعالى وإرادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨].

الفوائد والاستنباطات:

١- عاقبة المكذبين للرسل الهلاك والدمار.

٢- قال ابن عاشور: «قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأُمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢٧).

٣- مكانة المؤمنين وعلوهم في الدنيا والآخرة.

٤- ﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة، هي بمعنى (بل) الانتقالية؛ لأن هذا الكلام انتقال من غرض إلى آخر، وهي إذا استعملت منقطعة تؤذن بأن ما بعدها استفهام، لملازمتها للاستفهام.

٥- العتاب من الله لِـمَنْ خالف وصية رسول الله ﷺ.

٦- عدم الحزن على ما فات.

٧- قال ابن عاشور: «﴿لَمَّا﴾ حرف نفي أخت (لم) إلا أنها أشد نفياً من (لم)، لأنَّ (لم) لنفي قول القائل فعل فلان، و﴿لَمَّا﴾ لنفي قوله قد فعل فلان، قاله سيبويه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٣٤).

٨- الآجال بيد الله تعالى، والجهاد في سبيل الله لا يقدم ولا يؤخر الأجل.

٩- تأكيد البشرى للذين يشكرون الله تعالى بالقول والعمل.

١٠- التمهيد لبيان أن رسول الله محمداً ﷺ مُعَرَّضٌ للموت؛ للاستعداد لهذه الفاجعة الكبرى.

١١- إذا مات رسول الله محمد ﷺ فإنَّ رسالته باقية حتى تقوم الساعة.

١٢- ينظر: خريطة غزوة أُحد، كما في الملحق.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

التفسير:

١٤٦- وكم من الأنبياء قاتل مع كلِّ واحدٍ منهم جموع كثيرة من أتباعهم الذين عاصروهم، أو جاؤوا بعدهم، فما جَبُنوا لما نالهم من جروح وقَتْلٍ في سبيل الله، وما عَجَزوا وما ذَلُّوا لأعدائهم، إنَّما صبروا. والله يحبُّ الصابرين على عبادته، وسيثيبهم على صبرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كون النبيِّ قاتل معه أو قُتل معه ربِّيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة، بل كلُّ من اتَّبع النبيَّ وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كلُّ مَنْ قُتِلَ على دينه فقد قُتل معه». (جامع المسائل ٤/ ٦٠).

١٤٧ - هؤلاء الصابرون ما كان قولهم مع ثباتهم إلا طَلَبَ المغفرة من الله عن ذنوبهم وخطاياهم، وأن يجعل أقدامَهم راسخة في القتال، وأن ينصرهم على الذين كَذَّبوا الله ورسله.

١٤٨ - فاستجاب الله لهم، وأكرمهم بالنصر والتمكين في الدنيا، وبالجنَّة في الآخرة. والله يحبُّ كلَّ من أحسن في عمله وقوله.

١٤٩-١٥٠ - يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من طاعة الذين كَذَّبوا الله ورسوله؛ لأنَّهم يحرصون على إضلالكم عن الحقِّ ليردُّوكم عن دينكم، فتعودوا بخسارة الدنيا والآخرة. فهم ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم، بل الله تعالى ناصركم، وهو وحده خير ناصر ومعين.

وينظر: الآية (٢٨) من السورة نفسها، وأما الآية (١٥٠) فبيانها في قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران].

١٥١ - ومِنْ نَصْرِه سبحانه للمؤمنين أن يقذف الرعب في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم الأوثان من غير حجَّة ولا برهان، فمآلُهم نار جهنَّم، وقَبُحَ مقام المعتدين.

١٥٢ - قسماً لقد حَقَّق الله تعالى الوفاء بما وعدكم به - أيُّها المؤمنون - من النصر على عدوِّكم حين بدأتم تقتلونهم يوم (أُحد) بإرادة الله تعالى، حتى إذا جَبُن فريق منكم واختلفتم في أمر الله، وخالفتم رسول الله ﷺ بتَرْكِكم جبلَ الرماة من بعد ما أراكم ما تحبُّون من النصر على المشركين. وسبب النزاع أنَّ منكم مَنْ يريد الغنائم، ومنكم مَنْ يطلب الجنَّة، ثمَّ رَدَّكم عن الكفَّار منهزمين بعد أن سيطرتم عليهم ليختبركم. ولقد عفا الله عنكم حين نَدِمْتُم على فِعْلِكم. والله ذو فضل عليكم بالعفو والموعظة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور في الآية (١٤٦): «جاءت هذه الآية على هذا النظم البديع الصالح؛ لِحَمْلِ الكلام على تثبيت المسلمين في حال الهزيمة، وفي حال الإرجاف بقتل النبي ﷺ». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٤).

٢ - ثناء الله تعالى على المجاهدين في سبيل الله الذين يصبرون، ويثبتون في ميدان المعركة.

٣ - فضل الصبر، وإخلاص الدعاء لله تعالى.

٤ - قال ابن عاشور: «قدَّم خبر (كان) على اسمها في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ﴾ لأنَّه خبر عن مبتدأ محصور، لأنَّ المقصود حَصْرُ أقوالهم حينئذ في مقالة ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ فالقصر حقيقي؛ لأنَّه قصر لقولهم الصادر منهم، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٥).

٥ - وقال أيضاً: «استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم والعتاب إلى التحذير؛ ليتوسَّلَ منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٦).

٦- التحذير من طاعة الكفار؛ لأنَّهم يرغبون أن يوقعوا المؤمنين في الردة.

٧- بشرى الله تعالى للمؤمنين المجاهدين أنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم.

٨- في الآية (١٥١) إخبار عن أمر مستقبلي في إلقاء الله تعالى الرعب في قلوب المشركين بسبب إشراكهم به.

٩- عفا الله تعالى عن الذين تركوا جبل الرماة.

١٠- بيان أهمِّية طاعة القائد.

١١- حَثُّ المؤمنين على القتال، وتحذيرهم من الفرار.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

التفسير:

١٥٣ - واذكروا حين تصعدون الجبل ولا تلتفتون إلى أحد، والرسول ﷺ يناديكم من خلفكم، ويحثُّكم على العودة إلى مواقعكم، فلم تستجيبوا، فعاقبكم الله بمصيبة القتل والجراح، ثمَّ بمصيبة الإشاعة بأنَّ محمَّداً ﷺ قد قُتِلَ؛ لأجل ألَّا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على ما أصابكم من الجراح والقتل. والله وحده خبير بكلِّ أعمالكم.

١٥٤ - ثمَّ ألقى الله عليكم - أيُّها المؤمنون - من بعد الهَمِّ أَمْناً بالنعاس الذي غشي فئة أهل الإيمان. وأمَّا فئة المنافقين فلا هَمَّ لهم سوى نجاة أنفسهم، وأساؤوا الظنَّ بربِّهم سبحانه بأنَّه لن ينصر نبيَّه حين يقولون: هل كان لنا من خيار في الخروج للقتال؟ قل لهم يا رسول الله: إن كلَّ الأمور والآجال بيد الله تعالى، وهم يُضْمِرُون في أنفسهم ما لا يظهرون لك، يقولون: لو كان لنا أدنى اختيار ما قُتِلْنا هاهنا. قل لهم: لو كنتم في مساكنكم لخرج الذين كَتَبَ الله عليهم القتل إلى مصارعهم التي يُقْتَلون فيها؛ وليختبر الله ما في قلوبكم، فيظهر أمر المؤمن من المنافق. والله عليم بما تضمر صدور عباده.

عن أنس ﷺ أن أبا طلحة قال: «غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه». (الصحيح ٨/ ٧٦ برقم ٤٥٦٢ -كتاب التفسير- سورة آل عمران).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال معتِّبٌ الذي قال يوم أُحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هاهنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. (التفسير الصحيح ٢/ ٨٩).

١٥٥ - إنَّ الذين انهزموا من المسلمين يوم أُحد حين التقى جيش المسلمين بجيش الكفَّار، إنَّما أوقعهم الشيطان في خطيئة الهزيمة؛ بسبب مخالفتهم أمر النبيِّ ﷺ، ولقد تجاوز الله عنهم فلم يعاقبهم. إنَّ الله غفور للمذنبين، حليم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة.

١٥٦ - يُحَذِّر الله المؤمنين أن يُقَلِّدوا المنافقين في قولهم لإخوانهم من الكفَّار إذا سافروا للتجارة أو للقتال فماتوا، فإنَّهم يقولون: لو أقاموا معنا، ولم يسافروا ما ماتوا وما قتلوا؛ ليجعل الله ذلك القول في عاقبة أمرهم ألماً وحزناً في قلوبهم. والله يُحيي مَنْ قَدَّر له الحياة، حتى ولو كان في قلب المعركة، ويُميت من انتهى أجله حتى لو كان في بروج مُشيَّدة. والله بكل ما تعملون بصير، فيجازيكم به.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكر في هذه الآية الكريمة أنَّ المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون: لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قُتلوا، ولم يُبَيِّن هنا: هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ولكنه بيَّن في آيات أُخَرَ أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليثبطوهم، كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] الآية، وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب:١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]».

١٥٧ - ويؤكِّد سبحانه: لئن استشهدتم في سبيل الله أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون القتال؛ ليغفرنَّ الله لكم وليرحمنَّكم، فتفوزون بالجنَّة. وذلك خير ممَّا يجمع الناس من حطام الدنيا.

١٥٨ - وقسماً إن مُتُّم أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله فلن يضيع أعمالكم، بل ستجمعون إلى الله وحده، فيجازيكم على أعمالكم.

وينظر: الآيات (١٦٩-١٧١) من السورة نفسها، وينظر: سورة البقرة الآية (١٥٤).

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذَمُّ الذين يظنون بالله ظنَّ السوء، وتحقيرهم.

٢ - قال ابن عاشور: «أحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يَذْكُرُه القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٥٩).

٣- وقال أيضاً: «مناسبة ذِكْرِ هذه الآية عقب التي قبلها أنَّه تعالى بعد أن بيَّن لهم مرتبة حق اليقين بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبيَّن لهم أنَّه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلَّهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٢).

٤ - الحذر من ورطات المنافقين وكيدهم.

٥ - إنَّ الله كتب الآجال وقدرها، والفرار من المعركة لن ينجي من الموت.

٦- التحذير من إغواء الشيطان وتخذيله.

٧- تحريم اتباع الكفار أو التمثيل بهم، في أقوالهم وأفعالهم.

٨- ذَمُّ الذين يظنون أن التخَلُّف عن الجهاد يدفع عنهم الموت.

٩- في الآية (١٥٧) إخبار عن أمر مستقبلي في جزاء مَنْ قُتِلَ أو مات في سبيل الله أن يغفر الله تعالى ذنوبه.

١٠ - في الآية (١٥٣) يبيِّن الله تعالى أن تربية المؤمنين على لزوم الاعتدال في حالة اليسر والعسر يورثهم التواضع والخضوع لله تعالى والعدل في التعامل مع الآخرين.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

التفسير:

١٥٩- فبسبب رحمة من عند الله تعالى جعلها في قلبك - أيُّها الرسول - كنت رفيقاً ومسامحاً لأصحابك، ولو كنتَ جافيَ الطبع قاسيَ القلب لانصرفوا عنك، فتجاوز عمَّا نالك من أذاهم يوم أُحد، واطلب لهم من الله المغفرة، واستشرهم في الأمور المهمَّة، فإذا صَمَّمْتَ على أمر بعد الاستشارة فامضِ على ما عزمت معتمداً على الله وحده. إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين، فهو كافيهم في كلِّ حاجاتهم.

١٦٠- إن يُؤيدكم الله تعالى - أيُّها المؤمنون - بعونه ضدَّ الأعداء فلا أحد يستطيع أن يغلبكم، وإنْ تَرَكَكم لأنفسكم من غير عونه فلن تجدوا أحداً ينصركم من بعد الله أبداً. وعلى الله يعتمد ويلجأ المؤمنون.

١٦١- يُبرِّئ الله تعالى نبيَّه ﷺ من أيِّ خيانة في شأن الغنائم، فإنَّه لا يأخذ شيئاً منها غير ما اختصَّه الله به. ومَنْ يفعل ذلك يأت بها أخذه يوم القيامة، ثمَّ تُعطى كلُّ نفس جزاء ما عملت كاملاً، وهم لا يُظْلَمُون بنقصان ذرَّة منه.

عن عديِّ بن عميرة الكِنْدي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل، فكَتَمَنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «ومالك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن: مَنْ استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أُوتي منه أخذ، وما نُهِيَ عنه انتهى».
(الصحيح ٣/ ١٤٦٥ برقم ١٨٣٣ - كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال).

١٦٢-١٦٣- لا يستوي مَنْ سعى في طلب رضا الله فاستحق الجنَّة، ومَنْ هو واقع في الخطايا مسخط لربِّه فمآله نار جهنم. وقَبُحَ ذلك المرجع، ومنازلهم متفاوتة: فأصحاب الجنَّة لهم درجات عليا، وأصحاب النار لهم دركات سفلى.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال: وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة». قال محمد بن فليح، عن أبيه: «وفوقه عرش الرحمن».

(صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله برقم ٢٧٩٠).

١٦٤ -يُخبر الله تعالى مؤكِّداً أنَّه تفضَّل على المؤمنين إذ أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم، يقرأ عليهم آيات القرآن ويُطَهِّرهم من المعاصي، ويُعَلِّمهم القرآن والسنَّة، وقد كانوا من قبل البعثة في انحراف وجهل واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٦٠) إخبار عن أمر مستقبلي: مَنْ كتب الله له النصر فإنَّه لا غالب له، وإخبار مستقبلي من أنه لا أحد يستطيع النصر من دون الله إن أراد له الله الخذلان.

٢- الرحمة والرفق من صفات القائد الحكيم.

٣- قال ابن عاشور: «دَلَّتْ الآية على أنَّ الشورى مأمور بها الرسول ﷺ فيما عبَّر عنه بـ(الأمر) وهو مهمات الأُمة ومصالحها في الحرب وغيره، وذلك في غير أمر التشريع؛ لأنَّ أَمْرَ التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٧).

٤- فضل اللين وحسن تعامل الحاكم مع الرعية.

٥- مبدأ المشاورة بين القائد والرعية أمر في غاية الأهمية.

٦- وجوب التوكل على الله تعالى بعد بذل الأسباب.

٧- النصر من عند الله تعالى مهما بلغ الإنسان من القوة.

٨- تحريم الغلول بكل صوره.

٩- حكم الغالِّ التعزير.

١٠- في الآية (١٦٠) يُربيِّ الله تعالى عباده المؤمنين على لزوم الاعتدال عند الانتصار أو الانهزام، ففي الفرح بالنصر يذكرهم ﷻ بأن الفضل منه سبحانه حتى لا يصيبهم الغرور بنشوة الانتصار.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

١٦٥- سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لما كان يوم أُحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أَخْذِهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ فكُسِرَتْ رَباعيته ﷺ، وهُشِّمَتِ البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بأخذكم الفداء».

(أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وصححه محققه). (التفسير الصحيح ٢/ ٩٧).

التفسير:

أَجَزِعْتُمْ حين أصابتكم مصيبةٌ يومَ أُحُد بقَتْلِ سبعين منكم، وكنتم قد أصبتم يوم بدر مِثْلَي ذلك، فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين، فقلتم مُتَعَجِّبين: من أين أصابنا هذا الانهزام؟ أَجِبْهم أيُّها الرسول: أنَّ ذلك المصاب هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرسول ﷺ. إنَّ الله وحده على كلِّ شيء قدير يفعل ما يشاء.

١٦٦-١٦٧- يُبيِّن الله تعالى بعض فوائد الابتلاء يوم أُحد: وما وقع بكم من جراح وقَتْلٍ بقضاء الله وقدره؛ ليتميَّز المؤمن الصادق من الدخيل المنافق، فيفضح المنافقين حين قال لهم المؤمنون: هلمُّوا جاهدوا في سبيل الله، أو كثِّروا سواد المسلمين. فأجابوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون العدوَّ لَقاتلنا معكم. إنَّهم يوم قالوا ذلك هم أقرب إلى الكفر من الإيمان؛ لأنَّهم يُظْهِرُون على ألسنتهم الإيمان ويُضْمرون الكفر في قلوبهم، والله أعلم بما يضمرون في أنفسهم. أي: في غزوة أُحد، وينظر: الآية (١٧٢-١٧٤) من السورة نفسها.

١٦٨- هؤلاء المنافقون الذين تخلَّفوا يوم أُحد قالوا في شأن إخوانهم في النسب الذين قُتلوا: لو أطاعونا في الرجوع عن القتال ما قُتلوا. ثمّ أمر الله تعالى أن يَرُدَّ عليهم النبيُّ ﷺ: قل فادفعوا عن أنفسكم الموت، إن كنتم صادقين في دعواكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «عُطِفَ الاستفهام الإنكاري التعجبي على ما تقدَّم، فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مما ينكر ويتعجَّب السامع من صدوره منهم بعد ما عَلِموا ما أَتَوا من أسباب المصيبة». (التحرير والتنوير:٣/ ٢٧٨)

٢- ما يصيب الإنسان من مصائب هو نتيجة أخطائه.

٣- ما يحدث في الكون إنما هو بعلم الله تعالى.

٤- خطأُ مَنْ يعتقد أن القعود عن الجهاد يحميهم من الموت.

٥- الحذر من المنافقين الذين ينبثُّون بين المسلمين في كلِّ زمان.

٦- في الآية (١٦٥) يربِّي الله تعالى عباده رحمة منه وفضلاً على مراجعة أنفسهم بعد ملاقتهم العدو بما يجنبهم العودة للأخطاء ذاتها مستقبلاً، بأن ما يصيب المؤمن في ساحة الوغى من انكسار وتقهقر إنما هو من إغواءات النفس الأمارة بالسوء.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

التفسير:

١٦٩-١٧٠- يُبَشِّر الله النبيَّ ﷺ والمؤمنين بأحوال الشهداء ومقامهم عند ربِّهم: ولا تَظُنَّنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله يوم أُحد من الأموات لا يحسُّون شيئاً، بل هم أحياء في مقام كريم عند ربِّهم، وحالهم في سرور؛ بسبب العطاء الجزيل من كرم الله تعالى، ويستبشرون خيراً بما سيلاقيه إخوانهم المجاهدون الذين

فارقوهم أحياء بعدهم، بأنَّهم لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

١٧١ - يفرحون بما حباهم الله به من عظيم نعمه وكريم عطائه، وأنَّ الله لا يضيع ثواب الصادقين بالله ورسوله.

قال الشيخ الشنقيطي: «نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن ظن الموت بالشهداء، وصرَّح بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، ولم يبين هنا: هل حياتُهم البرزخ يدرك أهلُ الدنيا حقيقتَها أو لا؟ ولكنه بيَّن في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، لأنَّ نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من بابِ أَوْلى كما هو ظاهر».

عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق قال: «سألنا عبد الله - هو ابن مسعود - عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت. ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلمّا رأوا أنهم لن يتركوا مِن أن يُسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تُرَدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

(الصحيح ٣/ ١٥٠٢-١٥٠٣ برقم ١٨٨٧ -كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة).

١٧٢ - الذين أطاعوا الله ورسوله وخرجوا في أُحُد؛ لتعقُّبِ المشركين إلى حمراء الأسد - قرية تبعد عن المدينة (٢٠) كيلاً جنوباً - من بعد الهزيمة وقد تَعَرَّضوا لإصابات جراح بالغة، فجزاء مَنْ أحسن من هؤلاء وخافوا الله هو الجنَّة.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لِعروة: يا بن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر. لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: مَنْ يذهب في أثرهم، فانتُدِب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

(صحيح البخاري ٧/ ٤٣٢ برقم٤٠٧٧ -كتاب المغازي، باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية).

١٧٣ – هؤلاء المطيعون لله ولرسوله هم الذين قال لهم مرجفو المشركين: إنَّ قريشاً قد حشدت لكم جيشاً لقتالكم فاحذروهم، فزادهم هذا الإرجاف تثبيتاً وتصديقاً بوعد الله لهم، وقاموا بواجبهم، وقالوا: الله كافينا وحافظنا، ونِعْمَ الوكيلُ في نُصْرة أوليائه.

١٧٤ – ولَمَّا رأى المشركون هذه العزيمة من المؤمنين على مواصلة الجهاد جَبُنوا عن اللقاء، فعاد المؤمنون بنعمة وسلامة ولم يتعرَّضوا لمكروه، وسلكوا بذلك طريق رضاء الله. والله ذو فضل عظيم عليهم وعلى المؤمنين.

١٧٥ –يُحَذِّر الله المؤمنين من الذين يخوِّفونهم بأعدائهم المشركين؛ ليجبُنوا، فأولئك ليسوا إلا أعواناً للشيطان، فلا تخافوا المشركين، وخافوا الله وحده إن كنتم مصدِّقين به.

١٧٦ – لا تحزن – أيُّها الرسول – من المنافقين والكفَّار الذين يُبادرون إلى التكذيب بالله والتشكيك في الدين، إنَّهم بذلك لن يَضُرُّوا الله شيئاً، بل يريد الله ألا يجعل لهم نصيباً من ثواب الآخرة، ولهم عذاب شديد مؤلم.

١٧٧ – إنَّ الذين استحبُّوا الكفر على الإيمان لن يَضُرُّوا الله شيئاً، ولهم عذاب موجع.

الفوائد والاستنباطات:

١ – حقيقة فضل المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله تعالى، وأنَّهم أحياء عند ربِّهم.

٢ – بشرى للمجاهدين الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم لا يعرفون الخوف والحزن.

٣ – من عدل الله ﷻ أنَّه لا يضيع أجر المؤمنين، بل يُنَمِّيه لهم في الآخرة.

٤ – بيان فضل الصحابة الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ للقاء المشركين.

٥ – التحذير من تخويف الشيطان وإغوائه.

٦ – الذين اختاروا الكفر لا يضرُّون إلا أنفسهم بالعذاب الموجع.

٧ – يعلِّمنا الله تعالى كلمة (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وهي كلمة عظيمة تقال عند الشدائد.

٨ – ينظر: خريطة موقع غزوة حمراء الأسد، كما في الملحق.

٩ – قال ابن عاشور في الآية (١٧٧): «تكرير لجملة ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ قُصِدَ به مع التأكيد إفادة هذا الخبر استقلالاً للاهتمام به بعد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول».(التحرير والتنوير: ٣/ ٢٨٩)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

التفسير:

١٧٨ - ولا يظنَّنَّ الكفَّار أنَّا نمهلهم بدون عذاب، وإنَّما نُمْهِلُهم ونُؤَخِّر عذابهم؛ ليكتسبوا مزيداً من المعاصي، فتزداد آثامهم وعقوباتهم بالعذاب المُذلِّ.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكِرَ في هذه الآية الكريمة أنه يُمْلي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب، وبيَّن في موضع آخر: أنه لا يمهلهم متنعِّمين هذا الإمهال إلا بعد أن يَبْتَلِيَهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥]، وبيَّن في موضع آخر أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وهو قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

١٧٩ - ما كان الله ليترككم - يا معشر المؤمنين - على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق، حتى يميز المنافق من المؤمن، وما كان من حكمة الله أن يطلعكم على الغيب، ولكنَّ الله يصطفي من رسله

مَنْ يشاء، فيطلعهم على ما يشاء من غيبه، فآمنوا بالله ورسله جميعاً، وإن تؤمنوا وتخافوا الله فجزاؤكم الجنَّة.

١٨٠ - ولا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله من كرمه هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم؛ لأنَّ ذلك المال الذي جمعوه سيكون طوقاً من نار في أعناقهم يوم القيامة. ولله جميع ما يتوارثه أهل السموات السبع والأرض من مال وغيره. والله بكل ما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء.

١٨١ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل أبو بكر الصديق ﷺ بيت المِدْراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع. فقال أبو بكر ﷺ لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدوَّ الله، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص، رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. (التفسير الصحيح٢/ ١٠٥).

التفسير:

يفضح اللهُ كَفَرَة اليهود، إذ يؤكِّد أنَّه سمع قولهم الشنيع: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب هذا القول في صحف أعمالهم، وأنَّهم يَسْتَحِلُّون قَتْلَ الأنبياء ظلماً بغير حقٍّ، وسنعاقبهم ونُوَبِّخهم على ذلك، ونقول لهم وهم في العذاب: ذوقوا عذاب نار جهنَّم المحرقة.

١٨٢ - ذلك العذاب الشديد بسبب اقترافهم الجرائم والكبائر، وأنَّ الله عادل في عقابه، لا يظلم أحداً من عباده.

١٨٣-١٨٤- إنَّ اليهود الذين زعموا: إنَّ الله أمرنا ألَّا نصدِّق رسولاً حتى يأتينا بصدقة فتنزل نار من السماء تحرقها. ثمَّ أمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم موبِّخاً: قد جاء أسلافكم رسل من قبلي بالمعجزات وبالذي ادعيتم، فلِمَ كَذَّبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم؟ فإن كَذَّبوك فلا تحزن؛ لأنَّ هذا دأبهم مع المرسلين السابقين إذا أتوا بمعجزات عظيمة وكتب واضحة.

١٨٥- يُخبر الله تعالى أنَّ كلَّ نفس مصيرها الموت ثمَّ تُبعث يوم القيامة لتأخذ حَقَّها تامَّاً، فمَنْ أُبعد عن النار وأُدخل الجنَّة فقد أفلح، وليست الدنيا إلا متعة زائلة يزيِّنها الشيطان؛ ليغترَّ بها الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ الله يمهل الكافرين، ولا يهملهم.

٢- ابتلاء الله عباده؛ لينفضح المنافق، ويتبيَّن الصادق في دينه.

٣- وجوب الإيمان برسل الله تعالى.

٤- ذمُّ البخل، والحثُّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

٥- تكذيب أحبار اليهود الذين ادَّعوا أنَّ الله عهد إليهم ألَّا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان.

٦- حقيقة الموت أنَّه نهاية كلِّ إنسان.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

التفسير:

١٨٦- يكشف الله تعالى للمؤمنين أمراً غيبياً مؤكَّداً بالقسم، وسيقع في المستقبل: إنَّه سيأتيكم الامتحان في نقص الأموال، وفي النوازل التي تصيب الأنفس، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الأذى الكثير من الإشاعات والكلام السيئ، وإن تصبروا على ذلك الأذى، وتخافوا الله بلزوم طاعته، فإنَّ ذلك من الأمور الصالحة التي يجب العزم على تنفيذها.

١٨٧- يُذكِّر الله تعالى المؤمنين بنقض اليهود والنصارى العهود، حين أخذ الله عليهم العهد بأن يُوَضِّحوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الأحكام، ولا يكتموا ذلك، فنقضوا العهد، وحَرَّفوا كتبهم، فاستعاضوا بذلك حُطام الدنيا الزائل، فبئس تلك التجارة الخاسرة.

١٨٨- سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسولُ الله ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسولُ الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبُّوا أن يُحْمَدُوا بما لم يَفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ الآية.

(صحيح البخاري ٨/ ٨١ برقم ٤٥٦٧ - كتاب التفسير- سورة آل عمران، باب ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾، وصحيح مسلم ٤/ ٢١٤٢-كتاب صفات المنافقين وأحكامهم).

التفسير:

ولا تَظُنَّنَّ - يا محمَّد - الذين يفرحون بما أتوا من كتمان الحقِّ وغيره، ويحرصون على مدح الناس لهم بما لم يفعلوا، فلا تظنَّهم قد نجوا من عذاب النار، بل لهم عذاب موجع.

عن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوَّابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منَّا فرح بما أَتَى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل، مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أُنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ هذه الآية. وتلا ابن عباس: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره. فخرجوا قد أَرَوه أن قد أخبروه بما سألهم عنه. واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أَتَوا، من كِتمانهم إياه، ما سألهم عنه.

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٣ برقم ٢٧٧٨- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. وصحيح البخاري - التفسير- باب ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ برقم ٤٥٦٨).

١٨٩- ولله وحده ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهما. والله وحده على كلِّ شيء قدير، ومَنْ كان في ملكه كان في قبضته. وينظر: سورة البقرة الآية (١١٧).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨٦) إخبار عن أمر مستقبلي في ابتلاء الله تعالى للمؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأنَّ المؤمنين سيسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذىً كثيراً.

٢- عظمة الصبر على الابتلاء، وأنَّه من عزم الأمور.

٣- تحريم كتمان العلم، ووجوب بيانه.

٤- التحذير من طلب الثناء للعبد على عمل لم يفعله العبد.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

التفسير:

١٩٠- إنَّ في إبداع السموات والأرض، وفي تعاقُب الليل والنهار بانتظام لَدلائلَ واضحة على وحدانية الله وعظمته لأصحاب العقول السليمة.

١٩١- ومن صفات هؤلاء: أنَّهم يُكثِرُون من ذكر الله في جميع أحوالهم، قائمين في صلاتهم، وقاعدين ومضطجعين على جنوبهم، ويتدبَّرون في إيجاد وإبداع السموات والأرض، ويَدْعُون الله: يا ربَّنا ما أَوْجَدْتَ هذه المخلوقات عبثاً من غير حكمة سبحانك، فاحفظنا من عذاب النار.

١٩٢-١٩٤- يُعَلِّم الله المؤمنين كيف يَدْعُونه: يا خالقَنا إنَّك مَنْ تدخله النار من عبادك بسبب الذنوب فقد أذللته، وليس للمعتدين مَنْ يُخَلِّصهم من العذاب، يا ربَّنا إنَّنا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان - وهو رسول الله محمَّد ﷺ - أن صدِّقوا بخالقكم، فاستجبنا وصَدَّقْنا، يا ربَّنا فلا تؤاخذنا بذنوبنا، وتجاوَزْ عن معاصينا، وأمِتْنا مع الصالحين، يا ربَّنا أَنجِزْ لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من نصر ورحمة، ولا تُذِلَّنا يوم العرض عليك، قد علمنا أنَّك لا تخلف الوعد.

١٩٥ - سبب النزول:

عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، لا أسمع اللهَ ذَكَرَ النساء في الهجرة بشيء؟» فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾.

(أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٠٠. وصححه ووافقه الذهبي).

التفسير:

ثمَّ أجاب الله تعالى هؤلاء الداعين: بأنِّي لا أضيع جهد من عمل عملاً صالحاً ذكراً كان العامل أو أنثى، فالأنثى من الذكر، والذكر من الأنثى، وهم في أخوَّة، ينصر بعضهم بعضاً، فالذين هاجروا من بلادهم وألجأهم الكفَّار من ديارهم، ونالهم الأذى في سبيلي، وقاتلوا أعدائي وقُتِلوا في سبيلي لأمحونَّ عنهم ذنوبهم، ولَأُدخلنَّهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، جزاءً كريماً من فضل الله، والله وحده عنده حسن الجزاء وهو الجنَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الثناء على المؤمنين الذين يتفكَّرون في خلق السموات والأرض، ويدعون الخالق.

٢ - وجوب التفكُّر في خلق السموات والأرض؛ لمعرفة عظمة الله تعالى.

٣- فضل الدعاء والبشرى باستجابة الله تعالى.

٤ - قال ابن عاشور: «دَلَّت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودَلَّت على أنَّ مناجاة العبد رَبَّه بقلبه ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٣١٣).

٥- جزاء الله تعالى على الأعمال الصالحة من المؤمنين والمؤمنات، فلا فرق بينهم في ذلك.

٦- مكانة المرأة وكرامتها في الإسلام.

٧- في الآية (١٩٠) دعوة لتربية العقل على التدبر والتأمل في خلق الله تعالى وملكوته.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

التفسير:

١٩٦-١٩٧- لا يخدعَنَّك تَنَعُّمُ الكفَّار في ملذَّات الدنيا ونشاطهم ورحلاتهم في البلاد، فإنَّهم يتمتَّعون بذلك قليلاً، ثمَّ يزول، ثمَّ مصيرهم إلى جهنَّم، وبئس القرارُ نار جهنَّم.

١٩٨- ذلك جزاء الكافرين، أمَّا الذين خافوا ربَّهم بالتزام طاعته فجزاؤهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ماكثين فيها أبداً، مكرمين بفضل من عند الله، وما عنده من الثواب للمطيعين الأخيار أفضل وأكرم ممَّا يتمتع به الكفَّار.

١٩٩- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: لـمَّا مات النَّجاشي، قال النبي ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعضُ الناس: تأمرنا أن نستغفر له وقد مات بأرض الحبشة؟ فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. (أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ٣٢٣ برقم ٢٦٨٨، والضياء المقدسي في المختارة ٥/ ٤٠-٤١ برقم ١٦٤٨، ١٦٤٩). وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجال الطبراني ثقات. مجمع الزوائد ٣/ ٣٨).

التفسير:

يُثني الله تعالى على طائفة من اليهود والنصارى من الذين يُصَدِّقون بالله وبالقرآن وبالتوراة والإنجيل متذلِّلين لله، لا يُحَرِّفون حكماً، ولا يكتمون علماً، لعرضٍ خسيس من متاع الدنيا. أولئك أصحاب الدرجات العالية لهم مقام كريم وثواب عظيم عند ربِّهم. إنَّ الله سريع الحساب لجميع الناس.

٢٠٠- يُنادي الله تعالى المؤمنين: اصبروا على فعل الطاعة وتَرْكِ المنكرات، وغالِبُوا أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ولازموا ثغوركم لحمايتها من الاعتداء، وخافوا الله؛ لكي تفوزوا بالفلاح في الدنيا بحياة طيبة، وفي الآخرة بجنَّة عظيمة.

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إسباغ الوُضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». (الصحيح ١/ ٢١٩ برقم ٢٥١ - كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره).

الفوائد والاستنباطات:

١ - مهما بلغ تَنَعُّم الكفَّار في الدنيا فهو متاع لا يستحقُّ الاكتراث به؛ لأنَّه زائل وقليل مقابل نعيم الآخرة الدائم.

٢ - الثناء على بعض أهل الكتاب من المؤمنين الخاشعين لله تعالى.

٣ - وجوب الصبر على إقامة الطاعات، وحماية البلاد من الأعداء.

٤ - تقرير شرعة الحساب في نيل العقاب والثواب.

النزول: مدنية.

فضل السورة:

عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أخذ السبع الأول فهو حَبْرٌ».

(أخرجه الإمام أحمد: المسند ٦/ ٧٣. قال الهيثمي: رواه أحمد والبزَّار، ورجال البزَّار رجال الصحيح، غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة. مجمع الزوائد ٧/ ١٦٢. وأخرجه الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي: المستدرك ١/ ٥٦٤).

المقاصد:

١- تقرير حقِّ صلة الرحم، وحقِّ اليتامى، وحقِّ المرأة في المهر.

٢- بناء البيت المسلم على أُسُس متينة.

٣- بيان حُقوق المرأة وواجباتها.

٤- تقرير أحكام الصَّلاة في السِّلم والحرب وأمور الجهاد.

٥- التخفيف والتيسير في الشريعة الإسلامية.

٦- حِماية المُجتمع المسلم، وتحصينه من الفتن والدَّسائس والمكايد.

٧- بَيان أحكام المواريث وحِفظ الأموال.

٨- دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان.

٩- بيان أُصول الحكم في الإسلام.

١٠- تقرير البعث والحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١ - افتتح الله تعالى هذه السورة بنداء عظيم للبشرية جميعاً، أكَّد فيه عبادته وحده، بأن يخافوا خالقهم بالتزام طاعته، فهو الذي خلقهم من آدم ﷺ، وخلق من هذه النفس زوجها وهي حواء، ونَشَرَ منهما بالتوالد الكثير من الرجال والنساء، ثم كرَّر الأمر بقوله: وخافوا الله الذي يَسأل باسمه بعضُكم بعضاً، وخافوه بصلة الأرحام. إن الله لم يَزَلْ على الناس رقيباً لأعمالهم.

٢ - يأمر الله تعالى أوصياء اليتامى - وهم الأطفال الذين مات آباؤهم وهم دون سنِّ البلوغ - بأن يُعطوهم أموالهم إذا بلغوا سِنَّ الرشد، ونهاهم عن أخذ الجيد من كرائم أموالهم، ووَضْعِ الرديء من الأموال مكانه، ونهاهم أيضاً عن ضَمِّ أموال اليتامى مع أموالهم من أجل السَّطْوِ على أموال اليتامى، وحذَّر من ذلك بأنه إثم عظيم يُعاقَبون عليه. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن أَكْلَ أموال اليتامى حَوْب كبير، أي: إثم عظيم، ولم يُبيِّن مبلغ هذا الحَوْب من العِظَم، ولكنه بيَّنه في موضع آخر، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]».

٣- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَذْقٌ وكان يُمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلَتْ فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العَذْق وفي ماله». (صحيح البخاري ٨/ ٨٦-٨٧، برقم ٤٥٧٣ - كتاب التفسير- سورة النساء، باب ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾).

التفسير:

وإن خفتم من الجَوْر في يتامى النساء اللاتي في حُجوركم فاتركوهنَّ، وانكِحُوا غيرَهنَّ ممَّا أحلَّ الله لكم من النساء اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فإن خفتم ألَّا تعدلوا بينهنَّ فانكِحُوا واحدة، أو ما عندكم من الإماء. ذلك الشرع أقرب إلى عدم الظلم. وهذا التعدد في النكاح يفيد اليتامى عامةً في التمكين من رعايتهم بتعدد الأيادي الحانية. ذلك الحكم العظيم أقرب إلى مراعاة حقِّهم، وحقِّ النساء.

٤-٥- وأعطوا - أيها المؤمنون - مَنْ نكحتم من النساء مهورهنَّ عطيَّة واجبة عن طيب نفس، فإن طابت نفوسهنَّ بالتنازل عن شيء من المهر فخذوه حلالاً طيباً، ولا تُعْطُوا من يُبَذِّرُ من الرجال والنساء والصبيان أموالهم التي هي قِوام معاشهم، وأَنْفِقُوا عليهم في إطعامهم وكسوتهم، وقولوا لهم قولاً حسناً يُطَيِّبُ نفوسهم.

٦- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنَّها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً أنَّه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. (صحيح البخاري ٨/ ٨٩ برقم ٤٥٧٥ - كتاب التفسير- سورة النساء، باب (الآية)، وصحيح مسلم ٤/ ٢٣١٥- كتاب التفسير).

التفسير:

واختبروا اليتامى الذين في عهدتكم؛ لمعرفة حسن التدبير في أموالهم، حتى إذا بلغوا الحُلُمَ، فإن وجدتم فيهم صلاحاً في دينهم وماله فسَلِّموا لهم أموالهم، ولا تعتدوا عليها بالإسراع في صرفها وتبذيرها قبل أن يكبَروا فيأخذوها. ومَنْ كان من الأوصياء غنياً فلْيَعِفَّ عن مال اليتيم، ومَنْ كان فقيراً فليأْخُذْ بقَدْر حاجته، أو بقَدْرِ جهده تجاه اليتيم وماله، فإذا سَلَّمْتم إليهم أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشْهِدُوا عليهم بأنَّهم تَسَلَّموا مالهم، ويكفيكم أنَّ الله رقيب عليكم، ومحاسِبٌ لكم على رعايتكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب التَّواصل مع الأقارب.

٢- تأكيد تقوى الله تعالى.

٣- إباحة التعدُّد في الزواج إلى أربع، بشرط إقامة العدل بينهنَّ في إعطاء حقوقهنَّ.

٤- تقرير حَقِّ المرأة في المهر، ومن حقِّها التصرُّف فيه كيف تشاء.

٥- قال ابن عاشور عند الآية (٥): «دَلَّت الآية بحكم القياس على أنَّ مَنْ طرأ عليه السَّفَه وهو بالغ، أو اختلَّ عقله لأجل مرض في فكره، أو لأجل خَرَفٍ من شِدَّة الكِبَر، أنه يُحَجَّر عليه؛ إذ علَّة التحجير ثابتة.. وحكم الآية شامل للذكور والإناث بطريق التغليب: فالأنثى اليتيمة - إذا بلغت رشيدة - دُفِعَ مالُها إليها». (التحرير والتنوير: ٤/ ٣٣).

٦- المحافظة على مال اليتيم، والسعي لتنميته، وتحريم بَخْسِه وظلمه.

٧- حَقُّ الولاية على مال اليتيم مرهون بعدم بلوغه.

٨- نَهْيُ أولياء اليتامى عن إعطائهم أموالهم، إذا كانوا غير قادرين على التصرُّف فيها.

٩- تحريم الإسراف في مال اليتيم.

١٠- يجوز للوليِّ الفقير أن يأخذ من مال اليتيم على قَدْر حاجته.

١١- يجب على الوصِيِّ اختبار اليتيم حتى يتثبَّتَ من ضَبْطِه للمال، وحسن التصرُّف فيه.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾

التفسير:

٧- يخبر الله تعالى عن حقوق الورثة في الآيات الست الآتية: للذكور الأقرباء صغاراً أو كباراً حصةٌ مالية مما ترك المتوفَّون، وللنساء صغيرات وكبيرات حصة مما ترك المتوفَّون، قليلاً كان المال أو كثيراً، فَرَضَه الله لهنَّ حقّاً محدَّداً واضحاً.

٨- وإذا حضر قسمةَ التركة أقاربُ الميت والفقراء واليتامى والمساكين من غير الورثة، فأَعْطُوهم شيئاً من التركة، وقولوا لهم قولاً حسناً.

٩- ولْيَخشَ الأوصياء وأصحاب الأموال الذين لو تركوا من خلفهم أولاداً صغاراً لا يجيدون التصرف بالمال، خافوا عليهم الاعتداء والتبذير، فليخافوا الله فيمَنْ معهم من اليتامى والمساكين، وذلك بحِفْظِ حقوقهم، ولْيقولوا لهم قولاً حسناً طيباً.

١٠- يُخَوِّف الله سبحانه الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بغير حق، بأنَّ عقوبتهم أَكْلُ النار تتأجَّج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون ناراً شديدة الحرارة.

١١- **سبب النزول:**

عن جابر ﷺ قال: «عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سَلِمةَ ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأَفَقْتُ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾». (صحيح البخاري ٨/ ٩١ برقم ٤٥٧٧ - كتاب التفسير - سورة النساء (الآية)، وصحيح مسلم ٣/ ١٢٣٥، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة).

التفسير:

يأمركم الله في حقِّ أولادكم من الميراث، إذا مات أحدكم وترك أولاداً، فميراثه كله للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا لم يكن ثمة وارث غيرهم، فإن ترك بنات فقط، فللبنتين فأكثر ثلثا ما ترك، وإن كانت ابنة واحدة فلها النصف، ولوالدي الميِّت لكلِّ واحدٍ منهما السدس إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه والداه فلأُمِّه الثلث، ولأبيه الباقي. فإن وُجِدَ مع الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر، فللأُم السدس والباقي للأب. وهذه الحقوق تكون بعد تنفيذ وصية الميت الشرعية وقضاء ديونه، ولا يَعْرِفُ أحدٌ أيُّ الأصول أو الفروع أنفعُ للميت؟ وهذه الأحكام العظيمة واجبة من الله تعالى، إنَّ الله سبحانه لم يزل ذا عِلْمٍ بخَلْقِه، حكيماً في شرعه.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «لكون هذه الآية كالمقدمة جاءت بإجمال الحق والنصيب في الميراث، وتلاه تفصيله؛ لقصد تهيئة النفوس. وحكمة هذا الإجمال حكمة ورود الأحكام المراد نَسْخُها إلى أثقلَ؛ لتسكنَ النفوس إليها بالتدريج».

وقال أيضاً: «من الاهتمام بهذه الأحكام تصديرُ تشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لأنَّ الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الآمر لشدَّة صلاحه». (التحرير والتنوير: ٤/ ٣٨، ٤٤).

٢- تقرير حقوق الرجال والنساء في الميراث.

٣- حقُّ المرأة في الميراث، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

٤- وجوب قضاء الدَّين قبل تقسيم الإرث.

٥- التحذير من التلاعُب في وصيَّة الميِّت.

٦- تحريم الوصيَّة لأحد الورثة، لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيَّة لوارث». (أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الوصايا - باب ما جاء في الوصية للوارث برقم ٢٨٧٠، وقال الألباني: حسن صحيح. صحيح سنن أبي داود برقم ٢٤٩٤).

٧- وجوب تقسيم الإرث كما فرض الله تعالى؛ لأنَّه هو الخالق، وهو أعلم بالحقوق، وحُكْمُه عدل.

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾

التفسير:

١٢- يُفَصِّل الله تعالى حقوق الزوجين والإخوة والكَلالة في الميراث: ولكم - أيها الأزواج - من الرجال نصف ما تركت الزوجات إن لم يكن لهن ولد، ولكم الربع ممَّا تَرَكْنَ إن كان لهنَّ وَلَدٌ منكم، أو من زوج آخر، وذلك بعد أداء الديون، وتنفيذ الوصايا الشرعية. وللزوجات الربع من الميراث إن لم يكن للأزواج ولد، فإن كان لهم ولد فللزوجات - واحدة أو أكثر - الثمن من بعد وفاء الدين وإنفاذ الوصية المشروعة. وإن مات رجل أو امرأة وليس له - أو لها - ولد ولا والد، وله أو لها أخ أو أخت من أُم فلكلِّ واحد منهما السدس، فإن كان الإخوةُ أكثرَ من واحد فهم شركاء في الثلث، وذلك من بعد حقوق الدَّين والوصية، إن كان قد أوصى بشيء لا غَبْنَ فيه على الورثة بما لا يزيد على الثلث. بذلك الأمر العظيم أوصاكم الله وصية حكيمة. والله عليم بما يُصْلح خَلْقَه، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة.

١٣ - تلك أحكام الله العظيمة القَدْرِ. ومَنْ يُطع الله ورسوله في هذه الأحكام وغيرها يُدخله الله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الجزاء العظيم القَدْرِ هو الفلاح العظيم في جنات النعيم.

١٤ - ومَنْ يخالف شريعة الله ورسوله، ويتجاوز أحكام الله، يَجْعَلْه في نار جهنم ماكثاً فيها أبداً، وله عذاب مُذِلٌّ.

١٥ - يُبيِّنُ الله تعالى التدرُّجَ في حَدِّ جريمة الزنى: والنساء اللاتي يرتكبن فاحشة الزنى فاطلبوا أربعة شهود عدول من المسلمين، فإن شهدوا عليهنَّ بذلك فاحبسوهنَّ في البيوت حتى الموت، أو يجعل الله لهنَّ طريقاً بعقوبة أخرى وقد جعل الله لهنَّ حكماً آخر، وهو الرجم للمحصنة، ولغير المحصنة الجلد مئة جلدة، كما سيأتي في مطلع سورة النور.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ لم يبيِّن هنا هل جعل لهن سبيلا أولا؟ ولكنه بيَّن في مواضع أنه جعل لهنَّ السبيلَ بالحدِّ كقوله في البكر: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] الآية».

١٦ - والرجل والمرأة اللذان يفعلان فاحشة الزنى فآذُوهما بالتعزير والضرب بالنِّعال، ثم نُسخ ذلك بالرجم والجلد، كما سيأتي في تفسير مطلع سورة النور. فإن تابا من الزنى قبل إقامة الحدِّ، وأصلحا أحوالهما، فلا تؤذوهما. إنَّ الله كان توَّاباً على مَنْ تاب، رحيماً به.

١٧ - يبشِّر الله التائبين من ارتكاب المعاصي بجهل، بأنَّهم إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله قبل معاينة الموت، فإنَّ الله يقبل توبتهم؛ لأنَّ كل مَنْ عصى ربه فهو جاهل حتى يُقْلِعَ عن معصيته. وكان الله عليماً بعباده، حكيماً في تدبيره وأحكامه.

١٨ - ولا يقبل الله توبة مَنْ يُصِرُّ على ارتكاب المعاصي، وعند قدوم سَكَرات الموت يقول: ياربِّ إنِّي تُبْتُ الآن، ولا يقبل توبة مَن مات على الكفر. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هيأنا لهم عذاباً موجعاً.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فحرَّم الله تعالى المغفرة على مَن مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يُؤَيِّسْهم من المغفرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير حقِّ الزوج والزوجة في الميراث.

٢ - تحريم الإضرار في الوصيَّة، فإذا أخطأ الميِّت في وصيَّته وَجَبَ تصحيحها، وكذا تحريم التغيير فيها من الشهود أو الورثة.

٣- وجوب إعطاء حقِّ اليتيمات المؤهَّلات للزواج من مهر ونفقة وغيرها.

٤ - وجوب دَفْعِ المهر كاملاً للمرأة، إلا إذا تنازلت عن طِيب نفس.

٥ - من مقاصد القرآن حفظُ الأعراض والنسب؛ لبناء مجتمع طاهر من الفواحش.

٦ - شَرَعَ الله سبحانه عقوبة الزنى للحفاظ على الأعراض، ولا تثبت إلا بشروطها.

٧- تقرير نسخ التعزير والضرب بالرجم أو الجلد.

٨- وجوب حسن معاشرة الزوجة.

٩- وجوب التوبة على المذنب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

١٩ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ قال: «كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زَوَّجوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، وهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك». (صحيح البخاري ٨/ ٩٣ برقم ٤٥٧٩ - كتاب التفسير - سورة النساء، باب (الآية).

التفسير:

يخاطب الله المؤمنين مُذَكِّراً ومُشَرِّعاً حقوق المرأة المالية والزوجية في الآيات السبع الآتية: لا يباح لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من رجل ميت إلى رجل من أقاربه، وهُنَّ كارهات لذلك، ولا تمنعوهنَّ من الزواج بآخَرين لتأخذوا ميراثهنَّ بعد الموت، أو تأخذوا صداقهنَّ إذا أَذِنْتُم لهنَّ بالزواج، إلا أن يرتكِبْنَ فاحشة بيِّنة واضحة، فيحِلُّ لكم أن تأخذوا منهنَّ الصداق بالخُلْع، وصاحبوهنَّ بالإحسان والرِّفْق، فإن كرهتموهنَّ لسبب غير الفاحشة فاصبروا، فعسى أن يجعل الله لكم في المكروه خيراً كثيراً، كإنجاب الولد الصالح وغيره.

٢٠- وإن أردتم نكاح امرأة بدل امرأة أخرى طَلَّقتموها، وقد أعطيتم لِـمَنْ أردتم طلاقها مالاً كبيراً مهراً لها، فلا يحلُّ لكم أن تأخذوا منه شيئاً، ولو كان مالاً قليلاً، أتأخذونه كذباً وافتراءً ظاهراً؟!

٢١- يُنكر الله تعالى على من استردَّ شيئاً من المهر، وكيف تأخذونه وقد استمتع بعضكم ببعض، وأخذنَ منكم عهداً مؤكداً في عقد النكاح الذي يضمن الحقوق الزوجية؟

٢٢- يُحَرِّم الله عليكم تَزَوُّجَ زوجة الأب، إلا ما مضى قبل التحريم فمَعْفُوٌّ عنه. إنَّ هذا الزواج فاحش القبح، يُبغضه الله لما فيه من سوء الاختيار.

٢٣- حَرَّم الله تعالى عليكم التزوُّج بالأمهات والجَدَّات من جهة الأب أو الأم، وبناتكم، وبنات الأولاد، وبنات أولاد الأولاد، والأخوات الشقيقات لأب أو لأُمّ، وأخوات آبائكم وأجدادكم، وأخوات الأُمهات والجدات، وبنات الأخ، وبنات الأخت وبناتهنَّ مهما نَزَلْنَ، والأُمهات المرضعات، وأُمهات الزوجات وجداتهنَّ، والربائب اللاتي تَرَبَّيْنَ في بيوتكم ودخلتم بأمهاتهنَّ. فإن لم تكونوا دخلتم بأُمهات الربائب فلا حرج عليكم في نكاحهنَّ، وحُرِّم عليكم زوجات أبنائكم الذين من ظهوركم، وحُرِّم عليكم الجمع بين الأختين ولو من رضاع، ومثلُهما سائر المحارم، كالعمَّة والخالة، إلا ما مضى قبل نزول التحريم فلا مؤاخذةَ فيه. إنَّ الله كان غفوراً لعباده إذا تابوا، رحيماً بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم ما كان معروفاً في الجاهلية من انتقال المرأة إلى قريب زوجها بعد وفاته، فلا يجوز إلا برضاها.

٢- المهر مهما كان كثيراً أو قليلاً فإنَّه حقٌّ للمرأة.

٣- وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف.

٤- إباحة الطَّلاق، والتزوُّج من امرأة أخرى.

٥- جواز كثرة الصداق.

٦- تحريم أَخْذِ أيِّ مال من الزوجة إذا فارقها زوجها، إلا إذا كان برضاها دون إكراه.

٧- تحريم زواج الابن من زوجة أبيه إذا طَلَّقها، أو مات عنها.

٨- بيان المحرَّمات في الزَّواج من النسب.

٩- بيان المحرَّمات في الأزواج من المصاهرة، كزوجة الأب، وأُمِّ الزَّوجة، وبنت الزَّوجة، وزوجة ولده من صلبه، وزوجة ابنه من الرضاع، وأخت الزَّوجة ما دامت في عصمته.

١٠- تقرير حَقِّ المرأة في الزَّواج، والتَّحذير من ظُلْمِها في منع حقوقها.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

٢٤- سبب النزول:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشاً إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقُوا عَدُوّاً فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَأَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أَيْ: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ.

(صحيح مسلم، باب جَوَازِ وَطْءِ الْمَسْبِيَّةِ بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ وَإِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ انْفَسَخَ نِكَاحُهَا بِالسَّبْيِ، برقم ٣٦٨).

التفسير:

لما ذكر الله المحرَّمات فيما سبق عطف عليهنَّ المحصنات، فقال: وحُرِّمت عليكم المحصنات من النساء، ذوات الأزواج، ويُستثنى من ذلك المسبيَّات في القتال مع المشركين، فإنه يحلُّ لكم نكاحهنَّ بعد استبراء أرحامهنَّ بمقدار حَيْضة، كَتَبَ الله عليكم نكاح هؤلاء وألزمكم به. وأحلَّ لكم ما عدا أولئكم المحرمات، على أن تبتغوهنَّ بأموالكم بالطريق الشرعي، متعفِّفين بذلك عن الزنى، ومُعِفِّين نساءكم. وإتيانُكم إياهنَّ أجورَهنَّ فرضٌ فرضه الله عليكم، وإذا زاد الزوج في المهر أو أسقطته الزوجة عن رضا وطِيبِ نَفْس، فلا حرج في ذلك. والله ﷻ بعِلْمِه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحَدَّ لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

٢٥- وإذا لم يمتلك الحر المسلم المهر لنكاح الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه الزنى بسبب غلبة الشهوة عليه والمشقة البالغة، فله نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. ولما كان الإيمان أمراً قلبياً، لا يطلع على حقيقته إلا الله، أعقبه ببيان أنه يُكتفى فيه بالظاهر، مع ضرورة التحري من جهة الدين، ثم لابُدَّ أن يكون زواج الأَمَة بإذن سيدها فهو الوليُّ، ولا يصح نكاحها إلا بإذنه. وكما يجب المهر للحُرَّة فكذلك يجب للأَمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كُنَّ عفيفات عن الزنى، غير زانيات، وليس لهن أخِلَّاءُ في السر. فإذا تزوجت الأَمة ووقعت في فاحشة الزنى أُقيم عليها الحدُّ، كما يقام على الحرة، وهو الجَلْدُ المُعَيَّن. وشرع الله هذه الأحكام رحمةً منه بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يُضَيِّق عليهم، بل وسَّع غاية السَّعة.

٢٦- يريد الله أن يُبَيِّن لكم ما خَفِيَ عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج مَنْ كان قبلكم من الأنبياء والصالحين التي سلكوها في دينهم؛ لتَقْتَدُوا بهم في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة. ثم تُختم الآية بعِلْمِ الله وحكمته، فعن العلم والحكمة تصدر تشريعاته، ومن العلم والحكمة تجيء توجيهاته، وهو العالم بنفوس عباده وأحوالهم.

٢٧- والله ﷻ يُحَرِّضُكم أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم، توبة تلمُّ شَعْثكم، وتجمع متفرقكم، وأما الذين يُرضون شهواتهم، فيريدون انصرافكم عن الحق، وميلكم عنه إلى المعاصي؛ لأنَّهم يوافقون شهوات أنفسهم.

٢٨- والله ﷻ يريد بكم اليسر دون العسر؛ لأنَّ هذا الدين بَيَّنَ حِفْظَ المصالح ودرء المفاسد، في أيسر السبل وأرفقها؛ وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه وبخاصة في أمر النساء ، فناسب ذلك أن يخفف عنه ما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

الفوائد والاستنباطات :

١- تحريم أن يكون للمرأة أكثر من زوج واحد، وبُطلان عقد النكاح إذا عُقِدَ.

٢- تحريم أزواج المشركين، إلا المسبيَّات في قتال المسلمين مع المشركين.

٣- قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ دليل على ولاية السيد لأَمَتِه، وأنه إذا نُكِحَتِ الأَمة بدون إذن السيد فالنكاح مفسوخ.

٤- قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ ﴾ إضافة الأجور إليهنَّ، دليل على أنَّ الأَمة أحقُّ بمهرها من سيدها.

٥- لا يُسْتَدلُّ بقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ في جواز نكاح المتعة، فإنَّ سياق الآيات ينافي ذلك.

٦- وجوب المهر للحُرة والأَمة المؤمنة.

٧- قوله: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ أي: أحصنهنَّ، أي: فإذا تزوَّجْن. فالآية تقتضي أن التزوج شرط في إقامة حدِّ الزنى على الإماء، وأن الحدَّ هو الجَلْدُ المعين؛ لأنَّه الذي يمكن فيه التنصيف بالعدد.

٨- قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريض على وجوب الوقوف عند كتاب الله.

٩- المقصد من تقدير المهر والوفاء به من قِبَلِ الزوج هو الوثاق، وحسن السمعة.

١٠-الله ﷻ يكشف للمسلمين عن دخائل أعدائهم، وهي إرادة صَدِّهم عن الحق، والغرق في وَحْلِ الشهوات.

١١- العدل مع الإماء، والرفق معهن فمن رحمة الله تعالى أن جاء بكلمة ﴿أَهۡلِهِنَّ﴾ بدل أسيادهن.

١٢- التحذير من نكاح الإماء، وأنه لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة.

١٣- تقييد نكاح الأَمة بها إذا كانت مؤمنة، فلا يجوز التزوُّج بالأَمة الكتابية، سواء كان الزوج حراً أو عبداً.

١٤- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ معناه: اعملوا على الظاهر في الإيمان، فإنَّكم مكلفون بظواهر الأمور، والله يتولى السرائر والحقائق.

١٥- ذِكْرُ المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أنَّ الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده.

١٦- أسند التحليل إلى الله تعالى بإسناد الخير لله، ولم يُسْند الشرَّ إليه، وأسند التحريم إلى المجهول في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ لأنَّ التحريم مشقة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا (٢٩) وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا (٣١)﴾

التفسير:

٢٩- لما بَيَّنَ ﷻ طريقة التصرف في النفوس بالنكاح، بيَّن طريقة التصرف في الأموال الموصلة إلى النكاح، وإلى ملك اليمين، فنهى ﷻ عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهو ما لم تُبِحْه الشريعةُ كالسرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا، ولكن أباح لهم أَكْلَها بالتجارات والمكاسب المشروعة التي تكون عن تراضٍ، ثم نهى عباده المؤمنين أن يقتل بعضهم بعضاً، أو يقتل الإنسان نفسه، لأنه

رحيم بخلقه. و من رحمته بهم أن عصم دماءهم وأموالهم، وصانها ونهاهم عن انتهاكها، ولم يُكَلِّفْهم قَتْلَ أنفسهم في التوبة، كما كَلَّف بني إسرائيل بذلك.

٣٠- ومَنْ يتعاط ما نهاه الله عنه مثل أكل الأموال بالباطل، وقَتْلِ النفوس بغير حق، متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، عالماً بتحريمه مُتجاسِراً على انتهاكه، فسوف يدخله الله ناراً يصليه فيها. وهذا العذاب هَيِّنٌ على الله لا يمنعه منه مانع، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه شافع.

٣١- ومن فضل الله وإحسانه على المؤمنين أنه وَعَدَهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات - وهي كل جريمة تُؤْذِنُ بقلة اكتراث مرتكبها بالدين - غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريماً كثير الخيرات، وهو نعيم الجنات.

الفوائد والاستنباطات :

١ - إنَّ الله تعالى يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، مع إقامة الفرائض.

٢ - ما كان على طريق التجارة فشَرْطُه التراضي، وهو من اثنين: الباذل للثمن، والبائع للعين، وخَصَّ التجارة بالذِّكر، لأنَّ أكثر أسباب الرزق متعلق بها.

٣ - النهي عن قتل الإنسان نفسه. ويندرج في ذلك مَنْ يتعاطى مُحَرَّماً كالخمر والمخدرات، أو يُعَرِّض نفسه للقتل بسبب سرعة القيادة، أو الإهمال في المركبة وغير ذلك.

٤ - الجمع بين التوصية بحفظ المال والوصية بحفظ النفس من الملاءمة؛ لكون المال شقيق النفس من حيث إنه سبب لِقوامها، وتحصيل كمالاتها، واستيفاء فضائلها.

٥ - قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ قيَّده بالعدوان والظلم؛ ليخرج أَكْلُ المال بوجه الحق، وقتل النفس كذلك، كقتل القاتل.

٦ - في إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين دلالة على أنَّ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد، إذ كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

٧ - قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ يدخل تحته أَكْلُ مالِ الآخرين بالباطل، وأَكْلُ مالِ نفسه بالباطل، وهو إنفاقه في معصية الله.

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٢- لما نهى ﷻ المؤمنين عن أَكْلِ المال بالباطل، وعن قَتْلِ الأنفس، نهاهم عن تَمَنِّي ما فَضَّل الله به بعضهم على بعض، فللرجال مزاياهم وحقوقهم، وللنساء مزاياهنَّ وحقوقهنَّ، فلا تتمنَّوا ما في يد الآخرين، واسألوا الله من فضله؛ فإنَّ فضل الله يَسَعُ الإنعام على الكل، فلا أثر للتمني إلا تعب النفس؛ فعِلْمُ الله محيط بجميع الأشياء، فهو عالم بما فَضَّل به بعضكم على بعض، وما يصلح لكلٍّ منكم من توسيع أو تقتير، فإياكم والاعتراضَ بتَمَنٍّ أو غيره، وهو عالم بسؤالكم من فضله، فيستجيب دعاءكم.

٣٣- ولَمَّا نهى عن التمني المذموم، وأمر بسؤال الله من فضله، أخبر تعالى بشيء من أحوال الميراث، وأنَّ في شرعه ذلك مصلحةً عظيمةً من تحصيل مال للوارث لم يَسْعَ فيه، فقال: ولكلٍّ واحد منكم جعلنا ورثة يرثون مِمَّا ترك الوالدان والأقربون، والذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة على النصرة وإعطائهم شيئاً من الميراث، فأَعْطُوهم ما قُدِّر لهم. إنَّ الله مطلعٌ بعلمه المحيط بكل شيء ومُجازٍ عليه. وفي ذلك تهديد للعاصي، ووعد للمطيع، وتنبيه على أنه شهيد على الصلة والمعاقدة بينكم، فأَوْفُوا بالعهد، وقد نُسخ التوارث بين الحُلَفاء.

٣٤- الرِّجال قوَّامون على النساء بإلزامهنَّ بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، والالتزام بأحكامه، وقوَّامون عليهن قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي، بسبب فَضْلِ الرجال على النساء بإنفاق أموالهم. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: يَغْزُو الرِّجَالُ وَلاَ تَغْزُو النِّسَاءُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ. فَأَنْزَلَ الله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

(سنن الترمذي، باب سورة النساء برقم٣٢٩٥، قال الألباني : صحيح الإسناد).

ثم بَيَّنَ ﷻ أن النساء على قسمين: صالحات مطيعات لله تعالى ، ومطيعات لأزواجهنَّ حتى في الغيب، تحفظ بَعْلَها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهنَّ وتوفيقه لهنَّ. واللاتي تخشون تَرَفُّعَهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يُؤَدِّبها تدريجياً، فأول ما يُبدأ به لتأديبها بيانُ حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، فلا يُضاجِعَها، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح. فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأَطَعْنَكم فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضرُّ ذِكْرُها، ويحدث بسببها الشر. فإنَّ الله العليَّ الكبير وليُّهن، وهو منتقم ممَّنْ ظلمهنَّ وبغى عليهنَّ، وإنَّكم تعصونه تعالى، مع علوِّ شأنه وكبرياء سلطانه، ثم يتوب عليكم، فيحق عليكم أن تعفوا عنهنَّ إذا أطعنكم.

٣٥- ولـمَّا ذكر عند نشوز المرأة أنَّ الزوج يَعِظُها، ثم يهجرها، ثم يضربها، بَيَّن أنَّه لم يَبْقَ بعد الضرب إلا المحاكمة إلى مَنْ ينصف المظلوم من الظالم. فإن خفتم الخلاف والعداوة بين الزوجين، فأرسلوا إلى الزوجين لإصلاح ما بينهما من شقاق رجلين عَدْلَيْنِ مُتَّصِفَين بحسن السياسة والنظر في حصول المصلحة، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يُلْزِمان كُلًّا منهما ما يجب، ومهما أمكنهما من الجمع والإصلاح فلا يعدلان عنه. والله عالمٌ بجميع الظواهر والبواطن، مُطَّلِعٌ على خفايا الأمور وأسرارها، فمِنْ عِلْمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الغراء.

الفوائد والاستنباطات :

١- خَصَّ الأهل لأنَّهم أطلبُ للصَّلاح، وأعرف بباطن الحال، وتسكن إليهم النفس، فيطَّلعون على ما في ضمير كل فرد مِنْ حُبٍّ وبغض، وإرادة صحبة، أو فرقة، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب، ولا يحبان أن يطلعوا عليه. فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، ورأيا أنَّ التفريق بينهما أصلح، فَرَّقا بينهما.

٢- متى عجز الرجل عن النفقة على زوجه كان لها فَسْخُ العَقْدِ؛ لزوال المعقود الذي شُرِعَ لأجله النكاح.

٣- قيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي.

٤- تأديب الزوجة الناشز: الوعظ عند خوف النشوز، والضرب عند ظهوره. وللعظة والهجر والضرب مراتب، إن وقعت الطاعة عند إحداها لم يَتَعَدَّ إلى سائرها. ومهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يَجُز الإقدام على الطريق الأشق.

٥- لا يجوز الهجر والضرب بمجرد توقع النشوز قبل حصوله.

٦- قال الشافعي يرحمه الله: «الضرب مباح، وتَرْكُه أفضل». (نظم الدرر: ٢/ ٢٥٢).

٧- وجوب بَعْثِ الحكمين عند نزاع الزوجين النزاع المستمر المعبر عنه بالشقاق.

٨- قال الشافعي يرحمه الله: «المستحَبُّ أن يبعث الحاكمُ عَدْلَين ويجعلها حكمين ، والأَولى أن يكون واحد من أهله، وواحد من أهلها؛ لأنَّ أقاربهما أعرف بحالها من الأجانب، وأشد طلباً للصلاح، فإن كانا أجنبيين جاز. وفائدة الحَكَمين أن يخلو كل واحد منهما بصاحبه، ويستكشف حقيقة الحال؛ ليعرف أن رغبته في الإقامة على النكاح، أو في المفارقة، ثم يجتمع الحكمان فيفعلان ما هو الصواب من إيقاع طلاق أو خُلع». (مفاتيح الغيب١٠/ ٧٥).

٩- اقتصر على إرادة الإصلاح؛ لأنَّها التي يجب أن تكون المقصد لولاة الأمور والحكمين، فواجب الحكمين أن ينظرا في أمر الزوجين نظراً منبعثاً عن نية الإصلاح، فإن تيسَّر الإصلاح فذلك، وإلا صارا إلى التفريق، وقد وعدهما الله بأن يوفق بينهما إذا نويا الإصلاح. ومعنى التوفيقِ بينهما إرشادُهما إلى الرضا بالحق والواقع.

١٠-قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ دالٌّ على أنه لا يتمُّ شيء من الأغراض والمقاصد إلا بتوفيق الله تعالى.

١١-جواز التحكيم في سائر الحقوق.

١٢-الولاية تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة.

١٣-النهي: أن يتمنى الإنسان لنفسه ما فُضِّلَ به عليه غيرُه في الوظيفة والمكانة، وفي الاستعدادات والمواهب، وفي المال والمتاع، وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة، لكن التمني المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يَتَّكل على نفسه، ولا على غير ربه.

١٤-المرأة لا تكون صالحة إلا إذا كانت مطيعة لزوجها؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ والألف واللام في الجمع يفيدان الاستغراق، فهذا يقتضي أنَّ كل امرأة تكون صالحة، فهي لابُدَّ أن تكون قانتة مطيعة.

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- لما أرشد ﷻ كلَّ واحدٍ من الزوجين إلى المعاملة الحسنة، أمر بمعالي الأخلاق الحسنة، وبدأ بإفراد الله تعالى بالعبادة محبةً وذلاً وإخلاصاً له، ونهى عن الشرك؛ لأنَّ له التدبير الكامل الذي لا يشركه، ولا يُعينه عليه أحد، ثم قرن بها إلزام برِّ الوالدين، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برِّهما، والإحسان إليهما، ثم أوصى بالإحسان بكل مَنْ بينه وبين المؤمن قربى من أخ أو عم أو غيرهما، واليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، والجارِ الذي قرب جواره، والجارِ الذي جوارُه بعيد، والمصاحب الملازم للمكان، سواء كان زوجة أو ضيفاً، أو رفيقاً في السفر، والغريب المجتاز بقوم غير ناوٍ الإقامة، ثم أمر الله تعالى بالإحسان إلى كل مملوك من آدمي وحيوان. ومَنْ لم يفعل ذلك فهو مُعْجَبٌ بنفسه متكبرٌ على الخلق، فَخُور، أي: يُثني على نفسه، ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بحقوق العباد، ويحرمهم محبة الرب الكريم، ورضاه عنهم.

٣٧- ثم ذَمَّهم بصفات قبيحة: وهي البخل بالحقوق الواجبة في المال، ودعوة الناس إلى البخل قولاً وعملاً، والبخل بالعلم الذي يهتدي به الضالُّون، ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، فسعوا في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، فكان جزاؤهم أن أعدَّ الله لهم عذاب الإهانة بالعذاب الأليم، والخزي الدائم المقابل لفخرهم وخيلائهم.

٣٨- ثم ذَمَّ - سبحانه - الذي ينفق ماله لغرض الرياء والسمعة، لا لغرض الإخلاص والإيمان بالله ورجاء ثوابه في الآخرة، وهذا من خطوات الشيطان المقارِن لهم. فبئس هذا القرين الذي يُضِلُّ صاحبه عن دار النعيم، ويورده موارد الهلاك.

٣٩- وأيُّ وَبالٍ وضرر يَحيق بهم، لو حصل منهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم؟ وختم الآية بوعيد وتنبيه على سوء بواطنهم، وأنَّه تعالى مُطَّلِعٌ على ما أخفوه في أنفسهم، ومجازيهم عليه.

٤٠- ولما استحق هؤلاء العقابَ بكفرهم نَبَّه أنه في حقهم عدل، وأنَّ الله منزه عن الظلم قليله وكثيره، فهو سبحانه لا ينقص من الأجر، ولا يزيد في العقاب شيئاً مقدار ذرة، وهي النملة الصغيرة الحمراء التي لا تكاد تُرى من صغرها، وإن كانت الذرة حسنة يُضاعف ثوابها، ويعطي صاحبها من عنده على سبيل التفضيل زائداً على ما وُعِدَ في مقابلة العمل، أجراً عظيماً، وما وصفه الله بالعِظَمِ فمَنْ يعرف مقداره؟

٤١- ولَمَّا أعلم تعالى بعَدْلِه وإيتاء فضله، أتبعه بأن ذلك يجري بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق، فقال سبحانه: كيف تكون الأحوال، وكيف يكون الحكم إذا جئنا يوم القيامة من كل أُمة من الأُمم وطائفة من الطوائف بشهيد يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد، وقبائح الأعمال، وجِئْنا بك يا محمد على أُمتك شَهِيداً؟

٤٢- في هذا اليوم يتمنى الذين جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصيةِ الرسول، لما رأوا جزاء المشهود عليهم من الأُمم السابقة، ورأوا عاقبة كَذِبِ المُرسل إليهم، لو يكونون تراباً، فتُسَوَّى بهم الأرض، ولا يكونون قد كتموا الله، وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- عبادة الله تعالى بالتذلل والإخلاص له.

٢- الإحسان إذا عُدِّي بالباء كان متعلقاً بمعاملة الذات، أي: ذات الأبوين روحاً وجسداً وتوقيرهما واحترامهما، والنزول عند رغبتهما وامتثال أمرهما، وقدَّم الأمر بعبادة الله تعالى وتوحيده للاهتمام بهذا الأمر، وأنه أحق ما يتوخَّاه المسلم.

٣- النهي عن الشرك بأنواعه سواء كان الشرك في الألوهية، أو الشرك في الفعل، أو الشرك في العبادة.

٤- الإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران الأقارب والأباعد، والأصحاب.

٥- النهي عن التكبر والخيلاء والتفاخر والتعاظم.

٦- رَبْطُ كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع، بالعقيدة.

٧- اتصاف الله بكل كمال، وتَنَزُّهه عن كل نقصان، فلا يبخس الناس، ولا ينقصهم من ثواب أعمالهم وزن ذرة، بل يجازيهم بها، ويثيبهم عليها.

٨- بدأ بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ إذ بذلك تحصل السعادة الأبدية، ثم عطف عليه الإنفاق في سبيل الله، إذ به يحصل نفي تلك الأوصاف القبيحة من البخل، والأمر به وكتمان فضل الله والإنفاق رئاءَ الناس.

٩- إشفاق الرسول ﷺ على أُمته ورحمته لهم من هول يوم القيامة، فإنه كان إذا قرأ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فاضت عيناه، وإذا كان الشاهد تفيض عيناه فماذا يصنع المشهود عليه؟

١٠-على العبد أن يعمل عملَ مَنْ يعلم أنه راجع إلى المُطَّلِع عليه، الذي لا تخفى عليه خائنة عين، ويجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾

٤٣- سبب النزول :

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ دَعَاهُ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَسَقَاهُمَا قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ فَأَمَّهُمْ عَلِيٌّ فِي الْمَغْرِبِ فَقَرَأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] فَخَلَطَ فِيهَا فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾. (سنن أبي داود: باب في تحريم الخمر، برقم ٣٦٧٣، قال الألباني: صحيح).

التفسير:

لما أمر تعالى بعبادته والإخلاص فيها، وكانت الصلاة أفضل العبادات ناسب أن تخلص الصلاة من شوائب الكدر التي يُوقعها على غير وجهها، فنهى تعالى عباده المؤمنين أن يُصَلُّوا حال السكر حتى يعلموا قبل الشروع فيها ما سيقرؤونه وما سيعملونه؛ وذلك لأنَّ حال السُّكرِ لا يتأتَّى معها الخشوع والخضوع

والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة، كالمسجد، فإنه لا يُمَكَّن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنَّه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، وهذا الحكم قبل نزول تحريم الخمر. ولا تقربوا الصلاة أيضاً حالة كون أحدكم جنباً، إلا أن تمروا في المسجد، ولا تمكثوا فيه، فإذا اغتسلتم زال سبب المنع. ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لازمة؛ لأنَّها تُذَكِّر المرء بربه، وتُعِدُّه للتقوى، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات، ويتعذر في بعضها الآخر، رَخَّص سبحانه في ترك استعمال الماء والاستعاضة عنه بالتيمم حالَ المرض الذي يُخاف زيادته باستعمال الماء والسفر القصير والطويل، وفَقْد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل، وأمرهم أن يقصدوا ويتحرَّوا وجهاً طاهراً من الأرض لا قذارة فيه، ثم يمسحوا وجوههم وأيديهم منه، ثم يصلُّوا. ثم ختم الآية بأنَّه كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، من حُكم الرخصة إذ عفا عن المسلمين، فلم يُكَلِّفْهم الغسل أو الوضوء عند المرض، ولا يرقب وجود الماء عند عدمه، حتى تكثر عليهم الصلوات فيعسر عليهم القضاء.

٤٤ - ألم تنظر - يا محمد ﷺ - إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهي، كيف حُرِموا هدايته واستبدلوا بها ضدها، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم، ويريدون أن تضلوا - أيها المؤمنون - طريق الحق القويم، كما ضَلُّوا هم، فهم دائبون على الكيد لكم؛ ليردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا؟

٤٥ - والله أعلم بهم منكم، وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون لكم؛ لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم، وهو أعلم بحالهم ومآل أمرهم. وكفى به متكفِّلاً في جميع أموركم ومصالحكم محباً لكم. وكفى به نصيراً في كل المواطن، فثِقُوا به، واكتفوا بولايته ونصرته، ولا تَتَوَلَّوا غيره، ولا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء؛ فإنَّه تعالى مُعين لكم يكفيكم مكرهم وشرهم.

٤٦ - ثم بَيَّنَ سبحانه كيفية ضلالهم، فهم يُغَيِّرون النص، أو يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله قصداً منهم، وافتراء على الله، ويقولون: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يَتَوَلَّون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم من الإثم والعقوبة ويقولون للنبي: اسمع ما نقول لا سمعتَ، تظاهروا بتعظيمه، وأرادوا في الباطن الدعاء عليه وسَبَّه، والكيد للإسلام والاستخفاف به، و هذا دأبهم في كل عصر. ثم أرشدهم إلى المنهج اللائق، والأدب الجدير بهم في مخاطبة الرسول ﷺ، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطُّف في طلبهم العلمَ بقولهم: أفهِمْنا، وتَمَهَّلْ علينا حتى نفهم عنك، ونَعِي قولك، لكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر أبعدهم الله عن الهدى، فلم يؤمن منهم إلا قليل، كعبدالله بن سلام وأصحابه.

الفوائد والاستنباطات :

١ - ينبغي للمصلِّي أن يتحرَّز عما يُلهيه، ويشغل قلبه وفكره.

٢ - استدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت.

٣ - اختيار ﴿لَا تَقْرَبُواْ﴾ دون (لا تصلوا) للإشارة إلى أنَّ تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام.

٤ - مشروعية التيمم بالصعيد الطيب، وهو كلُّ ما تصاعد على وجه الأرض سواء أكان له غبار أم لا.

٥ - من صفات الله العفو والمغفرة، ومن عفوه ومغفرته أَنْ رَحِمَ هذه الأُمة، فشَرَعَ طهارة التراب بدل الماء، عند تَعَذُّر استعماله.

٦ - الحذر الشديد من الركون إلى اليهود؛ لإرادتهم إضلالَ المؤمنين، والتلبيس عليهم؛ لكي يخرجوا عن الإسلام.

٧ - ليس ثمة أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين الضلال والإضلال؛ لأنَّ ضلاله متعدٍّ.

٨ - الله تعالى وليُّ المسلمين وناصرهم، ومَنْ كان الله ولياً وناصراً له لم تَضُرَّه عداوة الخلق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير :

٤٧ - خاطب ﷻ من يُرجى إيمانه من اليهود والنصارى: أن آمِنُوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزلنا عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها، من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحو الوجوه، ونُحَوِّلها قِبَلَ الأقفاء، أو نلعنكم بمَسْخكم قردةً وخنازير، كما لَعَنَّا اليهود مِن أصحاب السبت، الذين نُهُوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته. وكان أمر الله نافذاً في كل حال لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ.

٤٨ - ولما بَيَّن سبحانه أنَّ الوعيد واقع لا محالة، ذَكَرَ أنَّ هذا الوعيد وهذا التهديد لجريمة الكفر، فإنَّه سبحانه لا يغفر الشرك ممَّنْ اتصف به بلا توبة وإيمان، ويغفر ما دون الشرك في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، تَفَضُّلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة عنها، لكن لا لكل أحد بل للمؤمنين. ومَنْ أعظم جرماً وافتراء ممَّنْ سَوَّى بين المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه؟

٤٩ - ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، ومُنْكِراً على اليهود تزكيةَ أنفسهم: انظر - يا محمد - إلى تزكيتهم أنفسهم بالباطل إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما التزكية تكون بالإيمان والعمل الصالح، وقد حُرِمُوها بكفرهم وظلمهم، فالله ﷻ لم يظلمهم شيئاً، ولو كان مقدار الفتيل الذي في شق النواة.

٥٠ - ولما أخبر تعالى أنَّ التزكية إنما هي إليه سبحانه بما له من العظمة والعلم الشامل، قال مخاطباً رسوله ﷺ: انظر - يا محمد - إلى كذبهم، وزعمهم أنَّهم أبناء الله وأزكياء عنده. وكفى بذلك وحده إثماً، ولو لم يكن لهم من الذنوب إلا هذا الافتراء لكان إثماً عظيماً.

٥١ - ثم انظر - يا محمد ﷺ - إلى قبائح اليهود فقد آمنوا وصدقوا، بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك قالوا: إنَّ دين المشركين خير من دين محمد ومَنْ معه، وإنَّ

المشركين أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ﷺ، ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود. إنَّه موقفهم دائماً من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل. إنَّهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم، إنَّما يجدون العون والنصرة دائماً عند الباطل وأهله.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجزاء من جنس العمل؛ كما تركوا الحق، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جُوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم، كما طَمَسُوا الحق.

٢- الآية (٤٨) من أجَلِّ الآيات؛ لأنَّها تُؤْذِنُ بأنَّ ما دون الشرك من الذنب مغفور بحسب المشيئة والوعد المعلَّق بالمشيئة من الكريم المحقق الإنجاز، ولاسيَّما لعباده الموحِّدين المخلِصين.

٣- دَلَّت الآيات على عظم جريمة الشرك، وأنَّه لا مغفرة له إذا مات صاحبه عليه.

٤- كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى: إن شاء عفا عن ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى.

٥- المُزَكِّي هو الله تعالى، وأنه تعالى هو المعتدُّ بتزكيته، إذ هو العالم ببواطن الأشياء، والمطَّلع على خفياتها.

٦- التحذير من إعجاب المرء بعمله.

٧- إنَّ الله لا يظلم الناس، ولو بمقدار الفتيل الذي في شق النواة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

التفسير:

٥٢- ثم أخبر سبحانه بجزاء اليهود على أفعالهم الشنيعة، أن أبعدهم الله تعالى من رحمته، وأحلَّ عليهم نقمته. ومَنْ يكن هذا مصيره فلن تجد له من دون الله نصيراً في الدنيا والآخرة.

٥٣- ولما وصف سبحانه اليهود بالجهل الشديد، وهو اعتقادهم أنَّ عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى، وصفهم بأنه لا حَظَّ لهم من المُلك؛ لظلمهم وطغيانهم وبَخْلهم، وحبِّهم أنفسهم دون غيرهم؛ ولأنَّ الملك والبخل لا يجتمعان.

٥٤- ثم وَبَّخهم الله تعالى على الحسد الذي هو أسوأ من البخل، فهم يتمنون أن يكون الخير كله بأيديهم، ويريدون قَصْرَ فضل الله عليهم، ولا يحبُّون أن يكون لأُمة فضل ممَّا لهم؛ لذا حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضل النُّبوة والعلم، وزعامة الدولة ورئاسة الحكم، وكثرة الأعوان والأنصار.

٥٥- ثم بَيَّنَ الله تعالى ما يدفع ذلك الحسد، ويقلل من أهمية الأشياء التي حسدوا عليها محمداً ﷺ، فهم إن يحسدوه على ما أوتي، فقد أخطؤوا؛ إذ له نظائر وأمثال كثيرة، وهي أنَّه تعالى آتى مثل هذا لآل إبراهيم، والعرب منهم؛ لأنَّهم من ذريَّة ولده إسماعيل، وآتاهم الله الكتاب الإلهي المشتمل على تشريع الأحكام، والحكمة التي هي فهم أسرار التشريع، والملك العظيم في أبنائه وذريته، وأولئك الأنبياء كإبراهيم وذريته بالرغم من اختصاصهم بالنُّبوة وإيتائهم الملك، لم تُؤْمِنْ أُممهم جميعاً برسالتهم، بل منهم مَنْ آمن بهم، ومنهم مَنْ أعرض وظَلَّ على كفره، فلا تعجب - يا محمد ﷺ - من موقف قومك، فهذه سُنَّةُ الله في الأُمم مع أنبيائهم، وإن لم يصبهم عذاب في الدنيا، فكفاهم عذاب جهنم في النار المسعَّرة الشديدة اللَّظى، وبئس المصير.

٥٦- ولما ذكر قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُ﴾ أتبع ذلك بما أعدَّه للكافرين بآياته، بأنَّه سيصليهم ناراً عظيمة الوقود شديدة الحرارة، كلما احترقت جلودهم بَدَّلها جلوداً غيرها؛ ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع،

فكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفاً لهم وسَجِيَّة؛ كرر عليهم العذاب جزاء وِفاقاً، ثم ختم الآية بصفتين هما العزة والحكمة، فهو عزيز لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، حكيم لا يعذب إلا بعدلٍ مَنْ يستحقه.

٥٧- ولما ذكر تعالى وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين على سبيل المقابلة، وزيادة الحسرة على الكافرين، فقال: والذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا صالح الأعمال، سيدخلهم ربُّهم سريعاً جنَّات تجري من تحتها الأنهار، يتمتعون فيها بالنعيم الدائم، وهم خالدون فيها أبداً، لا يَحُولون ولا يَزُولون، ولا يبغون عنها حِوَلاً، فلا ملل ولا سأم ولا ضجر؛ جزاء لعملهم الصالح، ولهم أزواج بريئات من العيوب الجسدية والخلقية أو الطباع الرَّديئة، فليس فيهنَّ ما يعكر المزاج، أو يكدر الصَّفْوَ، ونجعلهم في مكان ظليل، لا حَرَّ فيه ولا برد، وتلك نعمة كاملة، ونعيم دائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- اليهود قوم مغرورون مخدوعون، يظنون أنَّ فضل الله مقصور عليهم، ورحمته لا تتعداهم، ولا يستحقها غيرهم.

٢- عبَّرعن جزاء الكافرين بـ ﴿ سَوْفَ ﴾ وعن ثواب المؤمنين بالسين؛ ليفيد تحقق الثواب بسرعة ويقين، ويبيِّن بعد العقاب المنتظر للكافرين؛ لأنَّهم في أهوال المحشر قد يكونون في عذابٍ أشدَّ من عذاب النَّار.

٣- البخل والحسد أسوأ أخلاق اليهود، والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

التفسير :

٥٨- لما ذكر سبحانه وَعْدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجَّهَهُم لعملين من الأعمال الصالحة هما أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل، والخطاب لكل مُؤْتَمَنٍ على أيِّ حقٍّ لله تعالى أو لعباده، ولاياتٍ أو أموالٍ أو غيرها. ثم مدح الله أوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودَفْعِ مَضارِّها؛ لأنَّ شارعَها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

٥٩- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ. (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، برقم ٤٥٨٤).

التفسير:

ولما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية، أَمَرَ الرعية بطاعة الولاة قال: أطيعوا الله فيما شرع، وأطيعوا الرسول فيما أمر، وأطيعوا كلَّ مَنْ ولي أمراً من أمور المسلمين ولاية صحيحة، فإن اختلفتم أنتم وأولو

الأمر في شيء من أمور الدين فارْجِعُوا فيه إلى الكتاب والسنة؛ فإنَّ هذا من لوازم الإيمان، وذلك أحسن عاقبةً لكم في الدنيا والآخرة.

٦٠-٦٣- ولما أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، ذكر أنه يَعْجَبُ تعالى من حال المنافقين الذين يَدَّعُون الإيمان، ويريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، وهذا من إضلال الشيطان لهم. وإذا قيل لهم: تعالَوا إلى حكم الله ورسوله، رأيتهم يعرضون إعراضاً، وإذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول في أوقات السلامة على هذه الحال، فكيف يكون حالهم في شدة الغمِّ والحسرة إذا أَتَوا بجناية خافوا بسببها منك، ثم جاؤوك شاؤوا أم أبَوا، ويحلفون بالله على سبيل الكذب: ما أَرَدْنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والغيظ والعداوة، وسيجازيهم بها يعلم. فأَعْرِضْ عن معاتبتهم، وقبول أيمانهم وأعذارهم، وخَوِّفْهم بعذاب الله وازْجُرْهم، وأَنْكِرْ عليهم أن يعودوا لمثل ما فعلوا.

٦٤-٦٥- سبب النزول:

عَنْ عُرْوَةَ ﷺ قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ أَرْسِلْ. فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: إِنَّهُ ابْنُ عَمَّتِكَ. فَقَالَ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ يَبْلُغُ الماءُ الْـجَدْرَ ثُمَّ أَمْسِكْ. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: فَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

(صحيح البخاري: باب شرب الأعلى قبل الأسفل، برقم ٢٣٦١).

التفسير:

ثم حَثَّ سبحانه على طاعة الرسول ﷺ فقال: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بتوفيقنا وإعانتنا. ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم بسخطهم لقضائك، أو بتحاكمهم إلى غير حكم الله تعالى، جاؤوك فاستغفروا الله بالإخلاص، واعتذروا إليك، وشفعت لهم في غفران ذنوبهم، لَتاب عليهم، ورَحِمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة إنَّهم لا يؤمنون حتى يُحَكِّموا رسوله في كل أمر وقع بينهم فيه نزاع وتَجاذُب، من غير حَرَج يصرفهم عن تحكيمه، أو يسخطهم من حكمه بعد تحكيمه، ثم يُسَلِّموا لحكمه تسليماً بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأمانة و العدل من أسس الحكم الراشد في الإسلام، إذا قام بهما الحاكم دامت دولته، وجمع عليه قلوب رعيته.

٢- قيَّد الأمر بالعدل بحالة التصدِّي للحكم بين الناس، وأطلق الأمر بِرَدِّ الأمانات إلى أهلها عن التقييد؛ لأنَّ كل أَحَد لا يخلو من أن تقع بيده أمانةٌ لغيره، بخلاف العدل فإنَّما يؤمر به ولاة الحكم بين الناس، وليس كل أَحَد أهلاً لتولِّي ذلك.

٣- طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحقَّ.

٤- في الآيات دليل على أنَّ مقترف المعاصي يُنْصَح سراً، ويبالَغُ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

٥- مَنْ رَدَّ شيئاً من أوامر الله، أو أوامر الرسول ﷺ، فهو خارج عن الإسلام، سواء كان رَدُّه من جهة الشك، أو من جهة التمرد.

٦- في الآيات دليل على أنَّه لا رسول إلا ومعه شريعة؛ ليكونَ مُطاعاً في تلك الشريعة، ومتبوعاً فيها.

٧- عصمة الرسل فيما يُبَلِّغونه عن الله، وفيما يأمرون به، ويَنْهَون عنه؛ لأنَّ الله أمر بطاعتهم مطلقاً.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾

التفسير:

٦٦-٦٨- ثم وَبَّخَ سبحانه المنافقين توبيخاً عظيماً على عصيانهم، فقد ذكر أنَّه لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم، أو بقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما فرض ذلك على بني إسرائيل حين استُتِيبوا من عبادة العجل، لم يُطِعْ منهم إلا القليل. ولو أنَّهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما يُنْهَون عنه، لَكان خَيْراً لهم من مخالفة الأمر وارتكاب النهي وأشد تصديقاً، ولَرزقناهم من فضلنا الجنة، ولأرشدناهم إلى دين الإسلام حقاً.

٦٩-٧٠- ومَنْ عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإنَّ الله ﷻ يُسْكِنُه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء الذين فضَّلهم الله بوحيه، واختصَّهم بدعوة خلقه، ثم الصِّديقين الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصَدَّقوه بيقينهم، والشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا، وعموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. وإنَّما

استحقوا هذه المنازل بفضل الله، فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ومع استوائهم معهم في الجنة فهم متباينون في المنازل. والتذييل بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ للإشارة إلى أن الذين تَلَبَّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم الناس، فإنَّ الله يعلمهم والجزاء بيده، فهو يُوَفِّيهم الجزاء على قَدْرِ ما عَلِمَ منهم.

الفوائد والاستنباطات :

١ - في الآيات دليل على صعوبة الخروج من الديار؛ إذ قرنه الله تعالى بقَتْلِ الأنفس.

٢ - قوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ ﴾ في نسبة إصابة الفضل إلى جانب الله تعالى دون إصابة المصيبة، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى.

٣- بيان فضل طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

٤- جواز عطف الرسول على الربِّ تعالى بالواو في الطاعة.

٥- في الآية (٦٩) الترتيب من الأعلى إلى الأدنى، فالنبي أفضل من الصدِّيق، والصدِّيق أفضل من الشهيد، وهكذا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٧١- لما رغَّب الله المؤمنين في طاعته وطاعة رسوله، رَغَّبَهم في أعظم الطاعات التي يحصل بها تقوية الدين وهو الجهاد، فأمرهم باليقظة والاحتراز من العدو، وأَخْذِ التأهب والاستعداد لملاقاته بجميع الأسباب، التي بها يُستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، وعدم تمكينه من أنفسهم، والخروج لجهاد عدوهم في جماعات متفرقة سَرِيَّةً بعد سَرِيَّةٍ إلى جهات شتى، أو مجتمعين كوكبة واحدة، ولا يتخاذلون، فيُلْقُوا بأنفسهم إلى التهلكة.

٧٢- ٧٣- ثم أخبر عن ضرورة أَخْذِ الحَذَرِ من المعوِّقين المبطِّئين المخذِّلين المندسِّين في الصف، الذين يتثاقلون عن الجهاد ويُثَقِّلون غيرهم، فإن أصاب المؤمنين قتلٌ وهزيمة فرحوا بقعودهم، حامدين الله على نجاتهم ممَّا أصاب المؤمنين من البلاء والشدة والشهادة، ولئن أصاب المؤمنين فتح وغنيمة تمنَّوا أن يكونوا معهم، فتتحقق لهم المغانم. ليس لهم رغبة ولا قصد غير ذلك، كأنَّهم ليسوا منكم يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينهم مودة الإيمان.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب النفير إذا دعا الإمام لمواجهة العدو.

٢- ذم التباطؤ من مواجهة العدو.

٣- مقتضى مودة الإيمان أنَّ المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودَفْعِ مَضارِّهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها.

٤- أَخْذُ الحَذَرِ بالتحرُّز من العدو، وإعداد الأسلحة اللازمة لمواجهته هو من التوكل على الله.

٥- وجوب النهوض لقتال العدو، إذا دعا الإمام الناس إلى النفير لقتال العدو، على وَفْقِ ما يرى القائد الحربي من مصلحة، معتمداً على استطلاع أحوال العدو واستعداداته، واحتمالات تطور المعركة.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٤- لما ذَمَّ المبطِّئين في الجهاد عاد إلى الترغيب فيه، فقال: فلْيقاتل في سبيل الله مَن أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبذلها، ويجعل الآخرة ثمناً لها وعوضاً منها، لأنَّه يكون قد أعزَّ دين الله وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. ومَن يقاتل في سبيله فيظفر به عدوه، أو يظفر هو بعدوه، فإنَّ الله سيؤتيه أجراً عظيماً من عنده خالداً أبداً في دار كرامته.

٧٥-٧٦- ثم حَثَّ الله المؤمنين على استنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين ليس لهم القوة والمنعة، من الظلم الذي نالهم من أعدائهم، إذ كانوا يُعَذِّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، فيلجؤون إلى الدعاء والاستنصار بالله تعالى أن يجعل لهم ولياً ونصيراً. فاستجاب الله دعوتهم، فجعل لهم من لدنه خيرَ وليٍّ وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولَّاهم أحسنَ التولِّي، ونَصَرَهم أقوى النصر.

ثم بَيَّنَ سبحانه أقسام المقاتلين فقال: إنَّ المؤمنين يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق، والكافرين يقاتلون اتباعاً لوسوسة الشيطان وتزييناً للكفر، ثم حَثَّهم مرةً أخرى على القتال، وبَيَّنَ لهم ضَعْفَ عدوِّهم، فقال: فقاتلوا أولياء الشيطان؛ فإنَّكم تغلبونهم لقوتكم بالله، وكيد الشيطان ضعيف، فلا يُقاوِمُ نَصْرَ الله وتأييده، وشتان بين عزمٍ يرجع إلى إيمان بالله، وما وعد به على الجهاد، وعزمٍ يرجع إلى غرور وأمانيَّ كاذبة.

٧٧- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَأَصْحَاباً لَهُ، أَتَوا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلاَ تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ ﴾.

(سنن النسائي، باب وجوب الجهاد، برقم ٣٠٨٦، قال الألباني: صحيح الإسناد).

التفسير:

يعتب الله على بعض الصحابة موقفهم من الجهاد في سبيله، مخاطباً رسوله ﷺ من ذلك بأسلوب التعجب: ألم تعلم خبر الذين طلبوا القتال وهم في (مكة) فقيل لهم: أمْسِكوا عنه فلم يَحِنْ وقتُه، وأعِدُّوا أنفسكم بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين، فلمَّا فُرِضَ عليهم قتال المشركين، إذا طائفة منهم يبالغون في الخوف من المشركين، كخوفهم من الله أو أشد، وأفصحوا عَمَّا في نفوسهم من الخوف فقالوا: يا ربنا لِمَ فرضت علينا القتال؟ هَلَّا أمهَلْتنا عن الأمر بالقتال إلى وقت قريب؛ لنأخذ راحة مِمَّا كنَّا فيه من الجهد والمشقة مع كفَّار مكة؟ أجبهم يا محمَّد: ما تنشدونه هو متاع الدنيا، وهو قليل زائل، وثواب الآخرة خير عظيم لِـمَنْ خاف الله بطاعته، ولا تُنْقَصون من أعمالكم أيَّ شيء مهما كان قليلاً.

٧٨- يُوَضِّح الله تعالى لهم منهج الإيمان بالقدر: في أيِّ مكان عِشْتُمْ فإنَّ الموت ملاقيكم، ولو كنتم في قصور محصَّنة، وإن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن نزلت بهم مصيبة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، أجِبْهم بأنَّ كل ذلك ابتلاء من الله بالخير والشر، فما شأن هؤلاء لا يكادون يفهمون أي حديث؟

الفوائد والاستنباطات:

١- ينبغي للمقاتل في سبيل الله أن يُوَطِّن نفسه على أحد الأمرين: إما أن يقتله العدو، ويكرم نفسه بالشهادة ، وإما أن يَظْفَرَ به فيعزَّ كلمة الحق والدين.

٢- ذكر اللهُ الوِلْدان مبالغة في شرح ظلم الظالمين، فقد بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأُمهاتهم، ومبغضة لهم بمكانهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما وردت السُّنة بإخراجهم في الاستسقاء.

٣- ينبغي للمجاهد في سبيل الله أن يَتَحَلَّى بأعلى مراتب الصبر والجَلَد، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحقِّ أولى بذلك.

٤- أكَّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ و﴿كَانَ﴾ الدالة على تقرر وصف الضعف لكيد الشيطان، مع اسمية الجملة؛ لتقرير هذا المعنى في النفوس، ممَّا يزيد المؤمنين قوةً وثباتاً في مواجهة أولياء الشيطان.

٥- سلك القرآن في الحثِّ على الجهاد في سبيل الله مسالك متنوعة منها: الترغيب في فضله وثوابه، والترهيب من عقوبة تركه، والإخبار أنَّه لا ينفع القاعدين قعودُهم.

٦- في قوله تعالى:﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنَّهم جمعوا إلى الإخلال بتعظيمهم لله تعالى، الإخلال بالأدب مع الرسول ﷺ الذي أرسله ليُطاع بإذن الله.

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٩- ما أصابك من حسنةٍ فمِنْ فَضْلِ الله ورحمته ولطفه وتوفيقه، حتى تسلك سبيل النجاة والخير، وما أصابك من سيئةٍ فمن قِبَلِك ومن عملك أنت؛ لأنَّك لم تسلك سبيل العقل والحكمة والاسترشاد بقواعد الهداية الإلهية. وبعثناك يا محمد رسولَ رحمة للعالمين، وحسبك أن يكون الله شهيداً على صدقك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تُبَلِّغهم إياه، وبما يَرُدُّون عليك من الحق كفراً وعناداً.

٨٠- ثم قال مُرَغِّباً مُرَهِّباً ليُسكن قلبه ﷺ، ويخفف من دوام عصيانهم له، دالّاً على عصمته في جميع حركاته وسكناته: مَنْ يُطِعِ الرسول لكونه رسولاً مبلِّغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله، وذلك لا يكون إلا بتوفيق الله، ومَنْ تَوَلَّى فما أرسلناك عليهم لتحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلِّغاً ومبيِّناً وناصحاً.

٨١- فهؤلاء المنافقون يُظْهِرون لك الطاعة إذا كانوا عندك، فإذا خرجوا وخَلَوا إلى حالة لا يُطَّلَع فيها عليهم، بَيَّتوا ودَبَّروا مَكْرَ طواغيتهم، واللهُ يحفظُ عليهم ما يُدَبِّرون، وسيجازيهم عليه أتَمَّ الجزاء. ثم وجَّه سبحانه الخطاب لرسوله ﷺ، فقال: لا تُحَدِّث نفسك بالانتقام منهم، و لا تخبر بأسمائهم، ولا تَخَفْ منهم، وتَوَكَّلْ في شأنهم وغيره على الذي لا يخرج شيء عن مراده، المحيط علماً وقدرة. وكفى به وليّاً وناصراً ومُعيناً لِـمَنْ تَوَكَّل عليه، وأناب إليه.

٨٢- يقول تعالى آمراً عباده بتدبُّر القرآن: أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي، فلا يعرضون عنه؟ ففي تَدَبُّره يظهر برهانه، ويَسْطع نوره، فكل مَنْ نظر في معانيه وجد فيه التناسق والصدق والكمال، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لَوَجَدوا فيه الاختلاف والكذب والقصور.

٨٣- قال تعالى منكراً على مَنْ يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويُفْشيها وينشرها: إنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة يتعلق بالأمن وسرورللمؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يَرُدُّونه إلى الرسول وإلى أهلِ الرأي والعلم ورجاحة العقل، الذين يبصرون الأمور، ويُدْرِكُون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرُّزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك. وإن رأوا أنَّه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مَضَرَّته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه. ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته بالرسول ووُرَّاثِ علمه لاسْتُبيحت بإشاعاتهم هذه بيضةُ الدين، واضمحَلَّت أمور المسلمين؛ ولاتَّبعتم الشيطان إلا قليلاً منكم، فإنَّهم لا يَتَّبِعونه حِفْظاً من الله ﷻ بما وَهَبَهم من الثبات على الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تَدَبُّر القرآن؛ لأنَّه مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، ويزداد الإيمان في القلب وترسخُ شجرتُه، وكلما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة.

٢- الدعوة إلى النظر والاستدلال.

٣- وجوب تَعَلُّم معاني القرآن.

٤- ينبغي أن يُولَّى في التباحث في الأحداث العظام والنوازل الجسام، مَنْ هو أهلٌ لها، فإنَّه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

٥- وجوب التثبت من الأخبار قبل روايتها وحكايتها، وضرورة الرقابة العامة على الأخبار المعلنة، حفاظاً على أسرار الأمة ووحدتها، والعمل على إبقائها قوية متماسكة متعاضدة، لا تتأثر بالدعايات الكاذبة والإشاعات المغرضة.

٦- دَلَّ قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الاستنباط واجب على العلماء.

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير :

٨٤ - ولما بَيَّنَ ﷻ نفاقهم المقتضي لتقاعدهم عن الجهاد بأنفسهم، وتثبيطهم لغيرهم، كان ذلك سبباً لأن يمضي الرسول ﷺ لأمره ﷻ من غير التفات إليهم وافقوا أو نافقوا، فقال ﷻ: فقاتِلْ يا محمد في سبيل الله الذين يقاتلونك ولو أفردوك وتركوك وحدك، لطالما أردتَ الظفر على الأعداء، لا تُكَلَّفُ غير نفسك وحدها أن تُقَدِّمَها إلى الجهاد، فإنَّ الله ناصرك، فإن شاء نصرك وحدك، كما ينصرُك وحولك الألوف، وما عليك إلا التحريض على القتال. عسى الله أن يَرُدَّ بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً، شدةَ الذين كفروا وقوتهم. والله أشدُّ قوة وعزة، وأشد تعذيباً ومعاقبة، وهو قادر عليهم في الدنيا والآخرة؛ لكفرهم وجرأتهم على الحق.

٨٥- مَنْ يَسْعَ في أمر، فيترتب عليه خير، كان له نصيب منه بانتصار الحق على الباطل، وما يتبعه من شرف وغنيمة في الدنيا، وبما يحظى به من الثواب في الآخرة. ومَن يَسْعَ في سيئة يكن عليه وِزْرٌ ممَّا ترتَّب على سعيه ونيته. والله تعالى مطلع عالم بأغراض الشفعاء، مُجازٍ كلَّ واحد بحسب مقصده، وبما يستحق.

٨٦- ثم عَلَّمَ الله المؤمنين التحية وآدابها، وهي كالشفاعة الحسنة من أسباب التواصل والتقارب بين الناس، فقال: فإذا سَلَّم عليكم المسلم، فالواجب الردُّ عليه بأفضلَ ممَّا سَلَّم، أو الردُّ عليه بمثل ما سَلَّم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. والله يحفظ على العباد أعمالهم، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فَضْلُه وعَدْلُه وحكمه المحمود.

٨٧- لما ذكر أنَّ الله كان على كل شيء حسيباً، تلاه بالإعلام عن محلِّ الحساب وهو يوم القيامة، فقال: الله لا إله إلا هو، فلا تُقَصِّروا في عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإنَّ في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم، وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة، وهو يوم لا ريب فيه، ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال. ولا أحدَ أصدقُ منه كلاماً ﷻ، إذ كلامُه تعالى عن علمٍ محيطٍ بسائر الكائنات، فلا يمكن أن يكون خبرُه غيرَ صادق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحريض على القتال في سبيل الله من قبيل الشفاعة الحسنة، وتثبيط الناس عن الجهاد من قبيل الشفاعة السيئة.

٢ - الترغيب في التحية والسلام على مَنْ عَرَفْتَ، ومَنْ لم تَعْرِفْ .

٣ - ذكر آية السلام بعد آية الجهاد إشارة إلى أن مَنْ بذل السلام وَجَبَ الكفُّ عنه، ولو كان في الحرب.

٤ - التوحيد والعدل متلازمان فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إشارة إلى العدل.

٥ - الشفاعة الحسنة تكون فيما استحسنه الشرع، والشفاعة السيئة تكون فيما كرهه، أو حرَّمه.

٦ - القرآن كلام الله؛ لأنَّه وحي منه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أمَّا كلام غير الله وغير النبي ﷺ فمحتمل للصدق والكذب عمداً أو سهواً أو جهلاً.

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

٨٨- سبب النزول:

عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قال: لَـمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إلى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لا نَقْتُلُهُمْ فَنَزَلَتْ: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحَدِيدِ. (صحيح البخاري، بَاب المَدِينَةُ تَنْفِي الخَبَثَ، برقم ١٨٨٤).

التفسير:

قال تعالى مُبَكِّتاً لِـمَنْ توقف عن الجزم بتكفير المنافقين، والتردُّد في أمرهم، وتقسيمهم فئتين، مع أنَّ دلائل كفرهم ظاهرة جلية: ما لكم أيها المؤمنون، قد صِرْتم في المنافقين فئتين، واختلفتم في كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه؟ فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته، والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك، واجترحوا من المعاصي، فليس في استطاعتكم أن تُبَدِّلوا سُنَنَ الله في نفوس الناس، فتريدوا أن تحْصُلوا على مقاصدَ وغايات خلاف ما انطبع فيها من الأخلاق

والصفات، بتأثير ما كسبته طوال عمرها من الأعمال، ومَنْ تَقْضِ سُنَنُه في خَلْقِه أن يكون ضالّاً عن طريق الحقِّ فلن تجد له سبيلاً يصل بسلوكها إليه، فإنَّ للحق سبيلاً واحدة هي صراط الفطرة المستقيم.

٨٩- ولما أخبر بضَلالهم وثباتهم عليه، أخبر بما يجول في صدورهم من أمانيَّ فقال: إنَّ هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغَواية، بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم، وتحذوا حَذْوَهم حتى يُقضى على الإسلام الذي أنتم عليه، فأنتم ترجون هدايتهم، وهم يَوَدُّون كفركم وضلالكم، ثم أمرهم بالبراءة منهم فقال: فلا تتخذوا منهم أنصاراً يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا، ويشاركوكم في سائر شؤونكم. فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله، ولزموا مواضعهم في خارج المدينة، فخذوهم إذا قدرتم عليهم، واقتلوهم أينما وجدتموهم في الحِلِّ أو في الحرم، ولا تتخذوا منهم ولياً يتولَّى شيئاً من مهامِّ أموركم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم.

٩٠- ثم استثنى من المنافقين مَنْ تُؤْمَنُ غائلتهم، فقال: إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون في عهدهم، ويرضون بحكمهم فيمتنع قتالهم مثلهم، أو جاؤوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم، فلا تنشرح لأحد الأمرين. إنَّ الله تعالى رحمكم بأن كفَّ بأس هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم، وقذف الرعب في قلوبهم، ولو شاء لَسَلَّطهم عليكم بأن يلهمهم من الآراء، ويسوق إليهم من الأخبار ما به يرجِّحون ذلك فيقاتلوكم، فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقاتلكم، بل ألقت إليكم السَّلَم، وأعطتكم زمام أمرها، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها.

٩١- ثم بَيَّنَ سبحانه حال جماعة منهم ، وبالغ في ذَمِّهم فقال: هؤلاء فريق ممَّنْ لم يهتدوا بالإسلام، ولم يتصدوا لمجالدة أهله وقتالهم، فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين، فهم قد غَلَبَتْ عليهم أرواحهم، ورَخُصَتْ عليهم عقولهم، يظهرون لكل من الفئتين أنَّهم منهم أو معهم، كلما دَعَوا إلى الشرك، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين، إما بإظهار الإسلام، وإما بالعهد على السلم وترك القتال، ثم يفتنهم المشركون، فيحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين، فيرتكسون ويتحوَّلون شر التحول معهم، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة، فهم قد شَبُّوا على النفاق، فإن لم يتركوكم وشأنكم، ويلتزموا الحياد، ويُلْقُوا إليكم زمام المسالمة على الطريق التي ترونها نافعة لكم، ويَكُفُّوا أيديهم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، فلا علاج لهم غير ذلك، كما ثبت بالتجربة والاختبار، وأولئكم جعلنا لكم عليهم حجة واضحة، وبرهاناً ظاهراً على قتالهم.

٩٢- وبعد أن بَيَّنَ سبحانه أحكام قتال المنافقين الذين يُظْهرون الإسلام خداعاً، ويُسِرُّون الكفر، ويساعدون أهله على قتال المؤمنين، والذين يُعاهِدُون المسلمين على السِّلْمِ، ويحالفونهم على الولاء والنصرة، ثم يَغْدِرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم، ذَكَرَ هنا قَتْلَ مَنْ لا يَحِلُّ قَتْلُه من المؤمنين، فقال: ليس من شأن المؤمن ولا من خُلُقه أن يقتل أحداً من المؤمنين؛ إذ الإيمان يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، لكنه قد يفعل ذلك بدون قصد، فإذا وقع منه ذلك فكفارته عِتْقُ رقبة من أهل الإيمان؛ لأنَّه لما أعدم نفساً مؤمنة كانت كفارته أن يُحَرِّر نفساً، وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول، إلا أن يعفوا عنها ويُسقطوها باختيارهم؛ لأنَّها إنَّما وجدت تطييباً لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل، وتعويضاً عمَّا يفوتهم من المنفعة بقتله، فإذا هم عَفَوا فقد طابت نفوسهم وانتفى المحذور، وكانوا هم ذوي الفضل على القاتل. فإن كان المقتول من أعدائكم، فالواجب على قاتله عِتْقُ رقبة من أهل الإيمان فقط، ولا تجب الدية لأهله لأنَّهم أعداء يحاربون المسلمين، فلا يُعْطَون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم. فمَنْ لم يجد رقبة يعتقها فعليه صيام شهرين متتابعين قمريين لا يفصل بين يومين منهما إفطار في النهار، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي استأنفه، وكان ما صامه قبلُ كأن لم يكن، تَوْبَةً مِنَ اللهِ شرعها لكم؛ ليتوبَ عليكم ويُطَهِّرَ نفوسكم من التهاون، وقلة التحرِّي التي تُفْضي إلى القتل الخطأ. وكان الله عليماً بأحوال النفوس وما يُطَهِّرها، حكيماً فيما شرعه من الأحكام والآداب التي فيها هدايتكم وإرشادكم إلى سعادتكم في الدنيا والآخرة.

٩٣- ثم لما بَيَّنَ تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: ومَنْ يَعْتَدِ على مؤمن، فيقتله عن عمد بغير حق، فعاقِبَتُه جهنم، ماكثاً فيها على حسب جنايته، مع سخط الله تعالى عليه وطَرْدِه من رحمته، وتهيئة أشد العذاب له، ولكن الله يتفضَّل على أهل الإيمان بعدم الخلود في النار.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إنَّ القَتْلَ بغير حقٍّ من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

٢ - عبَّر في جانب محاولة المؤمنين بالإرادة في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وفي جانب محاولة المنافقين بالود ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾؛ لأنَّ الإرادة ينشأ عنها الفعل، فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان من المنافقين، لأنَّ الإيمان قريب من فطرة الناس، والمنافقون يعلمون أنَّ المؤمنين لا يَرْتَدُّون عن دينهم، ويرون منهم محبتهم إياه، فلم يكن طَلَبُهم تكفيرَ المؤمنين إلا تمنِّياً، فعبر عنه بالود المجرد.

٣- مَنْ صدر منه شيء يحتمل الكفر لا يؤاخذ به حتى يتقدم له، ويعرف بما صدر منه، ويعذر إليه، فإن التزمه يؤاخذ به، ثم يستتاب.

٤- هَوَّل الله تعالى أَمْرَ قَتْلِ المسلم أخاه المسلم، وجَعَلَه في حيِّزٍ ما لا يكون، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود.

٥- من أسرار الشريعة الإسلامية حِرْصُها على تعميم الحرية في الإسلام بطريقة منتظمة، منها كفارة القتل؛ وقد نَبَّهَتْ الشريعة لهذا على أنَّ الحرية حياة، وأنَّ العبودية موت، فمَنْ تَسَبَّبَ في موت نفسٍ حيَّة كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة.

٦- تحريم قتالِ المُنْضَمِّين إلى المعاهدين الذين تعاهدوا مع المسلمين وقَتْلِهم، وكذا المحايدون الذين وقفوا على الحياد، فلم يقاتلوا المسلمين، ولم يقاتلوا قومهم.

٧- دَلَّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ على مشروعية الموادعة (الهدنة) بين أهل الحرب وأهل الإسلام، إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين.

٨- دَلَّ قوله تعالى : ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ على جواز العفو عن الدِّية والتصدُّق.

٩- أجمع العلماء على أنَّ دية المرأة على النصف من دية الرجل؛ لأنَّ لها نصف الميراث، وشهادتها نصف شهادة الرجل. (التفسير المنير للزحيلي : ٥/ ٢١٠).

١٠-صيام شهرين متتابعين لِـمَنْ لم يجد الرَّقبة ولم يتَّسع ماله لشرائها، فلو أفطر يوماً بلا عذر استأنف. وهذا قول الجمهور. فإن وُجِد عُذْرٌ كالحيض، أو مرض، لم يستأنف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٤- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: لَقِي نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلاً فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ. فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾.

(صحيح مسلم، كتاب التفسير، برقم ٢٧٦٦).

التفسير:

ولا تقولوا لِـمَنْ انقاد لكم، واستسلم ولم يقاتلكم، وأظهر أنه من أهل مِلَّتِكم: إنك لست بمؤمن حقاً، فتقتلونه ابتغاء متاع الدنيا، وحطامها الزائلِ، السريعِ التحولِ والانتقال، فعند الله أرزاق كثيرة ونِعَمٌ لا تحصى ولا تُعَدُّ، يُغَنِّمكموها فيغنيكم إذا شاء، فإنَّكم أولَ ما دخلتم في الإسلام حُقِنَتْ دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة من غير انتظار لمعرفة أنَّ ما في القلب موافق لما في اللسان، ومَنَّ الله عليكم بذلك، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم، وأن تعتبروا بظاهر القول، ولا تقولوا إن إقدامهم على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف، فكونوا على بَيِّنة من الأمر الذي تقدمون عليه، ولا تأخذوا بالظن. إنَّ الله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء من البواعث التي حَفَزَتْكم على الفعل.

٩٥-٩٦- يخبر الله تعالى عن عدم التساوي بين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين – غير أصحاب الأعذار، كالمريض والأعمى والعجوز – والمقاتلون في سبيل الله بالأموال والأنفس، فَضَّل الله المجاهدين على القاعدين درجة عالية في الجنَّة، وكُلَّاً من الفريقين: المجاهدين والقاعدين وعده الله الجنَّة،

وفَضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين لما بذلوا من التضحية بالنفس والمال ثواباً جزيلاً. وهذا الثواب منازل عالية في الجنَّة من فضل الله، وتكفير لذنوبهم، ورحمة واسعة ينعمون فيها. وكان الله غفوراً لِـمَنْ تاب، رحيماً بعباده.

٩٧- ٩٩- سبب النزول:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾. (صحيح البخاري، كتاب الوحي، برقم ٤٥٦٩).

التفسير:

ولما ذكر ثواب مَنْ أقدم على الجهاد، أتبعه بعقاب مَنْ قعد عن الجهاد، فذكر الذين تقبض أرواحَهم الملائكةُ حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم؛ برضاهم بالإقامة في دار الذل والظلم، حيث لا حرية لهم في أعمالهم الدينية، ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده، تقول لهم الملائكة بعد تَوَفِّيها لهم: في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ أي: إنهم لم يكونوا في شيء منه، إذ هم قدروا على الهجرة، ولم يهاجروا. قالوا: إننا لم نستطع أن نكون في شيء يُعْتَدُّ به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا، فعَجَزْنا عن القيام بواجبات الدين، وهذه حجة لم تتقبَّلْها الملائكة، ومن ثَم رَدُّوا عليهم المعذرة، فقالوا لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ فترحلوا إلى قطر آخر من الأرض، تقدرون فيه على إقامة الدين، وتحرروا أنفسكم من رقِّ الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من خصاله. إنَّ أولئك الذين فَصَّلْتُ حالهم نسكنهم في الآخرة جهنم؛ لتركهم ما كان مفروضاً عليهم، وقَبُحَتْ جهنم مصيراً لهم؛ لأنَّ كلَّ ما فيها يسوءُهم.

إنَّ أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم، وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله، غيرُ صادقين في اعتذارهم. أما الاستضعاف الحقيقي فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة، والنساء، والولدان، فإنَّهم قد ضاقت بهم الحِيَلُ، فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها، وعُمِّيت عليهم الطرق، فلم يسلكوا طريقاً منها: إمَّا للعجز كمرض وزَمانة، وإمَّا للفقر، وإمَّا للجهل. والمراد بالوِلْدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ، وعقلوا ما يعقل الرجال والنساء، فيلحقون بهم في التكليف بوجوب الهجرة معهم، أو أنَّ تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر.

إنَّ أولئك المستضعفين الذين لم يُهاجروا للعجز وتَقَطُّعِ الأسباب، يُرْجَى أن يعفو الله عنهم، ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر. وكان شأن الله تعالى العفوَ عن الذنوب التي لها أعذار صحيحة، فيتجاوز عنها، ويغفرها بسَتْرِها، ولا يَفْضَحُ صاحبها في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أعاد كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مرة أخرى؛ لتأكيد التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه.

٢ - في الآيات تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيرَه أحوالاً كان هو عليها تُساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلم التلميذ بسوء إذا لم يُقَصِّرْ في إعمال جهده. وكذلك هي عظة لِـمَنْ يمتحنون طلبة العلم، فيعتادون التشديد عليهم، وتَطَلُّبَ عثراتهم، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظفين في معاملتهم صغار الموظفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم.

٣ - دَلَّت الآيات على حكمة عظيمة في حِفْظِ الأُمة، وهي بَثُّ الثقة والأمان بين أفرادها، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنَّه إذا فُتح هذا الباب عَسُرَ سَدُّه.

٤ - النكوص عن الجهاد لا يكون مذمَّة وبخلاً إلا مع القدرة، أما مع العجز والضرر كالعمى والزَّمانة والمرض فلا تَبِعَةَ فيه حينئذ.

٥ - مَنْ تُوُفِّي فقد استكمل، واستوفى ما قُدِّر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك؛ لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفِّياً.

٦ - في الآيات دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكَّن فيه من إقامة دينه، أو عَلِمَ أنه في غير بلده أقوم بحقِّ الله وأدوم على العبادة، وجبت عليه الهجرة.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

١٠٠ – يُرَغِّب الله سبحانه في أمر الهجرة ويُنَشِّط المستضعفين، ويُبَيِّن أن مَنْ يهاجر لقصد رضا الله وإقامة دينه، يجد في الأرض سبيلاً يُرغم به أنوف أعدائه، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل، ثم نَوَّه الله بشأن الهجرة بأن جعل ثوابها حاصلاً بمجرد الخروج من بلد الكفر، ولو لم يبلغ المهاجر إلى البلد المهاجَر إليه، فبَيَّن أنَّه مَنْ يخرج من بيته قاصداً ربه ورضاه، ومحبةً لرسوله، ونصراً لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد، ثم يدركه الموت بقتل أو غيره، فقد حَصَلَ له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى. ثم ختم الآية بالمغفرة والرحمة، أي: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، ولاسيما التائبين المنيبين إلى ربهم، ويرحم جميع الخلق في الدنيا.

١٠١ – ولما تحدَّث عن الجهاد، ذكر هنا أحكام مَنْ سافر للجهاد أو هاجر في سبيل الله، إذا أراد الصلاة وخاف أن يُفْتَنَ عنها، فإذا سافرتم أيَّ سفر فليس عليكم حرج ولا إثم أن تقصروا من الصلاة، بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما. وإذا كنت – أيها الرسول – في جماعتك من المؤمنين، وأردت أن تقيمَ بهم الصلاة، فلتَقُمْ طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدوِّ يحرسون المصلِّين خوفاً من الاعتداء، وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم، ولا

يَدَعُوها وقت الصلاة، فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم، إذ أحوج ما يكون المصلِّي للحراسة حين السجود؛ لأنّه لا يرى مَنْ يَهُمُّ به، ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلُّوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلُّوا كما صلت الطائفة الأولى، وليأخذوا حِذْرَهم وأسلحتهم في الصلاة كما فعل الذين من قبلهم. وتمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تنشغلون بالصلاة عن أسلحتكم وأمتعتكم، فيميلون حينئذ عليكم، ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة، واضعون السلاحَ، تاركون حماية المتاع والزاد، فيصيبون منكم غِرَّة، فيقتلون مَنْ استطاعوا قتله، وينتهبون ما استطاعوا نَهْبَه، فلا تغفلوا عنهم. ولا إثم عليكم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه، فيشقُّ عليكم حَمْلُ السلاح مع ثِقَلِه في ثيابكم، أو إذا كنتم مرضى بالجراح، أو غير الجراح من العلل، ولكن يجب عليكم في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم، ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم، فإنَّ عدوَّكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم، والله قد هداكم للأخذ بأسباب النصر، وذلك بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة؛ رجاءَ ما عند الله من المثوبة والأجر.

١٠٣ - فإذا أدَّيتم الصلاةَ على هذه الصورة، فاذكروا الله تعالى في أنفسكم، بتذكُّر وعده بنصر مَنْ ينصرونه في الدنيا ونيل الثواب في الآخرة، وبألسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء، وعلى كل حال تكونون عليها من قيام في المسابقة والمقارعة، وقعود للرمي أو المصارعة، واضطجاع من الجراح أو المخادعة، فذِكْرُ الله ممَّا يقوِّي القلوبَ، ويُعْلِي الهِمم، ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر، فإذا سكنت قلوبكم من الخوف، وأَمِنتُم بعد أن تضع الحرب أوزارها، فأدُّوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها، ولا تُقَصِّروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف. إنَّ الصلاة كانت في حكم الله فرضاً مؤكداً في أوقات محدودة لابُدَّ من أدائها فيها بقدر الإمكان، فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها؛ لتؤدَّى تامة كاملة.

١٠٤ - ولا تضعفوا في طلب القوم الذين ناصبوكم العداوة، بل عليكم أن تستعدُّوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة مع أَخْذِ الحذر، وحَمْلِ السلاح عند أدائها، فإنَّ ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثلُه، فهم بشر مثلكم، وهم مع هذا يصبرون، فما لكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر؟ فإنَّكم تَرْجُون من الله ظهور دينكم الحقّ على سائر الأديان الباطلة، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم في الآخرة. وهذا ما ثَبَتَ في واسع علم الله، ومَضَتْ به سُنَنُه أنَّ العاقبة للمتقين، والنصرة لهم على الكافرين، ما داموا عاملين بهديه، سائرين على طريقه ونهجه.

الفوائد والاستنباطات:

١- لما كان القَصْرُ خاصاً ببعض الصلوات، أتى بمدعاة ذلك لإفادة أنَّه في المقدار لا في الطريقة، فقال: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فاقصُروا إن أردتم، وأتمُّوا إن أردتم.

٢- في الآيات مشروعية قصر الصلاة الرباعية في السفر.

٣- حكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أنَّ العدوَّ قلَّما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها، فهو إذا رآهم صَفّاً ظنَّ أنَّهم قد اصطفُّوا للقتال، واستعدُّوا للحرب والنزال، فإذا رآهم سجدوا عَلِمَ أنَّهم في صلاة، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة، كما أنَّه يتربَّص بهم عند كل غفلة.

٤- إذا أَمَرَنا اللهُ بالذِّكْر على كل حال نكون عليها في الحرب، فأَجْدَرُ بنا أن نحرص عليه في حال السلم.

٥- الحكمة في توقيت الصلاة في الأوقات المعلومة: أنَّ الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجَمُّ الغفير من الناس.

٦- في الآيات تعليم للمسلمين أن يطلبوا المسببات من أسبابها، فإذا أخذوا حِذْرَهم أَمِنُوا من عَدُوِّهم.

٧- في الآيات إيجاز بديع، فإنَّه لما قال: فلتقم طائفة منهم معك، عُلِمَ أنَّ ثمة طائفة أخرى، فالضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطائفة بحسب أفرادها، وكذلك ضمير قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ للطائفة التي مع النبي ﷺ، لأنَّ المعية معية الصلاة، وقد قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾. وضمير قوله: ﴿فَلْيَكُونُوا۟﴾ للطائفة الأخرى المفهومة من المقابلة، لظهورِ أنَّ الجوابَ وهو ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ متعيَّنٌ لفِعْلِ الطائفة المواجهة العدو.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾

١٠٥-١٠٦- سبب النزول :

عن قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ﷺ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو أُبَيْرِقٍ بِشْرٌ وَبَشِيرٌ وَمُبَشِّرٌ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً مُنَافِقًا يَقُولُ الشِّعْرَ، يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ قَالُوا: وَالله مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هَذَا الخَبِيثُ، أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، وَقَالُوا ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا. قَالَ: وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ، وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالمَدِينَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ، فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَكِ، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ، وَفِي المَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ فَنُقِبَتِ المَشْرَبَةُ وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلاَحُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي إِنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلاَحِنَا. قَالَ: فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ وَسَأَلْنَا فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلاَ نُرَى فِيمَا نُرَى إِلاَّ عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ. قَالَ وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ، وَالله مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلاَّ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلاَحٌ وَإِسْلاَمٌ فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ فَوَالله لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا. فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا بْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جَفَاءٍ عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَآمُرُ فِي ذَلِكَ». فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أَسِيرُ بْنُ عُرْوَةَ فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاَحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبْتٍ. قَالَ قَتَادَةُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَكَلَّمْتُهُ فَقَالَ: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ

وَصَلاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ». قَالَ: فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ الله ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ بَنِي أُبَيْرِقٍ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أَي: لَوِ اسْتَغْفَرُوا اللهَ لَغَفَرَ لَهُمْ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قَوْلُهُمْ لِلَبِيدٍ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِالسِّلاحِ، فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ، فَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلاَحِ وَكَانَ شَيْخاً قَدْ عَمي أَوْ عَشِيَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أُرَى إِسْلامَهُ مَدْخُولاً فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلاحِ قَالَ: يَا بْنَ أَخِي هُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلامَهُ كَانَ صَحِيحاً فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَيَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ، فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانَ مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ. (سنن الترمذي، باب ومن سورة النساء برقم ٣٠٣٦، قال الشيخ الألباني: «حسن»). الضَّافِطُ والضَّفَّاط: الذي يَجْلبُ المِيرَة والمَتَاعَ إلى المُدن. الدَّرْمَكُ: الدَّقيقُ الحوّارَى.

التفسير:

إنَّا لما لنا من العظمة أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه، لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام، ولا تكن لِـمَنْ خان مدافعاً تدافع عنه مَنْ طالَبه بحقِّه الذي خان فيه، وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ممَّا يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل إلى مَنْ تراه ألحنَ بحجته، أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به. إنَّ الله يغفر الذنب العظيم لِـمَنْ استغفره، وتاب إليه وأناب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجِب لثوابه، وزوال عقابه.

١٠٧- لا تدافع - أيها الرسول - عن هؤلاء الخونة، ولا تساعدهم عند التخاصُم. إنَّ الله يُبغض من اعتاد الخيانة، وألِفَتْ نفسُه اجتراح السيئات، واعتادت عليها.

١٠٨ - ثم بَيَّنَ أحوال الخائنين، ونعى عليهم أفعالهم، فبَيَّنَ أنَّ من شأن هؤلاء الخَوَّانين أنَّهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إما حياءً، وإما خوفاً مِنْ ضَرَرهم، ولا يستترون من الله، ولا يَسْتَحْيُون منه بتركها لضعف إيمانهم، إذ الإيمان يمنعُ من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لا تدوم، فمَنْ يعلم أنَّ الله يراه في الظلمات لابُدَّ أن يترك الذنب والخيانة حياءً منه تعالى، وخوفاً من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يُدَبِّرون ليلاً ما لا يرضى من القول، فيُبرِّئون أنفسهم، ويرمون غيرهم بجريمتهم. إنَّ الله حافظ لأعمالهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه.

١٠٩ - ثم حَذَّر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخوَّانين: ها أنتم جادلتم عنهم، وحاولتم تبرئتهم في الحياة الدنيا، فمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة، يوم يكون الخصم والحَكَم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة؟ أي: فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلاً بالخصومة لهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في قوله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ تشريف للرسول ﷺ، بإسناد الحكم إليه، ودلالة على أنَّه ﷺ ما كان يحكم إلا بالوحي والنص.

٢ - الاعتقاد الشخصي والميل الفطري لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء، بل على القاضي أن يساويَ بين المتخاصمين في كل شيء.

٣ - قوله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ دليل على وجوب الاجتهاد في فهم الشريعة.

٤ - تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

٥ - التعبير بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ - مع أن الذي نزلت فيه الآية واحد - للتعميم وتهديد مَنْ أعانه من قومه، ويجوز أن يكونَ أشار بصيغة الافتعال إلى أنَّ الخيانة لا تقع إلا مكررة، فإنَّه يَعْزِمُ عليها أولاً ثم يفعلها.

٦ - عاتب الله ﷻ خير الخلق عنده وأكرمهم لديه هذه المعاتبة، وما فعل إلا الحقَّ في الظاهر، فكيف بمَنْ يعلم الباطنَ ويُساعد أهلَ الباطل؟

٧ - في الآيات إيماءٌ إلى أنَّ حكم الحاكم في الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن يأخذ به إذا عَلِمَ أنَّه حكم له بغير حقه.

٨ - في الآيات جواز الدخول في نيابة الخصومة لِـمَنْ لم يُعْرَفْ منه ظلم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

التفسير :

١١٠ - يُرَغِّب الله تعالى في التوبة من الذنوب، ويحُثُّ عليها بأنَّ مَنْ يعمَلْ قبيحاً يسوء به غيره، أو يظلم نفسه بفعل معصية تختص به كالحلف الكاذب، يجد الله غفاراً لذنوبه، رحيماً متفضلاً عليه بالعفو والمغفرة.

١١١ - ثم حَذَّر من فِعْلِ الذنوب والآثام وذِكْرِ عظيم ضررها، فمَنْ يعمل الإثم ويعتقد أنه قد كسبه وانتفع به فإنَّ ما كسبه وبالٌ على نفسه، وضررٌ لا نفع له فيه، كما يخطر على بال مَنْ يجهل عواقب الآثام في الدنيا والآخرة، من فضيحة للآثم، ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل، ومن خزي في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم، فالله تعالى بعلمه الواسع حَدَّد للناس شرائع يَضُرُّهم تجاوُزُها، وبحكمته جعل لها عقاباً يضر المتجاوز لها، فهو يضرُّ نفسه، ولا يضرُّ الله شيئاً.

١١٢ - ومَنْ يكسب ذنباً خطأً بلا تعمُّدٍ، أو إثماً يصدر عنه مع ملاحظة أنَّه ذنب، ثم يُبَرِّئ نفسه، وينسبه إلى بريء، ويزعم أنه هو الذي كسبه، فقد كلَّف نفسه وِزْرَ البهتان بافترائه على البريء واتهامه إياه.

١١٣ - وبعد أن ذكر المُخْتانين أنفسَهم، ومحاولتهم زحزحةَ الرسول ﷺ عن الحق، بَيَّن فضلَه ونعمته عليه، فذكر سبحانه أنَّه لولا فَضْلُه على النبي ﷺ بالتأييد بالعصمة ورحمته له ببيان حقيقة الواقع، لَـهَمَّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوه عن الحكم العادل الموافق لحقيقة القضية في نفسها، ولكنهم قبل أن يطمعوا في ذلك ويهمُّوا به، جاءه الوحي ببيان الحق، وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق، ثم لم يزل يوحي الله إليه، ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذَّر على الأوَّلِين والآخِرين الوصول إليه، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ففَضْلُه على الرسول ﷺ أعظمُ من فَضْلِه على كلِّ مخلوق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإنسان قاصرُ النظر، محدودُ التفكير، فتراه إذا حاول ارتكاب ذنب يستتر، ويستحيي من الناس، ولا يستتر ولا يستحيي من الله، والله أحقُّ أن نخشاه، وأن نستحييَ منه؛ لأنَّ المصير إليه، وبيده وحده الجزاء.

٢- باب التوبة للعصاة والمذنبين مفتوح.

٣- وبالُ الذَّنْبِ وعاقبته على المذنب نفسه.

٤- البهتان جريمة عظمى، وهو إلقاء التهمة واختلاق الكذب على البريء، أو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه بريء.

٥- لما كان البهتان شديداً جداً، وقَلَّ مَنْ يجترئ عليه، أشار إليه بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي: ينسبه إلى مَن لم يعمله، فيجمع بين اختلاقه وافترائه على الأبرياء.

٦- عَظَّم اللهُ جُرْمَ فاعل البهتان بصيغة الافتعال في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ وبقوله: ﴿بُهْتَٰنًا﴾ أي: خطر كذبٍ يَبْهَتُ المَرْمِيَّ به لعِظَمِه، وكأنه إشارةٌ إلى ما يلحق الرامي في الدنيا من الذم.

٧- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من أعظم الأدلة على أن العلم أشرف الفضائل، وفيه بيان عظم فضل الله على نبيه محمد ﷺ.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾

التفسير:

١١٤ - يُنبِّه الله تعالى على أنَّه لا خير في كثير ممَّا يتناجى به الناس، ويتخاطبون فيه من الحديث، إلا من كان ساعياً في الحثِّ على أعمال الخير من صدقة من مال أو علم، أو أيِّ نفع ينتفع به الخلق، أو من الإحسان والطاعة، أو التوفيق بين الناس. وقد استثنى الله من النجوى التي لا خير في أكثرها أموراً ثلاثة؛ لأنَّ خيريتها أو كمالها تتوقف على الكتمان، وجعل التعاون عليها سراً، والحديث فيها نجوى. ومَنْ يفعل هذه الأعمال الثلاثة من الطاعات لوجه الله وطَلَبِ مرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب العظيم، والأجر الجزيل.

١١٥ - وبعد أن وعد الله الجزاء الحسن مَنْ يتناجَون بالخير، ويبتغون نفع الناس؛ مرضاةً لله ﷻ أوْعَدَ الذين يتناجَون بالشر، ويُبيِّتون ما يكيدون به للناس، فبيَّنَ أنَّه مَنْ يشاقق الرسول بارتدادِه عن الإسلام وإظهار عداوته له من بعد ما ظهرت له الهداية على لسانه، وقامت عليه الحجة، ويتبع سبيلاً غير سبيل أهل الهدى، نتركه وما اختار لنفسه ونَكِلُه إلى ما تَوَكَّل عليه، ثم ندخله جهنم، ونعذِّبه أشد العذاب؛ لأنَّه استحبَّ العمى على الهدى، وعاند الحق واتبع الهوى، وما أقبحها عاقبةً لِـمَنْ تفكر وتدبر!.

١١٦ - يحذر الله سبحانه من الشرك فإنَّه لا يغفر البتةَ لأحدٍ أشرك به سواه، وأنَّه قد يغفر لِـمَنْ يشاء من المذنبين ما دون الشرك من الذنوب، فلا يعذبهم عليه. ومَنْ يشرك بالله شيئاً فيَدْعُه معه فقد ضلَّ عن القصد، وبَعُدَ عن سبيل الرشد ضلالاً بعيداً في سبيل الغواية؛ لأنَّه ضلال يفسد العقل، ويُكَدِّر صفاء الروح، ويجعله يخضع لعبد مثله.

١١٧-١١٨ - ثم ذكر سبحانه حال المشركين مبيِّناً أنَّهم لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتاً، فقد كانوا يُعَظِّمون الموتى ويَدعُونهم، كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب وبعض مسلمي اليوم، أو إلا إناثاً كاللات والعُزَّى، وقد كان لكل قبيلة صنم يُسَمُّونه أنثى بني فلان، وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً متمرداً متجرداً من الخير عاتياً، إذ هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم بها، فكانت طاعتهم له عبادة؛

لذا كان جزاؤه أن أبعده الله عن رحمته وفَضْلِه، فإنَّه داعية الشر والباطل في نفس الإنسان بما يوسوس في صدره ويَعِدُه ويُمَنِّيه، وقال: لأجتهدنَّ في أن آخذَ من عبادك الذين هم تحت قهرك، ولا يُخْرجون عن مرادك شيئاً أنت قدَّرْتَه لي.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله تعالى:﴿لَّاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ تربية اجتماعية لأُمة؛ فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأنَّ الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا لأمر يناسبه إخفاء الحديث.

٢ - قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنَّه لا يجزي من الأعمال، إلا ما كان فيه رضا الله تعالى، وخلوصه لله دون رياءٍ ولا سمعة.

٣- ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل له في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتمَّ له الأجر، سواء أتمَّ مقصوده أم لا؛ لأنَّ النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل.

٤ - يُفْهَمُ من نفي الخير عن كثير من نجواهم أو متناجِيهم، أن قليلاً من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تَناجٍ فيه نَفْعٌ.

٥- ظاهر قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ الإصلاح في كل شيء يقع فيه اختلاف ونزاع.

٦- خصَّ من أَمَرَ في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، وفي ضمن ذلك أنَّ الفاعل أكثر استحقاقاً من الآمر.

٧- قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليل على أنَّ الإجماع حجة.

٨- من أعظم الجرم أن يَطَّلِعَ المرءُ على الحق، ويعمل بخلافه على سبيل العناد لله تعالى، وقد جعل له نوراً يهتدي به.

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ دليل على وجوب عصمةِ الرسول ﷺ، وعلى أنَّ كل مجتهدٍ آخذٍ بقواعد الاجتهاد يسقط عنه الإثم.

١٠- في قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ كنى بالدعاء عن العبادة،؛ لأنَّ مَنْ عبد شيئاً دعاه عند حوائجه ومصالحه.

١١- قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٍ﴾ لأنَّ من النجوى ما يكون في الشؤون الخاصة كالزراعة والتجارة مثلاً فلا توصف بالشر، ولا هي مقصودة من الخير، وإنَّما المراد بالنجوى الكثيرة المنفيِّ عنها الخيرُ هي النجوى في شؤون الناس، ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التي هي جِماع الخير للناس.

١٢- تنطبق هذه الآية الكريمة في عصرنا على أحاديث الناس عبر الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وبرامج الغرف المغلقة و(الفيسبوك، والتويتر)، وما يدور فيها من هزلٍ ولغوٍ وتأثيمٍ ومضيعةٍ للوقت ومفسدة للدين، فلا خير في هذه المحادثات إلا لِـمَنْ خاضها بنية الإصلاح، ونشر الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

التفسير:

١١٩- ثم ذكر سبحانه قَسَمَ الشيطان، فقال على لسانه: ولَأُضِلَّنَّهم عن طريقك السويِّ بما سَلَّطْتني به من الوساوس وتزيين الأباطيل، ولَأُمَنِّيَنَّهم كل ما أقدر عليه من الباطل من نفي البعث وغيره من طول الأعمار، وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والعفو والإحسان ونحوه، مما هو سبب للتسويف بالتوبة ولآمرنهم، فيُقَطِّعُنَّ تقطيعاً كثيراً آذان الأنعام، ويُشَقِّقونها علامةً على ما حَرَّموه على أنفسهم، ولآمُرَنَّهم فليغيِّرُنَّ خَلْقَ الله الذي له الحكمة الكاملة فلا كُفْءَ له، بأنواع التغيير من تغيير الفطرة الأولى السليمة إلى ما دون ذلك من الوشم، ويدخل فيه كل ما خالف الدين، ومَنْ يتبع الشيطان ووسوسته وإغواءه وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله، فقد خسر خسراناً ظاهراً في الدنيا والآخرة، إذ إنه يكون أسير الأوهام والخرافات، يتخبَّط في عمله على غير هدى، ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التي أوتيها الإنسان، وميَّز بها من بين خَلْقِه.

١٢٠- ثم ذكر سبحانه ما يَعِدُ الشيطان به أولياءه، فبَيَّنَ أنَّ الشيطان يَعِدُ الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئاً من أموالهم في سبيل الله، ويُخَوِّفُهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، ويَعِدُ مَنْ يُغريه بالتعصُّب لرأيه، وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه بالجاه والشهرة وبُعْدِ الصِّيت، ويؤيد هذه الوعودَ بالأماني الباطلة يلقيها إليهم، وما يَعِدُهم الشيطان إلا باطلاً يغترُّون به، ولا يملكون منه ما يحبُّون، فيزيِّن لهم النفع في بعض الأشياء، وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضارّ، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيَّل إليه أنه يتمتع باللذات، بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى، وخيمة العواقب، إلى عذاب أُخْروي لا يعلم كُنْهَه إلا مَنْ أحاط بكل شيء علماً.

١٢١- وبعد أن بَيَّنَ حال أولياء الشيطان وما يَعِدُهم به الشيطان، ذكر عاقبتهم بأن أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته، أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه، مأواهم جهنم لا يجدون عنها مهرباً يَفِرُّون إليه، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها، ويتهافتون عليها تهافُتَ الفراش على النار، فتَصْلَى وجوههم وجنوبهم وظهورهم.

١٢٢- بعد ما ذكر عاقبة مَن اتبع الشيطان، ذكر عاقبة مَنْ لا يستجيب لدعوته، فبَيَّنَ أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سيتمتعون بالنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. وذلك هو الفوز العظيم لِـمَنْ سَمَتْ نفسُه عن دَنَسِ الشرك، فلم تجعل لله أنداداً، ولم تُحِطْ بها الخطيئة في صباحها ومسائها في غُدُوِّها ورَواحها، ثم ذكر أن ما وعدهم به هو الوعد الحق الذي لا شك فيه، فقال: ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق، فهو القادر على أن يعطي ما وعد بفضله وجوده، وواسع كرمه ورحمته، وأمَّا وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور، إذ هو عاجز عن الوفاء، فهو يُدْلي إلى أوليائه بباطله، فحقه ألا يُستجاب له أمر ولا نهي، ولا تُتَّبع له نصيحة، فوساوسه أباطيل.

١٢٣- ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم: إنَّ ديني أفضل وأكمل، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه، فإنَّ الجزاء إنما يكون على العمل، لا على التمني والغرور، ثم أكد ذلك، وبَيَّنه بقوله: إنَّ مَنْ يعمل سوءاً يلق جزاءه؛ لأنَّ الجزاء - بحسب سننه تعالى - أثر طبيعي للعمل، لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم، كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون، ومَنْ يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له ولياً غير الله يتولَّى أمره، ويدفع الجزاء عنه، ولا نصيراً ينصره وينقذه مما يَحِلُّ به لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم، ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من نزغات الشيطان.

٢- تحريم تغيير خلق الله ﷻ.

٣- في قوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ أسند الفعل إلى نون العظمة، اعتناء بأنّه تعالى هو الذي يتولى إدخالهم الجنة وتشريفاً لهم.

٤- على الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله، وأن يجعل ذلك المعيار في سعادته.

٥- في الآيات من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني التي يأوي إليها الكُسالى، وذوو الجهالة من الذين يفخرون بالانتساب إليه، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عن الاهتداء بهديه.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾

التفسير:

١٢٤- ومَنْ يعمل كلَّ ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية - سواء كان العامل ذكراً أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان - فأولئك أصحاب الدرجات العالية، العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر، يدخلون الجنة بزكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً ولو حقيراً، كالنُّقرة في ظهر النَّواة.

١٢٥- وبعد أن بَيَّنَ سبحانه أن النجاة والسعادة متعلقان بصالح الأعمال مع الإيمان، أردف ذلك ذِكْرَ درجات الكمال، فبَيَّنَ أنّه لا أحدَ أحسنُ ممَّنْ جعل قلبه خالصاً لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا

رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنَّه سبحانه رَبَطَ الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سَنَّها في الخليقة، وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل، مُتَحَلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل، واتبع إبراهيم في سيرته التي كان عليها، بميله عن الوثنية وأهلها، وتبرئته ممَّا كان عليه أبوه وقومه منها، وقد بلغ من الزُّلفى عند ربه ما صَحَّ به أن يسمى خليلاً، فقد اختصَّه بكرامة ومنزلة عظيمة واصطفاه برتبة الخُلَّة، ومَنْ كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تُتَّبَعَ مِلَّته، وتُؤتَسى طريقته.

١٢٦- سبب النزول:

عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ إِلَى ﴿وَرُبَعَ﴾ فَقَالَتْ: يَابْنَ أُخْتِي هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يُنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وَالَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ (عَنْ يَتِيمَتِهِ) الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ. (صحيح البخاري، باب شَرِكَةِ الْيَتِيمِ وَأَهْلِ الْمِيرَاثِ، برقم٢٤٩٤).

التفسير:

ثم ذكر سبحانه ما هو كالعلة لما سبق بأنَّ كلَّ ما في السموات والأرض ملك له، مهما اختلفت صفات المخلوقات، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة وجود؛ لأنَّ هذه الموجوداتِ ليس وجودُها من ذاتها، ولا هي ابتدعت نفسها، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود، فوجب أن يُخْلِصَ له الخلق، ويتوجه إليه العباد، من أهل التقوى وأهل المغفرة.

١٢٧ - يطلبون منك أيها الرسول ﷺ الفتيا في شأن النساء ببيان ما غَمَضَ، وأشكل من أحكامهنَّ، من جهة حقوقهنَّ المالية والزوجية، كالعدل في المعاملة حين العشرة، وحين الفرقة والنشوز، قُل: اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ بما يوحيه إليك من الأحكام في كتابه، ويُفتيكم في شأنهنَّ بما يتلى عليكم في الكتاب، مما نزَّل قبل هذا الاستفتاء في أحكام معاملة يتامى النساء اللاتي قد جَرَتْ عادتكم ألَّا تعطوهنَّ ما كتب لهنَّ من الإرث إذا كان في أيديكم، لولايتكم عليهنَّ، وترغبون في أن تنكحوهُنَّ لجمالهنَّ والتمتع بأموالهنَّ، أو عن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ فلا تَنكحوهنَّ، ولا تُنكحوهُنَّ غيركم حتى يبقى ما لهنَّ في أيديكم، وما يتلى عليكم أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تُعْطونهم نصيبهم من الميراث، وقد كانوا إنما يُوَرِّثون الرجال دون الأطفال والنساء، ويُفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالعدل، بأن تهتموا بهم اهتماماً خاصاً وتُعْنُوا بشأنهم، ويجري العدل في معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمها، فإنَّ ذلك هو الواجب الذي لا تَهاونَ فيه، ولا خيرة في شأنه. ثم رَغَّبهم في العمل بما فيه فائدةٌ لليتامى، وحَبَّبَ إليهم العدل، فقال: وما تفعلوه من الخير لليتامى فهو مِمَّا لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه، وهو مجازيكم به ولا يضيع عنده شيء منه.

١٢٨ - وإن تَوَقَّعَتْ امرأة من بعلها نشوزاً وترفُّعاً عليها، بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته، بأن منعها نفسه ونفقته، أوالمودة والرحمة التي تكون بين الرجل والمرأة، أو آذاها بسَبٍّ أو ضَرْبٍ أو نحو ذلك، أو إعراضٍ عنها بأن قَلَّلَ من محادثتها ومؤانستها؛ لنفور منها أو سآمة بسبب طعن في سِنٍّ أو دَمامة أو شيءٍ في الأخلاق أو الخَلْقِ أو طموح إلى غيرها، فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما صلحاً كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة أو المبيت معها، أو بحقها كله فيهما أو في أحدهما؛ لتبقى في عِصْمته مُكَرَّمَةً، أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق، أو بكل ذلك ليطلِّقها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٢٩]، وإنَّما يحلُّ له ذلك إذا كان برضاها، لاعتقادها أن في ذلك الخيرَ لها بلا ظلم لها ولا إهانة. والصُّلْحُ خَيْرٌ من التسريح والفراق؛ لأنَّ رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحَقِّها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق، وبما أنَّ النفوس البشرية عُرْضَةٌ للشُّحِّ. فإذا عرض لها داعٍ من دواعي البذل ألَمَّ بها الشح والبخل، ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح، فالنساء حريصات على حقوقهنَّ في القَسْم والنفقة وحسن العشرة، والرجال حريصون على أموالهم أيضاً، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملاً. ثم رَغَّبَ في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع، فقال: وإن تُحْسِنُوا العِشْرة فيما بينكم، وتتقوا أسباب النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من الشقاق، فإنَّ الله تعالى كان بكل شيءٍ تعملونه عليماً.

الفوائد والاستنباطات:

١- ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للتبعيض؛ لأنَّ كل واحد لا يتمكَّن من عمل كل الصالحات، وإنَّما يعمل منها ما يناسب تكليفه ووسعه.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ دليل على أن الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل؛ لأنَّ الإيمان هو الأصل والأساس الذي يُبنى عليه كل شيء، فالإيمان شرط لقبول الأعمال.

٣- اقتصر سبحانه على عِلْمه بالخير في قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ لأنَّه هو المرغَّب فيه ها هنا.

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ نَدْبٌ من الله إلى الإحسان في العِشْرة إلى النساء وإن كرههنَّ؛ مراعاة لحقِّ الصحبة، وأمر بالتقوى في حالهنَّ؛ لأنَّ الزوج قد تحمله الكراهة للزوجة على أَذِيَّتِها وخصومتها، ولاسيما قد ظهرت منه أمارات الكراهة من النشوز والإعراض.

٥- إسلام الوجه لله يعني تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وهو من أحسن الكنايات؛ لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه تجتمع المحاسن.

٦- دَلَّ قوله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ على شدة الترغيب في الصلح بمؤكدات ثلاثة: وهي المصدر المؤكد في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفة المشبهة، فإنَّها تدلُّ على فعل سَجِيَّة.

٧- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنَّ الاستفتاء في الدِّين أمر مطلوب شرعاً.

٨- ينبغي الإحسان ليتامى النساء بالميراث والصداق والنكاح وغير ذلك، كما ينبغي الإحسان إلى الولدان الضعفاء الصغار.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

التفسير:

١٢٩ - ومِنْ علمه سبحانه: أنّكم - أيُّها الرجال - لن تقدروا دائماً على إقامة العدل التام بين النساء في المحبَّة ورغبة النفس، ولو بذلتم كل جهد، فلا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً، فتجعلوها كالمُعلَّقة التي ليست بذات زوج ولا مُطلَّقة، فتأثموا بظلمها. وإن تُحْسنوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحظور فإن الله كان غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

١٣٠ - وإذا تعذَّر الاتفاق فإنَّه لا بأس من الفراق، فإن وقعت الفرقة بطلاق أو خلع، فإنَّ الله يغني كلَّاً منهما من رزقه وجوده، إنَّه كان واسع الفضل، حكيم الحكم.

١٣١ - وبعد أن أمر الله سبحانه بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين، بَيَّنَ أنَّه لم يأمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد؛ لأنَّ كل ما في السموات والأرض خَلْقاً ومُلكاً له وحده، فهو مدبِّر الأكوان، لا يتعذَّر عليه الإغناء بعد الفقر، ولا الإيناس بعد الوحشة، ونحو هذا مما يُنْبِئُ بعظيم القدرة وكمال الجود والإحسان. ولقد أَمَرْنا مَنْ قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأُمم، كما أمرناكم بتقوى الله في إقامة سننه وإقامة شريعته، فبالأُولى ترقى معارفكم، وبالثانية تزكو نفوسكم، وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية. وإن تكفروا أَنْعُمَ الله وتجحدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنَّه سبحانه مالك الملك والملكوت، لا يضره كفركم ومعاصيكم، كما لا ينفعه شكركم وتقواكم ، وقد وصَّاكم وإياهم بهما لرحمته لا لحاجته. وكان الله غنياً عن كل شيء بذاته، محموداً بذاته وكمال صفاته، فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه.

١٣٢-١٣٣ - ثم قرَّر أن له سبحانه ما في السموات والأرض خَلْقاً ومُلْكاً، يتصرف فيهما كيفما شاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة. وكفى به قيِّماً وكفيلاً يُوَكَّل إليه أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم، وإن يُرِدْ إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قومٍ آخرين من البشر يَحِلُّون مَحَلَّكم في الحكم

والتصرف فهو قادر على ذلك؛ لأنَّ كل ما في السموات والأرض في قبضته، وخاضع لسلطانه. وكان الله قديراً على ذلك الإفناء وإيجاد خَلْقٍ آخر، إذ بيده ملكوت كل شيء، لكنه لحِكَمٍ يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك.

١٣٤- ثم نَبَّههم الله ﷻ أنَّ خير الدنيا والآخرة بيده، فإن اتقوه نالوا الخيرَين فقال: ومَنْ يُرِدْ منكم بسعيه وجهاده في حياته نعيم الدنيا بالمال والجاه ونحوهما، فعند الله ثواب الدارَين معاً بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس، فعليكم أن تطلبوهما معاً، ولا تكتفوا بما هو أدناهما، وهو ما يفنى، وتتركوا أغلاهما وهو ما يبقى، مع أنَّ الجمع بينهما هيِّن ميسور لكم، وهو تحت قدرتكم وسلطانكم، فعليكم أن تقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. فالله سميعٌ لأقوال عباده وقت مخاطباتهم ومناجاتهم، بصيرٌ بجميع أمورهم في سائر حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه في الأقوال والأفعال، وبذلك تزكو نفوسهم، وتقف عند حدود الفضيلة التي بها تستقيم أمورهم في دنياهم، ويستعدون لحياة أبدية في آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بـ ﴿لَنۡ﴾ للمبالغة في النفي؛ لأنَّ أمر النساء يغالب النفس. وفي ذلك عذر للرجال فيما يقع من التفاوت في الميل القلبي، والتعهد، والنظر، والتأنيس، والمفاكهة؛ فإنَّ التسوية في ذلك مُحال خارج عن حدِّ الاستطاعة.

٢- أقام الله ميزان العدل بين النساء بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ أي: لا يُفَرِّط أحدكم بإظهار الميل إلى إحداهنَّ أشد الميل حتى يسوء الأخرى بحيث تصير الأخرى كالمعلقة.

٣- دل قوله: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ على أنَّ المحبة أمر قهري، وأن للتعلق بالمرأة أسباباً تُوجبه، قد لا تتوافر في بعض النساء، فلا يُكَلَّفُ الزوج بما ليس في وسعه من الحب والاستحسان، ولكنَّ من الحب حظاً هو اختياري، وهو أن يُرَوِّضَ الزوج نفسه على الإحسان لامرأته، وتَحَمُّلِ ما لا يلائمه من خُلُقِها أو أخلاقها ما استطاع، وحسن المعاشرة لها، حتى يحصل من الإلف بها والحنو عليها اختياراً ما يقوم مقام الميل الطبيعي، ويتحقق هذا بطول التكرر والتعوُّد.

٤- الفراق قد يكون خيراً للزوجين؛ لأنَّ الفِراق خير من سوء المعاشرة.

٥- تعليم للمؤمنين ألَّا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكلُّ من فضل الله.

٦- في الآية (١٢٩) إخبار عن أمرٍ مستقبلي في عدم قدرة الرجال على تحقيق العدل التام بين النساء في المحبَّة وميل القلب، مهما بذلوا في ذلك من الجهد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا (١٣٧) بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾

التفسير:

١٣٥ - بعد أن أمر سبحانه بالعدل في النساء واليتامى، عَمَّمَ الأمر بالعدل بين المؤمنين فأمرهم: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالعدل في الحكم بين الناس، ممَّنْ يولِّيه السلطان، أو يُحَكِّمه الناس فيما بينهم، أو في العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من العدل والمساواة بينهم، وكونوا شهداء لله بأن تتحرَّوا الحق الذي يرضاه ويأمر به، من غير مراعاة أحد ولا محاباته، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم، أو على والديكم، وأقربِ الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم. فإن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، وشرعه أحق أن يُتَّبَعَ فيهما، فحذار أن تحابُوا غنياً طمعاً في بِرِّه، ولا خوفاً من أذاه وشره، ولا فقيراً عطفاً عليه وشفقة به، فلا تتبعوا الهوى؛ لئلَّا تعدلوا عن الحق إلى الباطل؛ إذ في الهوى الزلل، وإن تَلْوُوا ألسنتكم بالشهادة وتُحَرِّفوها، أو تُعرضوا عنها، فلا تُؤَدُّوها، فالله خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه قَصْدُكم، فهو مجازيكم بما تعملون.

١٣٦ - ثم أمر الله عباده المؤمنين بأن يزدادوا في الإيمان طمأنينة ويقيناً، ويُصَدِّقُوا برسوله خاتم النبيين، وبالقرآن الذي نَزَّله عليه، وبالكتب التي نَزَّلها على رُسُلِه من قبله، فإنه لم يترك عباده في زمنٍ ما محرومِين من البينات والهدى، وبعد أن أمر بالإيمان تَوَعَّد مَنْ كفر بذلك: ومَنْ يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، فقد ضَلَّ عن صراط الحق الذي يُنَجِّي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم، ويمتعه بالنعيم المقيم.

١٣٧ - إنَّ هؤلاء المنافقين أحوالهم مضطربة من إيمان إلى كفر، ثم من كفر إلى إيمان ثم إلى كفر، وهكذا أنَّهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان، وفِقْهِ مزاياه وفضائله، ومثلهم لا يرجى لهم أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه، ومغفرته وإحسانه.

١٣٨- ثم أمر رسوله ﷺ بتبشير المنافقين بالعذاب الموجع، والبشارة لا تستعمل غالباً إلا في الأخبار السارَّة، إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، فاستعمالها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ.

١٣٩- ثم بَيَّنَ بعض صفاتهم التي تستوجب الذمَّ، فهؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصاراً، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، فإن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة، فإنَّ العزة لله يؤتيها مَنْ يشاء، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب العدل بين الناس.

٢- القيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدلُّ على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام.

٣- عبَّر الله ﷻ بـ(الخبير)؛ لأنَّ الخبرة هي العلم بدقائق الأمور وخفاياها، والشهادة يكثر فيها الغِشُّ والاحتيال، وقد يغشُّ الإنسان فيها نفسه، ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها.

٤- أجمع المسلمون على أنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قبله، ولو كفر المرء مئة مرة، وأنَّ التوبة من الذنوب كذلك.

٥- تحريم الردَّة، والردُّ على بعض المعاصرين الذين يَرَوْنَ جوازها إنطلاقاً من حرية الاعتقاد، وهي مغالطة باطلة.

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

التفسير :

١٤٠ - نهى الله المؤمنين أن يجلسوا مع مَنْ يتنقَّص الدِّين، ويزدري بأحكامه: إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات في موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم، ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر، إنَّكم إن قعدتم معهم تكونوا شركاء لهم في الكفر؛ لأنَّكم رضيتم به، ووافقتموهم عليه، فإنَّهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا سيجتمعون في العقاب يوم القيامة.

١٤١ - ثم بَيَّنَ بعض أحوال المنافقين، فهؤلاء المنافقون ينتظرون ما يحدث لكم من هزيمة أو نصر، وشرٍّ أو خيرٍ، فإنْ نَصَرَكم الله وفتح عليكم ادَّعَوا أنَّهم كانوا معكم، فيستحقون مشاركتكم في النعمة وإعطاءهم من الغنيمة، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر مَنُّوا عليهم بأنَّهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين، بتخذيلهم والتواني في الحرب معهم، وإلقاء الكلام الذي تخور به عزائمهم عن قتالكم، فاعرفوا لنا هذا الفضل، وهاتوا نصيبنا ممَّا أَصبتم. إنَّ الله يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويُبطنون الكفر حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب، فيثيب أحبَّاءه ويعاقب أعداءه، فإنَّ المؤمنين ما داموا مستمسكين بدينهم، مُتَّبعين لأمره ونهيه، قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدَّة لن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان.

١٤٢ - إنَّ المنافقين يخادعون رسول الله، فيظهرون له الإيمان ويُبطنون الكفر. ونسب ذلك إلى الله من جهة أنَّ معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به، وهو سبحانه مجازيهم على خداعهم، وإذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا متباطئين متثاقلين، ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل، ولا نشاط يدفعهم على فِعْل؛ لأنَّهم لا يرجون ثواباً في الآخرة، ولا يخشون عقاباً إذ لا إيمان لهم، وإنَّما يخشون الناس، يبتغون بذلك أن يراهم

المؤمنون، فيَعُدُّوهم منهم، ولا يُصَلُّون إلا قليلاً، فإذا لم يَرَهم أَحَد لم يُصَلُّوا، وإذا كانوا مع الناس راؤوهم وصَلَّوا معهم.

١٤٣ - وإنَّ المنافقين مضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين، وتارة إلى الكافرين، لا يخلصون إلى أَحَدِ الفريقين؛ لأنَّهم طلاب منافع، ولا يَدْرُون لمن تكون العاقبة، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادَّعَوا أنَّهم منه. ومَنْ قضت سنته أن يكون ضالاًّ عن الحق مُوغلاً في الباطل، بما قدَّم من عمل، وتَخَلَّق به من خلق، فلن تجد له سبيلاً للهداية باجتهادك، أو المبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإنَّ سنة الله لا تتبدل ولا تتحول.

الفوائد والاستنباطات:

١- حكمة النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا نَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ وجوب إظهار الغضب لله، وأنَّ هذا النهي يقتضي الأمر بمغادرة مجالسهم، إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها.

٢- في الآيات دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله، بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية.

٣- في الآيات دليل على أنَّ مَنْ يُقِرُّ المنكر ويسكت عليه يقع في الإثم، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس.

٤- جاء التعبير عن ظَفَرِ المؤمنين بالفتح وأنَّه من الله، وعن ظفر الكافرين بالنصيب. وفي هذا إيماء إلى أنَّ العاقبة للحق دائماً، وأنَّ الباطل ينهزم أمامه مهما كان له أول أمره من صَوْلة ودولة، وقد يقع في أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل، ولكن تنتهي بغلبة الحق عليه مادام أهله مُتَّبعين لسنة الله بأَخْذِ الأُهْبَةِ، وإعداد العُدَّة، كما أمر بذلك الكتاب العزيز.

٥- تُطَبَّقُ على المنافق في الدنيا أحكام الشريعة في الظاهر، وفي الآخرة.

٦- في الآية (١٤٣) إخبار مستقبلي أنَّ مَنْ صرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه، فلن يجد له طريقاً إلى الهداية واليقين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

التفسير:

١٤٤ – وبعد أن ذَمَّ سبحانه المنافقين بأنَّهم مذبذبون، لا يستقر لهم قرار، فهم تارة مع المؤمنين، وأخرى مع الكافرين، حَذَّر المؤمنين أن يفعلوا فِعْلَهم، ونهاهم أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بيِّنة في استحقاقكم للعقاب، إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين؟.

١٤٥ – ثم أخبر سبحانه عن مآل المنافقين أنَّهم في أسفلِ الدرجات من العذاب، وشرِّ الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار لأنَّهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجهٍ لا يشعر به ولا يحس. ورَتَّبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحَقُّوا أشدَّ العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

١٤٦ – ثم أخبر سبحانه أن هذا الجزاء الشديد الذي أعَدَّه للمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر، وندموا على ما فرط منهم، وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة: اجتهادِهم في صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، بأن يلتزموا الصدق في القول والعمل مع الأمانة والوفاء بالوعد، ويخلصوا النصح لله ورسوله، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله في السر والعلن، واعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله، مع التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، والاعتبار بمواعظه، والرجاء في وعده، والخوف من وعيده، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وإخلاصهم لله بأن يَدْعُوه وحده، ولا يَدْعُوا من دونه أحداً لكشف ضُرٍّ، ولا لجلب نفعٍ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده، فأولئك التائبون يكونون مع المؤمنين؛ لأنَّهم يؤمنون كإيمانهم، ويعملون كعملهم، فيُجْزون جزاءهم، وسوف يعطيهم الله الأجر العظيم الذي لا يُقَدَّرُ قَدْرُه، وأعظمه الجنة.

١٤٧ – ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّ تعذيبهم إنَّما كان لكفرهم بأَنْعُمِ الله عليهم، فبَيَّنَ أنَّه تعالى لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، ولا طلباً لنفع ولا دَفْعاً لضر، لأنَّه تعالى غنيٌّ عن كلِّ أَحَد، مُنَزَّه عن جَلْبِ منفعة له،

وعن دَفْعِ مَضَرَّة عنه، بل ذلك جزاء كفرهم بأَنْعُمِ الله عليهم، ولو آمنوا وشكروا لَطَهُرَتْ أرواحهم، وظهرت آثار ذلك في عقولهم وسائر أعمالهم التي تصلحهم في معاشهم ومعادهم، واستحقوا بذلك رضوان الله الذي يجعل ثواب المؤمنين الشاكرين بحسب علمه بأحوالهم، ونَيْلِهم من الدرجات أكثر ممَّا يستحقون، جزاءً على شكرهم وإيمانهم، فهو يجزي بيسير الطاعات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نِعَماً في الآخرة غير محدودة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات دليل على كمال عدل الله، وأنَّ الله لا يُعَذِّب أَحَداً قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإنَّ فاعلَها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

٢- التحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لأنَّ المنافقين تظاهروا بالإيمان، ووالَوا الكافرين.

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى أنَّ دار العذاب في الآخرة ذات دركات بعضها أسفل من بعض، كما أنَّ دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض.

٤- قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أتى بـ﴿سوف﴾ لأنَّ إيتاءَ الأجر هو يوم القيامة، وهو زمان مستقبل ليس قريباً من الزمان الحاضر.

٥- توبة المنافق مقبولة بشروط هي: أن يُصْلِحَ قولَه وفِعْلَه، ويعتصم بالله، فيجعله ملجأ ومعاذاً، ويخلص دينه لله.

٦- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ خصَّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾؛ لأنَّ الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، ولاسيما في هذا المقام الحَرِجِ الذي يُمَكِّن النفاقَ من القلوب.

٧- في قوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾ تحذير ونَدْبٌ إلى الإخلاص.

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

التفسير:

١٤٨ – لما ذَمَّ الله فيما مضى من هذه السورة أعداء الدين، وفضح مكايدهم، بَيَّنَ سبحانه لعباده المؤمنين أنّه لا حرج في نعت الظالم بظلمه، وفَضْحِ المتآمر بتآمره؛ دفعاً للشر، وأَخْذاً للحذر، وزَجْراً عن الظلم. والمجاهرة بالسوء من القول من مساوئ الأخلاق التي نهى عنها دينُنا الحنيف، لا يُحِبُّها الله تعالى، ولا يرتضيها من عباده المؤمنين، ولا يأذنُ فيها إلا لِـمَنْ اضطرَّ إليها؛ لدفعِ ظُلمٍ، أو رَدْع ظالمٍ، أو للمطالبة بحقٍّ مهضوم، دون مجاوزةٍ للحَدِّ الذي رَخَّص به الشرعُ، رحمةً بالعباد، ونَصَفةً لهم، فلا يتمادَى المظلومُ في ذلك، ولا يجاوزُ حَدَّ الشرع، ويُغالي في التشفِّي والانتقام، وليراقب العبدُ ربَّه تعالى فهو السميع لكلِّ قول، العليم بكل سريرة وفعل.

١٤٩ – بعد أن أباح الله نَعْتَ الظالم بظلمه، نَدَبَ إلى ما هو أفضل، فإظهار الخير مرغوبٌ إذا كان لحفز الهمم، وبَعْثِ النفوس، واستنهاض العزائم، وتنبيه الغافل. والإخفاء مطلوبٌ إذا لم يأمَنِ العبدُ على نفسه مخايلَ الزهو ودخائلَ الرياء. ومن دواعي الإخفاء أيضاً قَصْدُ السَّتْرِ على الفُقَراءِ والمساكينِ، وصَوْنُ كرامتِهم، ومراعاةُ مشاعرِهم، كما يحضُّ الله عباده على العفو والتسامح، فالعفو من شيم الكرام، والإحسان إلى الناس مع الصبر على أذاهم، والعفو عن زَلَّاتهم من معاقد الخير، وجوامع البر، فإنَّ الله يعفو عنهم عفواً واسعاً، وهو القادر عليه أتمَّ القدرة.

١٥٠ – لـمَّا ذكر الله تعالى أحوال المنافقين ورَهَّبهم وتَوَعَّدهم، وحَذَّر من سلوك دروبهم، ذكر أحوال الكفرة وجملةً من صنوف الكفر ودروب الضلال، محذِّراً منها، وفَضَح أهل الزيغ والضلال، مما رخَّص اللهُ فيه لكشف جرائمهم في حقِّ الإنسانية. وأيُّ جرمٍ أشنعُ من السعي إلى التفريق بين الله ورسله الكرام، والمماراة في رسالاتهم، ونكران صلتِهم بربِّهم؛ ليصرفوا الناس عن الهدى؟

١٥١- هؤلاء البعداء عن الحق هم الجاحدون جحوداً بيِّناً، وقد هَيَّأْنا لهم عذاباً مُذِلّاً فيه إهانة؛ لأنَّهم استهانوا بالرسل.

١٥٢- في مقابل الحديث عن الكفرةِ ومصيرهم، بَيَّنَ اللهُ تعالى مقام أهل الإيمان، وعاقبة المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ورسله، ولم يُفَرِّقوا بين أَحَدٍ من الرسل، بل آمنوا بهم جميعاً، وعرفوا لهم فَضْلَهم. هؤلاء أصحاب المنازل العالية سوف نجازيهم على أعمالهم بما لنا من العظمة، ونمنحهم أجورهم، وَعْداً لا خُلْفَ فيه وإن تأخر، فهو سبحانه متصف دائماً بالرحمة والمغفرة الواسعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة القرآن في منهجه الفريد، وأسلوبه الحكيم في الأمر والنهي بما يُرَغِّبُ النفوسَ، ويُرَقِّقُ القلوب إلى الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، مع تَدَرُّجِه في إقامة الحجج وإصدار الأحكام وما ينبني عليها من نتائج.

٢- النهي عن الجهر بالسوء من القول يدفعُنا إلى انتقاء أطايب الكلام، فالكلمة الطيبة لها عذوبتُها وحلاوتُها، ووَقْعُها الحسنُ على النفوس، وهي من أسباب تأليف القلوب، وغرس الفضائل، وشحذ الهمم.

٣- لا يجوز تَتَبُّعُ عورات الناس، وهَتْكُ أستارهم، وفَضْحُ سرائرهم، أمَّا مَنْ تمادى في الظلم فيجوز شكايتُه لردِّه عن ظلمه، أو للتحذير من شرِّه.

٤- نَهْيُ الله عن الجهر بالسوء من القول لا يعني جواز الإسرار به في الخَلَوَات إلا لمظلوم؛ فقد ذَمَّ الله المتناجِين بالإثم والعدوان.

٥- الإيمانُ بالرسل جميعاً ركنٌ من أركان الإيمان، لا يتمُّ ولا يستقيمُ بدونه.

٦- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ترغيب لليهود والنصارى في الإيمان برسول الله ﷺ؛ لأنَّهم إذا آمنوا غُفِرَ لهم ما كان منهم في حال الكفر. (لباب التأويل للخازن ١/ ٦١٦).

٧- العَفْوُ من جليل الصفات التي اتصف بها ربُّ العباد، فهو تعالى العَفُوُّ، يعفو عن عباده بفضله، وهو القادر على مؤاخذتهم بعَدْلِه، فمَنْ أراد نَيْلَ عَفْوِ المولى الكريم فلْيَعْفُ عن الناس مع قدرته على أن ينتصر لنفسه.

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥٣ - سأل اليهودُ نبيَّنا محمداً ﷺ سؤالَ المتعنِّتِ المكابر، الجاهلِ بقَدْرِ الله وجلاله، الغافل عن سننهِ وآياته، سألوا الرسولَ كتاباً ينزله عليهم من السماء، فيُبْصِرونه ويلمَسونه. فلا تعجب يا محمد، فقد اتبعوا سُنَنَ أسلافِهم الذين انتكَسُوا بعد أن رأوا الآياتِ، وضَلُّوا بعد هُدى، وطلبوا إلى موسى رؤية الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة عقوبةً لهم، وقَمْعاً لعِنادهم ولَجاجهم، بعدما رأوا من الآيات، وهذا من جحودهم ومكابرتهم. وأشنع من ذلك أن جعلوا العِجْل معبوداً لهم من دون الله تعالى من بعد أن شاهدوا المعجزات الباهرة ، فعاملهم الله تعالى بعفوه ، ووهب موسى حجة واضحة ومعجزة ساطعة.

١٥٤ - لَمَّا تَعَنَّتَ اليهود بالتحدي هددهم الله تعالى، فرفع جبل الطور فوق رؤوسهم في مشهدٍ مُرَوِّع، وتَوَعَّدهم حتى يتوبوا، وأمرهم وقد تَجَلَّتْ شواهد العظمة أمام أعينهم أن يدخلوا باب بيت المقدس خاشعين، ونهاهم عن هتك حرمة يوم السبت، وأَخَذَ المواثيق المغلَّظة عليهم، لكنهم نكثوا ونقضوا.

١٥٥ - يُبَيِّنُ الله تعالى خيانات اليهود في نَقْضِ المواثيق مع جَلاِلها، والجحد بآياتِ الله مع جلائِها، وقتلُهم الأنبياءَ خيرةَ الخلق، بدونِ جريرةٍ ولا حقّ، ثم يتعللون بقسوةِ قلوبِهم، ويتذرَّعون بأن هذا قَدَرٌ لا مفرَّ منه، وجِبِلَّةٌ لا حيلةَ في التخلُّصِ منها، وما طرأ على قلوبهم من قسوةٍ وجفاءٍ عقوبةٌ بسبب تراكُمِ ذنوبِهم وكثرةِ مِرائِهم، وجحودِهم وإعراضهم، فما آمن إلا القليلُ منهم، أمَّا أكثرُهم فيُصَدِّقون ما يناسب مصالحهم الدنيوية، ويُكَذِّبون ما لا يناسب أهواءهم.

١٥٦ – وهذا الختم على القلوب بسبب جحودهم وافترائهم على مريم بنت عمران الصديقة العابدة، فقد اتهموها في عِرْضِها، وغَمَزُوها في عفافِها، ثم كَذَّبوا بولدها نبي الله عيسى، وتآمروا عليه.

١٥٧ – ١٥٨ – واستحقوا هذا العقاب بسبب تآمرهم على قتله، فنجَّاه الله من أعدائه، توفَّاه ورفعه إلى السماء، وصلبوا رجلاً يشبهه ظَنَّاً منهم أنَّه المسيح، فوَهِمَ اليهودُ أنَّهم قتلوه، وأُلبس عليهم بمكر كُبرائهم. وقد اختلف اليهود والنصارى في شأن عيسى ﷺ وحياته اختلافاً عظيماً: اختلفوا في حقيقته ورسالته، كما اختلفوا في مماته على فرقٍ شتى وطوائف متباينة ضَلَّت في شأنه ﷺ، وحارَتْ في طبيعته، حتى كفَّر بعضُهم بعضاً، وطَعَنَ بعضُهم في بعض، وقد بَنَوا عقائدهم على ظنونٍ وأوهام، ونسجوها على أساطير وخرافات. فليس الأمر كما يظنون، وما قتلوه قطعاً، وما استيقنوا من قتله، بل رفعه الله بقدرته العظيمة إلى السماء حياً بروحه وجسده. وكان الله عزيزاً في ملكوته، حكيماً في تدبيره.

١٥٩ – ولَسَوف يدرك اليهود والنصارى هذه الحقيقةَ في آخر الزمان قبل موت المسيح، ويوم القيامة يشهد لِـمَنْ صدَّق به، كما يشهد على مَنْ كَفَرَ به، وضَلَّ في أمره.

الفوائد والاستنباطات:

١ – الردُّ على مطالب أهل الكتاب المتعنِّتة، والتي يمضون فيها على سنن أسلافهم الذين شدَّدوا، فشدَّد الله عليهم، وتعنَّتوا فضيَّق الله عليهم.

٢ – اليهود هم اليهود، مهما تغيَّر الناسُ وتَبَدَّلَ الزمانُ، يتوارثون الأخلاق والطباع جيلاً بعد جيل.

٣ – تسليةٌ للنبي ﷺ ليتأسَّى بأخيه موسى ﷺ ويتمَثَّل به، فكم احتمل من اليهود ما لا يُطاق، وعامَلَهمْ بالصبر والمداراة!!

٤ – شؤم المعاصي وسوء عاقبتها، فهي سبيلٌ للحِرْمان من الطيبات، وسببٌ في نكدِ الحياة وضيق العيش، فضلاً عن الحرمان والبُعد عن الله.

٥ – نزولُ المسيحِ آخرَ الزمانِ إماماً عادلاً، وحَكَماً مُقْسِطاً.

٦ – تفنيد ادعاء اليهود والنصارى بأنَّ المسيح قد صُلب.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

التفسير:

١٦٠-١٦١ - لما تمادى اليهود في الظلم، وأوغلوا فيه مع ما جاءهم من البينات، عاقبهم ربُّهم بالتضييق والحرمان من طيبات كثيرة، كانت لهم حلالاً بسبب الظلم الشنيع المتغلغل فيهم، والصدود المتكرر الذي ركبوا إليه كلَّ وسيلةٍ، ونهجوا فيه كلَّ فنٍّ وحيلةٍ. ومن صور ذلك أكْلُهم السُّحْتَ، وتحريف الكتاب؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، واستباحة أموال الأميين والقروض الربوية، وسيكون مصيرهم في الآخرة ما أعدَّه الله تعالى لهم من العذاب الموجع، وكان التضييق عليهم عقوبةً لهم، ولعلهم يَرْعَوُون ويَثُوبون، ومَنْ أصرَّ على كفره ولازمه فقد أعدَّ الله له عذاباً موجعاً.

١٦٢- أما مَنْ عصمهم الله تعالى بالعلم الراسخ والإيمان بما أنزل الله، واستقاموا على منهج الله، فداوَموا على الصلاة، وحافَظوا على شروطها وأركانها، وآتوا الزكاة، وهم بعيدون عن التكلُّف مُجانبون للعَنَتِ؛ لأنَّهم يعرفون طريق الأنبياء ويُصَدِّقونهم. وتكرارُ ذِكْرِ الإيمان لحلاوته وعذوبته، فهو حَرِيٌّ بأن يُكَرَّرَ، كذلك لاختلاف متعلَّقِه، ولتفصيل أركانه. وإنَّما جعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بين قُطبي الإيمان؛ لأنَّهما ثمرةُ الإيمان ولبابُه وبرهانُه، فالصلاةُ من أعظم حقوق الله، والزكاةُ من أهمِّ حقوق العباد، كما أنَّ الإيمانَ للأعمال الصالحة عصمةٌ، وسياجٌ، يحيطُ بالأعمال ويزينُها، هؤلاء الذين تسامَتْ درجاتهم سنؤتيهم بعظمتنا الباهرة أجراً لا منتهى له.

١٦٣- إنَّا - لِما لنا من العظمة والقدرة - أوحينا إليك أيها النبي، كما أوحينا إلى مَنْ سبقك من الأنبياء؛ فدعوته ﷺ امتداد لِـمَنْ سبقه، نوح ومَنْ بعده، وأعطينا نبينا داود كتاباً.

١٦٤ - وأوحينا إلى رسل آخرين، وقصصنا أخبارهم عليك - أيها الرسول - قبل نزول هذه الآية، وأرسلنا رسلاً لم نقصصهم عليك، وخَصَّ الله موسى عليه السلام فكلَّمه كلاماً حقيقياً بلا واسطة.

١٦٥ - أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، هدايةً للخلق وتذكيراً لهم، وحجةً عليهم، حتى لا يبقى لأحدٍ عذر. وكان الله عزيزاً في ملكوته حكيماً في آياته.

١٦٦ - إذا أنكر أهل الكتاب نبوتك، وجحدوا رسالتك، فإنَّ الله تعالى يشهدُ لك يا محمد أنَّك مُرْسَلٌ من عنده، وأنَّ ما جئت به هو الحقُّ من عنده، فهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، كذلك أنزله تعالى، وهو العليمُ بحال مَنْ أنزله عليهم، والملائكة يُصَدِّقون ويؤيِّدون، وحَسْبُك بالله شاهداً على صدقك.

الفوائد والاستنباطات:

١- فَضْحُ مثالب اليهود ومفاسدهم، وإثبات ملازمتهم لطبائعهم وخصالهم الذميمة.

٢- الصلة الوثيقة بين فساد الاعتقاد، وفساد الأخلاق والمعاملات.

٣- تحريم الربا وشناعته؛ فأضراره بالغةٌ، ومفاسده ظاهرة.

٤- منهج القرآن الحكيم في الرد على مطالب الكفار، ودَحْضِ ما يثيرونه من شُبَهٍ.

٥- فضل العلم الراسخ والإيمان الخالص، فهما عصمةٌ ونجاةٌ من مُضِلَّات الفتن.

٦- التحذير من الغلو في الأنبياء والصالحين.

٧- ذِكْرُ شهادة الملائكة الأبرار تشريفاً لهم، وشهادته تعالى دائمةٌ، ففي كل وقتٍ وحينٍ يُظْهِرُ الله لعبادِهِ شواهدَ صدق نبيِّه، ودلائل نبُوَّته.

٨- جميع كتب الله تعالى خرجت من مشكاة واحدة.

٩- شرف الزبور وما فيه من بشارات تدلُّ على بعثة خاتم النبيين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

التفسير:

١٦٧ - بَيَّنَ تعالى حال الذين قرنوا بين الكفر البواح والصدِّ عن سبيل الله، فهم قد أوغلوا في طريق الضلال، وأغربوا فيه، وتاهُوا في دروبه المتشعبة.

١٦٨-١٦٩ - إن مَنْ أصَرَّ على ضلاله، وبات على ظُلْمِه لنفسه ولغيره، لن يغفرَ اللهُ لهم، ولا يرشدهم إلى سبيل الهداية والجنة، بل يسوقهم إلى عذاب النار، يمكثون فيها إلى ما لا نهاية. وكان هذا العذابُ المُهين على الله سهلاً وهيناً.

١٧٠ - يُرشد الله الناس جميعاً إلى حقيقة صدق ما جاء به النبيُّ ﷺ، بدعوتهم للإيمان، فهو مُرْسَلٌ من عند الله، والإيمان خيرٌ للإنسانية في دنياها وأخراها، ويُحَذِّرهم مِنْ مَغَبَّةِ كفرهم، وأنه لا يَضُرُّه جلَّ وعلا، فله ملك السموات والأرض. وكان الله عليماً بأحوالكم، حكيماً بتصريف شؤونكم.

١٧١ - ينهى الله تعالى اليهود والنصارى بنداء لطيف يحمل روح العتاب، عن الغُلُوِّ في الدين، والتقوُّل على الله ربِّ العالمين، وفيه ملاطَفَةٌ في العتاب، وحَفْزٌ لهم إلى معاودة النظر في كتبهم التي يؤمنون بها، واحتجاج عليهم بما تنطوي عليه كتبُهم من بشاراتٍ وإشارات، وعهود ومواثيق بالإيمان بخاتم النبيين واتباعه ومناصرته، كَمْ تقاعسُوا عنها، وانسَلُّوا منها! بل ناصبوا النبيَّ العداء، مع تصديقه لما بين أيديهم،

كما نهاهم عن المغالاة في عيسى ﷺ، وبيَّن تعالى القول الصحيح في المسيح، وأنَّه بشرٌ رسولٌ، شأنُ غيرِه من الرسل، وكذلك رَدٌّ على ضلال اليهود وغلوِّهم فيه، فقد كفروا برسالته، واتهموا أُمَّه، واستخَفُّوا بدعوته، فالمسيح خُلِقَ بكلمة الله، فوهبه الحياة، وخَلَقَ الروح التي أودعها المَلَكُ في أُمِّه فكان ﷺ. وقد دعا اللهُ تعالى إلى الإيمان به إيماناً خالصاً والإيمان برسله، وبيَّن حقيقته التي لا يخرج عنها، وحذَّر أهل الكتاب من الضلال في شأن عيسى. تعالى الله وتقدَّس عن الافتقار والحاجة إلى الولد، الذي هو شأن المحتاجين في تدبير أمورهم إلى مَنْ يساعدُهم، أو ينوبُ عنهم، أو يَخْلُفهم.

١٧٢-١٧٣- بعد إقامة الحجة على مَنْ ضَلَّ في شأن عيسى ﷺ تُزيلُ هذه الآيات ما استعذَبَتْه بعض النفوس من كذبٍ، وما استهواها من ضلالٍ في شأن المسيح ﷺ، فهو عبدٌ لله تعالى، فلن يأبى أن يكون عبداً لله، ولن يرغب عن ملازمة العبودية لله، وكذا الملائكة المقربون مع جلالة قدرهم ورفعة منازلهم، لا يرغبون عن عبوديتهم لربهم، والعبودية لله تعالى شرفٌ وعزٌّ. ثم تَوَعَّد الله تعالى مَنْ رغب عن عبادة ربه واستكبر عنها بأنَّ مصيرَه إليه، يُوقفه بين يديه، ويُشْهِدُه على نفسه، ويجازيه بما يستحقُّه. فأما المُصَدِّقون بالله ورسوله والمتبعون ذلك بالأعمال الصالحة، فسيجازيهم بالثواب الكامل، ويزيدهم درجات من فضله، وأما المستكبرون فيعذبهم عذاباً مؤلماً للأجساد والأرواح، ولا يجدون لهم من دونه مَنْ يلي أمرهم، فيَجْلِبُ لهم مطلوباً، ولا مَنْ ينصرهم، فيدفع عنهم مرهوباً.

الفوائد والاستنباطات:

١- النهيُ عن الغلوِّ في الدين، فهو من أعظم الآفات.

٢- حسن عاقبة مَنْ آمن بالله واعتصم به، وسوء عاقبة مَنْ استكبر عن عبادته.

٣- العبودية لله تعالى عزٌّ وشرفٌ.

٤- بيان فضل الملائكة وعبوديتهم التامة لربهم.

٥- يستنبط من الآية (١٧٣) الوقف النبوي عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، فقد صَحَّ عن حذيفة ﷺ: «كان النبي ﷺ إذا مَرَّ بآية فيها ذِكْرُ الجنة سأل، وإذا مَرَّ بآية فيها ذِكْرُ النار تَعَوَّذ، وكان إذا مَرَّ بآية فيها تنزيه سَبَّح». (صحيح مسلم، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ٢/ ١٨٧). وثبت أيضاً عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «إنَّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف اقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا تختموا ذكر عذاب برحمة». (السنن الصغرى للبيهقي، باب ما جاء في قوله: أنزل القرآن، ١/ ٣٢٥). قال الحافظ أبو عمرو الداني: فهذا تعليم التام من رسول الله ﷺ عن جبريل ﷺ إذ ظاهره إذا كان بعدها ذكر الجنة والثواب وكذلك يلزم أن يقطع على

الآية التي فيها ذِكْرُ الجنة والثواب وتفصل ممَّا بعدها أيضاً إذا كان بعدها ذِكْرُ النار والعقاب. (المكتفى ص١٣١). وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد عن أبي طلحة ﷺ مرفوعاً بنحوه، وكذا عن أبي بكرة ﷺ. (المسند ٢٦/ ٢٨٥ برقم ١٦٣٦٦) حسنه شعيب الأرناؤط. والمسند ٣٤/ ١٤٧ برقم ٢٠٥١٤ قال محققوه: صحيح لغيره. وحسنه الحافظ ابن كثير ١/ ٢٢ طبعه الأثري وصححه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٣٤٢). وينظر: المزيد في تفسير سورة الأنعام الآية (٦٥) الفائدة رقم (٥). (ح)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

التفسير:

١٧٤- بعد قيام الحجج وجلائها، وتداعي الشُّبَه ودَحْضِها، يرشدُ تعالى الناس جميعاً إلى حقيقة صدق رسالة النبي ﷺ وما جاء به من براهين ومعجزات، وأعظمها القرآن الذي أنزله الله بما له من العظمة والقدرة والعلم والحكمة، فأقام الحجة بإعجازه وحسن بيانه، وأبان المحجَّة بجمعه بين تحقيق النقل وتبصير العقل؛ فلم يَبْقَ لأَحَدٍ من المخاطبين به أيُّ عذر، وأنار للبشرية طريقها بما حَواه من حِكَمٍ وأحكامٍ، ومقاصدَ وفوائدَ.

١٧٥- وعد الله مَنْ آمن به واستمسك بحبله المتين برحمةٍ واسعةٍ لا منتهى لها وفضلٍ عظيمٍ، لا حَدَّ له في الآخرة، اختصَّ الله بهما وادَّخرهما لِـمَنْ آمن به واعتصم، ويرشدهم إلى دين الإسلام وما فيه من المعالم العظام.

١٧٦- خُتِمَتْ الآيات بما استهلَّتْ به من أحكام الميراث التي شرعها الله تعالى؛ رحمةً بعباده، وهدايةً لهم، وصوناً لحقوقهم، وحمايةً لثرواتهم بإيصالها إلى مَنْ هو أولى بها وفق التشريع الرباني العادل، وقد سأل الصحابةُ ﷺ رسولَ الله ﷺ عن الرجل يموت، ولا وارثَ له من والد أو ولد، وله أخت لأبوين أو لأب، فكان هذا البيان القرآني: للأخت نصف ما ترك أخوها من مال أو عقار أو أثاث أو متاع، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد؛ لأنَّه عاصبٌ فيأخذ ما تبقَّى بعد أصحاب الفروض، أو ينفرد بالمال إن لم يكن ثمَّةَ وارثٌ،

فإن كانتا اثنتين - أي: أختين - فلهما الثلثان ممَّا ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً، فهم عَصَبةٌ، وللذَّكَر مثل حظ الأنثيين بعد أصحاب الفروض إن وُجِدُوا. والله عليم بما فيه المصلحة للعباد والبلاد.

الفوائد والاستنباطات:

١- من رحمة الله ﷻ إثبات البراهين التي تقيم الحجة وتنير الطريق.

٢- بيان فضل التمسك بأحكام الله ﷻ.

٣- وجوب السؤال لمعرفة الحكم الشرعي، فالسؤال مفتاح العلم والفهم.

٤- بيان الحقوق المالية في الميراث، وتأكيدها.

النزول: مدنية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْره في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١- بيان موقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام.

٢- تقرير عدالة الإسلام ورحمته للإنسانية.

٣- بيان كثير من أحكام الأطعمة و الأشربة.

٤- حِماية المجتمعات من الجريمة، وتوجيهها إلى الفضائل.

٥- التَّحذير من مُوالاة اليهود والنَّصارى.

٦- حرص الشريعة على تيسير الأحكام على الناس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾

التفسير:

١ - جاء النداء الأول في هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود. والعقود تشمل كلَّ ما عقده الله على عباده، وألزمهم به من الأحكام، وما بين العباد من عقودٍ، كعقود الأمانات، والمبايعات، وسائر أنواع العقود المشروعة. ومن رحمة الله وتيسيره بالعباد وعنايته بهم أن أحلَّ لهم ما فيه خيرٌ ومنفعةٌ، من ذلك الإبل والبقر والمعز والضأن، وما يشبهها من سائر الحيوانات التي ترعى، فهي حلال إلا ما استثناه الله تعالى، كما حَرَّم الله الصيد على المحرمِ بالحج أو العمرة أو بهما، ولو في غير الحَرَم. وختامُ الآية تقريرٌ لهذا الحكم، فهو تعالى خالقُ كل شيءٍ ومليكه، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

٢ - نداء من الله لعباده المؤمنين ينهاهم عن استحلال نُسُكِه وفرائضِه، والتقصيرِ فيها، أو التهاون في أدائها، كما نهى عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم، وهي: رجب وشوال وذو القعدة وذو الحجة، فلا يقاتَلُ فيها إلا مَنِ اعتدى. ولا يجوز التعرُّض للهَدْي الذي يسوقُه الحُجَّاجُ والعُمَّارُ، ولا لقلائد الهدي فهي أعظم حرمة لأنَّها مقلَّدةٌ تعظيماً لله، ولا يجوز التصدي لِـمَنْ قصد البيت الحرام بمنعه من أداء النسك بعد أن شرع فيها، كيف يُمنع وهو يرجو الفضل العظيم والرضوان الكبير من خالقه، ومُدَبِّرِ شؤونه؟ ولا يَحْمِلَنَّكم بُغْضُ قومٍ على الاعتداء عليهم، أو ظلمهم، وهضم حقوقهم، فتلك جريمةٌ شنيعةٌ. ولما نهى عنه أمر بالتعاون على البرِّ والتقوى والبرُّ جامعُ الخير، والتقوى هي الخوف من الله تعالى، واجتناب محارمه، وامتثال أوامره، كما نهى الله تعالى عن التعاون على الإثم والاعتداء، فليس هذا من أخلاق أهل الإيمان، ثم أمر عباده بالتقوى، وتَوَعَّدَ مَنْ خالف بالعقاب الشديد.

الفوائد والاستنباطات:

١ - اشتملت هذه السورة على ستة عشر نداءً إيمانيّاً، كلُّ نداءٍ يحملُ للمؤمنين توجيهاً وإرشاداً فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم في الدارَين.

٢- وجوب الوفاء بالعقود التي أوجبها الله تعالى وشرعها، وتشمل حقوق الله تعالى، وحقوق العباد.

٣- فَضْلُ الله وتيسيره على عباده؛ إذ وَسَّعَ لهم نطاقَ المباح، وضَيَّقَ دائرة المحرمات، فهي مقصورة على ما فيه ضررٌ للنفس، أو إضرارٌ بالآخرين.

٤- حكى بعض المفسرين: أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعملُ مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: واللهِ ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجَتْ سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحَلَّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أَحَد أن يأتي بهذا. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣١).

٥- تعظيم حُرُماتِ الله تعالى وشعائِرِه فيه خيرٌ عظيمٌ، وبرهانٌ جَلِيٌّ على صدق التقوى.

٦- وجوب التعاون على البر والتقوى، وحرمة التواطؤ على الإثم والعدوان.

٧- شرائع الإسلام تهدف إلى تأليف القلوب، وتوحيد الجهود، وتحقيق الخير للإنسانية. وتلك رسالة الإسلام، رسالة الخير والرحمة للإنسانية والنهوض بها.

٨- تكرار الأمر بتقوى الله تعالى؛ لترسيخها في القلوب، فينبغي أن يكون المؤمنُ تقيّاً وعوناً لغيره على تقوى الله، وينبغي التواصي بذلك؛ فالتقوى وصية الله للأوَّلِين والآخرين.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

التفسير:

٣- حَرَّمَ الله الميتة، التي ماتت دون تَذْكِيَةٍ، والدمَ المسفوح، وكانوا يطبخونه في الجاهلية، أو يسفحونه من الأنعام وهي حية، فيحتسونه أو يطبخونه، وحَرَّم لحم الخنزير، وما ذُبِح لغير الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للنار أو للجن، أو لغير ذلك من الطواغيت، وسائرِ ما يُعْبَدُ من دون الله، وكذلك المنخنقةُ سواءً خَنَقَتْ نفسَها أو خَنَقَها غيرُها، والموقوذةُ وهي التي ضُربت بعصا أو بحديدة أو خشبة ونحوها حتى ماتت، والمتردِّية التي تَرَدَّتْ من شاهقٍ، أو تَرَدَّتْ في بئر ونحوِه ، والنطيحةُ التي نُطِحَتْ حتى فارقت الحياة دون ذكاةٍ، وأكيلةُ السبع إلا ما أُدرِك وذُكِّيَ، وكذلك ما ذُبِح على النُّصُب، وهي الحجارة التي كانوا يضعونها حول الأصنام، وما يترتب على الاستقسام بالأزلام - وهي القِداحُ التي كانوا يستخدمونها في الجاهلية لمعرفة ما قُسِمَ لهم من الخير والشر - وهو ضَرْبٌ من الكِهانة، ورَجْمٌ بالغيب. وكلُّ ذلك من الخروج عن شرع الله ودينه، وقد يئس أعداءُ الإسلام من إطفاء نوره، بعد أن أظهره الله تعالى، فلا تخشوهم، فالخشية لله جلَّ وعلا، وقد أكمل لنا الدينَ، وأتمَّ علينا النعمة، ورَضِيَ لنا الإسلام، اختاره لنا واختارنا له. وهذا من رحمته تعالى بنا وتَفَضُّلِه علينا، فعلينا أن نرتضيه شرعةً ومنهاجاً، وسلوكاً وآداباً. فمَنِ اضْطُرَّ لشيء من هذه المحرمات لجوعٍ شديدٍ فله أن يأكل منها بقَدْرِ ما يَسُدُّ الرمق، دون أن يميل قلبُه إليها، فيستمرئ الإثم، ويستعذب الحرام، فما هي إلا الضرورةُ المُلِحَّة، والله تعالى يغفر له ما أسلف. وهذا من رحمته تعالى: عن طارقِ بنِ شهابٍ قال: قال رجلٌ من اليهودِ لعمرَ بنِ الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابِكم، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلت هذه الآية، لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيداً، فقال عمر: والله

إني لَأعلمُ أيَّ يومٍ نزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله، والساعةَ التي نزلَتْ فيها، وأينَ أُنزِلَتْ؟ وأينَ رسولُ الله حين أنزلتْ؟ نَزَلَتْ عشيةَ يومِ عرفةَ، وفي يومِ الجمعةِ، وإنَّا واللهِ بعرفةَ، ورسولُ الله واقفٌ بعرفة، وكلاهُما بحمدِ الله لنا عيدٌ. (صحيح البخاري، كتاب المغازي باب حجة الوداع، برقم ٤١٤٥، وصحيح مسلم، التفسير ٤/ ٢٣١٢، ٤/ ٣٠١٧).

٤- بعد بيان ما حَرَّم عليهم من الذَّبائح بَيَّنَ تعالى ما أحلَّ لهم، فكل ما طاب أكلُه وناسب طبيعة الإنسان فهو حلالٌ طيِّبٌ؛ ولذا شرع الإسلام التذكية، وحرَّم كلَّ مستخبثٍ، وحرَّم الميتةَ، وكلَّ ما لم تُدْرَكْ ذكاتُه وهو حيٌّ، وأحلَّ الله تعالى ما صادته الكلاب والطيور وغيرها من الجوارح التي يصيدون بها بمهارة وحِذْقٍ، وهو من العلوم النافعة التي امتنَّ الله بها عليكم. فاذكروا اسم الله على الصيد عند إدراكه، واتقوا الله في سائر أموركم، فإنَّ حسابه آتٍ، وهو الذي يَفْصِلُ بين عباده في زمن يسير. وفي هذا تحذيرٌ لِـمَنْ انتهك الحدود.

٥- أحلَّ الله طعام أهل الكتابِ، كما صرَّح بحِلِّ طعامنا لهم، وأحلَّ الله نكاحَ المحصنات، أي: العفائف من المؤمنات، كما أحَلَّ المحصناتِ من الكتابيَّاتِ يهوديةً كانت أو نصرانيةً، وقدَّم المؤمنةَ لأنَّها أولى وأجدرُ، وبَيَّنَ تعالى حَقَّ الكتابية في المهر، وحَذَّرَ من الكفر بأصول الإيمان أو شرائعه؛ لما قد يترتب على مخالطة أهل الكتاب من ميلٍ قلبي يُفضي إلى انتكاسة، أو تضييعٍ للدين؛ وذلك لبيان أن الزواج بالكتابية لا يعني قبول ما هي عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- أفاد قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أنَّ على كل آخذٍ علماً ألَّا يأخذه إلا مِنْ أَقْتَلِ أهله علماً، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل. (انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ٦٤١). والعالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأنَّ الكلب المُعَلَّم له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له عِلْمٌ أولى. (انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٧٤).

٢- الأمر بتقوى الله في سياق بيان أحكام الصيد إشارةٌ إلى أنَّ الحياة كلَّها - جِدَّها ولهوَها - ينبغي أن تخضع لتقوى الله تعالى، وأنَّ المؤمن يراقبُ الله تعالى في سرِّه وعلنه، في خلواته وجَلَواته، وفي سائر المواطن وشتى الميادين، حتى البراري والقفار التي يصيد فيها ينبغي أن يعمرَها بتقوى الله.

٣- في حِلِّ طعام أهل الكتاب ونسائهم تيسيرٌ على الأمة، ورَفْعٌ للحرج، ودعوة للترابط بهذا الميثاق الغليظ، والتعايش بين المسلمين وأهل الكتاب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾

٦- سبب النزول:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المدِينَةَ، فَأَنَاخَ النَّبِيُّ ﷺ وَنَزَلَ فَثَنَى رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِداً، فأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلادَةٍ! فَبِي المَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ: لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لهُمْ. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المائدة برقم٤٣٣٢).

التفسير:

نداء الرحمن لأهل الإيمان؛ لبيان مشروعية الوضوء إذا قاموا إلى صلاتهم، فالطهارةُ من الحدث شرطٌ من شروط صحة الصلاة، لا تَصِحُّ ولا تُقْبَلُ بدونها، فجميع الصلوات يُشترط لِـمَنْ دخلها الطهارة، فأمر تعالى بغسل الوجه واليدين إلى المرفقين، وحدود الوجه من الأذن إلى الأذن عَرْضاً، ومن منبت الشعر إلى منتهى اللَّحْيين طولاً، والفرضُ فيه الغسلُ، والفرض في اليدين الغسل إلى المرافق، أي: معها، فهي داخلةٌ في الفرض، والمسح على الرأس كله، ويجوزُ مسحُ بعض الرأس، وقوله: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ عطفٌ على ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ فالفرض في الأرجل الغَسْلُ؛ لأنَّ العطف هنا يقتضي الاشتراك في الحكم، وأمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة التي تحصلُ بنزول المني أو الإيلاج، كما بَيَّنَ تعالى الحكمة من الوضوء وهو التطهر، ورفع الحرج والتيسير على الأُمة، وإتمام النعمة، فيسَّر اللهُ تعالى لعبادِه وشَرَعَ لهم ما فيه طُهْرُهم وارتقاؤُهم وصلاحُهم، وفلاحُهم، فكان التطهُّر للصلاة لأنها معراجٌ إلى الملكِ القدوس، فواجبُ العبد أن يتهيَّأ لها بطهارة الروح والبدن؛ ليكون أهلاً للوقوف في ساحةِ القُدْسِ، ويظلَّ متأهِّباً لَهَدْي الله ورسوله. وقد شرع اللهُ التيمم تيسيراً على عباده المؤمنين، ورفعاً للحرج عنهم، إذا فُقِدَ الماءُ، أو تَعَذَّرَ استعمالُه لقلَّته، أو لمرضٍ أو لبردٍ شديدٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإسلام دينُ الطهر والنقاء، جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن.

٢- رفعة القرآن الكريم وروعة أساليبه. تأمَّلْ كنايته عن قضاء الحاجة، كذلك التعبير عن الجماع بالملامسة، ففيه من السمو والرفعة ما فيه.

٣- رحمة الله تعالى بعباده، وتيسيره عليهم، ورفع الحرج عنهم.

٤- في الآية رَدٌّ على الموسوسين الذين يبالغون في استعمال الماء.

٥- شعائر الإسلام تستوجب الشكر؛ لأنَّها تهدف إلى طهارة المسلم، وتمام الإنعام.

٦- من سمات أسلوب القرآن الفصاحة في الألفاظ والعذوبة في الكلمات، تأمَّلْ التعبير بالمرافق، ولم يعبر بالمرفقين، كذا في التعبير بالكعبين، دون التعبير بالكعوب لسهولة كلمة (الكعبين).

٧- عَطْفُ الأرجل على مسح الرأس؛ للتنبيه على وجوب الاقتصاد في غسل الأرجل؛ لأنَّ غَسْلَها مَظِنَّةُ الإسراف، فكأنَّها جمعت بين الغَسْل والمسح: الغَسْلُ من جهة تنظيفها فهي عرضةٌ للاتساخ، والمسح يعني الاقتصاد في استعمال الماء عند غسلها.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٧- أمر الله عباده المؤمنين باستحضار نِعَمِه عليهم، ومن جملتها: الهداية والتوفيق والنصرة والتيسير والتمكين، وميثاقه العظيم على السمع والطاعة، فهو تعالى عليم بما يَسْتَكِنُّ في الصدور، وما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، مع عِلْمِه تعالى بظواهر الأمور.

٨- ثم ينادي الله عباده المؤمنين أن يكونوا حريصين أبلغَ الحِرْصِ على القيام لله بالحق، متجرِّدين لذلك إخلاصاً لله وإرضاءً له، لا لأجل الناس أو لحاجة في النفس. وأمرهم بالقسط في الشهادة، فلا يجورون فيها، ودعاهم ألَّا يَحْمِلَهم بُغْضُ قومٍ على تَرْكِ العدل فيهم، بل العدل في الرضا والغضب هو ميزان الحق وطريقُ التقوى، ثم أكَّد الأمر بتقواه في سائر الشؤون مقرراً ذلك بعلمه تعالى، وإحاطته ببواطن الأمور.

٩- ولما أمرهم بالتقوى وحَضَّهم على العدل بَيَّنَ تعالى جزاء المؤمنين، فقرن بين الإيمان والعمل الصالح؛ لما بينهما من تَلازُمٍ، فالإيمان أساسُ العمل والعملُ ثمرةُ الإيمان، فمَنْ جَمَعَ بينهما نال المغفرة والأجر العظيم. وهذا وعدٌ ثابتٌ مؤكدٌ، وليس أعظم من رضوان الله وجَنَّتِه.

١٠- أما عن مصير الكافرين المُكَذِّبين بآيات الله فإلى الجحيم، وَفْقَ قضاءٍ عادلٍ من الله تعالى، فهو العليم بأعمالهم، الحكيم في أقداره وحُكمِه.

١١- وينادي الله عباده المؤمنين، فيُذَكِّرهم بما امتَنَّ عليهم من نعمة الأمن، وكَفِّ الأذى عنهم، وردِّ كيد عدوهم، فكم صرف عنهم من شرٍّ، وكم جَنَّبَهم من بلاءٍ! وكم سَلَّمهم من مكروه! وكم كَفَّ من أيادٍ بُسِطَتْ بالشرِّ والأذى! وكم لله مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ بأوليائه، فليتقوا الله تعالى فهو كافيهم وحافظهم، وهو وحده الذي يُتَّقى، فمَنِ اعتصم بتقواه حَفِظَه ورعاه، ومَنْ توكَّل عليه كفاه، فعليه وحده يتوكل أهل الإيمان. فإذا اتقاه المؤمن وتَوَكَّلَ عليه، فلن تُرْهِبَه قوى الغدر، ولن تهزمه جحافل الطغيان. ولا يستقيم معنى التوكل إلا بالاجتهاد في الأخذ بالأسباب والارتقاء بها، وعلوِّ الهمة في ذلك؛ فإنَّ السير وَفْقَ سُنن الله تعالى هو السبيل لتحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- استحضار النعم وشكرها، وتجديد العهد والبيعة مع الله على السمع والطاعة.

٢- من سُنَنِ القرآن أن يتبع ذكر ثواب المؤمنين ببيان عقاب الكافرين؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء، وليزداد أهلُ الإيمان حرصاً وثباتاً على الحق ومسارعةً إليه؛ ففي ذكر جزاء مَنْ عاداهم تثبيتٌ لهم وتسليةٌ.

٣- العدلُ حقٌّ لجميع الناس مؤمِنهم وكافرِهم، وعدوِّهم وصديقِهم.

٤- ذِكْرُ نِعَمِ الله على عباده المؤمنين، ودفاعه عنهم.

٥- الترغيب في تقوى الله تعالى، والتوكل عليه وحده.

٦- استحضار أسماء الله تعالى وصفاته العُلى ممَّا يزيد العبد تعظيماً ومحبةً ويقيناً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١٢ - يخبر الله جل وعلا مؤكداً هذا الحدث العظيم في تاريخ بني إسرائيل، إذ أخذ عليهم المواثيق، وجَعَلَ فيهم العُرَفاء، وهم المُوَكَّلون بأمر أقوامهم وعشائرهم، الذين يُنَقِّبون في أحوالهم وشؤونهم، ورَغَّبهم اللهُ تعالى في الوفاء والامتثال، وبَشَّرهم بمَعِيَّته لهم، يحفظهم ويَكْلَؤُهم، ويؤيدهم وينصرهم، ووعدهم بالمغفرة والثواب، إن حافظوا على الصلاة، وأدّوا الزكاة لأهلها، وصَدَّقوا وامتثلوا لرسل الله وآزروهم وعَظَّموهم، وبذلوا الأموال في وجوه الخير وميادين البرّ، لَيُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم بغفرانها وسَتْرِها، ولَيُدْخِلنَّهم جناتٍ وارفةَ الظلال، يانعةَ الثمار، جاريةَ الأنهار. فمَنْ كفر بعد ذلك، بنقض الميثاق أو إنكار شيء منه، فقد ضَلَّ عن طريق الحق الواضح المستقيم.

١٣ - فبسبب نَقْضِهم الميثاقَ، وقلة اكتراثهم بالحقِّ، استوجبوا اللعن، واستحقوا الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وعُوقبوا بالحرمان من نعمته، مع قساوة قلوبهم فلا تنزع إلى خير، ولا تَرِقُّ لذِكْر، ولا تلين لموعظة، ولا تتفتّح لقبول آياته لتفيء إلى أمر الله، حتى بلغت هذا الحَدَّ من التلاعب بالألفاظ بالزيادة والنقص والتصحيف، والتحريف للمعاني بالتأويلات الفاسدة، وصرفِ اللفظ عن معناه ومغزاه، حتى صار ذاك دَيْدَنهم وهِجِّيراهم، فلا عجب أن تفضي بهم إلى النسيان لحظٍّ وافرٍ مما ذُكِّروا به من خيرٍ وهُدى. وجرائم اليهود المتعاقبة دليلٌ على نَقْضِهم للعهودِ ونبذهم للمواثيق، وما طُبِعوا عليه من غدرٍ وخيانةٍ، فلا يمرُّ يومٌ ولا ينقضي ليلٌ إلا ويُسْفِرُ عن جرائمهم التي لا حَدَّ لها. وقد دعا الله تعالى، ورغَّب في العفو

والصفح والتسامح تأليفاً للقلوب وإزالةً للضغائن ونزعاً للأحقاد، فالله تعالى يحب عباده المؤمنين الذين يقابلون الإساءة بالإحسان.

١٤ - بَيَّنَ تعالى حال الطائفة الأخرى، الذين زعموا أنَّهم يناصرون المسيح، وأنَّى ذلك وقد أُخِذَ عليهم الميثاق لكنهم تركوا حظّاً مما ذُكِّروا به، فبَدَّلوا وغَيَّروا ووقعوا في الغلوِّ والضلال، فتفرَّقوا أحزاباً وشيعاً، وتفرَّقوا طوائف ونِحَلاً. تلك الآفة عقوبة لهم على النسيان، مع العداوة التي دَبَّت إلى قلوبهم، وخَيَّمت في صدورهم والبغضاء التي ألقت بكَلْكَلِها عليهم، فلا تجتمع لهم كلمةٌ، ولا تصفو مودةٌ، بل يقاتلُ بعضُهم بعضاً، ويضطهدُ قويُّهم ضعيفَهم ويقهرُه، ولا تزالُ كلُّ طائفةٍ منهم تَدَّعي أنَّها الباقيةُ على الحقِّ، وتُكَفِّرُ غيرها، وتَحْمِلُ البغضاء لها، ولَسوف يحاسبهم الله تعالى على جرائرهم، ويجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النسيانُ الذي يراد به الترك والتضييع للأوامر، وهو آفةٌ من الآفات، تُفْضِي إلى الحِرْمان والحَسَرات، وهو عمليٌّ وعلميٌّ، وقد نَتَجَ عن النسيان الـحَيرةُ والفُرقة والشقاق، وعبَّر بالماضي ﴿وَنَسُوا﴾ لأنَّ النسيانَ مضَى وانقضَى مع بقاءِ آثارِه، ومنها ضَياعُ نصيبٍ كبيرٍ من كلام الله، واختلاطُ ما بقي بكلام غيرِه. وعَطَفَ النسيانَ على التحريفِ لما بينهما من تلازُمٍ، فالنسيانُ آفةٌ ناجمةٌ عن التحريف.

٢ - نَقْضُ اليهود للمواثيق والعهود دَيْدنهم وهِجِّيراهم، فينبغي الحذرُ منهم.

٣- قسوة القلوب آفة عظيمة، كم أفْضَتْ إلى أهوالٍ عظامٍ، فقد دفعت اليهود إلى تحريف كلام الله إلى ما يوافق أهواءهم الجامحة ونفوسهم المعتلة وميولهم العدوانية ونزعاتهم العنصرية، وهنا تبرز الصلةُ الوثيقةُ بين قسوةِ القلوبِ، وتحريفِ الكلم عن مواضعِه، ولا قسوةَ أعظمُ من الجُرأة على تغييرِ كتابِ الله وتحريفِهِ.

٤ - بيان من إعجاز القرآن الكريم التاريخي والمستقبلي، فقد نشر صفحات من الماضي، وجلَّى أنباء المستقبل، وأكَّد بقاء كثير من اليهود والنصارى على موقفهم العدائي، وخياناتهم المتكررة، فلا يمرُّ يومٌ، ولا ينجلي صبحٌ إلا على مكايدَ لأعداء الدين من اليهود والنصارى، تُضاف إلى سِجِلِّهم الحافل بالضغائن، مع ما تبوح به ألسنتهم، وتنفثه صدورهم من عداوات.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٦) لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٧) وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (١٨) يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٩) ﴾

التفسير:

١٥ - بعد أن تحدَّث القرآن عن أحوال الطائفتين، دعاهم إلى الإيمانِ بهذا النبيِّ ﷺ الذي جاء ليُبَيِّنَ لهم كثيراً مِمَّا أخفوه من الحقائق والحوادث التي وردت في التوراة والإنجيل، وقد أخفاها بعضُ الأحبار والرهبان عن أتباعهم، أو تناسَوها، كإخفائهم لأوصاف النبي ﷺ وإخفائهم لآية الرجم، وغير ذلك من الحقائق والأحكام، وإن ترك ما لا تدعو الحاجةُ إلى بيانه، ففيما بَيَّنَه الكفايةُ والغُنْيَةُ.

١٦ - والنبي ﷺ نور من الله تعالى لأنَّه جاء بالهدى والحق، والقرآن نُورٌ عظيمٌ وكتاب مُبِينٌ؛ لأنَّه أضاء للناس طريقَهم، وأنار دروبَهم، وأبانَ لهم ما خَفِيَ عليهم، وبَدَّد ظلامَ الشكِّ والحَيرةِ، فهو الهداية إلى سبل الهدى والسلام في الدارين، وهو المخرج من ظلمات الفتن، ودياجير الضلال والحيرة، إلى نور العصمة والهداية.

١٧ - وتُقرِّر الآية كُفْرَ مَنِ اعتقد أنَّ المسيحَ ابنُ الله، فالمسيح عليه السلام بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإن أراد الله أن يُهلكه وأُمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً فلا يملك أحدٌ من الخلق أمراً، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أَحَدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضُرّاً كتبه الله، فضلاً عمَّنْ يدفع عن غيره ما حَلَّ به.

١٨- زعم اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، فما البيِّنة على حُبِّ الله لهم؟ وماذا قَدَّموا لينالوا محبة الله؟ وهل يُقَصِّر المحبُّ في شأن حبيبه، ويفرِّطُ في حقوقه، ويأتي بما يُسخطُه، أو أنَّهم من جنسٍ آخر؟ بل هم بشرٌ كسائر البشر، قد أثقلتهم الخطايا، والخلق كلُّهم سواء. مَنْ شاء الله عذَّبه ومَنْ شاء غفر له، فإن عذَّب فبعَدْله، وإن غفر فبرحمته وفضله، فالكلُّ عبيدُه، يتصرف فيهم كيفما أراد، وإليه مآبهم يحكم فيهم.

١٩- ويأتي النداء لأهل الكتاب يُعْلِمُهم بمجيء خاتم النبيين بعد اندراس السبل، وفترة من الرسل بالبيانِ القاطِعِ والبرهانِ الساطِعِ؛ لئلَّا يكونَ لهم على الله حُجَّةٌ، ولا يبقى لهم عذرٌ. والله تعالى قادرٌ على إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات الباهرة والآيات البيِّنة، وقادرٌ على نصرهم وخِذْلانِ مَنْ تولَّى عنهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- حَثُّ أهل الكتب، وترغيبهم في الإيمان بخاتم النبيين، فقد جاء بالحجج النيِّرة، والآيات الباهرة، والخير للإنسانية.

٢- جمع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ لتعدد أسباب السلام وميادينه وكثرتها.

٣- بطلان معتقد النصارى في المسيح؛ إذ الابن لا يكون عبداً لأبيه، وبطلان دعاوى اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله البررة وأحباؤه.

٤- جواز تَرْكِ ما لا تدعو الحاجة إلى بيانه أو تأخيره، اكتفاء بما بُيِّن.

٥- خُلُق المداراة والإعراض من أدب النبي ﷺ يدلُّ على حسن المعاشرة، ودوام الألفة والإقبال، والتشويق والترغيب.

٦- بعثة الرسول بعد فترةٍ من الرسلِ، وقد هاجَتِ الأشواق، واشرأبَّت الأعناق أدعى إلى المبادرة للإيمان به، ومناصرته ومحبَّتِه، لا إلى مُناصَبَتِه العداءَ، وجحودِه والتآمُرِ عليهِ؛ فالقلوب الصافية تَحِنُّ شوقاً لهذا النبيِّ ﷺ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير

٢٠ - في هذه الآياتِ مشاهدُ ومُساجلات بين موسى ﷺ وقومه، تكشفُ عن تمرُّدِهم وعنادهم، وتنمُّ عن سوء أدبهم وتقاعسهم عن نصرة نبيهم، وهذا موسى ﷺ يُذكِّرهم بنِعَمِ الله الجليلة عليهم، لعلَّ قلوبهم تَرِقُّ وتلين، ومن بينها أن جعل فيهم أنبياء يهدون للخير، وجعل منهم الملوك بعد أن كانوا أرقَّاء مستضعفين، خَدَماً مقهورين، كطالوت وداود وسليمان عليهم السلام، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالَمي زمانهم، وفَضَّلهم على عالَمي زمانهم، كما فَضَّل أُمة محمد ﷺ على سائر الأُمم قاطبةً.

٢١ - وبعد أن ذكَّرهم بنِعَمِ الله عليهم، وذكرهم بماضيهم القريب، وما آل إليه أمرُهم من هدايةٍ وتمكينٍ هيَّأهم لهذا التكليف الذي ينتظرهم فأمرهم بدخول بيت المقدس، وبشَّرهم بأنَّ الله تعالى كتب لهم دخوله، تأكيداً للأمر، وحضّاً على المبادرة إليه فالنتيجةُ سابقة، وما عليهم إلا المبادرة والعاقبةُ مأمونةٌ والمعركة محسومة، فإن تقاعسوا عن أمر الله فقد ارتدُّوا على أدبارهم، وانتكسُوا، وباؤوا بالخذلان والخسران.

٢٢ - و بعد كلِّ هذه المقدمات أظهروا تخاذُلهم، ونقضوا عهد الله ووعده، وقالوا لنبيهم: إنَّ فيها قوماً أشداء أقوياء، نخشى بأسهم، ولا طاقة لنا بلقائهم، وعَلَّقوا دخولهم على خروجِ أهلها عندئذٍ يدخلون آمنين سالمين.

٢٣ - لكنَّ للحقِّ رجالَه وإن عَزُّوا، فهذان رجلان صالحان من خيرة الرجال يقفان وقفةً جديرةً بأن يسجِّلها الله في أشرف كتبه وأعظمها. إنَّما الرجولةُ والشهامة التي تظهر في المواقف العظام، مع دوام الخوف من الله؛ فإنَّ مَنْ خافه لا يخاف من أحد سواه، ومَنْ لم يخف الله تعالى خاف من كلِّ شيء. من أجل ذلك

جاءت نصيحتهم العظيمة: لتكن المبادرة منكم، فخذوا بالأسباب، وأطيعوا ربكم، واتَّبِعُوا نبيَّكم، واقتحِمُوا على الجبابرة معاقلهم، تنالوا النصر والغلبة عليهم. ومع الأخذ بالأسباب فتوكَّلوا على واهبها ومليكها إن كنتم مؤمنين، فالتوكُّل من أحوال الصادقين، وبقدر الإيمان يكون التوكُّل.

٢٤- لكنَّ القومَ مع هذا كله أصرُّوا على موقفهم، وتمادَوا في غيهم، وحسموا موقفهم، موقف التمرُّدِ والعصيان والتقاعس والخذلان، فأجابوا إجابة الجبان المتخاذل، دون اكتراثٍ ولا احتشامٍ، خاطبوا نبيَّهم بما ينمُّ عن سوء أدبٍ، مؤكِّدين أنَّهم لن يدخلوها أبداً طالما بقي فيها أولئك الجبارون، إلا أن يخرجوا، فعندئذ يدخلونها فاتحين ظافرين دون أن يُراقَ لهم دم، أو تتغبَّر لهم قَدَمٌ، أو يُقَدِّموا أدنى تضحيةٍ.

٢٥- وهنا لم يملك موسى عليه السلام إلا أن يتوجَّه إلى خالقه وناصره، مبيِّناً ثباته على العهد، وتأهُّبه هو وأخوه هارون للأمر، ويقينهما بالوعد، ومبدياً الأسى والاعتذار، وراجياً المفاصلة بينه وبين الخارجين عن طاعته المارقين عن أمره.

٢٦- فعاقبهم الله تعالى في التيه بصحراء سيناء، وحَرَّم عليهم دخول بيت المقدس أربعين سنة تأديباً لهم، وأوصاه بألَّا يأسفَ عليهم؛ فهم خارجون عن الطاعة، مجاهرون بالمعاصي.

الفوائد والاستنباطات:

١- دلَّت القصة على طبائع غالب اليهود الرديئة، وأخلاقهم الذميمة، ومنها: الجبن والتخاذل والتقاعس، وسوء الأدب، وما لحق بهم من المذلَّة والهوان والحرمان.

٢- في القصة تسليةٌ للنبي ﷺ؛ فإذا نكث اليهود مع نبيهم الذي بُعث فيهم ونجَّاهم الله به، فما عسى أن يفعلوا مع خاتم النبيين عليهم السلام! وقد عرفوا فأنكروا، ولاحت لهم الحُجَجُ فكابروا، وحَمَلَهم البغي والحسد على معاداته.

٣- بقَدْرِ المحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، يكون امتثال العبد لربه.

٤- التوكل على الله تعالى من ثمرات الإيمان وعلاماته.

٥- التقاعس عن الجهاد يقود إلى التيه والضياع والشتات.

٦- ينظر: صورة صحراء سيناء في الملحق لبيان مكان التيه.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧ – في هذه القصة بيانٌ لأول جريمة في تاريخ البشرية، ودوافع أول بادرة غدرٍ، فهي جديرةٌ بأن تتلى؛ ليُنتفع بها. وقد بدأت فصولُها بتنافسٍ بين الأخوين ابني آدم في القربان، أما أحدهما فقدَّم أجودَ ما عنده عن طيبِ نفسٍ راجياً القَبول، وأما الآخر فتقاعس في هذا التنافس، وقَصُرَتْ هِمَّتُه، فقدَّم أردأ ما لديه، وجلس يترقَّب القَبول، فتقبَّل اللهُ من الصالح قُرْبانَه، ولم يَتَقَبَّلْ من الآخر. وهنا قال لأخيه متوعِّداً: لأقتلنَّك، فأفصح عما يختلج في صدره، وفضح ما يضمره، دون أن يُفَكِّر في سبب ردِّ عمله وخيبة أمله. وكان جوابُ هابيل كافياً لإطفاءِ النار التي تضطرمُ في القلب الحاسد بهذا البَلْسَمِ الرقيق، حين لفت أخاه إلى أنَّ التنافس على رضا الله تعالى ميدانٌ رحيبٌ يتَّسعُ للجميع، وأنَّ ما عند الله من الثواب والعطاء لا منتهى له ولا حَدَّ، فلماذا تَضِيقُ النفوسُ، وتَقْصُرُ الهِمَمُ، والمضمارُ فسيحٌ؟ ولماذا لا ينشغلُ العبدُ بإصلاح نفسه، وتزكيتها وإخلاص نيته وتنقيتها، وتجويدِ عملِه؟ إنَّ القَبولَ للأتقياء، فكن يا أخي تَقِيّاً يقبل الله منك، وفي ذكر التقوى في هذا المقام تخويفٌ له وزجرٌ وصَرْفٌ عن هذا الخاطرِ الرديء.

٢٨-٢٩- ويواصلُ الأخُ البارُّ نُصْحَه متدرِّجاً ومهيِّجاً لمشاعر الأخوة، ومُحَذِّراً من هذا العملِ الآثم فيقول لأخيه: لن أقابل صنيعك بمثله، فأتساوى بك في الخطيئة والجُرم، فكَفُّ يدي عنك ليس عن ضعفٍ أو عجز، لكنه الخوفُ من الله ربِّي وربِّك وربِّ كل شيءٍ، وقَتْلُ النفس الإنسانية عدوانٌ على مَنْ خلقه اللهُ وربَّاه. وهنا تصلُ الكلماتُ إلى نهايةِ المطاف، ويأتي الهتافُ الأخيرُ لعله ينهضُ بتلك النفسِ العليلةِ، ويثيرُ خوفَها من العاقبة الوخيمة، إن هي أقبلت على الجريمة، فلَطالما أصرَّ الحاسدُ على قَتْلِ أخيه البارِّ فإنَّه لن يُبديَ مقاومةً، ولْيَتَحَمَّلِ الجاني مسؤوليةَ جنايتِه، وأوزار من جنى عليه؛ ليهويَ بها في جهنم. وهذا هو الإنذارُ الأخيرُ للجاني؛ لعله يتراجعُ عن عزمِه، كما بَيَّنَ له أنَّ ما يتوعَّد به ظلمٌ، وعاقبة الظالمين النار، وفيه تعريضٌ بما يريدُه أخوه من شرٍّ وهلاكٍ، وتوجيهٌ له إلى الإرادةِ المحمودة، وهي إيثار السلامة.

٣٠- لقد استفرغ الأخ البارُّ جُهْدَه في نُصْحِ أخيه ليَثْنِيَه عن وعيده، ويَصْرِفَه عن جريمته، فهل استجاب ذلك الأخُ القاسي لموعظة أخيه واستعطافه له؟ كيف ونفسُ الحسودِ قد زَيَّنَتْ له هذا الفِعْلَ الشنيع وحَرَّضَتْه عليه، فانقاد لها، وأَقْدَمَ بكلِّ وحشيَّةٍ على قتل أخيه التقي؟ ومثلَ هذا الفعل الشنيع لا تُهَوِّنُه إلا النفوس الجامحة، فباء بالخسران، وأيُّ خُسارةٍ أعظم من قتل نفس بريئة استجابةً لنفسِه الأمَّارةِ وإرواءً لقلبٍ مفعمٍ بالحقد والكراهية؟ وأيُّ خسارة أعظم من أن يتحمل قِسماً ونصيباً من كل جريمة قَتْلٍ على وجه الأرض، ويحرم من صفوِ العيش، ويشعر دائماً بوخز الضمير؟!

٣١- وبعد الجريمة النكراء لم تَطُلْ حيرتُه، إذ بعث الله له مَنْ يرشدُه كيف يَتَصَرَّف؟ غرابٌ يحطُّ على الأرض، وينبشُ فيها، وهنا استوعب الدرسَ وأدرك المطلوبَ منه، ورجع إلى نفسه باللوم؛ كيف وقف عاجزاً عن مواراة أخيه، وساءه ما أقدم عليه، وشعر بالندم على فعلته؟

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية التقرُّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، وأحبِّها إليه تعالى.

٢- الحسد من أسباب الصدود عن الحقِّ والكيد لأهله؛ إذ يُعْمِي عن البصائر، ويُصِمُّ عن المواعظ، فينبغي رَدُّ الحاسد عن حسده بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وصَرْفُه إلى النظرِ في أسباب قصوره عن نيل المطالب، والسموِّ إلى المعالي، وتدارُكِ الحظوظ بالعملِ وسلامة القلب.

٣- في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جَمَعَ في الكلام بين لفظ الجلالة وعنوان الربوبية؛ لتدورَ النفس بين مقام الهيبة والإجلال والتعظيم والمحبة.

٤- التلطُّف واللِّينُ، والتدرُّج في النصح، أرجى لسماعه، وأدعى لقبوله.

٥- حاجة المجتمعات إلى التدابير الواقية من الجريمة، بالتربية الراشدة، وغرس بذور المودة والتسامح، ونبذ أسباب الشقاق والعداوة. وكم تَعَلَّمَتِ البشرية - ولا تزال - كثيراً من المعارف، وكم أبدعت كثيراً من الآلات والتقنيات استلهاماً واقتباساً من العوالم المحيطة بها!!

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾

التفسير:

٣٢- لخطورةِ جريمة سفك الدماء، وشناعة قتل النفس البريئة، والاعتداء على حقها في الحياة، أوجب الله تعالى على بني إسرائيل في كتبه، وعلى لسان رسله وألزمهم، أنَّ مَنْ قتل مَنْ لا يستحق القتل؛ لأنّه لم يَقْتُلْ أو يُفسِدْ في الأرض، فكأنّما بجُرْمِه هذا قَتَلَ الناس جميعاً؛ فقَتْلُ فردٍ كقَتْل شعبٍ بأسره، ومَنْ أنقذها أو حماها، كمَنْ ينقذ غريقاً أو ينتشل حريقاً، وكالطبيب الذي يداوي العلل، ورجل الأمن الذي يمنع الجرائم قبل وقوعها، والقاضي الذي يحكم بالقصاص على القاتل، ففيه حياةٌ للنفوس، وسائر مَنْ ساهم في إنقاذ نفسٍ فكأنّما أحيا الإنسانية جميعاً. لقد أرسل الله رسله في بني إسرائيل بالحُجَجِ الباهرة والشرائع القويمة، لكنَّ الكثيرَ منهم بقي على فِسْقِه وإسرافه في الأرض بإهدار الدماء، وهَتْكِ الأعراض، واستحلال الأموال.

٣٣- بيان جزاء المحاربين لله ورسوله؛ فإنَّ حَرْبَ المؤمنين وأَذِيَّتهم حربٌ لله ورسوله، وخروجٌ عن طاعة الله ورسوله، والحكم يشمل كلَّ محاربٍ، سواءً كان في بادية أو حَضَرٍ، في طريق أو في بلدٍ، فكلُّ مَنْ يقطع الطريق ويُرَوِّع الآمنين، ويُرَهِّبهم، ويسعَى في الأرض مفسداً فيها، ومفسداً لها، فالفساد وسيلتهم وغايتهم، فجزاؤه القتلُ أو الصلب بلا هوادة ولا رفقٍ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خِلاف - بقَطْعِ اليد اليمنى من الرسغ، والرِّجْل اليسرى من الكعب - بدون لينٍ ولا رأفة، أو النفي من الأرض. فمَنْ قتل ونهب المال قُتِلَ وصُلِبَ، ومَنْ أخذ المال ولم يَقْتُلْ قُطعت يده ورِجْلُه من خِلاف، ومَنْ أخاف السبيل ولم يَقْتُلْ ولم ينهب مالاً نُفِيَ من الأرض التي يستقوي فيها، ويفسدُ عليها. هذا العقاب المهين خزيٌ في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذابٌ أليمٌ لا يطاقُ.

٣٤- واستثنى الله مَنْ تاب قبل أن يُقْدَرَ عليه، والكافر المحارب إذا أسلم؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، أما مَنْ حارب مِنْ أهل القبلة، وتاب قبل التمَكُّن منه، فقد سقط عنه حقُّ الله، وبقي حقُّ الآدميين من دماء وأموال. ويَحِقُّ لولي الدم أن يعفوَ كما يحقُّ لصاحب المال إسقاطه. وفي ختم الآية بالاسمين الجليلين ترغيبٌ في العفو والمسامحة لِـمَنْ تاب قبل أن يُقدر عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في تخصيص بني إسرائيل بالذِّكْرِ تقريرٌ للحكم الشرعي، وبيانٌ لكونه أصلاً من الأصول التي اتفقت عليها الشرائع، وإنكار لحال المفسدين منهم.

٢- بَيَّنت الآيةُ الثانيةُ حدَّ الحِرابة، وهو يتفاوت بحسب الجُرم.

٣- يجمعُ القرآنُ بينَ الحُكْمِ الشرعِيِّ والحكمةِ منه. وفي هذا تقريرٌ للأحكام، وترسيخٌ لها في القلوب، ودَفْعٌ لما قد يثار حولها من شُبَهٍ واعتراضاتٍ، كما يَعْقُبُ الحديث عن المعاصي - مهما عظمت - الدعوةُ إلى التوبة، وفتح باب الأمل والصلاح أمام العصاة.

٤- النفوس الخبيثة التي جُبِلَتْ على الشر تحتاج إلى ما يردعها، ويَكُفُّ شَرَّها، والنفوس الطيبة الوادعة تحتاج إلى مَنْ يحميها ويَصُونها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٥- لما بَيَّنَ الله تعالى حالَ مَنْ تَعَرَّض لسخَطِه بالإفساد في الأرض، نادى عباده المؤمنين؛ ليُبَيِّن لهم طريق رضاه، فأمرهم بالتقوى، فهي حِرْزٌ أمينٌ، وسياجٌ حصينٌ للنفس والمجتمع، والمجتمع التَّقي مجتمع صالحٌ آمن، غايته رضا الله تعالى. وأَمْنُ المجتمع وحمايتُه من أعداءِ الإنسانية لن يتحقق إلا بالجهاد، فهو سبيل الأمن والاستقرار والعدل والإنصاف، ومجتمعٌ مؤمنٌ يتنافسُ أفراده على رضا الله تعالى وحده بالقُرُبات والطاعات، ويجاهدون في سبيله تعالى بكلِّ ما يملكون من قوةٍ وعتادٍ، رَفْعاً لكلمته، وحمايةً لعباده، مجتمعٌ آمنٌ مطمئنٌّ، لا مكان فيه للجريمة والفساد، ولا حاجة حينئذ إلى النفقات الباهظة على حماية الأمن.

٣٦- لما ذكر تعالى طريق التقرب إليه وابتغاء مرضاته، بَيَّنَ الله تعالى حال الكافرين، وأنَّ باب التوسُّل أمامهم مُوصَدٌ؛ إذ لم يطرقوه في الدنيا، فلو تملكوا ما في الأرض جميعاً من كنوزٍ وأموالٍ وسهولٍ وجبالٍ وغيرِ ذلك من خيراتِ الأرضِ، ومثل ذلك معهم؛ ليخلصوا به من عذابِ الآخرةِ، ويَتَقَرَّبُوا إلى ربِّهم، ما تقبَّلَ منهم، كيف وقد طُلِبَ إليهم اليسير في دنياهم التي انقضت؟ فمصيرهم إلى عذاب النار الموجع.

٣٧- ثمَّ بَيَّنَ تعالى حالَهم في جهنم وسَعْيَهم إلى الخروج منها، وما هم بخارجين منها، بل ماكثون أبد الآبدين، ولابثون في العذاب المقيم الذي لا انقطاع لوَيْلاته، ولا سبيل إلى الفرار منه.

الفوائد والاستنباطات:

١- قدَّم التقوى على التوسُّل لأنَّها هي الأساس، وبها يتقرب العبد لربِّه، وبدونها لا يُقبل العملُ.

٢- معيارُ القبول هو الإيمان والعمل الصالح مصحوباً بتقوى الله تعالى.

٣- بيانٌ لمنهج الإسلام في تهذيب النفوس والنهوض بها، وترويضها وتزكيتها، بعد أن فتح باب التوبة أمام الجُناةِ والآثمين.

٤- الإيمان والتقوى والتوسُّل إلى الله تعالى بصالح الأعمال وأحبِّها إليه، والجهاد في سبيل الله من أسباب الفلاح في الدارَين.

٥- بَيَّنَتْ الآية صورة المجتمع الذي ينشده الإسلام، مجتمع الإيمان والتقوى، مجتمع الرقي والنهوض، مجتمعٌ تسامَتْ هِمَمُ أفراده، وصَدَقَتْ نياتهم، وتَوَحَّدت أهدافهم، فرِضا الله وقُرْبُه غايتهم، والجهاد سبيلهم إلى العزة والكرامة والفلاح في الدارَيْن.

٦- المنهاج الرباني يقيم الفرد المسلم، وينهض بالمجتمع، ويَصُونه بالأحكام الراشدة والبينات والمواعظ والأمثال البليغة التي تسمو بالأرواح، وتستنهض الهِمَمَ، وتُوقظ الضمائر، وتَجْلُو القلوب، وتزكو بها النفوس، وبذلك تَسْلَمُ المجتمعات من الجرائم.

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٨- بَيَّنَ الله تعالى جزاء مَنْ سَرَقَ غصباً، وروَّع الآمنين، وعطف السارقةَ على السارقِ؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ المرأةَ إذا سرقت لا يُقامُ عليها الحدُّ رأفةً بها. وتقديمُ السارق على السارقة لأنَّ الرجالَ أجرأُ على تلك الجريمة، وأكثر ما تقع السرقة منهم، وأمر تعالى بقطع يد السارق اليمنى، تُقْطَعُ الكَفُّ إلى المِعْصَم، كما جاء بيان ذلك في السنة. وهذا الجزاءُ عادلٌ لا ظلم فيه، وفيه تنكيلٌ بالسُّرَّاق، أي: عقوبةٌ لهم ورَدْعٌ وزجرٌ لكلِّ مَنْ هَمَّ بهذا الأمر، والذي حكم هو الخالق سبحانه ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عَزَّ تعالى فحكم، وفي شرعه العزةُ لأوليائه في الدارين، والمذلةُ والهوانُ لِـمَنْ خالفه وعصاه، وهو العزيزُ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، وهو تعالى حكيم في شرائعه وأقداره وسُننه، شرع تلك الأحكام المنطوية على حِكَمٍ ومصالح.

٣٩- فمَنْ نَدِمَ على ما فات، وتدارَكَ ما ضَيَّع، وكفَّ ظُلْمَه، وأصلح ما فَسَدَ من أمرِه، تاب اللهُ عليه وأصلح من شأنه، فهو تعالى الغفور لكلِّ ذنبٍ مهما عظُمَ، الرحيمُ بعباده التائبين، وكما قَبِلَ الله التائبَ فالواجب على المجتمع أن يقبلَه أخاً صالحاً وعضواً نافعاً، لا أن تلفظه المجتمعات، فيعود إلى أوكار الجريمة، ويرتمي في أحضان أهل الشرِّ بعد أن تَبَرَّأ منه أهل الخير، فلا عملٌ شريفٌ يحتويه، ولا بيتٌ كريمٌ يُؤْوِيه، ولا صُحبةٌ صالحةٌ تأخذُ بيده.

٤٠- في الآيةِ تقريرٌ لما سبق من أحكام، فالذي حَكَمَ وَشَرَّعَ هو مَنْ له المُلكُ التامُّ والتصرُّفُ المطلقُ، وللمالكِ أن يتصرَّف في ملكِه كيف يشاءُ، يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ بعدلِه، ويغفرُ لِـمَنْ يشاءُ برحمتِهِ ولطفِه، وهو القادرُ على إنفاذِ وعيده وإنجاز وعده، فلا يُعْجِزُه شيءٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١- قَطْعُ يدِ السارق عقوبة عادلةٌ ومتوازنة. وإذا نظرنا إلى عقوبات السرقة على مرِّ العصور وجدنا وسطية التشريع الرباني، وعَدْلَه وواقعيته، فالسارق كان يُقتل في بعض الأُمم، أو يصيرُ عبداً أسيراً عند من سرقه، بينما في القوانين المعاصرة يُودَع في السجن. وقد يرى بعضهم أنَّها عقوبة يسيرة بالمقارنة بالقتل أو

الاسترقاق أو القطع، لكنها ليست رادعة، وليست كافية لإصلاحه وتهذيبه. وهذه العقوبة وإن كان ظاهرها الشدة فإنَّ باطنها الرحمة، فهي رحمةٌ بالضحايا الذين لا ذنب لهم، رحمةٌ بالضعفاء، ورحمة باللصوص، وهي فَتْحٌ لباب التوبة والإصلاح، ورحمة بالمجتمع حماية له من هذه الجريمة، وتخليصٌ من تلك الآفات، ففيها مراعاة لمصالح العباد وأَمْنِهم، وقد أدَّى التهاون في هذه الحدود وتعطيلها في كثير من البلدان إلى انتشار السرقات.

٢- المنهج القرآني يهدف إلى إصلاح المجرم، وتأهيله للعودة إلى المجتمع، عضواً نافعاً ومؤمناً صالحاً، وعاملاً منتجاً.

٣- التنويه بمنهج القرآن الكريم في بيان الأحكام وتقريرها، ودفع ما يُثار حولها من شبهات.

٤- في خَتْمِ الآيات الثلاث بأسماء الله الحسنى ما لا يُحصى من الفوائد واللطائف، فكل خاتمة مناسبة لآيتها مقررة لما ورد فيها. إذ تُنَوِّه بثمرات معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى، وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع واستقامة الحياة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٤١- نداءٌ للرسول ﷺ، ينهاه الله فيه عن الأسى والحزن من كيد العِدا، الذين يسارعون في الكفر، ويتهافتون عليه، ويتساقطون في ظلماته، من المنافقين الذين أظهروا الإيمان ولمَّا يَسْرِ إلى قلوبهم التي تمادت في كفرها وغيِّها، وكذلك من اليهود الذين أولعوا بسماع الكذب حتى صار لهم إلفاً يستعذبونه، وينفرُون

من الصدقِ ويَضيقُون به، ويميلُون إلى مَنْ على شاكلتهم، يلوذون بهم ويألفونهم، ويستجيبون لهم، وينقلون لهم الأخبار، إذ لم يحضروا مجالسك، ولم يأتوا لسماع كلامك، بل تَجافَوا عنك؛ نفوراً وحقداً، وكِبْراً وحَسَداً، وهم مع ذلك يتأوَّلون كلام الله بغيرِ تأويله، ويصرفونه عن معناه ومغزاه، ويحرفون اللفظ بإزالتِه واستبدال غيرِه به، كما فعلوا في آية الرجم، فقد كتموها، واستبدلوا بها الجَلْد والتَّحْميم، فانكشف أمرُهم، وقد صار التحريف لهم أمراً مألوفاً، بل أضحى صنعةً يتفَنَّنون فيها، وحِرْفةً يتكسَّبون بها، قَلْباً للحقائقِ، ونَشْراً للأباطيلِ، وسعياً إلى التلبيسِ، فتعطيلُهم لحدِّ الرجم وتبديله من تحريف الكَلِمِ من بعد استقراره واشتهاره في كتبهم يسعون إلى إخفائه وتبديله، بل ويتواصَوْن على أن يأخذوا منك ما لا يُعارِضُ أهواءهم، ويحذَروا من حكم الله تعالى، وفيه العدل والرحمة! لكنَّها حكمة الله تعالى بهؤلاء المبعَدين المحرومين ألَّا يطهرهم من رجس الكفر وأدران الشرك التي انغمسوا فيها، فلا سبيل إلى خروجهم من هذا المستنقع، فهم ليسوا أهلاً للطُّهر؛ فما تملك لهم، وقد سقطوا في جحيم الفتنة مختارين؟

٤٢ - ألِفُوا سماع الكذب حتى صار لهم دَيْدَناً، وكأنَّهم لا يسمعون غيره، وبَلَغَ بهم الحرصُ كلَّ مبلغٍ، حتى أدمنوا أَكْلَ الحرام الذي يُذْهِبُ البَرَكَةَ ويَمْحَقُها. ودَلَّ اقتران الوصفين على فساد الأخلاق، وشدة الولَعِ بالباطل، واستعذاب سماعه، والنَّهم بالحرام، وبعد أن فضح اللهُ أَمْرَهم خيَّر نبيَّه بين التحكيم بينهم أو الإعراض، فإذا حكم بينهم يتعين عليه أن يحكم بما أنزل الله، وإن يُعرِض عنهم، فلا مَضَرَّة في ذلك، فإنْ حَكَمَ فليحكُمْ بالقسط فهو مطلوبٌ ومرغوبٌ، والله تعالى يحبُّ العادلين.

٤٣ - يُنْكِرُ الله تعالى عليهم: كيف يحتكمُون إليك والتوراةُ بين أيديهم فيها الرجمُ، وهو حكمُ الله؛ ثم هم لا يُذْعِنُون للحق، ولا يَرْضخون له! فما هؤلاء البعداء بمؤمنين بحكمِك يا محمد، وليسوا مُقِرِّين بالكتابِ الذي أنزله اللهُ عليك، وبالكتابِ الذي نزل على موسى عليه السلام!

الفوائد والاستنباطات:

١ - تسلية النبي ﷺ، وتثبيته على طريق الدعوة الذي كان محفوفاً بالمخاطر والتحديات.

٢ - قَدَّم المنافقين على اليهود لأنَّ خطرهم أشد، وما تمكَّن اليهود، ولا قامت لهم قائمة إلا بمساندة المنافقين، وضعاف النفوس.

٣ - بيان ما جُبِلَ عليه اليهود من حُبٍّ للكذب، وشغف لسماعه، وتحالُفٍ مع الآخرين؛ لضرب الإسلام والوقيعة بالمسلمين، وماذا يُنتظر من أُمةٍ أمسى الضلالُ منارَتها، وأضحى الحرامُ شعارَها.

٤ - التعامل مع أعداء الحق يتطلَّب حكمة ورويَّة، لسَبْرِ طبائعهم، وفهم أساليبهم.

٥ - الرضا بحكم الله تعالى مِنْ طهارة القلوب وصفاء النفوس.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

التفسير:

٤٤ - بعد الحديث عن التوراة التي بين أيديهم، وقد امتدَّ إليها التحريف والكتمان، فضلاً عن التعطيل والهجران، يأتي الحديثُ عن التوراةِ الحقيقيةِ وعن نزولِها ومضمونِها وثمراتِها الطيبةِ، فالتوراةُ وحيٌ من الله تعالى، وتنزيلٌ من لدنه، نزلت بالهدى والنور، هدى للناس، وهي شجرةٌ ظليلةٌ مثمرةٌ استظلَّ بها النبيُّون الذين انقادوا لأوامرِ اللهِ ورَضُوا بحُكْمِه، فهي شِرعتُهم ومنهاجُهم، وبها حَكَمَ الربانيُّون الذين جمعُوا بين تحصيلِ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وكذلك الأحبار الذين بلغوا معالي الرُّتب في العلم يُحَبِّرونه تحبيراً، وهم أُمَناءُ على كتاب الله، شهداءُ عليه، فهلَّا تأسَّى بهم مَنْ خَلَفَهُم مِنَ اليهودِ، فلا يخافون لومةَ لائمٍ، ولا يستبدلونَ بأحكام دينِهم عَرَضاً زائلاً، فيُفَرِّطون في آياتِ الله، ويُضَيِّعونها لقاء ثمنٍ زهيدٍ، فإن الحكم بغير ما أنزل الله كفرٌ.

٤٥ - ومن جملة ما كتبه الله في التوراة القصاصُ العادل في القتل والجراحات؛ حمايةً للأرواح، وصيانةً للأبدان مع تشريع العفو والترغيب فيه؛ رحمةً وتخفيفاً على العباد. فمَنْ عفا كان عَفْوُه كفارةً لذنوبه؛ لما في ذلك من نزع الشحناء، وحفظ النفوس وسلامة الأعضاء، والترهيب من ترك هذه الأحكام، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فهو ظالمٌ لنفسه ولغيره.

٤٦ - وعلى درب النبيين والربانيين والأحبار سار عيسى عليه السلام مُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة، مؤمناً بها وداعياً للاحتكام إليها، وقد آتاه الله الإنجيل، ووصفه بأنه هدى عظيم ونورٌ مبينٌ، متوافقٌ مع أحكام

التوراة، وموعظةٌ للمتقينَ، وكرَّرَ وَصْفَه بالهُدى؛ لتقريرِ هذا المعنى، ولبيان كونه هدايةً عامَّةً لبني إسرائيل، هدايةَ بيانٍ وإرشادٍ، فوق أنَّه هدايةٌ خاصَّةٌ لِـمَنْ انتفع به من المتَّقين، وكلامُ الله تعالى يُصدِّقُ بعضُه بعضاً.

٤٧- كما أمر اللهُ النصارى أن يحتكموا إلى الإنجيل الذي أنزله اللهُ على عيسى ﷺ، لا الأناجيل المحرَّفة التي يُؤْمِنُ بها النصارى الآن، وهي مزيجٌ من الحقائق والأباطيل، والتشريعات والأهواء، وليعمل أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ممَّا لا يزالُ باقياً لم يُحرَّفْ، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فقد خرج عن طاعة الله، وسنن الأنبياء والصالحين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مقاصد التوراة المنزلة وثمراتها في حياة بني إسرائيل، حين حكم النبيون والربانيون والأحبار بها.

٢- التعريض بما آل إليه حالُ اليهود من إفراطٍ وتفريط وإضاعةٍ، ونكبة عن سَنَنِ النبيين والربانيين والأحبار.

٣- بيان كُفْرِ مَنْ ترك الحكم بما أنزل الله وظلمه وفسقه، فمَنْ ترك الحكم بها منكراً وجاحداً لها، أو مستهيناً بها فهذا كفر، ومَنْ تركه مع إقراره بها فهو ظالمٌ أوفاسق، ظالمٌ لأنَّه ترك شريعةَ العدلِ والرحمةِ، وفاسقٌ لخروجِه عن الطاعةِ والاتباعِ، وإعراضه عن سنن الأنبياء والصالحين.

٤- الكفر مراتب: منها الكفر البواح، ومنها كفر دون كفر.

٥- الترهيب من خطورة التحاكم لغير ما أنزل الله من قوانين وضعية لا تحقق المصلحة، ولا تلائم الفطرة، ولا تعيد الحقوق لأصحابها، ولا تضع الأمور في نصابها.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٨- وأنزل الله تعالى القرآن العظيم آخر كتبه على خاتم رسله ﷺ؛ امتداداً لما سبقه من الكتب وتصديقاً بها؛ فنزوله دليلٌ على صدقها، وهو مهيمنٌ عليها: أمينٌ ورقيبٌ، وحَكَمٌ وشاهدٌ، ومبيِّنٌ لما خَفِيَ منها، ومُوَضِّحٌ لما أُشكل فيها، وحافظٌ يُقَوِّمُ ما اعتراها من اعوجاجٍ، وينفي ما لابسها من أباطيلَ وخُرافاتٍ، مستوعبٌ لما جاء في أصولها، ومتمِّمٌ لها، هو المرجعُ الذي يُحْتَكَمُ إليه عند التنازعِ في شأنِها، وأمر تعالى بتحكيم كتابه والعمل به، وتعظيمه، ونهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواء. وقد جعل الله لكلِّ أُمةٍ شرعةً تحتكم إليها، ومنهاجاً تسير عليه بما يحقق مصالحها، ويُلَبِّي حوائجها. ولو شاء الله لَجمع البشرية على منهجٍ واحدٍ وشرعةٍ واحدة، ولكن اختلاف الناس، وتبايُنَ مشاربهم وتوجُّهاتهم من سنة الله ومشيئته. ومن حِكمها البالغة ابتلاء الناس، مؤمنهم وكافرهم، بَرِّهم وفاجِرِهم، فعلى المؤمن أن ينشغل بما يصلحه في دنياه وأخراه من التنافس في عمل الخيرات والاستباق إليها، دون أن ينشغل بِمَنْ ضَلَّ ويسألَ عمَّنْ هلك، بل يمضي في طريقه جاعلاً الخيرات وسيلته إلى رضا ربِّه، فإليه تعالى المرجع والمآب، وكما بَيَّنَ الحُجَجَ والبينات في الدنيا، فإنَّه تعالى يوم القيامة يقضي بين العباد، ويَفْصِلُ بينهم، ويحكم فيهم، ويقيم عليهم الحجج ويجازيهم.

٤٩-٥٠- ثم يأمرُ الله تعالى بتحكيم شَرْعِه، ففيه الخيرُ والصلاحُ والرحمة بالإنسانية، وفيه البركةُ والسَّعْدُ لكلِّ مَنْ أذعن له ورضي به، وينهى عن اتِّباع ما عليه أهل الضلال من أهواءٍ يحتكمون إليها مع ما فيها من تَعَسُّفٍ وظُلمٍ، ويُحَذِّر من كيد أعداء الدين، وتَحايُلِهم لصَرْفِ أهل الإسلام عن شريعتهم ومنهاجهم، والتلبيس عليهم وتعطيل الأحكام؛ لنشر الظلم وإشاعة الفوضى في المجتمعات. إنَّ الاستجابة لبعض دعواتهم والانقياد لهم، والسقوط في مكايدهم بتعطيل بعض ما أنزل الله فتنةٌ يجب الحذرُ منها. فإن أعرضوا وانصرفوا عن شرعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه لعباده وجعل فيه صلاحهم، فاعلم أن الله تعالى

يريد عقوبتهم وحرمانهم، ثم أنكر الله على مَنْ هَجَرَ شريعته، ورضي بأهواء الجاهلية مع ما تحمله من جهل وسفهٍ وتناقض وظلم، ومع ذلك تجد مَنْ ينادي بها ويطالب بتطبيقها. وأنكر تعالى على مَنْ يعتقد خلافَ ذلك، ويقرر أنَّ حكمه تعالى هو المقدَّم، فلا يضاهيه ولا يضارعه حُكْمٌ، ولا يمتثل لشريعة الله إلا أهل اليقين الذين وَقَرَ الإيمان في قلوبهم، ونَوَّر بصائرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- نزول القرآن الكريم مصدِّقاً لما قبله، ومهيمناً عليه.

٢- في التعبير بـ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بنون العظمة تعظيم للمنزِّل وما أنزل. وفي تقديم الجار والمجرور تشويقٌ للمنزَّل، واعتناءٌ بالمنزَّل عليه.

٣- الحذر من تحكيم الأهواء أو تقديمها على شرع الله؛ لأنَّ شريعة الله نور وحكمة، وعدل ورحمة. أما القوانين الجائرة فإنَّها تُعيدُ الناس لعهود الظلم والاستبداد، والقهر والاستعباد، وتُعَطِّل مسيرة البشرية نحو التقدُّم والنهوض.

٤- الاستباق إلى الخيرات ممَّا يَحُدُّ من فورةِ الخلاف، ويُسَكِّنُ من ثورته، بل ويجمعُ الناس على هدفٍ واحدٍ، ويضع التنافس في موضعه الصحيح.

٥- من أوجه تصديق القرآن بما سبقه من كتب: أنَّها بَشَّرَتْ بنزوله، كما بَشَّرَتْ بخاتم الأنبياء عليهم السلام، وتصديقُه لها لأنَّها أخبرَتْ بمجيئه، ووقوعُ المخْبَرِ به يدلُّ على صِدْقِ من أَخْبَرَ، كما يَدُلُّ على صدقِ القرآنِ، لأنَّه لو كان من عند غير الله لم يُوافِقْها، كما جاء مُصَدِّقاً لما نزلَتْ به من أُصولٍ وأحكام وقصصٍ وأمثالٍ ووعدٍ ووعيد، وبما تبقَّى من أُصول وأحكام.

٦- جَمَعَ القرآنُ الكريم بين كونه مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب والهيمنة عليها. وبين التصديق والهيمنة تلازمٌ، فهو مُصدِّقٌ لما في هذه الكتب من حقائقَ لم تتبدَّلْ، ومُصَدِّقٌ بالكتب المنزلة قبل أن تُحرَّفَ وتُبدَّلَ.

٧- التعبير بـ ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ لأنَّ محاولاتهم ومساعيَهم قائمةٌ على التزيين والتلبيس والتضليل.

٨- خطورة تعطيل شرع الله أو شيءٍ منه، والتحذير من مكايد أعداء الدين، وأنَّهم لا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير:

٥١- نداء إلهي لأهل الإيمان يحملُ نهياً عن موالاة اليهود والنصارى بعدما انجلى من أحوالهم؛ فهم أهل نقضٍ للعهود ومكابرة وجحود، وتضليل وتحريف وتبديل، فكيف يُؤمَنُ مَكْرُهمْ، وتُرجى مودَّتُهم، وبعضهم أنصار بعضٍ! والمرء يوالي مَنْ على شاكلته، ومَنْ يجتمع معه على هدف واحد، فمَنْ تَوَلَّاهم كان منهم، لما تقتضيه الموالاة من دُنُوٍّ وتغاضٍ فكيف تُرجى هدايةُ من والاهم وقد مالأهم على ظلمهم؟ إن الله تعالى لا يرشد الذين خرجوا عن طاعته.

٥٢- ثم لما نهى الله وحَذَّرَ المؤمنين من موالاة الكفرة، بَيَّنَ حال ضعاف الإيمان ومرضى القلوب، كيف يُسارعون إلى موالاة أعداء الدين، ويُهْرَعُون إليهم، ويَتفانَوْن في مرضاتهم؛ مع ما سَبَقَ من تحذيرٍ؟ فتراهم يَتَوَجَّسون خيفة أن تدول الدولة لأعداء الله، وتدورُ الدائرةُ على المسلمين. إنَّها صورةٌ مُزْرِيَةٌ، صورة المنافق الضعيف الإيمان حين يهرولُ إلى أعداء الله رغبةً وطمعاً أو رهبةً وهَلَعاً. والله تعالى قادرٌ على أن يبدِّل الأحوال، ويأتي بالنصر الذي تنكسر به شوكةُ الأعداء وتخمدُ نيرانُهم، والفتح أعمُّ من النصر؛ لأنَّه تحصيل المطلوب وتحقيق المرغوب، والنصر وسيلة لذلك، و«عسى» من الله نافذة؛ لأنَّ الكريم لا يُطمِعُ إلا فيما يُعطي، وقد لا يتحقَّقُ النصرُ المرتجى في المستقبل القريب، لكن ما وراء الحُجُبِ من أقدارٍ لا يخطر ببال، ولذا جاء ﴿أَمْرٍ﴾ منكَّراً لإفادة الإبهام، فهو أمرٌ عجيب يفوق الحسابات ويسبق العقول. وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ لأنَّه من خفايا المقدور، وعجائب التصاريف، فيفضح الله المنافقين ويُوقع بهم، وتدور الدائرة عليهم، بل يتبرَّؤون منهم، ويَتَنَصَّلُون من أفعالهم، فيندمون على مودَّتهم لأعداء الله وموالاتهم، يندمون على ما بدر منهم، ولم يُجْدِ عنهم شيئاً، بل كان سبباً في افتضاح أمرهم، وقد أفاقوا على نورِ صبحِ الحقيقة بعد طولِ تَخَبُّطهم بين ظلام الشبهات ودياجير الفتن.

٥٣- عندما يَنْصُرُ اللهُ عباده، ويأتي الفتحُ، ويُسْفِرُ نورُ الصبح، يقولون للمنافقين: أهؤلاء اليهود والنصارى الذين أقسمتم بالله بأغلظ الأيمان إنَّهم لَمعكم؟ حبطت أعمالهم، وضَلَّ سعيهم، وافتضح أمرهم، وأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- حُرْمَةُ موالاة اليهود والنصارى، وخطرها على الفرد والمجتمع.

٢- صلاح القرآن لجميع العصور.

٣- مَنْ تَبَصَّر بالعاقبة لم يقع في المرهوب، وظَفِرَ بالمطلوب.

٤- موالاة أعداء الله لا يقع إلا من أصحاب القلوب المفعمةِ بالهواجس والشهوات.

٥- مِنْ صدق القرآن الكريم في أنبائه، ما يُشاهَد على مرِّ العصور: كيف باء بالخسران، وظَفِرَ بالخِذْلان مَنْ والى أعداء الدين؟ كيف كانت موالاةُ أعداءِ الله وبالاً على الذين في قلوبهم مرضٌ ممَّنْ عَلَّقوا عليهم الآمال؟

٦- بيان عاقبة الظالم الوخيمة، وحرمانه من التوفيق والسداد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٤- بعد أن نهى الله عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وحذَّر من مفاسدها وشرورها، ناداهم محذِّراً مِنْ تَرْكِ دينه، أو التقاعس عن نصرته بأن يستبدل به مَنْ ينصر الدين، وينهضُ بالأُمة. ومن أجلِّ صفات جيل النصر المنشود وأسمى مراتبهم، محبةُ الله لهم. وتلك نعمةٌ لا تعادلها نعمة ومنحةٌ لا تُضارِعُها كنوزُ الدنيا، ومحبتهم الصادقة لله تعالى، وهي دليلٌ على صدق إيمانهم. ومن ثمرات هذه المحبة بُغْضُ مَنْ أبغضه الله، وحُبُّ مَنْ يحبه، والشدة مع الكافرين والقوة في الحق، ولا يتعارض هذا مع إنصافهم والتسامح معهم والرحمة بهم، والرفق واللين وخفض الجناح للمؤمنين، مع الحُنُوِّ والعطف. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالجهاد فهو سبيل العزة، ومنبع القوة. ومَنْ عَظُمَتْ محبة الله في قلبه فإنَّه يسعى إلى إرضاء الله لا يخشى في الحق لومة أي لائم؛ فإن رضا الله غايتُه ومبتغاه، وما كان للعبد أن يبلغ هذه المنزلة الرفيعة،

ولا يصل إلى هذا الفهم الصحيح والعمل الصالح إلا بفضل من الله تعالى، وفَضْلُ الله تعالى منحةٌ منه لِـمَنْ يشاء من عباده. والله واسعٌ في عطائه، عليمٌ بأحوال خلقه. وفي الآية ما لا يخفى من التعريض بأحوال المنافقين.

٥٥- الناصرُ هو الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين الذين يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وبكمال طهورها، وتمام أركانها، ويدفعون الزكاة لمستحقيها كما فرض ربُّنا، مع ملازمتهم للركوع والخضوع لله.

٥٦- وَعَدَ اللهُ مَنْ تولَّاه ورسولَه وعباده المؤمنين بالنصر والتمكين، فحزب الله غالبٌ.

٥٧- يأتي النداء للطائفة المؤمنة ومعه النهي والتحذيرُ من موالاة أعداء الدين المستخفِّين بشرائعه وشعائره من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، فليس أشدُّ على النفس من أن تسمع السخرية والاستخفاف بما تُعَظِّمُه. وإن الذي يتهاون ويَسْتَخِفُّ بشعائر الله ليس أهلاً للموالاة؛ لذا رَتَّب النهي عن موالاتهم بهذا الحال المستهجن؛ لبيان العلة في الحكم. والأمر بتقوى الله تعالى فيه زَجْرٌ عن هذه الموالاة المنكَرة التي لا تليق بمؤمن، أي: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله ولا تُوالُوهم.

٥٨- ومن صور هذا الاستهزاء والتلاعُب، مشهد سماعهم للنداء، وهو من شعائر الإسلام، كيف يتخذونه مثاراً للسخرية ومادةً للتسلية والتندُّر، مع أن تعظيم شعائرِ الله من تعظيمه؟ فكيف بالاستخفاف بها مع وجوب تعظيمها ورَفْعِها؟ فهل يَسْتَهزئ بدين الله إلا جاهلٌ أحمقُ؟ وهل يَسْتَهين بشعائر الله مَنْ لديه مُسكة عقل؟

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥٤) إخبار مستقبلي أنَّ الله ﷻ يُحَذِّر من الردَّة. فإن حصل ذلك فإنَّ الله تعالى سوف يأتي بدلهم بقوم يحبُّهم ويحبُّونه.

٢- في الآية (٥٤) معجزةٌ غيبية؛ فقد ارتدَّ بعض مَنْ دخل في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وفيها إشارةٌ إلى ضرورة استشراف المستقبل، والتخطيط الدقيق، ومجابهة المخاطر المحتملة، ووضع الحلول.

٣- ذِكْرُ سُنَّةِ الاستبدال، فمَنْ تخاذل عن نصرة الدين فسوف يستبدل الله به مَنْ يؤيد دينه، ويقوم به.

٤- من صفات الجيل المنشود محبة الله تعالى لهم، ومحبتهم الصادقة له، وموالاة أولياء الله، والترفُّق بهم، ولين الجانب والتلطف، والتواضع معهم، مع القوة والحزم في التعامل مع الكافرين بما لا يتنافى مع العدلِ، ولا يتعارض مع التسامح الذي دعا إليه الإسلام.

٥- هذا الجيل إنَّما يكون بفضل الله تعالى ومشيئته، فهو تعالى واسعٌ في فضله كريمٌ في عطائه وتعامله مع عباده عليم بهم، وبمَنْ يستحقُّ النصر والتمكين.

٦- قَدَّم محبته تعالى على محبتهم تعظيماً للمقدَّم، ولأنَّها هي الأساس، وبمحبته تعالى أَحَبُّوه، فالمحبة كلها منه.

٧- تَرْكُ الجهاد من أسباب ضعف الأُمة وهَوانها، وتَسَلُّطِ أعدائها.

٨- الولاء والبراء من مسائل الإيمان، وهو دليلٌ عليه وبرهان على صدقه.

٩- خَصَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر؛ لشرفهما وأهميتهما في حياة الفرد والمجتمع، وفي صلاح الدنيا والدين.

١٠- موقف كثيرٍ من أهل الكتاب الذين يَسْتَخِفُّون بدين الحقِّ بوجهٍ عام، وبشعيرة الأذان خاصة.

١١- تعظيمُ ما عظَّمه الله تعالى من شعائرَ وحُرُمات، وغَيْرَةُ الله تعالى على دينه.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

التفسير:

٥٩- أمر تعالى نبيَّه بسؤال أهل الكتاب على وجه الإنكار والعتاب: لماذا تَنْقِمُون منا؟ ألأننا صَدَّقْنا بالله وبالقرآن وما سبقه، أم تنقمون لأنَّكم خرجتم عن دائرة الإيمان، وانحرفتم عن سَنن الأنبياء، وفطرة الإسلام؟

٦٠- قل لهم يا محمد: هل أنبِّئكم بشَرٍّ من موقفكم هذا البعيد عن الحق، فإذا كان حالُنا شرّاً كما تظنون، فكيف بحال أسلافكم الذين لعنهم الله، وغَضِبَ عليهم ومَسَخهم؟ فما أشدَّه من عقابٍ! أن تجتمع اللعنة والغضب مع المسخ إلى أقبح الصور، وأزراها صورة القردة والخنازير؛ بتمرُّدهم وعصيانهم وعبادتهم لشياطين الجن أو الإنس. هؤلاء البعداء شرٌّ مكاناً، وأَضَلُّ عن طريق الحق، فبِئْسَ ما هم عليه من شرٍّ وضلالٍ لا نظير له.

٦١- تكشف الآيةُ حالةَ اليهود إذ يَدَّعون الإيمان، فإذا جاؤوا المؤمنين، تظاهروا بالإيمان، وقد دخلوا جاحدين، قد لابسهم الكفرُ، ولازمهم وصاحَبَهم، وكما دخلوا خرجوا، ولم يتغيَّرْ من حالهم شيءٌ، بما يَدُلُّ على قسوة وجمودٍ، ومكابرة وجحود. والله أعلم بما تنطوي عليه ضمائرُهم من خبايا.

٦٢- وممَّا يثير العجبَ حالُ كثير منهم، إصرارٌ واستمرارٌ على المسارعة إلى العصيان والاعتداء على المحارم ومجاوزة الحدِّ، فلبئس ما كانوا عليه من أعمالٍ طالحةٍ تُزْري بمرتكبِها وتُرْدِيه مع اغتراره وعُجْبه!

٦٣- فهلَّا أنكر عليهم علماؤهم هذه المنكرات من قول الإثم، وأَكْلِ السُّحْت؟ فلبئس الصنيع ما هم عليه من الرهبنة ولُبْسِ المسوح، والتقاعس عن واجب النصح والسكوت على المنكرات، والصنعةُ تشير إلى مبالغتهم، وتَفَنُّنِهم في ارتكاب المحرمات، كأنها صارت صنعةً يباشرونها، وحِرْفَةً يمتهنونها. ولبئس تَصَنُّعُ الربَّانيين والأحبار وامتهانهم للعبادة والنسك والعلم الذي صار لهم حِرْفةً يقتاتون بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- ليس لدى أهل الكتاب ما يُسَوِّغ نقمتهم وعداءهم للمسلمين، إلا ما انطوت عليه قلوبهم من حسد وكراهيةٍ لهم.

٢- نقمة أهل الكتاب على المؤمنين ظُلْمٌ بَيِّنٌ، ينمُّ عمَّا انطوت عليه قلوبهم من حسدٍ وضغينة.

٣- التحذير من السكوت على المنكر.

٤- دقة القرآن الكريم في التعبير وإنصافه في الأحكام، فإنَّه لا يُعَمِّمُ الحكم على جميع أهل الكتاب، بل يُبَيِّن أنَّ هذا حال أكثرهم.

٥- دَرْسٌ لأهل العلم أن يَجِدُّوا، ويبادروا لأداء واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- افترى اليهودُ على الله، فقالوا بكلِّ جرأةٍ ووقاحة: يد الله ممسكة عن الإنفاق؛ تَعَلُّلاً وتَمَحُّلاً حين طُلِبَ منهم الإنفاق، أو شكايةً من ضيق العيش. وهذا من سوء أدبهم مع ربهم، ونسيانهم لكريم أياديه، وقولهم مردودٌ عليهم؛ إذ البخلُ والتقتيرُ والحرصُ طبعُهم وسَجِيَّتُهم، واستحقُّوا الحرمان من رحمته، على كذبهم؛ فخزائنه تعالى ملأى، بَسَطَ جودَه، ونَشَر إحسانَه، وعَمَّ خيرُه، لكنهم عَمُوا عن ذلك، ولم تَزِدْهم دعوتُهم إلى الحقِّ إلا بُعْداً وحرماناً، بإعراضهم وكيدهم للنبي ﷺ، فازدادوا جحوداً وطغياناً، فعاقبهم الله بالفرقة والشتات، فتفرَّقوا شِيَعاً، كلُّ فرقةٍ تُعادي غيرَها، وتراشقوا التُّهم، حتى صار بأسُهم بينهم شديداً، واحتدم بينهم الخصامُ، وطال الجدلُ، واتسع الخلافُ، وامتدَّتْ نار حقدِهم؛ لتنال من الأُمم الأخرى، فأضرموا نيران الحروب والمحن. وفي ختم الآية ذَمٌّ وتنفيرٌ من فسادهم وفساد غيرهم. وفي نفي المحبة إيذان بأنَّ الله تعالى لا يرفع لهم راية، ولا يصلح لهم بالاً.

٦٥- يُقبل الله تعالى على أهل الكتاب، داعياً لهم مع ما سلف منهم إلى إصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتحلِّي بالإيمان؛ لتُفتحَ لهم باب التوبة والرجاء. ولو صَدَّقوا بجميع الرسل وسائر الكتب، واتقوا محارم الله، لَكَفَّر الله ذنوبهم، ولَأَدْخَلهم الجنات؛ لينعموا فيها، ولو عملوا بأحكام التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم، لآمنوا بخاتم النبيين.

٦٦- وَعْدٌ لهم بالخير والبركة إن هم أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة. وخصَّ الأكل لأنّه هو أكثر ما ينتفع به الإنسان، ويهتمُّ له، وينفق عليه. ففي تأمينه راحةٌ للبال فضلاً عن رَغَدِ العيش، وبَيَّنَ تعالى أنَّ منهم مَنْ سلك طريق القصد والاعتدال، لكن الكثير منهم ساء ما يعملون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٦٤) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال طوائف اليهود، من أنَّهم سيَظَلُّون إلى يوم القيامة يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، وكلَّما تآمروا على كيد المسلمين بإثارة الفتن وإشعال الحرب رَدَّ الله كيدهم، وفَرَّق شَمْلَهم.

٢ - تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بذاته تعالى من صفات النقص التي افتراها اليهود.

٣ - بيانُ حالِ السوادِ الأعظمِ من اليهود الذين لم يقيموا للتوراة وزناً، ولم يرفعوا لها راية.

٤ - نفي محبة الله للمفسدين يدل على محبته تعالى للمصلحين في الأرض، وتأييده لهم.

٥ - طريق الإيمان وإقامة شرع الله يجلبُ البركاتِ والفوز بالجنات.

٦ - في التذييل ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ، ودَفْعٌ لما قد يُتَوَهَّمُ من بقائهم كلهم على الكفر والفساد، بل منهم أهلُ القصد والصدق، الذين لا يخلو منهم زمانٌ، ولكنهم يَقِلُّون إن عَمَّ الفساد، وتَسَلَّط الطغيان، وشاع الباطل، فلا يُسْمَعُ هُتافُهم، ولا يُلتفتُ لهم مع دَوِيِّ الضلال، وهديرِ الباطل. وفيه دليلٌ على دقة القرآن في بيانه، وإنصافه في أحكامه.

٧ - بيانٌ لحالِ اليهودِ والنصارى، وموقفِهم من كتبِهم التي يزعمون الإيمانَ بها والدعوةَ إليها، وهم مُعْرِضُون عنها، يأخذون بطرفٍ منها، ويضربون الذِّكْرَ عمَّا يخالف أهواءهم.

٨ - إن إقامة التوراة والإنجيل على الوجه الأمثل أمرٌ مستحيلٌ، فقد اتسع الخَرْقُ بين الكتب المنزَّلة والكتب المُتداولة بما اعتراها من تحريف؛ ومن ثَمَّ فلا سبيل لإقامة هذه الكتب إلا بالقرآن العزيز.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٧- لما كان سياق الآي في كشف خبايا أعداء الإسلام ومصارحتهم بعِلَلِهم - وهذا أمرٌ يحتاجُ إلى جدٍّ وعزمٍ في تبليغه، وصبرٍ وثبات على تَبِعَتِه - كان هذا الأمرُ الإلهي للنبي أن يُبَلِّغ ما أنزل إليه، والله تعالى يعصمه من كيد الكائدين، أما الكافرون فإنَّ الله تعالى يخذلهم، ولا يُوَفِّقُهم لخير، ولقد بَلَّغَ نبيُّنا ﷺ على الوجه الأتمِّ، فالآية وإن خاطبت النبي ﷺ على وجه الخصوص فهي عامَّةٌ لكل مسلم أن يُبَلِّغَ دعوة الله تعالى، لا يَثْنِيه عن ذلك أحدٌ.

٦٨- ناداهم بشعار الكتاب لبعث روح الحقِّ فيهم، فلماذا لا يلتمسون الهدى، ويُصَحِّحُون المسار، ويُجَدِّدون العهد، وهم أهل الكتاب؟ وفيها دعوةٌ ضمنيةٌ إلى الإيمان بالقرآن، فمَنْ آمن به فقد أقام التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، أمَّا صدودهم وإعراضهم فلن يزيدهم إلا ضلالاً على ضلال، وكفراً على كفر، وفي صَدِّهم وتكذيبهم وكيدِهم للدين الحق مجاوزةٌ للحدِّ، وطغيانٌ في الأرض، ومَنْ حالُه كذلك فإنه خاسرٌ هالك، فلا تأس عليهم - أيها الرسول - فقد اختاروا الكفر وأقاموا عليه.

٦٩- لما بَيَّنَ تعالى أنَّهم ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بَيَّنَ طريق الإيمان وعاقبته، فالذين صَدَّقوا بالله وبرسوله، واليهود، والخارجون عن دينِ اليهود والنصارى من عبدة الكواكب أو الملائكة، والنصارى، مَنْ صَدَّق بالله تعالى، وأقرَّ له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

٧٠- أخذ الله عليهم المواثيق العظيمة، وأرسل لهم الرسل؛ لتجديد العهد وهدايتهم، فكذَّبوا بهم، وقتلوا فريقاً منهم عدواناً وبَغْياً ونصرةً للهوى، وإسكاتاً لصوت الحق. وأيُّ جريمةٍ أشدُّ من قَتْلِ صفوة

خلقِ الله، وحَمَلَةِ مشاعل النور وبشائر الخير؟ إنَّها جريمةٌ بشعةٌ لن تُمحى من ذاكرة التاريخ، بل تظلُّ شاخصة وماثلة للأذهان!

٧١- ظنَّ أولئك الغادرون أنَّهم في مأمنٍ من عذاب الله وبلائه، وازدادوا جُرأةً على حرماتِ الله وانتهاكاً لحدوده، ثم تاب الله عليهم، إمهالاً لهم أو استدراجاً، ثم أعادوا الكَرَّةَ، فتمادَوا في الغَيِّ والفساد، فعَمُوا عن بصائر الحق، وصَمُّوا عن سماعه، وغفلوا عن سنن الله في الأُمم، وفُتِنُوا بسَتْرِ الله وإمهاله، واغترُّوا باستدراجه، وهو تعالى بصير بأعمالهم مطلعٌ عليها، ومجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تبليغ دعوة الله تعالى، وعصمة النبي ﷺ من كيد الأعداء وغَدْرِهم.

٢- أصلُ الداء هو الإعراض عما أنزل الله، والدواء إقامة دينه وكتابه.

٣- الكفر والعصيان من أسباب زوال النعم، وحُلول النِّقَم على المجتمعات والأُمم.

٤- دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان والعمل الصالح، فهو طريق الأمن والسَّعْد.

٥- ما صنعه اليهود في عهد النبي ﷺ هو حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافُهم من قبل، وهذا درسٌ لأمتنا في كلِّ عصر؛ كيما تأخذَ حَذَرَها.

٦- الحرص على إرضاء الأهواء وإرواء الضغائن، بدلاً من إزالتها، يُفْضي إلى الكبائر العظام والجرائم الجسام، كما وقع من اليهود قتلةِ الأنبياء.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴾

التفسير:

٧٢- بعد الحديث عن حال بني إسرائيل، ونَقْضِهم الميثاق، وقَتْلهم للأنبياء، وتكذيبهم بما جاؤوا به، يأتي الحديثُ عن ضلال النصارى في شأن المسيح عليه السلام وزعمهم أنَّه ابن الله، وأنَّ الله ثالث ثلاثة. تعالى الله عما ينسبونه إليه من الولد والشريك. وفي هذه الآيات بيانٌ صريحٌ بكفرِ مَنْ ضَلَّ في شأن المسيح، فادَّعى أنه إله أو ابن إله، فالمسيح عليه السلام بريءٌ مما ادَّعاه النصارى، فقد جاء بالتوحيد ودعا إلى الإيمان الخالص، وحَذَّر من الشِّرْك وعاقبته، وبَيَّنَ أنَّه سببٌ للحرمان من الجِنان، ودخول النار، وأنَّ المشرك لن يَجِدَ مَنْ ينصُرُه، وربط الشرك بالظلم لأنَّه أعظمه وأقبحه.

٧٣- ويؤكِّدُ اللهُ تعالى كُفْرَ مَنْ قال بالتثليث، فما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عن هذا الكذب، فإنَّ مصيرهم إلى العذاب الأليم بهذا الاعتقاد الفاسد.

٧٤- حَثٌّ على التوبة، وحَضٌّ على الاستغفار من كلِّ ذنبٍ مهما عَظُمَ، وهل هناك ذنب أعظم من الشرك! فليتوبوا إلى الله تعالى منه ويستغفروه، فإنَّه تعالى غفور لِـمَنْ تاب وأناب رحيم بعباده، ولا سبيل لمغفرة الذنوب إلا بالتوبة والاستغفار.

٧٥- ثم يُبَيِّن الله تعالى القول الحقَّ في المسيح عليه السلام، وهو أنَّه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنَّه لا أب له، ولو كان له أبٌ لَنُسِبَ إليه، وإنَّما خَلَقَه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدلُّ على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى عليه السلام بشرٌ رسولٌ، شأنه شأنُ مَنْ سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم، وأقامه على سَنَنِهم، وأُمُّه صِدِّيقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجةُ إلى الطعام والشرابِ غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإلهُ فهو غنيٌّ

قويٌّ، ليس كمثله شيء، فكيف يَدَّعُون أنه إله أو ابن إله! فتأَمَّلْ كيف يُقيمُ الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ، ثم هم يُصْرَفون عن الحقِّ، ويَقْلِبون الحقائق، ويُقِرُّون الأباطيل، مع جَلاء الآيات وتصريفها؟

٧٦- فكيف تعبدون المسيح، وترجونه من دون الله، وتَدَّعُون أنَّ ضلالكم في المسيح يضمن لكم الخلاص، والمسيح لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، فكيف تُرَدِّدُون هذا الكفر؟ واللهُ تعالى سميعٌ لأصواتكم، عليمٌ بأعمالِكم الظاهرةِ والباطنةِ!

الفوائد والاستنباطات:

١- الضلال في شأن عيسى ﷺ، وادعاء أنه إله أو ابن إله، كفر صريح، وإثمٌ عظيم.

٢- الصِّدِّيقية مرتبة من مراتب الإيمان، وهي من أعلى المراتب بعد النبوة، وهي غاية الصدق مع الله ومع النفس ومع الخلق، وأساسها العلم واليقين، وثمرتها العمل الصالح والرضا والتسليم.

٣- الذي يأكل ويشرب يحتاجُ إلى الخلاء، وقد تعتريه العِلَلُ، ويفتقر إلى غيره، وليس هذا من شأن الخالق جلَّ وعلا فهو تعالى الغنيُّ، ليس كمثله شيءٌ. وهذا دليلٌ جليٌّ على بشريَّة المسيح ﷺ، وقد ثبت في الأناجيل أن المسيح كان يأكل ويشرب.

٤- قَدَّم الضرَّ؛ لأنَّ النفوس بدفعه مشتغلة أكثر من اشتغالها بجَلْب النفع.

٥- باب التوبة من كل ذنب مفتوحٌ مهما عَظُم، ولقد رَغَّبَ اللهُ في التوبة، وحَثَّ على المبادرة إليها قبل فوات الأوان. وهذا من رحمته تعالى ولُطْفِه، وترفُّقه بالعباد.

٦- إثبات صفة المغفرة والرحمة والسمع والبصر لله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

التفسير:

٧٧- ينادي الله تعالى عليهم بصفة أهل الكتاب؛ لينهاهم عن الغُلُوِّ في الدين، وهم أهل كتاب لا يزالُ يحوي ما يدعو إلى التوحيد، ونَبْذِ الشرك، وهم كذلك أمناءُ على دينهم، فكيف يُقْحِمون فيه ما ليس منه؟ لذا نَسَبَ الدِّين إليهم، ثم نهاهم عن اتباع أهواء مَنْ سبقهم في هذا الضلال، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وضَلُّوا عن طريق الحق وسبيلِ القصدِ.

٧٨-٧٩- لعن الله الكافرين من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، بسبب كفرهم وتماديهم في العصيان، واعتدائهم على الحُرُمات، وترك النهي عن أي منكرٍ، حتى عمَّت المنكرات، بل صارت مألوفةً معروفةً، وأمسى المعروفُ منكراً مستغرَباً، فلبئس ما كانوا عليه من ذميم الخصال، وسوء الفعال، فلو كان في قلوبهم تعظيمٌ لله ومحبةٌ وغَيْرَةٌ على محارمه لَمَا تَخَلَّوا عن واجبهم في إنكار المنكرات.

٨٠- موالاة كثير منهم للكفرة من عبّاد الأوثان وغيرهم من طوائف الكفر، فكيف سَوَّلَتْ لهم أنفسهم هذا الأمر المنكرَ حتى استجازوا لأنفسهم مناصرةَ مَنْ يوقنون بكفرهم؟ فبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم ولمعادهم ما استوجب سَخَطَ الله وعذابه الأبدي، فقد سَوَّلت لهم أنفسُهم تلك الرزايا، وهَوَّنت عليهم الخطايا، فاستحقوا عذاب نيران جهنم، فهم فيها خالدون.

٨١- ولو كانوا مؤمنين بالله حَقَّ الإيمان، وبالنبيِّ الذي بُعِثَ فيهم وما أُنزل إليه، ما اتخذوا أولئك الكفرةَ أولياء، فموالاةُ الكفار ليست من خصال أهل الإيمان، بل من نواقضه ومُحْبِطاته، وهي من شأن الفسقة المجاهرين بالعصيان الخارجين عن الطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- النهي عن المنكر حِفْظٌ للدين وحمايةٌ للأخلاق والآداب، وسياج للمجتمعات.

٢- السكوت عن إنكار المنكر آفة عظيمة تُفْضِي إلى مفاسد كثيرة على الفرد والمجتمع، منها: انتشار المنكرات، وانحسار المعروف، وتَعاظُمُ أهلِ الشَّر، وضَعْفُ أهلِ الحق، واندراسُ العِلْمِ، وكثرةُ الجُهَّال، والتلبيسُ والخَلْطُ حتى يصير المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

٣- قال القرطبي: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأَمْرٌ بتَرْكِهم وهِجْرانهم» وقال: «على أنَّ مَنِ اتخذ كافراً ولياً فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله». (الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٥٤).

٤- الإيمان عصمة ونور ومنهاج.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

التفسير:

٨٢- قسماً ستسفر لك - أيها الرسول - الأيامُ، وتكشف لك الأحداث، عن شدة عداوة اليهود لك ولدعوتك. وقَدَّمَ اليهود بالذِّكْرِ لأنَّ عداوتهم أشَدُّ من غيرهم؛ ذلك أنَّ اليهود عداوتهم متوارثة بينهم؛ فهم يقفون في وجه الدعوة عناداً واستكباراً على الخلق، وحسداً من عند أنفسهم؛ و كان كفرهم كفرَ عناد وجحود، وتَنَقُّصاً بحَمَلَةِ العلم. وأما المشركون فهم عَبَدَةٌ للأوثان، وقد أسرفوا بالمعاصي والشهوات؛ وأَلِفُوا الكفر والضلال مدة طويلة. ولتجدنَّ - يا محمد - أقربهم مودةً للمسلمين هم الذين قالوا: إنَّا نصارى. وتعليل قربهم مودةً أنَّ منهم علماءَ بدينهم، يدينون لله تعالى بالخير والرحمة والعدل، وهم منقطعون في معابدهم للصلاة والعبادة، لا يستكبرون عن قبول الحق، وهؤلاء هم الذين قَبِلُوا دعوة الرسول ﷺ، ودخلوا في دينه.

٨٣- ويَدُلُّ على قُرب مودَّتهم أنَّهم لما سمعوا القرآن يُتلى عليهم اهتزَّتْ مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينُهم بالدمع؛ ولم يكتفوا بهذا الشعور، وإنَّما أذعنوا للقرآن وآمنوا به، وعلموا أنَّه كلامُ الله المنزل على قلب رسوله محمد ﷺ، وسألوا اللهَ بتضَرُّعٍ وذُلٍّ أن يُكْرِمَهم بشرف الشهادة؛ ليكونوا من أُمةِ محمدٍ ﷺ الذين هم شهداء على الأُمم يوم القيامة.

٨٤- وأكَّدوا إيمانهم بقولهم: وأيُّ شيءٍ يمنعنا من الإيمان بالله تعالى والتصديق بما جاءنا به محمد ﷺ من الحق من ربه، ونرجو من الله أن يُدْخِلَنا الجنة مع الصالحين؟ وفي الكلام إضمار، أي: ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، وهم المسلمون من أُمة محمد ﷺ.

٨٥- فجازاهم على إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بنبوة محمد ﷺ، جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها؛ وذلك جزاء إحسانهم وصنيعهم.

٨٦- وأما الذين كفروا بالله وأشركوا معه غيره، وكَذَّبوا بآياته المنزلة على رسله، فأولئك المبعَدُون عن رحمته، المستحقون للخلود في النار التي تتأجج بهم من شدة حَرِّها وهيبها.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين على مَرِّ الأزمان.

٢- اللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القسم، والغرض منها التأكيد. وأكَّد الفعل بشيئين: لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين وهذه حالةٌ معروفةٌ قديماً وحديثاً.

٣- تقديم عداوة اليهود للمسلمين على المشركين؛ لأنَّها أشَدُّ ضراوة، وأشنع جرماً.

٤- تحالف اليهود والوثنيين على حرب المسلمين، وأكدت الآية بالقَسَم اعتناءً ببيان تحقق مضمونها.

٥- ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للتبعيض متعلقة بـ﴿عَرَفُواْ﴾ على معنى: عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف لو عرفوه كله، وقَرَؤُوا القرآن، وأحاطوا بالسُّنَّة؟

٦- شدة عداوة اليهود للمؤمنين، وصعوبة إجابتهم إلى الحق.

٧- فضل إسلام الكتابي إذا أسلم، والتنكير في ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ لإفادة الكثرة.

٨- التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات، صفاتٌ محمودة أينما كانت.

٩- بيان منهج القرآن في استعمال أسلوب الترغيب والترهيب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٨٧- يا مَنْ آمنتم بالله تعالى لا تجعلوا الحرام حلالاً، ولا الحلالَ حراماً؛ كأنْ تُحَرِّموا شيئاً من المطاعم والمشارب والملذات المباحة على أنفسكم، أو تُحِلُّوا شيئاً من المطاعم والمشارب المحرمة. إنَّكم إنْ فَعَلْتُم ذلك فإنَّكم تُضَيِّقون ما وَسَّع الله عليكم، وتُوَسِّعوا ما ضَيَّق الله عليكم؛ فلا تتجاوزوا الحدَّ، فتُحِلُّوا ما حرَّم الله، وتحرِّموا ما أحلَّ الله؛ فالله يُبْغِضُ المعتدين، وليس المرادُ من النَّهْيِ أَنْ يَلْفِظَ بلَفْظِ التَّحْرِيمِ خاصَّةً، بل أَنْ يَتْرُكَه تَشْدِيداً على نَفْسِهِ سَواءً لَفَظَ بِالتَّحْرِيمِ، أمْ لم يَلْفِظْ به.

٨٨- وكُلُوا من الطيبات التي أحَلَّها الله لكم؛ فهو رِزْقٌ رزقكم الله إياه، وأعطاكم حقَّ التصرف به، وما دمتم قد آمنتم بالله تعالى، فاتقوا الله باتِّباع أوامِره، واجتناب نواهيه.

٨٩- يَعْلَمُ الله بشريَّة الإنسان وضعْفَه ونَقْصَه، وقد راعى هذا الجانب في صورةِ القَسَمِ الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبي، مثل: لا والله، والله لَأذهب...، وهو ما يُعرف باللَّغْوِ؛ فيبشركم - أيها المؤمنون- أنَّه عفا عنكم فلا يحاسبكم عليه، ولكن يحاسب على ما حلفتم به بألسنتكم، وعزمتم في قلوبكم عزيمةً تُثْبِتُ صدق نيتكم في الحلف. وقد منع الله العقوبة وسَتَرَها بالكفارة، فإن حلف وأكَّده بنيةٍ تُثبت صدق ما حلف به ولم يفعله؛ فإنَّه يستلزم عليه إخراج كفارة، وهي إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم به الأهل، لكل مسكين مُدٌّ، أو كسوتهم من إزارٍ ورداءٍ وقميص، أو أيِّ لباس يسترهم بحسب اختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، أو إعتاق عبدٍ مملوك ذكراً كان أو أنثى. وهذه الأشياء الثلاثة مخيرٌ بها، فمَنْ لم يجد من ذلك شيئاً فعليه صيامُ ثلاثة أيام، وهي مُكَفِّرات لأيمانكم، فاحفظوا أيمانكم، واجتنبوا الحَلْفَ، فإن كان لابُدَّ منه فالتزِمُوا بوفائها إن حَلَفْتُم، والتزموا بالكفارة إن لم تَفُوا به، وقد بَيَّنَ الله لكم أحكام دينكم؛ لتشكروه على رحمته وهدايته لكم. فله الفضلُ والثناءُ على بيان شرعه.

الفوائد والاستنباطات:

١- عِظَمُ تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه.

٢- حرمة القول على الله بغير علم.

٣- شمول الرزق على الحلال والحرام في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ إذ لو لم يقع الرزق على الحلال والحرام لم يكن لذِكْرِ الحلال فائدة سوى التأكيد، وهو خلاف الظاهر. واقتصر على الأكل؛ لأنَّ معظم ما حرَّمه الناس على أنفسهم هو المآكل، والأمر بالتقوى تأكيد للوصية بما أمر به، وزاده تأكيداً قولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

٤- مراعاة مُتَطَلَّبات الحياة، ودواعي الفطرة السليمة السوية من إيفاء حَقِّ الروح والجسد، وهو دينٌ جاء وسطاً بين المسيحية واليهودية، فالمسيحية مُفْرِطَةٌ في الروحانية، واليهودية مُفْرِطَةٌ في المادية، فكان الإسلام وسطاً بينهما.

٥- بيان تشريع أحكام كفارة حَلْفِ اليمين على اليسر والرحمة، من غير مشقة.

٦- لا مؤاخذة بالأيمان التي تُحْلَفُ بلا قصد، ولا يتعلّق بها حُكْمٌ، وهي اليمين اللغو، كما قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

٧- رحمة الله بعباده المؤمنين في تشريع كفارة الحَلْفِ.

٨- أَكْلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، وذلك ظاهر مِنْ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التفسير:

٩٠- يا أيها المؤمنون، إنما الخمر وهو الشراب المُسْكِرُ الذي يذهب العقل، والميسر وهو المراهنات المالية التي تدفع من الجانبين وهو ما يعرف بالقِمار، والحجارة التي تُنْصَب للعبادة، والأزلام وهي القِداح التي

يستقسم بها المشركون قبل أن يُقْدِمُوا على شيء؛ ليعرفوا أمرهم: أَيُقْدِمُ أم يُحجم؟ أو يفعل الشيء أو لا يفعله، أو يسافر أو لا يسافر... إنَّ كل ما تقدَّم ذكرُه وبيانه إثمٌ من عمل الشيطان؛ فابتعدوا عنه ولا تقربوه. وتقدَّم بيان الاستقسام في الآية (٣) من هذه السورة.

٩١- إنَّ خطة الشيطان في شرب الخمر واللعب بالميسر مكشوفةٌ، وهي الكيد، وإيقاع العداوة والبغضاء، والحقد والكراهية بين المسلمين، فكل هذه الآثام ثبت تأثيرها في الناس: فالخمر تُفْقِد العقل فتسبب النزوات وتثير النعرات؛ وأما الميسر فتترك في النفوس الأحقاد وتؤجج الكراهية. ومن آثارها أنَّها تَصُدُّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة؛ بسبب غياب العقل وعدم إدراكه، فعليكم اجتنابَ ذلك كله.

وما ظهر من مفاسد الخمر والميسر كافٍ في انتهاء الناس عن تعاطيهما، ومن هنا يقبل الله على عباده بهذا الخطاب الذي يجمع بين العظمة والروعة، ويحمل معنى النهي القاطع بهذا الأسلوب الحكيم، مما دفعهم إلى المبادرة للامتثال؛ ولذلك رُوي أن عمر ﷺ لما سمع الآية قال: انتهينا انتهينا.

وقد اقتصرت الآيةُ على المفاسد في شُرْبِ الخمر وتعاطي الميسر، من غير بيان ما في عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام من مفاسد، لأنَّ إقلاع المسلمين عنهما قد تقرر قبل هذه الآية من حين الدخول في الإسلام؛ ولأنَّهما من مآثر عقائد الشرك، وليس في النفوس من اللذَّات ما يدافع الوازع الشرعي عنهما، بخلاف الخمر والميسر، فإنَّ ما فيهما من اللذَّات التي تُزجي بالنفوس إلى تعاطيهما قد يدافع الوازع الشرعي؛ فلذلك أكَّد النَّهْيَ عنهما أشدَّ مما أكَّد النهي عن الأنصاب والأزلام. إذ كَرَّرَ الحَثَّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ وهذا الاستفهام ذمٌّ أُريد منه الأمر، أي: انتهوا، وهو من أبلغ ما يُنهى به إيذاناً بأنَّ الأمر في الزَّجْرِ والتحذير قد بَلَغَ الغاية القُصوى.

٩٢- ثم التزموا - أيها المؤمنون - بطاعة الله وطاعة رسوله؛ فهو الفوزُ والفلاح لكم، واحذروا من مخالفته وعصيانه. فإن لم تستجيبوا لذلك، وأعرضتم عن هدي ربكم، وطاعة رسوله، فإنَّما على رسولنا البلاغ الواضح البيِّن.

٩٣- سبب النزول:

عن أنس ﷺ عنه قال :كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خَمْرُهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي «ألا إنَّ الخمر قد حُرِّمَتْ» قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأَهْرِقْها؛ فخرجت، فهرقتها، فَجَرَت في سِكَك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قومٌ وهي في بطونهم؛ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق برقم ٢٣٣٢).

التفسير:

وهناك من الصحابة ﷺ مَنْ كان يشرب الخمر، ثم مات قبل نزول تحريمها، فهؤلاء ليس عليهم مؤاخذةٌ إذا كانوا قد اتقوا الله في محارمه، وآمنوا به، وكانت لهم أعمالٌ صالحة قدَّموها بين أيديهم، ثم اتقوا الله، وراقبوه في السرِّ والعلن.

الفوائد والاستنباطات:

١- جاء التعبير بـ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ وهو أبلغ من التعبير بلفظ حُرِّم، لأنَّه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والإبعاد عنه بالكلية بدفع كلِّ سبب داعٍ ومُحَفِّز إليه.

٢- أكَّد الله تحريم الخمر والميسر في هذه الآيات بفنون التأكيد البيانية، إذ صُدِّرت الجملة بـ﴿ إِنَّمَا ﴾ وقُرنا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رِجْساً من عمل الشيطان تنبيهاً على غاية قُبْحِهما، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية.

٢- حرمة تعاطي الخمر والميسر، وحرمة تعظيم الأنصاب والاستقسام بالأزلام. وحكمة ترتيبها في الآية: أنَّه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدةَ المال، قَرَنَ به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شِرْكاً جليّاً إن عُبِدَتْ، قَرَنَ بها نوعاً من الشرك الخفي، وهو الاستقسام بالأزلام.

٣- الانتهاء فوراً من تعاطي المحرمات السابقة الذكر. ووَحَّد الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حُذِفَتْ وقُدِّرَتْ، لأنَّها أهلٌ لأن يقال في كل واحد منها على حِدَتِها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد.

٤- بيان علَّة تحريم شرب الخمر والميسر من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، والصدِّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة.

٥- المداومة على تقوى الله في السر والعلن حتى الموت، وكرر التقوى مع الإيمان والعمل الصالح مرة، ومع الإيمان مرة، ومع الإحسان مرة؛ ليدلَّ «أنَّ الاتقاء الأول هو تَلَقِّي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرُّب بالنوافل». (تفسير ابن جرير الطبري ٧/ ٥٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- مناسبة هذه الآيات أنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم استثنى الخمر والميسر من ذلك، فصارا من المحرمات، ثم استثنى نوعاً آخر وهو هذا النوع من الصيد: وهو صيد الإحرام، وبَيَّنَ جزاءه، فصار مستثنى ممَّا أحلَّ الله، داخلاً فيما حَرَّمه ومنعه على المؤمنين، فينادي الله تعالى المؤمنين، ليُعْلمهم أنه سيبتليهم بالصيد حالةَ إحرامهم مع احتمال قُرْبِه منهم في متناول أيديهم، ومرمى رماحهم؛ ليعلموا أنَّ الله تعالى يعلم مَنْ يخافه ويراقبه، فحَرَّم على المسلمين صيد البر في حال إحرامهم بالحج أو العمرة؛ وكان ذلك في يوم الحديبية؛ فكان الصيدُ يَغْشاهم وهم على رِحالهم، وكان بمقدورهم صيدُه طعناً برماحهم، أو أَخذاً بأيديهم. فمَنْ تجاوَزَ هذا الأمر بعد هذا البيان، فخالف أمره ووقع في الصيد وهو مُحْرِمٌ، فله عذابٌ موجع.

٩٥- يا أهل الإيمان، لا تقتلوا الصيد إن كنتم مُحْرِمين بالحج أو بالعمرة أو بهما معاً، وإن لم تكونوا مُحْرِمين فلا تقتلوا الصيد وأنتم في منطقة الحرم؛ فالله ﷻ جعل للحَرَم حدوداً لا يُصاد صيدُه، ولا تُلْتقط لقطتُه؛ تعظيماً له. فمَنْ وقع في المحظور، وقَتَلَ صيداً فعليه جزاءٌ في المِثْلية، بأن يُقَوَّم الشيء المقتول بمثيلٍ له مما يُذْبح، ويكون قريباً إلى شَكْلِهِ من الأنعام مثل البقر أو الإبل أو الغنم. والمِثْلِيَّةُ هنا مثلية الشكل يُقَوِّمها عَدْلان ينظران إلى الصيد وما يشبهه من النَّعم من صغرٍ وكبرٍ، ومما لا جنسَ له مما له جنس؛ فمَنْ وجب عليه شيءٌ من ذلك فعليه هديٌ يسوقه إلى مكة ليُطْعِمَه فُقَراءَها، أو يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به، أو يصوم بدل كل نصف صاعٍ يوماً، وعَلَّلَ إيجاب الجزاء؛ ليذوق القاتل ثِقَلَ فِعْلِه، وسوء عاقبة أمره، وهَتْكَه لحرمة الإحرام، وقد عفا الله عما مضى قبل التحريم، ولكن مَنْ عاد إلى المخالفة والنهي متعمداً؛ فإنَّه سيُعاقبه على مخالفته ومعصيته، فالله عزيز قوي ينتقم ممَّنْ عصاه.

٩٦- أحلَّ الله لكم - أيها المؤمنون - صيد البحر حال إحرامكم بالحج أو العمرة؛ وصيد البحر يشمل كل ما يُستخرج منه من حيوانات تعيش فيه، أو ما يقذفه البحر على ساحله ميتاً، وقد جعل الله طعام البحر متاعاً يتزوَّد منه المقيمون والمسافرون، وبعدها يؤكِّد تحريم صيد البر حال الإحرام بالحج والعمرة، واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنَّكم راجعون إلى الله يوم القيامة لا محالة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الدنيا دار ابتلاء واختبار، وحكمته معرفة مدى صلابة المؤمنين في التمسك بأحكام دينهم، وأصول شرعهم.

٢- ابتلاء الله الأُمة الإسلامية في صيد البر كابتلاء اليهود في صيد البحر، فنجحت الأُمة في ابتلائها، وفشلت اليهود فيه، والتنكير في ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ للتحقير المؤذن بأنَّ ذلك من الفتن الهائلة التي تَزِلُّ فيها أقدام الراسخين. وفائدته التنبُّه على أنَّ مَنْ لم يثبت في مثل هذا، كيف يثبت عند شدائد المحن؟

٣- بيان فضل الأُمة في إباحة صيد البحر وطعامه في حِلِّها وإحرامها.

٤- تحريم صيد البر على المحرم بالحج أو العمرة أو بهما معاً.

٥- بيان جزاء مَنْ صاد وهو مُحْرِم؛ وفيه: التخفيف على الأُمة، ورَفْعُ ما كان على مَنْ قبلها من الآصار، وألحق الخطأ بالعمد، وقيَّد العَمْدَ في ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ بحسب الغالب.

٦- بيان التحكيم في الصيد، إذ لا يجوز للصائد أن يُكَفِّر بنفسه؛ لأنَّ وجوه المشابهة بين الصيد والنَّعَم كثيرة فاحتاج ذلك إلى زيادة التأمل فقال: ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

٧- الله ﷻ شديد ينتقم ممَّنْ يتعدَّى حدوده، ويخالِفُ أمره، ويُصِرُّ على معاصيه. وقد أتى بالاسم الأعظم لما اقتضاه المقام من الرهبة والخوف والجلال.

٨- ينظر: صورة الكعبة، كما في الملحق.

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٧- يُعَظِّمُ الله تعالى الكعبة المشرفة تعظيماً للبيت الحرام الذي جعله صلاحاً ومعاشاً وأمناً وسلاماً للناس يأمنون فيه من الخوف والفزع، ويُعَظِّم جميع أشهر الحرم، وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) إذ جعلها قياماً، أي فيها صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة، فيأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ومعايشهم وتجاراتهم، وينصرفون إلى العبادة والحج وصلة القربى، وتحصيل الأقوات كفاية العام، وقد اكتسبت الحرمة بوَصْفِها أشهر الحج والعمرة، فلا يُعتدى بها على أحدٍ، كذلك حَرَّم الاعتداء على الهدي الذي يُهدى إلى الكعبة والأنعام التي توضع عليها القلائد؛ إشعاراً أنَّها مُهْداةٌ إلى الحرم، ذلك لتعلموا أنَّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ فهو مُدَبِّرٌ لهم، لا تَخْفَى عليه خافية.

٩٨- اعلموا - أيها الناس - أنَّ الله شديدُ العقاب لِـمَنْ خالف أمره وعصاه، وأنَّ الله غفور رحيم لِـمَنْ امتثل أمره وأطاعه، وهو غفور رحيم لِـمَنْ تاب وأناب. وقَدَّم العقاب على الرحمة دلالة على أنَّ جانب الرحمة أغلب؛ لأنَّ رحمته تعالى سبقت غضبه، كما صَحَّ في الحديث؛ لذا قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

٩٩- إنَّ مهمة الرسول محمد ﷺ هي البلاغ للبشرية، وعليهم تنفيذ ذلك البلاغ؛ فإن امتثلوا وأطاعوه فازوا بالجنة، وإن عَصَوه وخالفوا فلهم النار. والله يعلم ما يبدونه في قلوبهم، وما يُسِرُّونه.

١٠٠- قل - يا أيها الرسول - لا يستوي الخبيث والطيب: فالكافر لا يُساوي المؤمن، والجاهل لا يساوي العالم، والظلمات لا تساوي النور، والمال الحرام لا يساوي الحلال، فلا تَغْتَرَّ بكثرة الخبيث على الطيب؛ فقد يُعَجِّلُ الله للكافرين كثرة المال لحكمة هو يعلمها، فالعبرة ليست بالكثرة والقلة، وإنَّما هي بالطيب النافع ولو كان قليلاً. فاتقوا الله يا أصحاب العقول النيِّرة، وامتثِلُوا أمره، واجتنِبُوا نَهْيَه، لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعظيم الكعبة والأشهر الحرم عند الله تعالى.

٢- عِظَمُ حكمة الله في جَعْلِ مكان آمنٍ، وهو البيت الحرام، فأوجد له المهابة والمكانة والتعظيم في قلوب الناس.

٣- ذكر الله في هذه الآية أمام العقاب وصفين من أوصاف الرحمة، وهو كونه غفوراً رحيماً، قال الرازي: «وهذا تنبيه على دقيقةٍ، وهي أنَّ ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة، والظاهر أنَّ الخَتْمَ لا يكون إلا على الرحمة». (تفسير الرازي: ١٢/ ١٠٢).

٤- يستنبط من الآية (٩٨) الوقف النبوي عند قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ينظر: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥). (ح)

٥- تنبيه على لزوم الطيِّب في المعتقد والعمل، وخُصَّ أولو الألباب بالذكر؛ لأنَّهم المتقدمون في مَيْزِ هذه الأمور، والذي لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم.

٦- تقوى الله فلاح للمؤمن في الدنيا، وفوز بالجنة في الآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

١٠١- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خُطبةً ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: لو تعلمون ما أعلم لَضحكتم قليلاً، ولَبكيتم كثيراً، قال: فغَطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ؛ فقال رجلٌ: من أبي؟ قال: فلان؛ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾. (صحيح البخاري، باب الرجاء، برقم ٤٣٤٥).

التفسير:

هذا تأديبٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهيٌ لهم أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، ولا حاجة لهم بها؛ لأنَّها - إن أظهرت لهم تلك الأمور - ربما ساءتهم، وشَقَّ عليهم سماعها؛ فإذا نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها، وإن لم تأت الإجابة فلا يقولَنَّ أحدٌ: ليس عنده جواب.

١٠٢ - وقد سأل قوم من قبلكم كاليهود والنصارى بأن يُنَزِّل لهم آية؛ فتوَعَّدهم الله إن لم يؤمنوا بها سيهلكهم، فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها.

١٠٣ - أبطل الله تعالى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحلَّ الله كَذِباً وافتراءً عليه، مثل شق أذن الناقة علامةً أنها مُحَرَّمة فلا يتعرض لها أَحَدٌ؛ فلا يُشْرَبُ لبنها، ولا يُرْكَبُ ظهرُها، ولا يُجَزُّ صوفُها، ويُسَمُّونها البَحيرة، وهي الناقة التي وَلَدَتْ عدداً من البطون، أو يُسَيَّب البعير بنذر يَنْذُره الرجلُ إن سَلَّمه الله من مرضٍ أو بَلَّغه منزلةً أن يفعل ذلك، وهي السائبة فتترك للأصنام، والوصيلة، وهي التي تتصل ولادتها بأنثى بعد أنثى، والحامي، وهو الذَّكَرُ من الإبل إذا وُلِدَ من صُلْبه عدد من الإبل، وقد نسب الكفار ذلك لله تعالى؛ فردَّ الله عليهم بأنه ما سَمَّى الله ولا شرَعَ ذلك حكماً ولا تعبداً؛ بل نسبوه كذباً وافتراءً عليه، وكثير منهم لا يُعملون عقولهم.

١٠٤ - وإذا دُعِيَ هؤلاء المشركون إلى ما أنزل الله وما شرع الرسول، رَدُّوا ذلك بوقاحة أنه: يكفينا ما أخذناه من آبائنا من قول وعمل؛ كيف يقولون ذلك وآباؤهم لا يعقلون ولا يعرفون الحق، ولا يميزون بينه وبين الباطل، ولا يهتدون إلى الحق سبيلاً؟

١٠٥ - لما ذكر الله مكابرة المشركين عن سماع الحق عَذَر المسلمين بقيامهم بما فرض الله عليهم من دعوة الناس إلى الخير؛ فعلى الداعي تبليغ الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح بالحُجَجِ والبراهين؛ فإذا لم يستجيبوا فليس عليه شيءٌ فالهداية من الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

يطلب الله من عباده المؤمنين أن يسلكوا منهج القرآن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يسلكوا سُبُلَ المخالفين الذين يتبعون آباءهم وأسلافَهم من غير هَدْيٍ ولا بصيرة، فالزَموا - أيها المؤمنون - بعضكم بالنصح، ولا يَضُرُّكم ضلال المشركين، وإعراض الكافرين والمخالفين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - توازن بين التزام الأوامر والنواهي والوفاء بعهد الله، وبين عدم التشديد على النفس فيما لم يأمر به الله تعالى.

٢- نَهْيُ المؤمنين عن الأسئلة المحرجة المتنطِّعة من غير حاجة.

٣- تحريم الابتداع في الدين. وهذه الآية تدعو إلى التوازن، فإذا كان الله تعالى قد أمَرَنا بالوفاء بالعقود، فلا ينبغي أن يُوصلنا ذلك في التضييق على أنفسنا.

٤- النهي عن التقليد الأعمى، ولاسيما تقليد الجهال الذين لا عِلْمَ عندهم.

٥- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يقتصر ذلك على رجال الحسبة، بل يجب على كل مسلم. عن أبي بكر الصديق ﷺ أنَّه قال: أيها الناس، إنَّكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه». (سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي - برقم ٤٣٣٨، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، برقم ٣٦٤٤).

٦- لا يَضُرُّ المؤمنين إعراضُ الناس عن هدي الله، إذا أمروهم بالمعروف، ونَهَوْهم عن المنكر.

٧- غلبةُ أهل الإسلام، وإن قَلُّوا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٦ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان تميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بنُ بدَّاء رجلين نصرانيين، يتَّجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النَّبي ﷺ حَوَّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل السهمي مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعا تجاراً إلى الشام، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصية بيده، ثم دَسَّها في متاعه وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه، فأخذا منه شيئاً - إناءً من فضة منقوشاً بالذهب - ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا». فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا : ما كتمنا له شيئاً، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾.. إلى قوله: ﴿ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾. فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر: بالله الذي لا إله إلا هو، ما قبضنا غير هذا ولا كَتَمْنا، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموَّه بالذهب، فقال أهله: هذا من متاعه؟ قالا: نعم، ولكنا اشتريناه منه، ونَسِينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نُكَذِّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ فنزلت الآية: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ فأمر النبيُّ ﷺ رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغَيَّبا، ويستحقانه.

(صحيح البخاري، كتاب الوصايا، برقم ٢٧٨٠).

التفسير:

يُرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يُسْعِدُهم في حياتهم الدنيوية، ولاسيما في أمر الوصية حين حضور الأجل؛ فإنْ كنتم على سفرٍ، وأحسَّ الواحدُ منكم بدُنُوِّ أجله، فليُشْهِدْ اثنين من أهل الدين والاستقامة

ويوصيهما؛ فإنْ لم يجد اثنين أمِينين من المسلمين؛ فليُشْهد اثنين من غير المسلمين عند الحاجة على الوصية. فإن شككتم في صِدْقهما وشهادتهما فقِفُوهما من بعد صلاة المسلمين - وليكن بعد صلاة العصر - فيقسمان بالله إنَّهما لم يأخذا عوضاً دنيوياً على شهادتهما، ولم يُحابيا بذلك قرابةً أو رَحِماً، وإنَّهما لم يكتما شيئاً من الشهادة.

١٠٧ - فإن اتُّفِق الاطلاع على أنَّ الشهيدين المُقْسِمَين استحقا إثماً بالكذب أو الكتمان في الشهادة، أو بالخيانة وكتمان شيءٍ من التركة في حالة ائتمانهما عليها؛ فليَقُمْ رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين. وهذان الرجلان الوارثان ينبغي أن يكونا هما الأَوْلَيَيْنِ بالميت، أي: الأقربين إليه الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع، فيقسمان بالله: على أن ما يشهدان به من خيانة الشهيدين اللذين شهدا على وصية ميِّتهما أحقُّ وأصدق من شهادتهما بما كانا شَهِدَا به، وأنَّهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة، ولم يتجاوزا الحق، فإن اعتدينا الحق وقلنا الباطل فإنَّنا من الظالمين.

١٠٨ - إنَّ ذلك الذي ذُكِرَ من تكليف المؤتمن على الوصية والقيام على مشهد من الناس بعد الصلاة، وإقسامه تلك الأيمانَ المغلظة أقرب الوسائل إلى أن يؤدِّي الشهداءُ الشهادةَ على وجهها بلا تغيير ولا تبديل، تعظيماً لله ورهبةً من عذابه، ورغبةً في ثوابه، أو خوفاً من الفضيحة التي تَعْقُبُ استحقاقهما الإثم في الشهادة، بِرَدِّ أيمانٍ إلى الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها، فمَنْ لم يمنعه خوفُ الله وتعظيمُه أن يكذب أو يخون لضعف دينه، فإنَّ خوفَ الفضيحة على أعين الناس يمنعه. واتقوا الله - أيها المؤمنون - في الشهادة والأمانة وفي كل شيء، واسمعوا سَمْعَ إجابةٍ وقَبول هذه الأحكامَ، وسائر ما شرعه الله تعالى لكم، فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين عن أمر الله تعالى مَحْرُومين من هدايته، مستحقين لعقابه.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية الوصية قبل الموت، والحثُّ عليها في الحضر والسفر.

٢- وجوب الإشهاد على الوصية.

٣- إباحة سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن ثمة محذور.

٤- جواز استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين في حال فقدان المسلم.

٥- تحليف الشاهد على أنَّه صادق في شهادته، وتخصيص الحَلْف في الآية باثنين من أقرب الورثة؛ لخصوص الواقعة التي نزلت لها.

٦- مشروعية اختيار الوقت الذي يؤثِّر في نفوس الشهود الذين حَلَفُوا الأيمان؛ رجاءَ أن يَصْدُقوا في كلامهم، فقد جُعِلت بعد الصلاة، وكونها عقب الصلاة للتغليظ والتهويل.

٧- إرشاد إلى حبس مَنْ تَوَجَّبَ عليه الحقُّ حتى يؤدِّيه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

التفسير:

١٠٩- لما تمَّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين، ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى؛ فإنَّ الأديان وصايا الله إلى خلقه.

واذكروا - أيها الناس - يوم القيامة عندما يجمع الله الرسل، فيسألهم وهو أعلم بهم عن جواب أُممهم لهم؛ ويُقْصَدُ من السؤال توبيخُ أُممهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم؛ فيقول: ماذا أجابتكم الأُمم عن أمر التوحيد، وعبادة الله وحده؟ أكانت إجابة إيمان وإقرار، أم إجابة كفرٍ واستكبارٍ؟ فتتبرأ الرسل من العلم بالسؤال، وتُفَوِّضه إلى الله تعالى. فيقولون للرب: لا عِلْمَ لنا إلا علمٌ أنت عَلَّمتنا إياه، ونحن لا نعلم ماذا أَحْدَثَتِ الأُمم بعدنا، أنت سبحانك عظيم العلم بكل غيب.

١١٠- واذكر حين قال الله تعالى لنبيه عيسى بن مريم عليه السلام واذكر نعمتي العظيمة عليك وعلى والدتك؛ إذ أَيَّدْتُك وقَوَّيْتُك بروح القدس جبريل عليه السلام، وقد خَلَقْتُك من غير أبٍ، واصطفيتُ والدتك على العالمين؛ فبرَّأتها مما نُسِبَ إليها، وعَلَّمْتُك الكتابة، فتكلم الناس وأنت صغيرٌ في مهدك تُكَلِّمهم بأمور الدعوة في حال كهولتك. ووهبتُك الحكمة، وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام، وعَلَّمْتُك التوراة التي أنزلتُها على موسى عليه السلام، والإنجيلَ الذي أنزلتُه عليك ليكون هدايةً للناس؛ ففيه ما أوحيتُه إليك من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام. وإذ تَصْنَعُ من الطين مثلَ هيئة الطير؛ فتنفخ فيها، فيكون الطينُ المصنوع على هيئة الطير طيراً حقيقياً بإذني، وكنتَ تَشفي الأعمى فيصير مُبصراً، وتَشفي الأبرص، فيعود جِلْدُه سليماً بإذن الله، وكنت تدعو الله أن يُحْيي الموتى، فيقومون من قبورهم أحياءً بإذن الله؛ وإذ تُخرج الموتى من قبورهم أحياء، وقد سمَّى الله الإحياء خروجاً في قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقال:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]. واذكر نعمتي عليك حين منعتُ بني إسرائيل من قَتْلِك وصَلْبِك، وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك، وزَعْمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً.

١١١- ومن نِعَمي عليك - يا عيسى - أن ألهمتُ أصحابَك وخُلَصاءَك أن يؤمنوا بك وبرسالتك، وقد كَذَّبك جمهورُ بني إسرائيل؛ فجعلتُهم أنصارك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك بعدك؛ فقالوا: آمنا بك يا ربنا، وصَدَّقْنا عيسى، وأنّه رسولك إلينا، ونشهد أنَّنا خاضعون لجلالك وسلطانك.

الفوائد والاستنباطات:

١- كرر كلمة ﴿بِإِذۡنِي﴾ تأكيداً؛ لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى وإيجاده.

٢- لكلِّ عصر ما يناسبه من المعجزة، فازدهر عصر عيسى عليه السلام بالطِّبِّ والعلوم، فأجرى الله على يديه ما يفوق الطِّب البشري والعلوم والثقافة البشرية المعهودة، وازدهر عصر موسى عليه السلام بالسِّحر والشَّعوذة، فأيَّده الله تعالى بما يفوق سحر السحرة، باليد والعصا، وفَلْقِ البحر، وتفجير الماء من الحجر ينابيع، هي اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط (قبائل بني إسرائيل). وازدهر عصر النبي محمد ﷺ بسحر البيان في الكلام شعراً ونثراً وخطابةً، فأنزل الله عليه القرآن الكريم، وفيه أعلى البيان وأسمى الفصاحة والبلاغة، فكان إعجاز القرآن البياني معجزة النبي ﷺ إلى يوم القيامة.

٣- جواز نسبة الإنسان إلى أُمّه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

٤- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عليهم الشكر، كما يجب على مَنْ أُرْسِلُوا إليهم؛ لأنَّ الله أَمَرَ عيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى أُمّه.

٥- اللقب الفاضل لجبريل هو روح القدس؛ فإنَّ القدس بمعنى الطهارة، والنزاهة من كل عيب.

٦- هذه الآية العظيمة التي أعطاها الله لعيسى، وهو أنّه يُكَلِّمُ الناس في المهد وكَهْلاً على السواء.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

التفسير:

١١٢ - واذكر حين طلب أنصار عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أن يُنزل الله تعالى عليهم مائدة من السماء؟ فأجابهم عيسى بأن يتقوا الله إن كانوا مؤمنين حقَّ الإيمان، والمقصود بكلمة الاستطاعة مع أنَّ الطلب صادر من الحواريين، وهم مؤمنون يعلمون أنَّ الله قادر على كلِّ شيء، أي: هل يفعل ذلك، وهل يجيبك إلى مطلبك أو لا؟ فأرادوا علم المعاينة والمشاهدة والاطمئنان بعد توافر الاعتقاد والعلم بقدرة الله تعالى، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لأنَّ عِلْمَ النَّظر والخبر قد تدخله الشُّبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة المحسوس لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. (انظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٦٥، وتفسير الرازي: ١٢/ ١٢٩).

١١٣ - قال أنصاره المؤمنون: إننا نريد أن نأكل منها؛ فتطمئن قلوبنا برؤيتها، ونؤمن بها؛ لتتحقَّقَ المشاهدة واللمس والذَّوق والشمُّ، ونعلم علماً يقينياً صِدْقَ نُبُوَّتك، وصِدْق ما وَعَدْتنا من ثمرات الإيمان، ونكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل؛ فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

١١٤ - فوافق نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام طَلَبَ الحواريين؛ فدعا الله عز وجل قائلاً: اللهم ربَّنا أنزل علينا مائدة تكون مناسبة لعيد، يفرح بها الأولون والآخرون، وتكون آيةً على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي، وأني مرسل من عندك إلى بني إسرائيل، وأنت خير الرازقين.

١١٥ - استجاب الله طَلَبَ عيسى بن مريم عليه السلام؛ فقال: إني منزلٌ عليكم مائدة الطعام، ولكن مَنْ كَذَّبَ وجَحَدَ وحدانية الله، وأنكر نبوة عيسى بن مريم بعد نزولها؛ فإني أُعَذِّبه عذاباً شديداً لا أعذبه أَحَداً من العالمين، وقد نزلت المائدة عليهم؛ فآمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوبُ التأدُّب مع الله جلَّ جلاله، والتحذير من سوء الأدب معه، أو يُقترح عليه شيءٌ.

٢- فَرْقٌ بين طَلَبِ الحواريين وطَلَبِ عيسى بن مريم؛ فالحواريون قدَّموا بشريَّتهم، فطلبوا من المائدة أولاً الأكل والطعام؛ فقالوا: نريد أن نأكل منها، وتطمئنَّ قلوبنا، أما عيسى بن مريم فقد أخَّر الطعام عن القيم المعنوية؛ فقال: اللهمَّ ربَّنا أنزِلْ علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، وأتى عيسى بكلمة الرزق عند دعاء ربه، وهي عامةٌ تشمل كلَّ أنواع الرزق؛ لتشمل الطعام والشراب والملبس والعلم والحلم.

٣- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذِّكْر؛ شكراً لله تعالى.

٤- مكانة الأنبياء والمرسلين عند ربهم، واستجابة دعائهم.

٥- تقوى الله وقاية من الوقوع في المحذور، والنزوع من أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (فقلت اتقوا الله) تحذيراً للمسلمين من أن نكون مثلَ مَنْ مضى في اقتراحهم الذي كان سبب هلاكهم.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

التفسير:

١١٦-١١٧- واذكر يوم القيامة حين يقول الله لنبيِّه عيسى: أأنت قلت للناس: اتخذوني وأُمي إلهين من دوني؟ عندئذٍ يجيب عيسى مُنَزِّهاً الله ﷻ ومُتَأدِّباً؛ إجلالاً وهيبة لذلك المقام: ما ينبغي لي أن أقول للناس ما ليس لي بعلم؛ إن كنتُ قلتُ هذا فقد عَلِمْتَه، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، فأنت عظيم العلم بكل غيب. ما قلتُ لهم يا ربي إلا ما أمرتني به أن أُبَلِّغَه للناس من توحيد الله وعبادته، وكنت

شاهداً على أفعالهم وأقوالهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ - والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء، أي: رَفَعْتني إليك - كنت أنت الرقيب على أعمالهم، وأنت يا ربِّ رقيب حفيظ.

١١٨- إنَّك - يا الله - إن تُعَذِّبْ مَنْ مات منهم على الشرك؛ فأنت على ذلك قدير، وإن تغفر لِـمَنْ مات منهم على التوحيد، فتُدْخِلْه جناتك؛ فإنَّك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كلَّ شيء في موضعه.

١١٩- أجاب الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام: هذا اليوم يوم الجزاء ينفع المؤمنين الذي آمنوا بالله، فأَخْلَصوا له العبادة، وانقادوا لشرعه؛ فلهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، لا يخرجون منها أبداً. ذلك الفوز العظيم.

١٢٠- الله وحده مالك السموات والأرض وما فيهنَّ، يفعل فيها ما يشاء، لا ينازعه في ملكه أحد، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

الفوائد والاستنباطات:

١- توبيخ النصارى يوم القيامة أمام الناس جميعاً على تأليه عيسى بن مريم وأُمِّه عليهما السلام.

٢- أدبُ عيسى عليه السلام يوم القيامة حين سؤاله، ورَدُّ عِلْمِ ذلك إلى الله ﷻ، فمن الأَولى أن يتأدب الخلق مع خالقهم، فهم أقل رتبةً ومنزلة من رتبة الأنبياء والمرسلين.

٣- ثراء أسلوب الاستفهام في دلالة المعنى وبيان مقاصده، وليس الاستفهام في الآية على حقيقته بمعنى أن السائل لا يستفهم عن شيء لا يعلمه، ولكن يريد منه أن يلفت المسؤول إلى شيء يريده، وقد فَهِمَ عيسى عليه السلام السؤال على الوَجْه الذي ينبغي أن يُفْهَم به، وهو أنَّه واردٌ على سبيل استنطاقه بما يعلمه الله، ويَعْلمه هو، من ادِّعاء النصارى هذا الكَذِبَ على عيسى تكذيباً لهم وتبكيتاً، ورَدّاً على افترائهم هذا في حقِّ الله، وفي حقِّ عيسى عليه السلام تَبْرِئَةً له، وإقامة للحُجَّة عليهم؛ ولذا أجاب مُسْنِداً عِلْمَ ما في الضمير والعلم المطلق لله، نافياً ذلك عن نفسه؛ تنبيهاً للسامعين أنَّ سؤال ربِّه إيَّاه ليس طَلَبَ علمٍ، بل هو استنطاق له بما يَعْلَمُه الله ﷻ، فالاستفهام إذاً للتقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام.

٤- الأنبياء والرسل والأولياء والصالحون لا يَدْعُون أَحَداً لعبادتهم.

٥- براءة عيسى عليه السلام ممَّا نسبه قومه إليه.

٦- هولُ يوم القيامة وشدَّتُه على الناس جميعاً

النزول: مكية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْرُه في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١- بيان أصول العقيدة والإيمان والبعث والمعاد، وذِكْرُ النبوة.

٢- حماية البيئة في النهي عن قَتْلِ أنواع من الحيوانات.

٣- الشريعة الإسلامية صالحة لكلِّ زمان ومكان.

٤- إقامة المجتمع الصالح الآمن.

٥- الأصل في الجنس البشري وحدة المنشأة، ثم التزاوج، ثم الانتشار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١- صيغة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تفيد القصر، وفيها الثناء والشكر والمجد كلُّه لله تعالى، فاحْمَدُوا الله الذي خلق السموات والأرض، وخَلَقَ الظلمات والنور، من خلال تعاقُب الليل والنهار، وهي دلائل باهرة على قدرته واستحقاقه للعبادة. وجمع الظلمات وأفرد النور؛ لأنَّ الظلمات متعددة الأسباب، أما النور فليس له إلا سببٌ واحد، وقُدِّمت الظلمات على النور؛ لأنَّها أسبق في الوجود، فقد وُجِدَتْ مادة الكون المظلمة أولاً. وهذه الآية تقرر حقيقة خلق الوجود الكوني، الذي ينبغي للإنسان شُكْرُ خالقه على ذلك؛ لذلك نَبَّه في البداية على شكره. ومع هذا الوضوح وتلك الصفات المطلقة، فإنَّ الذين كفروا بربهم يُسَوُّون الله بغيره، ويجعلون له شريكاً، وهُم الذين بلغوا الغاية في صفات النقص، تعالى الله عمَّا يقولون.

٢- هو الذي خلقكم لا غيره، فخلق آدم من طين، وجعل البشرية منه متعاقبة، وكتب مدةَ بقاء كل واحد في الحياة الدنيا، فجعل له أجلاً محدداً لا يحيد عنه وهو الموت والبعث، وكتب أجلاً آخر لا يعلمه إلا الله، وهو ابتداء القيامة والآخرة، ثم أنتم تَشُكُّون في وَعْدِ الله ووعيده، وقدرته على البعث والنشور.

٣- إنَّ الله جلَّ جلاله هو المعبود في السموات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم، خاضعون له، وهو يعلم جميع ما يُخفونه وما يُعلنونه، ويعلم أعمالهم من خيرٍ وشرٍّ، فهو الله المستحق للعبادة.

٤- فقد جاءت الحُجَجُ والبراهين على وحدانية الله وقدرته، وبانت لهم نبوة الرسول محمدٍ ﷺ، ولكنَّ هؤلاء الكافرين أعرضوا عنها، ولم يقبلوها، وأشركوا بالله.

٥- لقد جحد هؤلاء الكفار بالحق، ولم يقابِلُوه بالشكر والإذعان له؛ عناداً واستكباراً من أنفسهم، وغروراً بما عندهم من مالٍ وجاه، فسوف يرون عاقبة تكذيبهم واستهزائهم به، وأنَّه الحق جلَّ جلاله.

الفوائد والاستنباطات:

١- نِعَمُ الله على عباده كثيرةٌ لا تحصى.

٢- جمع الظلمات؛ لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور؛ لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٢٣٣-٢٥٤). وينظر: نسبة الظلمات والنور في الملحق.

٣- كثرة دلائل قدرة الله في كونه العظيم.

٤- الحمد والثناء والشكر لله تعالى.

٥- القلوب مجبولة على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أساء إليها.

٦- الحسرة والندامة على مَنْ يرى دلائل قدرة الله ولا يؤمن بها. وكان السياق فيه العدولَ عن الخطاب إلى الغيبة، وهو التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، وإعراضاً عن خطابهم.

٧- أَخْذُ العِبْرة من هلاك الأُمم السابقة.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦- ألم يعلم هؤلاء الكفار الذين أشركوا بالله، وكَذَّبوا بما جاءهم الرسول محمد ﷺ، ما حَلَّ بالأُمم السابقة من دمار وهلاك؛ جزاء كفرها وإعراضها عن هدي ربها؟ وقد مَكَّنهم الله في الأرض، وأنعم عليهم من الأمطار والخيرات والزروع والثمار، وأجرى لهم الأنهار، فلم يُغْنِ عنهم ذلك، ولم يشكروا خالقهم، فكفروا به، وكذَّبوا رسله، فأهلكهم بذنوبهم تلك، وأنشأ من بعدهم أُمماً أخرى، فهو القادر أن يفعل ذلك بكم. إنَّه يُذَكِّرهم ويُهَدِّدهم، ويلفت أنظارهم إلى مصارع المكذِّبين مِنْ قبلِهم، وقد تركوا بيوتهم خاويةً، تمر عليها العرب في رحلاتهم، وتتناقل أخبارهم.

٧- لقد أعرض المشركون عن هدي محمدٍ ﷺ مكابرةً وعِناداً، فلو أنَّ الله نزَّل على محمد كتاباً - قرآناً - من السماء مكتوباً في ورق، فلمسوه بأيديهم، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه، لقالوا: إنه سحرٌ مبين، وقد طلب المشركون ذلك من الرسول ﷺ عناداً واستكباراً.

٨- وقال هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ: هلَّا أُنزل معه مَلَكٌ من السماء يُصدِّقُه بما يقول، وأنَّه مرسل من الله، ولو استجاب الله طلبهم ذلك لَقُضِيَ الأمر بهلاكهم بدون إمهال إن كفروا به.

٩- وهنا يُبَيِّن الله جَهْلَ اقتراحهم بأمرين، الأول: أنَّ سُنَّة الله سبقت ألَّا يُستجاب للكافرين طلب، والثاني: لو جَعَلَ الرسولَ المرسلَ إليهم مَلَكاً من ملائكته لجعله على هيئة البشر؛ لأنَّ البشر لا تستطيع معاينته إلا أن يجسِّده الله بشراً، فهم لهم طبيعة خاصة، وسيُهْلَكُون عند رؤيتهم. ولو جاءهم بصورة البشر لاشتبه الأمر عليهم مرة أخرى، كما اشتبه عليهم أمر محمد ﷺ من قبل، وسيقول لهم - أي المَلَكُ- : أنا مَلَكٌ أرسلني الله إليكم؛ لأُصَدِّقَ نبيكم محمداً ﷺ، بينما هم يَرَونه رجلاً مثلهم، فسيقعون في لَبْس. وهو من رحمة الله في عدم استجابتهم، فهلَّا استشعروها، وعرفوا حكمة الله فيها.

١٠ - وبما أنَّ طلبهم من إنزال المَلَكُ كان سخريةً واستهزاءً بمحمد ﷺ، فإنَّ استهزاءهم ذلك ليس جديداً؛ لأنَّ الكفار والمشركين استهزؤوا برسلهم من قبل، فأنزل الله عليهم العذاب عقاباً على فِعْلِهم.

١١ - وهذا أمرٌ إرشاديٌّ منه ﷻ، بمعنى: سيروا سَيْرَ اعتبار بالأحداث والوقائع، وحال الأُمم الماضية. فانظروا كيف أصاب اللهُ المكذِّبين الخزي والعار؟ فاحذروا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب شكر الله على نِعَمِه وآلائه الكبيرة، وقد ضرب نموذجاً فيمَنْ أعرض عن هدي ربه فأهلكه الله بسبب إعراضه.

٢ - التكذيب والجحود بآيات الله الكونية من صفات الكافرين، واشتمل القرآن الكريم على إعجاز علمي أثبت حقائق علمية قبل النهضة العلمية.

٣ - الاستهزاء بالرسل سنة بشرية منذ القديم؛ وعلى الدعاة الصبر والتأسي.

٤ - إثباتُ الأدلة على قدرة الله تعالى في الخلق، والبعث، والنشور.

٥ - السير في الأرض، وأَخْذُ العِبْرة من مصارع الأُمم السابقة وهلاكها.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢ - يُعَلِّم الله الرسول ﷺ السؤال والجواب في بيان الحجة على المشركين المعاندين، فيقول: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: لِـمَنْ مُلكُ السموات والأرض؟ قل: لله؛ ليفروا بتوحيد العبودية لله تعالى، لأنَّهم مهما بحثوا عن مالكٍ للكون فلن يجدوا إلا الله، فالتزموا منهجه واعبدوه، ولا تشركوا به أحداً، فقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يعجل بالعقوبة على مَنْ خالفه، ورحمتُه سبقت غضبه، وهو يجمع الخلق يوم القيامة للحساب لا ريب فيه ، والذين لم يؤمنوا بالله قد خسروا أنفسهم، وخسروا دنياهم وآخرتهم.

١٣- والله مالكُ السموات والأرض وما فيهما، وله ما سَكَنَ، أو تحرَّك في الليل والنهار، فكلٌّ تحت مشيئته وقهره، ولا أحدَ يخرج عن مُلكه، وهو سميع لأقوالهم، عليم بحركاتهم، لا تخفى عليه خافية، وفي الآية السابقة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ استقصى الخلائق من ناحية المكان، وفي هذه الآية قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان؛ وقَدَّم المكان؛ لأنّه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان.

١٤- جاء الاستفهام على سبيل التوبيخ للمشركين، وخاطب اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ عندما اتخذ المشركون الأصنام آلهة من دون الله، فوبَّخهم وأنكر عليهم، فقال لهم: أغيرَ الله أتخذ ولياً ونصيراً، وهو خالق السموات والأرض، ويُحيي ويميت، ويَرْزُقُ خَلْقَه ولا يُرْزَقُ، فكيف أتخذ غيره إلهاً من دونه سبحانه عَمَّا يشركون به؟.

قل - يا رسول الله -: إني أُمِرْتُ أن أكونَ أول الخاضعين والمستسلمين له، ونُهيت أن أكون من المشركين، والكلام نهيٌ من الله لرسوله ﷺ، مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام.

١٥- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله: إنّي أخاف إن عصيتُه بعبادة غيره، أو مخالفة أمْرِه أو نَهْيه، أن يُنْزِلَ بي عذابه وسَخَطَه في الدنيا والآخرة.

١٦- مَنْ يُصْرَفْ عنه العذاب يوم القيامة فقد رحمه بنجاته، وهو الفوز والإنعام بالرحمة.

١٧- وإن يصبك الله - أيها الإنسان - بسوء من فقرٍ، أو مرضٍ فلا أحد يكشف الضر، أو يرفع عنك البلاء سواه، وإن يصبك بخيرٍ مثل سعة الرزق أو الغنى أو الصحة والعافية، فلا أحد يردُّ فضله، وهو على كل شيء قدير.

الفوائد والاستنباطات:

١- الله مالك الكون كله، وصَرْفُ العذاب والفوز بنعيم الآخرة بيده جل جلاله، وبيده دفع الشر والضرر، فلا يملك أحد التصرف في الدنيا سوى الله وحدَه، وهو المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

٢- سَعة رحمة الله ﷻ بعباده، أوجبها على نفسه تفضلاً وإحساناً.

٣- تحريم الشرك بالله ﷻ.

٤- اللجوء إلى الله تعالى لكشف الضر، فهو ثمرة التصديق به.

٥- الآية السابعةَ عشرةَ أصلٌ في سلامة العقيدة وحسن اليقين، وصدق الإيمان والثقة بأنَّ الله هو النافع وهو الضارُّ؛ فلا يجوز أن يلجأ الإنسان إلى الشفعاء والوسطاء والكَهَنَة والأولياء، بل يسأل الله تعالى وحده، ويُخلص في الدعاء، ويأخذ في الأسباب التي تُعين على دَفْعِ الضر، وجَلْب الخير.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - والله غالب وقاهر فوق عباده، يُدير كونه بحكمة وعلم، وهو خبير بأفعالهم، لا يخفى عليه شيءٌ، يضع كل شيء بحكمة وتدبير.

١٩ - قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره: أيُّ شيءٍ أعظم شهادة فيما أخبرتكم به بأنّي رسول من عند الله؟ والجواب يُبيِّنه الله بقوله: قل: اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم، فالله هو أعظم وأصدق، شهيدٌ بأنّي رسوله من عنده، وأنّي صادق فيما أخبرتكم به عنه، وأوحى إليَّ هذا القرآن الذي تلوتُه عليكم لأنذركم به، وأُنْذِرَ مَنْ بَلَغه ووصل إليه، أو سمعه من البشر جميعاً. واقتصر على جَعْلِ علّةِ نزول القرآن للنِّذارة دون ذكر البشارة؛ لأنَّ المقام مخاطبة المكابرين عن الحق الذين لا يناسبهم إلا الإنذار، ثم يُوَبِّخهم بقوله: إنّكم لتتخذون مع الله شريكاً آخر، فإنّي لا أشهد معكم، ولا أُقِرُّكم على ما تشركون به، فالله واحدٌ متفردٌ بجلاله وعظمته، لا إله غيره، وأبرأ إليه ممّا تشركون به.

٢٠ - أنكر اليهود والنصارى صفات محمدٍ ﷺ في التوراة والإنجيل الدّالة على نبوته، فبَيَّنَ الله تعالى فيما سَبَقَ أنَّ شهادة الله على صحة نبوته كافية في ثبوتها وتحققها، ثم بَيَّن في هذه الآية أنهم كَذَبوا في قولهم: إنّا لا نعرف محمداً ﷺ؛ لأنهم يعرفونه بالنبوة والرسالة، كما يعرفون أبناءهم، وإنكم تعلمون يا أهل مكة أنَّ نبوة محمد ﷺ ليست مفاجِئةً للكون، بل هي دعوةٌ بُشِّرَ بها على لسان كل رسول. وإذا كان أهل مكة بعيدين عن موطن الرسالات، فإنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى بجوارهم، يعرفون محمداً ﷺ، فقد أخبرتهم رسلهم عنه بالشكل والصورة والصفات، فليرجعوا إليهم، وليسألوهم عنه، فهم يعرفونه من غير شك، كما يعرفون أبناءهم، ولكنَّ الخاسرين منهم اتبعوا أهواءهم، فكذَّبوا به، فخسروا أنفسهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - استشعار محبة الله، ومواجهةُ كلِّ مَنْ يشرك به بثقة ويقين، وأنَّ الله مع عبده المتوكِّل عليه، ويلاحظ في كل ما سبق أنَّ كلمة (قل) تأتي دائماً بعد كلمة (هو)، وكأنَّ المعنى استشعار المعية مع الله.

٢ - شهادة الله تعالى أنَّ محمداً ﷺ رسول من عنده.

٣- تقرير حقيقة التوحيد، والبراءة من الشرك.

٤ - معرفة أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ، ولكنَّه الكِبْرُ والجحود.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) ﴾

التفسير:

٢١ - لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ افترى على الله كذباً، وكذَّب بآياته مع جلالها وجلائها. وإنَّ مِنْ عدل الله وسُنَنه في العباد أنَّ الظالم لا ينال الفلاح أبداً، بل يبوء بالخيبة والخسران.

٢٢ - يُوَبِّخ الله هؤلاء المشركين عندما يحشرهم يوم القيامة، فيسألهم سؤال توبيخ: أين شركاؤكم الذين عبدتموهم من دوني، لماذا لا يتقدَّمون لنجاتكم ودَفْعِ العذاب عنكم؟

٢٣ - فما كان جوابهم حين اختبارهم بالسؤال عن شركائهم إلا الجحودَ وإعلانَ التبرئة من الشرك والشركاء.

٢٤ - ويُبَيِّنُ الله تعالى لنبيه ﷺ كَذِبَ المشركين، فيقول: انظر - يا محمد - وهو نَظَرُ تَعَجُّبٍ واعتبار - كيف كَذَبُوا على أنفسهم حقيقة ما وقع منهم في الدنيا من الشرك؟ فهم كَذَبُوا على أنفسهم في الدنيا عندما

قالوا: إنَّ عبادة الأصنام تُقَرِّبنا إلى الله زلفى، وهاهم أولاء في الآخرة أعلنوا التبرئة منها، واعترفوا بالحق لَـمَّا غاب عنهم افتراؤهم، فأَقَرُّوا بربوبية الله وحده.

٢٥- وإنَّ من هؤلاء المشركين - يا محمد - مَنْ يستمع إلى القرآن لا بقصد الانتفاع والهدي، وإنَّما بهدف الطعن في آيات الله استهزاءً وسخرية منهم، فهم يستمعون، ولكن لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحقِّ، فهم بمنزلة مَنْ لا يسمع ولا يفهم، ولما عَلِمَ اللهُ حالَهم جعل على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم صمماً؛ لئلا ينتفعوا به، مهما رأوا من آيات جَلِيَّة.

فإذا جاؤوك وهم على ما هم عليه، من إغلاق قلوبهم وآذانهم، جادلوك وخاصموك، وتلمَّسوا أسباب الرد والتكذيب ثم قالوا: ما هذا الكلامُ الذي يقوله إلا حكايات الأولين، وأكاذيبهم.

٢٦- لقد عَلِمَ المشركون تأثير القرآن في مستمعه، فأوصى بعضهم بعضاً ألّا يسمعوه، وأمروا غيرهم بالابتعاد عنه، وعدم الاستجابة له، فهم صَدُّوا أنفسهم عن هدي القرآن، وصَدُّوا غيرهم؛ لتبقى الرئاسة لهم، فارتكبوا إثمين كبيرين: إثم أنفسهم، وإثم غيرهم، وهم بذلك يُهلكون أنفسهم؛ لأنَّ دين الله محفوظ، وكتابَه مصون من التبديل والتحريف، وسيُظْهِرُ رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليُظْهِرَه على الدين كله.

وقد وقف هؤلاء المعاندون موقف الصدِّ عن هدي القرآن ودعوة محمد ﷺ؛ فكانوا ينهون أتباعهم أن يستَمِعُوا لهذا القرآن؛ كما كانوا هم أنفسهم يبتعدون عن سماعه، خوفاً عليها أن تتأثر وتستجيب، ولكنَّ هذا العمل الذي يسلكونه، وهذا الجهد والتعب الذي يبذلونه فيه هلاك لأنفسهم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الله مُظْهِرٌ دينه، وناصر نبيِّه ﷺ.

٢٧- الخطاب للرسول ﷺ، وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقُّق وقوعه. ولو رأيت - يا محمد - هؤلاء المشركين الذين ضَلُّوا، وأضَلُّوا غيرهم، حين يُحبسون على النار، ويَرَوْن العذاب الشديد، فلا يستطيعون دَفْعَها أو الهروب منها، بل سيقولون: يا ليتنا نَرْجِعُ إلى الدنيا، فنؤمن بآيات ربنا، ولا نُكَذِّب بها، ونكون من المؤمنين. وقد حذف جواب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور، وهذا من بلاغة الأداء القرآني. (تفسير الشعراوي ٦/ ٣٥٨١).

٢٨- وإنَّ الله يعلم طبيعة هؤلاء المكذبين المعاندين، فعندما جاؤوا يوم القيامة، ووُضِعت الموازين، وأظهر الله ما في صحائفهم من كفرٍ وتكذيبٍ، ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من توحيد الله وصدق رسالة الرسل، وإن كانوا في الدنيا يُظْهِرُون خلافه، وهاهم اليوم يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليرجعوا عن كفرهم وجحودهم، ولكن هيهات لهم، فإنَّهم كاذبون في قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الله عليم خبير بحالهم، لو أعادهم إلى الدنيا، لَصاروا ورَجَعوا إلى ما نُهوا عنه من الشرك والكفر، وفي

قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، أي: إنَّ الكذب سَجِيَّةٌ لهم قد تَطَبَّعوا عليها من الدنيا، فلا عجب أن يتمنَّوا الرجوع ليؤمنوا، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه.

٢٩- فهم لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الحياة الدنيا، فلم يلتفتوا إلى وجود حياة أخرى، يبعث الله فيها الناس للحساب والجزاء: فإمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار، بل كانوا مُصِرِّين على عِنادهم وجحودهم، وأنَّ حياتهم فقط هي الحياة الدنيا يَحْيَوْن فيها، ثمَّ يهرمون، ثمَّ يموتون. ويقصدون بالموت هنا أنهم كانوا نُطَفاً ثمَّ يحيون في الدنيا، أو على وجود تقديم وتأخير، بمعنى: نحيا في الدنيا، ونموت فيها.

٣٠- الاستفهام لتقرير حالهم، والمخاطب النبي محمد ﷺ قائلاً له: ولو ترى- يا محمد- أولئك المنكرين للبعث، عندما يقفون بين يدي ربهم، وقد رأوا أهوال القيامة وما فيها من حساب وجزاء وعقاب قائلين: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فيقال لهم: أليس هذا - وهو استفهام توبيخي - الذي كنتم تُكَذِّبون به حقاً، فيَحْلِفُون بالله، ويقولون: بلى. فيقول لهم: ذوقوا العذاب بسبب جُحودكم وتكذيبكم، عدلاً منا بلا ظلم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بشارة الكتب السماوية السابقة بنبوة محمد ﷺ.

٢- عِظَم عقوبة المشركين المكذبين يوم القيامة.

٣- الكذب والاستكبار سببُ كفر المشركين بالله ﷻ، وأكَّدوا اعترافهم بحَلْفِ اليمين ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رغبةً منهم أن ينفعهم ذلك، ويُنَجِّيهم من عذاب الله.

٤- لا فلاح للمشركين في الدنيا والآخرة.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٣١- وقد خسر أولئك الذين كذَّبوا بلقاء الله، وأنكروا البعث؛ لأنَّهم باعوا بالأجل الطويل العمر العاجلَ القصير. حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً فوجئوا بمصيرهم الأليم، وشعروا بمرارة الخسران، وعندها يقولون حسرةً وندامةً وتألماً: يا حسرتنا على ما فَرَّطنا فيها، وهاهم أولاء يحملون عقوبة ذنوبهم على ظهورهم، وهم لا يحملونها فقط، بل يحملونها ويحملون عقوبة ذنوبِ مَنْ كانوا سبباً في ضلالهم، فبئس وقَبُحَ ذلك الوِزْرُ.

٣٢- وما الحياة الدنيا - مهما أقبلت وطالت - إلا لَعِبٌ ولهو، فهي فانية مُنْقَضِية. وإنَّ الدار الآخرة لهي الحياة الباقية الخالدة، وهي الخير للأتقياء، فهل من عاقل يعي ذلك؟

٣٣- سبب النزول:

عن علي ﷺ: أنَّ أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنَّا لا نكذِّبك، ولكن نُكَذِّب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾. (سنن الترمذي ٤/ ٣٤٨ برقم ١٩٧٣، وقال الترمذي: حسن).

التفسير:

يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ، فيطيِّب خاطره، ويشدُّ من عزمه؛ ليزيده ثباتاً على دعوته، فيقول: له إنا لنعلم أنَّك تحزن من تكذيب قومك لرسالتك، واتهامك بالسحر، والتقوُّل عليك زوراً وبهتاناً، فهم لا يُكَذِّبونك؛ لأنك عِشْتَ معهم، فوصفوك بالأمين؛ ولكنهم يكذِّبون ما جئت به من آيات الله.

٣٤- وقد مَضَتْ سُنَّةُ الله من قبلُ، فإنَّ رُسُلَه كُذِّبوا كما كُذِّبْتَ يا محمد، وأُوذوا كما أُوذِيتَ من قبلُ، فصبروا وتَحَمَّلوا مشاقَّ أقوامهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن الدعوة إلى الله، فإذا كانوا قد صبروا، وهم رسل إلى قومهم، فكيف الحال بك يا محمد وأنت خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أُرْسِلْتَ إلى الناس كافة؟ فعليك أن

تصبر، فالله ناصرك ومؤيدك، فلا أحدَ قادرٌ على دَفْعِ أمر الله وقضائه، ولا أحدَ يستطيع تأخير وعده، فإنَّ لكل أجلٍ كتاباً. وقد قَصَّ الله على رسوله محمد ﷺ قصص الأنبياء والمرسلين، فلم يكتف بالقول لرسوله هنا: إن الرسل قد كَذَّبَتْهم أقوامهم، بل أورد قصصهم على نحوٍ مفصَّل، فأفرد لها في القرآن الكريم سوراً خاصة، كيف كذَّبوهم وآذوهم، فصبروا على أذاهم، فأيَّد الله رُسُلَه بالثبات والتمكين والنصر المبين؟

٣٥- إن كان كَبُرَ عليك - يا محمد - إعراضُهم عن هَدْيِك، وشقَّ عليك تَوْلِيَتُهم عنك، وأصَرُّوا على كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم بآية؛ لتكون شاهداً على صحة ما تقول، وأنك رسول من عند الله، فافعَلْ واطلب ذلك، كأن تَشُقَّ لهم نفقاً في الأرض، أو أن تبنيَ لهم سُلَّماً؛ لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية. فافعل، فإنك لن تستطيع ذلك؛ لأنه فوق استطاعتك وقدرتك، فليس إذن أمامَك إلا الصبرُ والثبات. والسخرية بالرسل والإعراض عنهم من قِبَلِ أقوامهم معروفة لكل رسول بُعِث إلى قومه. ولو شاء الله لَجعل الناس جميعاً مؤمنين وطَبَعَهم عليه، فلا يشتدُّ حُزْنُك عليهم، فتقاربَ حال الجاهلين الذين يَجْزَعون ولا يصبرون.

الفوائد والاستنباطات:

١- خسارة الكافرين لآخرتهم؛ بسبب كفرهم بالله.

٢- عدم الاغترار بالدنيا، فإنَّها متاع قليل. والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتنبيه والحثّ على التأمل.

٣- أمْرُ الساعة عظيم، فهي لا تأتي إلا بغتة، فليحذر الغافلون من ذلك.

٤- تسلية الرسول ﷺ، وحَمْلُه على الصبر، أسوةً بإخوته المرسلين. وصُدِّرت الآية ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بالقسم؛ لتأكيد التسلية.

٥- بيان سُنَّةِ الله في هلاك الأُمم السابقة.

٦- بشرية الرسول ﷺ لا تتنافى مع نبوته، فهو بشر يجري له ما يجري للبشر من حزن وفرح.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

التفسير :

٣٦- إنَّ الذين يستجيبون لدعوتك - يا محمد - هم الذين يسمعون بآذانهم الواعية وقلوبهم الصادقة، مع الحب الصادق للهدى، وإنفاذ ما سمعوه. وهذه أوصاف المؤمنين الصادقين الذين يثبتون معك، ويصبرون على تبليغ الدعوة. أما الذين لا يستجيبون كالكفار والمشركين فهم موتى ولو كانوا أحياءً؛ لأنَّ الحياة الحقيقية للإنسان تكمن في قبول نور الإيمان والإسلام والإذعان له. وهؤلاء الكفار هم أموات في صور أحياء، يبعثهم الله عندما تنتهي حياتهم في الدنيا، وسيرجعون إليه؛ ليسألَهم عن أفعالهم في الحياة الدنيا.

٣٧- ولم يكتف المشركون بمعجزة القرآن البليغة التي جاءت في مجال نبوغهم، بل واصلوا الجدال وطلبوا معجزة حسية كونية يرونها، وقد أعماهم الحقُّ عن ذلك؛ فإنَّ المعجزة الحسية تكون موقوتةً على مَنْ شهدها ورآها، فمَنْ يراها يُصدِّقُ، ويقول: إنَّها معجزة، ومَنْ لم يرها فقد يُصَدِّق بها وقد لا يُصَدِّق، وهي تنتهي بموت النبيِّ، إلا أنَّ القرآن قد جاء للناس كافة إلى يوم القيامة، وقد تحدَّاهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة ممَّا فيه. والله قادر على الإتيان بمعجزة حسِّية كونية تكون آية للنبي ﷺ، ولكن طلبهم لم يكن حقيقاً يبتغون به الحق، بل مجرد جدال وتَعَنُّتٍ حتى لا يؤمنوا. ثمَّ إنَّ الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بمعجزات حسية كانت رسالاتهم إلى أُمم مخصوصة وفي زمان محدود، ولكنَّ الرسول محمداً ﷺ جاء لعموم الناس في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة؛ فناسب أن تكون معجزته - القرآن - دائمة في كل زمان ومكان، فهم لا يعلمون الحكمة في ذلك.

٣٨- إنَّ دلائل قدرة الله في هذا الكون كثيرة لا تُعَدُّ، فالناس فيه لم يُخْلَقُوا عَبَثاً أو مصادفة؛ بل هناك عوالم أخرى تحيط بهم مثل: الدواب والطيور والحشرات...، وهم أُممٌ ذات خصائص واحدة، شأنها في هذا شأن أُمم الإنسان، وهي مفتقرةٌ إلى خالقها؛ كي يرزقَها ويرعاها ويتولَّى أمرها، وهي في النهاية تحشر

إلى ربها؛ ليقضي بينها، ولم يغفل الله شيئاً منها، وقد أثبت الله في كتابه المحفوظ كل شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، فهل يُعقل أنَّ الله بهذه القدرة عاجز عن إنزال آية! وأكَّد الطيران بالجناحين، وهو لا يكون عادة إلا بهما، لدَفْعِ تَوَهُّمِ المجاز؛ لأنَّ الطائر قد يُستعمل مجازاً للعمل، كقوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

٣٩- يأمر الله نبيَّه ﷺ مؤكِّداً خطابه بمجيء الكاف في ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره، إنَّما أشركوا؛ لأنَّهم أغلقوا آذانهم عن سماع الهدى والحق ونور الإيمان. ولو أنَّهم أحسنوا استعمال ما وهبهم الله من هذه الحواس لاستجابوا إلى الهدى، ولكنهم اختاروا الضلال، فهم لم يخرجوا عن مشيئته، وهي المشيئة التي جاءت وَفْقَ سُنَنِهِ في خلق الإنسان أن يختار الهدى أو الضلال، من غير إلزام منه ﷻ.

٤٠- قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين توبيخاً لهم: أَخْبِروني، إن نَزَلَ بكم عذابٌ من عند الله انتقاماً منكم، أو أتاكم يوم القيامة فجأة، مَنْ إلهٌ غير الله تدعونه، إن كنتم صادقين؟

٤١- إنكم لن تَدْعُوا آلهتكم أو أصنامكم. إنَّ فطرتكم ستتوجَّه إلى خالقها، وستدعوه مفتقرة إليه متضرعة، إنها الفطرة، ولو لم تنطق ألسنتكم بها، وعندها ستتوجه إليه، وتنسى أنَّها أشركت معه أحداً، وهناك ستنكشف الحقائق.

الفوائد والاستنباطات:

١- تأخير إرسال آيات الله تعالى للمشركين؛ لعِلْمِ الله أنهم لا يؤمنون بها، وهنا قال ﴿قَادِرٌ﴾، وفي مواطن أخرى في القرآن قال (قديراً)؛ لأنَّ (قديراً) من صيغ المبالغة على وزن فعيل، يأتي بها إذا عَمَّم القدرة ولم يقيِّدها، قال: (وهو على كل شيء قدير) أو أطلقها (وهو العليم القدير)، و(قادر على كل شيء) ليست من صيغ المبالغة، لكن يأتي بها إذا قَيَّدها بشيءٍ، كما في هذه الآية: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقد قُيِّدت بإنزال آية.

٢- تَعَدُّد أجناس الأُمم في الأرض.

٣- جميعُ الأُمم بتنوع أجناسها خاضعةٌ لله تعالى.

٤- تبيَّن للباحثين أنَّ كُلَّ نوع من أنواع الأحياء بأُممه وأفراده هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأُمم والأنواع، وأنَّ كُلَّ صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع، وهي حقيقة بدأت أعداد من نتائج العلوم المتلاحقة، مثل علوم الوراثة، علم الأحياء الجزيئي، علم الكيمياء الحيوية وغيرها تتحدث عنها بوضوح. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٥١-٥٢).

٥- تَضَرُّع الإنسان في شدَّته إلى الله تعالى، على الرغم أنّه أشرك معه غيرَه في العبادة؛ تلبيةً لداعي الفطرة. والاستفهام يُستعمل في الاستخبار عن حالة عجيبة.

٦- في الآية (٤١) إخبار عن أمرٍ مستقبليٍّ في وقوع العذاب، فيجب الالتجاء إليه بالدعاء، فيُكشف إن شاء تعالى.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥) ﴾

التفسير:

٤٢- يُخَفِّف الله عن نبيه محمد ﷺ إعراض المشركين عن هديه، وإصرارهم على كفرهم، بأنّه قد أرسل رسلاً من قبله إلى أُمم سابقة، فدَعَوهم إلى الإيمان بالله وحده وإفراده بالعبودية والألوهية، وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان، فأعرضوا وكفروا به، فأخذهم الله بالشدائد والعذاب: فمنهم مَنْ ابتلاهم بضيق العيش، وشدة الفقر، ومنهم مَنْ ابتلاه بالأمراض والأوجاع، ومنهم مَنْ أرسل عليه الرِّجز من العذاب؛ لعلهم يتضرَّعُون فيرجعوا إلى الإيمان.

٤٣- ولكن مع مجيء البأس لم يعتبروا أو يتضرعوا، بل قست قلوبهم، وأغراهم الشيطان بالإصرار على الشرك والمعاصي، فزَيَّنها لهم.

٤٤- فلما أعرضوا عن هدي الله، ولم يستجيبوا لأوامر رسلهم، استدرجهم الله، ففتح عليهم أبواب الدنيا من رزقٍ وخيرٍ وصحةٍ في أجسادهم، فابتلاهم بالرخاء كما ابتلاهم بالشدة. حتى إذا فرحوا وبطروا، وغمرتهم الخيرات من كل مكان، لم يشكروا الله على ذلك؛ واسترسلوا بالمعاصي والآثام، ففسدت طبائعهم، وعَمَّ فسادهم في الحياة كلها، عندها جاء أمر الله فجأة من غير سابق إنذار، فإذا هم حائرون آيسون من النجاة.

٤٥- فاستأصلهم الله تعالى عن آخرهم؛ بسبب ظُلْمِهم، فالحمد لله على خالق الخلق.

الفوائد والاستنباطات:

١ – جاء التنوين في ﴿أُمَمٍ﴾ للتكثير، أي: لقد أرسلنا رُسُلاً إلى أُمَمٍ كثيرة في زمانٍ قبل زمانك.

٢ – الظلم في الأرض سبب في هلاك الظالمين.

٣ – دعوة الناس إلى التوبة، ومحاسبة النفس قبل فوات الأوان، وقَدَّم الكشف مع تأخُّرِه عن النسيان كتأخُّرِه عن الدعاء؛ لإظهار كمال العناية بشأنه، والإيذان بترتبه على الدعاء.

٤ – نزول البلاء من أسباب تَضَرُّع العبد لربه، وصِدْق العودة إليه ﷻ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٦ – يُثْبِتُ الله الحجة تلو الحجة على ألوهيته وتَفَرُّده بالكون، وأنه لا إله إلا هو سبحانه؛ فتبطل بذلك دعاوى المشركين الذين اتخذوا أصنامهم آلهة من دون الله، فبيَّن لهم حقيقة ما يشركون به بأسلوب فيه التوبيخ المكرر؛ لقصد تأكيد الحجة عليهم، فيقول: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني إنْ سَلَبَ الله منكم السمع، فجعلكم صُمّاً لا تسمعون، وأَخَذَ أبصاركم فصِرْتم عُمْياً لا تُبصرون وطبع على قلوبكم، هل هناك إلهٌ غير الله يَرُدُّ لكم ما سُلِبَ منكم، أو هل هناك إلهٌ غير الله تلجؤون وتتضرعون إليه؛ ليردَّ لكم ما أخذ منكم؟

انظر – يا رسول الله – وتَعَجَّبْ كيف نُنَوِّع الآيات ما بين حُجَجٍ عقلية وتوجيه إلى آيات كونية، ومع هذا كلِّه فإنَّ الكافرين مُصِرُّون على عنادهم وكفرهم.

٤٧ – أخبروني إن أتاكم عذاب الله فجأة من غير علامات أو مقدمات تدلُّ على العذاب، أو أن يأتيكم جهرة بعد ظهور مقدمات تدل عليه، ما يهلك إلا الظالمون؛ لأنَّهم فقدوا حياتهم الدنيوية وما فيها من مُتَعٍ وشهوات، والحياة الأخروية التي يلقون فيها الخسران والعذاب والخزي في النار. والاستفهام هنا للتقرير.

٤٨ – أما الأنبياء والمرسلون فإنَّ الله بَيَّنَ مهمتهم، وهي أنَّهم مُبَلِّغون عن ربهم. فمَنْ آمن منكم بقلبه واهتدى لدين الله، ولم يُفْسد في الأرض، بل سعى في إصلاحها وعمارتها، فلا خوف عليهم عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على شيء تركوه خلفهم؛ لأنَّ ما عند الله خيرٌ لهم وأبقى.

٤٩ – والذين كَذَّبوا بالقرآن والمعجزات، وكَذَّبوا بمحمد ﷺ، فأولئك يصيبهم العذاب؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم. وخُتِمَتْ بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾، فاستعمل الفعل (كان) والفعل (يفسقون) ولم يقل: بما فسقوا بالماضي للفتة لطيفة، وهي أن العذاب نزل بهم؛ لإصرارهم على الفسق، فالفعل المضارع (يفسقون) يدل على التجدد والاستمرار.

٥٠ – قل – يا رسول الله – لهؤلاء المشركين: إني لا أملك خزائن السموات والأرض، فكيف تطلبون إليَّ بيوتاً وقصوراً، وأنا لا أدَّعي علم الغيب، فكيف تطلبون إليَّ أن أُخبِرَكم بما سيقع في المستقبل، ولم أقل لكم: إني مَلَك من الملائكة، فكيف تطلبون إليَّ الأفعالَ الخارقة التي لا يطيقها البشر؟ ما أنا إلا عبدٌ رسول مُبَلِّغ عن ربي، أَتَّبِعُ ما يوحي إليَّ منه.

قل: هل يستوي الكافر الذي عَمِيَ قلبُه عن قبول الهدي والحق وأعرض عن آيات ربه، والمؤمن الذي فتح قلبه لنور الإيمان، فأبصر الهدي، وآمن بالله ورسوله؟ أفلا تتفكرون في آيات الله فتؤمنوا به؟

الفوائد والاستنباطات:

١ – نِعَمُ الله على عباده كثيرة ومتنوعة، منها السمع والبصر، وهي تستوجب شكر الله تعالى.

٢ – مهمة الرسل البلاغ وهي البشارة لِـمَنْ أطاع، والإنذار لِـمَنْ عصى.

٣ – من سنن الله هلاك الظالم عاجلاً أو آجلاً.

٤ – افتقار رسول الله محمد ﷺ إلى ربه، فهو بشر لا حول ولا قوة له إلَّا بالله العلي العظيم.

٥ – لم يكن الرسول ﷺ مَلَكاً من ملائكة الله.

٦ – علم الغيب مَرَدُّه إلى الله تعالى، والاستفهام في ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ للإنكار، والمراد إنكار استواء مَنْ لا يعلم ما ذُكِرَ من الحقائق، ومَنْ يعلمها.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٥١- وأَعْلِمْ - يا محمد - بالقرآن الذين يخشون ربهم؛ لأنَّهم أكثر استجابةً من غيرهم؛ فهم مؤمنون بالله، ومُصَدِّقون بيوم الحشر، ليس لهم ناصر غير الله ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله. لعل هذا الإنذار والإعلام يزيدهم في المستقبل ثباتاً وإيماناً.

٥٢- سبب النزول:

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كُنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسَمِّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ ٤/ ١٨٧٨ برقم ٢٤١٣).

التفسير:

يردُّ الله تعالى على المشركين الذين طلبوا من رسول الله تعالى أن يطرد بعض الصحابة من الضعفاء، فنهى اللهُ رسولَه ﷺ عن ذلك؛ لأنَّهم كانوا مخلصين بعبادتهم لله تعالى في أول النهار وآخره، لا يبتغون أحداً غيره، ثمَّ لماذا تطردهم؟ فلستَ مسؤولاً عن خطاياهم، ولم يُكَلِّفْك الله بكفاية أرزاقهم، ولا هم مسؤولون عنك، فإن فعلت ذلك فأبعدتهم فإنك من المتجاوزين لحدود الله، الظالمين لشرعه. وحاشا أن يكون ﷺ من الظالمين.

٥٣- وكذلك فَتَنَ اللهُ الناسَ بعضهم ببعض، فجعل منهم الغني والفقير، والقوي والضعيف، والشريف والذليل؛ ليقول الأغنياء للفقراء من المؤمنين استخفافاً بهم، واحتقاراً لهم: أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم بالهداية والإسلام والإيمان؟ فيردُّ عليهم: بلى مَنْ شكر يستحق الإنعام والإكرام.

٥٤- وإذا جاءك - يا رسول الله - هؤلاء المستضعفون الذين نُهِيَت عن طَرْدهم من المؤمنين، والذين يسخر منهم الكبراء من أشراف قريش، فبادِرْ بالسلام عليهم؛ تطييباً لخاطرهم وإكراما لهم، وبَشِّرْهم بسَعة رحمته وعِظَمِ مغفرته. فمن رحمته أنَّه مَنْ عمل السوء وارتكب المعصية، وتاب وأناب، ورَجَعَ إلى الله تائباً مستغفراً نادماً؛ فإنَّ الله يغفر ذنبه ويجبر زلَّته؛ لأنَّه غفور رحيم.

٥٥- وبمثل هذا البيان الذي فَصَّلْناه لك - يا محمد - في هذه السورة من دلائل قدرة الله ومُحاجَّة المشركين، نُبَيِّن الأدلة والبراهين في كلِّ حقٍّ ينكره أهل الباطل، حتى تستبين - يا محمد - وأُمَّتُك معك طرقَ المجرمين.

٥٦- قل - يا رسول الله - لأولئك المشركين الذين يَدْعُونك لعبادة آلهتهم معهم، أو موافقتك على عبادتهم: إنَّ الله نهاني أن أعبد ما تدعونني إليه من أصنام وأوثان، ولن أتبع الطرق والسُّبُلَ التي اتبعتموها. فإنْ فَعَلْتُ فسأكون من الضالِّين الذين سلكوا طرق العمى والضلال، وحادوا عن طريق الصلاح.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل التلطُّف والرفق بالمستفتين عن أمور الدين.

٢- عدم اتباع أهواء المضلين. والعدول إلى الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، أي: دوام النفي واستمراره.

٣- إكرام الله للمستضعفين الذين نهى الله نبيَّه ﷺ عن طَرْدِهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسَّلام.

٤- جعل الناس متفاوتين، فمنهم الغني والفقير، والشريف والذليل.

٥- فضل الصبر على أهل الفسق والضلال من أسئلتهم المضلِّلة.

٦- بيان سعة رحمة الله في قبول توبة المذنبين.

٧- الرسول ﷺ مبلِّغ عن ربه، لا يملك شيئاً من أمور الكون.

٨- توحيد الله أهَمُّ عملٍ يُقَدِّمه المسلم بين يدي ربه.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٧- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إنِّي على بيِّنة واضحة من أمر ربي؛ فإنِّي أعبده وأُفْرِدُه بالعبادة، فهو إله عظيم لا شريك له في كونه، وأمَّا المشركون فهم الذين كذبوا بالله وأشركوا معه غيره، فهم يَرُدُّون أمر الله، ويطلبون إلى الرسول محمد ﷺ تعجيل العذاب، فإنَّه - أي الرسول ﷺ - لا يملك تعجيله؛ فالحكم والأمر كلُّه لله تعالى، فإن شاء أن يُنزل عذاباً، ويعجل به في الدنيا، كما أنزل على بعض الأُمم، فلا رادَّ له، وإذا أراد أن يؤخِّره إلى أجل أو إلى الآخرة فلا مُعَقِّبَ له، فهو وحده يفصل بين الحق والباطل دون هوى.

٥٨- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إنَّ أحداث الكون إنما مَرَدُّها إلى خالقها، وهو الله جلَّ جلاله، فهو يُجريها ﷻ بإرادته وعِلْمِه، ولو كان الأمر بيدي - أي: بيد محمد ﷺ - وبقدرتي، لَأتيتكم بما تستعجلون به من عذاب، ولأهلكتكم به؛ انتصاراً لربي وانتقاماً لحرمته، ولكن الأمر كلَّه لله تعالى، فهو الإله الحكيم الخبير العليم بالظالمين، يمهلهم عن علم، ويُمْلي لهم عن حكمة منه، ولكن إذا أَخَذَ فإنَّ أَخْذَه أليمٌ شديد.

٥٩- يقرر الله علمه الشامل الواسع المحيط بكل شيء، فهو الذي خلق الكون كلَّه، وأودع فيه خلقه، لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يَحُدُّه زمانٌ ولا مكانٌ، فهو العليم الخبير في الأرض وفي السماء، وفي البر والبحر، وخَصَّهما بالذكر؛ لأنَّهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، ويعلم عدد خَلْقِه من إنس وجان وحيوان ونبات...، وكل ورقة يعلمها الله ويعلم متى، وكيف، وأين تسقط؟ ولا حبة إلا يعلم متى تنبت؟ وكم تنبت ومَنْ يأكلها، كلٌ في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - سَعَةُ عِلْمِ الله ﷻ في كونه الكبير، وقدَّم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب، وأكَّد ذلك الاختصاصَ بأسلوب القصر، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، واكتفى بحال السقوط في ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ دون الاكتفاء بغيرها من الأحوال لشدَّة ملاءمتها؛ ولأن التغيير فيها أظهر، فهو أوفق لما سِيقت له الآية.

٢ - تحقيق مبدأ الحساب يوم القيامة.

٣- بيان تكذيب مشركي مكة بالقرآن.

٤ - الله أعلم باستحقاق الظالمين الإمهال، أو بتعجيل العذاب.

٥- في ظلام التربة وتحت الثرى توجد الحبوب والبذور والثمار المزروعة والبرية الكامنة لعشرات السنين والتي لا تنبت إلا عندما يحين موعد إنباتها وتتهيأ لها العوامل الداخلية والخارجية (البيئية) المساعدة على الإنبات. توجد في ظلمات الأرض كورمات القلقاس الرطبة أو الطرية، ودرنات البطاطس، وجذور البطاطا، وريزومات الموز والغاب والكانا، وجذور النباتات العادية الوتدية والليفية، والجذور المتدرنة كاللفت والبنجر والجزر، وتوجد ثمار نبات الفول السوداني في التربة.

(http://www.nazme.net/ar/index.php?p-show_articles&id-773)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٠- يُبَيِّنُ الله دليلاً على قدرته وعلمه، فهو الذي يقبض أرواحكم التي في نفوسكم، والتي بها تميزون. ومن قدرته أنه يُعيدها؛ ليبعثكم في النهار، فتستيقظون وتقومون إلى كَسْبكم وأرزاقكم، فيعلم ما كسبتم فيه من أعمال وأرزاق، وخيرٍ وشر؛ ليستوفيَ كلُّ واحدٍ أَجَلَه الذي حُدِّد له في عِلْمِه الغيبي، ثم يرجعون إليه في الآخرة؛ ليجازيَهم، ويخبرَهم بعملهم. وإذا أمهل الله الكافرين في الدنيا فليس غفلةً منه سبحانه، ولكن ليستوفي كلُّ واحدٍ رِزْقَه وأَجَلَه في الدنيا.

٦١- وهو الله القاهر فوق عباده، العظيم المتجبر الذي خضع كل شيء لجبروته وعظمته، فيرسل على خلقه الملائكة الكرام البررة، فيكتبون أعمالهم، ويُحصونها عليهم، فإذا استوفَتْ آجالهم تَوَكَّلَتْ رسلُنا بقَبْضِها وعودتها إلينا، وهم مأمورون بتنفيذ أوامر الله، لا يُقَصِّرون، ولا يضيعون ما أُمروا به.

٦٢- وبعد قَبْضِها وموتها يُعيدها الله إليه؛ ليفصلَ بينهم، فله سبحانه الحكم وحدَه يوم القيامة، وهو أسرع الحاسبين، لا يحتاج ما يحتاج إليه خَلْقُه من فكر وتدبُّر.

٦٣- قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: مَنْ يُخَلِّصكم وينقذكم إذا ضلَّ أحدكم في البر، فدخل عليه الليل، أو ركب البحر، فضرب به الموج في ظلمات الليل، فأصابه الخوف والهلع، فمَنْ يدعو، وإلى مَنْ يلتجيء؟ إنَّ الفطرة تدعوه أن يتوجه إلى الله الذي خلقه فسَوَّاه وعَدَله، وحينها يدعو الله، فيتضرَّع إليه سِراً وجهراً، بذُلٍّ وضعفٍ وانكسارٍ، خائفاً قائلاً: لَئِنْ أنجيتني من هذه الشدة والهَلَكَة لَأَكونَنَّ لك من الشاكرين.

٦٤- قل لهم - يا رسول الله - جواباً لقوله: مَنْ ينجيكم؟ إنَّه الله الذي يخلصكم وينقذكم من تلك الهلكة التي وقعتم بها ومن كل شدة أو كرب، ولكن مع هذا فإنَّكم تشركون به.

٦٥- قل - يا رسول الله - لهؤلاء الذين يدعونه ويتضرعون إليه، ثم يشركون به: إنه قادر على تعذيبكم من فوقكم، بأن يرسل عليكم حجارةً أو طوفاناً أو ريحاً أو صيحةً، أو من تحت أرجلكم، فيرسل عليكم خَسْفاً أو تأتيكم الرجفة، أو يجعلكم فرقاً وأحزاباً وشيعاً، فتصبحوا أعداءً يقتل بعضكم بعضاً. انظر يا محمد: كيف نُبيِّن لهم الحُجَجَ والبراهين؛ لعلهم يفقهون، فيعتبرون، ويرجعون إلى الله؟

٦٦- وكذَّب قومُك - يا رسول الله - بهذا القرآن. والتعبير عن المكذبين بقوله :﴿ قَوْمُكَ ﴾ تسجيل عليهم بسوء معاملتهم لِـمَنْ هو من أنفسهم ومن بين ظهرانَيهم، فظُلْمُ ذوي القربى أشدُّ على النفس ممَّنْ يكون بعيداً، فكَذَّبوا بوَعْدِه ووعيده؛ وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خلفِه. قل يا محمد: لستُ حافظاً على أعمالكم حتى أُجازِيَكم عليها.

٦٧- لابُدَّ لكل خبر من قرار، ولكل شيء وقت يقع فيه من غير تَقَدُّم و لا تأخُّر، وسوف تعلمونه عندما يحل بكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وفاة الإنسان شبيهة بالنوم؛ ولذلك أُطلق على النوم وفاة، وهذا من الإعجاز العلمي الذي أثبته العلم الحديث، فإنَّ النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النَّفْسُ، وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.

٢ - إمهال الله الكفار ليس لغفلة عن كفرهم؛ ولكن ليقضي أجلاً مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه، فيجازيهم.

٣- من أدلة بطلان الشرك عند الإنسان دعوة الله في الشدة.

٤ - التحذير من الاختلاف المؤدي إلى الانقسام والاقتتال.

٥- في الآية (٦٥) دليل صحيح على الوقوف النبوية، فصحَّ عن جابر ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر». (صحيح البخاري ٨/ ١٤١ برقم ٤٦٢٨ - كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾). ويستنبط من هذه الآية والرواية ثلاثة وقوف نبوية. (ح)

٦- يستنبط أيضاً الفترة الزمنية للوقف وذلك من خلال الفترة التي يستغرقها الدعاء وهو مقدار بضع ثواني.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٨- وإذا رأيت - يا رسول الله - هؤلاء الذين يُكَذِّبون، ويستهزئون بآياتنا، فانصرف عنهم، ولا تجالِسْهم حتى يأخذوا في حديث آخر؛ فإن امتثلوا ولم يخوضوا، فلا مانع بعدها أن تجالِسَهم، وتسمعَ أمر الله، لذلك انتهِزْ فرصة عدم خوضهم بآيات الله، فذَكِّرْهم وأسمِعْهُم موعظة، لعلهم يرجعون. وإذا أنساك الشيطان أن تنصرف عن مجالستهم بعد نَهْينا، فجالَسْتهم ثمَّ تَذَكَّرْتَ، فقُمْ عنهم، ولا تقعد مع الظالمين.

٦٩- وإذا قمت - يا رسول الله - من مجلس هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آيات الله، فليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزارهم من شيء، وليس عليك من حسابهم من شيء، ولكن قيامك من مجلسهم هو تذكرة لهم؛ لعلهم يخشون الله، فينأون بأنفسهم عن الخوض في آيات الله.

٧٠- اترك - يا رسول الله - هؤلاء الذين أشركوا بالله، وجعلوا دين الله - الإسلام - لعباً ولهواً واستهزاءً بآيات الله، وغَرَّتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها، وذَكِّرْ بالقرآن هؤلاء المشركين الذين يخالفون أوامر الله؛ حتى لا تَرْتَهِنَ كل نفس بذنوبها، فتُلْقِي بنفسها إلى الهلكة والعذاب، وليس لها ناصر غير الله ينصرها، ولا شافع يشفع لها عند الله، ولا يُقبل منها فدية تفتدي بنفسها من عذاب الله. أولئك الذين حُبِسوا بذنوبهم، لهم في جهنم شراب من ماء حميم يغلي في بطونهم، وعذاب موجع؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١- حرمة الجلوس في المجالس التي يُسْخَرُ فيها من الإسلام وشرائعه.

٢- وجوب القيام من المجلس الذي يُعصى الله فيه.

٣- الحث على الإعراض عن المستهزئين بالإسلام.

٤- شدة عذاب جهنم.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٧١- يخاطب الله رسوله ﷺ أن يوبخ المشركين: كيف نعبد أصناماً من دون الله لا تضر ولا تنفع؟ فنرجع كفاراً مشركين به، بعد أن مَنَّ الله علينا بهدايته وعبادته، وشعرنا بحلاوة الإيمان به. فإن رجعنا فسيكون حالنا كحال مَنْ أضَلَّته الشياطين في الصحراء لا يهتدي لجهة أمره، وله أصحاب ورفقاءُ عقلاء يَدْعونه إلى الطريق الصحيح. قل يا محمد: إنَّ هُدى الله هو الطريق الموصل إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بجنانه، وأُمِرنا أن نُسْلِمَ أمْرَنا لله تعالى؛ لأنّه أعلم بأمورنا.

٧٢- لقد أُمِرْنا بإقامة الصلاة، وتقواه وخشيته في السر والعلن، فهو دليل محبة العبد لربه؛ لأنّه سبحانه تُحشر إليه الخلائق يوم القيامة.

٧٣- وهو الذي ينبغي أن يُعبد؛ لأنّه خلق السموات والأرض بالحق، فلم يَخْلُقْها عبثاً وباطلاً. ويومَ القيامة يتجلَّى الله على الخلائق جميعاً، فيكون أمره بين الكاف والنون، لا يُعجزه شيء، وقولُه حق لاشك ولا مرية فيه؛ فهو مالك كل شيء. ويوم القيامة يأمر الملك بالنفخ في الصور النفخة الثانية، فتُعاد الأرواح إلى الأجسام لبدء الحساب، فالله عالم الغيب، ومن بابٍ أولى أنّه يعلم الشهادة، وهو الحكيم الذي يضع كل أمرٍ في مكانه، وهو الخبير بكل شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عِظَمُ ذنب الارتداد عن دين الله بعد الدخول فيه.

٢ - الردَّة من نزغات الشيطان.

٣ - المداومة على إقام الصلاة وتقوى الله، فهي زاد المتقين، وخُصَّ من المأمورات الصلاةُ في ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾؛ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى.

٤ - يوم القيامة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) ﴾

التفسير:

٧٤- واذكر - يا رسول الله - عندما قال إبراهيم لأبيه آزر: أتجعل من هذه الحجارة آلهة وأرباباً تعبدها أنت وقومك من دون الله، إنَّك تعدل عن طريق الحق والصراط المستقيم، إلى طريق الغواية والضلال المبين؟

وخَصَّ إبراهيم بالذكر؛ لمنزلته في قلوب العرب، وليوضِّح لهم قضية العقائد توضيحاً يؤنسهم بمَنْ له في نفوسهم ذِكْرٌ. وأكَّد الإخبار بحرف التأكيد؛ لما يتضمنه ذلك الإخبار من كون ضلالهم بَيِّناً. وفائدة عطف ﴿وَقَوْمَكَ﴾ لينبِّه من أول وهلة علة أنَّ موافقة جَمْعٍ عظيمٍ له على ضلاله لا تعضد دينه، ولا تشكك مَنْ ينكر عليه ما هو فيه.

٧٥- وكذلك نُري إبراهيم مظاهر قدرتنا في السموات والأرض، وأنَّ ملكنا عظيم وواسع، وقدرتنا باهرة؛ ليكون من المؤمنين الراسخين بتوحيد الله وإخلاص العبادة له. وقد أتى بالخبر جاراً ومجروراً فقال: ﴿مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ولم يقل: «وليكون موقناً»؛ لأنَّها أبلغ بالمقصود، لأنَّ الإخبار بأنَّه من الموقنين يفيد أنَّه واحد من الفئة التي تُعرف عند الناس بفئة الموقنين، فيفيد أنَّه موقنٌ، إفادةً بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه، وهي أبلغ.

٧٦- وقد واجه إبراهيم قومه عبدة الكواكب بالحقيقة التي لا يحجبها ظلام الكفر، والتي من خلالها يبطل عقيدة الشرك وعبادة غير الله. فلما أظلم عليه الليل، ورأى كوكباً قد بزغ، ثم غاب، قال:- على سبيل الاستدراج، ويسمَّى في علم الجدل بـ(مجاراة الخصم) وليستميل آذانهم، ويأخذ قلوبهم معه، وليصل بهم إلى الحقيقة - هذا ربي على زعمكم وقولكم. فلما غاب الكوكب قال: لا أحب الآلهة التي تغيب بمعنى لا أرضى، واسم الإشارة لقصد تمييز الكوكب عن غيره من الكواكب.

٧٧- فلما رأى إبراهيم القمر بازغاً، وقد اتخذه قومه آلهةً من دون الله، قال لهم على سبيل استدراج الخصم: هذا ربي! وهو إنكارُ أن يكونَ مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر رباً، فلما غاب وأفل قال- وهو يحدد لهم مصير مَنْ يعبد تلك الكواكب-: لئن لم يهدني ربي إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم في توحيده وعبادته، لَأكونَنَّ من القوم العادلين عن طريق الحق.

٧٨- فلما رأى الشمس طالعة- وقد اتخذوها آلهة من دون الله- قال: هذا ربي، هذا أكبر الكواكب، أي: أهذا ربي على زعمكم وقولكم، وقَصَدَ بالأكبرِ الأكثرَ إضاءة والأَولى باستحقاق الإلهية، وهو أيضاً على سبيل استدراج الخصم؛ فلما أَفَلَتْ وغابَتْ بدخول الليل قال: إنِّي بريء ممَّا تشركون من عباده الأصنام والكواكب. وقد ذكر الشمس هنا، فقال: (هذا)، ولم يقل: (هذه)؛ ليجعل الأمر على سياق واحد، وهو بهذا يُنَزِّه كلمة الرب تنزيهاً مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث، وأيضاً فإنَّ (الشمس) ليست مؤنثاً حقيقياً، بل هي مؤنث مجازي. وقد وصل إبراهيم إلى الحقيقة التي أراد أن يصل إليها معهم من إبطال عبادة الكواكب، والرجوع إلى الفطرة التي فطر الناس عليها من عبادته وتوحيده.

٧٩- إني وَجَّهْتُ وجهي في العبادة للذي خلق السموات والأرض غير مشرك به، فهو الذي يستحق ذلك، لا كما تفعلون، فتتوجهون لأصنامكم التي لا تملك شيئاً، وأُعلن براءتي منكم وما تعبدون من دون الله.

٨٠- أقام إبراهيمُ الدليلَ على وحدانية الله، وأنَّه مستحق للعبادة، وأعلن براءته من الشرك وعبادة الأوثان، وجادله قومُه ليصرفوه عن دينه الحنيف، فقال لهم مُنْكِراً فِعْلَهم: كيف تجادلونني في عبادة الله وتوحيده، وتَرْكِ الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع، وقد هداني الله إلى توحيده، وتبرَّأت من آلهتكم؟ وهنا لجأ قومُه إلى تهديد إبراهيم وتخويفه بأنَّه قد يصيبُه مكروه من آلهتهم أو منهم، فردَّ عليهم قائلاً: ولا أخاف من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؛ لأنَّها صَمَّاء لا تَضُرُّ ولا تنفع، فإن شاء الله أن يُنزل في عبدٍ من عباده أذى، فإنَّه لا دخل للكواكب به؛ لأنَّ النافع والضارَّ هو الله.

٨١- ثم كيف أخاف أصنامكم الجامدة وهي من مخلوقات الله لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون الله الذي خلقكم وخلق السموات والأرض، يحيي ويميت بيده كل شيء؟ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن وعدم الخوف: مَنْ كان يعبد الله الذي يتصف بتلك الصفات، أو مَنْ عبد أصناماً لا تضر ولا تنفع؟

ومن أدب الحوار والجدال عند إبراهيم مع خَصْمِه أنه لم يقل: أأنا أم أنتم أحقُّ بالأمن، بل قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، إن كنتم تعرفون الحجج والبراهين، وهو شبيهٌ بما عَلَّم الله نبيه محمداً ﷺ عندما جادل المشركين، فقال الله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤]، فلم يُصَرِّح بأنَّ منهجهم على ضلالٍ، وأنَّ منهجه على صواب، حتى لا يستثيرهم، بل ترك الأمر لِفِطَرِهم وعقولهم حين يستعرضون المنهجَين، وسيحكمون بأنَّه على هدىً، وأنَّهم على ضلال.

٨٢- وهنا يأتي الجواب من الله لسؤال إبراهيم الذي ألقاه على المشركين في أثناء المجادلة فقال: الذين آمنوا بالله ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، لهم الأمن في الدنيا، وهم مهتدون إلى الحق، ثابتون عليه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يَظْلِمْ؟ فنزلت: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ١٤٤، برقم ٤٦٢٩، كتاب التفسير، سورة الأنعام).

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز جدال المشركين وإقامة الحجة عليهم؛ لعلهم يهتدون. وعندما فرغت القلوب بما أُلقي من حجج إبراهيم، وأدلة بطلان آلهة الكواكب، وتهيَّأت قلوبهم لقبول الحق، ختمت الآية بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: إذ لم يبق في العالم العُلْوِيِّ كوكب أكبر من الشمس، فقال مستنتجاً ممَّا دَلَّ عليه الدليل العقلي: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢- الدعوة إلى الله بالرِّفْقِ واللِّين والحجة والبرهان، وبان ذلك بقوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، ولم يقل: (فأينا) تعمياً للمعنى.

٣- فِقْهُ أدب الحوار مع المخالفين، ولو كانوا مشركين.

٤- بيان ظلمة الكفر في قلوب المشركين.

٦- خير ما يُعطى المرء هداية قلبه إلى الطريق المستقيم.

٧- من أعظم الذنوب المحبطة للعمل الشركُ بالله ﷻ.

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

التفسير:

٨٣- وقد أعطى الله إبراهيم تلك الحجج والبراهين التي حاجَّ بها قومه، فغلبهم وأقام الحجة عليهم، ورفعه بالعلم والحكمة واليقين، والله حكيم في تدبيره.

٨٤- وبعد أن مَنَّ الله على إبراهيم بالغلبة والحجة على أعدائه ذَكَّره بمنَّةٍ أخرى، وهي أنه وهبه إسحاق ويعقوب، وقد هدى الله كُلّاً من الجَد والولد والحفيد، فجعلهم أنبياء محسنين يدعون إلى الله، وقد هدى الله من قبلُ نوحاً، وجعل من ذرية إبراهيم الأنبياء والمرسلين، وهم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكانوا جميعاً محسنين؛ فجزاهم الله من جنس عملهم.

وهؤلاء جمعوا بين النبوة والرسالة، وبين الملك والإمارة والحكم. وقد أراد الله أن يكون داود وسليمان نبيين ملكين، فتمثَّلت بهما القدرة وسعة الملك والسلطان، أما أيوب فقد كان أميراً، وأخذ جانب الابتلاء والصبر مع النبوة، ويوسف كان وزيراً ابْتُلي كثيراً فصبر؛ فأعطاه المُلْكَ والسلطان إلى جانب النبوة، ومنح موسى وهارون النبوة فكانا حاكمين، ورُزِقا كثرة الأتباع من الناس، وقد ذَكَرَهم القرآن على طريقة الترقِّي في هدي الدين، فأفضلُهم موسى وهارون، ثم أيوب ويوسف، ثم داود وسليمان..

٨٥- وقد هدى كُلّاً من زكريا ويحيى وإلياس، فكانوا صالحين يدعون إلى توحيد الله وعبادته، وقد أخذوا جانب الزهد والعبادة.

٨٦- وهَدَى الله كُلّاً من إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وفَضَّلهم على عالمي زمانهم مكانةً ومنزلةً وصلاحاً، فسلكوا عظيم الفعال وكريم الخصال، وبقي لهم الذِّكْرُ الحَسَنُ، وجاء ترتيب أسماء الأنبياء في الآيات مقصوداً، فذكر إبراهيم واسحق ويعقوب، وإسحق بن إبراهيم ويعقوب بن إسحق (العلاقة

بينهم هي النبوة)، ثم داود وسليمان (العلاقة بينهم النبوة والمُلك)، وأيوب ويوسف (العلاقة بينهما أنهما يشتركان في الإنعام بعد البلوى، فكلاهما ممَّنْ أنعم الله تعالى عليه بعد الابتلاء)، وسليمان وأيوب (العلاقة بينهما قوله تعالى فيهما: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]. فأيوب هو العبد الصابر، وسليمان هو العبد الشاكر، والصبر والشُكر جماع الإيمان)، ويوسف وهارون (العلاقة بينهما هي الأخوَّة)، وزكريا ويحيى (علاقة النبوة)، ويحيى وعيسى (كلاهما مُستغرَبُ الولادة، فيحيى جاء من أبوين، أحدهما شيخ، والآخر عقيم، وعيسى جاء من أُم بلا أب)، وقد ذكرهما تعالى معاً في سورة آل عمران ومريم.، وقد ختم تعالى هذه المجموعة بعيسى ؛ لأنَّه ليس له أب فكان خاتمة النسب الأول عنده. ثم تأتي سلسلة أخرى من ذرية أخرى: إلياس ليس من ذرية إسحق، إسماعيل أخو إسحق، واليسع صاحب إلياس (وحيث وَرَدَ اليسع وَرَدَ إلياس)، ويونس ليس من ذرية إبراهيم، وكذلك لوط ليس من ذرية إبراهيم، ويونس ولوط كلاهما مهاجر إلى ربه.

٨٧- وقد هدى بعض آباء المذكورين وبعض ذرياتهم وإخوانهم وإن لم يَذْكُرْ أسماءهم، فهم كثيرٌ هداهم جميعاً إلى ما هدى الآباء من الهدي والحق والطريق المستقيم، واجتباهم للنبوَّة.

٨٨- ذلك الهَدْيُ والاجتباء والتفضيل هو توفيقٌ من الله تعالى، ولو أشركوا بالله وعبدوا غيره فَرَضاً لَبطل عملهم، ولن تنفعهم منزلتهم وعلوُّ درجاتهم، ولكن لن يكون ذلك منهم؛ لأنَّ الأنبياء والرسل معصومون، وهذا الافتراض عِبْرة وعظة للناس بأن يحذروا الشرك، وعبادة غير الله.

٨٩- أولئك الأنبياء والرسل الذين سبق ذكرهم أنعم الله عليهم بالنبوة والهداية، وآتاهم الكتاب كصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وأعطاهم العلم والفَهْمَ الصحيح مع النبوة الصادقة. فإن يكفر بها قومك يا محمد فقد وَكَّلنا بها قوماً آخرين، من المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة.

٩٠- أولئك الرسل السابقون هداهم الله، وهم قدوةٌ حسنة لِـمَنْ يأتي مِنْ بعدِهم من الأنبياء والرسل، فاتخِذْهم يا محمد مَثَلاً في كمال أخلاقهم، وقدوةً حسنةً في جميل أوصافهم وأفعالهم، فعندها يجتمع فيك يا محمد كمال الخُلُق، فتصبح أكمَلَهم خُلُقاً، وقد كان ﷺ كذلك، قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بربهم، وكذَّبوا برسالتك وكتابك: لا أسألكم على القرآن الذي أُمِرْتُ بإبلاغه لكم أيَّ أجر، فالقرآن الذي جئتُ به من ربي موعظةٌ لكم وللناس جميعاً، إن أرادوا الاتعاظ، وطَلَبَ الهداية.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٣) إخبار مستقبلي في رَفْعِ درجات عباده في الدارين إن شاء تعالى.

٢- جزاء مَنْ صبر ودعا إلى الله ﷻ أن يكلأَه بالحفظ والرعاية.

٣- الاقتداء بالرسول ﷺ وبالصالحين والمتقين من أُمته.

٤- الشرك بالله من أعظم الذنوب.

٥- أثر القدوة الصالحة في الدعوة إلى الله.

٦- على الداعية الإخلاص والاحتساب وابتغاء الأجر من الله.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

التفسير:

٩١- وما عَظَّم هؤلاء المشركون اللهَ حقَّ تعظيمه، ولا عَرَفوه حَقَّ معرفته، وما عَلِمُوا شأنه وتصرفاته حَقَّ العلم بها. والسبب في ذلك أنَّهم أنكروا أنَّ الله قد اختار أحداً من خلقه؛ ليكون نبياً رسولاً يتلقى الوحي منه، والجواب منه جلَّ جلاله، وهو: قل يا محمد: مَنْ أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﵇ نوراً وهداية للناس؟ ثم يُوَجِّه الخطاب لليهود توبيخاً لهم: وقد جعلتم التوراة أوراقاً تُظْهِرُون منها ما تريدون، وتُخْفُون منها ما تريدون حسب أهوائكم وأطماعكم؛ وقد عَلَّمكم الله - أيها العرب - بهذا القرآن ما لا يعلمه أنتم و لا آباؤكم من قبل. قل يا محمد : الله الذي أنزله، واترك هؤلاء في حديثهم الباطل يلعبون.

٩٢- وهذا القرآن الذي أنزلناه عليك - يا محمد - فيه خيرٌ وبِرٌّ وبركات وتشريعات ومعجزات، يشهد على صدق ما تقدمه من الكتب السماوية المنزلة، ولِتُخَوِّفَ به أهل مكة ومَنْ حولها من البلاد

والأمصار من الوقوع في الضلال أو الكفر بالله تعالى، والذين يؤمنون بالآخرة والبعث بعد الموت يُصَدِّقون بالقرآن، وأنَّه كلام الله المنزل عليك يا محمد؛ ويحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها.

٩٣- الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي: لا أحد أظلم من الذي يفتري على الله، فاختلق على الله شيئاً لم يقله ﷻ، ونَسَبَ إليه شيئاً وهو منه براءٌ، أو ادَّعى كَذِباً أنَّ الله نبَّأه وأنَّه نبيٌّ مرسل، أو ادَّعى أنَّه قادر أن ينزل مثل ما أنزل الله من القرآن. ولو رأيت - يا محمد - هؤلاء الظالمين ساعة الاحتضار، وهم يعانون من شدائد سكرات الموت، وقد جاءت ملائكة الموت باسطةً أيديها بالعذاب ونَزْعِ الروح، قائلةً توبيخاً لهم بغضب وشدة: أَخرِجُوا أنفسكم من أجسامكم، وسَلِّموها لنا، فإن استطعتم أن تُخَلِّصوها من العذاب فافعلوا فأنَّى لكم ذلك؟ فاليوم تُهانون، وتُعَذَّبون العذاب المؤلم الشديد؛ بسبب استكباركم عن سماع آيات الله واتباع رسله، وبما كنتم تقولون على الله غير الحق من إنكار إنزال الله الكتبَ على رسله، وكنتم مستكبرين عن سماع آياته.

٩٤- ولقد جئتمونا يوم القيامة؛ للحساب فرداً فرداً، كما خلقناكم في الدنيا أول مرة، حُفاةً عراةً غُرْلاً - والغُرْل جمع أَغْرَلَ وهو الأقلف - وليس معكم شيءٌ من مال أو ولد أو أتباع، فتركتموه وراء ظهوركم، وما نرى معكم أوثانكم التي اتخذتموها آلهةً من دون الله، وتَدَّعون أنَّها شفعاء لكم يوم القيامة عند الله. لقد انقطعت الروابط بينكم، وتَشَتَّتَ جَمْعُكم، وكنتم كاذبين بدعواكم واعتقادكم، فتبيَّن لكم أنكم خاسرون.

الفوائد والاستنباطات:

١- لم يُقَدِّر المشركون اللهَ حقَّ قدره؛ لأنَّهم وصفوه بوصف لا يليق بجلاله.

٢- بيان تحريف اليهود لكتابهم التوراة، فأخفَوا من أحكامه، وتلاعبوا بآياته.

٣- بيان فضل الله على العرب؛ بجَعْلِ كتابه العظيم بلغتهم، ونبيِّهم ﷺ منهم.

٤- ثبت علمياً تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي: إنَّ اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، وأنَّ هذه المدينة المقدسة تُعَدُّ مركزاً لليابسة. ولا يوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة، ويظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار خط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بدءاً منه أي بالنسبة إلى مكة المكرمة؛ لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٥٧-٥٧٠). وينظر: موقع مكة المكرمة في الخريطة، كما في الملحق.

٥- من أعظم الذنوب وأشنعها عند الله الكذبُ على الله، وادِّعاء الإنسان أنَّه يَتَلَقَّى وحياً من السماء، وهو كاذب.

٦- تعليم الرسول ﷺ محاجَّةَ المشركين والردَّ عليهم.

٧- بيان السبب في نزول القرآن الكريم، وهو الإيمان والبشارة والإنذار.

٨- الأمر في ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ للتوبيخ والتعجيز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٥- استئناف ابتدائي انتقل به من تقرير التوحيد والبعث والرسالة إلى الاستدلال بخلق الله تعالى، وعجائب مصنوعاته المشاهدة؛ ليُبيِّن الله الأدلة والبراهين في الكون على قدرته، وليلفت الإنسان إلى النِّعم العظيمة التي سَخَّرها له في هذا الكون البديع. وقد أكَّد ذلك بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه، فقال: إنَّ الله هو الذي شَقَّ الحَبَّ الذي لا نواة له مثل الشعير والقمح، فيخرج منه الزرع، وشَقَّ النَّوى مثل الثمر الذي فيه نواة، فيخرج منه الشجر، فعظمة الله تَجَلَّتْ في خَلْقِ هذين النوعين وغيرهما، وهو الذي يخرج الحي من الميت، كخَلْقِ الإنسان والحيوان من النطفة، ويخرج الميت من الحي، كخَلْقِ النطفة من الإنسان والحيوان، فإذا كان الله تعالى بهذه الصفات فهو أولى بالعبادة والتوحيد، فكيف تَصْرِفُون ذلك إلى غيره؟

وجيء بجملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ جملةً فعليةً؛ للدلالة على أنَّ هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مرادٌ معلوم، وليس على سبيل المصادفة والاتفاق، وجيء في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ جملةً

اسمية للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أنَّ كِلا الفعلين متجدد وثابت، أي: كثير وذاتي، وذلك لأنَّ أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه. والاستفهام في آخر الآية تعجبي إنكاري.

٩٦- ثم يُبَيِّنُ الله آية أخرى من أدلته على قدرته الباهرة، فالله جَلَّ جلالُه شَقَّ ضياء الصباح من ظلام الليل، وجعل الليل راحةً للأحياء بعد تعب الحركة في النهار، وسكناً لنفوسهم وأجسادهم، وجعل الشمس والقمر يسيران بحساب؛ ليَعْرِفَ الناسُ الأوقاتَ بهما مثل: معرفة العبادات والأعمال والآجال والحقوق، وهو تقدير من العزيز الغالب، الحكيم بتدبير مصالح الخلق.

٩٧- ومِنْ آيات قدرته جلَّ جلاله: أنْ جَعَلَ النجوم في السماء؛ ليهتديَ بها البشر في ظلمات البر والبحر، فيعرفوا بها الطرق ليلاً إذا ضَلُّوا حتى لا يهلكوا، وهي أيضاً نِعمة الله على خَلْقِه، والله بَيَّنَ هذه الآيات التي يعقلها العالمون، فيعرفون قدرة الله في كونه العظيم.

٩٨- ومِنْ مظاهر قدرته أنْ خَلَقَكم من آدم عليه السلام، فجعل لكم مستقراً في الأرحام، ومستودعاً في الأصلاب، ثم تبدأ الحياة في النمو والانتشار؛ فإذا هي أجناس وألوان، وشعوب وقبائل، والله فَصَّلَ ووضَّح هذه الآيات؛ لتبقى الدلالةُ على توحيد الله واضحةً عند المُبْصِرين الذين يفهمون الحِكَم منها.

٩٩- ومِنْ دلائل قدرة الله أنَّه أنزل من السماء ماءً فأخرج به نباتاً متعدداً ومتنوعاً، وأخرج من النبات زرعاً وشجراً خَضِراً، ثم أخرج من الزرع حباً متراكباً متسانداً في سنابله كالقمح والشعير، وأخرج من النخل عُذوقاً دانية متدلية وقريبة، لا تُكَلِّف مشقة في جَنْيِها، وأخرج سبحانه بساتين من أعناب، وأخرج الزيتون والرمان متشابهاً في ورقه، ومختلفاً في طعمه. والله يُغَذِّي كل الملكات في النفس الإنسانية؛ لأنَّ النفس ليست مَلَكاتِ جوع وعطش فقط، بل هناك مَلَكاتٌ متعددة، وكل مَلَكَةٍ لها غذاؤها؛ فيقول في ذلك: انظروا - أيها الناس - وتأمَّلوا في ثَمَرِه ونضجه، إنها تُغذِّي العينين بالمنظر الجميل، وهي دلائل وبراهين دالة على وجود الله القادر الحكيم التي يعقلها ويصدقها المؤمنون به.

الفوائد والاستنباطات:

١- دلائل قدرة الله في كونه البديع كثيرة ومتعددة.

٢- جاء التعبير فالق الإصباح وجعل الليل سكناً إشارة إلى تبادل كل من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض. وأصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة بدقه كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم عل حركاتها بحساب محكم دقيق يُعِين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه.
(آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٠٣-٥١٢).

٣- تسخير النجوم؛ لتكون دلائل يَهْتَدي بها المسافرون ليلاً، وبدأ في قوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ بالأهمِّ عند الإنسان وهو الصباح، ثم أتبعه بالليل، ثم بَيَّنَ ما يفلق ظلمة الليل، فيبسط الإصباح وهي الشمس، وبَيَّنَ أنَّها والقمر جُعِلا لحساب مصالح الناس.

٤- كلُّ تلك الدلائل وسائل في إثبات وحدانية الله، وأتى بالضمير (هو)، ثم الاسم الموصول (الذي) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ للحصر وتأكيد أنَّ مُسَبَّبَ تقرير إنزال الماء هو الله العليم بمصالح عباده.

٥- دلائل قدرة الله في كونه البديع جَمَعَتْ بين الجلال والجمال في تناسق محكم منتظم. واللفتة البيانية في ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ فـ﴿مُشْتَبِهًا﴾ من الاشتباه، والفعل «اشتبه» أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال. يقال: هذا الشيء اشتبه عليَّ بمعنى التبس. أما التشابه فأكثر ما يفيد التشابه بين شيئين، سواءً أدَّى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤدِّ. ويُبَيِّن الله في سياق الآية الدلالة على قدرته وآياته الباهرة في خلقه، فيتحدث عن المراحل الأولى في إنبات النبات، فيشير إلى أنَّه أنزل من السماء ماء، فأخرج به نبات كل شيء، فأخرج منه خَضِراً، مشيراً إلى تسلسل عملية النمو والإنبات. والنبات في هذه المرحلة يحتاج إلى دقة تأمل ونظر، فهو في مرحلة اشتباه، فيلتبس نوعه وشكله؛ ولذا لَفَتَ الحقُّ الأنظارَ بعد أن قال: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾، ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾. هذه دعوة للتأمل والاعتبار.

٦- جاء هذا التسلسل المُعْجِز من الحَبِّ المتراكب، إلى ثمار كل من النخل والأعناب والزيتون والرمان؛ ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسي للإنسان ولأنعامه. (مقالات الدكتور زغلول النجار، ص ٦٩٦).

٧- اكتشف علماء النبات أنَّ في النبات مادة خضراء، وأن هذه المادة الخضراء يخرج منها المواد الكربوهيدراتية التي هي أساس لتكوين جميع المواد المكونة للثمار والأشجار والزروع. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص٩٥).

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

التفسير:

١٠٠ - وجعلوا الجنَّ شركاء لله تعالى في العبادة؛ وذلك بعبادتهم وطاعتهم فيما زيَّنوا لهم من عبادة الأصنام، وكيف يُشركون به غيره وهو خالقهم، سواءٌ العابد أو المعبود من صنم أو وثن؟ ومن ضلالهم وغيِّهم وجهلهم: أنهم اختلقُوا لله البنين والبنات، والله مُنَزَّهٌ عمَّا وصفوه به كَذِباً وزُوراً منهم.

١٠١ - والله تبارك وتعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، كيف يكون له ولد، ولم تكن له زوجةٌ؟ فالله فرد أحدٌ، ليس كمثله شيء، وهو خالق كل شيء من العَدَم، لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض.

١٠٢ - إنَّ ذلكم الله الذي خلق السموات والأرض، والخالق لكل شيء هو ربكم، فاعبدوه لأنَّه مستحق للعبادة، وهو على كل شيء وكيل وحفيظ، لا يحتاج إلى أحد من خَلْقِه يدير الكون بنفسه.

١٠٣ - والله ﷻ ليس كمثله شيء في الكون، فلا تستطيع الأبصارُ في الدنيا أن تحيط به، فهو فوق الزمان والمكان، أما في الآخرة فإنَّ المؤمنين يرون ربَّهم، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. والله لطيف بعباده، خبير بأفعالهم.

١٠٤ - قد جاءكم - أيها الناس - بصائر وحجج وبراهين موضحة، فمَنْ انتفع بها، واستبصر بهديها، فنَفْعُه لنفسه، ومَنْ أعرض عنها ولم يستبصر بهَدْيِها، فضررُه على نفسه، وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم، وإنَّما أنا رسولٌ من الله مُبَلِّغٌ رسالته.

١٠٥ - كما أننا صَرَفْنا الآيات في القرآن نُصَرِّفُها لهداية الناس الطالبين للهُدَى والصراط المستقيم، أما غيرهم ممَّنْ عَمِيَتْ قلوبُهم ولم ينتفعوا بها، فسيقولون: يا محمدُ تَعَلَّمْتَ الآياتِ من أهل الكتاب؛ ولنُبَيِّن بتصريف الآيات الهدى والحق للمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - سَفَهُ عقول الجاهلين، فقد جعلوا من الجن شركاء لله، فعبدوهم.

٢ - تنزيه الله جل جلاله عن الشريك والصاحبة.

٣- استحالة رؤية الله في الدنيا، وجوازها في الآخرة لعباده المتقين.

٤ - آيات القرآن تبصرة لِـمَنْ أخذ بها في طريق النجاة.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠٦ - اتَّبِعْ - يا محمد - الوحي من ربك، وهو القرآن الكريم، والله هو المتفرد بالكون لا شريك معه، ولا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغِلْ بعبادة الله وذِكْرِه، وأَعْرِض عن المشركين ودعواهم الباطلة الكاذبة.

١٠٧ - إنَّ الله له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، فله الحكمة إن تركهم في الضلال، ولو شاء الله - يا محمد - عدم إشراكهم بأن يخلق البشر مؤمنين كالملائكة، ولكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والطاعة والفسق؛ لأنَّ الإنسان في هذا الكون قد أعطاه الله صفة الاختيار، فالكافر إنما يفعلُ كلَّ فِعْلٍ بما آتاه الله اختياراً، لا غصباً عن الله أو قهراً، بل اختياراً. ولا يُمكنك أن تكون حافظاً لهم من عذاب الله، ولَسْتَ قَيِّماً على أمورهم ومصالحهم؛ إنَّما أنت مُبَلِّغ عن ربك.

١٠٨ - يُبَيِّنُ الله منهجاً حكيماً في الدعوة إلى الله، وهو الإعراض عن المشركين بأدب وترفع، يليق بالمؤمنين، وقد أُمِرُوا أَلَّا يَسُبُّوا آلهة المشركين؛ مخافة أن يحمل هذا السبَّ أولئك المشركين على سبِّ الله تعالى ظلماً واعتداءً بغير علم، فيكون سَبُّ المؤمنين لآلهتهم ذريعة لسَبِّ الله العظيم.

ومن سنن الله في خلقه أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً دافع عنه، ولو كان أمراً قبيحاً، ولذلك لا يَرْضى المشركون أن تُسَبَّ آلهتهم، بل إنَّهم يدافعون عنها، فالله زَيَّنَ لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ، وجميعهم يرجعون إلى الله، فيخبرهم بأعمالهم، ويُطْلِعُهم عليها.

١٠٩ - أقسم المشركون بالله أبلغَ أيمانهم وأغلظها، إنهم إذا جاءتهم آية من الآيات، كتحويل جبل الصفا إلى جبل ذهب، آمنوا جميعاً بنبوة محمدٍ ﷺ ورسالته، فردَّ الله عليهم قائلاً قل يا محمد: إنما الآيات من عند ربي فهو الذي يأتي بها، وما يُدْريكم لعلَّ الله يأتي بها، ولا يؤمن بها المشركون.

١١٠ - إنَّ الله يُقَلِّب قلوبهم وأبصارهم عن معرفة الهدى والإيمان، فهم لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ، كما لم يؤمنوا بالقرآن عند نزول آياته أول مرة؛ لذلك يتركهم اللهُ في ضلالهم يتخبَّطون في غَيِّهم وضلالهم، فلا يهتدون إلى الصراط المستقيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنسان مختار للهدى أو الضلال، وهو يتحمل نتيجة اختياره، فيُجزى جزاءً يناسب اختياره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالجزاء من جنس العمل.

٢- حرمة القول والفعل الذي يؤدِّي إلى سبِّ الله ورسوله.

٣- ثبوت رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، فنَفْيُ الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخصُّ أوصاف الرؤية، دَلَّ على أنَّ الرؤية ثابتة، ولو أراد نفي الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك.

٤- وجوب الأخذ بقاعدة الحُكْم بسَدِّ الذرائع في نَهْيِ الله تبارك وتعالى عن سَبِّ آلهة الكُفَّار؛ لئلَّا يكونَ ذلك ذريعةً إلى سب الله تعالى.

٥- الهداية بيد الله ﷻ، والمعجزات قد يراها الإنسان، ولا يؤمن بها.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

التفسير:

١١١- ولو أنّنا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - جئناهم بمعجزات خارقة، فنزَّلْنا إليهم الملائكة، فرأوهم عِياناً، وأحيينا لهم الموتى فكلّموهم، وجمعنا لهم كلَّ شيء ممّا اقترحوه من المعجزات وغيرها، فعُرِضَتْ عليهم، ورأوها عِياناً لم يؤمنوا إلا بمشيئة الله تعالى، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون الطريق الصحيح إلى اتّباع الحق.

١١٢-١١٣- ومثلَ ما ابتليناك بأعداء من المشركين، جَعَلْنا لكلِّ نبي قبلك أعداء من شياطين الإنس، كالسحرة ورؤساء الكفر، ومن مَرَدَة الجِنِّ يوسوس بعضهم لبعض القولَ الذي يُزيِّن الباطل؛ ليغترَّ مَنْ سَمِعه، فينصرف عن الإيمان بالله تعالى. ولو أراد الله تعالى ما فعلوا ذلك، فاتْرُكهم وما يُكَذِّبون، ولتميلَ إلى هذا الكذبِ قلوبُ الكفار ميلاً، وليرضوا هذا الباطل، وليكتسبوا من الجرائم والآثام، وليزدادوا منها.

١١٤- قل يا رسول الله: هل أطلب حَكَماً بيني وبينكم غيرَ الله تعالى، وهو الذي أنزل إليكم القرآن العظيم ملابساً ومتضمِّناً للحق، ومبيِّناً فيه الهدى والضلال؟ والذين آتيناهم التوراة والإنجيل يُدْرِكُون يقيناً أنَّ هذا القرآن مُنَزَّلٌ عليك بالحق، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين أنَّ هؤلاء لا يعلمون ذلك الحق.

١١٥- وتحقَّقَتْ كلمة الله تعالى فيما أخبر به، فهو صِدْقٌ، وما أَمَر به من الأحكام فهو عدل، فلن يَقْدِرَ أحد أن يُغيِّرَ في كلامه وأحكامه. والله سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال.

١١٦- وإن تُطِعْ أكثر الإنس والجن يُضِلُّوك عن دين الله تعالى. ما يَتَّبِعون في أمر الدين إلا الظنون الباطلة المنقولة عن تقليد الآباء، وما هم إلا يكذبون.

١١٧- إنَّ خالقَك أعلمُ بالضالِّين عن سبيل الهداية، وهو أعلم بالذين اهتدوا إلى دين الله الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١١١) إخبار عن أمر مستقبلي في حال الكافرين فيما لو أجاب الله ﷻ طَلَبَهم، فأنزل إليهم الملائكة من السماء، وأحيا لهم الموتى فكَلَّموهم، وجُمِع لهم كلُّ شيء طلبوه فعاينوه مواجهةً، فهم لن يصدِّقوا، ولن يعملوا بما دعاهم إليه محمد ﷺ، إلا مَنْ شاء الله له الهداية.

٢- كما ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصَدِّهم عن سبيلِ الله؛ فقد ابتُلِيَ الأنبياءُ من قبله بذلك، فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه. ومن حكمة الله تعالى في جَعْلِه للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه؛ ليَحْصُلَ لعباده الابتلاء والتمحيص؛ ليتميزَ الصادقُ من الكاذبِ، والعاقلُ من الجاهلِ.

٣- بيانُ المنهج الصحيح في التلقي والقبول، وهو تحكيم شرع الله ﷻ في كلِّ أمرٍ من الأمور، وفي كلِّ ما يَرِدُ إلينا من رُؤى وأفكارٍ نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله، فهو الحَكَمُ والميزانُ، وهو الفُرقانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ.

٤- بيانُ عِلْمِ أهل الكتاب أنَّ التوراة والإنجيل مُنَزَّل من عند الله تعالى.

٥- البشرى بأنَّ أحكام الله تعالى محققة وباقية.

٦- الإيمانُ بأركانِه وشُعَبِه حصنٌ متينٌ من الفتنِ المتتابعةِ، والمكايدِ المستمرةِ، والخطوبِ المدلهمَّة.

٧- تَجَنُّبُ الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء، مهما كَثُرَ عددُهم، وشاع ضلالُهم، وقَوِيَتْ شوكتُهم؛ فإنَّ مصيرهم إلى الزوال.

٨- قال ابن عاشور: «جِيء في صلة الموصول بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ للدلالة على تمكُّنهم في ذلك الاقترافِ، وثباتهم فيه». (التحرير والتنوير: ٧/ ١٠).

٩- قال ابن عاشور: «تقديم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أَبْتَغِي﴾؛ لأنَّ المفعول هو محلُّ الإنكار، فهو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري». (التحرير والتنوير: ٧/ ١١).

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

١١٨ - سبب النزول:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أتى أُناسٌ النبيَّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٢٦٣ - ٢٦٤ برقم ٣٠٦٩- كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي).

التفسير:

فكُلوا - أيها المؤمنون - من الذَّبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليها عند الذَّبْحِ، إن كنتم مُصَدِّقين بأحكام الله تعالى.

١١٩- وما المانعُ أن تأكلوا ممَّا ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليه، وقد وَضَّح الله لكم ما حُرِّم عليكم إلا في حال الضرورة؟ - كما تقدم في مطلع سورة المائدة - وإنَّ كثيراً من الكفَّار لَينحرفون عن الحق؛ بسبب اتباع نَزَغات الشيطان بغير حجة ولا دليل. إنَّ ربك - يا رسول الله - هو أعلمُ بالذين يتجاوزون الحقوق والأحكام.

١٢٠- ودَعُوا - أيها الناس - جميعَ الآثام الظاهرة بالجوارح، والخفيَّة بالقلوب. إنَّ الذين يقعون في المعاصي سيُعاقَبون بسبب أعمالهم الخبيثة.

١٢١ - ولا تأكلوا - أيها المؤمنون - مما ذُبِحَ لغير الله تعالى، أو لم يُذْكَر اسم الله عليه. ومَنْ خالف ذلك فإنَّه خارج عن طاعة الله تعالى. وإنَّ شياطين الإنس والجن لَيوسوسون في نفوس أعوانهم؛ ليجادلوكم في إباحة أكل الميتة. وإن أطعتموهم في اعتقاد إباحة أكل الميتة فقد وقعتم في كبيرة الشرك.

١٢٢ - أو مَنْ كان قبل هداية الله تعالى له ميّتاً في خِضَمِّ ظلمات الكفر، فأحييناه بنور العلم والهداية، يضيء له طريقه بين الناس، كمَنْ هو غارقٌ في ظُلمات الكفر لا يقدر على التخلُّص منها؟ ومثلَ ما يتخبَّط هذا الكافر، حَسَّنَّا للجاحدين ما كانوا يقترفون من الجرائم.

١٢٣ - وكما جعلنا زعماء الكفر يَصُدُّون الناس عن الإسلام، جَعَلْنا في كل مدينة عُتاة مجرميها؛ ليمكروا فيها بالصدِّ عن الإيمان والإصرار على العصيان، وما يحيق مَكْرُهم إلا بأنفسهم، ولا يَدْرُون أنَّ ضَرَرَ ذلك يُحسب عليهم. قال ابن عاشور: «وجيء بصيغة القصر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يلحقه أذى ولا ضُرٌّ مِنْ صَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعه، ويَلْحَقُ الضرُّ الماكرين، في الدنيا بعذاب القتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار». (التحرير والتنوير: ٧/ ٣٩).

١٢٤ - تمادى زعماء الكفر في عنادهم، وإذا جاءتهم حُجَّة دالَّة على صدقه ﷺ اعترضوا وأصرُّوا، وقالوا قولاً كُبَّاراً: لن نُصَدِّق برسالتك حتى يعطينا الله النبوَّة والمعجزة كبقية الرسل. فرَدَّ الله عليهم مُهَدِّداً ومُوَبِّخاً لهم: الله أعلم بمَنْ هو أهل للرسالة، سيصيب هؤلاء المتكبرين خِزْيٌ وذُلٌّ وعذاب شديد الألم؛ بسبب كيدهم المتواصل للدعوة إلى الله تعالى. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعنون أنَّهم لن يؤمنوا حتى تأتيهم الملائكة بالرسالة، كما أتت الرسل، كما بيَّنه تعالى في آياتٍ أُخَر، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] الآية، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢] الآية».

وقال ابن عاشور: «فالآية دالَّة على أنَّ الرَّسول يُخْلَقُ خِلْقةً مناسِبة لمراد الله من إرساله، والله حين خَلَقه عالِم بأنَّه سيرسله». (التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢).

الفوائد والاستنباطات:

١ - إباحة الذبائح التي ذُكِرَ عليها اسم الله تعالى.

٢ - قال الدكتور محمد جميل الحبال: «تَوَصَّل فريق طبي سوري بعد ثلاث سنوات من التجارب لدراسة الفرق بين الذبائح التي ذُكر اسم الله عليها، ومقارنتها مع الذبائح التي تُذبح بنفس الطريقة، ولكن بدون ذِكْرِ اسم الله عليها. وأكَّدت الأبحاثُ أهميةَ ذِكْر اسم الله (بسم الله، الله اكبر) على ذبائح الأنعام والطيور لحظة ذبحها، فقد أثبتت النتائج المظهرية المخبرية أنَّ نسيج اللحم المذبوح بدون تسميةٍ

وتكبيرٍ، من خلال الفحوصات المظهرية والاختبارات النسيجية والزراعات الجرثومية أنَّها مليئة بمستعمرات الجراثيم، ومحتقِنة بالدماء، ولون اللحم أحمر قاتم يميل إلى الزرقة لا يصلح للاستهلاك البشري (غير صحي) بينما كان اللحم المكبَّر عليه خالياً تماماً من الجراثيم وصحياً، ولا يحتوي نسيجه على الدماء، ولونه طبيعي وسليم. وقد لوحظ أنَّ لحوم الأضاحي التي تُذبح بمناسبة عيد الأضحى المبارك في بلاد المسلمين كافة، ولاسيما في البلد الحرام (الحج) تكون صحيَّة ولذيذة الطعم، حيث إنَّها مباركة بالتكبيرات، وذِكْرِ اسمِ الله عليها من كل مكان في هذه الأيام المباركة والمكان الشريف.

٣- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فنسخ، واستثنى من ذلك قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ [المائدة: ٥].

(السنن برقم٢٨١٧ كتاب الأضاحي، باب في ذبائح أهل الكتاب، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٢) من طريق أبي داود به، وحَسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود).

٤- العملُ بالأحكام الشرعية من مقتضيات الإيمان.

٥- التمسُّك بشرع الله تعالى عصمة ونجاة من الفتن، ومزالقِ الضلال.

٦- مَنْ يرغب في محبة الله تعالى ويَسْعَ في رضاه فإنَّه يجتنب ما نهى الله عنه، وكيف يَدَّعي محبته أو يطمع في حبه وهو بعيدٌ عن منهجه، مقيمٌ على معصيته، متبعٌ لغير هديه، ناكبٌ عن طريقه؟

٧- قال ابن عاشور: «إظهار لفظ الإثم في مقام إضماره؛ إذ لم يقل: إنَّ الّذين يكسبونه، لزيادة التَّنديد بالإثم، وليستقرَّ في ذهن السَّامع أكملَ استقرار». (التحرير والتنوير: ٧/ ٢٩).

٨- تحذير الله تعالى من الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، ويُرَدِّدها أدعياؤه المُغْرِضُونَ من شياطين الإنس والجن، ويَتَلَقَّفها بعضُهم من بعضٍ؛ ليَقْدَحُوا في الشريعة الغرَّاء.

٩- قال ابن عاشور: «جاء التشبيه بديعاً؛ إذ شبَّه حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميِّت، فإنَّ الشرك يحول دون التمييز بين الحقِّ والباطل». (التحرير والتنوير: ٧/ ٣٤).

١٠- الرِّسالة ليست ممَّا يُنال بالأماني ولا بالتَّشَهِّي، ولكنَّ الله يعلم مَنْ يصلح لها، ومَنْ لا يصلح، ولو عَلِمَ مَنْ يصلح لها وأراد إرساله لأرسله.

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

التفسير:

١٢٥- فمَنْ يُرِدِ الله أن يُوَفِّقَه للإيمان يجعل صدره مُنبسطاً رحباً للإسلام، ومَنْ يُرِدْ أن ينكسه في الضلالة يجعل صدره مُنقبضاً مكتوماً، كحال مَنْ يصعد السماء، فإنَّه يتنفس بصعوبة كلما صعد، فينقبض صدره، وتتلاشى أنفاسه، وكما يجعل صدور الكافرين في هذه الحالة النَّكِدَة. كذلك يُرسل الله تعالى العذاب الذي لا يطاق على الذين لا يُصَدِّقون به سبحانه.

١٢٦-١٢٧- وهذا الدين الذي أنت عليه - يا محمد - هو الدين العظيم مِنْ ربك، قد بيَّنَّا الآيات المسموعة والمرئية لقوم يتعظون بها، وينتفعون منها، وجزاؤهم الجنَّة عند ربهم يَتَوَلَّى أمورهم بالتكريم على أعمالهم الطيبة.

١٢٨- يُذَكِّر الله تعالى بنبأ حواره يوم القيامة حين يجمع الإنس والجن فيقول للجن: قد حققتم رغبتكم في إضلال حشد كبير من الإنس. وقال أنصارهم من الإنس معتذرين إلى الله: يا ربَّنا قد انتفع بعضنا من بعض بشهوات الدنيا، وبَلَغْنا الوقت الذي حَدَّدْتَه لنا بانقضاء الحياة الدنيا، ثم أزِف هذا الحساب. فرَدَّ

عليهم اعتذارهم المُتأخِّر: نار جهنم منزلكم، ماكثين فيها أبداً إلا مَنْ شاء الله تعالى برحمته عدم خلوده في جهنم من عصاة الموحِّدين. إنَّ ربك الله حكيم في تدبير خَلْقِه، عليم بأمورهم.

١٢٩ - وكما تمتَّع فَسَقَةُ الإنس والجن بعضهم ببعض، نُسَلِّط الظالمين من الإنس والجن بعضهم على بعض في الدنيا؛ عقوبة عاجلة بسبب ارتكابهم الذنوب.

١٣٠ - يُخَوِّف الله تعالى كفرة الإنس والجن من عذاب يوم القيامة مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: ألم يأتكم رسلٌ من الإنس ودعاة من الجن يتلون عليكم آياتي المنزَّلة، ويُخَوِّفونكم مواجهة العذاب يوم الحساب؟ أجابوا مُعترفين: بلى أقررنا بأنَّ الرسل قد بَلَّغُونا رسالاتك، وخَدَعَتْ هؤلاء زينةُ الحياة الدنيا وشهواتها، وأقرُّوا على أنفسهم أنَّهم كذَّبوا أولئك الرسل.

١٣١ - ذلك الأمر العظيم من إرسال الرسل؛ لئلا يُؤاخَذَ أحدٌ إن لم تَبْلُغْه دعوة الله تعالى، ولم تُدَمَّرْ بلدة دون تذكيرٍ بالرسل والآيات والعِبَر. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ النفيُ في هذه الآية الكريمة مُنْصَبٌّ على الجملة الحالية، والمعنى: أنه لا يُهْلِكُ قوماً في حال غفلتهم، أي: عدم إنذارهم، بل لا يُهْلِكُ أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كما بيَّن هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]».

١٣٢ - ولكلٍّ من الجن والإنس درجاتٌ في الجنة والنار، بحسب طاعتهم ومعصيتهم. وما ربُّك بغافل عن شيء مما يفعلون من الخير والشر.

١٣٣ - ورَبُّك الغنيُّ عن جميع خَلْقِه، ذو رحمة وَسِعَتْ كلَّ شيء، إن يشأ يهلككم، ويأت بقوم يخلفونكم من بعد إهلاككم، مثل ما أوجدكم من نَسْلِ قوم سابقين لكم.

١٣٤ - إنَّ ما توعدون من البعث والعقاب لابدَّ من وقوعِه، ولن تُفْلِتُوا من عذاب الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب، أمَّا الكفر فإنَّه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبٍ ميتٍ.

٢ - من أسباب الصدودِ ودواعي الإعراض: صنيع أكابر المجرمين من مكرٍ وصَدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد. ومن أسبابِ صدودِهم ما في صدورهم من كِبْرٍ وحسدٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ، ومفاهيمَ خاطئة.

٣- النبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ، يختصُّ اللهُ بها مَنْ يشاء من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنُهم خُلُقاً، وأخلصُهم لله.

٤- بيان سنة الله تعالى في الهداية والإضلال، فمَنْ طلب الهداية، ورغب فيها صادقاً، علم الله ذلك منه، فسهَّل له طُرُقَها وهيأ له أسبابَها، ومَنْ طلب الغَواية، وأخلد إليها، تهيأت له أسبابُها، وفُتِّحَتْ عليه أبوابُها.

٥- دلت الآية الكريمة على نوع من الإعجاز العلمي في القرآن، وهو أنَّ الضغط الجوي يَخِفُّ، كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأنَّ الإنسان كلما صَعِدَ إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة عند نزول القرآن دليل على هذا الإعجاز. وينظر: صورة توضح مراحل نقص الأكسجين عند الصعود لأعلى، كما في الملحق.

٦- بشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بدار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروهٍ وسوءٍ، والعافية من جميعِ الآفات والبلايا والهموم والرزايا.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ إشارةٌ إلى جملة من السنن الإلهية منها:

أ- سنةُ الولاء: إذ يتآمر الكَفَرَةُ، ويتعاونُ الظَّلَمَةُ لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامحهم. وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

ب- سنةُ التعاقب والتداول: إذ يتعاقب الظلمة، يلي بعضهم بعضاً دون اعتبارٍ ممَّنْ سبقهم، فلو دام الملك لِـمَنْ سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله، كذلك يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضاً في دخولها.

ج- سنةُ التسلط: تَسَلُّطُ الظَّلَمَةِ بعضهم على بعضٍ، وهلاك الظالمين بالظالمين. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظَّلَمَةَ بالظَّلَمَةِ.

د- سنة الاستبدال: وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

٨- في الآية (١٣١) إثبات قاعدة العذر بالجهلِ، وذلك من رحمةِ الله وعدله.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

التفسير:

١٣٥ - قل - يا أيُّها النبي - لقومك من كفَّار قريش مُهَدِّداً لهم: ياقومِ استمِرُّوا على كفركم، فإني ثابت على دعوتي كما أمرني ربي، ولا يَضُرُّني تصميمُكم على ما أنتم عليه من الكفر، فسوف تدركون عند نزول العقاب لمن العاقبة المحمودة في الآخرة، أنحن أم أنتم؟ إنَّه لا يفلح المعتدون بتكذيبهم، وشركهم.

١٣٦ - يُخبر الله تعالى عن جرائم الكفَّار في تحريم ما أحَلَّ الله مُحَذِّراً من ذلك، ومُوَبِّخاً لهم: وجعلوا ممَّا خلق الله تعالى من الثمار والأنعام سهماً ينفقونه في سبيل الله على الفقراء والمساكين، وجعلوا سهماً آخر لشركاء الله من الأوثان يُصرف للسَّدَنَةِ والخدم والقَرابين، فما كان لأصنامهم فلا يُصرَفُ للوجوه التي شرعها الله تعالى، وما كان لله تعالى فإنَّه يُصْرَفُ منه إلى أوثانهم من القرابين وغيرها. بئس هذا الحكم، وقَبُحَتْ قِسْمَتُه.

١٣٧ - ومِثْلَ هذا التزيين من الشياطين بهذا الحكم، زَيَّن الشياطينُ لجَمْعٍ من المشركين قَتْلَ أولادهم مخافة الفقر أو العار؛ ليورِّطوا هؤلاء الآباء، وليخلطوا عليهم دينهم، فلم يُفَرِّقوا بين الحق والباطل. ولو شاء الله تعالى ما فعلوا ذلك أبداً، فدَعْهم وما يختلقون من الكَذِب.

١٣٨ - وقال المشركون قولاً كُبَّاراً سَفَهاً وجهلاً: هذه أنعام من الحيوانات، وحَرْثٌ من النباتات، حرامٌ لا يأكلها أَحَدٌ إلا مَنْ نشاء من خَدَمَةِ الأوثان، بزعمهم الباطل من غير حُجَّة، وأنعام حُرِّم ركوبها، والحمل عليها، وأنعام عند ذَبْحِها لا يذكرون اسم الله عليها. وكلُّ ذلك كذب مختلَقٌ على الله تعالى، سيعاقبهم بسبب هذا الكذب.

١٣٩ - ومِنْ كَذِبهم أيضاً قولهم: ما في بطون البحائر - جمع بَحِيرة، وهي الناقة التي تُشَقُّ أُذنها، ثم يَحْرُم ركوبُها - والسوائب المسيَّبة، من أَجِنَّةٍ وألبان لأصنامهم، وهو حلال للرجال دون النساء المتزوجات، وذلك إذا وُلِدَ حيّاً، أمّا إذا وُلِدَ ميّتاً فالرجال والنساء مشتركون في ذلك، سيعاقبهم على هذه الأحكام الجائرة. إنَّه حكيم في أحكامه، عليم بخلقه.

١٤٠ - يؤكد الله تعالى أنَّ هؤلاء المشركين خسروا دينهم وأولادهم، حينما قَتَلوا أولادهم جهلاً بغير حجة، وحَرَّموا عليهم طيباتِ ما رزقهم الله؛ كذباً على الله تعالى. إنَّهم انحرفوا انحرافاً كبيراً عن الحق، وما كانوا مهتدين إلى الصواب، ولا موفَّقين له.

الفوائد والاستنباطات:

١ - المشركون الذين حرَّموا ما أَحَلَّ الله، واستحَلُّوا ما حَرَّم ارتكبوا ضُروباً من الجهل والحماقات والأحكام الضالة.

٢ - مِنْ كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أن جعلوا لله سبحانه ممّا خلق من حَرْثِهم ونِتاج دوابِّهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يَصْرِفُونه لسَدَنَتِها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيٌّ عن ذلك.

٣ - وَصَفَ الله المشركين بأوصافٍ سبعة، هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة، وكلُّ واحدٍ منها سبب تام في حصول الذم. (التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٦١).

٤ - وَضْعُ المرأة المُزْري، وحقوقها الضائعة في تلك الجاهلية الجهلاء، والتقاليد البالية التي لم تَسْلَمْ المرأةُ مِنْ عَنَتِها، فعانت من ظلم أقربِ الناسِ إليها، وعاشت مَهِيضةَ الجناح كسيرةَ الفؤاد حتى أشرقت شمسُ الإسلام.

٥ - تحقيق الفعل بـ﴿قَدْ﴾ في الآية (١٤٠) للتَّنبيه على أنَّ خُسْرانَهم أمر ثابت، فيفيد التحقيقُ التَّعجيبَ منهم كيف عَمُوا عمّا هم فيه من خسرانهم؟.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

التفسير:

١٤١ - والله تعالى الذي خلق بساتين فيها أشجار محمولة ومتسلقة على عرائش، وأشجار مرفوعة بسيقانها كالتفاح. وأنشأ النخل، والزرع متنوعاً طعمه ولونه ورائحته، والزيتون، والرمَّان متشابهاً منظره ومُختلفاً طَعْمُه بين الحلو والحامِض. كُلُوا من ثمره إذا نضج، وأَخْرِجُوا زكاته المفروضة عند قِطافِه وجَمْعِه، ولا تُبَذِّروا في الإنفاق. إنَّ الله لا يحب المبذِّرين.

١٤٢ - وخلق الله تعالى لكم من الإبل والبقر والمعز والغنم ما يُرْكَبُ، ومنها ما يُحْمَلُ عليها المتاع، ومنها ما يُستفاد من صوفها وشعرها وأوبارها لصنع الفُرُش الجيدة. كُلوا ممَّا أعطاكم الله من هذه النِّعم، ولا تسلكوا طرائق الشيطان الذي يُزيِّن لكم تحريم ما أحلَّ الله. إنَّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

١٤٣ - يُنكر الله تعالى على المشركين الذين حَرَّموا ما أحلَّ الله لهم مُوَبِّخاً لهم، ومُبيِّناً جَهْلَهم، فقد خلق الله تعالى من الأنعام ثمانية أصناف مزدوجة من ذكر وأنثى، من الضأن اثنين ذكراً وأنثى، ومن المعز اثنين ذكراً وأنثى. قل لهم يارسول الله: أحَرَّم الله الذَّكَرَين منهما؟ أم حَرَّم الأنثيين منهما؟ أم حَرَّم ما اشتملت عليه البطون من الأجنَّة؟ وكل ذلك لم يُحَرِّموه. خَبِّروني بحجةٍ أو دليلِ ادِّعائكم إن كنتم صادقين.

١٤٤- وخلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام أي: ذكراً وأنثى، كل واحد منهما زوج للآخر. وتفصيل هذه الثمانية كما يلي: خَلَقَ من الإبل اثنين ذكراً وأنثى، ومن البقر اثنين ذكراً وأنثى، قل لهم: أحرَّم الله الذَّكَرَين منهما؟ أم حَرَّم الأنثيين؟ أم حَرَّم ما اشتملت عليه البطون من الأجنَّة؟ هل كنتم حاضرين تشهدون حين أمركم بهذا التحريم المُفترى؟ فمَنْ أشدُّ ظُلماً ممَّنِ اختلق الكذبَ على الله من أجل انحراف الناس عن شريعة الله تعالى بغير حُجَّة؟ إنَّ الله لا يوفِّق المعتدين على حُرُماته.

١٤٥- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُبيِّن كثرة ما أحَلَّه الله تعالى لعباده، وبعض الأشياء المحرَّمة، وأنَّ أحكام الحلال والحرام مصدرها من عند الله سبحانه. قل للناس: لا أجد فيما أوحى الله إليَّ في القرآن طعاماً أو شراباً محرَّماً على أحد إلا أن يكونَ ميتة غير مُذكَّاة، أو يكون دماً مراقاً، أو لحم خنزير، فإنَّه نجس مستقذر، أو ما ذُبِحَ لغير الله تعالى. فمَنْ أصابته ضرورة تؤدي إلى هلاكه فلا حرج أن يأكل شيئاً من هذه المُحَرَّمات، غير قاصد أو متعمِّد الحرامَ، ولا مُتجاوزٍ قَدْرَ الضرورة التي تدفع عنه الهلاك، فإنَّ الله غفور له رحيم به. وقد صَحَّ من السُّنَّة المشرِّفة تحريم كلِّ ذي نابٍ من السباع، وذي مخلبٍ من الطيور، والحُمُر الأهلية، والكلاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- رَدٌّ على جهالات المشركين الذين حَرَّموا ما أحلَّ الله، وأحَلُّوا ما حرَّمه تعالى حسب أهوائهم.

٢- وجوب الزكاة في الزروع والثمار، عند حَصادها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يُحْسَبُ ذلك من الزكاة، بل يُزَكَّى المالُ الذي يبقى بعده.

٣- دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ، ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان. ومِنْ ضِمْنها: الإسرافُ ومجاوزةُ الحدِّ في الإنفاقِ، وتحريمُ ما أحلَّ الله، أو تحليلُ ما حَرَّم الله، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية.

٤- إقامة الحجةِ على المشركين، وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ، حَمَلَتْهم على تحريمِ ما أحَلَّ الله، فلم تَدَعْ لهم شبهةً إلا أبطَلَتْها، ولا حُجَّةً إلا أسقطَتها.

٥- دَلَّت الآيات على تَضارُب المشركين، وتناقضهم. وهذا شأن مَنْ يركب الأهواء، ويحتكم إلى الجهل، ويُسَلِّم بالأقاويل الواهية.

٦- قال ابن عاشور: «سُلِكَ في التفصيل طريق التوزيع تمييزاً للأنواع المتقاربة، فإنَّ الضأن والمعز متقاربان - وكلاهما يُذبح - والإبلَ والبقرَ متقاربة، والإبلُ تُنْحَرُ، والبقر تُذبح وتُنحر أيضاً».

(التحرير والتنوير: ٧/ ٩٦).

٧- قال المحققون: «إذا ثبت أنَّ مَنْ افترى على الله الكذب في تحريم مباح، استحق هذا الوعيد الشديد. فمَن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد، كان وعيدُه أشدَّ وأشقَّ». (انظر: التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٦٧).

٨- طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي (الكتاب والسنة).

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۢ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۢ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍۢ وَٰسِعَةٍۢ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًۭٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًۭا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

التفسير:

١٤٦- ذكر الله تعالى ما حَرَّمه على اليهود من ذوات الأظفار غير منفرج الأصابع، كالإبل والنعام والبط، وشحوم البقر والغنم إلا ما علق بظهورها وأمعائها أو اختلط بعظم. ذلك التحريم عقاب على تَشَدُّدِهم وعدوانهم، ثم يؤكِّد سبحانه صِدْقَه في أحكامه وأخباره.

١٤٧- فإن كَذَّبك - أيها النبيُّ - اليهودُ والمشركون فيما أُوحي إليك فقل لهم مُهَدِّداً: إنَّ خالقكم ذو رحمة واسعة؛ إذ لم يعاجلكم بالعقوبة، ولا أحد يقدر أن يَرُدَّ عذابه عن الذين ارتكبوا المعاصي.

١٤٨- يُنَبِّئ الله تعالى رسولَه ﷺ بما سيقوله المشركون من الشبهات، ويُجيب عن ذلك مُنْكِراً عليهم، مُقَرِّعاً لهم: سيقول المشركون: لو أراد الله ما كَفَرْنا ولا أشركنا نحن ولا آباؤنا، ولا حَرَّمْنا شيئاً. فاحتَجُّوا

بالقدَر، ولا حجَّة في هذا لأنَّهم مُكلَّفون بطاعة الله تعالى، فردَّ الله عليهم مُوبِّخاً لهم: مثلَ ذلك التكذيب الخطير الذي كَذَّبه هؤلاء المشركون، كذَّب الكفَّار السابقون لهم، واستمروا على ذلك حتى نزل بهم العذاب الموجع. قل لهم يا رسول الله: هل عندكم بُرهان على ما حَرَّمْتُم من الأنعام فتُظْهِروه لنا؟ ما تعتمدون في افترائكم إلا على الظنِّ المبنيِّ على الجهل، وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله ﷻ.

١٤٩ – قل لهم: فلله العظيم سبحانه الحجَّة التي بلغت أعلى درجات الحقِّ في البيان والقوة، فلو شاء تعالى هدايتكم جميعاً إلى الحقِّ لَهَداكم إليه.

١٥٠ – قل لهم: أحْضِروا إليَّ مَنْ يشهد لكم بأنَّ الله تعالى حَرَّم ما كَذَبْتُم به من تحريم الأنعام والنبات. فإن قَدَّموا شهوداً فلا تُصَدِّقهم، ولا تَتَّبعْ آراء الذين جحدوا آياتنا المسموعة والمشاهدة، ولا الذين كذَّبوا بالآخرة وهم يُشركون بالله تعالى، ويُصِرُّون على شركهم.

١٥١ – يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعوَ المشركين إلى الحق، ويقرأ عليهم ما حرَّم الله تعالى: ألَّا تُشركوا في عبادة الله شيئاً من مخلوقاته، وأن تُحْسِنوا للوالدين بالأقوال والأفعال، ولا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر أو العار في وأد البنات، وأن تجتنبوا الكبائر في العَلَنِ والسِّر، ولا تقتلوا عمداً النفس التي حَرَّم الله قتلها إلا بحق كالقتل قصاصاً. ذلك الأمر العظيم من المُحرَّمات، أَمَرَكم به ربُّكم، وأكَّد تحريمه؛ لكي تفهموا أحكامه سبحانه، وتعملوا بها. عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». (صحيح البخاري ١٢/ ٢٠٩، برقم ٦٨٧٨ – كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، وصحيح مسلم ٣/ ١٣٠٢ برقم ١٦٧٦ – كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم).

الفوائد والاستنباطات:

١ – تشديد الله على اليهود بسبب بَغْيهم وعدوانهم.

٢ – رحمةُ الله بأُمَّة الإسلام؛ إذ لم يُشَدِّد عليهم كما شَدَّد على اليهود، بل خَفَّف عنهم، ويَسَّر أَمْرَهم.

٣ – جمعت تلك الوصايا الخالدة بين ترسيخ العقيدة الصحيحة، وتقرير الأحكام الشرعية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

٤ – تَضَمَّنت الآياتُ الكريمةُ دعوةً إلى تَعَقُّلِ مقاصد الأحكام الشرعية، وتَبَصُّرِ حِكَمِها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحِرْصِها على صلاحِ النفسِ والمجتمعِ.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

التفسير:

١٥٢- واحذروا - أيها الأوصياء - التصرُّف بأموال اليتامى، إلا بما فيه المصلحة والتنمية لأموالهم؛ حتى يصلوا إلى سن البلوغ، وأتمُّوا الكيل والميزان بالعدل. لا نُكلِّف أحداً إلا بمقدار طاقته واحتماله في سائر الأوامر والنواهي، وإذا قلتم قولاً تحكمون به بين الناس، أو تُدْلُون بشهادة أو بخبر أو بشفاعة، فاعدلوا، ولو كان المُتَّهم أو المشهودُ عليه من ذوي قرابتكم، وأَوْفُوا بكلِّ العهود التي أمر الله بها. ذلكم الأمر العظيم وَصَّاكم به وأكَّده؛ كي تتعظوا. قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: «هذا جامعٌ كلَّ المعاملات بين الناس بواسطة الكلام وهي الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المُخْبِرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤجَّرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكلُّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول». (التحرير والتنوير: ٧/ ١٢٤).

١٥٣- ووَصَّاكم الله تعالى بشريعة الإسلام، فإنَّه دين الله الذي ارتضاه، فخُذُوا به غاية جهدكم، ولا تَتَّبِعُوا الطرق المخالفة للإسلام؛ لأنَّها تُضِلُّكم عنه، وتجعلكم متفرقين متشرذمين دائماً. ذلكم الدين العظيم الذي أمركم به؛ لكي تتقوا العذاب. عن حماد، عن عاصم، عن أبي وائل قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «خَطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خَطّاً، وخَطَّه لنا عاصم - فقال: «هذا سبيل الله»، ثم خَطَّ خطوطاً عن يمين الخط - وعن شماله فقال: «هذه السُّبُلُ، وهذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا هذه الآية:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ للخطِّ الأول، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ للخطوط، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾». (أخرجه النسائي في تفسيره ١/ ٤٨٥ برقم ١٩٤، وأخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٣٥، ٤٦٥) والدارمي في سننه (١/ ٦٧-٦٨، باب في كراهية أخذ الرأي)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ١/ ١٨١ برقم٧)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣١٨ من طرق عن حماد بن زيد به. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسن إسناده الألباني في ظلال الجنة ١/ ١٣).

١٥٤- ثم قل - أيُّها الرسول - بعد ذلك: إنَّ الله سبحانه أخبر بنِعمة عظيمة على بني إسرائيل: آتينا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - موسى ﷺ التوراة تماماً؛ للكرامة والنعمة على مَنْ كان مُحسناً، وبياناً موضِّحاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين، وهداية ورحمة لهم في الدنيا والآخرة؛ كي يُصَدِّقوا بالبعث.

١٥٥- وهذا القرآن العظيم أنزلناه بالوحي على رسول الله ﷺ، نفعه وخيره كثير في الدارين، فاتَّبعوا أحكامه ومواعظه، وخافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ كي تنالوا رحمته الدائمة.

١٥٦-١٥٧- أنزلناه لئلَّا تحتجُّوا وتقولوا: ما جاءنا كتاب، وإنما أُنزل على اليهود والنصارى من قَبْلِنا، وإننا كُنَّا عن قراءته لغافلين، أو تقولوا: لو أننا أُنزل علينا كتاب من السماء، كما أُنزل على اليهود والنصارى، لَكُنَّا أهدى منهم إلى الحقِّ. فقد جاءكم القرآن الكريم فيه بيان للأحكام، وهداية إلى الحكمة، ورحمة بالأُمَّة، فمَنْ أعظم ظُلماً ممَّنْ كذَّب بآيات الله المسموعة والمشاهدة، وأعرض عنها؟ سنُعاقب المُعرضين عنها عقاباً شديداً بسبب ذلك الإعراض.

الفوائد والاستنباطات:

١- ذكر سبحانه أولاً: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا تعقَّلُوا تذكَّرُوا، فاتَّقَوا محارمَ الله.

٢- في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأُوَلُ لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأُخَرُ شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء مَنْ لم يَتَذَكَّر قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فِعْلَ الفضائل، وتلك درجة التقوى قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٤٠٠).

٣- نزلت التوراة على موسى ﷺ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء، أمَّا القرآن الكريم فهو الرسالة المتممةُ الخالدة، والمعجزة الباقيةُ.

٤- عِلْمُ القرآن أجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وبه تَحْصُل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يُحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين. (انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٢٨٠).

٥- ينظر: مخطط الصراط المستقيم، وسبل الشيطان، كما في الملحق.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

التفسير:

١٥٨- ما ينتظر هؤلاء المكذِّبون إلا أن تأتيهم مقدمات العذاب بمجيء الملائكة لقَبْضِ أرواحهم، أو يأتي ربك بالعذاب، أو الفَصْل بين العباد يوم القيامة، أو يأتي بعض علامات القيامة. فحين يقع ذلك لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت دونَ العمل الصالح. يأمر الله تعالى رسوله أن يَتَوَعَّدَهم: قل انتظروا ما يحلُّ بكم، إنَّا منتظرون ما وَعَدَ به الله تعالى من النعيم المقيم.

١٥٩- يتوعَّد الله تعالى الذين يُحْدِثُون في الدين التفرق والتشرذم والفتن، وأَمَرَ نبيَّه ﷺ أن يتبرأ منهم ومن أفعالهم، ويؤكِّد سبحانه أنَّه سوف يتولَّى جزاءهم وعقابهم، ثم يخبرهم بما ارتكبوا من المعاصي.

قال ابن عاشور: «لمَّا دَلَّت على التبرِّي منهم وعدم مخالطتهم، كان الكلام مثار سؤال سائل يقول: أَعَلى الرسول أن يتولَّى جَزاءَهم على سُوء عملهم؟ فلذلك جاء الاستئناف بقوله:﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾».

(التحرير والتنوير: ٧/ ١٤٣).

١٦٠- يُرَغِّب الله تعالى في العمل الصالح بأنَّ مَنْ جاء يوم القيامة بعملِ خصلةٍ حسنة، جُوزِيَ بعشر حسنات أمثالها، فضلاً منه سبحانه، ومَنْ عمل سيئة عوقب بمثلها، وهم لا ينقصون من جزائهم شيئاً.

١٦١ - يأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يعلن ويقول: إنني أكرمني الله بالهداية إلى دين الإسلام، فعَلَّمني ديناً مستقيماً وسطاً، ملَّة أبينا إبراهيم عليه السلام، تلك الملَّة الحنيفية السمحة الثابتة على التوحيد. وما كان إبراهيم من الذين أشركوا مع الله تعالى غيره.

١٦٢-١٦٣ - قل يا محمد: إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي وعبادتي، وما أُقَدِّمُه من خير في حياتي، وما يُقَدِّر الله عليَّ في مماتي، كله لله المعبود بحق، ربِّ المخلوقات، لا شريك له في العبادة. وبذلك التوحيد العظيم الكامل أمرني ربي سبحانه، وأنا أول مَنْ خضع لله تعالى من هذه الأُمة.

١٦٤ - ويؤكِّد الله تعالى للنبي ﷺ إخلاص هذه العبادة له، مُوَبِّخاً للمشركين، قل لهم: هل أطلب غير الله ربّاً؟ وهو خالق المخلوقات ومُدَبِّر أمورها، ولا يقع أي إنسان في معصية إلا كان الإثم عليه، ولا تتحمَّل نفسٌ بريئة ذَنْبِ نفس أُخرى، فلا يؤاخذ أحدٌ بجريمة غيره، ثم إلى خالقكم مصيركم بالحشر يوم القيامة، فيخبركم إخباراً مستوفى بالذي كنتم تختلفون فيه من أمور الدين.

١٦٥ - والله تعالى وحده - لِما له من عظمة وقدرة - هو الذي جعلكم خلفاء في عمارة الأرض، يخلف بعضكم بعضاً، ورفع بعضكم في العلم والرزق والقوة فوق بعض؛ ليختبركم فيما رزقكم. إنَّ خالقكم سريع العقاب لِـمَنْ عصاه، وإنَّه لغفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنَّه جلَّ وعلا يأتي في ظُلَلٍ من الغمام، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠] الآية. ومثلَ هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه نؤمن بها، وتمرر كما جاءت».

٢ - بالإخلاص تَتَحَوَّلُ العادات إلى عبادات، بل كلُّ قولٍ وفعلٍ، وكلُّ حركةٍ وسكونٍ، وكلُّ لحظةٍ في حياةِ المؤمن هي لله تعالى، فحياته كلُّها عبادةٌ.

٣ - مهمة الإنسان عبادة الله ﷻ والقيام بحق الخلافة في الأرض بتعميرها وإصلاحها، وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها وَفْقَ منهجِ الله تعالى.

٤ - من مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله تعالى، فهو تعالى خالق هذا الكون.

٥- حكمة الله تعالى في التفاوت بين خَلْقِه، ورَفْعِ بعضِهم على بعضٍ درجات؛ وذلك لتبادل المنافع، واكتمال منظومة الحياة، وتحقيق التعاون بين الناس، وتبادُل الخدمات فيما بينهم.

٦- إذا كان الله تعالى قد بَيَّنَ في أول السورة مُلْكَه للسموات والأرض، فقد أعلن في ختامها أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هيَّأ له من مَلَكَاتٍ وطاقاتٍ، تُعينُه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تَتِمَّ إلا بمنطلق إيماني ومنهجٍ رباني، وضمن ذلك تمضي موضوعات السورة الكريمة.

النزول: مكية.

فضل السورة: من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْرُه في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١ - تقرير أصول العقيدة الإسلامية: من توحيد الله ﷻ، وإثبات الرسالة، وتقرير البعث والجزاء.

٢ - بيان أحوال الأُمم المكذبة ومصيرهم.

٣ - تسلية النبي ﷺ، وتثبيته ببيان صبر الأنبياء على أقوامهم ونجاتهم.

٤ - بيان منهج الأنبياء في الدعوة والحوار.

٥ - إبراز دلائل قدرة الله تعالى في خلق الكون وتدبيره.

٦ - بيان عداوة الشيطان ومكايده، وحيله لإغواء الإنسانية.

٧ - بيان تكريم الله تعالى للإنسان، ورعايته ولُطْفِه به.

٨ - دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ بعد جلاء دلائل نبوته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير:

١- تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

٢- هذا القرآن العظيم كتابٌ أنزله الله تعالى إليك أيُّها الرسول، فلا يكن في صدرك ضيقٌ من تكذيب الكفَّار، فقد أُنزل عليك من أَجْلِ دعوتهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى، وهو موعظة عظيمة للمصدقين بالله تعالى وبرسالتك.

٣- يأمر الله تعالى الناس جميعاً أن يَتَّبعوا ما أوحى الله ﷻ إلى النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنَّة النبوية المشرَّفة، وينهى عن اتِّباع ما دونَ ذلك، ثم يحثُّ على الاهتمام بهذه الأحكام، مع عِلْمِنا أنَّ الناس نادراً ما يتعظون بها.

٤-٥- يُحَذِّر الله سبحانه عباده من المعاصي واعظاً لهم: وكثيرٌ من الأُمم الذين كذَّبوا رُسُلَهم عاقبناهم بالدَّمار، ففاجأناهم بالعذاب وهم نائمون ليلاً أو نهاراً، فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب إلا أن اعترفوا بظُلْمِهم تَحَسُّراً وتَفَجُّعاً، ولكنَّ هذا لا ينفعهم في شيء، فقد استحَقُّوا وعيد الله لهم.

٦- يؤكِّد الله تعالى بيانَه بقوله: فلنسألَنَّ - لِما لنا من العظمة والقدرة - الأمم التي أُرسل إليها المرسلون: هل بَلَّغكم الرُّسُلُ؟ وماذا أجبتم؟ ولنسألَنَّ الرُّسُلَ هل بَلَّغوا الرسالة؟ وماذا أجابتهم أُممهم؟

٧-٩- فلَنُخْبِرَنَّ الإنس والجن بأعمالهم بعِلْمٍ منا،وما كُنَّا غائبين عمَّا عملوا في وقت من الأوقات، وتُوزن أعمالهم يوم القيامة بالعدل: فمَنْ رَجَحَتْ موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح، فأولئك أصحاب

المنزلة العالية وهم الفائزون، ومَنْ رَجَحَتْ سيئاته على حسناته فأولئك المُبْعَدُون عن الفوز، الذين خسروا أنفسهم؛ لدخولهم في نار جهنم؛ بسبب تكذيبهم لآيات الله تعالى المسموعة والمشاهدة.

١٠ - قسماً لقد مَهَّدْنا الأرض، وهَيَّأْناها لكم؛ لتتمكَّنوا من البناء عليها، وزراعتها والانتفاع بها، وجعلنا لكم فيها ما تعيشون، وتَحْيَوْن به من المطاعم والمشارب. ومع تلك النِّعَمِ فقليلٌ مَنْ يشكر الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تأكيد تمكينهم في الأرض باللام وقد، مع أنَّهم لم يُنْكِروا ذلك تنبيهاً لهم وتذكيراً، ولأنَّهم بكفرانهم وجحودهم بوحدانية الله في منزلة مَنْ يُنْكِرُ ربوبيته.

٢- التعبير بوصف الربوبية؛ لأن الخالق الرازق المدبِّر المربِّي صاحب العظمة والكمال هو الأحقُّ بالاتِّباع، المتفرِّد بالتحليل والتحريم، العليم بمصالح خلقه.

٣- مصيبة الظلم وشؤمه، فهو من أسباب الهلاك والتدمير.

٤- لابُدَّ لِـمَنْ أَلِفَ الكذبَ أن يعيش لحظة صدق مع نفسِه، وإن جَرَتْ مع آخر الأنفاس.

٥- العقاب الإلهي عادلٌ، لا يقع إلا بعد استحقاقٍ، وإعذار وإنذارٍ.

٦- أهوال يوم القيامة ومشاهدها الرهيبة، ومواقف السؤال الذي لا يُستثنى منه أحدٌ.

٧- الإيمان بالميزان كما أخبر عنه القرآن، وجاءت السُّنَّةُ بمزيد بيانٍ.

٨- من أعظم النِّعَمِ تمكين الإنسان في الأرض، وتيسير سبل المعيشة فيها، وتسخير ما عليها لمنافعه.

٩- تكريم الله للإنسان وتفضُّله عليه.

١٠-تعظيم القرآن الكريم، وتعظيم مُنَزِّله جلَّ وعلا، وبيان أنَّه نزل تثبيتاً لقلب النبي ﷺ، وتسلية لقلبه، وشَرْحاً لصدره.

١١- الإعراض عن منهج الله، واتباع مناهج أهل الكفر والضلال من قلة التعقُّل والتذكُّر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

١١ - يَذْكُرُ الله تعالى قصّة آدم مع إبليس وما فيها من المواعظ : قسماً لقد خَلَقْنا أصلكم آدم - بما لنا من العظمة التي تقتضي توقير مَن صَوَّرْناه - بأيدينا في أحسن صورة، فأَمَرْنا الملائكة كلَّهم بالسجود له إكراماً وتوقيراً، فاستجابوا لله تعالى، وسجدوا جميعاً، إلا إبليس الذي كان مصاحباً لهم، عصى ولم يسجد.

١٢-١٣- فأنكر الله تعالى عليه، ووَبَّخه بقوله: ما الذي منعك أن تسجد لآدم ﷺ حين أمرتُك؟ فأجاب إبليس مُتكبِّراً: أنا أفضلُ من آدم؛ إذ خَلَقْتَني من نار، وخَلَقْتَ آدم من طين ، فأَمَرَ الله تعالى بطرده من الجنة: اخرُجْ من الجنة، فلا ينبغي لك أن تستكبر عن طاعتي، وتسكن الجنة. وأكَّد الأمر بالخروج منها عقوبةً له؛ ليكونَ من الأذَلّين بسبب تَكَبُّره.

١٤-١٥- ثم طلب إبليس من ربِّه سبحانه أن يُمْهِلَه بالبقاء إلى يوم البعث، فأمهله الله تعالى إلى ذلك الوقت.

١٦-١٧- ثم تَوَعَّد إبليسُ آدمَ وذريَّته قائلاً: فبسبب ما أَضْلَلْتَني من أجل آدم لأرصُدَنَّه وذريتَه، ولَأصُدَّنَّهم عن دين الإسلام، ثم لآتِيَنَّهم إتياناً من جميع وجوه الحق والباطل، ومن جميع الجهات الأربع لإغوائهم، فأصُدُّهم عن الحق، وأُزيِّن لهم الباطل، ولا تجد أكثرهم مطيعين شاكرين لفضلك.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ هذا الذي ذكر إبليس أنّه سيوقع بني آدم فيه، قاله ظناً منه أنّهم سيطيعونه فيما يدعوهم إليه حتى يُهْلِكَهم، وقد بَيَّن تعالى في سورة (سبأ) أنَّ ظنَّه هذا صَدَقَ فيهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ:٢٠] الآية، كما تَقَدَّمت الإشارة إليه».

١٨- فرَدَّ الله تعالى مُقرِّعاً له: اخرُج من الجنة مَعِيباً مطروداً. ثم أقسم سبحانه مؤكِّداً له ولِـمَنِ اتَّبعه من الإنس والجن إنَّه سيملأ جهنم منهم أجمعين. وأعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيداً للأمرين الأول والثاني قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: ١٣]».

١٩- وأكرم الله تعالى آدم وزوجته حوَّاء بالسكن في الجنة، وأن يتمتعا بالأكل منها حسب رغبتهما، وأن يجتنبا الشجرة التي نُهِيا عنها حتى لا يقعا في المعصية، فيكونا من المخالِفين لأمر الله تعالى.

٢٠- فلمَّا رأى الشيطان ذلك التكريم لآدم وزوجه أخذ يوسوس لهما؛ ليأكلا من الشجرة، فيقعا في المعصية؛ لتكون عاقبتُهما إظهار ما ستر من عوراتهما، وقال لهما ماكراً بهما: ما نهاكما ربُّكما عن الأكل من ثمر هذه الشجرة إلا لأجل ألَّا تكونا مَلَكَين مُقرَّبَين، أو تكونا من الماكثين في الحياة إلى الأبد.

٢١-٢٢- وأكَّد هذا المكر بالحَلْفِ بالله إنَّه لهما لمن الناصحين في مشورته الخبيثة التي خَدَعَتْ آدم وحوَّاء في الأكل من تلك الشجرة. فلمَّا أكلا من ثمر الشجرة ظهرت عوراتهما، فساءهما ذلك، فأخذا يلصقان بعض أوراق شجر الجنة لسَتْرِ العورة. وناداهما ربُّهما مُنكِراً عليهما، ومعاتباً لهما: ألم أُحَذِّرْكما من الأكل من هذه الشجرة، وأَقُلْ لكما: إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ ظاهر العداوة؟

٢٣- فاعترفا بالمعصية، وتَضَرَّعا إلى الله بالدعاء: يا ربَّنا إنَّنا ظلمنا أنفسنا بهذه المعصية، وإن لم تغفر لنا ذنبنا وترحمنا لنَكُونَنَّ من الهالكين.

٢٤-٢٥- فغفر الله تعالى ذلك لآدم وحوَّاء، وأَمَرَهما وإبليس قائلاً لهم: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، حال كون بعضكم عدوًّا لبعض، ولكم في الأرض مكان استقرار وعيش، وانتفاعٍ بخيراتها إلى وقت موتكم، فيها تعيشون وفيها تُقْبَرُون، ومن قبُورها تخرجون للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «طوى القرآن هنا ذِكْرَ التوبة على آدم؛ لأنَّ المقصود من القصة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان، وتحذير الناس من اتِّباع وسوسته». (التحرير والتنوير: ٨/ ٥٣).

٢- المرأة شريك للرجل في التكليف والمسؤولية والجزاء. وفي القصة مَنْقَبَةٌ لحواء، فقد تابت مع آدم.

٣- الكِبْرُ والعُجْبُ بالنفس، والاعتداد بالرأي والحسد، من أسباب غَواية إبليس وشقائه، قاس إبليس فأخطأ، وقَدَّم رأيه على أمر الله له، وأصرَّ على ذنبه، وتمادى في غَيِّه.

٤ - من مداخل الشيطان لآدم وحواء إثارة غريزة حُبِّ التملُّك، وحُبِّ التميُّز، وحُبِّ البقاء، وطول الأمل، فليحذر الإنسان من ترك العَنان لهذه الغرائز دون ضبطٍ لها.

٥ - كان كشف العورات وإبداء السوءات هو أولَ أهداف الشيطان الخبيثة. وفي هذا تحذير من ذلك، ودعوة للحياء والستر، وأنَّ وساوس الشيطان لا تجلب لِـمَنْ يستجيب لها إلا الشرَّ.

٦ - التحذير من وسوسة الشيطان فقد جاءت في عدة أساليب لآدم وحواء، تارة بأسلوب الاستفهام وتارة بأسلوب التخيير والإبهام، وتارةً بالقسم وادِّعاء النصح، وأنَّها شجرة الخلد، أو التحول لمقام الملائكة. والظاهر أنَّها تكررت لإغراء الزوجين؛ ولذا جاء التعبير بالفعل (وسوس) الدالِّ في مادته على التكرار.

٧- إيثار التعبير بـ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ لبيان أنَّ وسوسة إبليس واستجابتهم له هبطت بهما من الرتبة العالية.

٨- حين وسوس الشيطان لهما، أشار للشجرة باسم الإشارة القريب؛ لتقريبها لأذهانهم وقلوبهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وحين عاتبهم ربُّهم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ تقليلاً لشأنها، فهي ليست - كما زعم إبليس - شجرة الخلد، ولأنَّهما حين أكلا منها ابتعدا عنها.

٩- خطر المعاصي والذنوب، وعاقبتهما الوخيمة، فلا ينبغي لعاقل أن يستهينَ بالذنوب صغيرِها، وكبيرِها.

١٠ -وجوب المبادرة إلى التوبة قبل فوات الأوان، وانصرام الزمان.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٢٦- يُخاطب الله تعالى البشر جميعاً من أجل العناية بسَتْرِ العورات، والتقوى بالطاعات، والتحذير من نزغات الشيطان في حربه على الفضيلة والأحكام، فيؤكّد اللهُ ﷻ أنّه قد أنزل اللباس الذي يستر العورة، واللباس الذي يُتزَيَّنُ به، وكلاهما مطلوب، ولكنَّ اللباس المعنوي للقلب هو الأعلى منزلةً - وهو التقوى الذي يُصْلِحُ القلب بالامتثال لطاعة الله تعالى - هو خير لباس للمؤمن، لأنّه سيصلح الجسد كلّه ويحميه. ذلك الفضل العظيم من الكريم سبحانه من الدلائل على توحيده، وبيان رحمته، وتدبيره للبشر؛ كي يَذْكُروا عظمة الله تعالى.

٢٧- ثم يخاطبهم مرَّةً أخرى للتحذير من إغواء الشيطان، والاعتبار بصنيعه مع آدم وحوَّاء عليهما السلام حين أخرجهما من الجنة، وتَسَبَّبَ في نَزْع لباسِهما، وإظهار عورتهما، ولايزال يحرص حثيثاً على هَتْكِ الأستار.

ويُؤَكّد الله تعالى هذا التحذير بأنَّ الشيطان يُبْصِرُكم هو وجنوده، وأنتم لا ترونهم، فاحفَظُوا عوراتكم منهم. إنَّا - لِما لنا من العظمة والحكمة - جعلنا الشياطين قرناء وأنصاراً للذين لا يُصَدِّقون بالله تعالى.

وشُبِّه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنة آدم وزوجه؛ إذ أقدما على الأكل من الشجرة المنهيِّ عنه، وعلى نزع الستر من العورة المغلظة تذكيراً للبشر بأعظم فتنة شيطانية، لايزال مفعولُها يسري في تَعَرِّي كثيرٍ من الناس.

٢٨-٢٩- وإذا ارتكب هؤلاء الكفَّار خطيئة كبيرة اعتذروا عن فِعْلِ ذلك، بما ورثوه عن آبائهم وبكذبهم، وافترائهم أنَّ الله أمرهم بذلك! ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَرُدَّ عليهم ويُوَبِّخهم: قل لهم: إنَّ الله تعالى لا يأمر العباد بالمنكرات والكبائر، أتكذبون على الله تعالى بجهالاتكم؟ قل لهم أيضاً: إنَّ الله ربي أمرني بالعدل، فاتَّبعوني، وأمركم أن تتوجَّهوا بصلاتكم إلى الله تعالى عند كل مكان ووقت وحال يصلح السجود فيه، وتَضَرَّعوا إليه وحده مخلصين له الطاعة، وكما أنَّ الله تعالى أنشأكم أول مرة، يُعيدكم أحياءً تارة أخرى للحساب.

٣٠- ويعيدكم حين البعث طائفتين مفترقتين: طائفة نعمت بالهداية إلى الإسلام، وطائفة انتكست في الغواية فاستحقَّت الضلالة؛ لأنَّهم جعلوا شياطين الإنس والجن أعواناً من غير الله تعالى، فانخدعوا بهم وأطاعوهم، وظنُّوا أنَّهم على الطريق الصحيح لاتِّباع الحق.

٣١- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عُراة، فأمرهم الله أن يلبَسوا ثيابهم، ولا يَتَعَرَّوا. أهـ. (ينظر التفسير الصحيح ٣/ ٢٠). وقد جاء سبب النزول صريحاً في رواية الإمام مسلم بلفظ، فنزلت هذه الآية، ثم ذكر الآية نفسها. (الصحيح، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى (الآية)، ٤/ ٢٣٢٠، برقم ٣٠٢٨).

التفسير:

ينادي الله تعالى البشر نداءً لطيفاً بنسبتهم إلى أبيهم: يا ذريَّةَ آدم البَسُوا، وتَزَيَّنُوا بمظهرٍ حسنٍ لسَتْرِ العورة عند كل صلاة، وكُلوا واشربوا من الطيبات من غير تبذير. إنَّ الله لا يحب المُبَذِّرين.

٣٢- يَرُدُّ الله تعالى على مَنْ حَرَّم شيئاً من المآكل والمشارب أو الملابس من غير شرع الله تعالى، فيأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم: مَنِ الذي حَرَّمَ عليكم اللِّباس الجميل والمظهر الحسن من الثياب والزينة التي جعلها الله تعالى لجميع العباد؟ ومَنِ الذي حَرَّمَ أطايب المآكل والمشارب المشروعة؟ قل لهم أيها الرسول: إنَّ هذه الزينةَ والطيبات من حقوق المؤمنين، ويشاركهم فيها الآخرون في الدنيا، وفي الآخرة تكون خاصَّة بالمؤمنين فقط. مثلَ ذلك التفصيل البديع نُفَصِّل الآيات الدالَّة على كمال الدين والأحكام لقوم يعلمون أنَّها الحق.

٣٣- قل لهم: إن الله عَيَّن المحرَّمات، ونَبَّه عليها، وهي: الكبائر الظاهرة والخفية، وما يوجب الوقوع في الإثم، والاعتداء على الناس، والشرك في عبادة الله تعالى جهلاً وسفاهة، والتقَوُّل على الله سبحانه بغير حُجَّةٍ، كتحريم ما أحلَّ الله سبحانه.

٣٤- ولكل قَرْنٍ وجيلٍ مُكَذِّبٍ بالله ﷻ وقتٌ محدد للعذاب، فإذا حان ذلك الوقت لحلوله لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يتمتعون بالحياة فيها متجاوزين وقت هلاكهم، ولا يتقدَّمون لبيان أن ما عَلِمَه الله وقَدَّره على وَفْقِ علمه لا يَقْدِر أحدٌ على تغييره وصَرفه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تكرار نداء بني آدم؛ لمزيد اعتناء وتنبيه، وتذكيرٍ بأبيهم آدم عليه السلام، والاعتبار بما وقع له.

٢- جاء التعبير بقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأنَّ التقوى صيانةٌ وسترٌ وزينةٌ وتجمُّل، كما الثياب، وهي خيرٌ من كل مظاهر التجمُّل والتزيين؛ فإنَّ صيانة الباطن وجماله مقدمٌ على جمال الظاهر.

٣- قال ابن عاشور: «لمَّا كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بوَرَقِ الجنة مِنَّةً عليه، وقد تَقَلَّدها بنوه، خُوطب الناس بشمول هذه المنَّة لهم بعنوان يدل على أنَّها مِنَّةٌ موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سَمَّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالاً، لقصد تشريف هذا المظهر». (التحرير والتنوير: ٨/ ٥٧).

٤- السَّتر والاحتشام نعمة من نِعَمِ الله تعالى، وبرهان على الإيمان والتقوى، ودليل على الطهر والعفاف، وعنوان للفضيلة والكرامة، بينما العُرْيُ والتبذُّل من إغواء الشياطين ومكايدهم، وهو مظهر من مظاهر الجاهلية والشرك، وفيه امتهان للمرأة.

٥- ذَمُّ التقليد المبنيِّ على الأهواء والتعصُّب للآباء، ووجوب النظر في أدلة الشرع، وإعمال العقل.

٦- النهي عن الإسراف، والتحذير منه؛ فهو باب للمفسدة، وإهدارٌ للنعم. قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «الإسراف في الأكل والشرب يؤدي إلى إنهاك الجهاز الهضمي وإرهاقه، ويؤدي إلى السمنة التي تسبب أمراضاً كثيرة كداء السكر، وارتفاع ضغط الدم، وزيادة الدهون، والتهاب المفاصل، وغيرها».

٧- الأصل في الأشياء الإباحة، فكل ما في الأرض مُسَخَّرٌ للإنسان، إلا ما حَرَّمه الشرع.

٨- حرمة التقَوُّلِ على الله تعالى ومخاطره، فهو قرين الفواحش والإثم والبغي.

٩- ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّي الفعل بـ (على) دون (عن)؛ لتضمينه معنى أتكذبون، أو تتقَوَّلون.

١٠-في الآية (٣٤) إخبار عن أمر مستقبلي أنَّ لكلِّ جماعة اجتمعت على الكفر بالله تعالى وتكذيب رسله - عليهم الصلاة والسَّلام - وقتاً لحلول العقوبة بهم، فإذا جاء الوقت الذي وَقَّته الله لإهلاكهم لا يتأخرون عنه لحظة، ولا يتقدَّمون عليه.

١١ - الصراع بين الحقِّ والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الخير والشر، صراع قديمٌ قِدَمَ الوجود البشري. وفي هذا رَدٌّ على الفلاسفة الماديين الذين يختزلون هذا الصراع.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٥- يُخاطب الله تعالى ذريَّة آدم ﷺ: إن أتاكم رُسُلٌ من جنسكم يُبَلِّغونكم ما شَرَعْتُه من الأحكام والمواعظ، فأطيعوهم وصَدِّقُوهم. فمَنِ اتَّقى الله بفِعْلِ الطاعات، وتَرْكِ المُحرَّمات، وعَمَل الحسنات، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حُطام الدنيا.

٣٦- والذين جحدوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة، وتَكَبَّروا عن الإيمان بها. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى مُلازِمُون نار جهنم، هم فيها ماكثون أبداً.

٣٧- يُنْكِرُ الله على الكفّار افتراءهم، فيقول: مَنْ أشنعُ ظُلماً ممَّنْ تَعَمَّدَ على الله تعالى الكذب، أو كَذَّبَ بآيات القرآن المنزلة، أو جَحَدَ رسالة النبي ﷺ؟ أولئك المُكَذِّبون البعيدون عن رحمة الله تعالى ينالهم نصيب ممَّا قدِّر لهم في الدنيا من خير أو شر. حتى إذا جاءت الملائكة يقبضون أرواحهم قالوا لهم مُنْكِرين عليهم: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ أجاب المكذِّبون: غابوا عنَّا. وأقَرُّوا على أنفسهم بالكفر.

٣٨- يقول الله تعالى لهؤلاء المكذِّبين مُقَرِّعاً ومُعاقِباً لهم: ادخُلوا النار في جملة الأُمم السابقة الكافرة من الإنس والجن. كلَّما دخلت النارَ أُمَّةٌ لَعَنَتْ التي قَبْلَها؛ لضلالها بها، ويستمرون على ذلك. حتى إذا لحق

بعضهم بعضاً، وحُشِروا جميعاً في النار، قال الأتباع لقادتهم: يا ربَّنا هؤلاء القادة هم الذين أَضَلُّونا عن الهداية، فآتِهم عذاباً مضاعفاً من النار. فرَدَّ الله تعالى عليهم مُوبِّخاً: لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف، ولكنكم تجهلون أهوال العذاب. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ لم يُبيِّن هنا السبب الذي مَكَّنهم من إضلالهم، ولكنه بَيَّن في موضع آخر: أنَّ السبب الذي مَكَّنَهم من ذلك هو كونُهم سادتَهم وكبراءهم، ومعلوم أنَّ الأتباع يُطيعون السادة الكبراء فيما يأمرونهم به».

٣٩- قال السابقون في الكفر من القادة لأتباعهم: ليس لكم فضلٌ علينا يقتضي تخفيف العذاب عنكم، فذوقوا العذاب بسبب ما ارتكبتم من المعاصي.

٤٠- إنَّ الذين جحدوا آياتنا المسموعة والمشاهدة الدالَّة على الإيمان، وتَكَبَّروا عنها، فلم يعملوا بها، لا تَصْعَدُ أعمالهم الصالحة ولا أرواحهم إلى السماء، فالأبواب تجاهها مُغلقة، لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجَمَلُ في ثَقب الإبرة الصغيرة، وهذا أمر مستحيل. وبمثل هذا الجزاء نجزي أرباب الكفر والطغيان.

٤١- جزاؤهم في جهنم: من تحتهم فُرُشٌ من نار، ومن فوقهم أَغْطِيَةٌ من نار. ومثلَ ذلك الجزاء نُجازي المُعتدين المُتجاوِزين أحكام الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- مهمة الرسل البيانُ والإنذار، ومقصودهم غرس التقوى وبذر الإصلاح، وثمرة ذلك الأمن والسعادة في الدارين.

٢- عن البراء رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرَ قَبْضَ روح الفاجر، وأنَّه يُصْعَد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فلا يُفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾. (أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧-٢٨٨). وأصل الحديث عند النسائي في (المجتبى ٤/ ٧٨)، وابن ماجه في (سننه برقم١٥٤٩)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٣٧-٤٠). وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال البيهقي: هذا حديث صحيح الإسناد (شعب الإيمان ٢/ ٣١٦)، وصححه أيضاً القرطبي وابن القيم والألباني وغيرهم، وحسَّنه ابن تيمية (انظر رسالة صحة حديث البراء بن عازب... للدكتور عاصم القريوتي).

٣- سَجَّلَت الآيات ما يقع بين الكفار والظَّلَمَة من تلاعُنٍ، وتَنَصُّلٍ، وتوبيخ.

٤- تُفتح أبواب السماء للمؤمنين كرامةً لهم، واحتفاء بهم.

٥- إحاطة النار بالكفار من كل جانب، فهي فراشهم وغطاؤهم.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾

التفسير:

٤٢- والذين صَدَّقوا بالله تعالى، وأقَرُّوا له بالوحدانية، وعملوا الأعمال الصالحة تصديقاً لإيمانهم - لا نَشُقُّ على نفس بعبادةٍ إلا على قَدْرِ طاقتها - أولئك أصحاب المنزلة العالية أهل الجنة، هم فيها ماكثون أبداً.

٤٣- وأخرجنا الغِلَّ الذي في قلوبهم، تجري الأنهار في الجنة من تحت القصور والأشجار، وشكروا الله تعالى بقولهم: الثناء كلُّه لله تعالى الذي هدانا إلى الإسلام، وَرَفَعَنا إلى هذا المقام. ولولا هدايةُ الله تعالى وتوفيقُه لَمَا وَصَلْنا إلى هذه المنزلة. لقد صَدَّقْنا الرسلَ فيما أخبرونا من الوعد الحق. ونادتهم الملائكة تُبَشِّرهم، وتُهَنِّئهم: أنْ تلكم الجنة العالية التي مَلَكْتموها بأعمالكم الصالحة.

عن علي بن أبي طالب ﷺ: قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر:٧٣]، حتى إذا انتهوا إلى بابها، إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان، فعمدوا إلى إحداهما، فشربوا منها كأنما أُمِرُوا بها، فخرج ما في بطونهم من قذر أو أذى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى، فتوضَّؤوا منها كأنما أُمِرُوا به، فجَرَتْ عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبداً، ولن تَبْلَى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة، فتلَقَّتْهم

الوِلْدان كأنَّهم اللؤلؤ المكنون، فيقولون: أَبْشِرْ، أَعَدَّ الله لك كذا، وأعدَّ لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر، يتلألأ كأنَّه البرق، فلولا أنَّ الله قضى ألَّا يذهبَ بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه، فيقول: أَبْشِري قد قدم فلان بن فلان، فيُسَمِّيه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيته، أنت رأيته! فيستخِفُّها الفرحُ حتى تقوم، فتجلس على أُسْكُفَّة بابها، فيدخل فيتكئ على سريره، ويقرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] الآية.

(أخرجه ابن المبارك في (الزهد ص ٥٠٨-٥٠٩ برقم ١٤٥٠) وعبد الرزاق في (التفسير- سورة الزمر) والضياء المقدسي (المختارة ٢/ ١٦٠ برقم٥٤١). وقال محقق المختارة: إسناده صحيح. وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية المسندة (ل ١٩٨ أ-ب، رواية إسحاق في مسنده ، ثم قال: هذا حديث صحيح وحكمه حكم الرفع إذ لا مجال للرأي في هذه الأمور).

عن أبي سعيد الخُدْري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يُنادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشُبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأسوا أبداً» فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢، برقم ٢٨٣٧ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة...).

٤٤-٤٥- ونادى أهلُ الجنة أهلَ النار بعد أن استقرَّ كلٌّ من الفريقين في منزله: إنَّا قد وَجَدْنا الذي وَعَدَنا اللهُ تعالى على ألسنة رسله من النعيم المقيم حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم من العقاب؟ فأجاب أهل النار: نعم وَجَدْنا ذلك حقّاً. فنادى منادٍ بين الفريقين: أَنْ لعنةُ الله تعالى حَقَّتْ على الكافرين، الذين يمنعون الناس عن اتِّباع سبيل الله تعالى، والدخول في الإسلام، ويريدون أن تكون السبيل مضطربة بإثارة الشبهات والشكوك حتى لا يتبعها أحد، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مُكَذِّبون.

٤٦-٤٧- وبين أهل الجنة وأهل النار سور عظيم يقال له: الأعراف. وعلى هذا السور رجال، يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلاماتٍ خاصَّةٍ بكل فريق منهما. ونادى أهلُ الأعراف أهلَ الجنة يُحَيُّونهم: سلام عليكم. وهم لم يدخلوا الجنة بعدُ، ولكنَّهم يطمعون في دخولها. وإذا حُوِّلَتْ أبصارُهم تجاه أهل النار قالوا مُتَضَرِّعين: يا ربَّنا لا تَجْعَلْنا مع القوم المعتدين. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أصحاب الأعراف حيث قال الله تعالى، والأعراف: السُّور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، وهو الحجاب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. (الزهد برقم ٢٠٠، أخرجه الطبري من طريق منصور به، وذكره ابن كثير ثم قال: وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة عن جريج به. ثم قال: وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد عن عبد الله بن الحارث من قوله، وهذا أصح، وهكذا روى مجاهد والضحاك غير واحد).

٤٨- ونادى أهل الأعراف رجالاً من أهل النار، يعرفونهم بعلامة مميَّزة لهم، فقالوا مُوَبِّخين لهم: أيُّ شيء نَفَعَكم من جَمْعِكم الأجنادَ والأموالَ، واستكبارِكم عن الإيمان؟

٤٩- وأنكر الله تعالى أيضاً على أهل النار مُوَبِّخاً لهم: أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا، وتحلفون إنَّ الله لا يُدخلهم الجنة؟ ادخلوا الجنة يا أهلَ الأعراف، لا خوفٌ عليكم من العذاب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حطام الدنيا.

٥٠- يُخبرنا الله تعالى عن الحوار بين أهل الجنة وأهل النار، بعد أن استقر كلُّ فريقٍ في منزله، إذ ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة قائلين: أغِيثُونا بشيءٍ من الماء، أو ممَّا رزقكم الله من الشراب والطعام. فأجاب أهل الجنة: إنَّ الله تعالى حَرَّمَهما على الكافرين.

٥١- ومن صفتهم أنَّهم سَخِرُوا من دين الله، وجعلوه هُزْءاً ولَعِباً، وخَدَعَتْهم الحياة الدنيا، وما فيها من الشهوات. ففي هذا اليوم يومِ القيامة نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، وكَذَّبوا بآيات الله الواضحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجنة مع جَلالة قَدْرِها وعظيم نعيمها، طريقها سهلٌ يسيرٌ على مَنْ يَسَّره الله تعالى.

٢- سُنَّة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، فبعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين والعصاة، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين.

٣- رحمة الله بالعباد، فلا يُكَلِّفهم إلا بما يطيقون.

٤- بيان ما عليه أهل الجنة من مودَّةٍ، وأنهارٍ، وروضاتٍ، ونعيمٍ.

٥- الجنة خاليةٌ من المنغِّصات والمكدِّرات والهموم، زاخرةٌ بالنعيم.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٥٤) ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾

التفسير:

٥٢- وقسماً لقد جئنا الكفَّارَ بقرآنٍ عظيمٍ بَيَّناه على عِلْمٍ عظيم، هادياً إلى الرشد، ورحمة لقوم يصدِّقون بالله، ويُقِرُّون له بالوحدانية.

٥٣- ما ينتظر هؤلاء الكفَّار إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب، يومَ يتحقق الحساب من ثواب وعقاب. يقول الذين تركوا القرآن والعملَ به في الدنيا: قد جاءَتْنا الرسل بالأخبار الصادقة، وتَحَقَّقَ لنا صِدْقُهم، فلم نُصَدِّقْهم، فهل لنا اليوم من شفيعٍ يُخَلِّصنا من هذا العذاب؟ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعملَ صالحاً؟ قد خسروا أنفسهم حين اقتصروا على شهوات الدنيا، وتركوا نعيم الآخرة، وبَطَلَ عنهم ما كانوا يزعمونه من الأوثان.

٥٤- إنَّ خالِقَكم ومعبودَكم - أيها الناس - هو الله وحده الذي أنشأ السموات السبع والأرَضين السبع في ستة أيام، ثم ارتفع سبحانه على العرش العظيم الذي يسع السموات والأرض وما بينهما - كما يليق بجلاله وعظمته - يُغَطِّي الليل على النهار، فيُذْهِبُ بضوئه، ويطلبه سريعاً، وكذلك النهار، فكلما جاء الليل ذهب النهار، وكلَّما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا إلى يوم القيامة. وخلق سبحانه الشمس والقمر والنجوم بكثرتها وعظمتها، كلُّهنَّ مُسَيَّرات بأمره سبحانه. ألا له سبحانه مُلْكُ المخلوقات كلِّها، وله الأمر كلُّه، تُعَظَّم المعبود بحق، خالق الخلق أجمعين.

٥٥-٥٦- ادْعُوا - أيها المؤمنون - خالقَكم مُتَذَلِّلين بإلحاح سِرّاً؛ فإنَّه سبحانه يحبُّكم، ولا يحب المُتجاوزين حدودَه في الدعاء وغيره، ولا تُفسِدُوا في الأرض بالشرك والمعاصي، بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وادعوه سبحانه خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه. إنَّ رحمة الله الواسعة قريبة من المُطيعين الذين يُكثرون من الإحسان.

٥٧- يُخبر الله تعالى عن فضله في إحياء الأرض الميتة؛ للاستدلال بها على البعث، فهو الذي يُرسل الرياح المُبشِّرة بالمطر، حتى إذا حملت الرياح سحاباً مُثقلاً بالماء، سُقناه إلى أرضٍ مُجْدِبَةٍ لا نباتَ فيها، فأنزلنا - لِما لنا من العظمة الشاملة والقدرة الكاملة - بهذا السحابِ المطرَ، فأنبتنا به من كلِّ أنواع الثمرات. ومثلَ إخراج الثمرات من الأرض المجدبة نُخْرِجُ الموتى أحياء من القبور يوم البعث؛ لكي تَتَذَكَّرُوا قدرة الله تعالى، وتؤمنوا بالبعث.

٥٨- والبلد الطيب التربة يَخْرُجُ نباته حسناً نافعاً بمشيئة الله تعالى، والبلد الخبيث التربة لا يخرج نباته إلا رديئاً وبمشقة، كذلك المؤمن طيِّب، وعمله طيِّب، كالأرض الطيِّبة ثمرُها طيِّب، والكافر خبيث، وعملُه خبيث، كالأرض الخبيثة لا يُنتفع من ثمرها. مثلَ ذلك البيان العظيم نُبَيِّنُ الآيات الدالَّة على عظمة قدرة الله تعالى، لقوم يشكرون الله بالقول والعمل.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكون كلُّه لله يُصَرِّفه ويدبره بنظام محكم دقيق، ونواميس ثابتة مُطَّردة، وهذا يدعو إلى العمل بشرعه، والامتثال لأمره الذي ينظم شؤون الحياة ويسيرها.

٢- الاستواء على العرش صفةٌ من صفات العظمة والجلال والكمال، وهو معلوم بلا تكييف، ولا تعطيل ولا تشبيه، قال نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الخُزَاعِيُّ شَيْخُ البُخارِيِّ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الآثَارُ الصَّرِيحَةُ وَالأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الوَجْهِ الذِي يَلِيقُ بِجَلالِهِ، ونَفَى عَن الله النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبيلَ الهُدَى. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩).

٣- قال ابن عاشور: «البَعدية في قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعديةٌ حقيقيةٌ؛ لأنَّ الأرضَ خُلِقَتْ من أوَّل أمرها على صلاح قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١٠] على نظام صالح بما تحتوي عليه.. والتصريح بالبَعْدِيَّة هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنَّه إفساد لما هو حسن ونافع، معذرة لفاعله، ولا مساغَ لفِعْلِه عند أهل الأرض». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٤).

٤- قال الطِّيبي: ذكر ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ بعد ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ من باب الترقِّي لأنَّ مَنْ تَذَكَّر آلاء الله تعالى عَرَفَ حق النعمة، فشكر. وهذا - كما قال غير واحد - مثل لِـمَنْ ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلَّفين، ولِـمَنْ لا يؤثر فيه شيء من ذلك. (يُنظر: روح المعاني للألوسي ٨/ ١٤٨).

٥- تَحَرِّي الأدب في الدعاء، والنهي عن الاعتداء بشتى صوره.

٦- ما وقع على الأرض من فسادٍ أمرٌ طارئ عليها، شاذٌّ عن طبيعتها، ولقد نهى الله البشرية عن الإفساد فيها.

٧- تقوية الرجاء بالله تعالى، واليقين في رحمته وعطائه، مع الجمع بين الخوف والرجاء.

٨- الاستشهاد على الغائب بالحاضر الملموس، وعلى الأمور العقلية بالأمور الحسية.

٩- التربة الطيبة والجوُّ الطيب لا يُنْبِتُ ولا يُثمر إلا طيباً، كما أنَّ الخبيث لا يأتي بخير، وهذه دعوةٌ لإصلاح البيئة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

التفسير:

٥٩- حقّاً لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فناداهم باستعطاف: يا قومِ اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبودَ لكم غيره سبحانه. إني أخاف عليكم بسبب الشِّرك عذاباً أليماً، في يوم شديد الهول في الدنيا أو الآخرة.

٦٠- أجاب الجهلة من أشراف القوم مستكبرين: إنَّا نعتقد - يا نوح - أنَّك على خطأ ظاهر، وانحراف عن الحق.

٦١-٦٣- أجابهم مُتَلَطِّفاً لهم: يا قومِ ليس بي ما تَظُنُّون، ولكني رسول إليكم بما أَمَرْتُكم من خالق العالمين، أُبَلِّغُكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إلى الله تعالى، وأرشدكم إلى سعادة الدارين، وأعلم ممَّا عَلَّمني الله تعالى ما لا تعلمونه، كيف تكذبون، وتعجبون إن أتاكم وَحْيٌ من ربكم على لسان رجلٍ منكم؛ ليُخَوِّفكم من عذاب الله تعالى، ولتتقوا ربَّكم بطاعته، ولكي تَحْظَوا برحمته من النعيم المُقيم؟

٦٤- فتمادى أكثر القوم بتكذيبه، فاستحقوا العذاب، فأنجاه الله تعالى هو ومَنْ آمن معه من الطوفان، وأغرق سبحانه المُكذِّبين بما جاءهم نوح من الآيات طوال مدة إقامتِه معهم. إنَّهم كانوا قوماً عُمْيَ البصائر والقلوب عن الهدى.

٦٥- وأرسَلْنا إلى قومِ عادٍ أخاهم هوداً عليه السلام في مدينة الأحقاف بحضرموت، فناداهم مُتَوَدِّداً إليهم بقرابة النسب: يا قومِ اعبدوا الله وحده، فليس لكم مِنْ إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، أفلا تخافون عذاب الله؟

٦٦- أجاب أشراف القوم المُكَذِّبين مستكبرين: إنَّا لَنعتقدُ يا هود أنَّ فيك حُمْقاً وسخافة عقل، وأنَّك من الكاذبين في ادِّعاء الرسالة!

٦٧- فرَدَّهم بأدبٍ ورِفْقٍ: يا قومِ ليس بي ما تَظُنُّون، ولكني رسول الله إليكم بما أَمَرْتُكم به من خالق الإنس والجن.

٦٨-٦٩- أُبَلِّغُكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إليه، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمينٌ على ذلك لا أكذب فيه. هل كَذَّبْتُم وتَعَجَّبتم أن أتاكم موعظة من ربِّكم على لسان رجل منكم؛ ليُخَوِّفكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة؟ وتَذَكَّروا نعمة الله عليكم حين استخلفكم الله في الأرض بعد إهلاك المُكذِّبين من قوم نوح عليه السلام، وزادكم على مَنْ قبلكم قوةً وضخامة في أجسامكم، فاذكروا نِعَمَ الله عليكم كي تفوزوا برضوان الله تعالى.

٧٠- فرَدُّوا عليه بتحَدٍّ وتكبُّرٍ، قالوا: يا هود أجئتنا كي نعبد الله وحده، ونترك الأوثان التي وَرِثْنا عبادتها عن آبائنا وأجدادنا؟ فآتِنا عاجلاً بالذي تُخَوِّفنا به، إن كنت من الصادقين في قولك.

٧١- فأنكر هود عليه السلام استكبارهم وضلالهم مُرَهِّباً وزاجراً لهم: قد حان أن يقع عليكم من ربكم عذاب شديد، وسخط مُخيف، أتُحاجُّونني في أوثان سَمَّيتموها آلهة أنتم وآباؤكم وأجدادكم؟ ما نَزَّل الله تعالى بعبادتها من حُجَّة، فانتظروا نزول العقاب، إني معكم من المُنتظرين لما يحلُّ بكم.

٧٢- فأنجينا هوداً عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين برحمة عظيمة منَّا، ودَمَّرْنا، واستأصَلْنا الكفَّار المُكذِّبين بالبراهين التي جاء بها هود عليه السلام، وأصَرُّوا على كُفْرِهم، وكان عقابُهم وهلاكهم بريح باردة شديدة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القصص القرآني تثبيت للنبي ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين.

٢- الصراع بين الحق والباطل، بين جَحافل الكفر وجموع الإيمان، سنةٌ من سنن الله تعالى في الماضين.

٣- جواب نوح عليه السلام على قومه ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ لأنَّ الضلالة أخصُّ من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كما لو قيل: ألك ثمر؟ فقلت: ما لي ثمرة، فقد بالغ في النفي، كما بالغوا في الإثبات. (انظر: السراج المنير ١/ ٣٨٣).

٤- قال ابن عاشور: «اقتران جملة جواب القسم بـ﴿قَدْ﴾ لأنَّ القسم يُهَيِّئ نفس السامع؛ لتَوَقُّعِ خبر مُهِمٍّ، فيُؤْتى بـ ﴿قَدْ﴾، لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمر متوقَّع». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٤٤).

٥- وقال أيضاً: «قدَّم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أنَّ مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلاً لمسرة السامعين من المؤمنين».
(التحرير والتنوير: ٨/ ١٥٢).

٦- سَعْيُ الملأ وهم الأعيان أصحاب الجاه والسلطان والكلمة، إلى الحيلولة بين دعوة الله التي يرونها تقف في وجه أطماعهم وأهوائهم وبين عوامِّ الناس حتى لا تَصِلَهم. فإذا أخفقوا في حَجْبِها قاموا باضطهادهم، وملاحقتهم.

٧- قال الزمخشري: «وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مَنْ نَسَبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحِلْمِ والإغضاء، وتَرْكِ المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنَّ خُصومَهم أضَلُّ الناس وأسْفَهُهم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ﷻ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يَغُضُّون عنهم، ويَسْبِلُون أذيالَهم على ما يكون منهم؟». (الكشاف ٢/ ١١٠).

٨- التعبير بالفعل المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ يَدُلُّ على تَجَدُّد البلاغ واستمراره مادام فيهم، والاسمية في ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ لبيان كونه مقيماً على نُصْحِه أميناً لهم، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ لبيان اعتنائه بهم.

٩- في الآية (٧٢) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٣- وأرسل الله تعالى إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً عليه السلام - وكانت تسكن الحِجْر شمال المدينة المنورة- فقال لهم مُتَلَطِّفاً: يا قومِ اعبدوا الله وحده، فليس لكم من إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، قد جاءتكم معجزة جلية من ربكم. هذه ناقة الله تعالى لكم جعلها آية وموعظة لِـمَنْ شاهدها وسمع بها، اتركوها ترعى في أرض الله تعالى، ولا تَتَعَرَّضوا لها بشيء من الأذى، فيأخذَكم عقاب موجع.

٧٤- وتَذَكَّروا فَضْلَ الله تعالى عليكم حين جعلكم خلفاء في الأرض، تتمتعون بخيراتها من بعد قبيلة عاد، وجعل لكم فيها مساكن - في أرض حَجَرِيَّة - تَبْنُون في سهولها قصوراً فخمة، وتنحتون من الجبال بيوتاً صالحة للسكن، فتَذَكَّرُوا نِعَمَ الله تعالى، ولا تَسْعَوا للإفساد في البلاد والعباد.

٧٥- فقال المُتكبِّرون من أشراف قوم صالح للمؤمنين المُستضعفين، مُنْكِرِين عليهم، ساخرين بهم: هل تعلمون أنَّ صالحاً قد أرسله الله إلينا حقّاً؟ قال المؤمنون بيقين وعِزَّة: إنَّا مُصَدِّقون يقيناً برسالة صالح عليه السلام.

٧٦- فرَدَّ الجهلة من المُستكبرين: إنَّا بالذي آمنتم به مُكَذِّبون.

٧٧- وتجرَّؤوا، فنحروا الناقة، واستكبروا عن اتباع أمر ربهم، وقالوا باستعلاء: يا صالح ائتنا بما تُخَوِّفُنا به من العقاب، إن كنت حقّاً من المرسلين.

٧٨- فجاءتهم الصيحة بعد ثلاثة أيام، وقد أحدثَتْ زلزلة شديدة، فأَخَذَتْهم، فصاروا في مساكنهم جثثاً هامدة.

٧٩- فأعرض عنهم صالح عليه السلام بعد هلاكهم، ومشاهدةِ ما جرى عليهم، وقال لهم على سبيل التفجُّع عليهم، والموعظة لغيرهم: واللهِ لقد أبلغتُكم ما أمرني ربي به، وَبَذَلْتُ لكم نصحي، لكن شأنكم هو الاستمرار على كُرْهِ الناصحين لكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «أكَّدَتْ جملة ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾، وزادت على التأكيد إفادةُ ما اقتضاه قوله: ﴿لَكُمْ﴾ من التخصيص وتثبيت أنَّها آية، وذلك معنى اللام، أي: هي آية مُقْنِعَةٌ لكم، ومجعولة لأجلكم». (التحرير والتنوير: ٨/ ١٦٨).

٢- معجزات الأنبياء من جنس ما برع فيه أقوامهم، فقوم صالح أتقنوا نَحْتَ الصخور، وبَزُّوا فيه غيرهم، فكانت الآية ناقة عظيمة تَنْشَقُّ عنها الصخر، لكنها تنبض بالحياة.

٣- من سمات منهج الأنبياء مع أقوامهم الرفق والتدرج والبلاغة الوافية.

٤- قال أبو السعود في الآية (٧٥): «عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي يُنبئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيهاً على أنَّ أَمْرَ إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنَّما الحقيقُ بالسؤال عنه هو الإيمان به». (تفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٣).

٥- التَّجانُسُ بين الجريمة والعقاب: فثمودُ لمَّا استكبروا وعَتَوا أذلَّهم الله بصيحةٍ واحدة، فخَرُّوا صرعى هلكى أذِلَّاءَ صاغرين، فإذا بتلك الأجسام العملاقة تصير جثثاً هامدة.

٦- حرص الأنبياء على أقوامهم، وإشفاقهم عليهم، وتَرَفُّقِهم، مع ما يظهره القوم من فظاظة وقسوة.

٧- وحدة مناهج الأنبياء وأساليبهم في الدعوة إلى الله تعالى.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- يُذَكِّر الله تعالى بقصة لوط - وهو ابن أخي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام - حين قال لقومه مُوبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم فاحشتَهم: أتفعلون الجريمة الشنيعة المتناهية في القُبْحِ والفحش؟ وهي إتيان الذُّكور في الأدبار، ثم وبَّخهم بأنَّهم أوَّلُ مَنِ ارتكب هذه الجريمة من الإنس والجن.

٨١- ثمَّ بَيَّن بشاعة هذه الجريمة قائلاً لهم: إنَّكم تَغْشَون الرجال في أدبارهم من أجل نَزْوَةٍ شيطانية، وتتركون ما أحَلَّه الله لكم من النساء، بل أنتم مُتمادُون في مجاوزة حدود الله تعالى.

٨٢- لكنهم أصَرُّوا على جريمتهم الشنيعة، ورَدُّوا على نبيِّهم لوط ﷺ بتهكم واستهزاء، إذ قالوا: أَخْرِجوا لوطاً وأتباعه من المؤمنين من بَلَدِكم، إنَّهم أناس يَتَرَفَّعُون عمَّا نفعله!

٨٣-٨٤- وعندما قَرَّرْنا عقابهم بسوء الجزاء أنجينا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - لوطاً وأهله من العقاب إلا امرأته كانت من الباقين مع قومها في مكان العذاب؛ لأنَّها كانت كافرة، وأمطرنا عليهم مطراً عظيماً، حجارة من طين. فانظر كيف كان مصير المجرمين؟

٨٥- وأرسَلْنا إلى قبيلة مدينَ أخاهم شُعيباً ﷺ فقال لهم مُستعطِفاً: يا قومِ اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إلهٍ يستحق العبادة غيره سبحانه، قد جاءتكم حُجَّةٌ واضحة مِنْ خالقِكم تَدُلُّ على صدق ما

أدعوكم إليه، فأَتِمُّوا حَقَّ الكيل والميزان، ولا تُنقِصُوا الناس حقوقهم، ولا تُفْسِدُوا في الأرض بالمعاصي بعد إصلاح أهلها بدعوة الرسل. ذلكم الأمر العظيم الذي أدعوكم إليه خير لكم في الدارين، إن كنتم مُصَدِّقين بوحدانية الله وبرسالتي.

٨٦- ولا تجلسوا بكل طريقٍ تُخَوِّفون مَنْ آمن بالقتل، وتمنعون المؤمنين من الإيمان بالله، وتُكَذِّبون نبيَّ الله شعيباً ﷺ، وتُثيرون الشُبهاتِ والشكوكَ؛ لتنفير الناس من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، واذكروا فَضْلَ الله تعالى عليكم حين كنتم قليلي العدد، فكثَّر جَمْعَكم بالنَّسْل، واتَّعِظوا بعقاب الأُمم السابقة التي كَذَّبت المرسلين.

٨٧- وإن كان فريقٌ منكم صَدَّقوني فيما جِئتهم به، وفريق لم يُصَدِّقوني، فاصبروا حتى يفصل الله تعالى بيننا، وهو خير مَنْ يفصل، وأعدل مَنْ يحكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قصة لوط وشعيب عليهم السلام بيان للرباط الوثيق بين الإيمان والقيم، بين العقيدة والسلوك، بين الدين والحياة؛ فرسالة الله جاءت لإصلاح البشر وتنظيم شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية.

٢- التعبير بالفاحشة لقُبْحِها واستهجانِها، وكونها من أفحش الكبائر وأشنع الذنوب؛ إذ هي خروجٌ عن الفطرةِ ومجافاةٌ للطبيعةِ، وشذوذٌ وانحرافٌ، مع ما فيها من إفسادٍ وأضرار، ونَعَى عليهم كونَهم أولَ من ابتدعها.

٣- منطقُ أهلِ الكفرِ والضلالِ في كل زمان ومكان منطق باطل، فقد انتكست فطرتهم.

٤- الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة.

٥- المعاملات المالية إذا تجرَّدَتْ من القيم والأخلاق، وتَفَلَّتَتْ من ضوابط التشريع، كانت مضماراً للمطامع، وميداناً للجشع، ومثاراً للغِشِّ والتدليس، وغير ذلك من صور الفساد والفوضى.

٦- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الإشارة للجمع في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ لبيان عموم هذا الخير لهم وشموله، فلا يقتصر على فئة دون فئة، وهكذا شرع الله تعالى يحقق المصلحة للجميع. وتنكير ﴿خَيْرٌ﴾ للتعميم والتعظيم والتكثير، وتقييده بالإيمان لأنه حافزُه وداعِيه، وليعُمَّ خيري الدنيا والآخرة.

٧- تذكير المدعُوِّين بنِعَم الله عليهم العامة والخاصة مِمَّا يُؤَلِّفُ القلوبَ، ويُرَقِّقُها ويُحَبِّبُها إلى المُنْعِمِ جلَّ وعلا.

٨- يضيق المفسدون في الأرض ذَرْعاً بمَنْ يُعارِضُ نَزَواتهم.

٩- الرِّضا بفِعْل الآخرين للمنكر، وإعانتهم على تعاطيه، سببٌ لاستحقاق العذاب.

١٠ - قد يُعَجِّل الله عقوبته للمفسدين في الأرض، وقد يُؤَخِّرها إلى يوم الدين.

١١ - في قصص القرآن دروس للدعاة بأنَّ نَصْرَ الله قريب.

١٢ - قول شعيب ﷺ ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾. قال أبو حيان: «هذا الكلام من أحسن ما تَلَطَّف به في المحاورة، إذ أبرز (المتحقق) في صورة (المشكوك) وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار». (البحر المحيط ٤/ ٣٣٧).

١٣ - ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التفسير:

٨٨- قال الأعيان المستكبرون من أصحاب الجاه والسلطان من قوم شعيب، رَدّاً على نصحه لهم: والله لَنُخرِجَنَّك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا؛ بُغضاً لكم، ودَفْعاً لفتنتكم المترتبة على السَّكَنِ معنا ومجاورتنا، أو لَتَرجِعُنَّ إلى ديننا وتقاليدنا التي لن نتركَها. فعليك - يا شعيب - أنت ومَنْ معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين: الإخراج من قريتنا، أو العودة إلى مِلَّتنا، وهذا هو الهدف الأعظم لهم، حيث إنَّ المستكبرين يَهُمُّهم في المقام الأول أن يعود مَنْ فارق مِلَّتَهم إليها ثانية. ولكن شعيباً ﷺ رَدَّ عليهم، متعجباً من أسلوبهم بقوله: أَتُجْبِرُوننا على العودة إلى مِلَّتِكم، حتى ولو كنا كارهين لها، لاعتقادنا أنَّها باطلة وقبيحة، ومنافية للعقول السليمة، والأخلاق المستقيمة؟

٨٩- ثم صارحهم برَفْضِه التامِّ لما يتوهَّمُونه من العودة إلى دينهم، بأنَّه افتراء على الله تعالى الذي نَجَّانا بهدايتنا إلى الدين الحقِّ، وعَصَمَنا عن الإشراك به سبحانه، ولا يَصِحُّ لنا أن نعود في مِلَّتِكم الباطلة، ولكنه

مع ثقته في ذلك يُفَوِّضُ الأمر إلى الله تَأَدُّباً معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يترك الأمر لله، ففي عِلْمِه سبحانه ما يخفى على البشر، ممَّا تقتضيه حكمته وإرادته. فهو سبحانه وَسِعَ كل شيء علماً.

ثم يُعلن شعيب عليه السلام عَجْزَه في مواجهته لأولئك المستكبرين بأنَّه مُتَوَكِّلٌ على الله، وأنَّه محتاج إليه، وأنَّه لا يعتمد إلا على الله وحده، فيتوجَّه إليه بالدعاء أن ينصر المظلومَ وصاحبَ الحق على الظالم المعاند للحق، فهو خير الفاتحين يفتح على عباده، فيُبيِّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويفتح بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

٩٠- وهنا يئس قوم شعيب من استمالته واستمالة أتباعه إلى ملتهم، فمَضَوا يحذرون، ويُنَفِّرون الناس من اتباع ما جاء به، والسير في طريق دعوته، بدعوى ما في ذلك من خسارة وتضييعٍ لأمجادهم، ومكاسبهم المادية.

٩١- ثم جاءت نهاية المعاندين المشركين المشككين، الذين يَصُدُّون عن سبيل الله، بأن أَخَذَتْهم الزلزلة الشديدة، فأصبحوا في دارهم هامدين صرعى لا حَراك بهم، ووقع بهم هذا العذاب الذي حَذَّرهم فيه نبيُّهم عليه الصلاة والسلام.

٩٢- ثم يُعَقِّب القرآن على مصرعهم بأنَّ الذين كَذَّبُوا شعيباً وهَدَّدوه وأتباعه، كأنَّهم عندما جاءتهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم، في ظِلِّ العيش الرغيد، بل هلكوا وحُرِمُوا من قريتهم، حتى لكأنَّهم لم يقيموا بها، فالخسران لم يَكُنْ من نصيب مَنِ اتَّبع شعيباً، وإنَّما كان من نصيب الذين خالفوه وكَذَّبوه.

٩٣- وهنا تُطوى صفحتهم بأن أعرض عنهم شعيب، بعدَ أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب، وقال مؤنِّباً لهم: يا قوم لقد أَبْلَغْتُكُمْ رسالاتِ رَبِّي التي أرسلني بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ، ونَصَحْتُ لكم بما فيه إصلاحُكم وهدايتكم، فكيف أحزن على قوم كافرين بَذَلْتُ جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، ولكنهم كرهوا النصح، واستحَبُّوا العمى على الهدى؟

الفوائد والاستنباطات:

١- من سنن الله تعالى التي لابُدَّ للدعاة أن يتفَطَّنوا لها: أن الظَّلَمة والمتكبرين يجادلون بالباطل، حتى إذا أعياهم الجدال وأُفْحِمُوا بالحُجَج، فزعوا إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم، أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

٢- لا يَصِحُّ من أهل الحق - بعد أن عَرَفُوه ودعَوا إليه - أن يتنكَّروا، ويقبلوا الباطل.

٣- يُسْتَحَبُّ رَدُّ المشيئة لله في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً.

٤- إنَّ العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد، فالحذر قائم، والخوف لازم.

٥- وجوب التوكل على الله عند تهديد العدو وتخويفه، والمضيِّ في سبيل الحق.

٦- أهمية الدعاء في حياة الدعاة، وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل.

٧- في رَدِّ شعيب ﷺ تمثيل لأسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، فهو يَرُدُّ على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما يبغون، والبغض السافر لما يريدونه منه، ثم يَكِلُ الأمور كلها إلى الله، مُظْهِراً الاعتماد عليه وحده، ثم يتجه إليه سبحانه بالدعاء متلمساً منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذي مَضَتْ به سُنَّته.

٨- أهمية الانتباه إلى تشويه أهل الباطل للحق، وصَرْفِ الناس عنه بالاتهامات، وإثارة الشبهات.

٩- نهاية الظلم والطغيان الدمارُ، والخسران في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- جَرَتْ سُنَّتنا أنَّه ما أرسلنا في قرية من نبيٍّ، فكَذَّبه أهلُها إلا أنزَلْنا بهم قبل إهلاكهم ألواناً من الشدائد والمصائب، لعلهم ينقادون لأمرنا، ويثوبون إلى رشدهم، ويُكْثِرُون من التضرع إلينا.

٩٥- بعد أن ابتلَينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رَفَعْنا ذلك عنهم، وأعطيناهم بدل المصائب نِعماً، فإذا هم في رخاء ويسر وعافية وأمن حتى كَثُرُوا ونَمَوا في أنفسهم وأموالهم. فما كان منهم إلا الغفلة والإعراض، حتى قالوا: قد مَسَّ آباءَنا من قبلنا ما يَسُوء وما يَسُرُّ، وما ينفع وما يضر، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم، فكان عاقبة هؤلاء أن أخذهم الله بالعذاب فجأة، من غير شعور منهم بذلك، ولا خَطَرَ شيء من المكاره ببالهم.

٩٦- ولو أنَّ أهل تلك القرى المهلكة صَدَّقُوا بما جاء به الرسل، واجتنبوا ما حَرَّمه الله عليهم، لَوَسَّعنا عليهم الرزق، ولَعاشوا حياتهم عيشة رغيدة، ولكنَّهم لم يُؤْمنوا ولم يتقوا، بل كذَّبوا الرسل الذين جاؤوا لهدايتهم، فكانت عاقبة تكذيبهم العقوبة؛ بسبب جحودهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ما يُؤاخِذُ الله به الغافلين من الشدائد والمِحَنِ إنَّما هو من أجل أن تَرِقَّ القلوب القاسية، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه البشر إلى خالقهم، فيتضَرَّعون إليه، ويستغفرونه.

٢- يُمهل الله تعالى الظالمين، ولا يُهْمِلُهم. حتى إذا أعلنوا تَبَجُّحَهم وظلمهم عَمَّهم الله بالعذاب، وهم غير متوقعين له.

٣- من سُنَّتِه سبحانه فَتْحُ أبواب رحمته للمحسنين، وإنزال نقمه على المكذِّبين الضالين بما كانوا يعملونه.

٤- في الآية (٩٦) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان أهمية الإيمان والتقوى لفَتْحِ البركات من السماء والأرض.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

التفسير:

٩٧- أَبَعْدَ ذلك الأخْذِ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم عذابنا في الوقت الذي يكونون فيه غافلين، وهو حال النوم بالليل؟

٩٨- أو يَأْتِيَهُمْ عقابنا في حال الضحى بالنهار؛ لأنَّه الوقت الذي يغلب عليهم التشاغل فيه باللذات.

٩٩- أفأَمِنُوا مَكْرَ الله وتدبيره الخفي الذي لا يعلمه البشر، فغفلوا عن قدرة الله على إنزال العذاب بهم ليلاً أو ضَحْوة؟ فإن كانوا كذلك فهم القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم، ولم يستفيدوا شيئاً من أنواع العبر والعظات التي بَثَّها الله في أنحاء هذا الكون.

١٠٠- أولم يتبيَّنْ لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التي وَرِثُوها بعد أهلها المُهْلَكين، أنَّ في قدرتنا إنزال العذاب بهم؛ بسبب ذنوبهم، كما أنزلناه بأولئك المُهْلَكين، فنختم على قلوبهم، فلا يسمعون الحِكَم والنصائح سماعَ فَهْمٍ وتَفَقُّهٍ وتَدَبُّر.

١٠١- تلك القرى - أيها الرسول - نَقُصُّ عليك من أخبارها العظيمة، ولقد جاءتهم رسلهم بالآيات الباهرة والحُجَجِ النيِّرة، فما كانوا ليؤمنوا؛ بسبب بقائهم على التكذيب وإصرارهم عليه. ومثلَ ذلك الطبع يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين يأتون من بعدهم، ويفعلون فِعْلَهم.

١٠٢- ولقد تَحَقَّق ما سبق في عِلْمنا أنَّ كثيراً منهم لا يُوفون بالعهد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، بل حالُ أكثرِهم خروجٌ عن طاعة الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- حُرْمة الغفلة، ووجوب الذكر واليقظة.

٢- تحذير الآمنين من مَكْر الله، سوءَ العاقبة.

٣- وجوب الاعتبار بما أصاب الأولين، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم.

٤- لا يريد الله أن يعيش الناس قلقين، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار؛ لأنَّ القلق الدائم من المستقبل، يَشُلُّ طاقة البشر، ويمنعهم من العمل والإنتاج، وإنَّما الذي يريده الله منهم أن يتعظوا بآيات الله في كونه، وأن يبتغوا فيما آتاهم الله مِنْ فَضْلِه الدار الآخرة، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، وألَّا يَغْتَرُّوا برخاء الحياة؛ كي لا يقودَهم ذلك إلى الفساد والطغيان.

٥- الله سبحانه هو الذي يُورث الأرض، ويُنْعِمُ بأنواع النعم، ويُمهل حين يذنب العباد، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن من طُبِع على قلبه حتى أصبح لا يتأثر بما يسمع ولا يعقل ما يرى، فإنَّه بهذا يستحق العقوبة.

٦- في الآية (١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في عقاب الناس الذين يَرِثُون الأرض من أهلها الفاسقين.

٧- تقرير الوحي الإلهي، وإثبات نبوة محمد ﷺ؛ لأنَّ ما قُصَّ من أنباء الأولين لا يُتَلَقَّى إلا بوَحْيٍ إلهي.

٨- وجود البينات مهما كان قوياً واضحاً غير كافٍ في إيمان مَنْ لم يشأ الله هدايته.

٩- الطبع على قلوب الكافرين سببُه اختيارهم للكفر والفساد، وإصرارهم على ذلك.

١٠- خَطَرُ نَقْضِ العهد مع الله تعالى.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

التفسير:

عاد الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، فتحدَّثَتِ الآيات عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ومع بني إسرائيل.

١٠٣ - ثم بعث الله تعالى موسى بعد أولئك الرسل بالآيات التي تدلُّ على صِدْقه فيما يُبَلِّغه عن ربه إلى فرعون، وأشراف قومه، ووجهاء دولته، فتَلَقَّى فرعون ومَلَؤُه دعوةَ موسى بالكفر بها تَكَبُّراً وجحوداً، فظلموا أنفسهم بسببها، إذ عَرَّضوها للعقاب المهين، وظلموا الناس بصَدِّهم عن الإيمان بهذه الآيات، فانظر كيف كانت عاقبة فرعونَ ومَلَئِه الذين أَفْسدوا في الأرض؟

١٠٤ - وقال مُوسى لفرعون في يقين وثبات: إني مُرْسَلٌ إليك من خالق العوالم كلها.

١٠٥ - بمقتضى هذه الرسالة واجبٌ وحقٌّ عليَّ أَلَّا أُخبرَ عنه تعالى إلا بما هو حق وصدق، فقد جئتك أنت ومَلأَك بحُجَّةٍ قاطعة من الله أعطانِيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، فأَطْلِقْ بني إسرائيل مِنْ أَسْرِك، ودَعْهم ليؤمنوا معي بربهم، ويخرجوا أحراراً من تحت قهرك؛ ليذهبوا معي إلى دارٍ غير دارك.

١٠٦ - فكان ردُّ فرعون لموسى أن قال له: إنْ كُنْتَ جِئْتَ بمعجزة تشهد بصدقك من عند مَنْ أرسلك كما تَدَّعي، فأَحْضِرْها عندي؛ ليثبت بها صدقُك في دعواك أَنَّك من الملتزمين بقول الحق. وهذا من باب التحدِّي والاستخفاف، وليس من باب إرادة معرفة الحق، والتثبُّت منه.

١٠٧ - فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان ظاهر بَيِّنٌ، يسعى في خفةٍ وسرعة كأنَّه جانٌّ.

١٠٨ - ثم أتبع موسى عليه السلام ذلك بمعجزة أخرى تُؤَكِّد صدقه، فأخرج يده من دِرْعِه بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاءُ بياضاً عجيباً من غير أن يكون بها عِلَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان سوء عاقبة المفسدين بالشرك والظلم والمعاصي.

٢ - رِفْقُ الأنبياء، وتَلَطُّفُهم في تبليغ الدعوة.

٣- تقرير مبدأ الصدق لدى الرسل عليهم السلام.

٤- رَفْعُ الظلم عن المظلومين من أهم مراحل الدعوة؛ لتنجح الدعوات.

٥- إقامة الله تعالى الحجة على عباده بأنواع كثيرة من الآيات، ومنها المعجزات التي يُجريها الله على يد أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠٩- هنا جاء دور البطانة السيئة لفرعون، من أصحاب الجاه والغنى والمصالح في دولته، فقد غاظهم ما جاء به موسى، فأشاعوا أنَّه ساحر ماهر في علم السحر.

١١٠- ولم يكتفوا بهذا القول الباطل، بل أخذوا يُهَيِّجُون فرعون والناس على موسى، ويُهَوِّلون لهم الأمر؛ ليقفوا في وجهه، فاتَّهموه بأنَّه يريد أن يسلب منه الملك. ففزع إليهم فرعون طالباً المشورة لاتقاء هذا الخطر الداهم.

١١١-١١٢- فأشاروا إليه: أن أَخِّرْ أمْرَه وأمْرَ أخيه، ولا تتعَجَّلْ بالقضاء في شأنهما، حيث إن فرعون من شدةِ فَزَعِه أراد أن يقتل موسى وأخاه، وطلبوا إليه: أن أرسِلْ في مدائن ملكك مَنْ يجمعون إليك السحرة المهرة؛ لكي يقفوا في وجه هذا الساحر العليم، ويكشفوا عن سحره، ويُبْطِلُوه بسحر مثله، بل هو أشدُّ في ظنهم.

١١٣- واجتمع السحرة المهرة، وأقبلوا على فرعون، يبحثون عن مطامعهم، وقالوا له: أإنَّ لنا لأجراً عظيماً إن كانت لنا الغَلَبَةُ على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولاً من جزالة الأجر.

١١٤- وهنا يجيبهم فرعون جواب العاجز الذي يريد أن يتخَلَّص من عَدُوِّه بأيِّ ثمن: نعم لكم أَجْرٌ جزيل إذا انتصرتم عليه، إضافةً إلى كونكم من المحظوظين بقُرْبي وجواري، فأغراهم بالأجر المادي، ووعدهم بقرب منزلتهم من سلطانه؛ حفزاً وإغراءً لهم، مؤكِّداً لهم ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- من أسباب الصدود عن الحق ومعاداة دعاته: الحرص على الرئاسة والمال والجاه، والهروب من تكاليف الشرع، كما هي عادة الظلمة والطغاة في كل زمان.

٢- مكر الملأ وخبثهم؛ إذ اتهموا موسى بأنّه يريد المُلك، وهو كَذِبٌ محض، وإنَّما يريد إخراج بني إسرائيل من مصر، فقد طال استعبادهم وامتهانهم من قِبَلِ الأقباط، وهم أبناء الأنبياء، وأحفاد أنبياء الله إسرائيل وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

٣- فَضْحُ أَمْرِ فرعون، فقد نسي دعوى الربوبية، فاستشار الملأ في شأنه، إذ الربُّ الحقُّ لا يستشير عبيده فيما يريد فعله؛ لأنّه لا يجهل ما يحدث مستقبلاً.

٤- حُرْمَةُ السِّحر، وحُرْمة تَعَلُّمه.

٥- في سؤال السَّحَرة عن استحقاق الأجر ما يَدُلُّ على خبرتهم، والحاجة إليهم، فشرطوا أجْرَهم قبل الشروع في العمل، وهكذا يكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها الطغاة والظالمون، تَبْذُلُ مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم أعداء الإسلام دائماً في كل مكان وزمان.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التفسير:

وبعد أن اطمأنَّ السحرة على الأجْر، واجتمع الناس في يوم عيدهم وزينتهم من كل مكان، وجاء فرعون ومَلَؤه ومستشاروه؛ ليحضروا هذا الحدث العظيم، وهنا بدأت المناظرة:

١١٥- فتَوَجَّه السحرة إلى موسى - بلغة الواثق من قوته، المتحدِّي لخصمه - فقالُوا: يا موسى أنت مُخَيَّر بين أن تلقي عصاك أولاً، أو أن نُلْقِيَ نحن أولاً، وأنت تفعل ما تشاء بعدنا، فنحن على ثقة من الفوز والنصر، فأَرِحْ نفسَك، واستسلم لنا.

١١٦- وهنا كان جواب موسى بلغة الواثق بربِّه بأن طلب إليهم أن يُلْقُوا أولاً، غير مبالٍ بهم ولا بِمَنْ جمعهم، لأنّه قد اعتمد على خالقه، فلما ألقَوا ما كان معهم من الحبال والعِصِيِّ، سحروا أعين الناس، فخَيَّلوا إلى الأبصار أنَّ ما فعلوه حقيقة، فامتلأ القلب بالروعة والرهبة. ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر، وفي عين مَنْ رآه، فقد ألقى كلُّ واحد منهم عصاه فصارت العصيُّ كأنَّها ثعابين، وهذا تهيئة من الله لإظهار معجزة موسى ﷺ، وأنَّها تخالِفُ السِّحْرَ، ولا تُباريه بحال.

١١٧- وفي هذه اللحظة الرهيبة اشرأبَّت الأعناق، وتناقلت النظرات، وإذا بموسى ﷺ يقف أمام هذا الإفك العظيم مُتَوَجِّساً خائفاً، وإذا بالتثبيت والتأييد ينزل عليه بوحي من الله ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ولا تخف، إنَّك أنت الأعلى، فألقاها فإذا هي تبتلع وتلتقم بسرعة ما يُكَذِّب به أولئك السحرة.

فقَصْدُ موسى - بجَعْلِهم يُلْقون أولاً - حَسَنٌ يستوجبه المقام؛ لأنَّ إلقاءهم قبلَه يستلزم إبراز ما معهم من مكايد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقَوا من إظهار الحق، وإبطال الباطل، ما لا جدال بعده في الحق، فلو ألقى قبلهم، وألقوا بعده، لم يحصل ما ذكرنا.

١١٨- فظهر وثبت الحق الذي عليه موسى، وفَسَدَ وبَطَلَ ما كانوا يعملون من الحِيَلِ والتخييل، وذهب تأثيره.

١١٩- وترتَّب على ذلك أن أصابت الهزيمةَ المنكرةَ فرعونُ ومَلَؤُه وسحرته في ذلك الحشد العظيم، الذي حشر الناس له في يوم عيدهم وزينتهم، وانقلب الجميع صاغرين بما نزل بهم من الخيبة والخذلان.

الفوائد والاستنباطات:

١- عاقبة الغرور - مهما علا - هي الفشل الذريع.

٢- في المناظرة يحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كَرَّ عليه بالحُجَجِ والبراهين فأبطله، وظهر الحق وانتصر على الباطل. وهذا الأسلوب الذي اتبعه موسى إنما هو بتوفيق من ربه تعالى. فلم يكن ذلك من موسى ﷺ أمراً لهم أو إقراراً بفِعْلِ السحر، بل أراد أن يَقْهَرَهم بالحُجَّةِ، ويظهر لهم أنَّ الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته.

٣- تأثير السحر في أعين الناس حقيقة، بحيث يرون الشيء على خلاف ما هو عليه، إذ العِصِيُّ والحِبال استحالَتْ في أعين الناس إلى حَيَّاتٍ وثعابينَ، وإن لم يكن ذلك حقيقة الشيء في الواقع نفسه، فما يراه الناس إنَّما هو من أثر السحر.

٤- الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه زمناً يسيراً، وقد يسترهب قلوبهم ساعة من الزمان، حتى لَيُخَيَّلُ إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف ، ولكن ما إن يواجهه الحق الهادئ الثابت المستقر بقوته التي لا تغالَب حتى يزهق ويزول، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذلُّ والصَّغار، وهم يرون صُروحَهم تتهاوى أمام نور الحق المبين.

٥- بيان سنته تعالى في أنَّ الحق والباطل إذا التقيا في أيِّ ميدان فالغلبة للحق دائماً.

٦- بطلان السحر، فلا يفلح أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

التفسير:

١٢٠ - ثم يُبيِّن الله تعالى نتيجة هذه المناظرة وهذا البيان وتلك الآية، فقد تفاجأ الجَمْعُ العظيم بمشهد يهزُّ القلوبَ، ويقلب الموازين، ويُرْهِبُ المتآمرين. إنَّه مشهد السحرة وهم يَهْوُون على الأرض سُجَّداً لله ربِّ العالمين، فقد ظهر لهم نور الحق، وجعلهم يسارعون إلى الإيمان، حتى لكأنَّ أحداً قد دفعهم إليه دَفْعاً، وألقاهم إليه إلقاء.

١٢١-١٢٢ - وما اكتفَوا بالسجود، بل أعلنوا أنَّ هذا السجودَ لله ربِّ العالمين، وبَيَّنوا أنَّ ربَّ العالمين الذي سجدوا له هو ربُّ موسى وهارون.

١٢٣ - قال فرعون مَذْهُولاً مُنْكِراً على السحرة إيمانهم، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فلغُرورِه وجَهْلِه ظنَّ أنَّ الإيمان بالحق بعد أن تَبَيَّن يحتاج إلى استئذان، ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأنَّ إيمانهم لم يكن عن إخلاص؛ ليصرف الناس عنهم فقال: إنَّ ما صنعتموه من الإيمان بربِّ موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم، بل هو حيلة احتَلْتُموها أنتم وموسى قبل أن يُلْقِ كلٌّ منكم بسِحْرِه؛ لكي تخرجوا من مصر أهلها، وتُخْلِصَ لكم ولبني إسرائيل، ثم أَتْبَعَ هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم.

١٢٤ - لَأُقَطِّعَنَّ من كل شق منكم عضواً مغايراً للآخر، كاليد من الجانب الأيمن، والرِّجْل من الجانب الأيسر، ثم لأصلبنَّكم أجمعين بشدة وغلظة؛ تنكيلاً بكم وبأمثالكم.

١٢٥ - قابل المؤمنون الجدد هذا الوعيد والترويع بالصبر والثبات، والإيمان العميق، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته قائلين له بكل ثبات واطمئنان: إنَّا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، وخلاصنا منك ومن لقائك، فيحكم بيننا، فيثيبنا على شدائد القطع والصَّلْب، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما قَدَّره لنا.

١٢٦ - ثم بَيَّنوا له سبب تعذيبه لهم، وذلك بقولهم: وما تكره منا وتعيب إلا إيماننا بالله، مع أنَّ ما تكرهه منا، وتعيبه علينا، هو أعظم محاسننا؛ لأنَّه خير الأعمال، وأعظم المناقب، فلا نعدل عنه طلباً

لمرضاتك، ثم انصرفوا عن فرعون بالخطاب إلى الله تعالى، مُتَضَرِّعين بدعائه بأن أَفِضْ علينا صبراً واسعاً؛ لنثبتَ على دينك، وتَوَفَّنا إليك حالة كوننا مسلمين لك، مُذْعِنين لأمرك ونَهْيك، مستسلمين لقضائك.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إيمان السحرة راسخ؛ لأنّه منبثقٌ عن هدى وبصيرة؛ إذ عرفوا من خلال احترافهم للسحر أنَّ ما جاء به موسى ليس سحراً، وإنّما هو آية له من الله فآمنوا، وضربوا أروع الأمثلة في الثبات.

٢ - أضحى السحرة كافرين، وما برحوا موقفهم حتى أسلموا. وصدق رسولُ الله ﷺ إذ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصَرِّفه حيث يشاء.. اللهم مُصَرِّفَ القلوب صَرِّفْ قلوبنا على طاعتك». (صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، برقم ٦٩٢١).

وفي هذا درسٌ للدعاة يبعث الأمل في نفوسهم، وهانحن نرى هداية أعيان من المجتمعات لم يتوقع كثير من الناس هدايتها، كنجوم الرياضة، ومشهوري الفن والساسة والأثرياء، فضلاً عن القساوسة والرهبان وغيرهم.

٣- أصحاب القلوب المظلمة بالكفر والجرائم لا يتورَّعون عن الكذب، واتهام الأبرياء في نياتهم.

٤- ليس عند الظالمين والطغاة إلا البطش والقوة عند فُقْدان الحجة.

٥- مما يُثَبِّتُ المبتلَى ويُقوِّيه في مواجهة الطغاة أن يستحضر منقلبَه لربه، فإنَّ هذا ممَّا يربط على القلوب ويُقَوِّي العزائم.

٦- مشروعية سؤال الصبر على البلاء؛ للثبات على الإيمان.

٧- ضَرَبَ السحرة - بعد إيمانهم - للناس أروع نموذج في التضحية من أجل العقيدة، وفي الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة، وفي الصبر على المكاره والآلام، وفي المسارعة إلى الدخول في الطريق المستقيم بعد أن تَبَيَّن لهم، وفي التعالي بالإيمان عن كل مغريات الحياة.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير:

١٢٧- وهنا قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون وبطانته له، على سبيل التهييج والإثارة: أَتَتْرُكُ موسى وقومه أحراراً آمنين في أرضك، ليفسدوا فيها بإدخال الناس في دينهم؟ أتتركهم يعبدون ربَّ موسى وهارون، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك، فيظهر للناس عَجْزُك وعَجْزُها؟ فتكون طامَّة كبرى يفسد بها مُلْكُك؟

وهذا الكلام يفصح عن أشدِّ ألوان التآمر والتحريض؛ لذا رَدَّ عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فقال: لا تخافوا، ولا ترتاعوا أيها الملأ، فإنَّ قوم موسى أهون من ذلك، وسنُنْزِلُ بهم ما كنا نفعله معهم من قبل، وهو قَتْلُ الأبناء، وتَرْكُ النساء أحياءً للخدمة والامتهان إذلالاً لهم، وإنَّا فوقهم غالبون كما كُنَّا لا يتغير شيء من حالنا، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء، وهم الأَذِلَّة، ونحن الأعِزَّة.

١٢٨- وأمام هذا التهديد يُوصي موسى ﷺ المؤمنين بالصبر، ويُبَشِّرهم بالنصر بقوله: يا قوم ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في كل أموركم، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على البلاء، فهذه الأرض ليست ملكاً لفرعون ومَلَئِه، وإنَّما هي ملك لله ربِّ العالمين، وهو سبحانه يورثها لِـمَنْ يشاء من عباده، وقد جَرَتْ سُنَّتُه سبحانه أن يجعل العاقبة الطيبة لِـمَنْ يخشاه، ويفعل ما أمره به، ويترك ما نهاه عنه، ولا يخشى أحداً سواه.

١٢٩- فرَدُّوا بتضجُّرٍ وتبرُّم ينمُّ عن ضَعْفِ إيمانهم: لقد نَكَّلَ فرعون بنا قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة، وبعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى حالنا.

أجابهم موسى ﷺ: عسى ربُّكم أن يُهلك عَدُوَّكم فرعون الذي ناصبكم العداء، وسامكم سوءَ العذاب، ويجعلكم خلفاءَ في الأرض من بعد هلاكه هو وشيعته، فينظر كيف تعملون حين يُمَكَّنُ لكم؟ فإنَّ استخلافكم في الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم، وإنَّما هو استخلاف للاختبار والامتحان، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- خطر بطانة السوء على الملوك والرعية، تجلَّى ذلك في إثارة بطانة فرعون له، ودَفْعِه إلى البطش للحفاظ على مصالحهم.

٢- منطق الطغاة المستكبرين اللجوء إلى قوتهم المادية؛ ليَحْمُوا بها مصالحهم وأهواءهم.

٣- فضيلة الاستعانة بالله والصبر والتقوى، وأنَّها مفتاح النصر، والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

٤- في الآية (١٢٨) إخبار عن أمر مستقبلي أنَّ العاقبة المحمودة لِـمَنِ اتَّقى الله، ففَعَلَ أوامره، واجتنب نواهِيَه.

٥- تثبيت المؤمنين بذِكْرِ حسن العاقبة، والتبشير بوعد الله لأوليائه أهلِ الإيمان والتقوى، والتذكير بسننه تعالى.

٦- التمكين في الأرض نصرٌ من الله، كما أنَّه ابتلاء يحتاج إلى عمل وشكر.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣٠- حقاً لقد بَلَوْنا آل فرعون وأتباعه بالجَدْبِ والقحط، وضيق العيش، وانتشار الآفات وانتقاص الثمرات؛ لعلهم يثوبون إلى رُشْدِهم، ويتذكرون ضَعْفَهم أمام قوة خالِقِهم، ويرجعون عمَّا هم فيه من الكفر والعصيان.

١٣١- لكنهم لم يعتبروا، وإنَّما ازدادوا تمرُّداً، فإذا جاءهم ما يروقهم من الخِصْبِ والسعة والرخاء، قالوا بغرور: ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا، لأننا أهلٌ له، وبكَدِّنا وجِدِّنا؛ ناسين فَضْلَ الله عليهم، غافلين عن شكره على نَعْمائه. وإن اتفق أن أصابتهم حالة تسوءُهم كجَدْبٍ أو قحط، أو مصيبة في الأبدان أو

الأرزاق، تشاءموا بموسى ومَنْ معه من أتباعه، وقالوا: ما أصابنا الذي أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم، ولو لم يكونوا معنا لما أُصِبْنا. ويَرُدُّ الله عليهم بأنَّ سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة عليهم عند الله، فهي التي ساقت إليهم ما يسوءُهم، وليس لموسى ولا لِـمَنْ معه أيُّ تَدَخُلٍ في ذلك. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يجهلون هذه الحقيقة، فيقولون ما يقولون، ممَّا تُمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم.

١٣٢- وقالوا لموسى بعد أن رأوا من حُجَجِه الدالة على صدقه: إنك يا موسى إن تأتِنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدلُّ بها على حقيقة دعوتك؛ لأجل أن تَصْرِفَنا بها عما نحن فيه، فما نحن لك بمصدِّقين، ولا لرسالتك بمُتَّبعين. فهم قد صاروا في حالة مستعصية لا يُجدي معها دليل، ولا ينفع فيها إقناع، فقد أعلنوا الإصرار على التكذيب، حتى ولو أتاهم نبيهم بكل دليل يطلبونه.

١٣٣- فأرسلنا عليهم - بعنادهم وسوء أدبهم - أسرابَ الجراد تأكل زروعهم، فتترك أرضهم جرداء، والقُمَّل، وهو السُّوس الذي أكل حبوبهم، وما اشتملت عليه بيوتهم، والضفادع تُضَيِّق عليهم معايشهم، وتَقُضُّ مضاجعهم، والدم الذي يسيل في شرابهم، ويخضب أنهارهم، فلا يُنتفع بها. ابتلاهم الله بكل هذه الآيات الجليَّة؛ لعلَّهم يتوبون، ويرجعون لرشدهم، ولكن مع كل ذلك استكبروا عن الإيمان بموسى عليه السلام، وعمَّا جاء به من معجزات، وأصبحت طبيعتُهم الإجرامَ ودَيْدَنُهم الكفرَ والفسوق.

١٣٤- وبَيَّنَ سبحانه صورةً من هذا الاستكبار والعناد؛ بأنَّهم حين وقع على فرعون وأتباعه العذاب المذكور في الآية السابقة، أخذوا يقولون لموسى بتَذَلُّل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات: ياموسى ادعُ لنا ربَّك، واسأله بحقِّ ما عهد عندك من أَمْرِ إرسالك إلينا؛ لإنقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب، ونحن نقسم لك إنك إن كشفته عنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾، وهم في ذلك كَذَبَة، لا قصد لهم إلا زوال ما حَلَّ بهم من العذاب، وظنوا إذا رُفِعَ ألَّا يصيبَهم غيرُه.

١٣٥- فلما كشفنا عنهم العذاب إلى الوقت الذي أُجِّل لهم - وهو وقت إغراقهم في اليم - إذا هم ينقضون عهدهم الذي أبرموه، وينكثون في أيمانهم التي عقدوها.

الفوائد والاستنباطات:

١- العقوبات الإلهية عقوبات عامة تشمل الظَّلَمَةَ وأعوانهم، وتَعُمُّ مَنْ مالأَهم على ظلمهم، واستمرأ كذبهم.

٢- الشدائد من شأنها أن تُرَقِّقَ القلوب، وتُصَفِّيَ النفوس، وتُرَغِّب في الضراعة إلى الله، وتدعو إلى اليقظة والتفكير، ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاءً للبلايا.

٣- بطلان التطير مطلقاً، وإنَّما الشؤم في المعاصي بمخالفة شرع الله، فيترتَّب على الفسق والعصيان البلاء والعذاب.

٤- الجحود والغفلة مع توارد الآيات دليل على قسوة القلب، وفساد الفطرة.

٥- يظهر ضَعْفُ الإنسان عند نزول البلاء به، فيفزعُ إلى الله تعالى، يدعوه ويتضرع إليه، كما يظهر جحوده ونسيانه عندما يرفع البلاء، حينها ينسى ما نزل به ويعود إلى عادته وإلفه، إلا مَنْ عصمه الله.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

التفسير:

١٣٦- فنكَّلْنا بهم، وعاقبناهم؛ بسبب تكذيبهم وتغافلهم عن آياتنا الجلية، وعِظاتنا البليغة .

١٣٧- واستخلفنا أولئك القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر، مشارق الأرض ومغاربها، وهي بلاد الشام التي باركنا فيها بالخصوبة، وسعة الأرزاق، ومَضَتْ كلمة ربك الحسنى تامةً، بالنصر والتمكين في الأرض لبني إسرائيل؛ بصبرهم على ظُلْمِ فرعون ومَلَئِه، ودمَّرنا بعظمتنا وقوتنا ما كان يصنع فرعون وقومه من قصور مُنيفة، وبيوت مشيدة، وقلاع وبروج حصينة وصروح شاهقة، وبساتين مثمرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- التكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب العذاب في الدنيا والآخرة، حيث الصُّدودُ عنها، والعُزوفُ عن التفكُّر فيها، والاعتبار بها.

٢- خَتْمُ قصة موسى مع فرعون وقومه بذِكْرِ ما أصاب الظالمين والغادرين، من دمار وخراب، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلافٍ في الأرض؛ ليكون ذلك عِظَةً وعِبْرَةً للعالمين، فهي سُنَّةٌ كونية لرب العالمين.

٣- مظاهر قدرة الله، وصادق وعده، وعظيم آلائه على خلقه، وحسن تدبيره فيهم.

٤- عدل عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب، ومثله ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ والأصل: ما صنعوا، وما عرشوا.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

التفسير:

هنا يبدأ موسى عليه السلام مسيرته الدعوية مع بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين، وما كان منهم من جحودهم لنِعَمِ الله، ونسيانهم لما كانوا فيه من ذُلّ واستعباد، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخالق عز وجل، وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم.

١٣٨ - فبعد أن انتقم الله من فرعون وجنده، فأغرقهم أمام أعينهم، وسار بنو إسرائيل نحو المشرق بعد أن عبروا البحر. وما إن جاوزوا البحر الذي غرق فيه عدوُّهم، حتى وقعت أبصارهم على قومٍ دائبين على عبادة الأصنام، فطلبوا من نبيِّهم موسى عليه السلام أن يصنع لهم آلهة، كما كان لأولئك القوم، فغضب عليهم موسى عليه السلام غضباً شديداً، ووبَّخهم أشدَّ التوبيخ، ووصفهم بالإصرار، والمداومة على الجهل.

١٣٩ - ثم بَيَّن لهم أنَّ هؤلاء الذين تبغون تقليدهم في عبادة الأوثان محكوم على ما هم فيه بالدمار، ومَقْضِيٌّ على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال؛ لأنَّ دين التوحيد سيظهر في هذه الديار، وستصير العبادة لله الواحد القهار، ولن يعود عليهم من عبادة ذلك الصنم نفعٌ، ولا دَفْعُ ضرر.

١٤٠ - قال لهم موسى عليه السلام مُبيِّناً: أغيرَ الله أطلب لكم معبوداً أحملكم على العبودية له، وهو فَضَّلكم على عالمي زمانكم، وقد كان الواجب عليكم أن تَخُصُّوه بالعبادة، كما اختصَّكم هو بالنِّعَمِ الجليلة.

١٤١ - وذَكَّرهم كذلك بنعمة إنجاء الله لهم من العذاب والتنكيل؛ ليبتليهم: أيشكرون أم يكفرون؟ فاذكروا يا بني إسرائيل؛ لتعتبروا وتتعظوا، وتشكروا الله على نِعَمِه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يُعَذِّبونكم أشقَّ العذاب وأصعبَه، إذ كانوا يُزْهِقُون أرواحَ ذُكورِكم، ويَسْتَبْقُون نساءكم ليستخدموهُنَّ، ويَسْتَذِلُّوهُنَّ. وفي ذلكم العذاب الجسدي والنفسي، وفي النجاة منه، امتحان لكم وتمحيص واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١ - جَهْلُ بني إسرائيل بمقام الله تعالى، ونسيانهم لنِعَمِه، وجحودهم لفضله، حَمَلَهم على ما طلبوه من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة.

٢ - وجوب إنكار المنكر عند وجوده، مع مراعاة مقتضى الحال، وطبيعة المخاطب.

٣- استحباب التذكير بأيام الله للاعتبار والموعظة، واستذكار النِّعَم للناس، لعلهم يتوبون.

٤ - الله تعالى يبتلي بالخير والشر، وفي كل ذلك خير لِـمَنْ صبر وشكر.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

التفسير:

١٤٢ - أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن ينقطع أربعين ليلة؛ ليستعدَّ ويتهيأ لوعد الله، وأَخْذِ التوراة، ويكون لنزولها موقع كبير لديه، وتَشَوُّقٌ إلى إنزالها، فوعد موسى ربَّه بالطاعة والامتثال. فلما تَمَّ الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، وقبل أن يَتَوَجَّه موسى للقاء ربه وَصَّى أخاه هارون وصية، مَفادها: كن خليفتي في قومي، وأَصْلِحْهم بحَمْلِك إياهم على طاعة الله وعبادته، وإياك وطُرُقَ أهل الضلال، وسبل أهل الفساد، فقد كان موسى عليه السلام يخشى شراً من قومه؛ لعِلْمِه بضعف إيمانهم، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم.

١٤٣ - وحين وصل موسى ﷺ في الوقت والمكان المحدد الذي وَقَّته الله له، وآنسه بتكليمه، تَشَوَّق لرؤية الله، فقال: رَبِّ بَصِّرْني ومَكِّنّي من النظر إليك، فقال له الله: أنت لن تستطيع رؤيتي، ولكن انظر إلى الجبل في شموخه وثباته، فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني، فلمّا تَجَلّى الله تعالى للجبل انهال، وسقط موسى ﷺ مَغْشِيّاً من هَوْلِ ما رأى، فلمّا أفاق من غشيته، نَزَّه الله تعالى بالتسبيح والتعظيم، وتاب وأناب إليه.

١٤٤ - ثمّ بيَّن الله تعالى صفته لموسى ﷺ بأني اخترتك، واجتبيتك على الناس في زمانك بإرسالي إياك، وبتكليمي إياك بغير واسطة، وقد أعطيتك من النِّعَمِ العِظام ما أعطيتك، وفيها الوحي بالتوراة، فخذ ياموسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والرسالة والمناجاة والكتاب، وكن من الراسخين في الشكر على ما أنعمتُ به عليك، فأنت أُسْوَةٌ لأهل زمانك.

١٤٥ - وبيَّن الله تعالى أنه كتب لموسى ﷺ في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح؛ ليكون ذلك موعظة لهم، من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيباً وترهيباً، وأمره بأن يأخذها بجِدٍّ وحزم، وصبر وجَلَد، وأمر الله تعالى نبيَّه أن يأمر قومه بأحسنها: وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، وتَوَعَّد الله ﷻ مَنْ خالف أمره بعد هذا الوضوح والتفصيل التام، بأنَّه سبحانه سيريهم عاقبة مَنْ خالف أمره، وخرج عن طاعته، وكيف يصير إلى الهلاك والدمار؟ فتلك سُنَّةُ الله التي لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل.

١٤٦ - وكذلك يتوعَّد الله تعالى أعداء الحق بأنَّه سيصرفهم عن الانتفاع بآيات الله وحُجَجِه، بالطبع على قلوبهم لسوء استعدادهم، فلا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون، وإذا رأوا كل آية من الآيات المعجزة التي تهدي إلى الحق وترشد إلى الخير، لا يؤمنون بها لفساد قلوبهم، وحسدهم لغيرهم على ما آتاه الله من فضله، وأنَّهم إذا علموا وأبصروا طريق الصلاح والاستقامة والسَّداد لا يتوجهون إليه، ولا يسلكونه؛ لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم، وإنْ يَرَوْا طريق الضلال عن الحقِّ يَتَّخِذُوه طريقاً يميلون إليه، ويسيرون فيه بدون تَفَكُّرٍ أو تَدَبُّرٍ. والسبب الذي أدَّى بهم إلى هذا الضلال العجيب هو أنَّهم كَذَّبوا بآيات الله الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل، وأنَّهم كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين، لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بما اشتملت عليه من عِظات.

١٤٧ - ويَتَوَعَّد الله تعالى هؤلاء المكذبين لآياته، والمنكرين للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، ببطلان أعمالهم، وأنَّها صارت هباءً منثوراً، فلا يُجْزَون يوم القيامة إلا الجزاء الذي يستحقُّونه؛ بسبب أعمالهم في الدنيا، فالربُّ سبحانه لا يظلم أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الوفاء بالوعد من سمات الصادقين.

٢ - مشروعية الوصية للخلفاء والنّواب والوكلاء بما هو خير، وبيان مَهامِّهم المفوَّضة إليهم.

٣ - ضرورة وجود نائبٍ للسلطان والخليفة، يخلفه في غيابه وأسفاره، وأهمية الاستخلاف في الأرض في مهامِّ الأمور فضلاً عما دونها، مع مراعاة حسن الاختيار.

٤ - يُهَيِّئ الله تعالى عباده المؤمنين في دار النعيم؛ للتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم.

٥ - في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب عند قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ للمبالغة في الحَضِّ على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سَأُريهم.

٦ - مِنْ شأن مَنْ تربَّى على الضلال، وانغمس في الشرور والآثام، أنه لإِلْفِه المنكراتِ يصير الحَسَنُ عنده قبيحاً، والقبيحُ حَسَناً.

٧ - لم يَخْلُقِ الله تعالى الضالِّين عن سبيله مطبوعين على شيء ممَّا ذُكِرَ طبعاً، ولم يُجْبِرْهم ويُكْرِهْهم عليه، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم التكذيبَ بآياته الدالَّةِ على الحقِّ.

٨ - من عوامل الصَّرْفِ عن آيات الله الكِبْرُ والظلم.

٩ - التكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب كل ضلال وشر وظلم وفساد.

١٠ - في الآية (١٤٦) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيَصْرِفُ قلوب المتكبِّرين عن طاعته، والمتكبِّرين على النَّاس بغير الحقِّ عن فَهْمِ الحُجَجِ، والأدلَّة الدالَّة على عظمته وشريعته.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

التفسير:

١٤٨ – لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه مستخلفاً عليهم أخاه هارون، انتهزوا لِينَ الجانب من هارون عليه السلام، وعبدوا عِجْلاً صنعوه من الحُلِيِّ، له صوت؛ ليكون معبوداً لهم، ولم يَفْطِنُوا – لعَمَى بصيرتهم – أنَّ هذا العِجْلَ لا يقدر على ما يقدر عليه آحادُ البشر، من الكلام والإرشاد إلى أيِّ طريق من طرق الإفادة، ولاشكَّ أنَّهم بهذا كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله، وبوَضْعِهِم الأمورَ في غير مواضعها. وهذا فيه إشعارٌ بأنَّ هذا الظلم دأبُهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ، وأنَّ ما صدر عنهم ليس غريباً منهم، فإنَّهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً.

١٤٩ – ثم بَيَّنَ سبحانه ما كان من نَدَمِهم على عبادة العجل، حين تَبَيَّنُوا ضلالهم واضحاً، كأنَّهم أبصروه بعيونهم، فقد تحسَّروا وطلبوا إلى الله الرحمة والمغفرة.

١٥٠ – رَجَعَ موسى عليه السلام غضباناً حزيناً، لما أحدثه قومه في غيابه، وقال لهم معاتباً: بئس خلافةً خَلَفْتُمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي، وبئس الفعلُ فِعْلُكم بعد فراقي إياكم؛ إذ عبدتم العجل، وتغلغلت في قلوبكم محبتُه، ولم تُعِيرُوا التفاتاً لما عَهِدْتُ به إليكم من توحيد الله، وإخلاص العبادة له، والسير على سنتي، ومن حَقِّ المستخلَفين أن يسيروا بسيرة المستخلِف من بعده ولا يُخالفوه. ثم عاتبهم بقوله: أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربُّكم، وهو انتظاري حافظين لعهدي، وما أوصيتكم به من

التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله، فغيَّرتم وعبدتم العجل؟ فقد كانوا استبطؤوا قُدومَه عليه السلام من الجبل، فخَدَعَهم السامريُّ، وصنع لهم العجل فعبدوه.

ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّ غضب موسى ترتَّب عليه أمران، أولهما: أنه ألقى الألواح من يديه لما اعتراه مِنْ فَرْطِ الدهش، وشدة الغضب، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، فإلقاؤه الألواحَ لم يكن إلا غضباً لله، وحَمِيَّةً لدينه، وسخطاً على قومه الذين عبدوا ما يُضْرَبُ به المثل في الضلال.

وثانيهما: أَخْذُ موسى بشَعْر رأس أخيه هارون يَجُرُّه إليه غضباً منه، لظَنِّه أنَّه قد قَصَّرَ في نصحهم، وزَجْرهم عن عبادة العجل. ولكن هارون عليه السلام أخذ يستميل موسى بعاطفة الأخوَّة الرحيمة؛ ليُسْكِنَ من غضبه الشديد، وليبرئ ساحته من التقصير، وألا يعجل بلومه وتعنيفه، فإنه لم يُقَصِّرْ في نصيحتهم، لكنهم قهروه واستضعفوه، وأوشكوا أن يقتلوه، فلا يُمَكِّنَ الأعداء من الشماتة فيه، والاستهانة به، فإنَّ من شأن الأخوة النصرة، وعدم الاتهام بالظلم.

١٥١ - وهنا اقتنع موسى عليه السلام ببراءة هارون من التقصير، فدعا ربه دعاء يُظهر فيه لأخيه هارون اعتذاره، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته، فقال: ربِّ اغفر لي ما فرط مني من قول أو فِعْلٍ فيه غلظةٌ على أخي، واغفِرْ له ما عسى أن يكون قد قَصَّرَ فيه مما أنت أعلم به مني، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التي وَسِعَتْ كل شيء، فأنت أرحم بعبادك.

١٥٢ - إنَّ عَبَدَةَ العجل سيحيق بهم سخط شديد من ربهم، وسيصيبهم هوانٌ وصغارٌ في الحياة الدنيا. وبمثل هذا الجزاء يجازي الله المفترين جميعاً في كل زمان ومكان، لخروجهم عن طاعته، وتجاوُزِهم حدوده، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة، من بني إسرائيل وغيرهم.

١٥٣ - ثم فتح سبحانه بابه لكل تائب صادق في توبته، فأخبر أنَّ الذين عملوا السيئات، ثم تابوا من بعد فِعْلهم لها توبةً صادقة نصوحاً، ورجعوا إلى الله تعالى نادمين مخلصين الإيمان له، فإنَّ الله تعالى من بعد الكبائر التي أقلعوا عنها سيغفر لهم جرمهم، وسيرحمهم، وكلَّ مَنْ كان مِثْلَهم من التائبين.

١٥٤ - وعندما هدأ غضب موسى بعد اعتذار أخيه، وتوبة قومه، أخذ الألواح التي كان قد ألقاها، وفيها هداية عظيمة إلى طريق الحق، ورحمة واسعة للذين يخافون أشد الخوف مِنْ خالِقِهم جل جلاله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان سُنَّةٍ من سنن الكون، وهي أنَّ المرء يتأثر بما يرى ويسمع، والرؤية أكثر تأثيراً في النفس من السماع، فإنَّ نظر بني إسرائيل للآلهة التي مَرُّوا بها وبمَنْ يعكفون عليها، ثم طلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلها، هو الذي جعلهم يقبلون عِجْلَ السَّامريِّ الذي صنعه لهم، ومن هنا كان لمنظر الباطل وزخرفته أثرٌ بالغٌ في ضعاف الإيمان، فكم أفسد من عقول وأخلاق!!

٢ - إذا أراد الله بعبده العاصي أو المبتدع خيراً بَصَّره بحاله، وألهمه التوبة، فيندم ويستغفر.

٣ - الغضب من طباع البشر، فلا يُلام عليه المرء مهما بلغ من الكمال، كالأنبياء عليهم السلام، لكن غضبهم للحق دائماً، كما أنَّه لا يخرج بهم إلى أن يقولوا، أو يفعلوا ما ليس بخير وصلاح.

٤ - من الآداب الإسلامية الاعتذار عند الخطأ، وإقالة أهل المروءات.

٥ - ضرب موسى عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر على قومه.

٦ - مشروعية دعاء الله تعالى بأسمائه وصفاته.

٧ - كلُّ وعيد لله تعالى تَوَعَّدَ به عبداً من عباده مقيَّدٌ بعدم توبة المتوعَّد.

٨ - كلُّ رحمة وهدى ونور في كتاب الله لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان والتقوى.

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥٥ - أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيه مع جماعة من بني إسرائيل بعد توبتهم إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً، وخرج بهم إلى طور سيناء وَفقَ ميقات محدد له مع ربه، ولكنهم طلبوا رؤية الله، فأَخَذَتْهم الرجفة، فصُعِقوا، وهَلَكوا. وهنا تَوَجَّه موسى عليه السلام إلى ربه داعياً مُلْتجئاً إليه: يا رَبِّ إنني أتمنى لو كانت مشيئتك بهلاكهم سَبَقَتْ خروجَهم معي إلى هذا المكان، وتهلكني معهم؛ حتى لا أقع في حرج مع بقية بني إسرائيل؛ لأنَّهم سيقولون لي: قد ذهبت بخِيارنا لإهلاكهم، ألجأ إليك - يا مولاي - ألَّا تُهْلِكَنا بذنب غيرنا، فإن كان منَّا سفهاءُ قد خرجوا عن طاعتك، وانتهكوا حُرُماتِك، فنحن يا ربِّ مطيعون لك، وخاضعون لأمرك، وما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك، فأنت الذي اختبرتهم، فالأمرُ كلُّه لك، لا يكشفه إلا أنت. أنت القائم بأمورنا كلها لا أحدَ غيرُك، فاغفِرْ لنا ما فرط منا، وارحمنا برحمتك التي وَسِعَتْ كل شيء، وأنت خير الغافرين، إذ كل غافرٍ سواك إنَّما يغفر لغرض، كحُبِّ الثناء، واجتلاب المنافع، أما أنت يا إلهنا فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض، وإنَّما هي محضُ الفضل والكرم.

١٥٦ - ثم ختم موسى ﷺ هذه الدعواتِ الطيبات بأَنْ طلب إلى ربه بعد المغفرة: أن أَثْبِتْ لنا يا ربنا في هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وتوفيق، وأَثْبِتْ لنا في الآخرة أيضاً ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض؛ لأنَّا تُبْنا إليك من المعاصي، فاكتب لنا الحسنات في الدارين، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل. فكان جواب الله ﷻ عن هذه الدعوات: أن يا موسى، إنَّ عذابي الذي تخشى أن يصيب قومك أصيبُ به مَنْ أشاء من العصاة، فلا يتعيَّن أن يكونَ قومُك محلًّا له بعد توبتهم، فقد اقتضت حكمتي أن أجازي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجازي الذين أحسنوا بالحسنى، ورحمتي وَسِعَتْ كل شيء من العوالم كلها، فلا مخلوق إلا وقد وصلَتْ إليه رحمتي، وغَمَرَه فضلي وإحساني، فلا تَضِيقُ عن قومك، ولا عن غيرهم من خَلْقي ممَّنْ هم أهلٌ لها، فسأكتب رحمتي للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يُغضب الله، ويُؤَدُّون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم، وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيماناً تاماً خالصاً لا رياء فيه، ولا نقص معه.

١٥٧ - ثم أضاف سبحانه صفة أخرى لِمَنْ هم أهلٌ لرحمته ورضوانه، وهي ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

وقد وصف الله رسوله ﷺ بأوصاف كريمة تدعو العاقل المُنْصِفَ إلى اتباعه والإيمان به، فوصفه بأنَّه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وأنَّه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين، ووصفه بأنَّه أُمِّي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يأخذ عِلْمَه عن أحدٍ، ولكنَّ الله تعالى أوحى إليه عن طريق جبريل ﷺ. ومن صفاته أنَّ أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف الذي يتناول الإيمان والعمل، ومكارم الأخلاق التي جاء بها الشرع الحنيف، وينهاهم عن المنكر الذي يتناول الكفر والمعاصي ومساوئ الأخلاق. ومن صفاته أن يُحِلَّ لهم ما حَرَّمه الله عليهم سابقاً من الطيبات - كالشحوم وغيرها - بسبب ظُلْمِهم وفُسوقِهم عقوبةً لهم، ويُحِلَّ لهم ما كانوا حَرَّموه على أنفسهم دون أن يأذن به اللهُ كلُحوم الإبل وألبانها، ويُحَرِّمُ عليهم ما هو خبيث مما استحلُّوه كالدم ولحم الميتة والخنزير في المأكولات، وكأَخْذِ الربا، وأَكْلِ أموال الناس بالباطل في المعاملات.

ويختم الله هذه الصفات بأنه ﷺ جاءهم بدين سمح مُيَسَّر، لا شدة فيه، ولا أغلال، ولا مشقات، ولا تكاليف ثقالاً، بل بُعث بالحنيفية السمحة، فقد كان في شرائع الأُمم قبلنا إِصْرٌ، وضيِّق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأُمة أمورها، وسَهَّلها لهم. فمن الواجب على بني إسرائيل وغيرهم أن يَتَّبِعُوا مَنْ هذه صفاتُه؛ ولذا ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان أنَّ الذين آمنوا بهذا الرسول النبيِّ الأميِّ، وعَظَّموه، وآزروه،

ونصروا دعوته، واتبعوا الكتاب الذي أنزل معه، وهو القرآن الذي يُستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، هُمُ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجُون من شرهما؛ لأنَّهم أتوا بأسباب الفلاح.

١٥٨- ثم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس أنَّه مرسل إلى الناس كافة. ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية بأنه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والشرعية الدينية، لا معبودَ بحق إلا هو وحده لا شريك له، ولا تُعرف عبادته إلا من طريق رسله. ومن جملة تدابيره سبحانه: الإحياءُ والإماتةُ التي لا يشاركه فيها أحد.

ثم أرشد الله سبحانه بعد بيان هذه النعوت الجليلة التي وصف بها نفسه إلى الدعوةِ للإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله، وبما أنزل عليه وعلى مَنْ تقدَّمه من الرسل من كتبه ووَحْيِه. ثم أمر المؤمنين أن اسلكوا سبيله، واقتفوا آثاره، في كل ما يأمر به أو ينهى عنه؛ رجاءَ أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم.

١٥٩- ثم بَيَّنَ الله أنَّ قوم موسى لم يكونوا جميعاً ضالِّين، وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار، فمن قوم موسى جماعة عظيمة يَهْدُون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله، وبالحق أيضاً يسيرون في أحكامهم فلا يَجُورون، ولا يرتشون، وإنما يعدلون في كل شؤونهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٥٦) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيكتب رحمته للذين يخافونه، ويخشون عقابه، فيؤدُّون فروضه، ويجتنبون معاصيه، والذين هم بدلائل التوحيد وبراهينه يُصَدِّقون.

٢- كل سلوك ينافي الشرع فهو من السَّفَه المذموم.

٣- الهداية والإضلال كلاهما بيد الله تعالى، فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله تعالى، ويسأله أن يُجَنِّبَه الضلال.

٤- بيان شَرَفِ النبي محمد ﷺ وأُمته، وعموم رسالة النبي محمد ﷺ للناس كافة.

٥- بيان فَضْلِ تزكية النفس بعمل الصالحات، وإبعادها عن الذنوب.

٦- خَصَّ الزكاة بالذِّكْرِ؛ لأنَّ إيتاءها شاقٌّ على النفوس، ولما لها من أثر عظيم في إصلاح الفرد والمجتمع.

٧- بيانُ فضل التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأَخْذِ الطيبات، وتَرْكِ الخبائث من الأقوال والأفعال والمعتقدات والمطعومات وغيرها.

٨- وجوب توقير النبي ﷺ وتعظيمه ونصرته، واتِّباع الكتاب الذي جاء به، والسنن التي سَنَّها لأُمته.

٩- في وَصْفِه ﷺ بالأُميَّة مرتين، إشارة إلى صدق نبوته، والتنويه بما فتح الله له من أبواب العلم، وعَلَّمه ما لم يكن يعلم.

١٠- هدايةُ الإنسان فرداً أو جماعة، أو أُمة إلى الكمال والسعادة، متوقفةٌ على اتباع النبي محمد ﷺ.

١١- إنصافُ الله تعالى في كتابه لِـمَنْ يستحق الإنصاف من الناس، فقد بَيَّنَ جلَّ وعلا أنَّ في قوم موسى الصالحَ والطالحَ، وتلك هي العدالة في القول والحكم التي يحتاج إليها الناس في كل زمان ومكان.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

التفسير:

١٦٠- ومن نِعَمِنا عليهم أَنْ جعلناهم اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متآلفة، ومن النِّعم كذلك ما أوحى الله به إلى موسى عليه السلام حين طلب منه قومه الماء ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضربه فانفجر الحجر، وخرج منه الماء من اثنتي عشرة عيناً، بحسب عدد أسباط بني إسرائيل؛ ليروا بأعينهم مظاهر قدرة الله، وليشاهدوا دليلاً من الأدلة المتعددة التي تؤيد موسى عليه السلام في صدق ما يُبَلِّغه عن ربه، وحتى لا يقعَ بينهم تنازع أو تشاجر، فقد عَرَفَ كلُّ سِبْطٍ من أسباط بني إسرائيل مكان شُرْبِه، فلا يَتَعَدَّاه إلى غيره، فاستراحوا من النَّصَب والمزاحمة والمخاصمة.

ثم ذَكَّرهم سبحانه بنعمة أخرى، وهي تسخير الغَمام بحيث يُلقي عليهم ظلَّه؛ ليقيَهم من حَرِّ الشمس، وإنزال الله عليهم ﴿ٱلْمَنَّ﴾ وهي مادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاوتها حلاوة العسل، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر بَرِّيٌّ لذيذ اللحم، سهل الصيد يسمى السُّمَّاني، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، فيمسكونه قبضاً بدون تعب.

وأمرهم الله تعالى بعد أن عَدَّد هذه النعم عليهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، ولا يَتَعَدَّوها إلى المحرمات، وكذلك أن يشكروا الله على هذه النِّعم؛ لكي يزيدَهم منها، ولكنهم عَصَوا أمْرَ ربهم، وكفروا بهذه النِّعَمِ الجليلة فقال الله عنهم: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بفِعْلِهم ذلك ومعصيتهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذ فَوَّتوها كل خير، وعَرَّضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التِّيه.

١٦١- واذكروا - أيها المعاصرون - للنبيِّ ﷺ من بني إسرائيل وقت أن قيل لأسلافكم: اسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه، وقيل لهم: كُلُوا من خيراتها أكلاً واسعاً، واسألوا الله أن يحطَّ عنكم ذنوبكم، وادخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكراً لله على نعمه، فإنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم، فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرةَ ذنوبهم، والثواب العاجل والآجل، بل وزيادة للمحسنين من خير الدنيا والآخرة.

١٦٢- ولكن ما كان من بني إسرائيل بعد أن أتمَّ الله لهم نعمة الفتح، إلا الجحود والبطر، فبدَّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فقد أُمِرُوا أن يدخلوا الباب سُجَّداً، فدخلوا يَزْحَفُون على مؤخرتهم رافعي رؤوسهم، وأُمروا أن يقولوا حِطَّة - أي: احطُطْ عنا ذنوبنا - فاستهزؤوا وقالوا: حِنْطة في شعيرة - كما في صحيح البخاري، وقد تَقَدَّم في سورة البقرة الآية (٥٨) - وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله عليهم حين خالفوا أمره وعصوه عذاباً شديداً: إمَّا الطاعون، وإمَّا غيره من العقوبات. وما ظلمهم الله بعقابه، وإنَّما كان ذلك لخروجهم من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم، ولا داعٍ دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إذا أنعم الله على عبدٍ أو أَمَةٍ نعمةً ثم لم يشكرها، سُلِبَتْ منه، أحبَّ أم كره.

٢- إنَّ الله تعالى لا تَضُرُّه معصية عاصٍ، ولا يُنْقِصُ خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عَدْلُ عادل، بل نَفْعُ ذلك للعباد، وضَرَرُه على مَنْ ظلم وطغى.

٣- أَمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيل أن يَدْخُلُوا سُجَّداً، وأن يقولوا هذا القول؛ لأنَّ تَغَلُّبَهم على أعدائهم نعمة من أَجَلِّ النِّعَمِ التي تستدعي منهم الشكر الجزيل لله تعالى. ولهذا كان النبي ﷺ يُظهر أقصى درجات الخضوع، وأبلغَ الشكر عند النصر والظفر، وبلوغ المطلوب.

٤- مَنْ أَمَرَه الله تعالى بقولٍ أو فعلٍ، فتركه، وأتى بآخَرَ لم يأذن به الله، دخل في زمرة الظالمين، وعَرَّض نفسه لسوء المصير.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

التفسير:

١٦٣- واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وجمهور المفسرين على أنَّ القرية التي كانت مشرفةً على شاطئ البحر قرية (أيلة)، وتقع بين مَدْيَنَ والطور، إذ اعتدوا يوم السَّبْتِ الذي منعهم الله فيه من الصيد؛ ليختبرهم، فظلموا وتجاوزوا حدود الله بالصيد فيه، فقد كان من ابتلاء الله لهم أنَّ الحيتان كانت تأتيهم يوم السبت ظاهرة على وجه الماء، دانية من القرية، بحيث يُمْكنهم صَيْدُها بسهولة، فإذا مرَّ يوم السبت وانتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه؛ ابتلاءً من الله تعالى لهم، ففِسْقُهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكونَ لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لَعافاهم الله، ولما عَرَّضهم للبلاء، فتحَيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرون له الحفر، ويَنْصِبُون له الشِّباك. فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحُفَرِ والشِّباك، ولم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكَثُرَ فيهم ذلك التحايُلُ على المُحَرَّم.

١٦٤- وهنا انقسم أهل القرية ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة المعتدين المتجاوزين حدودَ الله عن تَعَمُّدٍ وإصرار، وفرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تَعَدِّيهم، وفرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادِين في السبت، فقد قالت فرقةٌ من أهل القرية لإخوانهم الذين لم يألوا جهداً في نصيحة العادِين في السبت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ لا فائدة مِنْ وَعْظِهم، ولا جَدْوى من تحذيرهم؛ لأنَّ الله تعالى قد قضى باستئصالهم، وتطهيرِ الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً، جزاء تماديهم في الشَّرِّ، وصَمَمِهم عن سماع الموعظة، فكان رَدُّ الناصحين أن عَلَّلوا نصيحتهم للعادِين بعلَّتين، الأولى: الاعتذار إلى الله تعالى من التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية: الأمل في صلاحهم، وانتفاعهم بالموعظة، حتى ينجو من العقوبة،

ويسيروا في طريق المهتدين. وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة، وإقامة الحجة على المأمور المنهي، ولعلَّ الله يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

١٦٥ - ثم بَيَّنَ سبحانه أنَّه لما لَجَّ الظالمون في طغيانهم، وعَمُوا وصَمُّوا عن النصيحة، أنجينا الناصحين، وأَخَذْنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه؛ بسبب خروجهم على أوامر الله.

١٦٦ - ثم حكم الله عليهم بالمسخ قردة صاغرين، فكانوا كذلك، وهذا من قدرة الله تعالى، فعاقب القوم أولاً بالعذاب الشديد، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم، مَسَخَهم مَسْخاً حقيقياً، فكانوا قِردة أذلَّاءَ حقيرين.

١٦٧ - ومن العقوبات التي أقامها الله تعالى على بني إسرائيل المعتدين ما ذكره الله لنبيه محمدٍ ﷺ وقت أن أعلم الله تعالى هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غَيَّروا وبَدَّلوا، ولم يؤمنوا بأنبيائهم، لَيُسَلِّطَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضَرْبِ الجزية، وغير ذلك من صنوف العذاب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِـمَنْ أقام على الكفر، وجانب طريق الحق، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِـمَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً.

١٦٨ - وهذا إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة؛ بسبب كفرهم وجحودهم. وتتمثل هذه العقوبة في تفريقهم في الأرض، وتمزيقهم شرَّ ممزقٍ؛ حتى لا تكونَ لهم شوكة، أي: إنَّ هؤلاء اليهود قد مَزَّقناهم في الأرض شرَّ ممزقٍ؛ بسبب عصيانهم وفسوقهم، وصَيَّرناهم فرقاً متقطعة الأوصال، مشتتة الأهواء. ومن باب إحقاق الحقِّ فإنَّ الله تعالى قال: إنَّ من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فصلح حالها، وحَسُنَتْ عاقبتها، ومنهم كثرة ليس لها رتبةُ أولئك المؤمنين الصالحين؛ بسبب فُسوقهم عن أمر الله، وانتهاكهم لحرماته، وعاملهم الله معاملة المُبتلَى الممتحن تارة بالنِّعَمِ الكثيرة، كالصحة والخِصْبِ وسعة الأرزاق، وتارة بالنِّقَم المتنوعة وأنواع من الشدائد، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم، ويتركون ما نُهُوا عنه من المعاصي والسيئات.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في سؤال أهل الكتاب عن قصة أصحاب السبت تقريع، وتوبيخ لهم على عصيانهم، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الحق، ولا يُعَرِّضُون أنفسهم لعقوبات كالتي نزلت بسابقيهم. ومن فوائد سؤالهم كذلك: تعريفهم بأنَّ هذه القصة من ماضيهم فلا يستطيعون إنكارها، ولا تُعْرَفُ إلا بكتاب أو وحي، فإذا أخبرهم بها النبي الأُمي الذي لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له، ودليلاً على أنَّه نبي صادق موحى إليه بها.

٢ - إذا أنعم الله على أُمةٍ نعمةً، ثم أعرضَتْ عن شكرها، تَعَرَّضت للبلاء والعذاب.

٣- إثبات جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد نجَّى الله تعالى الناهين عن المنكر، وأهلك الذين باشروه، ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

٤- إطلاق لفظ السوء على المعصية؛ لبيان أنَّ المعصية - مهما كانت صغيرة - تُحْدِثُ السوء في نفس فاعلها وفي مجتمعه.

٥- سكت القرآن عن الفرقة الكارهة للعدوان، والتي لامت الناهين عن السوء على وَعْظهم للمعتدين، لأنَّها كانت يائسة من صلاح المعتدين، فهم على ذلك من الناجين؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

٦- استدلَّ العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل التي يَتَّخِذُها بعض الناس ذريعة؛ للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة.

٧- إنَّ الوعيد الذي تَوَعَّد به اليهودَ في الآيات لم يتوقف، فإنهم ما زالوا محلَّ احتقار الناس وبغضهم، وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأنَّ المسلمين قد فَرَّطوا في حَقِّ خالقهم، وفي حَقِّ أنفسهم، وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ بتعاليم دينهم تعود إليهم عِزَّتُهم المسلوبة.

٨- القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة، وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء، فهو يمدحُ مَنْ يستحقُّ المديح، ويذمُّ مَنْ هو أهل الذَّمِّ، وما أحوج الناسَ في كل زمان ومكان إلى التخلُّق بهذه الأخلاق.

٩- الابتلاء يكون بالخير والشر.

١٠-في الآية (١٦٧) إخبار عن أمر مستقبلي: بأنَّ الله ﷻ لَيبعثنَّ على الفاسقين من اليهود مَنْ يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

التفسير:

١٦٩ - فجاء من بعد أولئك القوم الذين قَطَّعْناهم في الأرض أُمماً، خَلْفُ سوء، ورثوا كتاب الله وهو التوراة فقرؤوه وتَعَلَّموه، ووقفوا على ما فيه من تحليل وتحريم وأمر ونهي، ولكنهم لم يتأثروا به، بل خالفوا أحكامه، واستحَلُّوا محارمه، فأصبحوا ﴿يَأۡخُذُونَ﴾ الشيء الأدنى، والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشوة على تحريف الكَلِم، ويزعمون أنهم يريدون التسهيل على العامة، وبعد ذلك يقولون: إنَّ الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يُؤاخذنا، لأننا من نَسْلِ أنبيائه، فنحن شعبه الذي اصطفاه من سائر البشر، فهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة، فإنهم إن لاح لهم ﴿عَرَضٞ﴾ حرامٌ آخرُ مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل تهافتوا عليه من جديد، واستحَلُّوه وأكلوه في بطونهم، دون توبة أو ندم.

ثم أنكر سبحانه عليهم ما زعموه بقولهم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ وهم مُصِرُّون على معصيتهم بأنَّ الله قد أخذ العهد في التوراة على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، والقائلين: سيَغْفِرُ اللهُ فِعْلَنا هذا ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾ القول ﴿ٱلۡحَقَّ﴾، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق، ولا يتجاوزوا حدوده، وقد درس هؤلاء الكتاب، أي: قرؤوه وفهموه، ولكنهم لم يعملوا بما أُخِذَ عليهم فيه من عهود، ولم يَتَّبعوا أوامر كتابهم ونواهيه، لأنَّهم درسوه ولم يتأثَّروا به، ولم تخالِطْ تعاليمُه شغافَ قلوبهم، فضيَّعوه، واشتروا به ثمناً قليلاً.

ثم بَيَّنَ الله لهم أنَّ ما أعَدَّه في الآخرة للمتقين الذين يتعَفَّفون عن السُّحْت، وعن أَكْلِ أموال الناس بالباطل هو خير من متاع الدنيا، الذي آثره هؤلاء المفترون على الله الكذبَ. وهنا يقول الله لهم: أفلا يكون لكم عقولٌ تُوازِنُ بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره. وفي ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادةً في التوبيخ والتأنيب.

١٧٠ - ثم أثنى الله تعالى على مَنْ تمسَّك بكتابه، فبَيَّنَ أنَّ الذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذي أنزله الله، ويعتصمون بحبله في جميع شؤونهم لن يضيع الله أجْرَهم، لأنَّهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم. والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً.

١٧١ - ويختم الله تعالى الحديث عن قصة موسى مع قومه بذِكْرِ مِنَّةٍ أخرى على بني إسرائيل فيقول: واذكر يا محمد، وذَكِّر بني إسرائيل المعاصرين لك، وقت أَنْ رَفَعْنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام حتى صار كأنه غمامة فوق رؤوسهم؛ لِنُرِيَهم آية من الآيات التي تدل على قدرتنا وعظمتنا، وذلك حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم صدودٌ عمَّا جاءهم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم أُلزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون فوق رؤوسهم، وتأكدوا أنَّ الجبل ساقط عليهم، إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيُّهم عليه السلام، وقيل لهم في هذا الموقف: تَمَسَّكوا بما آتيناكم من الكتاب، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبَّلوه بدون تقصير أو تَرَدُّد، واذْكُرُوا ما فيه بأن تحفظوه وتتدارسوه، واعملوا به بلا تعطيل لشيء منه، وهذا كله لكي تَتَّقوا الهلاك في دنياكم وآخرتكم، وترجوا الله ربكم أن تكونوا من طائفة المتقين. ولكنَّ بني إسرائيل لم يذكروا، ولم يتدبَّروا بل نقضوا العهد، ولَجُّوا في المعصية، فاستحقُّوا لعنة الله، وغضبه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الطمع في متاع الحياة الدنيا من أسباب الهلاك، فقد جعل بني إسرائيل يقولون على الله غير الحق، ويتشبَّعون من المال الحرام بدون تعفُّفٍ، ويبيعون دينهم بدنياهم، ولذلك أطبق أهلُ الحقِّ على ذَمِّ المتمنِّي على الله.

٢ - خَصَّ الصلاة بالذِّكر مع دخولها فيما قبلها إظهاراً لمزيتها؛ لكونها عماد الدين، وناهية عن الفحشاء والمنكر.

٣- المقصود من إنزال الكتب العمل بمقتضاها، لا تلاوتها فحسب.

٤- العاقل هو الذي يعمل في دنياه، ويتعب ويكدُّ فيها بالعمل الصالح؛ كي يتمتع بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول.

٥- التنديد بإيثار الدنيا على الآخرة، وبتمني المغفرة مع الإصرار على الإجرام.

٦- بَعَثَ اللهُ رُسَلَه بصلاح الدارَين، فكل مَنْ كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.

٧- لا يكفي صلاح العبد للنجاة من العذاب، بل لابُدَّ أن يكون مُصْلِحاً لغيره.

٨- بيان طبائع اليهود ونفوسهم الشاذة، فكانوا يتمرَّدون على ربهم، ويَعْصُونه، برفضهم الالتزام بما عَهِدَ إليهم من أحكام، حتى يرفع الله فوقهم الطور تهديداً لهم، وعندئذ التزموا، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقضوا عهدهم، وعَصَوا ربهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

التفسير:

١٧٢- واذكر أيها الرسول، وليذكر كلُّ عاقل وقت أن استخرج الله تعالى من أصلاب بني آدم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون، ويتوالدون قرناً بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم، وأصلاب آبائهم، قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فِطْرَتِهم من الإقرار، بأنَّه ربُّهم وخالقهم ومليكهم، فقال: أَلَسْتُ بربِّكم، ومالك أمركم، ومُرَبِّيكم؟ قالُوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ على أنفسنا، عن عقيدة واقتناع بأنَّك أنت ربنا وخالقنا، ولا رَبَّ لنا سواك، فإنَّ آثار رحمتك وعجائب خلقك، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردَّد في هذه الشهادة. وعَلَّل سبحانه هذا الاستشهاد منعاً من ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معتذرين عن شرككم: إنَّا كُنَّا عن هذا الأمر - وهو إفراد الله تعالى بالربوبية - غافلين لم نتنبه له؛ لأنَّ،هم ما داموا قد خُلِقُوا على الفطرة، ونَصَبَ الله لهم في كل شيء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته، وجاءتهم الرسل فبشَّرَتْهم وأنذَرْتهم، فقد بَطَلَ عُذْرُهم، وسقطت حُجَّتُهم.

١٧٣- ثم بَيَّن سبحانه سبباً آخر لهذا الإشهاد وهو لئلَّا تقولوا يوم الحساب: إنَّ آباءنا هم الذين سَنُّوا هذا الإشراك وساروا عليه، فنحن قد اتبعناهم في ذلك بمقتضى أننا أبناؤهم، فإنَّ قولكم هذا غير مقبول بعد أن هيأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق، لو كنتم مستعدِّين لقَبوله.

١٧٤- وكذلك نُبَيِّن الآيات على وجه التفصيل، ولعلهم يثوبون إلى ما أودع الله في فطرتهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيتَه تعالى معرفة فطرية، ولكنَّ الفطرة قد تتغيَّر، وتتبدَّل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة.

٢- عجيبُ تدبيرِ الله تعالى في خلقه.

٣- الكافر كَفَرَ مرتين: كَفَرَ بالعهد الذي أُخذ عليه وهو في عالم الذَّرِّ، وكَفَرَ بالله مرة أخرى، وهو في عالم الشهادة، والمؤمن آمن مرتين.

٤- قد يَعْرِضُ للعبد من أقوال آبائه الضالِّين، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنُّه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حُجَجِ الله وبيِّناته، فإعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صَيَّره بحالة يفضل بها الباطل على الحق.

٥- ذَمُّ التقليد في الدين بلا تَبَصُّرٍ.

٦- محبة الله تعالى لعباده الرجوع للحق؛ ولذا أنزل الكتب، وفَصَلَ بين الأوامر والنواهي، وأثبتها بكل الحُجَجِ والبراهين.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

التفسير:

١٧٥- واقرأ على قومك - أيها الرسول- ليعتبروا ويتعظوا، خبرَ ذلك الإنسان ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ بأن علَّمناه إياه، وفَهَّمْناه مراميها، ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجِلْدِ من الشاة، فلحقه الشيطان وأدركه، فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالِّين الراسخين في الغَواية.

١٧٦- ثم يُبَيِّن الله أنَّه لو شاء لَرفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان؛ لأنَّ الله تعالى لا يستعصي على قدرته شيء، ولكنَّ هذا المنسلخ لَزِمَ الدنيا، واتبع شهوات نفسه. ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ إن شددت عليه واتبعته لَـهَثَ، وإن تَرَكْتَه على حاله لَـهَثَ أيضاً، فهو دائم اللَّهْثِ. لأنَّ اللَّهْثَ طبيعة فيه، وكذلك حال الحريصِ على الدنيا، الـمُعْرِضِ عن الآيات بعد إيتائها، إنْ وَعَظْتَه فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تَرَكْتَ وَعْظَه فهو حريص على الدنيا وشهواتها أيضاً. فهذا ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من الجاحدين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان في حَوْزَتهم، ثم يُوَجِّه الله نبيَّه أن يَقُصَّ على قومه ما قَصَّه الله عليه؛ ليتفكروا، فينزجروا عمَّا هم عليه من الكفر والضلال.

١٧٧- ثم ختم الله تعالى هذا المَثَل بأنَّه ﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ مَثَلُ أولئك ﴿ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ إذ شُبِّهُوا بالكلاب: إما في استواء الحالتين في النقصان، وأنَّهم ضالُّون وُعِظوا أم لم يُوعَظوا، وإما في الخِسَّة، فإنَّ الكلاب لا هَمَّ لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمَنْ خرج عن خير الهدى والعلم، وأقبل على هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المَثَلُ مَثَلُه، فهؤلاء جمعوا بين أمرين قبيحين: التكذيبِ، وظُلْمِهم أنفسَهم بارتكابهم تلك الموبقاتِ والخطيئاتِ.

١٧٨- ثم يُعَقِّبُ الله تعالى على هذا المثل بأنَّ مَنْ يوفقه الله تعالى إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسِّه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدي حقاً، الواصل إلى رضوان الله صدقاً، ومَنْ يخذله ربه سبحانه بالحرمان من هذا التوفيق، بسبب إيثاره السير في طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم.

١٧٩- وتَوَعَّد الله تعالى المخالفين لأمره بأنَّه قد خَلَقَ لدخول جهنم، والتعذيب بها ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتَدَبُّرها، الذين عَلِمَ اللهُ منهم من الأزل اختيارَهم الكفر، فشاءه منهم، وخَلَقَه فيهم، وجعل مصيرهم النار، حيث إنَّهم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الآيات الهادية إلى الإيمان مع أنَّ دلائل الإيمان مبثوثة في ثنايا الكون، تُدْركها القلوب المتفتحة، والبصائر المستنيرة، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ ما في هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ الآياتِ والمواعظَ سماعَ تَدَبُّرٍ واتعاظ، أي: إنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية.

ومَنْ هذه صفاتُهم فهم ﴿ كَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ السارحة التي لا تنتفع بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، بل هم أسوأ حالاً من الأنعام؛ إذ إنَّ الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها، أما الإنسان فقد زُوِّدَ إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزُوِّد بالقدرة على اتباع الهدى، أو اتباع الضلال، فهم في غفلة عَمَّا فيه صَلاحُهم وخيرُهم وسعادتُهم؛ بسبب استحواذ الهوى والشيطان عليهم، ولا يظلم ربك أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- في التعبير بقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ مبالغة في ذمِّ هذا الإنسان وتحقيره، وجعله كأنَّه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه.

٢- سُنَّةُ الله جرت بأنَّ الرِّفْعَةَ لِـمَنْ عنده الاستعداد لذلك، أما الذي ركن إلى الدنيا، واطمأن بها، واستحوذت بشهواتها على نفسه، واختار لنفسه طريق الضلال، واتبع هواه في ذلك، فلن يرفعه الله، ولن يكرمه.

٣- اتِّباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخِذْلان.

٤- ترك القرآن الكريم بهَجْرِ تلاوته والتدبر فيه، وترك العمل به مُفْضٍ بالعبد إلى أن يكون هو صاحب المثل في هذه الآي، إذ لا رِفْعةَ ولا سعادة إلا بالعمل بالقرآن.

٥- إفراد المهتدي للإشارة إلى أنَّ سبيل الهداية لا يتعدد، وجمع الثاني وهو قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للإشارة إلى تَعَدُّد أنواع الضلال، وتنوُّع وسائله وأساليبه.

٦- الهداية بيد الله، فلْيَطْلبها مَنْ أرادها من الله بصدق القلب، وإخلاص النية، فإنَّ الله تعالى لا يحرمه منها، ومَنْ أعرض عن الله أعرض الله عنه.

٧- تقرير مبدأ أنَّ السعادة والشقاء سَبَقَ بها قلمُ القضاء والقدر، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له.

٨- هبوط الآدمي إلى دَرَكٍ أَهْبَطَ من دَرَكِ الحيوان، وذلك عندما يكفر بربه، ويُعَطِّلُ حواسه عن الانتفاع بها، ويقصر همَّه على الحياة الدنيا.

٩- بيان أنَّ البلاء كامن في الغفلة عن آيات الله، والإعراض عنها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

التفسير:

١٨٠- يأمر الله تعالى بإخلاص العبادة لله تعالى، ومجانبة الملحدين والمشركين، وذلك ببيان أنَّ لله تعالى وحدَه جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني، وأكمل الصفات، ومن تمام كونها «حسنى» أنَّه لا يُدْعى إلا بها، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة. ثم أمر الله تعالى بالإعراض عن جميع الذين يلحدون في أسمائه، فحقيقة الإلحاد الميلُ بها عمَّا جُعِلَتْ له، إما بأن يُسَمَّى بها مَنْ لا يستحقها، كتسمية المشركين بها آلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، أو أن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وتَوَعَّد هؤلاء الذين يُلْحِدون في أسماء الله بأنَّهم سَيَلْقَون جزاء عملهم من الله رب العالمين.

١٨١ - يُبيِّنُ الله تعالى أن من جملة مَنْ خلق أُمةً فاضلة كاملة في نفسها، مكمِّلة لغيرها، ﴿يَهۡدُونَ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، فيعلمون الحق ويعملون به، ويُعَلِّمونه، وبالحق ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذلك. وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجى.

١٨٢ - ثم يُبيِّن حال المكذبين بآياته الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى، فرَدُّوها ولم يقبلوها، بأنه سيُمْهِلُهم، ويمدُّهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم، بكثرة النِّعَمِ بين أيديهم، حتى يفاجئهم الهلاك ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه صنع هذا معهم لوناً من الاستدراج.

١٨٣ - وأَمْهَلَ هؤلاء المكذِّبين المستدرجين في العمر، وأمدَّ لهم في أسباب الحياة الرغيدة، حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشَرّاً إلى شرهم، فتزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيَضُرُّون أنفسهم من حيث لا يشعرون، فكيدُ الله شديد متين، لا يُدافَع بقوة ولا بحيلة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى.

٢ - حرمة تأويل أسماء الله وصفاته، أو تحريفها.

٣ - أهل الجنة الذين خلقوا لها هم الذين يهدون بالكتاب والسنة، ويَقْضُون بها.

٤ - عظم خطر التكذيب بالقرآن الكريم، حتى إنَّ المكذِّب لَيُسْتَدْرَجُ حتى يهلك وهو لا يعلم.

٥ - في الآية (١٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله، سيفتح الله لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا، استدراجاً لهم حتى يَغْتَرُّوا بما هم فيه، ويعتقدوا أنَّهم على شيء، ثم يعاقبهم الله على غفلة من حيث لا يعلمون.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

التفسير:

١٨٤ - ثم يقرر الله صدق رسوله ﷺ فيما جاء به، ونفي ما يتهمونه به من الجنون، أنهم لو يُعْمِلُون أفكارهم، وينظرون: هل في صاحبهم الذي يعرفونه، ولا يخفى عليهم من حاله شيء، ضَرْبٌ من الجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمَّها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، فهو بهذا ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون، وإنما هو مُبالِغٌ في الإنذار، مُظْهِرٌ له غايةَ الإظهار، فهو لا يُقَصِّرُ في تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب، ولا يتهاون في نصيحتكم وإرشادكم إلى ما يصلح من شأنكم.

١٨٥ - ثم دعاهم القرآن إلى النظر والاستدلال العقلي، ونعى على إخلالهم بالتأمل في الآيات الكونية إثر تقريعهم على إغفال تفكُّرهم في أمر نبيهم ﷺ؛ وذلك بأنَّهم لم ينظروا نَظَرَ تأمُّل واعتبار واستدلال في ملكوت السموات: من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي ملكوت الأرض: من البحار والجبال والدواب وغيرها. ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف، مما يشهد بأن لهذا الكون خالقاً قادراً هو المستحِقُّ وحده للعبادة والخضوع. وكذلك لم ينظروا أيضاً في اقتراب آجالهم، وتَوَقُّعِ موتهم في أيِّ وقت، فيُسارعوا إلى طَلَبِ الحق، والتوجُّه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم، ونزول العذاب بهم وهم على الضلال، فبأيِّ حديث يؤمنون به؟

١٨٦ - ثم عَقَّب على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بأنه مَنْ يُرِدِ الله إضلاله بسبب اختياره للضلالة، وصَمَمِه عن الاستماع للحق، فلا قدرة لأحدٍ على هدايته، وهو سبحانه يترك هؤلاء الضالِّين في طغيانهم متحيرين متردِّدين، لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

١٨٧ - ثم بَيّن أن أمر الساعة مَرَدُّه إلى الله تعالى، فقد ورد أنَّ هذه الآية نزلت في قريش، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، فالله تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي: المكذِّبون لك، الذين يسألون عن يوم القيامة: متى وقته الذي يجيء فيه؟

وهنا قال الله لنبيه: قُلْ لهم إنَّه تعالى مختص بعلمها، لا يظهرها لوقتها الذي قَدَّر أن تقوم فيه إلا هو، وقد خَفِيَ عِلْمُها على أهل السموات والأرض، واشتدَّ أمرُها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون. ولن تَأْتِيكُمْ الساعة إلا فجأة من حيث لا تشعرون، فهم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك عالم بها، ولم يعلموا أنَّك - لكمال عِلْمِك بربِّك، وما ينفع السؤالَ عنه - غير حريص على السؤال عنها، فلِمَ لا يَقْتَدُون بك؟ ثم يؤكد تعالى أنَّ عِلْمَها عنده ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ فلذلك حَرَصُوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، ولاسيما مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهَمِّ، ويَدَعُون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يُدْرِكَه، ولا هم مطالَبون بعلمه.

١٨٨ - ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يُبَيِّن للناس أنَّ كل الأمور بيد الله، والغيب لا يعلمه إلا الله، حتى إنِّي لا أملك لأجل نفسي جَلْبَ نفعٍ ما، ولا دَفْعَ ضرر ما، في أي وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئة الله بأن يمكنني من ذلك، فإنني حينئذٍ أملكه بمشيئته، فليس لي من العلم إلا ما عَلَّمني الله تعالى، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ لَفَعَلْتُ الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، واتَّقَيْتُ كلَّ ما يُفْضِي إلى سوء ومكروه. وما أنا إلا عبد أرسلني الله نَذِيراً أنذر العقوبات الدنيوية والأخروية، وأبيِّن الأعمال المفضية إلى ذلك، وأُحَذِّر منها، وبشيراً بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كلُّ أَحَدٍ يقبل هذه البشارة والنِّذارة، وإنما ينتفع بذلك المؤمنون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التعبير بـ «صاحبهم» للإيذان بأنَّ طُول مصاحبتهم له ممَّا يطلعهم على نزاهته عما اتهموه به، فهو ﷺ قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة، كانوا يُلَقِّبونه فيها بالصادق الأمين، ويَعْرِفُون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم، والتفكير المستقيم.

٢ - من أهم وسائل الإيمان النظر والتفكُّر في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الآيات العظيمة.

٣ - أكبر موعظة أن يتذكر الإنسان دائماً أنَّ أجَلَه قد يكون قريباً وهو لا يدري، فيأخذ بالحذر والحيطة حتى لا يُؤْخَذَ على غير توبة، فيخسر.

٤ - مَنْ لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر، والعِظات والعبر، لا يتعظ بغيره.

٥- توجيه السائلين عن وقت قيام الساعة، إلى الواجب عليهم، وهو الاستعداد لها، بدل أن يُكْثروا من السؤال عن زمن مجيئها.

٧- أطلق الله على يوم القيامة ساعةً؛ لوقوعه بغتة، ولسرعة ما فيه من الحساب، ولأنَّه على طوله قَدْرٌ يسير عند الله.

٨- الساعة من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته، وسعة علمه؛ ولكي يكونوا دائماً على حذر، فيكون ذلك أدعى للطاعة، وأزجرَ عن المعصية، فإنَّه متى عَلِمَها المكلف فقد يتقاصر عن التوبة ويُؤَخِّرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

التفسير:

١٨٩- يذكر الله تعالى لنا شيئاً من مظاهر قدرته وأدلة وحدانيته، إذ ينبِّه على أنَّ الذي يستحق العبادة والخضوع، والذي عنده مفاتح الغيب ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس أبيكم آدم، وجعل من نوع هذه النفس وجنسها زوجها حواء؛ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر. فلما تَجَلَّلها مُجامعاً لها قدَّر الباري أن يكون من ذلك الجِماعِ النَّسْلُ، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ لا تُحِسُّ به الأنثى، ولا يُثْقِلُها، وذلك في ابتداء الحَمْلِ، ثم تأتي المرحلة الثانية من مراحل الحمل، حين أصبحت ذات ثِقَل بسبب نمو الحمل في بطنها، وتَعَلَّق به قلب الزوجين، تَوَجَّها إلى ربِّهما يَدْعُوانه بضَراعَةٍ وطَمَعٍ: يا رَبَّنا لئن أعطيتنا نَسْلاً سوياً تامَّ الخِلْقَةِ، لَنكونَنَّ من المداوِمين على شُكْرِ نَعْمائك.

١٩٠- فحين أعطاهما سبحانه الولد الصالح الذي كانا يتمنَّيانه، جعلا لله تعالى شركاء في هذا العطاء، وأخلَّا بالشكر في مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال، إذ نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطبيعة، أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله تعالى بالعبادة والشكر. وختم الله تعالى هذا الذي حصل منهم بتنزُّهِه سبحانه عن شِرْك هؤلاء الجاحدين الذين يُقابِلُون نِعَمَ الله بالإشراك والكفران.

١٩١- مضت الآيات في بيان توبيخ المشركين، وفي إبطال شركهم بأسلوب منطقي حكيم، فقد جاء باستفهام يُجَهِّلُ، ويُنْكِرُ إشراكهم مع الله - وهو الخالق لهم ولكل شيء - ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ من الأشياء مهما يكن حقيراً، بل إنَّ هذه الأصنام التي تُعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً ونِدّاً للخالق القادر؟

١٩٢- ثم إنَّ هذه الأصنامَ فضلاً عن كونها مخلوقة، فإنها لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصراً على أعدائهم، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً، ومَنْ هذه صفتُه كيف يُعْبَدُ من دون الله؟

١٩٣- وكذلك - أيها المشركون - إن تَدْعُوا هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم، أي: لا ينفعوكم بشيء، ولا ينتفعوا منكم بشيء، ويستوي عندكم دعاؤكم إياهم، وبقاؤكم على صمتكم، فإنَّه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أصل خلق البشر هو آدم وحواء عليهما السلام.

٢- الجنس إلى الجنس أميل، وبه آنس. فإذا كانت المرأة بعضاً من الرجل، كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه؛ لكونه بضعة منه. فالأصل في الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار، وهذه نظرة الإسلام إلى تلك الحياة.

٣- المتأمِّل في الأسلوب القرآني يرى سموَّ القرآن في تعبيره، وأدبه في عرض الحقائق، فإنَّ أسلوبه يلطف ويدقُّ عند تصوير العلاقة بين الزوجين، فهو يَسُوقُها عن طريق كناية تتناسب مع جَوِّ السكن والمودة بين الزوجين، وتَتَّسِقُ مع جَوِّ الستر الذي تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة بين الرجل والمرأة، ولا نجد كلمة تؤدِّي هذه المعاني أفضل من كلمة ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾.

٤- ضَعْفُ الإنسان عند الحاجة ولُجُوْءُه بفطرته إلى الله تعالى، أكبر دليل على وجوب صرف العبادة لله وحده.

٥- في الآيات توبيخ للمشركين، حيث إنَّ الله تعالى أنعم عليهم بخَلْقِهم من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم؛ ليَأْنَسوا بهنَّ، وأعطاهم الذريَّة، وأخذ عليهم العهود بشكره على هذه النِّعَمِ، ولكنَّهم جَحَدُوا نِعَمَه، وأشركوا معه في العبادة والشكر آلهة أخرى.

٦- التنديد بالشِّرك والمشركين، وبيان جهل المشركين وسَفَهِهم؛ إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

التفسير:

١٩٤ – ثم يتحدَّى الله تعالى المشركين، فيقرر لهم أنَّ هذه الأصناف التي تعبدونها من دون الله، أو تنادُونها لدَفْعِ الضُّرَّ، أو جَلْبِ الخير، مماثلة لكم في كونها مملوكة لله، مسخرة مُذَلَّلة لقدرته، كما أنكم أنتم كذلك، فلا فرق بينكم وبينهم، وإن كنتم وما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ فإن استجابوا لكم، وتَحَقَّقَ مطلوبُكم، وإلا تَبَيَّن أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفِرْيَةِ.

١٩٥ – وهل لهذه الأصنام التي تزعمون أنها تُقَرِّبكم إلى الله زُلْفى ﴿أَرْجُلٌ﴾ تسعى بها إلى دَفْعِ ضُرٍّ، أو جَلْبِ نفعٍ، أو ﴿أَيْدٍ﴾ تبطش بها، أو تأخذ بها ما تريد أخذه، أو ﴿أَعْيُنٌ﴾ تُبْصِرُ بها شؤونكم وأحوالكم، أو ﴿ءَاذَانٌ﴾ تسمع بها أقوالكم، وتعرف بواسطتها مطالبكم، بل هي عاجزة لفقدها الحواسَّ التي هي مناط الكسب، فقل – أيها الرسول – لهؤلاء الذين عَطَّلوا عقولهم: نادُوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء؛ ثم تعاونوا أنتم وهم على إلحاق الضرِّ بي من غير انتظار، فإني أنا معتزٌّ بالله، وملتجِئٌ إلى حِماه، ومَنْ كان كذلك فلن يخشى شيئاً من المخلوقين.

١٩٦ – وأَمَرَ الله نبيه ﷺ أن يعلن باعتزاز أنَّ الله وحده هو ناصري ومُتَوَلِّي أمري، وهو الذي نَزَّل هذا القرآن لأُخرجَكم به من الظلمات إلى النور، وقد جَرَتْ سنته سبحانه أن يَتَوَلَّى الصالحين الذين صَلَحَتْ نيَّاتهم، وأعمالهم، وأقوالهم.

١٩٧ – أما الذين تَعبدونهم من دون الله، أو تنادونهم لدفع الضر، أو جَلْبِ النفع، فلا يستطيعون نَصْرَكم في أيِّ أمرٍ من الأمور، وفضلاً عن ذلك، فهم لا يستطيعون رَفْعَ الأذى عن أنفسهم، إذا ما اعتدى عليهم معتدٍ.

١٩٨ – وإذا طلبتم أن يُرْشِدُوكم إلى ما تُحَصِّلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك، لا يسمعون شيئاً مِمَّا تطلبونه إليهم. ولو سمعوا – على سبيل الفَرَض – ما استجابوا لكم؛ لعجزهم عن فِعْلِ

أيِّ شيء، وترى هذه الأصنام كأنَّها تنظر إليك بواسطة تلك العيون المنحوتة، ولكنها في الواقع لا تُبصر لخلُوِّها من الحياة.

الفوائد والاستنباطات:

١- إقامة الحجة على المشركين بالكشف عن حقيقة ما يَدَّعُون أنَّها آلهة، فإذا بها أصنامٌ لا تَسْمع ولا تجيب، لا أيدٍ لها ولا أرْجُلٍ ولا آذانٍ ولا أعين.

٢- وجوب التوكل على الله تعالى، وطرد الخوف من النفس، والوقوف أمام الباطل وأهله في شجاعة وصبر وثبات، اعتماداً على الله تعالى وولايته، إذ هو يتولَّى الصالحين.

٣- جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر، بذكر العيوب والنقائص.

٤- وَبَّخَتْ هذه الآيات الكريمة المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ، وأثبتَتْ بالأدلة المنطقية الحكيمة وبوسائل الحس والمشاهدة أنَّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، وفي الوقت نفسه فالآيات دعوةٌ لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته لله الواحد القهار.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

التفسير:

١٩٩- خذ - يا محمد - ما تيسَّر وسَهُلَ من أخلاق الناس، وارضَ منهم بما تيسَّر من أعمالهم من غير مشقة، ولا تطلب منهم ما يُحْرِجُهم ويرهقهم، حتى لا ينفروا، وكُنْ لَيِّناً رفيقاً في معاملة أتباعك، وأْمُرْ غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال، وهو: كلُّ ما عُرِفَ حُسْنُه في الشرع، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير، واجعل ما يأتي إلى الناس منك: إمَّا تعليمَ عِلْمٍ، أو حَثّاً على خير، من صلة رحم، أو بِرِّ والدين، أو إصلاحٍ بين الناس، أو زَجْرٍ عن قبيح. ولما كان لابُدَّ من التعرُّض لأذى الجاهل أمر الله تعالى بالإعراض عن الذين لا يدركون قِيَمَ الأشياء والأشخاص والكلمات، فيما يبدر منهم من أنواع السَّفاهة والإيذاء.

٢٠٠- ثم نَبَّه الله نبيَّه - والمسلمون تَبَعٌ له - أنَّه إذا تعرَّض لك الشيطان بوسوسة تثير رَيْبَك، وتَحْمِلُك على خلاف ما أُمِرْتَ به من أَخْذ العفو والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، فاستَجِرْ بالله من نَزْغِه؛ لأنَّه سبحانه سميعٌ لجهل الجاهل عليك، ولغير ذلك من كلام خَلْقِه، لا يَخْفَى عليه منه شيء، عليمٌ بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه، وهو سبحانه كذلك سميع لدعائك، عليمٌ بكلِّ أحوالك، وهو وحده الكفيلُ بصَرْفِ وسوسة الشياطين عنك، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم.

٢٠١- ثم بَيَّنَ سبحانه حالة المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه أنهم إذا مَسَّهم شيء من وسوسة الشيطان ونَزَغاته التي تُلْهيهم عن طاعة الله، تَذَكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عَدُوِّهم الشيطان، وتذكَّروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا إلى طاعة الله، وإلى خوف مقامه، ونَهَوا أنفسهم عن اتباع الشياطين، فتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ومعاينة للحق.

٢٠٢- أمَّا الذين لم يتقوا الله، ولم يَلْجؤوا إلى حِماه، ولم يخالفوا الشيطان من المشركين والغافلين، فيزيدهم إخوانهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بارتكاب المعاصي، ثم لا يكُفُّ هؤلاء الشياطين عن إمداد أوليائهم من الإنس بألوان الشرور، والآثام، حتى يهلكوهم.

٢٠٣- وإذا لم تأتهم بآية من القرآن، أو بآية ممَّا اقترحوه عليك من الآيات الكونية، قالوا له بجهالة وسفاهة: هَلَّا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعاً بعقلك، أو هَلَّا أَلحَحْتَ في الطلب على ربك؛ ليعطيكَ إياها، ويجمعَها لك.

وهنا أمر الله تعالى نبيَّه أن يقول: إنما أنا مُتَّبِعٌ لا مبتدع، فما يوحيه الله إليَّ من الآيات، فأنا أبلِّغه إليكم بدون تغيير أو تبديل، والله سبحانه هو الذي يُنَزِّلُ الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضته حكمته البالغة، فإن أردتم آيةً لا تضمحلُّ على تعاقب الأوقات فهذا القرآن العظيم، والذِّكْرُ الحكيم أعظم المعجزات، وأَبْيَنُ الدلالات، فهو بمنزلة البصائر للقلوب، به تُبْصِرُ الحق، وتدرك الصواب، وهو هداية لكم من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ به، ويعملون بإرشاداته ووصاياه.

الفوائد والاستنباطات:

١- النفوس حين تألف الخير لا تحتاج إلى مناقشة وجدال لتوجيهها.

٢- الإعراض عن الجاهلين من الحكمة في الدعوة ، ومن ثمراتِه تذليلُ نفوسهم، وترويضها.

٣- في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، وهي طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار، وقد جاءت في

أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك؛ لكي تُبيِّن للناس في كل زمان ومكان أنَّ التحلِّي بمكارم الأخلاق إنَّما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد.

٤- الاستعاذة بالله تعالى سُنَّةٌ للمتقين، والإخلال بها من طبيعة الضالين، وهذا يدلُّ على عُلُوِّ منزلة المتقين، وقوة إيمانهم؛ لأنَّهم بمجرد أن تطوفَ بهم وساوسُ الشيطان، أو يَمَسَّهم شيء منه، فإنَّهم يتذكَّرون عداوته، فيرجعون إلى حِمى ربِّهم يستجيرون به، ويتوبون إليه.

٥- التربية الإسلامية تعنى بتربية المسلم في كل أحواله البنائية والوقائية والعلاجية، والاستعاذة تضمنت هذه الأحوال الثلاثة؛ فهي تبني فيه صحة العلم وقوة الإرادة، ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وتحميه من مرض الشبهات والشهوات.

٦- مَسُّ الشيطان قد يُغلق بصيرة الإنسان عن كلِّ خير، ولكنَّ التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة، وهي التي تجعل الإنسان دائماً يقظاً مُتَذَكِّراً لما أمره الله به، أو نهاه عنه، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهَمَزاته.

٧- التعبير عن الوسوسة بالطائف؛ إشعار بأنَّها وإن مَسَّتْ هؤلاء المتقين، فإنَّها لا تُؤَثِّر فيهم؛ كأنَّها طافَتْ حولهم دون أن تصلَ إليهم.

٨- القرآن أكبر آية، بل هو أعظم من كلِّ الآيات التي أعطيها الرسل عليهم السلام، فهو البصائر والهدى، مهما كانت حُجَّةُ المعاندين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

التفسير:

٢٠٤- ثم أمر تعالى بأنَّه إذا قُرِئَ القرآن الذي ذُكِرَتْ خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبُّرٍ وخشوع، وأصْغُوا إليه بأسماعكم وكلِّ جوارحكم؛ لتفهموا معانيه، وتَفَقَهوا توجيهاتِه، وأنْصِتُوا لقراءته حتى تنقضي؛ تعظيماً له، لكي تفوزوا برحمة الله ورضاه.

٢٠٥- ثم اختُتمت السورةُ الكريمة بالأمر بذِكْرِ الله، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ، والمؤمنون له تَبَعٌ: استحضِرْ عظمةَ ربِّك جلَّ جلالُه في قلبك، واذْكُرْه بما يُقَرِّبُك إليه، عن طريقِ قراءةِ القرآن، والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك، واذكُرْه بتَضَرُّعٍ وتَذَلُّلٍ وخوفٍ ذِكْراً في نفسك، وذِكْراً بلسانك

دون رَفْعِ الصوت بإفراط، وبما دونَه ممَّا هو أقلُّ منه، وهو الوسطُ بين الجهر والمخافتة، وذلك بأن تُسْمِعَ نفسَك، وذلك في كل وقت، ولاسيما في أول النهار وآخره، لأنَّ هذين الوقتين طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذِكْرِ الله، واختتمه به كان جديراً برعاية ربِّه. ثم نهى سبحانه نبيَّه أن يخالف ذلك، وأن ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين نَسُوا الله، فأنساهم أنفسهم، فإنَّهم حُرِمُوا خير الدنيا والآخرة، وأَعْرَضوا عَمَّنْ كلُّ السعادة والفوز في ذِكْرِه وعبوديته، وأقْبَلُوا على مَنْ كلُّ الشقاوة والخَيبة في الاشتغال به.

٢٠٦- ثم ذكر تعالى ما يُقَوِّي دواعي الذكر، وينهض بالهمم إليه، بمدحه للملائكة الذين يُسَبِّحون الليل والنهار لا يفترون، فالذين عِنْدَ الله وهم ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يُؤَدُّونها حسبما أُمِروا به بخضوع وطاعة، وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجه، ويَخُصُّونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع المتمثل في السجود له وحده، ولا يُشْرِكون معه أحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاستماع المأمور به يكون في الصلاة وفي غير الصلاة، فالآية تقتضي منَّا أن نستمع إلى القرآن بتدبُّر وإنصات وخشوع؛ ليكون له تأثيره الشافي في القلوب، وليقودَها إلى الطاعة والتقوى، فتُنال المغفرة والرحمة.

٢- الله تعالى أمر بالإسماع وهو أن يُلْقِيَ سَمْعَه، ويُحْضِرَ قلبه، ويتدبَّرَ ما يستمع، وأَمَرَ كذلك بالإنصات في الظاهر بتَرْكِ التحدُّث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

٣- إذا لازم المسلم الاستماع والإنصات حين يُتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً متجدداً، وبصيرةً في دينه؛ ولهذا جعل الله حصول الرحمة نتيجة لهما، فدلَّ ذلك على أنَّ مَنْ تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع ويُنْصِتْ له، محرومُ الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

٤- الذِّكْرُ والدعاء يكون في النفس؛ لأنَّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء، ويكون على سبيل التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، مع إظهار الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية، ويكون دون الجهر؛ لأنَّه أقربُ إلى حسن التفكر، ويكون باللسان لا بالقلب وحده، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله.

٥- من فوائد ذِكْرِ قوة الملائكة وكثرتهم: أنَّ الله لا يريد أن يَتَكَثَّر بعبادتكم من قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّة، وإنَّما يريد نَفْعَ الناس وفوزَهم.

٦- ينبغي التأسِّي بالصالحين، والاقتداءُ بهم في فِعْلِ الخيرات، وتَرْكِ المنكرات.

النزول: مدنية.

فضائل السورة:

عن واثلة بن الأسقع ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «أُعطيتُ مكانَ التوراة السبعُ، وأُعطيتُ مكان الزَّبور المئِين، وأُعطيتُ مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، وقال الشيخ الألباني: «الحديث بمجموع طرقه صحيح ، والله أعلم». (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٦٩).

والسبع الطوال: من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الأعراف فهذه ست سور، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معاً؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، بجعل الأنفال وبراءة بمنزلة سورة واحدة، أم هي سورة الأنفال فقط، أم سورة يونس؟ وعلى جميع الأقوال فسورةُ الأنفال داخلة ضمن السبع.

المقاصد:

١- بيان أحكام الغنائم.

٢- تفصيل أسباب النصر.

٣- بيان أحكام التعامل مع الكافرين في السلم والحرب.

٤- بيان مِنَّةِ الله ﷻ في تأليفه بين قلوب المؤمنين.

٥- أهمية أحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا، والذين لم يُهاجِرُوا، وعدم موالاتهم للذين كفروا.

٦- الحديث عن بعض تفاصيلِ غزوة بدر، وكيف نصر الله تعالى المؤمنين، وأيّدهم على الكافرين؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

١ - سبب النزول:

أخرج مسلم عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت فيَّ أربع آيات، أصبتُ سيفاً فأتى به النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنيه. فقال: «ضَعْه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه»، ثم قام فقال: نَفِّلْنِيه يا رسول الله! فقال: «ضَعْه» فقام فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنِيه. أأُجْعَلُ كمَنْ لا غَناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

(صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٧-١٣٦٨ برقم ١٧٤٨ - كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال).

التفسير:

يسألك بعض أصحابك - يا محمد - عن غنائم بدر كيف تُقْسَمُ؟ ومَنِ المستحق لها؟ فقل لهم: الغنائم لله يَحكم فيها بحكمه سبحانه، وللرسول ﷺ فهو الذي يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها. ثم حَثَّهم: أن اتقوا الله - أيها المؤمنون - بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأَصْلِحُوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر؛ بالتوادِّ والتحابِّ والتواصل، والتزِمُوا طاعة الله ورسوله في كلِّ أموركم، إن كنتم مُصَدِّقين بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

٢ - ثم بَيَّنَ تعالى صفات المؤمنين الصادقين: أنَّهم إذا ذُكِر اسم الله، وذُكِرَتْ صفاتُه أمامهم، خافت قلوبهم، استعظاماً لجلاله، وحَذَراً من عقابه، ورغبةً في ثوابه؛ وذلك لمعرفتهم بالله تعالى حَقَّ المعرفة، وتقديرهم لله حَقَّ قَدْره.

والصفة الثانية من صفات المؤمنين: أنهم إذا قُرِئَتْ عليهم آيات الله زادتهم قوةً في التصديق، ورسوخاً في اليقين، ومبادرةً إلى الأعمال الصالحة، وسَعَةً في العلم والمعرفة. وهذا من أهمِّ الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه.

أما الصفة الثالثة فهي: أنهم يعتمدون على ربهم الذي خلقهم بقدرته، ورَبَّاهم بنعمته، فلا يرجون سواه، ولا يَلُوذون إلا بجَنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣- أما الصفة الرابعة فهي: أنَّهم يُؤَدُّون الصلاة في مواقيتها، مستوفيةً لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها. وكانت الصفة الخامسة أنَّهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس، وسخاء يد، استجابةً لتعاليم ربِّهم.

٤- ثم مدح سبحانه أصحاب هذه الصفات، بأنَّهم هم المؤمنون إيماناً حقاً، وسيُجْزَون لذلك دَرَجاتٍ عالية، ومكانة سامية عند رَبِّهم. وهذا فيه مزيد تشريف لهم، ولطف بهم، وإيذان بأنَّ ما وعدهم به مُتَيَقَّنُ الوقوع. ولهؤلاء المؤمنون مَغْفِرَةٌ شاملة لما فرط منهم من ذنوبٍ أو تقصير، ولهم كذلك أعظم الرزق وأفضله في الجنة، يجعلهم يَحْيَون فيها حياة طيبة لا لَغْوٌ فِيها ولا تَأْثِيمٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الإجابة عن سؤال الصحابة عن الغنائم، تربيةٌ حكيمة لهم - وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم- حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله. أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التي تأتيهم من وراء جهادهم، فعليهم ألَّا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم، وأن يُفَوِّضوا الأمر فيها لله ورسوله ﷺ عن إذعانٍ وتسليم.

٢- كَرَّرَ سبحانه لفظ الجلالة في الآية الأولى ثلاث مرات؛ لتربية المهابة في القلوب، وتعليل الحكم؛ حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم.

٣- قرن الله بينه وبين رسوله مرتين؛ لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه، والإيذان بأنَّ طاعتَه ﷺ طاعة لله تعالى، ومخالفته مخالفة لأمر الله تعالى.

٤- في توسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة، إظهارٌ لكمال العناية بالإصلاح، وليندرجَ الأمرُ به بعينه تحت الأمر بالطاعة.

٥- تَقَدَّمَتْ أداة الحصر (إنما) عند ذكر صفات المؤمنين؛ للإشعار بأنَّ مَنْ هذه صفاتُهم هم المؤمنون، الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم، أما غيرهم ممَّنْ لم تتوافر فيه هذه الصفات، فأمْرُهم غيرُ أَمْرِهم، وجزاؤهم غير جزائهم.

٦- صفات المؤمنين المذكورة جمعت بين العبادات القلبية والبدنية والمالية، ولا شك أنَّها متى تَمَكَّنَتْ في النفس، كان صاحبها أهلاً لمحبة الله ورضوانه.

٧- التوكل على الله جِماع الإيمان، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب التي شرعها سبحانه، فالمؤمن يباشر الأسباب التي شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة من غير أن يتعلّق قلبه بها، تاركاً النتائج لله يُسَيِّرها كيف يشاء.

٨- في وصف الرزق الذي أعَدَّه لهم بالكرم زيادة في إدخال السرور على قلوبهم؛ لأنَّ لفظ الكريم دالٌّ عند العرب على بلوغ الموصوف به غاية الحسن والقَدْرِ في بابه.

٩- للإيمان حقيقة ودلائل يسعى المؤمن لتحقيقها في تحقيقها، وليس دعوة ولا كلمات وأمنيات.

١٠- إصلاح ذات البَيْن بين المؤمنين له أولوية وأهمية؛ لأنّه يحفظ الصف المسلم من المشاحنات.

١١- منهج التربية القرآنية منهج واقعي عملي، فعلى الدعاة إلى الله ﷻ أن يُحْسِنُوا التعامل مع آيات القرآن الكريم، ويتفاعلوا معها، ويَقيسوا أنفسهم عليها.

١٢- في الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لعُلُوِّ رتبتهم، وبُعْدِ منزلتهم في الشرف.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

التفسير:

٥- يُبَيِّن الله تعالى لنبيه ﷺ أنَّ حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمَك الغنائم بالسويَّة، مثل حال بعضهم في كراهة الخروج معك للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة ، فالله تعالى أمر نبيَّه محمداً ﷺ بالخروج إلى المشركين في بدر موافِقٌ للمصلحة، في الوقت الذي كَرِهَ فريق من المؤمنين ذلك الخروج. فقد حدث فيه أمران يَدُلّان على شيء من عدم الرضا من فريق من الصحابة، ثم أعقبهما الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله، فالأول: أن فريقاً من الصحابة كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسَّوِيَّة فيها إجحاف بحَقِّهم، لأنَّهم الذين قاموا بالنصيب الأوفر في القتال، وأنَّ غيرهم لم يكن له بلاؤهم، فأصلح الله بينهم، ورَدَّهم إلى حالة الرضا والصفاء.

والأمر الثاني: أنَّ جماعة منهم قبل المعركة كرهوا قتال قريش بعد نجاة العِير التي خرجوا من أجل الحصول عليها؛ إذ خرجوا بدون استعداد للقتال، لا من حيث العددُ، ولا من حيث العُدَّة، وما كان من مَيْلٍ للغنائم، أو نُفْرَةٍ للقتال، فهو مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يقال: إنَّه لا يليق بمقام الصحابة، ولكنهم سرعان ما استجابوا لما نصحهم به رسولهم ﷺ من وجوب قتال قريش. فشبَّه اللهُ حالَهم هذا بحالهم في مسألة الغنيمة ، وهذا أكمل بيان، وأوجز لفظ.

٦- ثم يقول الله تعالى لنبيه مستنكراً ما وقع من كراهية بعض الصحابة القتال: إنَّ بعض أصحابك يا محمد ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في أمر القتال، بأنْ قالوا: ما كان خروجنا إلا للعِير، ولو أَخْبَرْتَنا بالقتال لأعددنا العُدَّة له. وهذا الجدال كان ﴿فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم، وأنَّه لا مَفَرَّ لهم من لقاء قريش، تحقيقاً لوعد الله الذي وعد بإحدى الطائفتين. وهذا فيه زيادة في لومهم، وبيانٌ لثمرة الإذعان لأمر الله ورسوله ﷺ، وإن لم تظهر الحكمة أول الأمر، وصَوَّرهم أبلغ تصوير، حتى إنَّهم لَيكرهون القتال كراهة مَنْ يساق إلى الموت، وهو ناظر إلى أسبابه، ومُشاهِدٌ لموجباته. وفي هذا تصوير معجز لِـما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال، بسبب قِلَّةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم.

٧-٨- ثم بَيَّنَ سبحانه جانباً من مظاهر فَضْلِه على المؤمنين، مع جَزَعِ بعضهم من قتال عدوِّه وعدوِّهم، وإيثارهم العِيرَ على النفير: اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أنْ وَعَدَكم الله تعالى على لسان رسوله بأن ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: العِير أو النفير هي لكم، تظفرون بها، وتتصرفون فيها تَصَرُّفَ المالك في ملكه، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التي لا قتالَ فيها يُذكر، على طائفة النفير التي تحتاج منكم إلى قتال شديد، وإلى بَذْلٍ للمُهَجِ والأرواح. وفي هذه الجملة تعريض بهم، فقد كرهوا القتال، وأحَبُّوا المال، وما هكذا يكون شأن المؤمنين بالغيب، الصادقين الواثقين بربهم. واستعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدَّة والحِدَّة بينهما.

ثم بَيَّنَ سبحانه الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم، ونصرتهم عليهم؛ ليثبتَ الدين الحق دين الإسلام، ويمحق الباطل، وهو ما عليه المشركون من كفر وطغيان، إذ اقتضت إرادة الله أن يُعِزَّ الدين الحق وهو دين الإسلام، وأن يمحق ما سواه، ولو كره المشركون ذلك؛ لأنَّ كراهيتهم لا وزن لها، ولا تعويل عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجدال في الحق بعد تَبَيُّنِه أقبحُ من الجدال فيه قبل ظهوره.

٢- في الآيات تقرير قاعدة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

٣- بيان رحمة الله بالإنسان، وبيان ضَعْفِه في رغبته في كلِّ مالا كُلْفَةَ فيه ولا مشقة.

٤- الهدف المنشود عند المؤمنين هو إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهذا يحتاج إلى صبر وثبات.

٥- إرادة الله للعبد خيرٌ من إرادته لنفسه، فعلى المؤمن أن يمضي في طريق الله ﷻ، لا يأبه بكل قوى الباطل التي تحاول أن تقطع عليه طريق دعوته.

٦- النفس البشرية قد تتذبذب في مواجهة الخطر، ولكن البطولة هي المضيُّ لأمر الله ورسوله بعد التذبذب، والإقدام بعد التأرجح.

٧- الله ﷻ تَكَفَّل بحِفْظِ دينه، ونصرة دعوته، وجعل المؤمنين محلًّا لتنفيذ قَدَره، وهو سبحانه بفضله ومِنَّته يعطيهم الأجر الجزيل؛ لكونهم ساروا في طريقه، وضَحَّوا في سبيله بالغالي والنفيس.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾

التفسير:

هنا بيان من الله تعالى لبعض النِّعَمِ التي أنعم بها على المؤمنين في بدر، إذ أيّدهم الله بها، فانتصروا.

٩ - فالله تعالى يقول لهم: يا أهل بدر اذكروا نعمة الله عليكم؛ لما قارب التقاؤكم بعدوِّكم بالغَثْم في الطلب من الله ورجائه أن يُعِينكم ويُنْصُرَكم، فكان رسول الله ﷺ يدعو وأنتم تؤمنون، ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ الله لكم، وهذا من فضل الله عليكم ورحمته بكم. وكان من مظاهر تلك الاستجابة أن أخبركم على لسان نبيّكم ﷺ بأني مُعِينُكم وناصِرُكم بألف من الملائكة متتابعين، بعضهم على إثر بعض.

١٠ - وما جعل الله تعالى هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على أعدائكم، حتى تزدادوا ثقة به، ولا تقنطوا من النصر عند قلة أسبابه، ولتسكنَ بهذا الإمدادِ قلوبُكم، ويزول عنكم الخوف، وتهاجموا أعداءكم بنفوسٍ لا يُداخلها الإحجام أو التردُّد. فالنصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، والله تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغالِبه مُغالِبٌ، بل هو القهّار الذي يخذل مَنْ بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلة ما بلغوا. ﴿حَكِيمٌ﴾ إذ قَدَّر الأمور بأسبابها، ووَضَعَ الأشياء مواضعها.

١١ - ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن ألقى عليكم النُّعاس، وغَشَّاكم به قبل التحامكم بأعدائكم، ليكون أماناً لقلوبكم، وراحة لأبدانكم، وبشارةَ خيرٍ لكم، فإن الخائف إذا خاف من عدوِّه فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمِنُوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد، دليلاً على إزالة الخوف وحصول الأمن، فناموا واثقين بالله، مطمئنين لوعده، وأصبحوا على هِمَّةٍ ونشاط في لقاء عدوه وعدوهم.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن أنزل عليكم الماء. ولنزول هذا الماء فوائد، فهو أولاً: تطهير حسي لكم، وثانياً: ليُزيل عنكم وسوسة الشيطان، بتخويفه إياكم من العطش، وبإلقائه في نفوسكم الظنون

والأوهام. وهذا هو التطهير الباطني، وثالثاً: ليقوّي ويَشُدَّ على القلوب بالثقة في نصر الله، وليُوَطِّنَها على الصبر والطمأنينة. ولا شك أنَّ وجود الماء في حَوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم، وثباتاً على ثباتهم، أمَّا فَقْدُه فإنه يؤدي إلى فقد الثقة والاطمئنان، بل وإلى الهزيمة المحققة.

ورابع هذه الفوائد التي نَجَمَتْ عن نزول الماء من السماء على المؤمنين: تثبيت أقدامهم به حتى لا تسوخ في الرمال، وحتى يسهل المشي عليها، إذ من المعروف أن من العسير المشيَ على الرمال، فإذا ما نزلت عليها الأمطار ثبتت، وسَهُل السير فوقها من غير ضرر، وانطفأ غبارها.

١٢- ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثة المؤمنين أن ذَكَّرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم في نَصْرهم على المشركين، إذ قال: واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ بهم المسلمين في بدر ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بعَوني وتأييدي ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فقَوّوا قلوبهم، ومَلَؤُوا نفوسهم ثقةً بالنصر، وصَحَّحوا نياتهم في القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله. وذلك بالحمل على الثبات في موطن الحرب، والجِدِّ في مقاساة شدائد القتال، ومن ذلك ظهور بعضهم أحياناً في صورة بشرية يعرفونها.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتهم أنّه بشَّر المؤمنين بشارة عظيمة: سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم.

ثم حثَّ الله المؤمنين على الأخذ بوسائل النصر، وما وَفَّقهم إليه منها، وطلب إليهم أن يهاجموا أعداءه وأعداءهم بقوة وغِلْظَة، وأن يضربوهم على أعناقهم ورؤوسهم، ومواضع نَحْرِهم، وعلى أطرافهم حتى يَشُلُّوا حركتهم، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم.

١٣- ثم بَيَّن سبحانه السبب في هذا الفعل من ضَرْب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق، وضَرْبِ كل بَنان منهم. إنهم فارقوا أمْرَ الله ورسوله وعَصَوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان، ومَنْ يخالف أمرَ الله وأمر رسوله ويفارق طاعتهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وذلك بما يحلُّ بأعدائه في الدنيا من النِّقَم، وفي الآخرة من الخلودِ في نار جهنم.

١٤- ثم يُوَجِّه سبحانه خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقُّوا الله ورسوله، متوعِّداً إياهم بسوء المصير: بأنَّ ذلكم الذي نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأَسْر في بدر، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم، فذوقوا آلامه في الدنيا، أما في الآخرة فلكم عذاب النار الذي هو أشدُّ وأبقى من عذاب الدنيا، فذوقوا ما عَجَّل لكم مع ما أجَّل لكم في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية الاستغاثة بالله تعالى، وهي عبادة محضة، فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.

٢- مشاقة الله ورسوله كفرٌ يستوجب صاحبها عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

٣- تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون، ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.

٤- النصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، لأنَّه سبحانه هو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، فالمؤثِّر الحقيقي في النصر هو الله وحده، والوسائل مهما عَظُمَتْ، والأسباب مهما كثرت، لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، والغاية المرجوة، إلا إذا أيَّدَتْها إرادة الله، ورعايته.

٥- تقديم الجار والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾؛ للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

٦- في ظل الأزمات والشدائد يرسل الله تعالى لعباده ما يثبتهم، ويشدُّ على قلوبهم، فيرون في الشدة فَرَجاً وفتحاً كبيراً.

٧- أعظم سنن النصر في الإسلام:

أ- أنَّ النصر من عند الله.

ب- وأنَّ النصر لا يتنزل إلا على المؤمنين.

ج- وأنَّ النصر لا يكون إلا بالمؤمنين.

٨- يستعين المؤمن الصادق على نوائب الدهر بالدعاء والتوكل والإنابة.

٩- الثقة في نصر الله شأن المؤمنين مهما كانت الظروف المحيطة، ومهما تكالب الأعداء، وقلَّ الناصرُ، وضَعُفَ المعين.

١٠- في الآية (١٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيُلقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد، والذِّلَّة، والصَّغار.

١١- ينظر: خريطة موقع العُدوة الدنيا والقصوى، كما في الملحق.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥- يا مَنْ آمنتم بالله حقَّ الإيمان، إذا لَقِيتم الكفار زاحفين نحوكم لقتالكم فلا تَفِرُّوا منهم، ولا تُوَلُّوهم ظهوركم منهزمين، بل قابِلوهم بقوة وشجاعة.

١٦- ومن يُولِ الكافرين يوم لقائهم ظهره غيرَ قاصد التمكُّن من القتال، كأن يرى مكاناً أصلح، وموقفاً أفضل، ولا منحازاً إلى فئة لزيادة القوة والكرِّ على العدوِّ؛ فقد رجع متلبِّساً بغضب شديد من الله تعالى، وأنَّ مَقَرَّه الذي سيستقر إليه في الآخرة جهنم. وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير.

١٧- فلم تقتلوهم بقوتكم وبأسكم، ولكن الله تعالى هو الذي أظفركم بحوله وقوته بأَنْ خَذَلَهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقوَّى قلوبكم، وأمدَّكم بالملائكة، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلَّغكم هذا النصر. وما رميت يا محمد حين رميت إلا أن الله تعالى سدَّد رَمْيك للتراب؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم أحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذٍ بان فيهم الفشل والضعف فانهزموا، ثم نبَّه تعالى أنَّه قادر على نصر المؤمنين على الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكنَّ الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويُوصِلَهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً، فالله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَسْمَعُ ما أَسَرَّ به العبدُ وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النِّيات، فيُقَدِّر على العباد أقداراً موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كُلّاً بحسب نيته وعمله.

١٨- ذلكم الذي منحتُه إياكم من العطاء الحسن، والإمداد بالملائكة، وإنزال الماء عليكم وإلحاق الهزيمة بالمشركين. ذلكم كله نِعَمٌ مني إليكم. ويُضاف إلى ذلك كله أني مُضْعِفٌ لكيد الكافرين، ومفسد لمكرهم بكم.

١٩ - ثم وَجَّه سبحانه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرُّسوخ في الكفر على أن يَدْعُوا الله أن يجعل الدائرة في بدر على أضلِّ الفريقين، فقد ورد أن كفار قريش عند خروجهم إلى بدر تَعَلَّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الجُنْدَين، وأنَّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أيُّنا أقطع للرحم.. فأَحْنِه الغداةَ، فكان ذلك استفتاحه؛ ولذا بيَّن الله لهم بقوله: إن تطلبوا القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم، إذ حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين، بأَنْ أعَزَّهم ونصرهم لأنهم على الحق، وخَذَلَكم وأذَلَّكم لأنكم على الباطل، فكان الأمرُ خلاف ما أرادوا.

فالخطاب للمشركين في: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ على سبيل السخرية والتهكم، كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

ثم حَذَّرهم من التمادي في الباطل بعد ترغيبهم في الانقياد للحق، فقال لهم: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى محاربة الرسول ﷺ والمؤمنين وعداوتهم ﴿نَعُدْ﴾ عليكم بالهزيمة والذِّلَّة. وعلى المؤمنين بالنصر والعزة، ولن تستطيع جماعتكم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة، وهذه الذلَّة.

ثم ختم الله تعالى الآية بتثبيت المؤمنين، وإلقاء الطمأنينة في نفوسهم، بأن أكَّد أنَّه مع المؤمنين بعونه وتأييده، ومن كان الله معه فهو المنصور، وإن كان ضعيفاً في العُدَّة، قليلاً عددُه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من شأن المؤمن أن يكون شجاعاً لا جباناً، ومقبلاً غير مدبر.

٢ - الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر.

٣ - أثبت الله تعالى الرمي لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ صورته وُجِدَتْ منه، ونفاه عنه، لأنَّ أثره الذي لا يطيقه البشر هو فِعْلُ الله ﷻ.

٤ - تقرير مبدأ أنَّ الله تعالى خالق كل شيء، وأنه خلق العبد وخلق فِعْلَه.

٥ - الكثرة والقوة لا وزنَ لها ولا قيمة، إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده.

٦ - مَعِيَّةُ الله تعالى للمؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان، فإذا انتصر العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطاً من المؤمنين بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما هُزِمت لهم راية.

٧ - المؤمن الصادق يَثْبُتُ في ميدان الدعوة والجهاد واثقاً بعون الله وتأييده، وأنَّه أقوى من الباطل المنتفش مهما تَسَلَّط؛ لأن المؤمن موصول بالله ﷻ.

٨- الله ﷻ يُدَبِّر للمؤمنين ويُسَدِّدهم، ويُوهن كيد الكافرين، ويُضْعِفُهم.

٩- سُنَّةُ الله في النصر، والهزيمة جارية لا تَتَخَلَّف ولا تتبدَّل، والمهم أن يلتزم المؤمنون بمنهج الله، ولا ينحرفون عنه، ولا ينخدعون بغيره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، ولا تُدْبِروا عن رسول الله ﷺ مخالِفين أمْرَه ونَهْيَه ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ ما يُتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتَوَلِّيكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

٢١- وإياكم أن تتشبَّهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادَّعَوا السَّماع، فقالوا سمعنا، وهم لم يسمعوا سماع انتفاع، لأنَّهم لم يُصَدِّقُوا ما سمعوه، ولم يتأثروا به، بل نبذوه وراء ظهورهم.

٢٢- ثم وصف سبحانه الكفار والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم، فقال: إنَّ شَرَّ ما دبَّ على الأرض مِنْ خَلْقِ الله عند الله الذين يَصُمُّون عن الحق؛ لئلَّا يستمعوه؛ فيعتبروا به، ويتعظوا به، ويَنْكُصون عنه إن نطقوا به، ولا يعقلون ما ينفعهم، ويُؤْثِرُونه على ما يَضُرُّهم، فهؤلاء شرٌّ عند الله من جميع الدوابِّ.

فشَبَّه الكفار بالبهائم، بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ إن الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به، والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يَضُرُّ، والبهائم لا تَضُرُّ، فكيف لا يكون شراً منها؟

٢٣- ولو أنَّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ عندهم استعداداً للإيمان ورغبةً فيما يُصْلِحُ نفوسهم وقلوبهم، لَجعلهم سامعين للحق، ومستجيبين له، ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك، فحَجَبَ خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم، فلو أسمعهم سماعَ تَفَهُّمٍ وتَدَبُّرٍ وهم على هذه الحالة الخالية من كل خير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عمَّا سمعوه من الحق ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن قبوله جُحوداً وعِناداً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

٢ - ليس الإيمان بالتمني والتحلِّي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصَدَّقَتْه الأعمال.

٣- حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال، وفي كل شيء من سلوكهم واعتقاداتهم وأفعالهم السيئة.

٤ - بيان أنَّ من الناس مَنْ هو شرٌّ من الأنعام؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذلك الخير الكثير. فوصفهم سبحانه بالصمم والبُكْم مع أنهم يسمعون وينطقون؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بهذه الحواس.

٥ - الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لِـمَنْ لا خير فيه، وله تعالى الحكمة البالغة.

٦ - السعادة الحقيقية والحياة الطيبة في الاستجابة لله والرسول؛ لأنَّها تَصالُحٌ مع الفطرة، وانسجامٌ مع الكون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٤- ثم وَجَّه سبحانه النداء الثالث إلى المؤمنين بما يَقْتضيه إيمانهم من الانقياد لأمره، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه عن طواعية واختيار، وهمَّة وحسن استعداد، لأنَّ ما يدعو إليه الله ورسله فيه حياة القلب والروح، الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

وإياكم أن تَرُدُّوا أَمْرَ الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه، وتختلف قلوبُكم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، يُقَلِّب القلوب حيث شاء، ويُصَرِّفها أنّى شاء، واعلموا أنكم ستجمعون ليومٍ لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

٢٥- ثم يُؤَكِّد سبحانه بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخي في تغيير المنكر: بأن احْذَروا أن ينزل بكم عذاب سيَعُمُّ عند نزولِه الأخيار والفجّار، والمحسنين والمسيئين، وذلك إذا ظهر الظلمُ فلم يُغَيَّر، فإنَّ عقوبته تَعُمُّ الفاعلَ وغيره، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لِـمَنْ خالف أَمْرَه، وانتهك حرماته، وتَعَرَّض لمساخطه.

٢٦- ثم ذَكَّرهم الله بجانبٍ مِنْ فَضْلِه عليهم في نَصْرهم بعد الذِّلَّة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد الفقر؛ وذلك ليتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نِعَم الله، وأن يُداوموا على شكرها حتى يزيدهم سبحانه من فضله. واذْكُرُوا - يا معشر المؤمنين - وقت أن كنتم قِلَّةً مستضعفة في أرض مكة تحت سَطْوَةِ كفار قريش، أو في أرض الجزيرة العربية، تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذاً سريعاً؛ لقوتهم وضعفكم، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال، وأبدلكم خيراً منها، بأَنْ آواكم إلى المدينة، وألَّف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ في غزوة بدر، وقذف في قلوب أعدائكم الرعب منكم، ﴿وَرَزَقَكُم﴾ مِنَ الغنائم التي أحَلَّها لكم بعد أن كانت محرَّمَةً على الذين من قبلكم، كما رزقكم أيضاً بكثير

من المطاعم والمشارب الطيبة التي لم تكن متوافرة لكم قبل ذلك، وذلك كله حتى تستمروا على طاعة الله وشكره، ولا يشغلكم عن ذلك أي شاغل، وتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

٢٧- ثم وَجَّه سبحانه بعد ذلك نداءً رابعاً إلى المؤمنين: بأن ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بتَرْكِ فرائضه وأوامره التي كَلَّفكم بها، وانتهاك حرماته التي نهى عن الاقتراب منها، ولا تخونوا الرسول ﷺ، بأن تتركوا سنته، وتُخالِفوا ما أمركم به وترتكبوا ما نهاكم عنه، ولا تخونوا ما اؤتُمِنتم عليه بأن تُفْشُوا الأسرار التي بينكم، وتنقضوا العهود التي تعاهدتم على الوفاء بها، وتُنكروا الودائع التي أودعها لديكم غيركم، وتستبيحوا ما يجب حِفْظُه من سائر الحقوق المادية، مع أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله، وللأمانات التي اؤتمن عليها.

٢٨- ولما كان حُبُّ الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي الإقدام على الخيانة، نَبَّه سبحانه لذلك فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ امتحان واختبار لكم من الله تعالى؛ ليتبيَّن قويُّ الإيمان من ضعيفه، فقويُّ الإيمان لا يشغله مالُه وولدُه عن طاعة الله، وضعيف الإيمان يشغله ذلك عن طاعة الله، ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله، ومطيعاً لمطالب أولاده، حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافيةً مع تعاليم دينه وآدابه.

ثم يُرَغِّب الله المؤمنين في طاعته، بعد أن حَذَّرهم من فتنة المال والولد بأنَّه سبحانه عنده أجرٌ عظيم لِـمَنْ آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب الأولاد، فكونوا - أيها المؤمنون - من المُؤْثِرين لحب الله على حبِّ الأموال والأولاد؛ لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة.

٢٩- ثم ختم سبحانه نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذي يهديهم إلى سبل الخير والفلاح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يُغْضِبُه، وتُطيعوه في السرِّ والعَلَنِ ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ أولاً: هدايةً في قلوبكم تُفَرِّقون بها بين الحق والباطل، ونصراً تَعْلُو به كلمتكم، ومَخْرَجاً من الشبهات التي تقلق النفوس، ونجاةً ممَّا تخافون. ثانياً: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: يسترها عليكم في الدنيا. ثالثاً: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ما فَرَط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه. رابعاً: الأجر العظيم، والثواب الجزيل لِـمَنِ اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه. وهذا فَضْلٌ منه سبحانه فهو صاحب العطاء الجزيل، والخير العميم لِـمَنْ أطاعه واتقاه، وصان نفسه عمَّا يُسخطه ويغضبه.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الاستجابة لله ورسوله بفِعْلِ الأمر وترك النهي؛ لما في ذلك من حياة للفرد والمجتمع.

٢- تَعَيُّن اغتنام فرصة الخير قبل فواتها، فمتى سَنَحَتْ للمؤمن تَعَيَّنَ عليه اغتنامُها.

٣- الحثُّ على أن يُكْثِرَ العبد من قول: يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك، يا مُصَرِّفَ القلوب، اصرِفْ قلبي إلى طاعتك.

٤- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اتقاء للفتن التي يهلك فيها العادل والظالم، فإنَّ الأُمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم والمنكرات، ثم لا تجد مَنْ يحاربها، ويعمل على إزالتها، تستحق العقوبة جزاءَ سكوتها واستخذائها وجُبنها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

٥- وجوب شُكْرِ النعم بحمد الله تعالى، والثناء عليه، والاعتراف بالنعمة له، والتصرف فيها حسب مرضاته.

٦- جَمَعَتْ الآيات بين الترغيب في العمل الصالح بسرعة ونشاط، والترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله.

٧- في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر فتنة المال بالكسب الحلال، والإنفاق في الأوجه المشروعة. واتقاءُ خطر فتنة الأولاد يكون بتربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنُّبهم أسباب المعاصي والرذائل.

٨- من ثمرات التقوى تكفير السيئات، وغفران الذنوب، والفرقان؛ وهو نور في القلب يُفَرِّق به المتقي بين الأمور المتشابهات التي خفي فيها وجه الحق والخير.

٩- تقوى الله تَقي من المزالق، وتقيم الفرد على طريق الله ﷻ.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٠- اذكر - يا محمد- أنت وأُمتك، ما مَنَّ الله به يومَ تآمَرَ عليك صناديد المشركين، وتشاوروا في دار الندوة ليحبسوك، فيمنعوك عن تبليغ دعوتك، ويمنعوا الناس من الوصول إليك، أو يقتلوك، فيستريحوا بزعمهم منك ومما جئت به، أو يُخرجوك من مكة، حتى تواطؤوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى، فيقتلوك قِتلة رجلٍ واحد؛ ليتفرَّقَ دمُك في القبائل، فيرضى بنو هاشم بالدِّيَة، ولا يقدروا على مقاومة سائر قريش، والحال أنَّ هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السيئ. والله تعالى يَرُدُّ مكرهم في نحورهم، ويُحبط كيدهم، ويخيب سعيهم، فأخرج الله نبيَّه من مكة إلى المدينة لم يمسسه سوء، ومَكَّن له في الأرض ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إذ لا يُعْتَدُّ بمكرهم مقابلَ مَكْرِه، فسبحان اللطيف بعبده، لا يغالبه مغالب.

٣١- ثم ذَكَر الله بعد ذلك جُرْماً آخر من جرائم أعداء الدين الحق، وهو: أنَّ هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذبُ والتمادي في الطغيان أنهم كانوا حين تتلى عليهم آيات الله ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما قرأته علينا يا محمد ووَعَيناه، لو أردنا ﴿لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ القرآن الذي تتلوه علينا!! وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التي سَطَّرها بعضهم عنهم، وليس من عند ربك كما تزعم!! وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تَحَدَّاهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يستعينوا بمن استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتَبَيَّن عَجْزُهم، وقد علموا أنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رَحَلَ ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فالذي زعموه ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التي كانوا يَشُنُّونها على الدعوة الإسلامية، بقصد تضليل العامَّة، والوقوف في وجه تأثير القرآن في القلوب، ومحاولة طَمْسِ معالم الحق ولو إلى حين.

٣٢- وتمضي الآيات في حديثها عن جرم ثالث من جرائم مشركي قريش، فتذكر مَظْهَراً عجيباً من مظاهر عنادهم، وجحودهم للحق، وقد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند

الله، وأن محمداً قد جاءهم بالحق، بل أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ﴾ هذا الذي جاءنا به محمد من قرآن وغيره ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ المنزَّل ﴿مِنْ عِندِكَ﴾، فعاقِبْنا على إنكاره والكفر به، بأن تُنَزِّلَ علينا ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تُهلكنا كما فَعَلْتَ بأصحاب الفيل، أو تُنْزِلَ علينا عذاباً أليماً يقضي علينا، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهْدِنا له، ومرادهم - والعياذ بالله - الجزمُ بنفي كونه حقاً، وقولهم يدل على غاية العناد وكراهية الحق والنفور منه، مهما لاحت معالمه، وتجلَّتْ مراسمه.

٣٣- وما كان الله مُريداً لتعذيب هؤلاء الذين دَعَوا بهذا الدعاء الغريب تعذيبَ استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم يا محمد بمكة، فقد جَرَتْ سُنَّتُه سبحانه ألَّا يُهْلِكَ قرية مُكَذِّبة وفيها نبيها والمؤمنون به؛ حتى يُخرجهم منها ثم يعذب الكافرين. وكذلك ما كان الله مريداً لتعذيبهم وبين أظهرهم من المؤمنين المستضعفين مَنْ يستغفر الله، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة، والهجرة إليك في المدينة.

٣٤- ثم بَيَّنَ سبحانه بعض الجرائم الأخرى التي ارتكبها المشركون، والتي تجعلهم مستحقين لعذاب الله، وأنْ لا شيءَ يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يُوجب ذلك، وهو صَدُّ الناس عن المسجد الحرام، وصَدُّ مَنْ هم أولى به منهم، فالمشركون ما كانوا يوماً من الأيام أولياء الله. وبناءً عليه فهم ليسوا أولياء لبيت الله كما يزعمون، بل لمصالحهم الشخصية وشهواتهم؛ لأنَّ أولياء الله تعالى هم المتقون الذين صانُوا أنفسهم عن الكفر، وعن الشرك، وعن كلِّ ما يُغضب الله، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جَهْلِهم، وتماديهم في الجحود والضلال.

وقد جاءت جملة ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مُؤَكَّدة بأقوى ألوان التأكيد، لنَفْي كلِّ ولاية على البيت الحرام سوى ولايتهم هم، وتَضَمَّن بشارةً بزوال شأن المشركين عن مكة، واستخلاف الله المؤمنين عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية التَّذْكير بنِعَمِ الله تعالى على العبد؛ ليُجَدِّدَ العبد في نفسه داعية الشكر، فيشكر.

٢- في صيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة، من تآمُر المشركين على صاحب الرسالة ﷺ.

٣- بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم يبذلون كلَّ جهد في سبيل إنهائها، والقضاء عليها، ولكن الله تعالى ناصر دينه، يَرُدُّ كيد الماكرين في نحورهم.

٤- النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود، وتنقاد للأهواء والشهوات، وتأخذها العزة بالإثم، ترى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وتُؤْثِرُ العذاب وهي سادرة في باطلها، على الخضوع للحق والمنطق والصواب.

٥- النبي ﷺ أمان أُمته من العذاب، فلم تُصَبْ هذه الأمة بعذاب الاستئصال، ولن تصاب.

٦- فضيلة الاستغفار، وأنه يُنجي من عذاب الدنيا والآخرة.

٧- بيان عِظَمِ جُرْمَ مَنْ يَصُدُّ عن المسجد الحرام، وإقامة الشعائر فيه.

٨- بيان أولياء الله تعالى حقيقة، والذين يحق لهم أن يَلُوا المسجد الحرام وهم المتقون.

٩- إن الله تعالى يعصم أولياءه ويدحر أعداءه، فعلى الدعاة أن يمضوا في طريق ربهم غير عابئين بقلة ولا بكثرة، لأنَّ الله ناصرُهم ومعينهم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٥- وَصَفَ سبحانه ضرباً آخر من ضلال هؤلاء المشركين وجُحودِهم، إذ جعل الله بيته الحرام ليُقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يَصُدُّون عنه، فلم تكن صلاتُهم عند البيت الحرام إلا تصفيقاً وتصفيراً، لا وقاراً ولا استشعاراً لحرمة البيت، ولا تعظيماً لربِّهم، ولا معرفةً بحقوقه، ولا احتراماً لأفضل البقاع وأشرفها؛ وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالِقِهم، ولحرصهم على أن يُسيئوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، أو يطوف بالبيت، أو يؤدي شعائر الإسلام وعباداته، فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله. ومن أجل ذلك تَوَعَّدَهم اللهُ تعالى بعذابه﴿فَذُوقُوا۟﴾أيها الضالون ﴿ٱلْعَذَابَ﴾الشديد بسبب كفركم وعنادكم، واستهزائكم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ من عند الله، فالعذاب في الدنيا بأن تُحْرَمُوا من الدخول في المسجد الحرام، والقتل، وفي الآخرة بالنار، وبئس المصير.

٣٦- ثم يُبيِّنُ الله تعالى ضرباً آخر من ألوان ضلال المشركين وعداوتهم وكيدهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وذلك أنهم يُنفقون أموالهم سعياً لأن يُبْطِلُوا الحق ويَنْصُروا الباطل، ويَصْرِفوا الناس عن طريق الله.

ثم بَيَّنَ تعالى ما سَيؤول إليه أَمْرُهم في الدنيا من الخيبة والهزيمة، بأنَّهم سينفقون هذه الأموال في الشرور والعدوان، ولكنها ستكون عليهم ندامة وخِزْياً وذُلّاً، وسيُغْلَبون، فتذهب أموالهم وما أمَّلوا، ويعذبون في الآخرة أشدَّ العذاب، فيُجْمَعُون في جهنم، ليذوقوا عذابها الدائم.

٣٧- ثم بَيَّنَ سبحانه أنه فعل ما فعل من خذلان الكافرين في الدنيا، وحَشْرِهم إلى جهنم في الآخرة؛ ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين، فإذا ما تمايزوا جعل سبحانه الفريق الخبيث مُنْضَمّاً بعضُه إلى بعض، فيُلقى به في جهنم جزاءَ كُفْرِه.

٣٨- وبعد كلِّ هذا التهديد والوعيد للكافرين، يُوَجِّه سبحانه خطابَه إلى نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم، من أهل مكة وغيرهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين، ويؤمنوا بالله وحده ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من كُفْرِهم ومعاصيهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالكم، ويستمرُّوا في ضلالهم وكفرهم وطغيانهم، انتقمنا منهم، ونَصَرْنا المؤمنين عليهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ عادة الله الجارية في الذين تحَزَّبوا على الأنبياء بنصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم، وتدميرهم.

٣٩- ثم بَيَّنَ الله تعالى ما على المؤمنين تجاه أولئك الكافرين إذا ما استمرُّوا في كفرهم وعدوانهم: أَنْ قاتِلُوهم بشدة وغلظة، واستمِرُّوا في قتالهم حتى تزول صولة الشرك، وحتى تعيشوا أحراراً في مباشرة تعاليم دينكم، دون أن يجْرُؤَ أحد على محاولة فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم، وحتى تصيرَ كلمة الذين كفروا هي السفلى. ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن كفرهم وعن معاداتكم، فكُفُّوا عنهم، وإن لم تعلموا بَواطِنَهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

٤٠- وإن أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان، فأيقِنوا بأنَّ الله حاميكم ومُعينكم عليهم، وثِقُوا بوِلايته ونُصْرَته، فهو سبحانه ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ الذي يَتَوَلَّى عباده المؤمنين، ويحقق مصالحهم، ويُيَسِّر لهم منافعهم الدينية والدنيوية.﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالُب الأشرار. ومَنْ كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومَنْ كان الله عليه فلا عِزَّ له، ولا قائمة له.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوبُ تعظيم الله تعالى، وتعظيم شرائعه وحدوده.

٢- كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأيِّ وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

٣- من سُنَنِه تعالى أن يُمَيِّزَ الخبيث من الطيب، ويجمع الخبيث بعضه إلى بعض؛ ليطرحه في جهنم كما تُطرح النفايات أو المهملات.

٤- لُطفُ الله تعالى بعباده، وأنه لا يمنعه كفر العباد، ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يُهْلكهم من أسباب الغَيِّ والردى.

٥- الحَثُّ على الإيمان، والترغيب فيه، ووجوب الاستمساك به.

٦- بيان سَعة فضل الله ورحمته.

٧- يغفر الله لِـمَنْ أسلم كلَّ ذنب من الكفر وغيره؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

٨- بيان سُنَّةِ الله في الظالمين وهي إهلاكهم، وإن طالت مدة الإمهال والإنظار.

٩- وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك يصدُّ عن سبيل الله.

١٠- المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يَدْفَعَ شرَّهم عن الدين، وأن يَذُبَّ عن دين الله الذي خَلَقَ الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

١١- في الآية (٣٦) إخبار عن أمر مستقبلي، وهو أن عاقبة الذين جحدوا الله، وعصوا رسوله، وأنفقوا أموالهم بالباطل ليَصُدُّوا عن سبيل الله، هي الندامةُ والحسرة؛ لأنَّ أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأمُلون به من إطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّه سيَهزمهم المؤمنون في آخر الأمر.

١٢- الله تعالى نِعْمَ المولى لِـمَنْ تَوَلَّاه، ونِعْمَ النصير لِـمَنْ نصره.

١٣- الكفار يُنفقون أموالهم بالليل والنهار؛ ليصُدُّوا عن سبيل الله، فأَوْلَى بأهل الحق أن ينفقوا أموالهم للذَّود عن الحق، ونَشْرِ نورِ الله في العالمين.

١٤- إن المواقف الصعبة هي التي تُـمَحِّصُ الصف المسلم وتُنَقِّيه، وتُظْهِرُ الغَثَّ من السمين، فعلى الداعية أن يعتصم بحبل الله، ويسأل الله الثبات والعون.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤١) إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٣) وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٤٤) ﴾

التفسير:

٤١ - لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكفار بيَّن قسمة الغنائم: واعلموا - أيها المؤمنون - أنَّ ما أخذتم من مال الكفار المحاربين بقتال، فاجعلوا أوَّلاً خُمُسَه لله تعالى، يُنْفَق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة، ثم للرسول وأهل بيته، ثم ذوي القربى من أهله وعشيرته من بني هاشم وبني المطلب، ثم المحتاجين من اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والفقراء، والغريب المنقطع به السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم بدر، يوم أن جمع المسلمين والكافرين، وحصل فيه من الآيات والبراهين. والله على كل شيء قدير، وبقُدْرَتِه تعالى نَصَركم، وساق إليكم تلك الغنائم.

٤٢ - والأعداء في الجهة المقابلة من الوادي البعيد عن المدينة، وقافلة أبي سفيان على ساحل البحر الأحمر أسفل منكم، ولو تواعدتم معهم على القتال لاختلفتم في الميعاد، كراهة للحرب لقِلَّتكم، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذَ العِير دون القتال، ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان في عِلْمِه وحكمته أنّه واقعٌ لا محالة، وهو القتال المُفْضِي إلى خِزْيهم، ونَصْرِكم عليهم، وصِدْقِ وَعْدِه لرسوله، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. وفَعَلَ ذلك ليترتَّبَ على قضاء هذا الأمر أن يَهْلَكَ من الكفار مَنْ هلك عن حُجَّةٍ بَيِّنة، ويعيش مَنْ يعيش من المؤمنين عن حجة عاينها، فيزداد يقيناً بالإيمان ونشاطاً في الأعمال. إنَّ الله سميع دعاء المسلمين طَلَبَ النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، وعليم بما يجول في خواطرهم، وبما يَصْلُح لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

٤٣-٤٤- إذ يريك الله - يا محمد - في منامك عدد العدوِّ قليلاً، فتخبر المؤمنين، وتطمئن قلوبهم، وتَقْوَى آمالهم بالنصر، ولو أراك عددَ العدوِّ كثيراً لَفَشِلَ أصحابك وخافوا، ولم يقدروا على حرب القوم،

ولوقع بينهم النزاعُ وتَفَرُّقُ الآراء في أمر القتال، ولكنَّ الله سلَّمكم من الفشل والتنازع، وتفرُّق الآراء، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان. إنَّه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به، فتحجم عن القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث في النفس الطمأنينة والصبر، فيحملها على الإقدام، ويُسَخِّر لكل منهما الأسباب التي تُفْضِي إلى ما يريده منها، وفي الوقت الذي يريكم الله الكافرين عند التلاقي معهم عدداً قليلاً، بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبتثبيتكم بملائكته والاستهانة بهم، ويُقَلِّلكم في أعينهم لقِلَّتِكم بالفعل، حتى إذا ما التقيتم ثَبَّتكم، وثَبَّطهم ليقضيَ بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً.

الفوائد والاستنباطات :

١- دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أنَّ خُمُسَ الغنيمة يصرف لخمسة أصناف، ودلَّ دلالة ضمنية على أنَّ أربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين. (أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٥١).

٢- ينظر: خريطة موقع غزوة بدر، كما في الملحق.

٣- قال الجمهور: «سهم رسول الله ﷺ يَخْلُفُه فيه الإمام، يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين». (التحرير والتنوير: ٩/ ١٠٧).

٤- نَبَّه تعالى بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على أنَّ أحوال الدنيا غيرُ مقصودةٍ لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكونَ زاداً ليوم المعاد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦- وبعد أن ذكر سبحانه نِعَمَه على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين يوم بدر، أعقب ذلك بذِكْرِ آداب لقاء عدوهم، فقال: إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبُتوا لهم، ولا تَفِرُّوا أمامهم، وأكْثِرُوا من ذكر الله في أثناء القتال في قلوبكم بذِكْرِ قدرته ووَعْدِه بنصر رسله والمؤمنين، وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفي غيره، وأطيعوا رسوله كذلك، فهو المبيِّنُ لكلام ربِّه بالقول والعمل والحكم، وهو المشارك لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور، ولا يَكُنْ منكم تَنازعٌ واختلاف، فإنَّ ذلك مَدْعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو، واصبروا على الشدائد، وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده، فالله مع الصابرين يَمُدُّهم بمعونته وتأييده، ومَنْ كان الله مُعيناً له فلا يغلبه غالب.

٤٧- ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة، وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان، بَطِرين بما أُوتوا من قوةٍ ونِعَمٍ لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها، ويُثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة، وهم بخروجهم يَصُدُّون عن الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول ﷺ، والإعراض عن تبليغ دعوته. والله عليم بما جاؤوا لأجله، ومن ثم فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

٤٨- واذكر - أيها الرسول - للمؤمنين حين زَيَّنَ الشيطانُ لهؤلاء المشركين أعمالَهم بوسوسته، وألقى في رُوعهم، وخَيَّل إليهم أنَّهم لا يُغْلَبون لكثرة عَدَدَهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّه مُجير لهم، فلمَّا قَرُب كلٌّ من الفريقين المتقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن تستعرَ نار القتال رَجَعَ خلفه، وتبرأ

منهم، وأَيِسَ من حالهم، لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة. وختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمراد من خوف الله تَوَقُّعُ أن يصيبه الله بضُرٍّ.

٤٩ - وإذ زَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم حتى قال المنافقون ومَنْ على شاكلتهم من مرضى القلوب: ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم، وكثرة عدوِّهم، إلا غرورُهم بدينهم. ومَنْ يَكِلْ أمْرَه إلى الله، ويؤمن إيمان اطمئنان بأنَّه ناصره ومعينه، وأنَّه لا يُعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، يَكْفِه ما يَهُمُّه وينصره على أعدائه، وإن كَثُرَ عددُهم، وعَظُمَ عَتادُهم؛ لأنَّه العزيز الغالِبُ على أمره، الحكيم الذي يضع كلَّ أمر في موضعه بمقتضى سُنَنِه في الكون، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل.

الفوائد والاستنباطات :

١ - وجوب ذكر الله باللسان والجَنان.

٢ - وجوب الثبات عند اللقاء، وذِكْر الله والتضرع إليه، واللجوء إلى جنابه، وطاعة التوجيه الإلهي.

٣ - على القائد الحربي وجوبُ الأمر بالحق ومراعاة المصلحة العامة.

٤ - تحريم التنازع والاختلاف، والتحذير من البطر والرياء والكبر والخيلاء.

٥ - وجوب الصبر عند الشدائد.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير :

٥٠-٥١- ولو عايَنْتَ - يا محمد ﷺ - حال الكفار حين تتوفَّاهم الملائكة، فينزعون أرواحهم من أجسادهم، ضاربين وجوههم وأقفيتهم، قائلين لهم: ذُوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، لَرأيت أمراً عظيماً يَرُدُّ الكافر عن كفره، والظالم عن ظلمه إذا هو عَلِمَ عاقبة أمره. هذا العذاب الذي ذقتموه بسبب ما كَسَبَتْ أيديكم من سيئ الأعمال في حياتكم الدنيا من كفر وظلم، وبأنَّ الله لا يظلم أحداً من عبيده، فلا

يُعَذِّب أحداً منهم إلا بجُرمٍ اجترمه، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه، وقد وقع ذلك منكم، فأنتم الظالمون لأنفسكم فلُوموها، ولا لومَ إلا عليها.

٥٢- عادة هؤلاء المشركين من قريش الذين قُتِلوا ببدر وشأنهم، كعادة قوم فرعون وشأنهم وشأن مَنْ قبلهم من الأُمم الخالية، إذ كفروا بآيات ربهم، فأخذهم بذنوبهم أَخْذَ عزيز مقتدر، ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونَصَرَ رُسُلَه والمؤمنين. وكما كانت سُنَّته تعالى في أولئك أَنْ أخذهم بذنوبهم، فإن سُنَّته في هؤلاء كذلك؛ فقد نصر رسوله والمؤمنين في بدر، وأهلك هؤلاء الكافرين بذنوبهم. إنَّ الله قويٌّ لا يغلبه غالب، ولا يفوته أحد، شديد العقاب لِـمَنْ استحق عقابه، وكفر بآياته، وجَحَدَ حُجَجَه.

٥٣- ذلك الذي ذُكِرَ مِنْ أَخْذِه لقريش بكفرها نِعَمَ الله عليها، كأَخْذِه للأُمم قبلهم بذنوبهم؛ فقد جَرَتْ سنة الله أَلَّا يُغَيِّرَ نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة. إنَّه تعالى سميع لما يقول مُكَذِّبو الرسل، عليم بما يأتون وما يَذَرُون، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٥٤- شَبَّه اللهُ هؤلاء الكفار في تكذيبهم وفِعْلِهم كبائر الذنوب، بآل فرعون الذين كذَّبوا موسى ﷺ، والسابقين لهم الذين كذَّبوا بآياتنا المنزلة، والمعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى، فأهلكناهم بسبب كبائر ذنوبهم، وأغرقنا فرعون وقومه في البحر الأحمر. وكل هؤلاء المذكورين كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ نَسَبَ ذلك إلى الأيدي، وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجُل وسائر الحواس، أو بتدبير العقل؛ لأنَّ العادة قد جَرَتْ بأنَّ أكثر الأعمال البدنية تُزاوَل بالأيدي.

٢- نِعَمُ الله على الأُمم والأفراد منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاقٍ وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم، متمكنة منهم، كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جُرْم، فإذا هم غَيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال، غَيَّرَ الله حالهم، وسَلَبَ نِعْمَتَه منهم، فصار الغنيُّ فقيراً، والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفاً.

٣- الظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كلِّ مَنْ أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبَرٍّ وفاجر، وأنَّه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يشكر بَدَّله بالنعمةِ النقمةَ.

٤- خَصَّ ﷻ آل فرعون بالذِّكر، وذَكَرَ ما أُهْلِكُوا به وهو إغراقهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كفرهم دعوى الإلهية والرُّبوبية لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه.

٥- ابتُدِئ الخبر بـ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ مخاطباً به غير معين، ليَعُمَّ كل مخاطب، أي: لو ترى أيها السامع.

وإنَّما خَصَّ الوجوه و الأدبار؛ لأنَّ في ضَرْبِها إذلالاً وإهانة، وليكونَ خروجُهم من الدنيا على أسوأ وداع، واستقبالهم للآخرة على أسوأ استقبال.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير :

٥٥-٥٦- إنَّ شرَّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض في حُكْمِ الله وعدله هم الكافرون، الذين اجتمعت فيهم خصلتان: الأولى: الإصرار على الكفر والرسوخ فيه، الثانية: نقض العهد، فهم لا يتقون الله في نقض العهد.

٥٧- فإنْ تُدْرِكْ هؤلاء الذين يَنْقُضُون عهدهم، وتظفر بهم في ميدان الحرب، فنكِّلْ بهم أشدَّ التنكيل؛ حتى يكون ذلك سبباً لشرود مَنْ وراءَهم من الأعداء وتَفَرُّقِهم. لعلَّ مَنْ خلفهم من الأعداء يَذْكُرون النَّكال، فيمنعهم ذلك مِنْ نَقْضِ العهد، ومن القتال.

٥٨- وإن تَوَقَّعْتَ من قوم معاهَدين خيانة ونَكْثاً للعهد بأمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأَنْ تَنْبِذَ إليهم عهدهم، وتنذرهم بأنك غير مقيَّدٍ به، ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح لاخداع فيه ولا استخفاء؛ لأنَّ الله لا يحبهم لأنَّهم مُتَّصِفُون بالخيانة، فلا تستمرَّ على عهدهم، فتكونَ معاهداً لِـمَنْ لا يحبهم الله؛ ولأنَّ الله لا يحب الخائنين.

٥٩- ولا يظننَّ الذين كفروا أنهم سبقونا، ونَجَوا من عاقبة خيانتهم وشَرِّهم. إنَّهم لا يعجزون الله تعالى، ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم، بل هو سيجزيهم، ويُمَكِّنُ منهم في الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم، وإذاقتهم عاقبةَ كيدهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- لَقَّبَ الله الكافرين بالدوابِّ؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضَلُّ من الحيوانات؛ لأنَّ ثمة منافعَ للحيوانات، وهؤلاء لا خير فيهم، ولا نفع منهم لغيرهم.

٢- أمر الله رسوله ﷺ في المبالغة في قتل الأعداء الذين تكررت مُسالمته لهم، وتجديده لعهدهم بعد نقضه؛ لئلَّا ينخدعَ مرة أخرى بكذبهم، لِـما جُبِلَ عليه من الرحمة، وحُبِّ السلم، وعَدِّ الحرب ضرورة تُترك إذا زال سببها.

٣- في الآيات دلالة واضحة على وجوب المحافظةَ على العهود مع الأعداء، وتحريم خيانتها.

٤- تساءل ابن العربي - يرحمه الله - حول آية ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾ فقال: «كيف يجوز نَقْضُ العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظنٌّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد بظَنِّ الخيانة؟» ثم أجاب عن التساؤل، وقال: «الجواب من وجهين:

أحدهما: أن الخوف هاهنا بمعنى اليقين.

الثاني: أنه إذا ظهرت آثار الخيانة، وثبتت دلائلها، وَجَبَ نَبْذُ العهد، لئلا يُوقعَ التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هاهنا بالظن للضرورة». (أحكام القرآن: ٨/ ٨٦٠).

٥- أمر الله رسوله ﷺ بالإغلاظ على العدو؛ لِما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنَّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم؛ لأنَّهم استحقوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم؛ لأنه يَصُدُّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرَّ الناكثين الخائنين. ولا تُخالِفُ هذه الشدةَ أنَّ الرسول ﷺ أُرْسِلَ رحمةً للعالمين؛ لأنَّ المراد أنَّه رحمة لعموم العالمين، وإن كان ذلك لا يخلو من شدةٍ على قليل منهم حين يلزم الأمر.

٦- في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ رَتَّبَ نَبْذَ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها؛ لأنَّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون، وما يظهر من الأحوال، ولا يُنتظر تَحَقُّقُ وقوع الأمر المظنون؛ لأنَّه إذا تَرَيَّثَ ولاةُ الأمور في ذلك يكونون قد عَرَّضوا الأُمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضَياعِ مصلحة، ولا تُدارُ سياسة الأُمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأنَّ الحقوق إذا فاتَتْ كانت تَبِعَتُها على واحدٍ، وأمكنَ تدارُكُ فائتِها، ومصالح الأُمة إذا فاتَتْ تَمَكَّنَ منها عَدُوُّها.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

٦٠- لما أوجب الله ﷻ على رسوله ﷺ أن يُفَرِّقَ ويبدد جَمْعَ مَنْ صدر منه نَقْضُ العهد، وأن ينبذ عهد مَنْ خاف منه النقض، أَمَرَه بالإعداد في مواجهة هؤلاء الكفار، فقال: وأَعِدُّوا لأعدائكم الكفار المقاتلين ما تقدرون عليه من القوة وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يُعِين على قتالهم. فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعْمَلُ فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والمراكب البرِّيَّة والبحرية والجوية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم شرُّ أعدائهم. وأنتم بذلك تُرْهِبُون أعداءَ الله وعدوَّكم الذين يتربَّصون بكم الدوائر - فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين، وتأهُّبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات، خافوهم - وتُرهبون به أيضاً أناساً لا تعلمون الآن عداوتهم، بل يَعْلَمهم الله وهو علَّام الغيوب. وما تنفقوا من شيء قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله يُعْطِكم عليه الجزاء الوافي التام، و لا يَلْحَقْكم ظلم من أعدائكم.

٦١- وإن مال العدو إلى جانب السِّلْم وتَرْكِ الحرب، فاقْبَلِ السِّلْم، وفَوِّض الأمر إلى الله، والله هو السميع لما يقولون، العليم بها يفعلون، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع، وإن خَفِيَ عليك.

٦٢-٦٣- ولما كان طَلَبُ السِّلْمِ والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية؛ ليُغْرُوا المسلمين بالمصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّة، أرشد الله رسوله ﷺ إلى هذا الاحتمال، فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق فقال ﷻ: وإن يريدوا بجنوحهم للسِّلم الكيد والخداع، فالله يكفيك أمرهم، وينصرك عليهم، فإنَّ من آثار عنايته بك أن أيَّدك بتسخير المؤمنين لك، وجَعْلِهم أُمة متحدة متآلفة متعاونة على نَصْرِك، وجَمْعِهم على الإيمان بك. فلولا نعمةُ الله عليهم بأخوَّة الإيمان التي هي أقوى من أُخُوَّة الأنساب والأوطان، لَما أمكنك أن تُؤَلِّفَ بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، ولكِنَّ اللهَ هداهم إلى الإيمان. إنه

تعالى الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين، الحكيم في أفعاله، فينصر الحق على الباطل، ويُفَضِّلُ الجنوح للسلم، إن جنح إليها العدو دون الحرب.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إعداد المستطاع من القوة الحربية، والمرابطة في سبيل الله، وما يقتضي ذلك من إنفاق الأموال لإعداد العُدَّة والعتاد.

٢- في الآيات دليل على أن النصر يُنال بالأسباب التي من أهمها التآلف والاتحاد بفضلِ مقدِّرِ الأسباب، ورحمته بالعباد.

٣- دَلَّت الوقائع على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها، وأنَّ أجدى وسائل التحابِّ والتآلفِ قوةُ الإيمان.

٤- دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ على الأمر بقَبول عقد الصلح والمهادنة أو المسالمة إن مال إليه العدو؛ لأنَّ الإسلام يُؤْثِرُ السِّلم على الحرب، ويُوجب الوفاء بالمعاهدات والمصالحات، ويُحَرِّم المبادرة إلى الغدر والخيانة، ونَقْضِ العهود.

٥- عَقْدُ الصلح جائز غير لازم للمسلمين باتفاق العلماء، فيجوز نَبْذُه إذا ظهرت أمارات الخيانة والنقض والغدر.

٦- الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم؛ لأنَّ ما يُراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وُكلاءُ الأُمة على مصالحها.

٧- في قوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ تحريض للمسلمين على قتال أعداء الله، وأعداء رسوله ﷺ.

٨- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معنى تَعَقُّبِهم والإغراء بهم، وتعريضٌ بالامتنان على المسلمين بأنهم مَحَلُّ عناية الله، فهو يُحصي أعداءهم، ويُنَبِّههم عليهم.

٩- قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مبالغة حسنة لوقوعها مع حرف (لو) الدالِّ على امتناع الوقوع.

١٠- في الجمع بين الأمر بقَصْرِ التوكل على الله، والأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليلٌ بَيِّنٌ على أن التوكل هو من الأخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب يكون فيما هو من مقدور الناس.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- يبشّر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأنه سبحانه كافيه كلَّ ما يهمه من أمر الأعداء وغيرهم، وهو كذلك كافٍ لِـمَنْ أيّده من المؤمنين.

٦٥- وبعد أن بَشَّره بالرعاية والعناية، أمره أن يَحُثَّ المؤمنين على القتال، ورَغَّبهم فيه؛ لدفع عدوان الكفار، إن يوجد منكم عشرون صابرون يَغْلِبُوا - بتأثير إيمانهم وصبرهم وفِقْهِهم - مئتين من الكافرين الذين جُرِّدوا من هذه الصفات الثلاث. وهذا وَعْدٌ منه تعالى وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده. وهم بهذا العدد يغلبونهم بسبب أنّهم قوم لا يفقهون ما يفقهون من حكمة الحرب، وما يُراد بها من مرضاة الله ﷻ في إقامةِ سُنَنِه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسُنَنِه بإعداد كل ما يستطاع من قوة، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة في الدنيا، أو الشهادة والسعادة في الآخرة.

٦٦- وبعد أن بَيَّنَ المرتبة العليا التي ينبغي أن تكون للمؤمنين، أعقب ذلك ببيان ما دونَها من مرتبة الضعف فنسخ ما تقدَّم: فإن يكن منكم مئة صابرة، بعد أن عَلِمَ فيكم ضعفاً، يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف صابرون يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته ومشيئته، والله مع الصابرين بالمعونة والتأييد والرعاية.

٦٧- سبب النزول:

عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عن عمر قال: «...فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى»؟. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:« يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَرَى يَابْنَ

الخَطَّابِ»؟. قُلْتُ: لا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ - نَسِيباً لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ». شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، برقم ١٧٦٣ (٣/ ١٣٨٣).

التفسير:

ما كان من شأن نبيٍّ من الأنبياء ولا من سُنَّتِه في الحرب، أن يكون له أسرى، يتردَّد أمرُه فيهم بين المنِّ والفداء إلا بعد أن يَعْظُمَ شأنُه فيها، ويتمَّ له الغلب والقوة بقَتْلِ أعدائه. تريدون عَرَضَ الدنيا الفاني الزائل وهو المال الذي تأخذونه من الأسرى فداءً لهم، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقي بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما دمتم تعملون بها. والله كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لَفَعَلَ، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

٦٨- لولا كتابٌ من الله سبق في عِلْمِه الأزلي ألّا يُعَذِّبكم والرسولُ ﷺ فيكم، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم، لَمَسَّكم - بسبب ما أخذتم من الفداء - عذاب عظيم.

٦٩- فكُلوا ممَّا غَنِمْتُم من الفِدْية حالَ كونه حلالاً بإحلاله لكم، طيباً في نفسه، لا خبث فيه مما حُرِّم لذاته كالدم ولحم الخنزير. واتَّقُوا اللهَ في أن تعودوا إلى أكْلِ شيء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين، من قبل أن يُحِلَّه لكم ربُّكم. إنه غفور لذنبكم، رحيم بكم، إذ أباح لكم ما أخذتم، وأباح لكم الانتفاع به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من سُنَنِ الله في الغَلَبة أن يكون للصابرين على غيرهم. وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يَغْتَرُّوا بدينهم، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضي النصر والغلب، وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله. ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور، ومعرفة سنن الله في خلقه.

٢ - في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَعْدٌ من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء، إذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلابد أن يكفيهم ما أهمَّهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلَّفُ الكفاية بتخَلُّف شرطها.

٣- لم يكن فِعْلُ النبي ﷺ في حكم الأسرى إلا اجتهاداً واختياراً لأحد أمرَين مشروعَين: هما القتل، وأَخْذُ الفداء. فهو فِعْلُ خلافِ الأَولى، وليس في ذلك مِساس أصلاً بعصمة الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ المِساس بالعِصْمَةِ يحصل إذا خالف النبي نصاً صريحاً، أو أمراً قاثماً.

٤- استنبط ابن العربي - يرحمه الله - من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ بأنَّ الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً، مما هو في علم الله حلال: أنه لا عقوبة عليه. (أحكام القرآن: ٢/ ٨٧٢).

٥- تقرير النسخ في القرآن الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

٧٠-٧١- سبب النزول:

روى الطبراني بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: ٧٠] حَتَّى بَلَغَ ﴿أُخِذَ مِنكُمْ﴾، قَالَ: كَانَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ: فِيَّ وَالله أُنْزِلَتْ حِينَ أَخْبَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ إِسْلامِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُحاسِبَنِي بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً الَّتِي وَجَدَ مَعِي فَأَبَى أَنْ يُحاسِبَنِي بِهَا فَأَعْطَانِي اللهُ بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً عِشْرِينَ عَبْداً كُلُّهُمْ تَاجَرَ بِمَالِي فِي يَدِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ الله.

(المعجم الكبير للطبراني: ١١٢٣٥، ولباب النقول، ١/ ١١٤).

التفسير:

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شَقَّ عليهم أَخْذُ أموالهم، فلقَّنه الله ما يستميلهم، ويُرَغِّبهم في الإسلام، فقال ﷻ مخاطباً رسوله ﷺ: قل للذين في أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء: إن كان

الله تعالى يعلم أنَّ في قلوبكم إيماناً، يعطكم إذ تُسْلِمُون ما هو خير لكم، ممَّا أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم في المغانم وغيرها من النِّعم التي وُعِدَ المؤمنون بها، ويغفر لكم ما كان من الشرك، وما استتبعه من السيئات والأوزار. والله غفور لِـمَنْ تاب من كفره وذنوبه، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه، ويَعُدُّهم للسعادة في الدنيا والآخرة. وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى السِّلْم، فلا تَخَفْ ممَّا عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال، فإنَّهم قد خانوا الله من قبل، فنقضوا الميثاق الذي أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية، وبما آتاهم من العقل الذي يَتَدَبَّرون به سُنَنَ الله في خَلْقِه، فمَكَّنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم، وعددك وعددهم، وهكذا سيُمَكِّنُك ممَّنْ يخونونك من بعد. والله يعلم ما ينوونه، وما يستحقونه من عقاب، حكيم يفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حِكْمَتُه البالغة، فينصر المؤمنين، ويُظْهِرُهم على الكافرين.

٧٢- وبعد أن ذكر ما يجب أن يعمل مع الأسرى، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض، بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضِهم لبعض، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار، ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث، فقال: هؤلاء هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين؛ إرضاءً لربِّهم، ونصراً لرسوله ﷺ، وبذلوا الجهد بقدر الوسع، واقتحموا المشاقَّ، والذين آوَوا الرسول ومَنْ هاجر من أصحابه ونصروهم، وأَمَّنوهم من المخاوف، و أشركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وقاتلوا مَنْ قاتلهم، وعادَوا مَنْ عاداهم. أولئك يَتَوَلَّى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولَّونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال، وما يتعلق به من الغنائم. وإن المؤمنين المقيمين في أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم، ودارُهم دار حرب وشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام، إذ لا سبيلَ إلى نصر أولئك لهم، و إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار، أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وطلبوا نَصْرَكم عليهم، فعليكم أن تُساعِدُوهم بشرط أن يكون الكفار حربيِّين، لا عهدَ بينكم وبينهم، أمَّا إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم، ولا تُباح خيانتهم، والغدر بهم بنقض العهود والمواثيق. واللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فعليكم أن تقفوا عند حدوده، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم، وتَتَوَخَّوا فيها الحق والعدل، وتتقوا الهوى الذي يَصُدُّ عن ذلك.

٧٣- ولما عقد ﷻ الولاية بين المؤمنين، أخبر أنَّ الكفار حيث جمعهم الكفر، فبعضهم أولياء لبعض، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين. وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، وإن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن تناصُرِكم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن

الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم وينبذوه على سواء، يَقَعْ من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذي يُفْضِي إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم، وتعطيل كثير من مقاصد الشرع التي لا تتحقق إلا بالتعاون والتناصر.

٧٤- وبعد أن ذكر عَقْدَ الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، أعقب ذلك بمَدْحِهم والثناء عليهم، فقال ﷻ: هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون مَنْ لم يهاجر وأقام بدار الشرك، ولم يَغْزُ مع المسلمين عَدُوَّهم، ثم وعدهم بحسن العاقبة فقال: لهم مغفرة تامة من ربِّهم تمحو ما فرط منهم من السيئات، ورزق كريم في دار الجزاء؛ لأنهم قد تركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال، وأعرضوا عن سائر اللَّذَّات الجسمانية، وعَمِلُوا ما يُقَرِّبهم من ربِّهم في دار النعيم.

٧٥- سبب النزول:

عن ابن الزبير ﷺ قال: كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: تَرِثُنِي وَأَرِثُكَ، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. (لباب النقول: ١/ ١١٥).

التفسير:

والذين تأَخَّر إيمانُهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى، وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم، فأولئك منكم، أي: فيلتحقون بالمهاجرين الأوَّلين والأنصار، وبما تَقَدَّم من الولاية والجزاء، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر، وبالتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كل عهد، في حكم الله الذي كتبه على عباده المؤمنين، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذي القربى. والله سبحانه إنَّما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينبغي للمؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر، وعادوا إلى البغي والعدوان.

٢- في الآيات بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين أعدائهم، ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية.

٣- مَنْ أَسَرَه الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السَّعْيُ في فكاكه، بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذِّمة أيضاً.

٤- ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام، وبيان فضل المهاجرين السابقين على اللاحقين، وفضل المهاجرين على الأنصار، وجعل المتأخرين في الإيمان والهجرة بمنزلة المتقدمين في تضامنهم معهم.

٥- ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام ومؤمني دار الحرب، في حال مقاتلتهم أو اضطهاد الكفار لهم، إلا إذا كان بينهما ميثاق صلح وسلام، فلا تمكن مناصرتهم. وفيما عدا حالة المقاتلة لا تثبت ولاية النصرة بين المسلمين في دار الإسلام، والمسلمين في دار الحرب.

٦- تقديس الوفاء بالعهود والمواثيق في شرعة الإسلام، وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين.

٧- الكفار بعضهم أولياء بعض، أي: نصراء وأعوان.

٨- إذا لم نحقق ولاية النصرة بيننا، ووالَينا الكفار، أدَّى ذلك إلى ضَعْفِنا، وقوتهم علينا.

٩- اسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ لإفادة الاهتمام بتمييزهم للإخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم.

١٠- الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من متعلق النصر، وهو المنصور عليهم. ووجه ذلك أنَّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم، إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلا بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأما المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمل المسلمون تَبِعاتِهم.

١١- في الآيتين (٧٢) و(٧٣) إخبار عن أمر مستقبلي بأن المؤمنين إذا لم يتولَّ بعضهم بعضاً فإن العاقبة وقوع الفتن، وانتشار الفساد.

١٢- تقييد أولوية أولي الأرحام بأنها في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ للدلالة على أنَّ ذلك حكمٌ فِطْري قدَّره الله، وأثبته بما وضع في الناس من الميل إلى أقربائهم.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- بيان أحكام الوفاء والنكث والموالاة.

٢- إبطال العادات والتقاليد والمفاهيم المخالفة التي كان عليها أهل الجاهلية.

٣- بيان أحكام التعامل مع المشركين والكتابيين في حالة الحرب والسلم.

٤- تحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير؛ للقتال في سبيل الله، ونصرة النبي ﷺ.

٥- الحديث عن غزوة تبوك.

٦- بيان صفات المنافقين وأحوالهم.

٧- بيان فضل المهاجرين والأنصار.

٨- التحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

٩- التذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

١٠- بيان بعض أحكام الجهاد.

١١- الكشف عن طبيعة الإسلام وحقيقته، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدةً وسلوكاً.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١-٢- لما ذكر في آخر سورة الأنفال أَمْرَ العهد، تارةً بنَبْذِه إلى مَنْ خِيفت خيانته، وتارةً بالتمسك به عند الأمن من ذلك. ابتدأت هذه السورة بالأمر بالنبذ لأناس بأعيانهم، نقضوا أو خِيف منهم ذلك. وذلك تصريح بما أفهمته آيات الموالاة في سورة الأنفال من أن إحدى الفرقتين لا تصلح لموالاة الأخرى، فقال تعالى: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين المعاندين، ثم يأتي خطاب الله ﷻ للمؤمنين يُبَيِّن ما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برئ الله ورسوله من عهودهم، فأمرهم أن يقولوا لهم: سيروا في الأرض وأنتم آمنون لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتالٍ مدةَ أربعة أشهر، واعلموا أنكم لن تُعْجِزوا الله، ولن تَفُوتوه، فتجدوا مهرباً منه، إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله، بل سيسلط المؤمنين عليكم، ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم به، والعاقبة للمتقين، فقد جرت سنة الله بخِزْيِ الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم، وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة.

٣- لما أنزل الله البراءة أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحُجَج، إذ بيَّن أن هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين، وسائر معتقداتهم في وقتٍ يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام، وهو يوم الحجِّ الأكبر يوم النحر الذي فيه تنتهي فرائض الحج، ويجتمع الحجَّاج لإتمام مناسكهم وسننهم في مِنى، ثم أكَّد ما يجب أن يُبَلِّغوه بلا تأخير بأن أمرهم أن يقولوا لهم: فإن تُبتم ورجعتم عن شرككم، وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد، وقَبِلْتم هدى الإسلام، فذلك خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ في هدايته سعادتَكم فيها، وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة، فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه، ولن تُفْلِتُوا من حكم سُنَنه ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغَلَبة. وبَشِّرْ - أيُّها الرسول الكريم - مَنْ جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر، بعذابٍ موجع في الآخرة.

٤ - ولما أعلمهم بالبراءة وبالوقت الذي يُؤذن بها فيه، وكان معنى البراءة منهم أنَّه لا عهد لهم، استثنى بعض المعاهدين، بألَّا تُمْهِلُوا الناكثين للعهود فوق أربعة أشهر، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم، فلا تُجْرُوهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم، بل أَتِمُّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم، بشرط ألا ينقصوا شيئاً من شروط الميثاق ولا يُضارُّوكم، ولا يُعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم؛ لأنَّ المقصد من المعاهدات تَرْكُ قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعامل بينهما. إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقين الذين يتحاشون نقض العهد، وسائر المفاسد التي تُخِلُّ بالنظام، وتمنع جريان العدل بين الناس.

٥ - وبعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر معتقداتهم وضلالاتهم، أعقب ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم، والأمان الذي أُعْطِيَ لهم للضرب في الأرض فأمر المؤمنين أنه إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرَّم عليكم فيها قتال المشركين، فافعلوا معهم كلَّ ما ترونه موافقاً للمصلحة من القتال، لأنَّ الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي مُنِحْتُموه، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية، أولاً: قَتْلُهم في أيِّ مكان وجدوا فيه من حِلٍّ وحَرَم، ثانياً: أخذهم أسارى، ثالثاً: حَصْرُهم وحَبْسُهم حيث يُعْتصمون بمعقل أو حصن، بأن يُحاط بهم، ويُمنعوا من الخروج والانفلات، حتى يُسْلِموا وينزلوا على حكمهم، بشرطٍ ترضونه أو بدون شرط، رابعاً: مراقبتهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه، ورؤية تجوالهم وتقلُّبهم في البلاد. فإن تابوا عن الشرك الذي يحملهم على عداوتكم وقتالكم، ودخلوا في الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها في الأوقات الخمسة، وآتوا الزكاة المفروضة، فخَلُّوا سبيلهم، واتركوا لهم طريق حريتهم بالكَفِّ عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين، وبالكَفِّ عن حَصْرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكَفِّ عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين. والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم، ويرحمهم فيمَنْ يرحم من عباده.

الفوائد والاستنباطات:

١ - افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يُدْخِلُ في النفس الرَّهبة الشَّديدة، والخوف الأشدَّ.

٢ - نسب (البراءة) إلى الله ورسوله من قِبَلِ أنه تشريع جديد شرعه الله، وأمر رسوله بتنفيذه، ونسب (معاهدة المشركين) إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذي عقد العهد؛ لأنَّه عقده بوصفه الإمام والقائد لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه.

٣- الحكمة في تحديد مدة أربعة الأشهر: أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكر في عاقبة أمرهم، والاختيار بين الإسلام والاستعداد للقتال، إذا هم أَصَرُّوا على شِرْكهم وعدوانهم. وهذا منتهى ما يكون من الرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين، حتى لا يقال: إنَّه أخذهم على غِرَّة.

٤- في الآيات إيماء إلى أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يُوجبان - لِـمَنْ يؤدِّيها - أداءَ حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال، وفق النصوص الشرعية.

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ دليل على أنَّ مَنْ امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة يُقاتَلُ حتى يؤدِّيها، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق ﷺ.

٦- إضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّه تشريع وحكم في مصالح الأُمة، فلا يكون إلا من الله على لسان رسوله ﷺ. وهذا أمرٌ للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة؛ لئلا يكونوا غادرين.

٧- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنَّ ذلك من التقوى، أي: من امتثال الشرع الذي أمر الله به، لأن الإخبار بمحبة الله المتقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التقوى.

٨- قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورُهم بها، تحذيراً للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد، فيأتيهم العدو منها.

٩- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ أُريد به حَثُّ المسلمين على ألَّا يتعرضوا بالسوء للذين يُسْلِمُون من المشركين، ولا يؤاخذهم لما فرط منهم.

١٠-الإسلام يُقَدِّس العهود التي أمر الله بها، ويُوجب الوفاء بها، ويجعل احترامها نابعاً من الإيمان، وملازماً لتقوى الله تعالى.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

التفسير :

٦- لما أمر تعالى بقتل المشركين حيث وُجِدوا، وأَخْذِهم وحَصْرِهم، ذكر لهم حالةً لا يُقْتَلون فيها، ولا يُؤْخَذُون ويُؤْسَرون، فيأمر الله نبيه ﷺ إن طلب هؤلاء منه الأمان والجوار، فليجره وليأمنه على نفسه وأمواله لكي يسمع دعوة الإسلام، فإنَّ هذه فرصة للتبليغ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك، وإلا فالواجب تبليغه المكان الذي يأمن به على نفسه، ويكون حراً في عقيدته، إذ لا يكون للمسلمين سلطان عليه؛ لأنَّه من قوم جاهلين، لا يدرون ما الكتاب، وما الإيمان؟

٧- ولما كان الأمر بالنبذ مَظِنَّةً لأن يُعْجَبَ منه، عجب كيف يكون للمشركين عهدٌ مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، وهم بنو كنانة وبنو ضمرة، لأنهم ممَّن كان قد أقام على عهده، ولم يدخل في نَقْضِ ما كان بين رسول الله ﷺ وقريشٍ يوم الحديبية من العهد. فهؤلاء تَرَبَّصُوا بهم، ولا تقتلوهم ما استقاموا لكم على العهد، إذ لا يجوز أن يكون نَقْضُه من قِبَلِكم. إنَّ الله يحب الذين يتقون الغدر، ونَقْضَ العهد.

٨- ولما أنكر سبحانه على المشركين بَيَّن السبب الموجب لذلك، مكرراً أداة الإنكار تأكيداً للمعنى كيف يكون لهم عهد مشروع عند الله، مَرْعِيٌّ الوفاء عند رسوله، وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم: أنهم إن يظهروا عليكم في القوَّة والغلبة، لا يرقبوا الله، ولا القرابة في نقض العهد والميثاق؟ فهم يخادعونكم حال الضعف بما يقولونه من كلام معسول، يرون أنَّه يرضيكم، سواءً أكان عهداً أم وعداً أم أَيماناً مؤكدة، وقلوبهم مملوءة ضغناً وحِقْداً، فهم إن ظهروا عليكم نَكَثُوا العهود، وحَنَثُوا بالأيمان، وفَتَكُوا بكم بقدر ما يستطيعون، وإنما يفعلون ذلك لأنَّ أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء.

٩- استبدلوا بآيات الله العظيمة وما فيها من المعالم الحكيمة ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال، فصدُّوا أنفسهم عن الإسلام بسبب هذا الشراء الخسيس، وما يقتضيه من الوفاء، وصَدُّوا غيرهم أيضاً. قَبُح عَمَلُهم الذي يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى.

١٠- ومن أجل هذا الكفر لا يَرْعَون في مؤمن يقدرون على الفتك به قرابةً تقتضي الودَّ، ولا ذمة توجب الوفاء بالعهد. وهؤلاء البعداء عن الحق هم المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم .

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات أنَّ التقليد في الدين غير كاف، وأنَّه لابُدَّ من النظر والاستدلال، بدليل إمهال الكافر وتأمينه وتبليغه مَأْمَنَه لسماع أدلَّة الإيمان، فلابُدَّ من الحُجَّة والبرهان.

٢- وصف الأكثر في قوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ لأنهم هم الناكثون، الناقضون لعهودهم، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى. وهذا من دقة القرآن وإنصافه في الأحكام.

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ جعله قليلاً؛ لأنه زائل غير باقٍ، وما عند الله باقٍ دائم، وهو خيرٌ وأبقى.

٤- قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلِّم به. وأضافه إلى نفسه إضافةَ الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومَنْ أخذ بقولهم: (إنَّ القرآن مخلوق).

٥- مشروعيَّةُ الأمان، أي: جواز تأمين الحربي إذا طلبه من المسلمين؛ ليسمع ما يدلُّ على صحَّة الإسلام. وفي هذا سماحة ويسر في معاملة الكفار، ودليل على إيثار السِّلم.

٦- استخدام حرف المهلة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ للدلالة على وجوب استمرار إجارته في أرض الإسلام، إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بَلَغَه بعد مدة طويلة، فحَرْفُ ﴿ثُمَّ ﴾ هنا للتراخي الرُّتْبي اهتماماً بإبلاغه مأمنه.

٧- يجب علينا تعليم كلِّ مَنْ التمس منَّا تعلُّمَ شيء من أحكام الدِّين.

٨- يجب على الإمام حماية الحربي المستجير، وصون دمه وماله ونفسه من الأذى، ومنع التعرُّض له بأي ضَرْبٍ من ضروب الإيذاء.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١١ - فإن رَجَعَ هؤلاء المشركون الذين أَمَرْتُكم بقتالهم عن شركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه، فأدُّوا الصلاة بشروطها وأركانها، وآتوا الزكاة المفروضة، فهم إخوانكم في الدين الذي آمُرُكم به، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وبهذه الأخوَّة يزول كل ما كان بينكم من عداوات. وإنا نُبيِّن حُجَجَنا وأدلَّتنا على خَلْقِنا لقومٍ يعلمون ما نُبيِّن لهم، بعد أن نشرحها مفصَّلَةً فيَفْقَهوها.

١٢ - وإن نكث هؤلاء ما أبْرَمَتْه أيمانُهم من الوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم، واستهزؤوا به، وصَدُّوا الناس عنه، ومن ذلك: الطعنُ في القرآن وفي النبي ﷺ، فقاتِلوهم فهم قيادة الكفر وحملة لوائه؛ رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونَقْضِ العهود.

١٣ - وبعد أن أمر سبحانه بقتال أئمة الكفر ذكر أسباب ذلك وهي ثلاثة، الأول: إنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ وأصحابه على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحراراً في دينهم. الثاني: إنهم هَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أو حَبْسِه حتى لا يُبَلِّغ رسالته، أو قَتْلِه بأيدي عصبة من بطون قريش ليتفرَّق دمه في القبائل، فتتعذَّرَ المطالبة به. الثالث: إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة عِيرِهم: لا ننصرفُ حتى نستأصلَ محمداً وأصحابه. من أجل ذلك حَرَّضَ على قتالهم. أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجبناً؟ فالله أحقُّ أن تخشَوا مخالفة أمره، وتَرْكَ مخالفة عدوِّه.

١٤-١٥ - وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم، وفنَّدَ الشبه المانعة من ذلك، أمرهم به أمراً صريحاً مع وَعْدِه لهم بالنصر، وإظهار المؤمنين عليهم، قاتلوهم كما أمرتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُمَكِّنكم من رقابهم قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعناً، ويُخْزِهم بذُلِّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يُقتل منهم، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذا، ويَشْفِ صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم

تكونوا تستطيعون دفعَه، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِكمْ، وما كان قد وَقَرَ فيها مِنْ غدر المشركين، وظلمهم. ومَنْ تاب منهم، فسيتوب الله عليهم مِنْ شركهم، ويُوَفقهم للإيمان، ويتقبله منهم. وهو العليم بما لا تعلمون من استعدادهم في الحال والاستقبال، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام.

الفوائد والاستنباطات:

١- يجب على المؤمن أن يكون أشجع الناس، وأعلاهم همة، ولا يخشى إلا الله.

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: فهم إخوانكم. وصِيغَ هذا الخبر بالجملة الاسمية، للدلالة على أنَّ إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها، تنبيهاً على أنَّهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.

٣- في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إسناد التعذيب إلى الله، وجُعِلت أيدي المسلمين آلة له تشريفاً للمسلمين، وإشارة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب.

٤- خَصَّ سبحانه قادة الكفر في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهم الرؤساء الطاعنون في دين الرحمن، الناصرون لدين الشيطان ؛ لعِظَمِ جنايتهم؛ ولأنَّ غيرهم تَبَعٌ لهم.

٥- قوله تعالى:﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يدلُّ على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

٦- قوله تعالى:﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ قتال الكفار وغلبة المسلمين إياهم قد ينشأ عنها إسلام كثير من الناس، فانتصار المسلمين قد يردُّ بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى.

٧- في الآيتين (١٤) و (١٥) إخبار مستقبلي وبُشرى من الله ﷻ إن نفَّذ المؤمنون أمْرَه، فقاتلوا أعداء الله، فإنَّه سوف يجازيهم بالنصر من عنده، وسيُعَذِّبُ هؤلاء المشركين بأيدي المؤمنين، ويُذِلُّهم بالهزيمة والخزي، ويُعلي كلمته، ويَشْفي صدور المؤمنين.

٨- ينظر: خريطة موقع غزوة تبوك، كما في الملحق.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦ – وبعد أن أمر سبحانه بالجهاد بيَّن أنه ابتلاء: أظننتم أن تُتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان، ولم يتبين الخُلَّص من المجاهدين منكم، الذين لم يتخذوا لأنفسهم بِطانة من المشركين، الذين يُحادُّون الله تعالى بالشرك به، ومن المنافقين الذين يُطْلِعُون البِطانة الدخلاءَ من المشركين على أسرار الملة، ويُوقفونهم على سياسة الأُمة، كما يفعل المنافقون في كل زمان، واللهُ يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرِها وشَرِّها.

١٧ – ولما حَذَّرهم من اتخاذ بطانة دُخَلاء من المشركين من دونه، شرع يبيِّن أنَّ البطانة الدخلاء من المشركين التي يتخذها بعضهم لا تصلح للاتصاف بمحاسن الأعمال، ما لم تكن على أساس الإيمان: ما كان من شأن المشركين، ولا مما ينبغي لهم أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها. أولئك المشركون الكافرون بالله، وبما جاء به رسولُه قد بَطَلَتْ أعمالهم، فلم يبق له أثر في صلاح أنفسهم، ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده، وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء دائم.

١٨ – إنَّ المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله وتوحيده، واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه، والإيمان بالبعث والجزاء، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، وخشية الله دون غيره مما لا ينفع ولا يضر. فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية هم الذين يَرْجُون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حِسّاً ومعنى، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنات النعيم.

١٩ - سبب النزول :

عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

(صحيح مسلم، كتاب الإمارة - باب فَضْلِ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، برقم ١٨٧٩، ٣/ ١٤٩٩).

التفسير:

لا ينبغي أن تجعلوا أهلَ سقاية المسجد الحرام وعمارته في الفضيلة، كمَنْ آمن بالله وبالبعث والجزاء وجاهد في سبيل الله، فإنَّ السِّقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البرِّ والخير، فأصحابها لا يُدانون أهل الإيمان والجهاد في علوِّ المرتبة وشرف المقدار. واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى الحق في أعمالهم ولا يهديهم إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم.

٢٠ - ثم بيَّن سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم مع المشركين الظالمين: فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسي والمالي أعلى مرتبة، وأعظم كرامة. وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته، دون مَنْ لم يكن مُسْتَجْمِعاً لهذه الصفات الثلاث، وإن سقى الحاجَّ وعَمَّر المسجد الحرام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - شرع الله الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله تعالى بنشر الإسلام.

٢ - العمارة الممنوعة عن المشركين للمساجد هي الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها، كأن يكون الكافر ناظراً للمسجد وأوقافه. أما استخدام الكافر في عملٍ لا ولايةَ فيه، كنَحْتِ الحجارة والبناء والنجارة فلا يدخل في ذلك. وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجداً بناه، أو أوصى ببنائه أو ترميمه، إذا لم يكن في ذلك ضرر.

٣- لا ثواب للمشركين في الآخرة على أعمال البرِّ التي تصدر عنهم في الدنيا.

٤ - دلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على الترغيب في عمارة المساجد، وأنه ينبغي لِـمَنْ بنى مسجداً أن يُخلص لله في بنائه، وألَّا يقصد الرياء والسمعة.

٥- دلّت الآيات على أنّ الجهاد مع الإيمان أفضل عند الله من أي عمل آخر من أعمال الخير والبر؛ لأنّه بَذْلٌ للنفس أو المال، بقصد إعلاء كلمة الله، وأمّا السّقاية وعمارة المسجد الحرام فهما وإن كانا عملين طيبين، إلا أنهما ليسا في الدرجة مثل الجهاد.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢١-٢٢- لما ذكر الفوز العظيم فصّل سبحانه ذلك الفوز العظيم، فقال: يُبَشِّرهم ربهم في كتابه على لسان رسوله ﷺ، وعلى لسان ملائكته حين الموت، برحمة منه ورضوان من لدنه، لا يشوبه سخط، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها نعيم لا يزول على عِظَمِه وكماله، حال كونهم خالدين فيها أبداً. إنّ ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل، لا يقدر قَدْرَه إلا الله الذي تَفَضَّل به، ومَنَحَه لعباده المكرمين.

٢٣- ولما كان مَحَطُّ الموالاة المناصرة، وكانت النصرة بالآباء والإخوان أعظم من النصرة بغيرهم، اقتصر عليها، فنهى المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان أنصاراً، إذا كانوا قد اختاروا طريق الضلال، والشّرك بالله تعالى، ومَنْ يَتَوَلَّهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولُّون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم، بوَضْعِهم الموالاة في غير موضعها، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة، والمودَّة في محلِّ العداوة.

٢٤- وبعد أن بَيّن ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان، انتقل إلى بيان سبب ذلك، فأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: وإن كنتم تُفَضِّلُون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله الذي وُعِدْتُم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقوبته التي تَحُلُّ بكم عاجلاً أو آجلاً. والله لا يهدي القوم الخارجين من حدود الدين.

٢٥- ولما كان في بعض النفوس من الغُرور بالكثرة ما يُكسبها سكرة غفلتها عن بعض مواقع القدرة، ذكر الله تعالى قصة حنين دليلاً على ذلك فامتنَّ على المؤمنين: ولقد نصركم الله - أيها المؤمنون - في أماكن حرب تُوَطِّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم في صعيد واحد للطِّعان والنِّزال؛ إحقاقاً للحق وإظهاراً لدينه، ونصركم أيضاً في يوم حنين، وهو اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم، إذ كنتم اثني عشر ألفاً، وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، فقال قائل منكم: «لن نُغْلَبَ اليوم من قلة»، فلم تنفعكم الكثرة، فغلبكم العدو في الجولة الأولى، وضاقت عليكم الأرض الواسعة، فلم تجدوا ملجَأً تُحَصِّنون أنفسكم فيه، فتولَّى فريق منكم منهزمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- أسند التبشير في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّهُم﴾؛ لما في ذلك من الإحسان إليهم، بأنَّ مالكَ أمرِهم، والناظر في مصالحهم هو الذي يُبَشِّرهم. وإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدُّد، مُؤْذِنٌ بتعاقُبِ الخيرات عليهم، وتجدُّدِ إدخال السرور بذلك لهم.

٢- قَدَّم الرضوان على الجنات في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ﴾؛ لأنَّ رضا الله عن العبد أعظم من إسكانهم الجنة، ولأنه هو الغاية، والجنة هي الثمرة.

٣- ذكر الآباء والإخوان في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنَّهم أهل الرأي والمشورة، ولم يُذْكر الأبناء لأنَّهم في الغالب تَبَعٌ لآبائهم.

٤- ذكر الأبناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ لأنَّه ذكر المحبة، وهم أعلق بالنفس، بخلاف الآية قبلَها فلم يُذْكَروا، لأنَّ المقصود منها الرأي والمشورة. وقَدَّم الآباء؛ لأنَّهم الذين يجب بِرُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثَنَّى بالأبناء لكونهم أعلقَ بالقلوب.

٥- أفاد التعبير بـ﴿أَحَبَّ﴾ على التفضيل، والتفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين، مع جعل ذلك التهاون نتيجةَ تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

٦- أسند النصر إلى الله بالصراحة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ لإظهار أنَّ إيثار محبَّة الله، وإن كان يُفَوِّت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حَظُّ الآخرة، وفيه حظوظ أخرى من الدنيا، وهي حظوظ النصر بما فيه من تأييد الجماعة المسلمة، والمغانم، وحماية الأُمة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبَّة علائقهم الدنيوية.

٧- تخصيص يوم حُنين بالذِّكْر من بين أيام الحروب؛ لما فيه من العِبْرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ، وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال، ففيه مَثَلٌ وشاهدٌ لحالتي الإيثارين المذكورين.

٨- في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ تنبيهٌ على خَطَئِهم في الأدب مع الله المناسب لمقامه، أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

٩- ينظر: خريطة موقع غزوة حُنين، كما في الملحق.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٧- وبعد الجولة الأولى من المعركة، أنزل الله تعالى سكينةً من لدنه على رسوله ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين الذين ثبتوا معه، وأحاطوا ببَغْلَتِه الشَّهباء، وعلى سائر المؤمنين الصادقين، فأذهب رَوْعَهم، وأزال حيرتهم، وأنزل مع هذه السكينة ملائكة مجنَّدة لم تَرَوْها بأبصاركم، بل وَجَدْتُم أثرَها في قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس، وعَذَّب الذين كفروا بالقَتْل والسَّبْي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ما داموا يَسْتَحِبُّون الكفر على الإيمان، ويُعادُون أهله، ويقاتلونهم عليه، ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على مَنْ يشاء من الكافرين، فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تُحِطْ بهم خطيئات الشرك وظلماته، ولم يَخْتِمْ على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي، رحيم بهم يتفضَّل عليهم، ويثيبهم بالأجر والجزاء.

٢٨- ووَفْق ما تقدَّم في الأوامر والنواهي، وبيان الحِكَم المرغِّبة والمرهِّبة، بَيَّنَ العلة في مدافعتهم وإحكام مقاطعتهم فبيَّن سبحانه أنَّ المشركين أنجاس فاسدو الاعتقاد، يُشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع، فلا تُمَكِّنوهم

بعد هذا العام - التاسع من الهجرة - أن يدخلوا المسجد الحرام، وإن خفتم فَقْراً بسبب قلة جَلْبِ الأقوات، وضروب التجارات التي كان يجلبها المشركون، فسوف يرزقكم الله من بركاته. إنَّه عليم بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، حكيمٌ فيما يشرعه لكم من أمر ونهي.

٢٩- يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكافرين الذين لا يؤمنون بالله رباً لا شريك له، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما حرَّمه الله ورسوله عليهم من الميتة ولحم الخنزير والخمر والربا، ولا يخضعون لما شرعه الله، من اليهود والنصارى حتى يدفعوا إليكم الجزية بأيديهم أذِلَّاءَ مقهورين، بشرط أن تكون صادرة من قُدْرَة وسَعَة، فلا يظلموا ولا يرهقوا، فإن أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم، والدفاع عنهم، وإعطاؤهم حريتهم في دينهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة، ويحرم ظُلْمَهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعليق السَّكينة بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سَكينة خارقة للعادة، ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه، كرامةً لنبيه ﷺ، ولذلك قَدَّم ذِكْرَ الرسول قبل ذِكْرِ المؤمنين.

٢- إعادة حرف (على) بعد حرف العطف تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني؛ للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول ﷺ سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه، وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة، بعد الجزع والخوف.

٣- قوله تعالى: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ بالمضارع دون الفعل الماضي؛ لإفادة تجدُّد التوبة على كل مَنْ تاب إلى الله.

٤- صيغة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة، حتى كأنهم لا وصف لهم إلا ذلك.

٥- قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ تقتضي نَهْيَ المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام.

٦- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي أنَّ الله تعالى سوف يُغني المؤمنين، فلا خوف من الفقر.

٧- قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ تأكيد لمعنى ﴿يُعْطُوا۟﴾ للتنصيص على الإعطاء، و﴿عَن﴾ فيه للمجاوزة، أي: يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالها ولا الحوالة فيها، ومحلُّ المجرور الحال من الجزية. والمراد يد المعطي أي: يعطوها غير ممتنعين، ولا منازعين في إعطائها.

٨- قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ استدلَّ بها الجمهور الذين يقولون: لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الله لم يذكر أَخْذَ الجزية إلا منهم. وأمَّا غيرهم فلم يَذْكُرْ إلا قتالهم

حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب المجوسَ في أَخْذِ الجزية وإقرارِهم في ديار المسلمين؛ فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. (تفسير السعدي: ٣٣٤).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

٣٠- يخبر الله تعالى عن عدم التزام اليهود والنصارى بكتبهم وأنّهم مشركون، فاليهود أشركوا بالله لما ادعوا أنَّ عزيراً ابن الله، والنصارى أشركوا به لما ادَّعَوا أن المسيح عيسى ابن الله. ذلك القول افتروه بأفواههم دون إقامة برهان عليه، وهم يشابهون في هذا القول قول المشركين من قبلهم الذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، أهلكهم الله، كيف يُصْرَفُون عن الحق البيِّن إلى الباطل؟

٣١- بالغ اليهود والنصارى في الغُلُوِّ بعلمائهم وأنبيائهم وعُبَّادهم، فجعلوهم أرباباً من دون الله، يُحِلُّون لهم ما حَرَّمه الله عليهم، ويُحَرِّمون عليهم ما أحلَّه الله لهم، وجعل النصارى المسيح عيسى بن مريم إلهاً مع الله، وما أمر الله علماء اليهود وعُبَّاد النصارى وعزيراً وعيسى بن مريم إلا أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، فهو سبحانه إله واحد، لا معبودَ بحق سواه. تَنَزَّه سبحانه وتَقَدَّس أن يكون له شريك في ألوهيته بدعاء غيره معه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع بدون إذنه.

٣٢- يريد اليهود والنصارى أن يُطْفِئُوا نور الله، وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع رسله ، بالطعن فيه والصدِّ عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال في عُزَير والمسيح، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد مَحْضَ الشرك عندهم، ويَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، الذي أرسله إلى الخلق أجمعين، وجعل آيته الكبرى - وهي القرآن - معجزة دائمة، وكَفَلَ حِفْظَها إلى آخر الزمان، وبيَّن لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان، ولو كره الجاحدون ظهور الدين.

٣٣- ثم بيَّن إتمام نوره فقال: إنَّه تعالى كفل إتمام هذا النور؛ بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق، الذي لا يغيِّره دين آخر، ولا يبطله شيء آخر، ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق، فقال: ليُعْلي هذا الدين، ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والسيادة والسلطان، ولو كره المشركون ذلك، فإنَّ الله مُقَدِّره رغم أنوفهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إسنادُ القول بأن عزير ابن الله لليهود والقول بأن المسيح ابن الله للنصارى في قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ مبنيٌّ على أنَّ الأمة تُعَدُّ متكافلة في شؤونها العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم يُنْكِرْه عليه جمهورهم ويُزيلوه، يُؤاخَذون به كلهم.

٢- قال ابن العربي- يرحمه الله - في قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: «في هذا دليل من قول رَبِّنا تبارك وتعالى على أنَّ مَنْ أخبر عن كُفْرِ غيره - الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به - لا حرج عليه؛ لأنَّه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له، والردِّ عليه، فلا يمنع ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكلَّم به أحد، فإذا مكَّن من إطلاق الألسن به، فقد أَذِنَ بالإخبار عنه على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والردِّ عليه بالحجَّة والبرهان». (أحكام القرآن: ٢/ ٩١٣).

٣- إضافة النور إلى اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى أنَّ محاولة إطفائه عبث، وأنَّ أصحاب تلك المحاولة لا يَبْلُغون مُرادهم.

٤- قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ صيغة قصر، أي: هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يُطْفِئُونه؟

٥- وصف الإسلام بقوله: ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ تنويهاً بفَضْله، وتعريضاً بأنَّ ما عليه اليهود والنصارى ليس بهدى ولا حق.

٦- أبان الله ﷻ في الآيات أنَّ الغَلَبَةَ إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة، فلا يَغْلِبُون بكثرتهم.

٧- ذِكْرُ المشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾؛ لأنَّ ظهور دين الإسلام أشدُّ حسرة عليهم من كلِّ أُمة؛ لأنَّهم الذين ابتدَؤوا بمعارضته وعداوته، ودَعَوا الأُمم للتألُّب عليه، واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئاً؛ ولأنَّ أتمَّ مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين؛ لأنَّ الإسلام غَلَبَ عليها، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

٣٤- سبب النزول:

عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلك هَذَا؟ قَالَ: كُنْتُ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ. فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ. (صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم ٤٦٦٠).

التفسير:

لـمّا ذكر ﷻ أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذكر حال كثيرٍ منهم؛ تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وأنَّ مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم، فخاطب الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما شرعه الله لهم، بأنَّ كثيراً من علماء اليهود، وكثيراً من عُبَّاد النصارى، لَيأخذون أموال الناس بغير حق شرعي، فهم يأخذونها بالرشوة وغيرها، وهم يمنعون الناس عن متابعة الدين الحق في خاصة النفس، وإغراء الناس بالإعراض عنه، والذين يجمعون الذهب والفضة، ولا يُؤَدُّون ما يجب عليهم من زكاتها، فأخبِرْهم – أيها الرسول – بما يَسُوءُهم يوم القيامة من عذاب موجع.

٣٥ - يوم القيامة يُحمى على ما جمعوه، ومنعوا حقه في نار جهنم، فإذا اشتدَّتْ حرارتها وُضِعَتْ على جباههم، وعلى جنوبهم، وعلى ظهورهم، ويقال لهم على سبيل التوبيخ: هذه هي أموالكم التي جمعتموها، ولم تُؤَدُّوا الحقوق الواجبة فيها، فذوقوا عاقبة ما كنتم تجمعون، ولا تُؤَدُّون حقوقَه.

٣٦- إنَّ عدد شهور السنة في حكم الله وقضائه اثنا عشر شهراً، لا أقل، ولا أكثر، فيما أثبته الله في اللوح المحفوظ أول ما خلق السموات والأرض. من هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر حُرُم، حَرَّمَ الله فيهنَّ القتال، وهي ثلاثةٌ سَرْدٌ: (ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم)، وواحد فرد، وهو (رجب). ذلك الخبر العظيم المذكور من عدد شهور السنة، ومن تحريم أربعة منها هو الدين المستقيم، فلا تظلموا في هذه الأشهر الحرم أنفسكم بإيقاع القتال فيها، وهَتْكِ حرمتها، وقاتلوا المشركين جميعاً، كما أنهم يقاتلونكم جميعاً. واعلموا أن الله مع الذين يتقونه بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه بالنصر والتثبيت، ومَنْ كان الله معه فلن يغلبه أحد.

٣٧- إنَّ التأخير لحرمة شهر المحرم إلى شهر غير المحرم، وجَعْلَه مكانه - كما كان يفعل العرب في الجاهلية - زيادة في الكفر على كفرهم بالله، إذ كفروا بحكمه في الأشهر الحرم، يُضِلُّ بها الشيطانُ الذين كفروا بالله، حين سَنَّ لهم هذه السُّنَّةَ السيئة، يُحِلُّون الشهر الحرام عاماً فيُبْدِلون به شهراً من شهور الحِلِّ، ويبقونه على تحريمه عاماً؛ ليوافقوا عدد الأشهر التي حَرَّم الله، وإن خالفوا أعيانها، فلا يُحِلُّون شهراً إلا حَرَّموا مكانه شهراً، فيُحِلُّوا بذلك ما حَرَّمه الله من الأشهر الحرم، ويخالفوا حكمه، زَيَّن لهم الشيطان الأعمال السيئة، فعملوها، ومنها ما ابتدعوه من النسيء. والله لا يوفق الكافرين الـمُصِرِّين على كفرهم.

٣٨- ولما بيَّن الله سبحانه أمر الجهاد، وأزاح جميع عِلَلِهم، عاتبهم على تَخَلُّفهم عن رسول الله: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما شرعه لهم، ما شأنكم إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله لقتال عدوكم تباطأتم، ومِلْتُم إلى الاستقرار في مساكنكم، أرَضِيتم بمتاع الحياة الدنيا الزائلة ولَذَّاتها المنقطعة، عوضاً عن نعيم الآخرة الدائم الذي أعدَّه الله للمجاهدين في سبيله؟ فما متاعُ الحياة الدنيا في جنب الآخرة إلا حقير، فكيف لعاقل أن يختار فانياً على باقٍ، وحقيراً على عظيم؟

الفوائد والاستنباطات:

١- ضرورة القيام بكشف ما يضمره أهل الكتاب للإسلام من المهالأة، والتألُّب على مناوأة الدين.

٢- تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والصدِّ عن سبيل الله تعالى.

٣- تحريم اكتناز المال دون احتساب زكاته، وإنفاقه في سبيل الله.

٤- الحرص على تقوى الله في السر والعلن، ولاسيما عند قتال الكفار، فإنَّه في هذه الحال ربما ترك المؤمن التقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

٥- أسند سبحانه وتعالى الحكم إلى كثير من أهل الكتاب دون جميعهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ لأنهم لم يَخْلُوا من وجود الصالحين فيهم .

٦- أسند الله ﷻ الفعل المبني للمجهول إلى المجرور ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحميِّ لظهوره، إذ هو النار التي تُحمى، ثم أكَّد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فصارت الأموال محميةً عليها النارُ وموضوعةً في النار. وبإضافة النار إلى جهنم عُلِم أن المحميَّ هو نار جهنم التي هي أشدُّ نارٍ في الحرارة، فجاء تركيباً بديعاً من البلاغة والمبالغة في إيجاز.

٧- قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ للتنديم والتغليظ. ولام التعليل مؤذنة بقصد الانتفاع؛ لأنَّ الفعلَ الذي عَلَّلَ بها هو من فعل المخاطب، وهو لا يفعل شيئاً لأجل نفسه إلا لأنَّه يريد به راحتها ونَفْعَها، فلما آل بهم الكنز إلى العذاب الأليم خابوا وخَسِرُوا فيما انتفعوا به من الذهب والفضة، بما كان أضعافاً مضاعفة من ألم العذاب. وجملة ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخ وتنديم.

٨- تيسير الله تعالى لعباده ليعرفوا عدد الأيام والشهور القمرية لمعرفة أوقات العبادات وضبط التواريخ في المصالح الدنيوية والأخروية، ومحور هذه الأشهر هو القمر الذي اقترن خلقه بخلق السموات والأرض في يوم واحد. (ح)

٩- يستنبط من الآية اقتران تاريخ خلق القمر بتاريخ خلق السموات والأرض، فقد خُلِقُوا في يوم واحد، وبما أن القمر يستمد ضوءه من الشمس فيستنتج أن الشمس أيضاً خُلِقَت في التاريخ نفسه. (ح)

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسير:

٣٩- لما رغَّبهم ﷺ في الجهاد بناءً على الترغيب في ثواب الآخرة، رغَّبهم في الجهاد بناءً على أنواع أُخَرَ من الأمور المقوية للدواعي: إلا تنفروا - أيها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله؛ لقتال عدوكم يعاقبكم الله بالقهر والإذلال وغيره، ويُبدل بكم أقواماً مطيعين لله، إذا استُنْفِروا للجهاد نفروا، ولا تَضُرُّوه شيئاً بمخالفتكم أَمْرَه، فهو غنيٌّ عنكم، وأنتم الفقراء إليه. والله على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء، فهو قادر على نَصْرِ دينه ونبيِّه من دونكم.

٤٠- ثم رَغَّبهم ثانية في الجهاد، فأبان لهم أنَّه تعالى المتوكِّلُ بنصره - على أعداء دينه - أعانوه أو لم يعينوه، وقد فعل ذلك به في أشدِّ الأوقات: إلَّا تنصروا - أيها المؤمنون - رسولَ الله ﷺ، وتستجيبوا لدعوته للجهاد في سبيل الله، فقد نصره الله حين أخرجه المشركون هو وأبو بكر ﷺ، لا ثالث لهما حين كانا في غار ثور مُختَفِيَيْن من الكفار الذين كانوا يبحثون عنهما، حين يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق حين خاف عليه أن يُدركه المشركون: لا تحزن إنَّ الله معنا بتأييده ونصره، فأنزل الله الطمأنينة على قلب رسوله، وآزره بجنود يؤيدونه، لا تشاهدونهم وهم الملائكة، وصيَّر كلمة المشركين السفلى، وكلمة الله هي العليا دائماً. والله عزيز في ذاته وقهره ومُلْكه، لا يغالبه أحد، حكيم في تدبيره وقدره وشرعه.

٤١- وبعد أن تَوَعَّد مَنْ لم ينفروا مع الرسول، وتثاقلوا حين استنفرهم، أتبعه بالأمر الجازم الذي لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد في التخلُّف وتَرْكِ الطاعة، فقال: سيروا - أيها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله في العسر واليسر، شباباً وشيوخاً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ذلك الخروج في سبيل الله والجهاد بالأموال والأنفس أكثر نفعاً في الحياة الدنيا والآخرة، من القعود والتعلُّق بسلامة الأموال والأنفس، أما في الدين فلا سعادة إلا لِـمَنْ ينصر الحق ويُقيم العدل، وأما في الدنيا فإنَّه لا عزَّ للأُمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية والعُدَّة التي هي وسيلة لدفاع العدو وكَبْحِ جماحه، إن كنتم تعلمون علماً يبعث على العمل.

٤٢- وبعد أن رَغَّبهم سبحانه في الجهاد في سبيل الله، وبَيَّن أنَّ فريقاً منهم تباطَؤُوا وتثاقلوا، أتبع ذلك ببيان أنَّ فريقاً منهم تخلَّفوا عنه، وطَفِقُوا يتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنونه ﷺ في القعود والتخلف ليأذن لهم، فقال: لو كان ما تدعون إليه الذين استأذنوك من المنافقين في التخلف غنيمة سهلة وسفراً لا مشقة فيه لاتَّبعوك أيها النبي، ولكن بَعُدَتْ عليهم المسافة التي دعوتهم لقَطْعها إلى العدو، فتخَلَّفوا، وسيحلف بالله هؤلاء المستأذنون من المنافقين في التخلف عندما ترجع إليهم: لو استطعنا الخروج إلى الجهاد معكم لَخرجنا. يهلكون أنفسهم بتعريضها لعقاب الله؛ بسبب هذه الأيمان الكاذبة، والله يعلم أنَّهم كاذبون في دعواهم، وفي أيمانهم هذه.

٤٣- ثم عاتب الله نبيَّه ﷺ في إذنه لِـمَنْ تَخَلَّف عنه من المنافقين: عفا الله عنك - أيها الرسول - في اجتهادك في الإذن لهم في التخلُّف، فلِمَ أَذِنْتَ لهم فيه؟ حتى يتضح لك الصادقون في أعذارهم التي قَدَّمُوها، والكاذبون فيها، فتأذنَ للصادقين منهم، دون الكاذبين.

الفوائد والاستنباطات:

١- جَرَتْ سُنَّةُ الله بأنَّ الأُمم التي لا تُدَافِعُ عن نفسها، ولا تحمي ذِمارها، لا بقاء لها، وتكون فريسة للطامعين، وغنيمة للمعتدين.

٢- التهاون في النفير حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب؛ لِما فيها من المضارِّ الشديدة.

٣- السكينة من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تَطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٤- قد يعرض الحزن لخواصِّ عباد الله الصِّدِّيقين، مع أنَّ الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنَّه مُضْعِفٌ للقلب، مُوهِنٌ للعزيمة.

٥- لم يذكر اسم مَنْ هو الثاني في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ لكون الثاني معلوماً للسامعين كلهم - وهو أبو بكر الصديق ﷺ - ، ولأنَّ المقصود تعظيم هذا النصر مع قلة العدد.

٦- أشعر قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أنَّ أمر المشركين كان بمظنَّةِ القوة والشدة؛ لأنَّهم أصحاب عدد كثير وفيهم أهل الرأي والذكاء، ولكنهم لما شاقُّوا الله ورسوله خذلهم الله، وقَلَّبَ حالهم من علو إلى سفل.

٧- جملة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام؛ لأنَّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سفلى، أفاد أنَّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادةَ جَعْلِ كلمة الله عليا، لما يُشْعر به الجَعْلُ من إحداث الحالة، بل إفادة أنَّ العلاء ثابت لها، ومقصور عليها.

٨- الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ عامٌّ للذين استُنْفِروا فتثاقلوا، وإنما استُنْفِرَ القادرون، وكان الاستنفار على قدر حاجة الغزو، فلا يقتضي هذا الأمر تَوَجُّهَ وجوب النفير على كلِّ مسلم في كل غزوة.

٩- المقصود من وقوع قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالاً من فاعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ هو الأمر بالنفير في جميع الأحوال.

١٠- تقديم الأموال على الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأهميته، ولأنَّ الجهاد بالنفس لا يتهيأ إلا بالجهاد المالي.

١١- تَعَمُّد اليمين الفاجرة يُفضي إلى الهلاك.

١٢- جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حال، أي: هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنَّ الله يعلم كذبهم، أي: ويُطْلِعُ رسوله على كَذِبهم، فما جَنَوا من الحَلْفِ إلا هلاك أنفسهم.

١٣- افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إكرام عظيم للرسول ﷺ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب، وأُلْقِيَ إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة؛ إيماءً إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلا لسبب تَأَوَّلَه، ورجا منه الصلاح.

١٤- ينظر: خريطة موقع غزوة تبوك، كما في الملحق.

﴿ لَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٤- ليس من شأن المؤمنين بالله، وبيوم القيامة، إيماناً صادقاً أن يطلبوا منك - أيها الرسول - الإذْنَ في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل شأنهم أن ينفروا متى استُنْفِروا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. والله عليم بالمتقين من عباده الذين لا يستأذنونك إلا لأعذارٍ تمنعهم من الخروج معك.

٤٥- إنَّ الذين يطلبون منك - أيها الرسول - الإذن في التخلُّف عن الجهاد في سبيل الله هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بيوم القيامة، وأصاب قلوبَهم الشكُّ في دين الله، فهم في شَكِّهم يتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى الحق.

٤٦- ولو كانوا صادقين في دعوى أنهم يريدون الخروج معك للجهاد في سبيل الله؛ لَتَأَهَّبُوا له بإعداد العُدَّة، ولكن أبغضَ اللهُ خروجَهم معك، فأخَّرَهم عنه، وأهانهم فقيل لهم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والصبيان والمرضى.

٤٧- ولما كان تَخَلُّف هؤلاء قد يُحزن المؤمنين، طمأنهم الله بأنَّ خروجهم أكثر ضرراً من تَخَلُّفهم، فقال: من الخير ألَّا يخرج هؤلاء المنافقون معكم، فهم إن خرجوا معكم ما زادوكم إلا فساداً بما يقومون به من التخذيل وإلقاء الشُّبَه، ولأسرعوا في صفوفكم بنشر النميمة لتفريقكم. والحال أنَّ فيكم - أيها المؤمنون - مَنْ يستمع إلى ما يُرَوِّجونه من الكذب، فيقبله، وينشره بينكم، فينشأ الاختلاف بينكم. والله عليم بالظالمين من المنافقين الذين يُلقون الدسائس والشكوك بين المؤمنين.

٤٨- ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من مكر المنافقين، وفساد باطنهم، فقال: لقد طلب هؤلاء المنافقون الإفساد بتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل غزوة تبوك، ونَوَّعُوا وصرفوا لك - أيها الرسول - الأمور بتدبير الحِيَلِ، لعلَّ حِيَلَهم تُوهن في عزمك على الجهاد، حتى جاء نصر الله، وتأييده لك، وأعزَّ الله دينه وقهر أعداءه، وهم كارهون لذلك؛ لأنهم كانوا يرغبون في انتصار الباطل على الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الجهاد بالنفس والمال، حيث اقتضت الحاجة ذلك.

٢- العبد الكامل العبودية لله هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة.

٣- للجهاد ثمرة يانعة عظيمة، فهو يحقق إحدى الحسنيين: إمَّا النصر بإعلاء كلمة الله، وإعزاز المسلمين، وإمَّا الشهادة في سبيل الله، فيتحقق القرار في نعيم الآخرة، والاستمتاع بالخلود في الجنة.

٤- وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبُّت والتأنِّي، وترك الاغترار بظواهر الأمور.

٥- المؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم.

٦- الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للدَّلالة على تجدُّد نفي إيمانهم.

٧- الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ للدلالة على قِدَم ذلك الارتياب ورسوخه؛ فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التفسير:

٤٩- ولما أشار سبحانه إلى أنَّ من المنافقين مَنِ استأذن في الخروج، توطئة للاعتذار عنه، شرع يفصل ذلك: ومن المنافقين مَنْ يعتذر بالأعذار المختلقة فيقول: يا رسول الله ائذن لي في التخلُّف عن الجهاد، ولا تحملني على الخروج معك، حتى لا أصيب ذنباً بسبب فتنة نساء الروم إذا شاهَدْتُهن. ألا قد سقطوا في فتنة أعظم مما زعموا، وهي فتنة النفاق. إنَّ جهنم يوم القيامة لمحيطة بالكافرين، لا يفوتها منهم أحد، ولا يجدون عنها مهرباً.

٥٠- ثم ذكر ﷻ نوعاً آخر من كيد المنافقين، ومِنْ فساد بواطنهم، مخاطباً الرسول ﷺ: إن نالتك - يارسول الله - نعمة من الله بما يَسُرُّك من نصر أو غنيمة كرهوا ذلك، وحزنوا له، وإن نالتك مصيبة من شدةٍ أو انتصارِ

عدو قال هؤلاء المنافقون: قد احتَطْنا لأنفسنا، وأَخَذْنا بالحذر حين لم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون، فأصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، ويرجع هؤلاء المنافقون إلى أهليهم مسرورين بالسلامة.

٥١- قل - أيها الرسول - لهؤلاء المنافقين: لن ينالَنا إلا ما كتبه الله لنا، فهو سبحانه سيدنا، الملجأ الذي نلجأ إليه، ونحن متوكلون عليه في أمورنا، وعليه وحده يتوكل المؤمنون، فهو كافيهم، ونِعْمَ الوكيل.

٥٢- قل - أيها الرسول - لهم: هل تنتظرون أن يقع لنا إلا النصر أو الشهادة، وهما عاقبتان حُسْنَيان، ونحن ننتظر بكم أن يُنزل بكم الله إحدى مَساءتين: مساءة بعذاب من عنده يهلككم، أو مساءة بتعذيبكم بأيدينا بقتلكم وأَسْرِكم إذا أَذِنَ لنا بقتالكم، فانتظروا عاقبتنا، إنا مُنْتظرون عاقبتكم.

٥٣- ولما كان جملة ما يصيب المنافقين من العذاب الإنفاق بتزكية ما طَهُرَ من أموالهم بالإعانة في سبيل الله خوفاً من اتهامهم بالنفاق في أقوالهم؛ ليفتدوا أنفسهم به من السفر: قل - أيها الرسول - لهم: ابذُلوا ما تبذلون من أموالكم طوعاً أو كرهاً، لن يُتَقَبَّل منكم ما أنفقتم منها لكفركم، وخروجكم عن طاعة الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأعذار الكاذبة لا تخفى على الله، فهو المُطَّلع على الغيوبِ، وأسرار النفوس، وخفايا ما في الصدور، فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بذكائه وفِطْنته في تعمية الحقائق.

٢- الإيمان يدفع صاحبه إلى اقتحام الأهوال ومجابهة الصعاب، والتضحية والفداء في سبيل الحق.

٣- من سنن الله الجارية أَخْذُ الظالمين بذنوبهم، فالذنوبُ آفة الحضارات.

٤- التوكُّل على الله بمعنى تفويض الأمر إليه بعد اتخاذ الأسباب من أصول الإيمان.

٥- التعريف في الفتنة في قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه، أي: في الفتنة العظيمة سقطوا، فأيُّ وجه فُرض في المراد من الفتنة حين قال قائلهم ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ كان ما وقع فيه أشد مما لم يقع، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق، وإن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلُّف فقد وقع في أعظم الفتنة بافتضاح أمْرِ نفاقِهم، وإن أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظمِ نَكَدٍ بكونه مكروهاً مبغوضاً للناس.

٦- في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ دعوة إلى الرضا والتسليم، وهو ألَّا يحزنوا لما يصيبهم؛ لئلا يَهِنُوا وتذهب قوتهم، وأن يرضوا بما قدَّر الله لهم، ويرجوا رضا ربهم؛ لأنهم واثقون بأنَّ الله يريد نَصْرَ دينه. وفي الآية دليل لأهل السنة على أنَّ قضاء الله شامل لكل المُحْدَثات، وأنَّ تَغَيُّرَ الشيء عمَّا قَضَى الله به محال.

٧- جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة أي: لا يصيبنا إلا ما قدَّره الله لنا، ولنا الرجاء بأنَّه لا يُكتب لنا إلا ما فيه خيرُنا العاجلُ أو الآجل، لأنَّ المولى لا يَرْضى لمولاه الخِزْيَ.

٨- اختيار لفظ الفاسقين بدل الكافرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ لأنَّهم يُظْهِرون الإسلام، ويُبْطِنُون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

٥٤- وما منعهم من قَبُول نفقاتهم إلا ثلاثة أمور: كُفْرُهم بالله وبرسوله، وكَسَلُهم وتثاقلهم إذا صَلَّوا، وأنهم لا ينفقون أموالهم طوعاً، وإنما ينفقونها كرهاً؛ لأنهم لا يرجون ثواباً في صلاتهم، ولا في إنفاقهم.

٥٥- ولما انتفى عن أموالهم النفع الأُخْروي الذي هو النفع، قال مبيِّناً مافيها من الفساد الذي يظن أنه صلاح: فلا تعجبك - أيها الرسول - أموال المنافقين، ولا أولادهم، ولا تستحسنها، فعاقبة أموالهم وأولادهم سيئة، فالله يجعلها عذاباً عليهم بالكَدِّ والتعب لتحصيلها، وبما ينزل من مصائب فيها إلى أن يخرج الله أرواحهم حال كفرهم، فيُعَذَّبون بالخلود في الدَّرْك الأسفل من النار.

٥٦- ويحلف المنافقون لكم - أيها المؤمنون - كاذبين: إنهم لمن جملتكم، وهم ليسوا منكم في بواطنهم وإن أظهروا أنهم منكم، لكنهم قوم يخافون، فهم جبناء في القتال، ويخافون أن يحلَّ بهم ما حَلَّ بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون الإسلام تقية.

٥٧- لو يجد هؤلاء المنافقون ملجأً من حصن يحفظون فيه أنفسهم، أو يجدون كهوفاً في الجبال يختبئون فيها، أو يجدون نَفَقاً يدخلون فيه لالتجَؤُوا إليه، ودخلوا فيه وهم مسرعون سرعة الفرس الجامح.

٥٨- سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ذو الخويصرة فقال: اعدل. فقال: وَيْلَكَ مَنْ يعدل إذا لم أعدل؟.. فنزلت: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

(صحيح البخاري: كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج، برقم ٦٩٣٣).

التفسير:

ومن المنافقين مَنْ يَعيبك - أيها الرسول - في قسمة الصدقات، عندما لا ينالون منها ما يريدون، فإن أعطيتهم منها ما يطلبون رَضُوا عنك، وإن لم تُعْطِهم ما يطلبون منها أظهروا التذمُّر.

الفوائد والاستنباطات:

١- ذكر سبحانه من أعمال البر الصلاة والنفقة؛ لأنَّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام، ويستدلُّ بهما على الإيمان.

٢- تعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً.

٣- ينبغي للعبد ألَّا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابتُ القلب، يرجو ذُخْرَها وثوابَها من الله وحده، فذاك دليل الإيمان والبعد عن النفاق.

٤- إنَّ أفعال الكافر الخيرية كصلة القَرابة، وإغاثة الملهوف، قد تفيده في الدنيا بدفع ضرر أو سوء، ولكن لا يُثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة.

٥- الأيمان الكاذبة والإقدام عليها، ومنها دعوى الإيمان من أخلاق المنافقين.

٦- اختيار صيغة المضارع في قوله:﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ وقوله:﴿ يَفْرَقُونَ ﴾؛ للدلالة على التجدُّد، وذلك دأبهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

التفسير:

٥٩- ولو أنَّ هؤلاء المنافقين الذين يَعيبونك في قسمة الصدقات رَضُوا بما فرضه الله لهم، وبما أعطاهم رسولُه منها، وقالوا: كافينا الله، سيعطينا الله من فضله ما شاء، وسيعطينا رسولُه مما أعطاه الله. إنَّا إلى الله وحده راغبون أن يُعطينا من فضله، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم

٦٠- ولما عابوا رسول الله ﷺ في قسمتها بَيَّن لهم مصارِفَها ومُسْتَحقيها: إنما الزَّكَوات الواجبة يجب أن تُصْرف للفقراء، وهم المحتاجون الذين لا يَمْلكون شيئاً، وللمساكين الذين لا يملكون كفايتهم، وللسعاة الذين يُرسلهم الإمام لـجَمْعِها، وللكفار الذين يُتَأَلَّفون بها ليُسْلِمُوا، أو لضَعَفَةِ الإيمان ليقوى إيمانهم، أو لمن يُدْفَعُ بها شَرُّه، وتُصْرَفُ في الأرِقَّاء ليعتقوا بها، وللمَدينين في غير إسراف ولا معصية، إن لم يجدوا وفاءً لما عليهم من دَيْن، وتُصْرَفُ في تجهيز المجاهدين في سبيل الله، وللمسافر الذي انقطعت نفقته وقَصْرُ صَرْفِ الزَّكَوات على هؤلاء فريضة من الله. والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

٦١- ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالات المنافقين فبيَّن أن من المنافقين مَنْ يُؤذون رسول الله ﷺ بالكلام، فيقولون لما شاهدوا حِلْمه ﷺ: إنَّه يسمع من كلِّ أحد ويُصَدِّقُه، ولا يميز بين الحق والباطل، قل لهم - أيها الرسول -: إنَّ الرسول لا يسمع إلا الخير، يُصَدِّق بالله، ويُصَدِّق ما يخبر به المؤمنون، والذين يؤذونه ﷺ بأيِّ نوع من أنواع الإيذاء لهم عذاب موجع.

٦٢- يحلف المنافقون بالله لكم - أيها المؤمنون - إنَّهم لم يقولوا شيئاً يُؤذي النبي ﷺ؛ ذلك ليُرْضوكم، والله ورسوله أولى بالإرضاء بالإيمان والعمل الصالح، إن كان هؤلاء مؤمنين حقاً.

٦٣- ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنهم بعملهم هذا مُعادون لله ولرسوله، وأنَّ مَنْ يعاديهما يدخل يوم القيامة نار جهنم ماكثاً فيها أبداً. وذلك هو الهوان والذل الكبير.

الفوائد والاستنباطات:

١- الأموال والأولاد قد تكون سبباً للعذاب في الدنيا، وقد تكون سبباً للعذاب في الآخرة، فليتعامل العبد معهما بما يُرضي مولاه، فتتحقق بهما النجاة.

٢- ينبغي للعبد أن يكون هواه تَبَعَاً لمرضاة مولاه.

٣- لو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسدُّ الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية والدنيوية.

٤- توزيع الزكاة موكول لاجتهاد ولاة الأمور، يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال.

٥- إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفرٌ يترتب عليه العقاب الشديد.

٦- ينبغي للعبد أن يكون أُذُنَ خيرٍ لا أُذُنَ شرٍّ، يستمع إلى ما فيه الصلاح والخير، ويُعْرِضُ ترفُّعاً وإباء عن سماع الشر والفساد.

٧- تقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لإفادة القصر، أي: إلى الله راغبون، لا إلى غيره.

٨- الإخبار بـ ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ من صيغ التشبيه البليغ، أي: كالأذن في تَلَقِّي المسموعات لا تَرُدُّ منها شيئاً، وهو كناية عن تصديقه بكل ما يَسْمَعُ من دون تمييز بين المقبول والمردود.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- ولما عَلَّل فِعْلَ المستهينين أتبعه تعليلَ أمرِ صنف آخَرَ أخفَّ منهم نفاقاً بما عندهم مما يقارب التصديق فقال: يخاف المنافقون أن ينزل الله على رسوله سورةً تُطْلِع المؤمنين على ما يضمرونه من الكفر، قل - أيها الرسول -: استمِرُّوا - أيها المنافقون - على استهزائكم وسخريتكم، فالله مخرج ما تخافون بإنزال سورة أو بإخبار رسوله بذلك.

٦٥- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاَءِ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلاَ أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلاَ أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ. قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ، تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾. (تفسير ابن أبي حاتم: ٤/ ٦٣).

التفسير:

ولئن سألت - أيها الرسول - المنافقين عمّا قالوا من الطعن، وسَبِّ المؤمنين بعد إخبار الله لك به ليقولُنَّ: كنا في حديث نمزح فيه ولم نكن جادِّين. قل أيها الرسول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟

٦٦- لَـمَّا وصفهم بالنفاق حَقَّقه بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين، وباجترائهم على الإنكار مع كون السائل لهم قد بلغ الغاية في الجلال والكمال، فقال: لا تعتذروا بهذه الأعذار الكاذبة، فقد أظهرتم

الكفر باستهزائكم بعد أن كنتم تُضْمِرُونه، إن نتجاوز عن فريق منكم؛ لتَرْكِه النفاقَ وتوبتِه منه، وإخلاصه لله، نُعَذِّبْ فريقاً منكم لإصرارهم على النفاق، وعدم توبتهم منه.

٦٧- المنافقون رجالاً ونساءً متفقون في أحوال النفاق، وهم على النقيض من المؤمنين، فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، أعرضوا عن الله فغفلوا عنه، فلا يذكرونه إلا قليلاً، فأغفلهم الله من رحمته. إنَّ المنافقين هم الخارجون عن طاعة الله وطريق الحق إلى معصيته وطريق الضلال.

٦٨- وعد الله المنافقين والكفار الذين لم يتوبوا نار جهنم، ماكثين فيها أبداً، هي كافيتهم عقاباً، وطَرَدَهم الله من رحمته، ولهم عذاب مستمر.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَعْداد قبائح المنافقين وهي: الإقدامُ على الأيمان الكاذبة، ومعاداة الله ورسوله، والاستهزاء بالقرآن والنبي والمؤمنين، والاعتذار بأنهم هازلون لاعبون.

٢- لا يُقبل الهزل في الدين وأحكامه، ويُعَدُّ الخوض في كتاب الله ورسله وصفاته كفراً، ولا خلاف بين الأُمة في أن الهزل بالكفر كفر، لأنَّ الهزل أخو الباطل والجهل.

٣- التوبة عن النفاق أو الكفر مقبولة، فمَنْ تاب عُفِيَ عنه، ومَنْ أصرَّ على الكفر أو النفاق عوقب في جهنم.

٤- مَنْ حلف فليحلف بالله أو ليصمت، ومن حُلِفَ له فليُصَدِّقْ.

٥- شمل قوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ جميع المنافقين والمنافقات؛ لأنَّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلاً ببعض آخر، عُلِمَ أنهم سواء في الأحوال.

٦- وَحَّدَ ﷻ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مَرْضِيّ واحد.

٧- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب؛ للإشعار ببُعْدِ درجته في الهول والشناعة.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾

التفسير:

٦٩- ولما كان حالهم في الإقبال على العاجلة لكونها حاصلة، والإعراض عن العاقبة لأنها غائبة، مشابهاً لحال مَنْ كان قبلهم من الأُمم الخالية والقرون الماضية، بَيّنَ لهم ذلك، وختم ببيان سوء أحوالهم، وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالهم، موبخاً لهم: أنتم - يا معشر المنافقين - في الكفر والاستهزاء مثلُ الأُمم المكذِّبة مِنْ قبلكم، كانوا أعظم قوة منكم، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتَّعوا بنصيبهم المكتوب لهم من مَلَذَّات الدنيا وشهواتها، فتمتعتم أنتم - أيها المنافقون - بنصيبكم المقدَّرِ لكم من ذلك، مثل تَمتُّع الأُمم المكذبة السابقة بنصيبهم ، وخُضْتم في التكذيب بالحق، والطعن في الرسول، مثل خوضهم في التكذيب به والطعن برسلهم. أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة هم الذين بَطَلَتْ أعمالهم لفسادها عند الله بالكفر، وهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك.

٧٠- ألم يَبْلُغْ هؤلاء المنافقين خبرُ ما فعلَتْه الأُمم المكذبة، وما فُعِل بها من عقاب: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، وقرى قوم لوط، جاءتهم رُسُلُهم بالبراهين الواضحة والحُجَج الجلية، فما كان الله ليظلمَهم، فقد أنذَرَتْهم رُسُلُهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بما كانوا عليه من الكفر بالله، وتكذيب رسله.

٧١- لما بيَّن سبحانه وَصْفَ المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة، ذكر في هذه الآية وصف المؤمنين بالخير وأعمال البر، ثم ذكر أنواع ما أعَدَّ الله لهم من الثواب الدائم، والنعيم المقيم: والمؤمنون والمؤمنات

بعضهم أنصار بعض، يأمرون بالمعروف، وهو اسم جامع لكلِّ ما عُرِف حُسْنُه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وينهون عن المنكر، وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، ويُؤَدُّون الصلاة كاملةً على أكمل وجه، ويطيعون الله، ويطيعون رسوله، أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة سيدخلهم الله في رحمته. إنَّ الله عزيز، لا يُغالبه أحد، حكيم في خَلْقه وتدبيره وشَرْعِه.

٧٢- و لما ذَكَرَ الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال، ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل: وعد الله المؤمنين والمؤمنات أن يُدْخِلَهم يوم القيامة جناتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار ماكثين فيها دائماً، لا يموتون فيها ولا ينقطع نعيمهم، ووَعَدَهم أن يدخلهم مساكن حسنة في جنات إقامة، ورضوان يُحِلُّه الله عليهم أكبر من ذلك كله. ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا يُدانيه فوز.

٧٣- يا أيها الرسول، جاهِدِ الكفَّار بقتالهم بالسيف، وجاهد المنافقين باللسان والحجة، واشْدُد على الفريقين فهم أهل لذلك، ومَقَرُّهم يوم القيامة جهنم، وساء المصير مصيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- النِّفاق: مرض عُضال متأصِّل في البشر، وأصحاب ذلك المرض متشابهون في كل عصر وزمان في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وقبض أيديهم وإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الله للجهاد، وفيما يجب عليهم من حق.

٢- الجزاء من جنس العمل. فالذي يترك أوامر الله، ويأتي بنواهيه، يتركهم من رحمته.

٣- سبب العذاب للكفار والمنافقين واحد في كل العصور، وهو إيثار الدنيا على الآخرة، والاستمتاع بها، وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر بهم.

٤- إهلاك الأُمم والأقوام الغابرة إنما هو بسبب كفرهم وتكذيبهم الأنبياء، فيه عظة وعبرة للمُعْتَبِرِ من العقلاء.

٥- لا عقوبة إلا بذنب.

٦- إن أهل الإيمان رجالاً ونساءً أُمة واحدة مترابطة متعاونة متناصرة، قلوبهم متحدة في التوادِّ والتحابِّ والتعاطف.

٧- رضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات؛ لما في ذلك من غاية الرضا والإسعاد.

٨- إن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون، وقد كان التعاون بين المسلمين والمسلمات قائماً في الميادين والمواقف الحاسمة كلها كالهجرة والجهاد، مع اعتصام الرجال بالعِفَّة، وغَضِّ

البصر، واعتصام النساء بالأدب الجمِّ والحياء، والتعفُّف وغض البصر، والاحتشام في الحديث واللباس والعمل.

٩- قرن الله ﷻ المنافقين بالكفار في قوله تعالى: ﴿ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ تنبيهاً على أنَّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، وفائدة الجمع بين الكفار والمنافقين في الجهاد إلقاء الرعب في قلوبهم، فإنَّ كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره، فيُعامَلَ معاملة الكفار المحاربين، فيكون ذلك خاضداً شوكتهم.

١٠- ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير:

٧٤- ولما أتى بالدليل العام على إجرام المنافقين أتبعه بالدليل الخاص عليه: يحلف المنافقون بالله كاذبين: ما قالوا ما بَلَغَكَ عنهم من السَّبِّ لك، والعيب لدينك. ولقد قالوا ما بلغك عنهم مما يكفِّرهم، وأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإيمان، ولقد هَمُّوا بما لم يظفروا به من الفتك بالنبي ﷺ، وما أنكروا شيئاً إلا شيئاً لا ينكر، وهو أنَّ الله تَفَضَّل عليهم بإغنائهم من الغنائم التي مَنَّ بها على نبيِّه، فإن يتوبوا إلى الله من نفاقهم تكن توبتهم منه خيراً لهم من البقاء عليه، وإن يَتَوَلَّوا عن التوبة إلى الله يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا بالقتل والأسر، ويعذبهم عذاباً موجعاً في الآخرة بالنار، وليس لهم وَلِيٌّ يَتَوَلَّاهم، فينقذهم من العذاب، ولا ناصر يدفع عنهم العذاب.

٧٥- ومن المنافقين مَنْ عاهد الله قائلاً: لئن أعطانا الله من فضله لَنتصدَّقَنَّ على المحتاجين، ولَنكوننَّ من الصالحين الذين صلحت أعمالهم.

٧٦- فلما أعطاهم الله سبحانه من فضله لم يَفُوا بما عاهدوا الله عليه، بل بخلوا، فلم يتصدقوا بشيء، وتَوَلَّوا وهم مُعْرِضون عن الإيمان.

٧٧- فجعل عاقبتهم نفاقاً ثابتاً في قلوبهم إلى يوم القيامة؛ عقاباً لهم على خُلْفِهم لعهد الله، وعلى كذبهم.

٧٨- ألم يعلم المنافقون أنَّ الله يعلم ما يُخفون من الكيد والمكر في مجالسهم، وأنَّ الله سبحانه علَّام الغيوب؟ فلا يخفى عليه من أعمالهم شيء، وسيجازيهم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب جهاد الكفار والمنافقين باليد والسِّنان، والحجة والبرهان إذا اجتمعت الضوابط الشرعية اللازمة لذلك.

٢- المنافقون من شرّ الناس لأنهم غادرون، يُقابِلون الإحسان بالإساءة.

٣- في الآيات دلالة على أنَّ نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه.

٤- في الآيات ثناءٌ على قوة البدن والعمل، وأنها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في تقدير أصول الثروة العامة، والتنويه بشأن العامل.

٥- جيء بالفعل (يَكُ) في جواب الشرط دون أن يقال: فإن يتوبوا فهو خير لهم؛ لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، والإيماء إلى أنَّه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأنَّ فِعْلَ التكوين مؤذن بذلك.

٦- عبَّر ﷻ عن كَذِبِ المنافقين بصيغة ﴿كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾؛ لدلالة (كان) على أنَّ الكذب كائن فيهم ومتمكِّن منهم، ودلالة المضارع على تَكَرُّره وتجدُّده. وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة؛ فإنها تفسد الأخلاق الصالحة.

٧- عطف ﷻ النجوى على السّر في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَنهُمْ﴾ مع أنه أعمُّ منها؛ لينبئهم باطلاعه على ما يتناجُون به من الكيد والطعن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

٧٩- سبب النزول:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي. وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا. فَنَزَلَتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم٤٦٦٨).

التفسير:

ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من أعمال المنافقين القبيحة، وهو لَـمْزُهم مَنْ يأتي بالصدقات طوعاً وطبعاً، أولئك الذين يَعيبون المتطوعين من المؤمنين ببذل الصدقات اليسيرة، الذين لا يجدون إلا شيئاً قليلاً هو حاصلُ ما يقدرون عليه، فيسخرون منهم قائلين: ماذا تُجْدي صَدَقَتُهم؟ سَخِرَ الله منهم جزاءً على سخريتهم بالمؤمنين، ولهم عذاب موجع.

٨٠- اطلب - أيها الرسول - لهؤلاء المنافقين المغفرة من الله، أو لا تطلبها لهم، فطَلَبُها لهم، وتَرْكُ طَلَبِها سواء. إن تطلب لهم المغفرة كثيراً فلن يغفر الله لهم؛ بسبب كفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله. والله لا يُوَفِّقُ القوم المتمردين على دينه، الخارجين عن طاعته.

٨١- فرح المتخلِّفون من المنافقين عن غزوة تبوك بقعودهم عن الجهاد في سبيل الله مخالفين رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله كما يجاهد المؤمنون، وقالوا مُثَبِّطين لإخوانهم من المنافقين: لا تسيروا في الحر، وكانت غزوة تبوك في وقت الحر. قل لهم أيها الرسول: نار جهنم التي تنتظر المنافقين أشدُّ حَرّاً من هذا الحرِّ الذي فرُّوا منه لو يعلمون.

٨٢- فليضحَكْ هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد قليلاً في حياتهم الدنيا الفانية، ولْيبكوا كثيراً في حياتهم الآخرة الباقية؛ جزاءً على ما اكتسبوه من الكفر والمعاصي والآثام في الدنيا.

٨٣- فإن أعادك الله - أيها النبيُّ - إلى فريقٍ من هؤلاء المنافقين، ثابتٍ على نفاقه، فطلبوا منك الإذن بالخروج معك في غزوة أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا - أيها المنافقون - معي للجهاد في سبيل الله أبداً عقوبةً لكم، وحَذَراً من المفاسد المترتبة على وجودكم معي، فقد رضيتم بالقعود والتخلف في غزوة تبوك، فاقعدوا، وابقوا مع المتخلفين من المرضى والنساء والصبيان.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

٢- فَرَحُ المنافقين زائل، لكنَّ بكاءهم دائم.

٣- الآيات تَدُلُّ على قِصَرِ نَظَرِ الإنسان، فهو ينظر غالباً إلى الحال والواقع الذي هو فيه، ولا ينظر إلى المستقبل، وما يَتَمَخَّض عنه من أحداث.

٤- في الآيات دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ، يفعل ذلك مع المؤمنين.

٥- عدم الاغترار بما أعطى الله في الدنيا من الأموال والأولاد للكافرين والمنافقين، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

٦- لا يدرك المنافقون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد .

٧- اختيار المضارع في ﴿يَلْمِزُونَ﴾ و ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ للدلالة على التكرر.

٨- قوله تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تُستعمل في معنى الكثرة.

٩- قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وَصَفَ المخلَّفين بصيغة اسم المفعول؛ لأنَّ النبي خَلَّفهم، وفيه إيماء إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم في التخلف إلا لعِلْمِه بفساد قلوبهم، وأنَّهم لا يُغْنُون عن المسلمين شيئاً، وذِكْرُ فَرَحِهم دلالةٌ على نفاقهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخَلُّف نَكَداً عليهم ونَغَصاً، كما وقع للثلاثة الذين خُلِّفُوا، فتاب الله عليهم.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

٨٤ - سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ بنُ سَلُول، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ أَنْ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ». قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾. (صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، برقم ١٣٦٦. وصحيح مسلم: باب من فضائل عمر، برقم ٦٣٦٠).

التفسير:

نهى الله تعالى رسولَه ﷺ أن يصلِّي على مَنْ مات من المنافقين، كما نهى أن يقف على قبره للدعاء له بالمغفرة، ذلك أنهم كفروا بالله وكفروا برسوله، وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله، ومَنْ كان كذلك لا يُصَلَّى عليه، ولا يُدْعى له.

٨٥- ولا تُعْجِبْك - أيها الرسول - أموال هؤلاء المنافقين، ولا أولادهم، إنما يريد الله أن يُعَذِّبهم بها في الحياة الدنيا، وذلك بما يُعانونه من المشاقِّ في سبيلها، وما يُصابون به من مصائب فيها، وأن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم على كفرهم.

٨٦- وإذا أنزل الله سورةً على نبيه محمد ﷺ متضمنةً للأمر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله، طلب الإذن في التخلُّفِ عنك أصحابُ اليسار منهم، وقالوا: اتركنا نتخلَّف مع أصحاب الأعذار كالضعفاء والزَّمْنى.

٨٧- رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم الذلة والمهانة، حين رَضُوا أن يتخلَّفوا مع النساء وأصحاب الأعذار، وختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم، فهم لا يعلمون ما فيه مصلحتهم.

٨٨- أما الرسول والمؤمنون معه فلم يَتَخَلَّفوا عن الجهاد في سبيل الله مثل هؤلاء، وإنما جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وكان جزاؤهم عند الله حصول المنافع الدنيوية لهم كالنصر والغنائم، وحصول المنافع الأخروية، ومنها دخول الجنة، وحصول الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاقتصار على الطَّوْل في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يدلُّ على أن أُولي الطَّول مراد بهم مَنْ له قدرة على الجهاد بالمال والبدن، فبوجود الطَّوْل انتفى عذرهم.

٢- أسند ﷻ الطَّبْعَ إلى المجهول في قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إمَّا للعلم بفاعله وهو الله، وإمَّا للإشارة إلى أنَّهم خُلِقوا كذلك، وجُبِلُوا عليه. وفَرَّع على الطبع غيابُ علمهم بالأمور التي يختص بعلمها أهل الأفهام، وهو العِلْمُ المعبر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفيَّة، فهم آثروا نعمة الدَّعة على سِمَة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد، إذ لم يُدْركوا إلا المحسوسات، فلذلك لم يكونوا ذوي فقه، وذلك أصل جميع المضارِّ في الدارين.

٣- ابتدأ ﷻ وصف أحوال المؤمنين بوصف حال الرسول في قوله تعالى:﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ تَعَلُّقَهم به واتِّباعهم إياه هو أصل كمالهم وخيرهم.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، جاءت (مَعَهُ) في موضع الحال من (الَّذِينَ)؛ لتدلَّ على أنَّهم أتباع له في كل حال وفي كل أمر، فإيمانهم معه لأنهم آمنوا به عند دعوته إياهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه. وفيه إشارة إلى أن الخيرات المبثوثة لهم في الدنيا والآخرة تابعةٌ لخيراته ومقاماته.

٥- دَلَّت الآيات على أنَّ رؤساء المنافقين القادرين على الجهاد بالمال والنفس تَخَلَّفوا عن الجهاد مع النبي ﷺ، ورَضُوا لأنفسهم المذلَّة والمهانة بالقعود مع العاجزين عن الخروج للجهاد. وقد أدَّى ذلك إلى الطبع على قلوبهم، فأصبحوا لا يميزون بين الخير والشر، ولا بين المصلحة والضرر.

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير:

٨٩- ثم بَيَّنَ ﷻ الفلاح الأعظم فقال: هيأ الله لهم جنات تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، لا يلحقهم فناء. ذلك الجزاء هو الفلاح العظيم الذي لا يدانيه فلاح.

٩٠- وجاء قوم من أعراب المدينة يعتذرون إلى رسول الله ﷺ؛ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج والجهاد في سبيل الله، وقعد قوم آخرون لم يعتذروا تَعَنُّتاً منهم، سينال الذين كفروا من هؤلاء الأعراب - وهم الذين اعتذروا بأعذار باطلة - والذين لم يعتذروا تَعَنُّتاً، عذابٌ موجعٌ في الدنيا، وفي الآخرة بالنار.

٩١- ليس على النساء والصبيان والمرضى والعجزة من الزَّمْنى والعُمْي والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه من المال ليتجهزوا به، ليس على هؤلاء جميعاً إثمٌ في التخلُّف عن الخروج؛ لأنَّ أعذارهم قائمة إذا أخلصوا لله ورسوله، وعملوا بشرعه. ليس على المحسنين من أصحاب هذه الأعذار مأثم ولا مؤاخذة. والله غفورٌ لذنوب المحسنين، رحيم بهم.

٩٢- ولا إثم كذلك على المتخلِّفين عنك، الذين إن جاؤوك - أيها الرسول - يطلبون ما تَحْمِلُهم عليه من الدوابِّ، وقلتَ لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ، تَوَلَّوا عنك، وقد فاضت دموعهم أَسَفاً على أنهم لم يجدوا ما ينفقون من عند أنفسهم، أو من عندك.

الفوائد والاستنباطات:

١- دَلَّتْ الآيات على حال المؤمنين ومآلهم، فحالهم أنهم بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه، ومآلهم تحصيل الخيرات أي: منافع الدارين، والفوز بالجنة، والتخلص من العقاب والعذاب.

٢- اختيار صيغة المعذرين في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ من لطائف القرآن؛ لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

٣- جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل، والواو اعتراضية، أي: كثير المغفرة، ومن مغفرته أنه لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد، كثير الرحمة بالناس. ومن رحمته أنه لم يُكَلِّف أهل الأعذار ما يشق عليهم.

٤- أوضحت الآيات إسقاط فرضية الجهاد؛ بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوي الأعذار، وهم: الضعفاء والمرضى والفقراء، وأنه لا حرج ولا إثم على المعذورين بسبب القعود عن الجهاد، وهم قومٌ عُرِفَ عُذْرُهم، كأرباب الزَّمانة والهَرَمِ والعمى والعَرَجِ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٣- إنَّما الإثم والعار على الذين يطلبون منك الإذن بعدم الخروج إلى الجهاد، وهم أغنياءُ قادرون على الإنفاق للجهاد، فلا عذر لهم، ورَضُوا بالدنيئة التي تُنْقِصُ من شِيَمِ الرجال، وقعدوا في بيوتهم كالعَجَزَةِ والنساء القواعد والأطفال، وختم الله على قلوبهم، فهم لا يعلمون اتِّباع الحق.

٩٤- سيعتذر هؤلاء المتخلِّفون إليكم - أيها المؤمنون - عن الجهاد بعد عودتكم من غزوة (تبوك). قل يا رسولَ الله: لا تعتذروا بأيِّ عذر، فلن نُصَدِّقَكم، قد أخبرنا الله تعالى بالوحي حقيقة أمركم وكَذِبَكم، وسيرى اللهُ تعالى ورسوله ﷺ عَمَلَكم فيما بعد، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ثم تعودون بعدُ إلى الله تعالى الذي يعلم السرَّ والعلانية، فيخبركم إخباراً عظيماً عن شرِّ أعمالكم؛ ليجازيَكم عليها.

٩٥- يُنَفِّر الله تعالى من التخلف عن الجهاد من غير عذر شرعي: سيُقْسِمون لكم بالله تأكيداً لأعذارهم الواهية إذا رجعتم إليهم؛ لتصفحوا عنهم ولا تُوَبِّخوهم، فاتركوهم واهجُروهم؛ لخبث أقوالهم وسوء أفعالهم، ومصيرُهم نار جهنم، عقوبةً لهم بسبب ارتكابهم الجرائم والكبائر.

٩٦- يحلف هؤلاء المنافقون لكم - أيها المؤمنون - أيماناً كاذبةً؛ لاسترضائكم واستمالتكم حتى لا تفضحوهم، فإن رَضِيتم عنهم وعَذَرْتموهم فإنَّ الله تعالى قد سَخِطَ عليهم، فلا يرضى عن القوم المخالفين أحكامَه.

٩٧- بعض أهل البادية أشدُّ كفراً من أهل الحاضرة؛ لبُعْدِهم عن العلم والعلماء، وهم أجدر من غيرهم ألَّا يعلموا الأحكام والشريعة التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ. والله عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في تدبير شؤونهم.

٩٨- وبعض البدو يَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله غرامة وضياعاً، وينتظر نزول المصائب والنكبات بكم، بَيْدَ أنَّ الله يدعو على هؤلاء بمثل ذلك من عواقب السوء. والله سميع للأقوال، وعليم بالأفعال والنيات.

٩٩- وبعضُ البدو يُصَدِّق بالله تعالى، وبالبعث بعد الموت، ويَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله طاعةً ورضا لله، وسبباً لدعاء الرسول ﷺ له. ألا إنَّ نفقاتهم ودعاء الرسول لهم تُقَرِّبهم إلى الله تعالى. وَعَدَهم الله أنَّه سَيُدْخلهم في رحمته الواسعة، وجنَّاته الكريمة. إنَّ الله غفور لِـمَنْ يتوب منهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن كعب بن مالك ﷺ حين تَخَلَّف عن تبوك قال: «والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدق رسول الله ﷺ، ألَّا أكونَ كَذَّبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أُنزل الوحيُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩١ برقم٤٦٧٣ - كتاب التفسير- سورة التوبة، باب (الآية). صحيح مسلم ٤/ ٢١٢٧-٢١٢٨ برقم ٢٧٦٩ ضمن حديث توبة كعب بن مالك - كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه).

٢- تحريم التخلف عن الجهاد، إذا طلب ذلك الإمام.

٣- المنافق يَظْهرُ حالُه في الشدائد.

٤- التحذير من مكايد المنافقين وصفاتهم.

٥- بيان خطورة الجهل الذي يَجُرُّ إلى الكبائر.

٦- أهل البادية متفاوتون في العلم والدين، وبُعْدِ بعضهم عن مجالس الفقه والعلم الشرعي.

٧- بُشرى للذين يَتَّبعون هَدْيَ الصحابة ﷺ بالنعيم المقيم في جنات النعيم.

﴿ وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

التفسير:

١٠٠- والصحابة السابقون إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والهجرة إلى دار الإسلام، والنصرة لإخوانهم ودينهم، والذين سلكوا طريقهم بإحسان في الأقوال والأفعال رضي الله عنهم بذلك، ورَضُوا عنه؛ لما أجزل لهم من الثواب العظيم، إذ هيأ لهم بساتين تجري الأنهار من تحت القصور والأشجار، ماكثين فيها أبداً. ذلك المقام الكريم هو الفلاح العظيم.

١٠١- وبعض البدو الذين حول (المدينة) منافقون، وكذلك بعض أهل (المدينة) استمروا على النفاق واستفحل فيهم، لا تعلمهم يا رسول الله؛ لمهارتهم في النفاق، نحن- لِما لنا من عظمة وقدرة - نَعْلَمُهم، سنُعذِّبهم مرتين: في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم يجمعهم يوم القيامة في نار جهنَّم، وما فيها من عذاب شديد الألم.

١٠٢- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ قال: كان عشرة رهط تَخَلَّفُوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسَواري المسجد، فكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما

رآهم قال: «مَنْ هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسَّواري؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تَخَلَّفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم، وحلفوا إنهم لا يطلقهم أحد، حتى يُطْلِقَهم النبي ﷺ ويَعْذِرَهم، فقال النبي ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أَعْذِرُهم حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُهم ويُعْذِرُهم، رغبوا عني، وتَخَلَّفوا عن الغزو مع المسلمين»، فلما بلغهم ذلك قالوا: نحن والله لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُنا فأنزل الله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَرهم. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

وجماعة آخرون من أهل (المدينة) وخارجها أَقَرُّوا بما فعلوا من الذنوب وتابوا منها، خلطوا عملاً صالحاً بمشاركتهم مع النبي ﷺ في الجهاد في سبيل الله، وعملاً سيئاً بتَخَلُّفِهم عن غزوة (تبوك)، ليتوب الله تعالى عليهم. إنَّه سبحانه غفور لِـمَنْ تاب من عباده، رحيم بهم، يقبل توبتهم.

عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلِبَنِ ذهب ولِبَنِ فضة، فتلقَّانا رجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهم، كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشَطْرٌ كأقبحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا: شطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطْرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم ٤٦٧٤ - كتاب التفسير - سورة التوبة، باب (الآية).

١٠٣- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَّرهم، فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدَّقْ بها عنا، واستغفر لنا، قال: «ما أمرت أن آخُذَ أموالكم» فأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ الآية. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

خُذْ يا رسولَ الله مِنْ هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، صدقة تُطَهِّرُهم من الذنوب، وتُنَمِّي حسناتهم؛ حتى يَرْقَوا إلى مرتبة الإخلاص لله تعالى، وادْعُ الله، واطلب المغفرة لهم. إنَّ دعاءك واستغفارك رحمة عظيمة لهم، وتثبيتٌ لقلوبهم. والله سميع للدعاء والأقوال، وعليم بالتوبة والأفعال.

١٠٤- أما عَلِمَ أولئك المتخلِّفون عن الجهاد سَعَةَ رحمة الله وعموم كرمه، بأنّه يقبل توبة عباده التائبين، ويتقبَّل الصدقات، ويُثيب عليها، وأنَّ الله هو كثير التوبة على عباده التائبين، واسع الرحمة بهم؟

١٠٥- وقل - أيها الرسول - لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا ما أمركم الله من خير، فستُعْرَضُ أعمالُكم على الله تعالى، ويراها هو سبحانه ورسوله ﷺ والمؤمنون، وستعودون يوم الحساب إلى مَنْ يعلم سِرَّكم وجهركم، فيخبركم خبراً عظيماً يسرد فيه ما عَمِلْتُم من خير أو شر؛ ليجازيَكم عليه.

١٠٦- وجماعة آخرون من المتخلِّفين عن غزوة (تبوك) مُؤَجَّلون إلى أن يظهر فيهم حُكْمُ الله تعالى، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية ﷺ أجمعين، فهؤلاء إمَّا أن يُعَذِّبهم إن لم يتوبوا، وإمَّا أن يتوب عليهم إذا تابوا وأصلحوا وأخلصوا، وقد فعلوا. والله عليم بتوبة الصادقين، حكيم في تدبيره للعالمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الصدقة سبب في تزكية النفوس، وطهارة للأموال.

٢- الإشارة بالبشرى لـمَنْ يعمل خيراً.

٣- الاعتراف بالذنب فضيلة، وهو من الأخلاق النبيلة.

٤- إذا تساوت محاسنُ العبد التائب مع مساوئه فإنَّ الله تعالى يتوب عليه برحمته الواسعة.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

التفسير:

١٠٧ - والمنافقون الذين خانوا الله ورسوله، وبالغوا في الإجرام، وعلى رأسهم المِضْلال أبو عامر الراهب الذي أمر ببناء مسجد الضرار؛ لتدبير المكايد ونشر المصايد، ونصرة الكفرة المكرة، وإيجاد الفُرقة والاختلاف بين المؤمنين؛ لصَرْفِهم عن مسجد قباء، وترَقُّباً بشوق؛ لقدوم مَنْ حارب الله ورسوله من قبلُ - وهو أبو عامر الراهب - ويُؤَكِّدون كَذِبَهم بأنَّهم يحلفون: ما قصدوا ببنائه إلا الخير والإحسان بالمُصَلِّين العاجزين عن السير إلى (مسجد قباء). والله تعالى العليم الخبير، يشهد على أنَّهم كاذبون في قولهم وفعلهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان مسجد قُباء أُسِّس على التقوى، ومسجده أعظم في تأسيسه على التقوى من مسجد قُباء، كما ثبت في الصحيح عنه: أنه سُئِلَ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى فقال: (مسجدي هذا) فكلا المسجدين أُسِّس على التقوى، ولكن اختصَّ مسجدُه بأنَّه أكمل في هذا الوصف من غيره». (تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٤٤٧).

١٠٨ - سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ وهم أناس من الأنصار، ابْتَنَوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم،

واستمدُّوا بها استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصرَ مَلِكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: «وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: نزلت:﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ في أهل قباء». (فتح الباري ٧/ ٢٤٥).

التفسير:

ثم نهى الله تعالى النبي ﷺ نهياً قاطعاً عن الصلاة في مسجد الضرار الذي أُسِّس على الفتنة، وبَيَّن أنَّ الصلاة في (مسجد قباء) الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم دخل فيه النبيُّ ﷺ مهاجراً، أولى بأن تقوم فيه مُصَلِّياً من (مسجد الضرار). في مسجد قباء رجالٌ أثنى الله تعالى عليهم بأنَّهم يُحِبُّون أن يتطهَّروا من الذنوب، ويتطهَّروا بالوضوء والاغتسال من الأوساخ والنجاسات. والله تعالى يُحِبُّ المحافظين على طهارة أبدانهم وقلوبهم.

١٠٩- لا يستوي الذي أُسِّس بنيانه على قاعدة متينة، وهي تقوى الله ورضوانه، والذي أُسِّس بنيانه على طرفِ وادٍ مُتصَدِّع يُوشك أن يسقط، فبنى مسجداً ضِراراً أو كفراً، فأدَّى به إلى سقوطه في نار جهنم. والله تعالى لا يُوَفِّق المُعتدين على المسلمين والدين.

١١٠- لا يزال بناءُ مسجد الضرار وهدمه سبباً للشك وتَعاظُمِ النفاق في قلوبهم إلى أن يموتوا غمّاً أو يندموا ندماً على فعلتهم الماكرة. والله عليم بالنيات والأحوال، حكيم في الأقوال والأفعال.

١١١- يُخبر الله تعالى خبراً صادقاً، ويَعِدُ وعداً حقاً بمبايعة عظيمة: أنَّه سبحانه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فهي الثمن والسلعة المبيعة مقابل الجنة، فجعل ثواب المجاهدين الذين يُقاتِلون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وعداً حقاً ثابتاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا أحدَ أوفى بالعهد، وإنجاز الوعد، من الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد. فاستبشروا خيراً بهذه المبايعة المباركة التي بايعتم الله تعالى بها. وذلك البيع العظيم والمقام الكريم هو الفَلاح الذي لا فَلاحَ أعظمُ منه.

١١٢- ومن صفات المؤمنين الذين لهم البشرى بدخول الجنة: أنَّهم التائبون عن ذنوبهم، والمخلصون المكثرون للعبادة، الحامدون لله في السرَّاء والضرَّاء، السائرون في الأرض لطَلَبِ العلم أو الغزو، الراكعون الساجدون في صلاتهم، الدَّاعُون الناس إلى الرشد والهدى، والناهون عن الفساد والضلال، المُحافظون على فرائض الله، وبَشِّر - يا رسول الله - هؤلاء المؤمنين المُتصفين بهذه الصفات بجنات النعيم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من صنائع المنافقين التي ظاهرها الخير، وباطنها الشر.

٢- الابتعاد من مواطن الشبهة مطلوب من المؤمنين.

٣- الترغيب في بناء المساجد على التقوى، وليس على السُّمعة والرياء فضلاً عن تفريق صف المسلمين.

٤ - الترغيب في الجهاد في سبيل الله؛ للفوز بجنات النعيم.

٥- في الآية (١١١) إخبار مستقبلي عن البشرى بالجنَّة لِـمَنْ أوفى البيعة مع الله تعالى.

٦- الثناء على أهل الطهارة والنظافة.

٧- حَثُّ المؤمنين على الصفات المذكورة في الآية (١١٢)، وترغيبهم فيها بالبشرى بجنات النعيم.

٨- الإشارة إلى المحافظة على صلاة الجماعة.

٩- ينظر: صورة مسجد قباء، كما في الملحق.

١٠ -ينظر: صورة المسجد النبوي، كما في الملحق.

١١ -ينظر: صورة بنيان على شفا جُرُفٍ هارٍ، كما في الملحق

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

١١٣ - سبب النزول:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه ﷺ قال: لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية، فقال النبي ﷺ: «أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله، أُحاجُّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أُمية: يا أبا طالب، أترغب عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «لأَستغفرنَّ لك مالم أُنْهَ عنه»، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم٤٦٧٥ - كتاب التفسير - سورة التوبة، باب (الآية)، وأيضاً ٧/ ٢٣٣ - كتاب مناقب الأنصار - باب قصة أبي طالب. وصحيح مسلم ١/ ٥٤ برقم٢٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

التفسير:

ليس للنبي ﷺ ولا للمؤمنين أن يطلبوا من الله تعالى المغفرة للمشركين، ولو كان المشركون أقرباء لهم من بعد موتهم على الشرك بالله تعالى، وتبيَّن لهم أنَّهم أصحاب النار؛ لأنَّ الله تعالى حَرَّم الجنة عليهم.

١١٤ - صَدَرَ الاستغفار من إبراهيم ﷺ لأبيه آزرَ من أجل وعد سابق وعد به أباه. فلَمَّا تبيَّن لإبراهيم ﷺ أنَّ أباه عدو لله بسبب إصراره على الكفر تَبَرَّأ منه، وترك الاستغفار له. إنَّ إبراهيم توَّاب، كثير الدعاء والاستغفار لله، صبور على مَنْ يؤذيه.

١١٥ - إنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية، فإنَّه تعالى يتمِّم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم ما يحتاجون إليه من الشريعة التي تجعلهم من المتَّقين له سبحانه. إنَّ الله تعالى عليم بكل شيء من الأشياء، وبمَنْ يستحقُّ الهداية.

١١٦ - إنّ الله تعالى له مَلَكُوت السموات السبع والأرضين السبع، يُحْيي وحدَه مَنْ يشاء، ويُميت مَنْ يشاء. وما لكم - أيها الناس - من أحد غير الله يَتَوَلَّاكم، وينصركم.

١١٧ - سبب النزول:

أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب بن مالك - قال: سَمِعْتُ كعب بن مالك يُحدِّث حين تَخَلَّف عن قصة تبوك، فو الله ما أعلم أحداً أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تَعَمَّدْتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. (صحيح البخاري ٨/ ١٩٤ برقم ٤٦٧٨ - كتاب التفسير - سورة التوبة، باب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾).

التفسير:

قسماً إنَّ الله تعالى رزق النبيَّ ﷺ الإنابة إلى طاعته، وإنَّه تاب على الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقت شدَّةِ الحرِّ وطولِ السفر، فلم يُؤاخِذْهم ببعض الزَّلَّات التي حصلت منهم في تلك الغزوة، من بعد أن قارَبَتْ قلوب بعضهم أن تميل عن الحق، وتتخلَّفَ عن الجهاد بسبب مشقَّة السفر، وشدَّة الحر، وقلَّة الزاد. وبلطفه سبحانه وبرحمته وَفَّقهم للثبات، وتاب عليهم لَـمَّا ندموا. إنَّه سبحانه رؤوف بالعباد، رحيم بهم.

١١٨ - وتاب الله سبحانه على الصحابة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُميَّة ﷺ، الذين تَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وحزنوا حزناً شديداً بسبب مُقاطعة المؤمنين لهم، حتى ضاقت الأرض بهم مع سَعتها، وأيقنوا أن لا نجاة لهم من عذاب الله إلا التوبة والاستغفار، ثم تاب الله عليهم بعد خمسين يوماً؛ ليستقيموا ويداوموا على التوبة. إنَّ الله هو التوَّاب على عباده التائبين، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تحريم الاستغفار للمشركين.

٢ - رابطة العقيدة أقوى من رابطة النسب.

٣ - النصر من عند الله مع الأخذ بالأسباب.

٤ - مِنْ رحمة الله تعالى قَبولُه توبةَ المتخلِّف عن الجهاد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١١٩- يُخاطب الله تعالى الـمُؤمنين أن يَتَّقوه في طاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وأن يَصْدُقوا في أقوالهم وعهودهم وأفعالهم.

١٢٠-١٢١- ثم يحثُّ أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ومَنْ حولها من أهل البادية المسلمين أنَّه لا يَليق بهم أن يَتَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله، ولا ينشدوا الراحة لأنفسهم ورسول الله ﷺ في مشقَّة. وذلك أنَّه مهما يصبهم من الشدائد فإنَّه في رصيد أعمالهم الصالحة، فلا يُصيبهم عطش ولا تعب ولا جوع وهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يَنْزِلُون مكاناً يُغْضِبُ الكفَّار نزولُهم فيه، ولا يصيبون أعداءهم بشيء من القتل أو الأسر إلا كُتِبَ لهم أَجْرُ عملهم، وصار قُربةً لهم عند الله تعالى. إنَّ الله تعالى لا يُضيِّع ثواب المُحسنين، ولا يُنفقون في سبيل الله من نفقة مهما كانت قليلة أو كثيرة، ولا يجتازون للجهاد وادياً وأرضاً إلا كُتِبَ لهم ثوابه الحسن؛ ليجزيَهم اللهُ أحسنَ ما يُجْزون به على إحسانهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة:٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله:﴿يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]، نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. (أخرجه أبو داود في السنن برقم ٢٥٠٥- كتاب الجهاد، باب في النسخ نفير العامة بالخاصة، وقال الألباني: حسن، صحيح أبي داود ٢/ ٤٧٥-٤٧٦ برقم ٢١٨٧).

١٢٢- إنَّ الأُمَّة تحتاج إلى التفقه في الدين في كلِّ الأحوال، فلا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا الباقين بدون فقيه -يختاره الإمام ليُبَصِّرهم بأمور دينهم- بل تنفر سرايا من كل قبيلة، وتبقى فئة قليلة للتفقه في الشريعة، وإنذار السرايا التي نفرت إذا رجعوا إلى بلدهم؛ كي يحذروا عذاب الله تعالى بمخالفة أحكامه.

١٢٣- يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال أعدائهم الكفَّار، ويُرْشِدُهم أن يبدؤوا بالأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام، وأمرهم بالشدَّة والجرأة على أولئك الكفَّار؛ ليَكُفُّوا عن الكفر وأذى المؤمنين، ثم ذكر سبحانه تأكيده وتأييده ونَصْرَه للمتقين.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب طاعة الرسول ﷺ في السَّرَّاء والضرَّاء، ولاسيما في الجهاد.

٢- الإشارة إلى وجوب الدفاع عن النبي ﷺ في حياته ومماته، ونفسه أغلى النفوس.

٣- القيام بواجب الجهاد في سبيل الله لا يعفي الأُمة عن طلب العلم ولا يقلل من أهمِّيَّته.

٤- وجوب طلب العلم بالأحكام الشرعية على طائفة من المسلمين على الكفاية، أي: على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الوجوب.

٥- وجوب قتال الأعداء من الكفار الذين يُؤذون المؤمنين، ويكيدون لهم.

٦- بشرى الله تعالى بالنصر والمؤازرة للمتقين.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير:

١٢٤ - وإذا ما أُنزلَتْ سورة عظيمة من سور القرآن يستهزئ المنافقون بها، فيقولون فيما بينهم استخفافاً بها: أيُّ واحدٍ منكم زادته هذه السورة التي أُنزلت إيماناً بالله؟ فأمّا المؤمنون فقد زادتهم تصديقاً، بما فيها من الهداية والبراهين التي تدلُّ على عظمة الله تعالى، وهم يفرحون بهذا النور والثواب.

١٢٥ - وأمّا المنافقون الذين في قلوبهم ارتياب واضطراب، فإنَّ نزولَ السورة يزيدهم اضطراباً وضلالاً إلى ضلالهم ورِجْسهم، وهُلِكُوا وهم مُتمادُون بتكذيبهم لله تعالى وآياته.

١٢٦ - يُوَبِّخ الله تعالى المنافقين مُنْكِراً عليهم: أولا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يَبْتليهم بالقحط والشدَّة والغزو، وما يزجرهم في كل عام مرة أو مرتين؟ ثم يستمرون على ضلالهم، فلا يتوبون، ولا يَتَّعظون بما وقع فيهم من المصائب.

١٢٧ - ينزعج المُنافقون من نزول سورةٍ تفضح أسرارهم، وتهتك أستارهم، فإذا ما أُنزِلَتْ سورة من القرآن الكريم تذكر عيوبهم نَظَرَ بعضهم إلى بعض بالغمز سخريةً وغيظاً، ثم إذا أراد بعضهم الهروب من مجلس النبي ﷺ قال بعضهم لبعض: هل يراكم أحد من المؤمنين إن تَسَلَّلْتم؟ ثم انصرفوا. صَرَفَ الله تعالى قلوبهم عن الخير والهداية، بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون اتِّباع الحق.

١٢٨ - قسماً لقد جاءكم - أيُّها المؤمنون - رسولٌ عظيم من قومكم، يَشُقُّ عليه ما تُواجهون من المكاره والابتلاء، حريص على إيمانكم وأمانكم من النار، شديد الشفقة والرحمة بالمؤمنين.

١٢٩ - فإن أعرض الكفَّار والمنافقون عن التصديق بك أيها النبيُّ، فقل لهم: إنَّ الله تعالى يكفيني ناصراً، لا معبود بحق إلا هو، عليه وحده اعتمدت، وهو ربُّ العرش العظيم، ذلك العرش الذي هو أعظم المخلوقات.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خُبْثُ المنافقين يزيدهم عناداً عند سماعهم القرآن.

٢ - بيان رأفة النبي ﷺ بالمؤمنين.

٣- الإشارة إلى فضل العرب لأنَّ النبي ﷺ منهم.

٤ - بشرى بنصر الله تعالى للنبي ﷺ وقد تحققت.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - العناية بالتربية الإيمانية ومكارم الأخلاق.

٢- تقرير إعجاز القرآن.

٣- بيان قصة يونس ﷺ وقومه.

٤- بيان الدروس المستفادة من دمار الأُمم المكذبة السابقة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ - ﴿الٓر﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن. تلك الآيات العظيمة الشأن آيات القرآن المحكم، المشتملة على الحكمة وبيان الأحكام.

٢ - يُنكِرُ الله تعالى على كفار مكة الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ مُوَبِّخاً لهم: أكان شيئاً عجيباً لمشركي مكة إيحاؤنا إلى رسول الله ﷺ بالقرآن، وهو من قومهم، ينذر الإنس والجن من النار، ويُبَشِّر المؤمنين بأنَّ لهم منزلة عالية، وجنة غالية عند ربهم؟ ولـمَّا سمع المكذِّبون لله ورسوله بعض آيات القرآن الكريم قالوا مؤكِّدين مزاعمهم: إنَّ محمداً لَساحر عليم، ظاهر السحر.

٣- يُبَيِّن الله تعالى ربوبيته وألوهيته وعظمته: إنَّ خالقكم الله المعبود بحق، خلق السموات السبع والأرَضين السبع في ستة أيام، ثم استوى سبحانه على العرش، الذي هو أعظم المخلوقات استواءً يليق بجلاله وعظمته، يُدَبِّر أمور الخلائق، ليس لأحد أن يشفع عنده إلا من بعد أن يأذن له بالشفاعة. ذلكم الله العظيم خالقكم، فاعبدوه وحده، وأَخْلِصُوا له العبادة، أفلا تعتبرون من هذه الآيات بأنَّ الله هو الذي يُعْبَدُ وحده؟

٤- إلى الله تعالى وحدَه مصيركم - أيها الناس - جميعاً يوم القيامة، وَعْداً من الله لا يتبدَّل، إنَّه هو سبحانه بدأ بإيجاد الخلق، ثم يبعثهم بعد الموت؛ ليثيب المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالعدل. والذين كذَّبوا الله ورسوله لهم شراب شديد الحرارة، وعذاب موجع؛ بسبب تكذيبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ.

٥ - لـمَّا قرَّر سبحانه ألوهيته وربوبيته، ذكر الأدلة العقلية والآيات الكونية الدالَّة على ذلك، فهو وحده الذي جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار، وجعل القمر منيراً بالليل، وقد سَيَّره في مسافاتٍ يقطعها بحركته في كل يوم وليلة؛ لتعلموا بذلك حساب الأوقات، فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام. ما خلق الله تعالى ذلك الأمر العظيم إلا لحكمة جليلة، ودلالة على عظمة قدرته سبحانه، يُبَيِّن هذه الآيات الكونية لقوم يعلمون قدرة الله تعالى.

٦ - إنَّ في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، ودِقَّة تَعاقُبِهما، وما خلق الله تعالى في السموات السبع والأَرَضين السبع، لَعلاماتٍ دالَّةً على عظمة قدرته ووحدانيته لقوم يتَّقون الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة إلى تحدِّي القرآن الكريم بالحروف المقطعة.

٢ - الإشارة إلى وجوب الإنكار على الذين يُنْكِرُون رسالة النبي الأمين ﷺ.

٣ - وجوب التأمل والتدبر في الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله تعالى.

٤ - في الآية (٤) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥).

٥ - منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً وهي كما يلي:

١.سعد الأخبية. ٢.الفرع المقدَّم. ٣.الفرع المؤخر. ٤.الرشأ. ٥.الشرطين. ٦.البطين. ٧.الثريا. ٨.الدبران. ٩.الهقعة. ١٠.الهنعة. ١١.الذراع. ١٢.النثرة. ١٣.الطرفة. ١٤.الجبهة. ١٥.الزبرة. ١٦.الصرفة. ١٧.العواء. ١٨.السماك. ١٩.الغفر. ٢٠.الزبانا. ٢١.الإكليل. ٢٢.القلب. ٢٣.الشولة. ٢٤.النعائم. ٢٥.البلدة. ٢٦.سعد الذابح. ٢٧.سعد بلع. ٢٨.سعد السعود. (الأجزاء الكونية بين العقل والنقل، ص١٨٠). ويُنظر: صورة منازل القمر في الملحق.

٦ - يتعرَّض ضوء الشمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عال نسبياً في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض، فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار. والقمر وغيره من أجرام مجموعتنا الشمسية هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها، ولكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيراً. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٣٩٥-٥٠٨). وينظر: صورة توضح الضياء والنور، كما في الملحق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

٧-٨- إنَّ الذين لا يَتَوَقَّعُون لقاء الله في يوم القيامة، ولا يطمعون فيه، ورَضُوا بالدنيا، واستحَبُّوها وفرحوا بها، وسكنوا إليها، والذين هم لا يتدبَّرون آياته العظيمة الدالَّة على وحدانيته وقدرته، ولا يتفكَّرون فيها. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى، مصيرهم نار جهنم في الآخرة؛ بسبب ما ارتكبوا من الجرائم والذنوب.

٩-١٠- إنَّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات يهديهم خالقُهم إلى طريق الجنة؛ بسبب تصديقهم له سبحانه، تجري من تحت قصورهم الأنهار العذبة، ويُقيمون في جنَّات النعيم، دعاؤهم فيها التسبيح لله تعظيماً له سبحانه، وتَحِيَّتُهم من الله تعالى ومن الملائكة وفيما بينهم: سلام، أي: السلامة من كلِّ شر، وآخر دعائهم: الحمد لله ربِّ العالمين، أي: الشكر الكامل والثناء الشامل لله، ربِّ المخلوقات جميعاً.

١١- مِن لُطفِ الله تعالى بعباده أنَّه لا يُعَجِّل لهم إجابة دعائهم في الشر، كاستعجاله لهم في الخير، ولو عَجَّل ذلك لَهلكوا بسرعة هائلة، فيترك سبحانه المكذِّبين بيوم البعث والحساب في تمرُّدِهم يتخَبَّطون.

١٢- وإذا ابتلى الله تعالى الإنسانَ بالشر دعاه في جميع حالاته مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً لإزالة الشر، فلمَّا استجاب الله تعالى له دعاءه، استمر على فعل المعاصي، ونسي الابتلاء بالشر، وكأنَّه لم يَدْعُ الله العظيم إلى كشف ذلك الشرِّ عنه. ومثلَ ما زُيِّنَ لهذا الإنسانِ استمرارُه على كفره، زُيِّنَ للمُفْرِطين في الإجرام ما كانوا يرتكبونه من الكبائر والذنوب.

١٣- قسماً لقد تَحَقَّق هلاك الأُمم التي كَذَّبَتْ رسلُ الله تعالى مِنْ قبلِ الذين كَذَّبوا النبيَّ ﷺ، فقد جاءتهم رسلهم بالبراهين الباهرة، والمعجزات الظاهرة الدالَّة على صِدْق رسلهم، ولكنهم ما آمنوا برُسُلِهم. ومثلَ ذلك الإهلاك نجزي القوم الذين يقترفون الجرائم.

١٤- ثم جعلناكم - أيها الناس - خلفاء الأرض من بعد تلك الأُمم البائدة؛ لنختبرَكم، فننظر أتعملون خيراً أم شراً؟ فنجازيكم على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان الفرق بين مصير منكري اليوم الآخر، ومصير المؤمنين الصالحين.

٢- بيان غفلة الإنسان عن الدعاء في السراء.

٣- بيان الموعظة من الأُمم البائدة؛ بسبب كفرهم.

٤- قال ابن عاشور في الآية (١٤): ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام مُعَلِّق لفعل العلم عن العمل، وهو منصوب بـ﴿لِنَنظُرَ﴾، والمعنى في مثله: لنعلمَ جوابَ كيف تعملون؟ قال إياس بن قبيصة:

وأقبلْتُ والخَطيُّ يخطر بيننا ... لِأَعْلَمَ مَنْ جبانُها مَنْ شجاعُها

أي (لأعلم) جوابَ (مَنْ جبانُها). (التحرير والتنوير: ١١/ ٣٧).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٥ - يُبَيِّن الله تعالى جحود الكفَّار الذين يرغبون في التلاعب بالقرآن الكريم: وإذا تتلى على الكفَّار آيات القرآن الواضحات الحكم والأحكام، فإنَّهم ينزعجون، فينفر زعماؤهم الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب، فيقولون للنبيِّ ﷺ: ائتِ لنا بقرآنٍ غير هذا الذي نسمعه!! أو بَدِّلْ ما فيه من أحكام وكلام يَمَسُّ الأصنام!! فرَدَّ عليهم الله تعالى آمراً النبي ﷺ أن يقول لهم: ما ينبغي ولا يصح لي أن أُغيِّر، أو أُبدِّل شيئاً من قِبَل نفسي، لا أَتَّبِع إلا ما يأمرني به ربي سبحانه. إنِّي أخاف إن خالَفْتُ أمره سبحانه عذاب يوم عظيم الأهوال والأحداث وهو يوم القيامة.

١٦ - قل لهم أيضاً: لو شاء الله تعالى ما تَلَوْتُ هذا القرآن الكريم عليكم، ولا أَعْلَمَكُمْ به على لساني، فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً مدة أربعين سنة من قبل نزول القرآن، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

١٧ - يُنْكِرُ الله تعالى على المجرمين المكذِّبين: لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممن اختلق الكذب على الله تعالى، أو كَذَّب بآياته العظيمة التي جاءت بها الرسل. إنَّ الذين كذَّبوا وارتكبوا الجرائم مع أنبيائهم وأُممهم لا يفوزون.

١٨ - ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله ﷻ الأوثان التي لا تَضُرُّهم إن لم يعبدوها، أو لا تقدر على دَفْعِ الضرِّ عنهم ولا جَلْبِ النفع لهم، ويقولون ليُسَوِّغوا جريمتهم: هؤلاء الأوثان نعبدهم؛ ليشفعوا لنا عند الله. قل لهم - يا رسول الله - مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: أتخبرون الله تعالى بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات والأرض؟ وهو سبحانه عَلَّام الغيوب، مُنَزَّه عن اعتقاد المشركين وافترائهم.

١٩ - يخبر الله تعالى مؤكِّداً أنَّ الناس كلَّهم كانوا على دين الإسلام، ثم ظهر الكفر في بعضهم، وثبت الحقُّ في بقيَّتهم. ولولا قضاء الله تعالى بتأخير العقاب عن الكفَّار إلى يوم القيامة، لَقُضِيَ بينهم في الدنيا في تعجيل العقوبة للكفَّار.

٢٠ - ويقول مشركو أهل مكة ببلاهة: هَلَّا أُنزل على محمد معجزة من ربِّه، كطلبهم أن يُفَجِّر من الأرض ينبوعاً وغيره، فرَدَّ الله تعالى عليهم: قل يا محمد لهؤلاء مُتَوَعِّداً لهم: أَمْرُ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، فانتظِروا قضاء الله بيننا، فأنا منتظر معكم ما يحلُّ بكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خطورة أهل الباطل من حرصهم على التبديل والتحريف في أحكام الله تعالى، فإنَّ ذلك دَيْدَنُهم إلى قيام الساعة.

٢ - الردُّ على شبهات الكفار وتشكيكهم.

٣ - التحذير من التكذيب بآيات الله تعالى.

٤ - بيان تَعَنُّتِ مشركي مكة، وإصرارهم على الكفر.

٥ - الإشارة إلى أنَّ الناس منذ آدم عليه السلام إلى زمن نوح كانوا على التوحيد، ثم دَبَّ الشِّرك في زمن نوح عليه السلام.

٦ - التهديد والوعيد للمشككين بهذا الدين.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢١- وقد حَلَّ بهم القحطُ والشدَّة، ثم أنزل الله تعالى عليهم الرحمة بالخير والخصب بعد العُسْر والجَدْب؛ لعلهم يشكرون، ولكنهم تمادَوا في كُفْرِهم واستهزائهم بآيات الله المسموعة والمرئية، فأمر النبيَّ ﷺ أن يهدِّدهم بأنَّ الله تعالى أسرع مكراً؛ جزاءً على جرائمهم، إذ سيكتب الملائكةُ الحَفَظَةُ ما ارتكبوه من كبائر الجرائم.

٢٢- الله سبحانه هو الذي يُمَكِّنُكم من السير في البَرِّ على الدوابِّ والمراكب، وفي البحر في السفن والزوارق، حتى إذا كنتم في البحر على ظهور السفن، وجرت مصحوبة بريح منعشة بطراوتها واتجاهها، وفرحتم بذلك، فاجَأَتْكُم ريح شديدة عاصفة، تَحُفُّها موجات متلاطمة قاصفة، فأيقنوا أنَّ الهلاك محيط بهم، هنالك فزعوا، وأخلصوا إلى الله تعالى وحده بالاستغاثة والدعاء، ويقسمون لئن أنجيتنا من هذه المحنة والنقمة؛ لَنَكونَنَّ من الشاكرين حقّاً لتلك المحنة والنعمة في أقوالنا وأفعالنا.

٢٣- فلمّا استجاب الله الرحيم دعاءهم، وأنقذهم من تلك الأهوال العُضال، إذا هم يَطْغَون في الأرض فساداً بنقضهم العهد، ووُلُوغهم بالباطل. ثم نادى الله تعالى البشر جميعاً مُنَبِّهاً ومؤكِّداً خطورة هذا الطغيان، فضَرُرُه يعود على أنفسكم، فإنَّه يُكْتَبُ ويُحْسَبُ في صحائفهم، وهم يتمتَّعون بشهوات الدنيا الفانية، ثم إلينا مرجعكم بعد الموت والبعث، فنخبركم الأخبار العظيمة عن إحصاء جرائمكم، وإحضار جموعكم.

٢٤- إنما شَبَهُ الحياة الدنيا وما فيها من نِعَمٍ ونِقَمٍ كمطر أنزلناه من السماء، فنبت به أنواع من النبات المختلط بعضها ببعض، كالثمار والحبوب التي يأكلها الناس، والتبن والشعير التي تأكلها البهائم، حتى إذا اكتست الأرض بالبساط الأخضر المزدان بالزهور البهيَّة، والثمار الزكية، والمياه النقية، وانبهر الناس بها، وظنوا أنَّهم قادرون على حصادها والاستفادة منها، فاجأها أمرُنا بهلاك خضرائها في ظلام الليل أو في النهار، فجَعَلْناها هشيماً كالنبات اليابس المحصود، كأنَّها لم تكن خضراء زهراء قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك. مثلَ ما شَبَّهنا الحياة الدنيا وغرورها، كذلك نُبيِّن الآيات المتنوعة الدالَّة على وحدانية الله تعالى لقوم يتدبرونها، ويهتدون بأنوارها.

٢٥- وبهذا البيان وما نَزَلَ من القرآن، يدعوكم الله تعالى إلى الجنَّة دار الأمن والاطمئنان والسلامة من كلِّ شرٍّ، ويُوَفِّق الله سبحانه مَنْ يشاء إلى دين الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الدعاء لله تعالى وحدَه في السراء والضراء.

٢- قال ابن عاشور: «شُبِّهَتْ حالة الحياة في سرعة تَقَضِّيها، وزوال نعيمها بعد البهجة به، وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حُطاماً ومصيره حصيداً. ومن بديع هذا التشبيه تَضَمُّنُه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين، بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب، لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين». (التحرير والتنوير: ١١/ ٦٠).

٣- التذكير بصِغَرِ الدنيا في زمانها ومكانها ومَلَذَّاتها.

٤- ينظر: صورة الريح العاصف في الملحق.

٥- قال ابن عاشور: «أكَّد وَعْدَهم بالشكر بثلاثة مؤكِّدات: لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون: لنكون من الشاكرين». (التحرير والتنوير: ١١/ ٥٧).

٦- عظمة المواعظ في ضرب الأمثال.

٧- المؤمن ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء لله تعالى.

٨- ينظر: زينة الأرض بخيراتها وزخرفها في الملحق.

٩- من رحمة الله تعالى دعوته إلى دار الأمن في الجنة.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٦- بشرى عظيمة، ومنحة كريمة للذين أحسنوا في عبادة الله سبحانه بأقوالهم السديدة، وأفعالهم الرشيدة، وأخلاقهم الحميدة، أنَّ لهم الجنة، وزيادة كريمة تتحقق بالنظر إلى وجه الله تعالى، وجوههم ناضرة حسنة بهيَّة، لا يَغْشاها قَهْرُ الكُرُبات والكآبات. أولئك أصحاب المقام الرفيع، مُلازِمُون الجنة، هم فيها ماكثون، لا يموتون فيها أبداً. عن صهيب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيُكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ».

(صحيح مسلم ١/ ١٦٣ برقم١٨١ - كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ).

٢٧- والذين ارتكبوا جرائم الكبائر من الكفر والشرك، سيُجْزَون على تلك الجرائم النكراء بعقوبات قاسية، يَغْشاهم قهرُ الإذلال والنَّكال، ليس لهم أَحَد يحميهم من سخط الله تعالى، كأنَّما غُطِّيَتْ وجوههم بسواد آخر الليل المظلم. أولئك البعداء عن رحمة الله تعالى هم الوقود الملازمة لنار جهنم، هم فيها ماكثون أبداً.

٢٨-٢٩- يوم نجمع جميع الخلائق للحساب، ثم نقول للمشركين: الزَموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم من دون الله، وقِفُوا وُقوفَ الذل. ففرَّقْنا بين المشركين والمعبودات التي عبدوها من دون الله سبحانه، وتَبَرَّأت هذه المعبودات من المشركين، وقالوا لهم إنكاراً عليهم: ما كنَّا نعلم أنَّكم إيانا تعبدون! وما أمرناكم بعبادتنا، فحَسْبُنا الله تعالى شهيداً بيننا وبينكم - أيها المشركون - أنَّنا ما أَمَرْناكم بالعبادة، وأنَّنا كنَّا غير عالمين بعبادتكم.

٣٠- في ذلك الموقف المهيب، والوقت العصيب، تجد كلُّ نفسٍ ما قَدَّمت من خير أو شر، وتُجازى عليه، ورُدُّوا إلى الله تعالى الذي يتولَّى جزاءهم بالعدل والقسط، وغاب عن المشركين ما كانوا يفترونه من الأوثان.

٣١- يأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يُذَكِّر المشركين بما أقرُّوا به من توحيد الربوبية؛ ليُقيم الحجة عليهم بما أنكروه من توحيد الألوهية، فيقول لهم: مَنْ يرزقكم من بركات السماء وخيرات الأرض؟ ومَنْ الذي أوجد لكم السمع والأبصار؟ ومَنْ الذي يُخرج الأحياء من الأموات، كالزرع من الـحَبِّ اليابس؟ ويُخرج الأموات من الأحياء، كالنطفة من الإنسان؟ ومَنْ يُدَبِّرُ أمور الخلائق؟ فسيجيبونك مُقِرِّين أنَّ الذي يُدَبِّر هذه الأمور هو الله ﷻ، فقل لهم: أفلا تخافون عقابه إنْ عَبَدْتُم معه غيره؟

٣٢- فذلكم الله العظيم الشأن، المعبودُ بحق، الحقُّ في وحدانيته، فليس بعد عبادة الله تعالى التي هي الحقُّ إلا الضلال، فكيف تُصْرَفُون عن اتباع الحقِّ؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.

٢- الردُّ على المشركين بالحوار والأدلة الحسية.

٣- براءة المعبودات من المشركين.

٤- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية.

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٣- مثل ذلك الحقِّ العظيم في عبادة الله وحده، حَقَّتْ كلمة ربك بعذاب الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى؛ لأنهم لا يُصَدِّقون بوحدانية الله تعالى ولا برسالة نبيه ﷺ.

٣٤- قل يا رسول الله للمشركين مُوَبِّخاً لهم، ومُنْكِراً عليهم: هل الأوثان التي تعبدونها لها القدرة على إيجاد الخلق، ثم فَنائه، ثم إعادته كهيئته الأولى؟ قل لهم: الله سبحانه هو الذي يُنْشئ الخلق، ثم يُفْنِيه، ثم يُعيده، فكيف تَنْصَرِفُون عن عبادة الله تعالى؟

٣٥- وقل لهم أيضاً مُوبِّخاً لهم ومُنْكِراً عليهم: هل هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله تهدي الضالِّين إلى دين الحقِّ وهو الإسلام؟ قل لهم: الله تعالى وحده هو القادر على ذلك. أفمَنْ يُرشد إلى الحقِّ - وهو الله سبحانه - أحَقُّ بالاتِّباع أم هذه الأوثان التي لا تَهْدي أحد الضالِّين، ولا تستطيع هداية نفسها، فضلاً عن هداية غيرها؟ فهي لا تَهْدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدى، فما بالُكم تنحرفون، وتُسَوُّون بين الله تعالى وهذه الأوثان، وتحكمون بهذا الحكم الباطل الخاطئ؟

٣٦- وما يَتَّبعون في اعتقادهم عبادة الأصنام إلا مجرد أوهام باطلة، وخرافات خاطئة. ومثلُ هذا الاعتقاد المبني على الضلال ظن كاذب، لا يُغْني من الحقِّ شيئاً. إنَّ الله عليم بما يرتكبونه من كبائر الجرائم.

٣٧- لا يَصِحُّ ولا يستقيم لذي عقل سليم زَعْمُ أنَّ هذا القرآن مكذوب على الله تعالى، ولا يملك القدرةَ أحدٌ من البشر أن يأتي بهذا القرآن العظيم من عند غير الله، ولكنَّ الله تعالى أنزله موافقاً للكتب

السابقة المنزَّلة على رسله. وفيه بيان واضح لأحكام شريعة الإسلام، ولاشكَّ أنَّه وحي من خالق الخلائق أجمعين.

٣٨- بل أيقولون وهم مستمِرُّون على عنادهم وطغيانهم: أختلق محمد هذا القرآن من قِبَل نفسه؟ قل لهم يا رسول الله: فإن كان كما زعمتم فَأْتُوا بسورة واحدة مثل هذا القرآن العظيم، واطلبوا العَوْنَ ممَّنْ تشاؤون من الإنس والجن، إن كنتم صادقين في ادِّعائكم أنِّي افتريته.

٣٩- بل كذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الطعن فيه، قبل أن يفقهوا ما فيه من الهدي والموعظة والأحكام، ولم يأتهم بعدُ عاقبة ما فيه من الوعيد. وشَبَّه تكذيب هؤلاء بكذب الأُمم السابقة قبلهم، فانظر - يا رسول الله - كيف أخذهم الله بأنواع العقاب؛ بسبب اعتدائهم على حَقِّ الله تعالى وحَقِّ عباده؟

٤٠-٤١- يُبيِّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنواع الناس الذين بُعِثَ إليهم الرسل، كما في الآيات الأربع التالية: ومن هؤلاء مَنْ يُصَدِّقُ بهذا القرآن ويَتَّبِعُك، ومنهم مَنْ لا يُصَدِّق به حتى الموت، وربُّك أعلم بالذين ينشرون الفساد في الأرض. وإنْ كَذَّبك هؤلاء المفسدون في الأرض فقل لهم: لي ديني وجزاء عملي، ولكم دينكم وجزاء عملكم، أنتم لا تُؤاخَذُون بعملي، وأنا لا أُؤاخَذُ بعملكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «جملة ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام يتنزل منزلة البيان؛ لما في جملة: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ من الإجمال، ولذلك فُصِلَتْ عنها، فهو مثله استفهام تعجيبي من حكمهم الضالِّ، إذ حكموا بإلهية مَنْ لا يهتدي فهو تعجيب على تعجيب». (التحرير والتنوير: ١١/ ٧٩).

٢- وقال أيضاً: «من بديع الأسلوب وبليغ الكلام: أن قدَّم وَصْفَ القرآن بما يقتضي بُعْدَه عن الافتراء، وبما فيه من أجَلِّ صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى، ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراء؛ ليتلَقَّى السامعُ هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز، والتعجب من حماقة أصحابها؛ فلذلك جُعِلَتْ دعواهم افتراء في حَيِّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي». (التحرير والتنوير: ١١/ ٧٤).

٣- بيان إعجاز القرآن الكريم، إذ تَحَدَّاهم بأن يأتُوا بسورة واحدة مثله.

٤- الردُّ على المكذِّبين الذين نَسَبوا التكذيب إلى رسول الله ﷺ.

٥- إقامة الأدلة والحُجَج على وحدانية الله تعالى.

٦- دأب المشركون في كلِّ زمن على تكذيب الرسل عليهم السلام.

٧- الرسول ﷺ غير مسؤول عن المشركين؛ لأنَّه أدَّى البلاغ.

٨- قال ابن عاشور: «المراد بالذين من قبلهم الأمم المكذِّبون رُسُلَهم، كما دلَّ عليه المشبه به. ومِمَّا يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها: أنَّ هذه عادة المعاندين؛ ليَعْلَمَ المشركون أنَّهم مماثلون للأُمم التي كَذَّبت الرسل، فيعتبروا بذلك.

الثاني: التعريض بالنِّذارة لهم بحلول العذاب بهم، كما حَلَّ بأولئك الأمم التي عَرَفَ السامعون مصيرها، وشاهدوا ديارها.

الثالث: تسلية النبي ﷺ بأنَّه ما لَقِيَ من قومه إلا مثلَ ما لَقِيَ الرسل السابقون من أقوامهم».

(التحرير والتنوير: ١١/ ٨٦).

٩- تهديد المكذبين لرسول الله ﷺ بالنَّكال الشديد.

١٠- إعلان البراءة من المشركين.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

التفسير:

٤٢- ومن هؤلاء الكفَّار مَنْ يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وقلوبهم لا تفقه شيئاً منه، فأنت لا تقدر على أن تُسْمِعَ هؤلاء الصمَّ عن الحق؛ لأنَّهم لا يعقلون اتِّباع الحق.

٤٣- ومن هؤلاء الكفَّار مَنْ ينظر إليك، ويشاهد دلائل نبوَّتك الساطعة، ولكنَّهم عُمْيٌ لا ينتفعون بما شاهدوا، فأنت لا تستطيع أن تهدي هؤلاء العمي عن الحق، ولا تقدر على هدايتهم، وهم قد فقدوا البصيرة.

٤٤- يُخبر الله تعالى أنَّه لا يظلم الإنس والجن أيَّ شيء، مهما كان صغيراً أو كبيراً، ولكنَّهم هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم طاعة الله تعالى.

٤٥- ثم يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يُحشر الناس جميعاً كأنَّهم ما مكثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة زمنية واحدة من ساعات النهار، يَعْرِفُ بعضهم بعضاً كأنهم في الحياة الدنيا، قد خسر حَقّاً الذين جحدوا لقاء الله تعالى وحسابهم، وما كانوا مُوَفَّقين إلى الحق.

٤٦ - وإن أريناك - أيها الرسول - بعض الذي نَعِدُهم مِنْ نَصْرِك عليهم، وإلحاق العذاب بهم؛ لتُقِرَّ عينيك منهم فذاك، أو نَتَوَفَّيَنَّك قبل أن ترى ذلك، فمرجعهم إلى الله تعالى في الآخرة، ثم الله شهيد على جرائمهم التي اقترفوها، وسيُعاقبهم عليها.

٤٧ - ولكلِّ أُمَّةٍ من الأُمم رسول أرسل لهدايتهم، فإذا جاء رسولهم ليشهدَ عليهم، قُضِيَ بينهم بالعدل، إذ كلُّ أُمَّة تُعرض على الله بحَضْرَةِ رسولها، وكتاب أعمالها، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذمُّ المشركين بسبب عدم استفادتهم من سمعهم.

٢ - تسلية النبي ﷺ؛ لئلَّا يحزن على عدم إيمان المشركين.

٣ - استحالة ظلم الله تعالى الناس.

٤ - ترهيب المشركين بالعذاب في الدارين.

٥ - تقرير عدل الله تعالى بين الخلائق.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٨ - ويقول المشركون المُنكِرون قيامَ الساعة للنبي ﷺ سخريةً: متى هذا الوعد بالعذاب والحساب الذي تَتَوَعَّدنا به أنت وأتباعك، إن كنتم صادقين في تَوَعُّدِكم؟

٤٩-٥٠ - قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين الساخرين: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضَرّاً، ولا أجلب إليها نفعاً، إلا ما شاء الله تعالى أن يدفع عني شرّاً، أو يجلب لي خيراً. لكلِّ أُمَّةٍ وقت معلوم عند الله تعالى لانقضاء آجالهم، فإذا حان وقت انتهاء العمر، فلا يتأخرون عن ذلك ساعة، ولا يتقدَّمون ساعة،

وقل لهم: أخبروني إن أصابكم عذاب الله تعالى ليلاً أو نهاراً، فأيَّ شيْءٍ تستعجلون أيُّها المرتكبون لكبائر الجرائم؟

٥١- هل تستعجلون بالعذاب، ثم إذا وقع بكم صَدَّقتم به؟ أفي هذا الوقت تؤمنون به حين لا ينفعكم الإيمان، وقد كنتم قبل وقوعه تطلبون تعجيله تكذيباً منكم، وسخريةً بالنبي ﷺ والمؤمنين؟

٥٢-٥٣- ثم يُقال لهؤلاء المكذِّبين إذلالاً لهم: ذوقوا العذاب، وتجرَّعوه على نحوٍ دائم، هل تُعاقَبون إلا بسبب ارتكابكم كبائر الجرائم؟ ويطلبون منك - بَلاهة واستهزاءً - أن تخبرهم: أحَقٌّ ما وَعَدْتنا به من العذاب والبعث؟ قل لهم أيها الرسول: نعم وربي إنَّه لحقٌّ ثابت، ولستم بمعجزين الله بهربٍ من العقاب والحساب.

٥٤- ولو أنَّ لكل نفس كافرة تملك ما في الدنيا جميعاً من الكنوز والخيرات لَدَفَعَتْه فديةً لها من عذاب الله، وأخفى هؤلاء الكفرةُ الحسَراتِ حين شاهدوا الهول من العذاب، وقضى الله تعالى بين خَلْقِه بالعدل، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة.

٥٥- يُنبِّه الله تعالى أنَّ له ملكوتَ السموات السبع والأرَضين السبع، وأنَّ وَعْدَه بالبعث والحساب والعقاب حقٌّ لاريب فيه، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك.

٥٦- الله سبحانه وحده هو يُحيي الموتى، ويُميت الأحياء، وإليه ترجعون - أيها الناس - بعد موتكم؛ ليحاسبكم على أعمالكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور في الآية (٤٨): «فائدة الإشارة إليه، تهويله أو تعظيمه، أو التعجيب منه، كقوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] فالمعنى: ما هذا العذاب العظيم في حال كونه يستعجله المجرمون؟». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٠٢).

٢- دَأْبُ المشركين المكذِّبين للنبي ﷺ الاستعجال بالعذاب.

٣- تهديد المشركين بالعقاب في الدنيا والآخرة.

٤- تقرير البعث.

٥- بيانُ عَدْلِ الله تعالى مع خَلْقِه كافة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٧- يخاطب الله تعالى البشر مُنَبِّهاً على عظمة القرآن وأهميته، فقد أُنزِلَ عليهم القرآن العظيم فيه موعظة بليغة لهم من خالقهم تُذَكِّرُهم، وتُرَقِّقُ قلوبهم، ودواء للقلوب، ثم لإنقاذهم من العقائد والأهواء الفاسدة، ونور يبدِّد ظلمات الجاهلية، ويرشدهم إلى الحق، ورحمة عظيمة خاصَّة للمُصَدِّقين بالله تعالى ورسوله ﷺ.

٥٨- قل - أيها الرسول - للناس جميعاً إنْسِهم وجِنِّهم: ليفرح المؤمنون بدين الإسلام، وبإنزال القرآن الكريم، فإنَّه أولى ما يفرحون به، إذ هو خير ممَّا يجمعون من متاع الدنيا الزائل.

٥٩- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوبِّخ المشركين على جرائمهم في الأحكام، ويتوعَّدهم: أَخْبِرُوني عَمَّا خلق الله تعالى لكم من الأرزاق والأنعام، فجعلتم بعضه حراماً وهو حلال، وجعلتم بعضه حلالاً وهو مُحَرَّم عليكم، وكل ذلك بأهوائكم. قل لهم: أَحَصَلَ ترخيص لكم بالتحليل والتحريم؟ أم هو مجرَّد افتراء وبهتان على الله سبحانه؟

٦٠- وما الذي يَظُنُّه الذين يتعمَّدون الكذب على الله تعالى أن يفعل بهم يوم القيامة؟ أيظنون أنَّه لا يعاقبهم؟ إنَّ الله تعالى لَذو تَفَضُّل على خَلْقِه بتأخيره العذاب، وفي إرساله الرسل وإنعامه بالخيرات والأرزاق، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على ذلك الفضل.

٦١- وما تكون - أيها الرسول - في أمرٍ من أمورك، وما تقرأ من آيات من القرآن قليلاً أو كثيراً، وما تعملون - أيها الناس - من خيرٍ أو شرٍّ، إلا ونحن شهود لأعمالكم وشؤونكم حين تخوضون فيها بقولٍ أو

عملٍ. وما يخفى على الله تعالى من وزن ذرة صغيرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتاب جامع عند الله واضح ما فيه.

٦٢- يُنَبِّه الله تعالى أنَّ أنصار الله تعالى لا خوف عليهم من عقابه في الآخرة الباقية، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا الفانية.

٦٣- وصفات هؤلاء أنَّهم يُصَدِّقون بالله تعالى، ويُقِرُّون له بالوحدانية، ويُصَدِّقون برسوله ﷺ، ويستمرُّون على تقوى الله تعالى.

٦٤- ثواب هؤلاء الأولياء ما يَسُرُّهم ويفرحهم بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالرؤيا المنامية الصالحة، وبالجنة الكريمة في الآخرة، وعد ثابت، لا تغيير لوعد الله ووحيه. ذلك المقام الكريم وجنات النعيم هو الفلاح العظيم. عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يَبْقَ من النبوة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». (صحيح البخاري ١٢/ ٣٧٥ برقم٦٩٩٠ كتاب التعبير، باب المبشرات. وصحيح مسلم من حديث ابن عباس كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨ برقم ٤٧٩).

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وما فيه من البركات والهدايات.

٢- السعادة والفرح بما عند الله تعالى من الهدى والنور، وأمَّا حطام الدنيا فإنَّه زائل ومتاعه قليل.

٣- التحذير من التلاعب والاستخفاف بأحكام الله تعالى.

٤- الترغيب في شكر الله تعالى على نِعَمِه التي لا تحصى.

٥- استطاع علماء الذرة تجزئة الذرة وتقسيمها، وقد وجدوا أنَّها تحتوي على البروتون والنيترون والاليكترون، وبواسطة التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية والهايدروجينية، فكلمة ﴿أَصۡغَرَ﴾ من الذرة تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بيان بأن خواص الذرات في الأرض هي نفس ذرات العناصر الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب الأخرى. (الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم د. سليمان عمر غوش ص ١١٥). وينظر: الملحق لبيان مخطط الذرة وأجزائها.

٦- البشرى العظيمة في الدارَين لِـمَنْ أخلص الولاية لله تعالى.

٧- الإشارة إلى الفرح العظيم بالفلاح والفوز بجنات النعيم.

٨- في الآية (٦٤) إخبار مستقبلي بالبشارة من الله لأوليائه في الحياة الدنيا بما يَسُرُّهم، وفي الآخرة بالجنة.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- ولا يحزنك - أيها الرسول - افتراءات المشركين وتكذيبك. إنَّ الله تعالى هو المنفرد بالعزَّة جميعاً بكل معانيها ومفرداتها في الدنيا والآخرة، يُعِزُّ بها أولياءه فوق أعدائه. هو سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال.

٦٦- يُنَبِّه الله تعالى أنَّ كل ملكوت السموات السبع وما فيها، والأرض ومَنْ فيها من المخلوقات له وحده سبحانه، وأيَّ شيء يَتَّبع الذين يعبدون من غير الله أصناماً وغيرها شركاء، وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء (ينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٤٩٠)، إنَّما يَتَّبعون ظنّاً فاسداً أنَّهم شركاء لله تعالى، وما هم إلا يكذبون.

٦٧- الله سبحانه هو الذي خلق لكم - أيها الناس - الليل؛ راحة لأبدانكم، وستراً لكم، وجعل النهار مُضيئاً تبصرون فيه الأشياء؛ لطلب الرزق. إنَّ في ذلك الأمر العظيم والتغيير الحكيم لَعلاماتٍ ودلالات على وحدانية الله ﷻ لقوم يسمعون الحقَّ ويَتَّبعونه.

٦٨- يخبر الله تعالى عن الضلال الخطير الذي لهج به المشركون، بأنَّ الله اتخذ ولداً، مُبيِّناً كيف يفضحهم وكيف يَرُدُّ عليهم؟ قال مشركو مكة: الملائكة بنات الله. وقال مشركو اليهود: عزيرٌ ابنُ الله. وقال مشركو النصارى: عيسى ابن الله. تَنَزَّه وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، بل هو الغني عن ذلك، وعن كلِّ ما سواه، له ملكوت السموات السبع، وما في الأرَضين السبع، ما عندكم من حُجَّة على كَذِبكم، أتكذبون على الله بما لا تعلمون حقيقته؟

٦٩- قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين يتعمَّدون الكذب على الله أنَّهم لا يفوزون بحياة طيبة في الدنيا ولا في الآخرة.

٧٠- إنَّما يتمتعون مدة وجيزة من الدنيا، ثم إلينا مصيرُهم في الآخرة للعقاب، ثم تُسَعَّر بهم جهنم، فهم وقودها؛ ليشعروا بالعذاب الشديد الموجع، بسبب الجرائم التي اقترفوها، من الشِّرْك بالله تعالى، والكذب عليه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الآية (٦٦): «ظَنَّ طائفة أنَّ (ما) نافية، وقالوا: ما يَدْعُون من دون الله شركاء في الحقيقة، بل هم غير شركاء. وهذا خطأ، ولكنَّ (ما) هنا حرف استفهام. والمعنى: وأيَّ شيء يتبع الذين يَدْعُون من دون الله شركاء؟ وما يَتَّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون. و﴿ شُرَكَآءَ ﴾ مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾، لا مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾». (التفسير ٣/ ٤٩٠).

٢- إنَّ التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتمُّ التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، كما يُعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي، كما تتم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية، وما بها من خيرات أرضية.

(آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٤١٥-٤٣٢).

٣- تسلية النبي ﷺ وتهديد المشركين المكذبين.

٤- إثبات صفة السمع والعلم لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

٥- من أعظم البراهين المشاهدة التي تدل على وحدانية الله تعالى الليل والنهار.

٦- تهديد المشركين المكذبين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧١- وأخبِرْ - أيها الرسول - هؤلاء المشركين، واقصُص عليهم الخبر العظيم، حين قال نوح عليه السلام لقومه المكذِّبين مُتَحَدِّياً لكيدهم، مُستعطفاً بقرابة النسب: يا قومِ إن كان شَقَّ عليكم مقامي فيكم، وتذكيري لكم هذه المدَّة الطويلة، فعزَمْتُم على قتلي أو طردي، فعلى الله اتِّكالي وبه ثقتي، فأعِدُّوا عُدَّتكم ودَبِّروا مكيدتكم، ثم اجْهَروا بأمركم، ولا يكن ذلك مستوراً، ثم أنفِذوا ما أبرمتم، ولا تُمهلوني، ولا أبالي بكم، فإنِّي في رعاية الله تعالى.

٧٢- فإن أعرضتم عن دعوتي ورسالتي إليكم، فما طلبت منكم من أجر على دعوتي لكم؛ لأنَّ ثوابي العظيم من عند ربي الكريم، وأُمِرْتُ أن أكون من المتذلِّلين له سبحانه بالطاعة والانقياد التام.

٧٣- يُبيِّن الله تعالى العناية بنوح عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين، بعد تلك الدعوة التي بلغت تسعمائة وخمسين سنة حين كذَّبه قومه: فأنقَذْنا - لِما لنا من العظمة والقدرة - نوحاً ومَنْ معه من المؤمنين في السفينة، وجَعَلْناهم خلفاء لعمارة الأرض، وأَغْرَقْنا بالطوفان المكذِّبين بحُجَجِنا وأدلَّتنا، فتأمَّل كيف كان نهاية الذين أنذرهم نوح عليه السلام من العقاب؟

٧٤- ثم أَرْسَلْنا من بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم، مثل: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، فجاؤوا أُممهم بالمعجزات الباهرة والبراهين الظاهرة، فما كان من شأنهم أن يُصَدِّقوا تلك الأدلة والحجج، فكَذَّبوا رسلهم، ولم يَزْجُرْهم عقاب الأُمم السابقة. مثلَ ذلك الختم على قلوب أولئك السابقين، نختم على قلوب المتجاوزين لحدود الله تعالى وحرماته.

٧٥- ثم أرسلنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى الطاغية فرعون وأشراف قومه، بالمعجزات العجيبة الدالَّة على صِدْقِهما، فبالَغُوا في استكبارهم على الإيمان بها، وكانوا مرتكبين لكبائر الجرائم بقتلهم الأنبياء، واستعبادهم الشُرَفاء، والاعتداء على الأبرياء، واستحياء النساء.

٧٦- فلمَّا جاء موسى بالحق من عند الله تعالى كالعصا واليد، قال زعماء الكفر تكذيباً وتَكَبُّراً: هذا سحر ظاهر.

٧٧- فرَدَّ موسى عليه السلام مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم: أتَصِفُون هذا الحق إنَّه سحر مبين؟ ولا يفوز الساحرون؛ لأنَّهم خسروا الدنيا والآخرة بكفرهم.

٧٨- قال فرعون وأعوانه مُنْكِرين على موسى: أجئتنا لتَصْرِفَنا عن آلهتنا التي كان يعبدها آباؤنا وأجدادنا، وتكون لكما أنت وهارون السيادة والعظمة في أرض مصر؟ ولسنا بمُصَدِّقين لكما فيما جئتما به.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «الإنظار التأخير، وحُذفت ياء المتكلم من ﴿تُنظِرُونِ﴾ للتخفيف، وهو حَذْفٌ كثيرٌ في فصيح الكلام، وبقاء نون الوقاية مشعر بها». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٤٢).

٢- الموعظة من قصة نبي الله نوح عليه السلام وقومه ومصير المكذبين.

٣- تكذيب الرسل يتكرر في كل زمن، وكذلك انتصار الرسل.

٤- في تكرار قصة موسى؛ إشارة إلى أهميتها، ولمعرفة التعامل مع اليهود.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

التفسير:

٧٩-٨٠- وبعد أن رأى فرعون معجزة اليد والعصا، أمر باستدعاء السحرة المهرة، فاستجابوا له، وحضروا على موعدٍ مع موسى عليه السلام وأتباع فرعون، فقال لهم موسى - بعد أن خَيَّرَ السحرة فيمَنْ يبدأ -: أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون من الحبال والعِصِيِّ.

٨١- فلما انتهوا من إلقاء حبالهم وعصيهم قال موسى: إنَّ الذي جئتم به هو السحر بعينه، وبرهان ذلك أنَّ الله تعالى سيمحقه. إنَّ الله تعالى لا يصلح عمل مَنْ سعى بالفساد في الأرض بالسحر الذي حَرَّمه الله تعالى.

٨٢- ويُظهر الله تعالى الحقَّ على الباطل، ويُثبِّته بحُجَجِه الساطعة، وكلماته في كتبه المنزَّلة على أنبيائه، ولو كره ذلك الذين أجرموا بفعل السحر، وكبائر الجرائم.

٨٣- فما صَدَّق بموسى عليه السلام إلا نفرٌ قليل من نَسْل بني إسرائيل، على تَخَوُّفٍ وحَذَرٍ من طغيان فرعون وأتباعه أن يبطش بهم؛ ليَصْرِفَهم عن دينهم. وإنَّ فرعون لَمتكبِّر مفسد في الأرض، وإنَّه لمن المُفْرِطين في الكفر والطغيان، ومحاربة أهل الإيمان.

٨٤- وقال موسى عليه السلام مُثَبِّتاً أتباعه مُستعطفاً بنداء النسب: يا قومِ إن صَدَّقتم بالله، وأقررتم له بالوحدانية ولي بالرسالة، فاعتَمِدُوا على الله وحده، إن كنتم مُنقادين لأوامره ونواهيه.

٨٥-٨٦- فاستجابوا لموسى ﷺ قائلين: على الله وحده توكَّلْنا، يا ربَّنا لا تُسَلِّط علينا جبابرة فرعون فيَفْتنونا في ديننا، وأنقِذْنا برحمتك الواسعة من المكذِّبين بك.

٨٧ – وأوحينا – لِما لنا من العظمة والقدرة – إلى موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام أن اتَّخذا لقومكما من بني إسرائيل في مصر بيوتاً للعبادة، واجعلوا هذه البيوت مساجد تُصَلُّون فيها، وأدُّوا الصلاة المفروضة، وبَشِّرِ المصدِّقين بالله ورسله بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالجنة الكريمة في الآخرة.

٨٨- ودعا موسى ﷺ على فرعون وأتباعه مُتَضَرِّعاً إلى الله: يا ربَّنا إنَّك برحمتك الواسعة أعطيت فرعون وزعماء قومه زينة عظيمة من المعادن الثمينة، وخزائن من الأموال النفيسة؛ لتكونَ عاقبة أمرهم منع الناس من الإيمان بك، وليَصُدُّوهم عن الحقِّ، يا ربَّنا دَمِّرْ أملاكهم، فلا ينتفعون بها، واختِمْ على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان، فلا يؤمنوا حتى يشاهدوا العقاب الموجع.

٨٩- بَشَّرَ الله تعالى موسى وهارون بأنَّه قد استجاب لكما ذلك الدعاء، فاثبتا على ما أنتم عليه من الدين الصحيح، ولا تَتَّبِعا طريق الذين لا يعلمون الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أُعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة؛ لتأكيد التذلُّل والتعرض للإجابة، ولإظهار التبرُّؤ من قصد الاعتراض.. وأُعِيد النداء ثالث مرة؛ لزيادة تأكيد التوجُّه والتضرع.

٢ - طُغْيان فرعون وملئه لم يقدر على منع الناس من الإيمان بالله تعالى.

٣ - بيان أهمية التوكل على الله تعالى.

٤ - وجوب اعتزال الأعداء الكفار إذا لم تنفع معهم النصيحة.

٥ - عدم اليأس في الدعوة مهما بلغ طغيان الأعداء.

٦ - رعاية الله تعالى بالاستجابة للدعاء، إذا توافرت شروطه.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

التفسير:

٩٠- وهَيَّأ اللهُ تعالى لموسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل مجاوزة البحر بسلام، فلحقهم فرعون وجيشه ظلماً وعدواناً، ومَضَوا يلاحقون موسى وأتباعه، إلى أن أدرك الغرقُ فرعونَ. ولما أيقن بالهلاك قال: أقررتُ بأنّه لا إله إلا الله الذي صَدَّقَتْ به بنو إسرائيل، وأنا من المنقادين لأَمْرِه ونَهْيِه.

٩١- فلم يقبل الله تعالى ذلك من فرعون، بل أنكر عليه: أتؤمن الآن حين يَئِسْتَ من الحياة، وقد عصيتَ الله قبل وقوع الغرق، وكنت مِضْلالاً مفسداً في الأرض؟

٩٢- فاليوم نُخْرج جثتك من البحر؛ لتكون عبرة لِـمَنْ بعدك من الناس والجبابرة، وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا العظيمة المسموعة والمشاهدة مُعْرِضُون، دون تَدَبُّر واعتبار.

٩٣- قسماً لقد أكْرَمْنا بني إسرائيل، وأنزلناهم مساكن في أرض مباركة، ورزقناهم من الخيرات الحلال المستلَذَّة، فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد مجيئهم التوراة. إنَّ ربَّك - أيُّها الرسول - يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه من أمر محمد ﷺ، فيجازي المؤمنين بالثواب، والمكذِّبين بالعقاب.

٩٤- فإن كنت - أيها الرسول - في شك من أنَّ بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوَّتك قبل أن تُبعث رسولاً إلى الناس جميعاً؛ لأنَّهم يجدون صفتك في توراتهم، فاسأل الذين يقرؤون التوراة من قبلك، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ونحوه. قسماً لقد جاءك الحقُّ اليقين من ربك بأنَّك رسول الله، وأنَّ اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك في كتبهم، فلا تَكُنْ في شك من ذلك أبداً.

٩٥- ينهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يكون من المكذبين بآيات الله تعالى من المعجزات الباهرة والأدلة الظاهرة لئلَّا يكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

٩٦-٩٧- إنَّ الذين أصَرُّوا على الكفر وَجَبَتْ عليهم لعنة الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فلا يُصَدِّقون بالله ولا برُسُلِه، ولو جاءتهم كلُّ موعظة وعبرة، حتى يشاهدوا العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «الفاء التي في قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ فاء الفصيحة، تفصح عن شرط مقدر في الكلام يدل عليه السياق. والمعنى: فإن رُمْتَ بإيمانك بعد فوات وقته أن أُنجيك من الغرق، فاليوم ننجيك ببدنك، والكلام جارٍ مجرى التهكم». (التحرير والتنوير: ١١/ ١٧١).

٢- من الإعجاز نجاة جثة فرعون، فهي ما زالت محفوظة في مصر، إنْ صَحَّ الخبر. وينظر: صورة فرعون في الملحق.

٣- التحذير من الشك والامتراء في شأن الحق.

٤- التهديد والوعيد للمكذبين بآيات الله تعالى.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

التفسير:

٩٨- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية لولا: هَلَّا، هذا قول أئمة العربية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن؛ فذكر أنه لم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس.. وقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يبيِّن أنَّ المكشوف عذاب في الدنيا ولو لم يفسر، فهو مجمل والقرآن فَرَّق بين النوعين، فقوم يونس آمنوا إيماناً نفعهم وآمنوا قبل حضور الموت، وغيرُهم إمَّا أن يكون كاذباً في إيمانه كقوم فرعون، وإمَّا بعد حصول الموت، كالذين قال فيهم: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨٥]. (تفسير شيخ الإسلام ٣/ ٤٩٩).

وقوم يونس كانوا في مدينة الموصل في العراق، ولما صَدَّقوا يونس ﷺ، وأقرُّوا بما جاء به من التوحيد، بعدما أظلَّهم العذاب، ونزل بهم البلاء، كشفنا عنهم عذاب الهوان والذل في حياتهم الدنيا، فلم نعاجلهم بالعذاب، بل أكرمناهم، فهم يتمتعون في الدنيا إلى وقت انتهاء آجالهم.

٩٩- ولو شاء ربك - يا رسول الله - لَصَدَّق اللهَ تعالى كلُّ مَنْ في الأرض من الإنس والجن، أفأنت تُجبر الناس على الإيمان، حتى يكونوا مُصَدِّقين برسالتك؟

١٠٠- وما ينبغي لأحد أن يؤمن بالله تعالى إلا بمشيئة الله تعالى، ويجعل الله العذابَ والذلَّ على الذين لا يعقلون اتِّباع الحق.

١٠١- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلفت أنظار الكفار إلى الآيات الكونية المرئية في السموات بعظمتها، والأرض بخيراتها التي تدل على وحدانية الخالق سبحانه. لكنَّ هذه الآيات العظيمة، وأولئك الرسل الذين ذَكَّروا الناس بعذاب الله لا تنفع المكذِّبين بها.

١٠٢- فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا يوماً يشاهدون فيه عقاب الله تعالى، مثل أيام عذاب الذين مضوا قبلهم؟ قل لهم أيها الرسول: انتظِرُوا عقاب الله، إنِّي معكم من المنتظرين هلاككم.

١٠٣- ثم نُنَجِّي رسولَنا محمداً ﷺ ومَنِ اتَّبعه من المؤمنين، كما نَجَّينا الرسل السابقين، كذلك أوجبنا علينا - بفضلنا - أن ننجيك ومَنْ معك من المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل قوم يونس عليه السلام من أهل الموصل.

٢- ذكر الله تعالى أنموذجاً لأهل الإيمان، ونجاتهم من الهلاك بالعذاب؛ لترغيب المشركين في ذلك، لعلهم يقتدون بقوم يونس عليه السلام.

٣- التحذير من الإكراه على الإيمان.

٤- الترهيب من مصير الأُمم المكذبة السابقة.

٥- البشرى بنصر المؤمنين، ونجاتهم من طغيان أعدائهم.

٦- في الآية (٩٩) إخبار مستقبلي أنَّ بعض الناس يُصِرُّون على الكفر، وأنَّ إكراه الكفَّار على الإيمان لا ينفع.

٧- ينظر: خريطة مدينة الموصل في الملحق، وتبعد عن بغداد (٤٠٠) كيلٍ شمالاً، وتسمى الآن محافظة نينوى.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤-١٠٦- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في الآيات الخمس الآتية أن يُبَلِّغ الإنس والجنَّ بأمور عظيمة: إن كنتم في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه، فإني لست في شك، بل لديَّ العلم اليقيني أنّه الحق، فاعلموا أني بريء من أوثانكم، فلا أعبدها، ولكن أعبد الذي بيده حياتكم ومماتكم، وأُمِرْت أن أكون من

المؤمنين به سبحانه، وأُمِرْتُ بالاستقامة والثبات على الدين، وألَّا أكونَ من الذين يشركون في عبادة الله سبحانه، ونُهيت أن أعبدَ غير الله ما لا ينفع شيئاً إن عبدته، ولا يَضُرُّ بشيء إن تركته، فإن خالَفْتُ ذلك - على سبيل الافتراض- فإنِّي من الظالمين أنفسهم؛ لأنَّ الشرك أعظم الظلم.

١٠٧ - وإن يُصِبْكَ اللهُ بسوء فلا دافع له إلا هو سبحانه، وإن أراد أن يتفضَّل عليك بنعمة فلا يمنعها عنك مانع، يصيب الله تعالى مَنْ يشاء من عباده بفضله وإحسانه، وهو الغفور لذنوب مَنْ تاب من عباده، الرحيم بهم.

١٠٨- قل - أيها الرسول - للنَّاس جميعاً: قد جاءكم رسول الله ﷺ بالقرآن العظيم، فمَنِ اهتدى بأحكامه وحِكَمِه فإنَّ نَفْعَ ذلك يعود لنفسه، ومَنِ انتكس بالضلالة والانحراف عن الحقِّ فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعود على نفسه أيضاً، ولستُ بحفيظٍ عليكم محاسبٍ لكم.

١٠٩ - واتَّبع - يا رسول الله - وحي ربك الذي يُوحيه إليك، واصبر على أذى أعدائك، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعل فاصل، وهو سبحانه خير القاضين، وأعدل الفاصلين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إعلان البراءة من المشركين ومعبوداتهم.

٢- التحذير من الاستعانة بغير الله تعالى.

٣- لا يقدر أحد أن يكشف الضُّرَّ إلا الله تعالى، وكذلك لا أحدَ يقدر أن يجلب الخير إلا الله تعالى.

٤- إثبات صفتَي المغفرة والرحمة.

٥- بيان أهمية صبر المسلم على ما يلاقيه من أذى.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله، وتقرير البعث والجزاء، وإثبات الرسالة بدلالة عجز الكفار عن معارضة القرآن، وما حواه من حُجج وعبر.

٢ - التخويف من عذاب الله تعالى العاجل والآجل، وبيان الأسباب المفضية للعذاب، وضرب المثل بالأُمم السابقة للوقوف على أسباب هلاكها.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتثبيته ببيان صبر الأنبياء على أقوامهم ونجاتهم، وبيان نِعَمِ الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام، وشكرهم لهذه النعم، وبيان منهج الأنبياء في الدعوة والحوار.

٤ - إبراز دلائل قدرة الله تعالى في خَلْقِ الكون، وتدبيره.

٥ - الدفاع عن القرآن، والردُّ على شبهات المبطلين، وافتراءات الظالمين.

٦- التحذير من اتباع الطغاة، وتقليد الضالين، والاغترار بكثرة الهالكين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١ - بدأت السورة الكريمة بهذه الأحرف للتنبيه والتحدّي، فالقرآن نزل بالعربية، وهذه حروفها؛ فهل يقدر أرباب الفصاحة وأساطين البيان أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، وهو كتاب بالغٌ حَدَّ الكمال في حسن الرصف، وبديع الوصف، وروعة الأسلوب، فلا يتطرق إليه خَلَلٌ ولا اختلافٌ، فآياته متقنة، لا يعتريها خَلَلٌ، مفصلة، مبيَّنةٌ على أكمل بيان، وأجلى برهان.

٢ - يرشد الله تعالى أُمة رسوله الكريم ﷺ أن يُوَحِّدوا الله تعالى في عبادته وحده، فهو المستحقُّ للعبادة، والرسول ﷺ يخاطبهم: إنني لكم من قِبَلِه نذيرٌ لأهل معصيته بسُخْطه وعقابه، وبشير لأهل طاعته بفضله ورضوانه.

٣- واطلبوا مغفرة الذنوب من خالِقِكم، ثم توبوا إليه توبة خالصةً نصوحاً، يَمُنُّ عليكم بطيب العيش والعافية، وطول العمر في طاعته ومرضاته إلى أن تنقضي الآجال، ويجعلكم خير الأُمم قوةً وعلماً ونعمةً ومَنَعَةً، ويعطي كلَّ عامل بقدر عمله في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ المراتب متفاوتة في الدارَين بتفاوت الأعمال، وإن تُعرضوا عما جئتكم به من الهدى والبيان، فإني أخاف عليكم من سوء العاقبة، وأليم العذاب، في يومٍ كبيرٍ حافلٍ بالأهوال العظام.

٤ - إلى الله تعالى مصيركم ومَرَدُّكم، وهو القادرُ على كل شيء. ومن ذلك قدرته تعالى على إعادتكم وبعثكم وحسابكم وجزائكم.

٥- **سبب النزول:**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أناس كانوا يَسْتَحْيون أن يَتَخَلَّوا، فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيُفْضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم». (صحيح البخاري - كتاب التفسير، باب سورة هود، برقم ٤٤٠٤).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى أولئك المعرضين، كيف يحتالون إذا لقوا النبي ﷺ في طريق أو في سوق ليتخَفَّوا منه، ويَتوارَوا بعيداً عنه؛ حتى لا يراهم، فيميلوا عنه ويَزْوَرُّوا منه. وهذا من جحودهم وجهلهم وغفلتهم عن إحاطة علم الله بسِرِّهم وعَلَنِهم، وما يَسْتَكِنُّ في صدورهم، ويَدُور بخَلَدِهم من الوساوس والهواجس والخواطر والأفكار. والتنبيه يشمل تصحيح خطأ أولئك الناس الذين كانوا يستحيون أن يَتَخَلَّوا، فيُفيضوا إلى السماء عند جماع نسائهم، والله تعالى المطَّلع عليهم، العليم بما تنطوي عليه قلوبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أجملت الآيات مقاصد الكتاب وخصائصه ومهمة الرسول ﷺ، فقد جمع القرآن بين الإحكام والتفصيل، كما جمع هذا النبي الكريم ﷺ بين البشارة والنذارة.

٢- تقديم الإنذار على التبشير؛ لأنَّ مَنِ امتثل للنذارة استحق البشارة، فالعبد لا يستحق البشارة إلا إذا كان أهلاً لها، بينما النذارة عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لذا تأتي على إطلاقها، بينما تأتي البشارة مقيدةً بمَنْ يستحقها من المؤمنين.

٣- في إسناد الإحكام والتفصيل إلى آياته؛ لبيان كون الإحكام والتفصيل عامًّا في سائر الآيات.

٤- التعبير بـ(ثم) لإفادة التراخي الرُّتْبي بين منزلة الإحكام ومنزلة التفصيل؛ فالإحكامُ هو الدقة والإتقان، والتفصيل هو البيان، أو التراخي الزمني بحسب نزولها جملةً ثم مفرقة حسب الوقائع والأحداث.

٥- وفي بناء الفعلين للمفعول مع إسناد التفصيل إلى الحكيم الخبير، بيان لفخامة كلام الله تعالى وجَمْعِ معانيه بين الحكمة والدقَّة والعمق.

٦- بَيَّنت الآيات مصير الناس، ومَرَدَّهم إلى الله تعالى؛ ليستعدُّوا ويتزوَّدُوا للقائه.

٧- قدَّم الاستغفار على التوبة؛ لأنَّها بمنزلة التخلية قبل التحلية، والإسعافات العاجلة قبل العلاج الناجع.

٨- في التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى مزية العمل، وسُمُوِّ قدره وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ولبيان كون الجزاء من جنس العمل.

٩- وصف المتاع بالحسن ترغيباً فيه وتشويقاً إليه، فالمؤمن يحيا حياةً طيبةً في الدنيا، وينعم في الآخرة بالأمن والسعادة الأبدية.

١٠- إعراض الكُفَّار عن كتاب الله، وتَحايُلِهم ومراوغتهم؛ لئلَّا يستمعوا إليه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٦- ومن إحاطة علمه تعالى، وكمال قدرته، وعنايته بخَلْقه وتدبيره لملكه: تَكَفُّلُه بكلِّ ما يَدِبُّ على ظهر الأرض من المخلوقات، يرزقها، ويعلم مكانها الذي تقطنه وتأوي إليه، وتبيت فيه حالَ حياتها من الأوكار والجحور والكهوف، ومثواها الذي تُودَعُ فيه بعد موتها. كل ذلك في اللوح المحفوظ الذي يُحصي كل صغيرةٍ وكبيرةٍ.

٧- وهو سبحانه الذي خلق السموات في أربعة أيام والأرض في تتمة الأيام الستة، وكان عرشه على الماء، خَلَقَهما ليختبر العباد، ويُجازِيَهم على أعمالهم، فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين. ولئن أخبرتهم يا محمد بأنَّهم مبعوثون من بعد موتهم، لَيقولُنَّ: ما هذا الذي جئت به إلا سحرٌ واضحٌ.

٨- وقسماً إن أَخَّرْنا عن هؤلاء الكفار العذاب برهةً من الزمان تساءلوا مُشَكِّكين: ما يمنعه عنا؟ ألا إنه أجلٌ محدودٌ وقضاءٌ مبرمٌ، إذا جاء فلا صارف له ولا دافع، وحينئذ يحلُّ بهم ما كانوا به يسخرون ويستبعدون.

٩- ومن طبائع النفوس الرديئة ما تُبديه من سُخطٍ وجزعٍ عند تَبَدُّل النِّعَم، وتحوُّل العافية، فتراها يائسةً من كلِّ خير، قانطةً من كل رحمةٍ، ناسيةً وجاحدةً ما سلف من نعمة.

١٠-١١- وكذلك حالُ تلك النفوس إن هَبَّتْ عليها العافية، وأذاقها الله حلاوة النعم، فإنَّها تركنُ إلى الدَّعة وتَخْلُدُ إلى الرفاهية، وتفرح فَرَحَ الغفلة والغرور، وتختال وتزهو غافلةً عن سنن الله، آمنةً من تَقَلُّبات الزمان، وتبدُّل الأحوال، وناسيةً لفضل الله ورحمته. ثم استثنى الله تعالى مَنْ وَطَّنَ نفسه على الصبر عند

النوازل والرزايا، وزَكَّاها بالأعمال الصالحات، فإنَّ نفسَه لا تجزعُ لمحنةٍ، ولا تغترُّ بنعمةٍ. أولئك أصحاب المنازل السامية والهمم العالية، لهم مغفرة عظيمة على صلاحهم ورجائهم وشكرهم لربهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظيم قدرته تعالى، وكمال رُبوبيته، وتدبيره للمخلوقات كلِّها، وتَكَفُّله برزق كلِّ دابَّة وإحاطة عِلمه تعالى بحركاتها و سكناتها ومآلها.

٢- إثبات اللوح المحفوظ، ووَصْفُه بالمُبين.

٣- من الأدلّة الماديَّة على إمكان البعث خلق السّموات والأرض في ستة أيّام، ومع ذلك يستبعده الكفَّار، وينسبونه إلى الوهم و التَّخييل.

٤- يقين الإنسان بخالقه وتَوَكُّله عليه، فهو الخالق الرازق المدبِّر، العليم بأحوال خلقه.

٥- العرش والماء كانا قبل خلق السموات والأرض. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ».

(صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ برقم ٦٩٨٢).

٦- الابتلاء من سنن الله تعالى الماضية في هذا الكون، يُمَحِّصُ به القلوبَ، ويَشْحَذُ الهِمَمَ، ويَصْقُلُ المواهب، ويُفَجِّرُ الملكات، ويرفع الدرجات.

٧- دعوة القرآن للتنافس في فعل الخيرات، والمبادرة إلى فضائل الأعمال، والتسابق إلى أعلى الدرجات والإحسان في كل عمل، وحفز الهمم إلى طلب معالي الرُّتَب.

٨- تحليل طبائع النفوس وموقفها من السَّرَّاء والضَّرَّاء، وبيان ما تنطوي عليه نفوسُ الكثير من رديء الطباع وذميم الخصال، والقُصور عن فَهْمِ سُنَّةِ الابتلاء.

٩- ذَمُّ حالِ كثيرٍ من النفوس التي تجزع وتتبرَّم من قضاء الله تعالى، فإذا أصابتها العافية تَحَوَّلت إلى الغرور والغفلة والجحود.

١٠- المقابلة بين التعبير بـ﴿أَذَقْنَا﴾ الذي يفيد اللذة والاغتباط، وقوله: ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ الذي يفيد شدة تَعَلُّقه بالنعمة، وحرصه عليها.

١١- من ذخائر الصبر، وغِراس الأعمال، وقوة الرجاء واليقين: المغفرة والأجر الكبير.

١٢- الردُّ على مَنْ يتعجَّلُ العذابَ استبعاداً له وتشكيكاً فيه، فإمهالُ الله تعالى الكافرين لحكمةٍ يعلمها.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢ - لا يَثْنِيَنَّ من عزمك، ولا يَصْرِفَنَّك عن دعوتك، ما يُرَدِّدونه من أباطيل، ويثيرونه من أقاويل ويُلِحُّون فيه من مطالب تُسْفِرُ عن تَعَنُّتِهم، وتكشفُ عن صدودهم، إذ يقولون: لولا وَقَعَ عليه كنزٌ، أو هبط عليه مَلَكٌ من السماء يصدقه؛ جهلاً منهم بحقيقة الرسالة، ودعوة الرسل وهي الإنذار والبيان، فلا يَفُتَّ هذا من عضدك، ولا يَحْمِلْكَ على ترك بعض ما أوحي إليك استجابة لهم؛ فلَسْتَ بمُوَكَّلٍ عليهم، إنَّما أنت نَذِيرٌ، والله تعالى المتكفِّلُ بكل ما في الكون، يتولَّى أمور العباد، ولو شاء لَجَاءهم بتلك الآيات.

١٣ - أشاع المشركون أنَّ القرآن من عند محمد ﷺ أَلَّفه، ونَسَبَه لربه. فقل لهم: فلْتَفْتَرُوا عشر سور مشابهةً له، ولتستعينوا بمَنْ شئتم من الخلق، ومن الآلهة التي تنافحون عنها، إن كانت دعواكم حقيقة.

١٤ - فإن لم تقدروا على معارضته، ولم تستجب لكم آلهتكم المزعومة، لَزِمَكم العِلْمُ القاطع بأنَّ هذا الكتاب إنَّما نزل من عند الله تعالى، وأنَّه تعالى لا رَبَّ غيره ولا معبود سواه، فهل أنتم بعد هذا البرهان منقادون لهذا الدين، مستسلمون لرب العالمين؟

١٥ - مَنْ كان طَلَبُ الدنيا والظفر بها بغيته، فصرف إليها هِمَّته، وقصر عليها سعيه، وضَيَّع آخرته، نال من دنياه بقدر عزمه وسعيه والتماسه للأسباب، فلا يُظْلَمُ ولا يُهْضَمُ، بل يستوفي أجرَ ما قَدَّم لدنياه الفانية.

١٦ - أولئك البُعداء المحرومون الذين تَعَلَّقوا بحبال الدنيا البالية، واغترُّوا بزخارفها الفانية، ليس لهم في الآخرة نصيب إلا النار، وذهب عنهم نَفْعُ ما عملوه من صنائع، ومُهدَرٌ ما كانوا فيه من أعمالٍ، لا وزن لها في الآخرة.

١٧ - أفمَنْ كان على نورٍ وبصيرة وهدى من ربه، ويعضدُ ذلك برهانٌ جليٌّ وشاهدٌ من ربِّه جلَّ وعلا وهو كتابه العظيم، ويؤيده شاهدٌ قبله، وهو التوراة التي نزلت إماماً للهدى والخير ورحمة لبني إسرائيل في دنياهم وأخراهم. أولئك أصحاب المقامات العالية الذين تجَلَّتْ لهم تلك الحُجَجُ المتتابعة والبراهين الساطعة يُصَدِّقون به. ومَنْ يكفر به من الملل كلها، فالنار موعدهم وملتقاهم، بعد أن تنتهي حياتهم البائسة، فلا تكن أيها المؤمن بعد هذه الشواهد المتواترة والقرائن المتضافرة في شك منه، فإنَّه الحق الثابت من ربك، ولكن كثيراً من الناس لا يُصَدِّقُون؛ جحوداً وعناداً، أو جهلاً وغفلة.

الفوائد والاستنباطات:

١- حملة التشكيك والصُّدود لا ينبغي أن تُثني الداعية عن دعوته.

٢- ضرورة التَّفرقة بين ما هو مطلوب من الدَّاعية مندرجٌ في واجباته، وبين ما لم يُطلب إليه حتى لا ينشغل به عن الواجب.

٣- عَجْزُ المشَكِّكين في القرآن والطاعنين فيه والمعارضين له، عن معارضته، حجةٌ على الكافرين، وتذكرة للمؤمنين، وتقويةٌ لإيمانهم ويقينهم. وإعجاز القُرآن يستلزم التَّسْليم بأنَّه أُنزِل من عند الله، كما أنَّه دليل على وِحدانيَّته ﷻ.

٤- إفراد الخطاب ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ ثم جَمْعُه في ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ لأنَّ الخطاب أولاً للنبي ﷺ، أَمَره الله بأن يتحدَّاهم، ثم لا يزال التحدي قائماً إلى أن تقوم الساعة، وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الخطاب للجميع: المؤمن ليزدادَ عِلْماً وتَبَصُّراً ومعرفة وانقياداً لأوامر الله، والكافر ليعلمَ بعد جهل ويؤمنَ بعد كفر، ويسلكَ طريق الإسلام مُسَلِّماً بحجة الله البالغة.

٥- حَظُّ الكفار من النِّعَم ما يَحْصُلُ لهم في الدُّنْيا، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها؛ فهم المحرومون المغبونون، كما في قول النبي ﷺ لِعُمَرَ ﷺ لَـمَّا ذَكَرَ له فارِسَ والرُّومَ، وما هُمْ فِيهِ مِنَ المُتْعَةِ: «أُولَئِكَ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا». (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها برقم ٢٣٣٦).

٦- الأُمُور بمقاصِدها، وأثر الإرادات في تحديد النِّهايات.

٧- العدول إلى اسم الفاعل (وباطلٌ) دون الفعل الماضي؛ لئلَّا يُوهِمَ أنَّها كانت صحيحةً، ثم طرأ عليها البطلان.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - ولا أحد أظلم ممَّنْ كَذَبَ على الله تعالى وتقوّل عليه. أولئك البُعداء عن الحقِّ يُعْرَضون على ربهم عَرْضَ افتضاح، في موقف مهيب ومشهدٍ من مشاهد الخزي والعار، ويشهد الأشهاد من الملائكة والنبيين وسائر الصالحين عليهم بالكذب، فيُبْهَتون ويُفْضَحون، ويُجَلَّلون بالخِزْي والإبعاد، تُلاحِقُهم اللَّعَنات أينما حَلُّوا، لأنَّهم ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم بكذبهم وافترائهم.

١٩ - الذين يَصْرِفُون الناس عن سبيل الله مع وضوحه واستقامته يسعون دائبين إلى طمس معالمه، وتغيير مساره؛ لينحرف عن استقامته، ولتصبح الأمور معوجَّة، تُوافق أهواءهم، مع ما هم عليه من كفرٍ باليوم الآخر.

٢٠ - هؤلاء البعداء ما كانوا في دنياهم بعيدين عن قدرة الله تعالى وسلطانه، وما كان لهم من دون الله مَنْ ينصرهم ويدافع عنهم، لكنَّ الله أمهلهم، وأخَّر عذابهم؛ استدراجاً لهم. وهاهم أولئك في آخرتهم التي ضيَّعوها يُصَبُّ عليهم العذابُ أضعافاً؛ لضلالهم وإضلالهم، ما كانوا في دنياهم يسمعون لداعي الحق؛ لنفورهم منه وكراهيتهم له، وما كانوا يبصرون الآيات المبثوثة من حولهم نظر تفكُّرٍ واعتبار، بل كانوا في عَمَىً وضلالة.

٢١ - هؤلاء المحرومون المُبْعَدُون قد خسروا أنفسهم في الآخرة، إذ أوردوها موارد التهلكة، وضَيَّعوا هذا النعيم المقيم بجحودهم وإنكارهم، وظهر لهم ضلال ما كانوا عليه في الدنيا من افتراء الأنداد، فبَدَتْ لهم وَهْماً وسَراباً، وفَقَدُوا الوليَّ والنصير.

٢٢- حقاً إنَّهم لا محالة في هذا اليوم العظيم من الخاسرين أعظمَ خسران، المغبونين أشدَّ الغبن؛ لأنَّهم باعوا بالباقي النفيس الفانيَ الخسيسَ، وخسروا النعيم المقيم.

٢٣- إنَّ الذين صدَّقوا بالله ورسله وكلماته، وعملوا الأعمال الصالحة النافعة، وأنابوا لربهم واطمأنوا إليه، وأخلصوا له. أولئك الذين تسامَتْ منازلهم هم أصحاب الجنات، لا يَتَحَوَّلون عنها ولا يَرْحَلُون، ولا يموتون ولا يهرمون.

٢٤- ضَرَبَ الله تعالى المثل في هذه الآية الكريمة للكافر بالأعمى والأصَمِّ، فلا يبصر الآيات، ولا يُصْغِي لسماعها، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، يستمع لآيات الله بآذان صاغية، ويبصر آياته بعيون متفتِّحة، وبَيَّن أنَّهما لا يستويان، فهل من مُتَّعِظٍ يَعتبر بهذا المثل، ويستحضره؟

الفوائد والاستنباطات:

١- الآيات الجليَّةُ والحجج الساطعة تمحو ظلام الشكِّ والباطل.

٢- أشدُّ الظُّلم وأقبحه الافتراء على الله تعالى، ومصير الكاذبين الافتضاح على رؤوس الخلائق، واللعنات تُحاصِرُهم في موقف العَرْضِ.

٣- تأكيد خُسران الكفار لأنفسهم ولآخرتهم تحذيراً لهم، وتنفيراً من طريقهم.

٤- الإيمان والعمل الصالح مع الإخبات طريقُ الفوز بالجنات.

٥- من أساليب القرآن ضرب الأمثال لإقامة الحجة ، وتقرير المعاني، وتقريبها للأذهان.

٦- التعبير بالفعل المضارع ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾؛ لاستحضار تلك الصورة ماثلةً كالعِيان، واستهجانها، بينما عبَّر بالاسمية في ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾؛ لبيان ثباتهم على الكفر، فلا يحيدون عنه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٥ - حقّاً لقد أرسلنا نبينا نوحاً إلى قومه، فعرَّفهم بالرسالة التي شرَّفه الله بها، وكلَّفه بتبليغها. إنِّي لكم نذيرٌ ببلاغٍ واضحٍ بَيِّنٍ، أبيِّنُ لكم طريق النجاة، وسبيل الخلاص.

٢٦ - ألَّا تعبدوا إلا الله وحده، إني أُشْفِقُ عليكم، وأُحَذِّركم من عذاب يوم موجع، وهو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة الذي يحيق بالمكذبين.

٢٧ - فكان جواب أعيان الكفار من قومه: ما نراك إلا بشراً مثلنا لا مزية لك ولا خصوصية، فاعترضوا على بشريته، ووهموا أنَّ مقام الرسالة لا يبلغه إنسيٌّ، كما اعترضوا على حال مَنْ آمن به، فنظروا إليهم بعين الازدراء والتحقير، استهانةً بهم، وتعالياً عليه وعلى أتباعه، واستخفافاً بدعوته، فقالوا: وما نراك انقاد لك إلا الضعفاء والفقراء ومَنْ لا يُؤْبَهُ به من السَّفَلَةِ - في نظرهم - اتَّبعوك بسذاجة منهم، ودون تفكيرٍ وتَعَقُّلٍ، فيما يظهر لنا! وما نرى عليكم من فضلٍ في رزقٍ ولا جاه حتى تنالوا الهُدى دوننا، بل نراكم كاذبين فيما تَدَّعُونه.

٢٨ - فناداهم نوحٌ مُتَرَفِّقاً: يا قومِ! هَلَّا نَظَرْتُم إن كنتُ على نور وبصيرة وهدى من ربي، وخَصَّني برحمة من عنده، فاصطفاني وأعطاني، فخَفِيتْ عليكم تلك البيِّنة، أو التبسَتْ عليكم، فلم تُبْصِروها، ولم تعرفوها أو تُمَيِّزوها. أنُلْزِمُكم ونُجْبِرُكم على هذه الطريق، وأنتم كارهون لها، ناكبون عنها، ونافرون منها!

٢٩- ويا قوم لا أسألكم بهذه الدعوة مالاً، فما أجري إلا على الله الذي أرسلني، وما أنا بطارد المؤمنين، بل أحتفي بهم وأُدنيهم، فإنَّهم مُلاقُو ربهم؛ ليجازيَهم بأعمالهم، لا بحَسَبهم ونَسَبهم، وليثيبَهم على إيمانهم ويرفع درجاتهم، ولكني أراكم قوماً تُصِرُّون على جهلكم.

٣٠- ويا قوم مَنْ يجيرني من الله، ويدفع عني سخطه، إن طردت أولياءه وأقْصَيْتُهم. أفلا تتبصَّرون بحالكم ومآلكم وتتعظون؟ وفي هذا تلميحٌ بمكانة مَنْ آمن به عند ربهم، وتعريضٌ بازدراء الكفار لهم.

٣١- ولا أقول لكم: عندي خزائن الله، فخزائنه تعالى لا سلطان لأحد عليها، ولا تُفتح إلا لِـمَنْ أراد جلَّ وعلا، ولا أدَّعي الكِهانة والتَّنْجيم، ولا أقول: إني مَلَك، ولا أقول للذين تنظرون لهم بعين الاحتقار: لن يمنحهم الله خيراً، وهو تعالى أعلم بما يَسْتَكِنُّ في نفوسهم من إيمان. فإن فعلتُ شيئاً من ذلك تجاوَزْتُ أمر ربي.

الفوائد والاستنباطات:

١- إيراد القصة بعد ضرب المثل، وبعد أن سيقت الأدلة والحجج، وتَقَدُّم الوعد والوعيد، من كمال المَحَجَّة وتمامها.

٢- حكمة نوح ﷺ في دعوة قومه، وصبره عليهم، وتَدَرُّجه معهم في مقابل سوء أدبهم وافترائهم وتَعَنُّتهم، وردِّ عليهم رَدّاً بليغاً، مُعَرِّضاً تارة، ومُصَرِّحاً أخرى.

٣- حرص الأنبياء على نجاة أقوامهم، وإشفاقهم عليهم، وتَرَفُّقهم في دعوتهم.

٤- وفي هذا دلالة على «الخط الفاصل بين الأنبياء وبين الزعماء: الأولون يهتمون بإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، دون إغراء بمال أو عطاء نفعي، والآخرون يعتمدون في كسب الأتباع على الوعود بالمنافع المادية، وبَذْل الأموال رخيصةً من أجل كسب تأييدهم». (التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٢/ ٥٨).

٥- النظرة المادية القاصرة من قبل أهل الكفر، وتَعَصُّبهم لباطلهم، وتشبُّثهم برؤيتهم للأمور، دون اعتدادٍ بآراء غيرهم، واتهامهم لأهل الحق بالسذاجة، كما اتهم قوم نوح مَنْ آمن به بقولهم ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾.

٦- دعوة الرسل عليهم السلام واضحة جلية، تُسَلِّم لها العقول السليمة، وتقبلها الفطرة.

٧- القَدْحُ في بشرية الرسل قَدْحٌ في جميع البشر، وفي جميع العلوم المستفادة منهم.

٨- رسالة الأنبياء ودعوتهم لقومهم تجمع بين الوضوح والصِّدق مع الإيجاز واليسر، والثبات على المبادئ.

﴿ قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٢- ردَّ المشركون بمكابرة وعِناد على نوح عليه السلام قائلين: يا نوحُ قد خاصَمْتَنا، وأطَلْتَ في مُماراتنا، وسَئِمْنا من ذلك، فعَجِّلْ لنا ما تَوَعَّدْتَنا به، إن كنت صادقاً في ذلك.

٣٣- ٣٤- فأجابهم بثقة وثبات: إنَّ الذي يأتي بهذا الوعيد ويسوق العذاب هو الله تعالى، إن شاء عجَّله، وإن شاء أخَّره، فلا مهربَ لكم ولا حيلةَ إن وقع بكم العذابُ، ولا سبيلَ لمدافعته، ولا تُجدي نصيحتي فيكم مع حِرْصي وإشفاقي عليكم، إن كان الله تعالى لا يريد لكم الرشدَ، فهو خالقُكم ومُدَبِّرُ أموركم، وإرادته تعالى وحده هي النافذة، وإليه مرجعُكم ومآبُكم، فيحاسبُكم على أقوالكم وأفعالكم.

٣٥- أيَدَّعون أنَّ نوحاً افترى هذا القول، واختلق هذا الوعيد. قل: إن اختلقتُه من تلقاء نفسي، فحسابي على الله تعالى يعاقبني بجُرْمي، وأنا بريء من جُرْمكم وافتراءاتكم، فلا يتحمَّلُ أحدٌ وِزْرَ غيره.

٣٦- وبُلِّغَ نوح عليه السلام أنه لن يُصَدِّق أحد من قومك غير مَنْ سبق له الإيمان، فلا تحزن، ولا تبتئس بما كانوا دائبين عليه من سخرية وتكذيب وتضييق وإيذاء، فقد حان وقت الانتقام منهم، وهذه بداية نهايتهم.

٣٧- واصنع السفينة برعايتنا وإحاطتنا وحِفْظنا، وتوجيهنا وأَمْرنا لك أن تصنعها، وتعليمنا إياك كيف تصنعها، ولا تلتمس مني إمهال أولئك الظلمة؛ فإنَّهم مُغْرَقون لا محالة.

٣٨- وشرع عليه السلام في صناعة السفينة بجِدٍّ وهِمَّةٍ، والناس في دهشة واستغراب، يمرون عليه ويسخرون منه، ويُثَبِّطون همَّته ويهزؤون بمهمته، فيتطاولون عليه في غُدُوِّهم ورَواحهم، ويَتَنَدَّرون بصَنْعَتِه، فكان يَرُدُّ عليهم محذِّراً ومُنْذِراً، بأن الأحرى بكم أن تُراجِعُوا أنفسكم قبل أن يَقع ويُحْكَم القضاء، ويحلَّ العذاب.

وإن كانت صناعة سفينة النجاة عجيبة، فإنَّ غفلتكم مع دنوِّ أجلكم أولى بالعجب! فإن كنتم تهزؤون بنا، وتسخرون من فِعْلِنا، فإننا نَسْخَرُ من غفلتكم عن العذاب.

٣٩- فسوف تعلمون عياناً مَنْ يأتيه عذاب يُذِلُّه ويُهينُه ويَفْضَحُه، ويُسْلِمُه لعذاب دائم لا ينقطع، فهدَّدهم بعذاب الدنيا الذي هو مُقَدِّمَةٌ لعذاب الآخرة.

٤٠ - حتى إذا حَلَّ القضاء وفار التنُّور - الذي يُخبز فيه - بالماء، علامةً وميقاتاً على ارتفاع الماء لركوب السفينة، وإيذاناً بهلاك قومه في الطوفان، فاحمِلْ فيها من المخلوقات من كل صنفٍ زوجين، وأهلك إلا مَنْ سبق عليه القول منهم فلم يؤمن. وما آمن معه إلا نفرٌ من أهل بيته، وقليلٌ من المؤمنين مع طول إقامته بينهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- رعاية الله لأنبيائه ولُطْفه بهم، وتثبيتهم، وتَسْرِيَته لقلوبهم.

٢- حماية التوازن والتنوع البيئي من واجبات الإنسان.

٣- الأنبياء عليهم السلام هم رُوَّاد الإصلاح، والتحضُّر والرقي.

٤- أول سفينة بحرية كانت بوحي من الله تعالى، صنعها نوح عليه السلام.

٥- الداعية لا يأبه بسخرية المكذبين وتهكمهم؛ لأنَّه على ثقة بوعد الله تعالى.

٦- إثارة الكفار غبار الشهوات حول الأنبياء دليل عجزهم عن مقارعة الحجج، ونُكولهم عن التسليم بها.

٧- منطق أهل الكفر: المماراة والتشكيك، والاستخفاف بالوعيد، وسوء الأدب مع الأنبياء.

٨- قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ وإن كانت في سياق قصة نوح عليه السلام إلا أنَّها تتضمَّن رَدّاً على دعاوى الكفار أنَّ القرآن من عند نبينا محمدٍ ﷺ، فإن كان مفترى كما يزعمون فالله يُنكِّل بالمفتري، ويعاقبُه بجُرْم افترائه، والرسول بريء من إجرام الكفار، ولا يؤاخذ به.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤١- وقال نوح لِـمَنْ آمن به بعد وقوع الأمر وحلول الموعد: اركبوا متن السفينة، ركوبَ المتمكِّن، بسم الله تعالى في انطلاقها وسيرها، وفي رُسُوِّها وقرارها. إن ربي لَغفور لِـمَنْ آمن به واتبعه، رحيم بأنبيائه وأوليائه.

٤٢- تَفَجَّرَتْ عيونُ الأرض وينابيعُها، وانهمرَتْ السماءُ، وفُتِّحَتْ أبوابُها بالمطر الغزير، والسفينة يحملها الماء، فتجري بهم وهي تمخر عباب الأمواج المرتفعة المتلاطمة، ونادى نوحٌ ابناً له بقي على كفره نداءَ الأب الشفيق؛ رجاء أن يكون لهذه الأهوال أثرٌ في نفسه؛ فيسعى للنجاة، ويَتَّبع أباه، وكان في مَعْزِلٍ عن الماء الذي انهمر من السماء، وتَفَجَّر من الأرض، فالتقى من كلِّ صوبٍ: يا بُني هَلُمَّ إلينا، واركب معنا؛ لتنجو من الغرق والهلاك، ولاتكن مع الكافرين، فتنال عقابهم، وتخسر آخرتك.

٤٣- فأجاب معانداً غير مكترثٍ: سآوي إلى جبل شاهق لا يصل الماء إليه، حتى لا يصلني الطوفان. قال أبوه مشفقاً عليه: لا منجى اليوم من قضاء الله تعالى وعقوبته، إلا مَنْ رحمه الله تعالى من المؤمنين، وكان هذا هو النداء الأخير، إذ حالت الأمواج بين نوح وولده، فتعذَّر خَلاصُه وانقطع صوتُه، وأُغرق مع المُغرقين من الكفار، ولم تشفع له قرابته من نبيِّ الله.

٤٤- وأمر الله تعالى الأرض أن تبتلع ماءها فيرتدَّ إلى جوفها وأخاديدها، وبحارها وأنهارها، وأمر السماء بأن تكفكف أمطارها، فانخفض الماء، ورَسَتِ السفينة على جبل الجُودي، وقيل: بُعْداً وهلاكاً للقوم الظالمين، فقد أهلكهم الله تعالى، ونَجَّى عباده المؤمنين.

٤٥- ودعا نوح ربَّه متضرِّعاً، فقال: ربِّ إن ابني من أهلي، وأنا مؤمنٌ بوَعْدِك، ومُسَلِّمٌ لك، وأنت أحكم الحاكمين في أقدارك وتدبيرك.

٤٦- يا نوح إنَّه ليس من أهلك المؤمنين الذين وَعَدْتُ بنجاتهم، إنَّه عَمِلَ عملاً غيرَ صالح، فاستحقَّ الغرق، فلا ينبغي لك أن تسأل هذا السؤال، إني أتعهَّدك بالوعظ والتذكير؛ لئلَّا تكون من الجاهلين بقضائي وعدلي في خلقي. «وهذا عتابٌ منه لنوح، وتعليمٌ له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي حمله عليه الشفقةُ الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحاملُ له العلمَ والإخلاصَ في طلب رضا الله تعالى». (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ١/ ٣٣٢).

٤٧- قال نوح ﷺ: ربِّ إني أبرأ إليك، وأستجير بك من أن أسألك ما لا علم لي به، وإن لم تغفر لي ما بدر مني بفضلك وترحمني برحمتك الواسعة، أكن من الخاسرين.

٤٨- فنُودي نوح: اهبط من السفينة بسلامٍ منا، وبركاتٍ منا تصاحبك، فقد انتهى الطوفان، وخَلَت الأرض من الفُجَّار، وتفيض عليك هذه البركات، وتظل في المؤمنين من ذريتك، إذ تتكاثر الذرية، فتصير أُمماً، أمَّا مَنِ اختار الكفر فإنَّه يُمَتَّع في الدنيا إلى انتهاء الآجال، ثم ينال عذابه الموجع.

٤٩- تلك القصص التي نَقُصُّها عليك - أيُّها الرسول - من الأخبار التي لا سبيل لمعرفتها على هذا التفصيل والبيان إلا عن طريق وَحْينا، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل أن نُعْلِمَك بها، فاصبر على المكاره والشدائد، فإنَّ سُنَّةَ الله تعالى ماضية بأنَّ العاقبة لِـمَنْ تَحَلَّى بالتقوى، ولازَمَها.

الفوائد والاستنباطات:

١- هذا القرآن حُجَّةٌ وبرهانٌ على صدق النبي ﷺ في دعوته.

٢- عدل الله تعالى في قضائه وفَصْلِه بين خَلْقِه، فلا محاباة ولا مجاملة ولا استثناء؛ فالكافر لا تنفعه قرابتُه من أهل الإيمان، والمؤمنُ لا تَضُرُّه قَرابتُه من أهل الكفر.

٣- قدرة الله تعالى وتصريفُه لهذا الكون وإرادته النافذة، وعظمة سلطانه، وهيمنته على مخلوقاته.

٤- لطف الله بعباده المؤمنين، وشدة بأسه، وتنكيله بالكافرين.

٥- عُدِّيَ اركبوا بـ(في): لتضمينه معنى صِيروا فيها، أو معنى: ادخُلوا فيها، أو للتمكُّن منها، وللإشارة إلى كِبَرِ حجمها.

٦- أدب الأنبياء مع ربهم، ومعرفتهم بمقامه جلَّ وعلا.

٧- دعوة الأبناء إلى الاستجابة لوصايا الآباء الصالحين ونصائحهم.

٨- في القصة تسلية للآباء الذين ابتلاهم الله بأولادٍ غيرِ صالحين، فقد يُبتلى الصالح بالطالح.

٩- من أدب الدعاء أن يكون بما يوافق الشرع، وتجري به السنن.

١٠-في الآية (٤٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ هناك أُمماً وجماعات من أهل الشقاء، سيُمَتِّعهم الله في الحياة الدنيا إلى أن يبلغوا آجالهم.

١١-النظر في قصص الأنبياء، وفي سنن الله الماضية، يزيد المؤمن صبراً وثباتاً.

١٢-ينظر: صورة جبل الجُودي، كما في الملحق.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٥٠- وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأنكر عليهم افتراءهم الذي صار عادة لهم، وصارحهم بأصل العلة التي أصابتهم، وهي نَسْجُ الافتراءات، والاستسلام للأباطيل والأوهام.

٥١- يا قومِ لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً، فتُسِيئون الظنَّ بي، ما أَجْري إلا على الذي خلقني، وفطرني على هذه الفطرة السوية، أفلا تُعْمِلون عقولكم؟

٥٢- ويا قوم استغفروا ربكم من الذنوب والخطايا، ثم تُوبوا إليه توبة خالصة، وفق منهجه تعالى الذي شرعه، يرسلِ السماء عليكم بالمطر الغزير المتتابع، ويَزِدْكم عزةً ومَنَعَةً إلى عِزَّتكم ومَنَعَتِكم، وقوة إيمانية وقوة ماديةً إلى جانب قوتكم المادية، ولا تُعْرِضوا عن دعوة الله، وعمَّا أُرَغِّبُكم فيه، وتنصرفوا، مُصِرِّين على الإجرام في حَقِّ أنفسكم وحَقِّ الآخرين.

٥٣- فرَدُّوا عليه: يا هودُ ما جئتنا بآية تدل على صدق رسالتك وصحة دعوتك، حتى نُسَلِّم لها ونُذْعِنَ بقَبولها، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا عن قولك، بل نتركُه ولا نُلْقي له بالاً، ولَسْنا بمُصَدِّقين لك، مُسَلِّمين لدعوتك، بأي حال.

٥٤- ما نقول: إلا أنه قد أصابك، وحاق بك غضبُ آلهتنا بقَدْحِك فيهم، فاتهموه بالجنون والوهم، وهي تهمةٌ تَواطَأ عليها الكفار، ورَشَقُوا بها الأنبياء. فرَدَّ عليهم هودٌ ﷺ بما يَنِمُّ عن حِلْمِه وصبره وثقته بمنهجه: إني أُشهد الله، واشهدوا جميعاً، أني بريء من شرككم، مُنْكِرٌ لآلهتكم التي تزعمون. أجابهم بما يدلُّ على يقينه فيما هو عليه، ومُضِيِّه وعَزْمِه على دعوته.

٥٥- استعينوا بمَنْ شِئْتُم من دون الله من آلهتكم المزعومة، وأَجْمِعُوا أمركم على الكيد بي، ولا تتمهَّلوا في ذلك، فتَحَدَّاهم ﷺ هذا التحدِّي العجيب؛ ليكشِفَ عن زيف آلهتهم، وانقطاع رجائهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الأنبياء جميعاً إلى إخلاص العبادة لله تعالى، فلا رَبَّ غيرُه.

٢- تَجَرُّد الأنبياء وإخلاصهم، إذ ينتظرون أجْرَهم مِنْ خالقهم.

٣- من ثمرات الاستغفار والتوبة: الزيادة من الخيرات، والبركة في الأقوات، والقوة في الأبدان والأرواح.

٤- في الآية (٥٢) إخبار مستقبليٌّ عن فضل الاستغفار في جَلْب الرِّزق، وزيادة القوة.

٥- وضوح دعوة الأنبياء وبساطتها، فلا تعقيدَ فيها، ولا غموض، ولا خفاء.

٦- لجوء الكفار إلى الافتراءات والأكاذيب والأوهام، دليلٌ على عجزهم.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- حقاً توكَّلْتُ على الله تعالى ربي وربكم، فما من شيء يَدِبُّ على وجه الأرضِ، أو في بواطنها، إلا رَهْنَ تدبير الله تعالى وتسييره. إنَّ ربي على الحق، والعدل ملكه، يحكم بين عباده بالحقِّ، ويهديهم إلى الهدى، ويحفظ مَنْ سلك طريقه المستقيم. موازينُ حُكْمِه عادلة، وهدايته لخلقه بيِّنة، وسننه فيهم جارية، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال الألوسي: «مُطَّلِعٌ على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لِـمَنْ اعتصم به، كمَنْ وقف على الجادَّة فحفظها، ودَفَعَ ضرر السابلة بها». (روح المعاني للألوسي ١٢/ ٨٣).

فكيف يأمن مَنْ نكب عن صراط الله المستقيم، وعَلَّق الآمال على أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع؟

٥٧- فإن تُعْرِضُوا فقد أدَّيْتُ واجبي في إبلاغكم دعوةَ ربي الذي أحسن بي، ودَبَّر مصالحي، ويستبدلُ بكم قوماً آخرين، ولا تَضُرُّونه شيئاً بكفركم. إنَّ ربي رقيبٌ مهيمنٌ حافظٌ.

٥٨- ولما حَلَّ قضاؤنا نَجَّينا هوداً ومَنْ صدَّق به واتَّبعه، برحمةٍ منا، ونَجَّيناهم من الريح العاتية التي عصفت بالكافرين، فدمَّرتهم.

٥٩- وتلك قبيلة عاد أبعدها الله وأخزاها، عاندوا وكابروا، وجحدوا نِعَمَه، وأنكروا آياته الظاهرة في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته، وكَذَّبوا بهود ﷺ، وقد جاءهم بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، وعَصَوا رُسُلَه بتمرُّدهم وإعراضهم عن نبي الله هود ﷺ، وانقادوا وخضعوا لأمر الجبَّارين الذين جبروهم على الكفر والعناد.

٦٠- ومَضَوا تَتْبَعُهم اللعنات، وتُلاحقهم الويلات، وقَضوا وهم مُبْعَدُون محرومون من رحمة ربهم، مطرودون من جَنابه، وصاروا عبرةً لكل معتبرٍ ومثلاً لكل ظالمٍ، ألا فلينتبه كلُّ لبيب، وليحذَرْ كلُّ حصيف من حال قوم عاد ومآلهم، فقد كفروا ربهم، وجحدوا بربوبيته، ألا سحقاً لهم، كيف رفضوا دعوة نبيهم هود؟

الفوائد والاستنباطات:

١- مواجهة هودٍ لقومه، وتحدِّيه لهم مع عَجْزِهم عن إيقاع الأذى به، من أعظم الآيات على صدقه وثقته بربه واطمئنانه لصحة منهجه. قال الزمخشري: «من أعظم الآيات أن يُواجَه بهذا الكلام رجلٌ واحدٌ، أُمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقته بربه، وأنَّه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم». (الكشاف ٢/ ٣٨٢).

٢- في قول هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تعريضٌ بهم أنَّهم تحت قهر الله تعالى وقبضته وتصريفه، وأنَّ الآلهة المزعومة لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، وأنَّ الذي حفظه هو الله تعالى. فالله تعالى على الحقِّ والعدلِ ملكُه، موازين حكمِه ثابتة، وسننه تعالى جارية لا تَتَخَلَّفُ ولا تتبدَّل، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

٣- التوكُّل على الله تعالى سِرُّ القوة، وباعث الثبات.

٤- قوله: ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ جاء الفعل بواو الجماعة؛ لأنَّ مَنْ عصى واحداً منهم فقد عصى الكل؛ إذ رسالتهم واحدة، وآياتهم يُصَدِّق بعضها بعضاً.

٥- قوة الداعية والمصلح في دعوته ورسالته، في مواجهة قوى أهل الكفر والفساد والبدع والأهواء.

٦- في التعبير بالأمر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مضافاً إلى ضميره جل جلاله، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

٧- لما صاروا أثراً بعد عين، وخبراً بعد أن كانوا ملء البقاع والأسماع، وأمسَوا مجندلين مطمورين تحت التراب، ناسب الإشارة إليهم بـ «تلك» ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾.

٨- ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ تعريض بأنَّ الكافر ليس أهلاً للتمكين في الأرض.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

التفسير:

٦١- وأرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم نبي الله صالحاً عليه السلام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فهو المستحقُّ للعبادة؛ لتفرده بالربوبية. ومن كمال ربوبيته وشواهد وحدانيته أنّه خَلَقَكم من أديم الأرض، وألهمكم عمارة الأرض من الحرث والغرس، وهَيَّأ لكم سُبُلَ العيش عليها، تنحتون جبالها، وتستغِلُّون سهولها، وتنعمون بخيراتها، وتستخرجون كنوزها، فاستغفروه على ما بدر منكم، فإنه أمر بالاستغفار، ووعد بقبوله، ثم امضوا على طريق التوبة والاستقامة الذي أرشدكم إليه. إنَّ ربي قريب من عباده المؤمنين، مجيب لِـمَنْ سأله ودعاه ورغب إليه.

٦٢- فردُّوا عليه بسوء أدب، قالوا: يا صالح قد كنت فينا قبل أن تبدرَ منك هذه الدعوة مَرْجُوّاً للخير والفلاح، لِـمَا كُنَّا نراه فيك من مخايل النجابة، وكريمِ الشمائلِ، فما الذي حملك على أن تنهانا عن دين آبائنا وأسلافنا الذي أَلِفْناه وأُشْرِبْنا حُبَّه؟ وإننا لفي شك وريبة مما تدعوننا إليه.

٦٣-٦٤- فبَيَّنَ لهم قائلاً: يا قوم أعلمتم وأبصرتم إن كنت على نور وبصيرة نافذةٍ من أمر ربي، ويقينٍ أني على طريق واضح، أجني ثمراته، وأتذوقُ حلاوته، وأستنشقُ نسمات الرحمة الربانية، وأشعرُ بها تَغْمُرُني، فمَنْ يخلِّصني من ربِّي ويُجيرُني من عقابِه إن عصيتُه بعد أن تجلَّتْ لي الآيات، وغَشِيَتْني الرَّحمات، ولاحت لي البُشْرَيات، فما تزيدونني إن سِرْت طوعَ هواكم إلا خسارة تلو خسارة. ويا قوم هذه ناقة الله لكم دليلاً واضحاً على صدق نبوتي، وعظمة مَنْ أرسلني، وقدرته العجيبة، فاتركوها ترعى الكلأ في أرض الله الواسعة، ولا تتعرَّضوا لها بسوء؛ فيأخذكم عذاب قريب عاجل.

٦٥- ولكنهم كَذَّبوا نبيهم، فبادروا إلى عقر الناقة، ولم يَلْقَوا بالاً لتحذيره، ولم يتبصَّروا بها على صدق نبوَّته، بل ازدادوا كفراً وتمرُّداً، فنحروها عصياناً وتحدِّياً. فقال لهم صالحٌ: امكثوا في بيوتكم ثلاثة أيام هي آخر أيامكم في الدنيا، وآخر عهدكم بمتاعها الزائل. ذلك وعدٌ صادقٌ من الله، لا سبيل لكم إلى تكذيبه ولا مَنْعِه.

٦٦- فلما انقضت المهلة نَجَّى الله ﷻ بلُطفِه ورحمته نبيَّه صالحاً ومَنْ آمن به، من خزي هذا اليوم العصيب. إن ربَّك يا محمد هو القويُّ في أَخْذِه، تَخُورُ كلُّ القوى، وتتهاوى العروش أمام قوته، العزيز الذي لا يُغالَبُ، يُعِزُّ أولياءه ويَنْصُرُهم، ويُذِلُّ أعداءه، فلا يمتنع عليه شيء.

٦٧- وأخذت الصيحةُ المدوِّيةُ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرَهم بكفرهم وتمرُّدهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين على رُكَبهم، قد خارت قواهم وانهدَّ بنيانُهم، وخضعت رقابُهم.

٦٨- كأنهم لم يقيموا فيها بنعمة وعافية، بل صاروا أثراً بعد عين، وطمست معالم تلك المدائن التي كانت عامرة، فلم يبق منها إلا الأطلال الموحشة والديار المقفرة؛ لتكونَ عِبْرَةً ناطقة للبشرية، وتحذيراً من جحودهم نِعَمَ ربهم. ألا سحقاً لهم في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- اتفاق دعوة الأنبياء جميعاً في التوحيد.

٢- خلق الله تعالى الإنسان من عناصر الأرض، وجعله سيِّداً عليها.

٣- غَرْسُ الأنبياء بذور المحبة والرجاء في القلوب، وبث الأمل في النفوس.

٤- الاستغفار والتوبة غسيلٌ من الذنوب، ووسيلةٌ ودادٍ إلى ربِّنا الجليل. الاستغفار براءة من الذنوب واغتسال منها، والتوبة ندم ومُضِيٌّ على طريق الهدى والصلاح، لذا تعدَّت بـ (إلى)، أي: امضُوا إلى طريقه وسيروا إلى رضاه؛ فغاية التوبة وطريقها يفضي إلى الله، وموكب التائبين يمضي إلى الله، وطريق التوبة يحتاج إلى تَأَنٍّ وتمهُّلٍ، وتبصُّرٍ وإرشاد وهداية ربانية، ومن ثَمَّ جاء التعبير بـ (ثُمَّ)..

٥- كراهية أهل الباطل للحق، وإن جاء به الأبرارُ المخلصون المعروفون عندهم بالصدق والإحسان.

٦- عادةُ أهل الضلال في التشكيك، وإثارة غبار الشُّبَه حول الحقِّ؛ ليصرفوا الناسَ عن دُعاته.

٧- دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التبصُّر والنظر.

٨- بَيَّنَ صالحٌ ﷺ طريقَه، ورَغَّب فيه ببيان ثمرته العظيمة، وهي الرحمة الربانية التي غمرته.

٩- أضيفت الناقة إلى الله تعالى؛ لكونها آية عجيبة، جاءت على خلاف ما يعهدونه، ولبيان حرمة الاعتداء عليها.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير:

٦٩- قسماً لقد جاءت رُسُلُنا من الملائكة نبينا إبراهيم بالبشارة، فسَلَّموا عليه، فردَّ عليهم، وأكرمهم، فبادر بإعداد الطعام وتقديمه لهم بخفَّة وهمَّة، واستغرق ذلك وقت يسير، رغم أنَّ الطعام الذي أعدَّه وقدَّمه هو عِجْلٌ سمينٌ مشويٌّ.

٧٠- دعاهم عليه السلام إلى الطعام، فلم يَمُدُّوا له يداً، فأحَسَّ في نفسه خوفاً منهم؛ إذ الضيفُ لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيئ، ولم يكن يعلم أنَّهم ملائكة، فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه، فأظهروا حقيقتهم، وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاؤوا، وهي إهلاك قوم لوط، وقَطْعُ دابِرِهم بعد أن تمادَوا في الكفر والطغيان.

٧١- وكانت زوجته سارة قائمة على خدمتهم من وراء الستر، فضحكت فرحاً واستبشاراً، حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومَنْ آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته، وفي غمرةِ هذه المشاعرِ الإيمانيةِ بَشَّرَتْها الملائكة بالذرية الصالحة، إسحاق، ومِنْ صلبه يعقوب.

٧٢- لكنها تَعَجَّبَتْ، وأشفقت على نفسها: كيف تحمل وتَضَعُ وهي في هذه السن! فقالت: يا ويلتا - وهي كلمة تجري على ألسنة النساء إذا طرأ عليهن ما يَعْجَبْنَ منه، ويُشْفِقْنَ - أألد وأنا عجوز، وهذا زوجي شيخاً! إن هذا أمرٌ بالغ في العَجَب.

٧٣- فأجابت الملائكة سارة: أتعجبين من هذا الأمرِ الخارقِ وأنتِ في بيت النبوة، ومهبط الوحي، وموئل الرَّحَمات؟ فخوارق العادات لِـمَنْ أَلِفَها ودرج عليها ليست بمستغربة. فتلك البشارة منتظمة في سلك الرحمة الربانية لكم يا أهل البيت. وليس ذلك على الله تعالى ببعيد، فإنه صاحب المجد. ومن آثاره

رِفْعَتُه لأنبيائه وأوليائه، وإنعامه عليهم بما يرفع ذكرهم، وينشر مناقبهم، ويرفع مقاماتهم، ويحمَد لهم صبرهم، وحسن بلائهم، فيتبع ذلك بالمدح والثناء، ويجزل لهم المثوبة والعطاء، ويحقق لهم المجد والسناء.

٧٤- فلما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من خوف ومهابة ومفاجأة، واطمأن قلبه بهذه البشارة العظيمة التي انشرح لها صدرُه، وهَشَّ فؤادُه، طلب إمهالَ قوم لوط لعلهم يتوبون.

٧٥- يؤكد الله تعالى ما عليه نبيُّه إبراهيم من حِلْمٍ ورِقَّةٍ، وما اتَّسم به من تضرُّعٍ لله ﷻ وإنابةٍ إليه تعالى وشعور بالتقصير، فالله تعالى يعلم ما ينطوي عليه قلب إبراهيم عليه السلام من رأفة ورحمة.

٧٦- يا إبراهيم دَعْكَ من هذا، فإن أمر الله نافذٌ وعذابُه حالٌّ لا رجعة فيه، جزاء كفرهم وانحرافهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إكرام إبراهيم عليه السلام لضيفه، وحفاوته بهم، إذ حيَّاهم بأحسنَ من تحيتهم؛ لأنها جاءت بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، كما قَدَّم لهم أفضل ما عنده.

٢- دلَّ قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ على أنَّ زوجة النبي من أهل بيته. وفي هذا رَدٌّ على الرافضة الذين زعموا أنَّ أمهات المؤمنين لسن من أهل البيت.

٣- فرح سارة بأمر نجاة لوط عليه السلام ومَنْ آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته، يدلُّ على قوة إيمانها ومحبَّتها وولائها للإيمان وأهله، وبغضِها وبراءتها من الكفر وأهله.

٤- في قصة سارة درسٌ مُهِمٌّ للمرأة المسلمة، أن تكون وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله تعالى، وأن تهتمَّ بأمور المسلمين، وتستشعر أحوالهم، لا يشغلها بيتها عن متابعة أحوال المسلمين، ومعايشة همومهم.

٥- أدبُ الزوجة حين تتحدث عن زوجها، وتصفه أو تناديه، كما في قول سارة ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ ولم تقل: وهذا إبراهيمُ ضعيفاً أو هَرِماً، فكلمة الشيخ تحمل معنى الوقار والهيبة.

٦- التربية الإيمانية لا تُخرج المرأة عن طبيعتها وفطرتها، ولكنها تُهَذِّبها وتَرْقَى بمشاعرها، وتحفظ عليها أنوثتها، فهي تربية فطرية راقية وهادفة.

٧- أثر النساء في حياة الأنبياء. وهذه القصة صورة مشرقة للمرأة المؤمنة التي تفيض مشاعرها حُبَّاً يغمر أهل الإيمان، وكراهيةً لأهل الفسوق والعصيان.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٧- لما انصرفت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام وذهبوا إلى قرية سدوم في صورة بشرية، لَقِيَهم لوطٌ عليه السلام، واستضافهم مع خوفه عليهم من قومه أن يَتعَرَّضوا لهم بسوء، فكان في حرجٍ شديدٍ.

٧٨- لما سمع قوم لوط بوجود ضيف في بيته جاؤوا مسرعين، يَحُثُّ بعضهم بعضاً، ويتدافعون صوب بيته، فكان هجومهم على بيته مع رصيدهم السابق في الذنوب والعصيان بمنزلة القاصمة لهم، وأدرك عليه السلام الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم، ورأى أنَّهم عازمون على هذا الأمر، فعَرَضَ عليهم البنات الأبكار؛ ليوقِظَ فيهم داعي الفطرة، كي يتزوَّجوا بهنَّ حلالاً طيباً، ويهجروا عادتهم القبيحة المنكرة.

٧٩- ولكنهم أبَوا وآثَروا الفاحشة المنكَرة على الفطرة، وقالوا للوط: لقد عَلِمْتَ أننا لا نريدُ الزواج من البنات، وأنت تعلم بُغْيَتَنا.

٨٠- حار نبيُّ الله لوط عليه السلام في هذا الموقف، كيف يحمي ضيفه؟ فقال لهم مُبْدِياً أسفه واعتذاره: لو أنَّ لي بكم قوة فنتغلب عليهم، وأخلِّصكم من أذاهم، أو ألجأ إلى ركنٍ شديد فينتصر لنا! وفي هذه اللحظة العصيبة كشفت الملائكة مُهِمَّتها، فبشَّروه عليه السلام وطمأنوه، وأمروه أن يغادر آخرَ الليل، ومعه زوجه وبناته، على ألا يلتفت أحدٌ منهم صوب القرية، فيصاب بشيء من العذاب، وخرج لوط عليه السلام في جُنْحِ الظلام مع أهل بيته، وسار الجميع في الطريق الذي أمروا بالسير فيه، ولم يَتَلَفَّتْ منهم أحد إلا امرأة لوط التي التفتت نحو القرية، فأصابها ما أصاب قومها من العذاب الذي صبَّحهم.

٨١- ٨٣- فلمَّا حلَّ بهم قَدَرُنا، وفاجَأَتْهم نِقْمَتُنا، قَلَبْنا قريتهم رأساً على عقب فكان أعلاها أسفلها، ورجمناهم بحجارة متتابعة، أُعِدَّت لعذابهم من نار، فهي مصَوَّبةٌ ومُعَلَّمةٌ. وما تلك العقوبة من كل مَنْ تجاوز الحدَّ، وانتهك الحقوق ببعيدٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الجزاء من جنس العمل: لما وقعوا في معاصٍ شتى عوقبوا بعقوبات شتى: عاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمت عن نور الحق، وتلذذت بالحرام، وأخذتهم الصيحة تُدَوِّي في آذانهم التي صُمَّتْ عن الحق، وقُلِبَت قراهم، فصَيَّر عاليها سافلها؛ إذ انقلبت موازينهم، واختلطت مفاهيمهم، فاقترفوا تلك الفاحشة، وهي إتيانهم الرجال من دون النساء، وعَدُّوها حقًّا لهم، وحَرَّموا الحلال الطيب على أنفسهم. وفي هذا انقلاب في ميزان الفطرة، وعَدُّوا الطهر والعفاف إثماً وجرماً، يستحق صاحبه الرجم والطرد، فجمع الله لهم بين ألوانٍ شتَّى من العذاب، لم تجتمع لغيرهم.

٢ - إكرام الضيف ورعاية حقوقهم، والترحيب بهم وحمايتهم، من شمائل الأنبياء.

٣ - في قول لوط ﷺ لضيفه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى أهمية القوة في نصرة الحق ونشر الدعوة ومواجهة أهل الباطل؛ ولذا شرع الإسلام الجهاد، وأمر بإعداد القوة.

٤ - الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قَرابَتُه من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة.

٥ - اللِّواط من أكبر الفواحش، وهو طريق لأخطر الأمراض الفتاكة، كالزهري والسيلان والهربس، ومرض الإيدز الذي لم يُعرف له علاج.

(يراجع: كتاب داء الإيدز والأمراض التناسلية، تأليف: الفاضل العبيد عمر، ط دار النفائس سنة ١٩٩٣م).

٦ - في جَعْل عاليها سافلها عقوبةٌ؛ ليُطْمَروا في التراب. وقد ربط العلماء بين هذه الآية وضرورة دفن المصابين بالإيدز بعد موتهم، ويُوصى بحرق الجثة ودَفْنِها في التراب على أعماق بعيدة؛ لأنَّ مرض الإيدز ينتقل عن طريق دم المريض ولُعابه ومَنِيِّه.

٧ - الحلال هو الطَّيِّب الذي يتلاءم مع الفطرة، وأبوابه كثيرة وواسعة وميسورة، بينما الحرام خُبْثٌ يجافي الفطرة، وينافي الذَّوق، وتعافُه النفوسُ السويَّةُ.

٨ - الزواجُ حصنٌ للشباب، وعصمة وعلاج من الانحراف.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾

التفسير:

٨٤- وكما أرسلنا نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً عليهم السلام، أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً، فقال لهم مُتَرَفِّقاً: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تُنقصوا في الكيل أو الوزن؛ فتَسْتَحِلُّوا ما ليس لكم، إني أراكم في عافيةٍ ورغد من العيش يُغنيكم عن هذا، وإني أخاف عليكم عذاباً يَعُمُّكم، ويستأصلكم.

٨٥- ويا قوم أوفوا المكيل والموزون بالعدل الذي شرعه ربُّكم، بتحرِّي الطيِّب الجيِّد، وتجنُّب الرديء ونحو ذلك، ولا تبخسوا الناس أشياءهم؛ بأن تهضموا حقوقهم، أو تغبنوهم، أو تُخسِروهم، أو تعيبوا السلعة؛ لتتواطَؤُوا على كسادها، أو لتبتاعوها بأرخص الأثمان، أو بأن تعطوهم أنقص من حقِّهم، أو تأخذوا منهم أكثر من حقِّكم. ولا تَسْعَوا إلى نشر الفساد في الأرض بالكفر، وهضم الحقوق، وقطع الطريق.

٨٦- ما أبقاه الله لكم من الرزق الحلال الطيب خيرٌ لكم وأعظم بركة، وأرجى نفعاً من الحرام الذي تحتالون له، فاستعينوا به على طاعته واقنعوا به، وأدُّوا حَقَّ شكره، ولا تطمعوا فيما ليس لكم، إن كنتم مصدقين بالله، فالإيمان بالله تعالى يدعو إلى التعفف عن الحرام، وتَحَرِّي الحلال، وما أنا برقيب عليكم، ولا بمانع لكم عن تعاطي الحرام، بل كلُّ إنسانٍ رقيبٌ على نفسه، محاسِبٌ لها.

٨٧- فردُّوا عليه منكرين هازئين: يا شعيبُ أصَلاتك التي تقيمها، وتحافظ عليها، تأمرك أن نترك دين آبائنا، أو تَمْنَعُنا أن نتصرَّف في أموالنا كما نشاء؟ وما عَهِدْناك إلا عاقلاً حكيماً، فكيف تأتي بما يُسَفِّه آلهتنا، ويُقَيِّد تعاملاتنا! وهم بذلك يُشَكِّكون في دعوته، ويَتَهَكَّمون به، وينفون عنه ما اتصف به من الحلم والرشاد. وهكذا العاقل في نظرهم: هو الذي يُجاري الجهلاء، وينافس طلاب الدنيا، ويَتَصَرَّف في أمواله كما يروقه دون ضابطٍ.

٨٨- فأجابهم برفق: يا قوم هَلَّا أمعنتم النظر، إن كنت على نور وبصيرة، ويقين وهدى من خالقي ورازقي، الذي تَعَهَّدني باللطف والإحسان، ورزقني منه رزقاً حسناً حلالاً طيباً مباركاً، وما أريد أن أمنعكم من شيء، وآتيه فتَشُكُّوا في قصدي، وتُسِيئوا الظنَّ بي. ما أريد من دعوتي لكم إلا الإصلاح الذي يعود بالخير على الجميع، ويُقيمُ الموازين العادلة، ويحفظُ للناس حقوقهم، وما توفيقي في حاضري ومستقبل أمري إلا بالله تعالى وحده، عليه توكلتُ، وإليه المرجعُ في المعاش والمعاد.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الأنبياء عليهم السلام دعوة هداية وإصلاح، وارتقاء بالقيم وتهذيب للأخلاق، وتقويم للسلوك، ومعالجة للانحراف.

٢- إرادة الإصلاح وحدَها لا تكفي، فالتوفيق من الله تعالى وحده، لِـمَنْ توكَّل عليه، ورجع إليه في جميع أموره.

٣- الترفُّق واللطف، والصبر والأناة، وإظهار الشفقة والحرص على الخير، قاسمٌ مشتركٌ في دعوة نوح وسائر الأنبياء عليهم السلام.

٤- نَقْصُ المكاييل والموازين وبَخْسُ الناسِ أشياءَهم، من المفاسد الموبقة للمجتمعات.

٥- المعصية الواقعة لِـمَنْ عُدِمَ منه الداعي والحاجة إليها أعظم، فالسرقة ممَّنْ ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦- الحثُّ على الرضا والقناعة بما أعطى الله، والاستغناء بحلاله عن حرامه.

٧- الرجل الرشيد هو المسدَّد في أقواله وأفعاله وأحكامه، الذي يقف مع أهل الحقِّ وينتصر لهم، ولا يبالي بأهل الباطل مهما بَلَغَتْ قوتهم.

٨- استنهاض الهِمَمِ، ومخاطبة الشهامة والرجولة والرشاد في قلوب الرجال عند الشدائد والأهوال.

٩- الصلاة سببٌ لفِعْلِ الخيرات، وتَرْكِ المنكرات، وزادٌ للدعاة، وشَحْذٌ لهِمَّتهم في الدعوة؛ لذا شرعها الله في اليوم والليلة، وجَعَلَها زاد المؤمن، وحصنه الذي يلوذ به، وجَنَّته التي يفيء إليها، وشعاره الذي يتميَّزُ به.

١٠- الحرية لا تعني العبث والإباحية، ولا تعني انتهاك الحرمات، والتعدي على حقوق الآخرين، بل لابُدَّ من حرية منضبطة بشريعة الله التي تحفظ للناس حقوقهم.

١١- الناصح للناس لابُدَّ أن يكون قدوةً لهم، فالكلام وحده لا يكفي من دون أن يترجَم إلى أفعال، والصلاح أساس الإصلاح.

١٢ - النظرة المادية للكون والحياة والناس نظرة قاصرة، ومقياس مختلٌّ، ومعيارٌ مائلٌ لا يبصرُ حقائق الأشياء، ولا يقيمُ للأخلاق والقيم وزناً، ولا يعرف للفضائل والشمائل معنى.

١٣ - انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم لدى تلك الأُمم الكافرة، حتى صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

١٤ - القناعة والرضا بما رزق الله من أسباب البركة والسعادة.

١٥ - الجزاء من جنس العمل، فمَنْ بَخَسَ أموال الناس، يريد زيادة ماله، عُوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تَتَسَبَّبوا في زَوالِه بفعلكم.

١٦ - ينظر: صورة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

التفسير:

٨٩- لما لم تتفتح قلوبهم لدعوته وتَمْتَثِلْ لنصحه، ذَكَّرهم بمصير مَنْ مضى قبلهم على طريق الكفر والضلال، فناداهم نداء المشفق المنذر: ويا قومي احذروا جريمة مخالفتي، ومَغَبَّة معاداتي، أن تَؤُول بكم إلى مصير الأُمم الهالكة، فينزل بكم العذاب والنَّكال، كما حَدَثَ لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. وما قوم لوط عنكم ببعيد زماناً ولا مكاناً ولا حالاً.

٩٠ - وبادِرُوا باستغفار الله تعالى قبل فوات الأوان وانصرام الزمان، ثم استقيموا على طريق التوبة الذي دعوتكم إليه. إنَّ ربي الذي يَتَوَلَّاني ويتعهَّدني رحيم بمَنْ رجع وأناب، يَتَوَدَّدُ لعباده بما يُقَرِّبهم ويُرَغِّبهم، ويحبُّ المؤمنين ويحبُّونه.

٩١- فرَدُّوا عليه متضجِّرين نافرين: يا شعيبُ ما نفهم، ولا ندرك حقيقة ما تقوله. فجعلوا كلامه الواضح وحجَّته البيِّنة أمراً مُعْضِلاً غامضاً، تعجزُ عقولُهم عن فهمِه، وإنَّا لَنراك فينا ضعيفاً، فلا نبالي بمخالفتك، ولا نعبأُ بما دعوت إليه، ولولا وجودُ عشيرتِك لَرَجْمناك بالحجارةِ، ولا مكان لك في قلوبنا، ولا منعة تحول بيننا وبين الفتك بك.

٩٢- فأجابهم معاتباً ومُرَهِّباً: يا قوم أحُرْمَةُ عشيرتي ومودتهم أعزُّ وأكرمُ عليكم من رعاية حقِّ الله واجتناب محارمه وإكرام أنبيائه، وقد أعرضتم عن الله وأدبرتم عنه! ولم تُلْقُوا بالاً لأمره ونهيه. إنَّ ربي الذي تَعَهَّدني بكرمه، وأحاطني بإنعامه، محيط بكم وبكيدكم وبأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

٩٣- ويا قوم امضُوا على ما أنتم عليه من الأعمال التي تنسجم مع أهوائكم، مع تَمَكُّنِكم في الدنيا وتنعُّمكم بها، إني ماضٍ على ما أنا عليه من العمل. سوف تعلمون في نهاية الأمر مَنْ يأتيه عذابٌ يُذِلُّه ويُهِينُه في دنياه، ويُسَلِّمُه لعذابٍ دائمٍ في الآخرة، وانتظِرُوا وتأهَّبوا، إني معكم منتظرٌ، ومتأهِّبٌ لقضاء الله وحُكْمِهِ.

٩٤- ولما حَلَّ قضاؤنا، نجَّينا بقوتنا وبأسنا شعيباً والذين آمنوا به، واتبعوه برحمتنا ولطفنا، وأهلكنا الذين ظلموا أنفسهم، بالصيحة المدوية، فأصبحوا لم يبرحوا بيوتهم؛ إذ فاجأهم العذاب وهم في غفلة عنه، فهلكوا بالصيحة وهم جاثمون على رُكَبِهم، هامدون من هول ما أصابهم.

٩٥- كأن لم يكونوا بالأمس ملء الأسماع والبقاعِ. ألا بُعْداً لهم وسحقاً، كما بَعُدَتْ ثمود، فالموقفُ واحدٌ، والمصيرُ واحدٌ، موقفٌ على حافَّةِ الإثم، وشفيرِ الضلال، وسقوطٌ في هاوية الشقاء والعذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- «الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضدِّ ذلك، وألَّا يُحبطه أذى الخلق، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فانظر إلى شعيب عليه السلام، وحسن خلقه مع قومه، ودعوته لهم بكل طريق وهم يُسْمِعُونه الأقوال السيئة، ويُقابلونه المقابلة الفعلية، وهو يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم كلام مَنْ لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويهون هذا الأمر... أنه يعالج أُمماً قد طُبِعُوا على أخلاقٍ، إزالتُها وقلعُها أصعبُ من قلع الجبال الرواسي...». (انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ١/ ٣٩٢).

٢- لجوء الكفرة دائماً إلى التهديد والوعيد حين تُعْيِيهم الحُجَجُ، وتبهتهم الآيات، ويجدون في دعوة الأنبياء خطراً على مصالحهم وأهوائهم.

٣- حقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

٤- مَنْ قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن مَلُوماً، ولا مذموماً في عدم فِعْلِ ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

٥- لا ينبغي للعبد أن يَتَّكِلَ على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لِـمُسْديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

٦- حالُ أهل المكابرة واللَّجاج، حين تُعْييهم الحُجج، وتبهَتُهم الأجوبة يتوعَّدون، ويهددون.

٧- الترهيب بأخذات الأُمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

٨- استحباب ذِكْرِ ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب، والحث على التقوى.

٩- التماس أسباب النصرة، وجواز الاستعانة بغير المسلم؛ لنصرة الحق.

١٠- التعبير بالاسم الموصول ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لبيان سبب استحقاقهم للعذاب، وهو ظُلْمُهم لأنفسهم، وظُلْمُهم لشعيب ومَنْ آمن معه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

التفسير:

٩٦- حقاً لقد أرسَلْنا نبيَّنا موسى بآياتنا الدالَّةِ على صدق ما جاء به، ومعه معجزة ظاهرة بينة، وهيبة وجلال في النفوس، فلا يناله أحدٌ بأذى.

٩٧- أرسلناه إلى فرعون وحاشيته، فاتَّبعوا رأي فرعون، وأعرضوا عمَّا جاء به موسى عليه السلام. وما أَمْرُ فرعون بسديد، ولا مأمون العاقبة، بل هو ضالٌّ غاوٍ لا يأمر بخير، ولا يدعو لهدى.

٩٨- يَتَقَدَّم قومَه يوم القيامة، ويَقُودهم إلى النار، كما قادهم في الدنيا إلى الضلال، وينقادون له كما ينقاد القطيع إلى الراعي، فبِئْسَ المَوْرِدُ الذي وردوه.

٩٩- وأُتبعوا في الدنيا باللعنة تلاحقهم، فهم محرومون مُبْعَدُون، ويومَ القيامة هم ملعونون مطرودون مُبْعَدون، فبئس اللعنةُ بعد اللعنة.

١٠٠- ذلك الذي سبق من أخبار القرى وأحوالهم نَقُصُّها عليك - أيها النبيُّ - للعِظَةِ والاعتبار، فمنها الذي لا تَزالُ آثارُه باقيةً شاهدة على أهلها، كمدائن صالح وقرى عاد وآثار الفراعنة، ومنها الخراب الشامل الذي طُمِرَ تحت الثرى، أو دَرَسَ حتى عفا أثره، كقوم نوح وقوم شعيب.

١٠١- وما ظلمناهم إذ أهلكناهم، ولكن ظلموا أنفسهم بإيرادها مَوارِدَ التهلكة، فما أغنت عنهم معبوداتهم التي عبدوها من دون الله من شيء، وما زادوهم غير إهلاك وتدمير.

١٠٢ - وتلك أمثلة لعقاب الله للقرى الظالمة. إنَّ عقابه تعالى شديد موجع.

١٠٣ - إنَّ في ذلك العذاب لَعبرةً وعظةً لِـمَنْ خاف عذاب الآخرة، فهو الجدير بالاتعاظ والاعتبار، وإنَّ العقوبة الدنيوية التي لا تزال آثارها باقية لدليل وبرهان على عذاب الآخرة. ذلك اليوم العظيم يُجمع له الناس ويُحشرون، ويشهده الأولون والآخرون، وأهل السماء والأرض.

١٠٤ - وما نُؤَخِّرُ هذا اليوم العظيم، إلا لأنَّ له أجلاً ووقتاً محدَّداً لا يتقدَّم عنه ولا يتأخر، فما تأخيره لعَجْزٍ أو قُصور.

١٠٥ - إذا حَلَّ هذا اليوم، فلا تَكَلَّم نفسٌ إلا بإذن الله، ومواقف الناس يومئذ مختلفة، فمنهم مَنْ هو في عذاب وشدَّة، ومنهم مَنْ هو في رخاء ونعمة.

١٠٦-١٠٧- فأمَّا أهل الشقاء ففي النار، لهم فيها زفرات وصرخات صاخبة تَنِمُّ عن حالهم، لابثين فيها، مادامت السموات والأرض، إلا مَنْ شاء الله إخراجه من عصاة المؤمنين.

١٠٨ - وأما الذين كَتَبَ الله لهم السعادة ففي الجنة، يسكنون في قصورها ودُورها، ويَهْنَؤُون بين ظلالها الوارفة، وأشجارها المثمرة، ماكثين فيها، عطاء لا ينقطع، ولا يُنتَقَصُ منه، إلا ما شاء الله، فكلُّ مقدورٍ إنما هو بمشيئته تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عَبَّر بالمضارع ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ استحضاراً لهذه الصورة الرهيبة حتى كأنها ماثلة أمام العيان، حين يتقدم فرعون موكب الهوان والعار، وقومه مِنْ ورائِه، بينما التعبير بالماضي ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ يفيد التحقق، وسرعة الحدث.

٢- إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنَّ الأصنام لها حَقُّ الشفاعة عند الله.

٣- خَصَّ بالذِّكر الزفير والشهيق من أحوالهم في جهنم؛ للدَّلالةِ على شدة الكرب والغَمِّ، وفرط نار الأسى، ولهيب الحزن الذي يتأجج في صدورهم.

٤- الحذر من تلبيس المشركين وزخرفتهم؛ لما هم عليه من باطل، وتظاهرهم بأنهم مؤمنون.

٥- لَفْتُ الأنظار إلى مصارع المكذبين، ومسارح عذابهم؛ للعظة والاعتبار، والحذر من الأسباب التي أودت بهم.

٦- عدل الله تعالى في سننه وأقداره وأحكامه.

٧- هلاك المشركين دليلٌ على فساد عبادة الأصنام.

٨- مجيء الفعل ﴿شَقُوا﴾ مسنداً لهم؛ لأنهم شَقُوا باختيارهم وإرادتهم، بينما جاء الفعل ﴿سُعِدُوا﴾ مبنياً للمفعول؛ لأنَّ الإسعاد من الله تعالى، ولا يملك إنسان أن يسعد نفسه، فالسعيد مَنْ أسعده الله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾

التفسير:

١٠٩- يُرشد الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأنَّه لا يشك في ضلال عبادة هؤلاء المشركين، فهم سائرون على سَنن الآباء من قبل، ولا يَغُرَّنَّك ما يتظاهرون به من مظاهر كاذبة ومزاعم زائفة، ولا تَغْتَرَّ بما أُوتوا من زخارف الدنيا وبهجتها، فإنَّ الله يُعَجِّلُ لهم جزاء سعيهم في الدنيا، وفي الآخرة ينالُون عقوبتهم التي يستحقونها، جزاءً عادلاً وافياً.

١١٠- قسماً لقد آتينا موسى التوراة، فاختلف فيها بنو إسرائيل اختلافاً واضحاً، بين مُصَدِّقٍ ومكذِّبٍ. ولو شاء الله لَعَجَّل العذاب للكافرين المشكِّكين، ولكن أَخَّرَهم إلى أجلٍ مُسَمًّى. وإنَّ أهلَ الكتاب لفي شكٍّ مَشُوبٍ بالريبةِ ممَّا نزل على موسى، شأن قومك الذين يرتابون ويُشَكِّكون في القرآن.

١١١- وإنَّ كُلَّاً من هؤلاء وأولئك السابقين واللاحقين، التابعين والمتبوعين، مَنْ نال نصيباً من عذاب الدنيا، ومَنْ أَخَّرَ الله عذابه للآخرة؛ لَيُوَفِّيَنَّهم ربك جزاء أعمالهم. إنَّه تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يَعْزُب عن علمه شيء.

١١٢- فإذا تبصَّرْتَ طريق الحق، فاستقم أنت ومَنْ تاب معك على منهج الله ودينه وَفْقَ أمر الله، ولا تَطغَوا كما طغى مَنْ كان قبلكم، فجاوَزُوا حَدَّ الاعتدال، ووقعوا في إفراطٍ وتفريطٍ. إنَّه تعالى عليمٌ بأعمالكم، ومُطَّلع عليها.

١١٣- ولا تَميلوا إلى الظَّلَمَةِ، ولا تَتَّبِعُوا سبيلهم، ولا تَأْمَنُوا جانبهم، ولا تُمالِئُوهم على ظُلْمِهم، فتصيبكم النار بلهيبها. وما لكم من دون الله من أولياء يدفعون عنكم، ثم لا تُنْصرون من عذاب الله.

١١٤- سبب النزول:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هَذِهِ؟ قَالَ: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي. (صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة . وصحيح مسلم في التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ برقم ٢٧٦٣).

التفسير:

وأقم الصلاة، وواظِبْ عليها، وأدِّ حقَّها أول النهار وآخره، ويدخل في ذلك صلاة الصبح والظهر والعصر، وأوقات من الليل تتقرب بها إلى الله، صلاة المغرب والعشاء وقيام الليل؛ إن الصلواتِ وسائر الأعمال الحسنة مما يمحو الله بها السيئات. ذلك ذكرى لِـمَنْ داوم على التذكُّر، وحَرَص عليه، وانتفع به.

١١٥- واثبت على الصبر، وتَحَلَّ به، واحبِسْ نفسك على طاعة الله، واصرِفْها عن معصيته؛ فإنَّ الله لا يضيع أجر مَنْ أتقن العمل، وراقب الله، وبَرَّ بالناس، وتَرَفَّقَ بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية للنبي ﷺ بموقف بني إسرائيل من التوراة، فقد اختلفوا فيها، كما اختلف الناس في القرآن بين مُصَدِّق ومُشَكِّك، وتضارَبَتْ أقوال الكفار فيه.

٢- الأمر بالاستقامة في الدين. وهو أمر ثقيل شديد على النفس، يتطلب جهاد النفس، والصبر على أداء الواجبات، وحمايتها من الموبقات المهلكات.

٣- التحذير من الركون إلى الظلمة، وممالأتهم على ظلمهم، فإنه يُفْضي إلى النار.

٤- الترغيب في لزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله، كلما فترت.

٥- في الآية (١١٣) إخبار مستقبلي بأنَّ جزاء مَنْ يميل إلى الكفَّار الظلمة يَكِلُه الله تعالى إلى نفسه.

٦- الاستقامة إنَّما تكون على منهج الله، وبقدر معرفة العبد بربه، وتعظيمه لأوامره، يستقيم.

٧- من آثار الاستقامة: «أنَّه إذا كان المستقيم راعياً صلحت رعيته، وإذا كان مربياً توفقت تلاميذه، وصلحت بإذن الله أعمالهم واستقاموا، وإن كان المستقيم ربَّ منزل استقام أهله، وصلحت ذريته بإذن الله، وإن كان زارعاً كَثُرَ خيرُه وبُورك له، وإن كان تاجراً ربحت تجارته، وإن كان صانعاً تقدَّمَتْ صناعته،

ولاشك أنَّه متى صلحت الأفراد وصلح حالها استقامت الأسر بإذن الله، ومتى استقامت الأسر استقامت الأُمة بأكملها». (الأنوار الساطعات لآيات جامعات للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رحمه الله ١ / ٤٧٨).

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١١٦ - فهلَّا كان فيمَنْ قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهمم عالية، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلاً ممَّنْ أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونُصْحهم، واتَّبع الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم سبيلَ الترف، ووضعوا الأمور في غير نِصابها - وهم الأكثرون - فقاتلوا على الرياسة والسلطان والثراء؛ لينعموا بالمال والجاه، وسلكوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، وإعراضهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحَقُّوا الهلاك.

١١٧ - ومن سنن الله تعالى الدالة على عدله ورحمته أنه لا يُهْلِكُ القرى ظلماً لها، وأهلها مصلحون، بل يُهلك القرى الظالمة التي يسعى أهلها إلى الظلم والفساد.

١١٨ - ولو شاء ربك لجعل الناس جماعة واحدة على كلمة التوحيد وسَنن الأنبياء، ولكنه تعالى لم يجبر العباد على الحق بل دعاهم إليه، ورَغَّبهم فيه، وجعلهم مختارين، فكان منهم المؤمن، وكان منهم مَنْ حكَّم هواه، فكانوا - ولا يزالون - مختلفين.

١١٩ - إلا مَنْ رَحِمَه خالقُك وهاديك، وعصمه من الزَّلَلِ ووَفَّقه للحق، ولذلك الحق والابتلاء خلقهم؛ لِيَمِيزَ المؤمن من الكافر. وبهذه السنَّة الكونية تتحقق كلمة ربك ووعيده لأهل الشقاء الذين آثروا طريق الضلال، فتمتلِئُ منهم جهنم؛ لكثرتهم.

١٢٠ - وكلُّ ما مضى في هذه السورة وغيرها نَقُصُّ عليك من أنباء الرسل وأحوالهم مع أقوامهم ما نزيدك به ثباتاً على ثباتٍ؛ بكثرة المواعظ، وتصريف القول، وتَوارُدِ الأنباء، والتأسِّي بإخوانك الأنبياء، والتسلِّي بما كابدوه وما لاقوه من أقوامهم من تكذيب وإعراض وجحود، وجاءك في هذه السورة الحقُّ بيِّناً صُراحاً، وموعظةً وذِكْرى ينتفع بها.

١٢١ - يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتوعد المشركين: قل يا محمد للذين لم يُصَدِّقوا، ولم يَذَّكَّروا، أن يستمروا على ما هم عليه من الضلال، فإنَّا ماضُون على ما نحن عليه من الإيمان والإصلاح، وانتظروا قضاء الله فيكم إنا منتظرون قضاءَ الله وفَصْلَه بيننا وبينك.

١٢٢-١٢٣ - ويعلم الله وحده السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من أحوال عباده، وإليه يرجع الأمر كله في الدنيا والآخرة، فاعْبُدْه حق العبادة، وتَوَكَّلْ عليه حَقَّ التوكُّل. وما ربُّك بغافلٍ عن أعمال العباد، بل هو مُطَّلِعٌ عليها ومُحْصِيها؛ ليجازِيَكم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجود الدعاة الصادقين والمصلحين الذين يُصْلِحون ما أفسد الناس بحكمة وبصيرة وجِدٍّ، نعمةٌ من نِعَمِ الله تعالى على الأُمم والشعوب.

٢ - الفساد والظلم من أهم أسباب هلاك الأُمم وسقوط الحضارات، ويقال: إنَّ الأُمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم.

٣ - الترف داعيةُ السَّرَفِ المفضي إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكِبار والموسِرين، ثم ينتقل إلى الفقراء المعوزين، فتسوء حال الأُمم، وتتدهور أخلاقها ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

٤ - التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمور الناس إنَّما تستقيم في الدنيا مع العدل - الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم - أكثر ممَّا تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم؛ ذلك أنَّ العدل نظام كل شيء، وإذا أُقيم أمرُ الدنيا بالعدل قامت،

وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، ومتى لم تَقُمْ بالعدل لم تَقُمْ، وإن كان صاحبها من الإيمان ما يُجْزى به في الآخرة». (الاستقامة ٢/ ٢٤٧).

٦- الصلة القوية بين الانغماس في الترف والحرص عليه، وبين الإجرام؛ لأنَّ تابع الشهوات مثقلٌ بالآثام، يسعى للعيش في تَرَفٍ، ويسلك لذلك أيَّ وسيلةٍ.

٧- الاختلاف سنة الله تعالى في خلقه إلا مَنْ عصمه الله ورحمه.

٨- خُتمت السورة بما بدأت به من الأمر بعبادة الله وحدَه، والاتكال عليه، والتحذير من عقابه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ليتناسقَ البَدْءُ مع الختام.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة القرآن وإعجازه في أخباره الماضية.

٢ - بيان رعاية الله لأنبيائه، وتَعَهُّدِه لهم وحِفْظِهم، وإعدادهم.

٣ - التحذير من فتنة النساء، وبيان كونها من أعظم البلاء الذي يَتَعَرَّض له المؤمن. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ما تركتُ على أُمتي فتنة أشدَّ من النساء، وإنَّ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

(صحيح البخاري - التفسير، برقم ٤٤٧٧).

٤ - تقرير عداوة الشيطان للإنسان.

٥ - بيان أصول تعبير الرؤيا وآدابها، والتفريق بين الرؤى والأحلام.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾﴾

سبب النزول:

صَحَّ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية، قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قَصَصْتَ علينا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ تلا إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية، فتلاها رسول الله ﷺ زماناً فقالوا: يا رسول الله لو حَدَّثْتنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، كل ذلك يؤمرون بالقرآن. (إتحاف الخيرة ١/ ٢٣٨ برقم١٦٢، وأخرجه الحاكم (المستدرك ٢/ ٣٤٥)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٩٢ برقم ٦٢٠٩)، والضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٦٥ برقم ١٠٦٩) وقال محقق المختارة: إسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر: حديث حسن كما في الإتحاف).

التفسير:

١ - ﴿الٓر﴾ تَقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن، مع ما في الاستفتاح بها من جمال وجلال وروعة.

هذه الآيات العظيمة الشأن من آيات القرآن المبين في هديه وبلاغته.

٢ - إنَّا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزَلْنا من عندنا هذا القرآن بلسان عربي فصيح؛ لكي تفهموا معانيه، وتُدْرِكُوا مراميَه.

٣- نحن نُحَدِّثك أيها الرسول، ونَرْوِي لك أخبار الأُمم السابقة بأصدق كلام، وأحسن بيان، بوَحْينا إليك هذا القرآن، وإن كنت قبل إنزاله لمن الغافلين عن ذلك. وهذا من تمام الإنعام أنَّ الله عَلَّمَ نبيَّه ما لم يكن يعلم.

٤ - يُذَكِّر الله سبحانه رسول الله ﷺ وأُمَّته بقصة يوسف عليه السلام وما حوته من مواعظ بليغة، مبتدئاً بالرؤيا العجيبة التي تحقَّقت، فقد قال يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب عليه السلام: يا أبي إنِّي رأيت في المنام أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر رأيتهم كلَّهم ساجدين لي!

٥ - فأجابه بنصيحة الأب الحكيم، وبشرى النبي الكريم: يا بُنَيَّ لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك فيحسدوك، ويُدَبِّروا لك المكيدة لإهلاكك، وإقصائك. إنَّ الشيطان الملعون للإنسان عدوٌّ ظاهر العداوة، يُحَرِّش بين الإخوة، ويُوغر صدورهم؛ ليفرِّقَ بينهم.

٦ - ومثلَ ما أراك ربُّك هذه الرؤيا التي تفصح عن علوِّ مقامك، يختارك ويلهمك تعبير الرؤيا، ويتمِّم نعمته الكريمة عليك وعلى ذرية يعقوب بالنبوة والرسالة، مثلَما أتمَّها مِنْ قبلُ على أجدادك إبراهيم وإسحاق. إنَّ ربَّك عليم بأهل الفضل من عباده، حكيم في أقواله وأفعاله. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». (صحيح البخاري ٨/ ٢١٢ - كتاب التفسير - سورة يوسف، باب (الآية) برقم ٤٦٨٨).

الفوائد والاستنباطات:

١ - في قصص هذه السورة الكريمة وأشباهه تسليةٌ وتَسْرِيَةٌ لقلب النبي ﷺ الذي لقي من قومه صنوف الأذى والاضطهاد.

٢ - قصص القرآن الكريم أعظم القصص.

٣ - وجوب العدل بين الأولاد، وتحاشي ما يوغر صدورهم.

٤ - بشرى ليوسف عليه السلام بالنبوة.

٥ - تحذير يوسف عليه السلام من كيد إخوته.

٦ - صدق النبي ﷺ؛ إذ لا سبيل له لمعرفة هذه القصة إلا بالوحي.

٧ - جواز إخفاء بعض النِّعَمِ خوفاً من الحسد.

٨ - مشروعية التحذير مِمَّنْ يُخشى شرُّه.

٩ - أدبُ نبيِّ الله يوسف عليه السلام مع أبيه، وتوقيره له.

١٠ - مشروعية عرض الرؤيا على مَنْ يعرف تعبيرها من أهل الثقة.

١١ - قد تتحقق الرؤية بعد مدة طويلة من الزمن، كما حَدَثَ ليوسف عليه السلام مع أسرته.

١٢ - رعاية الله تعالى لأنبيائه وإعداده لهم.

١٣ - في الآية (٤) إخبار مستقبلي بالبشارة لِما وصل إليه يوسف عليه السلام من عُلُوِّ المنزلة في الدنيا والآخرة.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٧-٨- حقاً لقد كان في قصة يوسف وإخوته دلائل وعِبَرٌ لِـمَنْ يسأل عن أخبارهم، حين قال إخوة يوسف من أبيه فيما بينهم- وهم تسعة -: إنَّ يوسف وأخاه الشقيق أحبُّ إلى أبينا منَّا جميعاً، ونحن جماعة لنا شأن وذوو عَدَد. إنَّ أبانا لفي خطأ واضح في إيثاره يوسف وأخيه علينا.

٩- قال أكثرهم: اقتلوا يوسف، أو ألقوا به في أرض مجهولة بعيدة عن أنظار الناس، يَصْفُ لكم حبُّ أبيكم، فيُقبل عليكم، ولا يلتفت إلى غيركم، وتكونوا من بعد هذا الفعل قوماً صالحين في أمور الدنيا والدين.

١٠-١١- قال أحد إخوة يوسف: لا تقتلوا يوسف، وألقوه في قاع البئر، يلتقطه بعض السائرين في الطريق، إن كنتم عازمين على إبعاده عن أبينا. فاتفقوا على ذلك، ثم ذهبوا إلى أبيهم يعقوب عليه السلام يستأذنونه باصطحاب يوسف في رحلة إلى البر، فلم يوافق، فقالوا له استعطافاً بنسب الأبوَّة: يا أبانا أيُّ شيء حَدَثَ لك؛ لكيلا تأمَنَّا على يوسف، وإنَّا نحبُّ له الخير كما نُحِبُّه لأنفسنا؟

١٢- أرسله معنا غداً للمرعى؛ لينشط ويأكل، ويلتذَّ بالثمرات، ويمرح ويسرح، وإنَّا لمعتنون به، وحريصون على سلامته.

١٣- قال أبوهم: إنني أحزن حقاً لغيبة يوسف بذهابه معكم، وأخاف أن يفترسه الذئب حال انشغالكم بالرعي أو باللهو.

١٤- فأقسموا لأبيهم مؤكِّدين: إن افترسه الذئب ونحن جماعة قوية منتبهةٌ، إنَّا إذاً لخائبون، لا خير في جَمْعِنا.

الفوائد والاستنباطات:

١- قصة يوسف عليه السلام حافلة بالعبر والعظات والدروس والآيات لكلِّ باحث عن الحق.

٢- ظن إخوة يوسف أنَّ قوتهم واتحادهم أحرى بمحبة أبيهم لهم، وغفلوا عن الأسباب الداعية للمحبة، ومنها: رقة القلب، والشفقة والعطف، وسلامة الصدر.

٣- سوءُ الظنِّ بالأنبياء والصالحين - إن لم يتداركه العبدُ - يفتح أبواب الفتن والشرور.

٤- قلبُ الأبِ ومحبته تَسَعُ جميع الأبناء، فلا تُنال بالمكايد والدسائس؛ فالغايات النبيلة لا تُدْرَك بالوسائل الرذيلة.

٥- مراعاة الأب لمشاعر الأبناء، واتقاء ما قد يُفْضي إلى التحاسد بينهم.

٦- الفطانة واليقظة مطلوبة للنجاة من المكايد.

٧- ذَمُّ الحسد والتحذير من آثاره السيئة.

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «الظاهر أنَّ مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة - إنما هو الذَّهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي، ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: لست عالماً بهذه العلوم التي لا تُعْرَفُ إلا بالوحي، فهداك إليها، وعَلَّمَكَها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم».

٩- قال ابن عاشور: «جملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في موضع الحال من ﴿أَحَبُّ﴾، أي: ونحن أكثر عدداً. والمقصود من الحال التعجب من تفضيلهما في الحب في حال أنَّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدُّ من رجائه منهما». (التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٣).

١٠-في قولهم: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ دليل على أنَّهم طلبوا من أبيهم صحبة يوسف، فرفض.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - استجاب يعقوب ﷺ لهم بعد الذي أظهروه من محبة وشفقة ونصح وحفظ، فلمّا ذهبوا بيوسف وقد أبرموا أمرهم أن يلقوه في قعر البئر، فجَرَّدُوه من قميصه ودَلَّوه، ولكنَّ الرعاية الربَّانية كفيلة بإنقاذه واطمئنانه، إذ أوحى الله تعالى إليه حينذاك: لَتُخْبِرَنَّ مستقبلاً إخوتك بفعلتهم هذه حقاً، وهم لا يُحِسُّون بذلك. وفي ذلك بشرى بنجاته منهم، وعتابه لهم بعد لقائه بهم، وإن تناءت الديار. وقد أنجز جلَّ وعلا ذلك الوعد، كما في قوله: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾[يوسف:٨٩]، وقد تردَّدوا إليه دون أن يعرفوه وهو في هيئته ومكانته: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨].

١٦ - وبعد أن دَبَّروا المكيدة أرادوا إخفاءَها، فجاؤُوا ليعتذروا إلى أبيهم في أولِ الليل، وهم يتباكَون بتصَنُّعٍ؛ ليُظْهِرُوا الأسف والأسى على فقدان أخيهم!

١٧ - فخاطبوا أباهم بلطف واستمالة بنسب القرابة: يا أبانا ذهبنا نتسابق فيما بيننا، وفارَقْنا يوسف حين جَعَلْناه عند زادِنا وحوائجنا؛ ليحرسها، فجاءه الذئب وافترسه، ولستَ بمُصَدِّق لنا، ولو كنَّا صادقين في ذلك.

١٨ - وأحْضَرُوا إلى أبيهم قميص يوسف وقد لَطَّخوه بدم، فردَّ عليهم يعقوب ﷺ مُنْكِراً صابراً مُوقناً بمستقبل يوسف المشرَّف بالنبوَّة: لم يأكله الذئب، بل زَيَّنَتْ لكم أنفسُكم أمراً منكراً، فصبري صبر

جميل، لا جزع فيه ولا شكوى إلى أَحَدٍ من الخلق، وأطلب العون من الله على تَحَمُّل هذه المصيبة، وحَلِّ مشكلها.

١٩ - فهيَّأ الله تعالى مَنْ ينقذ يوسف من البئر، حين مرَّ بعض المسافرين بالطريق القريبة منه، فأرسلوا مَنْ يَجْلِبُ لهم الماء، فلما أرسل دلوه في البئر تعلَّق يوسف بالحبل فخرج ناجياً، فلما رآه صاحب الدلو بجَمالِ خَلْقِه وبراءة طفولته صاح فَرِحاً مستبشراً بكنز فريد: يا بشرى، هذا غلام. وأَخْفَوا أمره؛ ليبيعوه كالبضاعة التجارية، والله عليم بعملهم.

٢٠-٢١- ولمَّا ذهب المسافرون بيوسف إلى (مصر) باعوه بثمن قليل من المال، وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنَّهم لم يدركوا قَدْرَه وعلمه، واشتراه منهم عزيز مصر - أحد وزراء الملك -، وقال لامرأته: أحْسِني إقامته معنا؛ لعلَّه ينفعنا في الخدمة، أو نتبنَّاه فنجعله ولداً لنا. ومثلَ ما أنجينا يوسف من المكيدة، جعلنا له مقاماً كريماً عند عزيز مصر، ولكي نُعَلِّمه تفسير الرؤى. والله غالب على أمره لا يُعْجِزُه شيء، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

٢٢- ولمَّا بلغ يوسف غاية قوة الشباب، أعطيناه حكمة وفقهاً في الدين والرؤى. ومثلَ هذا الجزاء الذي جَزَيْناه به نَجْزي الذين يُحسنون في أقوالهم وأفعالهم، فهو بعد محنة البئر جاءته منحة النجاة، ثم محنة الرقِّ، ثم منحة التكريم. وفي مجيء هذه الآية في هذا الموضع أيضاً إشارة إلى أنَّ هذه الصفاتِ من الحُكْمِ والعلم والإحسان، صفات طيبة لا تُثْمر إلا الخير والبر والطهر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لُطْفُ الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه وهم في شدائد المحن، تجلَّى ذلك في بشرى الله تعالى ليوسف أنَّه سينجو من كيد إخوته، ويواجههم به يوماً ما.

٢- ربما يتصنَّع الجاني البكاء؛ لينسلَّ من جريمته ويتنصَّل منها، فالدموع ليست دليلاً على الصدق.

٣- رعاية الله تعالى للمظلومين، ونصرته لهم ولو بعد حين.

٤ - قول العزيز ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ يدل على فِراسة العزيز.

٥- التبني كان مشروعاً قبل الإسلام، ثم حَرَّمه الإسلام.

٦- البيع والشراء للبشر كان سائداً في بني إسرائيل، ولما جاء الإسلام عالج هذا الرِّق بالعتق، وسعى لتجفيف منابعه.

٧- مهما توخَّى الإنسانُ الحَذَرَ فإنَّ القَدَر لابُدَّ من وقوعه.

٨- الحكم والعلم نِعَمٌ إلهية يختص بها المولى ﷻ مَنْ يشاء من عباده، وأنَّ الإحسان هو مفتاح الفتوحات، وطريق الرضا والقبول.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٣- ثم اجتمعت منحة التكريم مع محنة امرأة العزيز التي وقعت في عشق يوسف وقد كان يعيش في قصرها، وفُتِنَتْ بجماله؛ بسبب التساهل بغَضِّ البصر عن يوسف الذي كان يعيش في قصرها، فوسوس لها الشيطان بأن تطلب من يوسف بملاطفةٍ وإغراء أن تُغْوِيَه وتستميله للفاحشة، وعزمت على مرادها، وسلكت لذلك ما يثير العواطف ويهيج النفوس ويهيئ الأجواء؛ إذ أحكمت غلق الأبواب؛ لتخلو به، وقالت له: تهيَّأْتُ وتَصَنَّعْتُ من أجلك، فأقبِلْ إليَّ. فردَّ عليها مُذَكِّراً لها بحقِّ الأمانة وخطر الخيانة: أعوذ بالله وأستجير به ممّا تدعينني إليه من الخيانة القبيحة لسيدي الذي أحسن مقامي، وتَفَضَّل بإكرامي. إنَّه لا يسلك طريق النجاة والفوز مَنِ اعتدى على حُرُمات الله تعالى. أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هَلُمَّ لك. (التفسير الصحيح ٣/ ٣١٨).

٢٤-٢٥- عزمت امرأة العزيز على فِعْلِ الفاحشة، وأصرَّت عليها. وأمّا يوسف فقد حَدَّثَته نفسه بالنزول عند رغبتها حديثَ نفسٍ دونَ عزم وقصد، ولم يلبث إلا لحظات، فرأى آية من آيات الهداية من عند الله ﷻ أزالت ذلك الحديث، فعصمه الله تعالى من الافتتان بهذه البليَّة. وإنما بَصَّرْناه لندفع عنه السوء والفاحشة. وبمثل ما صرف الله عنه كيد إخوته صرف كيد هذه المرأة؛ ليجنِّبه الوقوع في هذه الجريمة. إنَّ يوسف عبد مخلص لله تعالى؛ لذا فقد نفر يوسف هارباً منها متجهاً إلى الباب يريد الفرار إلى الله العزيز

الجبار، ولحقت به تمنعه من ذلك، حتى وصلت الباب، وأمسكت بقميصه مِنْ خلفه، الذي انشقَّ من شدة قبضتها، وسوء فعلتها. وفي أثناء هذه المحاولة الفاشلة وجدا زوجها عند الباب، فانتهت محنة الغَواية، لتبدأ محنة الأمر بالحبس. وعندما رأت زوجها حاولت أن تقلب الفضيحة على الضحية وتُبَرِّئ نفسها، فقالت باحتيال، مبادِرَةً بالسؤال: ما عقابُ مَنْ أراد بزوجتك فاحشة إلا أن يُحبسَ في السجن، أو يُعَذَّبَ أشد العذاب؟

قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة قد يُفهم منه أنَّ يوسف ﷺ هَمَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثلَ ما هَمَّتْ هي به منه، ولكن القرآن العظيم بَيَّنَ براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بَيَّن شهادة كل مَنْ له تَعَلُّق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به. أمَّا الذين لهم تَعَلُّقٌ بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أمَّا جَزْمُ يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ الآية. وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وأمَّا اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ ولهذا يحسن الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾».

٢٦-٢٧- فردَّ ذلك يوسف على ذلك الكيد، مدافعاً عن نفسه بوقار، مستعيناً بالله تعالى فقال: هي التي دعتني إلى ذلك. ثم شهد شاهد عادل عاقل من أهل بيتها فقال: إن كان قميص يوسف شُقَّ من الأمام فهي صادقة في اتِّهامها له، وهو من الكاذبين، وإن كان شُقَّ من الخلف فهي كاذبة في قولها، وهو من الصادقين، وقد استجاب زوجها لهذه النصيحة لعلاج الفضيحة التي غمرت بيته.

قال الشيخ الشنقيطي: «يُفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكَذِب الآخر؛ لأنَّ ذِكْرَ الله لهذه القصة في مَعْرِضِ تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يَدُلُّ على أنَّ الحكم بمثل ذلك حقٌّ وصواب؛ لأنَّ كون القميص مشقوقاً من الخلف دليل واضح على أنه هارب عنها، بينما كانت تجذبه من خلفه».

٢٨- فلمَّا رأى الزوج قميص يوسف قد شُقَّ من الخلف تأكَّد من براءة يوسف، وقال مُوَبِّخاً لامرأته متساهلاً في عقوبتها: إنَّ هذا الأمر المدبَّر من مكركِ أنتِ، ومَنْ ساهم معك في التخطيط والخلوة، إنَّ مَكْرَكُنَّ للتخلُّص ممَّا دبَّرْتنَّ شرٌّ كبير. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لهذا لما لم يُذْكَرْ عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز، دَلَّ على أنَّ يوسف لم يُذْنِبْ أصلاً في تلك القصة». (منهاج السنة ٢/ ٤١١-٤١٢).

٢٩- وأراد زوجها سَتْرَ الفجور بكل فتور، فأمر يوسف بأن يسكت عَمَّا حصل ويتركه، وقال لزوجته: اطلبي المغفرة من الله، إنَّك كنت من الخاطئين في فَعْلَتِك وافترائك!!

الفوائد والاستنباطات:

١- فضيلة الصبر على المحن، والصمود أمام الإغراءات والفتن، والثبات في زمن الشدائد والابتلاءات.

٢- بيان مكانة العلم وقيمته، ولاسيما عند اشتداد الخطوب وبروز الفتن، فالعلم عصمة ونجاة، ورفعة وارتقاء.

٣- بيان أهمية غَضِّ البصر، فإنَّ دوام البصر على المحرَّمات يؤدي إلى الوقوع في انتهاك الحرمات.

٤- بما أنَّ الاختلاط سبب في إثارة الغرائز ولاسيما داخل البيوت، فإنَّ هذه الآيات وَضَّحَتْ مَغَبَّة ذلك، وأفصحت عن خطورته في الأسرة خاصة، والمجتمع عامة، فلابُدَّ من مراعاة آداب البيوت من الاستئذان والحجاب، ومنع الاختلاط والخلوة وفضول النظر.

٥- بيان فضل الاستئذان.

٦- سُمُوُّ الأسلوب القرآني في حديثه عن المراودة بهذا الأدب الرفيع، الذي يُصَوِّر الحَدَثَ، ويعبر عنه بألطف عبارة وأدق بيان.

٧- المؤمن يرعى الحُرَم والأمانات، ويصونُ الأعراضَ، ويحفظ حَقَّ الله تعالى وحقوق العباد، ويقابل الإحسان بالإحسان، كما فعل يوسف عليه السلام.

٨- مراقبة الله تعالى في كل حال، وتقواه جل وعلا في السر والعلن.

٩- وجوب الاستعاذة بالله عز وجل والاعتصام به سبحانه من الفتن، وصيانة الحُرُمِ، ورعاية العهد والذِّمم، واستحضار النعم، فالعفة والطهر توفيق من الله تعالى وهداية منه.

١٠- في هذه القصة نموذجٌ عمليٌّ للشاب المتعفف في المجتمعات التي لا تُلْقي بالاً للفضيلة، ولا ترفع لها راية، كيف صان يوسف عليه السلام نفسه من فتنة المرأة الحسناء، وكيد الفاتنات من نساء القصور.

١١- ذَمُّ الهوى، والتحذير من غَلَبته، وتَمَكُّنه من صاحبه، كما وقع من امرأة العزيز، حين استبدَّ بها الهوى، فأصبحت أسيرة لهواها، أما يوسف عليه السلام فهو النبيُّ المعصوم، صاحب العقل المستنير بأنوار النبوة، كرَّمه الله، ورفعه لَـمَّا صان نفسه عن الهوى.

١٢- فتنة النساء من أعظم البلاء الذي يعرض للمؤمن، فلْيستعِذْ بالله تعالى من فتنتهن وكيدهن.

١٣- قال أبو السعود: «والعدول عن التصريح باسمها: سَتْراً عليها، أو للاستهجان بذِكْره، وإيراد الموصول لتقرير المراودة، فإنَّ كونَه في بيتها ممَّا يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام؛ فإنَّ عَدَمَ ميله

إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها، واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه ﷺ في أعلى معارج العفة والنزاهة». (إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/ ٩٣).

١٤- جاء النص القرآني بـ (غَلَّقَتْ) للدلالة على المبالغة في إغلاقها من جهة الإحكام في الغلق، أو لكثرة الأبواب، وفي تغليقها للأبواب دلالة واضحة على إصرارها على الفاحشة، ولَفْتِها لنظر يوسف ﷺ إلى ما تريده منه، ومع ذلك فإنه ﷺ يُعرض عنها، ولايلتفت إليها؛ لعلَّها تعود إلى رشدها.

١٥- نسبة العزيز الكيدَ إلى النساء؛ لبيان عدم اختصاص الكيد بامرأته، والجمع يفيد تعظيم هذا الكيد.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

التفسير:

٣٠- انتشر الخبر وذاع، ووصل إلى نسوة في المدينة، إذ قُلْنَ مُنْكِراتٍ عليها: امرأة العزيز لازالت تدعو غلامها لنفسها، قد أسَرَها جماله. إنَّا لنعتقد بأنَّها في خطأ واضح، وخَلَل فادح.

٣١- لقد وصلها خبر النسوة عاجلاً، الذي اشتمل على ثلاثة أنواع من المكر: وهو ذَمُّها لفعلتها، وإصرارها على ذلك، وغيبتها، وشوقهنَّ لرؤية يوسف الذي ما زال في قصر العزيز؛ لأنَّهنَّ لم يمتنعنَ من مقابلته، بل أمْعَنَّ النظر فيه حتى انبهَرْنَ بجماله، وفُتِنَّ فيه حين دَعَتْهُنَّ وهيَّأت لَهُنَّ مجلساً خاصاً بهِنَّ فيه طعام، وأعطت كل واحدة منهنَّ سِكِّيناً، كيداً بهنَّ على كيدِهنَّ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهنَّ؛ لتُظْهِرَ لهنَّ حُسْنَ يوسف، فلما رأين يوسفَ بنظرهنَّ الثاقب أَعْظَمْنَ جماله الفائق الذي بَهَرَ نفوسهنَّ، وأَسَرَ قلوبهنَّ، فذُهِلْنَ، فجرحنَ أياديهنَّ بالسكاكين، وهُنَّ مندهشات متعجبات غير محتشمات يُرَدِّدْنَ: حاشا لله - أي: تنزيهاً لله، وتَعَجُّباً من خلقة هذا المخلوق - ما هذا الفتى بشراً، لأنَّ جماله الآسِرَ لم يُعْهَدْ في البشر، ما هذا إلا مَلَكٌ من الملائكة في الجَمال.

٣٢- فخاطبت امرأةُ العزيز النسوةَ بكلِّ جُرأةٍ، وقد فتنهنَّ ما فتنها، متوعدة يوسف بالسجن إن لم يستجب لرغبتها الجامحة قائلة: فذلك الذي عَيَّرْتُنَّني في حبي له. وقسماً لقد راوَدْتُه عن نفسه، فامتنع وأبى، وقسماً إن لم يفعل ما آمره به مستقبلاً لَيعاقَبَنَّ بدخول السجن قطعاً، وليصيرنَّ من الأذِلَّاء المُهانين.

٣٣- فأدرك يوسف استمرار المكيدة وتفاقمها من قِبَل النسوة اللاتي تعلَّقَتْ قلوبهنَّ فيه؛ بسبب نظراتهنَّ الفاحصة، فأعرض يوسف عنهنَّ جميعاً متوكلاً على الله بالدعاء، متضرِّعاً إليه تعالى، مستعلياً بإيمانه على الرذيلة، مفتخراً بثباته على الفضيلة: يا ربِّ إنَّ السجن الذي يُهَدِّدْنَني بدُخولِه على ما فيه من ضيق أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه هؤلاء النسوة كلُّهنَّ من فعلة الفاحشة، وإن لم تَدْفَعْ عني مكرهنَّ أمِلْ إليهنَّ، وأكن من الجاهلين المرتكبين للفواحش. وفي هذا الدعاء دعوةٌ لهنَّ إلى توحيد العبودية والربوبية، وقَطْعُ آمالهنَّ الخبيثة، وبيانٌ لأهمية غَضِّ البصر؛ فإنَّ دوام البصر إلى المحرَّمات يؤدي إلى الوقوع في انتهاك الحرمات.

٣٤- فأجاب الله تعالى له دعاءه، فنجَّاه من كيدهنَّ، وثَبَّتَه على العِفَّة. إنَّه سبحانه هو السميع للدعاء والأقوال، العليم بالأهواء والأفعال.

٣٥- ولَمَّا أدرك العزيز الغافل أنَّ الفضيحة انتشرت، وأنَّ براءة يوسف ظَهَرَتْ، رأى هذا الحائر ومَنْ حوله إلقاءه في السجن إلى أن تُنسى الفضيحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن القيم: «وكلام النسوة متضمن لوجوه من المكر منها قولهنَّ: (امرأة العزيز) - بوَصْفِها لا باسمها - الذي يؤكد قبح صنيعها؛ لكونها ذات زوج، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممَّنْ لا زوج لها، وزوجها عزيز مصر فهي لم تحترم مكانة زوجها، وأنَّها هي المراوِدَةُ الطالبة، وأنَّ المُراوَد فتاها الذي هو في بيتها وتحت كَنَفِها، وأنَّ الحُبَّ بلغ بها أعظم مبلغ حتى وصل إلى شغاف قلبها، وأنَّ فتاها عفيف طاهر، متصف بالوفاء والحياء، وهي على النقيض من ذلك، وأنَّ المراودة لا تزال مستمرة ومتجددة». (إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان ٢/ ٨٨ بتصرف..).

٢- وقال أبو السعود: «وتسمية ذلك مَكْراً؛ لكونه خُفْيَةً منهن، كمكر الماكر. وقيل: استكْتَمَتْهُنَّ سِرّاً فأفشَيْنَه عليها، وقيل: إنَّما قلن ذلك ليتوصَّلْنَ من خلاله إلى رؤية يوسف». (إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٧١).

٣- روعة التعبير بـ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فالفاء فصيحة عن شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كذلك فذلكنَّ الذي لمتنني فيه.

٤- التعبير بـ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ اسم الإشارة البعيد؛ لبُعْدِ منزلته وسُمُوِّ مكانته، وبُعْدِه عن السوء، وكأنَّها تعلم أنَّ وصولها إليه صعب المنال، بل إنَّه محال، فهو عليه السلام رغم عيشه معها في بيت واحد، إلا أنَّ نجوم السماء أقرب إليها منه، وهي مع ذلك تحبه، وتطمع في قُرْبِه.

٥- بيان أثر الدعاء عند الكروب والشدائد.

٦- الثبات أمام الفتن من علامات الصلاح.

٧- دخول السجن ليس دليلاً على الانحراف، فقد يدخله الصالحون.

٨- صورة حياة القصور في ذلك العصر، وحال سكانه من المترفين والمنغمسين في بحار الشهوات.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- وثبت يوسف على الفضيلة، وتحدَّى أصحاب الرذيلة، فرضي بالحكم الجائر في سجن ذلك الظالم، وهَيَّأ الله تعالى له مَنْ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى. ودخل معه السجن فَتَيان فلما أحسن إليهما واطمأنَّا إليه، طفقا يسألانه عن تعبير بعض الرؤى، فقال أحدهما: إنِّي رأيت في المنام أنَّني أعصر عنباً لصنع خمر منه. وقال الفتى الآخر: إنِّي رأيت في المنام أنَّني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه. أخبِرْنا يا يوسفُ بتفسير ما رأينا. إنَّا نراك من الذين يُحْسِنون في أفعالهم وأقوالهم، وتعبير الرؤيا.

٣٧- فبشَّرهم يوسف بما عنده من العلم العجيب، قال: لا يأتيكما شيء من الطعام الحسن إلا أخبرتكما بنوعه وحقيقته قبل أن يصل إليكما. ذلك التعبير الصحيح الذي سأذكره لكما ممَّا علَّمني ربِّي، إنِّي آمنت بالله تعالى، وتركت دين قوم لا يُصَدِّقون بالله ولا بالبعث، بل يُكَذِّبون بذلك.

٣٨- وفي الجواب عن تعبير الرؤى وَرَدَتْ نصيحة إيمانية عظيمة لدعوة الفَتَيَين، فيذكر يوسف قصة الإيمان التي عاشها: واتَّبَعْتُ دين آبائي: إبراهيم وإسحاق وأبي: يعقوب، ما ينبغي لنا أن نشرك بالله في عبادته تعالى، سواء كان الشريك صنماً أو غيره. ذلك الإيمان العظيم من فضل الله تعالى علينا جميعاً وعلى

الناس كافة، لما أكرمنا به من الهداية، ووفَّقنا إليه من الاستقامة؛ لما فيه من الحياة الطيبة في الدنيا، والجنَّة الكريمة في الآخرة، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى بأقوالهم وأفعالهم.

٣٩- ثم لَفَتَ أنظار السائلين إلى توحيد الله تعالى، فقال لهم منكراً على المشركين: يا صاحبيَّ في السجن أعبادة آلهة متعددة مخلوقة لا تستجيب لِـمَنْ دعاها خير، أم الله تعالى الواحد المتفرِّد بالعظمة، القَهَّار الذي انقادت الأشياء كلُّها لقهره وسلطانه سبحانه؟

٤٠- ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأوثان إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها ولا نفع لها، أَوْجَدْتُم أسماءها، وجعلتموها أنتم وآباؤكم أرباباً جهلاً منكم وضلالاً، ما أنزل الله بعبادتها من حجة وبرهان على صحتها. ما الحكم النافذ في كلِّ شيء إلا لله وحده لا شريك له، أمر سبحانه أمراً عظيماً أَلَّا تعبدوا إلا إياه فهو الواحد المتفرد. ذلك الدين العظيم هو الدين المستقيم الثابت الذي لا عوج فيه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حقيقة هذا الدين وأتباعه.

٤١- ثم خاطب يوسف عليه السلام الفَتَيَين بقرابة الصحبة؛ ليَجْذِبَهم إلى الإيمان بالله تعالى: يا صاحبيَّ في السجن إليكما تأويلَ رؤياكما: أمَّا الذي رأى أنَّه يعصر العنب لصنع الخمر، فإنَّه سيخرج من السجن، ويكون عمله ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فإنَّه سيُصْلَبُ ويُترك، وتأكل الطير من رأسه. قُضي الأمر الذي كنتم فيه تستفتيان.

٤٢- وأوصى يوسف عليه السلام الذي تَوَقَّع نجاته بأن يذكر مشكلته عند الملك، وما رآه من العلم في تعبير الرؤيا؛ ليرفع الظلم عن يوسف، فأنسى الشيطانُ ساقيَ الملك أن يذكر للملك حال يوسف، فمكث في السجن عِدَّة سنوات.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أدب تأويل الأحلام والرؤى.

٢- الدعوة إلى التوحيد من أهمِّ أولويات الدعوة، ووجوب التبرُّؤ من الشرك.

٣- اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى في السَّراء والضَّراء.

٤- جواز الاستعانة بالآخرين؛ لقضاء المصالح.

٥- أثر الشيطان في إبعاد الناس عن فِعْلِ الخير.

٦- احتمال حصول الرؤيا الصادقة من غير المسلم.

٧- حسن الصحبة والمعاشرة حتى في أصعب الظروف.

٨- في الآيات (٣٦ – ٤١) إخبار مستقبلي في تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الرجلين.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٣ - وقال ملك مصر لأصحابه ومستشاريه: إنِّي رأيت في المنام سبع بقرات ممتلئة الجسم يأكلهنَّ سبع بقرات ضعيفة، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات. يا أيها الأعيان والعلماء: أخبِرُوني بتعبير هذه الرؤيا، إن كنتم تعرفون تفسيرها.

٤٤ - فأجابوه: هذه الرؤيا أخلاط أحلام مشتبهة، ولسنا بتفسير الأحلام بعالمين.

٤٥ - قال ساقي الملك، وتَذَكَّرَ بعد مدةٍ من الزمن وصية يوسف التي نسيها: أنا أخبركم بتعبير هذه الرؤيا، فأرسلوني إلى يوسف في السجن؛ ليخبرَني بذلك.

٤٦ - وحينما التقى يوسف خاطبه مُتَحَبِّباً له: يا يوسف، أيها البليغ في الصدق، أَخبِرْنا عن تعبير رؤيا مَنْ رأى سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع بقرات مهزولة، وسبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، لعلِّي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ لعلهم يعلمون تعبيرها، ويُدْرِكُون فَضْلَك وعِلْمَك.

٤٧ - قال يوسف لصاحبه السائل: تعبير هذه الرؤيا: إنَّكم تزرعون سبع سنين متتابعة بجِدٍّ، فما حَصَدْتُم من الحبوب في كل عام فاتركوه في سنبله؛ للحفاظ عليه من الآفات، إلا قليلاً ممَّا يخصص للطعام.

٤٨-٤٩ - ثم يأتي بعد هذه السنين السبع الخصبة سبع سنين أخرى شديدة القحط، يأكل أهلها ما ادَّخرتم، إلا قليلاً ممَّا يُخَصَّصُ لبذور الزرع القادم، ثم يأتي من بعد هذه السنين المجدبة عامٌ فيه يُغيث الله تعالى الناس بالمطر المِدْرار، فيعصرون فيه الثمار.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاستفادة من تأويل الرؤيا في الدعوة والإصلاح والتوجيه والنصح.

٢- الإشارة إلى مسألة اقتصادية مهمة في حفظ القمح وخَزْنِه بطريقة مأمونة، لا تكلّف جهداً أو مالاً، ألا وهي أن يبقى القمح في سنابله، وهذه حقيقة علمية اقتصادية.

٣- إفادة السائل بأكثر مما سأل.

٤- مقابلة الإساءة بالإحسان، والظلم بالعفو.

٥- فضل العلم وأهميته في حَلِّ المشكلات، ومواجهة الأزمات.

٦- أفاد البحث العلمي:

أ- أنَّ التخزين بإبقاء الحبوب في سنابلها هو أحسن التقنيات والأساليب للحفاظ على الحبوب المحفوظة داخل السنابل من غير أن ينال منها الزمن.

ب- أنَّ مدة (١٥) سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو، والتطور فيها.

ج- أنَّ البذور التي تُعْزَل من السنابل تتقلص كميتها بنسبة ٣٢٪ من البروتينات مع مرور الوقت بعد سنتين، و بنسبة ٢٠ ٪ بعد سنة واحدة.

د- أنَّ دراسة القدرة الإنباتية أثبتت القدرة الفائقة والسرعة المتفوقة للإنبات بالنسبة للحبوب المُخَزَّنة في السنابل. (http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id-1151).

٧- في الآيتين (٤٨-٤٩) إخبار مستقبليٌّ في تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٥٠- من أجل ذلك أمر ملك مصر حاشيته بأن يأتوه بيوسف، فلمّا جاء رسول الملك إلى يوسف يدعوه لمقابلة الملك، قال يوسف قاصداً إظهار براءته: ارجع إلى سيدك الملك، واطلب منه أن يَطَّلِعَ على حقيقة قصة النسوة اللاتي جَرَحْنَ أيديهنَّ، وما سبب ذلك؟ إنَّ ربي عليم بمكرهنَّ وتدبيرهنَّ.

٥١-٥٢- واستجاب الملك لطلب يوسف، واستدعى النسوة مع امرأة العزيز، وسألهنَّ: ما شأنكنَّ حين دَعَوْتُنَّ يوسف إلى الفاحشة؟ فأجَبْنَه جواباً مبتوراً عن حال يوسف، وتَرَكْنَ ذِكْرَ هيامهنَّ به! فقلن: عياذاً بالله تعالى، وتنزيهاً ليوسف، ما عَلِمْنا عليه أدنى شيء يشينه. وفي هذا الجواب إيهام صريح ببراءتهنَّ، واتّهام صريح لامرأة العزيز، لذا صَرَّحت بالمكر الكبّار قائلة: الآن ظهر الحق جليّاً، فأنا التي حاولت فتنته بإغرائه فامتنع، وإنَّه لصادق في تبرئة نفسه. ذلك الاعتراف الصريح ليعلم زوجي العزيز علماً مؤكّداً أنّي لم أَخُنْه بإخفاء الأمر عليه، وهو غائب عنّي، وأنَّ الفاحشة لم تقع، وأنَّ الله لا يهدي مكر الذين يخونون الأمانات.

٥٣- واعترفت أيضاً بقولها: وما أُزَكّي نفسي مطلقاً. إنَّ النفس كثيرة الأمر لصاحبها بفعل المعاصي، إلا مَنْ رحمه الله بحِفْظِه من فعل المعاصي. إنَّ ربي غفور للتائبين من ذنوبهم، رحيم بهم.

٥٤- وبعد أن تَحَقَّق الملك من براءة يوسف، وأنّه قد ظُلم، أراد أن يكرمه ويضعه في المقام الذي يليق به، فأمر الملك بإحضار يوسف إليه؛ ليجعله من أهل المشورة المقرَّبين له، ويقطع صلته بالعزيز، فلمّا حضر يوسف كَلَّمه الملك مباشرة، وعَرَفَ فَضْلَه وفِطْنَتَه، وبَشَّره قائلاً: إنَّك اليوم عندنا ذو مكانة عالية، ومؤتمن على كل شيء.

٥٥- وقال يوسف للمَلِك: أرجو أن تجعلني والياً على خزائن أموال أرض مصر؛ لأنّي أُحسن المحافظة عليها، وأعلم ما يُصلح شأنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما سؤال الولاية فقد ذمَّه النبي ﷺ، وأما سؤال يوسف وقوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾؛ فلأنَّه كان طريقاً إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين الناس، ويرفع عنهم الظلم، ويفعل من الخير ما لم يكونوا يفعلونه». (مختصر الفتاوى المصرية ٥٦٤).

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الحوار للوصول إلى الحق.

٢- فضيلة الاعتراف بالذنب وقول الحق؛ لرفع الظلم عن المظلوم.

٣- جواز وصف الإنسان بما يمتلكه من قدرات، ومنها جوازُ طَلَبِ تَوَلِّي الإمارة ممَّنْ عَلِمَ في نفسه القدرة على ذلك، دون تزكية النفس.

٤- اعتراف امرأة العزيز بكذبها على يوسف، وبصدقه أيضاً.

٥- ضرب يوسف عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «... ولو لبثت في السجن ما لبثَ يوسف ثم أتاني الداعي لَأَجبته». (صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه - كتاب أحاديث الأنبياء- برقم ٣٣٨٧)

٦- لم يُصَرِّح يوسف عليه السلام بذكر امرأة العزيز تأدُّباً وتعففاً، وقد قابلت هذا الأدب الرفيع من يوسف عليه السلام بالاعتراف بما صنعته، والشهادة ليوسف عليه السلام بالعفة والطهارة.

٧- مَنْ كان أميناً على الأعراض، كان جديراً بالأمانة على الأموال، وخزائن الأرض.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٦-٥٧- ومثل ما أنعمنا على يوسف بإخراجه من السجن، جعلنا له سلطة وعِزَّة في أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء لمصلحة الناس. وهذا شأن الله تعالى في عباده، يَهَبُ نعمته وفضله لِـمَنْ يشاء، ولا يضيع أجر مَنْ أحسن في قوله أو عمله. ولَثواب الآخرة الباقي أعظم من ثواب الدنيا الفاني للمؤمنين بالله المتقين له.

٥٨-٦٠- وتَسَلَّم يوسفُ ولايةَ المال، ثم قدِمَ إخوته مصر حين أصابهم القحط؛ ليجلبوا منها الطعام، فدخلوا على يوسف، فعَرَفهم أنَّهم إخوته، ولم يعرفوه لطول عهد الفراق، وقد أمر بتكريمهم وإعطائهم ما طلبوا من شراء الطعام، وكان قد عَلِمَ أخبارهم حين التقى بهم، وبَلَّغوه أنَّ لهم أخاً من أبيهم لم يُحْضِرُوه معهم - وهو شقيقه - فطلب منهم إحضاره، ورَغَّبهم وذَكَّرهم بحُسْنِ الضيافة والوفاء بالكيل؛ لكي يُسْرِعُوا بإحضاره، وحَذَّرهم من عدم إحضاره، فإنَّه يُوقِفُ كيل الطعام لهم، ولا يقربهم.

٦١- قال إخوة يوسف: سنجتهد في طلبه من أبيه؛ ليرسله معنا، وإنَّا لمنفِّذون ما أَمَرْتَنا به.

٦٢- وقال يوسف لعمّاله القائمين على الكيل: اجعلوا ثمن ما أخذوه من الطعام في أمتعتهم سِرّاً؛ لكي يعرفوا بضاعتهم إذا رَجَعُوا إلى أهلهم، ويُقَدِّروا إكرامنا لهم؛ ليرجعوا إلينا طمعاً في عطائنا.

٦٣- فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم خاطبوه بنسب الأبوة استعطافاً ، وأخبروه بإكرام العزيز لهم، وأنَّه لن يكرمهم بالطعام الوافي في المستقبل، إلا إذا كان معهم أخوهم الذي أخبروه به، وطلبوا إرساله معهم ليحصلوا على الطعام وافياً، وإنَّهم لحافظون له حقاً من أيِّ مكروه.

٦٤- قال لهم أبوهم مُنْكِراً عليهم: كيف أثق بكم لِحِفْظِ أخيكم، إلا كما وَثِقْتُ بكم لِحِفْظِ أخيه يوسف من قبل، إذ ذهبتم به إلى البر ولم تعودوا به؟ فأنا غير مطمئن لطلبكم، ولكني أثق بحفظ الله، فهو خير الحافظين، وأرحم الراحمين بعباده.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الصبر على الشدائد والمحن، إذ فيه الفوز بالفوائد والمنح.

٢- طول المدة التي قضاها يوسف بعيداً عن أبيه وعائلته؛ إذ إنَّ إخوته لم يعرفوه.

٣- أهمية الترغيب والترهيب في تحقيق المراد الحسن.

٤- ثقة نبيِّ الله يعقوب عليه السلام بربِّه، ويقينه بلطفه وحفظه.

٥- في الآية (٥٦) إخبار مستقبلي أنَّ الله ﷻ لا يضيع أجر مَنْ أحسن شيئاً من العمل الصالح.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

التفسير:

٦٥- ولما فتحوا أوعيتهم فُوجئوا بوجود ثمن البضاعة، وقد أعاده يوسف إليهم تكريماً لهم، فعاودوا الطلب إلى أبيهم يعقوب عليه السلام يخاطبونه بلطف: يا أبانا أيَّ شيء نريد أكثر من هذا الكرم؟ هذا ثمن البضاعة رَدَّه العزيز إلينا، وسنأتي بالطعام لأهلنا، ونحفظ أخانا الذي سترسله معنا، فنزداد بهذه الصحبة لأخينا حِمْلَ بعير من الزاد، وهو سهلُ الحصول عليه؛ لأنَّ فيه تلبيةً لرغبة العزيز.

٦٦- فأجابهم أبوهم بجواب لطيف، وامتنع من إرسال أخيهم معهم إلى مصر، حتى يتعهَّدوا ويحلفوا له بالله تعالى أن يَرُدُّوه سالماً إلَّا أن يُغْلَبوا، فلا يقدروا على تخليصه. فلمَّا أعطوه عهد الله على ما طلب قال لهم: الله على ما نقول شهيد.

٦٧- ثم خاطبهم مُستعطفاً برَحِم البنوَّة، مُؤَكِّداً حِفْظَ أنفسهم: يا أبنائي لا تدخلوا بلد مصر من باب واحد، وادخلوا من أبواب متباعدة خوفاً من أذى العين أو غيره، وما أدفع عنكم بوصيتي هذه شيئاً من قضاء الله تعالى، ما الحكم إلا له وحده، عليه اعتمدت، وبه وَثِقْتُ، وعليه سبحانه فليعتمد المتوكِّلون على الله تعالى.

٦٨- ولَمَّا وصلوا مصر دخلوا من أبواب مختلفة حسب وصية أبيهم، ما كان لينفعهم ذلك الدخولُ من قضاء الله عليهم، ولكن كان شفقة عليهم في نفس يعقوب، أوصى بها دَفْعاً لجلب الأنظار عليهم، وإنَّ يعقوب عليه السلام لذو علم واسع، وفِقْهٍ في الدين لما عَلَّمْناه بواسطة الوحي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، وما خصَّ الله به أنبياءه.

٦٩- ولَمَّا دخل إخوة يوسف جميعاً عليه أنزلهم عنده، وضَمَّ إليه شقيقه في غفلة منهم، وقال له سِرّاً: أنا أخوك يوسف، فلا تحزن لما كانوا يعملون بنا من الأذى.

٧٠- ولَمَّا زوَّدهم يوسف بالمؤونة والزاد، وحُمِلَتْ الخيرات على الإبل، أمر بعض عُمّاله أن يضعوا الإناء الذي يُستخدم للكيل في متاع أخيه الشقيق خفية، دون أن يعرف أحد بذلك. ولَمَّا تأهَّبوا للرحيل صاح منادٍ: يا أصحاب الإبل المسافرين إنَّكم لَسارقون حقاً.

٧١- قال إخوة يوسف وهم متوجِّهون إلى المنادي: ما الذي تفقدونه؟!

٧٢- فأجاب المنادي: نفقد إناء الملك الذي يُكال به. ومكافأةُ مَنْ يُحْضره مقدار حِمْلِ بعير من الطعام، وأنا ضامن لهذه المكافأة.

٧٣- فأقسم إخوة يوسف بالله سبحانه مُؤَكِّدين براءتهم: لقد تحققتم من معرفتكم لنا سابقاً، ما جئنا من أجل الإفساد، وليس فينا مَنْ يسرق!

٧٤- قال المحاورون لإخوة يوسف: فما عقوبة السارق عندكم إن كنتم كاذبين في ادِّعاء البراءة من السرقة؟

٧٥- قال إخوة يوسف: جزاء السارق لإناء الملك أن يُسْتَرَقَّ ويصير مملوكاً لِـمَنْ سَرَق منه. مثلَ هذا الاسترقاق نعاقب الظالمين بالسرقة.

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز أَخْذِ العهد المؤكد في الأمور المهمة، ولو من أقرب الناس.

٢- أَخْذُ الأسباب للحذر من الأذى، وأنَّه لا ينافي التوكل على الله تعالى.

٣- الإيمان بأنَّ الحذر لا يُنْجي من القَدَر.

٤- جواز كتمان التخطيط للخير حتى يُتَمَكَّنَ من إنفاذه.

٥- استرقاق المسروق منه للسارق تَقَدَّم في شريعة بني إسرائيل، وقد نسخه الإسلام بحد عقوبة السرقة.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾

التفسير:

٧٦- فبدأ المفتش بالبحث في أمتعة إخوة يوسف قبل متاع شقيق يوسف، ثم انتهى بمتاع شقيق يوسف، فرأى إناء الملك، فاستخرجه من متاعه. مثل ذلك ألهمنا يوسف هذا التدبير الخفيَّ المُحْكَم لأَخْذِ شقيقه، وما كان يقدر أن يأخذ شقيقه في شريعة مَلِكِ (مصر) لأنَّه ليس من شريعته أن يتملَّك السارق، إلا أنَّ مشيئة الله اقتضت ذلك الحكم. نرفع بالحكمة والإيمان منازل مَنْ نشاء من عبادنا، وفوق كل عالم مَنْ هو أرفع منزلةً منه في العلم، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى علَّام الغيوب.

٧٧- قال إخوة يوسف ليتخلَّصوا من التهمة ويخذلوا شقيقه: إن يسرق أخونا إناء الملك، فقد سرق فيما مضى أخٌ له - يقصدون يوسف -. فأخفى تلك التهمة ولم يُظْهِرْها لإخوته تَلَطُّفاً بهم، وإحكاماً لتدبير المهمَّة، وحَدَّث نفسه بقوله: أنتم أسوأ منزلةً ممَّنْ اتهمتموه بسرقة أخيه، وهو بريء من خيانتكم السابقة واللاحقة. والله أعلم بالذي تصفونه من الكذب.

٧٨- ولمَّا تذكَّروا العهد الذي أخذه عليهم أبوهم، قال إخوة يوسف مسترحمين: يا أيها العزيز، إنَّ لهذا السارق أباً كبيراً في السن لا يكاد يستطيع فِراقَه، فخذ أحدنا بدلاً منه. إنَّنا نراك من المحسنين في تعامُلِكَ وكرمك.

٧٩- قال يوسف عليه السلام: عياذاً بالله تعالى أن نأخذ أحداً غير الذي وجدنا إناء الملك عنده حسب شريعتكم، فإنَّنا إن فَعَلْنا ما طلبتم كُنَّا من المعتدين على البريء.

٨٠-٨١- فلمَّا انقطع منهم الأمل، ويئسوا من قبول الرجاء، خَلَوا للمشاورة فيما بينهم، فقال أخوهم الكبير مُنكِراً عليهم: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برَدِّ أخيكم؟ ومن قبل ذلك عَذَرَكم بيوسف، فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها، أو يقضي الله تعالى لي بنجاة أخي من الرقِّ، وهو سبحانه أعدل الحاكمين. ارْجِعُوا أنتم إلى أبيكم وقولوا له متلطِّفين في خطابكم بقرابة الأبوَّة: يا أبانا إنَّ ابنك شقيق يوسف قد سرق، ولسنا نشهد إلا بما عَلِمْنا، إذ رأينا إناء الملك في متاعه، وما علمنا أنه سيسرق حين عاهدناك على رَدِّه.

٨٢- واسأل أهل مصر والقافلة التي جئنا معهم عن حقيقة ما حدث، وإنَّنا لصادقون في ذلك.

٨٣- ولمَّا رجعوا إلى أبيهم فَجَعُوه بالخبر المحزن، فقال لهم مُنْكِراً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً خطيراً؛ لأنَّ هذه المشكلة اللاحقة بسبب المكيدة السابقة بيوسف. فصبرٌ جميل لا جزع فيه ولا شكوى معه لغير الله، عسى الله أن يَرُدَّ إليَّ أبنائي الثلاثة. إنَّه هو العليم بالأحوال، الحكيم في الأفعال والأقوال.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٧٦) إخبار مستقبلي أنَّ الله سيرفع منازل مَنْ يشاء في الدنيا على غيره، كما رفع منزلة يوسف عليه السلام.

٢- لجوء الإنسان إلى الحيلة مشروعٌ إن كان القصد نبيلاً، وغير مشروع إن كان سيئاً.

٣- لطف الله ورعايته بأنبيائه ونصره لهم.

٤- فضل العلم ورفعة العلماء، وتفاوت درجاتهم.

٥- جريمة السرقة لها عقوبتها في بني إسرائيل.

٦- إثبات صفتَي العلم والحكمة لله تعالى.

٧- صبر يعقوب عليه السلام وثباته بعد أن اشتدَّتْ المحنة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير:

٨٤- وأعرض يعقوب عن أبنائه تاركاً خطابهم: يا حسرتا على يوسف. وابيضَّ سواد عينيه من الحزن والبكاء وفَقَدَ بصره، فهو ممتلئ القلب حزناً وغماً.

٨٥- وأقسم أبناؤه بالله تعالى مشفقين على أبيهم: ما تزال تتذكَّر يوسف تَفَجُّعاً عليه، وتأسُّفاً لفراقه، حتى تُشْرِفَ على الهلاك، أو تهلك فعلاً.

٨٦- أجاب يعقوب ﷺ: لست أشكو ثِقَلَ غمِّي وشدة حزني إليكم، وإنَّما أشكو ذلك إلى الله، فهو الذي يكشف الضُرَّ، وأعلم من رحمته ووحيه ما لا تعلمون.

٨٧- ثم خاطبهم يعقوب ﷺ واثقاً برحمة الله مُستعطفاً برحم البنوَّة: يا أبنائي اذهبوا إلى مصر، فابحثوا واطلبوا خبر يوسف وأخيه، ولا تيئسوا من رحمة الله الواسعة. إنَّه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم المكذِّبون بالله تعالى.

٨٨- فاستجابوا لأبيهم وذهبوا إلى مصر، فلمَّا دخلوا على يوسف خاطبوه بلطف وتعظيم، فقالوا: أصابنا نحن وأهلَنا القحط، وجئناك بثمن قليل فأتمم لنا الكيل، ولا تُنْقِصْه لرداءة بضاعتنا، وتَصَدَّقْ علينا ممَّا عندك من الخير. إنَّ الله تعالى يُثيب المتفضِّلين بأموالهم على أهل الحاجة.

٨٩- فلمَّا رأى يوسف حالهم، وسَمِعَ مقالهم، قال لهم مواجهاً لهم وعاتباً عليهم: هل تذكرون الذي فعلتموه بأخيكم يوسف وشقيقه حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون؟

٩٠- فأجابوه مندهشين ومستبشرين: هل أنت يوسف حقّاً؟! قال: نعم أنا يوسف، وهذا شقيقي، قد تَفَضَّل الله تعالى علينا فجَمَعَنا بسلامة وكرامة. إنَّه مَنْ يُطِعِ الله بأوامره واجتناب نواهيه، ويصبر على المحن، فإنَّ الله لا يضيع ثواب المحسنين بأقوالهم وأفعالهم.

٩١- فأقسموا بالله تعالى: لقد فَضَّلَك الله علينا، ونحن كنَّا آثمين بما ارتكبنا.

٩٢-٩٣- قال يوسف مُسامحاً لهم: لا عَتَبَ ولا تأنيب عليكم اليوم، وأدعو الله تعالى أن يغفر لكم ذنوبكم، وهو سبحانه أرحم الراحمين لِـمَنْ تاب من ذنبه. ولَمَّا عرف فقدان بصر أبيه قال لهم: خذوا قميصي هذا، واطرحوه على وجه أبي يعقوب يرجع إليه بصره، ثم أَحْضِرُوا إليَّ أهلكم جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل الاعتراف بالذنب والاعتذار للآخرين.

٢- الشكوى إلى الله وحده لكشف الضر.

٣- فضل العفو والصفح عمَّنْ أساء.

٤- عدم جواز اليأس من رحمة الله.

٥- خطأ أبناء يعقوب ﷺ في إغلاظ القول لأبيهم.

٦- الفَرَجُ بعد الشدَّة، والمنحة بعد المحنة.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- ولَمَّا غادرت القافلة أرض مصر ومعهم قميص يوسف، قال يعقوب عليه السلام لِـمَنْ معه: إنِّي لَأَشُمُّ رائحة يوسف لولا أن تُسَفِّهوني، وتنسبوني إلى الخرف.

٩٥- فأجابوه بشدَّة مستبعدين ذلك: تالله إنَّك لا تزال في خَطَئِك القديم باعتقادك أن يوسف حَيٌّ، وستلقاه.

٩٦- ولقد تحقَّق ظَنُّ يعقوب عليه السلام إذ جاءه البشير حاملاً القميص، مبشِّراً بسلامة يوسف، طارحاً القميص على وجه أبيه، فعاد مُبصراً من شدة الفرح، وقال لِـمَنْ حَضَرَ عنده: ألم أقل لكم إنِّي لأجد ريح يوسف، وإنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟

٩٧- فأقبل أبناء يعقوب مُعتذرين، يطلبون إليه أن يستغفر لهم الله، واعترفوا بأخطائهم.

٩٨- ووعدهم بأن يطلب لهم المغفرة من الله سبحانه. إنَّه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.

٩٩- ورحل يعقوب وأهله إلى مصر قاصدين يوسف، فلمَّا دخلوا مصر، ضَمَّ إليه أبويه وقَرَّبهما إليه، ودعاهم أن يقيموا في مصر آمِنين مطمئنين سالمين.

١٠٠- وصَدَّر أباه وأمَّه على سرير ملكه بجانبه توقيراً لهما، وسجد له الأبوان والإخوة الأحدَ عشرَ تحيةً وإجلالاً ليوسف، لا عبادة - وكان هذا السجود جائزاً في شريعتهم، أمَّا في شريعتنا فلا يجوز السجود إلا لله تعالى - وخاطب يوسف أباه مُذَكِّراً له: إنَّ هذا السجود هو تفسير الرؤيا التي رأيتها، وقصصتُها عليك

من قبل في طفولتي، قد جعلها ربي حقيقة واقعة، وقد تَفَضَّل عليَّ بإحسانه العظيم حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية من بعد أن وسوس الشيطان؛ ليُفَرِّقَ بيني وبين إخوتي. إنَّ ربي لطيف التدبير لِـمَنْ يشاء، إنَّه سبحانه العليم بالأحوال، الحكيم في الأقوال والأفعال.

١٠١- ثم تَضَرَّع يوسف إلى الله تعالى: يا ربِّ قد أعطيتني من ملك مصر وعَلَّمْتني من تعبير الرؤيا، يا خالق السموات السبع والأرض ومبدعهما ، أنت ناصري ومتولي شأني في الدنيا والآخرة، ثَبِّتْني على الإسلام في حياتي إلى مماتي، وألحِقْني بالصالحين من الأنبياء والأولياء.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَحَقُّقُ رؤيا يوسفَ معجزةٌ له، ونعمةٌ من الله عليه، وتصديقٌ لأبيه يعقوب.

٢- إذا كان السجود لغير الله تعالى جائزاً في بعض الشرائع، فإنَّه في شَرْعِنا لا يجوز إلا لله تعالى.

٣- تقرير معجزة رَدِّ بَصَرِ يعقوب عليه السلام عندما شَمَّ رائحة قميص يوسف عليه السلام.

٤- حرمة اليأس من رحمة الله تعالى.

٥- الشكر لله تعالى على نِعَمِه وكرمه.

٦- استقرار يعقوب وبنيه في مصر.

٧- فضل البِرِّ بالأبوين، والإحسان إليهما، وتوقيرهما.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

التفسير:

١٠٢-١٠٣- ذلك النبأ العالي الرتبة من أخبار الغيب الذي له شأن عظيم نخبرك به - أيها الرسول - وحياً، وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين أبرموا المكيدة بيوسف وهم يتآمرون عليه، وما أكثرُ الناس بمُصَدِّقيك، ولو حَرَصْتَ على تصديقهم لك.

١٠٤- وما تَطْلُبُ من قومك على تبليغ القرآن وتلاوته أجراً تأخذه. إنَّ هذا القرآن هدى وموعظة للإنس والجن أجمعين.

١٠٥- وكم من الآيات الكونية الكثيرة الدالَّة على عظمة الخالق ووحدانيته مشاهَدة في السموات والأرض لا تخفى على أحد، فالكلُّ يشاهدها. لكنَّ كثيراً منهم لا يتأمَّل ولا يَتَدَبَّر ولا يأبه بها.

١٠٦- وما يُصَدِّق أكثر هؤلاء المعرضين عن آيات الله المكذبين به إلا إذا أشركوا مع الله غيره، فإنَّهم يُقِرُّون بأنَّ الله هو الخالق الرازق.

١٠٧- يُنْكِرُ الله تعالى على هؤلاء المشركين مُوَبِّخاً لهم: أفأَمِنَ هؤلاء المكذِّبون عقوبةً من الله تجتاحهم جميعاً، أو تأتيهم القيامة فجأة وهم لا يُحِسُّون بذلك؟

١٠٨- قل أيها الرسول لهم: هذه الدعوة إلى توحيد الله سبحانه هي طريقتي وسُنَّتي، أدعو إليها على حُجَّة راسخة أنا ومَنْ أطاعني واهتدى بسنتي، وأُنَزِّه الله تعالى عمَّا لا يليق بجلاله وعظمته، وأخلص له العبادة ولا أشرك به شيئاً.

١٠٩- وما أرسلنا من قبلك - أيها النبي - إلا رجالاً لا ملائكة، نوحي إليهم بالرسالة، وهم من أهل الحواضر؛ لأنَّهم أعلمُ من غيرهم، أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون في أرض الله، فينظروا مصارع الأُمم المكذِّبة السابقة، وما حَلَّ بهم من الهلاك والدمار؟ ولَثوابُ الدارِ الآخرةِ الباقية خيرٌ من متاع الدنيا الفانية للذين اتَّقوا ربهم، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

١١٠- فلا تستبطئ النصر يا رسول الله، فإنَّ الرسل قبلك ما كان يأتيهم النصر عاجلاً، حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أنّ قومهم قد كَذَّبوهم، وخَذَلُوهم، أتاهم نَصْرُنا وعَوْنُنا عند شدة الكرب، فنستأصل مَنْ نشاء من المكذِّبين، وننقذ مَنْ نشاء من الرسل والمؤمنين، ولا يقدر أحد على دفع العقوبة الرادعة عن المعتدين.

١١١- قسماً لقد كان في قصص المرسلين وما حَلَّ بالأُمم المُكذِّبين موعظة عظيمة لأصحاب العقول السليمة، ما كان هذا القرآن كلاماً يُختلق، ولكن أنزلناه مُصَدِّقاً لما قبله من الكتب، وتبياناً لكلِّ ما يحتاج إليه العبادُ من أمور الدين، وهداية للبشر من ضلال الشياطين، ورحمة في الدارين للمُصَدِّقين بالله تعالى والمرسلين.

الفوائد والاستنباطات:

١- صِدْقُ النبي ﷺ في دعوته، وثبوت نبوته.

٢- طريق النبي ﷺ هو طريق الأنبياء من قبله، يدعو لربه على بينة ونور وهدى.

٣- فضل الاتِّباع فهو طريق الأنبياء وسبيل الرشاد.

٤- ذَمُّ الغفلة عن التفكر في الآيات الكونية.

٥- التفكر في مصير الأُمم السابقة موعظة عظيمة.

٦- سنة النصر للأنبياء في دعواتهم، وإن طال البلاء واشتدت الخطوب.

٧- غرسُ روح الأمل وعبير الرجاء في النفوس.

٨- تأتي بُشْريات النصر عند اشتداد البلاء.

٩- في الآية (١١٠) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

١٠ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «في قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنَّهم لابُدَّ أن يُبْتَلُوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييئسوا إذا ابتُلُوا بذلك، ويعلمون أنَّه قد ابتلى به مَنْ هو خير منهم».

(ينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٧٥).

١١ - الداعية غير مكلف باستجابة المدعوين له، بل يأخذ بالأسباب، والتوفيقُ من عند الله تعالى، فإنَّ أكثر الناس للحق كارهون.

١٢ - في الآية (١١٠) إخبار مستقبلي عن مجيء النصر بإذن الله تعالى عند اشتداد الكرب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة الله تعالى في مخلوقاته.

٢ - بيان عظمة القرآن الكريم وإعجازه.

٣ - إبراز الآيات الباهرة والأدلة الكونية على التوحيد والبعث.

٤ - تقرير الإيمان بالقدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥)﴾

التفسير:

١ - ﴿الٓمٓر﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن الحكيم.

هذه الآيات العالية المنزلة من آيات القرآن العظيم، وهذا القرآن الحكيم الذي أُنزل إليك - أيها الرسول - من ربِّك بالحق الذي لاشكَّ فيه، فأخباره حقٌّ، وأحكامه حقٌّ، ولكنَّ أكثر الناس لا يُصَدِّقون به.

٢- الله سبحانه هو الذي رفع السموات بطبقاتها السبع قائمات من غير أعمدة تستند إليها، ثم بعد خَلْقِها ورَفْعِها استوى على العرش العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات - استواءً يليق بجلاله، ويناسب كماله - وذَلَّل الشمس والقمر لمنافع العباد ومصالحهم، وهما يدوران في فلك منتظم متناسق مع بقيَّة الكواكب السيَّارة إلى وقت فَناء الدنيا، يُدَبِّرُ سبحانه أمور الدنيا والآخرة بغاية الحكمة، ويُبيِّن الآيات الناطقة بعظيم قدرته، وكريم أدلته؛ لكي تُوقِنوا بالمعاد إليه والحساب على أعمالكم.

٣- وهو سبحانه الذي بَسَطَ الأرض بامتداد طولها وعرضها، وهَيَّأها للحياة فيها، إذ جعل فيها الجبال الثابتة، والأنهار العذبة، وأنبت فيها من الأنهار والأمطار والعيون والآبار من كل الثمرات زوجين: ذكراً وأنثى، وجعل الليل يغطي النهار بظلمته. إنَّ في ذلك البيان والإنعام لَدلالاتٍ ثابتةً لا تنفكُّ عن البشر؛ لكي يتفكَّروا فيها، ويعلموا عظمة قدرة الخالق.

٤- ومن عجيب صنعه وكريم عطائه، أنّه جعل في الأرض قطعاً متجاورة متلاصقة، لكنها مختلفة بنباتها ومياهها وثمراتها وحدائقها الغنية بأنواع الأعناب، وصنوف الزروع، وبضروب النخيل، منها ما ينبت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر كالفسائل، ومنها ما ينبت منه من أصل واحد شجرة واحدة فقط. وكلُّ هذه الثمرات والنباتات بطعومها المتنوعة وألوانها المتباينة تُسقى بماء واحد، وبعضها أفضل من بعض في الجودة والطعم والفائدة. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من الرب الكريم لَدلالاتٍ صريحة، وبراهين صحيحة، لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٥- وإن تعجب - أيها الرسول - من تكذيب الكفَّار لك فاعجب من تكذيبهم بالبعث، وقولهم: أإذا مِتْنا وصِرْنا تراباً في الأرض، أَنُبْعَثُ من جديد؟! أولئك البعداء عن الحقِّ هم الذين كَذَّبوا بقدرة ربِّهم، وأولئك البعداء عن رحمة الله تكون السلاسل في رقابهم يوم القيامة، وأولئك وَقودُ النار الملازمون لها، هم فيها ماكثون أبداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير نبوَّة سيِّد المرسلين محمد ﷺ ورسالته.

٢- من أعظم الآيات: رَفْعُ السموات بغير عَمَدٍ يراها الإنسان الجاهل والعالم.

٣- تقرير توحيد الربوبيَّة بذِكْرِ تدبير الله تعالى.

٤- قال ابن عاشور: «الإتيان بـ ﴿ رَبِّكَ ﴾ دون اسم الجلالة للتلطُّف. والاستدراك بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقية إبطالاً يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيته، أي: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دَلَّتِ الأدلة على الإيمان به». (التحرير والتنوير: ١٢/ ١٣٦).

٥- الافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿ رَبِّكَ ﴾ لأنَّه مُعَيَّن به، لا يشتبه غيره من آلهتهم؛ ليكون الخبر المقصود جارياً على معين لا يحتمل غيره إبلاغاً في قطع شائبة الإشراك.

٦- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر والكواكب في الملحق.

٧- صيغ ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ و﴿ يُفَصِّلُ ﴾ بالمضارع عكس قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ لأنَّ التدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدُّدِ تَعَلُّقِ القدرة بالمقدورات، وأمَّا رَفْعُ السموات وتسخير الشمس والقمر فقد تمَّ، واستقر دفعة واحدة.

٨- وُصِفَت القطع بمتجاورات؛ لأنَّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة.. وظرفية التفضيل في ﴿ ٱلْأُكُلِ ﴾ ظرفية في معنى الملابسة؛ لأنَّ التفاضل يظهر بالمأكول، أي: نُفَضِّل بعض الجنات على بعض، أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض، من جنسه بما يثمره.

٩- جيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر.

١٠-خُصَّ النخل بذكر صفة صنوان؛ لأنَّ العِبْرَةَ بها أبلغ، ووجه زيادة ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال.

١١-من دلائل قدرة الله تعالى حصول الاختلاف في الأرض بالرغم من تَقارُبها، وحصول الاختلاف بين أنواع النبات وأشكاله وأطعامه.

١٢-تقرير البعث، وبيان عقاب منكريه بالعذاب الأبدي.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾

التفسير:

٦- ويتحدَّى زعماء الضلالة، فيطلبون من النبي ﷺ التعجيل في إنزال العقوبة فيهم، قبل الخير الذي تُبشِّرهم به، وقد مَضَتِ العقوبات في الأُمم التي كَذَّبت رسلها، وإنَّ خالِقَك ومُدَبِّرَ أمورك - أيها النبي - لذو مغفرة لذنوب مَنْ تاب من عباده الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي لله. وإنَّ ربَّك لشديد العقاب والعذاب للمُكَذِّبين بالله ويوم الحساب.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ الآية، المراد بالسيئة هنا: العقوبة، وإنزال العذاب قبل الحسنة: أي قبل العافية، وقيل الإيمان، وقد بَيَّنَ تعالى في هذه الآية أنَّ الكفار يطلبون منه ﷺ أن يُعَجِّلَ هم العذاب الذي يُخَوِّفُهم به إن تمادَوا على الكفر، وقد بَيَّنَ هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]».

٧- ويتمادَون في تكذيبهم بطلبِ مزيدٍ من المعجزات، فيقولون: هَلَّا أُنزل على محمد من ربِّه معجزة كمعجزة موسى وعيسى وصالح. وليس ذلك بيدك، وإنَّما الذي أُرْسِلْتَ به هو إبلاغهم بالدعوة إلى الله تعالى، وإنذار الكفَّار من النار، ولكل أُمة رسول يهديهم إلى اتِّباع الحق، وإلى توحيد الله وعبادته كما أنك داعٍ لِـمَنْ أرسلت إليه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾- في أصح الأقوال – أي: ولكل قوم داعٍ يدعوهم». (الجواب الصحيح ٢/ ٩٩).

٨-٩- يُخبر الله تعالى عن سعة علمه وإحاطته بالأخبار والأسرار: الله يعلم أحوال ما تحمله كلُّ أنثى حامل في بطنها من ذكر أو أنثى، سعيد أم شقي، ويعلم ما تُنقصه الأرحام من سقوط الجنين ما قبل تسعة أشهر، وما تزداد الأرحام في الحَمْل ما بعد تسعة أشهر، وما تزداد من أعداد الأولاد كالتَّوءَم فأكثر، وكلُّ شيء من الأشياء عند الله بقَدْرٍ معلوم وزمن محدود، وهو سبحانه عالم بكل ما خَفِيَ عن الخلق، وبما هو مشاهد، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، المتعال على جميع خلقه بذاته وقدرته.

١٠- ومن إحاطة علمه سبحانه بالأحوال أنَّه يستوي في عِلْمِه مَنْ أخفى القول منكم، ومَنْ جهر به، وكذلك يستوي عنده مَنْ استتر بأعماله في ظلمات الليل، ومَنْ جَهَرَ بها في وَضَح النهار.

١١- ولكلِّ إنسان ملائكة تتعاقب في حفظه ورعايته، يحفظونه بأمر الله تعالى، ويُحْصُون عليه أعماله من خير وشر. إنَّ الله تعالى لا يُغَيِّر نعمةً أنعمها على قوم، إلا إذا غَيَّروا ما أمرهم به فعَصَوه، وإذا أراد الله تعالى ابتلاء قوم بمصيبة فلا أحد يقدر أن يمنع ذلك، وليس لهم من دون الله من ناصر ومُعينٍ لجَلْبِ خيرٍ أو دَفْعِ شرٍّ. عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يَعْرُج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصَلُّون، وأتيناهم وهم يُصَلُّون».

(صحيح البخاري ١٣/ ٤٢٦ برقم ٧٤٢٩-كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، وأخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٤٣٩-كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر برقم ٦٣٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٦) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٢- من علامات غرور المشركين وعدم الاستفادة من عقولهم: أنَّهم يستعجلون وقوع العذاب بهم.

٣- عِلْمُ الله ﷻ ما في الأرحام منذ نشأة الجنين.

٤- التحذير من الأقوال والأفعال السيئة، فإنَّ الله يعلم بها جميعاً، سواءً كانت سراً أم جهراً.

٥- شمول علم الله تعالى لكلِّ صغير وكبير، وكلِّ شاهد وغائب في الكون.

٦- الرعاية الربَّانيَّة للإنس بحفظ الملائكة لهم.

٧- تغيير الأحوال من سيِّئ إلى أحسن مرهونٌ بتغيير النفوس، وتنقيتها من الشبهات والمحرَّمات.

٨- تقرير الإيمان بالقدر.

٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٥-كتاب التفسير- سورة الرعد، برقم ٤/ ٦٩٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢- هو سبحانه وحده الذي يريكم الضوء اللامع من خلال السحب التي تتداخل فيما بينها، فتخافون من صوتها الهادر وصواعقها المُحرقة، وتطمعون أن ينزل معه المطر النافع، وهو وحده يُنْشِئُ السحب الكثيفة، المُحمَّلة بالماء الغزير.

١٣- سبب النزول:

عن أنس ﷺ قال: أرسل رسولُ الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رأس من رؤوس المشركين يدعوه إلى الله، فقال: هذا الإله الذي تدعو إليه، أَمِنْ فضة هو أم من نحاس هو؟ فتعاظم مقالته في صدر رسول رسول الله ﷺ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجِعْ إليه فادْعُه إلى الله»، فرَجَعَ فقال له مثل مقالته، فأتى رسولَ الله ﷺ فأخبره، فقال: «ارجِعْ فادْعُه إلى الله»، وأرسل الله عليه صاعقة، فرجع فقال له مثل مقالته، فأتى رسول رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «ارجِعْ إليه فادْعُه إلى الله»، ورسول رسول الله في الطريق لا يعلم، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره أن الله قد أهلك صاحبه، ونزلت على النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾. (أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٨٧-٨٨ برقم١ ٣٣٤، قال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه ابن أبي عاصم (السنة ١/ ٣٠٤ برقم٦٩٢) قال الألباني: إسناده صحيح).

التفسير:

ويُسَبِّح الرعد وهو صوت ارتطام السحاب حين يسوقه المَلَكُ الموَكَّل به، فهو يسبِّح، والملائكة كلُّهم يُسبِّحون بالثناء والشكر لله ﷻ هيبة ورهبة من الله تعالى، ويُرسل الله تعالى الصواعق المُحرقة، فيُهلك بها مَنْ يشاء من خلقه، والكفَّار يُجادلون في قدرة الله على البعث، وهو شديد القوة والبطش بمَنْ عصاه.

١٤- لله ﷻ دعوة التوحيد، فلا يُعبد سواه، والذين يعبدون الأصنام والأوثان من غير الله، ويَدْعُونها لا تجيب دعاءَ مَنْ دعاها، فحالهم مثل حالِ عطشان يبسط يده إلى الماء؛ ليصلَ إلى فمه فلا يصل؛ لأنَّ الكَفَّ المبسوطة لا تقدر على إيصال الماء إلى الفم، وما دعاء المكذِّبين بالله إلا في ضياع وخسران.

١٥- ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض، فيخضع المؤمنون طواعِيَةً، ويخضع الكافرون كراهية وقت الشدَّة، وكذلك ظلالهم، والمخلوقات وظلالها تسجد لله بامتدادها على الأرض في أول النهار وآخره.

١٦- يأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يُنْكِرَ على المشركين، ويُوَبِّخهم بعدة سؤالات، ثم يجيب عنها: قل: مَنْ خالق السموات السبع والأَرَضين السبع؟ قل: الله سبحانه. قل: أجعلتم لله شركاء عبدتموهم من دونه، وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دَفْعِ الضر عنها، فكيف يستجيبون لغيرهم؟ قل لهم أيضاً: هل يستوي عندكم الكافر والمؤمن؟ أم هل يستوي عندكم ظلمات الضلالة ونور الهداية؟ أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله، فالتبس الأمر عليهم، فلا يُمَيِّزون بين ما خَلَقَه الله تعالى وما خَلَقَتْه آلهتهم؟! قل لهم: الله سبحانه خالق كلِّ كائن من العدم، وهو المتفرِّدُ بالألوهية والربوبية، الذي قهر جميع الكائنات، وذَلَّتْ له جميع المخلوقات.

١٧ - أنزل الله تعالى من السحاب مطراً، فجَرَتْ به أودية الأرض بقدر صغرها وكبرها، فحمل السيل غُثاءً ورَغْوة كثيفة، وبعض المعادن التي يوقدون عليها النار؛ ليصهروها كالذهب والفضَّة؛ طلباً للزينة والنفع بها، فيعلوها أيضاً زبد لا فائدة فيه. شبَّه ذلك المذكور بالحق والباطل: فمَثَلُ الحقِّ في ثباته كمثل الماء الصافي الذي يُسقى به الحرث، والمعدن النقي الذي ينفع الناس، ومَثَلُ الباطل في زواله كالزبد الذي لا خير فيه يطفو على وجه الماء وفوق المعادن. بمثل ذلك يُبَيِّن الله الأمثال للناس؛ ليتضح الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من آيات الله تعالى التي تدلُّ على عظمة قدرته خَلْقُ الرعد والبرق والسحب الحافلة بالأرزاق والأمطار.

٢ - اكتشف العلماء عدة حقائق:

أ- أنَّ الرياح لها دور رئيس في عملية تَكَوُّن السحب.

ب- أنَّ السحاب يأخذ أشكالاً لا حصر لها في جو السماء.

ج- ضرورة تجميع كميات كبيرة من بخار الماء في حيز واحد.

د- أنَّ البرد لا يمكن أن يتكون إلا في طبقات الجو الباردة جداً.

هـ- أنَّ السحب الرعدية يجب تقسيمها إلى خلايا؛ لكي تتمكن من تكثيف ما بها من بخار.

و- وجود سحب ثقيلة تحمل كميات كبيرة من الماء تقاس بملايين الأطنان.

.(http://www.quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-1033)

ينظر: صورة السحب الثقال المتراكمة في الملحق.

٣- تقرير تسبيح الملائكة لله تعالى من هيبته ورهبته.

٤ - من حكمة الله تعالى أن يضرب الأمثال للناس؛ لتسهيل الدعوة لهم، وتقريب الحق إلى عقولهم.

٥- لا نفع أبداً من الإشراك بالله تعالى.

٦- كلُّ الكون وما فيه خاضع لله تعالى، وظلال المخلوقات تسجد لله بامتدادها على الأرض في أول النهار وآخره.

٧- أثبتت النتائج أنَّ ظلال كل الأجسام تشير وتدل على اتجاه مكة المكرمة حيث القبلة في أربعة أوقات محددة من العام، وفي هذه الأوقات تكون الشمس متعامدة إما على مكة المكرمة، أو على الموقع المقابل لها في نصف الكرة الجنوبي المسمى بـ«نظير القبلة»، أي: إنَّ الشمس والظل الممدود في هذه الأوقات الأربعة

تكون هادية ومرشدة لاتجاه القبلة بطريقة مباشرة وصريحة. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال، بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٢٥).

٨- إقامة الحُجَّة على الكفَّار بالأدلَّة المحسوسة.

٩- الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحيان، فإنَّ الله تعالى سيُدَمِّرُه، ويجعل العاقبة للمتقين.

١٠-مثلُ المؤمن النافع كالماء النقي والمعدن الخالص، ومثلُ الكافر الذي لا ينتفع منه كالزبَد، سرعان ما يزول.

١١-من الحقائق العلمية حول الزبد ما يلي:

أ- إنَّ الزَّبَدَ لا يتشكل إلا في حالة الحركة السريعة التي تحدث نتيجة إعصار أو نتيجة السيول العنيفة، وتتشكل دائماً على سطح الماء في الأعلى.

ب- إنَّ وزن هذه الرغوة أو الزبد خفيف جداً، ويتطاير في الهواء مثل البخار.

ج- إنَّ كمية صغيرة من الماء تكفي لتشكيل كمية كبيرة من الزبد، أي: إنَّ الزبد ليس له قيمة أو وزن أو فائدة!. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/241-2010-09-09-22-11-27)

وينظر: صورة توضح فاحتمل السيل زبداً رابياً، كما في الملحق.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) ﴾

التفسير:

١٨- جزاء المؤمنين المُطيعين لله ورسوله الجنَّة، والذين كذَّبوا وعَصَوا لهم النار. ولو ملكوا كل ما في الأرض، فأعطوه فداء لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة، لم يُتقبَّل منهم. أولئك البعداء عن الحق لهم سوء العذاب على ذنوبهم في الآخرة، ومصيرهم نار جهنم، وقَبُحَ المصيرُ الذي يستقرُّون فيه.

١٩-٢٠- إنَّ المهتدين والضَّالين لا يستوون، أيكون الذي يعلم أنَّ ما جاءك - أيها الرسول - من عند ربِّك هو الحق الثابت فيؤمن به، كمَنْ هو أعمى القلب عن الحقِّ الذي لا يؤمن؟ إنَّما يتعظ أصحاب العقول السليمة الذين يُوفُون بعهد الله تعالى الذي أمرهم به، ولا ينكثون العهد الأكيد.

٢١-٢٣- والذين يَصِلُون الأرحام والمحتاجين، ويخافون وعيد ربِّهم، ويخافون الحساب العسير المؤدي لدخول النار، والذين صبروا على الطاعة وعن المعاصي؛ طلباً لرضوان الله، وأدَّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، وأعطوا الزكاة المفروضة والنفقات سِرّاً وجهراً، ويفعلون الحسنات لمحو السيئات. أولئك أصحاب المنزلة العالية، لهم العاقبة المحمودة، في جنات يقيمون فيها أبداً، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والأولاد، وتدخل الملائكة عليهم من أبواب الجنة الثمانية.

٢٤- وتحييهم الملائكة: السلام عليكم من كلِّ شرٍّ ومكروه؛ بسبب ما صبرتم، فنعم عاقبة الدار الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٨) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٢- قال ابن عاشور: «أُعيد اسم الموصول هذا وما عُطِفَ عليه من الأسماء الموصولة؛ للدلالة على أنَّ صِلاتِها خصالٌ عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر مَنِ اتصف بها، ولدَفْعِ تَوَهُّم أنَّ عقبى الدار لا تتحقق لهم إلا إذا جمعوا كل هذه الصفات». (التحرير والتنوير: ١٢/ ١٧٣).

٣- الفرق بين مصير المطيعين لله تعالى وغيرهم في الجزاء.

٤- في الآية (٢٣) بشرى لِـمَنْ كان له سلف صالح، أو خَلَف صالح، أو زوج صالح ممَّنْ تَحَقَّقَتْ فيهم هذه الصلاة أنَّه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه.

٥- بيان فضائل صفات المؤمنين.

٦- الاستفادة من العقل في التفكُّر الصحيح يقود إلى طاعة الله تعالى.

٧- بشرى المؤمنين بأقاربهم الصالحين في دخول الجنة.

٨- الملائكة تُسَلِّم على المؤمنين في الجنة.

٩- بيان فضل الصبر، ومنازل الصابرين.

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾

التفسير:

٢٥- والذين ينقضون عهد الله المؤكَّد، ويقطعون الأرحام وغيرها، ويفسدون في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي. أولئك البعداء عن الحق لهم الطرد من رحمة الله، واللَّعنات التي تُلاحقهم، ولهم سوء العذاب في الدار الآخرة.

٢٦- يُخبر الله تعالى عن تَفاوُتِ أرزاق العباد، فيوسِّع سبحانه الأرزاق على مَنْ يشاء من عباده، ويُضَيِّق على مَنْ يشاء مِنْ عباده، ويفرح الكفَّار بالسَّعة في الحياة الدنيا الزائلة. وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل في متعته وفي مدته.

٢٧-٢٨- ويقول أهل الضلال من الكفَّار: هَلَّا أُنزِلَ على محمد معجزة مشاهَدة، كمعجزة العصا وغيرها. فيَرُد سبحانه عليهم: إنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاء من المتمردين على اتِّباع الحقِّ فلا تقنعهم معجزة، ويهدي سبحانه الذين تابوا إليه من ذنوبهم، الذين صَدَّقوا به وأَقَرُّوا له بالوحدانية، وتطمئنُّ قلوبُهم، وتستأنس بذكر الله في توحيده وطاعته. ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنَّ القلوب بذِكْرِ الله تَطِيب وتستأنس.

٢٩- يُبَشِّر الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالفرح والحياة الطيِّبة التي تُقَرُّ فيها العين، وحسن المستقر في الجنة.

٣٠- ومثل ما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك - أيها الرسول - في أُمة قد مَضَتْ قبلَها أُمَمٌ كثيرة، لتقرأ عليهم القرآن العظيم الذي أنزلناه عليك، وهم يُكَذِّبون بالرحمن. قل لهم: إنَّ الرحمن الذي كفرتم به هو خالقي، ويَتَوَلَّى أمري، لا معبودَ بحق سواه، عليه اعتمدت، وبه وَثِقْتُ، وإليه توبتي ومرجعي.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم نَقْضِ العهد، واستحقاق اللعنة بالطرد من رحمة الله تعالى لِـمَنْ نقض عهده.

٢- سعة الرزق على العبد لا تعني رضا الله عنه، وكذا ضيق الرزق لا يعني غضب الله عليه.

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند الآية (٢٨): «تقديم المفعول يدل على أنَّها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى إذا ذُكِرَ وَجِلَتْ، فحَصَلَ اضطراب ووَجَلٌ لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه». (مجموع الفتاوى ١/ ٢٢).

٤- بيان فضل تعظيم الله تعالى، وتلاوة القرآن.

٥- مهمَّة الرسل بلاغ الحقِّ، وإقامة الحُجَّة.

٦- تَضَمَّن لام التعليل في قوله: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ﴾ أنَّ الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله، لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات».

٧- تقرير رسالة النبيِّ محمد ﷺ.

٨- الإتيان بالاسم الظاهر في مقام الإضمار﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لما في ذلك من الروعة والإجلال، ولتشنيع كفرهم به، ومزيد إنكار عليهم.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

التفسير:

٣١- ولو كان كتاب من الكتب المنزلة سُيِّرت بتلاوته الجبال فزالَتْ، وشُقِّقَتْ به الأرض أنهاراً فاخضرَّت، وخُوطب به الموتى فأحياها وأجابت، لكان هذا القرآن هو الذي اجتمعت فيه هذه الآيات المحسوسة لما آمنوا به، ولكنَّ الله لم يُجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لأنَّه هو المالك لجميع الأمور المُتصرِّف فيها كيف يشاء. أفلم يقنط المؤمنون من تصديق الكفَّار الذين طلبوا الآيات المحسوسة، ويعلموا

أنَّ الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم جميعاً؟ ولا يزال الكفَّار تُفْجعهم المصائب؛ بسبب ما فعلوه من الجرائم، أو تُصيب الديار المجاورة لهم، فترعبهم حتى يأذن الله بإظهار الإسلام والنصر على الأعداء. إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعده أولياءه بنصرهم في الدنيا، وإكرامهم في الآخرة.

٣٢- وقسماً لقد استهزأ الكفَّار برسلهم من قبلك أيها الرسول، فأَمْهَلْتُهم وتَرَكْتُهم في أمن، ثم أَخَذْتُهم بالعقاب بغتة، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم؟

٣٣-٣٤- أفمَنْ هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان، كهذه الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع؟ وجعلوا لله شركاء من خلقه يعبدونهم. قل لهم أيها النبي: اذكروا أسماءهم وصفاتهم، فهل لهم ما يستحقُّون به العبادة؟ ثم أعاد الإنكار عليهم مُوَبِّخاً لهم: أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم؟ أم تُسَمُّونهم شركاء بظاهر من اللفظ الباطل لا حقيقة له؟ بل حَسَّن الشيطانُ للكفَّار قولهم الضالَّ، وامتناعهم عن الهداية، ومَنْع الناس منها، ومَنْ يضلله الله تعالى فماله أحد يقدر على هدايته، لهم عذاب في الحياة الدُّنيا بالقتل والأسر والذلَّة. ولَعذابُ الآخرة أشدُّ وأثقلُ في المشقة، وليس لهم مَنْ ينقذهم من عذاب الله تعالى.

٣٥- من صفة الجنَّة التي وعد الله تعالى بها المُتقين أنَّها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العذبة، ثَمَرُها لا ينقطع، وظِلُّها ممدود. تلك المثوبة ذات المنزلة العالية عاقبة المُتقين، وعاقبة المُكذِّبين بالله نار جهنم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير الرسالة بإعجاز القرآن الكريم.

٢- تهديد الكفَّار بالكوارث والمحن؛ بسبب عدم إيمانهم.

٣- جملة ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ عطف على ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بحرف الإضراب، أي ليس ذلك من شأن الكتب، بل لله أمر كلِّ محدث، فهو الذي أنزل الكتاب، وهو الذي يخلق العجائب إن شاء».

٤- إمهال الله تعالى للمستهزئين، لا يعني إهمالهم.

٥- بطلان عبادة كلِّ شيء سوى الله تعالى.

٦- التحذير من نَزَغات الشيطان.

٧- دوام نعيم الجنة على المؤمنين.

٨- قال ابن عاشور عند الآية (٣٣): «تَضَمَّنَ هذا الاحتجاجُ أساليبَ وخصوصياتٍ، منها ما يلي:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامَهم على الله في إثبات الإلهية لها قياساً فاسداً؛ لانتفاء الجهة الجامع، فكيف يُسَوَّى مَنْ هو قائم على كلِّ نفس بمَنْ ليسوا في شيء من ذلك.

ثانيها: تجهيلهم في جعلهم أسماءً لا مسميات لها آلهة.

ثالثها: إبطال كون أصنامهم آلهة بأنَّ الله لا يعلمها آلهة، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها».

(التحرير والتنوير: ١٢/ ١٩٤).

٩- في الآية (٣٤) ﴿مِنَ﴾ الداخلة على اسم الجلالة؛ لتعدية ﴿وَاقٍ﴾، و﴿مِن﴾ الداخلة على ﴿وَاقٍ﴾؛ لتأكيد النفي للتنصيص على العموم.

١٠- في الآية (٣٥) وقف نبوي عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾

التفسير:

٣٦- والمؤمنون من أهل الكتاب يفرحون بالقرآن العظيم؛ لأنّهم عرفوا اتّباع الحق، والكفّار الذين تألّبوا على عداوة المؤمنين يُنْكِرُون بعض أحكام القرآن وأخباره. قل لهم أيها الرسول: إنّما أمرني ربي أن أعبده وحده، ولا أشرك به شيئاً في عبادته، إلى عبادته أدعو الإنس والجن، وإليه وحده مصيري ومرجعي.

٣٧- ومثل ما أنزلنا الكتب على الرسل بلسانهم، أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن الحكيم حافلاً بالحكم التي تحكم بالحق، فصيحاً مُفَصَّلاً بلغة العرب. وقسماً إن اتَّبَعْتَ المشركين فيما يَدْعُونك إليه من الأهواء بعد ما أعطاك الله من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ليس لك ناصر ينقذك من عذاب الله تعالى. وفي هذا تحذير الأُمَّة من ذلك؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ منه.

٣٨- قسماً لقد أرسلنا رسلاً تترى من البشر من قبلك أيها الرسول، وجعلنا لهم أزواجاً وأولاداً، وما كان لرسول أن يأتي قومه بمعجزة إلا إذا أَذِنَ الله له فيها، لكلِّ أمرٍ من الأمور وقتٌ قَدَّره الله، وأثبته في كتاب عنده.

٣٩- يمحو الله تعالى ما يشاء من الأحكام بنسخها، ويُبقي ما يشاء منها؛ لحكمة أو مصلحة، وعنده أصل الكتب، وهو اللوح المحفوظ.

٤٠- وسواء أريناك - أيها الرسول - بعض العذاب الذي تَوَعَّدْناهم به كالقتل والأسر والقهر في الدنيا، أو نتوفَّيَنَّك قبل تعذيبهم، فما عليك إلا تبليغ الدعوة في الدنيا، وعلينا العقاب والثواب في الدنيا والآخرة.

٤١- يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم؛ لعدم اتِّعاظهم بالحوادث: أَوَلم يعلم هؤلاء الكفَّار أنَّنا ننتقص من جوانب الأرض التي يعيشون عليها، بدمارها غرقاً، أو حَرْقاً، أو نَهْباً، أو فَتْحاً للمؤمنين؛ لنشر الدعوة إلى الله تعالى، والقضاء على الفساد والفتن؟ والله تعالى يقضي ما يريد؛ لأنَّه لا رادَّ لقضائه، وهو سريع الحساب في الثواب والعقاب.

٤٢- وقد تآمر الكفَّار الذين سَعَوا بالمكايد والشدائد على أنبيائهم، كما مكر كفَّار قريش بك أيها الرسول، فللَّه المكر جميعاً، فلا يقدر أحد أن يمكر مكراً ويُدَبِّر مكيدة، إلا بقضائه وقدره. يعلم سبحانه ما تكسب كلُّ نفس من خير أو شرٍّ، وسيعلم كلُّ كافرٍ لِـمَنِ العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، لهم أم للمؤمنين؟

٤٣- ويقول الذين كَذَّبوا الله ورسوله: يا محمد أنت لست رسولاً مرسلاً من الله إلى الناس. قل لهم: يكفيني شاهداً على صدقي أنَّ الله تعالى يشهد على صدقي، وعلى كَذِبكم، بما أنزل من المعجزات الباهرة والحجج الظاهرة، ويلحق بهذه الشهادة العظيمة مَنْ عنده علمٌ مِنْ مؤمني اليهود والنصارى.

وقال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الظاهر أنَّ قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، وأنَّ المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل. ويَدُلُّ له قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] إلى غير ذلك من الآيات».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم أهل الكتاب، فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد، فيشهدون أنَّهم أتَوا بمثل ما أتى به، كالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، والإخبار بيوم القيامة، والشرائع الكلية، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذِكْرِ صفاته ورسالته وكتابه». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٩٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- الثناء على مؤمني أهل الكتاب.

٢- قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حالان من ضمير ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والحُكْمُ هنا بمعنى الحكمة كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وجُعِلَ نفسُ الحكم حالاً منه مبالغة، والمراد أنه ذو حكم، أي: حكمة.. إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأُمم، وإنَّما المعنى أنه حكمة معبر عنها بالعربية.. ثم في كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ابتداءً بأنَّه بلغتهم، وبأنَّ في ذلك حُسْنَ سمعتهم».

٣- التحذير من اتِّباع أهواء أهل الباطل.

٤- ثبوت النَّسْخ، وتَعَلُّقه بحِكَمٍ عظيمة.

٥- إنَّ انكماش الأرض على ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة على العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس، وللمحافظة على المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابُدَّ وأن تفقد الأرض من كتلتها وزناً متناسباً تماماً مع ما تفقده الشمس من كتلتها. وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سُنَّة أرضية تعرف باسم دورة التبادل بين المحيطات والقارات، وتَحَوُّل أجزاء من اليابسة إلى بحار، والتي من نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر، وخليج كاليفورنيا. وإنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: التصحر، أي: زحف الصحراء على المناطق الخضراء وانحسار التربة الصالحة للزراعة في ظلِّ إفساد الإنسان للبيئة على سطح الأرض. (آيات الاعجاز العلمي: الأرض في القران الكريم للدكتور زغلول النجار الصفحات ١٤٩-١٦٥).

٦- مَكْرُ الله تعالى عظيم بالماكرين.

٧- البلاغ والإنذار مهمَّة الرسول ﷺ، فلا ضَيْرَ إن لم يؤمنوا.

٨- شهادة الله تعالى لصِدْقِ النبيِّ ﷺ أعظم دليل على صدق رسالته.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تعظيم القرآن الكريم.

٢ - تقرير الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ - حقيقة وحدة الرسالة السماوية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٢- ﴿الٓر﴾ تَقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

هذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه - لِما لنا من القدرة والعظمة - إليك أيها الرسول؛ لتُخْرِجَ به الإنس والجن بإذن خالقهم، ومُدَبِّر أمورهم من ظلمات الكفر والجاهلية إلى نور الإيمان والهداية، إلى دين الإسلام الذي هو طريق الله العزيز في ملكوته، المحمود في كل حال، طريق الله الذي له ملك ما في السموات السبع والأرَضين السبع، والهلاك والعذاب الشديد للمُكَذِّبين بالله ورسله.

٣- ومن صفات هؤلاء المُكذِّبين أنّهم ينشدون محبة الحياة الدنيا الفانية، مُؤْثِرين لها على الآخرة الباقية، ويمنعون الناس عن اتِّباع الإسلام، ويَحْرِمُون أنفسهم من ذلك، ويسعون في الأرض فساداً. أولئك البُعَداءُ عن الحق وعن رحمة الله في ضلال بعيد جداً عن الحق؛ لشدَّة انحرافهم عنه.

٤- وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه، ليُفَصِّلَ لهم شريعة الله وأحكامه، فيُضِلُّ الله تعالى مَنْ يشاء عن الهدى، ويهدي مَنْ يشاء إلى الحقِّ، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير أمور مخلوقاته.

٥- وقسماً لقد أرسلنا موسى ﷺ إلى بني إسرائيل بالمعجزات المرئية والبراهين السمعية التي تدل على صدق رسالته، وأمرناه أن يدعوهم إلى الإيمان بالله، وأن يُخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية، وأن يَعِظَهم بالوقائع والأهوال التي أصابت الأُمم السابقة. إنَّ في ذلك التذكير العظيم لَدلالاتٍ واضحاتٍ على وحدانية الله تعالى، وعبرة وموعظة لكل صَبَّار على البلاء، شكور للنعماء.

٦- يُذكِّر الله تعالى حين قال موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل: اذكروا فضل الله عليكم وقت أن أنقذ آباءكم من ظلم فرعون وأعوانه، الذين كانوا يذيقونكم أشد العذاب والنَّكال، ويقتلون أبناءكم، ويتركون الإناث أحياء للخدمة والامتهان، وفي هذا العذاب المهين اختبار عظيم من ربِّكم سبحانه.

٧- وقال موسى ﷺ لهم أيضاً: واذكروا حين أعلم الله تعالى إعلاماً بليغاً تنتفي عنه الشكوك: قسماً إن شكرتموني قولاً وعملاً على نَعمائي عليكم لَأَزيدَنَّكم من النعم زيادة أكيدة. وقسماً إن جحدتم تلك النِّعَمَ لَأُعَذِّبنَّكم عذاباً شديداً.

٨- وقال موسى ﷺ لبني إسرائيل: إن تجحدوا نِعَمَ الله تعالى، ولم تُقِرُّوا له بالوحدانية أنتم وجميع أهل الأرض، فلن تَضُرُّوا الله شيئاً، فإنَّه سبحانه غني عن خلقه جميعاً، محمود على كل حال في تَصَرُّفه فيهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى تحدِّي القرآن بالحروف المقطعة.

٢- بيان أثر نزول القرآن الكريم في إنقاذ الإنس والجن من الكفر.

٣- إجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة؛ لزيادة التفخيم لا للتعريف.

٤- قوله تعالى: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بمعنى يُحِبُّون، فالسين والتاء للتأكيد مثل: استقدم واستأخر، وضَمَّن ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ معنى يُؤْثِرُون، لأنَّ المحبة تَعَدَّتْ إلى الحياة الدنيا عقب ذكر العذاب الشديد لهم.

٥- من فضل الله تعالى على البشر أَنْ أرسل كل رسول إلى قومه بلُغتهم؛ لتسهيل البلاغ.

٦- التذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزته.. وقد أحاط بمعنى هذا الشمول حرف الظرفية من قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف؛ ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ.

٧- أهمية التذكير بالقصص التي فيها مواعظ؛ لتُعِينَ على الصبر والشكر.

٨- بيان فضل الشكر في دوام النعم، وزيادتها.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

٩- ألم يأتكم - أيها الناس - خبرُ الذين مَضَوا من قبلكم من الأُمم المُكَذِّبة كقوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم من الأُمم، لا يُحصي عددَهم إلا الله تعالى؟ جاءَتْهم رُسُلُهم بالبراهين الساطعة، فعَضُّوا أيديَهم غيظاً من الحسد، واستنكافاً عن قبول الإيمان. وإضافة إلى هذا الفعل قالوا لرسلهم: إنَّنا لا نُصَدِّقُ بما جئتم به، وإنَّنا في شك محيط بنا موجب للتهمة من كلِّ شيء تَدْعُوننا إليه - أيها الرسول - من أمور الدين.

١٠- فرَدَّتْ عليهم رُسُلُهم مُنْكِرين عليهم، مُوبِّخين لهم: أفي وجود الله ووحدانيته وعبادته شكٌّ، وهو خالق السموات السبع والأرَضين السبع ومُبْدِعُها، يدعوكم إلى عبادته وطاعته؛ ليغفر لكم من ذنوبكم، ويُؤَخِّركم في الحياة الدنيا إلى منتهى آجالكم، فلم يُعاجِلْكم في عقابكم؟ فرَدُّوا على رُسُلِهم بسفاهة الجاهلية: ما أنتم سوى بشر، صفاتكم كصفاتنا، تريدون أن تَصْرِفونا عَمَّا كان يعبد آباؤنا وأجدادُنا من الأوثان والأصنام، فَأْتُونا بدليلٍ محسوسٍ يشهد لكم على صحَّة ما تقولون.

١١-١٢- قالت الرسل لأقوامهم: ما نحن إلا بشرٌ مثلُكم في الخِلْقَة والطبع كما قلتم، ولكنَّ الله يتفضَّل بكرمه على مَنْ يشاء منهم بالنبوة، وما سألتم من الآيات الدالَّة على صدقنا، فإنَّها ليست من شأننا ولا في استطاعتنا، إلا بمشيئة الله وقدرته. وعلى الله وحده فليعتمد المُصَدِّقون بالله ورسله، وأيُّ شيء يمنعنا من التوكُّل على الله تعالى، وقد أرشدَنا ووَفَّقَنا إلى دين الإسلام وطريق الجنة؟ وقسماً لَنصبرنَّ صبراً أكيداً على أذاكم وتكذيبكم. وعلى الله وحدَه فليعتمد الـمُتوكِّلون على الله، الواثقون بوعده.

١٣-١٤- وأقسم جبابرة الكفر يُهدِّدون رسلهم: لنُخْرِجَنَّكم من ديارنا إخراجاً أكيداً، أو لَتَرْجِعُنَّ إلى ديننا، فأوحى الله إلى رسله أنَّه سيُهلِكُ هؤلاء المعتدين على المرسلين، ولَنُسْكِنَنَّكم ديار هؤلاء الكفَّار المُعتدين بعد هلاكهم. ذلك الوعد الكريم العظيم للمؤمنين الذين خافوا مقامي بين يدي يوم القيامة، وخَشُوا وعيدي بالعذاب عند الحساب.

١٥-١٧- وطَلَبَ الرُّسُلُ من الله تعالى النصر والفتح، فاستجاب لهم، وهَلَكَ كلُّ مُتكبِّر شديد العناد للحق، مصيره نار جهنم في انتظاره، ويُسقى فيها من قيح ودم يخرج من أجسام أهل النار، يتكلَّفُ بمشقة أن يبلعه فيَغَصَّ به، ولا يقرب من إساغته، لعدم تَقَبُّله له من شِدَّة قذارته ومرارته، ويأتيه أسباب الموت من العذاب الشديد الـمُحيط به من كلِّ جهاتِه، ولكنَّه لا يموت؛ ليذوقَ شِدَّةَ العذاب باستمرار، بل يعقبه عذاب شديد الوجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- تشابُهُ رَدِّ الأقوام على رُسُلِهم، يَدُلُّ على تَشابُه نَزْغَةِ الشيطان الذي يُزَيِّنُ لهم.

٢- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قول الرسل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ هو نفي، أي ليس في الله شك. واستفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مُقِرُّون به من أنَّه ليس في الله شك، فهذا استفهام تقرير».

(مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٣٩).

٣- خطورة التقليد الأعمى، وأثره في دمار الأُمم.

٤- إرشادُ الرسل إلى فضيلة التوكل على الله تعالى.

٥- مصيرُ الظالمين إلى دمارٍ وبَوار.

٦- مصيرُ المؤمنين إلى انتصار وحُبور.

٧- استجابة الله تعالى لرسله، والمستجيبين لأمره.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - شَبَّه أعمال الكفَّار بربهم في الدنيا برماد عصفت به الريح ونسفته، فلم تترك له أثراً، لا يقدرون على حصول ثواب ما عملوا من البر. ذلك الأمر الخطير هو الخسران الكبير، البعيد عن الهداية.

١٩-٢٠ - ألم تعلم - أيها الإنسان - أنَّ الله تعالى خلق السموات السبع، والأرضين السبع بأمر ثابت ونظام كامل، وأنَّه لم يَخْلُقهما عبثاً، بل للاستدلال بهما على وحدانيته واتِّباع الحق؟ إن يشأ يُمِتْكم ويَخْلُق قوماً غيركم خيراً منكم، وما ذلك على الله بممتنعٍ حصولُه.

٢١ - يخبر الله تعالى عن الحوار الذي سيكون بين رؤساء الكفر وأتباعهم، وخطاب الشيطان لهم جميعاً: وظهرت الخلائق جميعاً لله ﷻ، بعد خروجهم من قبورهم يوم القيامة، فقال الأتباع من الكفَّار لزعمائهم: إنَّا كُنَّا أتباعاً لكم في الدنيا في الكفر، فهل أنتم دافعون عنَّا شيئاً من عذاب الله؟ فردَّ عليهم زعماء الكفر: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه، فلا ينفعنا الجزع والصبر، ولا يُخَلِّصنا من عذاب الله.

٢٢ - وبعد أن تَمَّ الحساب، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، ودخل أهلُ النارِ النارَ، قال الشيطان مُتبَرِّئاً من أتباعه الكفَّار الصغار والكبار: إنَّ الله وعدكم وَعْداً حقَّاً بثواب المطيع وعقاب العاصي، فوَفَّى لكم وَعْدَه، ووَعَدْتُكم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، فكَذَّبْتُكم وأَخْلَفْتُكم الوعد، وما كان لي قدرةٌ وتَسَلُّطٌ عليكم، فأجْبَرَكم على الكفر والمعاصي، ولكن دَعَوْتُكم إلى الضلال، فاتَّبعتموني، فلا تلوموني، ولكن

لوموا أنفسكم، فإنَّ الذنب ذنبكم، ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي من عذاب الله. إنِّي تبرَّأْتُ من اتِّخاذكم لي شريكاً مع الله في طاعته في الدنيا. إنَّ المعتدين على حُرُمات الله لهم عذاب موجع.

٢٣- وأدخل الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً بأمر الله ومشيئته، تحيَّتُهم فيما بينهم، وتحيَّة الملائكة لهم في الجنَّة: سلام من الله، وهو الدعاء بالعافية والسلامة من كلِّ شرٍّ.

قال الشيخ الشنقيطي: «بَيَّنَ في هذه الآية الكريمة أنَّ تحية أهل الجنة في الجنة سلام، وبَيَّنَ في مواضع أُخَرَ أن الملائكة تحييهم بذلك، وأنَّ بعضهم يُحيي بعضاً بذلك، فقال في تحية الملائكة لهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] الآية، وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] الآية، وقال:﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[الفرقان:٧٥]، وقال في تحية بعضهم بعضاً: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] الآية، كما تقدَّم إيضاحُه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكفار لا يستفيدون من أعمالهم الصالحة في الآخرة.

٢- تبرُّؤ الشياطين من أتباعهم في الآخرة.

٣- الشيطان لا يملك سلطة على البشر، سوى الوسوسة والتزيين.

٤- إنباء الله تعالى عمَّا سيحصل في مستقبل الآخرة عن حوار الطواغيت، وأتباعهم.

٥- السلام تحية أهل الجنة.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٢٤- ألم تعلم - أيها الرسول - كيف ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد شهادةِ أن لا إله إلا الله بشجرة كريمة، وهي النخلة، جذورُها ضاربةٌ في أطناب الأرض، وفَرْعُها مرتفع في عنان السماء؟

٢٥- تُغْدِقُ ثمارُها كلَّ وقتٍ بإذن خالِقِها؛ لأنَّ كلمة التوحيد حافلة بالبركات في الدنيا والآخرة، ويُبيِّن الله الأمثال للناس؛ لكي يَتَّعِظُوا فيؤمنوا.

٢٦- ومَثَلُ كلمة الكفر كشجرة الحنظل، الخبيثة في طعمها، اقْتُلِعَتْ جذورها لعدم ثبات عروقها، فإنَّها قريبة من سطح الأرض، ليس لها استقرار، وكذلك كلمة الكفر ليس لها بقاء، بل هي إلى فناء.

٢٧- يُثبِّت الله تعالى المؤمنين بالقول الحق: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله، يُثبِّتهم في الدنيا عند المات وقت سؤال الملَكين في القبر، وفي القيامة يُثبِّتهم فيها من الأهوال وشدَّة الأحوال. ويُضِلُّ الله الكفَّار فلا يهتدون إلى الحق والجواب السديد، ويفعل الله ما يشاء بعباده بعَدْلِه وفَضْلِه.

عن البراء بن عازب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٩ كتاب التفسير- سورة إبراهيم، باب (الآية) برقم ٤٦٩٩. مسلم ٤/ ٢٢٠١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه).

٢٨-٢٩- ألم تنظر - أيها النبي - إلى حال البعيدين عن مقامك عند الله، الذين بَدَّلوا نعمة الأمن والقرآن ومجيء الرسول إلى الكفر، فأنزلوا قومهم دار الهلاك، في نار جهنم يذوقون سعيرها، وبئس المصير جهنم؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفَّار أهل مكة.

(صحيح البخاري ٨/ ٢٢٩ -كتاب التفسير- سورة إبراهيم، باب (الآية) برقم ٤٧٠٠).

٣٠- وجعل المشركون لله شركاءَ مماثلين له في العبادة ﷻ ليُضِلُّوا أنفسَهم والناسَ عن دين الله تعالى. قل لهم أيها الرسول: استَمْتِعُوا بنعيم الدنيا الفانية، فإنَّ مَرْجِعَكم إلى عذاب نار جهنَّم الباقية.

٣١- قل يا رسول الله لعبادي المؤمنين: يُؤَدُّوا الصلاة بأوقاتها وشروطها، ويُعْطُوا المحتاجين ممَّا رزقناهم من المال سِرَّاً وجَهْراً من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه فداء النفس، ولا صداقة الأحباب.

٣٢-٣٣- يُخبر الله تعالى عن عظيم صنعه وكريم نعمه، فهو الذي خلق السموات السبع والأَرَضين السبع، وأبدعهما على غير مثال سابق، وأنزل من السحاب المطر، فأخرج أنواع الزروع والثمار، وذَلَّل لكم السفن الكبيرة؛ لتسيرَ في البحرِ بأمره للانتفاع منها في السفر، ونَقْلِ الأمتعة، وذَلَّلَ لكم الأنهار العذبة للشرب وسَقْيِ الزروع والدَّوابِّ، وذَلَّل لكم الشمس والقمر بانتظام واستمرار؛ لما يُحَقِّقُ صلاحُ معايشكم، وسَخَّر لكم الليل لتسكنوا فيه، وسَخَّر النهار للسعي في طلب الرزق.

٣٤- وأعطاكم الله تعالى من كلِّ ما تحتاجون إليه، وتطلبونه منه سبحانه، من النِّعَمِ الكثيرة المتنوعة التي لا تحصى. إنَّ الإنسان لَشديد الظلم، كثيرُ الجحود لتلك النِّعَمِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة كلمة التوحيد.

٢- بشرى الله تعالى المؤمنين بتثبيتهم على الإسلام.

٣- مصير مَنْ بَدَّل نعمة الله بالكفر الخسران في الدارين.

٤- وجوب النفقة سراً وجهراً.

٥- البشرى بالاستجابة لـمَنْ سأل الله تعالى.

٦- ينظر: مخطط تكوين المطر في الملحق.

٧- عظمة نِعَمِ الله وكثرتها.

٨- تسخير الكون للإنسان؛ ليقيم العدل والإيمان.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٥-٣٦- يُذَكِّر الله تعالى بدعاء إبراهيم عليه السلام وتَضَرُّعِه وحَمْدِه لله سبحانه، حين أسكن زوجَه هاجر وابنهما إسماعيل في (مكة)، فقال: يا ربِّ اجعل (مكة) بلد أمن وطمأنينة، يأمن فيها البشر على أنفسهم ويستأنسوا بها، ويأمن ما فيها من الصيد والشجر، واصْرِفْني وأَبْعِدْني أنا وأبنائي وأحفادي عن عبادة الأصنام التي أضلَّتْ كثيراً من الخلق عن الإسلام، فمَنِ اقتدى بي في التوحيد والإسلام فهو من أهل ديني، ومَنْ خالف أمري في ديني، فإنَّك غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا: هل أجاب دعاء نبيِّه إبراهيم هذا؟ ولكنه بَيَّن في مواضعَ أُخَرَ أنَّه أجابه في بعض ذريته دون بعض، كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] الآية».

٣٧- يا ربَّنا إني أسكنت ابني إسماعيل وزوجتي هاجَر بوادٍ ليس فيه زرع، بجوار بيتك الحرام، أي: الكعبة المشرَّفة وما حولها، ربنا لكي يعبدوك، ويُؤَدُّوا الصلاة في هذا الوادي المُبارك، فاجعل قلوب بعض الناس شديدة الشوق والحنين للميل إليهم واللَّحاق بهم، وارزقهم من مختلف الثمرات التي تُمَهِّد للناس العيش فيه؛ لكي يعبدوك ويشكروك على نِعَمِك وفَضْلِك.

٣٨- يا ربَّنا إنَّك العالِمُ بما نُخْفي في قلوبنا، وما نُظْهر في نفوسنا، وما يغيب عن علم الله شيء من المخلوقات، سواء أكان في الأرض أم في السماء.

٣٩- الثناء العظيم كلُّه لله سبحانه، الذي رزقني على كِبَرِ سِنِّي ابنيَّ إسماعيل وإسحاق. إنَّ خالقي ومُدَبِّرَ أمري لسميع الدعاء، ومُجيب لعباده الذين يدعونه.

٤٠- يا ربِّ اجْعَلْني مُحافظاً على أداء الصلاة مواظباً عليها، واجعل من ذريتي مَنْ يقوم بذلك، يا ربَّنا استجِبْ دعائي، وتَقَبَّلْ عبادتي.

٤١- يا ربَّنا اغفِرْ لي ما قَصَّرْتُ به، واغفر لوالدي وللمُصَدِّقين بالله ورسله يوم يحاسَبُ الناس على ما قَدَّمُوه في الحياة الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل مكة المكرمة وبركاتها.

٢- الفضلُ الكبير للدعاء في جَلْبِ الخير الكثير.

٣- حَثُّ إبراهيمَ عليه السلام الناسَ على شكر الله تعالى.

٤- خطورة عبادة الأصنام بمختلف أنواعها.

٥- يقول الخبراء: تنشأ الأودية القاحلة الجافة الخالية من الزرع في الغالب من التغيرات المناخية في المنطقة على آلاف السنين، حيث يكون الوادي في الأصل خِصْباً موفور المياه ثم تتغير الظروف المناخية والجيولوجية في المنطقة، فيصبح الوادي جافًاً قاحلاً. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص١٨٣-١٨٤).

٦- استحباب الدعاء للوالدين والأولاد والمسلمين.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٢- ولا تَظُنَّنَّ - أيها الرسول - أنَّ الله غافل عمَّا يرتكب المعتدون من تكذيبك وإيذاء المؤمنين. إنَّما يُمْهِلُهم ليومٍ مهيب رهيب تجمد فيه الأبصار مُفَتَّحَةً من الفزع والهلع.

٤٣- تراهم مُسرعين لإجابة الداعي، رافعين رؤوسهم، لا يطرفون بعيونهم، فهي مُفَتَّحَةٌ من رؤية الأهوال المفجعة التي تجعل قلوبهم خالية من التفكُّر والعقل.

٤٤-٤٥- وخَوِّفْ - أيها النبي - الإنس والجن عذابَ يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يستغيث الذين ظلموا: يا ربَّنا أمْهِلْنا إلى زمنٍ قريب نُجِبْ دعوتك بالتوحيد، ونُصَدِّقِ الرسل ونَتَّبعهم. فيَرُدُّ عليهم توبيخاً لهم: ألم تحلفوا من قبلُ في الدنيا إنَّكم مُخَلَّدون فيها، وكَذَّبتم بالبعث، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر كعاد وثمود، وعلمتم كيف أهلكناهم بذنوبهم فلم تعتبروا، وبَيَّنَّا لكم الأمثال في القرآن فلم تتعظوا؟

٤٦- وقد أبرم المشركون تدبير المكايد والشدائد للنبي ﷺ وللمؤمنين، وعند الله تعالى العِلْمُ بكل ذلك المكر والجزاء عليه، وما كان مَكْرُهم لِتزولَ منه الجبال لضَعْفِه، فلم يَضُرُّوا الله شيئاً.

٤٧-٤٨- فلا تَظُنَّنَّ - أيها الرسول - أنَّ الله مُخْلِفُ وعده الذي وعد به الرسلَ بالنصر وإهلاك الكفَّار. إنَّ الله عزيز لا يعجزه شيء، قادر على الانتقام من أعداء الإسلام، وذلك يوم القيامة، يوم تُبَدَّل هذه

الأرض بأرض أخرى بيضاء نقية، وكذلك تُبَدَّلُ السموات، وتخرج الخلائق من القبور ظاهرين للقاء الله الواحد المُتفرِّد في الألوهية والربوبية، الذي يقهر جميع الكائنات.

عن سهل بن سعد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرْصَةِ النَّقِيِّ». قرصة النقي: الخبز الحُوَّارَى.

(صحيح البخاري. كتاب الرقاق. باب يقبض الله الأرض يوم القيامة. برقم ٦٥٢١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط».

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٥٠- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور، برقم ٢٨٩١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الناس يُحْشَرُون على الأرض المبدَّلة، والقرآن يوافق على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾. وحَشْرُهم وحسابُهم يكون قبل الصراط، فإنَّ الصراطَ عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث».

(مختصر الفتاوى المصرية ٢٠٢).

٤٩-٥١- وتُبْصِرُ المُجرمين يومَ القيامة مُقَيَّدِي الأيدي والأرجل بسلاسل الحديد المُحكمة، وثيابهم التي يلبسونها من قَطِران، وهي مادَّةٌ سوداءُ اللون، سريعة الاشتعال، منتنة الرائحة، وتُغَطِّي وتعلو وجوهَهم النَّارُ، ويَخْرُجُ الناس من قبورهم ليجازِيَهم الله على أعمالهم، المُحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. إنَّ الله سريع الحساب لجميع خَلْقِه.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بَيَّنَ في هذه الآية الكريمة أنَّ النار يوم القيامة تَغْشَى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وقوله: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]».

٥٢- هذا القرآن العظيم إعلام وتبليغ لجميع الإنس والجن؛ ليُنْصَحوا ويُخَوَّفوا بما فيه من الأخبار والمواعظ والأحكام، ولكي يتحقَّقُوا بما فيه من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة التي تَدُلُّ على وحدانية الله تعالى، ولكي يتعظ به أصحاب العقول السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترهيب من حالة أهل النار، وهيئتهم، وصفة ذلتهم.

٢- تأخير عذاب الظالمين إمهال وليس إهمالاً.

٣- في تذكير الناس بحوار أهل النار مع الله تعالى موعظة عظيمة.

٤- الحَثُّ على الاعتبار والموعظة عند المرور بمساكن الظالمين.

٥- بيان مصير الظالمين والمجرمين، وأحوالهم في جهنم.

٦- بيان عظمة القرآن الكريم، وما فيه من المواعظ والأحكام.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير الوحي والرسالة.

٢ - تقرير البعث والجزاء.

٣ - إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى.

٤ - بيان عاقبة المكذبين الكافرين موعظة للبشرية.

٥ - تسلية النبي ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

التفسير:

١ - ﴿الٓر﴾ تقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلامُ على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن. تلك الآيات العظيمة القَدْرِ آياتُ الكتاب الكامل، القرآن العظيم، ذو المباني الفصيحة، والمعاني الواضحة.

٢ - رُبَّما يتمنَّى الكفَّار لو كانوا مؤمنين بالله تعالى، حين يَرَوْنَ أهوال العذاب يوم القيامة، إذ يدخل المؤمنون الجنة، ويخرج بعضهم من النار بالشفاعة.

عن صالح ابن أبي طَرِيف، قال: قلتُ لأبي سعيد الخدري: أَسَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ فقال: نعم، سَمِعْتُه يقول: «يُخرج اللهُ أُناساً من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم، قال: لـمَّا أدخلهم اللهُ النارَ مع المشركين، قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياء، فما لكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة، فيتشفَّع لهم الملائكة

والنبيون حتى يُخرجوا بإذن الله، فلمّا أُخرجوا قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتُدركنا الشفاعةُ، فنُخْرَجُ من النار، فذلك قولُ الله جلَّ وعلا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قال: فيُسَمَّون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربَّنا أذهب عنَّا هذا الاسم، قال: فيأمرهم، فيغتسلون في نهر في الجنة، فيذهب ذلك منهم». (الإحسان ١٦/ ٤٥٧ – ٤٥٨ برقم ٧٤٣٢ قال محققه: حديث صحيح. وله شواهد عدة منها: حديث أبي موسى الأشعري، أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٢ وصححه ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الألباني (ظلال الجنة برقم ٨٤٤). وينظر تخريجه وذكر شواهده مفصلاً في حاشية الإحسان في الموضع المذكور).

٣- دَعْهم – أيها الرسول – يستمتعوا بالأكل والشرب، وينغمسوا بشهوات الدنيا، وينشغلوا بالطمع وطول الأمل عن الأجل اللازم لهم، وسوف تكون عاقبة أمرهم الخسارة في الدنيا والآخرة.

٤ –٥– وما أهلكنا أهل بلدة من البلدان الظالمة التي كَذَّبت رُسُلَ الله إلا ولها أَجَلٌ محدود لإهلاكها، ولا يتقدَّم موعد هلاك أُمَّة قبل مجيء أوانِه، ولا يتأخَّر عنهم.

٦ –٨– وقال المشركون بكيدٍ وسخرية: يا أيها الذي نزَّل عليه القرآن إنَّك لمجنون؛ بسبب ادِّعائك أنَّك مرسل، هلَّا جئتنا بالملائكة؛ لتشهدَ لك بالرسالة، إن كنت صادقاً في دعواك أنَّك رسول الله. ما ننزل ملائكتنا إلا تنزيلاً مواكباً للحق الثابت في الأقوال المنزلة، وفي الأفعال التي تُصيب الكافرين، كعقاب الأُمم المكذِّبة، فلو نَزَّلْتُ عليهم الملائكة كما اقترحوا لَنزل بهم العذاب دون إمهالٍ ولا تأجيل.

٩– إنَّا – بما لنا من العظمة والقدرة – نَزَّلْنا القرآن العظيم على النبيِّ ﷺ، وإنَّا لَحافظون له من كل تغيير وتبديل إلى يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١ – ينظر: صورة مخطط الأمل، كما في الملحق.

٢ – في الآية (٩) إخبار مستقبلي بأنَّ الله ﷻ يَتَعَهَّد بحفظ القرآن منذ نزوله على النبيِّ محمَّد ﷺ، من أن يُزاد فيه، أو يُنقص منه، أو يضيع منه شيء، إلى أن تقوم الساعة.

٣ – القرآن واضح كل الوضوح وبَيِّنٌ كل البيان، فلا نقصَ فيه ولا خَلَلَ، ولا غموض ولا لبس.

٤ – إنذار الكافرين وتحذيرهم من مواصلة كفرهم وحربهم للإسلام، فإنَّ يوماً سيأتي يتمنون فيه أن لو كانوا مسلمين. (أيسر التفاسير: ٣/ ٧٢).

٥ – إنَّ إيثار التلذُّذِ والتنعُّمِ في الدنيا يُؤَدِّي إلى طول الأمل، وليس ذلك من أخلاق المؤمنين. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٣).

٦ – هلاك الأُمم ليس عشوائياً، وإنما هو مقدر بتاريخ معين، ومقرر في أجل محدد، لا تأخير فيه ولا تقديم.

٧- كل مَنْ مات أو قتل فإنما مات بأجله، وإنَّ مَنْ قال بجواز أن يموت قبل أجله مخطئ. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٣).

٨- بيان حِفْظِ الله تعالى للقرآن الكريم من الزيادة والنقصان، ومن التغيير والتبديل، ومن الضياع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١٠-١٣- قسماً لقد أرسلنا من قبلك - أيُّها الرسول - في طوائف الأُمم الأولين، وما جاءهم رسول إلا سخروا منه، كذلك نسلك الضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين الذين لا يُصَدِّقون بهذا القرآن، وقد مَضَتْ سُنَّةُ الله بإهلاك المكذِّبين من الأُمم السابقين.

١٤-١٥- بَيَّنَ الله تعالى شدَّة عناد كفَّار مكَّة ومكابرتهم للحق، فهو سبحانه لو فتح لهم باباً من السماء فصاروا يصعدون فيه إلى السماء لَمَا صَدَّقوا بذلك، وأصَرُّوا على التكذيب بقولهم: إنَّما سُدَّت أبصارنا وخُدِعَتْ بهذا الصعود بسبب السحر الذي يقوم به محمَّد!

الفوائد والاستنباطات:

١- أثبتت الدراسات الحديثة أنَّ السماء بناء محكم، تملؤه المادة والطاقة، ولا يمكن اختراقه إلا عن طريق أبواب تفتح فيه، ولولا المعرفة الحقيقية لعروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصناعية، ولما استطاع ريادة الفضاء، حيث أصبح من الثابت أنَّ كلَّ جُرْم متحرك في السماء - مهما كانت كتلته - محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط مُنْحَنٍ يمثل محصلة كل من قوى الجذب والطرد المؤثرة فيه. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص١٧٠).

٢- قال العالم الفلكي أ.عبد الوهاب الراوي: «المشهد الباهر غير المألوف الذي يصفه القرآن الكريم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ هو تأكيد بالفعل لانطباعات رواد الفضاء أثناء مغامراتهم منذ إرسال أول إنسان إلى الفضاء غاغارين سنة ١٩٦١. فعندما يخرج الإنسان من جو الأرض إلى الفضاء الخارجي، لا يبدو له الفضاء كسماء الأرض بلونها الأزرق السماوي، بل بلون أسود». (معجزات القرآن العلمية في الكون، ص١٥٩).

٣- تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم عادة قديمة، وظاهرة شائعة في الأُمم والشعوب، فكما يفعل المشركون بالنبي ﷺ، فكذلك فَعَلَ مَنْ قبلَهم بالرسل.

٤- مطالبة المكذبين المعاندين بالآيات كرؤية الملائكة لا معنى لها، إذ القرآن أكبر آية ولم يؤمنوا به، فلذا لو فتح لهم باب من السماء، فظلُّوا فيه يعرجون، لَمَا آمنوا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

التفسير:

١٦-١٨- يُقسِمُ الله تعالى مؤكِّداً بيانَ عظيم قدرته في صنعه، وكريم عطائه لخَلْقِه: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للنجوم والكواكب، وزَيَّنَّا هذه السماء لكل مَنْ له القدرة على النظر، والتفكُّر في عظمة الخالق سبحانه، وحَفِظْنا هذه السماء الدنيا من كلِّ شيطان مستحق للرَّجْمِ، مطرود من رحمة الله، إلا مَنْ اختلس شيئاً من أخبار السماء، فإنَّ الشهب النارية المضيئة تَلْحقه، وتحرقه.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون منها مئة كِذْبة من عند أنفسهم». (صحيح البخاري ٦/ ٣٥٠-٣٥١ - كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة برقم ٣٢١٠، وصحيح مسلم - السلام - باب تحريم الكهانة ٤ / ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٨).

١٩-٢١- والأرض بَسَطْناها، ووسَّعناها، وجَعَلْنا فيها جبالاً ثابتةً، وأنبتنا فيها من كل أنواع النبات من كل شيء مُقَدَّر ومعلوم بدقَّة وإحكام، وجَعَلْنا لكم فيها كل ما تحتاجون إليه للحياة من مطاعم ومشارب وغيرها ممَّنْ ليس رِزْقُهم عليكم، وإنَّما هو على ربِّ العباد، وما من شيء من أرزاق العباد والمنافع إلا عندنا خزائن رِزْقِه، وما نُنَزِّله إلا حسب الحاجة والمصالح بمقدار معلوم.

٢٢- وأرسلنا الرياح تُلَقِّح السحاب، فيُنزل مطراً، وتلقِّح الشجر فتحمل ثمراً، وجعلنا المطر سُقيا لكم ولزرعكم ومواشيكم، ولستم بقادرين على حِفْظِه، بل نحن نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار.

٢٣-٢٤- وإنَّنا نحن - بما لنا من العظمة والقدرة - نُحْيي مَنْ كان ميتاً، ونُميت مَنْ كان حيَّاً بعد انتهاء الأجل، ولا أحد يقدر على ذلك، ونحن نَرِثُ الأرض ومَنْ عليها. وقسماً لقد عَلِمْنا مَنْ مات منكم، ومَنْ هو حي، منذ خلق آدم، ونعلم مَنْ سيُخلق من الناس إلى يوم القيامة.

٢٥- وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - هو يجمعهم للحساب والثواب والعقاب. إنَّه حكيم في أقواله وأفعاله، عليم بخلقه.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: صورة سقوط الشهاب، كما في الملحق.

٢- هنالك توازنٌ دقيق بين ما يأخذه الإنسان وبين ما يطلقه النبات من الأكسجين. وتوازن آخر بين ما يطلقه الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأخذه النبات من هذا الغاز. وهذه النسب قاسها العلماء حديثاً بكل دقة. فنسبة الأكسجين في الغلاف الجوي هي ٢١٪ تقريباً، ولو زادت هذه النسبة لاحترقت الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه النسبة قليلاً لماتت الكائنات اختناقاً، أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي فهي أقل من ١٪، ولو زادت هذه النسبة لتسمَّمَ البشر وماتوا جميعاً، ولو نقصت لَماتت النباتات وتوقفت الحياة. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/243-2010-09-09-22-34-40)

٣- إنَّ نموَّ السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقح الرياح هذه السحب بأكداس من جُسَيمات مجهرية تسمى (نُوَيَّات التكاثف)، ومن أهم خواص هذه النويات أنها تمتص الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرياح كذلك بخار الماء وتلقح به السحاب؛ لكي يمطر. (من روائع الإعجاز في القرآن: الدكتور جمال الدين الفندي، ص ٨٤). وينظر: صورة الرياح اللواقح، كما في الملحق.

٤- رِزْقُ جميع الخلق على الله تعالى، وظَنُّ بعض الجهال في كثير من الأحيان أنَّهم هم الذين يَرزقون العيال والخدم خطأٌ كبير، لأنَّ الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك، وقد خلق تعالى الأطعمة والأشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة وإلا لم يحصل لأحد رزق.

٥- الله تعالى عالم بجميع المخلوقات المتقدمة والمتأخرة إلى يوم القيامة، وإنَّه تعالى سيحشر الناس جميعا للحساب والجزاء.

٦- في توسط ضمير «هو» (الآية:٢٥) دلالة على أنَّ الله هو القادر والمتولي لحشرهم لا غيره، وتصدير الجملة بـ«إنَّ» لتحقيق الوعد والتنبيه على أنَّ ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعِلْمِه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ١٩٨).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٧- قسماً لقد خَلَقْنا آدم عليه السلام من طين يابس متغير يُسْمَعُ صوته إذا نُقر عليه أو حُرِّك، وخَلَقْنا إبليس أبا الجن من قَبْلِ آدم من نارٍ شديدة الحرارة، تنفذ في المسام، فتقتل من شدَّة حرِّها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من مارج من نار، وخُلِقَ آدم ممَّا وُصِفَ لكم». (صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤ - كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة برقم ٢٩٩٦).

٢٨-٢٩- يُذَكِّر الله تعالى بقصة آدم وإبليس، حين خاطب الملائكة: إنِّي سأخلق بشراً من طين يابس متغير، فإذا سَوَّيْتُه، وأتممتُ خَلْقَه، ونَفَخْتُ فيه من روحي، فصار حيَّاً، فاسجدوا له.

٣٠-٣١- فأطاعت الملائكة، وسجدوا كلُّهم أجمعون، لكن إبليس الذي كان مع الملائكة امتنع من السجود.

٣٢-٣٣- قال الله تعالى لإبليس مُنْكِراً عليه: ما المانع لك من السجود؟ فأجاب متكبِّراً: لا ينبغي لي أن أسجدَ لبشر مخلوق من طين يابس متغير.

٣٤-٣٥- خاطب الله إبليس إهانة له: اخرُجْ من الجنَّة، فإنَّك مطرودٌ من رحمتي، وإنَّ عليك لعنتي إلى يوم الحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١- أخرج الطبري بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب، وأما اللازب: فالجيد، وأما الحمأ: فالحماة، وأما الصلصال: فالتراب المرقق، وإنما سُمِّيَ إنساناً لأنَّه عهد إليه فنسي.

٢- إضافة الروح إلى الله سبحانه وتعالى تشريف لها كما يقال: بيت الله. (السراج المنير للخطيب الشربيني ٢/ ٢٠١)

٣- بيان فضل السجود، إذ أمر تعالى به الملائكة فسجدوا أجمعون إلا إبليس.

٤- ذَمُّ الكِبْر، وأنَّه عائق لصاحبه عن الكمال في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

٥- الحرف «إلى» يفيد في أصل معناه انتهاء الغاية، ولكنه لا يفيد في الآية (٣٥) أنَّ اللعنة تزول يوم القيامة؛ لأنَّ المراد التأبيد. (ينظر: السراج المنير ٢/ ٢٠٢).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٨- ثمَّ طلب إبليس إلى ربِّه أن يمهله بالبقاء إلى يوم البعث، فأمهله الله تعالى إلى ذلك الوقت المحدَّد يوم القيامة.

٣٩-٤٠- ثمَّ أعلن إبليس الانتقام من آدم وذريَّته: ربِّ بسبب ما أَضْلَلْتَني من أجل آدم، قسماً لأُزَيِّنَنَّ لبني آدم المعاصي في الدنيا، ولَأُضِلَّنَّهم عن طريق الهدى، إلا عبادك المؤمنين الذين أخلصوا لك العبادة.

٤١-٤٢- فأجابه الله: هذا طريقٌ عليَّ إقامتُه، وسُنَّةٌ لا تَتَخَلَّف: إنَّ عبادي المؤمنين لا طاقة لك على إضلالهم، إلا مَنِ اتَّبعك على الكفر والمعاصي من الضالين.

٤٣-٤٤- وإنَّ نار جهنم لَموعد هؤلاء الضالين جميعاً، ولجهنم سبعة أبواب، لكلِّ فريق من أتباع إبليس الضالِّين باب معلوم يدخلون منه قَدْرَ جرائمهم.

٤٥-٤٨- إنَّ المتقين الذين أطاعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيَه في بساتين أرضُها خِصْبة، وعيونٍ مياهها عذبة يقال لهم: ادخلوها من أبوابها الثمانية سالمين من كلِّ شرٍّ، آمنين من كلِّ خوف. ونزعنا ما في صدورهم من حِقْدٍ وعداوة يَنْعَمُون بالأخوَّة والمحبَّة، يجلسون على سُرُرٍ مستأنسين، يقابِلُ بعضهم بعضاً، لا يصيبهم فيها تعب، وهم فيها مقيمون دائماً. عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أَذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا». (صحيح البخاري ١١/ ٤٠٣ برقم ٦٥٣٥ - كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة).

٤٩-٥٠- أَخْبِرْ عبادي إخباراً أكيداً: أنِّي وحدي الغفور لعبادي التائبين، الرحيم بهم، وأنَّ عذابي وحده هو العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- من الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى.

٢- السلاح الذي يغوي به إبليسُ بني آدم هو التزيين للأشياء، حتى ولو كانت دميمةً قبيحة، يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي.

٣- في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وعيد وتهديد، كقولك لِـمَنْ تهدده: طريقك عليَّ، ومصيرك إليَّ، بمعنى: أجازي كلاً بعمله.

٤- في الآية (٤٢) إشارة إلى نجاة المخلصين من إبليس، وأنَّه لا يقدر عليهم. (التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ١/ ٤١٨).

٥- المراد بالإخوة هنا الإخوة في المودة والمخالطة، كما قال تعالى في الزخرف الآية (٦٧) ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس المراد الإخوة في النسب.

٦- إضافة العباد إلى الله ﷻ تشريفٌ لهم مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ وفيه تشريف لرسول الله ﷺ [الإسراء: ١]. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٥).

٧- قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ ﴾ وهي آية ترجية وتخويف، ويدخل فيه المؤمن المطيع والمؤمن العاصي، وكل ذلك يدلُّ على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى. (التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ٤١٨).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥١- وأخبِرْهم إخباراً عظيماً عن قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة.

٥٢- حين دخلوا على إبراهيم عليه السلام وسَلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام، وبعد أن قَدَّم لهم الطعام، ورأى أيديهم لا تصل إليه قال: إنَّا منكم خائفون.

٥٣- فأجابت الملائكة: لا تَخَفْ إنَّا جئنا نُبَشِّرك بولدٍ غزير العلم اسمه إسحاق.

٥٤-٥٥- قال إبراهيم عليه السلام متعجِّباً طالباً التأكُّد من البشرى: أبشَّرْتموني بالولد وأنا كبير السن، وكذلك زوجتي، فبأيِّ شيء تُبَشِّرونني؟ فأكَّدت الملائكة بقولهم: بَشَّرْناك بأمر ثابت مقطوع به من عند الله تعالى، فلا تكن من اليائسين أن يولد لك ولد.

٥٦-٥٧- فاطمأن إبراهيم عليه السلام وقال: لا يَيْئَس من رحمة الله تعالى إلا المنحرفون عن طريق الحق، ثمَّ سأل: فما الأمر العظيم الذي جئتم من أجله؟

٥٨-٦٠- فأجابوه: إنَّا أرسلَنا اللهُ تعالى لإهلاك قوم لوط المرتكبين الجريمة البشعة، إلا لوطاً وأهله المؤمنين به، سننقذهم من الدمار أجمعين، إلا امرأته الكافرة حَكَمْنا بإهلاكها مع الباقين في العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية الضيافة، وأنَّها من صفات البر والكرم.

٢- تعليم أدب الضيف بالتحية والسلام حين القدوم على الآخرين.

٣- أراد إبراهيم عليه السلام مِن استفهامه في قوله تعالى: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ التعجب من مخالفة العادة، وحصول الولد حال الشيخوخة التامة من الأبوين معاً. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٦، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ١١/ ٤٦٩).

٤- حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى.

٥- التنديد بالإجرام، وبيان عقوبة المجرمين.

٦- لا قيمة للنسب ولا للمصاهرة، ولا عبرة بالقرابة، فامرأة لوط هلكت مع الهالكين، ولم يشفع لها أنّها زوجة نبي من الأنبياء.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير:

٦١-٦٢- فلما وصلت الملائكة المرسلون بيت لوط ﷺ، قال لوط مُنكراً مُتعجِّباً: إنّكم قوم لا أعرفكم، فماذا تريدون؟

٦٣-٦٤- قالوا: بل نحن رسل الله، جئنا بالعقاب الذي كانوا يَشُكُّون فيه ولا يُصَدِّقون، وأتيناك بالحق الثابت الفاصل بينك وبينهم، وإنّنا لصادقون حقّاً فيما نقول.

٦٥- فاخرُجْ مع أهلك وأتباعك عندما يشتدُّ ظلام الليل، وكن وراءهم؛ رعاية لهم، ولا يلتفت منكم أحد إلى الخلف حفظاً على الأبصار والقلوب من العذاب وأحواله، وسيروا سيراً حثيثاً حيث أمركم الله تعالى.

٦٦- وأوحينا إلى لوط ﷺ ذلك الأمر الهائل: أنَّ المجرمين من قومك سيُدَمَّرون جميعاً عن آخرهم عند طلوع ضوء الصبح.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية المشي بالليل (السفر) لقطع المسافات البعيدة.

٢- مشروعية مشي المسؤول وكبير القوم وراء الجيش والقافلة؛ لتفقُّد أحوالهم، والاطلاع على مَنْ يتخلَّفُ منهم لأمر، وكذا كان رسول الله ﷺ يفعل.

٣- كراهية الإشفاق على الظَّلَمة الهالكين، لقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بقلبه.

٤- النهي عن مجرد الالتفات يفيد أنَّ ثمة شعاعاً أو عذاباً يؤذي النظر عند الالتفات.

٥- الرعاية والإرشادات الربانية لأهل لوط.

٦- تأييد الله تعالى نبيه لوط ﷺ بالملائكة.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٧- وجاء أرباب الفاحشة إلى لوط، حينما علموا بوصول الضيوف، وهم فرحون.

٦٨-٦٩- قال لوط عليه السلام لهم: إنَّ هؤلاء ضيوفي، فلا تفضحوني بارتكابكم الفاحشة بهم، واتَّقوا الله فينا، ولا تُلْحِقُوا بي الذلَّ والهوان.

٧٠- قال العصاة بوقاحة: أولم نَنْهَكَ يا لوط أن تستضيف أحداً من العالمين، ثمَّ تمنعنا أن نفعل ما نريد؟

٧١- قال لوط: هؤلاء بنات قومي تَزَوَّجُوهنَّ إن كنتم تريدون أن تعصموا أنفسكم.

٧٢-٧٣- يُقسم الله تعالى بحياة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ تكريماً له - ولا يجوز ذلك لغير الله تعالى - وتأكيداً للانتقام من قومه بأنَّهم في غَوايتهم يتخبَّطون لم يأبهوا بنصيحة، فأخذتهم الصيحة المزلزلة وقت شروق الشمس.

٧٤- فجعلنا عاليَ بلدتهم سافلها، فقلبناها، وأمطرنا عليها حجارة من طين مَتَصَلِّب متتابع.

٧٥-٧٧- إنَّ في ذلك العقابِ المخيف لَمواعظَ عظيمة للمُتَفَرِّسين، وإن بلدانهم على طريق ثابت يراها المسافرون ما بين الشام والحجاز. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من حالها لَعلامةً عظيمة في الدلالة على توحيد الله للمصدِّقين به.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إكرام الضيف.

٢- شرف النبي ﷺ، إذ أقسم الله تعالى بحياته في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، قال ابن العربي: «قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هنا بحياةِ محمدٍ ﷺ تشريفاً له». (أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٠٥).

٣- عذَّب الله تعالى قوم لوط عليه السلام بثلاثة أنواع من العذاب أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة، وثانيها: أنه جعل عاليها سافلها، وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢٠٩).

٤- ينظر: صورة آثار قوم لوط عليه السلام في الملحق.

٥- بيان نقمة الله تعالى من الظالمين؛ للاعتبار والاتعاظ.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

التفسير:

٧٨-٧٩- وقد كان أهل المدينة الملتفَّة الشَّجَر من قوم شعيب عليه السلام ظالمين لأنفسهم؛ بسبب تكذيبهم لله ولرسولهم شعيب، فدمَّرناهم، وإنَّ ديار قومَيْ لوط وشعيب لَفي طريق معروف يَمُرُّ بها الناس المسافرون ما بين الحجاز والشام.

٨٠-٨٤- وقسماً لقد كَذَّب أهل الحجر - تقع شمال المدينة - من قوم ثمود نبيَّهم صالحاً عليه السلام، وآتيناهم آيات عظيمة، منها الناقة العجيبة، فلم يقتنعوا بها فكَذَّبوا بها، وكانوا ينحتون الجبال الشامخة؛ ليتَّخذوا منها بيوتاً، وهم مطمئنون على سلامة أنفسهم ومعايشهم، فأخذتهم الصيحةُ المزلزلةُ المدمِّرة، فما نَفَعَهم ما كانوا يملكون من الأموال والحصون.

الفوائد والاستنباطات:

١- المراد بالآيات في قوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ آيات الكتاب المنزل على صالح عليه السلام، أو المعجزات كالناقة، وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة، وعظيم خَلْقِها، وقرب ولادتها، وغزارة لبنها. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢١٠).

٢- إضافة الآيات إلى قوم صالح في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ وإن كانت لنبيِّهم صالح عليه السلام؛ لأنَّه مرسل من ربهم إليهم بهذه الآيات. (السراج المنير للخطيب الشربيني: ٢/ ٢١٠).

٣- إذا أراد الله هلاك أُمة فإن قوتها المادية لا تغني عنها شيئاً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

التفسير:

٨٥-٨٦- وما خَلَقْنا السموات السبع والأرَضين السبع، وما بينهما من الخلائق إلا بالعدل، فمَنْ نحا نَحْوَ الظلم فإنَّ العقوبة جزاؤه عاجلاً أو آجلاً. فاصبر - يا محمَّد - على أذى المشركين، واعفُ عنهم عفواً حسناً دون عتاب وعقاب، إنَّ ربَّك هو خالق كل شيء، أجيالاً متتالية ومخلوقات متجددة، العليم بهم وبما يصلح شؤونهم.

٨٧- قسماً لقد أعطيناك - أيُّها الرسول - سبع آيات كريمة تتكرَّر في كلِّ صلاة، وهي سورة الفاتحة، وأنزلنا عليك القرآن العظيم بأحكامه الرشيدة، وفصاحته المُبينة.

٨٨-٨٩- لا تنظرَنَّ نِظْرَةَ رغبة وتمنٍّ إلى الكفَّار الذين مَتَّعْناهم بشتَّى الأصناف من حُطام الدنيا، ولا تحزن على كفرهم، وواظِبْ على تَواضُعِك للمصدِّقين برسالتك، وقل للناس: إنَّني أنا المنذر من عذاب الله، المُوَضِّح لطريق الهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: «مَرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آتِهِ حتى صلَّيت، ثم أتيتُ فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنتُ أُصَلِّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؟ [الأنفال:٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورةٍ في القرآن قبلَ أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته».
(صحيح البخاري ٨/ ٢٣٢ - كتاب التفسير - سورة الحجر، باب (الآية) برقم٤٧٠٣).

٢- ثبت علمياً أن تركيب كل نطاق من نُطُقِ الغلاف الغازي للأرض، وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكوناً خليطاً من مادتها، وهذه المادة الفاصلة بين السماء والأرض تَكَوَّنَتْ باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكين مع ما كان حول الأرض من مادة ما بين الكواكب، فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض وهو خليط

مكون من مادة الأرض، ومادة السماء الدنيا فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

٣- المقصود من قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أن يُظهر الخلق الحسن، والعفو، والصفح.

٤- أطلق اسم «السبع المثاني» على الفاتحة لأنها سبع آيات، وهذا ما عليه أكثر المفسرين.

٥- تسمية الفاتحة بالمثاني لعدة وجوه، منها الأوَّل: أنَّها تُثَنَّى في كل صلاة بمعنى أنَّها تقرأ في كل ركعة. الثاني: أنَّها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها. الثالث: أنَّها قسمت قسمين اثنين لما رُوِيَ أنه ﷺ قال: «يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» والحديث مشهور، الرابع: أنَّها قسمان اثنان ثناء ودعاء، وأيضاً النصف الأوَّل منها حقُّ الربوبية وهو الثناء، والنصف الثاني حقُّ العبودية وهو الدعاء. الخامس: أنَّ كلماتها مثناة مثل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾.

(السراج المنير للخطيب الشربيني، ٢/ ٢١١).

٦- على الدعاة إلى الله ألَّا يلتفتوا إلى ما في أيدي الناس من مالٍ ومتاع، فإنَّ ما آتاهم الله من الإيمان والعلم والتقوى خير ممَّا آتى أولئك من المال والمتاع.

٧- استحباب لين الجانب للمؤمنين، والعطف عليهم، والرحمة لهم.

﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

التفسير:

٩٠- وأنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول - كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل، الذين آمنوا ببعض كتابهم، وكفروا ببعضه، فانقسموا قسمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض، اليهود والنصارى. (صحيح البخاري - التفسير - سورة الحجر، الآية، برقم ٤٧٠٦).

٩١- هؤلاء هم الذين أجرموا بحقِّ القرآن الكريم؛ إذ جعلوه أجزاءً متفرِّقة، فآمنوا ببعضها، وكفروا ببعض حسب أهوائهم، ومصالحهم.

٩٢-٩٣- فأُقسم بربِّك - أيها النبي - لَنُحاسبنَّ الخلائق جميعاً حقّاً عمّا كانوا يعملون من خير أو شرٍّ.

٩٤-٩٦- فأعْلِنْ دعوتك، واجْهَرْ بها بقوَّة لتبلِّغَ أمر ربِّك سبحانه، ولا تَأْبَهْ بما يقوله المشركون، إنَّا كفيناك شرَّ أعدائك الساخرين من كفَّار قريش، الذين اتَّخذوا شركاء مع الله، فسوف يعلمون عاقبة ضلالهم.

٩٧-٩٩- وقسماً لقد نعلم أنَّ صدرك يضيق - أيها الرسول - بالحزن؛ بسبب جرائم المشركين من الإشاعات والتكذيب لدعوتك، فسَبِّح بحَمْدِ خالقك وناصرك، وأكثِرْ من الثناء عليه والشكر له، وكن من المصلِّين لله، وواظِبْ على عبادة الله تعالى دائماً حتى يأتيك الموت.

الفوائد والاستنباطات:

١- حرمة الاختلاف في كتاب الله تعالى على نحو ما اختلف فيه أهل الكتاب.

٢- مشروعية الجهر بالحق وبيانه، ولاسيما إذا لم يكن هناك اضطهاد.

٣- في الآية (٩٥) إخبار مستقبليٌّ عن دفاع الله تعالى لرسوله الأمين ﷺ، ودَحْرِه للمستهزئين به.

٤- فضل التسبيح بجملة: سبحان الله وبحمده.

٥- مشروعية صلاة الحاجة فمَنْ حَزَبَه أمر أو ضاق به، فَلْيُصَلِّ صلاةً يُفَرِّج الله تعالى بها ما به، أو يقضي حاجته إن شاء، وهو العليم الحكيم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير توحيد الألوهية.

٢ - تقرير الوحي والبعث.

٣ - إقامة الدلائل والبراهين على وحدانية الله تعالى.

٤ - بيان أهمية شكر الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - يُنذر الله تعالى مِنْ قرب قيام الساعة ودُنُوِّها - مُعَبِّراً بصيغة الماضي الدالِّ على التحقُّق والوقوع - فلا تطلبوا تعجيل العذاب أيها المشركون، تَنَزَّه الله وتَقَدَّس عن الشرك.

٢ - يُنَزِّل الله تعالى الملائكة بالوحي من أمره تعالى على مَنْ يشاء من عباده المرسلين، بأن أَنْذِرُوا الناس بسبب أنَّه لا معبود بحق إلا الله، فاتَّقوني بطاعتي لأوامري، واجتناب المعاصي.

٣ - خلق الله تعالى السموات السبع والأرَضين السبع بالحق الثابت، تَعاظَمَ الله، وتَـمَجَّدَ عن الشريك والنظير.

٤- خلق الله سبحانه الإنسان من ماء مهين - وهو الـمَنِيُّ - فإذا هو شديد الخصومة في إنكار البعث والحساب.

٥-٦- يَمْتَنُّ الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الإبل والبقر والغنم والضأن، وبما جعل لهم فيها من المنافع، يلبسون ويفترشون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويشربون من ألبانها، ويأكلون من لحومها، ولهم فيها جَمال حين يَرِدُونها بالعَشِيِّ من مَراعيها، وحين خروجها صباحاً إلى المرعى.

٧- وبعضُ هذه الأنعام تحمل أمتعتكم الثقيلة إلى بلد بعيد لم تصلوا إليه إلا بعد جهد يشقُّ على النفوس. إنَّ خالقكم ومُدَبِّر شؤونكم لَذو رأفة شديدة، وذو رحمة واسعة بكم.

٨- وخلق لكم حيوانات كالخيل والبغال والحمير، أعَدَّها؛ لتركبوا عليها عند السفر والتنقُّل، ولتتزيَّنوا بها، ولاسيما ركوب الخيول الأصيلة، ويخلق لكم ما لا تعلمون من المخلوقات التي تنفعكم.

٩- وعلى الله تعالى - بفضله - بيان طريق الحقِّ لكم، وهو دين الإسلام، ومن الطريق ما هو أعوج لا يُوصِل إلى طريق الحقِّ، بل إلى الضلالة والهلاك، ولو شاء الله هدايتكم لهداكم إلى الحقِّ جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسمية الوحي بالروح من أجل أنَّه يُحيي القلوب، كما تُحيي الأرواحُ الأجسامَ.

٢- جميع الرسل أُمروا أن يُنذروا مَنْ أُرسلوا إليهم بالإقرار بتوحيد الألوهية.

٣- الحكم بأنَّ الله لم يخلق الكون العلوي والسفلي عبثاً، بل لحكمة إلهية وهي عبادته وحده.

٤- تأكيد عظمة الإسلام، ودعوته للرفق ليس بالإنسان فحسب، بل بالحيوان كذلك.

٥- أنواع الحيوانات وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحدِّ والإحصاء، فكان أحسن الأحوال ذِكْرَها على سبيل الإجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢١٨).

٦- فَضْلُ الله مستمر لم ينقطع، فقد خَلق لنا غير الأنعام والدواب فقال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشمل كل وسائل النقل والركوب الحديثة.

٧- الإسلام هو السبيل التي بَيَّنَها تعالى فضلاً منه ورحمة، وما عداه سبل جائرة عن العدل والحق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٠-١١ - الله وحده سبحانه هو الذي أنزل بقدرته العظيمة من السحاب مطراً لكم؛ لتشربوا منه، ولتسقوا النبات الذي فيه تَرْعَوْن دوابَّكم، يُخرج لكم بماء المطر أنواع الزروع، ويُخرج به الزيتون والنخيل والأعناب ومن جميع أصناف الثمار. إنَّ في ذلك النعيم الكريم لَدلائل مشاهَدة لقوم يتفكَّرون في عظمة هذه النِّعم التي تَدُلُّ على توحيد الله الخالق لها.

١٢ - وذلَّل لكم الليل والنهار، يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم، وذلَّل لكم الشمس والقمر يدوران لمصالحكم، والنجوم مذلَّلات تجري في فلكها بأمره تعالى؛ لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحر. إنَّ في ذلك التسخير العظيم الشأن لَدلالاتٍ مُشاهَدة لقوم يعقلون عظمة الله وتدبيره سبحانه.

١٣ - وخلق لكم ما في الأرض من المخلوقات المتنوعة بأحجامها وألوانها وفوائدها، من النبات والحيوان والجماد. إنَّ في ذلك الخلق الكثير لَعِبرةً لقوم يتَّعظون بها، ويؤمنون بخالقها.

١٤ - والله تعالى هو الذي ذَلَّل لكم البحر بسعته وعجائبه؛ لتأكلوا وتصطادوا منه اللحوم اللينة الطيبة كالأسماك وغيرها، ولتستخرجوا منه زينة بالغَوْص للوصول إلى اللؤلؤ والمرجان، وترى السفن تَشُقُّ عُباب البحر ذهاباً وإياباً وهي تحملكم مع أمتعتكم، ولتطلبوا الرزق بالتجارة؛ لكي تشكروا ربَّكم قولاً وعملاً على هذه النِّعم التي لا تُحصى.

١٥-١٦ - وثَبَّتَ في الأرض جبالاً راسخة؛ لئلا تضطرب الأرض بكم، وصَبَّ فيها أنهاراً عذبة، وشَقَّ فيها طرقاً مُذَلَّلة؛ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم وأماكنكم، وهذه الجبال والأنهار والطرق جعلها الله تعالى معالم تستدلُّون بها في وضح النهار، وجعل النجوم معالم للاهتداء بها في ظلام الليل.

١٧ - يُنكر الله تعالى على المشركين مُوَبِّخاً لهم: أتُسَوُّون بين الخالق لهذه الأمور العظيمة والآلهة المزعومة التي لا تخلق شيئاً؟ أفلا تتذكَّرون قدرة الله، فتؤمنون به؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذُكر أولاً الزرع وهو الحَبُّ الذي يُقتاتُ به كالحنطة والشعير والأرز؛ لأنَّ به قوامَ البدن، ثم ذُكر الزيتون؛ لما فيه من الأدم والدهن، وثلث بذكر النخيل؛ لأنَّ ثمرها غذاء وفاكهة، وختم بذكر الأعناب؛ لأنَّه شبيه النخيل في المنفعة من التفكه والتغذية.

٢ - ينظر: صورة الأعناب، كما في الملحق.

٣ - ينظر: صورة ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كما في الملحق.

٤ - أثبت الخبراء أنَّ طراوة لحوم البحار سواء كان ماؤها عذباً فراتاً، أو مِلْحاً أُجاجاً، نابعٌ من التركيب التشريحي والفحص الميكروسكوبي لهذه اللحوم. (مجلة الإعجاز العلمي ص١٤، العدد (٣٧)، رمضان ١٤٣١هـ).

٥ - ينظر: صورة نماذج من الحلية، كما في الملحق.

٦ - كثرة منافع البحار والأنهار وتنوعها، ممَّا يقتضي شكر المنعم بها، والمحافظة عليها والاعتناء بها.

٧ - فضيلة التفكر والتذكر والتعقل وذَمُّ أضدادها؛ لأنَّ الآيات الكونية كالآيات القرآنية، إذا لم يتفكر فيها العبد لا يهتدي إلى معرفة الحق المنشود، وهو معرفة الله تعالى؛ ليعبده العبد بالذِّكر والشكر وحده دون سواه.

٨ - وجوب الشكر لله تعالى، ووجوب التفكر في آياته.

٩ - تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أنَّ توزيع الجبال على الكرة الأرضية؛ لحفظ توازن الأرض، فكأنَّ الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها وتحفظ عليها حركتها . (من الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل، ص٥٦، ٥٧). وقال العالم الفلكي د.داود سلمان السعدي: «اكتشف العلماء في القرن العشرين أنَّ الأرض تتصدع وتتحرَّك ألواح قشرتها بشكل دائم، ولكن ببطء لا يُحَسُّ به، فالجبل الذي يخرج من باطن الأرض إلى سطحها هو بمثابة الوتد الذي يُثبِّت قشرة الأرض عن جانبيه، ولقد ثبت علمياً أنَّ الجبل يمتد أربع مرَّات ونصف تقريباً داخل طبقات الأرض السفلى، حسبما أثبتته وسائل التصوير الهولوغرافي». (أسرار الكون في القرآن، ص١٦٩). وينظر: مخطط وتد الجبل في الملحق.

١٠ - تُغَذَّى الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الأرض من مثل الجبال، كما تُغَذَّى من ذَوَبان الجليد من أماكن تجمُّعِهِ في قمم الجبال، ومن أطراف حقول الجليد. كذلك فإنَّ مجاري الأنهار تتعرض للانتقال البطيء مع الزمن أو للجفاف، ومع جفاف مجرى النهر أو تغييره يترك المجرى القديم سبيلاً ميسراً

لحركة كل من الإنسان والحيوان، ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر الأنهار والسبل، حيث إنَّ الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الأرضية الوعرة.

١١ - ينظر: صورة الاهتداء بالنجم، كما في الملحق.

١٢ - بيان تميُّز الله عن كل شيء بصفة الخالقية، وأنَّه إنَّما استحق الإلهية والعبودية؛ لكونه تعالى خالقاً، وهذا يقتضي أنَّ عبادة أيِّ مخلوق باطلة. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢٢٣).

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨ - نِعَمُ الله تعالى كثيرة، وإن حاولتم حصر عددها فلا تقدرون على إحصائها؛ لكثرتها. إنَّ الله لغفور لِـمَنْ تاب، رحيم بالعباد.

١٩ - والله سبحانه قد أحاط علماً بكل ما تُخفونه وما تظهرونه من الأقوال والأعمال.

٢٠-٢١- والأوثان التي يعبدها المشركون لا تَقْدِرُ على خَلْق شيء، وهي مصنوعة بأيدي عابديها، وهذه الأصنام جمادات لا روح فيها، ولا تدري متى البعث.

٢٢ - إلهكم - أيها الناس - المستحق للعبادة إله واحد لا شريك له، فالذين يجحدون الآخرة قلوبُهم تُكَذِّب بوحدانية الله ﷻ، وهم متكبِّرون عن قبول الحق.

٢٣-٢٤- لا ريب أنَّ الله تعالى يعلم ما يُخْفُون وما يُظْهِرون من النيَّات والرزايا. إنَّه سبحانه لا يحب المستكبرين على الحق، الذين إذا قيل لهم: أيَّ شيء أنزل ربُّكم على رسوله ﷺ؟ أجابوا بسخرية: أُنزل عليه أباطيل الأُمم السابقة!

الفوائد والاستنباطات:

١- عَجْزُ الإنسان عن إحصاء نِعَمِ الله عليه، يقتضي منه شكره عليها.

٢- التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق وذمّها إذ هي سبب كثير من الذنوب والسيئات.

٣- الحكم بأنَّ عبادة الأوثان والأصنام باطلة، وأنَّ الوحدانية لله.

٤- تَرْكُ الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء هو سبب كلِّ شرٍّ وفساد يأتيه العبد.

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٥- وعاقبة هؤلاء المضلِّين أن يتحمَّلوا ذنوبهم كاملة يوم القيامة، ويضاف إليها ذنوب الذين أضلوهم بالكذب، ألا فانتبهوا أيُّها الأنام، بئس ما كانوا يحملون من ركام الآثام.

٢٦- وقد سبق هؤلاء المضلِّين أشباهُهم، دبَّروا المكايد لأنبيائهم والمؤمنين من أتباعهم، فأبطل الله تعالى كيدهم بتدمير ديارهم، فدَمَّر بُنيانهم من أُسُسِه، فسقط عليهم السقف، فدَمَّرهم من حيث لم يحتسبوا. وهذا تمثيل بليغ لبيان إحباط ما أبرموه من المكر.

٢٧- ثمَّ يومَ القيامة يُذِلُّهم الله تعالى بخطابه لهم لوماً وتقريعاً: أين الشركاء الذين عبدتموهم وخاصمتم من أجلهم الأنبياء والمؤمنين؟ قال العلماء من المؤمنين العاملين: إنَّ الذُّلَّ والهَوان والعذاب في هذا اليوم على المكذِّبين بالله ورسله.

٢٨-٢٩- هؤلاء المكذِّبون تقبض الملائكةُ الموكلة بالموت أرواحهم الخبيثة، حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر، فانقادوا، واستسلموا عند الموت، وكذَّبوا أيضاً بقولهم: ما كُنَّا نعمل شيئاً من كفر أو شرك. فيُرَدُّ عليهم: إنَّ الله عليم بما كنتم تقترفون من الجرائم، وبسبب ذلك ستُؤْمَرُون بدخول أبواب جهنَّم السبعة ماكثين في نار جهنَّم أبداً، فلبئس مَقَرُّ المتكبِّرين عن الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان عظيم إثم مَنْ يضل غيره عن الهدى.

٢- تقرير تكذيب الرسل كان قديماً قبل رسالة محمد ﷺ.

٣- يقول العلماء: تشير الآية إلى حقيقة هندسية وهي: «أنَّ الأساس هو آخر جزء إنشائي ينقل الحمل إلى التربة، وهو الذي يتحمل كل وزن المُنْشأ وينقله بسلام إلى الأرض، وأنَّ معامل الأمان الذي يأخذه المصممون في تصميم الأُسُس يكون أكثر من أي معامل أمان يؤخذ لأيِّ جزء إنشائي آخر؛ وذلك لأنَّه لا يمكن التساهل مع هذا الأمر بسبب أهميته الاستثنائية». (القواعد في القرآن: خالد العبيدي، ص٨).

٤- اختصاص ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة بالكافرين، وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حقِّ غيرهم. (السراج المنير للشربيني ٢/ ٢٢٧).

٥- توبيخ الملائكة المشركين عند قَبْضِ أرواحهم.

٦- محاولة المشركين إنكار أعمالهم في الدنيا في محاولة منهم للهروب من جزائها، ولكن بلا فائدة.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

التفسير:

٣٠-٣١- وقيل للمتَّقين: ماذا أنزل ربُّكم على رسوله؟ قالوا: أنزل الله عليه خيراً عظيماً، وهو القرآن العظيم. للمحسنين بأقوالهم وأفعالهم حياة طيبة في الحياة الدنيا، وما ينالونه في الآخرة من نعيم الجنَّة خير ممَّا أُوتوه في الدنيا، ولَنِعْمَ دار الآخرة دارُ المتَّقين حقَّاً، وهي جنات يدخلونها مُقيمين فيها أبداً، تجري من

تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لهم في هذه الجنات كلُّ ما تشتهيه الأنفس بدون تعب. مثلَ هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المُتَّقين لله.

٣٢- هؤلاء المُتَّقون تقبض الملائكةُ أرواحَهم الطاهرة، ونفوسهم طيبة بلقاء الله، وتُسَلِّم عليهم الملائكة، وتُبَشِّرهم بدخول الجنَّة جزاء صدق إيمانهم، وحسن أعمالهم.

٣٣-٣٤- يُنكر الله تعالى على المشركين مُوَبِّخاً لهم على تماديهم في الباطل: ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين: إما نزول الملائكة بالموت، أو مجيء أَمْرِ الله بتعجيل العذاب. مثل ذلك الكفر فَعَلَ الذين من قبلهم من الأُمم، وما ظلمهم الله بتدميرهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، فأصابهم عقوبات كفرهم، وأحاط بهم العذاب الأليم الذي كانوا يستهزئون به، ويُنْكِرون وقوعه.

٣٥- احتجَّ المشركون بالقضاء والقدر على شركهم، وزعموا أنَّ الله تعالى لو شاء ما أشركوا ولا حرَّموا شيئاً من الأنعام التي أحلَّها. وهذه حجَّة باطلة، فإنَّها لو كانت حقّاً ما عاقب الله تعالى الذين من قبلهم حين أشركوا به، فقد عاقبهم، فلو كان يريد ذلك منهم لَمَا عاقبهم، فليس الواجب على الرسل إلا تبليغ الدعوة بالبيان الحكيم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إطلاق لفظ «خير» على القرآن، فالذي أوتي القرآن أوتي بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار ربِّ العالمين.

٢- الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، والتوفيق للعمل الصالح رحمة من الله وفضل.

٣- إنكار بعثة الرسل كان قديماً في الأمم الخالية. وفي ذلك تسلية للنبيِّ ﷺ.

٤- إنَّ ما يصيب الظلمة من سوء هو بسبب كفرهم واستكبارهم وتكذيبهم للحق.

٥- الردُّ على شُبْهة المشركين في احتجاجهم بالمشيئة الإلهية.

٦- كلُّ إنسان محاسَب على عمله الذي اختار القيام به بمحض إرادته.

٧- اقتصار مهمة الأنبياء على التبليغ والإنذار، لا على الإلزام و الإجبار.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

التفسير:

٣٦- قسماً لقد أرسلنا في كلِّ أُمَّة من الأُمم رسولاً يدعو إلى عبادة الله وحده، ويُحَذِّر من عبادة الأوثان وما يوحيه الشيطان، فانقسم الناس قسمين: فمنهم مَنْ أرشده الله إلى الهداية فاتَّبَعُوا رسلهم، ومنهم مَنْ اتَّبع سبيل الغَواية، فوجبت عليه الضلالة والشقاوة، فامشُوا في الأرض متأمِّلين، وانظروا مصير المكذِّبين السابقين.

٣٧- إن تَحْرِصْ - أيها الرسول - على هداية المشركين، وتبذل غاية الجهد، فاعلم أنَّ الله لا يهدي مَنْ اختار الضلالة، وليس لهم مَنْ يُنْقِذُهم من عذاب الله تعالى.

٣٨-٤٠- وأقسم المشركون بالله مبالِغين ومؤكِّدين بأيمان مغلَّظة: إنَّ الله لا يُحيي أحداً بعد الموت. فردَّ الله عليهم تكذيباً لهم: بلى ليبعثنَّهم، وَعَدَ بذلك وعداً أكيداً، ولكنَّ أكثر الناس لا عِلْمَ لهم يُوصلهم إلى معرفة قدرة الله تعالى على البعث وغيره، سيبعثهم؛ ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث الذي اختلفوا فيه مع المؤمنين، ولكي يعلم الكفَّار أنَّهم كاذبون في حِلْفِهم المغلَّظ أنَّه لا بعث، إنَّما قولنا إذا أردنا شيئاً أن نقول للشيء: كن، فإذا هو كائن.

الفوائد والاستنباطات:

١- بعثة الرسل في كلِّ الأُمم عامة شاملة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الطاغوت.

٢- العاقل مَنْ يعتبر ويَتَّعظ بما حَلَّ بفريق الضالين المكذبين، كيف آل أَمْرُهم إلى الدمار والخراب والعذاب والهلاك؟

٣- لا جدوى من حِرْصِ النبي ﷺ أو غيره على هداية أحد بجُهده وتصميمه لا يحقق الهداية، إن سَبَقَ في عِلْمِ الله ضلالُه، فإنَّه تعالى لا يُرْشِدُ مَنْ أضلَّه، بعد أن ضلَّ سواء السبيل.

٤- تقرير حقيقة البعث، وأنَّه وَعْدٌ على الله حقاً، والذين ينكرونه إنما يفعلون ذلك لفرط جهلهم.

٥- لله القدرة المطلقة، فإذا أراد أن يبعث من يموت فلا تعب عليه ولا نَصَبَ في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما يحدثه في الكون؛ لأنَّه إنَّما يقول له: كن فيكون.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾

التفسير:

٤١-٤٢- والمهاجرون الذين فارقوا الأوطان والأموال من أجل رضا الله تعالى، من بعد ما عُذِّبوا وأُوذُوا، لَنرزقَنَّهم في الدنيا رزقاً حسناً حقّاً، ولَثوابُ الآخرةِ في الجنَّة أعظم، لو كان المتخلِّفون عن الهجرة يعلمون فَضْلَ المهاجرين الذين صبروا على أذى المشركين، وعلى طاعة الله في أوامره، وعلى ربِّهم وحده يعتمدون.

٤٣- وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - إلا رسلاً من الرجال لا من الملائكة، نُوحي إليهم بواسطة الملائكة، وإن كنتم يامشركي قريش لا تُصَدِّقون بذلك، فاسألوا أهلَ العلم بالكتب، إن كنتم لا تعلمون اتِّباع الحق.

٤٤- أولئك الرسل بعثناهم بالمعجزات العجيبة، وبالكتب المنزلة من عند الله، وأنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن لتفصِّلَ للناس أحكامَه، وما يحتاجون إليه من بيان؛ لكي يتأمَّلوا في مواعظه.

٤٥-٤٧- يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار مَكْرَهم توبيخاً وتقريعاً لهم: هل أَمِنَ الذين يتآمرون لأذى الرسول ﷺ والمؤمنين أن يخسف الله تعالى بهم الأرض؟ أو يأتيهم العذاب فجأة من حيث لا يَتَوَقَّعون نزوله؟ أو يهلكهم في أثناء أسفارهم، فما هم بناجين من الهلاك؟ أو يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقِّبين لنزول العذاب؟ فإنَّ ربَّكم ذو رأفة بعباده، رحيم بهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة.

٤٨ - أولم يعتبروا بالمخلوقات الأخرى، ما مِنْ شيء إلا له ظلٌّ كالجبال والأشجار والبنيان، تميل ظلالها من جانب إلى جانب يميناً وشمالاً، إلا هو ساجدٌ لله سجودَ خضوعٍ وانقياد لأمر الله تعالى وتدبيره؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل الهجرة ووجوبها عند اضطهاد المؤمن، وعدم تمكُّنه من عبادة الله تعالى.

٢ - جميع الرسل كانوا بشراً؛ ليتمكنوا من تبليغ رسالة ربهم إلى الناس.

٣ - وجوب سؤال أهل العلم على كلِّ مَنْ لا يعلم أمور دينه من عقيدة وعبادة وحُكْمٍ.

٤ - وجوب اتباع ما جاء في السنة التي بَيَّنَها رسول الله ﷺ لأُمته في قوله، وفِعْلِه، وتقريره.

٥ - لا غنى عن السنة؛ لأنَّها المبيِّنة لمجمل القرآن والموضحة لمعانيه.

٦ - تحريم الأمن مِنْ مَكْرِ الله.

٧ - قدرة الله على إهلاك أعدائه بطرق متعددة ووسائل متنوعة، ولكن لرأفته ورحمته اقتضَتْ تأجيل عذاب بعضهم؛ لعلهم يتوبون، وينتهون عن باطلهم.

٨ - ينظر: صورة أنموذج من الخسف، كما في الملحق.

٩ - الآية (٤٨) تُعبِّر بدقة متناهية عن حركَتَي الظلال من جهة الغرب إلى جهة الشرق، في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي في آنٍ واحد، باستخدام لفظ اليمين كإشارة إلى جهة الشرق، ولفظ الشمائل إلى جهة الغرب. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال. بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص ١٠).

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٩-٥٠- ولله سبحانه يخضع ساجداً على الدوام كلُّ ما في السموات السبع، وكل ما يدبُّ على وجه الأرض، من مخلوقات والملائكة جميعاً، وهم لا يستكبرون عن عبادته وطاعته، بل يخافون ربَّهم من فوقهم بذاته وكمال صفاته، ويفعلون دائماً ما يأمرهم الله تعالى به.

٥١-٥٢- ينهى الله تعالى عباده جميعاً أن يعبدوا إلهين اثنين أو أكثر؛ لأنَّ المعبود بحق هو الله وحده سبحانه، ثم أمر بأن يخافوه وحده، فهو له ملكوت ما في السموات السبع والأرَضين السبع، وله العبادة دائماً، ثمَّ أنكر على الكفَّار: أتخافون غير الله؟

٥٣-٥٤- وما تَفَضَّل الله به عليكم - أيها الناس - من رزق ونعمة، فمِنْ فَضْلِ الله وإحسانه، ثمَّ إذا أصابكم البلاء في الشرِّ فإليه وحده تتوجَّهون بالاستغاثة، ثمَّ إذا استجاب لكم ورُفِعَ عنكم البلاء، إذا فريق منكم ينتكس تارةً أخرى بالشرك مع الله سبحانه.

٥٥-٥٦- يُهَدِّد الله تعالى هؤلاء الذين تَضَرَّعوا ثمَّ أشركوا، فكانت عاقبتهم الكفر بما أنعمنا عليهم، ومِنْ نِعَمِه عليهم إنقاذُهم من الهلاك، فليستمتعوا بدنياهم، فسوف يعلمون عقوبة الولوغ في الكفر، ومن كفرهم أنَّهم يجعلون دائماً لأوثانهم التي لا علم لها جزءاً من النِّعَمِ التي أنعم الله عليهم بها قُرْباناً، ثمَّ يُقْسِمُ الله تعالى بذاته العظيمة بأنَّهم سُيسألون عن ذلك قطعاً.

٥٧-٥٩- ومِنْ كفرهم أيضاً أنَّهم يعتقدون أنَّ الملائكة بنات الله، تنزَّه الله وتقدَّس عَمَّا يقولون، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين، وإذا بُشِّرَ أحدهم بولادة أنثى صار وجهه مُتغيراً بالكآبة والحزن، وهو ساكت من شدة الغمِّ والهم، يختفي خجلاً من لقاء قومه من سوء الخبر، فهو متحيِّر في أمر هذه

البنت: أيتركها تعيش، وهو في غاية الذلّ والهوان؟ أم يدفنها حيَّة في التراب؟ ألا فانتبهوا - أيُّها الناس - من فِعْلِهم، فبئس الحُكْمُ حُكْمُهم في نسبة البنات لربِّهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - مَنْ خاف الله لا يستكبر عن عبادته.

٢ - الملائكة مكلفون، وأنَّهم بين الخوف والرجاء.

٣ - تكرار «اثنين» تأكيد التنفير عنه، وتوقيف العقل على ما فيه من القبح.(السراج المنير للشربيني٢/ ٢٣٦).

٤ - وجوب الرهبة من الله دون سواه.

٥ - في الآيتين (٥٣-٥٤) إخبار مستقبلي عن عباد الله، فيها إذا نزل بهم البلاء والقحط يضجُّون بالدعاء إلى الله وحده. وفيها أيضاً إخبار مستقبلي آخر عن بعض عباد الله في حال انكشاف البلاء والسقم عنهم فإنَّهم يتَّخذون معه الشركاء والأولياء.

٦ - الواجب على الإنسان أن يحمد الله على نعمه، وأن يذكره في حال السراء والضراء.

٧ - كلُّ النعم من الله تعالى، وهو المنعم المتفضل على خلقه.

٨ - جَهْلُ المشركين وسوء فعلهم بتقديم الأموال لأصنامهم وآلهتهم، ونسبة البنات إلى الله تعالى.

٩ - التشنيع بما كان يفعله أهلُ الجاهلية مِنْ كُرْهِهم للبنات، وتحريم ما كانوا يفعلونه من إهانتها، وتفضيل الولد عليها، وحرمانها من الإرث وتشديد التحريم في وأدها.

١٠ - ينظر: صورة أنموذج من الدَّسِّ في التراب، كما في الملحق.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

التفسير:

٦٠-٦١- للكفَّار شعار السوء والقبح وصفة الجهل والنقص، ولله ﷻ الصفات العليا من الكمال والجلال، والاستغناء عن خلقه، فهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير أمورهم، ولو يعجِّل الله العقوبة للناس بسبب كفرهم، لَدمَّرهم جميعاً، ولكن يمهلهم إلى وقت عذابهم أو انتهاء أجلهم، فإذا حَقَّ عليهم العذاب، أو انتهى أجل حياتهم، فإنَّهم لا يتأخَّرون ساعة عنه ولا يتقدَّمون.

٦٢- ومن كفرهم أنَّهم يجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وتلهج ألسنتهم بالكذب والدجل أنَّ لهم حُسن العاقبة بالجنَّة، بلى إنَّ جزاءهم النار، وإنَّهم فيها متروكون منسِيُّون.

٦٣- يُقسم الله تعالى بذاته العظيمة مؤكِّداً أنَّه أرسل رُسُلاً إلى أُمم من قَبْلِ النبيِّ ﷺ، فزيَّن لهم الشيطانُ الخبائث والجرائم، فهو يَتَوَلَّى ضلالهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع.

٦٤- وما أنزلنا عليك القرآن - أيها النبي - إلا لتبيِّنَ غاية البيان للناس ما اختلفوا فيه من الدين، وهداية للبشر، ورحمة لقوم يُصَدِّقون برسالتك.

٦٥- يخبر الله تعالى عن عظيم فضله على الناس وكريم عطائه لهم؛ ليشكروه ويعبدوه كما في الآيات التسع الآتية: والله أنزل من السحاب مطراً فأخرج به النبات من الأرض، بعد أن كانت جافَّة مجدبة. إنَّ في ذلك الماء الكريم والخير العظيم؛ لَدليلاً على قدرة الله تعالى على البعث والربوبية لقوم يسمعون الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- الله حليم بعباده فلا يستعجل العذاب للظالمين منهم، بل ينظرهم إلى آجالهم التي سَمَّاها لهم، لعلهم يتوبون إليه.

٢- في الآية (٦١) إخبار مستقبلي عن أنَّ الله يُبقي هؤلاء الكفرة والمفترين إلى وقت محدَّد، وهو نهاية آجالهم، فإذا جاء أجلهم لا يتأخَّرون عنه وقتاً يسيراً، ولا يتقدَّمون.

٣- سُنَّةُ الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي، وما محمد ﷺ إلا كغيره من الرسل.

٤- تخصيص المؤمنين بالذِّكْر؛ لأنَّهم الممتثلون المنتفعون بالقرآن.

٥- من مهمة رسول الله بيانُ ما أنزل الله تعالى لعباده من وحيه في كتابه.

٦- الله تعالى هو الذي ينزل المطر لحياة الأرض بعد جَدْبِها وقحطها. وفي هذا دلالة على عظمته، وقدرته على إحياء الموتى بعد موتهم.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٦- وإنَّ لكم - أيها الناس - في الإبل والبقر والغنم والضأن لَموعظة، نُسقيكم ممَّا في بطون هذه الأنعام خارجاً من بين الدم والرَّوث لبناً خالصاً من الشوائب، لذيذاً سهل المرور في الحَلْق.

٦٧- وجعل الله لعباده من ثمرات النخيل والأعناب ما يتخذون منه خمراً مسكراً - وهذا قبل النَّسْخ والتحريم - وطعاماً لذيذاً. إنَّ في ذلك الثمر العظيمِ المنافعِ لَدليلاً على قدرة الله في رزق العباد لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٦٨-٦٩- ومن نِعَمِه الكريمة على عباده أنَّه ألهمَ النحل أن اجعلي لك بيوتاً في الجبال وفي الأشجار وفي الأماكن المرتفعة عن الأرض، كسقف البيت أو العريش المثبَّت بالأعمدة، ثمَّ كُلي من كلِّ الأزهار والثمار، فادخلي المسالك التي مَهَّدها الله تعالى لكِ، يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان: أبيض وأسمر وأحمر وغير ذلك، فيه شفاء للناس من الأمراض. إنَّ في ذلك العسل الكثير الفوائدِ لَدلالةً عظيمة على قدرة الخالق لقوم يتفكَّرون بهذه النعم، فيتعظون.

٧٠- ومن أدلة عظمة قدرة الله تعالى: خَلْقُكم من العدم، ثمَّ إماتتكم عند انتهاء أعماركم، ومنكم من يتعرَّض إلى أردأ العمر، بضعف العقل والحواس؛ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته. إنَّ الله عليم بتدبير خلقه، قدير على ما يشاء.

٧١- والله تعالى فضَّل بعضكم - أيها الناس - على بعض في الرزق، فمنكم الغني والفقير، والمالك والمملوك، فلا يعطي المالكون مملوكيهم ممَّا يجعلهم متساوين في المال، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم فلماذا رَضُوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده؟ ثمَّ يُنْكِرُ الله تعالى على هؤلاء المشركين: أيشركون معه غيره وهو المنعِمُ عليهم؟!

٧٢- يخاطب الله البشر مُبيِّناً مِنَّته العظيمة عليهم: والله جعل لكم أزواجاً؛ لتسكنوا إليها، وجعل لكم من أزواجكم الأولاد والأحفاد، ورزقكم من الأطعمة والأشربة اللذيذة الحلال، أَتُصَدِّقون بالأوثان والأصنام، وتجحدون نِعَمَ الله عليكم؟

٧٣- ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام والأوثان التي لا تنفعهم شيئاً مهما كان قليلاً، ولا تقدر على ذلك لو أرادت.

٧٤- فلا تجعلوا لله تعالى الأمثال، ولا تُشَبِّهوا له الأشباه، فإنَّه لا مِثل ولا شبيه له.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظيم قدرة الله تعالى وصنعه، حين جعل اللبن الخالص يخرج من بين الفرث والدم، في عملية فرز لا يصنعها ولا يقدر عليها إلا هو سبحانه. ينظر: صورة خروج اللبن من الفرث والدم، كما في الملحق.

٢- ينظر: صورة بيوت النحل من الجبال والشجر، كما في الملحق.

٣- ينظر: صورة ألوان العسل، كما في الملحق.

٤- إناث النحل الشغَّالات هنَّ اللائي يقمنَ بالبحث عن المكان المناسب؛ لبناء بيوت النحل، ويقمنَ بالبناء بذواتهنَّ، وبصيانه وتنظيف وترميم البناء، وعلى حمايته وتهويته.

وألهم الله تعالى الشغَّالات، من إناث نحل العسل، اختيار فرق من المستكشفات من بينهنَّ يغادرن الخلية للبحث عن الأزهار الحاملة للرحيق، ثم يَعُدْنَ لإخبار بقية الشغَّالات عن أمكنة وجود تلك الزهور. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٨٤-٩١، ٩٧-١٠٢).

٥- العدول عن خطاب النحل إلى خطاب الناس؛ لأنَّه مَحَلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم.

٦- فضيلة العقل والتعقل والفكر والتفكر.

٧- في ختم الآية (٧٠) باسميه تعالى ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ دلالة على علم الله تعالى بمقادير أعمار العباد، ودلالة أيضا على إماتة الشاب النشيط، وإبقاء الهَرِم الفاني. وفي ذلك تنبيه على أنَّ تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير عليم قدير حكيم، رَكَّب أبنيتهم، وعَدَّلَ أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

٨- الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه، والموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء، فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى.

٩- التفاوت بين العباد في الرزق لحكمة أرادها الله.

١٠- مِنْ نِعَمِ الله على عباده جعل الزوجات من جنس الأزواج وشكلهم.

١١- تقرير وجوب التوحيد وبطلان أعمال المشركين.

١٢- عظيم إساءة الجاحدين الذين يَتَقَلَّبون في نِعَمِ الله، ويعبدون سواه.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

التفسير:

٧٥- ضَرَبَ الله تعالى لبُطلان الشرك مثلاً: رجلين، أحدهما: عبد رقيق مملوك لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حُرٌّ غني، قد رزقه الله رزقاً حسناً من جميع أصناف المال، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هل يستوي هذا أو ذاك؟ الثناء العظيم الكامل لله تعالى وحده، بل أكثر المشركين لا يعلمون، ولا يُفرِّقون بينهما.

٧٦- وضَرَبَ الله مثلاً آخر لبطلان الشرك: رجلين، أحدهما: أخرس أصم لا ينطق بخير ولا يفهم، لا يَقْدِرُ على فِعْل شيء، وهو عبء ثقيل على مَنْ يَتَوَلَّى أمره، حيثما يرسله لا يرجع بخير، ورجل آخر: فَطِنٌ قوي يأمر بالعدل، ويبذل النصيحة، وهو على طريق الحق الواضح. فهل يستوي الرجلان؟ فكيف تُسَوُّون بين الصنم الأبكم، وبين الله الأكرم؟!

٧٧- ولله تعالى علم ما غاب في السموات السبع والأرَضين السبع، وما أَمْرُ يوم القيامة إلا مثل لَـمْحِ البصر في السرعة والسهولة، بل هو أسرع من ذلك. إنَّ الله تعالى على كل شيء من الأشياء قدير، لا يُعجزه شيء.

٧٨- ومن عظيم قدرته أنَّه سبحانه أخرجكم من الأرحام في بطون أمهاتكم بعد الحمل أطفالاً لا عِلْمَ لكم بشيء، وجعل لكم وسائل الإدراك: السمع والبصر والقلوب؛ لكي تشكروا الله على ذلك بالقول والفعل.

٧٩- ألم ينظر العباد إلى الطيور مُذَلَّلاتٍ للطيران في الهواء بين الأرض والسماء؟ ما يُمْسِكهنَّ عن الوقوع إلا هو سبحانه بقدرته العظيمة. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من إخراجكم، والتذليل للطير؛ لَدلالات مشاهِدة لقوم يُصَدِّقون بالله العظيم وأمره الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١- النهي عن ضرب الأمثال لله، وعن تشبيهه ﷻ بخلقه.

٢- استحسان ضرب الأمثال، وهو تشبيه حال بحال على أن يكون ضارب المثل عالماً.

٣- لا يعلم الغيبَ إلا الله، ويُستثنى من ذلك مَنِ ارتضاه ﷻ ليُطْلِعَه عليه، كحال الوحي لأنبيائه ورسله.

٤- التذكير بما أنعم الله على عباده من نعمة السمع والبصر والعقل، وهي مكونات أساسية لحياتهم.

٥- وجوب تسخير الأعضاء في طاعة الله والانتفاع منها فيما يرضيه.

٦- ينظر: تفسير سورة الملك الآية (١٩).

٧- الإشارة إلى معرفة جو السماء.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٨٠- يخبر الله تعالى بنعمه على عباده لاستقرارهم وراحتهم في بيوتهم: وجعل من جلود الأنعام خياماً يَخِفُّ عليكم حملها في الأسفار، ونصبها حين إقامتكم بعد الترحال، وجعل لكم من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، فُرُشاً ولباساً وأغطية وغيرها من الأثاث، تنتفعون بها إلى أن تَبْلَى، أو إلى أن تموتوا.

٨١- ومن نِعَمه سبحانه أيضاً أن جعل لكم من الجبال والأشجار ظلالاً تستظِلُّون بها من حَرِّ الشمس، وجعل لكم من الجبال مساكن وحصون تسكنون فيها، وكهوفاً تستترون فيها من الحر والبرد والمطر، وجعل لكم الثياب من القطن والصوف تحفظكم من الحَرِّ والبرد، وجعل لكم دروعاً وغيرها تَتَّقون بها شرَّ أعدائكم في الحرب، مثل ما خلق الله لكم هذه النِّعم، فإنَّه يُتِمُّ نعمة الدنيا والدين عليكم؛ لكي تُخلصوا له العبادة.

٨٢-٨٣- فإن أعرض هؤلاء المشركون عن رسالتك أيها النبي، فإنَّك قد بَلَّغت الدعوة، وما عليك سوى البلاغ الواضح، فامض على ذلك. يعرفون نِعَمَ الله عليهم بإرسال محمد ﷺ وما تَقَدَّم من النِّعَمِ في الآيات السابقة، ثم يجحدونها، وأكثرهم يموتون على الكفر.

٨٤-٨٥- يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يبعث من كلِّ أُمَّة نبيَّها شاهداً عليها بالإيمان والكفر، ثمَّ لا يُؤْذَنُ للكفَّار في الاعتذار عمَّا وقع منهم، ولا يُطلب إليهم أن يسترضُوا ربَّهم، وإذا رأوا عذاب النار في الآخرة فلا يُخَفَّف عنهم منه شيء، ولا يُمْهَلُون.

٨٦-٨٧- وإذا شاهد المشركون آلهتهم يوم القيامة قالوا: يا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا نعبدهم من دونك. فرَدَّت عليهم آلهتهم: إنَّكم لَكاذبون حقّاً حين جعلتمونا شركاء لله. وأظهر المشركون الاستسلام والخضوع لله تعالى يوم القيامة، وذهب عنهم ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب.

٨٨- يخبر الله تعالى عن زيادة عذاب الكفَّار، فلهم عذاب على تكذيبهم، ولهم زيادة عذاب على مَنْعِ الناس عن الإيمان بالله تعالى؛ بسبب إفسادهم في الدنيا بالمعاصي والكفر.

٨٩- واذكر - أيها الرسول - للناس حين نبعث يوم القيامة في كلِّ أُمَّة من الأُمم نبيَّها؛ ليشهد عليها، وجئنا بك يا محمَّد شهيداً على أُمَّتك، ونزَّلنا عليك القرآن بياناً بليغاً لكلِّ أمر يحتاج إلى بيان، وهداية للقلوب من الضلالة، ورحمة للمؤمنين، وبشرى بالجنَّة للمسلمين المهتدين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مخاطبة الله العرب الذين نزل فيهم القرآن بما يعرفونه في بيئتهم وحياتهم، كاستخدامهم جلود الأنعام وغير ذلك من النِّعم.

٢- على المرء العاقل أن يشكر نِعَمَ الله عليه، ويُسَخِّرها فيما يرضي خالقه.

٣- الإنسان المستظل بالشجرة يكون في حقيقة الأمر جالساً تحت مظلة مائية قدرها ٤٠٠٠ (أربعة آلاف لتر ماء)، فهي تمتصُّ حرارة الشمس الساقطة عليها، وتمنعها من إيذائه، وهي أيضاً ترشُّه ببخار الماء الذي يشعره باللطف والانتعاش في آنٍ واحد. وإنَّ كثافة الأوراق وما بها من ماء ومواد يعمل على وقاية الإنسان من الأشعة الضارة الساقطة من الشمس، وأخطرها الأشعة فوق البنفسجية. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص٢٠٣)

٤- وظيفة الرسول هي الدعوة بالحسنى، أمَّا الهداية فمن الله.

٥- أكثر الناس لا يعبدون الله تعالى، ولا يشكرون نعمه. وقليل منهم العابد الشاكر.

٦- زيادة العذاب لِـمَنْ دعا إلى الشرك والكفر، وحَمْلِ الناس على ذلك.

٧- تَكَرُّم النبيِّ ﷺ بشهادته على أُمته وسائر الأُمم.

٨- في الآية (٨٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ هذا القرآن العظيم نزل توضيحاً لكلِّ أمر يحتاج إلى بيان، كأحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك، وسيبقى كذلك حتى تقوم السَّاعة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو البشارة الطيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التفسير:

٩٠- يأمر الله تعالى بأحكام عظيمة جامعة للخير، ومهام كريمة مانعة للشر، في الآيات التسع الآتية: فيأمر بالعدل والإحسان في حقِّ عبادة الله تعالى، وحقوق الناس ومعاملتهم بحسن القول والعمل، ويأمر سبحانه بإعطاء الأقاربِ حقَّهم من البرِّ، وينهى عن قبيح الأقوال والأفعال، وعن الظلم والعدوان والطغيان؛ لكي تَتَّعِظُوا بأحكام الله الرحمن.

٩١- وحافظوا على الوفاء بالعهود التي أبرمتموها مع الله تعالى وعباده جميعاً، ولا تَنْقُضوا الأيمان الموثَّقة، وقد جعلتم الله عليكم شاهداً ورقيباً بالوفاء بالعهود. إنَّ الله يعلم ما تفعلون في العهود وغيرها.

٩٢- ولا تكونوا - أيها الناس - في نَقْضِكم العهدَ مثلَ المرأة الحمقاء التي غَزَلَتْ صوفاً غَزْلاً مُحْكَماً، ثم نقضَتْه محلولاً مفكَّكاً، حال كونكم مُتَّخذين أيمانكم خديعة للناس، إذا وجدتم فئة أكثر مالاً ومصلحة من الذين عاهدتموهم سابقاً. إنَّما يختبركم الله بالوفاء بالعهد، وقسماً لَيُوَضِّحَنَّ لكم - أيُّها الناس - يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من حقٍّ أو باطل.

٩٣- ولو شاء الله لجعلكم - أيها الناس - ملّة واحدة غير مختلفين، ولكن لم يشأ ذلك لكي يترك لكم الاختيار مع المؤمنين أو الكفّار، فيُضِلُّ مَنْ يشاء ممَّنْ عَلِمَ منه اختيار الضلال والغَواية، ويهدي مَنْ يشاء ممَّنْ عَلِمَ منه اختيار الحق والهداية. وقسماً ستُسألون يوم القيامة عن أعمالكم في الدنيا، وسيجازيكم الله عليها.

٩٤- يكرِّر الله تعالى - للاهتمام والتأكيد - النهي عن عَقْد الأيمان؛ من أجل الخديعة والمكر التي تؤدي إلى الانحراف عن الاستقامة والحق، ثمَّ إلى العقوبة العاجلة في الدنيا؛ بسبب إيقاع الناس في هذه القدوة السيئة في الغدر، ولكم في الآخرة عذاب عظيم الألم.

٩٥- ولا تستبدلوا بالوفاء بعهد الله شيئاً حقيراً من حطام الدنيا مهما عَظُمَ في أعينكم. إنَّ الذي عند الله من الأجر على الوفاء أغلى وأعلى من هذا الثمن الأدنى، إن كنتم تعلمون التجارة الرابحة.

٩٦- ما تملكون من الدنيا - مهما بلغ من الثروات - زائل، وما عند الله الغني فهو دائم، وقسماً لَنَجْزِيَنَّ الصابرين على طاعة الله، ولَنُعْطِيَنَّهم الأجر الوافي على أحسن أعمالهم، مع التجاوز عن سيئاتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والإحسانُ أن تقابل الخيرَ بأكثرَ منه والشرَّ بأن تعفو عنه. (السراج المنير ٢/ ٢٥٦).

٢- تحريمُ كلِّ فعل قبيح شرعاً وعقلاً، وتحريم الاعتداء على الآخرين، وظُلْمِهم.

٣- وجوب الوفاء بالعهود، وحرمة نقضها.

٤- حرمة اتخاذ الأيمان طريقاً إلى الغِشِّ والخديعة والإفساد.

٥- تحريم الغدر والمكر في اليمين.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

التفسير:

٩٧- مَنْ عمل عملاً صالحاً في الدنيا سواءً كان ذكراً أم أُنثى، وهو يُقِرُّ لله تعالى بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، فلنحيينَّه في الدنيا حياة سعيدة حقَّاً، ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء كريم على أحسن أعمالهم.

٩٨-١٠٠- وإذا أردت - أيها المؤمن - أن تقرأ شيئاً من القرآن العظيم، فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله، عن تدبُّر القرآن، بأن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. متدبِّراً لمعناها. إنَّه ليس له تَسَلُّط على المؤمنين بالله ورسوله، وعلى ربهم يعتمدون. إنَّما تَسَلُّطُه على الذين يطيعونه، ويتخذونه وليَّاً، والذين هم بسبب إغوائه صاروا مشركين بالله تعالى.

١٠١-١٠٢- وإذا رفعنا آية مكان أخرى، والله أعلم بمصلحة العباد بما ينزله من القرآن، قال الكفَّار بسوء أدب للنبي ﷺ: إنَّما أنت يا محمَّد كاذب على الله!! بل أكثرهم لا يعلمون مقام النبي ﷺ وعظيم خلقه. فرَدَّ عليهم الله سبحانه: قل لهم أيها الرسول: هذا القرآن كلام الله، نَزَّله جبريل عليه السلام من الله ﷻ بالحق الثابت، الذي لا يأتيه الباطل، تثبيتاً للمؤمنين على الإسلام، وهداية للقلوب من الغَواية، وبشرى للمسلمين المنقادين لله بالجنَّة.

١٠٣- يُقسم الله تعالى: إنَّ المشركين أشاعوا كثيراً أنَّ النبيَّ ﷺ يتلقَّى القرآن من بشر عنده علم بالكتب السابقة، فرَدَّ الله عليهم: بأنَّ لسان الذي يزعمون أنَّه علَّمه رجل أعجمي، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والبيان!

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٩٧) إخبار مستقبلي عن حال مَنْ يعمل العمل الصالح، ذكراً كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، بأنَّ الله سيرزقه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة - ولو كان قليل المال -.

٢- الترغيب في الصبر؛ ليحصل الصابر على أحسن الجزاء وأطيبه.

٣- التسوية بين الذكر والأنثى في الدعوة إلى العمل الصالح، والإثابة عليه.

٤ - المؤمن في الدنيا يحيا حياة طيبة، ولو أحاطت به المصائب، لعمله بشرع الله، ورضاه بقضائه.

٥- عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: القُنوع، قال: وكان رسول الله ﷺ يدعو يقول: «اللهم قَنِّعْني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخْلُفْ على كل غائبة لي بخير». (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك ٢/ ٣٥٦ - كتاب التفسير. وأقره الذهبي).

٦- استحباب الاستعاذة عند قراءة القرآن بلفظ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٧- يُشترط لتربية المؤمن على تَدبُّر القرآن والانتفاع بإرشاداته: تطهير القلب من الخبث، وتخليته من الفساد، ولا يكون ذلك إلا بدفع نوازع الشر التي تَعْلق بالنفوس، والاستعاذة مسلك رباني لقهر تلك النوازع ومغالبتها.

٨- مشروعية الناسخ والمنسوخ في القران الكريم.

٩- في الآية (١٠٢) إخبار مستقبلي بأنَّ هذا القرآن فيه البشارة الطيبة لِـمَنْ أسلموا، وخضعوا لله ربِّ العالمين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠٤-١٠٥- إنَّ الذين لا يُصَدِّقون بالقرآن الكريم لا يهديهم الله لإصابة الحقِّ، ولهم في الآخرة عذاب موجع، إنَّما يتعمَّد الكذبَ الذين لا يُصَدِّقون بآيات الله المنزلة والمشاهدة، وأولئك البعداء عن الحق هم الكاذبون.

١٠٦-١٠٧- بَيَّنَ الله تعالى خطورة الردَّة عن دين الإسلام، وتغليظ العقوبات على المُرتدين في الدنيا والآخرة في الآيات الأربع الآتية: مَنْ ارتدَّ بعد إيمانه، فعليهم غضب من الله تعالى، إلا مَنْ أُجبر على النطق بالكفر خوفاً من الهلاك، وقلبه ثابت على الإيمان بالله فلا إثم عليه، لكن مَنْ نطق بالكفر، واطمأن قلبه إليه، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد الألم. ذلك العذاب العظيم؛ بسبب أنَّهم آثَرُوا الدنيا واختاروها على الآخرة، وأنَّ الله لا يوفِّق الكافرين إلى الإيمان.

١٠٨-١٠٩- أولئك البعداء عن رحمة الله، الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، وأصمَّ سَمْعَهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم، فلا يرون الأدلَّة الكونية على قدرة الخالق سبحانه، وأولئك البعداء عن الحق هم الغافلون عن الخير في الدنيا والآخرة، لا شكَّ أنَّهم في الآخرة هم الهالكون.

١١٠- ثمَّ اعلَمْ - أيها الرسول - أنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد المِحَنِ التي أصابتهم من الكفَّار، حتى وافقوهم على الكفر باللسان، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ثمَّ تمَكَّنوا من الهجرة إلى (المدينة)، ثمَّ جاهدوا في سبيل الله وصبروا على طاعة الله تعالى. إنَّ ربَّك من بعد هذه الأعمال الصالحة بعد الفتنة، لَغفور لذنوبهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - حرمان المكذبين بآيات الله من الهداية؛ لعدم استحقاقهم لها.

٢- الجرأة على الكذب من خصال الكافرين الذين لا يؤمنون بعقاب على كذبهم، أما المؤمن فلا يكذب؛ لأنَّه يعلم بوجود عقاب شديد للكاذبين.

٣- الرخصة في كلمة الكفر في حال التعذيب، بشرط اطمئنان القلب إلى الإيمان، وعدم انشراح الصدر بكلمة الكفر.

٤- الرِدَّةُ عن الدين من أخطر الأمور وأسوأ الأعمال، وفاعلها مستحق لغضب الله تعالى، وعقابه العظيم.

٥- إيثار الدنيا على الآخرة، سبيل الضلال والهلاك.

٦- الصبر على الأذى في سبيل الله تعالى والثبات على الدين، دليل الإيمان وحب الله تعالى.

٧- فَضْلُ الهجرة والجهاد والصبر.

﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

التفسير:

١١١ - يُذَكِّر الله تعالى بيوم القيامة، حين يأتي كلُّ إنسان يدافع عن نفسه، ويُوَفِّي الله كلَّ امرئ جزاءَ ما عمل، ولا يُظْلَمون مثقال ذرَّة.

١١٢ - وهذا مَثَلٌ أريد به أهل مكَّة، فإنَّها كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان من ضيق العيش، إذ يأتيها باستمرار رزقها واسعاً طيِّباً من كل جهة، فجحد أهلها نِعَم الله عليهم، وأشركوا، فعاقبهم الله بالقحط والخوف من سرايا الرسول ﷺ؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم.

١١٣ - وقسماً لقد جاءهم رسول من قومهم هو النبيّ محمَّد ﷺ، فكَذَّبوه وحاربوه، فأخذهم العذاب بالجوع والخوف وقَتْلِ زعمائهم في غزوة (بدر)، وهم معتدون على الحقوق.

١١٤-١١٥ - فكُلُوا - أيها المؤمنون - من الأطعمة الحلال المستلَذَّة التي رزقناكم، واشكروا لله تعالى على نعمه بالقول والفعل، إن كنتم حقّاً مطيعين له تعبدونه وحده، إنَّما حَرَّم الله عليكم الميتة التي لم تذبح بطريقة شرعية، وهي ميتة البرِّ لا ميتة البحر من السمك والجراد، وحَرَّم عليكم الدم المسفوح غير الجامد كالكبد والطحال، ولحم الخنزير، وما ذُبِح لغير الله، فمَنْ ألجأته الضرورة بسبب الجوع الشديد، ولم يجد شيئاً من الحلال، فأكل من هذه المحرَّمات من غير إفساد ولا إسراف، غير متجاوزٍ حَدَّ الضرورة، فلا ذَنْبَ عليه. إنَّ الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

١١٦ -١١٧ - ينهى الله تعالى عن التحريم والتحليل بمجرَّد القول باللسان من غير دليل فلا تقولوا: هذا حلال لِما حَرَّمه الله، وهذا حرام لِما أحلَّه الله؛ لتختلقوا على الله الكذب. إنَّ الذين يتعمَّدون الكذب على الله لا يظفرون بمطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة، لهم تمتُّع قليل زائل في الدنيا، ولهم عذاب مُوجِع في الآخرة.

١١٨ - وحَرَّمْنا على اليهود خاصَّة دون غيرهم ما قصصنا عليك من قبل في سورة الأنعام الآية (١٤٦) وفيها تحريم كلِّ ذي ظفر، كالنعامة والبعير، والشحم الخالص من البقر والغنم. وما ظلمناهم بتحريم ذلك، ولكن كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والبغي.

١١٩ - واعلم - أيها الرسول - أنَّ ربَّك للذين فعلوا المعاصي بجهل وسفه، سواءً أكانوا متعمِّدين أم مخطئين، ثم تابوا من بعد ذلك الزَّلل، وأصلحوا العمل. إنَّ ربَّك من بعد توبتهم وإصلاح عملهم لَغفور لذنوبهم حقّاً، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الأمن والطمأنينة نعمتان عظيمتان تحتاجان إلى شكر المنعم بهما سبحانه.

٢ - كُفْرُ النعم يُسَبِّبُ زوالَها، والانتقام من أهلها.

٣ - تكذيب الرسول يؤدي إلى العذاب والبلاء.

٤ - الحكمة العظيمة في تحريم ما يضر ويستقذر.

٥ - من يُسْرِ الإسلام وسماحته أنه لا يؤاخذ المضطر إذا أكل من شيء مُحَرَّم بقدر الضرورة.

٦ - تَحَرِّي الحلال الطيب من الطعام، والابتعاد عن الحرام الخبيث.

٧ - حرمة التحريم والتحليل بغير دليل شرعي قطعي لا ظني، إلا ما غَلَبَ على الظن تحريمُه.

٨ - الظلم يؤدي إلى الحرمان من النعم وفقدانها.

٩ - باب التوبة مفتوح لكل ذي ذنب، مهما عَظُمَ أو صَغُرَ، على شرط صدق التوبة بالإقلاع عن الذنب، والندم والاستغفار الدائم وإصلاح المفاسد، وردِّ الحقوق إلى أهلها.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

التفسير:

١٢٠-١٢٢- إنَّ إبراهيم عليه السلام كان إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير، مُطيعاً لله تعالى مستقيماً على دين الإسلام، مُوَحِّداً لله غير مشرك به، يخلص الشكر لله على نعمه، اصطفاه الله نبيّاً وهداه إلى الإسلام، وجعل له سبحانه الذكر الجميل في الدنيا، وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية.

١٢٣- ثمَّ أوحينا إليك - أيها الرسول - أن اتبع دين الإسلام، واستقم عليه، وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين بالله تعالى.

١٢٤- إنما جعل الله تحريم يوم السبت وتعظيمه للعبادة فيه على اليهود الذين اختلفوا فيه، فاستحَلَّه بعضهم، وحَرَّمه آخرون بدل يوم الجمعة الذي أمروا بتعظيمه. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لَيحكم بين المختلفين حقّاً يوم القيامة فيما اختلفوا فيه على نبيِّهم.

١٢٥- يأمر الله تعالى الرسول محمداً ﷺ أن يدعو الإنس والجن إلى الإسلام بالمنهج الحكيم الذي أوحاه الله إليه، والموعظة النافعة بلُطْفٍ ولين، ويجادل المخالفين بأحسنِ طُرُقِ المناظرة بالحُجَّة المُقْنِعَة. إنَّ الله سبحانه هو أعلم بمَنِ اهتدى إلى طريق الحقِّ.

١٢٦-١٢٨- سبب النزول:

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحُدٍ أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة فمَثَّلوا بهم، وفيهم حمزة فقالت الأنصار: لئن أصبناهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله ﷺ كفوا عن القوم غير أربعة. (صححه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك

٢/ ٣٥٨-٣٥٩- كتاب التفسير - سورة النحل)، وأخرجه الترمذي برقم ٣١٢٩، كتاب التفسير، باب ومن سورة النحل. وقال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث أُبي بن كعب. وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد (صحيح الترمذي ٣/ ٦٧)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ٢٣٩ برقم ٤٨٧). قال محققه: إسناده حسن).

التفسير:

وإن عزمتم - أيها المؤمنون - على عقوبة مَنِ اعتدى عليكم، فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا. وقسماً إن عفوتم وتركتم العقوبة، فهو خير لكم قطعاً، وتكونوا بذلك في عداد منزلة الصابرين، واصبر - يا محمَّد- على ما أصابك من الأذى في سبيل الله، فما تنال هذه المنزلة العالية إلا بعون الله تعالى، ولا تحزن على الكفَّار إن لم يُصَدِّقوا بك، ولا تَغْتَمَّ من مكرهم وكيدهم. إنَّ الله تعالى مع المتقين لله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومع المحسنين الذين يُحسنون القول والفعل بنَصْرِه وعونه، وكفى بذلك فخراً ونصراً.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن مسروق قال: قرأت عند ابن مسعود ﷺ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ فقال: إن معاذاً كان أُمَّة قانتاً لله، قال: فأعاد عليه، قال: فأعاد عليهم، ثم قال: أتدرون ما الأُمَّة؟ الذي يُعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله؟. (أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٨)، وقال الهيثمي في (المجمع ٧/ ٤٩): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح).

٢- الأمر باتباع ملة إبراهيم ﷺ، والاقتداء به في دينه وهو الإسلام.

٣- جواز اتباع الأفضل للمفضول، ولا تبعة على الفاضل في ذلك؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاقتداء بإبراهيم.

٤- سَبْتُ اليهود من ابتلاء الله لهم، لا من نِعَمه وإفضاله عليهم.

٥- وجوب الدعوة إلى الله تعالى واجب كفائي، إذا قامت به جماعة أجزأ ذلك عنهم.

٦- على الداعي مراعاة حال المدعوين، ومخاطبتهم بما يناسبهم، ويُؤَثِّرُ فيهم.

٧- جواز المعاقبة بالأخذ بقَدْرِ ما أُخِذَ من المرء، وتركها صبراً واحتساباً أفضل.

٨- معيَّة الله تعالى ثابتة لأهل التقوى والإحسان، وهي معيَّة نصرٍ وتأييد وتسديد.

النزول: مكية.

فضل السورة:

عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: هُنَّ من العِتاق الأُوَل، وهُنَّ من تلادي. والتِّلاد هي: النفيسُ من الأموال. (صحيح البخاري: التفسير، سورة الأنبياء ٤٧٣٩).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كلَّ ليلة بني إسرائيل والزُّمر.

(أخرجه الترمذي وحسَّنه: السنن، فضائل القرآن برقم ٢٩٢٠. وأخرجه الحاكم، وصحَّحه ووافقه الذهبي: المستدرك ٢/ ٤٣٤. وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي: برقم ٢٣٣٢).

المقاصد:

١ - تقرير رسالة النبيِّ الأمين ﷺ.

٢- تقرير أنَّ القرآن وحي من الله تعالى.

٣- إثبات إعجاز القرآن الكريم.

٤ - الردُّ على مطاعن الكفَّار والمشركين.

٥- إثبات الدَّلائل على تفرُّده - سُبْحانه - بتدبير الخلق ووحدانيته.

٦- إثْباتُ البعث والجزاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - تَنَزَّه الله تعالى وتَقَدَّس عَمَّا لا يليق بجلاله وعظمته؛ لقدرته على الأفعال العظيمة التي من جملتها أنَّه أسرى بعبده محمد ﷺ زمناً من الليل بروحه وجسده من المسجد الحرام في مكَّة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، الذي بارَكْنا حوله من بعثة الرسالات وكثرة الثمرات والخيرات؛ لِنُرِيَه من الآيات العجيبة كالعروج إلى السموات السبع، وما فيها من الأدلة التي تَدُلُّ على وحدانية الله وعظمته. إنَّه هو السميع للأقوال، البصير بالأفعال.

٢ - وأعطينا موسى عليه السلام التوراة؛ هداية لذريَّة يعقوبَ إلى طريق الحق، وتوحيد الله تعالى، إذ نهاهم عن اتِّخاذ غير الله معبوداً يعتمدون عليه.

٣- يُرَغِّبُ الله تعالى البشر من سلالة نوح عليه السلام ومَنْ نجا معه من المؤمنين من الغرق أن يعبدوه وحده، ويشكروه على نعمه، فإنَّ نوحاً كان كثير الشكر لله تعالى.

٤ - وأَعْلَمْنا ذريَّة يعقوب في التوراة أنَّهم سيفسدون في الأرض التي يعيشون عليها في بيت المقدس وما حوله مرتين، ويَتَسَلَّطون على الناس تَسَلُّطاً بالظلم والقهر.

٥- فإذا حصل منهم الإفساد الأول سَلَّطْنا عليهم عباداً لنا، جبابرةً أصحاب بطش وقوَّة عاتية، فانتشروا وسط الديار تفتيشاً فتقتيلاً ونهباً، وكان ذلك وعداً حاسماً حتماً؛ بسبب الفساد الأول، قبل معركة طالوت وجالوت المتقدِّمة في سورة البقرة.

٦- ثم عند توبتكم وعَهْدِكم مع طالوت وطاعتكم له، مَكَّن الله داود عليه السلام أن يقتل الطاغية جالوت، فرددنا لكم الغلبة على أعدائكم بالعُدَّة والعَدد، وبَسَطْنا عليكم الأرزاق بفتح البلدان، وكثرة الولدان، وجعلناكم أكثر عدداً من أعدائكم، وذلك بالإيمان بالله، والإحسان لعباد الله.

٧- إن أحسنتم بأقوالكم وأفعالكم، فالثواب عائد لأنفسكم في الدنيا والآخرة، وإن أسأتم بالكفر والعصيان، فعقاب ذلك عائد عليكم، فإذا وقع منكم الإفساد الثاني سَلَّطْنا عليكم أعداءكم مرة أخرى؛ ليُذِلُّوكم ويقهروكم، وليدخلوا مسجد بيت المقدس، فيُخَرِّبوه كما خَرَّبوه عند وقوع الفساد الأول، وليُدَمِّروا ويُهْلِكُوا كلَّ ما وقع تحت أيديهم تدميراً شاملاً، كهجوم الطاغية بختنصَّر مَلِكِ بابل التي تقع جنوب بغداد على بعد (١٠٠) كيل.

٨- لعلَّ ربَّكم يا ذريَّةَ يعقوبَ عليه السلام يرحمكم برحمته الواسعة، إن تُبْتُمْ عن الفساد، وسلكتم طريق الهداية. وإن رَجَعْتُم إلى الفساد والغَواية، عُدْنا إلى التنكيل والنِّكاية، وجَعَلْنا نار جهنم مصير الكفَّار يُحْصَرُون فيها خالدين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مكانة رسول الله ﷺ برحلة الإسراء والمعراج، وما فيها من التعليم، والتكريم، والتَّكليم لله تعالى.

٢- تقرير رسالة النبيِّ ﷺ بمعجزة الإسراء.

٣- إرشاد بني إسرائيل وغيرهم من الأُمم بتوحيد العبوديَّة لله تعالى.

٤- التَّحذير من مفاسد اليهود ومكايدهم.

٥- الموعظة لبني إسرائيل وغيرهم إن أفسدوا، فإنَّ مصيرهم العقاب في الدُّنيا، ثم الحساب في الآخرة.

٦- الإفسادتان قد مَضَتا، وكذلك التسليط، فإنَّ المصدر الذي تَسَلَّطَ عليهم واحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أمَّا الإفساد في المستقبل فقد جعل الله تعالى تسليطاً على كلِّ مَنْ سيفسد منهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

٧- مَنْ يعمل خيراً فإنَّ الفائدة تعود إلى صاحب ذلك الخير.

٨- البشرى برحمة الله تعالى لِـمَنْ يَكُفُّ عن المعاصي.

٩- ينظر: صورة المسجد الأقصى، كما في الملحق.

١٠- ينظر: صورة الإسراء والمعراج، كما في الملحق.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٩-١٠- يُخبر الله تعالى عن عظمة القرآن الحكيم وأثره في رُقِيِّ البشر، فهو يهدي باستمرار إلى الطريقة التي هي أحسن في المسائل العظام، وعلى رأسها دين الإسلام، ويُبَشِّر المصدِّقين بالله ورسله الذين يواظبون على فِعْلِ الأعمال الصالحة، أنَّ لهم أجراً كبيراً في الجنة، وأنّا هَيَّأْنا للكفَّار عذابَ النار الموجع.

١١- يُرشد الله تعالى الإنسان إلى عدم التهوُّر في الدعاء بالشرِّ على النفس والمال والأولاد، مثلَ ما يدعو بالخير، وكان الإنسان مبالغاً في العجلة يَتَسَرَّع إلى ما يريد.

١٢- وجَعَلْنا الليل والنهار علامتين عظيمتين دالَّتين على وَحْدانيتنا، فمَحَوْنا آية الليل بظلامه؛ لتسكنوا فيه، وجَعَلْنا آية النهار مضيئة مشرقة؛ لتطلبوا فيه أسباب معايشكم، ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، وكلَّ شيء من أمور الدين والدنيا بَيَّنَّاه بياناً دقيقاً.

١٣-١٤- وكلُّ إنسان مرهونٌ بعَمَلِه الملازِم له، ويُجازى عليه، ونُخْرِجُ له يوم القيامة كتاباً مفتوحاً سُجِّلَتْ فيه السيئات والحسنات، ويقال له: اقرأ كتاب عملك. كفى أن تكون اليوم شهيداً على ما عَمِلْتَ.

١٥- مَنِ اهتدى إلى الحقِّ فثواب ذلك عائد عليه، ومَنِ انحرف عن الحق فعقاب ذلك عائد عليه، ولا يحمل أحدٌ ذَنْبَ أحد. وما كُنَّا مُعَذِّبين أحداً من الخَلْقِ حتى نبعث إليهم الرسل مُبَلِّغين بالحُجَجِ الواضحة.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة هدايات القرآن الكريم، وما فيه من الإرشاد الحكيم.

٢- تحريم دعاء الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله.

٣- في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ هذا القرآن يُرْشِدُ النَّاس إلى أحسن الطُّرق، وهي مِلَّةُ الإسلام. وهذه الهداية بالقرآن مستمرَّة حتى قيام السَّاعة.

٤- ذَمُّ التعجُّل بالدعاء على النفس والمال.

٥- تقرير مشروعيَّةِ معرفة علم الحساب، وما فيه من الفوائد.

٦- الإنسان سيقرأ صحيفة أعماله، حتى ولو كان أُمّيّاً.

٧- من رحمة الله تعالى ألَّا يعذِّب أحداً إلا بعد أن تقوم عليه الحُجَّةُ بمعرفة الحقِّ.

٨- من رحمة الله تعالى ألَّا يُعذِّب أحداً بذنب غيره.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٦-١٧- يُحَذِّر الله تعالى الناس من الخروج عن طاعته: وإذا أردنا أن نُدَمِّرَ قوماً أمرنا مترفيهم بالطاعة، فعصَوا وخرجوا عن طاعة الله، فوَجَبَ عليهم العقاب، فأهلكناهم هلاكاً شاملاً تامّاً، وقد أهلكنا كثيراً من الأُمم الكافرة من بعد نوح عليه السلام. وحَسْبُك - أيها النبيُّ - أنَّ الله عالم بجميع أعمال عباده، لا يخفى عليه شيء منها.

١٨- مَنْ كان يقصد بعمله الدنيا دون الآخرة، عَجَّلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نِعَمِها لِـمَنْ نريد التعجيل له، ثم جعلنا له في الآخرة نار جهنم، يدخلها مَلُوماً مطروداً من رحمة الله.

١٩ - ومَنْ أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، وعَمِلَ لها عَمَلَها الذي يليق بها من الإيمان والإحسان، فأولئك أصحاب المنزلة الرفيعة كان عملهم مقبولاً عند الله تعالى.

٢٠ - كلٌّ فريق من العاملين للدنيا والعاملين للآخرة نعطيه من عطائنا الواسع، فنرزق المؤمن والكافر والمطيع والعاصي في الدنيا، وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحد.

٢١ - انظر - أيها العبد- كيف فَضَّلْنا بعض الناس على بعض في الأرزاق والأخلاق. ودرجات المنازل في الآخرة أعظم، والتفاضل فيها أكثر.

٢٢ - يُحَذِّر الله تعالى البشر من خطورة الشرك، وينهى عنه، فإنَّه يُوَرِّث الذَّمَّ والخِذْلان في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من الترف الذي يجرُّ إلى المعاصي.

٢ - الموعظة بالأُمم البائدة بالهلاك بعد زمن نوح عليه السلام.

٣ - مَنِ اقتصر عمله على نَيْلِ متاع الدنيا، وتَرْك العمل للآخرة، فإنَّ الله تعالى قد يُبَلِّغه مقصوده، وقد لا يُبَلِّغه، ومصيره العقاب عند الحساب.

٤ - في الآية (١٨) إخبار مستقبليٌّ عَمَّنْ كان طلبه الدنيا العاجلة، وسعى لها وحدها، ولم يُصَدِّقْ بالآخرة ولم يعمل لها، بالتعجيل له فيها بما يشاؤه ويريده، ممَّا كتبه الله له في اللوح المحفوظ.

٥ - الإنسان الذي يهتدي إلى الإسلام يعود نَفْعُ ذلك عليه، ومَنْ ضلَّ فإنَّه يَلْقَى جزاءه.

٦ - التفضيل للفائزين في الآخرة بأعظم الدرجات.

٧ - من أعظم المصائب الضلال في ظلمات الشِّرك.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- يُرشد الله تعالى في هذه السورة العظيمة إلى أحكام حكيمة وآداب كريمة: وَصَّى الله تعالى عباده ألَّا يعبدوا إلا الله وحده، وأمر أن تُحسنوا بالوالدين قولاً وعملاً، فإذا كَبِرا - أو كَبِرَ أحدهما - فلا تضجر منهما ولو بكلمة (أف)، ولا بفِعْلٍ قبيحٍ ولا تزجرهما بغلظة، وتَرَفَّقْ بهما، وقل لهما قولاً طيِّباً لطيفاً، وتواضَعْ لهما برحمة، وادعُ لهما بالرحمة جزاءً على تربيتهما لك حالة الطفولة.

٢٥- ربُّكم - أيها الناس - أعلمُ بما في نفوسكم من خيرٍ وشرٍّ، إن تكونوا قاصِدين الخيرَ والصلاح في برِّكم بآبائكم وصدر منكم ما يكرهونه دونما قصد وتعمّد منكم، فإنَّه سبحانه يتجاوز عن ذلك ولا يؤاخذكم به.

٢٦-٢٧- يأمر الله تعالى بإعطاء حقوق الأقارب من البرِّ والإحسان إليهم، وإعطاء حقِّ المسكين المحتاج، والمسافر المنقطع عن أهله وماله، ولا تصرف المال حسب الهوى جُزافاً وإسرافاً. إنَّ الذين يُسْرِفُون في المال في غير حق أمثالُ الشياطين في صَرْفِ المال في الباطل. وكان الشيطان مبالِغاً في جُحود نِعَمِ الله تعالى.

٢٨- وإن لم تَجِدْ ما تنفق على الذين أُمِرْتَ بإعطائهم؛ لانتظار الرزق من الله الكريم، فقُلْ عند الاعتذار لهم قولاً طَيِّباً لطيفاً.

٢٩-٣٠- يُرشد الله المؤمنين إلى التوسُّط في الإنفاق، وعلى قدر الطاقة والحاجة: ولا تُمْسِكْ بيدك عن الإنفاق في وجوه الخير، ولا تُسْرِفْ في الإنفاق، بحيث لا يبقى في يدك شيء من المال، فتصير مذموماً عند الخالق والخلق، ونادماً على ضياع المال. إنَّ ربَّك يُوَسِّع الرزق على بعض الناس، ويُضَيِّقه على بعضهم. إنَّه عالم بمصالح عباده، بصير بقسمة الأرزاق.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الإحسان إلى الوالدين بالقول والفعل.

٢- وجوب برِّ الأقارب وصلتهم.

٣- تأكيد تحريم التبذير.

٤- ذَمُّ البخل والشُّحِّ.

٥- من الحكمة التوسُّطُ في الإنفاق.

٦- الأرزاق من عند الله، وهو عليم بما يصلح في رزق العباد.

٧- في الآية (٣٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الرزق بيد الله ﷻ، يُوَسِّعه على بعض النَّاس، ويُضَيِّقُه على بعضهم، وَفْقَ عِلْمِه وحِكْمَتِه ﷻ.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣١- ولا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر، وأرزاقُكم جميعاً علينا لا عليكم. إنَّ قَتْلَهم كان جريمة كبيرة.

٣٢- واجتنبوا فاحشة الزِّنى وكلَّ دواعيه، إنَّه كان فِعْلَةً في غاية القبح، وبئس الطريقُ طريقُه.

٣٣- ولا تقتلوا نفساً حَرَّم اللهُ قَتْلَها بغير حق شرعي موجب للقتل كالمرتد، والقاتل عمداً، والزاني المحصَن. ومَنْ قُتِلَ عدواناً من غير سبب شرعي، فقد جعلنا لأقرب وَرَثَتِه سلطةً على القاتل بالقصاص

منه بإشراف الحاكم، أو أَخْذِ الدِّيَةِ أو العفو، فلا يتجاوز الحدَّ المشروع، بأن يَقْتُلَ غير القاتل، أو يُمَثِّل به. إنَّ وَلِيَّ المقتول كان منصوراً بهذه الأحكام العادلة.

٣٤- ولا تَتَصَرَّفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن في تنمية المال واستثماره، حتى يبلغ سِنَّ الرشد بحسن التصرُّفِ في ماله. وأتمُّوا الوفاء بكل عهد التزمتم به؛ لأنَّكم تُسألون عنه يوم القيامة.

٣٥- وأتمُّوا الكيل إذا كِلْتم لغيركم، ولا تُنْقِصُوه شيئاً، وزِنُوا بالميزان الذي لا جَوْرَ فيه. ذلك العدل العظيم في الكيل والوزن خير لكم في الدنيا، وأحسن عاقبة في الآخرة.

٣٦- ولا تَقُلْ ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّتْ. إنَّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن سَمْعِه وبَصَرِه وقَلْبِه. كلُّ هذه الأحكام العاليةِ القَدْرِ كان الإنسان عنها مسؤولاً يوم القيامة.

٣٧- ولا تمشِ في الأرض مِشْيَةَ تَكَبُّرٍ وتَفاخُر، فإنَّك لن تقطع الأرض طولاً، أو تخرقها بالمشي عليها، ومهما تطاولت فلن تستطيع أن تُحاذِيَ بطولِك قِمَمَ الجبال.

٣٨- كلُّ ذلك المذكور البعيد عن مكارم الأخلاق المنهيِّ عنه يكره الله سَيِّئَه ولا يرضاه، ويعاقب عليه.

٣٩- ذلك المذكور من الحكمة العظيمة والوصايا الكريمة ممَّا أوحيناه إليك أيها الرسول؛ ليأخذ بها العبد، ولا يجعل مع الله سبحانه شريكاً له في عبادته، فيُقْذَفُ في نار جهنَّم مَلُوماً عند الخالق والخلق، مطروداً من كل خير.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تحريم قتل الولد خوفاً من الفقر، فإنَّ اللهَ يرزق الجميع.

٢ - في الآية (٣١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الرزق بيد الله سبحانه، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء.

٣- تحريم دواعي فاحشة الزِّنى.

٤ - الإشارة إلى الترغيب في الزَّواج.

٥- تحريم قتل النفس بغير حقٍّ.

٦- وجوب المحافظة على مال اليتيم، وحرمة أكل ماله.

٧- وجوب العدل في الميزان والكيل.

٨- تحريم القول والفعل من غير علم.

٩- تحريم التكبُّر.

١٠- كلُّ ما تَقَدَّم من أحكام في هذه الآيات حِكَمٌ عظيمة، فهل من مستفيد من هذه الحكم؟.

١١- النَّهْيُ عن الشرك بالله، وبيان مصير المشرك.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٠ - يُنْكِرُ الله تعالى على مزاعم المشركين تقريعاً وتوبيخاً لهم: أفخَصَّكم ربُّكم بإعطائكم الذكور، واختار لنفسه البنات؟ إنَّكم لَتقولون قولاً عظيماً، يكاد يزلزل السموات والأرض من قُبْحِه.

٤١ - وقسماً لقد بَيَّنَّا وفَصَّلْنا للإنس والجن ضروب البيان في هذا القرآن؛ ليتَّعِظُوا بالحُجَّة والبرهان، فيلحقوا بركب الإيمان. وما يزيد البيان أهل الطغيان إلا تباعُداً عن الحق والإحسان.

٤٢-٤٣ - يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يُفَهِّم المغرورين بالشرك، وأن يقول لهم: قل لو كان مع الله تعالى آلهة أخرى كما يزعمون، إذاً لطلبت تلك الآلهة طلباً حثيثاً مغالبةَ الله تعالى، ولَذَهَبَ كل إلهٍ بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض! تَنَزَّه الله وتَقَدَّس وتعالى عُلُوّاً كبيراً عمّا يفتري المشركون.

٤٤ - تلهج السموات السبع والأرضون السبع، ومَنْ فيهنَّ بالتسبيح حقيقة. وما مِنْ شيء من الأشياء في الكون إلا يُسَبِّح مقروناً بالحمد والثناء على الله سبحانه، ولكن لا تفهمون ذلك التسبيح. إنَّه سبحانه كان حليماً بعباده يُمْهِلُهم، ويغفر ذنوبهم إذا تابوا.

٤٥-٤٦ - وإذا قرأت القرآن، فسَمِعَه الكفار، جعلنا بينك وبينهم حجاباً ساتراً يَحْجُبُ أبصارهم عن رؤيتك، إذا قصدوا لك أذى، ويَحْجُبُ قلوبهم عن فَهْمِ القرآن، إذ جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لكيلا يفهموا القرآن، وجَعَلْنا في آذانهم صَمَماً يمنعهم من استماعه استماعَ تَدَبُّر؛ عقوبة لهم. وإذا ذَكَرْتَ ربَّك - أيها النبي - داعياً لتوحيده سبحانه رجعوا على أعقابهم بنفور سريع، كنُفُور الحمير من الأسد.

٤٧-٤٨ - يكشف الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ كَذِبَ زعماء مشركي مكة فيقول: نحن أعلم بحالهم حين يستمعون إلى قراءتك القرآن، ثم يتناجَون بالحديث سِرّاً بينهم، حين يقول المعتدون الطاعنون بالنبيِّ ﷺ

وبالقرآن، ما تَتَّبِعُون إلا رجلاً أصابه السحر، فاختلط كلامه. انظر - أيها النبي - وتَعَجَّبْ: كيف جعلوا لك الأمثال التي هي أبعد شيءٍ عن صفتك من قولهم: ساحر، شاعر، مجنون؟ لقد ضَلُّوا عن الحق بهذا الكذب، فلا يجدون طريقاً إلى اتباع الهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- حوار المشركين بالحُجَّة والبرهان والحكمة.

٢- عدم استفادة الكفَّار من هدي القرآن الحكيم.

٣- بيان جهل المشركين؛ لعبادتهم المخلوقين.

٤- الكونُ بكلِّ ما فيه يلهج بتعظيم الله وعبادته.

٥- الرعدُ ظاهرة جويَّة تنشأ عن تفريغ الشحنات الكهربية. وهذا التفريغ صورة من صور التقاء اللبنات الأولية للمادة بما تحمله من طاقة وما تصدره من ذبذبات وأصوات، وكأنَّها تسبيح لله وتمجيد وعبادة وحمد وخضوع له تعالى بالطاعة. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٤٥٢-٤٦٤).

٦- وجوب تدبُّر مواعظ القرآن وأحكامه وحكمه.

٧- القرآن لا ينتفع به إلا مَنْ آمن به.

٨- فَضْحُ خفايا الأعداء ودسائسهم للنبيِّ ﷺ والمؤمنين.

٩- جذور حرب الإشاعة على النبيِّ ﷺ ما قاله المشركون، ثمَّ جاءت مُتابَعَتُهم إلى زماننا هذا.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٤٩- أنكر الكفَّارُ البعثَ بقولهم: أإذا كُنَّا عظاماً بالية مُتَفَتِّتة، هل سنُبْعَثُ ونُخْلَقُ خَلْقاً جديداً بعد الموت؟

٥٠-٥١- ورَدّاً على هذا الإنكارِ بَيّنَ اللهُ تعالى الحوارَ الذي دار بين النبيِّ ﷺ والكُفَّار، وما فيه من الإخبار عن أمور مستقبلة من أقوال الفُجّار وأفعالهم، وكيفية الردِّ عليها. قل لهم أيها الرسول: كونوا حجارة أو حديداً، أو خَلْقاً آخر ممّا هو أبعدُ عن الحياة، فإنَّه يُحْيِيكم ويبعثكم. فسيقولون: مَنْ الذي يَرُدُّنا إلى الحياة بعد الموت؟ قل: الذي خَلَقَكم من العدم أوّل مرَّة. فسيَهُزُّون رؤوسهم استهزاءً وتَعَجُّباً: متى يكون البعث؟ قل لهم: لعله يكون قريباً وقوعه.

٥٢- وسيكون يوم يناديكم ربُّكم للخروج من قبوركم، فتستجيبون لأمره، فتَخْرُجون حامدين لله، وتظنُّون ما مكثتم إلا زمناً قليلاً.

٥٣- يأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يُعَلِّم المؤمنين أدب الحوار، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن فإن لم يفعلوا ذلك ألقى الشيطان بينهم العداوة. إنَّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً ظاهر العداوة.

٥٤- ربُّكم - أيُّها الناس - أعلم بما في نفوسكم وعاقبة أمركم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، أو إن يَشَأْ يُعَذِّبْكم بالإماتة على الكفر والعصيان، وما أرسلناك عليهم حفيظاً وكفيلاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- أهمية الحوار الهادئ الهادف مع غير المسلمين.

٢- كَشْفُ ما سيقوله المشركون للنبيِّ ﷺ استعداداً لهم؛ لإقامة الحُجَّة عليهم.

٣- تقرير عقيدة البعث للحساب، ونيل العقاب أو الثواب.

٤- يجب اختيار أحسن العبارات في الحوار بين المؤمنين، وبين المؤمنين وغيرهم.

٥- مهمَّة الرسول ﷺ هي البلاغ والإنذار، وهو غير مسؤول عنهم بعد ذلك.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٥-٥٧- وربُّك - أيها الرسول - أعلمُ بمَنْ في السموات السبع والأرضين السبع، فيَخُصُّ مَنْ يشاء بما يشاء سبحانه. وقسماً لقد فَضَّلْنا بعض الأنبياء على بعض بالكتب، وكثرة الأتباع، والتكليم وغيره، وفُضِّل داودُ عليه السلام بكتاب الزبور. قل: ادْعُوا الذين زعمتم أنَّهم آلهة من دون الله؛ ليشفعوا لكم، فلا يستطيعون رَفْعَ البلاء عنكم، ولا تحويله إلى غيركم. أولئك أصحاب الدرجات الرفيعة من الأنبياء والملائكة والصالحين، الذين يدعوهم المشركون يطلبون بإلحاح ما يُقَرِّبُهم إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة، ويحرص كل منهم أن يكون أقرب إلى الله تعالى، ويرجون دائماً رحمة ربهم، ويخافون دائماً عذابه. إنَّ عذاب ربِّك شديد، جدير بأن يُحْذر منه.

٥٨- وما من أهل بلدة كفروا بالله إلا ونحن مُعاقِبُوهم بالدَّمار، أو بعذاب شديد في الدنيا. كان ذلك في اللوح المحفوظ مكتوباً.

٥٩- يُخبر الله تعالى عن رحمته بعدم إنزال المعجزات التي يقترحها المشركون، وأنَّه ما منعه أن يرسلها إلا تكذيب مَنْ سبقهم من الأُمم، فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا، ثم كَذَّبوا فأهلكهم. ومن أولئك الأُمم قوم ثمود، فقد أعطاهم الناقة معجزة رأوها رَأْيَ العين، فكفروا بها فأهلكهم، وما نرسل الآيات الكونية كالزلازل والبراكين وغيرها إلا تخويف العباد؛ ليتَّعِظُوا.

٦٠- واذكر - أيها الرسول - حين قلنا لك لنطمئنَك: إنَّ ربَّك عَصَمَك من الناس، وما جعلنا المشاهدات العجيبة التي أَرَيْناكها رَأْيَ العين ليلة الإسراء والمعراج إلا اختباراً للناس؛ ليتميَّزَ المؤمن من

المكذِّب، وكذلك شجرة الزَّقُّوم الملعونة في القرآن هي اختبار أيضاً، ونُخَوِّفُ هؤلاء المشركين المكذِّبين بأنواع الآيات والعقوبات، فما يزيدهم إلا تجاوزاً عظيماً لحرمات الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير شمول علم الله تعالى بكلِّ مَنْ في السموات والأرض وما بينهما.

٢- تقرير فضل النبيين فيما بينهم، وسيِّدهم رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

٣- ما يُعبد من دون الله تعالى لا يقدر على جَلْبِ النفع لهم، أو دَفْعِ الضُّرِّ عنهم.

٤- حكم الله تعالى على الظالمين بالهلاك والدَّمار.

٥- في الآية (٥٨) إخبار مستقبلي، ووعيد من الله ﷻ للكفَّار، بأنَّه ما من قرية كافرةٍ مُكَذِّبة للرسل إلا وسينزل بها عقابه بالهلاك في الدنيا قبل يوم القيامة، أو بالعذاب الشديد لأهلها.

٦- موعظة العباد تكون بالظواهر الكونيَّة، كانفجار البراكين، وخسف الأرَضِين.

٧- عصمة الله رسولَه ﷺ من أذى الكفَّار.

٨- اختبار الناس بمعجزة الإسراء والمعراج.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

التفسير:

٦١- يُحَذِّر الله تعالى ويُنذر من مكايد الشيطان في الآيات الخمس التالية، فقد ذكر الحوار الذي دار بين الرحمن والشيطان، حين أمر الله تعالى الملائكة جميعاً أن يسجدوا لآدم تكريماً له، فاستجابوا وسجدوا كلُّهم، إلا إبليس أبى وأنكر بقوله: هل أسجد لِـمَنْ خَلَقْتَه من الطين؟!

٦٢-٦٣- ثم ازداد وقاحة إذ قال: أخبرني عن هذا الذي فَضَّلْتَه عليَّ لِمَ فَضَّلْتَه؟ ثم أقسم: إن أَمْهَلْتني إلى يوم القيامة، قسماً لَأَسْتَوْلِيَنَّ على ذريَّته بالإغواء والإضلال، إلا المؤمنين الذين حَفِظْتَهم مني. فردَّ الله

تعالى عليه بالطرد والإهانة والتهديد له ولِـمَنْ تبعه: اذهب فقد أمهلتك، ومَنْ أطاعك من ذريَّة آدم، فإنَّ نار جهنم جزاؤك وجزاؤهم جزاءً كاملاً وافراً.

٦٤-٦٥- واستَخْفِفْ واستزِلَّ مَنِ استطَعْتَ منهم بدعوتك إياه إلى المعاصي والفساد، وأجمِعْ عليهم كلَّ ما تقدر عليه من جنودك، من كل راكب يقصد معصية، وكل ماشٍ في معصية الله، وشارِكْهم في الأموال، بتزيين إنفاقها في المحرَّمات، وبجمعها من الطرق غير المشروعة، وشارِكْهم في الأولاد، بوَأْدِ البنات وقَتْلِ الأولاد خشية الفقر، وبالترغيب في اختلاط الرجال بالنساء؛ حتى يقعوا في الفاحشة، ويَكْثُرَ أولاد الزِّنى، وعِدْهم بالوعود الخادعة والأماني الكاذبة، وما يَعِدُهم الشيطان إلا وعداً باطلاً مُغْرِياً. إنَّ عبادي المؤمنين الذين يطيعونني ليس لك قدرة على إغوائهم. وكفى بربِّك حافظاً لهم منك.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مكانة آدم ﷺ، والإشارة إلى المسؤوليَّة التي سيتحمَّلها.

٢- بيان عداوة إبليس التي ظهرت بتكَبُّره على آدم ﷺ.

٣- الإشارة إلى وساوس إبليس في تزيين المعاصي، والتحذير منها، ومن جند إبليس، من الإنس والجنِّ.

٤- بشرى الله تعالى بحِفْظِه للمؤمنين، بسبب اعتصامهم، وتَمَسُّكهم بأحكام الله تعالى، وأنَّ إبليس ليس له قدرة على إغوائهم.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

التفسير:

٦٦- رَبُّكم - أيها العباد - هو الذي يُسَيِّر لكم السفن في البحر؛ لتَطْلُبوا بجِدٍّ رزقَ الله في أسفاركم وتجاراتكم. إنَّ الله سبحانه كان بعباده جميعاً رحيماً.

٦٧- ومن رحمته بعباده الدالَّة على وحدانيته: أنَّهم إذا أصابهم حدث خطير في البحر غاب عن ذهنهم الآلهة التي كانوا يَدْعُونها من دون الله، واستغاثوا بالله، فلمَّا أنقذهم من الغرق أعرضوا عن الإيمان بالله. وهذا من الكفر بالنعم، فإنَّ الإنسانَ جَحُودٌ لنِعَمِ الله.

٦٨-٦٩- يُنكر الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم على رجوعهم إلى الكفر: أنَجَوْتم من البحر فأَمِنْتُمْ بعد خروجكم منه أن يخسف بكم الأرض المعهودة، أو يرميكم بحجارة من السماء فتقتلكم، ثم لا تجدوا مَنْ يدفع عنكم العقاب؟ أم أمنتم أن يعيدكم في البحر مَرَّةً أخرى، فيُرسل عليكم ريحاً شديدة مُدَمِّرة؛ فيغرقكم بسبب كفركم، ثم لا تجدوا لكم علينا تابعاً يطالبنا بالثأر؟

٧٠- ومن رحمته بعباده التكريمُ، فقد أقسم الله تعالى مؤكِّداً: ولقد شَرَّفْنا ذريَّة آدم عليه السلام وسَخَّرنا لهم الدوابَّ في البرِّ، والسفن في البحر؛ لـحَمْلِهم وحَمْلِ أمتعتِهم، ورَزَقْناهم من لذيذ المطاعم والمشارب وحلالها، وفَضَّلْناهم على كثير من المخلوقات تفضيلاً كبيراً.

٧١- واذكر - أيُّها النبي - يومَ الحشر حين نُنادي كلَّ جماعة من الناس مع نبيِّهم الذي يشهد عليهم، فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه - وهم السعداء أصحاب الدرجات الرفيعة - يقرؤون كتابهم فَرِحين بحسناتهم التي يُثابون عليها، ولا يُنْقَصُون من أجورهم شيئاً.

٧٢- ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحقِّ، فهو في الآخرة أشَدُّ عَمَىً، وأتعسُ ضلالةً.

الفوائد والاستنباطات:

١- من رحمة الله تعالى على العباد تسخير السفن، وما فيها من الفوائد وطلب الرزق.

٢- بيان جُحودِ الإنسان نِعَمَ الله تعالى، ورعايته لعباده.

٣- الموعظة في طاعة الله تعالى، وينبغي الإجابة عن هذه الأسئلة الواعظة بقولنا: لم نَأْمَنْ ياربِّ، فنحن نعيش بحِفْظِك ورحمتك.

٤- بيان عظمة قدرة الله تعالى في النَّجاة من الكوارث الكبرى.

٥- في الآية (٦٨) إخبار مستقبليٌّ عن عذاب الكفَّار بالخسف.

٦- إنَّ الشواهد والأدلة تتجمع من جميع أنحاء العالم على أنَّ حوادث الزلازل والبراكين والانزلاق الأرضي الخطير على قاع البحر تحتمل أن تتزايد بل ستكون بالفعل نتيجة للتغييرات الموسمية العالمية. وكلما تحدث زلزلة على وجه الأرض فهي لا تقع إلا كنتيجةٍ لانفجار البركان تحت الأرض، وكأنَّهما شيئان لازمان لا ينفكان. (كثرة حوادث الزلازل وخسف الأرض: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٧).

٧- في الآية (٦٩) إخبار مستقبليٌّ عن عذاب الكفَّار بالغرق.

٨- تفضيل الله تعالى بني آدم على كثير من المخلوقات.

٩- تقرير البعث والحشر والحساب.

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٣-٧٥- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خطر فتنة الكفَّار الذين مازالوا يُطالِبُون المؤمنين بتغيير بعض أحكام القرآن الحكيم، فإنَّهم قاربوا بدهائهم ومكرهم أن يُحَقِّقوا ذلك مع النبي ﷺ حتى يجعلوه من الأحبة المُقَرَّبين! ولكنَّ الله برحمته ثَبَّته على الحق؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ مِنْ حِرْصِه على دخولهم في الإسلام فَكَّر أن يوافقهم على قليل من اقتراحاتهم، وقد عَصَمَه الله من ذلك فلم يُوافِقْهم. ولو فعل ذلك لَضاعف الله تعالى عليه العذاب قَطْعاً في الحياة الدنيا، وضاعفه عليه في الآخرة، ثم لا يجد أحداً يدفع عنه ذلك العذاب المضاعف.

٧٦-٧٧- وهؤلاء الكفار حينما يئسوا من استجابة النبي ﷺ لمقترحاتهم، حاولوا بعزم أن يُخْرِجُوا النبيَّ ﷺ من مكة بإزعاجهم له، وتضييقهم عليه وعلى المؤمنين. ولو أخرجوه لَنزلت عليهم العقوبة بعد خروجه بقليل من الزمن، وهي سُنَّةُ الله تعالى في الأُمم السابقة التي أخرجت رسلهم من ديارهم، وهي سُنَّةٌ ثابتة لا تتغير، ولا تتبدَّل.

٧٨-٧٩- يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأُمَّته بأمرٍ حكيم، وفَرْضٍ عظيم: حافِظْ على إقامة الصلاة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل - ويَدْخُلُ في هذه المدة صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء - وأقِمْ صلاة الفجر، وأطِلْ القراءة فيها. إنَّ قراءة القرآن في صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ثم أمر الرسول ﷺ بصلاة النافلة في الليل مُتهَجِّداً بقراءة القرآن؛ لينال مقام الشفاعة للمسلمين يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان خطورة مكايد الكفَّار، والحذر منهم ومن مطالبهم في إبعاد المؤمنين عن طاعة الله تعالى وحكمه.

٢- تحريم الرُّكون إلى الكفَّار لإرضائهم، وتحقيق مفاسدهم.

٣- وجوب الثبات على الحقِّ، وعدم التنازل للإغراء والتهديد.

٤- بيان اللجوء إلى الله تعالى عند الشَّدائد.

٥- وجوب إقامة الصلاة في أوقاتها.

٦- التَّرغيب في قيام صلاة التهجُّد.

٧- بيان فضل صلاة الفجر، وشهود الملائكة فيها.

٨- الإشارة إلى مقام الشَّفاعة التي خَصَّها الله تعالى برسوله ﷺ، بإذنه.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير:

٨٠-٨١- وادْعُ الله تعالى أيها النبيُّ: يا ربِّ أَدْخِلْني في كل مقام تريد إدخالي فيه أن يكون في طاعتك ومرضاتك، وأَخرِجْني من كلِّ ما تخرجني منه أن يكون في طاعتك ومرضاتك، واجعل لي من عندك قُوَّةً ومَنَعَةً تَنْصُرني بها على أعدائك. وقل: سطع نور الإسلام، ووَلَّى الكفرُ والشِّرك. إنَّ الباطل لا ثبات له، ولا بقاء.

٨٢- من رحمة الله تعالى أنَّه يُنَزِّلُ من آيات القرآن الكريم ما يَشْفي القلوب من أمراض الشك والجهل والقلق، وما يشفي الأبدان بالرُّقية، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة، ولا يزيد الكُفَّارَ عند سماع آياته إلا كفراً وضَياعاً.

٨٣-٨٤- يُخْبِرُ الله تعالى عن نَقْصِ الإنسان إلا مَنْ اعتصم بهدي الله تعالى، فإذا أنعم الله عليه بالصحة والسعادة أعْرَضَ عن شُكْر نِعَمِ الله تعالى، وابتعَدَ عن عبادة ربِّه بالانشغال بشهوات الدنيا، وإذا أصابته مصيبة كان قنوطاً، ثم أمر سبحانه النبي ﷺ أن يُنْذِرَ الكفَّار ويُبَشِّر الأبرار، ويقول لهم: كلٌّ مِنَّا ومنكم يعمل ويسير على طريقته التي يعتقد بها، فخالِقُكم أعلم مطلقاً بمَنْ هو أهدى طريقاً إلى الحقِّ والصواب.

٨٥- ويسألك بعض اليهود - أيها النبي - عن الروح تَعَنُّتاً، فأجِبْهم أنَّ حقيقة الروح أمر يعلمه الله تعالى، لا يعلمه البشر؛ لأنَّهم لم يُعْطَوْا من العلم إلا الشيءَ القليل بالنسبة لعلم الله ﷻ.

٨٦-٨٧- يشير الله سبحانه إلى فضله ورحمته في نزول القرآن الكريم وحفظه له؛ ليلفِتَ أنظار الكفار الذين يطلبون التغيير فيه، فإنَّه قادر على أن يمحو هذا القرآن من قلب النبي ﷺ، ويُقسم إنَّه لا أحدَ يستطيع مَنْعَ ذلك. ولكن رحمة الله جعلت القرآن باقياً في قلبه. إنَّ فضل الله العظيم كان كبيراً على رسوله الكريم. وفي هذا تنبيه للمؤمنين للاستفادة من القرآن الكريم؛ لنَيْلِ السعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى هجرة النبيِّ ﷺ إلى المدينة المنورة.

٢- تعليم الله الدعاء لعباده المؤمنين.

٣- البشرى ببقاء الحقِّ، وزوال الباطل.

٤- قال ابن قيِّم الجوزية: «القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواءُ كلامَ ربِّ العالمين الذي لو نزل على الجبال لَصَدَّعها أو على الأرض لقطعها. فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لِـمَنْ رزقه الله فهماً في كتابه».

(زاد المعاد: ٤/ ٣٥٢).

٥- في الآية (٨٣) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال الإنسان المكذِّب بآيات الله، والكفر بنِعَمِه، فيما إذا أنعم الله عليه، فإنَّه يتولَّى ويتباعَدُ عن طاعة ربِّه، وإذا أصابَتْه شدَّة من فقر أو مرض كان قنوطاً؛ لأنَّه لا يَثِقُ بفضل الله تعالى.

٦- حقيقة الرُّوح لا يعلمها إلا الله تعالى.

٧- مهما أوتي البَشَرُ من العلم فلا وزنَ له بالنسبة لعلم الله تعالى.

٨- بيان نعمة الله تعالى على المؤمنين بحفظ القرآن بالسطور والصدور.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير:

٨٨- يُبَيِّن الله عظمة هذا القرآن الحكيم في فصاحته وأحكامه ومبانيه ومعانيه، بأنَّه مُعْجِزٌ من كلام الله، وليس من كلام البشر. قل - أيها الرسول - للعالمين: قسماً إن اتفقت جميع الإنس والجن، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحكمته، لا يستطيعون ذلك، ولو كان بعضهم لبعض مُعيناً وناصراً.

٨٩- وقسماً لقد بَيَّنَّا وفَصَّلْنا للعباد ضروبَ البيان في هذا القرآن بكلِّ وجوهِ الحكمة من أحكام ومواعظ وقصص، فأبى أكثر الناس إلا جحوداً بذلك.

٩٠-٩٣- وقد تمادى هؤلاء الكفَّار بجُحودهم، وطلبوا من النبي ﷺ اقتراحات تُفْصِحُ عن عنادهم وغفلتهم، كما في الآيات الأربع الآتية، وقالوا: لن نُصَدِّقَك حتى تَفْجُرَ لنا من أرض مكة عيناً جارية، أو تكون لك بستان حافلة بالنخيل والأعناب، وتجعل الأنهار تجري من تحتها بمياهها الغزيرة، أو تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاً، أو تُحضر لنا الله والملائكة فنشاهدهم بأعيننا! أو يكون لك قَصْرٌ مُشَيَّد من ذهب، أو تصعد في سُلَّم إلى السماء، ولن نُصَدِّق بصُعودك حتى تأتينا بكتاب من الله منشورٍ نقرؤه. قل لهم: سبحان ربي! ما كنتُ إلا رسولاً بعثني الله إليكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير إعجاز القرآن الكريم بتحَدِّيه سبحانه الإنسَ والجِنَّ، وعَجْزِهم أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه.

٢- في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ عن استمرار إعجاز القرآن إلى قيام الساعة، حتى ولو اتَّفقت الإنس والجنُّ على محاولة الإتيان بمثله، فإنَّهم لا يستطيعون الإتيان به.

٣- جَهْلُ المشركين جَعَلَهم يُكَذِّبون رسالة النبيِّ ﷺ، ويطلبون المزيد من المعجزات، والمصالح الدنيويَّة.

٤- بيان تَعَنُّتِ المشركين بأنَّهم يَتَطَلَّبون، ثم ينقضون ذلك بطلب آخر.

٥- تقرير بشريَّة الرسول ﷺ مع ثبوت نُبُوَّته.

٦- وجد الباحثون أنَّ الينابيع تنفجر انفجاراً، حيث هنالك ضغط كبير تحت سطح الأرض عند منطقة تفجر الينبوع، ويقول العلماء: في هذه المنطقة من الأرض يحدث انفجار طبيعي، فالانفجار يحدث نتيجة وجود ضغط كبير جداً، ويتم تشتت هذا الضغط بشكل مفاجئ خلال زمن قصير أجزاء من الثانية، وهذا ما يحدث تحت سطح الأرض في منطقة تفجر الينابيع.

(http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-13-13/600-2012-12-08-23-40-05).

وينظر: انفجار ينبوع من بين الحجارة في الملحق.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٤- إنَّ السببَ الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعادُهم أن يبعث الله رسولاً إلى الخَلْقِ من البشر.

٩٥-٩٦- قل لهم أيها الرسول: لو كان في الأرض ملائكة بدل البشر يمشون فيها، لَنَزَّلْنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً، ولكنَّ أهل الأرض بشر. قل لهم: كفى بالله شاهداً. إنَّه سبحانه خبير بأحوال العباد، بصير بأعمالهم.

٩٧- يُخبر الله تعالى أنَّه المنفرد بالهداية، فمَنْ يَهْدِه فييسِّره لليسرى، ويُجَنِّبه العسرى، فهو المهتدي، ومَنْ يُضْلِلْه فيَخْذِلْه ويَكِلْه إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله. وهؤلاء الذين ضَلُّوا ليس لهم وليٌّ ينصرهم من

عذاب الله حين يحشرهم الله على وجوههم، حالَ كونهم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، مسكنهم نار جهنم، كلما خمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة.

٩٨- ذلك المصير الخطير البعيد عن رحمة الله جزاء كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بالبعث، وإنكارهم على مَنْ يؤمن به، ويدعو إليه.

٩٩-١٠٠- يُنْكِرُ الله تعالى على المنكرين للبعث؛ توبيخاً وتقريعاً لهم: أولم يعلموا أنَّ الله الذي أبدع السموات السبع، والأرَضين السبع قادر على إعادة جسد الإنسان بعد فَنائه؟ وقد جعل الله تعالى وقتاً محدَّداً لموت البشر لا شكَّ فيه، فأبى المشركون إلا تكذيباً وإنكاراً للبعث. قل - أيها الرسول - لهؤلاء: لو كنتم تملكون خزائن رحمة الله الواسعة لَبَخِلْتم بها، وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً مِنْ نَفادها. وكان الإنسان بخيلاً شحيحاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على المشركين الذين اعترضوا على النبيِّ ﷺ بأنّه بشر.

٢- رحمة الله تعالى بعباده في إرسال الرسل من البشر؛ لأنّه يُحقق التفاهم والتآلف.

٣- شهادة الله تعالى على صدق رسالة النبيِّ ﷺ.

٤- الهداية والضَّلال بيد الله تعالى، يعلم مَنْ يستحق الهداية، ومَنْ يستحق الغَواية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: ٥].

٥- الشُّحُّ والبخل مِنْ طَبْعِ الإنسان الذي لم يتهذَّب بالإيمان.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠١-١٠٢- وقسماً لقد آتينا موسى عليه السلام تسع آيات واضحات، وهي: العصا واليد ونَقْص الثمرات والطوفان والسِّنون والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، فاسأل - أيها الرسول - اليهود حين أُرسل موسى إلى أجدادهم، فقال فرعون: إنِّي لَأعتقد أنّك - يا موسى - قد سُحِرْتَ. فردَّ عليه موسى عليه السلام بجرأة

تتحدى إشاعات فرعون وتكشف كَذِبَه: قسماً لقد علمت ما أنزل هذه المعجزات الشاهدة على صدقي إلا ربُّ السموات والأرض، دلالاتٍ بَيِّنات على عظمة قدرته ووحدانيته، وإنِّي لأعتقد أنَّك هالك.

١٠٣-١٠٤- ولما رأى فرعون أنَّه فشل في مجادلة موسى ﷺ قام باضطهاد موسى وبني إسرائيل وإخراجهم من مصر، فعاقَبْناه بالغرق هو ومَنْ معه أجمعين، وقلنا لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض المقدَّسة بالشام، فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم جميعاً مختلطين، فيكم المؤمن والكافر.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان تَعَنُّتِ كفرة بني إسرائيل.

٢- استخدام الطواغيت حربَ الإشاعة ضدَّ الأنبياء والدُّعاة.

٣- إقامة الحُجَّة بالحوار الهادف أمر مطلوب في الدعوة إلى الله تعالى.

٤- تأييد الله تعالى لعباده المؤمنين، وإنقاذهم من بَطْشِ الطَّواغيت.

٥- موعظة لبني إسرائيل بتذكيرهم بالبعث.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

التفسير:

١٠٥- يُبَيِّن الله تعالى عظمة القرآن: وأنزلناه مُتَضَمِّناً للحق، ونزل إليك يا محمد محفوظاً من التغيير، وما أرسلناك إلا مُبشِّراً بالجنة لِـمَنْ أطاع، ومُنذراً بالنار لِـمَنْ عصى.

١٠٦-١٠٩- وقرآناً بيَّناه وفَصَّلناه؛ لتقرأه على الناس في تمهُّل حتى يفهموه، ونَزَّلناه مفرَّقاً شيئاً بعد شيء، قل أيها الرسول للكفَّار: وسواءٌ أصَدَّقْتُم بهذا القرآن أم لم تُصدِّقوا فهو حَقٌّ. إنَّ العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة إذا قُرِئَ عليهم القرآن يؤمنون ويخشعون، ويَخِرُّون على وجوهِهم ساجدين، ويقولون:

سبحان ربِّنا، ما كان وعده إلا واقعاً حَقًّا. ويَخِرُّون عند تكرار سماع القرآن للأذقان ساجدين يبكون متأثِّرين به، ويزيدهم سماعه خضوعاً وتَذَلُّلاً لله تعالى.

١١٠-١١١- قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين المُنكرين اسم الرحمن: ادعوا الله ونادُوه قائلين: يا الله، أو يا رحمن. فأيَّ هذين الاسمين دعوتموه فإنَّكم تَدْعُون ربّاً واحداً؛ لأنَّ أسماءه كلها حسنى، ولا تجهر بقراءة القرآن في صلاتك فيَسْمعَك المشركون، فيسبُّوا القرآن ومَنْ أنزله، ولا تُسِرَّ بقراءتك فلا تُسْمِعُ من خلفك، وكن وسطاً بين الجهر والسر، وقل: الحمد لله الذي له الثناء كلُّه، المتنزِّه عن الولد والشريك في عبادته، ولا يتولَّى أحداً من خلقه ليتعزَّزَ به ويُعاوِنَه، فإنَّه الغنيُّ الذي يجب أن تُعَظِّمه تعظيماً تاماً بالذِّكْر والشكر.

الفوائد والاستنباطات:

١- شهادة الله تعالى بصدق الرِّسالة، وبعظمة القرآن الكريم.

٢- تقرير نزول القرآن مُفَرَّقاً حسب الحوادث، وهذا من خصائص القرآن الكريم.

٣- الإشارة إلى التأنِّي في تلاوة القرآن، وفَهْمِه، وتعليمه.

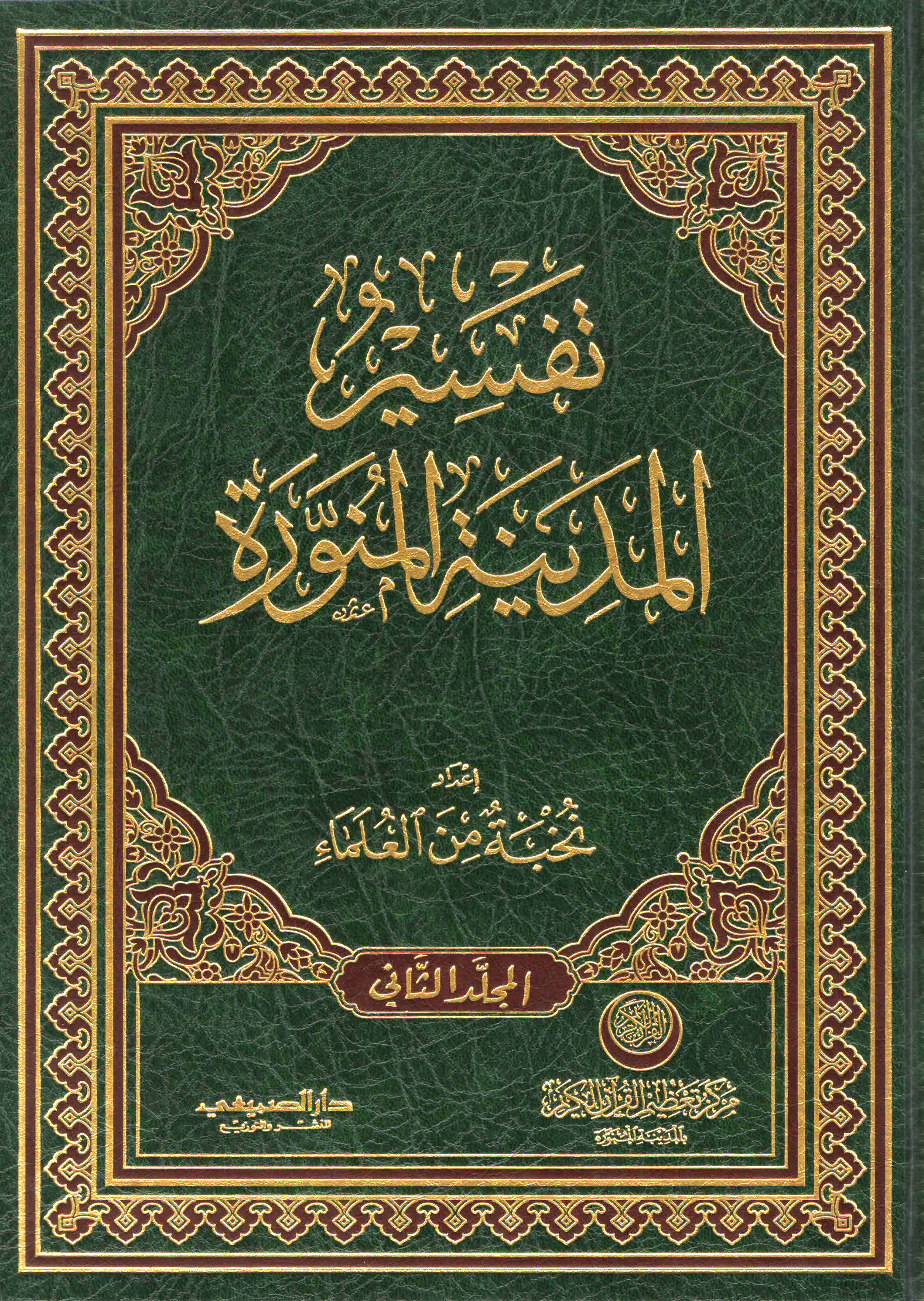
٤- مشروعيَّة السُّجود لِـمَنْ يقرأ آيات السجود.

٥- بيان فضل البكاء مع السجود؛ لما فيه من الخشوع والتذلُّل إلى الله تعالى.

٦- مشروعيَّة الدُّعاء بأسماء الله الحسنى.

٧- وجوب التوسُّط والاعتدال، ومن ذلك أثناء التلاوة.

٨- وجوب الثَّناء على الله تعالى وتقديسه - سبحانه - بالتحميد والتكبير.

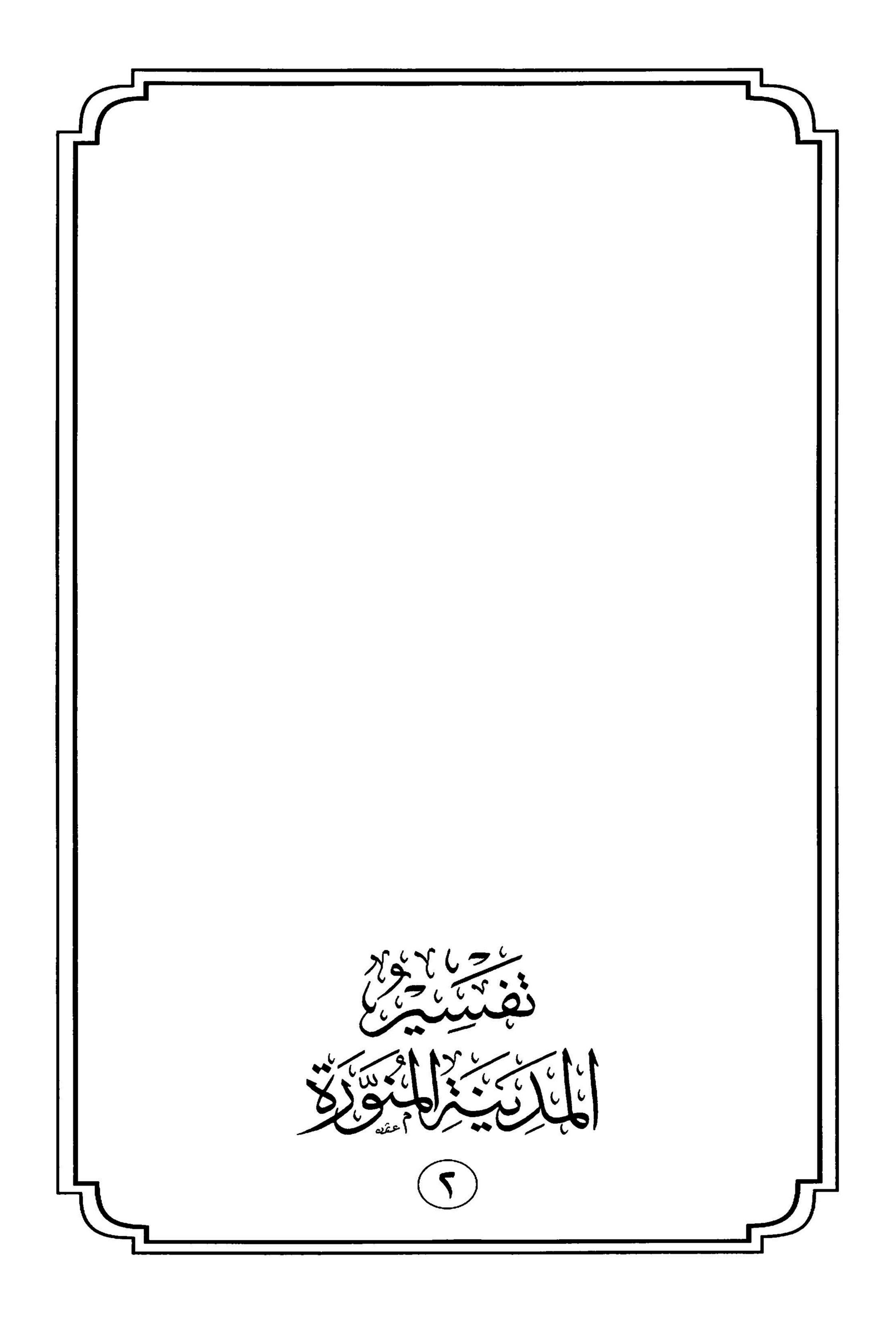


تفسير
المدينة المنورة
إعداد
نخبة من العلماء
المجلد الثاني
مركز تعظيم القرآن الكريم
بالمدينة المنورة
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص. ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢ هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaic@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع


تفسير
المدينة المنورة
٢

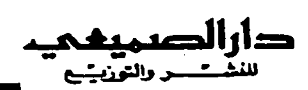
تفسير المدينة المنورة

إعداد

نخبة من العلماء

المجلد الثاني





بسم الله الرحمن الرحيم

النزول: مكية.

فضل السورة:

تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة الإسراء.

ومِنْ فَضْلِها أيضاً: ما رواه أبو الدَّرداء ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدَّجَّال». (أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم ٨٠٩).

المقاصد:

١ - تقرير أصول العقيدة بأنواع من القصص الواعظة.

٢ - بيان قصة أهل الكهف، وما فيها من المعالم الإيمانيَّة، والثَّبات على الدين.

٣ - بيان قصة موسى والخَضِر، وما فيها من آداب العلم.

٤ - الحذر من فتنة المال في قصة الرجلَين: الغني صاحب الجنتين، والمسكين.

٥ - الترغيب في إقامة العدل بين الناس في قصة ذي القرنين.

٦ - عَرْضُ الدعوة إلى التوحيد بعِدَّة أساليب.

٧ - بيان فضل العلم والعلماء، وفضل التواضع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٤- الثناء الكامل، والشكر لله المعبود بحق، الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ القرآن الذي من صفته أنّه صحيح المباني، فصيح المعاني، لم ينحرف عن الصواب، فهو مستقيم واضح، لا تناقض فيه ولا اضطراب؛ لكي يُنْذِرَ به الكفار من عذاب النار، ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأنَّ لهم الجنة وما فيها من النعيم، يقيمون في ذلك النعيم إلى الأبد، ويُنْذِرُ به المشركين الذين كَذَّبوا وقالوا: اتخذ الله ولداً!

٥- ليس لهم ولا لآبائهم بهذا الافتراء دليلٌ ثابت صحيح، فما أعظم الافتراءَ في هذه الكلمة الخبيثة التي خرجت من أفواه الكفَّار، والتي تكاد السماء والأرض تتزلزلان منها! ما يقولون إلا قولاً كاذباً.

٦- لا تُهْلِكْ نفسَك - أيها النبي - حُزناً على إعراضهم عن دعوتك، وتكذيبهم بهذا القرآن.

٧-٨- إنَّا جَعَلْنا ما على وجه الأرض من المخلوقات جمالاً وكمالاً لها، ومنفعة لأهلها؛ لنختبرَهم، وننظر: أيُّهم أطوع لله، وأحسن عملاً لآخرته. وإنَّا لجاعلون يوم القيامة ما على الأرض من زينة تراباً لا نبات فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الشكر والثناء لله تعالى على نعمه الكبرى.

٢- عظمة القرآن الكريم بنَظْمِه، وأحكامه، ووضوحه، وأخباره.

٣- النَّهْيُ عن أذى النفس ندماً على شيء لا قدرة للمرء فيه.

٤- من جلاء الأحزان وذهاب الهموم: النظرُ والاعتبار في حقيقة الدنيا، ومصيرها.

٥- الدعوة إلى إحسان العمل وإتقانه، وذلك بموافقته وجَمْعِه لمراد الله من إخلاص ومتابعة.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩- بل أظننت - أيها النبي - أنَّ قصة أصحاب الغار في الجبل من أهل وادي الرقيم كانت عجيبة فحسب، بل كان ما في آياتنا أعجب!

١٠-١٢- يُذَكِّر الله تعالى رسوله ﷺ بقصة أصحاب الكهف، حين لجأ الشُّبَّان المؤمنون إلى الغار؛ فراراً بدينهم من الشرك وأهله، فقالوا: يا ربَّنا أعْطِنا من عندك رحمة تُكْرِمُنا بها، وأَصْلِحْ لنا أمرنا للهداية إلى طريق الحق. فألقينا عليهم النوم الثقيل مدَّة طويلة في الكهف، ثم أيقظناهم من نومهم؛ لتكونَ عاقبةُ ذلك معرفةَ عِلْمِنا: مَنْ أصاب من الفريقين المختلفين في تقدير مكوثهم؟

١٣-١٤- نحن نَقُصُّ عليك - أيها الرسول- خبرهم العظيم بالصدق. إنَّهم جماعة من الشُّبَّان صَدَّقوا بربِّهم، وزِدْناهم ثباتاً على الحق، وقَوَّيْنا قلوبهم بالإيمان والاطمئنان، حين قاموا مخالفين لقومهم الكفَّار، فقالوا لهم: ربَّنا الذي نعبده وحده، هو خالق السموات السبع والأرَضين السبع، لن نشرك معه غيره من الآلهة. إنْ عَبَدْنا غيره فقد تجاوزنا، وانحرفنا بعيداً عن الحق.

١٥- وتَشاوَرَ الفتيانُ في أمرهم فيما بينهم، حتى قَرَّروا العزلة عن قومهم، وقالوا: هؤلاء قومنا اتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها، فهلَّا يأتون بحُجَّةٍ واضحة على صدق عبادتهم! لا أَحَدَ أظلمُ ممَّنْ تَعَمَّد الكذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى.

١٦- ما دمتم قد اعتزلتم القوم وما يعبدون من الأوثان، فالجَؤُوا إلى الكهف يبسط لكم ربُّكم من رحمته، ويُسَهِّل لكم ما تنتفعون به من طعام ومتاع.

الفوائد والاستنباطات:

١- الاستفادة من قصة أهل الكهف في الثبات على الحق.

٢- جواز الهجرة من المكان الذي فيه اضطهاد في الدين.

٣- تكريم الله تعالى عباده المتقين.

٤- ينظر: صورة موقع الكهف، كما في الملحق.

٥- إذا لقي الداعية أذى أو مضايقة في دعوته فلْيَصْبِرْ ولْيَحْتَسِبْ، ولا يُقاس على أهل الكهف إلا إذا ضاقت الأمور، ولم يكن أمامه مخرج إلا العزلة أو الهجرة.

٦- حاجة الداعية إلى العلم النافع والبصيرة النافذة، والبديهة الحاضرة، والقراءة المتأنية للأحداث، ومعايشة الواقع، واستشراف المستقبل، والتخطيطِ الدقيقِ.

٧- حاجة الدعاة إلى روح الألفة والتعاون والمدارسة، والحوار الهادف.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٧ - وترى - أيها المخاطب - الشمس إذا طلعَتْ تميل عن الغار يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا يُؤذيهم حَرُّ الشمس، ولا يُحْرَمُون من فوائدها، وهم في مُتَّسَعٍ من الغار؛ ليَسْهُلَ عليهم تَنَفُّسُ الهواء. ذلك المذكور من التدبير الرباني لعباده المؤمنين من أدلة قدرة الله العظيمة. مَنْ يُوَفِّقه الله تعالى للإيمان فهو المهتدي حقّاً، ومَنْ يُضْلِلْه بسوء عمله فلن تجد له مَنْ يهديه ويرشده.

١٨ - ولو رأيتهم - أيها الناظر - لظننتهم أيقاظاً، والواقع أنّهم نُيَّام، ونُقَلِّبهم من جانب إلى جانب من أجل التهوية، ولكيلا تتآكل الأجسام بالتصاقها المستمر في الأرض، في تلك المدة الطويلة، وكلبهم باسط

ذراعيه في فناء الغار من جهة الباب كأنَّه يحرسهم، لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لَفَرِغتَ منهم هارباً، ولملئت منهم خوفاً.

١٩- وكما ألقينا عليهم النومَ، وحَفِظْناهم، أيقظناهم من نومهم؛ ليتساءلوا فيما بينهم عن مدة مكثهم في الكهف، قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟ فأجابوا: مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم. وقال بعضهم: ربُّكم أعلم بمدة مكثكم، وانظروا إلى حاجاتنا فأرسلوا أحدكم بنقودكم الفضِّية إلى المدينة فلينظر: أيُّ المآكل أطيبُ وأحَلُّ طعاماً، فليأتكم بطعام منه تأكلونه، وليتلطَّفْ في التعامل مع الناس حتى لا يشعر أحد بأمرنا.

٢٠- إنَّ قومَكم إنْ يَطَّلِعُوا على أمركم يرجموكم بالحجارة، فيقتلوكم، أو يَرُدُّوكم إلى دينهم الباطل، وإن رَدُّوكم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً.

٢١- وكما بعثناهم من نومهم، أطْلَعْنا عليهم أهل ذلك الزمان؛ ليستدلُّوا بذلك على الإيمان بالبعث، وأنَّ قيام القيامة حقٌّ لا شكَّ فيه. وبعد أن عَرَفَ الناس قِصَّتهم وموتهم اختلفوا فيهم، قال بعض الناس: ابنُوا على بابِ الكهف بناءً يسترهم، واتركوهم وشأنَهم، الله أعلم بحالهم. وقال أصحاب القرار: لَنَبْنِيَنَّ عليهم مكاناً للعبادة.

٢٢- سيقول القوم المختلفون في قِصَّتهم وعددهم عدة أقوال، فيقول بعضهم: هم ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، وبعضهم يقول: هم خمسة سادسهم كلبهم. وهذان القولان تخمينٌ بالظنِّ من غير دليل ولا يقين. ويقول بعضهم: هم سبعة ثامنهم كلبهم. قل لهم أيُّها النبيُّ: ربي أعلم بعددهم الصحيح، ما يعلم عددهم إلا قليل من عباده، فلا تجادِلْ فيهم أحداً إلا جدالاً محدوداً بقَدْرِ ما أوحي إليك، ولا تسأل عن قِصَّتهم أَحَداً من اليهود أو النصارى.

٢٣-٢٥- يخاطِبُ اللهُ تعالى رسوله ﷺ ليُبَلِّغ أُمَّته النهي المؤكَّد عن قول العبد في الأمور المستقبلة: إني فاعل ذلك، من دون أن يَقْرنه بمشيئة الله تعالى؛ لأنَّ وجود كل شيء بمشيئة الله تعالى. واذكر ربك عند النسيان بقول: إن شاء الله. وكلما نسيت شيئاً فاذكر الله بالدعاء والتضرُّع إليه، وقل: لعلَّ اللهَ يُوَفِّقني إلى ما هو أصلح لي في ديني ودنياي. ومكث الشُّبَّان نياماً في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية، وهي ثلاثمائة سنة شمسية.

٢٦- قل أيُّها النبي: الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف - كما جاء صريحاً في الآية السابقة - له سبحانه علم غيب السموات السبع والأرَضين السبع. إنَّه سبحانه لَبصير بهم، سميع لهم، فما أبْصَرَ الله لكلِّ موجود!

وما أسمعه لكلِّ مسموع! هو الذي له الخلق والأمر لا مُعَقِّب لحكمه، وليس له وزير ولا شريك في حكمه وتشريعه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١- من الفوائد الطبية في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ضرورة تقليب المرضى على الفراش؛ حتى لا يُؤْذيهم الرقاد في جهة واحدة، فتتآكل أجسادهم، وتَتَعَرَّض للتَّلَفِ والتعفُّن.

٢- بيان الرِّعاية الربَّانيَّة لعباده الصالحين من أهل الكهف.

٣- جواز اقتناء الكلب لأجل الحراسة، وهذا من الموافقات بين شَرْعِنا وشَرْعِ مَنْ قبلنا من المذكورين.

٤- بيان أهمية التلطُّف في التعامل مع غير المسلمين.

٥- الحذر من التعرُّض للمخاطر التي تؤدِّي إلى الوقوع في ضغوط الكفر.

٦- النهي عن اتِّخاذ المساجد على القبور والبناء عليها.

٧- النهي عن الجدل في الأمور غير المهمَّة.

٨- بيان القرآن الكريم لعدد أهل الكهف بقوله: ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾؛ لأنَّه لم يذكر أنَّ ذلك رجم بالغيب.

٩- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنَّه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضَعَّف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدلَّ على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لَرَدَّه كما رَدَّهما، ثم أرشد إلى أنَّ الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممَّنْ أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾». (مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٨).

١٠- وجوب الاستثناء بالمشيئة قبل العزم على الفعل؛ إذ لا يملك العبد القدرة على شيء إلا إذا أراده الله تعالى.

١١- وجوب طَلَبِ الطعام الحلال.

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧- واتل - أيُّها الرسول - الذي أوحاه إليك ربُّك من القرآن الحكيم؛ لتبليغه للناس، فإنَّه قرآن لا تُغيِّرُ ولا تُبَدَّلُ كلماتُه لصِدْقها وعدلها، وفي تلاوته استعانة بالله ولجوء إليه، ولن تجد من دون الله ملجأً تلجأ إليه.

٢٨- واصبر نفسك - أيُّها الرسول - بالجلوس مع أصحابك الذين يعبدون الله وحده، ويَدْعُونه صباحاً ومساءً، يريدون بذلك وجهه سبحانه، واحرص عليهم وعلى لقائهم، ولا تَصْرِف نظرك عنهم إلى غيرهم من زعماء الكفَّار الذين تَقْصِدُ مجالستهم، لِما لهم من مظاهر الحياة الدنيا ومتاعها، ولا تطع الغافلين عن ذكر الرحمن، المتَّبعين لغَواية الشيطان، وكان أمرهم في غاية الضياع والخسران.

٢٩- وقل لهم أيُّها النبي: إنَّ ما جئتُ به هو الحقُّ من عند ربكم، فمَنْ أراد أن يُصَدِّقَ به ويَتَّبِعَه فلْيَفْعَلْ، فهو خير، ومَنْ أراد أن يجحد فلْيفعَلْ. وهذا الفِعْلُ ظاهره الأمر، والمراد به الوعيد والتخويف.

إنَّنا هَيَّأنا للكافرين بالله ناراً شديدة أحاط بهم سُورُها، وإن يطلبوا الغيث من شِدَّة العطش يُغاثوا بماء شديد الحرارة، كالزيت الأسود يشوي الوجوه. بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به، وساءت جهنم منزلاً لهم. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي: التخيير بين الكفر والإيمان، ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التخويف والتهديد، والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرُها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية. والدليل من القرآن العظيم على أنَّ المراد من الآية التهديد والتخويف أنّه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا

يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وهذا أصرحُ دليلٍ على أنَّ المراد التهديد والتخويف، إذ لو كان التخيير على بابه لما توعَّد فاعلَ أحد الطرفين المخيَّر بينهما بهذا العذاب الأليم».

٣٠-٣١- إنَّ المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة، إنَّنا لا نُضيع ثواب من أحسن عمله. أولئك أصحاب الدرجات العالية لهم جنات يقيمون فيها دائماً، تجري من تحت قصورهم الأنهار، يُزَيَّنون فيها بأساور الذهب، ويلبسون الثياب الخضراء من رقيق الحرير وغليظه، يجلسون على الأَسِرَّة، ويتَّكئون على الوسائد. نِعْمَ الثوابُ الجنَّة ونعيمها، وحَسُنَتْ منزلاً ومستقرّاً لهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل تلاوة القرآن، وتبليغِ أحكامه ومواعظه.

٢- القرآن الكريم هو حقٌّ من عند الله تعالى.

٣- وجوب صبر المسلم على معايشة إخوانه المؤمنين.

٤- النهي عن طاعة الكفرة والطواغيت.

٥- ترهيب الظالمين من نيران جهنم.

٦- الترغيب في الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

٧- ينبغي للداعية ألَّا يتأثَّر بزخارف الدنيا التي يتمتع بها الناس.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

التفسير:

٣٢-٣٣- وبَيِّنْ - أيها الرسول - مثلاً في شأن الكفَّار المتجبِّرين الذين يستكبرون على الضعفاء المؤمنين بين رجلين: كافر ومؤمن، وللكافر حديقتان من أعناب، وأَحَطْناهما بنخيل، وجعلنا بين الحديقتين زرعاً متنوِّعاً، وكلُّ واحدة من الحديقتين أنتجت ثماراً، ولم تُنْقِص من ثمرها شيئاً، وشَقَقْنا بينهما نهراً عذباً لسَقْيِهما على نحو دائم.

٣٤- وكان لمالك الحديقتين ثمر وأموال أخرى، فقال لصاحبه المؤمن وهو يتحدَّث معه بغرور: أنا أكثر منك مالاً، وأعزُّ أنصاراً وخدماً.

٣٥-٣٦- ودخل المغرورُ حديقتَه وهو ظالم لنفسه بالكفر، وقال: ما أعتقد أن تتلف هذه الحديقة أبداً، وما أعتقد أنَّ يوم القيامة كائن. وقسماً لئن رجعت إلى ربي لأجدنَّ عنده حتماً أفضل منها عاقبة.

٣٧-٣٨- فأنكر عليه صاحبه المؤمن مُوَبِّخاً له بقوله: أَجَحَدْتَ الله تعالى الذي خلق أصلك من تراب، ثم من مَنِيٍّ، ثم سَوَّاك إنساناً سوياً؟ لكن أنا أعتقد أنَّ الله ربي، ولا أشرك في عبادته أحداً.

٣٩-٤١- وهَلَّا قلتَ حين دخولك الحديقة: هذا ما شاء الله لي، لا قوَّةَ لي على تحصيله إلا بالله. إن كنت تراني أنا أقلَّ منك مالاً وأولاداً، فعسى ربي أن يعطيني أفضل من حديقتك، ويرسل عليها آفة تتلفها

أو صاعقة تحرقها، فتصبح جرداء لا نبات فيها، أو يصير ماؤها غائراً في الأرض، فلا تقدر على إخراجه للسَّقْيِ.

٤٢-٤٣- وجاءت عقوبة المغرور بإتلاف جميع الثمار، فصار يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ تَفَجُّعاً وحزناً على ما بُذِلَ فيها من أموال، وسقطت سقوفها وجدرانها وأشجارها فأصبحت خَرِبَةً، وصار يقول نادماً: يا ليتني لم أشرك بربِّي أَحَداً. ولم تكن له جماعة يُنْقِذُونه من هذه المصيبة غير الله، وما استطاع أن يدفع عن نفسه ذلك العذاب.

٤٤- هنالك في مقام الشدَّة العظيمة، تكون الولاية والنصرة لله الحق، هو سبحانه خير للمؤمن بالثواب الحسن، وخير عاقبة طيِّبة له.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَحَرِّي ضرب الأمثال للناس، وذِكْرُ القصص الحق؛ لتقريب فهم الأحكام.

٢- أثبتت التجارب الحديثة أنَّ تَعَرُّض سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر في خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضُها للتَّعْرِيَةِ، وقد وُجد من الأفضل زراعة محاصيل تغطية تحمي التربة وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كما أنَّ زراعة مصدَّات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة التي تقتلع الأشجار. (مجلة الإعجاز العلمي: العدد (٣٦)، جمادى الأولى، ١٤٣١هـ).

٣- وجوب الإنكار بحكمة على مَنْ يجحد نِعَمَ الله تعالى.

٤- من السُّنَّة الشريفة أن يقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، عند رؤية شيء عجيب وجميل.

٥- الكِبْرُ والغرور يؤدِّيان إلى العقوبة.

٦- جُحودُ النِّعَمِ يذهبها.

٧- المؤمن إن كان فقيراً فهو غنيٌّ وعزيز بعزة الله تعالى واستعلاء الإيمان؛ لأنَّ قيمة المؤمن بإيمانه لا بماله.

٨- قد يُعَجِّلُ الله العقوبة للكافر في الدنيا.

٩- لا قدرة لأحدٍ على نصرِ مَنْ خَذَلَه الله تعالى.

١٠- ينظر: صورة النخل المنقعر والخاوي، كما في الملحق.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير:

٤٥- واذكر - أيُّها النبيُّ - للناس مَثَلَ الحياة الدنيا في بهجتها، ثم سرعة زوالها، بأنَّها كماءٍ مطرٍ نزل من السماء، فخرج به الزرع الكثيف المثمر، ثم بعد مدة قصيرة صار يابساً مُفَتَّتاً تنسفه الرياح، فلا تترك له أثراً. وكان الله على كل شيء مقتدراً.

٤٦- الأموال والأولاد زينة وبهجة في الحياة الدنيا، والأعمال الصالحة والأذكار المأثورة من التهليل والتسبيح والتحميد أفضل ثواباً، وخير أمل ينشده الإنسان عند الرحمن. قال عثمان ﷺ: «الباقيات الصالحات هُنَّ: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٨٢ برقم٥١٣، قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه ابن جرير (التفسير ١٥/ ٥١١-٥١٢ برقم١٨٦٦٢. وصحح السيوطي إسناده في (الدر ٤/ ٣٥٣).

أخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: هي ذِكْرُ قولِ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلَّى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض.

٤٧-٤٨- وأنذر الناس - أيُّها الرسول - يوم نُزيل الجبالَ عن أماكنها، وترى الأرض ظاهرة للعِيان مجرَّدة من المخلوقات التي كانت عليها، وجَمَعْنا الأولين والآخرين للحساب، فلم نترك منهم أحداً،

وعُرضوا جميعاً على ربِّ العالمين، مصفوفين لا يُحْجَبُ منهم أحدٌ، ويقال للكفَّار: قسماً لقد جئتمونا حُفاةً عُراةً كهيئتكم حين خَلَقْناكم أوَّلَ مرَّة، بل ظننتم أن لا بعث ولا جزاء.

٤٩- ووُضِعَ في يد كل واحد من الناس كتاب أعماله، فترى العصاة خائفين ممَّا فيه من الجرائم والذنوب، ويقولون: يا حسرتَنا، ويا هلاكَنا على ما فَرَّطْنا، ما شأنُ هذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا أحاط به؟ ووجدوا كلَّ ما عملوه في الدنيا مُثْبَتاً، ولا يظلم ربُّك أحداً، فلا يعاقبه بغير ذنب، ولا يُنقِص من ثواب المحسن.

٥٠- واذكر- أيها النبي - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له، فسجدوا كلُّهم إلا إبليس كان مع الملائكة - وهو من جنس الجن - فعصى اللهَ تعالى، فلم يسجد كِبْراً وحسداً، أفتتَّخِذُونه - أيها الناس - هو وذريَّته وأتباعه أنصاراً، تُطيعونهم وتتركون طاعتي وهم لكم أعداء؟ بِئْسَتْ عبادة الشيطان بدلاً من عبادة الرحمن.

٥١-٥٢- ما أَشْهَدْتُ إبليس وأتباعه خَلْقَ السموات السبع والأرَضين السبع، ولا أشهدت بعضهم على خَلْقِ بعض، فما كانوا شركاء لي في الخلق، بل تَفَرَّدْتُ بخَلْقِ الجميع بغير مُعين، وما كنت مُتَّخذ الذين يُضِلُّون الناس عن الحق أعواناً، واذكر حين يقول الله للمشركين يوم القيامة: ادْعُوا شركائي؛ ليمنعوكم من عذابي، فدعَوهم، فلم يُجيبوهم بشيء، وفَرَّقْنا بين المشركين وآلهتهم، وجعلنا بينهم مهلكاً.

٥٣- ورأى الكفَّار المجرمون النارَ رَأْيَ العين، فأيقنوا أنَّهم داخلون فيها، ولم يجدوا عنها مكاناً يهربون إليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الماء النازل من السماء غيث لم يسلك طريقه في الأرض؛ ليكون ينبوعاً بعد ذلك، ودَلَّ ذلك على قلة هذا الماء، والفاء أفادت السرعة في الإنبات، ولم يهيج ولم يصفر، بل أصبح هشيماً؛ لأنَّه لم يكتمل نموه الطبيعي لقلة الماء، وكانت نسبة السيلكا فيه قليلة؛ لأنَّ هذا خليط من النباتات وليست زروعاً كما هو الحال في النجيليات، وهذه تكون هشيماً. وينظر: صور ميكروسكوب ضوئي لترسيبات السيلكا في الملحق. وينظر: صورة الزرع بعد دماره، كما في الملحق.

٢- بيان زوال الدنيا وما فيها من مَلاذ.

٣- الأموال والأولاد زينة مؤقتة في الدنيا.

٤- من أعظم الأعمال ذِكْرُ الله تعالى بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير.

٥- في القيامة تعرض الأعمال كلها صغيرها وكبيرها.

٦- الإنباء عمَّا يقوله أصحاب النار.

٧- بيان عدل الله بين الخلائق يوم الحساب.

٨- بيان عداوة إبليس لبني آدم، وأنَّه من الجن.

٩- النهي عن اتباع نَزَغات الشيطان.

١٠- نداء المشركين لشركائهم وأصنامهم، وعدم الاستجابة لهم.

١١- قال الشيخ الشنقيطي: «أي: واذكُرْ يوم يقول الله جلَّ وعلا للمشركين الذين كانوا يشركون معه الآلهة والأنداد من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله توبيخاً لهم وتقريعاً: نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم شركاء معي، فالمفعولان محذوفان، أي: زعمتموهم شركاء لي كذباً وافتراء، أي: ادعُوهم واستغيثوا بهم؛ لينصروكم ويمنعوكم من عذابي».

١٢- قال الشيخ الشنقيطي: «ذكر جَلَّ وعَلا في هذه الآية الكريمة أنَّ المجرمين يرون النار يوم القيامة، ويظنون أنَّهم مواقعوها، أي: مخالطوها وواقعون فيها، والظنُّ في هذه الآية بمعنى اليقين، لأنَّهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع وقد بَيَّنَ تعالى في غير هذا الموضع أنهم موقنون بالواقع، كقوله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة:١٢]».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٤- وقسماً لقد بَيَّنَّا في هذا القرآن الأمثال والأحكام والمواعظ من كل الوجوه والأساليب، وكان الإنسان أكثر المخلوقات جدالاً بالباطل.

٥٥- وما منع الكفَّارَ من الإيمان حين جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن؛ ليؤمنوا ويطلبوا المغفرة من الله، إلا انتظارُهم أن يأتيهم الهلاك كالأُمم السابقة المكذِّبة، أو يصيبهم العذاب عِياناً.

٥٦- وما نبعث الرسل إلا من أجل التبشير بالجنة، والإنذار من النار، ويُجادل المكذِّبون بأقوال باطلة؛ ليغلبوا الحق بالباطل! واتَّخذوا آياتي المنزَّلة والمشاهدة وما خَوَّفوا به من العذاب سخرية.

٥٧- لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ وُعِظَ بآيات الله البيِّنة، وتركها ونسي ما ارتكب من الجرائم، إنَّا جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفهموا القرآن، وجعلنا في آذانهم صَمَماً عن سماع الخير، وإن تَدْعُهم إلى الإيمان فلن يهتدوا أبداً.

٥٨- يُخبر الله تعالى عن سعة رحمته، وكثرة مغفرته، ولو يعاقب المجرمين بما اقترفوا من الذنوب لفاجأهم بالعذاب في الدنيا، ولكن يُمْهِلُهم لعلَّهم يتوبون، ولهم وقت محدَّد للحساب والعقاب، لن يجدوا غيره حِصْناً، ولا مَنْجى يحميهم.

٥٩- وتلك البلدان التي كانت عامرة بأهلها، كقوم هود وصالح ونوح، دَمَّرْناهم حين ظلموا أنفسهم بالكفر، وجعلنا لدمارهم وقتاً محدَّداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القرآن الكريم بيان لكل أمر عظيم، وخلق كريم.

٢- تقرير أن الإنسان كثير الجدل.

٣- واجب المرسلين هو التبشير والإنذار.

٤- أشدُّ الناس ظلماً وجهلاً مَنْ ترك أحكام الله ومواعظه.

٥- في الآية (٥٧) إخبار مستقبلي عن حال مَنْ وُعِظَ بآيات ربِّه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قَدَّمَتْه يداه من الأفعال القبيحة فلم يَرْجِعْ عنها، فإذا دُعِيَ إلى الإيمان فلن يستجيب، ولن يهتدي إليه أبداً، كيف لا وقد جعل الله على قلبه غطاء، فلم يفهم القرآن، ولم يدرك ما فيه من الخير، وجعل في أذنه مايشبه الصَّمَم، فلم يسمعه، ولم ينتفع به؟

٦- إمهال الله تعالى الكفار، وعدم إهمالهم للحساب.

٧- مصير الظلم الهلاك.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

سبب قصة موسى والخضر:

عن أُبي بن كعب ﷺ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العِلْمَ إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رَبِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حُوتاً فتجعله في مِكْتَل، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حوتاً فجعله في مِكْتل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يُوشعَ بن نُون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكْتَلِ فخرج منه، فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ وأمسك الله عن الحوت جِرْية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نَسِيَ صاحبه أن يخبره

بالحوت، فانطلقا بقيةَ يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سَرَباً، ولموسى ولفتاه عجباً. فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يَقُصَّان آثارَهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجلٌ مُسَجًّى ثوباً، فسلَّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لتُعلمني ممَّا عُلِّمت رشداً، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يا موسى. إنِّي على علم من علم الله عَلَّمَنِيه لا تعلمه أنت، وأنتَ على عِلْمٍ من عِلْمِ الله عَلَّمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ فقال له الخَضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّتْ سفينة، فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخَضِرَ، فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يَفجأ إلا والخضر قد قَلَعَ لَوحاً من ألواح السفينة بالقَدوم، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها لتغرق أهلها، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ؟ قال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ ، قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «وكانتِ الأولى من موسى نِسياناً». قال: وجاء عُصفور فوقع على حرفِ السفينة فنقر في البحر نَقرة، فقال له الخَضر: ما علمي وعِلْمُك من علم الله إلا مثلُ ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة. فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشَدُّ من الأولى. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: مائلٌ، فقام الخضر، فأقامه بيده. فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يُطعمونا، ولم يُضيفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنا أنَّ موسى كان صبر حتى يَقُصَّ الله علينا من خبرهما». (صحيح البخاري، سورة الكهف، برقم ٤٧٢٥. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر ٤/ ١٨٤٧، برقم ٢٣٨٠).

التفسير:

٦٠- يُذَكِّر الله تعالى بقصة موسى والخضر، حين قال موسى عليه السلام لخادمه يوشع بن نون: لا أزال أُتابع السير حتى أصل إلى ملتقى البحرين، أو أسير زماناً طويلاً إلى أن أبلغ ذلك المكان من أجل اللقاء بالخَضِرِ العبد الصالح؛ لأزدادَ علماً منه، وذلك حينما خطب موسى في بني إسرائيل، فسُئِل: مَنْ أعلم الناس؟ فقال: أنا، فعتب الله تعالى عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه سبحانه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رَبِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في وعاء، فحيثما فَقَدْتَ الحوت فهو المكان المنشود.

٦١- فلمَّا بلغ موسى وفتاه ملتقى البحرين، نَسِيا حوتهما - وهذه علامة على تَحَقُّق المطلوب - ثمّ دَبَّت الحياة في الحوت وانحدر إلى البحر، واستقرَّ بحجر محدد من الماء.

٦٢-٦٣- فلمَّا جاوزا ملتقى البحرين قال موسى عليه السلام ليوشعَ: أَحْضِرْ إلينا الحوت للغداء، لقد واجهنا في سفرنا هذا تعباً. فأجاب يوشع: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة، فإني نسيت أن أخبرك عن قصة الحوت؟ وما أنساني ذلك إلا الشيطان، فإنَّ الحوت المُمَلَّح دَبَّتْ فيه الحياة، وانحدر إلى البحر، وكان أَمْرُه عَجَباً.

٦٤-٦٥- قال موسى: ذلك الأمر العظيم الذي كنَّا نبحث عنه. فرجعا يَتَّبعان آثارهما تتبُّعاً حتى انتهيا إلى الصخرة، فوجدا هناك الخضر العبد الصالح، آتيناه رحمة من عندنا، وعَلَّمْناه من لَدُنَّا علماً خاصَّاً عظيماً.

٦٦-٧٠- وبعد أن سَلَّم موسى على الخضر وتعارفا، قال موسى: هل تأذن لي أن أرافقك، على أن تُعَلِّمني ممَّا علَّمك الله ما يرشدني إلى الصواب؟ فرَدَّ عليه الخضر: إنَّك لن تقدر أبداً أن تصبر على ما ترى من تَصَرُّفي. وأكَّد ذلك بقوله: وكيف تصبر على شيء لا خِبْرَة لك بحقيقته؟ قال موسى عليه السلام مُؤَكِّداً: ستراني بمشيئة الله صابراً مُطيعاً فيما تأمر به. فوافق الخَضِرُ بشرط أَلَّا يسأله عن شيء يفعله، حتى يُبَيِّن حقيقته وسببه.

الفوائد والاستنباطات:

١- اكتشف العلماء أنَّ مجمع البحرين يقع بمنطقة رأس محمد بشرم الشيخ عند نقطة التقاء خليج العقبة وخليج السويس بجنوب سيناء. (http://quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-1239).

٢- من السنة المطهرة في السفر المرافقة.

٣- بيان فَضْلِ العلم وطلبه.

٤- مشروعية الرحلة في طلب العلم.

٥- الرجوع عن الخطأ فضيلة.

٦- حُسْنُ خُلُقِ موسى مع فتاه.

٧- وجوب التزام طالب العلم الأدبَ مع معلمه.

٨- مهما بلغ العالم من العلم فإنَّ علمه محدود.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٧١-٧٢- فانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مَرَّتْ سفينة، وعرف أصحابها الخضر، فحملوهما بدون أجرة، فلمَّا رَكِبا السفينة عمد الخضر إلى فأس، فقَلَعَ لوحاً من ألواح السفينة، فتعجَّب موسى وقال مُستنكراً: أخَرَقْتَ السفينة؛ لتُغرِقَ الرُّكَّاب؟ والله لقد فَعَلْتَ مُنكراً عظيماً. فرَدَّ عليه الخضر معاتباً: ألم أقل لك: إنَّك لن تقدر أبداً أن تصبر على ما ترى من صنيعي؟.

٧٣- قال موسى مُعتذراً: سامِحْني على نسياني شَرْطَك، ولا تكلِّفْني مشقَّةً، وعامِلْني برفق.

٧٤- فقَبِلَ الخَضِرُ العُذْرَ، فانطلقا بعد نزولِهما من السفينة يمشيان، فمرَّا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلاماً فقتله، قال موسى مُنكراً: أقَتَلْتَ نفساً بريئة لم ترتكب جُرْماً؟ والله لقد فَعَلْتَ مُنكراً عظيماً.

٧٥- قال الخضر عاتباً: ألم أقل لك إنَّك لن تقدر أبداً أن تصبر على ما ترى من تَصَرُّفي؟

٧٦- قال موسى معتذراً بأسف شديد: إن أنْكَرْتُ عليك بعد هذه المرَّة فلا ترافقني؛ لأنَّك قد بَلَغْتَ الغاية التي تُعْذَرُ بها في فراقي.

٧٧- فقَبِلَ الخَضِرُ العُذْرَ أيضاً، فانطلقا حتى وصلا إلى أهل بلدة، فطلبا طعاماً، فرفض أهل البلدة إطعامهما، فوجدا فيها حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط، فمَسَحَه الخضر بيده فاستقام! قال موسى: لو شِئْتَ لَطَلَبْتَ منهم أجراً على إصلاحه.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إنكار المنكر بالحكمة.

٢- استحباب التطوع بعمل الخير لله تعالى.

٣- انتفاع الأبناء بصلاح الآباء.

٤- وجوب التأدُّب والاعتذار للمعلم عند وقوع الخطأ والنسيان من طالب العلم.

٥- تقرير حقِّ الضيافة.

٦- المُتَعَلِّمُ تَبَعٌ لِلْعالِمِ، ولو تَفاوَتَتِ المراتِبُ، وجواز أَخْذِ الفاضل عن المفضول.

٧- لا يَغْجَبِ المرء بعلمه، ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه، فلعلَّه ينطوي على حكمةٍ لا يعرفها.

٨- تَعَلُّمُ العلمِ عبادةٌ وقُرْبَةٌ، وهو ليس غايةً في ذاتِه، بل الغرضُ الانتفاعُ به في أمورِ الدينِ والدنيا.

٩- في تقديم الرحمة على العِلْم ما يدلُّ على أهميتها للعالم والمتعلم.

١٠- التماس العذر للآخرين، ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك.

١١- ينبغي للدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع؛ لدراسة الواقع، والتعامل معه، ومعايشة هموم الناس، وتَفَقُّد أحوالهم، وحَلِّ مشكلاتهم.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾

التفسير:

٧٨- قال الخضر: هذا وقت الفراق بيننا، سأخبرك خبراً عظيماً بتفسير أفعالي التي لم تَقْدِرْ أن تصبر على تَرْكِ السؤال عنها.

٧٩- أمَّا السفينة التي خَرَقْتُها فكانت لمساكين ضعفاء يشتغلون بها في البحر؛ لكَسْبِ الرزق، فقَصَدْتُ بخَرْقِها أن أعيبها؛ لئلَّا يغتصبها الملك الظالم.

٨٠-٨١- وأمَّا الغلام الذي قتلته فكان كافراً، وكان أبوه وأُمه مؤمنين، فخَشِينا أن يحملَهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه، فأَرَدْنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً منه ديناً، وبَرّاً بهما.

٨٢- وأمَّا الجدار الذي بَنَيْتُه دونَ أجر، فكان لغلامين يتيمين في تلك البلدة، قد دُفِنَ تحته كنز من ذهب، وكان أبوهما رجلاً صالحاً، فأراد ربُّك بذلك أن يبلغ الغلامان الرُّشْدَ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار. وما فَعَلْتُ جميع ذلك عن رأيي، وإنَّما بإلهام من الله تعالى. ذلك التفسير العظيم الذي لم تقدر على تَرْكِ السؤال عنه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان حكمة الخضر التي خَصَّه الله تعالى بها.

٢ - تأهيل موسى عليه السلام على الصبر، فإنَّ دعوة قومه تحتاج إلى هذا الخلق.

٣ - معرفة النبيِّ محمد ﷺ هذه القصة بوحي القرآن.

٤ - مكانة المرء الصالح عند الله ﷻ.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

التفسير:

٨٣- ويسألك - أيها الرسول - هؤلاء المشركون عن خبر ذي القرنين الحاكم القائد الصالح، قل لهم: سأتلو عليكم ممَّا عَلَّمَني الله تعالى من أخباره؛ لتعتبروا بذِكْرِه.

سأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذي القرنين: كيف بَلَغَ المشرق والمغرب؟ قال: سبحان الله، سُخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسِطَ له النور. فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل، وسكت عليٌّ. (المختارة ٢/ ٣٢ برقم ٤٠٩، وصححه المحقق. التفسير الصحيح٤/ ١٦٦).

٨٤-٨٦- إنَّنا - بما لنا من العظمة والقدرة - مَكَّنَّا له في الأرض للوصول إلى مسالكها، والظهورِ على ملوكها، وأعطيناه عِلْماً بكلِّ شيء يحتاج إليه للوصول إلى مطلوبه، فأخذ بتلك الأسباب، وسار جهة

المغرب، حتى وصل المغرب فوجد الشمس تغرب في عين ماء حارَّة - حَسَبَ رؤية العين المحدودة - ووجد هناك قوماً كُفَّاراً، أمرنا ذا القرنين: إمَّا أن تقتلَهم، أو تَدْعُوَهم إلى الإيمان بالحسنى.

٨٧-٨٨- قال ذو القرنين مستجيباً لله: أمَّا مَنْ ظلم نفسه بالإصرار على الكفر فسوف نقتله، ثم يُبعث إلى ربِّه فيُعَذِّبه عذاباً شديداً لم يعهد مثله، وأمَّا مَنْ صَدَّق بالله، وعمل بطاعته، فله الجنَّة في الآخرة، ونُسَهِّل عليه في التكاليف مع المعاملة الطيِّبة في الدنيا.

٨٩-٩٠- ثم رجع ذو القرنين إلى المشرق مُتَّبِعاً الأسباب التي مَكَّنه الله إياها، حتى إذا وصل إلى مطلع الشمس وجدها تُشْرِقُ على قوم ليس لهم بناء يسترهم، ولا أشجار تُظِلُّهم.

٩١- أَمْرُ ذي القرنين ذَكَرْناه لكم، وقد أَحَطْنا علماً بكل ما لديه من الأسباب العظيمة والخطوات الكريمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كما أنَّ قصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، كل منها هي في جنسها أحسن من غيرها، فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة». (مجموع الفتاوى ١٧/ ٢٢).

٢- تقرير ثبوت رسالة النبيِّ ﷺ إذ أجاب السَّائلين عن سؤالهم.

٣- ذو القرنين هو الرجل المؤمن من آل فرعون، وهو ابن فرعون مصر، وقد اكتسب عِلْمَه وخبرتَه في هندسة البناء من هامان، وذلك حسب دراسة الأستاذ حمدي بن حمزة الصريصري في كتابه (فكّ أسرار ذي القرنين (أخناتون) ص ١٩٨، ٢٠٦ - ٢١٢).

٤- يقع مغرب الشمس في جزر المالديف. (المصدر السابق، ص٢٩٠).

٥- موقع مطلع الشمس هو جمهوريَّة كيريباتي، قال الأستاذ حمدي بن حمزة الصريصري: بناء على ما توفَّر لديَّ من معلومات وحقائق وشواهد وأدلَّة فإنَّه في إمكاننا القول وبنسبة عالية من الثقة بأنَّ مطلع الشمس هو ذلك المكان الواقع في المحيط الهادي على خطِّ الاستواء، الذي يعرف اليوم بمنطقة أو جمهورية كيريباتي، والمناطق والجزر القريبة منها، والواقعة على نفس الخط... فالشمس تطلع على منطقة كيريباتي حوالي الساعة ٦,٣٠ صباحاً في كلِّ يوم من أيَّام السنة، وتغرب عنها في الساعة ٦,٣٠ في كلِّ يوم من أيَّام السنة على مدى الحياة، وذلك كما تبيَّن لي خلال رحلتي لهذه المنطقة. (المصدر السابق، ص٢٩٠، ٢٩٧).

٦- اختار الله تعالى الملك الصالح ذا القرنين للقيام بالدَّعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

التفسير:

٩٢-٩٤- ثم تَوَجَّه نحو مكان السد قبل بنائه، مُتَّبعاً الأسباب التي مَكَّنه الله إياها، حتى وصل إلى ما بين جبلين شامخين حاجزين لما وراءهما، وجد قوماً لا يقربون أن يفهموا كلام ذي القرنين وأتباعه، وطلبوا العون من ذي القرنين، فقالوا: إنَّ يأجوج ومأجوج - هما قبيلتان عظيمتان من البشر - مفسدون في الأرض بالقتل والنهب، فهل نجعل لك أُجرة من أموالنا، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعنا منهم؟.

٩٥-٩٧- فوافق ذو القرنين على ذلك، وقال: ما أكرمني الله به من الـمُلْكِ والتمكين خيرٌ ممَّا تعطونني، فأعينوني بما عندكم من طاقة أجعل بينكم وبينهم سَدّاً منيعاً. ثم طلب إليهم أن يُعطوه قطعاً من حديد، وأن يجعلوها في ذلك المكان، حتى إذا ردم ما بين الجبلَين، وساواهما في العلو، أمرهم أن يُؤَجِّجوا النار فيه حتى صار الحديد كتلة واحدة من شدَّة حرارته، وسَدَّ ما بين الجبلَين، ثم طلب قِطَعاً من النحاس فصهرها، ثم صَبَّها فوق الحديد الـمَحْمِيِّ، فالتصق بعضه ببعض، وصار السدُّ جبلاً مُحكماً أملس، فلم تتمكن قبيلتا يأجوج ومأجوج أن تصعد فوق السدِّ لارتفاعه وملاسته، ولم تتمكَّنْ قطعاً من نَقْبِه من شدَّة صلابته، وضخامة سمكه.

٩٨- وبعد الانتهاء من بنائه ذَكَرَ فَضْلَ الله عليه: هذا الذي أنجزتُه رحمةٌ من فضل ربي، فإذا جاء وَعْدُ ربي بخروج يأجوج ومأجوج، وقرب قيام الساعة جعله مستوياً بالأرض، وكان وَعْدُه سبحانه في ذلك كائناً أكيداً.

٩٩- وحين خروج يأجوج ومأجوج نترك الناس في اضطراب كاضطراب البحر الهائج؛ لكثرتهم وتَزاحُمِهم، وبطش يأجوج ومأجوج فيهم، فينتشر الفساد والهلاك، ويَعُمُّ الأرض حينذاك، وينفخ المَلَكُ في القَرْنِ من أجل البعث، فيستجيب الخلق، ويتجمَّعون للحساب.

١٠٠-١٠١- وعَرَضْنا نار جهنم للمكذِّبين بالله ورسوله، وأظهرناها لهم إظهاراً جليّاً، لأنّهم هم الذين كانت أعينهم في الدنيا عُمْياً عن دلائل قدرة الله، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله لظلمة قلوبهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- استخدام ذي القرنين الوسائل المُتاحة؛ للنهوض بعمله.

٢- التعاون والعمل الجماعي يساعد في إنجاز المهمّات الكبرى.

٣- أشارت الآيات إلى حقائق منها :

أ- ضرورة عمل نظام وقائي؛ لحماية المعدن المنصهر من عوامل الجو مثل الصدأ، وزيادة تفاعله مع المعدن المصهور من مادة البنية الأساسية.

ب- ضرورة التحكم في معدلات التبريد والتخلص من الجيوب الهوائية والعيوب الداخلية في الوصلة الملحومة، وكذلك ضرورة تقليل آثار التحول الفلزي عند درجات الحرارة الحرجة.

ج- تشير التقنيات الحديثة إلى استخدام الصلب المغطى بطبقة من القِطر؛ نظراً لمناعة هذا المعدن ضد عوامل الكسر، والانهيار المفاجئ من ناحية، ولشدة متانته الكبيرة من ناحية أخرى.

(http://www.quran-m.com/firas/arabicold/print_details.php?page=show_det&id=207)

٤- السدُّ الذي بناه ذو القرنين إنقاذ للعباد من قوم يأجوج ومأجوج إلى الموعد الذي ضربه لخروجهم قبل قيام الساعة، ولسوف يفسدون في الأرض. وينظر: صورة سد ذي القرنين، كما في الملحق.

٥- في حَبْسِ ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم دليلٌ على اتخاذ السجون، وحَبْسِ أهل الفساد فيها؛ لمعاقبتهم، ومَنْعِ شرِّهم وتقويم سلوكهم، ودفع الشر بأيسر ما يندفع به.

٦- ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم؛ لإصلاح البلاد والنهوض بها.

٧- في الآية (٩٨) إخبار مستقبليٌّ عن البناء الذي بناه ذو القرنين حاجزاً أنْ سيخرق بفساد قوم يأجوج ومأجوج.

٨- حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأُمم والشعوب التي لم تصلها بعد، لابدَّ أن نكون أُمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له، ويُشيدُ بعَدْلِه، ويحتمي بسلطانه.

٩- نشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض؛ ليعُمَّ الخيرُ الجميع.

١٠- ينظر: خريطة بلاد يأجوج ومأجوج، كما في الملحق.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾

التفسير:

١٠٢ - يُنكر الله تعالى على الكافرين ويُوَبِّخُهم ويُخَوِّفُهم: أفحَسِبَ الكفَّار أن يتَّخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم من دوني، وأنَّ ذلك يدفع عنهم عذابي؟ إنَّنا هيَّأْنا نار جهنم للكافرين منزلاً.

١٠٣-١٠٦ - قل - أيُّها الرسول - مُحَذِّراً للناس: هل نُخْبِرُهم خبراً عظيماً بأخسر الناس عند الله؟ هم الذين بطل عملهم في الحياة الدنيا، وهم يظنون أنَّهم محسنون بأقوالهم وأفعالهم. أولئك البعداءُ عن رحمة الله الذين كذَّبوا بالقرآن والبعث، فبطلت أعمالهم، فليس لهم عند الله يوم القيامة قيمة ولا منزلة. ذلك الأمر العظيم الذي بَيَّنَّاه في وعيدهم جزاؤهم نار جهنم؛ بسبب كُفْرِهم بالله، واتِّخاذهم آياتِه ورسله سخرية.

١٠٧-١٠٨ - إنَّ المؤمنين الذين أقرُّوا لله بالوحدانية، وأطاعوه بالأعمال الصالحة، لهم أعلى مراتب الجنة وأفضلها مقاماً، ماكثين فيها أبداً، لا يطلبون عنها تحوُّلاً إلى غيرها.

وانظر سورة آل عمران الآية (١٦٣) وفيها حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «... فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة أو أعلى الجنة».

١٠٩ - يُبَيِّنُ الله تعالى سَعَةَ عِلْمِه، قل أيها الرسول: لو كانت بحار الدنيا حِبْراً للأقلام التي يكتب بها كلام الله لانتهى ماء البحار على كثرته، وكلام الله لا ينتهي، ولو جئنا بمثل ذلك الماء وزِدْناه به حتى يكثر، فإنَّ كلامَ الله لا يتناهى؛ لسَعَةِ علمه سبحانه.

١١٠- قل - أيُّها النبي - لهؤلاء المشركين: إنَّما أنا إنسان مثلكم، أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أُبَلِّغكم أنَّه سبحانه إلهكم واحد لا شريك له، فمَنْ كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه، فليعمَلْ عملاً صالحاً في الدنيا، ولا يشرك أحداً من الخلق بعبادة الله ربِّه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من اتِّخاذ العباد شركاء لله تعالى.

٢ - أخسر النَّاس أعمالاً الذين ضَلُّوا عن الإسلام، وظَنُّوا أنَّهم على الحق.

٣ - جعل الله تعالى العقاب الشديد لِـمَنْ يستهزئ بآيات الله تعالى ورسله.

٤ - بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمقام العظيم في الفردوس.

٥ - كلمات الله تعالى ليس لها حدود ولا نهاية، وكذا علمه تعالى.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة الإسراء.

المقاصد:

١ - بيان مكانة الأنبياء، وسموُّ أخلاقِهم، وتعظيمهم لربهم، وقوة رجائهم.

٢ - بيان مكانة مريم، وفضائلها وكرامتها عند الله.

٣- تقرير بعض معجزات الأنبياء من خلال قصصهم.

٤ - الردُّ على الغُلُوِّ في عيسى عليه السلام.

٥ - تقرير العقيدة الإسلامية، ونَقْضُ دعائم الشرك، ودَحْضُ شُبَهِ الكافرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - هذا الذي نتلوه عليك - أيها الرسول - قِصَّةُ رحمةِ الله عبدَه زكريا عليه السلام، وهو نبيٌّ من بني إسرائيل.

٣- حين دعا ربَّه بصوت خَفِيٍّ لا يكاد يُسمع.

٤ - قال: يا ربِّ إنَّني كَبِرَ سِنِّي، وضَعُفَ جِدّاً العظمُ مني، وانتشر الشيب في رأسي، ولم أكن محروماً خائباً من إجابتك.

٥- وإنَّني خِفتُ الأقارب يَرِثُونني بعد موتي، فيُضَيِّعون الدِّين، وكانت زوجتي عاقراً لا تَلِدُ، فارْزُقْني من فضلك ولداً صالحاً. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ يعني بهذا الوليِّ الولد خاصة دون غيره من الأولياء، بدليل قوله تعالى في القصة نفسها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] الآية، وأشار إلى أنَّه الولد أيضاً بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فقوله: ﴿لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: واحداً بلا ولد، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ أي: من بعدي إذا مِتُّ أن يُغَيِّروا في الدِّين».

٦- يرثني في العلم والدين، ويرث من آل يعقوب عليه السلام المُلك والنبوَّة، واجعله مَرْضِيّاً عندك وعند الناس.

٧- فاستجاب الله له دعاءه، ونادته الملائكة: يا زكريا إنَّنا نُبَشِّرك بغلام اسمه (يحيى) عليه السلام، لم نُسَمِّ أحداً قبله بهذا الاسم.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحدِّي بالقرآن الكريم بذكر الحروف المقطَّعة.

٢- بيان فضل الدعاء الخفي.

٣- قال ابن عاشور: «جاء نَظْمُ هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكرياء إذ نادى ربه فقال: رب إلخ... فرحمة ربك، فكان في تقديم الخبر بأنَّ الله رَحِمَه اهتمامٌ بهذه المنقبة له، والإنباء بأنَّ الله يرحم من التجأ إليه». (التحرير والتنوير: ١٦/٨)

٤- من فضائل النبيِّ يحيى عليه السلام سَمَّاه الله تعالى باسم مبتكر، لم يُسَمَّ به أحد من قبله.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٨- قال زكريا عليه السلام فرحاً مُتَعَجِّباً: يا ربِّ كيف يكون لي غلام والواقع أنَّ امرأتي لا تلد، وأنا قد بَلَغْتُ الشيخوخة، وغاية الكبر في السن؟.

٩- قال الملك المُبَشِّر عن الله تعالى: مثلَ ذلك الخلق غير المعتاد أخلقه من والدَين هَرِمين كبيرين، وخلقه سهل عليَّ، وقد خلقتك أنت من قبل يحيى، ولم تك شيئاً كائناً.

١٠- قال زكريا عليه السلام: يا ربِّ اجعل لي علامة أستأنس بها على تحقيق البشارة. قال: عَلامَتُك عَجْزُك عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، وأنت صحيح من غير مرض.

١١- فخرج زكريا عليه السلام على قومه من المصلَّى الذي يُصَلِّي فيه، فأشار إليهم بيده: أن سَبِّحوا الله صباحاً ومساءً.

١٢-١٤- وتَحَقَّقت البشارة، إذ وُلِدَ يحيى، ولمَّا بلغ سِنُّه مبلغ الخطاب أمره الله تعالى: يا يحيى خذ التوراة بجِدٍّ واجتهاد، وأعطيناه الحكمة منذ الصِّغَر، وآتيناه رحمةً وهيبةً ورزقاً واستقامةً من عندنا، وكان مُطيعاً لله في أوامره، مُجتنباً نواهِيَه، وكان كثير البرِّ والإحسان بوالديه، ولم يكن مُتكبِّراً ولا عاصياً لربه.

١٥- وسلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام، وأمان له من كل شرٍّ، من حين مولده ويوم موته، إلى يوم مبعثه. قال ابن عاشور: «هذه الأحوال الثلاثة المذكورة هنا أحوال ابتداء أطوار: طور الورود على الدنيا، وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة. وهذا كناية على أنَّه بمَحَلِّ العناية الإلهية في هذه الأحوال». (التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩).

الفوائد والاستنباطات:

١ - رحمة الله تعالى باستجابته للدعاء، فجَعَلَ المرأةَ تَلِدُ بعد أن كانت لا تُنْجب.

٢ - وجوب أخذ أحكام الله تعالى بجد وعزم.

٣ - بيان بعض الصفات الحميدة للنبيِّ يحيى عليه السلام.

٤ - حِفْظُ الله تعالى لنبيِّه يحيى عليه السلام في كل أطواره من الولادة إلى البعثة.

٥ - الحَثُّ على الجِدِّ والاجتهادِ والعزمِ والمضاء في طلب العلم وفي العمل به، وفي دعوة الناس إليه.

٦ - إرشاد الآباء والأمهات أن يُحْسِنُوا تربية أولادهم منذ نُعومة أظفارهم.

٧ - على الداعية والمربِّي أن يتحلى بصفات الحنان والطُّهر والتقى.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

١٦- واذكر - أيها الرسول - في القرآن قِصَّة مريم عليها السلام حين انفردت عن أهلها، وعن الناس، وذهبت إلى مكان نحو الشرق منهم.

١٧- وجعلت بينها وبين قومها ستراً يسترها عنهم، فأرسلنا إليها الملك جبريل عليه السلام، فتَمثَّل لها بصورة بشر تامِّ الخلق.

١٨-٢٠- وقالت مريم وهي خائفة: إني ألتجئ إلى الله منك أن تُؤْذِيَني، إن كنت تخاف الله وتطيعه. قال جبريل مطمئناً لها: ما أنا إلا مَلَكٌ مُرْسَلٌ من عند الله إليك، ليرزقَكِ غلاماً طاهراً من الذنوب، قالت متعجِّبة: من أين وكيف يكون لي غلام ألده، ولم يمسسني إنسان بنكاح، ولَسْتُ واقعةً بفاحشة؟

٢١- قال جبريل: هكذا الأمر كما قلتِ، ومجيء الغلام منك بهذه الحالة سهل على الله تعالى، وليكون مجيئُه دلالةً للنَّاس على عظمة قدرة الله تعالى، ورحمة منَّا لك ولِـمَنْ آمن به، وكان خلقه منكِ أمراً قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنَّه كائن منكِ.

٢٢-٢٣- فحملت مريم بالغلام بعد أن نفخ جبريل في جيب قميصها، فانفردت به إلى مكان بعيد عن الأهل والناس، فألجأها ألم الطلق إلى ساق نخلة لتستند إليه عند الولادة، وعرفت أنَّها سَتُبتلى بهذا المولود، فتمَنَّتِ الموت قبل قصة الولادة، وأن لو كانت غير معروفة ولا يُدرى مَنْ هي؟

٢٤-٢٥- فناداها جبريل من مكان منخفض عنها، مخفِّفاً كربها ومبشِّراً ومعلِّماً لها: يا مريم لا تحزني قد جعل الله تحتك جدول ماء يجري أمامك، وحَرِّكي جِذْعَ النخلة تُسقِط عليك من أعلاها رُطَباً طَرِيّاً ناضجاً، لتأكلي وتشربي وتستقرَّ عينك بالنوم، وتهدأ نفسك من القلق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان فضل مريم عليها السلام.

٢- أهمية الخَلْوَةِ للعابد والداعية والمربِّي والمصلح، فهي رياضة للنفس، وسُمُوٌّ بالروح، وصفاء للقلب، وزيادة قُرْبٍ من المولى ﷻ.

٣- عفاف مريم ووَرَعُها وحجابها، وتقواها لله ﷻ، واجتهادها في العبادة، وحسن أدبها وبلاغتها وسرعة بديهتها، وقوة يقينها.

٤ - تكريم الله تعالى لمريم بأنَّها حَمَلَتْ بعيسى من غير أب.

٥ - وجوب الأخذ بالأسباب في طلب الرزق.

٦- بيان توافُر النخل آنذاك في فلسطين في مدينة بيت لحم.

٧- أهمية الرُّطَبِ في فوائده للحامل، ولاسيما في الراحة النفسية.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٦- لتأكلي من الرُّطَبِ المفيد، وتشربي من الماء العذب، وتَطيب نفسك وتستقرَّ بهذا المولود، فإن سألك أحد الناس عن شأن المولود فأجيبي: إنّني نَذَرْتُ لله تعالى الصمت، فلن أكلِّم أحداً من الناس.

٢٧ -٢٨- فأتَتْ مريمُ قومَها تحمل ابنها عيسى، فلمّا رأوها تَعَجَّبوا وأنكروا، وقالوا لها: لقد جئتِ شيئاً عظيماً مُنكراً. يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجلاً فاجراً، وما كانت أُمُّك واقعة بفاحشة.

٢٩- فلم تُجِبْهم، وأشارت إلى عيسى؛ ليكلِّموه، فأنكروا عليها أيضاً، فقالوا: كيف نتحدَّث مع طفل لا يزال في المهد؟

٣٠-٣٣- فنطق عيسى بإذن الله تعالى قائلاً: إنَّني عبد الله، أكرمني الله تعالى بالنبوَّة، فأنزل عليَّ الإنجيل، وجعلني نبياً، وجعلني كثير النفع للعباد حيثما كنت، وأمرني بالمحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة طول حياتي، وجعلني كثير البِرِّ والإحسان بوالدتي، ولم يجعلني مُتكبِّراً ولا عاصياً لربي، وسلام الله عليَّ من كلِّ شرٍّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حَيّاً من قبري.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «النون في قوله ﴿تَرَيِنَّ﴾ نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط، فحُرِّكَتِ الياء بحركة مجانسة لها، كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة». (التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١).

٢ - تقرير معجزة عيسى ﵇ وهو في بداية ولادته، وأنه خُلِقَ من غير أب.

٣ - بيان بعض فضائل عيسى ﵇.

٤ - حِفْظُ الله تعالى عيسى ﵇ في جميع أحواله منذ ولادته إلى بعثه.

٥ - بيان عبودية عيسى ﵇.

٦ - قال ابن عاشور: «كلام عيسى هذا ممَّا أهملته أناجيل النصارى؛ لأنَّهم طَوَوا خبر وصولها إلى أهلها بعد وَضْعِها، وهو طَيٌّ يُتعجب منه. ويَدُلُّ على أنَّها كُتبت في أحوال مريبة غير مضبوطة، فأَطْلَعَ الله تعالى عليه نبيَّه ﷺ». (التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٣).

٧ - تبرئة مريم عليها السلام من تُهَمِ الناس واليهود.

٨ - وجوب التثبُّت في القول؛ لمعرفة الحقيقة.

٩ - وجوب الصلاة والزكاة في دين النصارى.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٤- ذلك خبر النبي عيسى بن مريم ﷺ العالي الرتبة في عبوديته لله الواحد، وفي أقواله النبوية الحكيمة، وهو قول الحق الذي شَكَّ فيه اليهود والنصارى.

٣٥- يُنَزِّه الله تعالى نفسه ممَّا قال المشركون بأنَّ الله اتَّخذ ولداً، فإنَّه لا ينبغي أن يقال ذلك؛ لأنَّه خَلَلٌ عظيم في التوحيد. تَقَدَّس وتعالى عمَّا يقولون، فإنَّه إذا أراد شيئاً وحكم به قال له: كن، فيكون كما يشاء سبحانه.

٣٦- وممَّا أمر به عيسى لقومه وهو في المهد، العبودية لله. إنَّ الله ربِّي وربُّكم جميعاً، فأخْلِصُوا له وحده العبادة. هذا هو الطريق الصحيح الموصِلُ إلى الجنّة.

٣٧-٣٨- فاختلفت الفِرَقُ من أهل الكتاب في أمر عيسى: ما بين الغُلُوِّ، إلى ادِّعاء الألوهية، وما بين الاتِّهام بالسحر. فالهلاك والدمار للذين كَذَّبوا بمشاهدة أهوال الحساب يوم القيامة، ما أشدَّ سَمْعَهم، وما أقوى بَصَرَهم في ذلك اليوم العصيب الذي يُقْدِمُون فيه على الله حين لا ينفعهم ذلك! لكنِ الظالمون أنفسهم في هذه الدنيا في ذهاب بعيد عن الحق.

٣٩- وأَنْذِرِ العباد - أيها الرسول - يوم القيامة والندامة، حين يُقْضَى أَمْرُ الله تعالى في عباده: فريق في الجنَّة، وفريق في جهنم، وهم في هذه الدنيا في غفلة عن ذلك اليوم، إذ لا يُصَدِّقون به.

٤٠ -إنَّنا - بما لنا من العظمة - نحن الوارثون للأرض كلها ومَنْ عليها من البشر بموتهم جميعاً، وإلينا مصيرهم للحساب. قال الشيخ الشنقيطي: «معنى قوله جلَّ وعلا في هذه الآية أنه يرث الأرض ومَنْ عليها، أنَّه يُميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، ويبقى هو جلَّ وعلا؛ لأنَّه هو الحي الذي لا يموت، ثم يرجعون إليه يوم القيامة، وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضعَ أُخَرَ كقوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [الحجر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات».

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتمييز المذكور أكمل تمييز تعريضاً بالرد على اليهود والنصارى جميعاً، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفعه النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ.

٢ - الإخبار عن اختلاف النصارى بشأن عيسى عليه السلام.

٣ - الردُّ على الذين افتروا على الله تعالى بنسبة الولد إليه.

٤ - عظمة قدرة الله تعالى.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤١ - واذكر - أيها الرسول - في هذا القرآن الكريم قصَّةَ إبراهيم عليه السلام مع قومه، وحواره معهم حول توحيد العبودية. إنَّ إبراهيم عليه السلام كان بليغ الصدق في أقواله وأفعاله، ونبيّاً ذا منزلة عالية.

٤٢ - واذكر حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر مُستعطفاً بنسب الأبوّة، مُستميلاً له نحو الإيمان: ياأبي لِمَ تعبد الأصنام التي لا تسمع دعاءك، ولا تبصر عبادتك، ولا تجلب لك نفعاً، أو تدفع عنك ضُرّاً؟

٤٣ - وكرَّرَ الدعوة بالاستعطاف: يا أبي إنَّني قد جاءني بطريق الوحي الإلهي من العلم العظيم ما لم يأتِك، فطاوِعْني أُرْشِدْك إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنَّة.

٤٤-٤٥ - يا أبي، لا تطع أمر الشيطان، وتترك رحمة الرحمن. إنَّ الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبرٌ على عبادته، يا أبي إنَّني أخاف عليك بعبادة الأصنام أن يصيبك عذابٌ من الرحمن، فتكون تابعاً للشيطان في دخول النار.

٤٦ - فَرَدَّ عليه أبوه آزر بقسوة مُهَدِّداً ومُنْكِراً على ابنه: أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي؟ ثمَّ أكَّد وهدَّد بالقتل والطرد: لَئِنْ لم تنته عَمَّا تقول وتعتقد لأقتلنَّك رَجْماً بالحجارة، واذهَبْ عنِّي لا أريد رؤيتك زمناً طويلاً.

٤٧ -٤٨ - فأجابه إبراهيم ﷺ برفق ولطف: سلام عليك، فلا ينالك أذىً مني، وسأطلب لك المغفرة من ربِّي، إنَّه كان لطيفاً برعايته التامة لي، وأهجركم وما تعبدون من غير الله، وأدعو ربِّي وأعبده مُخلصاً راجياً ألَّا يجعلني مُعَذَّباً. ولما أصرَّ أبوه على الكفر تبرَّأ إبراهيم من أبيه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤].

٤٩ -٥٠ - فلمَّا ترك إبراهيم ﷺ قومه الكفَّار ورؤية أوثانهم، رزقناه ذريَّةً مؤمنة، ابناً اسمه إسحاق ﷺ، وحفيداً اسمه يعقوب ﷺ، وجعلناهما نبيين، وأكرمناهم جميعاً من رحمتنا بخيرات كريمة في الدين والدنيا، وجعلنا لهم ذِكْراً حسناً، وثناءً جميلاً إلى قيام الساعة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تسلية النبي ﷺ على ما لقي من مشركي قومه؛ لمشابهة حاله بحال إبراهيم ﷺ.

٢ - الإشارة إلى الأسلوب اللطيف في دعوة الأقربين.

٣ - التنفير من الشرك؛ لأنَّه عبادة للشيطان.

٤ - جواب إبراهيم: سأستغفر لك ربي، يدل على ثباته على التوحيد، وفي الوقت نفسه يُذَكِّر أباه بأنَّه سيبقى ناصحاً له، وفيه ترغيب أيضاً.

٥ - الإشارة إلى هجران أهل الكفر والشرك بعد دعوتهم بإقامة الحجة عليهم.

٦ - التأييد الرباني لأوليائه الموحِّدين.

٧ - قال ابن عاشور: «إظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار، إذ لم يقل: إنَّه كان للرحمن عَصِيّاً، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان؛ لأنَّ في ذِكْرِ صريحِ اسمِهِ تنبيهاً إلى النَّفرة منه، ولتكون الجملة موعظةً قائمة بنفسها». (التحرير والتنوير: ١٦/ ٤٧).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

التفسير:

٥١- واذكر - أيها الرسول - في القرآن الكريم قصَّةَ موسى عليه السلام، فقد اصطفاه الله واختاره، وكان رسولاً من الله تعالى لعباده، ونبيّاً يخبرهم عن شريعة الله تعالى.

٥٢-٥٣- ونادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كان موسى متوجِّهاً إلى مصر، وقَرَّبْناه بتشريفه وتكليمه لنا بغير واسطة، ووَهَبْنا له من نِعْمَتِنا عليه أخاه هارون عليه السلام فجعلناه نبياً يعينه.

٥٤-٥٥- واذْكُرْ - أيُّها النبيُّ - في هذا القرآن الحكيم خبر إسماعيل عليه السلام. إنَّه كان صادق الوعد لا يَعِدُ بوعدٍ إلا وَفَّى به، وقد أكرمه الله تعالى بأن جمع له الرسالة والنبوَّة. ومن صفاته الحميدة أنَّه كان يَحُثُّ أهله على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، وقد نال رضا الله تعالى، فبَلَغَ درجة عالية.

٥٦-٥٧- واذكر يا محمَّد في القرآن العظيم إدريس عليه السلام، إنَّه كان بليغ الصدق في أقواله وأفعاله، ونبيّاً ذا منزلة عالية، فقد رَفَعَ الله قَدْرَه بشرف النبوَّة، ودرجته في السماء الرابعة حينما رآه النبي ﷺ في أثناء عُروجه إلى السماء.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية النبي ﷺ على ما لقي من مشركي قومه؛ لمشابهة حالهم بحال قوم موسى عليه السلام.

٢- إثبات صفة الكلام لله تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل.

٣- بيان شرف الصدق في الوعد.

٤- أهمية أمر الأهل بالصلاة والزكاة؛ لأثرهما العظيم في تربيتهم على الصلاح والتقوى.

٥- ينظر: الملحق لبيان الترتيب الزمني للأنبياء المذكورين.

٦- ينظر: صورة جانب الطور الأيمن، كما في الملحق.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ (٥٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا (٦١) لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا (٦٢) تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا (٦٥) ﴾

التفسير:

٥٨- أولئك أصحاب الرُّتَبِ العالية، والنسب الشريف، الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوَّة من نسل آدم، ومن ذريَّة نوح والمؤمنين الذين ركبوا معه السفينة، ومن ذريَّة إبراهيم كإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن ذريَّة يعقوب كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، ومِمَّنْ هديناهم للإيمان، واصطفيناهم للرسالة والنبوَّة، إذا سمعوا كلام الله خَرُّوا سُجَّداً، وبَكَوا خوفاً من خشية الله.

٥٩-٦٢- ثمَّ جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قوم أشقياء تركوا إقامة الصلوات، وسلكوا طريق الشهوات، فسوف يَلْقَون شَرّاً في نار جهنم، إلا مَنْ تاب وأناب إلى الله وأصلح عمله، فأولئك أصحاب الهِمَمِ العاليةِ يُدْخِلُهم اللهُ الجنَّةَ، ولا يُنْقِصُهم من أعمالهم الصالحة مثقال ذرة. هي جَنَّاتُ إقامة دائمة، التي وعد بها الرحمن عباده الصالحين قبل أن يروها. إنَّ وعده سبحانه بالجنة آتٍ لا يُخلف، لا يَسْمعون في هذه الجنة كلاماً باطلاً، وإنَّما يسمعون تسليم الملائكة عليهم، ولهم ما يشتهون في الجنَّة من أنواع الخيرات على الدوام صباحاً ومساءً.

٦٣- تلك الجنَّة العظيمة الشأن التي وَصَفْنا بعض أحوالها نُورِثُها لعبادنا المتَّقين.

٦٤- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟»

فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا ﴾. (صحيح البخاري - كتاب التفسير، (الآية)، برقم ٤٧٣١).

التفسير:

وقل يا جبريل لمحمَّد ﷺ: وما نتنزَّل نحن الملائكةَ من السماء إلى الأرض إلا بإذن ربِّك، له سبحانه جميع الأمور في الزمان والمكان، في الدنيا والآخرة، وما بين أيدينا ممَّا يستقبل من أمر الآخرة، وما خَلْفَنا ممَّا مضى من الدنيا، وما كان ربُّك ناسياً شيئاً من الأشياء.

٦٥- هو الله ربُّ السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من مخلوقات، فأخلِصْ له العبادة وحده، واصبر صبراً عظيماً بغاية جهدك من أجل عبادته وحده سبحانه، هل تعلم له مماثلاً ومشابهاً؟ ليس لله مثيل، ولا نظير ﷻ.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «هذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي ﷺ اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن، فهم سجدوا كثيراً عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا». (التحرير والتنوير: ١٦/ ٥٨).

٢- بيانُ فَضْلِ السجود الذي يصحبه البكاء والخوف من الله تعالى.

٣- الإشارة إلى خطر تضييع الصلاة، بتأخيرها أو تَرْكِها، أو التقصير فيها.

٤- الترغيب في التوبة، وبيان ما أعَدَّه الله تعالى للتائبين.

٥- وجوب توحيد العبودية.

٦- بيان أحوال الملائكة أنَّها لا تتصرف إلا بإذن الله تعالى.

٧- لـمَّا تضمن قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥] إبطال عقيدة الإشراك به، ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت، حتى يتمَّ انتقاض أصلَي الكفر.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٦-٦٧- يُنْكِرُ الإنسانُ المكذِّبُ بالبعث فيقول: أإذا مِتُّ وفَنِيتُ لَسوف أُخرَج من القبر حيّاً؟ أَوَلا يتذكَّر هذا المكذِّب بالبعث أول خَلْقِه من عدم؟

٦٨-قسماً بربِّك يا محمَّد، لَنَجْمَعَنَّ الكفَّار المنكرين للبعث يوم القيامة مع الشياطين، ثمَّ لَنُحْضِرَنَّهم حول جهنم يحيطون بها وهم قعود على رُكَبِهم؛ لأنَّهم لا يتمالكون الوقوف من شدَّة اضطرابهم وهلعهم.

٦٩-٧٠- ثم لَنأخذَنَّ بشدَّة وعنف من كلِّ فرقة ضالَّة أكابر مجرميها المتمرِّدين المتكبِّرين؛ ليبدأ بهم العذاب، ثم والله لَنحن أعلم بالذين هم أحقُّ بدخول جهنَّم، وتَذَوُّقِ شدَّةِ حَرِّها.

٧١-٧٢- وما منكم من أحد - أيها العباد - إلا وسَيَرِدُ على النار، فالمؤمنون يمرُّون على الصراط المنصوب على جهنَّم مروراً سرعتُه متفاوتة حَسَبَ أعمالهم، وأمَّا الكفار فسَيَرِدُون عليها للبقاء فيها أبداً، ثم نُنَجِّي المتقين نجاة عظيمة، ونترك الكافرين في النار قاعدين على رُكَبِهم من هَوْلِ المشهد.

عن أُم مبشر أنَّها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله، مِن أصحاب الشجرة أحدٌ. الذين بايعوا تحتها». قالت: بلى يا رسول الله ﷺ! فانتهرها. فقالت حفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال النبيُّ ﷺ: لقد قال الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

(صحيح مسلم ٤/ ١٩٤٢ برقم ٢٤٩٦ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة).

٧٣-٧٤- وإذا تُتلى على العباد آيات القرآن العظيم الواضحة المعاني، قال الكفرة للمؤمنين بمفاخرة ومكابرة: أيُّ الفريقين نحن أم أنتم أفضل منزلاً، وأحسن مجلساً، وأكثر أنصاراً؟ وقد أهلكنا كثيراً من الأُمم السابقة لهؤلاء المكابرين، كانوا أكثر منهم مالاً وأثاثاً، وأجمل هيئة ومنظراً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الفاء في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ تفريع على جملة ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ [مريم: ٦٧]، باعتبار ما تضمنته من التهديد. وواو القسم لتحقيق الوعيد. والقسم بالربِّ مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو النبي ﷺ إدماج لتشريف قدره.

٢- تقرير عقيدة البعث بعد الموت.

٣- ثبوت العذاب للمكذبين للبعث، وأنَّ روَّاد هؤلاء المكذبين أشد عذاباً من غيرهم.

٤- سعة الرزق في الدنيا ليس دليلاً على رضا الله تعالى، بل هو استدراج واختبار.

٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في ذِكْرِ حديث رؤية الربِّ في الآخرة، وفيه قوله ﷺ: «... ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم»، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّة عليه خطاطيف وكلاليب وحَسَكة مفلطحة لها شوكة عُقَيفاء تكون بنجد يُقال لها: السَّعدان، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مسلم، وناجٍ مخدوش، ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، فما أنتم بأشد لي مناشدةً في الحق».

(صحيح البخاري ١٣/ ٤٣١ برقم ٧٤٣٩ - كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾). وعُقَيفاء: مَلْوِيَّة.

٦- في الآية (٧٣) إخبار مستقبليٌّ عن موقف الكفَّار، إذا سمعوا تلاوة القرآن فإنَّهم ينزعجون، ويتفاخرون بما أنعم الله تعالى عليهم في الدنيا.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

التفسير:

٧٥- قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين المغرورين: مَنْ كان منَّا ومنكم في الضلالة جائراً عن طريق الحقِّ، فإنَّ الله يُمْهِلُه ويُمْلي له في ضلاله، إلى أن يأتيهم أمر الله: إمَّا عذابٌ عاجلٌ في الدنيا، وإمَّا قيام الساعة، فسيعلمون مَنْ هو شرٌّ مكاناً، وأضعف قوة.

٧٦- ويزيد الله تعالى المهتدين نوراً؛ للثبات على طريق الإيمان والأعمال الصالحة. والأذكار التي تُنير القلوب خيرٌ عند الله تعالى في الآخرة ثواباً وخيرٌ عاقبة من كلِّ ما يتباهى به أهل الأرض.

٧٧-٨٠- سبب النزول:

عن خَبَّاب قال: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ. فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإنِّي لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: إنَّ لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ٢٨٣-كتاب التفسير، سورة مريم، باب (الآية) برقم٤٧٣٢. صحيح مسلم ٤/ ٢١٥٣-كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح....برقم ٢٧٩٥).

التفسير:

أفلا تعجب من دَجَلِ هذا الكافر المِضْلال (العاص بن وائل السهمي) الذي جمع بين كفره بآيات الله وافترائه العجيب أنَّه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، فوَبَّخه الله تعالى وزجره: أطَّلعَ على علم الغيب الذي تَفَرَّد به علَّام الغيوب، فرأى ماله وأولاده؟! أم أعطاه الله عهداً بذلك؟ كلا لم يقع شيء من ذلك، وسيُحفظ

قوله، وسيحاسَبُ على افترائه، فيزداد عذابه زيادة كبيرة، ونَرِثُه ما يُخَلِّفه من المال والولد بعد إهلاكه، ويأتينا يوم القيامة وحيداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «أظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أن المعنى: أم أعطاه الله عهداً أنّه سيفعل له ذلك، بدليل قوله تعالى: في نظيره في سورة البقرة: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]».

٨١-٨٢- يخبر الله تعالى عن كفر المشركين بربِّهم أنّهم اتخذوا من دونه آلهة؛ لتنصُرَهم وترفعَ شأنهم، ثم زجرهم سبحانه: ليس الأمر كما تَوَهَّموا، فإنَّ الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة.

٨٣-٨٤- ألم تعلم - أيها الرسول - أنّنا سَلَّطْنا الشياطين على الكافرين تُغْريهم وتُغْويهم إغواءً إلى المعصية؟ فلا تَتَعجَّل في طلب هلاكهم، فإنَّه لم يبق لهم سوى أيامٍ نُحْصِيها إحصاءً دقيقاً.

٨٥- يومَ القيامة نجمع الذين خافوا عقاب الله فأطاعوا أمره، واجتنبوا نَهْيَه، إلى الرحمن وفوداً مكرَّمين راكبين. عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُرُ بَقِيَّتَهم النارُ تَقِيلُ معهم حيث قالوا: وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا».

(صحيح البخاري ١١/ ٣٧٧ برقم٦٥٢٢-كتاب الرقاق، باب الحشر. وصحيح مسلم ٤/ ٢١٩٥ برقم٢٨٦١-كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر.. وعنده: (راغبين راهبين) بدون واو بينهما).

٨٦-٨٧- ونَسُوق المعتدين الذين ارتكبوا كبائر الجرائم إلى نار جهنَّم مُشاةً على وجوههم عِطاشاً، لا يجدون مَنْ يشفع لهم، لكن مَنْ أقرَّ بالوحدانية لله ولرسوله بالرسالة، وعَمِلَ بذلك، فإنَّه قد وعده الله تعالى بالشفاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر حديث الإمام أحمد، عن عثمان المتقدم عند الآية (٤٦) من سورة الكهف، وفيه تفسير الباقيات الصالحات. (التفسير الصحيح ٤/ ١٩٦).

٢- جملة ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ جوابٌ لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحَمْلِ كلامِه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدَّين من المال الذي سيجده حين يبعث، فالاستفهام في قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكاري وتعجيبي.

٣- خطورة ادِّعاء علم الغيب، وسوء عاقبته.

٤- الشياطين هي السبب في مسارعة الفاسقين إلى المحرَّمات والكبائر.

٥- تكريم المتقين عند الحشر إذ يحشرون ركوباً.

٦- تقرير استحقاق الشفاعة للموحدين.

٧- إنباء عن أمر مستقبلي ببراءة المعبودات من المشركين.

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تستعجل وقوع العذاب بهم، فإن الله حَدَّد له أجلاً معيناً معدوداً. فإذا انتهى ذلك الأجلُ جاءهم العذاب، فقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: نَعُدُّ الأعوام والشهور والأيام التي دون وقت هلاكهم، فإذا جاء الوقت المحدَّدُ لذلك أهلكناهم».

٩- في الآية (٧٦) إخبار مستقبليٌّ عن زيادة الله لعباده الذين اهتدَوا لدينه، هدىً على هداهم بما يتجدَّد لهم من الإيمان بفرائض الله.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

التفسير:

٨٨-٩٢- وتَجَرَّأ كفرة أهل الكتاب والمشركين فقالوا: اتخذ الرحمن ولداً. والله قد أتيتم بقول مُنكر عظيم، تكاد السموات السبع يَتَشَقَّقْنَ ويضطربن من هول هذا القول، وتَتَصَدَّع وتتزلزل الأرَضون السبع، وتندكُّ وتتساقط الجبال سقوطاً شديداً؛ استعظاماً للمُنْكَر الكُبَّار في نسبتهم الولد إلى الله ﷻ، وما ينبغي للرحمن ولا يليق بجلاله وعَظَمَتِه أن يَتَّخذ ولداً سبحانه.

٩٣-٩٥- ما مِنْ مخلوقٍ في السموات السبع والأرض إلا سيأتي ربَّه يوم القيامة عبداً منقاداً لله خاضعاً له، والله قد أحاط علمه بهم، وأحصى عددَهم قبل خلقهم، وأحصى أعمالهم. وكلُّ هذه الخلائق يأتي كل واحدٌ منهم يومَ القيامة بلا مالٍ ولا أولادٍ ولاأعوان.

٩٦- إنَّ المؤمنين الذين أقرُّوا لله بالوحدانية، وعَمِلُوا بما يُرضيه سبحانه، سيجعل لهم الرحمن محبَّةً عظيمة في قلوب العباد.

٩٧- فإنَّما يَسَّرْنا ألفاظ هذا القرآن ومعانيه بلسانك العربي الفصيح؛ لتُبَشِّرَ به الذين يخافون الله، ويرجون رضاه بالجنة، وتنذر به الكفرة الذين لا يستقيمون، وجادلوا في الباطل بشدَّة.

٩٨- ثم ختم الله ﷻ هذه السورة بذِكْرِ الأُمم السابقة التي حَقَّ عليها الهلاك؛ للتخويف والاعتبار بمصير الكفَّار والفجَّار. وقد أهلكنا كثيراً من الأُمم السابقة من قبل هؤلاء الكفرة، ما ترى منهم أحداً، وما تسمع لهم صوتاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعظيم جريمة الافتراء على الله تعالى بنسبة الولد إليه، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون عُلُوَّاً كبيراً. وينبغي تعظيم الله تعالى بالتسبيح على هذه الفِرْيَة، وكذا صنيع النبيِّ ﷺ، كما ثبت عن حذيفة ﷺ في المقدمة.

٢- اقتران الإيمان بالعمل الصالح سببٌ لنيل درجة محبة الله تعالى.

٣- من رحمة الله تعالى بالمؤمنين تيسيرُه سبحانه ألفاظ القرآن الكريم، وفهم أحكامه ومواعظه.

٤- في الآية (٩٦) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة من الله ﷻ للذين آمنوا بالله، واتَّبعوا رُسُلَه، وعملوا الصَّالحاتَ وَفْقَ شرعه، بأنه سيجعل لهم محبَّةً ومودة في قلوب عباده.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة الإسراء.

المقاصد:

١ - تسلية النبي الأمين ﷺ، وتخفيف أمر القرآن الكريم عليه.

٢ - بيان عظمة القرآن الكريم، وسمو مقاصده، وشمول هدايته.

٣ - بَسْطُ قصَّة موسى عليه السلام وفرعون، وتأييد الله تعالى لموسى بالمعجزات الباهرة.

٤ - بَسْطُ قصَّة آدم وإبليس، وما فيها من المواعظ والمحافظة على الستر، فإنَّ الله تعالى سِتِّير يحب الستر.

٥ - تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

٢-٣- إنَّا لم نُنْزِل عليك - أيها الرسول - هذا القرآن العظيم لترهقَ نفسك وبدنك، ولكن أنزلناه موعظةً وعِبْرة لِـمَنْ يخشى عقاب الله. قال الشيخ الشنقيطي: «أظهر الأقوال - في قوله: ﴿تَذْكِرَةً﴾ - أنه مفعول لأجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي: إلا لأجل التذكرة لِـمَنْ يخشى الله، ويخاف عذابه، والتذكرة الموعظة التي تَلين لها القلوب، فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه، وخَصَّ بالتذكرة مَنْ يخشى دون غيرهم؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]».

٤ - ٥- قد نزل عليك هذا القرآن من الله العظيم، الذي أبدع خلق الأرَضين السبع، والسموات السبع العالية، هو الرحمن بجميع خَلْقِه استوى على العرش الذي هو أعلى وأعظم المخلوقات، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

٦- له سبحانه ملكوت السموات السبع، وما في الأرَضين السبع وما بينهما، وما تحت الأرض من طبقات وكنوز.

٧- إنَّ الله تعالى أحاط بكل شيء علماً، فسواءٌ جَهَرْتَ بالقول - أيها الرسول - أو أَسْرَرْته فإنَّ الله تعالى يعلمه.

٨- الله الذي له جميع معاني العبودية لا يستحق العبوديةَ إلا هو، له وحده الأسماء الكاملة في الحسن.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحدِّي بالقرآن الكريم بذكر الحروف المقطعة.

٢ - الردُّ على مُنْكِري نزول القرآن الكريم على النبي الأمين ﷺ.

٣- الإشارة إلى الإيمان بأسماء الله الحسنى.

٤- تقرير توحيد العبودية.

٥- إثبات العرش لله، واستواؤه تعالى عليه كما يليق به.

٦- يقول الخبراء: إنَّ حياة الإنسان والكائنات الحية الأرضية تتوقف على ما تحت الثرى، فتحت الثرى الملايين من البكتيريا التي تقوم بإتمام دورات الحياة المرتبطة بالتربة، وملايين الفطريات المفتتة للصخور والمحللة للبقايا الحيوانية والنباتية، وملايين الاكتينوميسيتات المخصبة للتربة والمنظمة لمحتواها الميكروبي، وعشرات الطحالب المخصبة للتربة، والفيروسات المنظمة لأعداد الكائنات الحية الأخرى في التربة، ونرى الحيوانات الأولية، والديدان النيماتودية المقلبة والمهوية للتربة، ونرى الحبوب والبذور والسيقان الأرضية والجذور الدرنية وغير ذلك من سكان الأرض الحية والقاحلة والغدقة والجافة. ولو غابت هذه الكائنات من تحت الثرى توقفت دورات النتروجين، والكربون، والفوسفور، والكبريت وماتت الأرض وتَصَحَّرَتْ ومات النبات، واختفت الحياة تماماً من على الأرض، فلا حياة بدون ما تحت الثرى. (موقع موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، ورابط البحث: http://quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-71).

٧- عِلْمُ الله تعالى بكل شيء في الكون الفسيح.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

٩-١٢- وهل أتاك - أيها النبيُّ - الخبر العظيم، خبر موسى عليه السلام حين رأى ناراً، وقد أخطأ الطريق إلى مصر في صحراء سيناء، فقال لامرأته مُستبشراً: انتظروا، إنَّني أبصَرْتُ ناراً، لعلِّي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها، أو أجد عندها هادياً يَدُلُّنا على الطريق إلى مصر. فلمَّا أتى موسى عليه السلام تلك النارَ ناداه الله

تعالى من جهة جبل الطور وهو على يمين موسى، متوجِّهاً إلى مصر: يا موسى إنِّي أنا ربُّك فاخلَعْ نعليك، إنَّك الآن بالوادي المبارك «طوى».

١٣-١٤- وأنا اخترتك يا موسى لرسالتي إلى قومك، فاستمع لما أُوحيه إليك؛ لتبلِّغه قومك، إنَّني أنا الله لا معبودَ بحقٍّ إلا أنا، فأخْلِصِ العبادة لي، وداوِمْ على إقامة الصلاة من أجل أن تواظبَ على ذِكْري.

١٥-١٦- إنَّ الساعة قادمة آتية، لا يعلم موعدَها أحدٌ من العالمين، أكاد أُخفيها من نفسي؛ لكي تُجزى كل نفس بما عَمِلَت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، فلا يَصْرِفَنَّك يا موسى عن الإيمان بالساعة مَنْ لا يُصَدِّقُ بوقوعها، واتَّبع هوى نَفْسِه في إنكارها، فتهلك.

١٧-٢١- وما هذه التي تحملها في يدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بإسهاب لمزيد من الحوار مع ربِّه: هي عصاي أعتمد عليها في المشي، وأهزُّ بها ورق الشجر؛ لترعى غنمي ما يتساقط منه، وليَ فيها مصالح أخرى. فأمره سبحانه بأن يلقي عصاه من يده، فألقاها ففوجئ بأنَّها حيَّةٌ تمشي بسرعة. قال الله تعالى يُطَمْئِنُه: خُذِ الحيَّة، ولا تَخَفْ منها، سنُعيدها إلى حالتها الأولى وهي العصا.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان قصة موسى في عدة مراحل من الولادة إلى الرسالة.

٢- إثبات صفة الكلام لله تعالى كما يَليق بجلاله.

٣- تعليم الله تعالى لموسى عليه السلام معالم الإيمان.

٤- تقرير المعجزة الأولى لموسى عليه السلام وهي العصا، وبيان بعض فوائدها.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٢٢-٢٤- واضْمُمْ يدك إلى جَنْبِك تحت العَضُدِ ثم أَخْرِجْها، فإذا هي بيضاء مضيئة من غير مرض؛ لتكون لك علامة أخرى تَدُلُّ على صِدْقِك. وهذه المعجزات تمهيد لرسالة موسى عليه السلام إلى فرعون، فقد أمره الله تعالى بدعوة فرعون. اذهَبْ بها معك من المعجزات رسولاً إلى الطاغية فرعون. إنَّه تجاوَزَ الحدَّ في التكبُّر والتجبُّر حتى ادَّعى الألوهية، فادْعُه إلى توحيد الله.

٢٥-٣٦- فاستجاب موسى عليه السلام مُستعيناً بالله تعالى، مُتَضَرِّعاً إليه: يا ربِّ وسِّعْ لي صدري، وسَهِّلْ لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة، وأطْلِقْ لساني بالفصاحة؛ ليفهمَ الناس كلامي، واجعل لي مُعيناً من أهلي، وهو هارون أخي، تُقَوِّيني به، وأشرِكْه في النبوَّة وتبليغ الرسالة، كي نُنَزِّهَك بالتسبيح كثيراً، ونَذْكُرَك ذِكْراً كثيراً. إنَّك كنت - وما زلت - بصيراً بأحوالنا. فاستجاب الله تعالى له: قد أعطيتُك كلَّ ما سألته يا موسى.

٣٧-٣٩- وحقاً لقد مَنَنَّا عليك يا موسى قبل هذه النعمة بنِعَمٍ أخرى منذ ولادتك، حين ألهمنا أُمَّك للعناية بك أن ضَعِي ابنك موسى في وعاء يستوعبه، ثمَّ ألقِي هذا الوعاء في نهر النيل، فسوف يلقيه النهر على الساحل، فيأخذه فرعون عدوُّ الله وعدوُّ موسى، وألقيت عليك يا موسى محبَّة منِّي في قلوب الناس، ولتتربَّى على نظري ورعايتي.

٤٠-٤١- حين تمشي أُختك تتتبَّعُ أخبارك، فقد عرفت أنَّ زوجة فرعون تحتاج إلى مرضعة لموسى، فجاءت أخته فقالت لهم: هل أَدُلُّكُم على مرضعة تَتَكَفَّل بإرضاعه وتربيته؟ فرجعناك إلى أُمِّك كي يبتهج

فؤادها، وتُسَرَّ عينها، ولا تحزن على فراقك، وقد مَنَنَّا عليك في شبابك بمصر، إذ قَتَلْتَ القبطيَّ خطأً، حين استغاث بك الإسرائيلي، فآمنَّاك من الخوف، ونَجَّيناك من غَمِّ القتل، واختبرناك فوجدناك مُستقيماً، فخَلَّصْناك من محنةٍ إثر محنة، وبسبب ذلك لبثتَ عشرَ سنين في مدين مع نبيِّ الله شعيب ، ثمَّ جئت إلى جبل الطور في وقت قَدَّرناه لإرسالك، وأَجْرَيْتُ عليك نِعَمي، وحُسْنَ تربيتي لك، واخترتك لرسالتي والبلاغ عنِّي.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تأييد الله تعالى موسى بالمعجزات من أجل دعوة فرعون والناس إلى التوحيد.

٢ - أهمية الدعاء في حياة الدَّاعية.

٣- الإشارة إلى أثر التعاون في الدعوة إلى الله تعالى.

٤ - أهمية دعوة الطغاة بالحكمة.

٥ - الرعاية الربانية لموسى منذ إلقائه في النهر. وفي هذا دَرْسٌ للدُّعاة الذين يرقبون عناية الله.

٦ - في الآية (٣٧): تأكيد الخبر بلام القسم و﴿ قَدْ ﴾ لتحقيق الخبر؛ لأنَّ موسى قد عَلِمَ ذلك، فتحقيق الخير له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أنَّ عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه؛ زيادةً في تطمين خاطره بعد قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾.

٧- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا»، وأومأ بيده نحو المشرق مِنْ حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنَّما قَتَلَ موسى الذي قَتَلَ مِن آل فرعون خطأً، فقال الله ﷻ له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة في المشرق من حيث طلع قرناً الشيطان، ٣/ ٢٢٢٩، برقم ٢٢٣٠).

٨- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ لم يُبيِّن هنا جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة سببَ قَتْلِه لهذه النفس، ولا ممَّنْ هي، ولم يُبيِّن السبب الذي نجَّاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتنه، ولكنه بَيَّنَ في سورة القصص خبر القتيل. [انظر الآيات: ١٥-١٦]».

٩- ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير:

٤٢-٤٤- ولمَّا استجاب الله ﷻ دعاء موسى بأن يكون معه هارون مُعِيناً له، أَمَرَهما سبحانه بأن يتوجَّها إلى فرعون بما معهم من الآيات، والمعجزات الدالَّة على وحدانية الله تعالى وصَدَّقهما، وألَّا يَضْعُفا عن مواظبة الذكر لله تعالى وتبليغ الرسالة، وأن يقولا له قولاً لطيفاً، لعلَّه يتَّعظ ويخشى الله تعالى.

٤٥-٤٦- واستجابا لهذه المهمَّة المشرَّفة، ولكنَّهما تَهَيَّبا من جَبَرُوت فرعون وبطشه، فقالا: يا ربَّنا إنَّنا نخاف أن يُبادِرَنا بالعقوبة، أو يتمرَّد علينا وعلى رسالتنا، فطمأنهما الله ﷻ، ووعدهما بالعون بقوله: لا تخافا من بطش فرعون، إنَّني معكما أحفظكما وأرعاكما، وأسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما.

٤٧-٤٨- فاذهبا إليه، وقولا له: إنَّا رسولان من عند ربِّك، فأَطْلِقْ سَرَاحَ بني إسرائيل، ولا تُعَذِّبْهم بالقتل والأسر والإهانة، قد جئناك من ربِّك بمعجزة تشهد لنا بصدق النبوَّة، وهي العصا واليد. والسلامة من العذاب في الدنيا والآخرة على مَنْ صَدَّقَ بآيات الله تعالى، إنَّنا قد أوحى الله إلينا أنَّ الهلاك على مَنْ كَذَّبَ بآيات الله، وأعرض عن الحق.

٤٩-٥١- قال فرعون بغرور: فمَنْ ربُّكما يا موسى؟ فأجابه موسى بثقة وفي غاية البيان والإيجاز: ربُّنا الذي أعطى كلَّ نوع من المخلوقات خَلْقَه اللائق به، ثمَّ هَدَى كلَّ مخلوق إلى الانتفاع بما خلقه الله له. قال فرعون مُتَشَبِّثاً بضلال السابقين: فما حالُ الأُمم الماضية التي سَبَقَتْ بالكفر؟

وقال ابن عاشور: «أجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جَرْياً على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإنَّ فرعون من جملة الأشياء، فهو داخل في عموم ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾». (التحرير والتنوير ١٦/ ١٢٩).

٥٢-٥٣- فأجاب موسى جواباً لافتاً إلى توحيد الربوبية: عِلْمُ تلك الأُمم عند ربِّي وحده في اللَّوح المحفوظ. إنَّ ربِّي لا يخطئ ولا ينسى، هو الذي بسط لكم الأرض، وجعل لكم فيها طُرُقاً تسلكونها، وأنزل من السحاب المطر النافع، فأخرج سبحانه بذلك المطرِ أصنافاً من النبات مُتنوعةً في فوائدها، زاهية في جمالها.

الفوائد والاستنباطات:

١- من مهمات الدعوة لين الخطاب، وتحريك الألباب. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أمر الله جلَّ وعلا نبيَّه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يقولا لفرعون حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً ليس فيه ما يُغْضِبُه ويُنَفِّره، وقد بيَّن جلَّ وعلا المراد بالقول اللَّيِّن في هذه الآية بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧-١٩]. وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورِقَّته كما ترى».

٢- الخوف من العدو هو من طبْع البشر، فلا مؤاخذة عليه.

٣- أهمية الحوار، والإجابة عن اللَّبْس والشك.

٤- بيان نِعَم الله تعالى على عباده.

٥- لم يقل فرعون: فمَنْ ربِّي؟ بل قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ إعراضاً عن الاعتراف بالربوبية ولو بحكاية قولها؛ لئلَّا يقعَ ذلك في سَمْعِ أتباعه وقومه، فيحسبوا أنَّه متردِّدٌ في معرفة رَبِّه، أو أنَّه اعترف بأنَّ له ربّاً.

﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٤-٥٥- كلوا - أيها الناس - من هذه الثمرات وارعَوا بهائمكم لتسرحَ في الكلأ. إنَّ في ذلك الفضل العظيم لَدلائلَ واضحة لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله وقدرته العظيمة. من تراب الأرض خلقنا آدم وذريَّته، وإليها تعودون بعد مماتكم، ومنها نُخْرِجُكم أحياءً مرَّةً أخرى للبعث والحساب.

٥٦-٥٧- وعَظَمَتِنا وجلالِنا قد أَرَيْنا فرعون رأي العين كلَّ آياتنا ومُعجزاتنا التي جاء بها موسى عليه السلام، فكذَّب بها جميعاً، وأبى أن يستجيب لموسى، بل أنكر عليه، واتَّهمه بالسحر، فقال: أجئتنا لتُخْرِجَنا من أرض مصر بسِحْرِك، وتكون مُلكاً لك؟

٥٨-٥٩- ثمَّ أكَّد فرعون تهديده مُتعاظماً متحدِّياً: فلنأتينَّك بسحر مثل سحرك، فاجعَلْ بيننا وبينك موعداً مُحدَّداً في الزمان والمكان لا نتخلَّف عنه نحن ولا أنت، فاختار موسى يوماً جامعاً للناس؛ ليُرِيَهم الحقَّ، فقال: موعدنا يوم العيد الذي تجتمعون وتتزيَّنون فيه، وأن يجتمع الناسُ بعد شروق الشمس وارتفاعها؛ لتتضح الرؤية.

٦٠- فأعرض فرعون عن موسى غاضباً، ووجَّه الدعوة إلى السَّحَرَةِ؛ لإحكام المؤامرة، ثمَّ أتى بهم في الموعد المحدَّد.

٦١-٦٢- فلمَّا اجتمع بهم موسى ذَكَّرهم بالله ووعظهم، وخَوَّفهم بالهلاك، ونهاهم عن السحر والكذب على الله تعالى، الذي يُؤَدِّي إلى العقوبة باستئصالهم، والخسارة في الدنيا والآخرة.

٦٣-٦٤- فذُعِروا من هذا الوعظ والزجر، فتفاوضوا سِرَّاً، ولكنَّ بَطْشَ فرعون وإغراءَه لهم جعلهم يُرَدِّدون إشاعة فرعون، فقالوا: إنْ هذان - موسى وهارون - لساحران يريدان إخراجكم من أرض مصر للاستيلاء عليها بسحرهما، ويريدان أن يَغْلِبا طريقتكم المُثلى في السحر، أيها السادة السحرة المهرة، فأحْكِموا

مكركم، ونَسِّقوا خطَّتكم، ثمَّ رتِّبوا تَجَمُّعَكم بإحكام صَفِّكم؛ ليكون مشهدُكم أهيبَ، فتَبْهِرُوا الأبصار، وقد فاز اليوم من غَلَب خصومه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مشروعية الدَّفن سواءً كان شِقّاً أو لَـحْداً؛ لأنَّ كليهما إعادة في الأرض.

٢- الكِبْرُ والغُرور يُؤَدِّيان إلى التكذيب والتشكيك.

٣- حرب الإشاعة يستخدمها الأعداء ضد الدعاة.

٤- عناية موسى بالدعوة إلى الله تعالى، فكما دعا فرعونَ فإنَّه دعا السحرة، ونَصَحَهم بترك السِّحر، وأنذرهم بنيران جهنم والخسارة في الدنيا.

٥- اهتمام الناس بالسحر يدل على تَمَكُّن الشيطان من إغوائهم.

٦- تحريم السحر بكلِّ أنواعه في كل الشرائع.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٥- قال السحرة لموسى باعتزاز: اخْتَرْ ما تشاء: إمَّا أن تبدأ فتُلْقِيَ عصاك، أو نُلقي نحن ما معنا قبلك.

٦٦-٦٧- أجابهم موسى: أَلْقُوا أنتم ما معكم أولاً، فألقَوا حبالهم وعِصِيَّهم، فإذا بموسى يتخَيَّل من قوَّة سحرهم أنَّها تمشي بسرعة، فأحسَّ بشيء من الخوف.

٦٨-٦٩- فأوحى الله تعالى برعايته إلى موسى مُطَمْئِناً ومُبشِّراً: لا تخف من هذا السحر. إنَّك أنت الغالب على هؤلاء السحرة، وأَلْقِ عصاك التي في يدك اليمنى تبتلع حبالهم وعصيَّهم كلَّها. إنَّ الذي افتعلوه هو مَكْرُ ساحرٍ، ولا يفوز الساحر بسحره مهما خدع؛ كيف وقد خسر الدنيا والآخرة؟

٧٠- فلمّا رأى السحرةُ هذه المعجزةَ عرفوا الحق، فخَرُّوا سُجَّداً لله تعالى، وأعلنوا على الملأ إيمانهم، قالوا: صَدَّقْنا بربِّ العالمين، ربِّ هارون وموسى.

٧١- لقد هَزَّ هذا الإعلانُ البَلاطَ الفرعونِّي، فغضب فرعون المِضْلال، وأنكر عليهم وهَدَّدهم، فقال: أصَدَّقْتُم بموسى قبل أن أوافق على ذلك؟ ثمَّ لَفَّقَ الأكاذيب عليهم وعلى موسى بأنَّ هذا تدبير سابق بينهم، وأنَّ موسى هو الذي عَلَّمهم السحر. ثمَّ أعلن بَطْشَه لإخافتهم: لَأُقَطِّعنَّ من كل واحد منكم أيديكم وأرجلكم من خِلاف - بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس-، ثمَّ لَأُعَلِّقَنَّكم جميعاً في جذوع أشجار النخل وأيديكم ممدودة، ولَتَعْلَمُنَّ - أيها السحرة- مَنْ هو أشدُّ مِنَّا عذاباً وأدوم، أأنا أم رب العالمين؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - تأييد الله تعالى دعوة الحق التي سطع بها موسى عليه السلام.

٢ - مشروعية السجود في الشرائع.

٣ - اصطناع الطُّغاة أعذاراً واهيةً؛ لتسويغ فَشَلِهم.

٤ - إصرار فرعون على الجدل الباطل ليخدع قومه وجنوده.

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

التفسير:

٧٢-٧٣- فرَدَّ عليه السحرة التائبون بعِزَّةٍ ونصيحة كريمة، كما في الآيات الخمس الآتية: قسماً بالذي خَلَقَنا، لن نُفَضِّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله تعالى على يد موسى، ولو كان في ذلك هلاكُنا، فافعَلْ ما تريد، إنَّما يَنفُذُ أمرك في هذه الحياة الدنيا الزائلة. إنَّا صَدَّقْنا بالله؛ ليغفر لنا ذنوبَنا، وجريمةَ السحر التي عَمِلْناها. والله خير منك يا فرعون ثواباً لِـمَنْ أطاعه، وأبقى عذاباً لِـمَنْ عصاه.

٧٤-٧٦- ثم عَلَّل هؤلاء التائبون قرارهم المبارك قائلين: إنَّه مَنْ يَلْقَ ربَّه يوم القيامة وهو عاصٍ بارتكابه الجرائم، وموته على الكفر، فإنَّ عقابَه نارُ جهنَّم، يُعَذَّبُ بها لا يموت فيها، فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة طيبة. ومَنْ يَلْقَ الله مؤمناً به، وعمل الأعمال الصالحة، فله المنازل العالية في جنَّات إقامة دائمة، تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها ماكثين فيها أبداً. وذلك المقام العظيم جزاء مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الذنوب والشرك.

٧٧- قسماً لقد أوحينا إلى موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر إلى صحراء سيناء، ثمَّ بيت المقدس، فاضرب البحر بعصاك؛ ليكون لهم طريقاً يابساً يَمُرُّون عليه، ولا تَخَفْ من فرعون وجنوده أن يلحقوكم فيُدْرِكوكم، ولا تَخْشَ الغرق في البحر.

٧٨-٧٩- ولَمَّا فَعَلَ ذلك موسى لحقهم فرعون بنفسه وجنوده فوراً ليقتلهم، ولكنَّ أمواج البحر غمرَتْهم، فابتلعتهم جميعاً بجَحافلهم وعُدَدِهم قبل أن يُدْرِكُوا موسى ومَنْ معه، وأضَلَّ فرعونُ قومَه عن الحق، وما هداهم إلى الخير.

٨٠-٨٢- وبعد هذه الملحمة المختصرة خاطب الله تعالى الطائفة المنتصرة: يا ذريَّةَ يعقوب قد أنقذناكم من جبروت هذا العدو، ووَعَدْنا رسولكم موسى لتكليمه بالرسالة جانب جبل الطور في صحراء سيناء في الناحية اليمنى لموسى، وهو مُتَّجِهٌ من مدين في الشام إلى مصر، ونَزَّلْنا عليكم في صحراء سيناء النِّعَمَ الكريمة: الطعام الحلو، والطير الشهي. كُلوا ممَّا لَذَّ من الطعام الحلال الذي رَزَقْناكم إياه، ولا تَعْصُوا أمري، وتَتَعَدَّوا على الحرمات، فينزل بكم غضبي وسَخَطي، ومَنْ يَنْزِلْ عليه غضبي فقد هلك. وإنِّي لذو مغفرة عظيمة لِـمَنْ تاب وأناب وصَدَّق بالله، وعمل الأعمال الصالحة، ثمَّ استقام، وواظب على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- رسوخ الإيمان يرتقي بالمؤمن، ويتحدى به الطواغيت.

٢- ينظر: سورة البقرة الآية (٥٧)، وفيها بيان ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

٣- ينظر: خريطة صحراء سيناء، وفيها جبل الطور، ومكان غَرَقِ فرعون في الملحق.

٤- افتتاح الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بلام القسم وحرف التحقيق لأهمية القصة، وما تَضَمَّنَتْه من دروس وعبر.

٥- تحقيق الله سبحانه وعده بالنَّصْرِ، ولو كان بعد حين.

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾

التفسير:

٨٣-٨٤- يعاتب الله تعالى موسى عليه السلام حينما سبق قومه إلى الموعد بجانب جبل الطور: ما السببُ الذي دفعك إلى العَجَلة، وسبق قومك إلى جبل الطور؟ فأجاب موسى: هم لاحقون بي عن قريب. وسبب عَجَلي إليك؛ لترضى عنّي في الوفاء بالموعد المحدَّد.

٨٥- قال الله تعالى لموسى عليه السلام: إنّنا اختبرنا قومك بالسَّامِرِيِّ المِضْلال الذي أغراهم بعبادة العجل الذهبي.

٨٦-فرجع موسى من جبل الطور شديدَ الغضب والحزن، وخاطبهم مُستعطفاً بعلاقة النسب، مُوَبِّخاً عاتباً: يا قومِ ألم يَعِدْكم الله تعالى بإنزال التوراة التي فيها الهداية؟ أطال عليكم الزمن، فنسيتم العهد؟ أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم غضبٌ وسَخَطٌ من ربِّكم، فأخْلَفْتُمْ وعدي معكم على الالتزام بالهداية؟

٨٧- فأجابوا معتذرين: ما أَخْلَفْنا وَعْدَك باختيارنا، ولكن كُنَّا مكرهين، فإنَّا حُمِّلنا آثاماً من حُلِيِّ قوم فرعون بمصر إذ استعرناها منهم، فطَرَحْناها للتخلُّص من الإثم، إلى أن يأتي موسى للحكم فيها، وكذلك ألقى السامريُّ ما كان معه لإغوائهم.

٨٨- فصاغ السَّامِرِيُّ المِضْلال من تلك الحُلِيِّ عِجْلاً لا رُوْحَ فيه، وإنَّما جعل له فتحةً من مؤخرته ومقدمته لدخول الهواء، فيُخرج صوتاً كخوار البقر، ففُتِنَ بعضهم به، وقالوا كما أغواهم السامري: هذا العجل إلهكم وإله موسى الذي نسيه، ولم يَذْكُرْه لكم!

٨٩- يُوَبِّخ الله تعالى المفتونين، ويُنكر عليهم: أفلا يعلمون أنَّ العِجْلَ لا يَرُدُّ لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضُرّاً، أو يجلب لهم نفعاً، فكيف يكون إلهاً؟

٩٠- واللهِ لقد قال لهم هارون عليه السلام من قبل عودة موسى إليهم من جبل الطور مُحذِّراً لهم، مُستعطفاً بنداء النسب: يا قومِ إنَّما ابتُليتم في دينكم بهذا العِجْلِ؛ ليظهر المؤمن منكم من الكافر. وإنَّ ربَّكم الرحمن وحده لا غيره، فاتَّبعوني في العبادة، وأطيعوا أمري في الحق.

٩١- لكن المعجبين بعبادة العجل خذلوه وخالفوه، وقالوا: سنستمر مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى من جبل الطور!

٩٢-٩٣-ولمَّا رجع موسى عليه السلام فوجئ بعُبَّاد العِجْل، فغضب بشدَّة، وأمسك بلحية أخيه هارون عاتباً عليه ومُنكِراً عليهم: يا هارون ما منعك مِنْ رَدْعِ هؤلاء المشركين إذ انحرفوا عن دينهم، ألا تتبعَني فيما عهدتُ إليك، أم أردتَّ أن تَعْصِيَ أمري؟

٩٤- فأجابه مُعتذراً ومُستعطفاً بنداء النسب: يابن أُمي لا تُمْسِكْ بلِحْيتي، ولا بشعر رأسي، غضباً عليَّ، فإنِّي لم أعصِ أمرك، إنِّي خشيت أن أردع هؤلاء، فيقع قتال بينهم، فتلومني على ذلك، ولم تنتظر حكمي فيهم.

٩٥-٩٦- ثم تَوَجَّه إلى السَّامريِّ المِضْلال؛ ليَزْجُرَه ويَرْدَعَه قائلاً: فما شأْنُك الخطير وصنيعك الشرير؟ قال السَّامري مُعترفاً بجريمته النكراء: بَصُرْتُ ما لم يَبْصُروه، فقبضت شيئاً من أثر الرسول، فطرَحْتُها مع الحُلِيِّ لصنع العِجْل. ومثلَ ذلك التزيين زَيَّنَتْ لي نفسي هذا الأمر. وقد يَكْذِبُ السَّامريُّ في رؤية الرسول جبريل؛ لأنَّه ضالٌّ ومُضِلٌّ وغير ثقة، ولم يذكر أنَّه تاب، بل إنَّ مصيره عذاب في الدارَين كما في الآية التالية.

٩٧- فأقصى موسى عليه السلام السامريَّ، وزَجَرَه قائلاً: فاذهب فإنَّ جزاءك عقوبة في الحياة الدنيا أن ينبذك الناس، ويتركوك وحدَك، وتقول: لا أَمَسُّ أحداً من الناس، ولا يَمَسُّني أحدٌ منهم، وإنَّ لك موعداً للعذاب

في الآخرة لن يُخْلِفَه الله تعالى، وانظر إلى معبودك الذي واظَبْتَ على عبادته، والله لنُحَرِّقَنَّه بالنار، ثم لَنَذْرُوَنَّه رماداً وذَرَّاتٍ في البحر، ولا يبقى من أثره شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذَمُّ العَجَلة، وذمُّ إخلاف الوعد.

٢ - بيان خطورة نَزَغات الشيطان، وأثرها في انحراف الناس.

٣ - حوار موسى للسامريِّ وقومه؛ لبيان خطر ما وقعوا فيه.

٤ - التحقق من نسبة الجريمة إلى المتهم، وعَزْلُه إذا ثبتت الجريمة.

٥ - وجوب إتلاف الأشياء والأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى.

٦ - وجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء استجاب المخاطبون أم لم يستجيبوا.

٧ - حَزْمُ موسى مع السامريِّ وعَبَدَةِ العجل.

٨ - قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظَّه في حياته أن يقول: لا مِساسَ، أي: سلبه الله الأُنْسَ الذي في طَبْعِ الإنسان، فعوَّضه به هَوَساً ووسواساً وتَوَحُّشاً، فأصبح متباعِداً عن مخالطة الناس».

(التحرير والتنوير: ١٦/ ١٧٥).

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

٩٨ - ثمَّ قال موسى لقومه: إنَّما إلهكم هو الله الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو، وَسِعَ كل شيء من الأشياء علماً.

٩٩-١٠١ - مثلَما قصصنا عليك - أيها النبي - قِصَّة موسى وفرعون، نَقُصُّ عليك من الأخبار العظيمة للأُمم السابقة، وقد أنزلنا عليك من عندنا قرآناً، وهو ذكرى لِـمَنْ يتذكَّر. مَنْ أعرض عنه، ولم يُصَدِّقْ به فإنَّه يحمل يوم القيامة إثماً كبيراً، خالدين في الجزاء لهذا الإثم بنار جهنَّم. وبئس ذلك الذَّنب الكبير الذي سيُعَذَّبون من أجله.

١٠٢-١٠٣- يوم يَنْفُخُ المَلَكُ في القرن الصيحة الثانية للبعث، ونجمع الذين ارتكبوا كبائر الجرائم في ذلك اليوم العصيب، وهم زرق قد تغيَّر لون أجسامهم من الرعب وهول ما رأوا، يتسارُّون بينهم من شِدَّة الهَلَعِ قائلين: ما لبثتم في الحياة الدنيا إلا عشرة أيام.

١٠٤- نحن أعلم بما يقولون فيما بينهم حين يقول أعلمهم: ما لبثتم إلا يوماً واحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على عَبَدَةِ العجل بتوحيد الله تعالى المعبود بحق؛ لسعة علمه بكل شيء، وتدبيره لذلك.

٢- تنكير ﴿ذِكۡرٗا﴾ للتعظيم، أي: آتيناك كتاباً عظيماً. وقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ توكيد لمعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ وتنويه بشأن القرآن بأنَّه عطية كانت مخزونة عند الله، فخَصَّ بها خير عباده».

٣- بيان عاقبة مصير الكفار الذين تركوا أحكام القرآن العظيم.

٤- بيان صفات الكفار عند الحشر.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾

التفسير:

١٠٥-١٠٧- ويسألونك - أيُّها النبيُّ - عن حال الجبال يوم القيامة، فقل لهم: إنَّ ربِّي يُفَتِّتُها كالرمل، ثمَّ يرسل عليها الرياح فتَذْرُوها، فيتركها أرضاً مستوية لا نبات فيها ولا بناء، لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

١٠٨-١١٠- وفي يوم القيامة يَتَّبِعُ الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر سراعاً لا يتخلَّف منهم أحد. وسكنت أصوات الخلائق هيبةً للرحمن سبحانه، فلا تسمع إلا صوتاً خفياً، أو وَقْعَ الأقدام في مَشْيِها نحو المحشر. في ذلك اليوم لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لِـمَنْ أذن له الرحمن في أن يشفع له،

ورضي لأجله شفاعة الشافع، يعلم الله أحوال الخلائق، فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا والآخرة، ولا يحيط خلقه به علماً سبحانه.

١١١-١١٢- وخَضَعَتْ وجوه المخلوقات للحَيِّ الذي لا يموت، القائم على تدبير عباده، وقد خسر مَنْ أشرك بالله سبحانه. ومَنْ يعمل الأعمال الصالحة وهو مُصَدِّق بربِّه، فلا يخاف بأن يعاقب من غير ذنب، ولا يخاف نقصاً من حسناته.

١١٣- ومثلَ إنزال ما ذُكِرَ من القصص أنزلنا هذا القرآن بلغة عربية فصيحة، وبَيَّنَّا فيه عدة أساليب في الوعيد تخويفاً؛ كي يتقوا الكفر والمعاصي، أو يُحدث لهم هذا القرآن موعظة يعتبرون بها.

١١٤- فتنزَّه الله، وتَقَدَّس المَلِك الحق الذي يتصرف في خَلْقِه كيف يشاء، وتصرُّفه حق، وفِعْله حق وكلامه حق، ولا تتعجَّلْ بقراءة القرآن حين يُقرئك جبريل القرآن، بل استمع إليه حتى يفرغ من تلاوته، وادعوا الله: يا ربِّ زدني عِلْماً إلى ما عَلَّمْتني.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آيةً قالها معه ﷺ، من شدة حِرْصِه على حفظ القرآن؛ فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي، فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإنَّ الله يُيَسِّر له حِفْظَه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله في القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]».

الفوائد والاستنباطات:

١- مهابة الموقف مع أهوال القيامة وفزعاتها، إلا أنَّ الموقف مهيب، فالصمت هو الذي يخيم على الخلائق.

٢- تقرير الشفاعة للمؤمنين.

٣- بشرى للمؤمنين الصالحين بالاطمئنان والعدل.

٤- وجوب التأني في قراءة القرآن؛ لتدبُّره وفَهْمِه، والعمل بأحكامه.

٥- وجوب الدعاء لزيادة العلم لما فيه من الهداية والسعادة.

٦- عطف جملة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ يشير إلى أنَّ المنهيَّ عنه استعجال مخصوص وأنَّ الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تَلَطُّفٌ مع النبي ﷺ؛ إذ أتبع نَهْيَه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١١٥ - قسماً لقد وصَّينا آدم عليه السلام ألَّا يأكل من الشجرة، فأغواه الشيطان ونسي وصيَّتنا، ولم نجد له صبراً على ذلك.

١١٦ - واذكر - أيها الرسول - تكريم الله لآدم حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريماً له، فأطاعوا الله وسجدوا كلُّهم إلا إبليس، امتنع عن السجود.

١١٧-١١٩ - وحذَّرنا آدم فقلنا له: إنَّ إبليس شديد العداوة لك ولحوَّاء، فلا تطيعاه فيكونَ سبباً لإخراجكما من الجنَّة، فتشقى في طلب الرزق. إنَّ لك أن تأكل فلا تجوع، وأن تلبس فلا تَعْرَى، وإنَّ لك ألَّا تعطش في هذه الجنَّة، ولا يصيبك حَرُّ الشمس.

١٢٠-١٢١ - فلمَّا رأى الشيطان ذلك التكريم قام يوسوس لآدم، فقال: هل أُرْشدك إلى شجرةٍ مَنْ أكل منها صار من الخالدين ولم يَمُتْ، ونال الملك الدائم؟ وألَحَّ على ذلك، وأقسم لهما إنَّه ناصح أمين، فخدعهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما عوراتهما، فساءهما ذلك، فأخذا يلصقان بعض أوراق شجر الجنَّة لسَتْرِ العورة. وخالف آدم بذلك أَمْرَ ربِّه، فأخطأ طريق الخُلْدِ في الجنَّة.

١٢٢-١٢٣ - ثمَّ تَلَقَّى آدم من ربِّه تعليم التوبة، فتاب عليه، فاصطفاه وهداه إلى الحق، وحَذَّره وزوجه من إبليس مرَّةً أخرى، فقال لهما: انْزِلا من الجنَّة إلى الأرض جميعاً مع إبليس، يتعادى بعضكم مع بعض. فإن جاءكم مني الكتب والرسل لهدايتكم، فمنِ اتَّبع هداي بطاعتي فلا يَضِلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة بالعقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان شدة عداوة الشيطان في تزيين المعاصي لآدم عليه السلام وذريته.

٢- تقرير مكانة آدم عليه السلام بسجود الملائكة له.

٣- إذا وقعت الوسوسة وجبت الاستعاذة بالله تعالى من وساوس شياطين الإنس والجن.

٤- من أعظم نتائج وساوس الشيطان التعرِّي في اللباس أمام الناس، وكشف العورات، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٥-٢٧].

٥- قَبُول الله تعالى توبة آدم وحواء عليهما السلام.

٦- هبوط آدم وحواء هو بداية تحقيق الاستخلاف في الأرض.

﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير:

١٢٤-١٢٥- ومَنْ ترك هَدْيَ الله تعالى فإنَّ له في الدنيا معيشة نَكِدَةً قاسية، وإنْ تَنَعَّمَ ظاهرُه، ونَحْشُرُه يوم القيامة أعمى لا يرى، ويسأل: يا رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى، وقد كنتُ بصيراً في الحياة الدنيا؟

١٢٦-١٢٧- فيَرُدُّ الله تعالى عليه: مثلَ ذلك فَعَلْتَ أنت حين بُلِّغْتَ بالأدلة الواضحة، والمعجزات المشاهدة، فتركتها، إذ جَعَلْتَ نفسك أعمى البصر والبصيرة، وكذلك اليوم تُتْرَكُ بالعمى والعذاب في النار. ومثلَ هذا الجزاء نُعاقِبُ مَنِ انشغل بالانغماس في الشهوات، وكَذَّب بآيات ربِّه. ولَعذابُ الآخرة أقسى، وأدْوَمُ.

١٢٨-١٢٩- يُنكر الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم: أفلم يتبيَّنْ لكفَّار مكة وأمثالهم كثرةُ مَنْ أهلكنا من الأُمم السابقة المكذِّبة لرسلها، وهم يَمْشُون في ديارهم، ويَرَوْن دمارهم؟ إنَّ في ذلك الدمار العظيم لَعِبَراً واعظة لأهل العقول السليمة. ولولا قضاء الله سابقاً بتأخير العذاب عنهم ووقت محدَّد عنده، لَفاجأهم الهلاك؛ لأنَّهم يستحقونه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإعراض عن أحكام الله تعالى يُورِثُ الضَّعْفَ والقلق في الحياة الدنيا، ويُورِثُ العمى في الآخرة.

٢- وجوب الاتعاظ بهلاك الأُمم السابقة.

٣- من رحمة الله تعالى ألَّا يُعَجِّل العذاب بالعصاة من خلقه.

٤- قال ابن عاشور في الآية (١٢٤): «وقد ظهر من نَظْمِ الآية أنَّ فيها ثلاثة احتباكات، وأن تقدير الأول: ونحشره يوم القيامة أعمى ونَنْساه، أي: نُقْصِيه من رحمتنا. وتقدير الثاني والثالث: قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وعميت عنها، فكذلك اليوم تُنْسى وتُحْشَرُ أعمى». (التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٠١).

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣٠-١٣١- يُرشد الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ وأُمته بتوجيهات حكيمة، وبُشْرَيات كريمة في الآيات الثلاث التالية: فاصبِرْ على افتراءات المشركين، وواظِبْ على التسبيح المقرون بحمده سبحانه في صلاة الفجر والعصر والعشاء وصلاة الظهر والمغرب؛ لتنالَ ما يرضيك عند الله تعالى، ولا تُدِمِ النظر متعجِّباً بما في أيدي الناس من زينة الدنيا وأموالها، فإنَّ في هذا العطاء ابتلاء. ورِزْقُ ربِّك في الآخرة خيرٌ من ذلك وأَدْوَمُ.

١٣٢- وَأْمُرْ أهل بيتك بالصلاة، واصبِرْ وداوم عليها، لا نُكَلِّفُك أن ترزق نفسك وأهلك، نحن نرزقكم جميعاً، والعاقبة المحمودة في الآخرة، وهي الجنَّة لأهل التقوى.

١٣٣- وقال المشركون: هَلَّا يأتينا محمد بمعجزة تدل على صدقه؟ ويَرُدُّ الله مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم: أو لم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى، المُصَدِّق لما في الكتب السابقة من الحق؟

وقد بَيَّنَ الله تعالى أنَّ الصحف الأولى هي صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، كما في خاتمة سورة الأعلى، وقد فصَّل الله ﷻ فيها بعض ما في صحف إبراهيم وموسى.

١٣٤-١٣٥- ولو أنَّنا دَمَّرْنا هؤلاء الكفَّار من قبل نزول القرآن وبعثة النبي محمد ﷺ لقالوا: يا ربَّنا هَلَّا أرسلت إلينا رسولاً كي نؤمنَ به، ونعملَ بآياتك وما فيها من الأحكام، من قبل أن نَذِلَّ ونفتضح بعذاب الدنيا، من الأسر والقتل وغيره من العقاب. قل أيُّها النبي لهم: كلٌّ منَّا ومنكم ينتظر المصير، ولِـمَنْ يكون النصر وحُسن العاقبة؟ فستعلمون مَنْ هم أصحاب الطريق المستقيم، ومَنِ اهتدى إلى الحق؟

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الصبر على الدعوة، والاستعانة بالتسبيح صباحاً ومساءً.

٢- لا يجوز تمنِّي ما عند الناس من خيرات؛ لأنَّه متاع زائل.

٣- قال ابن عاشور: «ومَدُّ العينين مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للإعجاب. شَبَّه ذلك بمدِّ اليد لتناول شيء مشتهى». (التحرير والتنوير: ١٦/٢٠٦).

٤- وجوبُ أَمْرِ الأهل والأولاد بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها وأركانها.

٥- في الآية (١٣٤) دليل على أنَّ الإيمان بوحدانية خالق الخلق يقتضيه العقل، لولا حُجُب الضلالات والهوى، وأنَّ مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر.

٦- بيان رحمة الله بعباده في إرساله المرسلين مبشِّرين ومنذرين.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة الإسراء.

المقاصد:

١- تقرير العقيدة الإسلامية بالتوحيد والرسالة والبعث والحساب والقيامة وأهوالها.

٢- بيان جهاد الأنبياء، وصبرهم ونصرهم.

٣- أَدِلَّة الظواهر الكونية على الوحدانية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥) مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

التفسير:

١- قَرُبَ وقت حساب الناس على أعمالهم؛ لنيل العقاب والثواب، وهم غافلون عن أهواله وأحواله، منشغلون بملاذِّ الدنيا.

٢- ما يأتي الكفارَ شيءٌ من القرآن من الله تعالى متجدِّدٌ نُزولُه، إلا استمعوه وهم يسخرون به.

٣- غافلةٌ قلوبُهم عمَّا جاءهم به النبيُّ ﷺ، وبالغوا في إسرار عداوتهم وافترائهم بقولهم: ما محمَّدٌ إلا بشر مثلُكم لا مزيَّة له عنكم، فكيف يكون نبياً؟ وإنَّ ما جاء به من القرآن سِحْرٌ، فكيف تَتَّبِعونه وأنتم تعرفون أنَّه سحر؟!

٤- ولَمَّا بلغ النبيَّ ﷺ هذا الافتراءُ رَدَّ عليهم مُهَدِّداً لهم: ربِّي يعلم كلَّ قول قيل في السموات وفي الأرض، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم.

٥-٦- بل قال الدجَّالون المشركون فيما جاء به النبي ﷺ أقوالاً مضطربة، فقال بعضهم: أخلاطُ أحلامٍ لا حقيقة لها. وقال آخرون قولاً آخر: بل محمّد اختلق القرآن من نفسه ولا صحَّة له، وقال بعضهم قولاً آخر مخالفاً لما سبق: بل هو شاعر، فإن كان صادقاً فليأتنا بمعجزةٍ مُشاهَدةٍ كما أُرْسِلَ الرسلُ السابقون كموسى وصالح وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ما صَدَّقَ أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم المعجزات قبل مشركي مكة، بل كَذَّبوا فأهلكهم الله، أفيُصَدِّق هؤلاء بالآيات لو رَأَوها؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - افتتاح الكلام بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أسلوب بديع في الافتتاح؛ لما فيه من غرابة الأسلوب، وإدخال الرَّوع على المُنْذَرين.

٢ - ذمُّ الغافلين عن العمل لليوم الآخر، ولاسيَّما عند اقتراب يوم القيامة.

٣- حرب الإشاعة ضد أهل الحق تمتد جذورها منذ الجاهلية.

٤ - مصير الأمم المكذبة الدمار.

٥- قال ابن عاشور في الآية (٥): «دخلت لام الأمر على فعل الغائب لمعنى إبلاغ الأمر إليه، أي: فقولوا له: ائتنا بآية، والتشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يأتنا﴾ أي: حالة كون هذا البشر حين يأتي يشبه رسالته رسالة الأولين، والمشبه ذات، والمشبه به معنى الرسالة». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٤).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٧-٨- ما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - إلا رسلاً من البشر لا ملائكة، فاسألوا - أيها المكذِّبون - أهل العلم بالقرآن والتوراة والإنجيل، إن كنتم لا تعلمون ذلك، وما جعلنا الأنبياء خَلْقاً مغايراً للبشر، كالملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولم يكونوا مُخَلَّدين في الدنيا لا يموتون.

٩- ثمَّ أنجزْنا الوعد للمرسلين وأتباعِهم بالنصر والنجاة، وأهلكنا المسرفين على أنفسهم بالكفر.

١٠- والله لقد أنزلنا إليكم - أيها العباد - هذا القرآن العظيم، فيه شَرَفُكم وفخركم إنْ عملتم بما فيه، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

١١- وأهلكنا كثيراً من أهل البلدان الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم؛ بسبب كُفْرِهم بآيات الله، وأنشأنا بعدهم أُمَّة أخرى.

١٢-١٣- فلمّا رأى الظالمون عذابنا، وتيَقَّنوا نزوله إذا هم يهربون، فيقال لهم: لا تهربوا، وعُودوا إلى النِّعم والشهوات التي كنتم مُنْغَمِسين بها في الدنيا، وإلى مساكنكم الفخمة؛ كي تسألوا عمّا جرى لكم من الأهوال. وهذا من باب التهكُّم بهم.

١٤-١٥- فصاحوا مُتَفَجِّعين: يا دمارَنا، إنّا كنَّا ظالمين لأنفسنا. فما زالوا يُرَدِّدون هذا التفجُّعَ حتى أهلكناهم بالعذاب، وجَعَلْناهم فُتاتاً كالزَّرْعِ المحصود، لا حَراك ولا حياة فيهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير بشرية النبي الأمين ورسالته ﷺ.

٢- القرآن الكريم مصدر العزة والكرامة، إذا عُمِلَ به.

٣- بيان فضل أهل العلم.

٤- بيان مصير الأمم المكذِّبة بالحق.

٥- قال ابن عاشور: «الإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومَنْ شئنا، ونُنْجِي رسولنا ومَنْ نشاء منكم، وهو تأميل لهم لأن يؤمنوا، لأنَّ من المكذبين يوم نزول هذه الآية مَنْ آمنوا فيها بعد إلى يوم فتح مكة». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٧). والمراد بالاحتباك هنا: الاختصار.

٦- قال ابن عاشور: «حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ لبيان الجنس، وهي تدخل على ما فيه معنى التمييز، وهي هنا تمييزٌ لإبهام ﴿كم﴾». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٩).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٦-١٧- وما خَلَقْنا السموات السبع والأَرَضين السبع وما بينهما عبثاً، ولا لَعِباً، وإنَّما في هذا الخلق عبرة ومنافع للعباد، لو أَرَدْنا أن نَتَّخِذَ لهواً على سبيل الفرض والتقدير المحال لاتَّخذناه مِنْ عندنا إن كنَّا فاعلين، فالسموات والأرض بمَرْأى منكم دائماً، ولا يمكن أن يكون القصد منها العبث واللهو.

١٨- يخبر الله تعالى أنَّه تَكَفَّل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، فإنَّ الله يُنَزِّل من الحق والعلم والبيان ما يدمغ الباطل فيضمحلُّ، ويتبيَّن لكلِّ أحد بطلانه، فإذا هو فانٍ تالفٌ، ولكم الويل - أيُّها الكفَّار - ممَّا تُكَذِّبون.

١٩-٢٠- ولله مُلك مَنْ في السموات السبع والأَرَضين السبع، ومَنْ عنده من الملائكة لا يستنكفون عن عبادته سبحانه، ولا يَمَلُّون منها، يَلْهَجُون بالتسبيح والذكر والتنزيه ليلاً ونهاراً دون انقطاع وتَوَقُّف.

٢١-٢٢- يُنْكِرُ الله تعالى على المشركين الذين يعبدون أصناماً لا تقدر على إحياء الموتى، لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله تعالى لَفَسَدَ نظام الكون كلِّه لاختلاف التدبير، تنزَّه الله وتقدَّس، ربُّ العرش العظيم عَمَّا يفتري هؤلاء المشركون.

٢٣- ومن عظمته سبحانه أنّه لا يُسأل عمّا يفعل، لأنّه مالك كل شيء، وأمّا العباد فيُسألون، لأنّهم ملك لله تعالى.

٢٤- يُكرِّر الله تعالى الإنكار على المشركين؛ استعظاماً لجريمة لشرك، ومبالغة في توبيخهم: هل اتّخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم؟ قل أيُّها النبيُّ لهم: ائتوني بالحجة والدليل على ما تَدَّعون، فليس في هذا القرآن الذي معي والكتب السابقة دليل على افترائكم، بل أكثرهم لا يعلمون حَقَّ الله تعالى في توحيده، فهم مُعْرِضُون عن الحقِّ وأهله.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير توحيد الربوبية بخلق السماء والأرض.

٢- كلُّ مَنْ في السموات والأرض يعبد الله تعالى وحده.

٣- أَمْنُ الكون وحركتُه شاهدٌ على وحدانية الله تعالى الذي خلق هذا الكون.

٤- إقامة الحجة على المشركين بالحوار والدليل.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٥- وما بعثنا قبلك - أيها الرسول - من رسول إلا أوحينا إليه أنّه لا معبود بحقٍّ إلا الله، فأَخْلِصوا العبادة له وحده.

٢٦-٢٧- يخبر الله تعالى عن سفاهة المشركين الذين زعموا أنَّ الملائكة بنات الله! سبحانه وتعالى عن قولهم الكُبّار، وأخبر عن وصف الملائكة بأنّهم مُكَرَّمون عنده في منازل عالية؛ لأنّهم في غاية الطاعة، لا يقولون قولاً حتى يقول الله تعالى؛ لكمال أدبهم، وهم بأمره ممتثلون مطيعون.

٢٨-٢٩- يعلم الله أحوال الملائكة وما عملوا، وما هم عاملون في المستقبل، ولا يشفعون يوم القيامة إلا لِـمَنْ رضي الله عنهم من المؤمنين، وهم من خوف الله حَذِرُون خائفون. ومَنْ يَقُلْ منهم إنّي إله غير الله فذلك البعيد عن رحمة الله، عقوبته نار جهنم. مثلَ ذلك الجزاء الشديد نَجْزي مَنْ ظلم، وتَعَدّى الحقوق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وحدة دعوة الرسل إلى توحيد العبودية لله تعالى.

٢ - قال ابن عاشور: «عطف قصة من أقوالهم الباطلة على قصة أخرى، فلما فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر، وهو اعتقادهم أن الله اتخذ ولداً». (التحرير والتنوير ١٧/ ٣٧).

٣- تقرير الشفاعة للمؤمنين.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)﴾

التفسير:

٣٠- يُوَبِّخ الله تعالى الكفَّار الذين لم ينتفعوا بالآيات الكونية: أولم يعلموا أنَّ السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين، ففَصَلْنا بينهما. وجَعَلْنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة، أفلا يُصَدِّقون بهذه الآيات المشاهَدَة التي تَدُلُّ على وحدانية الله؟

٣١-٣٢- وجعلنا في الأرض جبالاً شامخة لتثبِّتها، وجعلنا فيها طرقاً واسعة؛ ليهتدُوا بها في سيرهم لمصالحهم، وجعلنا السماء الدنيا سقفاً للأرض محفوظاً من السقوط، واختراق الشياطين. والكفَّار بهذه الآيات المرئية لا يُبالون، ولا يتفكَّرون فيها.

٣٣- والله سبحانه هو الذي خلق الليل والنهار وآيتيهما الشمس والقمر، كلٌّ منهما يجري في مدار خاص به، وكذلك كلُّ الكواكب التي يُظَلِّلُها الليل بظلامه، والكواكب التي تدور في فلك الشمس كلها تدور بحركة متناسقة.

٣٤-٣٥- وما جَعَلْنا لأحد من البشر قبلك - أيها الرسول - البقاء الدائم من غير موت، فهل إذا مِتَّ سيُخَلَّدون بعدك في هذه الحياة؟ والجواب: كلُّ نفسٍ ستموت في الدنيا، ولا يدوم إلا الحي القيوم، ونختبركم بالمصائب والنِّعَمِ؛ لنرى صبركم وشكركم، وإلينا تعودون للحساب.

٣٦- وإذا رآك الكفَّار - أيُّها النبي - ما يتخذونك إلا مثاراً للسخرية، ويُنْكِرُون عليك بقولهم: أهذا الذي يعيب آلهتكم؟ والحال أنَّهم مُكَذِّبون إذا ذُكِرَ الله الرحمن.

٣٧- خُلِقَ الإنسان عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء، وقد استعجل كفَّار مكَّة العذاب، فأنذرهم الله بأنَّه سيريهم العقوبة، فلا يتعَجَّلوا الأمر قبل أوانه.

٣٨- ومِنْ عَجَلَتِهم قولُهم: متى وقتُ نزول العقاب إن كنتم صادقين في قولكم، أيها المؤمنون؟

٣٩- لو عرف هؤلاء الكفَّار أهوال العذاب حين لا يقدرون أن يمنعوا عن وجوههم النَّار ولا عن ظهورهم، ولا ناصر لهم من ذلك العذاب المحيط بهم.

٤٠- بل تأتيهم ساعة العذاب فجأةً فتدهشهم، فلا يقدرون على صَرْفِها عنهم، ولا يُمْهَلُون.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى نظرية الانفجار الكبير في بدء الكون.

٢- الإشارة إلى حقيقة خلق المخلوقات من ماء.

٣- في الآية (٣٠) بيانُ أنَّ الأشياء كلَّها تُخلق من الماء في الماضي والمستقبل.

٤- الإشارة إلى حقيقة فائدة الجبال في استقرار الأرض. وينظر: صورة الجبال ورسوها في الأرض، كما في الملحق.

٥- الإشارة إلى حقيقة حفظ الأرض بالسقف المرفوع في السماء.

٦- قال العالم الفلكي د.داود سلمان السعدي: «يوجد توازن معقَّد بين كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا، وبين التسخين الحاصل في غلاف الأرض الجوي وسطحها، وبين إعادة إشعاع الطاقة الحرارية إلى الفضاء مرة ثانية. إن هذا التوازن يحفظ الأرض دافئة بالحدود المناسبة وبالقَدْر المحسوب منه تعالى لديمومة الحياة عليها.. ولولا هذا السقفُ المحفوظ من الغلاف الجوي لاحترقَتْ جميعُ الأشياء شَيَّاً نهاراً ولَتَجَمَّدَتْ من البرد ليلاً». (أسرار الكون في القرآن، ص١١٧).

٧- الإشارة إلى حركة الشمس والقمر وجميع الكواكب والمجرات.

٨- في الآية (٣٣) إخبار مستقبليٌّ عن استمرار نظام جريان الشمس والقمر، كلٌّ منهما في مَداره لا يحيد عنه حتى قيام السَّاعة.

٩- من حقائق الكون الثابتة أن للأرض عدة حركات منتظمة، منها دورتها حول محورها أمام الشمس والتي يتبادل بواسطتها الليل والنهار، وجريها في مدارها حول الشمس بمحور مائل فيتبادل كل من الفصول والأعوام، وحركتها مع الشمس حول مركز للمجرة، ومع المجرة حول مراكز أكبر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله. (آيات الإعجاز العلمي : الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات ٢٥٩-٢٧٦).

١٠-بيان حقيقة الموت، وأن جميع البشر تشملهم هذه الحقيقة. وفي ذلك إشارة إلى التزهُّد بأمر الدنيا، والإشارة إلى مسألة الخلود في الآخرة.

١١-الاختبار يكون بالخير والشر، وليس بالشر فقط.

١٢-في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ كلَّ نفس ذائقة الموت لا محالة، مهما عُمِّرت في الدنيا، وما وجودها في الحياة إلا ابتلاء بالتكاليف أمراً ونهياً. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بأنَّ الأحوال تَتَقَلَّبُ خيراً وشرّاً، وهي مُستمرَّة على هذه الحال حتى قيام السَّاعة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤١ - يُقْسِمُ الله تعالى مؤكِّداً أنَّ المكذِّبين من الأُمم الماضية قد سَخِروا بالمرسلين من قبلك، فنزل فيهم العقاب بسبب استهزائهم.

٤٢ - قل - أيها الرسول - لهؤلاء المستهزئين مَنْ يحفظكم بالليل والنهار من أمر الرحمن إذا فاجأكم؟ بل هم عن القرآن ومواعظ الرحمن غافلون.

٤٣ - هل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب آلهة تمنعهم من عذابنا؟ فإنَّ تلك الآلهة عاجزة لا تقدر على نَصْرِ أنفسهم، ولا تجد عوناً من الله.

٤٤ - بل استَدْرَجْنا الكفَّار، وَمتَّعْناهم وآباءهم مِنْ قبلهم في الحياة الدنيا حتى طال عليهم العمر في النِّعْمَة، فاغترُّوا بها. أفلا ينظرون أنَّنا نأتي الأرض، فنُنْقِصُها من أطرافها بما يفتحه الله تعالى لنبيه ﷺ من البلدان بها، أو بالموجات البحرية التي تغرق مساحات واسعة من الأرض؟ ثمَّ أنكر عليهم ووبَّخهم: أفهم الغالبون؟

٤٥ - قل أيُّها النبي لهم: إنَّما أُحذِّركم، وأُخَوِّفكم بالقرآن العظيم، وما آتاني الله من الوحي الحكيم، ولكنَّ الكفَّار الذين خُتِمَ على سمعهم لا يسمعون البلاغ بالإنذار.

٤٦ - والله لو مَسَّتْهم إصابة خفيفة من عذاب الله لَاعترفوا بجرائمهم، ولَرَدَّدُوا متفجِّعين: يا هَلاكَنا إنَّنا كنَّا ظالمين أنفسنا بتكذيب الرسل.

٤٧- يخبر الله تعالى عن عدله في حساب الخلق يوم القيامة، حين يضع الميزان العادل الذي توزن به الأعمال، فلا تُظْلَمُ نفس مؤمنة أو كافرة شيئاً من أعمالهم، وإن كان العمل الذي عَمِلَتْه بوزن ذرة صغيرة من خير أو شر، فإنَّها تحسب لها. وكفى بربِّك مُحْصِياً لأعمال العباد.

٤٨-٤٩- قسماً لقد آتينا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام التوراة التي يُفْرَقُ فيها بين الحق والباطل، وفيها الهداية والموعظة للمتَّقين الذين يخشون الله في خلواتهم وإن لم يروه، وهم من أهوال يوم القيامة خائفون.

٥٠- وهذا القرآن العظيم الشأن فيه ذِكْرٌ لِـمَنْ تَذَكَّرَ، وخير كبير أنزلناه على محمد ﷺ، فكيف تُنْكِرُون إنزاله من الله تعالى؟

الفوائد والاستنباطات:

١- انتقام الله تعالى من المستهزئين برسل الله صلى الله عليهم وسلم عامة، وبرسول الله ﷺ كما وَعَدَ الله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

٢- ذَمَّ الله تعالى الكفار، ووَصَفَهم بالصُّمِّ؛ لأنَّهم لم يستفيدوا من هذه النعمة لمعرفة الحق.

٣- بيان دقة عدل الله تعالى.

٤- الإشارة إلى تحريف التوراة المعاصرة؛ لمخالفتها ما وصف الله تعالى به التوراة الحقيقية.

٥- افتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد؛ لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك، وذهول بعضهم عنه، وتناسي بعضهم إياه منزلةَ مَنْ يُنْكر تلك القصة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

التفسير:

٥١-٥٢- والله لقد آتينا إبراهيم عليه السلام الهداية وهو صغير السن، وكُنَّا بأحواله عالمين حين قال لأبيه آزر وقومه مُنْكِراً عليهم: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟

٥٣- فأجابوه بقولهم: وجدنا آباءنا وأجدادنا من قبلُ عابدين لها، فاقتدينا بهم.

٥٤- فأقسم إبراهيم عليه السلام لهم مُؤَكِّداً: إنَّهم وآباءهم بعبادتها في ضلال كبير عن طريق الحق.

٥٥- فرَدُّوا عليه مُنْكِرين: ما تقوله جِدٌّ أم هَزْلٌ من أقوال اللاعبين؟

٥٦-٥٧- فأجابهم إبراهيم عليه السلام بجزم: بل ربُّكم المعبود وحده، المستحق للعبادة، هو ربُّ السموات السبع والأرضين السبع الذي خَلَقَهُنَّ، وأنا شاهد بهذه البراهين على وحدانية الله تعالى، وأقسم بالله مؤكِّداً إنَّه لَيكيد بآلهتهم كيداً؛ لتدميرها بعد ذهابهم عنها.

٥٨- وجاء إبراهيم إلى الأصنام بعد انصراف قومه عنها فحَطَّمها، وجعلها فُتاتاً، إلا الصنم الكبير فلم يُكَسِّره؛ لعلهم يرجعون إليه، فيسألونه عن كسر الأصنام.

٥٩- ورَجَعَ القوم إلى أصنامهم ففُوجِئُوا بالأصنام المحطَّمة، فتساءلوا بينهم: مَنْ فَعَلَ هذا بآلهتنا؟ إنَّه من المعتدين الذين يستحقون العقوبة.

٦٠- قال بعضهم: سمعنا فتى يذكر آلهتنا بسوء، يقال له: إبراهيم.

٦١-٦٢- فقال زعماء الشرك: أَحْضِروا إبراهيم بمرأى من الناس؛ حتى يشاهدوه ليعتبروا، فأَحْضَرُوه وسألوه: هل أنت الذي حَطَّمْتَ الآلهة يا إبراهيم؟

٦٣- فأجابهم مقيماً عليهم الحُجَّة: بل حَطَّمها الصنم الكبير، فاسألوهم لماذا فُعِلَ بهم ذلك، إن كانوا قادرين على النطق؟!

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب إنكار المنكر حسب القدرة.

٢- بيان فضل الحوار لإقامة الحجة والدعوة إلى الحق.

٣- أهمية قوة التوكل على الله تعالى.

٤- جواز التورية؛ لبيان حقيقة الأصنام، وأنَّها غير قادرة على شيء.

٥- تقرير التوحيد بالمناقشات العقلية والأدلة الحسية.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

التفسير:

٦٤-٦٥- فأخذوا يُفكِّرون ويتشاورون فيما بينهم قائلين: إنَّكم أنتم الظالمون؛ لأنَّكم وضعتم العبادة في غير موضعها، ثمَّ أخَذَتْهم العِزَّةُ بالإثم، فانقلبوا عن الحق، ورجعوا إلى باطلهم، فقالوا له: لقد عَلِمْتَ يا إبراهيم أنَّهم جميعاً لا ينطقون، فكيف تطلب منَّا أن نسألهم؟

٦٦-٦٧- فردَّ عليهم مُنْكِراً عليهم، ومُحتقراً لهم ولأصنامهم: أفتعبدون من غير الله ما لا ينفعكم شيئاً، ولا يَضُرُّكم إن تركتم عبادته؟ قُبْحاً لكم وللأصنام التي تعبدونها من غير الله، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟ ﴿ أُفّٖ ﴾ اسمُ فعلٍ دالٌّ على الضجر، وهو منقولٌ من صورة تَنَفُّس المتضجر لضيق نَفَسه من الغضب، وتنوين ﴿ أُفّٖ ﴾ يسمى تنوين التنكير والمراد به التعظيم، أي: ضجراً قوياً لكم. واللام في ﴿لَّكُمۡ﴾ لبيان المتأفف بسببه، أي: أفٌّ لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله.

٦٨-٦٩- ولمَّا فشلوا في حواره قرَّروا إحراقه، فأمر أرباب القرار: أحرقوا إبراهيم حرقاً شديداً، انتقاماً لآلهتكم، ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقّاً، ولكن رعاية الله ﷻ فوق أوامر الطواغيت، فقال تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فانقلبت النار برداً دون أن تَضُرَّه، وخرج إبراهيم عليه السلام سالماً بإذن الله تعالى.

٧٠-٧٢- وأرادوا بإبراهيم الموت بالتَّحْريق، فجَعَلْناهم أخسر الناس في الدنيا والآخرة، وأنقذنا إبراهيم ولوطاً، إذ هاجرا إلى أرض بيت المقدس التي باركنا فيها للناس بكثرة الخيرات، وطِيب الثمرات، ورَزَقْنا إبراهيم إسحاق ولداً، ويعقوب حفيداً، زيادةً على ما دعا إبراهيم، وكلُّهم من الأنبياء وأهل الصلاح والطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- جواز توبيخ عبدة الأصنام، بحسب مقام الداعية.

٢- رعاية الله تعالى لأوليائه.

٣- بيان معجزة خاصة بإبراهيم عليه السلام في إنقاذه من النار.

٤- إكرام الله تعالى إبراهيم بالذرية الصالحة التي حَظِيَتْ بالنبوة.

٥- الإشارة إلى بركات بيت المقدس.

٦- الإشارة إلى فضل الهجرة؛ لإقامة شعائر الله تعالى.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

التفسير:

٧٣- وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة للناس، يُرْشِدُونهم إلى الدين بأمر الله تعالى، وأوحينا إليهم أن يعملوا بشرائع الدين، وإقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة، وكانوا لنا مخلصين في العبادة.

٧٤-٧٥- وأعطينا لوطاً النبوَّة والعِلْمَ بأحكام الدين، وأنقذناه من أهل البلدة الذين كانوا يعملون الخبائث والفواحش. إنَّهم كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله، وشَمِلْناه برحمتنا الواسعة؛ لأنَّه كان من الصالحين، المطيعين لله تعالى.

٧٦- واذكر - أيُّها النبي - نوحاً عليه السلام حين دعا ربَّه بإهلاك الظالمين من قومه، فأجَبْنا دعاءه، فأنقذناه وأهله المؤمنين به في السفينة من الغمِّ الشديد.

٧٧- ونَصَرْنا نوحاً بنجاته من كيد الكافرين الأشرار، وبإغراقهم في الطوفان جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة إلى فضل الدعوة، والدعاة حملة الهداية.

٢ - الإشارة والإشادة بفضل فعل الخيرات.

٣ - التهديد والوعيد من الوقوع في الخبائث.

٤ - رعاية الله تعالى لأنبيائه صلى الله عليهم وسلم، والنكاية بالمكذِّبين بهم.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

التفسير:

٧٨-٧٩- واذكر أيضاً داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام إذ يحكمان لخصمين اقتحمت غنم أحدهما زرع الآخر ليلاً، فأتلفتِ الزُّروع، وكُنَّا مُطَّلِعين على حكمهما، ففهَّمْناها سليمان. وكلاً من داود وسليمان أعطينا نبوَّةً وعلماً نافعاً في أمور الدين، وذَلَّلْنا الجبال والطير تُسَبِّحُ مع داود، وكُنَّا قادرين على فِعْلِ ذلك وأمثاله، وعَلَّمْنا داودَ صناعة الدروع بجَعْلِ الحديد لَيِّناً له؛ لتَحْمِيَكم في الحرب من سلاح عَدُوِّكم، فهل أنتم - أيها الناس - شاكرون نعمتي؟

٨١- وسَخَّرْنا لسليمان الريح شديدةً سريعةَ الهبوب، تسير بأمره إلى أرض الشام التي باركنا فيها من الخيرات والثمرات، وكُنَّا بكل شيء من الأشياء عالمين.

٨٢- وسَخَّرْنا له بعض الشياطين يغوصون في البحر، فيستخرجون له اللؤلؤ، ويعملون له أعمالاً أخرى كالبناء والصناعة، وكُنَّا لهم حافظين من أن يفعلوا غير ما يريد سليمان.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل القضاء بين الناس، وقد قام به الأنبياء.

٢- بيان فضل الرجوع إلى الحكم الصحيح.

٣- الإشارة إلى التصنيع من الحديد إذا انصهر.

٤- بيان المعجزات التي خصَّها الله تعالى داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

٥- الإشارة إلى فضل بيت المقدس، وما فيه من البركات.

٦- قال ابن عاشور: «هذه الآية أصلٌ في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يَهْتَدِ إلى المُعارِضِ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في معرض الثناء عليهما». (التحرير والتنوير: ١٧/ ٨٧).

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

التفسير:

٨٣-٨٤- يُذَكِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ وأُمَّته بالأنبياء والصالحين الذين تَضَرَّعوا إلى الله، فاستجاب الله لهم، ومنهم نبي الله وعبده أيوب، حين دعا ربَّه أني مسَّني الضُرُّ في جسدي وفقدان أهلي، وأنت أرحم

الراحمين، فارحمني برحمتك الواسعة. فاستجبنا له دعاءه، فرَفَعْنا عنه الضرَّ، وأعطيناه مثل أهله عدداً وزيادة بضعف عددهم، رحمةً من عندنا، وموعظةً عظيمةً للعابدين لله؛ ليصبروا على البلاء.

٨٥-٨٦- واذْكُرْ إسماعيل وإدريس وذا الكفل، كلُّهم من الصابرين على الابتلاء، وشَمِلْناهم برحمتنا؛ لأنَّهم من الأخيار الصالحين.

٨٧-٨٨- واذْكُرْ قصَّة صاحب الحوت يونس بن متَّى ﷺ حين أرسله الله إلى قومه في قرية (نينوى) من مدينة (الموصل) شمال بغداد، فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعَّدهم بالعذاب، وتركهم مغاضباً لهم بالهجرة عنهم، ومغاضباً لربِّه لعدم صبره، فقد آمنوا بعد أن هجرهم، وظنَّ أن لن نعاقبه على ذلك. ولمَّا هجر قومه ركب سفينة، وكان عدد رُكَّابها زائداً، فخافوا أن يغرقوا، فاقترحوا أن يقترعوا بإلقاء أحدهم، فوقعت القُرعة على يونس، ثم ألقى بنفسه، فابتلعه الحوت، فنادى في ظلمات بطن الحوت وظلمات البحر مُعترفاً بتعجُّلِه، تائباً إلى الله مُوَحِّداً له: لا إله إلا أنت سبحانك، إنِّي كنت من الظالمين. فاستجبنا له دعاءه، وأنقذناه من ذلك الغَمِّ الشديد. ومثلما أنقذناه من كَرْبِهِ ننقذ المؤمنين من كروبهم، إذا دَعَوا الله تعالى مخلصين.

٨٩-٩٠- واذْكُرْ قصَّة زكريا ﷺ حين دعا ربَّه قائلاً: يا ربِّ لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني، وأنت خير الباقين. فأَجَبْنا له دعاءه، ورزقناه ولداً اسمه يحيى ﷺ، وأصلحنا له زوجه، بعد أن كانت عاقراً لا تصلح للحمل. إنَّهم كانوا يُكْثِرُون من فعل الخيرات، ويَدْعُوننا رغبةً في رحمتنا، ورهبةً من عذابنا، وكانوا لنا خائفين خوفاً عظيماً.

٩١- واذْكُرْ قصَّة الصِّدِّيقة مريم بنت عمران التي حَفِظَتْ فَرْجَها من الحرام، فأرسلنا لها جبريل، فنفخ في فتحة قميصها، فحَمَلَتْ بعيسى، وجَعَلْناها وابنَها علامةً على قدرة الله تعالى للإنس والجن.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى عظمة رحمة الله تعالى بأنه أرحم الراحمين.

٢- بيان علاج الابتلاء بالدعاء، لجميع العباد وحتى الأنبياء.

٣- بيان فضل الصبر على الابتلاء.

٤- بالدعاء والاستقامة تُقْضى الحاجات، وتتحقق الرغبات.

٥- الترغيب في الدعاء، فلا يجوز اليأس من رحمة الله تعالى الواسعة.

٦- الإشارة إلى قدرة الله تعالى في نجاة المؤمنين من المحن والفتن.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٢- إنَّ هذه مِلَّتكم التي جاء بها هؤلاء المرسلون على دين الإسلام أيُّها العباد، وأنا إلهكم لا رَبَّ سواي، فأَخْلِصُوا لي العبادة.

٩٣- ولكنَّ العباد اختلفوا، وتَفَرَّقوا إلى فِرَقٍ كثيرة: فمنهم مَنْ آمن بالله تعالى، ومنهم مَنْ كفر وعصى، وكلُّهم راجعون إلينا يوم القيامة للجزاء.

٩٤- فمَنْ يعمل شيئاً من الطاعات وهو مؤمن فلا يضيع شيء من ثوابه، وإنَّنا لسَعْيِه حافظون، مُثْبِتُون في صحيفة أعماله.

٩٥-٩٧- قَدَّر الله تعالى أنَّ أهل كل قرية أهلكوا أنَّهم لا يرجعون إلى الدنيا مرَّة ثانية، إلى قرب قيام الساعة، حين يُفتح سَدُّ يأجوج ومأجوج - وهما قبيلتان عظيمتان من همج البشر- وهم من كل مرتفع من الأرض ينحدرون سراعاً، واقترب يوم القيامة، فإذا حالة الكفَّار هي: مُفَتَّحةٌ أبصارهم لا تتحرَّك من شدَّة هول ذلك اليوم، ويقولون مُتَفَجِّعين: يا ويلنا قد كُنَّا في الدنيا في غفلة عن هذا اليوم العصيب، بل كُنَّا ظالمين لأنفسنا بتكذيب الرسل.

عن أبي سعيد الخُدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ يأجوج ومأجوج. فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ فيعمُّون الأرض، وينحاز منهم المسلمون، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويَضُمُّون إليهم مواشيهم، حتى إنَّهم لَيمرون بالنهر فيشربونه، حتى ما يَذَرون فيه شيئاً، فيمرُّ آخرُهم على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماءٌ، ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، ولننازلنَّ أهل السماء، حتى إنَّ أحدهم لَيَهُزُّ حَرْبَته إلى السماء، فترجع مخضَّبَةً بالدم، فيقولون: قد قَتَلْنا أهل السماء. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله دوابَّ كنغف

الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضاً، فيُصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسّاً، فيقولون: مَنْ رجلٌ يشري نفسه، وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وَطَّنَ نفسه على أن يقتلوه، فيجدُهم موتى، فيناديهم: ألا أَبْشِرُوا، فقد هلك عَدوُّكم فيخرج الناس، ويُخْلُون سبيل مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكَر عليها، كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط».

(أخرجه ابن ماجه في السنن- الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج ٢/ ١٣٦٣ برقم ٤٠٧٩، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٣١١، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٨٨). ذكره ابن كثير ٥/ ٣٦٧). النغَف: واحده: نَغفة، نوع من الدود. وتشكر: تَسْمَن.

٩٨-١٠٠ - إنَّكم - أيها المشركون - وما كنتم تعبدون من الأصنام وقود نار جهنَّم، أنتم فيها داخلون. لو كان هؤلاء المعبودون آلهة كما تَدَّعُون ما دَخَلُوا نار جهنم، وكلُّكم في النار ماكثون إلى الأبد، ولهؤلاء الكفَّارِ زفير من شدَّة العذاب والحزن، وهم في النار لا يسمعون شيئاً يؤنسهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الأنبياء واحدة، موحدة بإخلاص العبادة لله تعالى.

٢- قال ابن عاشور: «لَمَّا ضُمِّنَ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ معنى (تَوَزَّعُوا) عُدِّي إلى (أمرهم) فنصبه، والأصل: تَقَطَّعوا في دينهم وتَوَزَّعوه. وزيادة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لإفادة إنهم تعاونوا وتظاهروا على تَقطُّع أَمْرِهم».

(التحرير والتنوير: ١٧/ ١٠٤).

٣- تأكيد وجوب توحيد العبودية.

٤- الإشارة إلى ذم التفرق والتشرذم.

٥- تقرير البعث والحساب.

٦- الترغيب في الأعمال الصالحة مهما قَلَّتْ.

٧- الإشارة إلى تَأَخُّرِ خروج قوم يأجوج ومأجوج، وفيه الرد على مَنْ يقول إنَّهم خرجوا.

٨- في الآية (٩٦) إخبار مستقبلي عن إحدى علامات السَّاعة، وهي فَتْحُ سَدِّ يأجوج ومأجوج، وانطلاقهم من مرتفعات الأرض، وانتشارهم في جَنَباتِها مسرعين.

٩- الإشارة إلى وقود النار من اللحوم البشرية، والمصنوعات الحجرية.

١٠-الإشارة إلى بقاء الكفار أحياء في النار بزفيرهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

١٠١ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعُزير يعبدون من دون الله، فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ عيسى وعُزير والملائكة. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٣٨٤-٣٨٥-كتاب التفسير).

التفسير:

إنَّ الذين سبقت لهم منَّا الموعدة البالغة في الحسن، أولئك أصحاب الدرجات العالية، وهم عن نار جهنم مُبْعَدُون.

١٠٣ - لا يسمعون صوتَ النار المتوقِّدة ولهيبها، وهم في الجنَّة مقيمون أبداً، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعين، لا تحزنهم أهوال يوم القيامة، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنَّة قائلين مبشِّرين: هذا يومكم الذي وُعِدتم به في الدنيا؛ لنيل الثواب.

الفزع الأكبر هو عند النفخ في الصور كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل:٨٧]، وانظر تفسيرها هناك. (التفسير الصحيح٤/ ٢٥٧).

١٠٤ - يخبر الله تعالى عن عظيم قدرته في هذا الكون وفي البعث: يوم القيامة نطوي السماء مثل طَيِّ الورقة على الكتاب، ونعيد الخلق إلى الحساب، كما بدأنا أول خَلْقِهم من العدم في الدنيا، كذلك نُعيدهم يوم القيامة، إنَّنا كُنَّا قادرين على فِعْلِ ذلك وأمثاله.

١٠٥ - والله لقد كتبنا في الكُتُبِ والزَّبور الذي أنزلناه على داود ﷺ بعد ما كُتب في اللوح المحفوظ، أو من بعد ما كُتب في التوراة أنَّ أرض الجنة يرثها عباد الله المطيعون، الذين يعملون الصالحات. وهذا في الآخرة، أما في الدنيا فيبشرهم بنصر الإسلام في الأرض.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بشرى للمؤمنين بنجاتهم من نيران جهنم، ثم أمنهم من الحزن والحسرة في أهوال يوم القيامة.

٢ - الإشارة إلى أن السموات في بدء الخلق كانت مطويات، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وكما في التشبيه ببدء الخلق. وهذا التشبيه يستنبط منه معرفة مصير الكون يوم القيامة من معرفة بدء الخلق، فقد تَقَدَّم ذكر ذلك في تفسير سورة التوبة الآية (٣٦)، وتَقَدَّم في تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة أنَّ السموات والأرض كانتا ملتصقتين، ثم فَصَلَهما الله تعالى، وذلك في بداية الخلق، ويستنبط أنَّ السموات كانت مطويات، وستعود كما خُلِقَتْ في البداية.

٣ - البشرى بنصر المؤمنين وانتشار الإسلام في الأرض كلها، كما بَشَّرَ بذلك النبيُّ الأمين ﷺ في قوله: «إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها».

(صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض). ومعنى زوى أي: جمع.

٤ - في الآية (١٠٥) إخبار مستقبليٌّ وبشارة لأُمَّة محمَّد ﷺ بأنَّ الله ﷻ قد كتب في الكتب المنزَّلة من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ: أنَّ الأرض يَرِثُها عباد الله الصَّالحون.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

التفسير:

١٠٦ - يُثني الله تعالى على هذا القرآن الحكيم؛ لِما فيه من الكفاية التامَّة في الموعظة والاعتبار لقوم مُتَذَلِّلين لله، خاضعين له.

١٠٧-١٠٩ - وما أرسلناك - أيها الرسول - بهذا الدين إلا رحمة مهداة إلى الإنس والجن. قل للعباد: إنَّما أوحى إليَّ ربِّي أنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد، فأَسْلِمُوا له، وانقادوا لطاعته، فإن أعرضوا عن الإسلام فقل لهم: أعلمتكم بالحق جميعاً، ولا أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدون به من العذاب والقيامة؟

١١٠-١١٢ - إنَّ الله سبحانه يعلم ما تجهرون من الأقوال، ويعلم ما تُخفون في صدوركم، وستحاسبون على ذلك، وما أعلم لعلَّ تأخير العقاب اختبار لكم: أتؤمنون أم تُصِرُّون على الكفر؟ واستمتاع في الحياة الدنيا إلى انتهاء الأجل، قل: ياربِّ افصِلْ بيني وبينهم بالقضاء العدل، وربُّنا هو الرحمنُ بعباده، وأطلبُ العون منه على ما تَصِفُونه من الكذب والشرك والسخرية.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل القرآن العظيم وما فيه من المواعظ التي يستفيد منها المخلصون في عبادة الله تعالى.

٢- الإشارة إلى فضل نبي الرحمة ﷺ، وأنَّ ما جاء به فيه الخير الكبير والنفع الكثير للبشرية جميعاً.

٣- قال ابن عاشور في الآية (١٠٧): «صِيغَتْ بأبلغِ نَظْمٍ؛ إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومَدْحِ مرسله تعالى، ومَدْحِ رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنَّها رحمة الله تعالى بخلقه. فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي عُطِفَتْ به، ذكر فيه الرسول، ومُرْسِلَه، والمرسَل إليه، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٢١).

٤- في الآية (١٠٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ رسالة محمَّد ﷺ هي رحمة لجميع الناس على مختلف العصور والدهور إلى أن تقوم السَّاعة.

٥- تقرير الرسالة وتوحيد العبودية والربوبية.

٦- وجوب الاستعانة بالله تعالى؛ للفرقان بين الحق والباطل.

٧- قال ابن عاشور: «التعريف في ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لاستغراق كلِّ ما يَصْدُقُ عليه اسم العالَم. والعالَم: الصنف من أصناف ذوي العلم». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٢٢).

النزول: مدنية إلا الآيات: (٥٢) و (٥٣) و (٥٤).

المقاصد:

١- بيان جملة من أحكام الحج والقتال.

٢- التخويف من أهوال يوم القيامة.

٣- الدعوة إلى أخذ العِبْرة من دمار الأُمم المكذبة.

٤- تقرير توحيد الربوبية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾

التفسير:

١- يخاطب الله تعالى البشرية آمراً بتقواه في طاعة أوامره، واجتناب نواهيه، ومُخْبِراً بما يستقبلون يوم القيامة من زلزال الأرض الفريد، فإنَّ هَوْلَه رهيب، واضطرابه شديد.

٢- يوم تشاهدون مشاهد قيام الساعة مِنْ تَصَدُّعِ الجبال، وتَفَجُّرِ البحار، وتَشَقُّقِ السماء. في هذا اليوم تَغْفُل الأُمُّ المرضعة عن رضيعها، وتُسْقِط الحاملُ حَمْلَها، وترى العباد في ذُهول من هذا الهول الذي بدت معالمه، كأنَّهم سُكارى من الخمر، وليسوا بسكارى حقيقة، ولكن مشهد العذاب الذي ينتظر العصاة شديد. عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم! فيقول: لَبَّيْك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخْرِجَ من ذريتك بَعْثاً إلى النار. قال: يا رب وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمئة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حَمْلَها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». فشَقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرَتْ وجوههم، فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمئة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد. ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لَأرجو أن

تكونوا رُبع أهل الجنة» فكبَّرْنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة» فكبَّرْنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبَّرْنا. (صحيح البخاري ٨/ ٢٩٥، برقم ٤٧٤١ - كتاب التفسير - سورة الحج، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾).

٣- وبعض الضالِّين مَنْ يخاصم في قدرة الله تعالى وصفاته من غير عِلْمٍ، بل بالأباطيل، ويطيع كل شيطان متمرِّد من الإنس أو الجن. قال الشيخ الشنقيطي: «ما ذكره جَلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهَّال كالكفَّار يُجادل في الله بغير علم، أي: يخاصم فيه بغير مستندٍ من علم، بَيَّنَه في غير هذا الموضع، كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩] الآية».

٤- حُكْمُ اللهِ أَنَّه مَنْ تولى الشيطان فإنَّه يُغْوِيه، ويَسُوقه إلى عذاب نار جهنم الموقدة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنباء بهول يوم القيامة بمشاهد مؤثرة ومحيرة.

٢- تحريم الحوار بغير علم ولا دليل.

٣- ترك اتباع الحق يؤدي إلى اتباع الباطل.

٤- قال ابن عاشور: «زيادة كلمة (كل) للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع، وليس هو لبعض المراضع باحتمال ضعف في ذاكرتها. ثم تقتضي هذه الكناية كنية عن تعميم هذا الهول لكل الناس؛ لأنَّ خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنَّه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع.. وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول؛ لأنَّ استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدَّة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأَوْلى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء». (التحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٩).

٥- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يدل على أن الهدى كما أنَّه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضاً في الدلالة على الشر، لأنَّه قال: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١] الآية، لأنَّ الإمام هو مَنْ يُقتدَى به في هديه وإرشاده».

٦- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه سبحانه ذكر ثلاثة أصناف: صنف يجادل في الله بغير علم، ويَتَّبع كل شيطان مريد، مكتوب عليه إضلال مَنْ تَوَلَّاه، وهذه حال الـمُتَّبع لِـمَنْ يضله. وصنف يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثانيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سبيل الله، وهذه حال المتبوع المستكبر الضالِّ عن سبيل الله. ثم ذكر حال مَنْ يعبد الله على حَرْف، وهذه حالُ المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عَبَدَ اللهَ،

وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتدَّ عن دينه، فهذه حال مَنْ كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء». (درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٦٣).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير:

٥- يخاطب الله تعالى جميع العباد بالأدلة المشاهدة: إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم، فانظروا في أصل خَلْقِكم؛ ليزولَ الشكُّ عنكم، فقد خَلَقْنا آدم من تراب، ثمَّ جَعَلْنا نَسْلَه من المَنيِّ، يقذفه الرجل في رحم المرأة، ثمَّ يتطوَّر بقدرة الله تعالى إلى دم أحمر جامد، ثمّ يتطوَّر إلى قطعة من اللحم تشبه المضغة التي فيها آثار ضغط الأسنان عليها، وتكون تامَّة الخَلْقِ، وأحياناً تكون غير تامَّة، لِنُوَضِّح لكم عظيم قدرتنا. ونُبقي في الأرحام الجنينَ التَّامَ الخِلْقة إلى وقت ولادته، ثمَّ نُخْرِجُ هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بَدَنِه وحَواسِّه، ثمَّ يتدرَّج حتى تكتمل قوَّتكم وحواسُّكم، ومنكم مَنْ يموت في شبابه، ومنكم مَنْ يُعَمَّرُ حتى يصل إلى الشيخوخة والهَرَم من أجل ألَّا يعلمَ هذا الهَرِمُ شيئاً ممَّا كان يعلمه قبل ذلك. وأمرٌ آخرُ يدل على حقيقة البعث: الأرض اليابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها المطر دَبَّتْ فيها الحياة وتَحَرَّكَتْ، وأنبتت من كل صنف ما يَسُرُّ الناظر ببهائه ورَوْنَقِه.

٦-٧- ذلك الاستدلال العظيم يبرهن على أربع حقائق: بأنَّ الله هو الربُّ المعبود بحق، وبأنَّه سبحانه القادر على إحياء الموتى، وأنَّه على كل شيء من الأشياء قدير لا يُعجزه شيء، وأنَّ قيام الساعة حقٌّ لا شكَّ فيها، وأنَّ الله يحيي الأموات، ويبعثهم من القبور أحياء إلى موقف الحساب.

٨-٩- يُحَذِّر الله من أهل الضَّلال مُكَرِّراً ذِكْرَهم؛ لتأكيد خطورة أمرهم، وشناعة فِعْلِهم، فهم يخاصمون بغير علم صحيح، ولا كتاب يعتمد على الحجة والبرهان، بل بجهالة واستكبار، من أجل أن يَصُدُّوا العباد عن دين الله، فلهم عذاب في الدنيا بالذلَّة والهوان، وفي الآخرة بالنار المحرقة.

١٠ - ذلك العذاب العظيم بسبب ارتكاب جرائم الكفر والفساد، وأنَّ الله عادل لا يُعَذِّب أحداً بغير ذنب وإنذار.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ثبت للخبراء أن نزول المطر على التربة أو اختلاط الماء بالتربة من أيِّ مصدر آخر يترتب عليه عدة أمور:

أ- تحولها إلى محلول الترب.

ب- حبيبات التربة ذات الشحنات السالبة المتشابهة تكون في حالة تنافر مستمر، وهو ما يجعلها في حالة اهتزاز وحركة دائمة.

ج- الماء يحيط بالحبيبات ويغلقها فتزداد، أي: تربو كما أخبر القرآن الكريم. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص١٠٥).

ومن الحقائق العلمية: أنَّ الماء إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربياً، ممَّا يجعلها تهتز وتتنفس ويزداد حجمها، فتربُو وتزداد؛ وذلك لأنَّ تربة الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة، وزيادة حجمها وارتفاعها إلى أعلى حتى تَرِقَّ رِقَّةً شديدة فتنشق مفسحة طريقاً سهلاً آمناً لسويقة (ريشة) النبتة الطريَّة الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة.

(آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص٣٥١-٣٦٤).

٢- تقرير البعث بالأدلة الحسية والعقلية.

٣- بيان مراحل خلق الإنسان الواردة في الآيات دليل ساطع على إعجاز القرآن.

٤- ذَمُّ الجدل من غير برهان ولا علم.

٥- ذَمُّ التكبُّر والتعالم والتقليد الأعمى للضالِّين.

٦- ينظر: نموذج من القبور، كما في الملحق.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١١-١٣- وبعض الناس مَنْ هو ضعيف الإيمان فيعبد الله على تردد؛ لأنَّ الإيمان لم يستقرَّ في قلبه، فإن رُزِقَ بالخير والصحة أقام على دينه، وإن أصابه مكروه وبلاء ارتدَّ عن دينه، وانتكس بالكفر، وأضاع دنياه وآخرته. ذلك الانتكاس بالكفر هو الخسران الواضح الذي لا مثيل له، يعبد الأصنام من غير الله، وهي لا تَضُرُّه إن ترك عبادتها، ولا تنفعه إن عبدها. ذلك الكفر الصريح هو الانحراف البعيد عن الحق، يعبد مَنْ ضَرَرُه الـمُحَقَّقُ أقربُ مِنْ نَفْعِه الوهميِّ. بئس الناصر، وبئس القريب.

١٤- يُبَشِّر الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأنَّه يدخلهم جنَّات تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها. إنَّ الله يفعل ما يريد من إكرام المؤمنين بفضله، وعذاب الكافرين بعدله.

١٥- مَنْ كان يعتقد أنَّ الله تعالى لن ينصر نبيه محمداً ﷺ في الدنيا بإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، فَلْيقتل نفسه إن كان ذلك يغيظه، وذلك بأن يَمُدَّ حبلاً في سقف، ثمَّ ليختنق به شنقاً، فلينظُرْ: هل يَشْفي ذلك ما يجد في صدره؟ فإنَّ الله ناصرُ نبيِّه، فقد وعد بذلك، ووَعْدُه حقٌّ سبحانه.

عن أربدة التميميِّ قال: قلت لابن عباس: أرأيت قوله: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ قال: «مَنْ كان يظن أن لن ينصرَ الله محمداً، فليربط حبلاً في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت». (أخرجه الترمذي في التفسير ١٧/ ١٢٦-١٢٧، وأخرجه

الحاكم في (المستدرك ٢/ ٣٨٦) من طريق سفيان، عن أبي إسحاق به مختصراً، ولفظه: (مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً) وصححه ووافقه الذهبي، وعلّقه البخاري في صحيحه مختصراً بصيغة الجزم، فقال: وقال ابن عباس: ﴿ بِسَبَبٍ ﴾ بحبل إلى سقف البيت).

١٦- ومثلَ ذلك الإنزال المُبَيِّن بالآيات المرئية أنزلنا القرآن الكريم وما فيه من الآيات المفصَّلة، والحُجَجِ الواضحة، وأنَّ الله تعالى يهدي بها مَنْ يريد هدايته.

١٧- إنَّ المؤمنين واليهود والذين خرجوا عن اليهودية، والنصرانية والنصارى، وعبدة النيران، وعبدة الأوثان. إنَّ الله يفصل بينهم جميعاً يوم القيامة، فيُدخِلُ المؤمنين الجنَّة بفضله، ويُدخِلُ الكافرين النار بعَدْلِه، فتنتهي الخصومة المذكورة في الآية الآتية بعد الآية التالية. إنَّ الله شاهد على أعمال خَلْقِه أحاط بها علماً.

١٨- ألم تعلم أنَّ الله تعالى يسجد ويخضع له مَنْ في السموات السبع والأرَضين السبع، والشمس والقمر والنجوم والجبال، وكثير من العباد المؤمنين طوعاً، وكثير من العباد الكافرين كرهاً؟ وأيُّ عبدٍ أهانه الله تعالى فما له من مُكْرِمٍ يُكْرِمُه، ولا دافع يدفع عنه الهوان. إنَّ الله يفعل ما يشاء في خَلْقِه وَفْقَ حكمته.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى الابتلاء وعلاجه بالصبر والثبات.

٢- الاستغناء عن الاستعانة بالله خسارة في الدارين.

٣- وجوب حسن الظن بالله الرحمن الرحيم.

٤- تقرير عبودية المخلوقات كلها لله تعالى بسجودها.

٥- الإشارة إلى وجوب الخضوع والتذلُّل لله تعالى لما فيه من حياة العزة والكرامة؛ لأنَّ الذي يُخْلِصُ العبادة لله تعالى فهو في حصن حصين، وعِزٍّ مكين، وقرار أمين.

٦- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ قال: «كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِدْ امرأته، ولم تُنتج خيله، قال: هذا دين سوء». (صحيح البخاري ٨/ ٢٩٦ -كتاب التفسير- سورة الحج - باب (الآية)، برقم ٤٧٤٢).

٧- في الآية (١٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ كَتَبَ الله عليه الإهانة فليس باستطاعة أحد - كائناً مَنْ كان- أن يكرمه، فالله ﷻ يفعل في خَلْقِه ما يشاء وفق حكمته.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

١٩-٢٢- سبب النزول:

عن أبي ذر ﷺ أنّه كان يُقسم فيها قَسَماً: إنَّ هذه الآية: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر.. (صحيح البخاري ٨/ ٢٩٧-٢٩٨-كتاب التفسير، سورة الحج، باب (الآية) برقم ٤٧٤٣. وصحيح مسلم ٤/ ٢٣٢٣ بنحوه-كتاب التفسير- باب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾).

قال ابن عاشور: «الأظهر أن أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أن أولئك النفر الستة هم أبرز مثال وأشهر، فرْدٍ في هذا العموم، فعَبَّر بالنزول، وهو يريد أنّهم ممَّنْ يُقْصَدُ من معنى الآية».

(التحرير والتنوير: ١٧/ ١٦٦).

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت:﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليٌّ وحمزة وعُبيدة، وشيبة ابن ربيعة، وعُتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. (صحيح البخاري ٨/ ٢٩٧-٢٩٨-كتاب التفسير، سورة الحج، باب (الآية) برقم ٤٧٤٤. وصحيح مسلم٤/ ٢٣٢٣ بنحوه - كتاب التفسير- باب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾).

التفسير:

هذان فريقان متنازعان، وهما المؤمنون والكافرون تنازعوا، إذ يَدَّعي كلُّ فريق أنّه على حقٍّ، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان، وسيفصل بينهم النزاع، فالكفّار فُصِّلَتْ لهم ثيابٌ من نار على مَقاس أجسادهم، يُصَبُّ على رؤوسهم الماء المغليُّ بنار جهنم، يُذيب ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ويُسْقِطُ الجلود، وأُعِدَّ لهم مطاريقُ من حديد يُضْرَبُون بها، كلما حاولوا الهروب من هول النار أُعيدوا فيها ووُبِّخوا، إذ يقال لهم: ذُوقوا عذاب نار جهنَّم.

٢٣- إنَّ الله تعالى يُدخل المؤمنين الذين يَعْملون الأعمال الصالحة جنَّاتٍ تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، يُزيَّنون فيها بحُلِيٍّ في غاية الجمال، بأساور من الذهب واللؤلؤ، ولباسهم المعتاد في الجنَّة هو الحرير الطبيعي رجالاً ونساءً.

٢٤- وأمَّا كلامهم في الجنَّة فقد ألهمهم الله تعالى التسبيح والتحميد والتهليل والكلام الحسن الذي يخلو من اللغو والكذب، وهداهم سبحانه إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب.

٢٥- إنَّ الكفَّار الذين يمنعون الناس عن دين الله تعالى، ويمنعون المؤمنين عن دخول المسجد الحرام الذي جَعَلْناه مَنْسَكاً ومُتعبَّداً للناس جميعاً، يستوي فيه المقيم الحاضر، والذي يأتيه من خارج البلد. ومَنْ يعزمْ فيه بفعل سوء، أو يَهُمّ بسوءٍ متعمِّداً ظُلْمَ الآخرين، سواء كان يقيم في المسجد الحرام أو خارجه، نُذِقْه عقاباً من العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مصير أهل الحق ومصير أهل الباطل في الآخرة.

٢- بيان حرمة المسجد الحرام.

٣- التهديد والوعيد لِـمَنْ أراد الإساءة إلى المسجد الحرام وأهله، ولو بمجرد النية.

٤- المسلمون سواسية في المسجد الحرام، فالكلُّ له حقُّ العبادة، سواءً كان من أهل البلد، أو من القادمين.

٥- عن عبد الله بن مسعود ﵁ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: لو أنَّ رجلاً همَّ فيه بإلحاد وهو بِعَدَن أَبْيَن، لَأذاقه الله عذاباً أليماً.

(أخرجه الحاكم وصححه الذهبي في المستدرك ٢/ ٣٨٨-كتاب التفسير، وصححه أحمد شاكر في حاشية المسند برقم ٤٠٧١).

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٨- واذكر - أيها النبي - إذ هَيَّأنا لإبراهيم عليه السلام مكان البيت الحرام، وأنزلناه بجواره للقيام ببناء الكعبة على التوحيد، ونَهَيْناه عن الشرك، وأَمَرْناه أن يُطَهِّر البيت من الأوثان والأقذار، للذين يطوفون حول الكعبة، والمقيمين للعبادة، والمصلِّين فيه. وبعد أن قام إبراهيم عليه السلام بذلك الشرف أمره الله تعالى أن ينادي الناس، ويُبَلِّغهم بوجوب الحج إلى بيت الله الحرام، ثم بَشَّره بالاستجابة إلى ندائه، ومجيء الناس من كل مكان بعيد وقريب، مشاةً على أقدامهم، ورُكْباناً على الجِمال المهيَّأة للسفر الطويل، وغيرها من المراكب المُعَدَّة للحج؛ ليَحْظَوا بمنافع دينية ودنيوية، وليذكروا اسم الله عند ذَبْحِ الهدايا والضحايا في أيام النحر، شكراً لله على نعمائه، وعلى ما أعطاهم من الإبل والبقر والغنم والمعز، وأباح لهم الأكل من لحوم الأضاحي، وأمر بإطعام البائس الذي أصابته شدَّة وفاقة، والفقير المحتاج.

٢٩- ثمَّ بعد الذبح أمرهم أن يُزيلوا من أجسامهم ما علق بها في أثناء الإحرام، وذلك بالحلق والتقصير وقصِّ الشارب والأظافر، وليوفوا ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله، ولْيَطُوفوا حول الكعبة طواف الإفاضة سبعة أشواط.

٣٠- ذلك الأمر العظيم الذي يُبيِّن شعائر الله تعالى، ومَنْ يُعَظِّمْ ما شرعه الله من أحكام الدين فهو خير له ثواباً في الآخرة، وأَحْلَلْنا لكم الأكل من الإبل والبقر والغنم والمعز وغيرها من النَّعَم، إلا ما استُثْني في القرآن الكريم، كالميتة والمنخنقة وما ذُبِحَ لغير الله. واجتنِبوا بغاية الجهد عبادة الأوثان، فإنَّها خبيثة نجسة نجاسةً معنوية، واجتنبوا أيضاً قول الباطل من الكذب وشهادة الزور.

٣١- وكونوا مستقيمين مطيعين لله غير مشركين به أحداً، ومَنْ يشرك فمَثَلُه مَثَلُ مَنْ سقط من السماء، فتأكله الطير وتُمَزِّقه، أو تعصف به الريح إلى مكان بعيد من الأمان. وهذا التشبيه يُبَيِّنُ خطورة البعد عن الإيمان بالله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل المسجد الحرام وشرف إبراهيم عليه السلام.

٢- أول مَنْ بَلَّغَ بوجوب الحج إبراهيم عليه السلام.

٣- جواز التجارة في الحج.

٤- ضرورة التنويه بالحكمة من الحج، وما فيه من منافع مادية وروحية للنفس وللمجتمع وللشعوب المسلمة، والعمل على استثمار هذا الموسم في توثيق عُرا المودَّة، وأواصر الصلة، وتبادل المنافع بين المسلمين.

٥- بيان فضل تعظيم حرمات الله تعالى، ومنها المسجد الحرام.

٦- تأكيد تحريم عبادة الأصنام، والكذب، وشهادة الزور.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٢- ذلك هو الأمر العظيم من الشرع الحكيم الذي أمر به الرحمن الرحيم. ومَنْ يُعَظِّمْ أمور الدين، ومنها شعائر الحج فإنَّها من أفعال المتقين.

٣٣- ولكم في هذه الضحايا والهدايا منافع من النسل واللبن والركوب، إلى وقت نَحْرِها في مكَّة المكرَّمة، أو في منى.

٣٤-٣٥- ولكلِّ مِلَّةٍ شَرَعْنا لها مكاناً للعبادة وللذبح؛ ليذكروا اسم الله وحده، ويشكروه على ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم والمعز. فإلهكم - أيها العباد - إله واحد هو الله سبحانه، فأَخْلِصُوا له العبادة وأطيعوه. وبَشِّر الخاشعين القانتين لله، الذين إذا ذُكِرَ اللهُ خَشَعَتْ قلوبهم، والصابرين على البلاء، والمحافظين على أداء الصلاة، ومِمَّا أعطيناهم ينفقون في سبيل الله.

٣٦- والتضحية بالإبل البدينة لله تعالى جعلناها من معالم الشريعة التي أمر بها الله لعباده. لكم فيها نفع في الدنيا والآخرة، فقولوا عند ذَبْحِها: بسم الله، حال كونها واقفة صُفَّتْ ثلاثٌ من قوائمها، وقُيِّدَت الرابعة، فإذا سقطت على الأرض، وأُزْهِقَتْ رُوحُها فقد حَلَّ أَكْلُها، فكُلوا منها إن شئتم، وأَطْعِمُوا الفقير الذي لم يسأل تَعَفُّفاً، والسائل لحاجته. مثلَ ذلك التسخير جعلناها منقادةً لكم؛ لكي تشكروا الله على نِعَمه.

٣٧- ليس المقصودُ من الهدايا التظاهُرَ بذبحها، وإنَّما المقصود الإخلاص له سبحانه، فلن يصل إلى الله لحومُها وإراقة دمائها، ولكن يَبْلُغُه التَّقوى منكم، بطاعة أوامره واجتناب نواهيه. مِثْلَ ذلك التسخير جعلها لكم منقادة؛ لتُعَظِّموا الله، وتشكروه على ما هداكم من الحق. وبَشِّرِ المحسنين بأقوالهم وأفعالهم أنَّ لهم الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترغيب في وجوب تعظيم أحكام الدين.

٢- جواز الاستفادة من الأضاحي بركوبها وشرب لبنها، حتى يحين ذَبْحُها في مكة المكرمة، أو في منى.

٣- في الآية (٣٤) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة للمتواضعين الخاضعين لربِّهم، بأنَّ لهم خيرَي الدُّنيا والآخرة.

٤- وجوب التسمية عند الذبح.

٥- بيان وحدة التشريع في ذَبْحِ القرابين لله تعالى في الشرائع كلها.

٦- وجوب شكر الله تعالى على نعمه.

٧- في الآية (٣٧) إخبار مستقبليٌّ وبشارة للمحسنين بعبادة الله وحده، والمحسنين إلى خَلْقِه بكلِّ خير وفلاح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

التفسير:

٣٨- يُبَشِّرُ الله تعالى عباده المؤمنين بأنَّه ينصُرهم، ويدفع عنهم كيد أعدائهم. إنَّ الله لا يحبُّ كل خَوَّان للأمانة، جحود لنعم الله تعالى.

٣٩- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أَخْرَجوا نبيَّهم، لَيُهْلَكُنَّ فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٣٢٥- كتاب التفسير، باب سورة الحج برقم ٣١٧١. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وصححه أحمد شاكر برقم ١٨٦٥، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في المستدرك ٢/ ٦٦ - كتاب الجهاد).

التفسير:

أَذِنَ الله تعالى في القتال للمؤمنين الذين يقاتلهم أعداؤهم؛ بسبب أنَّهم ظُلِموا بمَنْعِهم مِنْ دينهم، وفتنتهم، وإخراجهم من ديارهم، فلهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويَسْتَرِدُّوا حقوقهم. إنَّ الله وحده قادر على نصر عباده.

٤٠ - ومن صفة ظلمهم أنَّهم أُلْجِئُوا إلى الخروج من ديارهم بغير سبب موجب للإخراج، وإنَّما لأنَّهم عبدوا الله وحده. ولولا ما شرعه الله من دَفْعِ الظلم بالجهاد لانتشر الفساد بهدم أماكن العبادة، من معابد الرهبان، وكنائس اليهود والنصارى، ومساجد المسلمين التي يُصَلُّون فيها، ويذكرون الله فيها كثيراً. وقسماً لَينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصر دينه ورسوله. إنَّ الله لَقَوِيٌّ على ما يريد، عزيزٌ في مَلَكوته، لا يقدر أحد على مغالبته.

٤١ - الذين وَعَدْناهم بالنصر، إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض عبدوا الله، وحافظوا على إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة، ودَعَوا إلى الخير ونَهَوا عن الشر. ولله تعالى مرجع الأمور.

٤٢-٤٤- وإن يُكَذِّبْك الكفَّار - أيها الرسول - فقد سبقهم في تكذيب رسلهم قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ولوط، وأصحاب مدين الذين كَذَّبوا شعيباً، وكذَّب فرعون وقومه موسى، فأمهَلْتُ الكافرين، وأخَّرْتُ عنهم العذاب، ثمَّ أهلكتهم، فكيف كانت آثار إنكاري عليهم؟

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ الشنقيطي: «بيَّن جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّه يدفع السوء عن عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً، ويكفيهم شرَّ أهل السوء، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] الآية، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]».

٢- بيان مكانة المؤمن عند الله تعالى في الرعاية والنصر والتأييد.

٣- الإذن بالقتال، لرفع الظلم، وحماية الدِّين والمسلمين.

٤- مهمة الأُمة إقامة حكم الله تعالى في الأرض على قَدْرِ استطاعتها.

٥- وجوب احترام أماكن العبادة.

٦- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧- تسلية النبي الأمين ﷺ في بيان موقف المكذبين بالأنبياء، وإمهالهم فهلاكهم.

٨- ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٥ - كثير من البلدان التي عَصَتْ ربَّها، فأصابها بأسُنا، فدمَّرناها بسبب كفر أهلها، وتكذيب رسلهم، فهي مُهَدَّمة، سادت فيها الوحشة، وأصبحت خالية من البشر، حتى غدت آبارها مطويَّةً لا يُستقى منها، وقصورها شامخة، لكنَّها خاويةٌ لا يُنتفع منها.

٤٦ - أفلم يسافر الكفَّار ليشاهدوا مصارع الهالكين، فيعتبروا بما حَلَّ بهم من الدمار، ويسمعوا أخبار النَّكال بالكفَّار؟ فإنَّ العمى ليس عمى الأبصار، ولكنَّ العمى المُهْلِكَ هو عَمَى البصيرة عن إدراك الحقِّ والاعتبار.

٤٧ - ويطلب الكفار منك - أيُّها النبي - أن يُعجِّلَ الله لهم بالعذاب استهزاءً، وهو واقع بهم بموعدٍ قَدَّره الله تعالى في الدنيا، أو في الآخرة، أو في كليهما. وإنَّ مقدار يوم من أيام الآخرة عند الله كألف سنة ممَّا تَعُدُّون من سِنِي الدنيا، فوقوع العذاب ليس عنده ببعيد.

٤٨ - وكثيرٌ من أهل البلدان الذين ظلموا أمهَلْتُهم، ثمَّ فاجَأْتُهم بالهلاك، وإليه سبحانه مرجعهم؛ لينالوا عقابهم في الآخرة.

٤٩ -٥١- قل أيها الرسول: يا أيها العباد، ما أنا إلا مُنْذِرٌ لكم، أُنذركم إنذاراً واضحاً لا التباس فيه، فالمؤمنون العاملون الأعمالَ الصالحة لهم عند ربِّهم مغفرة لذنوبهم وجنَّة نعيم، والذين كَذَّبوا بآياتنا، وبذلوا جهودهم في إثارة الفتن ومحاربة القرآن والكيد لأهله. أولئك هم البعداء عن رحمة الله الملازمون النار، وهم وَقودُها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة إلى آثار إهلاك الأُمم الظالمة، وذلك للموعظة والعبرة.

٢- الدعوة إلى السير والنظر في ملكوت الله.

٣- عمى القلب أشد من عمى البصر.

٤- طول زمن أيام الآخرة.

٥- يوم مقداره خمسون ألف سنة يعادل (١٨) مليون يوماً.

٦- تؤكد الآية (٤٧) النظرية النسبية التي اكتشفها (آينشتاين) والتي تقول: إنَّ السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء، الضوء سرعته تقريبية، يقطع في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلٍ.

(http://nabulsi.com/blue/ar/artp.php?art=1451)

٧- عدل الله تعالى في عباده.

٨- تشنيع الظلم، فهو من أسباب هلاك الأُمم.

٩- ينظر: صورة النخل المنقعر والخاوي، كما في الملحق.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير:

٥٢- وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول ولا نبي إذا قرأ ما أمر الله تعالى به، وحَرَصَ على الإصلاح، ألقى الشيطان عند ذلك الوساوس والشبهات في قلوب بعض الناس؛ ليَصُدَّهم عن اتِّباع ما جاء به الرسول أو النبي، فيُبْطِلُ الله تعالى كيد الشيطان، فلا يُؤَثِّر في قلوب المؤمنين، فيثبِّت الله تعالى آياته، ويُرَسِّخُ أحكامها في قلوبهم. والله عليم بالأحوال، حكيم بالأقوال والأفعال.

٥٣- ليجعل الله تعالى تلك الوساوس والشبهات فتنة للمنافقين والكافرين؛ ليزدادوا غواية وجناية. وإنَّ هؤلاء الظالمين لأنفسهم في بُعْدٍ كبير عن الهداية، وعداوة شديدة للمؤمنين.

٥٤- وليعلم أرباب العلم أنَّ القرآن الحكيم هو الحقُّ الذي نزل من عند الله الكريم، فيُصَدِّقوا به، فتطمئن قلوبهم، وتخشع جوارحهم. وإنَّ الله هو الهادي للمؤمنين إلى دين الإسلام.

٥٥- ولا يزال الكفَّار في شكٍّ من القرآن؛ بسبب ما يلقي الشيطان من الوساوس حتى قيام الساعة فجأة، أو حتى يأتيهم عذاب يوم شديد الهول لم يُرَ مثله في شدَّة أهواله، إذ يُسْتأصل الكبير والصغير.

٥٦-٥٧- الملكوت يومَ القيامة والتصرُّف المطلق لله وحده، وهو الذي يحكم بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون العاملون بما أمر الله في جنات النعيم، والكفَّار المكذِّبون بآيات الله هم البُعَداء عن رحمة الله في عذاب مقيم في الجحيم.

٥٨-٥٩- والذين هاجروا ابتغاء مرضاة الله، ثمَّ قُتِلوا في سبيل الله، أو ماتوا بغير قتال، قسماً لَيَرْزُقَنَّهم الله الجنَّةَ بحُسْنِها ونعيمها، وإنَّ الله بكرمه، هو خير مَنْ أعطى، فإنَّه يرزق بغير حساب. ثمَّ يؤكِّد ذلك بقوله: والله لَيُدْخِلَنَّهم مقاماً يرضونه في الجنَّة. وإنَّ الله لعليمٌ بأحوال عباده، لا يعاجلهم بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من وساوس الشيطان وعداوته.

٢- تأثير وساوس الشيطان في الكفار والمنافقين الذين غَمَرَ الشكُّ قلوبهم.

٣- الإشارة إلى التغلب على وساوس الشيطان بالدعاء، والاستعانة بالله تعالى.

٤- بيان فضل الهجرة في سبيل الله تعالى.

٥- بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين في الدارين.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير:

٦٠-٦١- ذلك هو الوعد الكريم، ومَنْ جازى الجاني بمثل جنايته ثم اعتُدِيَ عليه، قسماً لَيَنصُرَنَّه الله تعالى. إنَّ الله عَفُوٌّ عن ذنوب عباده التائبين، غفور لهم لا يعاقبهم عليها. ذلك النصر الذي وعد به سبحانه لأنَّه قادر على ذلك، بل هو قادر على أعظم من ذلك من الآيات الكونية التي لا تفارق البشرية، ومنها قدرته سبحانه على إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، بأن ينقص من الليل، فيزيد في النهار، وعلى العكس من ذلك. والله سميع للأقوال، بصير بالأحوال.

٦٢- ذلك الاتصاف بتمام القدرة والعظمة لله تعالى لأنَّه هو الإله الحق، وأنَّ ما يعبده المشركون من دونه هو الباطل، وأنَّ الله العليُّ على خَلْقِه، الكبير العظيم الذي لا شيء أكبر منه سبحانه.

٦٣-٦٤- ألم تعلم - يا عبد الله - أنَّ الله أنزل من السحاب المطر، فتصبح الأرض ذات بساط أخضر، تُنبِت أنواع النبات؟ إنَّ الله لطيف بعباده، خبيرٌ بهم، له ما في السموات السبع، وما في الأرَضين السبع. وإنَّ الله هو الغني حقّاً عن كلِّ شيء، المحمود في كل حال.

٦٥- ألم تعلم - أيُّها الإنسان - أنَّ الله ذَلَّل لكم ما في الأرض من الدوابِّ والنبات، وذلَّل لكم السفن تجري في البحر بأمر الله تعالى، وهو الذي يُمْسِكُ السماء ويَحْفَظُها؛ لكيلا تقع على الأرض إلا إذا شاء سبحانه؟ إنَّ الله ذو رأفة عظيمة ورحمة واسعة بجميع النَّاس.

٦٦- وهو سبحانه الذي أحياكم في إيجادكم من العدم، ثمَّ يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثمَّ يحييكم في الآخرة عند البعث. إنَّ الإنسان لَجَحُودٌ لنِعَمِ الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى إيجاد القوة المماثلة لدى المعتدين لرَدْعِهم، والذَّوْد عن المسلمين.

٢- مشروعية عقوبة الظالم.

٣- عظمة الله في ملكه وخلقه ونعمه عليهم تُبَرْهِنُ أنَّه هو الذي يجب أن يُعْبَدَ وحده، ويُعَظَّم.

٤- تقرير إثبات البعث.

٥- ينظر: صورة ولوج الليل والنهار وتكويرهما، كما في الملحق.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾

التفسير:

٦٧-٦٩- لكلِّ أُمَّة من الأُمم وَضَعْنا لها شريعة وعبادة، هم عاملون بها، فلا يَصِحُّ أن ينازعك أحد من المشركين في أمر الدين، وادعُ إلى إخلاص العبادة لله وحده. إنَّك - أيها النبي - لَعلى دين قويم موصل إلى جنَّات النعيم، وإن خاصمك المشركون بالباطل فقُلْ لهم مُعْرِضاً عنهم، مُهَدِّداً لهم: الله أعلم بأعمالكم، وهو سبحانه يقضي بينكم وبين المؤمنين يوم القيامة فيما اختلفتم فيه في أمر الدين.

٧٠- ألم تعلَمْ - يا عبدَ الله - أنَّ الله تعالى يعلم كل ما في السموات السبع والأرَضين السبع؟ إنَّ ذلك العِلْم مسطور في اللوح المحفوظ، وهو أمر سهل على الله تعالى.

٧١-٧٢- ويعبد المشركون أصناماً من دون الله، لا حُجَّة لهم فيها، ولا برهان من الله تعالى، وما ليس عندهم به علم، وليس لهؤلاء الظالمين لأنفسهم من ناصر ينصرهم. وإذا تُلِيَتْ عليهم آيات القرآن الواضحة ترى في وجوه الكفَّار الكراهية، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن من شدَّة غيظهم. قل لهم أيها الرسول: هل أخبركم خبراً بشرٍّ من ذلك الأمر العظيم؟ نارُ جهنم وعدها الله للكافرين المكذِّبين بآياته. وبئس المصير هي النار.

الفوائد والاستنباطات:

١- لكل أُمة شريعة، وكل الشرائع تلتقي في توحيد العبودية، ومرجعها لله تعالى.

٢- مشروعية ترك الحوار إذا لم يكن مجدياً.

٣- الإشارة إلى ضيق نفوس الكفار من تلاوة القرآن الكريم.

٤- جدال الكفار ومِراؤهم لا ينبغي أن يَصْرِفَ الداعية عن دعوته .

٥- طريق الحق واضح بيِّن، وإن نازع فيه الجاحدون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٣- يضرب الله تعالى مثلاً للعباد، ولبيان قُبْحِ عبادةِ الأوثان، وبيان ضعف عقول مَنْ عبدها، ويأمر الله تعالى بسماع هذا المثل: إنَّ هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لن تقدر على خَلْقِ ذبابة على ضعفها وصغرها، وإن اجتمعت المعبودات كلُّها على ذلك. وإن اختطف الذبابُ شيئاً لم يستطيعوا استرجاعه، رغم ضعفه وحقارته. ضَعُفَ الطالب وهو العابد الذي يطلب الخير من الوثن، وضَعُفَ المطلوب، وهو الوثن المعبود، فكلٌّ منهما حقير وضعيف، فكيف تتخذون هذه الأوثان آلهة؟

٧٤- ما عَظَّم المشركون اللهَ سبحانه حَقَّ عَظَمَتِه. إنَّ الله كامل القوَّة، كامل العِزَّة في ملكوته.

٧٥- الله تعالى يختار من الملائكة رُسُلاً؛ لتبليغ الوحي إلى أنبيائه ورسله من البشر، ويختار رُسُلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين. إنَّ الله سميع للأقوال، بصير بالأحوال.

٧٦- وهو سبحانه يعلم بكل أحوال رسله، ما قَدَّموا وما أَخَّروا من الأفعال والأقوال، وإليه وحده سبحانه تُرَدُّ أمور العباد كلُّهم، فيجازيهم عليها.

٧٧- يأمر الله تعالى المؤمنين بأحكام وتوجيهات كريمة في الآيتين الآتيتين: اركعوا لله في صلاتكم، واسجدوا له وحده فيها، واخضعوا له بطاعته، وافعلوا الخيرات التي أمركم بها؛ لكي تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

٧٨- وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حَقَّ الجهاد، باستفراغ الوسع والطاقة في كل الميادين، من دعوة الخلق، وجهاد النفس، والتعبئة الجادَّة، هو سبحانه اختاركم لدينه ونصرة شرعه، ما

جعل عليكم فيما شرعه من ضيق وشدَّة، فالزمُوا مِلَّة أبيكم إبراهيم السمحة السهلة، هو إبراهيم الذي سَمَّاكم المسلمين من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن - كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٨]- ليشهدَ عليكم رسول الله محمَّد ﷺ بتبليغه الرسالة لكم، وتشهدوا أنتم على الأُمم الأخرى أنَّ رسلهم قد بَلَّغَتْهم، فأقيموا الصلاة بأوقاتها، وأعطوا الزكاة للمستحقِّين، وثِقُوا بالله، وتوكَّلوا عليه في أموركم، هو ناصركم ومُتَوَلِّي أمورِكم، فنِعْمَ الناصر، ونِعْمَ النصير للمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على المشركين بأنَّ آلهتهم لا تملك القدرة على خَلْقِ أصغرِ مخلوقٍ، وهو الذباب، بل إنَّها عاجزة أن تَرُدَّ ما يسلبه الذباب منها، فكلاهما ضعيف.

٢- الإشارة إلى التحدي في خَلْقِ حشرة صغيرة.

٣- الردُّ على مَنْ أنكر أن يكون الرسول من البشر.

٤- الفلاح بالاستجابة لأوامر الله تعالى.

٥- وجوب تعظيم الله تعالى، والاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام.

٦- وجوب الجهاد بجميع أنواعه؛ لإعلاء كلمة الله تعالى.

٧- الإشارة إلى التيسير في الدين، كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٨- قال ابن عاشور في الآية (٧٨): «هذا الإنشاء يتضمن تحقيق حُسْنِ ولاية الله تعالى، وحُسْنِ نصره. وبذلك الاعتبار حَسُنَ تفريعه على الأمر بالاعتصام به. وهذا من براعة الختام، كما هو بَيِّنٌ لذوي الأفهام». (التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٥٤).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير التوحيد، وإقامة البراهين على وحدانية الله تعالى.

٢ - بيانُ أهمّ صفات المؤمنين.

٣- تقرير البعث والحساب بالأدلَّة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

١-٤- يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين بوعده أنَّ لهم الفوزَ بالفردوس الأعلى في الجنَّة، للذين أقَرُّوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، والذين هم في صلاتهم خائفون متذلِّلون لله، وهم عن كل ما لا خير فيه منصرفون، والذين هم محافظون على أداء الزكاة للمستحقين لها.

٥-٧- والذين هم لفروجهم حافظون من الحرام، إلا على أزواجهم أو ما ملكوا من الإماء، فإنَّهم لا إثم عليهم في الاستمتاع بهنَّ، فمَنْ تَمَتَّعَ بغير الأزواج والإماء فأولئك البعيدون عن الحق، هم المتعدُّون حدودَ الله تعالى.

٨-١١- والذين هم يَرْعَون الأمانات ويوفون بالعهود، والذين هم على صلاتهم يُواظبون في أوقاتها وتمام أركانها. أولئك أصحاب المنازل العالية هم الوارثون الجنَّة، الذين يَرِثُون أفضل منازلها، وهم مقيمون فيها على الدَّوام.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، وَرِثَ أهلُ الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾».

(سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٥٣ - كتاب الزهد، باب صفة الجنة برقم ٤٣٤١. قال البوصيري: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين (مصباح الزجاجة٣/ ٣٢٧) وأخرجه الطبري من طريق أبي معاوية به (التفسير١٨/ ٥-٦)، وصحح إسناده ابن حجر (الفتح ١١/ ٤٤٢)، وصحح إسناده الألباني (السلسلة الصحيحة٥/ ٣٤٨ برقم ٢٢٧٩).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسط الجنة وأعلى الجنة».

(صحيح البخاري كتاب: الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله برقم ٢٧٩٠).

الفوائد والاستنباطات:

١- تأكيد الخبر بـ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لإفادة التحقيق.

٢- بيان صفات المؤمنين التي فيها فَلاحُهم.

٣- وجوب الخشوع في الصلاة وأهميّته.

٤- قضاء الشهوة إنما يكون بالحلال، وتحريم تجاوُزِ حدود ذلك.

٥- وجوب أدء الأمانة.

٦- بيان أهمية الصلاة، فيها بدأ ذكر صفات المؤمنين وبها ختم.

٧- الإتيان باسم الموصول﴿ٱلَّذِينَ﴾ عند ذكر كل صفة للإشارة إلى أن كل واحدة منها موجبة للفلاح.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

١٢-١٣- يُفَصِّل الله تعالى أطوار خلق الإنسان، ومقوِّمات الحياة التي سخرها للإنسان من الأنعام والنبات؛ لبيان عظمة قدرته وسعة رحمته، كما في الآيات الإحدى عشرة التالية: قسماً لقد خلقنا آدم من شيء مُسْتَلٍّ من الطين، ثمَّ خلقنا نسل آدم من مَنِيٍّ يقذفه الرجلُ في رَحِمِ زوجته؛ ليستقرَّ المني في هذا الرحم الحصين، ويحصل فيه التلقيح والإخصاب.

١٤- ثمَّ صَيَّرْنا النطفة قطعة دم جامدة لينة، شبيهة باللقمة التي تُمْضَغُ بين الأسنان، ثمَّ صَيَّرْنا قطعة اللحم اللينة عظاماً، ثمَّ كسونا العظام لحماً، بإنبات اللحم حول كل عظم بما يناسبه، ثمَّ صَيَّرْناه جنيناً خلقاً آخر، بنفخ الروح فيه بعد مضي أربعة أشهر في رَحِمِ أُمِّه، فعَظُمَتْ خيرات الله وتقدَّست قدرته وكريم عنايته، الذي أحسن كل شيء خَلَقَه.

١٥-١٦- ثمَّ إنَّكم - أيها البشر - بعد الولادة والحياة التي كَتَبَ أَجَلها سبحانه لميتون، ثمَّ إنَّكم بعد الموت وانقضاء زمن الدنيا تُبعثون يوم القيامة أحياءً من قبوركم للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «لقد ذكر القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان سواء بالنسبة لخلقه الأول متمثلاً بسيدنا آدم ﷺ أو خَلْقِ ذريته من بعده وذلك في آيات كثيرة أوجز في قسم منها وفصل في القسم الآخر في أسلوب بليغ غاية في الإعجاز البياني. وبجمع هذه الآيات تتضح المراحل؛ حيث جاءت الأبحاث العلمية في أصل الإنسان ومراحل خَلْقِه في بطن أُمه متطابقةً مع ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، ونذكر أولاً أوليات خلق الإنسان (علم أصل الإنسان)، وثانياً إلى مراحل نموه في رحم أُمه (علم الجنين)، وإليكم مراحل خلق الإنسان (سيدنا آدم ﷺ):

أ- الماء: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

ب- التراب: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

ج- الطين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢].

د- الطين اللازب: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

هـ- الصلصال الحمأ المسنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

و- الصلصال كالفخار: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ففي الآية الأولى يشير القرآن إلى خلق الإنسان من الماء، ويشير في الثانية إلى التراب، ثم في الثالثة إلى سلالة من طين (الطين هو مزيج من الماء والتراب)، وفي الرابعة إلى الطين اللازب (أي اللزج وهو مزيج التراب والماء حديثاً)، وفي الخامسة من صلصال من حمأ مسنون (وهو الطين اليابس المتعفن المتغير الذي مضت عليه سنون عدة) والسادسة من صلصال كالفخار (وهو الطين المحروق المتحجر) .

ويبين العلم الحديث عناصر الإنسان في تركيبته نحو (٢٢) عنصراً تتوزع على الشكل التالي:

أ- الأوكسجين والهيدروجين على شكل الماء وبنسبة ٦٥-٧٠٪ من وزن الجسم.

ب- الكاربون والأوكسجين والهيدروجين التي تشكل أساس المركبات العضوية مثل السكريات والدهنيات والبروتينات والهرمونات والفيتامينات وغيرها.

ج- العناصر الجافة والتي يمكن تقسيمها إلى:

- سبعة عناصر أساسية والتي تشكل ٦٠-٨٠٪ منها وهي (الكلور والكبريت والفوسفور والكالسيوم والمغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم)
- سبعة عناصر أخرى بنسبة أقل وهي (الحديد والنحاس واليود والمنغنيز والكوبلت والتوتياء والموليبديوم).
- ستة عناصر بشكل زهيد وهي (الفلور والالمنيوم والبورينيوم والسلينيوم والكادميوم والكروم).

وجميع هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، كذلك فإن تركيب الحمض النووي DNA (الذي هو أساس تكوين الإنسان)، والموجود في نواة كل خلية من جسم الإنسان على شكل سلاسل تسمى الكروموسومات (الصبغيات) وتكون مايسمى بالإنسان المصغر (الإنسان الجيني)!.

ويتكون الحمض النووي DNA من سلسلة من وحدات كيمائية تسمى بالنيكلوتيدات، ويتكون كل نيوكلوتيد من ثلاثة مكونات رئيسية:

أ- جزيء سكر خماسي (رايبوز).

ب- فوسفات.

ت- قاعدة نيتروجينية. (بيورينات وبيرمدينات).

وهذه الكيماويات موجودة في الطبيعة، ويمكن استخراج مكوناتها الأساسية من الطين.

فالتراب والماء يحتوي على العديد من المعادن والمكونات التي نجدها في الحمض النووي للإنسان.

٢- رعاية الله تعالى التامَّة للإنسان من أوَّل لحظات تَكَوُّنِه حتى نهاية خلقه.

٣- الدَّلالة على أنَّ القرآن من عند الله، فما ذكر فيه من دقائق خلق الإنسان لم يكتشفها البشر إلا بعد نزول القرآن بعدَّة قرون.

٤- قال ابن عاشور: «من إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العَلَقة، فإنه وَضْعٌ بديع لهذا الاسم؛ إذ قد ثبت في علم التشريح أنَّ هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأُم؛ بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم». (التحرير والتنوير: ١٨/ ٢٠).

٥- نقل الدكتور محمد جميل الحبَّال عن (كيث مور Keith Moore) رئيس قسم علم الأجنة في جامعة تورنتو في كندا، الذي ألَّف كتاباً يعتبر من أهم المراجع الطبية في هذا الاختصاص بعنوان (علم الأجنة السريري وتخليق الإنسان) إذ قال: «إنني أشهد بإعجاز الله في خلق الجنين الذي ذكره الله في القرآن الكريم في كل طور من أطواره، والتي لم تكتشف إلا في الجزء الأخير في القرن العشرين، وأؤكد أنَّ كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه في علم الأجِنَّة». تنقسم مراحل خلق الجنين إلى قسمين رئيسيين هما:

مرحلة (التخليق) وتستغرق ٧-٨ أسابيع (المرحلة الجنينية).

ومرحلة (النشأة) وتستغرق عدة أشهر (المرحلة الحميلية).

وتنقسم مرحلة التخليق كما جاء ذكرها في القرآن الكريم إلى المراحل التالية:

أ- مرحلة النطفة: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهي من التلقيح الى الإنغراس في بطانة الرحم وتستغرق نحو (٧) أيام (الأسبوع الأول) حيث بعد التقاء نطفة الرجل (الحيوان المنوي) مع نطفة المرأة (البويضة) وتتكون البويضة المخصبة (الزايكوت) وأطلق عليها القرآن الكريم (النطفة الأمشاج) أي خليط من ماء الرجل وماء المرأة وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله ﷺ عندما سأله اليهودي من أيِّ شيء يخلق الإنسان فأجابه: (من كل يخلق، من نطفة الرجل ونطفة المرأة) رواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا بحد ذاته إعجاز علمي وسبق قرآني ونبوي. حيث كان الاعتقاد حتى القرن الثامن عشر بأن الجنين موجود بصورة مصغرة وكاملة في البويضة أو في الحيوان المنوي للرجل!! وتتم عملية التلقيح عادة في قناة الرحم (قناة فالوب) حيث تزحف الزايكوت متدحرجة وتقع في بطانة الرحم وتنغرس، ويكون الانغراس عادة

القسم العلوي الخلفي من بطانته ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو وصف دقيق جداً ومعجز لهذا المكان ذكره القرآن الكريم

ب- مرحلة العلقة: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ بعد استقرار النطفة في جدار الرحم بفترة يدخل الجنين في مرحلة العلقة لتعلقه به وتغذيته من دماءه، ويشبه الجنين في هذه المرحلة شكلا بدودة (العلق) وهي دودة تعيش في المياه الآسنة وتمتص الدم إذا شربتها الدابة حيث تتعلق بحلقها وتتغذى على الدم الممتص منها. وهذا تشبيه قرآني دقيق لهذه المرحلة التي يتراوح عمر الجنين فيها مابين بداية الأسبوع الأول وحتى نهاية الأسبوع الثالث.

ج- مرحلة المضغة: في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ حيث إن الجنين في هذه المرحلة يشبه المضغة إذ بعد يومين أو ثلاثة أيام من المرحلة السابقة (العلقة) تظهر فيه انتفاخات وتجاعيد غير منتظمة وتشكل بدايات الكتل البدنية وبراعم أعضائه الداخلية. ولا يمكن أن يوصف الشكل الخارجي إلا بالمضغة التي تعني اللقمة الممضوغة وعليها آثار الأسنان. ويبلغ طول الجنين في هذه المرحلة ما بين (٣-٥ سم) وذلك في الأسبوع الرابع من عمره وتنتهي هذه المرحلة قبيل نهاية الأسبوع السادس حيث تبدأ المرحلة التالية وهي مرحلة العظام.

د- مرحلة العظام: في قوله تعالى:﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ أي: إنَّ العظام تخلق بعد هذه المرحلة فتختفي الانتفاخات وتتحول إلى أعضاء جسمية كالأطراف العليا والسفلى والعمود الفقري وغيرها حيث يتخلق هيكله العظمي الغضروفي بداية الأسبوع السابع.

هـ- مرحلة الإكساء باللحم: في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ حيث إن كلمة اللحم معناها العضلات التي تبدأ مباشرة بعد المرحلة السابقة في إكسائها للعظام وفي ذلك إعجاز قرآني آخر في أن خلق العظام يكون قبل خلق العضلات كما قرره علم الأجنة.

وبعد إكساء العظام باللحم تنتهي مرحلة التخليق وذلك في نهاية الأسبوع السابع من تلقيح البويضة وطوله (١١ سم) وقد اكتمل الجنينُ خَلْقَه، وتَكَوَّنَتْ وخُلِقَتْ جميع أعضائه.

مرحلة النشأة: وهي مرحلة النمو (المرحلة الحميلية) وتستغرق عدة أشهر، وإن ما يحدث بعد اليوم الثاني والأربعين من عمر الجنين هو تصوير و تعديل ونمو مطرد وسريع وتنسيق لأجهزة الجسم بصورة أكمل فيتغير الخلق خلقاً بعد خلق بتنسيق خالق مصور قدير، وهذا هو دور النشأة الذي يأتي بعد دور إكساء العظام باللحم (العضلات) التي يُعَدُّ الحد الفاصل بين المرحلة الجنينية والحميلية! يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. وتستغرق هذه المرحلة عدة أشهر من نهاية الأسبوع

الثامن حيث ينمو الجنين (الحميل) ببطء إلى الأسبوع الثاني عشر ثم ينمو بسرعة كبيرة حتى نهاية الحمل وحصول الولادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١٧- والله لقد خلقنا فوقكم - أيها العباد - سبع سموات بعضها فوق بعض، ولكل سماء طريق وباب يؤدي إلى السماء التي فوقها، كما ورد في حديث الإسراء والمعراج المتفق عليه. وما كنَّا غافلين عن حِفْظِ الخَلْق.

١٨- وأنزلنا من السحاب مطراً بقدر حاجة الخلائق، فأَوْدَعْناه في سطح الأرض في الأنهار والجداول، وتحت الأرض كالعيون. وإنَّا على ذهاب هذا الماء لَقادرون، فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم.

١٩- فأخرَجْنا لكم بهذا الماء حدائق ذات أشجار من نخيل وأعناب، وأصنافٍ من الفواكه الكثيرة التي منها تأكلون، وتنتفعون.

٢٠- وأخرَجْنا لكم بهذا الماء شجرة الزيتون التي تَخْرُجُ حول جبل «طور سيناء»، يُعصر منها الزيت ليُدَّهن به، ويُنتفع به إداماً للآكلين، فهي شجرة مباركة كما صَحَّ عن النبي ﷺ «كُلوا الزيت، وادَّهِنُوا به، فإنَّه من شجرة مباركة». (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٧) وأخرجه الضياء (المختارة ١/ ١٧٢ برقم ٨٣٩٨) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة برقم ٣٧٩).

٢١- وإنَّ لكم - أيها العباد - في الأنعام من الإبل والبقر والغنم والمعز لموعظة تعتبرون بها؛ لمعرفة القدرة الإلهية والرحمة الربَّانية، نسقيكم ممَّا في بطونها لبناً طيباً، ولكم فيها منافعُ في أصوافها وأوبارها وأشعارها من الأثاث والفُرُش، ومنافع من لحومها للأكل الطيب الحلال.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: مخطط رحلة الإسراء والمعراج في الملحق.

٢- بيان آية كونية عظيمة، يُستنبط منها معرفة المداخل والمخارج في السموات السبع.

٣- الإشارة إلى نعمة المياه الجوفية المخزونة.

٤- الإشارة إلى فوائد الأنعام التي جُمِعَ فيها الشراب والطعام والأثاث.

٥- في الآية (١٧) إخبار مستقبليٌّ عن إحاطة الله تعالى بخلقه، وما يعملون في الدنيا.

٦- عظيم نِعَمِ الله على الإنسان، فمن ماء ينزل من السماء إلى نبات ينمو في الأرض.

٧- الإشارة إلى نِعَمِ زيت الزيتون. قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: « عقد في روما مؤتمرٌ عالميٌّ لأول مرة في تأريخ الطب تحت شعار (زيت الزيتون وغذاء البحر المتوسط) بتاريخ ٢١-٤-١٩٩٧م ضم أشهر الأطباء الذين استعرضوا أحدث الأبحاث العلمية في فوائد زيت الزيتون خاصة في بلدان حوض البحر المتوسط، وأكدوا في توصياتهم ما يلي:

أ- إنَّ زيت الزيتون يسهم في الوقاية من أمراض الشرايين القلبية والدماغية وارتفاع ضغط الدم وداء السكر والبدانة وكذلك من الإصابة ببعض السرطانات وذلك من خلال غناه بالأحماض الدهنية غير المشبعة والوحيدة (Monoployunsaturated Fatty Acids) ومضادات الأكسدة (Antioxidants). وهذه المركبات تعمل على التقليل من الدهونات غير الحميدة كالكولستيرول الضار (LDL) وزيادة الدهون الحميدة كالكولستيرول النافع (HDL) وبالتالي تمنع حدوث تصلب الشرايين (Atherosclerosis).

ب- يوفر وقاية جيدة من تصلب الشرايين للأسباب المذكورة أعلاه.

ج- إن زيت الزيتون مادة مغذية ذات تأثير ملين (مضاد للإمساك) ويمكن استعماله كذلك كحقنة شرجية لمعالجة الإمساك الناتج عن الكتل البِرازية أو انفتال الأمعاء. وكذلك يقي من الإصابة بتقرحات المعدة والاثني عشر عن طريق حمايته للغشاء المخاطي لهما، ويقضي على الجرثومة المسببة لهذه التقرحات (هايلوباكتر بايلوري) (H.pylori) والتي لها علاقة أيضاً بالإصابة بسرطان المعدة.

د- يزيد من نشاط وظائف الكبد ويساعد على قدرته في إزالة السُّمِّية (Detoxification) ويمنع تشحم خلاياه لذلك ينفع في علاج الكبد الدهني(Fatty Liver). ويعتبر زيت الزيتون مفرغاً ومنشطاً لصفراء الكبد الذي يخزن في كيس المرارة، وينفع المصابين بالرمال الصفراوية المرارية، ويمنع تكوينها وكذلك يفيد في إفراغ الرمال البولية ويمنع تكوينها أيضاً بنفس الطريقة.

هـ- يحافظ على الخلية العادية ويمنعها من التحول إلى سرطانية.! فقد أكَّدت العديد من الدراسات أنَّه يقي من سرطان الجلد والقولون والرحم والمعدة والمبيض وكذلك سرطان الثدي حيث وجد أن

النساء اللواتي يتناولونه يومياً تقل عندهنَّ الإصابة بسرطان الثدي بنسبة ٤٥٪ مقارنة باللواتي لا يتناولنه بانتظام!

و- يُعَدُّ علاجاً مناسباً لالتهاب المفاصل الروماتزمي والعظمي والإلتواءات والتورمات الجلدية والتشنجات العضلية عن طريق استعماله كدهان موضعي كما يستخدم من قبل الرياضيين لتليين العضلات والمفاصل.

ز- يحافظ على ليونة الجلد ويمنع سقوط الشعر، وهو علاج فَعَّال لقشرة الرأس، ويقتل القمل فيه إذا وضع على فروة الرأس عدَّةَ ساعات وله تأثير عجيب في البشرة وصحة الجلد بشكل عام».

٨- قال ابن عاشور: «التعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كُوِّنَتْ بها تلك الشجرة في أول تكوينها، حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات في طور سيناء». (التحرير والتنوير: ١٨/ ٣١).

٩- في الآية (٢١) إخبار مستقبليٌّ في الاعتبار بالأنعام، وما فيها من الرزق والمنافع.

١٠- ينظر: صورة جبل الطور، كما في الملحق.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٢- وعلى الإبل تركبون في البرِّ، وعلى السفن تركبون أنتم ومتاعكم في البحر.

٢٣- قسماً لقد بعثنا نوحاً عليه السلام إلى قومه يَدْعُوهم إلى عبادة الله تعالى، فناداهم متقرِّباً إليهم بالنسب: يا قومِ اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبود لكم غيره سبحانه، أفلا تخافون عذابه؟

٢٤- فقال الجهلة من أشراف قومه تَكَبُّراً: ليس نوح إلا بشراً مماثلاً لكم، يريد أن تكون له السيادة والنبوَّة. ولو شاء الله إرسال رسول لهداية البشر لأرسل ملائكة، ما سمعنا بهذا الذي دعا إليه نوح من التوحيد في الأُمم الماضية.

٢٥- وما نوح إلا رجل مجنون، فانتظروا حتى يُفيق من جنونه أو يموت.

٢٦- فتضرَّع نوح عليه السلام إلى ربِّه يطلب العون والنصر على قومه المكذِّبين له.

٢٧- فاستجاب الله تعالى لنبيِّه نوح عليه السلام وأمره: أن اصنع السفينة بحِفْظِنا ومَرْأى منَّا، وتعليمنا لك. حتى إذا جاء أمرُنا بإهلاكهم، وفارت عيون الماء من وجه الأرض ومن التنُّور الذي يُخبز فيه - وهو إشارة لنزول العذاب - قلنا: احمِلْ في السفينة من كل أنواع الحيوانات ذكراً وأنثى، واحمِلْ فيها أهل بيتك، إلا مَنْ حكم الله بإهلاكه، ولا تشفع في الذين كفروا؛ إنَّهم هالكون بالغرق.

٢٨-٢٩- فإذا ركبتَ واستقررتَ أنت ومَنْ معك على السفينة، فقل: الحمد لله الذي أنقَذَنا من القوم الكافرين، وقل: يا ربِّ أَنْزِلْني منزلاً من الأرض مباركاً، وأنت خير مَنْ أنزل عباده المنازل المباركة، وقد استجاب الله تعالى له كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

٣٠- إنَّ في ذلك الأمر العظيم في شأن نوح الكريم وقومه اللِّئام، لَعِبَراً ومواعظ للعباد، وإننا كُنَّا حقاً مختبرين عبادَنا بالآيات التي جاء بها المرسلون.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «لما كان السماع المنفي ليس سماعاً بآذانهم لكلام في زمن آبائهم، بل المراد ما بلغ إلينا وقوع مثل هذا في زمن آبائنا، عُدِّي فعل ﴿سَمِعْنَا﴾ في الآية (٢٤) بالباء؛ لتضمينه معنى الاتصال». (التحرير والتنور: ١٨/ ٣٦).

٢- دعوة أوَّل الرُّسل نوح - كدعوة آخرهم محمَّد ﷺ - دعوةٌ إلى توحيد الله.

٣- زعم قوم نوح أنَّ نوحاً لا يصلح للرسالة لأنَّه بشر، كما ادَّعى ذلك العرب في سيدنا محمَّد ﷺ.

٤- على الدُّعاة إلى الله أتباع الأنبياء أن يَتَحَبَّبوا إلى قومهم حال دعوتهم إلى الله، كما فعل نوح عليه السلام.

٥- يلجأ المكذِّبون للرسل عليهم السَّلام إلى اتِّهامهم بتهم متعدِّدة، تَهَرُّباً من مواجهتهم، ومحاولة لصرف الناس عن اتِّباعهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٢- ثمَّ أَوْجَدْنا عاداً قوم هود من بعد إهلاك قوم نوح، فأرسلنا فيهم رسولاً من جنسهم، وهو هود ﷺ، أن اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبود لكم غيره سبحانه، أفلا تخافون عذابه؟!

٣٣-٣٤- وقال الجهلة من أشراف قومه الكفَّار المكذِّبين بالبعث المترفين: ليس هود إلا بشراً مماثلاً لكم يأكل الطعام كما تأكلون، ويشرب كما تشربون. وقسماً إن اتبعتم بشراً مثلكم إنَّكم إذاً لخاسرون بتَرْكِكم آلهتكم.

٣٥-٣٨- ثمَّ أنكروا البعث بعدَّة أساليب في الآيات الأربع التالية: أَيَعِدُكم هود أنَّكم تُبْعَثُون من قبوركم بعد أن تموتوا وتصيروا تراباً وعظاماً مفتَّتة؟ بُعْداً بُعْداً لما توعدون من البعث من القبور. لا حياة نُقِرُّ بها إلا الحياة الدنيا التي نعيشها، يموت بعضنا، ويُولد بعضنا، ولسنا نحن بمبعوثين بعد الموت، ما هو إلا رجل اختلق على الله كذباً، ولن نُصَدِّقَه أبداً.

٣٩-٤٢- فتضرَّع هود ﷺ إلى ربِّه يطلب العون والنصر على قومه، فاستجاب الله تعالى له مؤكِّداً ومبشِّراً: قسماً سيصيرون نادمين على كفرهم بعد زمن قليل، ففاجَأَتْهم صيحة العذاب الشديدة التي زلزلتهم، فدمَّرناهم، وجعلناهم كغُثاء السيل الذي يطفو على الماء، فبُعْداً من الرحمة، ودماراً للقوم المعتدين على المرسلين، ثمَّ أنشَأْنا من بعد هؤلاء أُمماً آخرين، كقوم لوط وشعيب وغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «عُدِّي فِعْلُ ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ بـ(في) دون (إلى)؛ لإفادة أنَّ الرسول كان منهم، ونشأ فيهم؛ لأنَّ القرن لما لم يُعَيَّنْ باسم حتى يعرف أنَّ رسولهم منهم أو وارداً إليهم، مثل لوط لأهل (سدوم)،

ويونس لأهل (نينوَى)، وموسى للقبط. وكان التنبيه على أنَّ رسولهم منهم مقصوداً؛ إتماماً للمماثلة بين حالهم وحال الذين أرسل إليهم محمد ﷺ». (التحرير والتنوير: ١٨/ ٤١).

٢- دعوة الأنبياء واحدة، وهي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

٣- موقف الملأ من دعوات الأنبياء متشابه في القبح والتّكذيب.

٤- التّرف والانغماس في شهوات الدنيا مفسدان للفطرة، ومُبْعَدان عن الحقِّ.

٥- استجابة الله تعالى دعاء المظلومين من عباده، ولاسيّما إن كانوا صالحين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٣- لكلِّ أُمَّةٍ ظالمةٍ زمنُها الذي قرّره الله تعالى لدمارها، لا تَتَقَدَّم عنه، ولا تتأخَّر.

٤٤- ثمَّ أرسلنا رسلنا إلى أُممهم متتابعين، كلّما دعا رسول قومه كذبوه، فأهلكناهم متتابعين، وجعلناهم أخباراً تُروى، ويُتَّعظ بها، فبُعْداً عن رحمة الله، ودماراً لقوم لا يُصَدِّقون بدعوة رسلهم.

٤٥-٤٦- ثمَّ أرسَلْنا موسى وهارون بآياتنا التسع، وحجَّة واضحة إلى فرعون وأعوانه المترفين، فاستكبروا عن التصديق بموسى وهارون، وكانوا قوماً جبَّارين يبطشون بالعباد.

٤٧-٤٨- فأنكر فرعون وأزلامه: أَنُصَدِّقُ برجلَين مثلنا، وقومهما من بني إسرائيل لنا مطيعون طاعة العبيد؟! فكذَّبوا موسى وهارون، فكانوا بسبب ذلك من الـمُهْلَكين بالغرق في البحر.

٤٩- قسماً لقد أعطينا موسى التوراة هدايةً إلى بني إسرائيل.

٥٠- وجَعَلْنا قصَّة عيسى بن مريم وأُمِّه معجزة عظيمة، وأسكَنَّاهما بمكان مرتفع من أرض بيت المقدس، فيها أسباب الاستقرار من جريان المياه، وألوان الثمار.

الفوائد والاستنباطات:

١- كثرة الرسل على مدار التاريخ، فما من أُمَّة إلا خلا فيها نذير.

٢- تشابُهُ حالِ الرُّسل مع أقوامهم، فكلٌ يبلِّغ دعوة الله، فيكون التَّكذيب والعذاب.

٣- لهلاك كلِّ أُمَّة أجلٌ محدَّدٌ، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ولا يَعْلَمُ وقتَه إلا الله تعالى.

٤- الكِبْرُ والغرور من صفات الإنسان المذمومة التي تُؤَدِّي به إلى الكفر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير:

٥١-٥٢- وقلنا: يا أيها الرسل، كُلوا من أنواع الطعام الحلال الطيب، واشكروا الله بالأعمال الصالحة، إنَّني بكل ما تعملون من خير عليم، وإنَّ هذه مِلَّةُ الإسلام مِلَّتُكم واحدة يا معشر الأنبياء، وأنا ربكم، فاتقوني بطاعة أمري.

٥٣-٥٤- فتفرَّقت الأُمم في أمر دينهم فِرَقاً عديدة، فاترك - أيُّها الرسولُ- هؤلاء المشركين في ضلالهم حتى يأتي زمن العذاب أو الموت.

٥٥-٥٦- أيعتقد هؤلاء المشركون أنَّ ما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والأبناء هو زيادة في الخير؟ بل هو استدراج لهم؛ لتتراكَمَ ذنوبُهم، فيتضاعف عذابهم، ولكنَّهم لا يُحِسُّون بذلك.

٥٧-٥٨- يُثني الله تعالى على المؤمنين الذين يسارعون في فعل الخير، ويُبَيِّن أوصافهم: إنَّ الذين هم من خشية ربِّهم جادُّون في طَلَبِ مَرْضاتِه، والذين هم بآيات ربِّهم المنزَّلة في القرآن والآيات الكونية المشاهَدة يُصَدِّقون.

٥٩-٦٢- والذين هم يُخْلِصُون العبادة لله وحده، لا يشركون به غيره، والذين يعطون زكاة أموالهم، ويقيمون الصلاة وهم يخافون ألَّا تقبل منهم، إذا بُعِثوا يوم القيامة إلى الله للحساب. أولئك أصحاب

الدرجات العالية، يبادرون في الأعمال الصالحة، وهم يَسْبِقُون غيرهم إلى تلك الأعمال التي في مقدورهم، لأنّنا لا نُكَلِّف نفساً إلا بمقدار طاقتها، وعندنا صحائف أعمال العباد يَظْهَرُ فيها الحق المطابق لما قَدَّموه من خيرٍ أو شرٍّ، وهم لا يُظْلَمون بنَقْصِ ثوابٍ، أو بعقاب دون أسباب.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله! ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر (أو: يا بنت الصديق) ولكنه الرجل يصوم ويتصدَّق ويصلِّي، وهو يخاف ألَّا يتقبل منه». (أخرجه ابن ماجه في السنن ٢/ ١٤٠٤ - كتاب الزهد - باب التوقي على العمل برقم ٤١٩٨، والترمذي (الجامع الصحيح - التفسير - سورة المؤمنون برقم ٣١٧٥). وأخرجه أحمد (المسند ٦/ ١٥٩). والحاكم (المستدرك ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٤). وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٠٩).

الفوائد والاستنباطات:

١ - الرُّسُل جميعاً وأتباعهم على طريقتهم يُؤَلِّفون أُمَّة واحدة يعبدون الله وحده.

٢ - وجوب تحرِّي الحلال في المطعم والمشرب وسائر الأمور.

٣ - سَعَةُ الرِّزق، وكثرة المال، ليست دليلاً على محبَّة الله ورضاه، إنَّما هي استدراج وابتلاء.

٤ - لا يُكَلِّفُ الله العبادَ فوق ما يطيقون.

٥ - شُمول عِلْمِ الله تعالى لكلِّ صغير وكبير في هذا الكون، ومنها أعمال العباد، فهي مُدَوَّنة ومحفوظة.

٦ - في الآيتين (٥٥-٥٦) إخبار مستقبليٌّ عن خطأ مايعتقده الكفَّار من أنَّ ما يَمُدُّهم الله به من أموال وأولاد في الدنيا هو تعجيل خير لهم يستحقُّونه، وأنَّ الصحيح في سبب تعجيل الخير لهم إنَّما هو فتنة لهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التفسير:

٦٣-٦٥- يُهَدِّدُ اللهُ الكفَّارَ بسبب سوء أعمالهم: إن قلوب الكفار في غفلة وعَمَىً عن هذا القرآن العظيم، ولهم أعمال سيئة - إضافة إلى ما هم عليه من الكفر - هم عاملون بها، سيُعَذَّبون عليها. حتى إذا أخَذْنا المترفين منهم بعذاب الآخرة إذا هم يصيحون للاستغاثة من أهوال النار، فيقال لهم: لا تستغيثوا؛ لأنَّكم من عذابنا لا تُنْقَذون، ولا أحدَ يقدر على أن يُخَلِّصكم منه. وضُمِّن ﴿تُنصَرُونَ﴾ معنى النجاة فعُدِّي الفعل بـ(من)، أي: لا تنجون من عذابنا.

٦٦-٦٧- لا عذرَ لكم؛ قد كانت آيات القرآن تُقرأ عليكم لتؤمنوا بها، فكنتم تَرْتَدُّون على أدباركم من سماعها، مستكبرين على المؤمنين بأنَّكم أهل بيت الله الحرام وخُدَّامه، وتتسامرون بينكم ليلاً بساقط القول في الطَّعْنِ بالقرآن العظيم.

٦٨-٧٠- يُنْكِرُ الله تعالى أفعال هؤلاء المشركين مُوَبِّخاً لهم بعدَّة أساليب: أفلم يتدبَّروا هذا القرآن؛ ليعرفوا ما فيه فيصدِّقوا به؟ أم جاءهم ما لا عهد به لآبائهم الأقدمين، من الرسول والقرآن؟ أم لم يعرفوا صفات رسولهم فهم له منكرون؟ أم يقولون: إنَّ محمَّداً مجنون؟ والحقيقة ليس الأمر كما زعموا، بل جاءهم محمَّد بالحقِّ الذي أوحاه الله تعالى إليه، وأكثرهم لهذا الحق كارهون؛ لأنَّه يُخالِفُ شهواتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- شمول علم الله تعالى لكلِّ صغير وكبير في هذا الكون، ومنها أعمال العباد فهي مدوَّنة ومحفوظة.

٢- كراهة التنعُّم الزائد، والتَّرَفُّه في أمور الدنيا.

٣- كراهة قضاء وقت الليل بحديث اللهو والتَّسلية والفحش من القول، بدل الانتفاع من الوقت وقضائه في طاعة الله.

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٧١- ولو جرت سُنَّةُ الله تعالى على مسايرة ما يقترحه الكفَّار، لفسدت السموات السبع والأرض ومن فيهن، ولكن أعطيناهم القرآن العظيم الذي فيه مجدُهم وعِزُّهم، فهم عنه معرضون مهملون له.

٧٢-٧٤- أم تسألهم أجراً على أداء رسالتك، فبَخِلُوا فلم يؤمنوا؟ فعطاء الله الكريم خير لك أيها الرسول. وهو سبحانه أفضل مَنْ أعطى، وأكرم مَنْ رزق، وإنَّك - أيها الرسول - لَتدعو قومك إلى دين الإسلام، وإنَّ الذين لا يُصَدِّقون بيوم القيامة عن الطريق المستقيم لَمنحرفون.

٧٥- ولو رَحِمْنا هؤلاء المشركين، ورَفَعْنا عنهم ما أصابهم من المصائب، لَتمادَوا تمادياً عظيماً في ضلالهم وهم يتخبَّطون فيه.

٧٦-٧٧- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أُنشِدُك الله والرَّحِمَ، فقد أكلنا العِلْهِز - يعني الوَبَرَ والدم - فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾. (أخرجه ابن حبان في الإحسان ٣/ ٢٤٧ برقم٩٦٧، وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/ ٣٩٤ - كتاب التفسير). وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر (الفتح ٦/ ٥١٠).

التفسير:

وقسماً لقد عَذَّبْناهم بالجوع والقتل يوم بدر، فما خضعوا لله ربِّهم وما دعوه سبحانه، حتى إذا جاءتهم أهوال عذاب الآخرة إذا هم متحَيِّرون، يائسون من كل خير.

الفوائد والاستنباطات:

١- خطُر اتِّباع الهوى، وأنَّه يُفْضي إلى الهلاك والخسران.

٢- على الدَّاعي أن يترفَّع عمَّا في أيدي النَّاس، ويزهد فيه.

٣- العِناد والمكابرة، ورفض الحقِّ، والإصرار على الباطل، من صفات الكافرين.

٤- في الآيتين (٧٤-٧٥) إخبار مستقبليٌّ عن حال مَنْ لا يُصَدِّق بالبعث والحساب بأنَّه سينحرف عن الحق. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر عن تمادي الكفَّار في الجحود، إذا كشف الله تعالى عنهم الابتلاء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٨-٨٠- والله سبحانه هو الذي خلق لكم السمع لتسمعوا، والأبصار لتشاهدوا الآيات الكونية، والعقول لتفقهوا بها، ولكنَّ شكركم لله قليل تجاه هذه النعم العظيمة، وهو الذي خلقكم، وبَثَّكم في الأرض بطريق النسل، ثمَّ إليه سبحانه تُجْمَعُون بعد موتكم للحساب، وهو وحده المتصرِّف في الحياة والموت، وله سبحانه تَعاقُبُ الليل والنهار، أفلا تعقلون اتِّباع الحق؟

٨١-٨٣- إنهم لا يعقلون اتِّباع الحق، بل قالوا مثل ما قال مُنْكرو البعث السابقون لهم، إذ قالوا: أإذا متنا وصِرْنا تراباً وعظاماً بالية نحيا تارة أخرى؟! قسماً مازِلْنا نُوعَدُ نحن وآباؤنا من قبلُ بأنَّ البعث كائن، ما هذا إلا أكاذيب الأقدمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب شكر الله تعالى على نعمه، ومنها: السَّمع، والبصر، والفؤاد.

٢- كثرة الأدلَّة على عظمة الله وقدرته، ومنها: الإحياء والإماتة، واختلاف الليل والنهار.

٣- ذَمُّ المسارعة إلى إلقاء التُّهمة على الآخرين فيما لا يستوعبه الإنسان.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير:

٨٤-٨٥- قل لهم أيُّها الرسول: لِـمَنْ مُلْكُ هذه الأرض ومَنْ فيها؟ إن كان لديكم عِلْمٌ فأخبروني، سيُجيبون معترفين: أنَّها لله. قل لهم: أفلا تعتبرون؟

٨٦-٨٩- قل لهم: مَنْ خالق السموات السبع، ورب العرش الذي هو أعظم المخلوقات؟ سيقولون مُقِرِّين: إنَّه الله. قل لهم: أفلا تخافون عذابه إذا عبدتم غيره؟ مَنْ بيده مُلْكُ كل شيء؟ وهو سبحانه يحمي مَنْ استجار به، ولا يقدر أحد أن يحمي مَنْ أراد الله عذابه، إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك، سيقولون معترفين: إنَّ الله المالك لكلِّ شيء، المجير سبحانه مَنِ استجار به. قل لهم: فأين ذهبت عقولكم، إذ عبدتم مَنْ عَلِمْتُم عجزهم، وأنَّهم لا ملك لهم؟

٩٠-٩٢- ليس الأمر كما يزعمون من إنكار البعث، والقول على الله بغير علم، بل أتيناهم بالحق المتضمِّن للصدق في الأخبار. وإنَّهم لَكاذبون في إنكارهم البعث وفي شركهم، ما اتَّخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر، وليس معه مَنْ يشاركه في العبودية، ولو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق، وغلب القويُّ الضعيفَ. تَنَزَّه الله وتَقَدَّسَ عمَّا يكذبون، هو وحده عالم بكل ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه، فتعاظم الله وتَنَزَّه عن الشريك والولد.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات طريقة في الترقي والتدرّج، فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض ومَنْ فيها؛ لأنَّها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين، ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السموات والعرش، ثم ارتقى إلى ما هو أعمُّ وأشمل، وهو تَصَرُّفه المطلق في الأشياء كلها.

٢- توحيد الرُّبوبيَّة يلزم بتوحيد الألوهيَّة، فالخالق الرَّزاق هو المستحقُّ للعبادة.

٣- استخدام أسلوب السؤال للخصم؛ لإلزامه الحُجَّة من خلال إجابته.

٤- جواز توبيخ المتغافل والمتجاهل عن الحقِّ بما يردعه ويزجره.

٥- استقرار نظام الكون دليل على أنَّ له إلهاً واحداً، فلو كان فيه أكثر من إله لفسد الكون.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

التفسير:

٩٣-٩٥- قل أيُّها الرسول: يا ربِّ إن أَرَدْتَ أن تُرِيَني قبل موتي ما تَعِدُهم من العذاب في الدنيا، ربِّ فلا تُهْلِكْني مع القوم المشركين. وإنَّا لَقادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به.

٩٦- استمِرَّ في دعوتك، وقابلْ إساءة الكفَّار بالصفح والعفو، نحن أعلم بما يَصِفُونك به.

٩٧-٩٨- وقل: يا ربِّ أعتصم بقوَّتك من وساوس الشياطين وإغوائهم، وأستجير بك أن يكونوا معي في أي عمل من الأعمال.

٩٩-١٠١- سيستمرُّ المشركون على ضَلالهم، حتى إذا رأى أحدهم علامات الموت قد أدرَكَتْه نَدِمَ ودعا الله أن يُرْجِعَه إلى الحياة الدنيا؛ لكي يعمل عملاً صالحاً. ثمَّ يأتيه الجواب بالزَّجْرِ: كلَّا لا يكون شيء من ذلك، فإنَّ هذه الكلمة التي فيها الندم المتأخِّر لا تنفع، وبينهم حاجز مانع من العودة إلى الدنيا، ويبقى إلى يوم البعث، ثمَّ الحساب. فإذا نفخ الـمَلَكُ الـمُكَلَّفُ بالقَرْن الذي يُنفخ فيه النفخة الثانية لقيام الساعة فلا تَنْفَعُهم قَرابَةُ النسب، ولا يسأل بعضهم بعضاً لانشغاله بهموم نفسه.

١٠٢-١٠٤ - فمَنْ رَجَحَتْ حسناته على سيئاته، فأولئك أصحاب الدرجات العالية، هم الفائزون بالجنَّة. ومَنْ زادت سيئاته على حسناته، فأولئك الذين ضَيَّعوا أنفسهم بالضلال في نار جهنَّم، ماكثون فيها أبداً، تحرق النار وجوههم، وهم فيها عابسون مُشَوَّهو الوجوه.

قال الشيخ الشنقيطي: «ما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّ الكفار تلفح وجوههم النار، أي: تحرقها إحراقاً شديداً، جاء مُوَضَّحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ [النمل: ٩٠]».

١٠٥ - ويقال لهم توبيخاً وإنكاراً عليهم: ألم تكن آيات القرآن تُقرأ عليكم في الدنيا، فكنتم بها لا تُصَدِّقون؟

١٠٦-١٠٧ - قالوا وهم في نار جهنَّم معترفون: يا ربَّنا كَثُرَتْ معاصينا بسبب أهوائنا، وكنَّا في ذلك ضالِّين عن الهدى، يا ربَّنا أخرِجْنا من عذاب النَّار إلى الدنيا، فإن رَجَعْنا إلى الكفر فإنَّنا ظالمون لأنفسنا.

الفوائد والاستنباطات:

١- العدوُّ الشيطانيُّ لا ينفع معه الإحسان، ولا ينفع معه إلا الاحتماء بالله من شَرِّه.

٢- من سمات التربية القرآنية العناية بهداية المؤمن عبر مراحله كلها والاهتمام بصحة مسلكه في أوله وآخره، ومن دلالات الاستعاذة التربوية حماية المؤمن ابتداء وانتهاء؛ لأن المؤمن محتاج إلى الاعتصام بالربِّ سبحانه، الحافظ له من إغواءات الشيطان ونَزَغاته في البدايات والنهايات، فهو محتاج إلى الله تعالى ليعيذَه من كيد الشيطان عند إرادة العمل، ومحتاج إلى الله تعالى ليُعيذه في أثناء قيامه به، ومحتاج إلى الله تعالى ليُثبِّته عليه ويَخْتم له به.

٣- تمنِّي الإنسان العودة إلى الدنيا عند الموت؛ ليتدارك ما فاته.

٤- في الآيتين (٩٩-١٠٠) إخبار مستقبليٌّ عن حال المشرك الذي ظلَّ على شركه إذا أشرف على الموت، وشاهَدَ ما أُعِدَّ له من العذاب، فإنَّه يقول: ربِّ رُدَّني إلى الدُّنيا لعلِّي أستدرك ما ضَيَّعْتُ من الإيمان والطاعة، فإنَّه ليس له ذلك.

٥- اعتراف أهل النَّار بتقصيرهم وضلالهم لا ينفعهم شيئاً.

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

التفسير:

١٠٨ - فجاءهم الجواب حافلاً بالزجر والتحقير: اسكتوا أذِلَّاء مُهانين، ولا تخاطبوني أبداً.

١٠٩-١١١ - إنَّه كان جماعة من عبادي المؤمنين يقولون: يا ربَّنا صَدَّقنا بك وبرسلك، فاغفر لنا ذنوبنا، وارحمنا فلا تعذِّبنا، وأنت أرحم الراحمين. فكنتم تَسْخَرون منهم دائماً حتى أنساكم الانشغال بالسخرية عن طاعتي وعبادتي، وكنتم منهم تضحكون استهزاءً. إنِّي جزيتهم اليومَ بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء بالفوز بالجنَّة. قال الشيخ الشنقيطي: «قد تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، أنَّ (إن) المكسورة المشددة من حروف التعليل كقولك: عاقَبْتُه إنَّه مسيء، أي: لأجل إساءته. وقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ الآيتين، يدل فيه لفظ «إنَّ» المكسورة المشددة على أنَّ من الأسباب التي أدخَلَتْهم النار هو استهزاؤهم، وسخريتهم من هذا الفريق المؤمن الذي يقول: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فالكفَّار يَسْخرون من ضعفاء المؤمنين في الدنيا، حتى يُنْسِيهم ذلك ذِكْرَ الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار».

١١٢-١١٤ - يخاطبهم الله تعالى على وجه اللوم: كم مكثتم في الحياة الدنيا؟ فأجابوا بذُهول: مكثنا يوماً أو أقل، فاسأل الذين يَحْسِبُون الأيام، قال: ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً، لو كنتم تعلمون ذلك لَعَرَفْتُم حقارة الدنيا.

١١٥-١١٦ - أفظننتم - أيُّها العباد - أنَّما خَلَقْناكم سدىً وباطلاً بلا ثواب ولا عقاب، وأنَّه لا رجوع لكم إلينا للحساب؟ ليس الأمر كما ظننتم، فتَنَزَّه الله الـمَلِكُ الحق عن أن يخلق الخَلْقَ سُدى وهَمَلاً، لا رَبَّ سواه، ربُّ العرش الكريم.

١١٧ - ومَنْ يجعل مع الله إلهاً آخر لا حُجَّة له بذلك - إذ لا معبود بحقٍّ إلا الله - فإنَّما عقابه عند ربِّه يوم القيامة. إنَّه لا يفوز الجاحدون.

١١٨ - وقل أيها الرسول: يا رَبِّ اغفر لي وللمؤمنين، وارحمنا برحمتك الواسعة، وأنت خير الراحمين، فإنَّ رحمتك وسعت كل شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «في حذف متعلَّق ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد مَنْ كانوا من المؤمنين ويجوز أن يكون المعنى: اغفر لي وارحمني، بقرينة المقام. وأَمْرُه بأن يدعو بذلك يتضمن وعداً بالإجابة. وهذا الكلام مُؤْذِنٌ بانتهاء السورة، فهو من براعة المقطع».

(التحرير والتنوير: ١٨/ ١١١).

٢ - حرمة السخرية من المسلم، والاستهزاء به.

٣ - لا حُجَّة للمشرك على شِرْكه؛ ولذا فهو مستحقٌّ للعذاب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان الآداب الاجتماعية السامية لدى المسلمين.

٢ - كمال التدابير الوقائية من الوقوع في الفاحشة.

٣ - براءة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٤ - تعظيم نبينا رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

سبب النزول:

نزلت الآيات العشرة الأولى من هذه السورة في براءة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ممَّا قيل فيها من القول الكُبَّار الذي افتراه رأس النفاق عبد الله بن أُبَيّ بن سلول.

(يُنظر: صحيح البخاري، التفسير، برقم ٤٧٥٠. وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، برقم ٢٧٧٠).

التفسير:

١ - هذه سورة عظيمة الشأن أنزلناها - بما لنا من العظمة - على رسولنا محمَّد ﷺ، وأوجبنا أحكامها، وأنزلنا فيها آيات واضحة في حدودها ومواعظها وأحكامها؛ لتتعظوا بها، وتستنيروا بنورها.

٢ - الزاني والزانية غير المحصَنين، فاضربوا كلَّ واحد منهما مئة جلدة بالسوط، وغَرِّبوه عاماً - كما ثبت في السُنَّة المشرَّفة - عقوبةً على هذه الجريمة. ولا تَحْمِلْكم الرأفة بهما على تعطيل هذا الحكم الربَّاني، إن كنتم تُصَدِّقون بالله واليوم الآخر، ولْيَحْضَرِ العقوبةَ طائفة من المؤمنين - واحد فأكثر - زجراً واعتباراً.

عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: أنَّ رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: اقضِ بيننا بكتاب الله، وقال الآخر - وهو أفقههما-: أجل يا رسول الله، فاقْضِ بيننا بكتاب الله، وأْذَنْ لي أن أتكلم. قال: تكلم، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا - قال مالك: والعسيف الأجير- زنى بامرأته. فأخبروني أنَّ على ابني الرجم، فافتديت منه بمئتي شاة وجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أنَّ ما على ابني جَلْدُ مئة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: أما غنمك وجاريتك فردٌّ عليك، وجَلَدَ ابنه مئةً وغَرَّبه عاماً، وأمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجَمَها. فاعترفت فرجمها». (صحيح البخاري ١١/ ٥٣٢ - كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم٦٦٣٣، ٦٦٣٤. و صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٤-١٣٢٥ برقم ١٦٩٧، ١٦٩٨).

٣- سبب النزول:

عن عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأةٌ بغيٌّ بمكة يُقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أُسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عَناق فأبصرَتْ سواد ظلي بجنب الحائط ، فلما انتهتْ إليَّ عَرَفَتْها، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً هَلُمَّ فبِتْ عندنا الليلة، قال: قلتُ: يا عناق حَرَّم الله الزِّنى، قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجلُ يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظلَّ بولهم على رأسي، وأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه كَبْلَه، فجعلت أحمله ويُعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله أنكحُ عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد عليَّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٣٢٨-٣٢٩ - كتاب التفسير - باب سورة النور - برقم ٣١٧٧). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٣٥٣٨. وأخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٦٦). والخندمة جبل بمكة المكرمة قريب المسجد الحرام).

التفسير:

يُنَفِّرُ الله سبحانه من خطر الزِّنى الذي يُدَنِّس عِرْضَ صاحبه، ويُلَوِّث جسده، فأخبر أنَّ الزاني لا يُتهاون في نكاحه من النساء إلا أنثى زانية، تناسب حالُه حالَها، أو مشركة لا تعترف بحرمة الزنى، والزانية لا

ينكحها إلا زان، أمَّا العفيف فلا يتقدَّم إليها، أو ينكحها مشرك لا يعترف بحرمة الزنى. وحُرِّم ذلك النكاح على المؤمنين، ما لم يَتُبْ الزاني والزانية. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». (أخرجه أبو داود، السنن، النكاح باب قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ برقم٢٠٥٢. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ١٨٠٧).

٤-٥- والذين يَقْذِفُون بالزِّنى النفوس العفيفة من النساء والرجال، ثمَّ لم يُثبتوا جريمة الزنى بأربعة شهود عدول، فاجْلِدُوهم ثمانين جلدةً بالسَّوط، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ما لم يتوبوا إلى الله تعالى، وأولئك البعيدون عن الحقِّ هم الخارجون عن طاعة الله تعالى، إلا الذين تابوا من بعد القذف، وندموا ورجعوا عن التهمة، وأصلحوا أعمالهم وما أفسدوه، فإنَّ الله غفور لذنوبهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيانُ حَدِّ الزانية والزاني البِكْرَيْن الحُرَّين، وهو مئة جلدة وتغريب عام.

٢- بيان حَدِّ الزانية والزاني المحصنين الرجم.

٣- تطبيق الحد الشرعي على مستحقيه بما يَرْدعه ويزجره دونما تنازل بدعوى الرأفة والرحمة؛ فالله تعالى هو العليم بما يُصْلِحُ عباده.

٤- حَدُّ مَنْ ثبت عليه القذف أن يُجلد ثمانين جلدة.

٥- التوبة من القذف لا ترفع الجلد، وترفع ردَّ الشهادة والوصف بالفسق عن القاذف.

٦- تحريم القذف، وهو رمي الإنسان أو سَبُّه بما ليس فيه؛ كمَنْ يقذف امرأة عفيفة، أو رجلاً عفيفاً بالزِّنى.

٧- حماية المرأة من القذف والدفاع عنها بعقوبة القاذف.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

٦-٧- سبب النزول:

عن عبد الله ﷺ قال: إنَّا ليلةَ الجمعة في المسجد. إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أنَّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه، أو قَتَلَ قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ. والله لأسألَنَّ عنه رسول الله

ﷺ. فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله. فقال: لو أنَّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه، أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ. فقال: «اللهم! افتح» وجعل يدعو. فنزلت آية اللعان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ هذه الآيات. فابتُلِي به ذلك الرجل من بين الناس. فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتَلاعَنا. فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنَّه لَـمِنَ الصادقين. ثم لعن الخامسة أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فذهبت لِتَلْعَنَ. فقال لها رسول الله ﷺ: «مَهْ» فأبت فلعنت. فلما أدبرا قال: «لعلها أن تجيء به أسود جعداً»، فجاءت به أسود جعداً. (صحيح مسلم٢/ ١١٣٣ برقم ١٤٩٥ - كتاب اللعان).

التفسير:

والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بتهمة الزنى، وليس لهم شهود على التهمة إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم لرَفْعِ حَدِّ القذف عنه أن يحلف بالله أمام القاضي أربع مرَّات من الأيمان، إنَّه لمن الصادقين فيما رمى به زوجته من الزنى، ثمَّ يَشْهد في الشهادة الخامسة أنَّ لعنة الله تَحُلُّ عليه إن كان من الكاذبين.

٨-٩- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ هلال بن أُمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البيِّنة أو حَدٌّ في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيِّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البيِّنة أو حَدٌّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلْيُنزلنَّ اللهُ ما يُبرئ ظهري من الحَدِّ. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إنَّ الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت؟ فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها مُوجبة. قال ابن عباس: فتلكَّأت ونَكَصَتْ حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلَّج الساقين، فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

(صحيح البخاري ٨/ ٣٠٣-٣٠٤ برقم٤٧٤٧ - كتاب التفسير، سورة النور الآية نفسها، ومعنى: سابغ: عظيم، ومعنى خدلَّج: ممتلئ).

التفسير:

وبهذه الشهادات الخمس تستوجب الزوجة عقوبة الزنى وهي: الرجم حتى الموت. ولكن يدفع عنها هذه العقوبة أن تحلف أربع مرات بالله: إنَّ الزوج من الكاذبين فيما رماها به من الزنى، والشهادة الخامسة أنَّ غضب الله يَحُلُّ عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنى، ثمَّ يُفَرَّق بينهما إلى الأبد.

١٠ - ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته أيها المؤمنون بهذه الأحكام، وأنَّ الله توَّاب لِـمَنْ تاب من عباده، حكيم في شرعه، لَعاجلكم بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير مشروعية اللعان وكيفيته، وأنّه السبيل الأمثل لِـمَنْ رمى زوجته بالزنى.

٢ - إيجاد البديل عن الشهود الأربعة بالشهادات الأربع، إذ من الصعوبة النفسية والواقعية على الزوج أن يأتي بأربعة شهداء يشهدون على زنى زوجته.

٣- قال الشيخ ابن عثيمين: «إنَّ البدل يجعل له حكم المبدل منه، فلمَّا كانت البيِّنة على الزِّنى أربعة شهود، وكان الزَّوج إذا قذف زوجته بالزِّنى يعتبر شاهداً، والتعدد الشخصي في حَقِّه ممتنع، جعل التعدُّد في نفس الشهادة، ويكون هذا تقريراً للقاعدة المشهورة والمعروفة: (أنَّ البدل له حكم المبدل منه)، فلمَّا كانت شهادة الزَّوج على زوجته بالزِّنى بمنزلة شهادة رجل، صار تكرارها بمنزلة تكرار الرجال وتَعَدُّد الشهود». (تفسير القرآن الكريم ٥/ ٢٤٧).

٤ - إفراد الشهادة الخامسة بالذكر؛ لأهميَّتها وحسمها الأمر، ولذا فإنَّ القاضي يُشَدِّد على الزوج أو الزوجة قبلها، ويُذَكِّرُهما بأنَّها موجبة لِلَّعنة على الزوج إنْ كان كاذباً، وموجبة لغضب الله على الزوجة إنْ كانت كاذبة.

٥- تعظيم هذا الأمر، بحيث لا يُكتفى فيه بالشهادة المجرَّدة، بل لابُدَّ من شهادة مقرونة بيمين، فيقول: أشهد بالله.

٦- ثبوتُ الحَدِّ على المرأة بلِعانِ الزَّوج، إلا إذا أنكرَتْ ولاعَنَتْ، يُؤخذ من قوله: ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾، والعذاب هو الحَدُّ.

٧- يؤدي اللِّعان إلى التَّفريق الأبدي بين الزوجين، إذ لا يُتَوَقَّع رجوع أحدهما إلى الآخر بعد هذا الموقف الدقيق، ولا يُنْسَبُ ولد الملاعنة إلى الزوج.

٨- لا تُجيز الشريعة لِـمَنْ وَجَدَ زوجته تزني قَتْلَها، بل يُرْفَع الأمرُ إلى القضاء، فإن اعترفَتْ قُتِلَتْ، وإلا لُوعِن بينهما.

٩- احترام قرار المرأة ومراعاة رأيها، حتى لو كانت خاطئة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

التفسير:

١١ - يُبَرِّئ الله تعالى أُمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من التهمة بالفاحشة التي اختلقها رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ويُطَمْئِنُ قلوب آل أبي بكر: إنَّ الذين جاؤوا بأقبح الكذب الكُبَّار جماعة من المسلمين، وبعضهم يُظْهِرُ الإسلام. لا تظنُّوا هذه التهمة يا آل أبي بكر شرّاً لكم، بل هي خير لكم؛ لِما فيه من الشرف العظيم ببراءة أمِّ المؤمنين عائشة، وفضح الفاسقين، وموعظة للمؤمنين. لكلِّ مَنْ تكلَّم بالإفك جزاءُ فِعْلِه من الذنب. والذي بدأ به واصطنعه رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ، له عذاب شديد الألم في الآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قالت: عبد الله بن سَلُول.

(صحيح البخاري ٨/ ٣٠٦ برقم ٤٧٤٩ - كتاب التفسير، سورة النور. وعبد الله هذا هو ابن أُبي بن سلول).

١٢ - يعتب الله على المؤمنين الذين لم يُنْكِرُوا هذا المنكر الكبير: هَلَّا حين سمعتم هذا الإفك ظننتم خيراً بأمِّ المؤمنين رضي الله عنها، ورَدَعْتُم القائلين به أنَّه كَذِبٌ واضح.

١٣ - هَلَّا جاء الخائضون بهذا الإفك بأربعة شهود على افترائهم، فإذ لم يفعلوا فأولئك البعيدون عن الغَيرة، هم الكاذبون الذين يستحقون حدَّ القذف.

١٤-١٦ - يُعاتب الله المؤمنين الذين خاضوا في حديث الإفك، فيقول: ولولا فَضْلُ الله عليكم ببيان الأحكام، ورحمته لكم في الدنيا، وعدم تعجيل العقوبة، وفي الآخرة بالمغفرة لِـمَنْ تاب، لَنَزَل بكم عذاب عظيم؛ بسبب ذلك الخوض حين تتلقَّفُون خبر الإفك، وتُرَدِّدون فيما بينكم بأفواهكم ما ليس له حقيقة، وتحسبونه ذنباً صغيراً، وهو عند الله من أخطر الجرائم. هَلَّا حين سمعتموه أنكرتم، وصَرَّحْتم بتحريمه، وتَعَجَّبْتُمْ من إفشائه، بذِكْرِ التنزيه لله وتعظيمه؛ بسبب الكَذِبِ الكُبَّار على زوجة رسوله ﷺ.

١٧-١٨- يُحَذِّركم اللهُ، ويُخَوِّفكم أن تعودوا لمثل هذه الجريمة الكبرى أبداً، إن كنتم مُصَدِّقين بالله وبرسوله. ويُوَضِّح الله لكم الآيات الحكيمة ذات الآداب الكريمة. والله عليم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم بأحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- براءة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سموات.

٢- بيان شرور المنافقين وخطرهم على الأُمَّة.

٣- بيانُ القرآن الحُكْمَ الشرعي في مثل هذه الواقعة، وكيف ينبغي للمسلمين أن يتصرَّفوا تجاهها.

٤- وجوب إقامة الدليل على الدَّعوى، والتَّرَوِّي قبل نَقْلِ الأخبار.

٥- التحذير من خَطَرِ الإشاعة وتأثيرِها الكبير في المجتمعات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥) ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

التفسير:

١٩ - لمَّا حَذَّر الله المؤمنين من العَوْدِ إلى مثل ما خاضوا به من الإفك، أعْقَبَ تحذيرهم بالوَعيد على ما عسى أَنْ يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين، فالذين يسعون لانتشار الزِّنى، وترويج الإشاعات في ذلك بين المؤمنين، لهم عقوبة حَدِّ القذف في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذاب النار. والله وحده يعلم الحقائق والخفايا، وأنتم لا تعلمون ذلك.

٢٠- ولولا فَضْلُ الله عليكم - أيُّها المؤمنون - ورحمته بكم، وأنَّ الله ذو رأفة عظيمة، وذو رحمة واسعة، لَعَجَّل العقوبة لكلِّ مَنْ خاض في الإفك، ولكلِّ مَنْ سكت عنهم.

٢١- يُخاطب الله المؤمنين مُحَذِّراً لهم من اتِّباع مسالك الشيطان، ومعصية الرحمن. ومَنْ يَسْلُكْ طرق الشيطان فإنَّه يأمر بالخبائث والجرائم والمعاصي. ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته بكم ما طَهَّر من دنس الخبائث أحداً، ولكنَّ الله تعالى يُطَهِّر مَنْ يشاء بفضله. والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

٢٢- سبب النزول:

ورد في حديث الإفك قول أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مِسطح بن أثاثة؛ لقَرابته منه وفَقْرِه: والله لا أُنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

(متفق عليه كما تقدم في أول تفسير السورة).

التفسير:

يَحُثُّ الله تعالى على مكارم الأخلاق، فينهى المؤمنين من أهل الفضل والسَّعة في المال أن يحلفوا بالله على ترك صلة أقاربهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين في سبيل رضا الله؛ بسبب الإساءة إليهم، حتى ولو كانت الإساءة شديدة. ثمَّ أمر بالعفو عن الذنب وإزالة أثره في النفس، حتى لا يبقى الغِلُّ فيها، ثمَّ نبَّه على ذلك سبحانه بقوله: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم.

٢٣-٢٥- إنَّ الذين يقذفون بالزنى المؤمنات الطاهرات القلوب عن المعاصي، طُرِدوا من رحمة الله في الدنيا، بإقامةِ حَدِّ القذف عليهم، وفي الآخرة بعذاب النار الشديد الألم. وذلك العذاب في يوم القيامة حين تشهد على الإنسان الألسن والأيدي والأرجل، بكلِّ ما ارتكب من الجرائم. وفي هذا اليوم يجازيهم الله على أعمالهم بالعدل، ويعلمون أنَّ الله تعالى هو الحق المُبين الذي لا يظلمهم مثقال ذرَّة.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾. المراد بالدين هنا الجزاء، ويدل على ذلك قوله: ﴿يُوَفِّيهِمُ ﴾؛ لأنَّ التوفية تدل على الجزاء، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]».

٢٦- الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء. والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. أولئك هم البعيدون عن كل شيء خبيث، الأبرياء مَّما يقوله أصحاب الإفك. لهم من ربهم مغفرة لذنوبهم ورزقٌ وافرٌ في الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظيمُ جُرْمِ مَنْ يُشيع الفاحشة بين المؤمنين، ومَنْ يُحِبُّ ذلك.

٢- في الآية (١٩) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة الذين يحبُّون شيوع الفاحشة في المسلمين، بأنَّ لهم في الدُّنيا عقوبة القذف، وغيرها من البلايا الدنيويَّة، ولهم في الآخرة عذاب النَّار، إن لم يتوبوا.

٣- الترغيب في العَفْوِ والصَّفْحِ عَمَّن أساء إذا تاب.

٤- في الآية (٢١) إخبار مستقبليٌّ عن حال مَنْ يسلك طريق الشيطان فإنَّه يأمره بالمنكر. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله بفضله ورحمته بالمؤمنين يُطَهِّر مَنْ يشاء مِنْ دنس ذنوبهم.

٥- في الآية (٢٣) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة الذين يقذفون العفيفات المؤمنات الغافلات اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهنَّ بأنَّهم مطرودون من رحمة الله في الدُّنيا والآخرة.

٦- تشنيع جريمة قذف المحصنات، وفي مقدِّمة ذلك تحريمُ التعرُّض لأُم المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ التي نزلت فيها الآيات، وكذا سائر زوجاته أُمهات المؤمنين.

٧- فَضْلُ أبي بكر الصديق ﷺ وابنته الصِّدِّيقة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعظيمُ منزلتِهما عند الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٧- يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى آداب الاستئذان في دخول البيوت، ويُفَصِّل أحكام النظر في الآيات الخمس الآتية: لا تدخلوا مساكن غير مساكنكم حتى تستأذنوا بالدخول على أهلها، وتُسَلِّمُوا عليهم بقولكم: السلام عليكم، أأدْخُل؟ ذلكم الأدب الرشيد خير لكم من الدخول فجأة من غير استئذان؛ لكي تتعظوا وتَعْملوا بهذا الأدب الكريم.

٢٨- فإن لم تجدوا في بيوت الآخرين أحداً يسمح لكم بالدخول فلا تَدْخُلوها، حتى يُسمح لكم بدخولها. فإن لم يُسمح لكم بالدخول، وطُلِبَ إليكم الرجوع فارجِعُوا، والرجوع أطهر وأكرم. والله بكل ما تعملون عليم، لا يخفى عليه شيء.

٢٩- أمَّا إذا كانت البيوت عامَّة ليست مخصَّصة لسُكْنى أحد، كالرِّباطات والاستراحات العامَّة، ولكم فيها مصالح، فلا إثم عليكم من دخولها. والله يعلم ما تُظْهِرُون وما تُخْفُون في صدوركم.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الاستئذان على كُلِّ مَنْ أراد دخول بيت مسكون، سوى بيته.

٢- ينبغي على كلِّ أحدٍ أن لا يمتعض أو يتأثَّر حين يُعتذر منه عن استقباله في دخول بيت مَنْ يطرق بابه؛ فللناس أحوال خاصة، وللبيوت أسرارُها.

٣- سقوط الاستئذان عند إرادة دخول الأماكن العامَّة؛ كالمحلَّات التجارية، والمدارس، والجامعات، والفنادق، ونحوها.

٤- بيان حُرمة النظر إلى العورات.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٠- يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يُبلِّغ المؤمنين بأمر عظيم يتساهل فيه كثير من الناس، ألا وهو كَفُّ النظر عمَّا لا يَحِلُّ النظر إليه، وأن يصونوا فروجهم باجتناب المحرَّمات. ذلك الأمر العظيم أطهر لهم حسِّياً ومعنوياً. إنَّ الله خبير بما يصنعون من الغَضِّ والحفظ.

٣١- وقل أيضاً للمؤمنات أن يَكْفُفْنَ النظر عمَّا لا يَحِلُّ النظر إليه، ويحفظنَ فروجهنَّ عمَّا حَرَّم الله، ولا يُظْهِرْنَ زينتهن للرجال إلا ما ظهر منها، وهي الثياب الظاهرة، ولْيُلْقِين بأغطية رؤوسهنَّ على وجوههنَّ وفتحات ثيابهنَّ العليا، ولا يُظْهِرْنَ زينتهنَّ الباطنة إلا لأزواجهنَّ. أمَّا الزينة الظاهرة كالكُحل والقِلادة والأقراط والأساور فهي ضوابط حدود الوجه والكَفَّين التي تباح رؤيتها في البيت لآبائهن أو آباء أزواجهنَّ

أو أبنائهنَّ – ويدخل في ذلك أولاد الأبناء وأولاد البنات مهما نزلوا – أو أبناء أزواجهنَّ، أو إخوانهنَّ أو أبناء إخوانهنَّ، أو أبناء أخواتهنَّ، أو النساء المسلمات التابعات لهنَّ بالخدمة، أو ما مَلَكْنَ من العبيد، أو الذين يتبعون غيرهم من الرجال وليس لهم غرض بأمور عورات النساء. وأمَّا زينة الخلخال في القَدَم فلا يُظْهِرْنَها، بل لا يضربنَ بأرجلهنَّ عند مشيهنَّ؛ ليُسْمِعْنَ صوت الخلخال الذي خَفِي تحت الملابس. وتوبوا إلى الله جميعاً – أيها المؤمنون – من مخالفة هذه الأحكام العظيمة؛ لكي تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لِـمَنْ دَخَلَ من الناس عليها.ا.هـ. هكذا تمام كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن كثيراً من العلماء ينقلون عنه الشقَّ الأول، فما نُسِبَ إلى ابن عباس بأنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه والكفان، ليس مطلقاً، وإنَّما هو مُقَيَّدٌ في بيتها لِـمَنْ دخل من الناس عليها. وممَّا يؤكِّد هذا تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]. (التفسير الصحيح٤/ ٣٣٤). أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخَذْنَ أُزُرَهُنَّ فشَقَقْنَها من قِبل الحواشي، فاختمرنَ بها. (صحيح البخاري ٨/ ٣٤٧ برقم ٤٧٥٩ – كتاب التفسير – سورة النور، باب الآية).

٣٢- أُرْدِفَتْ أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يُعِين عليه، ويُعِفُّ المؤمنين والمؤمنات، ويَغُضُّ من أبصارهم. فأمر الله تعالى المؤمنين من الأولياء والأسياد أن يُزَوِّجوا مَنْ لم يتزوَّج من المؤمنين الصالحين القادرين على المهر والنفقة، سواءً كانوا رجالاً ونساءً، أحراراً وعبيداً، ويجب إعانتهم على ذلك. إن يكن الراغب في الزواج فقيراً فلا يمنعكم ذلك من إنكاحه، فإنَّ الله يرزقه ويُغْنِيه من فضله الكبير. والله كثير الخير على خَلْقِه، عليمٌ بمصالحهم.

٣٣- لَمَّا ذُكر وعد الله مَنْ يزوج من العبيد الفقراء بالغنى، وكان من وسائل غناه أن يذهب ليكتسب بعمله، أمر الله السادة بإجابة مَنْ يَبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقاً لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأُمَّة وتوسيع المخرج من الرِّقِّ، فليجتهد بالصيام لطَلَبِ العِفَّة عن المحرَّمات مَنْ لا يتمكَّن من تكاليف الزواج. والذين يريدون أن يتحرَّروا من الرقِّ، عليهم مكاتبة أسيادهم بأن يدفعوا لهم المال على أقساط، فيجب الاستجابة لهم إن عرفتم منهم الأمانة والرشد، وأعينوهم بالمال على دفع تلك الأقساط. ولا تُجْبِرُوا جواريَكم على الزنى إن أردن العِفَّة – أمَّا إذا لم تُرِدِ العفَّة فيجب على سيدها مَنْعُها – فلا يجوز هذا الإكراه

لأجل الحصول على المال وتكثير العيال. ومَنْ يُجْبِرهنَّ على الزنى فإنَّ الله غفور لهنَّ، رحيم بهنَّ، وذنب الجريمة على مَنْ أكرههنَّ.

قال ابن عاشور: «إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول».

(التحرير والتنوير: ١٨/ ١٨١).

عن جابر ﷺ قال: كان عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فأبغينا شيئاً. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ ﴾ لهنَّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. (صحيح مسلم ٤/ ٢٣٢٠ - كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾).

٣٤- قسماً لقد أنزلنا إليك آيات واضحات الأحكام، وضَرَبْنا لكم الأمثال بمَنْ سبقكم من الأُمم الماضية، كما أنزلنا إليك موعظة تُرَقِّق قلوب المتقين.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ غضَّ البصر من أهم الأسباب في حفظ الفروج.

٢- وجوب غَضِّ البصر، وحِفْظِ الفرج، يستوي فيه الرجال والنساء.

٣- قال مكي بن أبي طالب: «ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع، وسماها أبو بكر بن العربي آية الضمائر». (التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧١).

٤- وجوب ستر المرأة زينتها عَمَّنْ لا يَحِلُّ له النظر إليها.

٥- وجوب وَضْعِ المرأة خِمارَها على جيبها؛ لتستر فتحات صدرها وعنقها.

٦- سَتْرُ المرأة لجسَدها على النحو الذي شرعه الله حضارة ومدنيَّة، والبعد عنه هوى وتأخُّر.

٧- بيان المحارم الذين يجوز للمرأة المؤمنة أن تُبْدِيَ زينتَها عندهم بلا حَرَج.

٨- على المرأة اجتنابُ أيِّ حركة أو إشارة تؤدِّي إلى لَفْتِ الرجال إليها.

٩- وجوب الاستعفاف والصبر عند عَدَم القدرة على الزواج؛ حتَّى يُيَسِّرَ اللهُ الأمْرَ.

١٠- لا يَنْبغي أن يكون الفقرُ عائقاً عن الزواج، فالله تعالى يُعين الفقير الباحث عن العفاف بالزواج.

١١- قال ابن عاشور: «دخول الفاء في ﴿فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم، تأكيداً لترتُّبِ الخبر على تحقق مضمون صلة الموصول». (التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٥).

١٢-تقرير مكاتبة المملوك للحصول على حريته، إذا كان له مال يستطيع منه تمويل مكاتبته، مع وجوب إعانته.

١٣ - فظاعةُ إكراه الآخرين على فِعْلٍ ما لا يرغبون فيه، ولاسيما إذا كان الأمر المُكْرَه عليه هو الزِّنى.

١٤ - المكره على فِعْلِ شيء لا يلحقه إثمه.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٥ - الله هادي أهل السموات والأرض، مَثَلُ هَدْي الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين كمَثَلِ كَوَّة فيها مصباح قد اجتمع ضَوْءُه فيها، وهذا المصباح في داخل زجاجة شبيهة بكوكب يشعُّ كالدُّر. ويُوقَدُ هذا المصباح باستمرار من زيت نقي يخرج من شجرة زيتون مباركة ليست شرقية، فلا تحظى بالشمس في آخر النهار، وليست غربية، فتُحرمَ من الشمس في أوّل النهار، فزيتُها أجود نوع، يكاد من صفائه وبريقه يضيء بنفسه من غير نار، فإذا مَسَّتْه النار سطع شعاع نوره، فهو نورٌ على نور؛ إذ اجتمعت عِدَّة أسباب في ذلك النور الساطع، فهو مثل هَدْي الإيمان والقرآن اجتمع في قلب المؤمن، يهدي الله تعالى إلى هذا النور من يشاء من عباده. ويُبَيِّنُ الله الأمثالَ للعباد؛ ليعتبروا. والله بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

٣٦ - هذا النور سَطَعَ شعاعُه في مساجدَ، أمر الله أن تُعَظَّم ببنائها وصيانتها وعمارتها بالمصلِّين، فيُذْكَرُ فيها اسم الله تعالى بالأذان وقراءة القرآن، والأذكار التي تملأ الميزان من التسبيح والتحميد صباحاً ومساءً.

٣٧-٣٨ - يُثني الله تعالى على العُبَّاد والرجال الذين يَعْمُرون المساجد بالأذكار والصلوات، لا تشغلهم أرباح التجارة، ولا صفقات البيوع عن ذكر الله سِرّاً وجهراً، ولا تمنعهم من المحافظةِ على أداء الصلاة بأوقاتها، وإعطاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تضطرب فيه القلوب، بين رجاء الرحمة

وخوف النقمة، وتضطرب الأبصار من رؤية الأهوال، تترقَّب مصيرها، من أجل أن يعطيهم الله أحسن الثواب على عملهم الصالح، ويزيدهم مِنْ نِعَمه. والله تعالى يُعطي مَنْ يشاء من عباده عطاءً واسعاً بغير حساب.

٣٩- لَّما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور:٣٦-٣٨] أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قُرُباتٍ عند الله تعالى، وما هي بمُغْنِيَةٍ عنهم شيئاً على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة، فأعمال الكفار شبه سراب - وهو ما يُرى من لمعان الشمس وقت الظهيرة في الأرض المنبسطة - يَظنُّه العطشان ماءً، حتى إذا جاء موضعه لم يجده ماءً، فالكافر يظنُّ أنَّ عمله الخيري ينفعه، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليه لم يجد له شيئاً. والله سريع الحساب لعباده.

٤٠- أو أنَّ أعمالهم شبه ظلمات متراكمة في بحر عميق، يعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض، وفوق الموج العالي سحب كثيفة تحجب النظر، حتى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فكذلك الكافر يتخَبَّط في الضلال والمعاصي، ومَنْ لم يهده الله للإيمان فما له من هادٍ يهديه.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: بعض بركات شجرة الزيتون من خلال التقارير الطبية عن فوائد زيت الزيتون المذكورة في تفسير سورة المؤمنون الآية (٢٠).

٢- في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الهداية بيد الله ﷻ وحده، يهدي ويُوَفِّق لاتِّباع القرآن مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ عليم بكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيء، فهو عليم بما كان، وبما سيكون، وبما هو عليه كائن.

٣- استحسانُ ضَرْبِ الأمثال؛ لتقريب المعاني.

٤- وجوب تعظيم بيوت الله تشييداً وبناءً وعمارةً بذكر الله.

٥- المؤمن الحق لا يُلهيه عن الصَّلاة وذِكْرِ الله أيُّ أَمْرٍ مَهْمَا عَظُمَ.

٦- عِظَمُ يوم القيامة وأهواله الشديدة.

٧- في الآية (٣٨) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة لمستحقيها، بأنَّ الله ﷻ سيعطيهم ثواب أحسن أعمالهم، وسيزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله وحده هو الرزَّاق، يرزق مَنْ يشاء بغير حساب.

٨- لا ثوابَ للكافر على عَمَلِه الصالح؛ لأنَّه لا يرجو به وجه الله تعالى، ولا يستندُ إلى الإيمان به.

٩- ظاهرة السراب لها صفات منها: أن السراب يحدث في كل الأماكن التي تكون فيها الأرض منبسطة ومستوية، ومنها أنه: لا يحدث إلا بوجود الهواء المتحرك (تيارات الحمل) فتظهر طبقات الهواء متموجة مثل الماء، ومنها أنه كلما اقتربنا من السراب ابتعد عنا، وهنا يكمن سر الإعجاز في الآية القرآنية. (مجلة الإعجاز العلمي: ص٢٩، العدد (٣٦)، جمادى الأولى، ١٤٣١هـ).

١٠- اكتشف العلم التجريبي وجود ظلمات في البحار العميقة، ووجود أمواج داخلية فيها مخالفة للأمواج السطحية، وأن هذه الظلمات متراكبة بعضها فوق بعض حيث تزداد بالتدريج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تماماً. ولقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميقة، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات في البحار العميقة. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص٢٢٧- ٢٢٨).

وقيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس؛ وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار ١١٠٣٤ متراً، بمتوسط يقدر بنحو (٣٧٩٥) متراً، وأشعة الشمس لايمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبداً. (آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن للدكتور زغلول النجار، ص٩٧-١١٢).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٤١ - أُعْقِب تمثيل ضلال أهل الضلالة، وكيف حَرَمهم الله الهدى، بطلب النظر والاعتبار، كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السموات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، فجاء الخطاب للنبي ﷺ: أَلَمْ تعلم عِلْماً يقيناً أنَّ الله تعالى يُسَبِّحُ له على الدوام كلُّ شيء في السموات السبع، والأَرَضين السبع وما بينهما، والطيرُ باسطات أجنحتها في السماء تُسَبِّح لله؟ كل مخلوق قد عَرَفَ كيف يُصَلِّي، وكيف يُسَبِّح؟ والله عليم بأفعال هذه المخلوقات.

٤٢ - ولله سبحانه ملكوت السموات السبع والأَرَضين السبع، وإليه المرجع يوم القيامة.

٤٣ - أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات، بالدَّلالة على خَلْقِ الخصائص في الجماد، بحيث تُسير على السير الذي قَدَّره الله لها سيراً لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين، الذين لهم عقول وحواسٌّ لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى، فجاء الخطاب لكلِّ مَنْ يعقل: أَلَمْ تشاهِدْ أنَّ الله تعالى يسوق السحاب حيث يأمر، ثمَّ يجمعه بعد تَفَرُّقِه، ثمَّ يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض، فترى المطر يخرج من بين السُّحُبِ الكثيفة؟ - وذلك بعد عملية التلقيح التي تتم عند هبوب الرياح - ويُنْزِلُ من السحب التي تُشبه الجبال في ضخامتها وشَكْلِها بَرَداً من الثلج، فيُصيب بهذا البرَدِ مَنْ يشاء من العباد بخيره وشَرِّه، ويمنعه عَمَّنْ يشاء منهم، يكاد ضوء برق السحاب يخطف الأبصار من شدَّة إضاءته.

٤٤ - من عظيم آيات الله الكونية أنّه يُقَلِّب الليل والنهار بتعاقبهما، واختلافهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والبرد والحرِّ. إنَّ في ذلك التقليب العظيم لَدلالةً كبيرة يَتَّعظ ويعتبر بها كل مَنْ له بصيرة.

٤٥ - والله سبحانه خَلَقَ كلَّ ما دَبَّ على وجه الأرض من إنسان وحيوان من ماء: فمِنْ هذه المخلوقات مَنْ يمشي زحفاً على بطنه كالزَّواحف، ومنهم مَنْ يمشي على رِجْلَين كالإنسان، ومنهم مَنْ يمشي على أربع

كالأنعام. والله تعالى يخلق ما يشاء من هذه المخلوقات وغيرها. إنَّ الله تعالى على كلِّ شيء من الأشياء ذو قدرة عظيمة، لا يعجزه شيء.

٤٦ - قسماً لقد أنزلنا علامات واضحات دالات على طريق الحق، والله يرشد مَنْ يشاء بتوفيقه إلى دين الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الاستفهام في بداية الآيتين (٤١، ٤٣) للتعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول، ومع ذلك قد حُرِمُوا الهدى.

٢ - بيانُ الطريقة التي يَتَكَوَّن منها السَّحاب، ويَتَنَزَّلُ منها المطر.

٣ - كُلُّ دوابِّ الأرض مخلوقةٌ من ماء.

٤ - ينظر: صورة البرد الذي يصيب الله تعالى به، كما في الملحق.

٥ - عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البَرَد بالبرق وبيان شدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾. (يُنظر: سنن الله الكونية: الدكتور محمد أحمد الغمراوي، ص ٥٣).

٦ - يشكل الماء العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء، فيكون ما بين ٧١٪ من جسم الإنسان البالغ، و٩٣٪ من جسم الجنين ذي الأشهر المعدودة، ويكون أكثر من ٨٠ ٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠٪ من تركيب أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

وفي البناء المعقد لأجساد الكائنات الحية من الماء شهادة لله تعالى بالقدرة المبدعة في الخلق، وشهادة بقدرته ﷻ على إفناء خلقه وعلى إعادة بعثه. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٣٢٤-٣٤٢).

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٧- يُحَذِّرُ الله تعالى من جرائم المنافقين، ويُثْني على مكارم المؤمنين، ويزعم المنافقون بألسنتهم أنَّهم صَدَّقوا بالله وبالرسول، وأطاعوا أوامرهما، ثمَّ يُعْرِضُ جماعة منهم عن قَبول حُكْمِ رسول الله ﷺ من بعد ذلك العهد العظيم. وما أولئك البعيدون عن الحقِّ بمؤمنين حقّاً.

٤٨-٥٠- وإذا دُعُوا إلى اتِّباع حكم الله ورسوله؛ ليَفْصِلَ بينهم الخصومات، إذا جماعة منهم تستنكف، وتُعْرِضُ عن حضور الحكم في مجلس رسول الله ﷺ، وإن يَكُنِ الحُكْمُ في صالحهم يحضروا مطيعين. ثمَّ جاء الإنكار والتوبيخ متتابعاً؛ بسبب إعراضهم. أفي قلوبهم نفاق، أم شَكُّوا في رسالة النبي محمَّد ﷺ، أم يخافون أن يكون حكم الله ورسوله جائراً؟ الجواب: لا، بل أولئك البعيدون عن الحق، هم الجائرون المعتدون.

٥١-٥٢- إنَّما كان القول الحق للمؤمنين إذا دُعُوا إلى اتِّباع حكم الله ورسوله؛ ليفصلَ في النزاع بينهم، أن يُرَحِّبوا بذلك الحكم الحكيم، ويَصْدَعُوا بقولهم: سمعنا ما تقول، وأطعنا الله والرسول، وأولئك أصحاب المنازل العالية هم الفائزون في سعادة الدنيا والآخرة. ومَنْ يُطِعِ الله تعالى ورسوله ﷺ في الأوامر والنواهي، ويَخْشَ الله في أحكامه، ويَتَّقِ عذابه، فأولئك أصحاب الدرجات الرفيعة، هم الفائزون برضوان الله الكريم.

٥٣- وحَلَفَ المنافقون بالله تعالى بإلحاح شديد، وبذلوا جهداً لزيادة التأكيد: لئن أمرتهم - أيها الرسول - بالجهاد في سبيل الله ليَخْرُجُنَّ معك. فرَدَّ الله عليهم؛ ليفضَحَهم ويُوَبِّخَهم. قل أيها الرسول

لهم: لا تحلفوا، فإنَّ أمْركم مكشوف؛ لأنَّ طاعتكم طاعة معروفة لا تتعدَّى اللسان. إنَّ الله خبير بما تُدَبِّرون.

٥٤- يُبيِّن الله تعالى فضل الطاعة، فيأمر رسوله ﷺ أن يقول للعباد: أَطِيعوا الله بالعمل في أحكامه، وأطيعوا الرسول بالتمسُّك بهَدْيِه. فإن أعرضوا فما على النبي ﷺ إلا ما كُلِّف به من تبليغ الرسالة، وعليكم ما أُمِرْتُم به من الطاعة، وإن تُطيعوا الرسول تهتدوا إلى الحق. وما على الرسول إلا التبليغ الواضح لرسالة ربِّه.

الفوائد والاستنباطات:

١- التنديد بالمنافقين؛ لإعراضهم عن التحاكم إلى الله ورسوله.

٢- التحذير من خداع المنافقين، وتحريم التخَلُّقِ بصفاتهم.

٣- وجوب المسارعة إلى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

٤- الشرع كلَّه - الذي هو دين الإسلام - مستقيم ليس فيه اعوجاج.

٥- بيان صفة انقياد المؤمنين، أنّهم إذا دُعُوا إلى الله ورسوله؛ ليحكمَ بينهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ما يتلكَّؤون، ولا يتردَّدُون.

٦- فائدة الطَّاعة والخشية والتَّقوى، الفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار.

٧- المنافقون يُرَوِّجُون كَذِبَهم بالأيمان المُغَلَّظة، دون مُبالاةٍ، ولا خوف من العقاب.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

٥٥- سبب النزول:

عن أُبي بن كعب ﷺ قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رَمَتْهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنَّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ إلى ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني بالنعمة ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. (أخرجه الحاكم (المستدرك ٢/ ٤٠١ - كتاب التفسير، وصححه ووافقه الذهبي) ، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة ٣/ ٣٥٣ -٣٥٤ برقم (١١٤٥، ١١٤٦). قال محققه فيهما: إسناده حسن. وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨/ ٨٣).

التفسير:

يُبَشِّرُ الله تعالى بالنصر لعباده المؤمنين العاملين بطاعته، إذ وعدهم وعداً مؤكَّداً بأن يجعلهم خلفاء في الأرض، مُتَصَرِّفين فيها تَصَرُّفَ الملوك في ممالكهم، كما استخلف المؤمنين من قبلهم من الأُمم الماضية، وأن يُمَكِّنَ لهم دين الإسلام الذي ارتضاه لهم، ويُبَدِّلَهم أمناً واطمئناناً من بعد خوفهم من أعدائهم، إذا

أخلصوا العبادة لله وحده لا يشركون به شيئاً. ومَنْ جَحَدَ شُكْرَ هذه النعم فأولئك البعيدون عن الحق، الخارجون عن طاعة الله تعالى.

٥٦- وأقيموا - أيها المؤمنون - الصلاة بأركانها وأوقاتها، وأدُّوا الزكاة إلى مستحقيها، وأطيعوا الرسول ﷺ بالتمسُّك بهَدْيِه؛ لكي تَحْظَوا برحمته الواسعة.

٥٧- لا تحسبَنَّ - أيها الرسول - أنَّ الكفَّار يُعْجِزون الله تعالى فلا يقدر على عقابهم، بل هو قادر على تدميرهم، ومصيرُهم في الآخرة إلى النار، وبئس مصيرهم النار.

٥٨- يُعَلِّمُ الله تعالى المؤمنين الآداب الكريمة، والأحكام الحكيمة، في الاستئذان داخل البيت، من أجل المحافظة على سَتْر العورات، فيأمرهم أمراً مؤكَّداً أن يستأذن العبيدُ والإماءُ والأطفال الذين لم يَبْلُغوا سِنَّ الاحتلام عند الدخول عليهم، في ثلاثة أوقات: وقت النوم قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة حين يخلعون ثيابهم للقيلولة، وبعد صلاة العشاء وقت النوم والاستعداد له. وهذه الأوقات الثلاثة يُحتمل فيها ظهور العورات، أمَّا فيما سواها فليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان؛ لأنَّهم خَدَمُكم يَتَرَدَّدون عليكم كثيراً، وبعضكم يطوف على بعض. مثلَ ذلك البيان المتقدِّم يُبَيِّن الله لكم الأحكام الشرعية؛ للتأدُّب بها. والله عليم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٥٩- وإذا بلغ الأطفال الأحرار منكم سِنَّ البلوغ فعَلِّموهم أدب الاستئذان؛ لكي يستأذنوا إذا أرادوا الدخول في كلِّ الأوقات، كما وَجَبَ على الذين بَلَغُوا من قبلهم. مثلَ ذلك البيان يُبَيِّن الله تعالى لكم آياته التشريعية. والله عليم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٦٠- والعجائز من النساء اللواتي قَعَدْنَ عن طلب الزواج، فلا يطمعن في الزواج لكِبَرِ سِنِّهنَّ، فليس عليهنَّ إثمٌ أن يتخَفَّفْنَ بإلقاء الثياب الظاهرة كالجِلْباب والرِّداء الذي يكون فوق الثياب، بشرط ألَّا يُظْهِرْنَ الزينة الخفية كالخلخال. والتستُّرُ بارتداء الحجاب والرِّداء، كما تلبسه الشابَّات من النساء خير لهنَّ وأطهر. والله سميع للأقوال، عليم بالأعمال.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥٥) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة من الله بالنصر للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصَّالحة، إذا استقاموا على طاعته، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، وأن يجعل الإسلام ديناً عزيزاً مكيناً، وأن يُبَدِّل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته.

٢- تَحَقُّقُ وَعْدِ الله تعالى للمؤمنين بالتَّمكين في الأرض.

٣- الإيمان والعمل الصالح سبب لاستمرار الأمن.

٤- الوعيد الشديد لِـمَنْ كَفَرَ نِعَمَ الله تعالى عليه، ولم يَقُم بواجِبِ شُكْرِها.

٥- تمام قدرة الله ﷻ، وأنَّ الكافرين مهما بلغوا من القدرة فليسوا بمعجزين لله.

٦- توجيه الخطاب للمؤمنين، والحكم لغيرهم يدلُّ على أنَّهم مسؤولون عنهم.

٧- عدم دخول الأطفال غير المميِّزين والخدم على أهليهم، قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة، وبعد صلاة العشاء؛ لكون هذه الأوقات أوقات عورة. والمراد بالصغير: الذي يميِّز؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ دليل على أنَّه مميِّز، يؤمر بالاستئذان فيستأذن.

٨- وجوب استئذان الصِّغار والمماليك في ثلاثة أوقات فقط.

٩- قال الشيخ ابن عثيمين: «تحريم النَّظَرِ إلى العورة، سواء كان النَّاظر صغيراً أو كبيراً. وأمَّا تهاون بعض النَّاس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطر؛ لأنَّه لابدَّ أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر، ثمَّ ربَّما يذكره في يوم من الأيام». (تفسير القرآن الكريم ٥/ ٣٩٦).

١٠- قال الشيخ ابن عثيمين: «التبرُّج بالزينةِ حرامٌ على العجائز؛ لقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾، فهذا الشرط إذا تَخَلَّف صار عليهنَّ جناح بذلك». (تفسير القرآن الكريم ٥/ ٤٠٣).

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

٦١- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضُمَنائهم، ويقولون: قد أَحْلَلْنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، وكانوا يقولون: إنَّه لا يحلُّ لنا أن نأكل، إنَّهم أذنوا عن غير طيب أنفسهم، وإنَّما نحن أمناء، فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. (التفسير - سورة النور/ ٦١ - برقم ٨٩٤. وأخرجه الطبري (التفسير ١٨/ ١٢٩) بمثله، وعزاه الهيثمي للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد٧/ ٨٣-٨٤) وحَسَّن إسنادَه محقق ابن أبي حاتم، وصحَّحه الحافظ ابن حجر (مختصر زوائد البزار ٢/ ١١٨).

التفسير:

لا إثم على أصحاب الأعذار - كالأعمى والأعرج والمريض - أن يأكلوا مع الأصحَّاء؛ لأنَّ هؤلاء كانوا يتحرَّجون؛ لئلا يتضايق منهم الأصحاء، وكذلك لا إثم على المؤمنين إذا أكلوا من بيوتهم التي فيها أزواجهم وأولادهم. ولا إثم عليكم - أيها المؤمنون - أن تأكلوا من بيوت أولادكم، أو من بيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت الأعمام والعمَّات والأخوال والخالات، أو البيوت التي لكم التصرُّف فيها بإذن أصحابها كالوكيل والخادم، أو بيوت الأصدقاء الذين عَلِمْتُم رضاهم. ولا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين. فإذا دخلتم أحد هذه البيوت المذكورة فسَلِّمُوا على أهلها - إن كانت مسكونةً - بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن كانت غير مسكونة فالتحية هي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وهذه التحية التي أمر الله بها كثيرة الخير، تطيب بها نفس السامع لها. مثلَ ذلك البيان الواضح يُبَيِّن الله تعالى لكم آيات الأحكام؛ لتفهموها وتعملوا بها، فتستنيروا بهديها.

٦٢- إنَّما المؤمنون الصادقون حقّاً هم الذين أقَرّوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمر جامع للمشاورة في مصلحة الأُمة لم ينصرف أحد منهم حتى يَطْلُبَ الإذنَ من النبي ﷺ. إنَّ الذين يطلبون منك الإذن أولئك هم المؤمنون حقّاً؛ لأنَّهم أطاعوا حكم الله. فإذا طلب أحدهم الإذن منك لبعض شؤونهم وحاجتهم فاسمَحْ بالانصراف لِـمَنْ أرَدْتَ منهم، واطلب لهم المغفرة من الله؛ لِما في الاستئذان من تقديم المصلحة الخاصَّة على المصلحة العامَّة. إنَّ الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

٦٣- يُرْشِدُ الله تعالى المؤمنين لأدب الخطاب مع النبي ﷺ وتوقيره، فينهاهم عند ندائهم للرسول ﷺ أن يقولوا له: يا محمَّد، كما يقول ذلك بعضهم لبعض، بل يجب توقيره واحترامه بنداء: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، بتأدُّب وتواضُع، وكذلك الخروج من مجلسه، فإنَّ من الأدب وجوبَ الاستئذان. إنَّ الله لا يَخْفَى عليه خروج المنافقين من مجلس رسول الله ﷺ خفية دون إذنه، بل يعرفهم. ثمَّ حَذَّر الله تحذيراً مؤكَّداً من مخالفة أحكامه سبحانه؛ لأنَّ المخالفة تؤدِّي إلى العقوبة بنزول المصائب والمِحَنِ في الدنيا، أو يصيبهم عذاب النار الموجع في الآخرة.

٦٤- تَنَبَّهُوا - أيها العباد - أنَّ لله ملكَ ما في السموات السبع والأرَضين السبع، قد أحاط علمه سبحانه بجميع ما أنتم عليه من الإيمان والكفر وغيرهما، ويوم معاد العباد إليه، فيخبرهم إخباراً شاملاً عن أعمالهم الكاملة. والله بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان رحمة الله ﷻ في نفي الحرج عن المذكورين.

٢- قال الشيخ ابن عثيمين: «الأحكام تدور مع عِلَلِها، فإذا وُجدت العلَّة للحكم ثَبَتَ، واذا انتفت انتفى الحكم؛ لأنَّ نَفْيَ الحرج عن هؤلاء لهذه العلَّة التي فيهم، فإذا برئ المريض، واستقام مشي الأعرج، ورَدَّ الله البصر على الأعمى، انتفى الحكم في حقِّهم». (تفسير القرآن الكريم ٥/ ٤١٠).

٣- جواز الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، سواء بإذن أو بغير إذن، إلا إذا عَلِمْنا عدم رضاهم، فإذا علمنا أنَّهم لا يرضون فلا يجوز الأكل من بيوتهم.

٤- مشروعيَّة السَّلام عند الدُّخول إلى البيوت.

٥- فضيلة السَّلام؛ لكون الله تعالى وصفه بأنَّه: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

٦- لا يجوز الانصراف عن عمل جامع إلا بالاستئذان من المسؤول، وللمسؤول أن يأذن لِـمَنْ يستأذنه، أو لا يأذن.

٧- يجب على وليِّ الأمر التيسير على مَنْ تحت يديه، ولكنَّ الاستئذان بدون عذر لا يُغفر.

٨- وجوب احترام النبيِّ ﷺ وتعظيمه، وأنَّه لا يجوز للإنسان أن يُناديَه، كما ينادي غيره من النَّاس؛ لما له من التعظيم والتوقير.

٩- بيان شيء من صفات المنافقين وهي: الجُبْنُ، والاستهانةُ بالنبي ﷺ ومجلسه، واخْتلاقُ الأعذار للاستئذان.

١٠-قال الشيخ ابن عثيمين: «ينبغي تأكيد الأمور الهامَّة، والتنبيهُ عليها، وأنْ تُصَدَّر الأمور الهامَّة بما يؤكِّد وينبِّه عليها؛ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإنَّ عِلْمَنا بذلك، وقرارنا واعتقادنا له، هذا أمر مهمٌّ، ولهذا أُكِّد بـ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾». (تفسير القرآن الكريم ٥/ ٤٢٢).

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تقرير عقيدة البعث.

٢- الردُّ على شبهات المشركين حول القرآن الكريم والرسول ﷺ.

٣- بيان مصير الأُمم المكذِّبة لرسلهم عليهم الصلاة والسلام.

٤- بيان صفة عباد الرحمن.

٥- إعجاز القرآن في الآيات الكونية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) ﴾

التفسير:

١-٢- تَمَجَّدَ وتَقَدَّسَ قَدْرُ الله تعالى، وتكاثر خيره، الذي نَزَّل القرآن فارقاً بين الحقِّ والباطل على عبده محمَّد ﷺ؛ لأجل أن يكون رسولاً للإنس والجنِّ، يُنْذِرُهم من عذاب الجحيم، ويُبَشِّرهم بجنَّات النعيم، الذي له ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، وليس له ولد، وليس معه شريك في ملكوته، وخَلَقَ سبحانه كلَّ شيء من الأشياء، فسَوَّى كلَّ ما خلق، وهَيَّأه لما يَصْلُحُ له، فلا خَلَلَ فيه، ولا تفاوت.

٣- يُوَبِّخُ الله تعالى الكفَّار الذين اتَّخذوا من غير الله أوثاناً لا يَقْدِرون على خَلْقِ شيء، ولا يستطيعون دَفْعَ الضُّرِّ عن أنفسهم، ولا جَلْبَ منفعة لها، ولا قدرة لهم على إماتة أحد ولا إحيائه، ولا بَعْثِه من قبره في الآخرة.

٤-٥- وطَعَنَ الكفَّار في القرآن والنبي ﷺ، فقالوا: ما هذا القرآن إلا كذبٌ اختلقه محمَّد، وأعانه على ذلك طائفة من اليهود، فقد ارتكبوا ظُلماً فظيعاً، وافترَوا زوراً شنيعاً، إذ قالوا في القرآن: إنَّه خُرافات الأُمم السابقة أمَر محمَّدٌ ﷺ أن تُكتب له، فهي تُقرأ عليه صباحاً ومساءً؛ ليحفظها.

٦- فرَدَّ الله تعالى عليهم: قل لهم أيها الرسول: الله الذي أنزل القرآن، ولا يخفى عليه شيء في السموات السبع والأَرَضين السبع. إنَّه كان غفوراً لذنوب عباده التائبين، رحيماً بهم.

٧-٨- وأنكر المشركون رسالة النبي ﷺ فقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد إلى الأسواق لطلب المعيشة؟ فهلَّا أَرسل الله معه مَلَكاً فيكونَ معه مُنْذِراً من عذاب الله، أو يأتيه كنز من السماء، أو يكون له بستان يأكل من ثماره. وقال هؤلاء الظالمون: ما تتبعون إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر.

٩- انظر - أيُّها الرسول - كيف افتروا عليك بالأمثال المختلفة المتضاربة، فضَلُّوا عن طريق الحق، فلا يجدون طريقاً للوصول إلى حُجَّةٍ صحيحة؟

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «الافتتاح بـ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ افتتاح بديع؛ لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب؛ لأنَّ غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة أو مقترنة بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة: لخولة أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ». (التحرير والتنوير: ١٨/ ٧)

٢- مِنْ أسماء القُرآن الفُرْقان؛ لأنَّه يَفْرُق بين الخير والشر، والحق والباطل.

٣- الآلهة المعبودة بالباطل لا تقدر على شيء؛ لأنَّ الأمر كُلَّه بيد الله وحده.

٤- الكافرون يُحارِبون الحق. ومِنْ وسائلهم في ذلك إثارة الشُّبُهات حول رسول الله ﷺ، وحول القرآن.

٥- يُبْطِلُ الله مزاعم الكُفَّار وشُبُهاتهم، ويُعَلِّمُنا الحُجَّة التي نُقيمُها عليهم.

٦- الرسول بَشَرٌ يَأْكُلُ ويشربُ، وينامُ ويتزوَّجُ، واختصَّه الله بالوحي.

٧- تكذيب الكفَّار للرسول ﷺ أوقعهم في الضلال، وأبعدهم عن الهُدى.

٨- الكُفَّار مُعانِدون مُستكبِرون، واقتراحاتُهم تَدُلُّ على سخافة عقولهم.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠ - تَمَجَّدَ وتَقَدَّسَ قَدْرُ الله تعالى، وتكاثر خيره الذي لو شاء جعل لك خيراً ممَّا اقترحوه: جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصوراً فارهة.

١١ - وما كَذَّبوك لأنَّك بشر، بل كذَّبوا بيوم القيامة والحساب، وهَيَّأْنا لِـمَنْ كَذَّب به ناراً شديدة اللهب تُوقد عليهم.

١٢ - يُبيِّنُ الله تعالى سعير نار جهنَّم. إنَّها إذا كانت بَمْرأى الناظرين المُكذِّبين من مكان بعيد سمعوا لها صوتاً في غليانها كصوت المُتَغَيِّظ في تَحَرُّقه، وزفيراً يَدُلُّ على شدَّة الغضب.

١٣-١٤ - وإذا طُرِحُوا في مكان ضيق من النار مقيَّدين بالأغلال نادَوا في ذلك المكان مُلِحِّين بالدعاء على أنفسهم بالهلاك، ويُقال لهم: لا تَدْعُوا اليوم بالهلاك مرَّة واحدةً، بل ادْعُوا مرَّات ومرات، فلن ينفعكم دعاؤكم.

١٥-١٦ - قل لهم أيها الرسول - على سبيل التهكُّم والتقريع -: أذلك الأمر الخطير من عذاب السعير خير أم جنَّةُ الخلد الدائمة بالخير الكثير، التي وعدها الله للمتَّقين، كانت لهم في وعد الله جزاءً كريماً

ومرجعاً طيِّباً؟ لهم فيها ما يتمنَّون من النِّعم على الدوام، كان دخول هؤلاء لها وعداً حقّاً من ربِّك يطلبه المتَّقون. والله لا يخلف الميعاد.

١٧ – ويوم القيامةِ يَحْشُرُ الله تعالى المشركين وآلهتهم المعبودة من دونه، كالمسيح وعُزَير وغيرهما، فيقول الله للمعبودين: أَأَنْتُم أضللتم هؤلاء المشركين، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم؟

١٨ – أجاب المعبودون مُسَبِّحين ومُعَظِّمين الله تعالى: ما يحقُّ لنا ولا لأحد من الخلق أن يَعْبُدَ غيرك، ولا أن يُشرك معك سواك، ولكن مَتَّعْتهم في الحياة الدنيا بنعمك الكريمة، فانشغلوا بها وبمَلَذَّاتها، حتى تَرَكُوا ذِكْرك وشكرك، وكانوا قوماً هالكين.

١٩ – ثمَّ خاطب الله المُشركين بأنَّ هؤلاء المعبودين تبرَّؤوا من فِعْلِكم، وكَذَّبوكم في قولكم: إنَّهم آلهة، فما تَقْدِرُون دَفْعاً للعذاب عنكم، ولا عوناً لأنفسكم من هذا العقاب. ومَنْ يشرك بالله فقد ظلم نفسه، واستحقَّ إدخالَه نار جهنَّم الشديدة الألم.

٢٠– وما أرسلنا قبلك – أيها الرسول – أحداً من الرسل إلا كانوا من البشر، يأكلون الطعام كما تأكل، ويتردَّدون في الأسواق؛ لكسب العيش، وجعلنا بعضكم لبعض ابتلاءً، فابتلَينا الفقير بالغني، والغني بالفقير؛ لنختبر صبركم: أتشكرون أم تكفرون؟ وكان ربُّك بصيراً بالشاكرين والكافرين.

الفوائد والاستنباطات:

١ – ابتُدئت السورة بتعظيم الله لذاته وثنائه على نفسه الكريمة أن أنزل الفرقان على رسوله ﷺ، وأعقب ذلك بما تَلَقَّى به المشركون هذه المزية من الجحود والإنكار الناشئ عن تمسُّكهم بما اتخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به بما هو كفران للنعمة ومَنْ جاء بها.

٢– تكذيب الكُفَّار بيوم القيامة يَقُودُهم إلى مزيدٍ من الكُفْر والفساد.

٣– يُدْخِلُ الله المؤمنين الجنَّة برحمته، جزاءً لهم على حُسْنِ طاعتهم في الدُّنيا.

٤– كُلُّ مَنْ اعتمد على غير الله فهو خاسر، ومَنْ عَبَدَ غير الله فهو هالك.

٥– الانشغال بالمتاع والشهوات يُؤدِّي إلى تَرْك الحق، والتقصير بالواجبات.

٦– جَعَلَ الله التفاوت والاختلاف بين الناس فتنةً واختباراً لهم.

٧– في الآية (٢٠) إخبار مستقبليٌّ عن الحكمة في جَعْلِ الله بعض النَّاس لبعض ابتلاءً واختباراً؛ لبيان الصابرين منهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢١- وقال الذين لا ينتظرون لقاء الله يوم القيامة ولا يوقنون به: هَلَّا نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمَّد، أو نرى الله رَأْيَ العين. قسماً لقد استكبروا في أنفسهم على دعوة النبي ﷺ وتجبَّروا تجبُّراً كبيراً.

٢٢- يوم يرون الملائكة عند الموت، ويوم القيامة لن يكون للمجرمين بشارة تَسُرُّهم، بل تُبَلِّغهم الملائكة بحرمة دخولهم الجنَّة.

٢٣- وقَدِمْنا إلى أعمال الكفَّار التي يعتقدونها بِرّاً، فجعلناها باطلاً لا تنفعهم، كالغبار المُنتشر في الجوِّ.

٢٤- أهل الجنَّة يوم القيامة أفضل منزلاً فيها، وأحسن مأوى للراحة والقيلولة.

٢٥- ويوم القيامة تتشقَّقُ السماء تَشَقُّقاً عظيماً، وتظهر السحب من خلال شقوقها، وتنزل الملائكة بحشود تلو حشود.

٢٦-٢٩- الملك الثابت كلُّه يوم القيامة لله وحده، وكان ذلك اليوم على الكفَّار شاقّاً ثقيلاً بأهواله، وطول زمنه. وفيه يَعَضُّ كل ظالم على يديه ندماً وتحسُّراً قائلاً: يا ليتني اتَّبَعْتُ الرسول على الهدى، يا حسرتي ويا هلاكي، ليتني لم أَتَّخِذْ فلاناً الكافر صاحباً. قسماً لقد أبعدني عن القرآن بعد مجيء مَنْ هداني إليه، وكان الشيطان من الإنس والجنِّ شديد الخِذْلان للإنسان فلا ينصره بل يُسْلِمُه إلى العقاب ويتبرأ منه.

الفوائد والاستنباطات:

١- عِنادُ الكفَّار واستكبارُهم قادَهُم إلى العُتُوِّ والظُّلْمِ والفَسادِ.

٢- أعمالُ الكُفَّار التي ظاهرها البرُّ والإحسان ضائعةٌ لا تنفعُهم، ولا تُقْبَلُ منهم؛ بسبب كُفْرِهم.

٣- على المسلم أن يُحْسِنَ اختيارَ رفيقِه، وألَّا يُصادِقَ سيِّئاً؛ لِئلا يُضِلَّه.

٤- المسلمُ يحْذَرُ الشيطانَ، ولا يستجيبُ لوَساوِسِه لأنَّه خذول لا يدفع عنه عذاباً ولا يُرجى منه نصرة.

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٠-٣١- وقال رسول الله محمَّد ﷺ يَبُثُّ شكواه إلى الله تعالى: يا ربِّ إنَّ قومي كَذَّبوا هذا القرآن وتركوه. وكما جعلنا لك - أيها الرسول - عَدُوّاً من الكفَّار جَعَلْنا لكلِّ نبي قبلك عَدُوّاً من الكفَّار. وكفى بربِّك هادياً إلى الحقِّ، وناصراً لك على أعدائك.

٣٢- وقال الكفَّار المُعاندون: هلَّا أنزل الله القرآن على محمَّد دفعة واحدة. فردَّ الله تعالى عليهم: كذلك أنزلناه مفرَّقاً؛ لنقوِّيَ به قلبك، ونُيَسِّر لك حِفْظَه وقرآنه وبيانه بتمهُّل وتثبُّت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فصل القرآن من الذكر فوُضِع في بيت العِزَّة في السماء الدنيا، فجَعَلَ جبريل عليه السلام يُنزله على النبي ﷺ، ويُرَتِّله ترتيلاً. (أخرجه الحاكم (المستدرك ٢/ ٢٢٣ - كتاب التفسير، وصححه ووافقه الذهبي) وصحح نحوه الحافظ ابن حجر كما تقدم في سورة الإسراء الآية (١٠٦).

٣٣-٣٤- ولا يأتيك المشركون - أيها الرسول - بحجَّةٍ أو شبهة لإبطال دعوتك إلا أتيناك بالجواب الحكيم الثابت الذي لا شيء أثبت منه، وأحسن بياناً وتوضيحاً له. وهؤلاء الكفَّار في وقت الحشر يمشون على وجوههم إلى نار جهنَّم. أولئك البعداء عن رحمة الله شَرُّ العبادِ منزلةً، وأبعَدُهم عن اتِّباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- يحرِصُ المسلم على عدمِ هجرِ القرآن، فيُكثِرُ من تلاوَتِه وتَدَبُّرِه، ويعمل به.

٢- من عنادِ الكفَّار كَثْرةُ اعتراضاتِهم على القرآن.

٣- الحُجَّةُ القرآنيةُ قويَّةٌ بالغةٌ تُبْطِلُ شبهةَ الباطلِ وتَدْحَضُها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٥-٣٦- قسماً لقد أعطينا موسى عليه السلام التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون عليه السلام مُعيناً، فأمرناهما أن يذهبا إلى فرعون وقومه الذين كَذَّبوا بآياتنا التسع وغيرها، فأهلكناهم إهلاكاً شديداً.

٣٧- وقوم نوح عليه السلام لَمَّا كَذَّبوا الرسل بتكذيب نبيهم أغرقناهم بالطوفان، وجعلنا خبرهم موعظة للعباد، وأعددنا للكافرين عذاباً موجعاً.

٣٨-٣٩- ودَمَّرْنا قوم عاد بريح عاتية، وقوم ثمود بالصيحة، وأصحاب الرَّسِّ وأُمماً كثيرة بين هؤلاء الأُمم. وكلَّ هؤلاء قد بَيَّنَّا هم الحقَّ بالحُجَجِ الواضحة فكَذَّبوا، فدمَّرْناهم تدميراً شديداً.

٤٠- وقسماً لقد مَرَّت قريش في أثناء تجارتهم على بلدة سدوم التي أهلك الله أهلها من قوم لوط بحجارة من سِجِّيل، فجعل عاليها سافلها، كما جاء صريحاً في سورة الحجر (الآية ٧٤)، فعجباً من عِنادهم، أفلم يكونوا يرون ما حَلَّ بها فيعتبروا؟ بل كانوا كفرةً مُنْكِرين البعث.

٤١-٤٢- وإذا رآك المشركون - أيُّها الرسول - سخروا منك قائلين باستصغار: هل هذا الذي بعثه الله رسولاً إلينا؟! إنَّه كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا بقُوَّةِ حُجَّتِه، وعظمة معجزاته، لولا ثَباتُنا على تلك العبادة. وسوف يعلمون عِلْمَ اليقين حين يُشاهِدُون العذاب مَنْ هو أبعد طريقاً عن الحق، هم أَمْ المؤمنون؟

٤٣- انظر - أيها النبيُّ - وتَعَجَّبْ مِنَ الذي أطاع هواه كطاعة الله عز وجل، أفأنت تكون حفيظاً عليه من اتِّباع الهوى؟

٤٤- هل تحسب أنَّ أكثر الكفَّار يسمعون ما ينفعهم، أو يعقلون اتِّباع الحق؟ ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل، بل هم أضلُّ من البهائم طريقاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- كلُّ مُتكبِّر معاند يستهزئُ بصاحبِ الحقِّ، ويُوَجِّهُ له الاتِّهامات.

٢- لمْ يُهلِكِ اللهُ قوماً من الكافرينَ إلا بعد إقامةِ الحجةِ عليهم.

٣- يَضرِبُ اللهُ الأمثالَ لبيانِ الحقِّ والباطلِ، وتفقيهِ النَّاسِ بهما.

٤- مُشاهدةُ آثارِ المعذَّبينَ تُحقِّقُ العبرة والعظة.

٥- كفران الآخرة يؤدِّي إلى قسوةِ القلبِ وعَدَمِ الاتِّعاظ.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦- ألم تنظر إلى بديع صنع الله تعالى كيف بسط الظِّلَّ في النهار؟ ولو أراد الله لجعله ثابتاً دائماً لا يزول، ثمَّ جَعَلْنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل، وكلَّما ارتفعت الشمس تَقَلَّص الظل شيئاً فشيئاً.

٤٧-٤٩- واللهُ سبحانه هو الذي جعل لكم الليل كاللِّباس يَسْتُرُكم بظلامه، وجعل النوم راحة لأبدانكم، وجعل النهار وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم. وهو سبحانه الذي أرسل لكم الرياحُ مُبَشِّرةً بنزول المطر، رحمةً منه سبحانه، وأنزلنا من السحاب ماءً طاهراً مُطَهِّراً؛ لنُحْيِيَ به أرضاً ميتة لا زَرْعَ فيها، وليشرب منه الحيوان والإنسان.

٥٠- وقسماً لقد وَزَّعْنا الأمطار بين الناس؛ ليعتبروا بإحياء الله الأرض الميتة أنَّه سبحانه قادر على إحياء الموتى، وليشكروه على نِعَمِه، فأبى أكثر الناس إلا جُحودَ النِّعَم.

٥١-٥٢- ولو أردنا لأرسلنا إلى كلِّ بلدة نبيّاً يُنذرهم، ولكن أرسلناك - أيها الرسول - إلى الناس جميعاً بهذا القرآن العظيم، فلا تُطِعِ الكفَّار في أيِّ أمر يخالف رسالتك، وجاهِدْهم بالقرآن الكريم جهاداً بالغاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَأَمُّلُ حركةِ الظلِّ اللطيفة يُقوِّي الإيمان بالله تعالى ويزيدُه.

٢- أوضحت نتائج الدراسات: وجود علاقة عكسية بين زاوية ارتفاع الشمس وطول الظل (مد الظل) في كل مناطق العالم بلا استثناء وعلى مدار الساعة واليوم والسنة، ووجه الإعجاز يتجلى في ذكر هذه العلاقة الثابتة. وأثبت العلماء أن طول الظل يختلف تبعاً لزاوية سقوط الشمس، فإذا كانت الشمس عمودية على رأس الشخص فإن الظل يلبس الجسم، ولا يظهر له ظل، ويمكن رؤية ذلك بوضوح عند خط الاستواء في ٢١ مارس و٢٢ سبتمبر، إذ تكون الشمس عمودية على رأس الشخص، فلا يظهر له أي ظل، ويكون ذلك وقت الظهيرة، أما إذا كان الشخص على أي خط عرض آخر فإن ظل الظهيرة يكون له قيمة، وهذا يعني أن الظل الساكن حقيقة علمية أشار إليها القرآن. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال، بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ١٣، ٣٤).

٣- بيانُ عَظَمَةِ الله تعالى في مخلوقاته المرئية.

٤- المؤمن يشكر الله على نعمة النوم، ونعمة الاستيقاظ والسعي، فهو شاكرٌ ليلاً ونهاراً.

٥- القرآنُ كتابُ جهاد، والمؤمنُ يجاهد به الكفار تنفيذاً لأمرِ الله بما فيه من الحجج والبراهين والبيِّنات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

التفسير:

٥٣- وهو سبحانه أجرى البحرين مُلْتَقِيَيْن، أحدهما شديد العذوبة، والآخر شديد الملوحة، وجعلنا بينهما حاجزاً يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، كلٌّ له مَسارُه، ويكون الماء العذب فوق الماء المالح.

٥٤- وهو سبحانه خَلَقَ من الماء آدمَ بخَلْطةٍ من الطين، وخلق نَسْلَه من مَنيٍّ الرجل وماء المرأة، فجعل هذا النسل ذا نسب: أبوَّةً وبنوَّةً وأُخوَّةً، ومصاهرةً بقرابة الزوج. وكان ربُّك ذا قدرة عظيمة على خَلْق ما يشاء من الخلق.

٥٥- ويعبد الكفَّار من غير الله سبحانه الأوثان التي لا تنفعهم إذا عبدوها، ولا تَضُرُّهم إذا تركوها، وكان الكافر مُعِيناً للشيطان على معصية الرحمن.

٥٦-٥٧- وما أرسلناك - أيّها الرسول - إلا مُبَشِّراً المؤمنين بالجنَّة، ومُنْذِراً الكافرين بالنار، وقل للكفَّار: ما أطلبُ منكم أجراً على تبليغ الرسالة، لكن مَنْ أراد أن يهتدي ويسلك طريق الحقِّ فلْيَفعلْ.

٥٨-٥٩- واعتمِدْ في أمرك على الله الحيِّ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة والذي لا يموت، ونَزِّهه عن كل نقص، وقَدِّسه حامداً نِعَمَه. وكفى بالله خبيراً بجميع ذنوب عباده، الذي أنشأ السموات السبع والأرَضين السبع وما بينهما في ستَّة أيام، ثمّ ارتفع سبحانه على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ارتفاعاً يليق بجلاله وعظمته، هو الرحمن بعباده. واستعلم عمَّنْ هو خبير عالم بكلِّ شيء. فهو الذي يعلم صفاته اللائقة به. ولا أحدَ أعلمُ من البشر من رسوله محمَّد ﷺ.

٦٠- وإذا قيل للكفَّار: اعبدوا الرحمن، واخضعوا له بالسجود، رَدُّوا مُنْكِرين: وما الرحمن؟ هل نسجد طاعةً لأمرك؟ وزادهم ذلك بُعْداً ونفوراً كنفور الحمير من الأسد.

٦١-٦٢- تَمَجَّدَ وتَقَدَّسَ قَدْرُ الله تعالى، وتكاثَرَ خيرُه، الذي جعل في السماء الدنيا الكواكب العظيمة بمداراتها، ومنها جعل الشمس سراجاً مُضيئاً، والقمر مُنيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار مُتعاقبين، يخلف أحدهما الآخر، لِـمَنْ أراد أن يعتبر بهاتين الآيتين العظيمتين، ولِـمَنْ أراد أن يشكر الله تعالى على هذه النعم التي لا تنفكُّ عن البشر.

الفوائد والاستنباطات:

١- أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعدئذٍ أن البحار الملحة متنوعة. كما أقاموا محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضوا وقتاً طويلاً في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، والتي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام. تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبُّعِ حركة الكتل المائية المتنوعة. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٤٤- ٢٤٥). واكتشفت بعثة ألمانية جاءت لتدرس مياه باب المندب عام ١٩٦٢ أنَّ هناك حاجزاً من المياه تختلف خصائصه عن خصائص البحر الأحمر وخصائص المحيط الهندي. وفي عام ١٩٨٢ جاءت بعثة علمية أمريكية إلى جامعة الملك عبد العزيز في السعودية، فذَكَرَتْ أن هذا الحاجز قد صُوِّرَ من سفن الفضاء الأمريكية، وظهر أنه يتحرك بالمد والجزر والرياح، أي: إنه (يُمْرَج)، وعمقه في البحر يقارب ألف متر تقريباً. وكذلك تم تصوير البرزخ الفاصل بين مياه النهر ومياه البحر الذي يصب فيه. (أسرار الكون في القرآن، ٣١٢).

٢- كُلُّ مَنْ عَبَدَ غيرَ الله أو تَوَكَّل عليه فهو خاسِر.

٣- عزَّةُ المؤمن في سجوده لله وإحسان عبادته له، فيسارع إلى ذلك بهمَّة ونشاط.

٤- يَتَذَكَّرُ المؤمن مِنْ تعاقُبِ الليل والنهار العبادات والطاعات، فيبقى ذاكراً لله في الليل والنهار.

٥- توصل علماء الفلك الحديث إلى التفرقة بين النجم والكوكب بعد اكتشاف المناظير وإجراء الدراسات الفوتومترية الضوئية والطيفية على النجوم والكواكب خلال القرون القليلة الماضية. فالنجم: ما هو إلا جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتياً. بينما الكوكب: جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب (الأقمار). فالشمس تُعَدُّ مفاعلاً نووياً عملاقاً يسبح في الفضاء بسرعة كبيرة وله ضوء وطاقة وحرارة ذات أشكال شتى ومتغيرة في كمها وكيفها. وهي ليست قرصاً مضيئاً ثابتاً. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبدالعزيز المصلح : ص١٧٥).

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

التفسير:

٦٣-٦٤- يُبيِّنُ الله تعالى صفات عباده الصالحين، ويمدحهم كما في الآيات الأربع عشرة الآتية: فمِنْ صفاتهم أنّهم يمشون على الأرض بسكينة وتواضع، وإذا أساء لهم الفسقة خاطبوهم خطاباً يَسْلَمُون فيه من الإثم؛ لما فيه من الحِلْم، والذين يقومون الليل بالصلاة ساجدين قائمين لله تعالى.

٦٥-٦٧- والذين يَدْعُون ربّهم أن يصرف عنهم عذاب نار جهنَّم، الذي سيُعَذَّب فيه الكفَّار عذاباً دائماً. إنَّ جنَّهم بِئْسَ المكان والإقامة. والذين إذا أنفقوا من أموالهم لشراء الطعام والشراب واللباس لم يُبَذِّروا ولم يبخلوا، وكان إنفاقهم وسطاً.

٦٨-٧٠- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك قَتَلُوا فأكثروا، وزَنَوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو لَحَسَنٌ. ولو تخبرنا أنَّ لِما عملنا كفَّارة! فنزل: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾**، ونزل:** ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، ١/ ١١٣، برقم ١٩٣).

قال ابن أبزى: سُئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ حتى بلغ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ فسألته فقال: لما نزلَتْ قال أهل مكة: فقد عدلنا بالله، وقتلنا النفس التي حَرَّم الله إلا بالحق، وأتينا الفواحش. فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٣٥٣، برقم ٤٧٦٥ - كتاب التفسير - سورة الفرقان، الآية)

التفسير:

والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون عَمْداً النفسَ التي حَرَّم اللهُ قَتْلَها إلا بحقٍّ - ويكون قَتْل النفس بالحق بسبب الرِّدَّة بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، وقَتْلِ النفس بغير نفس - ولا يرتكبون جريمة الزنى. ومَنْ يقع في هذه الجريمة يلقَ يوم القيامة عقاباً شديداً مُضاعفاً يبقى فيه دائماً ذليلاً، إلا مَنْ تاب عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها، وندم على ما مضى، وعزم ألَّا يعود، وعمل الأعمال الصالحة، فأولئك عَلَتْ منزلتهم، ويمحو الله عنهم سيئاتهم، ويُثَبِّت مكانها حسنات. وكان الله غفوراً لِـمَنْ تاب من عباده، رحيماً بهم. عن زيد بن ثابت ﷺ في قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ٩٣] قال: نزلت هذه الآية بعد التي في تبارك الفرقان بثمانية أشهر ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾. (أخرجه النسائي في السنن ٧/ ٨٧، برقم ٦٩٥ - كتاب تحريم الدم. باب تعظيم الدم. والطبري (التفسير ٥/ ٢٢٠)، والطبراني (المعجم الكبير ٥/ ١٣٦) من طرق عن محمد بن عمرو به، وعند جميعهم: (بستة أشهر)، بدل (الثمانية). وقد أخرج النسائي رواية (الستة أشهر) أيضاً. لكن وقع في سندها: محمد بن عمرو عن أبي الزناد، بإسقاط (موسى بن عقبة). قال الألباني في الروايتين: حسن صحيح. ولفظ (بستة أشهر) أصح. (صحيح سنن النسائي، برقم ٣٧٤٢).

عن أبي ذر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلمُ آخر أهل الجنة دخولاً الجنة. وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيُقال: اعرِضُوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتُعرض عليه صغار ذنوبه. فيُقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا. وعَمِلْتَ يوم كذا وكذا، كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن يُنكر. وهو مُشْفِقٌ من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه، فيُقال له: فإنَّ لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: ربِّ، قد عَمِلْتُ أشياء لا أراها هاهنا» فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجِذُه. (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٧٧، برقم ١٩٠).

٧١- ومَنْ تاب عن المعاصي وعمل صالحاً تصديقاً لتوبته، فإنَّه يتوب توبة مقبولة عند الله، ويرجع إلى الله رجوعاً عظيماً.

٧٢- والذين لا يشهدون الشهادة الكاذبة، وإذا مَرُّوا بمجالس أهل الباطل من غير قَصْدٍ تَرَفَّعوا عن ذلك فلم يشاركوهم، بل يُنْكِرُون عليهم.

٧٣- والذين إذا ذُكِّروا بآيات القرآن أقبلوا عليها سامعين مُبْصِرين مُتَدبِّرين، ولم يُعْرِضُوا عنها.

٧٤-٧٦- والذين يدعون الله: يا ربَّنا هب لنا من أزواجنا وأولادنا ما تَقَرُّ به أعيُننا، واجعلنا قدوة في الخير يقتدي بنا المتَّقُون. أولئك أصحاب الدرجات العالية، يُثابون أعلى منازل الجنَّة؛ بسبب صبرهم على الطاعة وتَجَنُّب المعصية، وَيَتَلَقَّون فيها التحية والتسليم من الملائكة على الدَّوام، ماكثين في هذه المنزلة الكريمة، فما أحسنَها منزلةً، وأطيَبها إقامة!!.

٧٧- قل أيها الرسول: ما يُبالي ربِّي، ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فقد كَذَّبْتُم أيها الكفَّار، فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، فيقتضي عقابكم وهلاككم في الدنيا والآخرة، عقاباً مُلازماً لكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- من ثمرات التوبة الصادقة تغيير مسار الحياة، والإكثار من العمل الصالح.

٢- أظهرت هذه الآيات النموذج الخَيِّر للبشرية، وهم عبادُ الرحمن؛ كي يجاهد العبدُ نفسَهُ ليكونَ منهم.

٣- شهادةُ الزُّور من أكبر الكبائر، لا يفعلها المؤمن.

٤- المؤمنُ يُكْرِمُ نفسَه، فلا يَحْضُرُ مجالس الباطل، ولا يشارك فيها، ويبتعدُ عن أصحابها.

٥- المؤمنُ يتفاعلُ مع آيات القرآن ويَعِيها ويتدبَّرُها، وتزيده إيماناً وطاعة وتقوى.

٦- تكون قرَّة العين بالأزواج والذرية في صلاحهم واستقامتهم.

٧- في الآية (٧١) إخبار مستقبلي عن قَبول الله ﷻ توبة مَنْ تاب عَمَّا ارتكب من الذنوب، وعمل عملاً صالحاً، وأنَّه يُكَفِّر ذنوبه؛ لأنَّه رجع إلى الله رجوعاً صحيحاً.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير التوحيد والبعث.

٢ - تسلية النبي ﷺ في مواجهة معوقات دعوته.

٣ - بيان أحوال الجنَّة والنار.

٤ - تقرير الرسالة، ووحي القرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - تقدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - هذه الآيات العالية المقام، البالغة التمام، آيات القرآن الحافل بالبيان.

٣-٤ - لعلَّك - أيها الرسول - مُهْلِكٌ نفسك لعدم إيمان الكفَّار، لو نشاء لَأنزلنا آية تضطرُّهم إلى الإيمان قهراً، فتصير أعناقهم ذليلة منقادة.

٥-٦ - وما يأتيهم الرسول ﷺ بذِكْرٍ من القرآن الذي ينزل حسب الحوادث؛ ليُذَكِّرهم به، إلا أعرضوا عن استماعه، فقد كفروا به قطعاً، فسيأتيهم أخبار الأمر العظيم الذي كانوا يسخرون منه.

٧-٩ - أولم ينظروا إلى عجائب الأرض التي أنبتنا فيها من كل أصناف النبات الكثيرة النافعة الجميلة؟ إنَّ في ذلك الإنبات الكريم لَدلالةً واضحة على عظمة قدرة الله تعالى. إنَّ أكثر الناس ليسوا مُصَدِّقين بالله. وإنَّ ربَّك لهو العزيز في ملكوته، الرحيم بمخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- القرآن كتابٌ مُبينٌ مُعْجِزٌ، ومواعظُه مُتَجَدِّدَةٌ متكررةٌ.

٢- سُنَّةُ الله تعالى في الناس أَلَّا يُجْبَرُوا، ولا يُكرَهُوا على الإيمان.

٣- القرآن يلفت أنظارنا إلى الآيات والعِبَر التي حولنا، في الأرض والآفاق؛ لتزيدَ صِلَتُنا بالله.

٤- تتكاثر النباتات من خلال الزواج والتلقيح بين الذكر والأنثى حتى يتم التكاثر بينهما.

(http://quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-617)

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٠-١١- يُذَكِّرُ الله تعالى بقصة موسى عليه السلام وفرعون، حين خاطب الله تعالى موسى من جانب جبل الطور أن اذهَبْ إلى القوم الكافرين، قومِ فرعون، ألا يخافون عقاب الله على كُفْرهم؟

١٢-١٤- قال موسى: يا ربِّ إنَّني أخاف أن يُكَذِّبوا رسالتي، فيَضِيقُ صدري حُزْناً من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة، فأرسِلْ إلى هارون؛ ليُعينني على تبليغ الرسالة، ولفرعون وقومه عليَّ دعوى ذنب؛ لأنِّي قتلت منهم رجلاً قِبْطِيّاً، فأخاف أن يقتلوني به كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣].

١٥-١٧- قال الله تعالى: كلا إنَّهم لا يقدرون على قَتْلِك. ثمَّ أمره وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون بالمعجزات، وذلك بعد أن استجاب له ليكون هارون معيناً له. ثمَّ وعدهما سبحانه بأنَّه معهما بالعَوْن والنصرة، فقولا له: إن كلَّ واحدٍ منَّا رسول إليكم من رب العالمين، أن أطْلِقْ سراح بني إسرائيل؛ ليذهبوا معنا إلى بيت المقدس.

١٨-١٩- فقال فرعون لموسى مُنْكِراً ومُمْتَنّاً عليه: ألَمْ نُرَبِّك في قصورنا صغيراً، وأَقَمْتَ عندنا عدداً من السنين، وقَتَلْتَ الرجل القبطي، وأنت من الجاحدين لنِعَمِنا؟

٢٠-٢١- فاعترف موسى بذلك الخطأ وبجهله، وذكر أنّه بسبب ذلك هرب إلى أرض مَدْيَنَ خوفاً على نفسه من القتل. وفي تلك الرحلة أعطاه الله تعالى الحكمة والتوراة، وجَعَلَه من الأنبياء المرسلين.

٢٢- ثمَّ أنكر موسى على فرعون قائلاً: وكيف تَمُنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استَعْبَدْتَ وأَذْلَلْتَ قومي بني إسرائيل؟!

الفوائد والاستنباطات:

١- الحذر مطلوب، والاحتياط واجب، عند القيام بالأعمال الكبيرة، بشرط ألَّا يَقْعُدَ بصاحبه عن أداء الواجب.

٢- على الداعية أن يكون شجاعاً جريئاً في مواجهة أصحاب الباطل، فلا يخافَ منهم، ولا يَجْبُنَ أمامَهم.

٣- اللهُ مع جنودِهِ وأوليائه من الرسل والدعاة بالتأييد والحفظ والتثبيت، وهذا يدفعهم إلى أداء واجب التبليغ بهمَّةٍ أكبر.

٤- يتحدَّى موسى عليه السلام فرعون وملأه بقوة الإيمان والتوكل على الرحمن.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- فبدأ فرعون الحوار مع موسى بسؤاله عن حقيقة ربِّ العالمين، وذلك بعد أن قال موسى له: إنّي رسول من ربِّ العالمين. فأجاب موسى: هو خالق السموات السبع والأرَضين السبع، وما بينهما من المخلوقات، إن كنتم مصدقين بالله تعالى.

٢٥- قال فرعون لأعوانه المقرَّبين سخرية ومكراً: ألا تستمعون إلى ما قاله موسى؟!

٢٦- قال موسى باعتزاز: الله خالقكم وخالقُ آبائكم الذين كانوا قبلكم.

٢٧- ثمَّ أعلن فرعون حرب الإشاعة والاستهزاء: إنَّ رسولكم موسى الذي أُرسل إليكم لَمجنون.

٢٨- فرَدَّ عليه موسى مُناظِراً: إنَّ الربَّ هو ربُّ المشرق يأتي بالشمس من المشرق، ويجعلها تغرب عند المغرب، وهو خالق ما بين المشرق والمغرب من المخلوقات، إن كنتم تعقلون أنَّ هذا الأمر لا يقدر عليه إلا ربُّ العالمين.

٢٩- فلمّا أخفق فرعون لجأ إلى أسلوب البطش والتهديد، إذ أقسم: لئن اتخذت يا موسى معبوداً غيري لَأَحْبِسَنَّك قَطْعاً مع المسجونين.

٣٠- فردَّ عليه موسى بعرض المعجزات، فقال: أتسجنني ولو جئتك ببرهان صحيح يدل على صدقي؟

٣١- فأجاب فرعون متحدِّياً: فَأْتِ به إن كنت من الصادقين فيما تقول.

٣٢-٣٣- وبسبب هذا التحدِّي جاء موسى بمعجزتين، فألقى عصاه من يده فإذا بها تتحَوَّل إلى حَيَّةٍ ظاهرة بحركتها، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء يسطع نورها، فتبهر الناظرين.

الفوائد والاستنباطات:

١- على صاحب الحق أن يُحْسِنَ مخاطبة الآخرين ومحاوَرَتَهم، وإقامة الأدلَّة عليهم.

٢- يقوم أصحاب الباطل عادةً بالسُّخرية من أصحاب الحق، والتهكُّم بهم، واتِّهامهم في عقولهم وأفكارهم.

٣- عندما ينهزم الطُّغاة في مجال الفكر والجدال، يلجؤون إلى سلاح التهديد والوعيد.

٤- أصحاب الحق لا يخافون من الطُّغاة، ولا يُؤَثِّر فيهم تهديد أو وعيد؛ لأنَّهم يُوقنون أنَّ الله معهم.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٥- ولمَّا فشل فرعون في هذه الجولة خاطب حاشيته مُتَّهِماً موسى باحترافه السحر، وأنَّه يريد أن يُخرجهم ومَنْ معهم من الأقباط من أرض مصر بهذا السحر العظيم، ثمَّ طلب منهم المشورة.

٣٦-٣٧- فاقترحوا أن يُحْبَسَ موسى وهارون، أو يُؤَخَّر أمْرُها، وأن يُرْسَلَ في مدن مصر الرسل ليجمعوا السحرة المهرة.

٣٨-٣٩- فجَمَعَ فرعونُ السحرة ضُحى يوم عيد الزينة، لحضور كثرة الناس الذين حَثَّهم على حضور هذا الاجتماع.

٤٠- وأمَّل هؤلاء الحضور أن تكون الغَلَبَةُ للسحرة المهرة؛ لكي يَتَّبعوا دينهم.

٤١-٤٢- فلَمَّا حضر السحرة مجلس فرعون قالوا له: هل لنا من الأجر الجزيل إن هَزَمْنا موسى بسِحْرِنا؟ فوافَقَ فرعون مُشَجِّعاً لهم: نعم لكم ذلك وزيادة، بأن أجعلكم من المقرَّبين إليَّ.

الفوائد والاستنباطات:

١- يَتَّهمُ الطُّغاةُ أصحابَ الحق بأنهم على الباطل ليخدعوا شعوبهم بحرب الإشاعة.

٢- صاحب الحق يحرص على إيصال دعوته إلى أكبر عدد ممكن؛ ليُقيم عليهم الحُجَّة.

٣- عندما تكون المواجهة بين الحق والباطل، يَحْشُدُ أصحاب الباطل كُلَّ ما عندهم، ويدخل صاحب الحق التحدي متوكلاً على الله.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٣- قال لهم موسى: أَلْقُوا ما تريدون إلقاءه من السحر، وذلك بعد أن خَيَّره السحرة بين البدء والتأخُّر في الإلقاء.

٤٤- فألقى السحرة حِبالَهم وعِصِيَّهم، وحَلَفوا بعزَّة فرعون مؤكدين إنَّا لَنحن الغالبون، وسحروا أعين الناس وأفزعوهم بالتهاويل.

٤٥- ثمَّ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلتهم سريعاً ما اختلقوه من الكذب والخداع.

٤٦-٤٨- فآمن السحرة بموسى، وخَرُّوا لله ساجدين، وكفروا بعِزَّة فرعون أجمعين، وأعلنوا على النَّاس الإيمان قائلين: آمنَّا بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون، فليس فرعونُ برَبٍّ.

٤٩- وهذا الإعلان زلزل البلاط الفرعوني، فصاح فرعون بهم مُنْكِراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم:صَدَّقْتُم بموسى قبل أن تستأذنوني؟ ثمَّ لجأ إلى الكذب والتهديد فقال: إنَّ موسى هو رئيسكم الذي عَلَّمَكم هذا السحر! فلسوف تعلمون عقابي: لَأُقَطِّعَنَّ من كل واحد منكم يديه ورجلَيه من خِلافٍ - بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس -، ثم لَأُعَلِّقَنَّكم في جذوع أشجار النخل وأيديكم ممدودة؛ لتصيروا على هيئة الصليب، ولن يفلت أحد منكم من عقابي.

٥٠-٥١- فردَّ عليه السحرة التائبون بثقة وعزَّة الإيمان: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقابك، إنَّنا إلى خالقنا راجعون بالموت. إنَّنا نرجو من الله أن يغفر لنا ذنوبنا وجرائمنا، بأنْ كُنَّا أول دفعة من المؤمنين من قوم فرعون.

الفوائد والاستنباطات:

١- لا يصمد الباطل أمام الحق في المواجهة، لأنَّ الحق يَدْمَغُه ويُزهِقُه.

٢- يحرص الطغاة على تلفيق التُّهم للدعاة، وإلصاقها بهم، وتعذيبهم، وقَتْلِهم للقضاء على دعوتهم.

٣- بيان ثمرة الإيمان في استعلاء المؤمنين على السحرة.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

التفسير:

٥٢ – وأوحينا إلى موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلى صحراء سيناء؛ لأنَّ فرعون وجنوده متَّبعوكم.

٥٣–٥٦– فأرسل فرعون أتباعه في البلاد المصرية لجمع الحشود من الجنود؛ ليدركوا موسى والمؤمنين معه. وقال فرعون مُحَرِّضاً جنوده: إنَّ هؤلاء أتباع موسى لطائفة قليلة، وإنَّهم لفاعلون ما يغيظنا، إذ خرجوا من غير إذن، وإنَّنا جميعاً مستعدون بحَذَرٍ وحَزْمٍ لقَتْلِهم.

٥٧–٥٩– فأَخْرَجْنا فرعون وقومه من أرض مصر، وما فيها من البساتين النضرة والعيون العذبة والكنوز الثمينة والمنازل العظيمة. ومثلَ ما أخرجناهم من مصر إلى البحر الأحمر، جعلنا هذه الديار إرثاً لبني إسرائيل.

٦٠–٦٢– ولمَّا خرج موسى والمؤمنون معه لَحِقَ بهم فرعون وحشود جنده نحو الشرق إلى البحر الأحمر، وقت شروق الشمس.

فلمّا تقارب الفريقان، ورأى كلُّ واحدٍ منهما الآخر، خاف أصحاب موسى فقالوا: إنَّ فرعون ومَنْ معه يلحقون بنا، فردَّ عليهم موسى زاجراً ومطمئناً: كلَّا لن يُدْرِكُوكم، إنَّ ربِّي معي سيرشدني إلى طريق النجاة بالحفظ والنَّصر.

٦٣–٦٦– فأَمَرْنا موسى عن طريق الوحي أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانشقَّ البحر، فكان كلُّ جزء من الأجزاء المنفصلة عن البحر كالجبل الضخم، وقَرَّبْنا فرعون وجنوده ليدخلوا المكان اليابس الذي فيه موسى ومن معه، وأنجينا موسى وقومه أجمعين من الغرق بعبورهم البحر بسلام، ثمَّ أغرقنا فرعون وجنوده برجوع البحر كما كان قبل انشقاقه.

٦٧-٦٨- إنَّ في ذلك المشهد العظيم من الإغراق والنجاة لَعِبْرَةً مُؤَثِّرة، وما كان أكثر الذين سمعوا به مُصَدِّقين بالله ورسله!! وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لهو العزيز في انتقامه من المكذِّبين، الرحيم بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الطغاة الظالمون يتكبَّرون وينتفشون، ويستهينون بأصحاب الحق ويحتقرونهم.

٢- اللهُ مع جنوده وعباده الصالحين بالحفظ والرعاية والتوفيق، لا يَخْذُلُهم، ولا يُسْلِمُهم إلى إعدائهم.

٣- التوكل على الله تعالى من مبادئ القائد المؤمن.

٤- المؤمن يعتبر ويتَّعظ بما يرى، أو يسمع من الآيات والأحداث، أمَّا الكافر فإنه مختوم على قلبه، لا يعتبر ولا يتأثَّر.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٦٩-٧١- واقرأ - أيها الرسول - على الناس خبر إبراهيم عليه السلام حين قال لأبيه وقومه: أيُّ شيء هذا الذي تعبدونه؟ فأجابوه بافتخار: نعبد أصناماً، فنقيم على عبادتها دائماً.

٧٢-٧٣- ثمَّ سألهم إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم، أو يستجيبون لكم إذ تدعونهم؟ أو يُقَدِّمون لكم نفعاً، أو يَضُرُّونكم إن تركتم عبادتهم؟

٧٤- لم يجيبوا عن ذلك، وإنَّما ذكروا أنَّهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك، وهم يُقَلِّدون آباءهم.

٧٥-٨٢- فرَدَّ عليهم موبِّخاً لهم: أفرأيتم الأصنام التي عَبَدْتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأوَّلون؟ فإنَّ هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رَبَّ العالمين، الذي خلقني، فهو يُرشدني إلى خير الدنيا والآخرة، وهو الذي يرزقني الطعام والشراب، وإذا أصابني مرض فهو سبحانه الذي يعافيني منه، والذي يُميتني عند انتهاء الأجل، ثمّ يُحْيِيني يوم القيامة، والذي أرجو أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب.

٨٣- وبعد هذا الإعلان أخذ يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء، كما في الآيات السبع التالية: يا رَبِّ أَلْهِمْني العلم والحكمة، وأَلْحِقْني بزُمْرَةِ الصالحين.

٨٤-٨٩- واجعل لي ذكراً حسناً في الأجيال الذين يأتون بعدي، واجعلني من الذين يستحقُّون ميراث نعيم الجنة، واغفر لأبي آزر، إنَّه كان من المشركين، ولا تُذِلَّني يوم البعث والحساب، الذي لا ينفع فيه ملك الأموال، ولا كثرة البنين، إلا من أتى الله بقلب سليم من الشرك والكبائر، ولكنَّ دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه بالمغفرة لم يستجب؛ لأنَّ أباه أصَرَّ على الكفر. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا ربِّ وَعَدْتَني ألَّا تُخْزني يوم يبعثون. فيقول الله: إني حَرَّمْتُ الجنة على الكافرين».

(صحيح البخاري ٨/ ٣٥٧- كتاب التفسير - سورة الشعراء، باب (الآية)، برقم ٤٧٦٩).

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تقديم الدعوة إلى أقرب الناس، والإنكار عليهم مخالفتهم، والبراءة منهم إن أصرُّوا على كُفرِهِم ومخالفتهم.

٢- خطورة تقليد الآباء واتِّباعهم على ما هم فيه من باطل، وأخطرُ ما يكون هذا في العقيدة.

٣- المؤمن يخاف من أهوال يوم القيامة، ولذلك يَطلُبُ إلى الله السَّترَ فيه.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

التفسير:

٩٠- وأُدْنِيَتِ الجنَّةُ للذين أطاعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه.

٩١-٩٥- وبُرِّزَت النار للكفَّار، وقيل لهم توبيخاً: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من غير الله؟ هل ينصرونكم بإنقاذكم من العذاب، أو ينتصرون لأنفسهم بالبراءة منكم ومن عبادتكم لهم؟ فأُلقي في النار بعضهم فوق بعض من الكفَّار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، وشياطين الإنس والجنِّ جميعاً.

٩٦-١٠٢- وقال الكفَّار لقادتهم وهم يتخاصمون معهم: قسماً بالله إنَّنا كُنَّا في انحراف بعيد عن الحق حين نُساويكم في الطاعة والولاء بالله ربِّ العالمين، وما أَضَلَّنا عن طريق الهدى إلا شياطين الإنس والجن الذين زيَّنُوا لنا سبل الضلال، فما لنا من أحدٍ يشفع لنا عند الله تعالى، ولا صديق يشفق علينا، فنتمنَّى أن نرجع إلى الحياة الدنيا حتى نكون من المؤمنين بالله.

١٠٣-١٠٤- إنَّ في ذلك المشهد العظيم في مصير هؤلاء المكذِّبين من النار دَلالةً واضحة على قدرة الله تعالى في الحساب. وما كان أكثرُ الناس بمُصَدِّقين به سبحانه. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لهو العزيز في ملكوته، الرحيم بمخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- على المؤمن أن يتذكَّر دائماً أحداث يوم القيامة؛ ليستقيم على طاعة الله.

٢- يعترف الكفار في الآخرة بخَطَئِهم وضلالهم، بينما كانوا يرفضون الاعتراف بذلك في الدنيا.

٣- يتمنَّى الكُفَّار العودة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، وذلك لشعورهم بالحسرة والخسارة في الآخرة.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

التفسير:

١٠٥-١١١ - كَذَّبَ قوم نوح جميع رسل الله تعالى؛ بسبب تكذيبهم لنوح، حين قال لهم نوح أخوهم ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام؟ إنّني لكم رسول من الله، أمين في نصحي لكم، فخافوا عذاب الله، وأطيعوا أمري، ولا أطلب منكم جزاءً على تبليغ الدعوة إليكم، وما أطلب ثوابي إلا من الله ربِّ العالمين، فخافوا عقاب الله، وأطيعوا أمري. فرَدُّوا عليه بتكَبُّرٍ: هل نُصَدِّقُك يا نوحُ ونَتَّبِعُك، وأتباعك هم سفلة الناس، من الفقراء والضعفاء؟

١١٢-١١٥ - فرَدَّ عليهم نوح: وما عِلْمي بحِرَفِهم العملية وسرائرهم القلبية؟ ما حسابهم على سرائرهم وأعمالهم إلا على ربِّي، لو تعلمون ذلك، ولست بطارد المؤمنين بي من مجلسي، ما أنا إلا رسول من الله لإنذار العباد بالحجَّة الواضحة.

١١٦ - فهدَّده قومه، وأقسموا له: لئن لم تنته عن دعوتك لنقتلنَّك رَمْياً بالحجارة.

١١٧-١٢٠ - فتَضَرَّع نوح إلى ربِّه بالدعاء: يا ربِّ إنَّ قومي أصَرُّوا على تكذيبي، فاحْكُمْ بيني وبينهم حُكْماً تَنْصُرُ فيه الحق، وتُدَمِّر الباطل، وأنقِذْني ومَنْ معي من المؤمنين ممَّا تُعاقِبُ به الكافرين. فاستجبنا له وأنقذناه ومَنْ معه في السفينة الحافلة بالمتاع والحيوانات، ثمَّ أهلكنا الكفَّار بالغرق.

١٢١-١٢٢ - إنَّ في ذلك المشهد العظيم من الإغراق والنجاة لعِبرةً مؤثِّرة، وما كان أكثر الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك أيها الرسول لهو العزيز في انتقامه من المكذِّبين، الرحيم بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - مقاييسُ أهل الباطل جاهليةٌ خادعةٌ، لذلك يحتقرون المؤمنين.

٢ - عندما ينهزم أصحاب الباطل أمام حُجَّةِ أصحاب الحق، يلجؤون إلى سلاح التهديد والتعذيب.

٣- المؤمن يلجأ إلى رَبِّه عندما تضيق به السُّبُلُ، فيطلب منه الفَرَجَ والنصر.

٤ - نتيجة الصراع بين الحق والباطل انتصار الحق، ونجاةُ جنوده، وهزيمةُ الباطل.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

التفسير:

١٢٣-١٢٧- كَذَّبَتْ قبيلة عاد رسولهم هوداً - ومَنْ كَذَّب رسولاً فقد كَذَّب جميع المرسلين - حين قال لهم هود أخوهم في النسب: ألا تخافون عقاب الله في عبادتكم لغيره؟ إنَّني لكم رسول من الله، أمين في نصحي لكم، فخافوا عذاب الله، وأطيعوا أمري، ولا أطلب منكم جزاءً على تبليغ الدعوة إليكم، وما أطلب ثوابي إلا من الله ربِّ العالمين.

١٢٨-١٣١- ثمَّ قال هود مُنكِراً عليهم: أَتبْنُون بكلِّ موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً؛ لأجل اللَّهو والعبث؟ وتُعَمِّرون قصوراً فخمة مُحَصَّنة، كأنَّكم تخلدون فيها ولا تموتون، وإذا اعتديتم على أحد ضربتم وبطشتم كصنيع الجبابرة في بَطْشِهم، فخافوا عقاب الله، وأطيعوا أمري.

١٣٢-١٣٦- واتَّقوا الله الذي رزقكم ما تعلمون من الخيرات، ورزقكم المواشي والأولاد والجنات النضرة والعيون العذبة. إنَّني أخاف عليكم - إن لم تشكروا الله على هذه النِّعَم وتعبدوه وحده - عذابَ يوم شديد في أهواله، فأجابوه بسخرية: يستوي عندنا تذكيرك لنا وعَدَمُه، فلا نبالي بما تقول!

١٣٧-١٣٨- وقالوا أيضاً: ما هذا الذي نحن عليه إلا دين الآباء السابقين، ولسنا نحن بمُعَذَّبين بعد موتنا.

١٣٩-١٤٠- فكَذَّبوا هوداً، فدمَّرْناهم بريح عاتية. إنَّ ذلك الدمار لَعِبْرة مؤثِّرة، وما كان أكثر الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول- لهو العزيز في انتقامه من المكذِّبين، الرحيم بالمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- على الداعية أن يستخدم مُختلف الأساليب المناسبة في الدعوة بالحُسنى، من ترغيبٍ وترهيبٍ وتَحَبُّبٍ.

٢- التَجَبُّر والاستبداد والتعامل مع الآخرين بالبطش والقسوة، يقود إلى هلاك صاحبه.

٣- الطُّغيان والتجبُّر يُعْمِيان عن الحق، والله يَقصِمُ كُلَّ متكبِّرٍ جبَّار، ويُهلِكُه.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

التفسير:

١٤١-١٤٥- كَذَّبَتْ قبيلة ثمود نبيَّهم صالحاً - وفي ذلك تكذيب لجميع المرسلين- حين قال لهم نبيُّهم صالح وأخوهم في النسب: ألا تخافون عقاب الله في عبادتكم غيره؟ إنَّني لكم رسول من الله، أمين في تبليغ الرسالة إليكم، فخافوا عذاب الله، وأطيعوني في أمري، وما أطلب منكم جزاءً على تبليغ الدعوة إليكم، وما أطلب ثوابي إلا من الله ربِّ العالمين.

١٤٦-١٥٢- أتحسبون أن يترككم ربُّكم في هذه الدنيا آمنين من العقاب والموت؟ في جنات نضرة، وعيون عذبة، وزروع مثمرة، وأشجار نخل رطبها يانع ناضج، وتَبْنُون في الجبال بيوتاً ماهرين بنحتها بَطِرين بفخامتها، فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري، ولا تُطِيعوا أمر المُضِلِّين المجرمين الذين يُفْسدون في الأرض بنَشْر المعاصي، ولا يأبهون بإصلاحها.

١٥٣-١٥٤- فرَدُّوا عليه بغرور ومكر: ما أنت إلا من الذين سُحِروا سِحْراً بالغاً يذهب العقول، ما أنت إلا رجل مثلنا، فَأْتِنا بمعجزة تدلُّ على صدقك.

١٥٥-١٥٦- قال لهم صالح عليه السلام: هذه ناقة خَلَقَها الله لكم، لها نصيب من الماء في يوم معلوم لا تشربون فيه الماء، وإنَّما تشربون من لبنها، ولكم نصيبٌ من الماء في يوم معلوم لا تشرب الناقة فيه، ولا تصيبوها بأي شيء يؤذيها، فيُعاقبكم الله بعذاب يوم عظيم.

عن أبي الطفيل- هو عامر بن واثلة رضي الله عنه- قال: قالت ثمود لصالح: ائتنا ﴿بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣]. (أخرجه البستي في تفسيره، ينظر: التفسير الصحيح ٤/ ٤٠١).

١٥٧-١٥٩- فنَحَرَ أشقاهم الناقة، فأصبحوا نادمين على جريمتهم، فدمَّرهم الله جميعاً بالصيحة التي زَلْزلت الأرض من تحتهم. إنَّ في ذلك العقاب العظيم لَدلالةً واضحة على عظمة قدرة الله في عقوبة المجرمين المكذِّبين، وما كان أكثر الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لهو العزيز الغالب في انتقامه من المجرمين، الرحيم بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- يُنظر: أطلال ثمود في مدائن صالح، كما في الملحق.
٢- لا تدومُ نِعَمُ الله على أُمَّةٍ من مأْكَلٍ ومشرب وملبس ومسكن، إلا بطاعة الله وشُكْرِه.
٣- على الأُمَّة أن تُطيع الصالحين المُصلحين، ولا تُطيع المسرفين المفسدين.
٤- تميُّز معجزة نبي الله صالح عليه السلام وما فيها من الرزق، ويقابلها تميُّز العقوبة.
٥- وحدة دعوة الأنبياء إلى التوحيد.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

التفسير:

١٦٠-١٦٤- كَذَّب قوم لوط رسولهم لوطاً، فكانوا بذلك مُكَذِّبين لجميع المرسلين، حين قال لهم أخوهم لوط ألا تخافون عقاب الله بعبادتكم غيره، وجريمتكم الخبيثة؟ إنَّني لكم رسول من الله، أمين في تبليغ الرسالة إليكم، فخافوا عذاب الله، وأطيعوني في أمري، وما أطلب منكم جزاءً على تبليغ الدعوة إليكم، وما أطلب ثوابي إلا من ربِّ العالمين.

١٦٥-١٦٦- ثمَّ أنكر عليهم جريمتهم القبيحة: أتَغْشَون الذُّكور في أدبارهم، وتَشُذُّون بهذه الجريمة الشنيعة من بين سائر الخلق، وتتركون ما أباح لكم ربُّكم من الاستمتاع بالإناث؟ بل أنتم قوم مجرمون.

١٦٧- ولكنَّهم أصَرُّوا على ذلك، وأقسموا لئن لم يترك نَهْيَه عن إجرامهم لَنَطْرُدَنَّه من البلد.

١٦٨- ١٧٣- فرَدَّ عليهم مستحقراً لجريمتهم: إنَّني من الذين يُبغضون إجرامكم الشنيع بشدَّة، يا ربِّ أنقذني أنا وأهلي من العذاب الذي يستحقونه بسبب عَمَلِهم الحقير، فاستجبنا له، وأنقذناه هو وأهله إلا امرأته كانت من الهالكين، ثمَّ أهلكنا الآخرين أشدَّ الهلاك بالخسف، وأمطرناهم بحجارة كثيفة من السماء. فبئس هذا المطر، مَطَرُ القوم الذين خَوَّفهم نبيُّهم، فكذَّبوه.

١٧٤ - ١٧٥ - إنَّ في ذلك العذاب الفريد العجيب لَدلالةً واضحة على عظمة قدرة الله تعالى في عقوبة المجرمين، وما كان أكثر الذين سمعوا به مُصَدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - لهو العزيز القهَّار في انتقامه من المجرمين، الرحيم بعباده المتَّقين.

الفوائد والاستنباطات:

١- على الداعية أن يُنْكِرَ على قومِهِ معاصِيَهم وانحرافاتِهم، ويُعْلِنَ براءتَه من أفعالِهم.

٢- المُنحرِفون الشاذُّون لا يَقْبَلُون بوجود أصحاب العِفَّة والطُّهر بينهم، فيُحاربونهم ويُهَدِّدونهم.

٣- ارتكاب الفواحش والمعاصي يقود إلى عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما فعل الله بقومِ لوط.

٤- انتشار فاحشة اللِّواط يَجلب الدمار والأمراض الخطيرة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

التفسير:

١٧٦-١٨٠- كَذَّب أصحاب البقعة ذات الشجر الكثيف الملتف - قرب مدينة مَدْيَنَ التي تقع شرق صحراء سيناء - المرسلين بسبب تكذيبهم شعيباً حين قال لهم: ألا تخافون الله في عبادة غيره؟ إنَّني لكم رسول من الله، ناصحٌ لكم في تبليغ الرسالة إليكم، فخافوا عذاب الله وأطيعوني في أمري، وما أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم، إنَّما أطلبُ الثوابَ من الله ربِّ العالمين.

١٨١-١٨٣- أَتِمُّوا حقَّ الكَيْل، ولا تكونوا من المُنْقِصين في المكيال، وأَتِمُّوا حَقَّ الميزان بالعدل السوي، ولا تُنْقِصُوا الناس حقوقهم، ولا تَسْعَوا في الأرض بفعل المعاصي والخبائث؛ لتنشروا الفساد فيها.

١٨٤- وخافوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، الذي خَلَقَكم وخلق الأُمم السابقة.

١٨٥-١٨٧- فرَدُّوا عليه بسفاهة ومكر: ما أنت إلا من الذين سُحِروا سِحْراً بالغاً يُذهب العقول، ما أنت إلا رجل مثلنا، وإنَّا نعتقد أنَّك كاذب، فإن كنت صادقاً في دعواك فأَسْقِطْ علينا عذاباً بقطع من السماء.

١٨٨- قال شعيب مُهَدِّداً لهم: ربِّي أعلم بما تعملون من المعاصي والكفر.

١٨٩ - فأصَرُّوا على تكذيبه، فأخذهم عذاب يوم الظُّلة، إذ أصابهم حَرٌّ، فاستَظِلُّوا تحت سحاب، فلمَّا اجتمعوا جاءهم لهيب رهيب من النار، فأحرقهم جميعاً في ذلك اليوم الذي كان شديد العذاب.

١٩٠-١٩١- إنَّ في ذلك العقاب العظيم لَدلالة واضحة على عظمة قدرة الله في عقوبة المجرمين المكذِّبين، وما كان أكثرُ الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك -أيها الرسول- لهو العزيز في انتقامه من المجرمين، الرحيم بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجرائم الاقتصادية، وأَكْلُ حقوق الآخرين، سَبَبُه عدمُ تقوى الله.

٢- الإفساد في الأرض يقود إلى تخريب الاقتصاد، وتدمير الأموال.

٣- الاستهزاء بأصحاب الحق وتكذيبهم وإيذاؤُهم سَبَبٌ لِنَيْلِ غَضَب الله وعقابه.

٤- على الداعية محارَبَةُ المنكرات المُتعلِّقة بالمال والاقتصاد، والنهي عن ظلم الآخرين.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

التفسير:

١٩٢-١٩٦- وإنَّ هذا القرآن لمنزَّل حقّاً من ربِّ العالمين، نزل به جبريل على قلبك - أيها الرسول - لتسمَعَه وتحفَظَه، وتنذر بآياته المكذِّبين من النار، نزل باللغة العربية الفصيحة الواضحة. وإنَّ هذا القرآن مُبَشَّرٌ به في كتب الأنبياء السابقين.

١٩٧- أولم يكن للكفَّار علامة على صِحَّة القرآن ونبوَّة محمَّد ﷺ، وهي أن يعلم ذلك علماء اليهود والنصارى؟

١٩٨-١٩٩- ولو نَزَّلْنا القرآن على مَنْ لم يتكلم العربية، فقرأه على كفَّار العرب قراءة عربية فصيحة صحيحة لم يُصَدِّقوا به، مع ما فيه من إعجاز القرآن في تلاوته.

٢٠٠-٢٠٤- كذلك أَدْخَلْنا في قلوب المجرمين تَرْكَ الإيمان بهذا القرآن، لا يُصَدِّقون به حتى يشاهدوا العذاب الموجع، فيصيبهم العقاب فجأة، وهم لا يشعرون بمجيئه، فيطلبون إمهالهم بتأخير العذاب ليؤمنوا، ولكن لا إمهال لهم، بل أَنْكِرْ عليهم مُوَبِّخاً لهم: كيف كانوا يستعجلون العذاب؟

٢٠٥-٢٠٧- أخبرني يا رسول الله إن متَّعناهم سنين طويلة ثمَّ جاءهم العقاب الموعود، ماذا ينفعهم حينئذ ما مضى. من طول أعمارهم وطِيبِ معاشِهم؟ لم ينفعهم لدفع العقاب.

٢٠٨-٢٠٩- وما دَمَّرْنا من بلدة إلا بعد الإنذار بالمرسلين، وتلك موعظة للعباد. وما كُنَّا ظالمين في تعذيبهم بعد إنذارهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وينظر ما تَقَدَّمَ في تفسيرها.

٢١٠-٢١٢- وما تنزَّلت بهذا القرآن الشياطين، بل نزل به جبريل، وما يَصِحُّ ولا يستقيم أن يتنزَّل بهذا القرآنِ الشياطينُ، ولا يقدرون على ذلك؛ لأنَّهم مُنِعُوا وحُجِبُوا من استراق السمع.

الفوائد والاستنباطات:

١- عُلُوُّ شرف اللغة العربية، إذ نزل بها القرآن، وتكلم بها الرحمن.

٢- على الداعية أن يُجيد تقديم الأدلة على أنَّ القرآن كلامُ الله، وإبطال شُبهاتِ الكفَّار حَوْلَه.

٣- كُفْرُ الكافرين قائمٌ على العِناد والاستكبار، وهذا لا ينفع معه أيُّ دليل.

٤- اقتضت حكمةُ الله تعالى ألَّا يُعذِّب أحداً إلا بعد إنذاره، وإقامةِ الحُجَّة عليه.

٥- في الآيات (٢٠٥-٢٠٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ عذاب الله واقعٌ عاجلاً أم آجلاً بمَنْ متَّعهم الله بالحياة بتأخير آجالهم.

٦- في الآية (٢٠٨) إخبارٌ مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ لا يُهلك قرية إلا بعد تبليغ الدعوة.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

التفسير:

٢١٣ - ٢١٦ - يُرشد الله تعالى رسوله ﷺ بتوجيهاتٍ عظيمة وأحكام كريمة؛ لتبليغ العباد بذلك: فلا تعبد مع الله معبوداً آخر، فيعذِّبك الله بنار جهنَّم. وهذا الخطاب للأُمَّة، لأنَّ النبيَّ ﷺ معصوم من ذلك، وأنذر عشيرتك الأقربين فالأقربين من عذاب النار، وتواضع لأصحابك المُصدِّقين بك، فإن عَصَوْك ولم يطيعوك فقل لهم: إنَّني بريء ممَّا تشركون بالله تعالى، وقد قام رسول الله ﷺ بهذا الأمر، كما وَرَدَ عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترُوا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا صفيةُ عمة رسول الله ﷺ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سَلِيني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً». (صحيح البخاري ٨/ ٣٦٠ - كتاب التفسير - سورة الشعراء برقم ٤٧٧١، وصحيح مسلم - الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ برقم ٢٠٧).

٢١٧-٢٢٠- واعتمِدْ في كل أمورك على الله، العزيزِ في نقمته من أعدائه، الرحيم بعباده، الذي يراك حين تقوم وحدك إلى التهجُّد، وحين تصلي الفروض إماماً بالمصلين. إنَّه هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال.

٢٢١-٢٢٣- هل أُخبركم -أيها العباد- على مَنْ تَتَنَزَّل الشياطين؟ إنَّها تَتَنَزَّل على كل كذَّاب شرير، يسترق الشياطين السمع - قبل أن يُحجَبُوا برَجْمِ الشُّهُبِ -، ويُلْقُون ذلك للكَهَنَةِ، وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال: «ليس بشيء». قالوا: يا رسول الله، إنَّهم يُحَدِّثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق

يخطفها الجني فيُقِرُّها في أذن وليِّه، فيخلطون معها مئة كذبة». (صحيح البخاري ١٠/ ٢١٦ برقم ٥٧٦٢ - كتاب الطب، باب الكهانة. وصحيح مسلم ٤/ ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٨/ ١٢٢-١٢٣).

٢٢٤-٢٢٧- يُخبر الله تعالى أنَّ الشعراء صنفان من حيث الصلاح والفساد، فالشعراء الفسقة يتَّبعهم الضالُّون عن طريق الحقِّ. ألم ترَ أنَّهم في كل أودية القول من المدح المذموم، والهجاء المكلوم، والمجون المسموم، يسيرون سير الهائم، حائرين، وعن طريق الحق جائرين، وأنَّ أكثر أقوالهم كذب، إذ ينسبون لأنفسهم ما لم يعملوا؟ ثمَّ استثنى سبحانه أهل الصلاح منهم: إلا الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة التي شرعها الله، وأكثروا في شعرهم من ذِكْرِ الله والثناء عليه، ودافعوا عن رسوله محمَّد ﷺ، وانتصروا للإسلام وأهله في انتصاف المظلوم منهم. وسيعلم الذين اعتدَوا أيَّ مصير يصيرون إليه؟!

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تبليغ الدعوة إلى الأقرب فالأقرب.

٢- وجوب التواضعِ ولِينِ الجانب، وحُسنِ الخُلُق، مع الأتباع والأصحاب والإخوان.

٣- الكذب والافتراء سبيلٌ لإغواء الشياطين، واستحواذهم على مَنْ يقومون بذلك.

٤- مَدْحُ الشُّعراء المُسلمين المُلتزمين الذين ينصرون الحق.

٥- في الآيات (٢٢٤-٢٢٦) إخبار مستقبلي عن حال الشعراء الفاسقين في الماضي والحاضر والمستقبل من أنَّ شعرهم يقوم على الباطل والكذب، ويجاريهم الضَّالُّون الزائغون من أمثالهم.

٦- في الآية (٢٢٧) إخبار مستقبليٌّ عن سوء مصير مَنْ ظلم نفسه بالشرك والمعاصي، وظلم غيره بغَمْطِ حَقِّه، أو اعتدى عليه، أو اتَّهمه بالباطل.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير التوحيد، والرسالة، والبعث.

٢ - بيان عظمة القرآن الكريم ومقاصده.

٣- تفصيل قصة ملك داود عليه الصلاة والسلام ونبوته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

التفسير:

١ - ﴿طسٓ﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن. هذه الآيات البعيدة المرام، البديعة النظام، آيات القرآن والكتاب الحافل بالبيان.

٢ -٣- وتلك آيات تهدي إلى صراط مستقيم، وتُبَشِّر بجنَّات النعيم للذين أقَرُّوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة. ومن صفاتهم أنَّهم يُؤَدُّون الصلاة في أوقاتها وبشروطها، ويُعْطَون الزكاة لمستحقِّيها، وهم يُصَدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً.

٤ -٥- إنَّ الذين يُكذِّبون بالآخرة زيَّنَّا لهم أعمالهم السيئة حتى رَأَوها حسنة، فهم في ضلالهم يتخبَّطون. أولئك البعداء عن رحمة الله لهم أشدُّ العذاب في الدنيا، وهم في الآخرة أشدُّ الناس خسارةً.

٦ - وإنَّك - أيها الرسول - أشرف الخلق تَتَلَقَّى القرآن من عند الله الحكيم في تدبيره، العليم بخلقه ورسله.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى الإعجاز البياني للقرآن بذكر الحروف المقطَّعة، والتحدِّي بذلك.

٢- ليس الإيمانُ مُجرَّدَ تَصديقٍ بالقول، بل لابُدَّ أن تنتج عنه الأعمال الصالحة، كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

٣- إنكار الآخرة سَبَبُ الإسراف في الملذَّات والشَّهوات، والوقوع في الطُّغيان والفساد.

٤- تقرير الرسالة النبوية الخالدة.

٥- تميُّز معجزة القرآن الكريم عن بقيَّة الكتب السماوية بتَلَقِّي النبيِّ ﷺ من جبريل عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٧- واذكر - أيها الرسول - حين قال موسى عليه السلام لأهله - وهو في صحراء سيناء قد أخطأ الطريق من مدين إلى مصر - إنَّني أبصرتُ ناراً، سآتيكم بخبر يَدُلُّنا على الطريق، أو آتيكم بشُعْلَةٍ من النَّار تستدفئون بها من البرد.

٨-٩- فلمَّا أتى موسى عليه السلام النار ناداه الله تعالى، وبَشَّره أنَّ هذا المكان الذي فيه النَّار وما حوله من النور مقدَّس مبارك، ومن بركته: أن جعله الله موضعاً لتكليم موسى وندائه وإرساله، وتنزيهاً لله ربِّ الخلائق عَمَّا لا يليق به. يا موسى إنَّه أنا المعبود بحقٍّ، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ قال: كان ذلك النار نوره ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بُورك مَن في النور، ومَن حولَ النور. (مجموع الفتاوى ٥/ ٤٦١).

١٠-١٢- وأَلْقِ عصاك من يدك، فلمَّا ألقاها ورآها تتحرَّك بسرعة كحركة الجنِّ، فزع وفرَّ هارباً من المشهد العجيب، ولم يرجع إليها. فطمأنه الله سبحانه، وآنسه بندائه باسمه مرَّةً أخرى: يا موسى لا تَخَفْ

من هذا المشهد، إنِّي لا يخاف عندي المرسلون، فهم في أمن، إلا مَنْ ظلم من سائر العباد ثمَّ تاب من ظلمه، فبدَّل عمله السيِّئ إلى عمل صالح، فإنِّي غفور له، رحيم به، وأدْخِلْ يدَك في جَيْبِ قميصك تخرج بيضاء مشرقة من غير مرض أصابها، في جملة تسع معجزات وهي: العصا واليد ونقص الثمرات والطوفان ورفع الرجز والجراد والقمل والضفادع والدم، إلى فرعون وقومه. إنَّهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله.

١٣- فلما جاءت فرعون وقومه هذه المعجزات التسع وغيرها - وهم قد رأوها رَأْيَ العين - اتَّهموا موسى بالسحر، وزعموا أنَّ هذه الآياتِ سحرٌ صريح.

١٤- وكَذَّبوا بهذه الآيات الواضحة مع أن قلوبهم متيقنةٌ بأنَّها حقٌّ من عند الله تعالى عدواناً وتَكَبُّراً على المؤمنين، فانظر - أيها الرسول - كيف كان مصير المجرمين؟

الفوائد والاستنباطات:

١- خوفُ الإنسان من الخطر أمرٌ طبيعي لا يُلامُ عليه.

٢- يُقيمُ الله الحُجَّة على الكافرين، فيؤيِّدُ رُسُلَه بأكثر من آية بيِّنة، ومعجزة واضحة.

٣- الكفار يعرفون الحق بقلوبهم، وتُوقِنُ به نُفوسُهم، ومع ذلك يُنْكِرُون بألسنتهم، ويحاربونه عناداً وعُلُوّاً واستكباراً.

٤- على العقلاء أن يعتبروا بما جرى للمكذبين السابقين؛ لئلَّا يُصيبَهم ما أصابَهم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥- قسماً لقد أَعطينا داود عليه السلام وسليمان عليه السلام علماً واسعاً من علوم الدنيا والآخرة، وقالا: الحمد لله الذي فَضَّلَنا بهذا العِلْم والملك على كثير من عباده المصدِّقين بالله.

١٦-١٧- ووَرِثَ سليمانُ ﷺ أباه داود ﷺ من النبوَّة والعلم والملك، وبَشَّرَ سليمان ﷺ العباد بقوله: يا أيها الناس عُلِّمْنا كلام الطير، وأُعطينا من كلِّ شيء نحتاج إليه في الدين والدنيا. إنَّ هذا العطاء الكريم لهو الفضل الكبير الواضح، وجُمِعَ لسليمانَ ﷺ جنودُه من الجنِّ والإنس والطير بأصنافه، كل جنس بجيوشه منتظمين.

١٨-١٩- فسار موكب سليمان ﷺ وجنوده حتى إذا بلغ وادي النمل قالت نملة: يا أيها النمل انتبهوا، ادخلوا مساكنكم؛ لكيلا يَسْحَقَكم سليمان وجنوده، وهم لا يعلمون بذلك. فتبسَّم سليمان ضاحكاً من قول النملة، وفَهَّمَها أنَّ سليمان ﷺ وجنوده لا يُؤذون أحداً وهم يعلمون، وحرصهم على مصلحة النمل، وقال مُتضرِّعاً لربِّه سبحانه: يا ربِّ أَلْهِمْني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدَيَّ من النِّعَمِ الكثيرة، ووَفِّقْني أن أعملَ عملاً صالحاً ترضاه مني، وأَدْخِلْني برحمتك الواسعة، وامنَحْني الجنَّةَ مع عبادك الصالحين.

الفوائد والاستنباطات:

١- كان سُليمان بن داود نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل، لا ساحراً كما يزعُمُ اليهود.

٢- أفضل ما يَمُنُّ اللهُ به على عبده بعد الإيمان هو العلم، وبه يُفَضِّلُه على عباده الآخرين.

٣- المؤمن يعترف بالله بنِعَمِه عليه، ويَشكُرُه عليها، ويسألُه المزيد منها.

٤- التنظيم والترتيب في الأمور الإدارية مطلوب، كما كان جيش سليمان ﷺ.

٥- الاهتمام بالآخرين، ونُصْحُهم، وتقديم الخير لهم مرغوب فيه، حتى في عالم الطيور والحيوانات، كما حصل مع النملة.

٦- أثبت العلماء أن النمل من أكثر الحشرات تنظيماً، إذ تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال، ولديه وسائل للتواصل عن بُعد، وذلك من خلال إفراز مواد خاصة تنتشر رائحتها في كل اتجاه، وتميزها بقية النملات وتفهمها. وأن النملة لها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة واحدة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها بعض أفرادها مع بعض.

ومن الحقائق العلمية المؤكدة أن النملات المؤنثة هي التي تتولى الدفاع عن المستعمرة وحمايتها من أي خطر مفاجئ، وذلك بإصدار إشارات لبقية أفراد المستعمرة ليتنبهوا للخطر القادم.

(من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٦٧-٧٢).

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٠-٢٢- وبحث سليمان عليه السلام عن جنده من الطيور فقال: لِمَ لا أرى الهُدهد؟ بل كان من الغائبين، فلمَّا تبَيَّنَ أنَّه غائب أقسم لَيُعَذِّبَنَّه عذاباً شديداً، أو لَيذبحنَّه، أو لَيأتينَّه بحجَّة واضحة تُفْصِحُ عن عُذْرِه، فبقي الهُدهد غائباً زمناً يسيراً، وقال لسليمان عليه السلام: اطَّلَعْتُ على ما لم تَطَّلع عليه، وجئتك من مدينة سبأ - وهي قبيلة مشهورة في اليمن - بخبر عظيم موثوق مهم.

٢٣-٢٤- إنِّي رأيت في أهل سبأ امرأة تحكمهم، وأُعْطِيَتْ من كل أسباب الدنيا التي يحتاج إليها الملوك، ولها سرير عظيم القَدْر، رأيتها وقومَها يعبدون الشمس من دون الله سبحانه، وحَسَّنَ لهم الشيطان عبادة الشمس وغيرها من الأعمال القبيحة، فصرفهم عن الإيمان بالله تعالى، فهم لا يهتدون إلى طريق الحقِّ.

٢٥-٢٦- زَيَّنَ لهم الشيطان ذلك؛ لئلا يسجدوا للذي يخرج المخبوء في السموات والأرض، ويعلم ما تُسِرُّون وما تُظْهِرُون، الله سبحانه الذي لا معبود بحقٍّ غيره، وهو ربُّ العرش الذي هو أعظم المخلوقات.

٢٧-٢٨- قال سليمان عليه السلام للهدهد سنتثبَّتُ من الخبر، أَصَدَقْتَ في ذلك أم كنت من الكاذبين؟ وكتب كتاباً، ثمَّ أمر الهدهد أن يذهب به؛ ليبعثَه إلى ملكة سبأ، ثمَّ ينصرف عنهم؛ لينظر ماذا يَرُدُّون من الجواب؟

الفوائد والاستنباطات:

١- على القائد أن يتفقَّدَ جُنودَه، وعلى الرَّاعي أن يَتَفَقَّدَ رعيتَه؛ لِيَقِفَ على حاجاتهم، ويَرى انضباطهم.

٢- العدل في التحقيق والحكم واجب، ويكون بسماع كلام المُتَّهم، وقبول عذره إن كان مقبولاً.

٣- مهما أُوتيَ الإنسان من علم يبقى علمه قليلاً، وقد يكون الأدنى منه يعلم ما لا يعلَمُهُ هو.

٤- وجوب غَيْرَةِ المسلم على دينه، وإنكاره على أهل الباطل.

٥- على المسؤول التريُّثُ والتأنّي في الحكم على ما يسمع من كلام، ويقرأ من تقارير الآخرين، فلا يُسْرِع بقَبول ذلك، أو رَدِّه من دون تَثَبُّتٍ.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩-٣١- ولمَّا تسلَّمت ملكة سبأ الخطاب المهيب جَمَعَتْ كبار القوم، وخاطبتهم باحترام للمشورة والتَّقَوِّي: يا أيها الأشرافُ إنِّي أتاني كتاب عظيم مُرسَلٌ من سليمان، بدأه بشأن عظيم: بسم الله الرحمن الرحيم، ألَّا تتكبَّروا عليَّ، وأقبِلُوا إليَّ خاضعين لدين الله.

٣٢- ثمَّ كَرَّرت الخطاب بالتوقير للمشورة، معترفة بعدم اتِّخاذ القرار إلا بعد نَظَرِ الكبار.

٣٣- فأجابوها بالتلميح للمواجهة العسكرية: نحن أصحابُ قوَّة في الرجال والسلاح والمال، وأرباب عزم وحسم في القتال، والقرار موكولٌ إليكِ، فانظري في الأمر الذي تأمريننا به.

٣٤-٣٥- وهذه الإجابة طَمْأَنَتْها من طرف قومها، لكنَّها مُتَخَوِّفة من هيبة رسالة سليمان عليه السلام وما فيها من الحسم والجزم، فحَذَّرَتْ من المواجهة، وحاولت إرضاء الطرفين فقالت: إنَّ الملوك إذا استولَوا على بلدة بالجيوش خَرَّبوها، وأهانوا أشرافَها. ومثلَ ذلك يفعلون إذا انتصروا علينا، وإنِّي سأبعث إلى سليمان بهدية عظيمة، ومنتظرة: بِمَ يرجع الرسل من قبول الهدية، أو رَدِّها؟

الفوائد والاستنباطات:

١- يَجِبُ أن تكونَ الدعوة إلى الله بالحُسنى، كما ظهر ذلك من كتاب سُليمان عليه السلام لـمَلِكَةِ سبأ.

٢- الحاكم الصالح يقوم باستشارة كبار رجال دولَتِه، وفي هذا الخَيْرُ للدَّوْلَة.

٣- من أدب المستشارين تقديمُ آرائهم بأحسن صورة، وتفويض الحاكِمِ باتِّخاذ القرار.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٨- فلمّا جاء رُسُلُ الملكة بالهدية إلى سليمان عليه السلام، أنكَرَ عليهم مُوَبِّخاً لها ومَنْ معها: أتعطونني مالاً؟ فما أعطاني الله من العلم والنبوّة والملك أفضل ممّا أعطاكم من المال، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم، ارجع إليهم أيها الرسول المكلَّف، قسماً لنأتينَّهم بجنود متميزة لا طاقة لهم بمجابهتها، ولَنُخْرِجَنَّهم من أرضهم أذلّاءَ وهم مُهانون. وطلب سليمان عليه السلام من كبار معاونيه من الإنس والجن: أيُّكم يأتيني بعرش ملكة سبأ قبل أن يأتي القوم خاضعين؟

٣٩- قال ماردٌ قويٌّ من الجنِّ: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإنِّي لَقوي على حمله، أمين على ما فيه.

٤٠ - قال أحد العلماء بالكتاب الإلهي: أنا آتيك بعرشها قبل أن يرجع إليك بصرك إذا طَرَفْتَ بأجفانك، فدعا الله عز وجل، فأتى بالعرش. فلمّا رأى سليمان عليه السلام العرش حاضراً لديه قال: هذا الأمر من فضل الله؛ ليختبرَني: أأشكر الله على نِعَمِه أم أجحد؟ ومَنْ شكر الله على نِعَمِه فإنَّ ثواب شكره لنفسه، ومَنْ جحد النعمة ولم يشكرها فإنَّ ربِّي غنيٌّ عن الشكر، كريم بعموم خيره للعباد.

٤١-٤٣- فأراد سليمان عليه السلام أن يَدْعُوَها إلى الإسلام فقال: غَيِّروا بعض معالم عرشها لنرى: هل تهتدي إلى معرفته؟ فيكون سبباً لهدايتها إلى دين الإسلام، لِما في إحضار العرش من المعجزة العجيبة التي تَدُلُّ على صدق سليمان، فأجابت منبهرةً معترفةً بهذه المعجزة: كأنَّه هو بذاته - لأنَّها أدركَتْ فيه بعض التغيير- فعلم سليمانُ رُجْحانَ عقلها، فقال متحدِّثاً بنعمة الله، مُوَضِّحاً لها عظمة العلم إذا كان من عند

الله، وقدرة الله تعالى في تأييد أنبيائه: وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل علم ملكة (سبأ)، وكُنَّا مُنقادين لدين الله تعالى. ومَنَعَها عن الإيمان بالله عبادتُها الشمسَ من غير الله، فهي من قوم كافرين.

٤٤ - ولمَّا رأى سليمان منها ذكاءَها ودقَّة جوابها زادها مشهداً آخر؛ ليُرِيَها عظمة الملك الذي وهبه الله له، وليُكْرِمَها ويُنْزِلَها مقاماً يليق بها لدعوتها إلى الإسلام، ثمَّ لتأثيرها في قومها، فأمر بإدخالها إلى القصر العجيب ذي الأرض الزجاجية المائية! فدخلت ورأت صحنه من الزجاج الصافي وتحته الماء النقي، فحَسِبَتْ أنَّه ماء ذو أمواج متحرِّكة من غير زجاج، فكشفَتْ عن ساقَيْها لئلَّا تبتلَّ ثيابها، فقال لها سليمان: إنَّه صحن أملس من زجاج يُغَطِّي الماء . فعلمت نيَّة سليمان الصادقة في هدايتها وقومها، فأعلنت إسلامها قائلة: يا ربِّ إنِّني ظلمتُ نفسي بعبادة غيرك، وأسلمتُ خاضعةً لك؛ متابعةً لسليمان في انقياده لله ربِّ العالمين.

الفوائد والاستنباطات:

١- الداعية ليس جامع مال، ولا طالبَ دنيا، ولا يقبل الهدية إذا كانت ثمناً لِسُكوته عن الحق.

٢- التقدُّم العلميُّ والصناعيُّ والتِّقْنيُّ معروف مُنْذُ القِدَم، يَدُلُّنا عليه ما كانت عليه ملكة سبأ، وما كان عليه سليمان.

٣- إذا ذَكَرَ المؤمنُ بعضَ نِعَمِ الله عليه فلْيَكُنْ ذلك من باب شُكْرِ الله، والتحدُّث بنِعَمِ الله عليه.

٤- عظمة قدرة الله تعالى في تيسير الأمور التي هي شبه مستحيلة، فسبحان الله القادر.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦- وقسماً لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً عليه السلام لِيُبَلِّغهم، ويقول لهم: اعبدوا الله وحده. وفجأة ينقسم القوم إلى فريقين: مؤمنين وكافرين، فخاطب صالحٌ عليه السلام الكفّار مستعطفاً بنداء النسب: يا قومِ لماذا تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ هَلّا تطلبون من الله تعالى المغفرة؛ لكي تنالوا رحمة الله تعالى.

٤٧- فرَدُّوا عليه بسفاهة: تشاءمنا بك يا صالح وبمَنْ معك، فأجابهم بأدب: ما أصابكم من خير أو شرٍّ فهو مُقَدَّرٌ عليكم من الله تعالى، بل الحقيقة أنّكم تُختبرون بالابتلاء.

٤٨-٥٠- وكان في مدينة صالح - وهي حِجر ثمود - تسعة رجال أشرار مجرمين يسعون في الأرض فساداً، ولا يبالون بشيء من الإصلاح، وتآمروا على أن يتعاهدوا عهداً مؤكّداً بالقسم بالله تعالى أن نأتي صالحاً وأهل بيته المؤمنين بغتة في الليل فنقتلهم جميعاً، ثمّ إذا جاء وليُّ الدم من قرابته يطالبنا قلنا له: ما حَضَرْنا مكان القتل، ولا ندري مَنِ القاتل؟ وإنّنا لَصادقون في قولنا. وهكذا دَبَّروا هذه المكيدة، فعاقبهم الله بالدمار، وهم لا يشعرون أنّه سبحانه جَعَلَ تدميرهم في تدبيرهم.

٥١-٥٣- انظر - أيها الرسول - كيف كان عاقبة كيدهم؟ إنّنا أهْلَكْنا الرهط التسعة المجرمين وقومهم الكافرين أجمعين، فهذه مساكنهم البعيدة عن الأمن والإيمان خالية من البشر بسبب كفرهم. إنَّ في ذلك العقاب لَدلالةً واضحة على قدرة الله تعالى في الانتقام من المجرمين لقوم يعلمون اتِّباع الحق، وأنقذنا المؤمنين الذين يمتثلون أمر الله، ويجتنبون نَهْيَه.

٥٤-٥٥- ولقد أرسلنا لوطاً عليه السلام إلى قومه حين قال لهم مُنْكِراً عليهم: أتفعلون الجريمة البشعة المتناهية في القبح والفحش،وأنتم تعلمون أنَّه إجرام فاضح؟ ثمَّ وَبَّخهم تارة أخرى: أإنكم لَتَغْشَون الرجال في أدبارهم من أجل الشهوة الشيطانية، وتتركون ما أحَلَّه الله لكم من النساء، بل أنتم تجهلون خطورة هذه الجريمة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: أطلال قوم صالح، كما في الملحق.

٢- رعاية الله تعالى الأنبياء من بطش الأعداء.

٣- مِنْ أقبح صور الانحراف والشذوذ ارتكاب الفواحش عَلَناً.

٤- ينظر: صورة النخل المنقعر والخاوي، كما في الملحق.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- لكنهم أصَرُّوا على جريمتهم الشنيعة، ورَدُّوا على نبيِّهم لوط بتهكمٍ واستهزاء، فقالوا: أَخْرِجُوا لوطاً وأهل بيته من بلدكم. إنَّ هؤلاء يترفَّعون عن مشاركتكم فيما تفعلونه، ولا يُقِرُّون صَنيعكم، فلا يَصْلُحُون لمجاورتكم في بلادكم.

٥٧- وعندما قرَّرْنا عقابهم- لما لنا من العظمة والقدرة - أنجينا رسولنا لوطاً وأهل بيته من العذاب الذي سيَحُلُّ بقومِه، لكن امرأته كتبنا عليها أن تكون من الباقين في العذاب مع الهالكين؛ لأنَّها كانت رِدْءاً لهم، تَدُلُّهم على ضيوف لوط؛ ليأتوا إليهم، ويطمعوا فيهم.

٥٨- ولما لنا من العظمة والقدرة، أمْطَرْنا على هؤلاء المفسدين من السماء مَطَر سوء، فيه حجارةٌ من طينٍ مُهْلِكَةٌ، فساء مطر هؤلاء الذين أنذرهم لوط، فقامَتْ عليهم الحُجَّةُ؛ لأنهم كَذَّبوا رسولهم، وهَمُّوا بإخراجه، فاستحَقُّوا العذاب. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فساء مطر المُنْذَرين مَطَرُهم.

٥٩- أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أنْ يَحْمَدَ الله على ما تَضَمَّنَتْه قصص الأنبياء من العذاب الذي حَلَّ بأقوامهم المكذِّبين، وعلى ما أفاده سَوْقُ تلك القصص من الإيماء إلى الوعد بالنصر على أعدائه. كما أمره أن يَتْبَعَ الحمدَ بالسَّلام على عباده الذين اختارهم؛ لينهضوا بالرسالة. وفي هذا وفاءٌ وتقديرٌ لمنزلة ما تَجَشَّمُوه في سبيل الدعوة. ثم أمره أن يردَّ على المشركين مُنْكِراً عليهم: آللهُ الذي ذُكِرَتْ أفعالُه وصفاتُه الدَّالة على عظيم قدرته خير، أم هذه الأصنامُ التي تُشْرِكونها مع الله في العبادة؟

الفوائد والاستنباطات:

١- يضيق المفسدون في الأرض ذَرْعاً بمَنْ يُعارِضُ نَزَواتِهم.

٢- الرِّضا بفِعْل الآخرين للمنكر، وإعانتهم على تعاطيه، سببٌ لاستحقاق العذاب.

٣- قد يُعَجِّل الله عقوبته للمفسدين في الأرض، وقد يُؤَخِّرُها إلى يوم الدين.

٤- في قصص القرآن دروس للدعاة بأنَّ نصر الله قريب.

٥- لم ينفع امرأة لوط أنَّها امرأة نبيّ، فلا يُنْجِي من العذاب الصلة بالصالحين.

٦- قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: «يَسْأل الله أن يُكْرِمَ عباده الذين اصطفى بالثناء عليهم في الملأ الأعلى، وحُسْنِ الذِّكْرِ؛ إذ قصارى ما يستطيعه الحاضر من جزاء الغائب على حُسْن صنيعه، أن يبتهلَ إلى الله أن ينفحه بالكرامة». (التحرير والتنوير: ٨/ ٨).

٧- في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جاءت لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ بصيغة التفضيل؛ مجاراةً لمعتقدهم أنَّ أصنامهم شركاء لله، فكان لهم حظ من الخير، وعبَّر بـ ﴿خَيْرٌ﴾ لإيهام أنَّ المقام لإظهار رجحان إلهية الله؛ استدراجاً لهم في التنبيه على الخطأ مع التهكم بهم، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله؛ وذلك لتنفتح بصائرهم إلى الحق. (انظر: البسيط للواحدي ١٧/ ٢٧٢).

٨- لله أن يتمدَّحَ بنفسه، ويدعو الناس إلى ذلك؛ لأنه أَهْلٌ له، وهذا ليس لغيره.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

التفسير:

٦٠- واسأل قومك أيها الرسول: أعبادةُ ما تعبدون من الأوثان خير، أم عبادةُ الله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء مطراً نافعاً، تقوم به شؤونكم في الحياة، وأنبت الله بسببه حدائق وبساتين ذات منظر حسن، تَقَرُّ به عيون الناظرين؟ ليس في قدرتكم أن تُنْبِتُوا شَجَرَها، لولا أنَّ الله خلق لكم الأسباب والمسبَّبات، فأزال ما يمنع هذا الإنبات، فهل ثمة خالق مع الله يُعِينه على ذلك؟ بل إنَّ هؤلاء المشركين قوم يميلون عن طريق الحق، فيجعلون غير الله نظيراً له في العبادة، وهو المُتفَرِّدُ بالخَلْقِ والرِّزق والتدبير.

٦١- اسألهم أيها الرسول: أعبادةُ غيرِ الله خير، أم الذي مَهَّدَ الأرض للإقامة عليها، وجعلها ثابتة مستقرة - كما تبدو في الظاهر- فلا تميد، مع أنها تَسْبَحُ في الهواء متحركة؟ وجعل بينها أنهاراً أجراها بحسب مصالح العباد، كما أنشأ لهذه الأرض جبالاً ثوابتَ شامخة، تُرْسِي الأرض وتُثَبِّتها، وجعل بين المياه العذبة والمياه الملحة مانعاً يمنعها من الاختلاط؛ لأنَّ بديع حكمة الله قضت ببقاء كلٍّ منهما وفق صفته التي قدَّرها. أثمة إله مع الله شارك الله في إبداع هذا الخلق، فأشركتموه في عبادتكم إياه. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يُدْرِكُون عجائب قدرة الله، فيُشْرِكُون معه غيره في عبادته، وهم لا يعلمون ما عليهم من الشقاء؛ بسبب إشراكهم بالله، ولا يُدْرِكُون ما لهم من السعادة في إفرادهم له.

٦٢- بل اسألهم يا محمد: أعبادة ما تشركون مع الله خير، أم عبادة الله، فهو الذي يجيب المحتاجَ إذا سأل؛ ليكشِفَ كَرْبَه، ويُزيلَ ما يعتريه من مكروه. وهو الذي يجعلكم -أيها الناس- تَعْمُرون الأرض، وتَجْتَنُون منافعها، وما ادَّخَرَتْه من كنوز، ويجعل كل حَيّ خَلَفاً عَمَّنْ سَلَفَه، وكلَّ أُمة خَلَفاً عن أُمة عاشت

قبلها. ليس هناك إله آخر يمنحكم هذه النِّعَم، ويُقَدِّر لكم التصرُّف فيها. ما أقلَّ تَذَكُّرَكم - أيها المشركون- في الاستدلال والاعتبار المُوصِلِ للتصديق والإيمان!!.

٦٣- بل اسألهم - يا رسولَ الله - عَمَّنْ يُرْشِدُهم إلى سلوك الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر إذا ضَلُّوا، فخلق لهم النجوم، وهَيَّأ لها نظاماً؛ لتهديَ السائرين، ووَضَع في الناس المدارك التي تُعَرِّفهم متابعة المسير الصحيح. واسألهم عَمَّن يُرْسِلُ الرياح مُبَشِّراتٍ بين يدي السحاب الذي يسوق مطراً يُغيث العباد القَنِطين، ويُحْيي الأرض المجدبة. فهل ثمة إله مع الله يصنع ذلك؟ تَنَزَّه اللهُ المتفرِّد عن أن يكون له شريك.

٦٤- بل اسألهم أيها الرسول: مَنْ الذي يُنشِئُ الخَلْقَ ابتداءً من غير مثالٍ سبق، ثم يُعيد هذا الخَلْقَ بعد فَنائِه كهيئته قبل أن يُفْنِيَه. ومَنْ الذي يُنْزِلُ لكم المطر الذي فيه رِزْقُكم من السماء، ومَنْ الذي يُنْبِتُ لكم أنواع الزروع والثمار في الأرض؟ أثمة إلهٌ مع الله يفعل ذلك؟

قل لهم أيها الرسول: هاتُوا حُجَّتكم إن كنتم تزعمون أنكم صادقون في اتخاذكم شركاء لله في العبادة، وأنَّ أحداً يفعل هذه النِّعَم المتقدمة سوى الله.

٦٥- قل لهم أيها الرسول: إنَّ الغيب لا يعلمه أحد في السموات ولا في الأرض إلا الله؛ فقد استأثر بدقائقه، ولا عِلْمَ لهم متى يُبعثون؟

الفوائد والاستنباطات:

١- نون الجمع في ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الحضور. ومن لطائفه هنا: التنصيص على أنَّ المقصود إسناد الإنبات إليه؛ لئلَّا ينصرفَ ضمير الغائب إلى الماء؛ لأنَّ التذكير بالمُنْبِتِ الحقيقي الذي خلق الأسباب أليقُ بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نِعَمَه.

٢- في قوله: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ إشارة إلى استمتاع الفطرة بالمنظر الجميل.

٣- استخدم القرآن الكريم طائفةً كبيرة من الاستدلالات العقلية التي تحملُ قَدْراً من المقدِّمات، والنتائج القاطعة.

٤- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٥- في الآية (٦٢) إخبار مستقبليٌّ في استجابة الله تعالى المنكوبين، إذا أخلصوا الدُّعاء له. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وبشارة لعباد الله المؤمنين أنَّ الله ﷻ سيجعلهم خلفاء لِـمَنْ سبقوهم من الكفَّار في الأرض.

٦- في الآية (٦٣) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله يرسل الرياح مُبَشِّرات بما يرحم به عباده من غيث يُحيي مَواتَ الأرض.

٧- عن عائشة رضي الله عنها ومَنْ زعم أنّه - الرسول ﷺ - يُخْبِرُ بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْيَةَ، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: ولقد رآه نزلة أخرى. ١/ ١٥٩، برقم ١٧٧).

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

التفسير:

٦٦- بل كان هؤلاء القوم في جهل من وقوع الآخرة، وغاب عِلْمُهم عمّا تشتمل عليه من أهوالٍ. حتى إذا عاينوها يوم القيامة، ورأوا كلَّ ما وُعِدوا به، تَكامَلَ لديهم عِلْمُ ما كانوا يجهلونه، أو يُنْكِرُونه في دار الدنيا. بل كانوا من قبلُ في شكٍ مريب، بل عَمِيَتْ أبصارُهم وبصائرُهم في الدنيا، فلا يُدْرِكون شيئاً من دلائل الآخرة.

٦٧- شَرَعَ الكافرون المُنْكِرون للبعث يُرَدِّدُون ما يعتقدونه: أنحن إذا مِتْنا، ومات آباؤنا الأولون، وبَلِيَتِ الأجساد فصارت تراباً، أَنُبْعَثُ أحياءً كهيئتنا التي كُنَّا عليها قبل الموت، فنخرج من قبورنا؟ ذلك رَجْعٌ بعيد.

٦٨- ويؤكد هؤلاء الجاحدون مزاعِمَهم بأنَّ وَعْدَ البعث والنشأة الآخرة، كل أولئك أوهام غابرة مُلَفَّقة ومزاعم قِيلَتْ لنا، ولآبائنا من قبلنا، ولم يقع منها ما يَدُلُّ على صِدْقِ مضمونها.

٦٩- قل- أيها الرسول- لهؤلاء الجاحدين: تأمَّلُوا في أحوال الأُمم السابقة التي كَذَّبَتِ الرسل الذين قَدَّمُوا النصح لهم، وانظروا ما حَلَّ بهؤلاء المكذِّبين لرسلهم. لقد مَزَّقهم الله كلَّ ممزق، وكان مآلُهم إلى هلاك وبَوار.

٧٠- ويربط الله سبحانه على قلب نبيِّه، ويُلْقي في رُوعه رباطة الجأش، من خلال ما يعانيه في سبيل دعوته، فلا تَذْهَبْ نفسُك حَسَراتٍ على هؤلاء المكذبين من قومك، فإنما عليك البلاغ، ولا تكن في حرجٍ يضيق عنه صدرك؛ بسبب ما يكيدونه لك من مكرٍ وافتراء، فإنَّ الله ناصِرُك عليهم.

٧١- وتَمْضي الآيات بالحديث عمّا يستخدمه هؤلاء الجاحدون، من أساليب تتضمّن السخرية والتهكم، فهم يستبعدون ما يَعِدُهم به رسولُهم من العذاب، ويطلبون تعيين وقت هذا الوعيد المرتقب، إن كان على يقينٍ بوقوعه.

٧٢- قل لهم أيها الرسول: أرجو أن يكون وعيدُ الله الذي تُوعَدون به، وتستعجلون إحاطته بكم، قد اقترب أَجَلُه، ودنا منكم. وفي هذا إشارة إلى المصير الذي ينتظرهم في موقعة بدر.

الفوائد والاستنباطات:

١- التعبير بالظرفية في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾ للدلالة على إحاطة الشك بهم، ووقوعهم فيه، كما أنَّ التعبير بالجملة الاسمية ﴿هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ للدلالة على ثبات الخبر ودوامه.

٢- أحاط الله بكل شيء علماً في السموات والأرض.

٣- لله على الناس فضلٌ عظيم، ولكنَّ طبيعة أكثرهم الجحود بهذا الفضل.

٤- لا يَعْقِلُ دعوةَ الله مَنْ أصمَّه الله عن سماع الحق.

٥- قال ابن عاشور في الآية (٦٦): «﴿عَمُونَ﴾: جمع عَمٍ، وهو فَعِل من العمى مثال مبالغة للدلالة على شِدَّة العمى، وهو تشبيه عدم العلم بالعمى، وعادم العلم بالأعمى، فشبَّه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب، على تشبيه المعقول بالمحسوس». (التحرير والتنوير: ٨/ ٢٣).

٦- كل حكم يُصَدَّر بـ «قل» دليل على الاهتمام به؛ لأنَّ الله تعالى جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه. (انظر: تفسير الشيخ ابن عثيمين ٦/ ١٩٦).

٧- إذا بذل الداعية ما يجب عليه فقد يخالفه الناس. وهذه المخالفة ينبغي ألَّا تُعيقَه عن متابعة سيره.

٨- في الآية (٧٢) ﴿رَدِفَ﴾ ضُمِّن معنى فِعْلٍ يتعدى باللام أي: اقترب لكم. (انظر: الدر المصون ٨/ ٦٣٩).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

التفسير:

٧٣- إذا كان ربُّك - يا رسول الله - قد كتب على قومك تأخير عقوبته، وتنفيذَ وعيده؛ بسبب إعراضهم وتكذيبهم لك، فإنَّ ذلك من فضله. وكلَّ وقت تتأخر فيه نقمة الله إنما يكونون في فسحة. إنَّ نِعَمَ الله متعددة تستوجب منهم أن يشكروه، ولكنَّ أكثرهم جاحدون فَضْلَنا عليهم.

٧٤- وإنَّ ربك- أيها الرسول - لَعليم بكلِّ ما تُخفي صدورُهم، وما يُظهرونه من الأقوال والأفعال. فإن أضمر هؤلاء المكذِّبون شيئاً فإنَّه سبحانه مُطَّلِعٌ على سرائرهم وعلانيتهم، وهو يعلم ما يكيدونه تجاه المؤمنين.

٧٥- والله سبحانه عالم بكل ما غاب عن العباد في السماء والأرض، فلا يَعْزُب عن عِلْمِه شيء، وقد أودع تفصيل ذلك في أمِّ الكتاب لديه، فكيف يستعجل هؤلاء شيئاً من العذاب قبل أَجَلِه المضروب له؟

٧٦- إنَّ هذا الكتاب المُنَزَّلَ عليك- أيها الرسول - وَحْيٌ من الله، يُبَيِّن لبني إسرائيل البيان الحق الذي أرادوا إخفاءه، وخَبَطُوا في تحريفه، ويَرُدُّهم إلى الصواب في أكثر ما اختلفت فيه فِرَقُهم.

٧٧- إنَّ هذا القرآن استوعب مقاصد متعددة، فهو هدىً للمؤمنين به، وهو كذلك رحمة مُهْداة لِمَنْ اتَّبعوا نوره، فنالوا الفوز في الدنيا والآخرة، وخَصَّ المؤمنين بالذِّكْر؛ لأنَّهم المنتفعون به.

٧٨- أيها الرسول، إنَّ ربك يومَ يفصل بين الخلائق، ويقضي بين الفِرَق التي اختلفت في عقائدها، يحكم بقوله الحق، ويُجازي المحسن الذي انتهج سواء الصراط، ويعاقب المسيء الذي ضَلَّ فيه، وهو العزيز في انتقامه، العليم بأحوال عباده.

٧٩- فإذا كان ربُّك - يا رسول الله - هو الذي يقضي، فعليك أن تعتمد عليه في جميع أمورك، وتُفَوِّضَ أَمْرَكَ إليه؛ فإنك قد أدَّيْتَ الرسالة، وبَلَّغْتَ الأمانة، وتمكَّنْتَ من الحق الواضح.

٨٠- لقد أعرض المشركون عن دعوتك؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بما منحهم الله من قُدرات، فهم موتى لم يفتحوا عقولهم وقلوبهم لآيات القرآن العزيز، وهم صُمٌّ قد صَكُّوا أسماعهم عن الاهتداء بها. وتَوْلِيَتُهم مُدْبِرين أبعدُ في انتفاء حاسَّة السمع عنهم.

٨١- ولن تستطيع- يا رسول الله- أن تَهْدِيَ إلى الحقِّ العُمْيَ الذين عَمِيَتْ أبصارهم وبصائرهم عن الإيمان به. وإذا كان السَّامعُ يَتَرَقَّبُ معرفة مَنْ هم على خلاف ذلك، يأتي السياق ليُعَيِّنَهم، فهم المستجيبون للدعوة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القرآن الكريم بيانٌ شافٍ يَرُدُّ بني إسرائيل إلى الصواب فيما اختلفوا فيه.

٢- لم يَقُصَّ اللهُ جميع ما اختلف فيه بنو إسرائيل؛ لأنَّ من ذلك ما لا فائدة من ذِكْره، فينبغي للداعية أن يقتصر على المهمِّ اللازم.

٣- قال أبو حيان: «أمر الله تعالى رسوله بالتوكُّل عليه، وأخبره أنَّه على الحق الواضح الذي لا شك فيه، وهو كالتعليل للتوكل. وفيه دليلٌ على أنَّ مَنْ كان على الحق يحقُّ له أن يثق بالله، فإنَّه ينصره ولا يخذله».

(البحر المحيط ٧/ ٩٦).

٤- قال ابن عاشور: «شُبِّهوا بالموتى في انتفاء إدراك المعاني الذي يتمتع به العقلاء، وبالصُّمِّ في انتفاء إدراك بلاغة الكلام، وشُبِّهوا ثالثاً بالعُمْي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال».

(التحرير والتنوير: ٨/ ٣٦).

٥- جاء التعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ ليشملَ رَكْبَ الإيمان إلى يوم الدين، في حين أنَّ ختامَ الآية ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ جاء على نسق الجملة الاسمية؛ ليفيدَ الدوام والثبات، فهم إذا آمنوا غدا الإسلام راسخاً فيهم.

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

التفسير:

٨٢- وإذا حَلَّ بهم وعيدُنا أظهَرْنا لهم علامةً كبرى من علامات الساعة، وهي الدابَّةُ التي تُكَلِّمهم أنَّ الناس دأبوا على الإعراض والشك في آيات الله.

٨٣- واذكر - يا محمد- الحشر الذي يَخُصُّ زمرة من الطغاة، وهم أئمة الضلال ورؤساؤهم، مِمَّنْ كان يُجاهر بإعراضه وهَجْرِه لشرع الله، فيَمْثُلون بين يدي ربهم في الرَّعيل الأول مِمَّنْ يُعاينون أهوال العذاب، فيتَلَقَّون مُقَدِّماتها وهو الخزي والزجر فيُدْفَعُون، ويُرَدُّ أَوَّلُهم على آخرهم، في موقفٍ مهين.

٨٤- ويَقْدُم هؤلاء الطغاة المكذِّبون أقوامَهم؛ ليواجهوا السؤال العسير في اليوم العصيب: ما شأنُكم بآيات الله التي ذَكَّرْتُكم بها لبيان قدرته، وإثبات وحدانيته، وأنتم لم تَعُوها، فكذَّبْتُم وأعرضتم، أم ما الذي كنتم تعملونه في حياتكم المديدة؟

٨٥- وهاهي أهوال العذاب تُلاحِقُهم في هذا الموقف الرهيب، ساعةَ حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب؛ بسبب ما اقترفوه من الشِّرْك بخالقهم، وما تبع ذلك من تكذيب رسله، وقد وَفَّاهم ما يستحقونه، لم يكونوا قادرين على أن يُنْكِروا أو يعتذروا، فوَجَموا مُبْلِسِين.

الفوائد والاستنباطات:

١- يُخْرِجُ الله بين يدي الساعة آيات خارقة للعادة تباغت أهل الباطل.

٢- أئمة الضلال يَقْدُمون قومهم يوم الحساب، وهذا يشير إلى عِظَم الإمامة في السُّوء، كما هي في الخير.

٣- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ ظاهره أنَّ الكفار لا ينطقون يوم القيامة، مع أنَّه بَيَّنَتْ آياتٌ أُخَرُ من كتاب الله أنَّهم ينطقون يوم القيامة ويعتذرون. ومن الجواب عن هذا أنَّ القيامة مواطن، ففي بعضها ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون، وأنَّ نُطْقَهم المثبت لهم خاصٌّ بما لا فائدة لهم فيه». (أضواء البيان: ٦/ ٤٨٨).

٤- الجهل بالحق من أسباب التكذيب به، وفي الآيات ذَمٌّ للتعجُّل في الحكم على الشيء دون الإحاطة به.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

التفسير:

٨٦- تخاطب الآيات الكريمة عقول المكذِّبين وأفئدتهم؛ لئلَّا يستولي عليها ما أَلِفُوه من المشاهد التي تتكرر أمام أعينهم كل يوم، فأصبحوا لا يفكرون في مُبْدِعها ومُجْريها بحُسْبان دقيق. فما أجْدَرَهم أن يَرْعَوُوا عن شركهم أمام آية اختلاف الليل والنهار!! وفيها جَعَلَ اللهُ الليلَ مظلماً؛ ليتحققَ للناس السكونُ والهدوء، وجَعَلَ النهار مضيئاً، وذلك أدعى للانتشار والحركة الدؤوب. أليست هذه الآية المتكررة ونظائرها المبثوثة في الكون مَدْعَاةً للإيمان بالله وقدرته، وجليل نعمائه؟

٨٧- واذكر - يا رسول الله - كذلك يوم يَنْفخ المَلَكُ المُكَلَّف بالقَرْن نفخة الفزع، فكلُّ مَنْ في السموات والأرض يرتعدون وَجِلِين مِنْ هول ما سمعوا ورأوا، إلَّا مَنْ أكرمه الله، ومنحه الأمان من هذا الاضطراب الماثل في الكون، كالشهداء والأنبياء والملائكة. وكل الخلائق يَفِدُون إلى ربِّهم صاغِرِين ذليلين.

٨٨- وترى - أيها الرسول - عقب نفخة الصور شوامخ الجبال، فتظنُّها ثابتة راسية ساكنة، مع أنها تسير سيراً حثيثاً، فتزول عن أماكنها، وهي تشبه في هذه الظاهرةِ السَّحابَ إذ تدفعه الرياح، فيُسرع وقد تخلخلت أجزاؤه. فمَنِ الذي أبدع هذا النظام الكونيَّ العجيب؟ إنَّه الله سبحانه الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقَه وقَدَّره تقديراً، وهو عليمٌ بما تفعلونه، وسوف يجازيكم عليه.

٨٩- ٩٠- ها هم الخلائق يَفِدُون إلى ربِّهم. وفي هذا الموقف العصيب لا ينفع أحداً إلا ما قَدَّمه من عمل في حياته الدنيا، فمنهم السعداء، ومنهم الأشقياء، فمَنْ جاء إلى ربِّه بكلمة التوحيد مخلصاً قانتاً سَعِدَ بما أعدَّ له من الثواب العظيم، الذي يتضاعف عشرة أمثال ما قَدَّمه من العمل الصالح، ولا يحزنهم الفزع الأكبر؛ لأنَّهم آمنون من مشاهده وأهواله. وأمَّا الأشقياء فهم في مشاهد مخزية من الذل والمهانة، إذ يُقْلَبُ

ظاهرُ وجوههم إلى الأرض؛ لأنَّ الوجوه هي أول ما يُقْذَفُ بها أسفلَ سافلين إلى دَرَكات الجحيم؛ فقد كانت من قبلُ حريصة على اتباع الهوى، فيُوَبَّخون: إنَّكم لا تَلْقَوْن جزاءً إلا حصاد جرائمكم المتقدمة.

٩١- قل أيها الرسول: أمرني ربي أن أخصَّه بالعبادة وحده، ولا أشرك به شيئاً، وهو رَبُّ مكة الذي قضى أن تكون حَرَماً آمناً، فلا يُسْفَكُ فيها دم، ولا يُصاد فيها صيد، ولا يُعضد فيها شجر. وفي هذا التحريم كمالٌ للمُحَرَّم، فلا يَدْخُلُ في هذه البلدة ما يخالف صلاحها، أو يَضُرُّ بالحالِّين فيها. وإذا كان سبحانه هو ربَّ هذه البلدة، فإنَّ له كلَّ شيء. وهو احتراس؛ فلا يقتصر مُلْكُه عليها، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وقد أَمَرَ اللهُ رسوله أن يبقى من المُوَحِّدين له، المخلصين المنقادين لأمره.

٩٢- كما أمرني ربي أن أتلو القرآن على الناس، فأُبَلِّغهم بما فيه، مُنْذِراً ومبشِّراً. فمَنِ اهتدى بنور الله فإنَّ نَفْعَ ذلك يعود إليه بطمأنينة النفس، وسلوك الصراط المستقيم. ومن آثر هواه، وكذَّب برُسُلِه، فقل له أيها الرسول: إنما أنا لَبِنَةٌ من بناء محكم من الرسل لإنذار الناس، ولا أملك أن أهدي أحداً.

٩٣- وقل أيها الرسول: الثناء العظيم على الله بآلائه العديدة التي أنعمها علينا في الدنيا والآخرة، وسوف تَرَوْنَ آياته في الدنيا، فتعرفون دلالتها على ما بَلَّغْتكُم به، وتَعْرِفُون قدرته على إحكامها، ويتبيَّن لكم الحقُّ عند معاينة الموت، ولكن لن يُقْبَلَ منكم الإيمان والإذعان. إنَّ ربَّك شهيد عليكم، وليس بغافلٍ عن عمل المكذِّبين.

الفوائد والاستنباطات:

١- استثنى الله طائفة من خَلْقِه، فأمَّنهم من الفزع الأكبر.

٢- أتقن الله ﷻ كلَّ شيء خَلَقَه، فقَدَّره أحسن تقدير.

٣- قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مفعول مطلق عامله فعل مضمر من لفظه، فهو مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة التي تليها. (انظر: البحر المحيط ٧/ ١٠٠)

٤- يتعدَّد عذاب أهل النار، فمنه ما هو بدنيٌّ، ومنه ما هو نفسيٌّ، إذ يُوَبَّخون ويُقَرَّعون.

٥- في الآية (٩١) جاء الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ جارياً على «الله»، ولم يَجْرِ على البلدة، فلم يقل «التي حرمها الله»، وذلك لما يتضمَّنه ذلك من التذكير بالنِّقمة عليهم، ومن التعريض بضلالهم، فقد عبدوا أصناماً لم تُكْسِبِ البلدة فضلاً ومزية. (التحرير والتنوير: ٨/ ٥٦).

٦- في الآية (٩٣) إخبار مستقبليٌّ عن براهين ودلالات سيُريها اللهُ عبادَه في أنفسهم وفي السماء والأرض، فيعرفونها معرفة تَدُلُّهم على الحقِّ. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر وهو أنَّ الله ﷻ لا يَغْفُل عمَّا يعمل عباده سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان إعجاز القرآن الكريم.

٢ - التفصيل في نشأة موسى عليه السلام، وزوال ملك فرعون.

٣ - بيان سنة الله في بعثة الرسل، ومصير الأُمم المكذِّبة لرسلها.

٤ - أدلة وحدانية الله تعالى، وقدرته.

٥ - تسلية النبي ﷺ، وتثبيته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ - ﴿طسٓمٓ﴾ سبق الكلام على دلالات هذه الحروف أول سورة البقرة، وأنَّها من إعجاز القرآن.

٢ - ذلك القرآن الذي أوحيناه إليك - يا رسول الله - ذو شأن عظيم يتضمن آيات بينات واضحات، فيها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة لِـمَنْ تَدَبَّره، وعَمِلَ به.

٣ - ثمة خبرٌ له أهميته، نقرؤه عليك يا محمد، يتصل بما جرى بين موسى والطاغية فرعون من أحداث، وهو خبر صِدْقٍ ويقين، جدير بأن يعتقده ذوو الفهم السليم من المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً وعلماً، ويَتَثَبَّتَ فؤادُهم.

٤ - شرعت الآيات تُبيِّن الإجمال المتقدم حول الخبر الحق، وبدأت بتأكيد ما اقترفه فرعون الذي أراد لنفسه العظمة والتجبُّر، وجعل أهل بلده فِرَقاً مُتناحرة، تُعادي كلُّ فِرْقَةٍ منها الفِرَقَ الأخرى، وقد أغرى

بينها العداوة والبغضاء؛ ليأمَنَ تَألُّبَهم عليه، ومضى يحتقر بني إسرائيل، ويُسَخِّرهم لمنفعته، ويَبْتَزُّهم لهواه، وعزم على ذَبْحِ مواليد بني إسرائيل من الذُّكور؛ حتى لا يكون فيهم خطر عليه، كما كان يستبقي الإناث للخدمة والامتهان. إنَّ هذا الطاغية من الذين أفسدوا في الأرض.

٥- ونحن - لما لنا من العظمة والقدرة - نريد أن نُنْعِمَ على الذين أحاطهم فرعون في أرض مصر بظُلْمِه واستعلائه، فكان يُذيقهم من أشكال الخزي والهوان، كما نريد أن نَتَفَضَّل عليهم، فنُخْرِجَهم من أسْرِ العبودية والذلِّ؛ ليكونَ لهم كيان وقوة، فيصيروا أسوة يُقتدى بهم في الهدى والخير. وقد بلغوا ذلك في أزمنة متلاحقة، إذ أورثهم الله مُلْكَ مصر، ومَنَحَهم النفوذ الواسع.

٦- واشتمل وَعْدُنا على تثبيت سلطتهم، وتهيئة الأسباب التي تُرسي مُلْكَهم على أرض مصر. أما الطاغية فرعون ووزيره هامان والجيش الذي يأتمر بأمرهما، فسوف يَرَوْن بأعينهم مُثول الخطر القادم من المَنْفَذِ الذي كانوا يخافون منه على يَدَي المولود، الذي هَيَّأ الله له تحقيق ما تَكَفَّلَ به سبحانه، على الرغم من أنَّ هذا المولود نشأ وتربَّى في كَنَفِ قصور فرعون. أليس الله غالباً على أمره، ومُحَقِّقاً لإرادته؟

الفوائد والاستنباطات:

١- القصص القرآني وسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله.

٢- العُلُوُّ الحق لله وحده سبحانه، وعُلُوُّ فرعون لم يُغْنِ عنه شيئاً في دَفْع عاقبة السوء.

٣- تمكين الإنسان في الأرض من نعمة الله عليه؛ لأنَّ هذا من جملة ما أنعم الله به على بني إسرائيل أنْ مَكَّنهم في الأرض.

٤- مهما بلغت الأمة من الضعف فإنَّها إذا حققت العبودية لله تعالى فهي مؤهلة للريادة والسيادة.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٧- وُلِد الفتى الذي سيكون سبباً لتحقيق ما يريده الله لبني إسرائيل، وخافت أمه عليه من اعتداء زبانية فرعون، وحارت في أمرها، فألهمها الله ما أوقع في فؤادها يقيناً تَوَجَّهت إليه، فمضَتْ تُرْضِعُه لتقوى بُنْيَتُه، وتُخفيه عن العيون، فإذا أحَسَّتْ بالخطر يداهم وليدَها فمِنْ وحي الله لها أن تُجهِّزَ له وعاءً، وتُودِعَه نهر النيل، وألا تخاف عليه الهلاك، ولا تحزنَ على فِراقه، والله سبحانه يتكفَّلُ بحِفْظِه ورَدِّه إليها، وسوف يجعله من رسل الله.

٨- وانتشل أعوان فرعون هذا الوعاءَ الذي يطفو على سطح الماء رأفةً به؛ ليكون في نجاته ما يُحَقِّقُ قَدَرَ الله، فسوف يغدو هذا الوليد سبباً في زوال دولة فرعون؛ لأنَّه سيكون عدوّاً لكبيرها، مخالفاً لدينه، ومصدر هَمٍّ ونَكَدٍ له. إنَّ فرعون ووزيره هامان ومَنْ يتبعهما كانوا يستحقُّون المصير السَّيئ عقاباً لهم على ما ارتكبوه من الشرك والآثام، وظلمهم لبني إسرائيل.

٩- حَمَلَ الأعوانُ الوليدَ، ووضعوه بين يدي فرعون وامرأته، وكان أمثالُه من ذكور بني إسرائيل يتعرَّضون للقتل، كما قرَّر فرعون. فرَقَّتْ له آسيا، وألقى الله محبته في قلبها، ومَضَتْ تُعَلِّل طَلَبَها، وهو صَرْفُ زوجِها عن قَتْلِه، وكان لها منزلة لديه، فعَبَّرتْ عن أملها أن يكون مصدر سرور لها وله، فتقَرَّ العين به، ويميل القلب إليه. وهذا الوليد إذا تربَّى في كَنَفِنا رَجَوْنا نَفْعَه، ويكون لنا بمنزلة الولد. وقد غاب عن عِلْمِ هؤلاء ما أراده الله من أنَّ زَوال دولتِهم وطغيانِهم سوف يكون على يَدَي هذا الوليد.

١٠ - وباتت أمُّ موسى في هَمٍّ جثم على قلبها، فهي خائفة على مصيره بعد وقوعه في البلاط الفرعوني، وفَرَغَ قلبُها من كلِّ شيء غيرَ ذِكْرِ ابنها الذي ملك عليها كيانها، وقد قارَبَتْ أن تفضح أمرها، وتكشف عن مكنونها لولا قَدَرُ الله، فقد وَثَّقَ قلبها، فعصمها من إظهار خبره، فاطمأن فؤادُها لتُحْرِزَ منزلة المُصَدِّقين بوعد الله.

١١ - وهُرِعَتْ أُمُّ موسى لأخته، وطلبت منها أن تَتَبَّعَ آثاره والعلامات الدالة عليه، وتنظر في خبره، وأين يُلقيه اليمُّ، فانتهى بصرها إليه، وحَدَّقَتْ به من مكان بعيد، ولم يشعر أحد أنَّ أخته ترقبه عن كثب.

١٢ - هاهو المولود في كَنَفِ بيت فرعون بعد أن كتب اللهُ له الأمانَ من الطاغية الأكبر، فتبزغ مُعْضِلَةُ رضاعته، فالرضيع لايقبل ثَدْيَ امرأة، ومَكَّنَ اللهُ منزلتَه في فؤاد القوم، فلا بُدَّ من بحث جادٍّ على مَنْ تُلْقِمُه ثديها. وينتهي البحث إلى أخته، فتشير إليهم - وهي الحَذِرة مِنْ كَشْفِ الخَبِيء - بمعرفتها لأهل بيت يتعهَّدون بحِفْظِه وإرضاعه، وذلك في سجاياهم راسخ، فلا يُقَصِّرون في نَفْعِه.

١٣ - ويتحقق وَعْدُ الله الذي لا يتخلَّف، فها هو الرضيع بين يدي أُمه، فيهنأ في حِضْنها، ويغمرها سرور بالغ، ويغيب أيُّ ضَرْبٍ من ضُروب القلق وانشغال الخاطر، وليكون لها ولأولي الألباب درسٌ وعِبْرة بأنَّ الله بالغ أمره، ولا رادَّ لقضائه. بَيْدَ أنَّ جُلَّ المُخالِفين له - سبحانه - لا يعلمون قَدْرَه، ولا يحفظون منزلتَه.

١٤ - ويشتدُّ عُود موسى ﷺ، ويبلغ كمال قوته، وسلامة بُنْيَتِه، ويتربَّى على عين الله، فيمنحه الحكمة والعلم والسلوك القويم. ومثلَ هذا الجزاء الذي جازَينا به موسى وأُمه التي صَدَّقَتْ بوَعْدِ الله، نجزي المحسنين المصطَفَيْن الذين استجابوا لربهم سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ «مأخوذ من القُرِّ، وهو البرد، وذلك أنَّ العين إذا فَرِحَ صاحبها كان دمعها قارّاً، أي: بارداً، وإذا حزن كان حارّاً». (الدر المصون ٧/ ٥٩٠).

٢ - التكليف بالرسالة يستلزم صحة الجسم واستواءه والحكمة والعلم. قال مجاهد: «آتاه الله الفقه والعقل والعلم قبل النبوة». (التفسير البسيط ١٧/ ٣٥١).

٣ - ما قدَّره الله كائن لا محالة، وهو الذي يُهَيِّئ الأسباب لتحقيق ما يريده.

٤ - الإنسان مهما بلغ في العُتُوِّ والاستكبار فإنَّه لا يعلم المستقبل، وفرعون وقومه لم يعلموا أنَّ هذا الطفل سيكون عَدُوّاً لهم وحَزَناً.

٥ - المرء مفتقر إلى الله في كل أحواله، ولاسيَّما عند نزول الحوادث.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - ودخل موسى - قبل النبوة - مدينة من مدن فرعون مُسْتَخْفِياً، بعد أن أوجس من قومه خيفة، وكان الوقت وقتَ راحة للقوم، والطريق يكاد يخلو من حركتهم، فصادف رجلين يتخاصمان، الأول من قومه بني إسرائيل، والثاني من قوم فرعون القِبْطِ، وكان بين الجماعتين معاداة. واشتدت الخصومة بين الرجلين، مما دفع الإسرائيليَّ أن يطلب من موسى أن يُعينه على القبطي، فما كان من موسى إلا أن ضَرَبَه بجُمْعِ أصابع يده، فأصاب مَقاتِلَ القبطي خطأً، ولم يُرِدْ قَتْلَه. فلما رأى موسى ما انتهى إليه الأمر، قال: هذا التصرُّفُ الذي قمتُ به مِنْ نَزْغِ الشيطان ووَسْوَسته، وهو عدوٌّ لبني آدم واضحُ العداوة، مُضِلٌّ لهم عن الصراط المستقيم.

١٦ -ندم موسى أيَّما نَدَمٍ على قَتْلِ الخطأ الذي بدر منه، ومضى يدعو ربه بأنّه قد ظلم نفسه؛ لأنّه انساق مع غضب جامح. وقد غفر الله له زَلَّته؛ لأنَّ الله يغفر ذنوب عباده، واسع الرحمة بهم.

١٧ - ومضى موسى في دعائه: اللهمَّ بسبب ما أَسْدَلْتَ عليَّ من آلائك من العلم والحكمة والبصيرة، فتميَّزَتْ لديَّ الحقائق، فلن أكون نصيراً مُظاهِراً للظَلَمة من أهل الجَور، وسوف أكون منتصراً للحق وأهله.

١٨ - غادر موسى المكان الذي شهد مَقْتَلَ القِبْطِيِّ - والخبر لم ينتشر بعد - وكان خائفاً من المطالبة بدمه، مترقِّباً ما يُقال في شأنه، مُتَحَفِّزاً للهروب والاختفاء، ومضى يحثُّ خطاه، وإذا به يُصادف صاحبه الإسرائيلي الذي أعانه بالأمس، وهو يتشاجر مع قبطيٍّ ثانٍ، فطَلَبَ إليه أن يكون معه. فقال له موسى: إنك لمِضْلالٌ سيِّئ التقدير، واضح الخصومة.

١٩- عزم موسى على أن يضربَ القبطيَّ، الذي هو على مِلَّةٍ تُخالف ما عليه موسى والإسرائيلي، ويبدو أنَّه رجَّح ظُلْمَ القبطيِّ وجَوْرَه، فقال له القبطيُّ موبِّخاً: يا موسى أتَوَدُّ أن تقتلَني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس، وأنت بذلك تضرُّ بالآخرين، وتعود لجريمتك الأولى التي فَعَلْتَها، ولا تريد الإصلاح بين الخصمَين؟

٢٠- وفي هذه الأثناء أقبل مسرعاً رجلٌ إسرائيلي إلى ساحة النِّزاع من أطراف المدينة يعرف موسى، وهو ناصحٌ له، وبَلَّغه أنَّ أمْرَه بات مكشوفاً في دولة فرعون، والقوم يتشاورون في قَتْلِه، ثمَّ أشار إليه أن يخرج من هذه المدينة على جناح السرعة، وهو مُشْفِقٌ عليه، ناصح له.

٢١- أخذ موسى برأي الناصح، وغادر مدينة فرعون فارّاً بنفسه، وهو في فزع شديد؛ لئلّا يدركه القوم، ولم يُعَيِّنْ موسى جهةً يسلكها، ودعا الله أن يُسَدِّد خطاه، وأن ينقذه من فرعون وقومه الظالمين الذين أرادوا قَتْلَه قِصاصاً عن قتلٍ خطأً.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ جوازُ الاستغاثة بالمخلوق، لكنه مشروط بما يُفيد فيه، أمَّا ما لا يُفيد فيه فلا يجوز. (انظر: تفسير الشيخ ابن عثيمين ٦/ ١٧٩).

٢- قَتْلُ موسى للرجل كان خطأً؛ فإنَّه لم يطعنه بآلة، وإنما ضربه بكَفِّه، وما جرت العادة بالموت من هذا الضرب. والذي استغاث بموسى كان مؤمناً، فخرج من هذا أنَّ وَكْزَ موسى للكافر لأجل بَغْيِهِ وعدوانه، لا لغير ذلك. (انظر: تنزيه الأنبياء للسُّبْتي ص٩٩).

٣- المؤمن يلجأ إلى ربه في الشدائد، وفي كل أحواله.

٤- الخوف من بطش الآخرين من فطرة الإنسان، ويستلزم الحذر والتصرُّف المناسب.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٢- ألهم الله موسى أن يتوجَّه إلى بلاد مدين، وهي بلاد لا يشملها سلطان فرعون، وكان حريصاً على دوام صلته بالله، وهو يأمُلُ أن يُرشده ربُّه إلى الطريق الآمن.

٢٣- ويصل موسى إلى بلاد مدين، ويناسب الغريبَ عادةً أن يقصد مورد الماء، حيث المكانُ الذي يجتمع فيه الناس. لَحَظَ موسى الجماعة الوارِدِين على الماء للسُّقيا وهم يتزاحمون، وأمعن النظر في أطراف الموقع، فلَحَظَ امرأتين تحبسان أنعامهما عن ورود الماء.

تحرَّكت في نفس موسى يقظة الفطرة، ودَفَعَته مروءتُه أن يقترب منهما ليسألهما عن شأنهما. فكان جواب المرأتين أنَّهما كَرِهَتا السَّقْيَ وقتَ زحام الرِّعاء، ولن تتقدما حتى يفرغ أولئك. وأضافتا بأنَّ لهما أباً شيخاً كبيراً لا يَقْوى على ورود الماء.

٢٤- اقتحم موسى مورد السُّقيا على الرغم من الإعياء الذي هو عليه من السفر، فسَقَى للمرأتين. وبعد أن فرغ تاقَتْ نفسه إلى أن يَسْتَرْوِحَ ظلَّ الشُّجَيرات المتوزِّعة في المكان، وتَوَجَّه إلى ربِّه واستحضر في خاطره الآلاء التي أسْداها إليه، وأقرَّ بافتقاره إلى ضروب العَون، ولعلَّ ما يلائم ما هو فيه من غربة وجوع أن يأنس بمأوىً يحضنه.

٢٥- سُرْعان ما عادت الفتاتان إلى أبيهما شُعَيب، وقَصَّتا عليه صنيعَ موسى معهنَّ، وكَلَّف شعيب إحدى ابنتيه أن تستدعيَه إلى المنزل، فأقبلت إليه في مكان السقيا مفعمةً بحياء جَمٍّ يُسَرْبِلُها، قائلة: إنَّ أبي يطلبُ حضورك إليه، ويودُّ أن يكافئك على معروفك الذي أسْلَفْتَه. استجاب موسى لمبادرة شعيب التي

هي قِرىً محض، وانطلق إلى بيته بصحبة الفتاة. والتقى الرجلان، ومضى موسى يحكي لمضيفه ما في بلاد فرعون من جَوْر، وكيف سارت الأحداث بعد الخصومة مع القبطيِّ القتيل، وكيف أهدروا دم موسى؟ فقال له شُعَيب: أَصْبَحْتَ في مَأْمَنٍ من عدوِّك؛ فلن تنالك يد الظالمين.

٢٦- وعرضت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر موسى، وعَلَّلت ما تراه بأن صفات العامل المستأجر تتوافر فيه، فهو يمتلك قوة البنية في جسمه، وأداء الأمانة إلى صاحبها.

٢٧- استجاب الشيخ لابنته، وفاتَحَ ضيفَه بالعَرْضِ، وعبَّر عن رغبته في تزويجه إحدى الابنتين، وشرعا بعد ذلك في صياغة العقد، فطلب شعيب أن يكون المهر منفعة إجارة موسى - بناء على قواعد في شرعه - مدة ثماني سنين، فإنْ عَزَمَ موسى أن يضيف إليها سنتين فهذا من نفسه، وقال له شعيب: ما أريد أن يكون في العَقْد عُسْرٌ عليك، وإنما أوَدُّ أن أنشد معك حسن السلوك، ولين الجانب. وذلك شأن أهل الصلاح.

٢٨- وافق موسى على عَرْض شعيب، وما تضمَّنه العَقْد، وترك لنفسه الخِيَرة في أيِّ المدَّتين الواردتين. فإذا أمضى إحداهما فليس في ذلك اعتداء منه على الحقِّ، والله هو الرقيب الشاهد على ما اتفقا عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- مشروعية المهر في الشرائع السابقة، وهذا يدلُّ على مجيء الشرائع كلها بحفظ حَقِّ المرأة.

٢- حياء الأنثى في مواجهة الرجل أمر فطري إيمانيّ.

٣- كل قائم على عمل ينبغي أن يُراعَى فيه القوة والأمانة، لأنَّ في القوة القدرةَ على التنفيذ، وفي الأمانة الإتمام والإكمال.

٤- الوفاء بالعهود من الشِّيم التي تحرص عليها النفوس العالية.

٥- جواز خطبة الزوج للابنة، فقد تُتاح لوَلِيِّ البنت بارقةُ خيرٍ عميم لهذه البنت بهذه الخطبة.

٦- قال الزمخشري: «في قوله ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾: فإن قلت: تَصَوُّرُ العدوان إنما هو في أحد الأجَلَين، الذي هو الأقصر، وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً؟ قلت: معناه كما أني إن طُولِبْتُ بالزيادة على العشر كان عدواناً، فكذلك إن طُولِبْتُ بالزيادة على الثماني. أراد بذلك تقرير أَمْرِ الخيار، وأنَّ الأجلَين على السواء. وأمَّا التتمَّة فمَوْكُولة إلى رأيي». (الكشاف ٣/ ١٧٣).

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- أتمَّ موسى أكمل المدَّتين اللتين اتفق عليهما مع شعيب، وهي عشر سنوات، وصحَّ عزمُه على السفر إلى مصر بصحبة زوجه، ومضى يَغُذُّ السير، وقد أبصر في طريقه ناراً من جانب الطور، وطلب إلى أهله أن يتريَّثوا قليلاً؛ ليستطلعَ هذه النار، فقد يقتبس منها نبأً يُوَجِّهُه إلى طريقه، أو جمرة مشتعلة يأمُل في دِفْئِها.

٣٠- تَقَدَّم موسى نحو النار التي كان قد أبصرها، فناداه ربُّه من طرف الوادي الأيمن في الأرض التي تتميَّز بالبركة والنَّماء من شجرة معينة: يا موسى أَقْبِلْ إليَّ غير خائف، إني أنا الله رب العالمين، وجميع الخلائق مُسَخَّرة لي.

٣١- يا موسى، ألْقِ هذه العصا التي بيدك. فاستجاب موسى لطَلَبِ ربه، فانقلبت العصا إلى حية تتحرك، ولما رآها تُسْرع في حركتها مع عِظَمِ جسمها انتابه الفزع، فتولَّى عنها هارباً، ولم يلتفت إليها من خوفه. وتابع ربُّه خطابَه قائلاً له: أَقْبِلْ يا موسى، وانزَعْ عنك هذا الخوف؛ لأنَّك في أمان من كلِّ مكروه.

٣٢- يا موسى، أدْخِلْ يدك في فتحة قميصك المُفْضِيَة إلى صدرك، ثم أخْرِجْها تجدها بيضاء من غير أن يكون قد انتابها أيُّ سوء من مرض أو غيره. ثمَّ يطلب إليه أن يَكُفَّ عن التخوُّف من أمر الرسالة ومعجزاتها، وأن يضبط نفسه ويتجلَّد.

ويقول له ربه: يا موسى لقد أَرَيْتُك حُجَّتين قاطعتين أمام مَنْ تَمَكَّن الكفرُ في نفوسهم، وهم فرعون ومَنْ تَبِعه. إنَّ هؤلاء كانوا خارجين عن سواء الصراط.

٣٣-٣٤- لم يُظْهِرْ موسى تَنَصُّلاً من النهوض بأعباء الدعوة التي كلَّفه بها رَبُّه، بَيْدَ أنه أراد أن يأخذ بالأسباب التي تُعينه على ذلك، ويتجاوز المعوقات التي قد تعترضه، فقد أخبر ربَّه العليمَ به أنَّه غادر مملكة فرعون خوفاً من سطوته، وبطش أعوانه؛ لأنَّه قتل نفساً منهم، وقد شاع الخبر في أرجاء البلاد، فإذا رأوه انتقموا منه بالقتل قِصاصاً على قتلٍ خطأً. كما طلب موسى إلى ربِّه أن يؤيِّده بأخيه هارون قائلاً: إنَّه أَقْدَرُ مني على صياغة البرهان الساطع، وأطمع أن يكون لي عوناً في الإبانة عن أدلَّتنا؛ ليصل خطابُنا إلى فرعون ومَلَئِه مشفوعاً بما يجعله صادقاً، لأنني أخشى أن يُسرعوا إلى تكذيبي.

٣٥- استجاب الله دعاء موسى، وتَكَفَّل له بأن يُقَوِّيَه بأخيه هارون، وتَفَضَّل عليه بأنه سيرافق ذلك حُجَجٌ بيِّنة يكون لها أثر في قلوب مَنْ يستمع إليهما، فلا يتعرَّضُون لهما بسوء، ثمَّ بَشَّرهما بأنَّ قافلة المؤمنين المؤلفة من موسى وهارون ومَنْ يتبعهما هي الغالبة الراجحة؛ بسبب ما لديهما من آيات بينات.

الفوائد والاستنباطات:

١- من مستلزمات الرسالة المعجزات التي تؤكِّد صِدْقَ الرسول، وهي عادةً تُناسِبُ حال المدعوِّين.

٢- على الداعية أن يأخذ بالأسباب التي تُعينه على النهوض بعِبْء دعوته.

٣- في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قال الزمخشري: «استعارة من فِعْلِ الطائر؛ لأنَّه إذا خُوِّفَ نَشَرَ جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه، أي: إذا أصابك الرَّهْبُ عند رؤية الحية فاضمُمْ إليك جناحك». (الكشاف ٣/ ١٧٥).

٤- قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظمَ مِنَّةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام؛ فإنَّه شَفَعَ فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعونَ ومَلَئِه؛ ولهذا قال تعالى في حقِّ موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]. (انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢). وسأل موسى ربَّه أن يؤيِّده بأخيه؛ لأنَّ الاثنين إذا اجتمعا على الخبر كانت النفسُ إلى تصديقهما أَسْكَنَ منها إلى تصديق خبر الواحد. (انظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٤٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾

التفسير:

٣٦- شرع موسى وأخوه هارون في دعوة مجلس فرعون مُؤَيَّدَين بالمعجزات التي تؤكد صِدْقَهما؛ لأنَّ النفس تميل إلى ما يدعم الدعوى بدليل خارق للعادة، بَيْدَ أنَّ فرعون وأتباعه وقفوا من المعجزات موقف المرتاب قائلين: ما ذاك إلا ضَرْبٌ من السِّحر الذي تمَّ تلفيقه بإحكام، وأمَّا مضمون الخطاب فهو شيء يطرق أسماعنا أول مرة، ولم يَتَلَقَّ آباؤنا السابقون طرفاً منه.

٣٧- فأجابهم موسى بأنَّ ربي أعلمُ بمَنْ ينطق الحقُّ على لسانه، ويقف بثباتٍ على سواء الصراط، وهو أعلم بمَنْ له المصير الحسن في الدار الآخرة. وفي ذلك تعريضٌ بضَعْفِ حُجَّتهم، وبسوء عاقبتهم. وحقاً إنَّه لا فلاح لأولئك الذين ظلموا أنفسهم، فأجهضوا تَطَلُّعَها للمعرفة الصائبة، وظلموا الآخرين بإهدار حقوقهم.

٣٨- أراد فرعون أن يُرَسِّخ كونه إلهاً في أذهان أتباعه، فهو قد أحاط بكل شيء علماً، وَفْق معتقده الباطل، ولو كان ثمَّة إله غيره لَعَلِمه، وكان موسى قد تحدَّث في المجلس عن ربه بأنَّه ربُّ السموات، فظهر فرعون في مظهر طالب الحق المنصف، فأراد أن يصل إلى ارتفاع سامق في السماء، واثقاً من غياب جرأة أتباعه على بيان الحق. فطلب إلى وزيره هامان إيقاد الأفران لتجفيف الطين المتَّخَذِ آجُرّاً صالحاً؛ لبناء قصرٍ عالٍ مُشْرِفٍ على السماء، قائلاً: لعلِّي أصعد عليه، فأرى هذا الإله، وإنِّي أحسب موسى ممَّنْ شأنُهم الكذبُ والادِّعاء.

٣٩- وتَعَظَّم فرعون وأعوانه في أرجاء مصر، ومضَوا في جبروتهم وطغيانهم، بعيدين عن الإذعان للحق وأهله، ولم يضعوا في حُسْبانهم عودتهم إلينا في يومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار.

٤٠- انقضى الأجل الذي قَدَّرْناه لهم، ومضوا في غَيِّهم، وعاثوا في الأرض الفساد. حتى إذا أتاهم بَأْسُنا استدرَجْناهم إلى البحر، وأغرقناهم فيه. فانظر- أيها الرسول - كيف تكون نهاية الظالمين الذين يَجُورون عن الطريق المستقيم؟

٤١- لقد عَرَفَ الله ضلالهم، وما انطوَتْ عليه نفوسهم من شرٍّ، فهيَّأ لهم الأسباب التي تجعلهم قُدْوَةً لأتباعهم في اتِّباع الهوى والإعراض عن الرشد، وقد مَضَوا يُزَيِّنُون لهم أعمالاً مآلُ أصحابها إلى النار، ولن يجدوا مَنْ يُعِينُهم؛ ليدفعَ عنهم عذابها.

٤٢- وقضى الله في هذه الحياة الدنيا لعنة فرعون وأتباعه على ألسنة الأنبياء، ومَنْ تبعهم من المؤمنين، كلما وردت سيرتهم. ويوم القيامة هم من المذمومين ذمّاً يُلازمهم في دَرَكات الجحيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- من سِمات الطغاة: الجبروت والاستعلاء، وتلفيق الباطل على مَنْ يُعارضهم، وأعداءُ الرسل يُلَقِّبون الرسل بألقاب السوء والعيب.

٢- هذا الطاغوت الأكبر، وجبروته الأعظم، يصير بين يدي الله كالحصى تُنْبَذُ في هوان، عندما يحين أوانُ سقوطه.

٣- في الآية (٤٠) في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ اعتبار بسوء عاقبتهم لاستكبارهم. وهذا موضع العبرة من سَوْق هذه القصة؛ ليعتبر بها المشركون، فيقيسوا حال دعوة محمد ﷺ بحال دعوة موسى عليه السلام، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، فيوقنوا بأنَّ ما أصاب فرعون وقومه سيصيبهم لا محالة. (انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٢٦).

٤- في الآية (٤٢) قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ على الاتساع في (أل) الموصولة، أو يتعلق بمحذوف يفسِّره ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾، كأنَّه قيل: وقُبِحوا يوم القيامة، أو يعطف على موضع ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وأَتْبَعْناهم لعنةً يوم القيامة. (انظر: الدر المصون ٨/ ٦٧٩)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٤٤) وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٠) ﴾

التفسير:

٤٣ - جَرَتْ سُنَنُ الله في الأرض أن يُرسل رسلاً مُبَشِّرين ومنذرين إلى الأُمم السابقة، كقوم نوح وعاد وثمود، حتى إذا كَذَّبَتْ هذه الأُممُ رُسُلَها جاءتها نقمة الله بهلاكها، ثم بعث الله موسى إلى بني إسرائيل، وأنزل معه التوراة متضمِّنة ما يُبَصِّرُهم طريق الهدى، وما يُعِينُهم على بلوغ رحمة الله، لعلَّ هؤلاء القوم يتذكرون آلاء الله عليهم، فيشكروه.

٤٤ - أيها الرسول، لقد تَلَوْنا عليك أخبار نبيِّنا موسى، ولم تكن حاضراً بجانب الجبل الغربي من شاطئ الوادي الأيمن، يوم ألزَمْنا موسى عَهْدَنا، وكَلَّفْناه أعباء الرسالة، ولم تكن - أيها الرسول - من الذين شاهدوا ذلك حتى تقف على حقيقته، ولَسْتَ أنت وقومك بأهل معرفة بأخبار الرسل والأُمم السابقة. وإذا تقرر أنَّ الوقوف على تفصيل هذه الأخبار الغيبية لا يكون إلا بمشاهدتها عِياناً تبيَّن أنَّ هذا بوَحْيٍ من الله.

٤٥ - ولقد خَلَقْنا أُمماً بين زمان موسى وزمانك أيها الرسول، فطالت على الناس المهلة، وتمادى عليهم الأمد، وتناسَتِ الخلائق ما في الشرائع، فتركوا عهد الله، ولم يَفُوا به. وما كنت - أيها الرسول - مقيماً لدى أهل مَدْيَنَ؛ لتُحَدِّثَ قومك بما جرى مع موسى، ولكنَّا كنَّا قد أرسلناك بوَحْيِنا، فعَلَّمْناك ما لم تكن تعلم أنت ولا قومك.

٤٦ - ولم تكن - أيها الرسول - بجانب الطور - في الجهة الغربية منه - إذ نادَينا موسى لميقاتنا، وأنزلنا ألواح التوراة عليه، ولم تشهد شيئاً من تلك الأحداث فتعلمها، ولكننا أرسلناك رحمة وهدى من ربك؛ لتنذرَ أمَّ القرى ومَنْ حولها، إذ لم يَأْت أهلَها مَنْ يُنْذِرُهم قبلَ مبعثك، فكان ضلالهم فاشياً. لعلَّ أولئك يَتَذَكَّرون ما جِئْتَهم به من الخير، فيمتثلوه.

٤٧ - أيها الرسول، ولولا إصابتُهم بمصيبة بسبب ما اعتقدوه من الشرك وآثاره، يعقبها قولهم: ربنا هَلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولاً، فنسير وَفْقَ هدى آياتك، ونكون من المؤمنين بها، لَمَا أرسلناك إليهم، ولكنَّا أرسلناك إليهم لنقطعَ معذرتهم، فلو عَذَّبْناهم لقالوا:لم يُرْسِلْ الله إلينا رسولاً، ويظنون أنَّ ذلك عُذْرٌ لهم، ولا عذرَ لهم فقد أكْمَلْنا الحُجَّة بإرسالك يامحمد إليهم.

٤٨ - فلما أَرْسَلْنا نبيَّنا محمداً ﷺ إلى مشركي مكة بالحق المبين، قالوا تعنُّتاً: هَلَّا أعطاه الله مثل ما أعطى موسى من المعجزات المشاهَدَة والكتاب الذي نزل جملةً واحدة. وقد لَفَّقُوا المعاذير عندما جاءهم رسولنا بالهدى. فأجابهم الله: لقد كَفَر مشركو مكة بآيات موسى، كما كفروا بآيات محمد، وقالوا افتراءً عليهما: إنَّ موسى ومحمداً تعاونا على الإتيان بالسِّحر، ونحن بكلٍّ منهما كافرون.

٤٩ - فإذا كانت هذه أحكامَهم في كتب الله ورسله، فقل لهم يا رسول الله: هَلَّا أَتيتم بكتابٍ من عند الله يشتمل على حقائق الهداية على نحوٍ يَفُوق ما أُنزل عليهما، فإذا حصل هذا منكم فسوف أسير حسب توجيهه إنْ صَدَقْتُم في دعواكم.

٥٠ - فإن صَكُّوا آذانهم، وعَمِيَتْ أبصارهم عَمَّا دَعَوْتَهم إليه، وأظهروا عَجْزَهم عن ذلك، فكن على يقينٍ أنَّ هؤلاء القوم لا يَتَّبِعون إلا هوى نفوسهم، ويَغُضُّون أبصارهم عن نور التوراة والقرآن. ولا أحدَ أضلُّ ممَّنْ اقتنع بأن يكون بعيداً عن هدى ربه العليم. إنَّ الله لا يُوَفِّق للحق مَنْ خالف أَمْرَ الله، ورَسَخَ ظُلْمُه وضلاله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إلْفُ الشهوات، ودوام متابعة الضلال، يجعلان الكثيرين يَنْسَون معالم الحقِّ، والوفاءَ بها.

٢ - يُسْرِعُ أهلُ الضلال بنَبْزِ الدعاة إلى الهدى بكلِّ اتِّهامٍ ثقيل.

٣ - قال العلم الحديث عن الأهرامات:

أ - إن الأهرامات بُنِيَتْ من طين وحرارة، فقد تم مزج الطين الكلسي المعالج حرارياً بالموقد مع الملح، وتم تبخير الماء منه مما شكل مزيجاً طينياً هذا المزيج تمَّ حَمْلُه بقوالب خشبية، وصَبُّه في المكان المخصص على جدار الهرم.

ب- استخدم الفراعنة في بناء الأهرامات عدداً هائلاً من الحجارة بحدود ٢ - ٢,٨ مليون حجر.
(http://www.kaheel7.com/ar/index.php?option-com_content&view-article&id-189:2010-08-15-15-30-22&catid-47:2010-02-02-22-57-13&Itemid-74)

٤- من الإعجاز الغَيبيِّ للقرآن الكريم إخبارُه عن الأُمم السابقة، بتفصيلٍ دقيق لا تتخلَّف حقائقه.

٥- قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: «أي: فاعلَمْ أنَّ ما ركبوه من الكفر لا حُجَّة لهم فيه، وإنَّما آثروا فيه الهوى، وقد علموا أنَّ الذي أتيتَ به الحقُّ». (معاني القرآن ٤/ ١٤٨).

﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير:

٥١- إننا أَنزَلْنا القرآن، وتابَعْناه موصولاً بعضُه ببعض، فلم يَنْزِلْ جملةً واحدة، ووُصِّلَتْ معانيه بأصنافٍ من الترغيب والترهيب والقصص والأحكام، فصار قولاً معجزاً. ولعلَّ هؤلاء يتدبَّرون معانيه؛ فيكون هذا سبباً لهدايتهم به.

٥٢- وإذا سأل سائل: هل آمن أحدٌ بهذا القرآن قبل نزوله عليك؟ قلنا: إنَّ طائفة من الذين آمنوا بما نُزِّل عليهم من كُتُبِ الله من اليهود والنصارى لم يُحرِّفوا ما وَرَدَ في هذه الكتب، فصَدَّقوا بالقرآن ومَنْ نزل عليه.

٥٣- وإذا استمع أولئك المؤمنون السابقون لهذا القرآن، قالوا: صَدَّقْنا به؛ لأنَّه مشتمل على حقائق الهداية التي أوحى بها ربُّنا، ونحن كُنَّا قبل أن ينزلَ على محمد ﷺ مُصَدِّقين به؛ لأنَّ الدين عند الله الإسلام.

٥٤- إنَّ أولئك المهتدين لَجديرون بخيرٍ عَميمٍ سوف يغمرهم؛ ثواباً على إيمانهم وتصديقهم، وسوف يكون ثوابهم مضاعفاً مرتين؛ لأنَّهم آمنوا بكتابهم السابق الذي نزل على نبيِّهم، ثمَّ آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، كما أنَّهم يُثابون على ما أَبْدَوه من الصبر على ما أصابهم من الابتلاء، وكانوا يدفعون الفعلة السيئة بالخصلة الحسنة، وحرصوا على الإنفاق في سبيل الله ممَّا رزقهم.

٥٥- ومن أوصاف هذا الفريق المؤمن أنَّهم إذا سمعوا الباطل من القول صَدَفُوا عنه، ولم يَرْعَوْه بالهَم، وهم يُرَدِّدُون أمام أهله: لنا منهج ربَّاني في حياتنا يخالف منهجكم، فلا نَشْغَلُ أسماعنا بما لا يفيدنا، ولا نُجاريكم في السَّفه، ونقول لكم: أمنة لكم منا وسلامة، ولا نطلب صحبة الجاهلين، أو جدالهم ومُسابَّتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في الآية (٥١) مأخوذ من وَصْلِ الحبال بعضها ببعض، ومنه قوله:

فقُلْ لبني مروانَ ما بالُ ذِمَّتي ... بحَبْلٍ ضعيفٍ لا تَزالُ تُوَصَّلُ

والمعنى: توصيل المعاني في القرآن إليهم. (انظر: البحر المحيط ٧/ ١٢٥).

٢- في ذِكْرِ الأجرَيْن لأهل الكتاب إثباتُ عَدْلِه سبحانه، فالثواب على قَدْر العمل.

٣- من طَبْعِ الإنسان أنْ تَزِلَّ قَدَمُه، ومِنْ فضل الله عليه أنَّ الحسنات تَدْرأُ السيئات.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

٥٦- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعَمِّه عند الموت: «قُلْ: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله» فأبى، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية. وأخرجه من طريق أخرى تنتهي إلى يزيد بن كيسان، وفيه قال: «لولا أن تُعَيِّرَني قريش، يقولون: إنَّما حمله على ذلك الجَزَعُ، لأَقْرَرْتُ بها عينَك، فأنزل الله الآية». (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام مَنْ حضره الموت، ما لم يشرع في النزع، وهو الغرغرة. برقم ٢٥- ١/ ٥٥).

التفسير:

أقبل الله سبحانه على خطاب رسوله بما يُسَلِّي نفسه، ويُزيل كَمَدَه، بأن أَعْلَمَه أن يُفَوِّضَ أمر الهداية إلى الله، فإنَّك يا محمد لا تَهْدي إلى الإسلام هداية توفيق مَنْ أحببت اهتداءه، وإنَّما عليك البلاغ فحسب، ولكنَّ الله يَهدي ويُوَفِّق مَنْ يشاء لدينه، وله الحكمة البالغة، وهو أعلم بمَنْ سيدخل في صفوف المهتدين، ويصلح للهداية، فيهديه على حسب ما تهيَّأت له فِطْرَتُه من صحيح النظر، وقَبولِ الخير.

٥٧- أَلِفَ مشركو مكة الكفرَ والتخبُّطَ العَقَديَّ، فقَدَّموا بعض المعاذير الواهية التي تمنعهم من قبول الإسلام، وقالوا: إن نؤمن بك يا محمد ونتبرَّأ من آلهتنا، فإنَّ قبائل العرب مِنْ حولنا تقوم بسَلْبِنا ونَهْبِنا وأَسْرِنا، ولا طاقة لنا بهم. ورَدَّ الله عليهم مزاعمهم بأنَّه أتاح لهم حَرَماً ذا أمن في بلد آمن، يأمن فيه مَنْ سكنه من القتل والأسر، وهو الذي يجلب إليهم الثمرات على اختلافِ طَعْمِها ونوعها من كل بلد، فيسوقها إليهم رزقاً من لدنه، والله الذي منحهم الأمان والرزق فيها خلا قادر على أن يُؤَمِّنهم ويرزقهم إن أسلموا. فما عليهم إلا أن يُبْطِلُوا تَشَبُّثَهم بالكفر، ويَتَذَكَّروا نِعَمَ ربهم عليهم، وليست حُرْمَتُهم مزية أسداها إليهم قبائل العرب، ولكنَّ أكثرهم لا عِلْمَ لهم، فيحسبون أنَّ الإسلام مُفْضٍ للاعتداء عليهم.

٥٨- إنَّ هذه المزاعم الباطلة التي يُرَوِّجُها مشركو مكة تقتضي تَعَرُّضَهم لنقمة ربِّ العالمين، وهذا شأن الأُمم التي كفرت بأنعُم الله وطَغَتْ، ولم تعترف بما يُسدى إليها من الخير فأهلكها الله، وهذه مساكنهم الخاوية تُنبئ عنهم، إذ لم يتركوا فيها خَلَفاً لهم، بل انقرضوا عن بكرة أبيهم، ولم يَعُدْ يعمرها عامر، وأصبحت عِبْرَة، فلا يُرى فيها إلا مَنْ يمرُّ بها، أو يعتبر بهلاك أهلها، فلا يُطيل المقام فيها، ولا يرث غيرُنا ما خَلَّفوه، وهذا دليل غضب الله على أهلها.

٥٩- ومن سُنَنِ الله أنَّه ما كان ليقضيَ بالهلاك على أهل القرى الواقعة حول مكة قبل أن يبعث في القرية العظيمة - وكانت مكة أعظم بلاد العرب - رسولاً من لَدُنْه، يتلو عليهم آياته، ويدعوهم إلى الحق المبين. وما كان ربك مُهْلِكَ أهل القرى إلا وقد أعلنُوا الإصرار على الكفر والشرك، ألا تراهم مستحقين لنقمة الله؟

الفوائد والاستنباطات:

١- على الرسل البلاغ، والهداية إلى الحقِّ توفيقٌ من الله.

٢- دَأَبَ المشركون على استخدام حرب الإشاعة للتخذيل.

٣- قال ابن عادل: «قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولا تَنافِيَ، فإنَّ الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة، والذي نفاه عنه هدايةُ التوفيق وشَرْحُ الصدور، وهو نورٌ يُقْذَفُ في القلب». (اللباب ١٥/ ٢٨٠).

٤- بيان إعجاز القرآن الكريم بما في الحرم المكي من البركات والثمرات السابقة واللاحقة.

٥- من أسباب هلاك الأُمم الظلم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

التفسير:

٦٠- إنَّ كلَّ ما أعطيناكم - أيها الناس- من نِعَمٍ تشعرون بها، وتَوَدُّون على الدوام اكتسابها، هي من المتاعِ الذي سُخِّرَ لكم في الحياة الدنيا، أو من الزينةِ التي تتزيَّنون بها، ولكن اعلموا أنَّ ما عند الله من نِعيم الآخرة الدائم خير لكم، وأبقى دواماً، فلا تَحْسَبُوا أنَّ ما أنتم فيه من الأمن والرزق والعافية هو الغاية المنشودة، فتقعدوا عن تحصيل النعيم الدائم. ألم تَسْتَدِلُّوا بما مَنَحَكم الله من عقولٍ على ما ينفعكم، وتنتبهوا لما فيه الخير الحقيقي لكم؟

٦١- لا يستوي مَنْ تَلَقَّى منا وعداً محققاً بالجزاء يوم القيامة، فحَرَصَ على أن تكون حياته وَفْق ما أردناه من صالح العمل، ومَنْ غرَّه هذا النعيم الزائل الذي رضي به في الحياة الدنيا، وسوف يصير إلينا يوم القيامة، ويأتينا فرداً. هل يستوي الفريقان فيما أُعِدَّ لهما؟

٦٢- واذكروا - أيها الناس- يومَ يُنادي الربُّ سبحانه المشركينَ الذين اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم قائلاً: أين هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لي؟ أحْضِرُوهم لينصُروكم، ويشفعوا لكم.

٦٣- أجاب الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب من الرؤساء وأئمة الكفر، ومَنْ زَيَّنوا للعامَّة الفسادَ: ربَّنا هؤلاء الذين دَعَوْناهم إلى الضلالة، فضَلُّوا كما ضَلَلْنا قبلهم، إننا نعلن براءتنا إليك من عبادتهم إيانا، ولا أحدَ قادر على نُصْرَتِنا. لقد انصرف هؤلاء الأتباع إلى أهوائهم، ونحن نُقِرُّ لك بالعبودية. ومضوا يتنَصَّلُون من عامَّة الضالِّين، ويظنون أنَّ هذا الإقرار يُخَفِّفُ عنهم العذاب، أو يَدْفَعُ التَّبِعَةَ عنهم.

٦٤- ويقال للمشركين في نداء عام يوم القيامة: ادْعُوا الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله؛ ليدفعوا عنكم العذاب. ومضى هؤلاء البائسون يستغيثون، ولكن لا أحد يُجيبهم، أو ينفعُهم بشيء، وشاهدوا أهوال العذاب الذي ينتظرهم بأمِّ أعينهم؛ ليكونوا على يقين أنَّ شركاءهم لن يُغْنُوا عنهم شيئاً. ولو أنهم كانوا يهتدون للحقِّ في حياتهم الدنيا لَمَا عايَنُوا ذلك العذاب.

٦٥- وهذا نداءٌ ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لجموع المشركين على صَعيد يوم القيامة، يُناديهم الربُّ سبحانه على رؤوس الأشهاد: ماذا كان جوابُكم للمرسَلين إليكم حين دَعَوْكم إلى توحيد الله، وإبطال الشركاء؟

٦٦- فغابَتْ عنهم الحُجَجُ، وخَفِيَ الجواب، ولم يتبيَّنوا الأشياء في هذا الوقت العصيب، ولا يسأل بعضهم بعضاً عمَّا يمكن أن ينفعهم، وذلك من شدَّة البَهَتِ الذي غمر أولئك العصاة، فوَجَمُوا ساكتين.

٦٧- وإذا كان غير المؤمنين قد خَسِرُوا في هذه المواقف، فإنَّ هناك فريقاً أقلعوا عن عقائد الشرك، ومَضَوا في طريق الإيمان، وما يرشد إليه من عمل صالح، فنرجو أن يرقى أولئك إلى درجات الفوز والفلاح.

الفوائد والاستنباطات:

١- مهما بلغت الدنيا من نِعَمٍ وزينة فإنَّها تافهة لِـما أعدَّه الله تعالى في الآخرة للمؤمنين.

٢- البطر في العيش مَظِنَّةٌ لهلاك المجتمعات.

٣- يتبرأ أهل الضلال بعضُهم من بعض يوم القيامة.

٤- تَغِيب الحُجَجُ يوم القيامة عن غير المؤمنين، ولو كانوا عالِمين، فتنطمس عليهم، ولا يجدون جواباً يُنقِذُهم.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾

التفسير:

٦٨- إنَّ ربَّك - يا محمد - يخلق ما يشاء مِنْ خَلْقِه من البشر، كما يصطفي من بين هؤلاء مَنْ يريده للنهوض بالدعوة إليه، فالله وحده - لا أنتم - يختار مَنْ يرسله إليكم، وقد قضى أنَّه ليس لأحدٍ مِنْ خَلْقِه الخَلْقُ والتقدير والاختيار، وهو مُنَزَّه عن كل نقص، فسبحان الله تعالى، وتَنَزَّه عن شِرْكِهم ومعتقدهم.

٦٩- إنَّ ربك - يا محمد - يعلم ما تُخْفيه نفوسُ خَلْقِه، وما يُعْلِنُونه من أقوالهم وحركاتهم. فمَنْ يرتقي إلى منزلته من معبوداتكم؟

٧٠- وهو الله المتفرِّدُ بالحكم، ولا معبودَ بحقٍّ إلا هو، وله الثناء الجميل في الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وله القضاء بين خَلْقِه، وإليه المرجعُ للجزاء بعد موتكم.

٧١- قل أيها الرسول: أخْبِروني إن قَدَّر الله أن يهبط عليكم الليل بظلامه الحالك على نحوٍ دائم إلى يوم القيامة، أيُّ إلهٍ غير الله قادر أن يمنحكم ضياء كاشفاً لكم. أفلا تسمعون هذه الحقيقة، فتُقِرُّوا بديعَ صُنْعِه؟

٧٢- قل أيها الرسول: أخْبِروني إنْ قدَّر الله أن يُسفِرَ ضوء النهار على نحوٍ دائم إلى يوم القيامة، أيُّ إلهٍ غيرُ الله قادرٌ أن يمنحكم ليلاً حالكاً تشعرون فيه بالراحة والقرار. أفلا تَرَوْن هذه الحقيقة فتُقِرُّوا بديع صُنْعِه؟

٧٣- يَمْتَنُّ الله على عباده بواسع رحمته بهم، إذ سَخَّر لهم الليل والنهار؛ لينتفعوا بهما من خلال هذا التعاقب المنتظم الذي قَدَّره على حركتهما بحُسْبان، فيُفيد الناسُ من ظلام الليل بنُشْدان الراحةَ والقَرار، ثم يفيدون من ضياء النهار بسعيهم في أسباب معيشتهم، أليس ذلك من جليل الآلاء التي تستحق شُكْرَه وإفراده بالعبادة؟

٧٤- وهذا نداء آخر في مقام التوبيخ والتقريع، فينادي الربُّ ﷻ أولئك الذين اجترؤوا على الشِّرك ومظاهره: أين الذين زعمتموهم شركائي، فهاتوا مَنْ شئتم منهم؛ ليَدْفَعُوا عنكم المصير الذي ينتظركم؟

٧٥- وفي هذا اليوم العصيب نُخْرِج من مجموع كلِّ أُمة من الأُمم المتلاحقة شهيداً منهم - وهو نبيُّهم- يَشْهَدُ على ما جرى في الحياة الدنيا مِنْ تكذيبهم لرسلهم. ثم يتوجَّه الربُّ سبحانه إلى هؤلاء العصاة من المشركين، ويطلب منهم الحُجَّة التي جَعَلَتْهم ينساقون مع أهوائهم، فيجعلون مع الله إلهاً آخر، بيدَ أنهم وَجَمُوا وبُهِتُوا، فلا يملكون رَدّاً، وأيقنوا أنَّ الحق المبين مستحق لله تعالى، وغاب عن مقامهم هذا ما كانوا يُلَفِّقُونه من أباطيل ، فلا حُجَّةَ يستندون إليها، ولا أولياءَ يشفعون لهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ما أَلِفَه الناسُ، وتَعَوَّدُوا مشاهدته من سنن الله الكونية، قد يجعلُ حِسَّ الكثيرين تجاه نِعَمِه ومظاهر قدرته حِسّاً بليداً، فلا يتأمَّلون في صياغتها بحسبان دقيق.

٢ - يلفت القرآن الكريم النظر للتأمل في آيات الله المبثوثة في الكون.

٣ - في الآية (٧٢) قال الواحدي: «الإتيان من دلائل إثبات صانع واحد، وذلك أنه كان يجوز في العقل دوام كون الظُّلْمَة، وكذلك الضياء، فلما تعاقبا دَلَّا على صانعٍ يُكَوِّر أحدهما على الآخر، ولما كان تَعاقُبهما على حسابٍ معلوم في الزيادة والنقصان، لا يختلفان في عامٍ منذ خُلِقا، دَلَّ ذلك على توحيد الصانع، إذ لو كان معه إلهٌ لَأشبه أن يريد أحدُهما بقاءَ الليل حين يريد الآخر انقضاءه، وكذلك ضياء النهار، فيختلفان حينئذ في حسابهما». (التفسير البسيط ١٧/ ٤٤٣).

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

التفسير:

٧٦- كانت قريش تَعْتَدُّ بثروة المال، وهي عندهم معيار العظمة والسؤدد، ويضرب الله الأمثال للمشركين بنظرائهم من الأمم السالفة، فهذا قارون كان قريباً لموسى، وجمع ثروة عظيمة، وأظهر البَطَرَ والبَذْخَ، ولم يشكر النعمة. وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾ بيانٌ لِمَنْ أعطاه الثروة، فليس له أن يطغى، وقد كان يحبس أمواله في خزائن تحتاج إلى آلاتِ فَتْحٍ متعددة، يُثْقِلُ حِمْلُها جماعةً أولي عزمٍ وشدة. ويجري بين قارون وفئة مؤمنة من قومه حوارٌ، فينصحونه ألا يُفْرِطَ في الزهو والبطر. إنَّ الله لا يحب مَنْ كان شأنه الإقبالَ على هذا الفرح المذموم.

٧٧- يا قارون، اطْلُبِ النعيم الدائم في الآخرة، وذلك بتلمُّس سبل الإنفاق على وجوه البر، فنِعْمَ المالُ مالاً يحمل صاحبه على البذلِ في سبيل الله؛ لأنَّ المالَ مالُ الله وهو واهبُه لِـمَنْ يشاء، ولا نلومك على أن تنال حَظَّك من نعيم الدنيا وَفْقَ ما أباح الله لك. يا قارون إنَّ شكران الله على ما أسداه إليك يجعلك تُحْسِنُ بما تنفقه في الصدقات والمبرَّات. وهذا الأمر بالإحسان يقتضي النهي عن قَصْد الفساد في الأرض التي تعيش عليها، وتَذَكَّرْ أنَّ الله لا يحب من عبده النزوعَ نحو البَطَرِ والأَشَرِ، وسوف يحاسِبُ كلَّ فردٍ على ما قدَّم.

٧٨- أجاب قارونُ عن نصيحة صحبه المؤمنين، ومضى في غَيِّه وصَلَفِه، يودُّ أن يُسكتهم، ويقطع عليهم موعظتهم قائلاً: ما كَسَبْتُ هذا المال إلا على علمٍ راسخٍ مني بقواعد نَمائه، ومعرفةٍ متمكِّنة بمسالكها. يا قارون فاتك النظر في أحوال الأُمم السالفة، وما جرى عليها حين طغى وبغى مَنْ كان أكثر منك نفوذاً وجَمْعاً للكنوز، واستحواذاً لخزائنها، فكان أن شَمِلَهم غضب الله، فأهلكهم على سوء صنيعهم، وليس ثَمَّة حاجة إلى السؤال عن ذُنوب العصاة وآثامهم، فإنَّ الله يعلمها، ولن يَفْلَتوا من عقابه.

٧٩- ويضرب قارون صَفْحاً عن توجيه قومه ونصيحتهم، فيخرج بزهو وصَلَفٍ وتَعالٍ، متباهياً بمراكبه ومتاعه وخدمه. وهذا المشهد جعل ضعفاء اليقين الذين تَصْرفهم زخارف الدنيا عمّا يَحُفُّها من سوء العواقب، فيتلهَّفُون عليها، ويتشوَّقُون لكَسْبها، ويحكمون على قارون بأنه أوتي نصيباً فسيحاً من النعيم.

٨٠- بَيْدَ أنَّ فريقاً آخر ممَّن منحه الله البصيرة، وتقدير الأمور بموازينها الصحيحة، آثر الآجلة على العاجلة، ولم يَغُرَّه وَميضُ الثراء الموقت بأجل محدود. ويَعْجَبُ هذا الفريقُ المؤمنُ ممَّنْ تَعَلَّقَتْ نفسُه بالزينة، واغتبطت بتَلَبُّسِها، قائلاً: إنَّ ما أعدَّه الله للمؤمنين العاملين للصالحات من أجرٍ عميم خيرٌ، وأحسنُ أملاً، ولا يَلْقَى ثمرةَ ذلك إلا الصابرون؛ لأنَّ الصبرَ وسيلةٌ مثلى لنيل المعالي.

٨١- وعقب ساعة خروج قارون وهو في زَهْوِه وزينته، عَجَّلَ الله عقابه في الدنيا، فخسف به وبداره الأرض، وانقلب بعض ظاهرها إلى باطنها، وكان قارون يستقوي بطائفةٍ شايَعَتْه، ولكنه في هذا الموقف لم يكن معه أيُّ نصيرٍ منهم، ولم يَنَلْه أيُّ فلاح بعد أن حَلَّ به قضاءُ الله ونِقْمَتُه.

٨٢- وصاحَبَ خَسْفَ الباغي ندامةٌ ورجوع إلى التفويض لحكمة الله فيما يختاره، من قِبَلِ الذين اشرأبَّتْ أعناقُهم لنعيمه وثرائه، فصاروا يُرَدِّدون: لا ينقضي العَجَبُ من هذا المشهد، وسوءِ العاقبة، وتَصرُّفِ الله تعالى في خَلْقِه، وهو سبحانه يُقَدِّر الرزق لعباده، فيبسطه لِـمَنْ يشاء، ويُضَيِّقه على مَنْ يشاء، وكلُّهم عبيده فحَقُّهم الرضا بما يقضيه مولاهم لهم. ولولا أن تَفَضَّلَ الله علينا، فحَفِظَنا من بَطَرٍ وزَهْوٍ يصيبنا من ثراء مُوَقَّت بأجَلٍ، لَكُنَّا مِمَّنْ شملهم الله بسوء العاقبة. لقد أسفر الصبح لذي عينين، فالكافرون الطغاة ليس لهم فلاحٌ ومَنْجَى في الدنيا والآخرة.

٨٣- تلك الدار التي لا دارَ بعدها ذات النعيم الدائم، تستشرف وفود أهل المراتب العالية إليها من الذين لا يتكبَّرون في الحقِّ، ولا يَبْغون، وينشدون الصلاح، والعاقبةَ المحمودةَ التي جعلها الله لِـمَنْ اتقاه، وأعدَّ العُدَّة للقائه.

الفوائد والاستنباطات:

١- يعتقد المتكبر الذي أفسده ثراؤه أنَّ النِّعَمَ التي بيده هي من نِتاج إبداعه، ولا ينسُبها إلى مُسْدِيها الحقيقي.

٢- يبتلي الله بإعطاء المال، فكما أن الفقر والحرمان ابتلاء، فكذلك الثراء ابتلاء.

٣- زخرفة الدنيا تَغُرُّ كثيراً من الناس، فيُعَطِّلون عقولهم عن معرفة خطرها.

٤- المؤمنون المهتدون يشكرون الله على حِفْظِه إياهم من الشطط، والانزلاق نحو المتاع الزائل.

٥- وَعْدُ الله لرسوله بإعادته إلى مكة من غيب المستقبل، وقد تحقَّق.

٦- قضى الله بالموت على كلِّ الخلائق.

٧- قال ابن العربي في الآية (٧٧): «وأبدعُ ما فيه عندي قول قتادة: ولا تَنْسَ الحلال، فهو نصيبك من الدنيا». (أحكام القرآن ٣/ ١٤٨).

٨- إن الله إذا حكم بالعقوبة على عاصٍ فليس له ناصر، ولو عَظُمَتْ قُوَّتُه، وكَثُرَ جنده.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير:

٨٤- إنَّه سبحانه مالك يوم الدين، يُصَرِّف منازل خَلْقِه فيه كما يشاء، وفق صحائفهم، فمَنْ يعمل مثقال ذرة من الخير يضاعف له من الحسنات، ومَنْ يعمل مثقال ذرة من الشر يَلْقَ جزاءً وِفاقاً، لا حَيْفَ فيه ولا جَوْر؛ لأنَّ حسابه موكول إلى الملك العادل.

٨٥- أيها الرسول، إنَّ الله ﷻ هو الذي أنزل عليك القرآن العظيم، وأوجب عليك تبليغه، ودعاك إلى التمسك به، ولَسَوف يُرْجِعُك ربُّك إلى موطنك الأول وهو مكة، بعد غيابٍ عنه ومفارقةٍ له. قل- أيها الرسول - لقومك المشركين الذين أعرضوا عن دعوة الحقِّ: ربي يعلم مَنِ اتَّبع الحقَّ والهدى، واستقام

سيرُه، ومَنْ هو في ضلالٍ بَيِّنٍ عن مَحَجَّة الصواب، وسوف يَظْهَرُ من لَدُن عودتك إلى موطنك أنَّ الله نَصَرك، وخَذَلَ أعداءك.

٨٦- وما كنت - أيها الرسول - ترتقب أن نُرْسِلَك إلى العباد، ونُنَزِّلَ الكتاب عليك، وكان ذلك بمَحْض رحمة ربك. وفيما اختارك اللهُ مِنْ تَحَمُّلٍ لأعباء الرسالة دليل على أنَّ الله لن يخذلك، وقد أعدَّ لك نصراً مبيناً. وهذا الوعدُ من ربِّك يجعلك - أيها الرسول - تهجر مصانعة الكافرين، وعونهم على ضلالهم. ويقتضي هذا تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين.

٨٧- أيها الرسول، لا يَصْرِفَنَّك أذى هؤلاء المشركين وكيدُهم عن المضيِّ في البلاغ، وتلاوة آيات القرآن، والعمل بها بعد إذ أنزلها الله إليك، وادْعُ الناس إلى الله، وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتنابِ نواهيه، ولا تكونَنَّ قريباً من دعاوى الشرك ومظاهره في شيء. وإذا خُوطب الرسول ﷺ في هذا فغيرُه من المؤمنين أولى بهذا الخطاب.

٨٨- أيها الرسول، لا معبود بحَقٍّ إلا الله، فلا يجوزُ لك ولا لغيرك أن تتخذ معه معبوداً آخر. وقد قضى الله بهلاك كلِّ الأشياء، بما في ذلك كلُّ ما عُبِدَ من دون الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ كلَّ شيء هالك إلا وجه الله الكريم، فله الحكم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر وهو البعث من القبور للحساب والجزاء.

٢- تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ يفيد الحصر، والمحصور هو الحُكْمُ الأكمل، وإلى الله يعود كل الخلائق للجزاء العادل.

٣- الرسول ﷺ ما كان ينشد الرسالة، ولم تخطر على فِكْره، بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ولو كان يتعلم مِنْ بَشَرٍ لَتَطَلَّع إلى هذا القرآن.

٤- القرآن رحمة للخلق في الدنيا بصلاح أمورهم ومعاشهم، وفي الآخرة برؤيتهم الحسابَ العدلَ، وجنة النعيم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تَحَدِّي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه.

٢- وَعْدُ الله بنصر المؤمنين.

٣- مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

٤- الاستدلال على البعث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١- تَقَدَّم تفسير الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة، وأنها من إعجاز القرآن.

٢- الله سبحانه يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، فهل ظنَّ الناس أن يُتْرَكوا وشأنَهم، ويَسْلَموا حين يقولون: نحن مؤمنون، فلا يَتَعَرَّضون لاختبارِ صِدْقِ قولهم، ولا يُبْتَلَون في أموالهم وأنفسهم. لا، ليس الأمر كذلك، فلابُدَّ أن يَختبرهم ربُّهم حتى يتبيَّنَ مدى صِدْقِهم والتزامهم. وحكمُ الآيةِ باقٍ في هذه الأُمة.

٣- إنَّ الفُتونَ بسبب الانضواء في ركب الإيمان جرى على سُنَّة الله فيما سَلَفَ من الأُمم، فلا يجوز استعظام الفتنة والذُّهُولُ عن سُنَنِ الله. وأسند الفُتون إلى الله؛ فهو خالقُ أسبابه، وهو قادر على صَرْفِه، فمَنْ لم يعبأ بالفتنة، وبقي على اتِّباع الهدى، فقد تبيَّن رسوخ إيمانه، ومَنْ تزلزل إيمانُه خوفَ الفتنة فقد تبيَّن غير ذلك. وقسماً لَيَعْلَمَنَّ اللهُ عِلْماً ظاهراً للخلق- وقد كان في عِلْمِ الله أنّه سيكون- صِدْقَ الصادقين، وكَذِبَ الكاذبين.

٤ - مَضَتِ الآيات السابقة على تثبيت المؤمنين في مواجهة الفِتَنِ الثِّقال، ويعقبها وعيدُ المشركين بأنَّ ما يعملونه من فُتون المسلمين معلوم لدينا، ولن نُفْلِتَهم، أيظن أولئك أن يُعْجِزونا، فلا نَقْدِرَ عليهم؟ أيعتقدون أنَّهم شَفَوا غيظَهم من أوليائنا فغلبونا؟ بئس القضاءُ قضاؤهم.

٥ - مَنْ كان يأمُل في لقاء الله، ويترقَّبُ البعث، وأعدَّ العدَّة لذلك من يقينٍ وعملٍ صالح، فإنَّ الوقت الذي قَدَّره الله في عِلْمِه للحساب آتٍ لا محالة. إنَّ الله يَسْمَعُ كلَّ قولٍ، ويَعْلَمُ بكلِّ فعلٍ.

٦ - ومَنْ صبر على ضروب الأذى، وثبت على دين الله، وسعى في إعلاء كلمة الله، فإنما يُقدِّم الخير الجزيل لنفسه، ويرفع الله قَدْرَه في الآخرة، وليس ثمَّة نَفْعٌ ينتهي إلى الله؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن أعمال الخلق أجمعين.

٧ - وَعْدٌ وبِشارة من الله يَخُصُّ بهما الذين آمنوا بالله ورسوله، وأَتْبعوا الإيمان بعمل صالح. قسماً لَنَتَجاوَزَنَّ عن خطيئاتهم التي بَدَرَتْ منهم، ولَنَجْزِيَنَّهم جزاءَ أحسنِ أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله سيبتلي ويختبر المؤمنين.

٢ - من سُنَنِ الله ابتلاء المؤمنين؛ ليعلمَ صِدْقَهم. وهذا الاختبار ليس خاصاً بهذه الأُمة.

٣ - قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة، فهي بمعناها باقية في أُمة محمد ﷺ، موجود حُكْمُها بقية الدهر». (المحرر الوجيز ١٢/ ١٩٩).

٤ - ليس في مُكْنَةِ الذين يجترحون السيئات أن يُفْلِتوا من عذاب الله.

٥ - الله ﷻ غنيٌّ عن خَلْقِه، ومَنْ حمل نفسه على طاعة الله أفاد نفسه.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

٨- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، قال: «نزلت في سعد بن أبي وقاص، لما هاجر قالت أُمه: والله لا يُظِلُّني بيت حتى يرجع، فأنزل الله أن يُحْسِنَ إليهما، ولا يطيعهما في الشرك». (جامع البيان ١٨/ ٣٦٣، والتفسير الصحيح ٤/ ٦٥).

التفسير:

وصية من الله للإنسان بوالديه أن يَبَرَّهما، ويعاملهما معاملة حسنة تليق بما بذلاه في تنشئته ورعايته، وفاءً بحقِّهما، وإكراماً لهما. وقد يحدث من خلال البِرِّ بهما أن يُلِحَّا عليك، ويبذلا الجهد في سبيل حَمْلِك على الإشراك بالله، فلا تمتثِلْ لهما، ولكن لا تعامِلْهما بالإساءة لأجل إشراكهما بالله؛ لأنَّ عقابهما مُفَوَّض إلى الله، فأُخْبِرُهم بما كَسَبُوا في حياتهم الدنيا، ثم أجازيهم على ذلك.

٩- إنَّ الذين آمنوا بالله ورسوله، وسلكوا سبيل الأعمال الموافقة لهديهما، قسماً لَنُدْخِلَنَّهم - بما لدينا من العظمة - في عداد أهل الصلاح الكامِلِين.

١٠- هذا حال فريق من الذين أسلموا بمكة، ولكنهم لم يصبروا على الأذى والفتنة، فرجعوا إلى الشرك، وأضافوا إلى ذلك أنهم كتموا ذلك عن المسلمين، فهؤلاء استنزلهم الشيطان، فجمعوا بين صفتَي الكفر والنفاق. إنَّ هؤلاء تَعَرَّضوا للأذى لأجل إيمانهم، ولكنهم أصابهم الجزع، وسَوَّوا بين عذاب الناس وعذاب الآخرة. إنهم بذلك يعتقدون أنَّهم يَتَوَقَّون الفتنة. ويكشف الله ﷻ حقيقة هؤلاء في تماديهم في النفاق، فإذا لمسوا نصراً من ربك للدعوة لَيقولُنَّ: إننا كُنَّا معكم، ظناً منهم رَواج نفاقهم، وبهذا يتبيَّن كَذِبُهم، وأنَّ الله مُطَّلع على ضمائرهم. أوليس الله بأعلمَ بما يُكِنُّه الناس في خفاياهم، ولا تخفى عليه خافية؟

١١ - خُصَّ فريقان ممَّن اشتمل عليهما عموم قوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المتقدم، اهتماماً بهما؛ لأنَّ العلم بما في الصدور يترتَّب عليه الجزاء المكافئ. وقسماً لَيَعْلَمَنَّ اللهُ عِلْماً ظاهراً للناس حقيقةَ الذين آمنوا، وحقيقةَ الذين نافقوا.

١٢ - يمضي المشركون في محاولاتهم المتكررة لدَفْعِ فريقٍ من المسلمين إلى الرِّدَّة ممَّنْ لم يقدروا على فتنتهم، وهم الآن يُثيرون مغالَطاتٍ تُنْبِئ عن جهلٍ وغُرور، إذ زَعَمَتْ فئةٌ منهم أنهم إذا بُعِثُوا يوم القيامة فسوف يكونون سادةً إذا حُمِّلوا تحمَّلوا، أي: إنَّ لدينا قدرة على حَمْل التَّبِعَة عن الآخرين، وسوف نحمل عنكم آثام خطاياكم إذا اتَّبعتم هَدْيَنا. وقد حكى الله عنهم بلام الأمر ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ لإفادةِ ما تضمَّنَتْه دعوتُهم؛ لأنَّ صيغة أَمْرِهم أنفسَهم بالحَمْل آكَدُ من الخبر عن أنفسهم. وهذا القول من هؤلاء لا يكون بحالٍ، فما هم بحاملين أيَّ شيء من الآثام، وإنَّ كَذِبَهم محقق.

١٣ - فإذا كان هؤلاء كاذبين في دعواهم فإنَّهم غيرُ ناجين من حَمْلِ تَبِعاتٍ لأقوام آخرين، وهم الذين انساقوا معهم عندما سَوَّلوا لهم الشِّرك بالله. إنَّ هؤلاء الكَذَبة الذين يتوهَّمون في أنفسهم القدرة على حَمْلِ الآثام عن فريق المؤمنين لَحاملون أثقال الشقاء والعناء يوم القيامة، إنَّها ذنوب الذين أَضَلُّوهم، بالإضافة إلى ما حَمَلُوه جَرَّاءَ شِرْكِهم. إنَّهم مؤاخَذون بجميع ما اختلقوه من الافتراء الناجم عن تضليل أتباعهم، ومحاولة تضليل المسلمين بدعواهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لا طاعة لمخلوقٍ - أياً كان - في معصية الخالق.

٢ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن ضعف فئة من الناس يؤمنون بالله، فإذا آذاهم المشركون جَزِعُوا من عذابهم وأذاهم، كما يَجْزَعون من عذاب الله، ولا يصبرون على الأذيَّة منهم، فيرتدُّون عن الإيمان بالله.

٣ - يتحمَّل قادة الدعوات الباطلة آثام أنفسهم، وآثام مَنْ أضلُّوهم، دون أن ينقص شيء من آثام تابعيهم.

٤ - يَحْرِصُ أهل الدعوات الباطلة على إغواء المؤمنين، وهم يستعملون أساليب من الدعاية الباطلة؛ لتزيين ما دَعَوا إليه.

٥ - عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور مَنْ تَبِعه، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تَبِعَه، لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً». (صحيح مسلم، كتاب العلم، باب: مَنْ سنَّ سُنَّة حسنة أو سيئة، ومَنْ دعا إلى هدى أو ضلالة برقم ٢٦٧٤، ٤/ ٢٠٦٠).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٤ - يأتي الحديث عن أول رسول لأهل الأرض، وعن مدة طويلة قضاها بين يدي قومه - ألف سنة إلا خمسين عاماً - للدلالة على مدى مصابرته على أذى قومه. وقد طوى السياقُ الحُكْمَ على قومه بالتكذيب والضلال، وأبرزَ خاتمتهم، وهي هَلاكُهم بالغَرَق بسبب ظُلْمِهم لأنفسهم. وفي هذا إيماء للمُعْرِضين عن دعوة محمد ﷺ بما ينتظرهم نتيجةَ تَعَنُّتِهم.

١٥ - فإذا كان ما تَقَدَّم مصيرَ المكذبين فإنَّ الناجين هم نوح والذين آمنوا معه، وأمَّا السفينة فقد بقيت مدة طويلة على مَشْهَدٍ من الناس؛ علامةً على وقوع الطوفان عذاباً من الله للمكذبين، وهي كذلك حُجَّةٌ للمؤمنين.

١٦ - كما أننا أرسلنا إبراهيم، إذ مضى يسعى في هداية قومه قائلاً لهم: أَخْلِصُوا العبادة لله وحده، واتَّقُوا عقابه. وهذا النهج الذي أنصحكم به خير لكم من الشقاء الذي تعيشون فيه، إن كنتم تعلمون ما تُميزون به ما ينفعكم.

١٧ - أنتم - أيها القوم - تهجرون عبادة الله، وتعكفون على عبادة أحجار تنحتونها بأيديكم على هيئة صور لا إدراك لها، وتختلقون لها أخباراً ومناقب موهومة مكذوبة. إنَّ هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تمنحكم أيَّ ضَرْبٍ من ضروب الرزق، وينبغي أن تلتمسوا من الله الرزق الذي فيه قِوامُكم، وأن تَخُصُّوه بالعبادة الخالصة والشكر الجزيل على آلائه، وهو الذي إليه مَعادُكم؛ ليُجازِيَ عباده على أعمالهم.

١٨ - هذا خطاب من الله سبحانه لمشركي قريش وغيرهم من المكذبين، واقعٌ في أثناء مقالة إبراهيم لقومه وجوابهم له: إن يكن منكم تكذيبٌ وإعراض عن دعوة نبيِّنا محمدٍ ﷺ فيما دعاكم إليه من إخلاص

العبادة لله وحده، فإنَّ لكم سَلَفاً في أجيال مَنْ قبلَكم، فأصابهم سَخَطُ الله لما اجترحُوه من السيئات، ولا نُكَلِّفُ رسولَنا إلا تبليغَ الرسالة تبليغاً واضحاً.

١٩ - أولم يعلم هؤلاء المكذِّبون للبعث مظاهر قدرة الله في خلقه، فهو الذي يُنْشِئُ خَلْقَه من العدم، ثم يُعيدهم بقدرته من بعد فنائهم خَلْقاً سوياً كما كانوا. إنَّ ذلك هَيِّنٌ يسير على الله، فلا يتعذَّر عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لا عِبْرَةَ بالعدد قليلاً أو كثيراً في صدق الدعوات، فقد يبذل الداعيةُ جهداً كبيراً في دعوته، ولا يلقى ثمرة ممَّنْ يدعوهم.

٢ - قال ابن عادل في الآية (١٤): «رُوعِيَتْ هنا نكتة لطيفة، وهو أَنْ غايَرَ بين تمييزي العدد، فقال في الأول: ﴿سَنَةٍ﴾، وفي الثاني: ﴿عَامًا﴾ لئلَّا يثقل اللفظ - أي: في التكرار- ثم إنَّه خَصَّ لفظ العام بالخمسين إيذاناً بأن نبيَّ الله لما استراح منهم بقي في زمنٍ حسن، فالعرب تُعَبِّر عن الخِصْب بالعام، وعن الجَدْب بالسنة» (اللباب ١٥/ ٣٢٥).

٣- نَصْرُ الله للدعوات ليس مرهوناً بكثرة أعداد المؤمنين، فقد يتحقق النصر وإن قلَّ عددُ المؤمنين.

٤ - في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ أهمية الصلة بالله لا يفقه آثارها إلا العالمون.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾

التفسير:

٢٠- أيها الرسول، قل لِـمَنْ يُنْكِرُ بَعْثَ الخلائق، ووقوفهم بين يدي خالقهم: تأمّلوا في هذه الأرض قريبها وبعيدها، وارْجِعُوا البصر كرَّتين في تكوينها؛ لتَفْطِنُوا إلى أنَّ الذي أوجدها - بعد أن لم تكن - قادر على إعادتها، وإنشائها النشأة التالية الآخرة، فالذي لم يُعْجِزْه الإبداء لا تُعجزه الإعادة، وهو قادر على البعث وعلى كل ما يريد.

٢١- إنَّه سبحانه يُعَذِّبُ مَنْ يشاء من عباده؛ بسبب ما اجترحوا من سيئات، ويرحم مَنْ يشاء ممَّنْ آمن وعمل صالحاً، وإليه سوف يرجع الناس يوم المعاد.

٢٢- إنَّ الله قادر على الإحاطة بالعصاة، فليسوا بمُفْلَتِين من عقابه، وليس لهم مَوْئِلٌ يمنعهم منه، سواء في فسيح الأرض أو في أجواء السماء. ولـمَّا آيسهم من الانفلات بأنفسهم في أي مكان، أعقب ذلك بتأييسهم مِنْ سَعْيِ غيرهم؛ ليشفعَ لهم في دَفْعِ غضب الله عليهم، فليس لهم من دونه أحدٌ يَلِي أمورهم، أو ظهير يحامي عنهم.

٢٣- يتوعَّد سبحانه أولئك الجاحدين بآيات الله والمنكرين لبعث الخلائق بين يدي ربهم. إنَّهم استحَقُّوا اليأس من رحمته ومغفرته، كما استحَقُّوا عذابه الموجع.

٢٤- يعود سياق الآيات إلى نبيِّ الله إبراهيم بعد هذا التنبيه على بعض الحقائق، فقومه أصيبوا بصدمة بعد موقفه منهم، وعزموا على إتلافه، وكانوا بين مُرَجِّحٍ للقتل ومُرَجِّحٍ للإحراق، ولكن الله أنجاه ممَّا أعَدُّوه له من سعيرٍ أبطله الله. إنَّ في ذلك الإنجاء آياتٍ متعددة على قدرة الله الباهرة، وتصديق وعده،

وكرامة رسوله، وتسخير مخلوقاته له. بَيْدَ أنَّ هذه الآيات يُصَدِّقُ بها المؤمنون، ويُعْرِضُ عنها مَنْ لم يخالط الإيمان قلوبهم.

٢٥- ويتابع إبراهيم عليه السلام حديثه مع قومه قائلاً لهم: أنتم بعكوفكم على هذه الأوثان، وصَرْفِكم العبادةَ لها، إنما تتخذونها في الحياة الدنيا سبيلاً للتوادِّ بينكم، والتواصُلِ لاجتماعكم على عبادتها وخدمتها، وتخشون من غياب المودة فيما بينكم إن هجرتموها. فما عاقبةُ هذا النهجِ الجائر والمتعة العابرة يوم القيامة؟ إنَّ هؤلاء القوم الغافلين سوف يُعادي بعضُهم بعضاً بالكفران والجحود، ويتبرأ السابق من اللاحق، ويتواجهون بالشتائم واللعن، ولكنَّ هذا لن ينفعهم؛ لأنَّ سعير النار ينتظرهم، وليس ثمة مَنْ يدفع عنهم هذا الخِزْيَ والجزاء.

٢٦- ويُصَدِّق لوط برسالة إبراهيم، ويتبعه. وجملة ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ معترضة في ثنايا الإخبار عن قصة إبراهيم. ثم يعلن إبراهيم مفارقة الديار والأهل مهاجراً إلى ربِّه العزيز الذي لا يُغالَبُ، الحكيم في تدبيره وصنعه.

٢٧- وأكْرَمْنا إبراهيم بولدٍ صالحٍ هو إسحاق، وبحفيدٍ هو يعقوب، وقَدَّرْنا في ذرية إبراهيم الأنبياء ومعهم الكتب، فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن كُتُبُ الهدى، نزلت على أنبياء من ذريته الطاهرة. وقد جمع الله له ثوابَين. ثوابَ الدنيا - بخِذْلان أعدائه، ووفرة النسل، وحسن السمعة - وثواب الآخرة، فسوف يكون فيها من أكابر أهل الصلاح.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضَعْفُ البشَر أمام قدرة الخالق، مهما بلغوا من الإمكانات والقوة.

٢- من شأن الطغاة مقاومةُ الدعاة، وإيذاؤهم بشتى ضروب الأذى، والصبر من صفات المؤمنين.

٣- قد يحصل بين أهل الباطل مودةٌ يَحْمُون من خلالها باطلهم، ويتحركون في ظلِّها؛ للانتصار على أهل الحق.

٤- قد يُعَجِّلُ الله للمؤمن بعضَ جزائِه في الدنيا.

٥- الهجرة إلى الله عمل صالح؛ لأنَّ المرء يدع فيها ما أَلِفه.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٨- واذكر - أيها الرسول - عبدنا الصالح لوطاً، إذ شَنَّع على قومه هذا العمل القبيح الذي دأبوا على ارتكابه، وبلغوا الغاية فيه، وهذه الفاحشة ابتدعوها، إذ ليس لهم فيها سابقة في العالمين.

٢٩- ويؤكد لوط إنكاره على قومه تَعَدُّدَ جرائمهم، فهم يأتون الرجال في أدبارهم، ويتصدَّون للمارِّين بالطرقات، فيختارون مَنْ يَسْلُبون أموالهم، أو يُكْرِهُونهم على ارتكاب الفاحشة، وأضافوا إلى ذلك أنَّهم صَيَّروا منتداهم الذي يجتمعون فيه مُجْمعاً لتزيين الفاحشة، ومُعيناً على شيوعها. ولكن القوم لم ينفع فيهم التوجيه والتنديد، والتذكير بنقمة الله. فأجابوه وهم يسخرون: أين عذاب الله الذي تُوعِدُنا به؟ إن كنت صادقاً في دعواك فأْتنا به.

٣٠- وطلب لوط من ربّه أن ينصره عليهم؛ ليُرِيَهم صِدْقَ ما بَلَّغهم من الرسالة. ووَصَفَ قومَه بالمفسدين، وفي ذلك تمهيد للإجابة بالنصر؛ لأنَّ الله لا يحب المفسدين.

٣١- مَضَتِ الملائكة نحو إبراهيم عليه السلام تُبَشِّره بخبرٍ سارٍ من الله أنَّه سيرزقه إسحاق، ومن وراء إسحاق ولده يعقوب. ثم قالت له: إننا عازمون بأمر الله على إهلاك أهل قرية لوط (سدوم). ثم عَلَّلوا ذلك ليستأنس إبراهيم، وهو يعلم أنَّ عقاب الله لا يكون إلا على ذنبٍ يقتضيه المذنب، فقد ظَلَمَ القومُ أنفسَهم بالكفر والفواحش، وظلموا الناس بترويعهم، وحَمْلِهم على ما يكرهون.

٣٢- وخاف إبراهيم أن يشمل العقابُ لوطاً، فأجابته الملائكة بأنهم أعلم بأحوال مَنْ في القرية، واستحقاقِ لوط النجاة؛ لأنَّهم بأمر الله يعملون، وقد عَلِمَت الملائكة بإذن ربهم ألَّا ينجوَ إلا لوط وأهله ما عدا امرأته، فستكون في الباقين من المُهْلَكين.

٣٣- وتَحُلُّ ملائكة العذاب بقرية لوط، ومَضَوا نحو لوط، فساءه قُدومُهم، إذ حَسِب أنَّهم ضيوف من البشر، وقد يُصيبُهم من قومه أذىً وسوءٌ كما عَوَّدوه. فقالوا له: لا تَخَفْ علينا منهم، فلن يصلوا إلينا، ثمَّ أخبروه بما عزموا عليه، وقدَّموا تأمينَه قبل إعلامِه بعذاب قومه، ثم تأمين أهله إلا امرأته، فهي في الباقين من المُهْلَكين.

٣٤- ويتابع الملائكةُ حديثهم عن إنزالهم عذاباً مؤلماً من السماء يصيب قوم لوط، وذلك بسبب معاصيهم، وخروجهم عن سواء الصراط.

٣٥- ولقد أبقَيْنا من القرية آثاراً دالة على أحوالها تُنْبِئُ عن ثمرة المعاصي؛ ليفيدَ منها ذوو العقول السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- السلوك الجنسي الشاذ عُرْضَةٌ لنِقْمَةِ الله العاجلة، وعاقبة المعاصي وخيمة.

٢- لا يغفل الداعية عن مواجهة المفاسد الأخلاقية في مجتمعه بالنصيحة والتوجيه. قال ابن عطية: «وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أُمة محمد ﷺ فالتناهي واجب». (المحرر الوجيز ١٢/ ٢١٧).

٣- من حكمة الله أن يُبْقِيَ في ديار القوم الذين أصابهم عقاب الله آثاراً؛ لتكون موضعَ عِبرة وتَذْكِرَة.

٤- الاتصال بالصالح لا يستلزم من أن يكون المتصل صالحاً. صحيح أنَّ الاتصال بالصالح من أسباب الصلاح، لكنه ليس بلازم، بدليل هلاك امرأة لوط.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- وأَرْسَلْنا إلى بلاد مدين أخاً لهم - وهو شعيب - ليكون رسولاً ناصحاً لهم، ومضى يدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وإلى تَرَقُّبِ يوم البعث، والوقوف بين يدي الله، ونَبَّهَهم للابتعاد عن ضروب الفساد، والولوغ في مساربها.

٣٧- بَيْدَ أنَّ قوم شعيب عارضوا دعوته، وأَصَرُّوا على تكذيبه، فأصابهم زلزالٌ مدمِّر، فأصبحوا في مساكنهم صرعى هالكين.

٣٨- وتَسْرُد الآيات المزيد من الأقوام المكذِّبة، فتبيِّن مصيرهم، فهاهم أقوام عاد وثمود، ومَنْ اطَّلع على مساكنهم ظهر له الخراب الذي عَمَّهم، وخَلَتْ هذه المساكن منهم. ولم يَلْقَوا هذا المصير إلا بعد أن بلغ الشيطان مقاصده في تزيين ما اجترؤوا عليه من سيئات، فلم ينتفعوا بعقولهم وبصائرهم، ونشأ فيهم ضلال مُتَأَصِّل جَعَلَهم يَزْهُون، ويُعْجَبون بما يعتقدون.

٣٩- وكما ضرب الله الأمثال بالأمم التي عَصَتْ ربَّها، كذلك ضَرَبَ المثل ببعض الأفراد من العتاة السابقين؛ ليكون ذلك بمنزلة إنذارٍ لقريش وغيرها، فقد أهلك اللهُ قارونَ وفرعونَ وهامان، ولم ينتفعوا بما تَضَمَّنَتْه رسالة موسى من الهدى، فكفروا واستعلَوا في الأرض وتعاظموا فيها، ولكنهم ما كانوا لِيُفْلِتُوا من قبضة الله ونِقْمَتِه، بل كُنَّا قادرين على الإحاطة بهم.

٤٠- شرع في تفصيل صنوف الانتقام من الأقوام والأفراد الذين سَلَفَ ذِكْرُهم، وقرر أنَّ العذاب أصاب كلاً منهم على معصية اجترحها، من هؤلاء قوم أرسل عليهم ريحاً عاتية ترميهم بحجارة مهلكة، وهم قوم لوط، كما في التفسير الصحيح (٤/ ٧١)، وعند ابن كثير أنهم قوم عاد. (التفسير ٣/ ٥٤٣). وأما الذين أُهلكوا بالصيحة فهم قوم ثمود، إذ أُخمِدَتْ أصواتهم وحركاتهم، ومَنْ أصابه خَسْفُ الأرض هو

قارون الذي تاه بنفسه بطراً ومَرَحاً. والذين أغرقهم هم فرعون ومَنْ معه بعد أن استكبروا في الأرض. ومعاذَ الله أن يكون ربنا قد ظلم أحداً مثقال ذرة، وإنما هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم، فتسَبَّبوا في عذابها، وجَرُّوا العقاب إليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ينظر: خريطة موقع قوم مَدْيَنَ، كما في الملحق.

٢ - تتعدَّدُ أساليبُ عقاب الله للظالمين والمفسدين في الأرض.

٣ - قال الشيخ ابن عثيمين: «ما الضابطُ لتزيين الشيطان؟ إذا كان العمل خلاف الشرع فهو من تزيين الشيطان». (التفسير ٦/ ٥١٤).

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٤١ - هذا مَثَلٌ لحال مَنْ يتخذ الأوثان أولياء من دون الله يَرْجُون نَفْعَهم، فحالهم كحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً، فتحسب أنها تعتصم به ممَّنْ يعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد، ويتمزق أمام أضعف مواجهة، فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعَدُّوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في كونه لا يغني شيئاً. ومن المشهور أنَّ أضعف البيوت بيتها، واقتضى ذلك أنَّ مَنْ يعتقد في غير الله موئلاً له بعيدٌ عن الرَّشَد. ولو كانوا يعلمون أنَّ أولياءَهم لا ينفعونهم في شيء ما اتخذوهم أولياء.

٤٢ - أعقب نَفْيَه السابقَ لعِلْمِ المشركين إعلامُهم بعلم الله لدقائق أحوال الأصنام على اختلاف معتقد مَنْ يعبدها. إنَّ الله يعلم أنَّهم ليسوا يَدْعُون من دونه شيئاً ذا قَدْرٍ، فيصلح أن يسمى شيئاً. والله هو العزيز في انتقامه ممَّنْ جَحَد به، الحكيم في صنعه.

٤٣ - ينعى الرب سبحانه على هؤلاء المشركين أنهم ليسوا جديرين بتَفَهُّم المعاني التي قُرِّبَتْ إليهم بطريقة الأمثال، ويَمْتَنُّ بها على الذين كَمَلَتْ عقولُهم، وقد عَلِمَ البلغاء أنَّ لكل مقام مقالاً.

٤٤ - يخاطب الله سبحانه المؤمنين، فهو الذي خلق السموات والأرض بالحق على نحوٍ مُتْقَنٍ، وكل شيء فيهما بحسبان، وهما علامة وبرهان ساطع على وحدانيته وقدرته، وينبغي أن يتفكروا في عظمة خَلْقِهما.

٤٥ - يخاطب الله سبحانه الرسول ﷺ بقوله: اتلُ القرآن الذي أُوحي إليك على الناس، واعمَلْ به، وأَقِمِ الصلاة بحدودها، وهي ركن عظيم، وفيها فوائد لِـمَنْ يُؤَدِّيها، فهي تنهى عن تَجاوُزِ الحدِّ الشرعي وهي تشتمل على ما يُذَكِّر بالله، كما تُذَكِّر بلزوم التباعد عن سخطه. والصلوات مُوَزَّعة على أوقات الليل والنهار؛ ليتجدَّدَ التذكير بها. وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنَّها من ذِكْرِ الله، وذِكْرُ الله أمر كبير، والله يعلم ما أنتم عليه من العمل، وسوف يُحاسبكم عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيت العنكبوت هو الضعيف وليس خيطه، وهذه دقة علمية تشهد بإعجاز هذا القرآن؛ لأنَّ بيت العنكبوت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد؛ وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذَكَرِها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده؛ لأنَّها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب لتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معاً، فيقتل الأخ أخاه وأخته، ويكرر مَنْ ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٤٠-١٤٤).

٢ - تَضَمَّنَ بيان القرآن أساليب متعددة من القول؛ للتنبيه على مقاصده، ويضرب الله الأمثال للناس؛ لينتفعوا بها، ويُثِيروا عقولهم من خلالها.

٣- في الآية (٤١) إخبار مستقبليٌّ عن عجز آلهة المشركين من أن ينفعوا أو يضرُّوا معبوديهم بشيء. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ هؤلاء المشركين لا يعلمون أنَّ أولياءَهم الذين يَدْعُونهم من دون الله لا يستطيعون نَفْعَهم ولا ضُرَّهم.

٤ - خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق؛ ليدلَّ على سلطانه، ويُثَبِّت شرائعه.

٥- للصَّلاةِ شأن عظيم في استقامة حياة مَنْ يُقيمها بحدودها الشرعية.

٦- قال ابن عطية: «المُصَلِّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صَلَحَتْ لذلك نفسُه وتَذَلَّلَتْ، وخامرها ارتقاب الله تعالى، فاطَّرد ذلك في أقوالِه وأفعالِه، وانتهى عن الفحشاء والمنكر. ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تَذَكُّرَ، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان». (المحرر الوجيز ١٢/ ٢٢٥).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٦ - يُرشد الله تعالى المؤمنين، ويُعَلِّمهم الحكمة في التعامل مع اليهود والنصارى، فينهى عن جدالهم إلا بالطريقة المثلى، والموعظة الحسنة؛ للوصول إلى الحق، إلا الذين ظلموا منهم بإعلان الحرب على المسلمين، فيُعامَلون بالغلظة والشدَّة. ثمَّ بيَّن الله تعالى للمؤمنين ماذا يقولون في الحوار معهم: قولوا صَدَّقْنا بالقرآن الذي أُنزل إلينا، وصَدَّقْنا بالتوراة والإنجيل اللذَين أُنْزِلا إليكم، ومعبودُنا ومعبودُكم واحد، ونحن له خاضعون بالطاعة له.

٤٧ - ومثلَ ذلك الإنزال للتوراة وغيرها أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآنَ، فاليهود والنصارى الذين اتَّبعوا الحق يُصَدِّقون بالقرآن، وكذلك هؤلاء من العرب الذين دَعَوْتَهم يصدِّقون به. وما يُكَذِّب بالقرآن والمعجزات إلا الذين أصرُّوا على الكفر.

٤٨-٤٩ - وما كنت - أيها الرسول - تقرأ كتاباً، ولم تكتب شيئاً بيدك قبل نزول القرآن عليك، ولو كنت تقرأ وتكتب لَشَكَّ في ذلك الكفَّارُ المتمادُون في الباطل. وليس الأمر كما حسب هؤلاء الكفَّار، بل هو قرآن فيه آيات واضحة الدلالة على الحق، محفوظة في صدور أهل العلم من المؤمنين، وما يُكَذِّب بهذه الآيات والمعجزات إلا الذين أصرُّوا على الكفر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب اتِّباع الأحسن في المجادلة. وهذا يُؤخذ من الحصر في الآية الكريمة، فلا تجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، والنَّهي يقتضي التَّحريم، فإذا حُرِّمت المجادلة إلا بالأحسن فمعناه وجبت المجادلة بالتي هي أحسن.

٢ - ينبغي للمرء أن يعرف ما عند خَصْمِه؛ ليجادِلَه به. و ما في القرآن كافٍ للردِّ عليهم.

٣ - يجب في المجادلة اتِّباع ما يكون أشدَّ إقناعاً، ومبطلاً لحجَّة الخصم، من قوله: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

٤ - الظَّالم في المُحاجَّة لا يُجادَل بالتي هي أحسن؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

٥- إثبات أنَّ التَّوراة والإنجيل والقرآن كلام الله.

٦- مِنْ قريش مَنْ آمن بالقرآن، لقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، فيكونون حُجَّةً على الذين لم يؤمنوا.

٧- رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يُنَزَّل عليه القرآن.

٨- قال الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: «إنَّ أسلوب القرآن كما يُبْطِلُ الشُّبهة معنىً يُبطلها لفظاً، يعني باللفظ والمعنى؛ لأنَّ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، وليس الانتقالي».

(تفسير القرآن الكريم ٦/ ٥٦١).

٩- الجَحْدُ بالآيات ظلم، والإقرار بها عدل.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير:

٥٠- وقال هؤلاء الكُفَّار بسفاهة: هَلَّا أُنزل على محمَّد معجزات وحُجَجٌ من ربِّه! قل لهم: إنَّما أَمْرُ هذه المعجزات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره، إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، وإنَّما أنا نذير من الله أُبَيِّنُ لكم طريق الهداية، وأُحَذِّركم من الغَواية.

٥١- يُنكر الله تعالى عليهم مُوَبِّخاً لهم: أولم يكفِ المشركين أنَّنا أنزلنا عليك هذا القرآن يُقرأ، فيَقْرَعُ أسماعهم؟ إنَّ في هذا القرآن المعجز لَنِعْمَةً وذكرى لقوم ثابتين على الإيمان بالله تعالى.

٥٢- قل - يا أيها الرسول- لهؤلاء المكذِّبين: كفى أن يكون الله سبحانه شاهداً على صدقي أنِّي رسوله، يعلم ما في السموات السبع والأَرَضين السبع، فلا يخفى عليه شيء فيهما، والذين صَدَّقوا بالشرك وشياطين الإنس والجن، وكذَّبوا بالله تعالى. أولئك البعداء عن الحقِّ هم الخاسرون؛ لأنَّهم آثروا الكفر على الإيمان.

٥٣-٥٥- يطلب منك زعماء الشرك - أيها الرسول - أن يُنَزِّل الله عليهم العذاب تكذيباً لك ومكراً بك، ولولا أنَّ الله قَدَّر لعذابهم وقتاً محدوداً لَنَزَّل بهم العذابَ حين طلبوه، وقسماً سيأتيهم فجأة وهم لا يشعرون بوقت مجيئه، يطلبون منك إيقاع العذاب بهم في الدنيا. و محلُّ العذاب في نار جهنَّم يوم القيامة محيط بهم، من فوق رؤوسهم، ومن تحت أقدامهم، ويقول الله تعالى لهم توبيخاً: ذُوقوا جزاء ما كنتم ترتكبون من الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- المتعنِّت مكابر، فإنَّهم قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مع أنَّ الآيات قد جاءتهم.

٢- الإشارة إلى شرف هذا القرآن؛ فقد كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأيدي الملائكة.

٣- فضيلة الإيمان؛ إذ تتمُّ به الرَّحمة والذكرى في القرآن.

٤- الحوادث مقدَّرة عند الله تعالى في عِلْمِه، لقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾.

٥- شهادة الله ﷻ تكون بالقول والفعل: أمَّا بالقول فإنَّ الله تعالى يقول للنبيِّ ﷺ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦]، وأمَّا بالفعل فإنَّ تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض، ونَصْرَه إيَّاه، وخِذْلان أعدائه، أكبرُ شهادةً على أنَّه صاحب الحق.

٦- تعذيب الكفَّار جسمي ونفسي: الجسميُّ ما يذوقونه من أنواع العذاب، والنفسيُّ هو التَّوبيخ الذي يُوَجَّه إليهم.

﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

التفسير:

٥٦-٥٩- يُخاطب الله تعالى المؤمنين خطاب تشريف: يا عبادي إن كنتم لا تَقْدِرُون على إقامة شعائر العبادة لله تعالى في بلدكم، فهاجِرُوا إلى بلد آخر؛ لتُقيموا الدينَ بإخلاص العبودية لله تعالى، والموت لابد أن ينزل بكم، ثمَّ ترجعون إلى ربِّكم؛ ليجازِيَكم على إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الجنَّة، بإنزالكم بالغرف العالية بين البساتين النضرة التي تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها أبداً. ونِعْمَ هذا المقامُ الرفيع جزاءُ العاملين بطاعة الله تعالى، الذين من صِفَتِهم الصبرُ على الثبات في العبادة، وعلى ما يصيبهم من الابتلاء، وعلى ربِّهم يعتمدون. عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنَّة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها مِنْ ظاهِرها، أعدَّها الله لِـمَنْ أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصَلَّى والناس نيام». (أخرجه الإمام أحمد، المسند ٥/ ٣٤٣، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ٢٦٢ برقم ٥٠٩) قال محقق الإحسان: إسناده قوي. وأخرجه الحاكم (المستدرك ١/ ٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بنحوه. وصححه ووافقه الذهبي).

٦٠- وكثير من المخلوقات التي تَدِبُّ على وجه الأرض لا تستطيع جَمْعَ رزقها، وتحصيلَه، وحَمْلَه، إلا بما قَدَّرَ الله لها من الرزق، فهو سبحانه وحده يُقيِّض لها رِزْقَها على ضعفها، ويُيَسِّره عليها، فيرزق كل مخلوق ما يصلحه، وهو سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال والأحوال.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم تَوَكَّلون على الله حق توكُّله، لَرُزِقْتم كما يُرْزَقُ الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً». (أخرجه ابن ماجه، السنن ٤/ ٥٧٣ برقم ٢٣٤٤ - كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وأخرجه أحمد (المسند ١/ ٣٠). وصححه الحاكم (المستدرك ٤/ ٣١٨) وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة برقم ٣١٠).

٦١- قسماً إن سألتَ - أيُّها الرسول - المشركين: مَنْ أبدعَ خَلْقَ السموات والأرض، وذَلَّل الشمس والقمر يجريان لما فيه النفع للمخلوقات؟ ليقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الله وحده، فإذا أَقَرُّوا بتوحيد الربوبية، فكيف يُصْرَفُون عن عبادته سبحانه وحده؟

٦٢- يُطَمْئِنُ اللهُ تعالى العباد أنَّ الأرزاق بيده سبحانه، فيُوَسِّعُ الرزق لِـمَنْ يشاء من عباده، ويُضَيِّق على مَنْ يشاء، وفي الحالتين ابتلاء. إنَّ الله تعالى بكلِّ شيء من الأشياء عليم.

٦٣- يُقسم الله تعالى مؤكِّداً أنَّ الكفار يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، فإن سألتهم مَنْ نَزَّل من السحاب ماءً فأنبت به الأرض بالنبات من بعد جَدْبِها؟ ليقولُنَّ: الله وحده، قل: الحمد لله على ظهور الحُجَّة والاعتراف بالحقِّ على ألسنتهم، بل أكثرهم لا يعقلون اتِّباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١- شرف الإيمان؛ إذ جعل الله تعالى هؤلاء المؤمنين عباداً له، وإضافتهم إلى الله بالعبوديَّة تشريف لهم.

٢- وجوب محاسبة الإنسان نفسه؛ لأنَّ الله تعالى تَوَعَّد بأنَّهم يرجعون إليه.

٣- مَنْ ترك شيئاً لله عَوَّضَه الله خيراً منه، فهؤلاء تركوا بلادهم التي ضُيِّق عليهم فيها، فعَوَّضَهم الله بلاداً لا يجدون فيها هذا الضيق، بل يجدونها ذات سعة.

٤- فضيلة الصبر؛ إذ أثنى الله على الصَّابرين الذين صبروا.

٥- كفاية الله ﷻ؛ لأنَّه لا يُتَوَكَّلُ إلا على مَنْ هو كافٍ، فمَنْ ليس بكاف فهو غير أهلٍ لأَنْ يُتَوَكَّلَ عليه.

٦- إقامة الحُجَّة على الخصم حتى يُذْعِنَ ويُقِرَّ.

٧- سَفَهُ المشركين بالله في عبادتهم؛ إذ يُقِرُّون بربوبيَّتِه، ثمَّ يُنْكِرُون ألوهيَّته، وكان من العقل أنَّ مَنْ أقرَّ بالربوبيّة أقرَّ بالألوهيَّة.

٨- في الآية (٦٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ هو الرزَّاق في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

التفسير:

٦٤- يُخبر الله تعالى عن حقارة الدنيا وزوالها، وأنّها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب بما فيها من الملذّات والشهوات. وإنَّ حياة الدّار الآخرة لهي الحياة الحقيقية الدائمة، لو كانوا يعلمون ذلك لما استَحَبُّوا الدنيا على الآخرة.

٦٥-٦٦- ومن صفات الكفّار أنّهم يجحدون النِّعَمَ، فإذا ركبوا السفن في البحر، واعتراهم خطر الغرق، لجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء الخالص له دون غيره، فلمّا أنقذهم من الغرق، وزال عنهم الخطر، إذا هم فجأة يعودون إلى شركهم بالله! من أجل أن يجحدوا النعم التي رزقهم الله إيّاها، وليتمتّعوا بالحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٦٧- أولم يعلم كفّار قريش أنّا جَعَلْنا مكّة لهم حَرَماً آمناً على النفس والمال، والناس من حولهم خارج الحرم يُتَخطَّفون بالقتل والسبي والنهب؟ بعد هذه النِّعَمِ العظيمة هل يؤمنون بالأصنام والأوثان، ويجحدون بنِعَمِ الرحمن؟

٦٨- ولا أحدَ أظلمُ ممَّنِ اختلق على الله الكذب، فزعم أنَّ له شريكاً، أو كَذَّب بالقرآن الحكيم والرسول الكريم حين جاءه. ألم يعلموا أنَّ نار جهنم مصير هؤلاء المكذِّبين؟ والاستفهام تقرير لإقامتهم في نار جهنَّم.

٦٩- والذين جاهدوا في حَقِّنا من أجل نشر الإسلام، قسماً سنَهْدِيهم إلى طرق الخير، ورضوان الله في الدنيا والآخرة، وإنَّ الله تعالى لمع الذين أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم بالنصر والعون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - اعتراف المشركين ضمناً بأنَّ آلهتهم لا تنفعهم، ولو كانوا يعتقدون نَفْعَها لَدَعَوْها في هذه الحال.

٢ - سَفَهُ مَنْ يجعل النِّعَم سبباً للأشر والبطر، فإنَّ هذا فيه من مشابهة المشركين ما هو ظاهر؛ لأنَّ الواجب على مَنْ أنعم الله عليه نعمة أن يزداد عبادةً لله ﷻ؛ والعبادة من الشكر.

٣- الدنيا لَعِب ولَهْوٌ للكفار واللاعبين، لكنَّها ابتلاءٌ وعملٌ وجِدٌّ عند المؤمنين.

٤ - الحياة الحقيقية الدائمة هي في الآخرة، لأنَّها لا انتهاء لها، خلاف الحياة الدنيا الفانية.

٥ - الشعور بالأمن نعمة عظيمة من الله، لابُدَّ أن يقابلها المؤمن بحمد الله وشكره.

٦- أشدُّ أنواع الظلم قبحاً الافتراء على الله، أو التكذيب بالحق، أو تكذيب الرسول.

٧- المجاهدون صادقون محسنون، يُكْرِمُهُم الله بالتوفيق لسُبُل الخير، وطُرُق الفلاح.

٨- في الآية (٦٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله سيهدي إلى سُبُلِ الخير، ويُثَبِّتُ على الصِّراط المستقيم المؤمنين الذين جاهدوا أعداء الله، وصبروا على الفتن والأذى في سبيل الله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر والبشارة لِـمَنْ أحسن مِنْ خَلْقِ الله بتأييد الله ﷻ بالنصرة.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين على وحدانية الخالق وعظمته.

٢ - تقرير بعثة الرسل صلوات الله عليهم.

٣- تسلية النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى:﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ، كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم جميعاً أهل أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ قال: أما إنهم سيَغْلِبون. فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعَلْ بيننا وبينك أجَلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: ألا جَعَلْتَه إلى دون، قال: أُراه العَشْر. قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دونَ العشر، قال: ثم ظهرت الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ قال سفيان: «سمعت أنَّهم ظهروا عليهم يوم بدر». (أخرجه الترمذي، السنن ٥/ ٣٤٣-٣٤٥ - كتاب التفسير، باب سورة الروم برقم ٣١٩٣. وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي برقم ٢٥٥١)، وصححه الحاكم في (المستدرك ٢/ ٤١٠)، ووافقه الذهبي).

٢-٥- غَلَبَتْ دولةُ الفرس الوثنية دولةَ الروم النصرانية في أدنى أرض العرب في مدينة (أذرعات) و(بُصرى) في بلاد الشام، مطلع البعثة النبويَّة، وسوف تَغْلِبُ دولةُ الروم دولةَ الفرس بعد هزيمة الروم في مدَّة ما بين ثلاث إلى تسع سنوات. لله تعالى الأمر من قبل انتصار الروم وبعده. ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بنَصْرِ الله للروم على الفرس، وهو سبحانه ينصر مَنْ يشاء، وهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده.

٦-٧- وقد تحقَّقَ نَصْرُ الروم في السنة الثامنة للبعثة النبوية، فهو وعد مؤكَّد من الله تعالى فلا يمكن أن يتخلَّف، ولكن أكثر العباد لا يعلمون أنَّ وَعْدَ الله حقٌّ، يعلمون أمور الدنيا ومعايشهم، وعِلْمُهم منحصر في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون إلا ظاهرها، أمَّا التفكُّر في حقيقتها وعظمة خلقها وما فيها من الدلائل على وحدانية الخالق فهم في غفلة عنه، وكذلك عن أمور الآخرة لا يُفَكِّرون فيها.

الفوائد والاستنباطات:

١- إثبات رسالة النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الإخبار عن الغيب لا يكون إلا بوحي.

٢- قررت حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، فقد أخبرت أن الروم خسروا المعركة مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض. وكلمة «أدنى» عند العرب تأتي بمعنيين أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ أنَّها تنخفض عن مستوى سطح البحر بـ ١٣١٢ قدم (حوالي ٤٠٠ متر) وهي أخفض نقطة سَجَّلَتْها الأقمار الاصطناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، والحقيقة التاريخية تشهد أن المعركة وقعت في أكثر مناطق العالم انخفاضاً في حوض البحر الميت. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبدالعزيز المصلح: ص١٩٧-١٩٨). وينظر: من آثار الروم وصورة منخفض البحر الميت، كما في الملحق.

٣- كلُّ الأشياء لا تكون إلا بأمر الله؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ إذن فكونُهم غُلبوا إنما هو بأمر الله، وانتصارهم كذلك بأمر الله، فكلُّ الأمور بتقدير الله تعالى وأمره.

٤- جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفَّار على بعض، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام.

٥- مَدْحُ المُقْبِلين على الآخرة والحريصين عليها، وإن فاتهم شيء من أمور الدُّنيا.

٦- من دلائل صِدْقِ القرآن إخبارُهُ عن أنباء الغيب التي تتحدَّث عن الأنباء المستقبلية.

٧- وجوب ثقة المسلمين بتحقيق وَعْدِ الله، وجَزْمِهم بذلك، كما حَصَلَ من الصِّدِّيقِ في تَحَدِّيه للمشركين.

٨- الكفار يهتمون بتحصيل العلم الدُّنيوي المادي، ويغفلون عن العلم الديني النافع.

٩- المسلمون مُطالَبُون بإعداد القوَّة الحربية، وتحصيل العلوم التي يستعمرون بها الأرض، فالعلم الدنيوي ليس قَصْراً على الكفار.

١٠-في الآية (٥) إخبار مستقبلي بأنَّ النصر والخِذْلان بيد الله ﷻ، فهو سبحانه وتعالى ينصر مَنْ يشاء، ويخذل مَنْ يشاء.

١١-في الآية (٦) إخبار مستقبلي بأنَّ الله إذا وعد المؤمنين وعداً فإنَّه لا يتخَلَّف.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٨- يُوَبِّخ الله تعالى المكذِّبين برسله وبلقائه: أولم يجتهد هؤلاء الكفَّار في إعمال الفكر في خَلْق الله أنفسهم، وما فيها من الآيات، وأنَّه خلقهم ولم يكونوا شيئاً، وأنَّه ما خلق السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما إلا بالعدل وإقامة الحقِّ، ووقتٍ محدَّدٍ لفناء الدنيا؟ وإنَّ كثيراً من العباد بالبعث ولقاء الله تعالى لَمكَذِّبون.

٩- أولم يسيروا في الأرض سَيْرَ تَأَمُّلٍ واعتبار؟ فيشاهدوا مصارع الأُمم المكذِّبة السابقة كقوم صالح وهود، كانوا أشدَّ قوَّةً من أهل مكة، وأعظم أجساماً، فقد نحتوا الجبال لبناء القصور الفارهة، وحرثوا الأرض، وحَوَّلُوها إلى مروج خضراء، فعَمَّروا دنياهم أكثر ممَّا عَمَّرَ أهل مكة، وجاءتهم رُسُلُهم بالحُجَجِ القاهرة والمعجزات الباهرة، فكذَّبوهم فدمَّرهم الله تعالى، وما كان الله لِيُدَمِّرَهم بغير ذنب، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي. وهذا السير يشمل الأبدان، وتَتَبُّعَ قصص الأُمم الهالكة بسبب كفرهم.

١٠ - ثمَّ كانت عاقبة أولئك المجرمين أسوأ العواقب وأشدَّها؛ لتكذيبهم بآيات الله سبحانه التي أنزلها على رسله، وكانوا بها يَسْخَرُون.

١١-١٣ - يُخبر الله تعالى بأنَّه هو سبحانه وحده يبدأ بخلق المخلوقات، وأنَّه القادر وحده على إعادتها مرَّة أخرى بعد موتها، ثمَّ إليه يرجع جميع الخلق للحساب يوم القيامة. وفي هذا اليوم يكتئب الكفَّار، فقد يَئِسُوا من النجاة من العذاب، ولا يملكون حُجَّة ينطقون بها، ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم للخلاص من العذاب، وكانوا حينئذ كافرين بآلهتهم التي لم تَقْدِرْ أن تدفع عنهم العذاب.

١٤-١٥ - ويوم تقوم الساعة يفترق المؤمنون عن الكفَّار، فأمَّا المؤمنون الذين عملوا الصالحات فلهم الجنة، يُكْرَمُون فيها، وهم في سرور دائم.

١٦ - وأمَّا الكفَّارُ الذين كذَّبوا بما أنزل الله تعالى على رسله وبالبعث، فأولئك البعداء عن رحمة الله في العذاب مقيمون، لا يغيبون عنه أبداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- توبيخ مَنْ أعرض عن التفكير، لقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾، فالاستفهام هنا للتوبيخ، ويتفرَّع على هذه الفائدة: الحثُّ على التفكُّر.

٢- عَجيبُ صُنْعِ الله في الإنسان، لقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾، ويَعْرِفُ ذلك أهل العلوم والطِّب.

٣- كمال الحكمة لله تعالى؛ فقد جعل كلَّ شيء مقدَّراً منظَّماً ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد:٨]، والمقدار: يشمل مقدار الكمِّيَّة، والكيفيَّة، والزمنيَّة، والمكانيَّة.

٤- تَفَكُّر الإنسان في آيات الله، في نفسه وفي المخلوقات مِنْ حولِه يزيد إيمانه بالله.

٥- الاستدلال بالمبدأ على المعاد من قوله: ﴿يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾.

٦- لا يجوز التَّحاكُم إلى غير الله.

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨- فيا أيها العباد، سَبِّحُوا الله تعالى، ونَزِّهُوه عمَّا لا يليق به، واحْمَدُوه على إنعامه في وقت المغرب والعشاء وفي الفجر والعصر والظهر، وله الثناء كلُّه في السموات السبع والأرضين السبع.

١٩- يذكر الله تعالى الدلائل على عَظَمَتِه في خَلْقِه، وكمال قدرته في تدبير شؤونهم في الآيات التسع الآتية: الله وحده يُخرج الشيءَ الحيَّ من الشيء الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج النبات الأخضر من البذر اليابس، وإخراج البذر اليابس من النبات الأخضر، ويُحيي الأرض بإخراج النبات بعد جفافها. ومثلَ إخراج النبات من الأرض تُخْرَجون من القبور.

٢٠- ومن دلائل وحدانيته أَنْ خَلَقَ أصلكم آدم من تراب، تكاثرتم بعد ذلك بالتوالُدِ، فإذا أنتم بشر كثيرون منتشرون في الأرض.

٢١- ومن تلك الدلائل أن خلق لكم - أيها الرجال - زوجات من جنسكم؛ لتألفوهُنَّ وتسكنوا إليهنَّ، وجعل بينكم وبينهنَّ محبَّة وشفقة. إنَّ في ذلك التدبير الحكيم لَعلاماتٍ دالَّةً على وحدانية الله وقدرته العظيمة لقوم يتفكَّرون في قدرة الله، وعظمته سبحانه.

٢٢- ومن الأدلَّةِ على عظمة قدرته خَلْقُ السموات السبع بغير عَمَدٍ، وخلق الأرَضين السبع بطبقاتها وما فيها من الخيرات، واختلاف اللغات التي تتفاهمون بها، واختلاف ألوانكم التي تتعارفون بها. إنَّ في ذلك الأمر العظيم من الخلق والتنوُّع لَدلائلَ ينتفع بها أهل العلم للتدبُّرِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قدرة الله على خلق الأحياء من المواد الأولية التي أوجدها مع بدء خلقه للكون، وهي موادُّ ميتة لا روح فيها ولا حياة، وبعد انتزاع الروح من الكائن الحي يعود جسده إلى تلك المواد الأولية التي بدأ خلقه منها. ويُعَدُّ خلق الخلية الحية من عناصر الأرض الميتة أعظمَ صور إخراج الحي من الميت، وكذلك إعادة بعثها في يوم القيامة. (http://www.islamicmedicine.org/zaghlool/79.htm).

٢- في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فيه ردٌّ على نظريَّة النُّشوء والارتقاء، التي ابتدعها دارون بقوله: إنَّ الكائنات متطوِّرة.

٣- التفكير تنفتح به أبواب كثيرة، يعرف الإنسان بها من أحكام الله وحكمته ما لا يحصل له لو لم يفكِّر؛ لأنَّه خَصَّ الآيات بالقوم الذين يتفكَّرون، فدلَّ هذا على أنَّه يحصل بالتفكُّر من الاطِّلاع على أحكام الله وحُكْمِه ما لا يحصل بالغفلة.

٤- من حكمة الله فَرْضُ الصلوات الخمس، وجَعْلُها مُقَسَّمَةً على مختلف ساعات اليوم.

٥- على المؤمن أن يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ الله وحده وتسبيحه، وأن يشمل ذلك ساعات يومه، مقتدياً في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يذكر الله على كل أحواله.

٦- آياتُ الله الدالَّة على وحدانيته مبثوثةٌ في الكون، فكلُّ ما في الكون آيات تَدُلُّ على وحدانية مُبْدِعِها.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٣- ومن آيات الله نَوْمُكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة؛ راحةً لأبدانكم، وجعل لكم النهار لتطلبوا الرزق من فضل الله تعالى. إنَّ في ذلك التدبيرِ الربَّانيِّ لَعلاماتٍ دالَّةً على وحدانيته سبحانه لقوم يسمعون الآيات والمواعظ، فينتفعون بها.

٢٤- ومن آياته أن يُرِيَكم - سبحانه - لمعان البرق، فتخافوا من مخاطره، وتطمعوا ببركاته، ويُنَزِّل من السحب مطراً تحيا به الأرض بعد جَفافِها. إنَّ في ذلك الفضل الكريم لَعلاماتٍ مشاهَدة لقوم يعقلون عظمة الرازق سبحانه.

٢٥- ومن آياته قيام السماء بغير عَمَدٍ، واستقرار الأرض، وثبوتهما، فلم تسقط السماء على الأرض، ثمَّ إذا دعاكم سبحانه دعوة من الأرض بالبعث إذا أنتم تخرجون.

٢٦- ولله سبحانه وحده كلُّ مَنْ في السموات السبع والأرَضين السبع من المخلوقات، كلُّهم مُنقادون لأمره سبحانه.

٢٧- والله سبحانه هو الذي يبدأ الخَلْقَ من العَدَمِ، ثمَّ يعيده حيّاً بعد الموت؛ للحساب، وإعادته أهون عليه من بدئه، وكلٌّ على الله هَيِّن، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو أنَّه لا إله إلا هو وحده ليس كمثله شيء، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦) دلالة على خضوع الكائنات لربِّها ﷻ.

٢- استعمال قياس الأَولى، وهو الاستدلال على الشيء الذي يكون أولى من المقيس عليه، يؤخذ هذا من قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إعادته، فإنَّه إذا كان قادراً على الابتداء فهو على الإعادة أقدر من باب أولى.

٣- سُنَّةُ الله أنه جَعَلَ الليل للنوم والراحة، والنهار للعمل والسعي، ولابُدَّ للمُسلم أن يُنظِّم حياته وَفْقَها.

٤- لا يَلْتفت لآيات الله في الأنفس والآفاق إلا المؤمنون الذين يتفكرون ويعلمون.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

التفسير:

٢٨- بَيَّنَ الله لكم مثلاً - أيُّها المشركون - من أنفسكم، هل أَحَدٌ من عبيدكم وإمائكم الأرِقَّاء يشارككم فيما رزقناكم من مال، تخافون هؤلاء الشركاء الأرِقَّاء أن يقاسموكم أموالكم كما تخافون الشركاء الأحرار في القسمة؟ فكيف تَرْضَوْن أن تجعلوا لله شريكاً مِنْ خَلْقِه، وأنتم لا تَرْضَوْن مساواة عبيدكم لكم في المال؟ مثلَ ذلك البيان نُبيِّن الآيات، ونُوَضِّح الأدلة لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٢٩- ليس لهم حُجَّةٌ في إشراكهم بالله تعالى، بل ذلك بمجرَّد هوى النفس بغير علم ولا برهان، فلا أحد يستطيع أن يهدي مَنْ أضلَّه الله؛ بسبب تماديه في الكفر، وليس لهم مَنْ يُنْقِذُهم من عذاب الله.

٣٠- يأمر الله تعالى النبيَّ ﷺ وأُمَّته بأن يَتَوَجَّهوا إلى طاعة الله تعالى بالاستقامة على دينه، وخَصَّ الله إقامة الوجه؛ لأنَّ إقبال الوجه تَبَعٌ لإقبال القلب، ويترتَّب على الأمرين سَعْيُ البدن. واثبتوا على دين الإسلام، وهو دين الله الذي خلق الناس عليه منذ ولادتهم، فلا تغيير لما فَطَرَ الله عليه العباد، بل الثبات على ذلك الدين ذي الشأن العظيم، والطريقِ الموصل إلى رضوان الله تعالى، ولكنَّ أكثر العباد لا يعلمون عظمة هذا الدين الحق.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾». (أخرجه الشيخان، صحيح البخاري ٨/ ٣٧٢ برقم ٤٧٧٥ - كتاب التفسير - سورة الروم، باب ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾، وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٤٧ - كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...).

٣١-٣٢- وأقيموا وجوهكم للدِّين راجعين إلى الله تعالى، وخافوا الله بطاعته، وأداء الصلاة بأركانها، وشروطها وأوقاتها، واحذروا أن تكونوا من المشركين بعبادة الله غيره، من الذين اختلفوا في دينهم وبَدَّلوه،

فأصبحوا فرقاً. كلُّ فِرْقة بما لديهم من العلوم المخالفة للشرع فَرِحُون، إذ يحكمون لأنفسهم بأنّهم على الحقِّ، وأنَّ غيرهم على الباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١- روعة بلاغة القرآن في ضرب الأمثال.

٢- اجتمع في هذا الدِّين المبنيِّ على الإخلاص الشَّرْعُ والفطرة: الشَّرْعُ لأنّه أُمِرَ به، والفطرة لأنَّ النَّاس خُلِقوا وجُبِلوا عليها.

٣- التنبيه على أنّه لا ينبغي للمؤمنين أن يتفرَّقوا في دينهم، وأنَّ التفرُّق في الدِّين مشابهة للمشركين.

٤- ضَرَبَ الله الأمثال في القرآن؛ لتوضيح الحقائق والمعاني.

٥- الكُفَّار مُختلفون مُتفرِّقون، وكُلُّ فرقة تَدَّعي أنّها على الحق.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

التفسير:

٣٣-٣٤- وإذا أصاب العبادَ شدَّةٌ وبلاء أخلصوا لربِّهم التوحيد، واستغاثوا به تائبين إليه؛ ليرفعَ عنهم البلاء. فإذا استجاب لهم برحمته، فإذا طائفة منهم يشركون بربِّهم فجأة؛ لتكون عاقبة أمرهم الجحود برحمة الله، ثمَّ تَوَعَّدهم سبحانه بقوله: فتمتَّعوا أيها الكفار، فسوف تعلمون مصير جحودكم في نار جهنَّم.

٣٥- يُنْكر الله على هؤلاء الجاحدين قائلاً: هل أنزلنا عليهم حُجَّة واضحة على شركهم، أو كتاباً ينطق بصحة شركهم؟!

٣٦-٣٧- وإذا أنعمنا على العباد بالخيرات فرحوا بها، وإن أصابهم بلاء بسبب ارتكابهم المعاصي إذا هم يَيْئَسون من الرحمة فجأة، أولم يعلموا أنَّ الله يُوَسِّعُ الرزق لِـمَنْ يشاء من عباده، ويُضَيِّقُه على مَنْ يشاء؟ إنَّ في ذلك التدبير الحكيم لَدلالاتٍ على وحدانيته سبحانه لقوم يُصَدِّقُون بالله ورسله.

٣٨- فأَعْطِ - أيها المؤمن - قريبك حَقَّه من صلة الرحم والبرِّ به، والفقيرَ والمحتاج المنقطع عن بلده ومالِه، من الزكاة والصدقة. ذلك العطاء خير للذين يريدون بعملهم رضوان الله. وأولئك أصحاب الدرجات الرفيعة هم الفائزون في الدنيا بحياة طيبة، وفي الآخرة بجنَّةٍ عالية.

الفوائد والاستنباطات:

١- السيئة لا تضاف إلى الله؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، ولم يقل: (وما أصبناهم).

٢- في الآية (٣٦) إخبار مستقبليٌّ يتحدَّث عن طبيعة أكثر النَّاس في الرخاء والشدَّة، فإذا أذاقهم الله نعمة منه من صحَّة وعافية ورخاء فرحوا بذلك فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ، لا فرحَ شكر، وإن أصابهم منه بمرض وفقر وخوف وضيق بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، فإنَّهم يَيْئَسون من زوال ذلك.

٣- سَعة الرزق وتضييق الرزق كلّه بيد الله ﷻ، وتقرير ما يحدث لقوم من بَسْط الرزق، وتضييقه على آخرين؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الاستفهام للتقرير.

٤- التَّنبيه على أهمية الإخلاص، وأنَّه كلَّما كان العمل أخلص لله كان أكثر خيراً للفاعل.

٥- الفلاح يكون بأمرين: الإخلاص، وفِعْلِ المأمور به، وهذا يُؤْخذ من قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء المشار إليهم أتَوا بالفعل والإخلاص.

٦- الكُفَّار متناقضون في مواقِفِهم، فهُم في الضَّرَّاء يتضرعون إلى الله، وفي السَّرَّاء مُشرِكون به غَيْرَه.

٧- المؤمن مع الله دائماً، يعبُدُه في السَّراء، ويُخْلِصُ له في الضَّرَّاء، يعرِفُهُ في الرخاء لِيَعرِفَه الله في الشدَّة.

٨- المؤمن راضٍ بقَدَرِ الله، فيَشكُره عند السَّراء، وبَسْطِ الرزق، ويصبرُ ويَحْمَدُ الله عند الضَّرَّاء، وتضييق الرزق.

٩- في الآية (٣٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله يُوَسِّع الرزق لِـمَنْ يشاء امتحاناً، هل يشكر أو يكفر؟ ويضيِّقه على مَنْ يشاء اختباراً، هل يصبر أو يجزع؟.

١٠- على المُتَصَدِّق أن يتصدَّق على أقارِبِه وأرحامِه المُحتاجين قبل غيرهم؛ لِيَكونَ له بذلك أجر الصدقة وصِلَةِ الرَّحم.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٩- ومَنْ أعطى عَطِيَّة أو هديَّة يريد أن يردَّ عليه الناس أكثر ممَّا أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله. وما أعطيتم من زكاة وصدقة للمستحقين طلباً لثواب الله تعالى، فأولئك أصحاب المنزلة العالية هم الذين يضاعف لهم الجزاء.

٤٠- يُخبر سبحانه أنَّه وحدَه المنفرد بخلق العباد، ورِزْقِهم وإماتتهم، وبَعْثهم من القبور، وأنَّه ليس أحد من الشركاء التي يَدْعُوها المشركون مَنْ يشارك الله تعالى في شيء من هذه الأشياء، فكيف يُشركون بمَنِ انفرد بهذه الأمور العظيمة مَنْ ليس له تَصَرُّفٌ فيها؟ تَنَزَّه الله، وتَقَدَّس عن شركهم.

٤١- ظهرت المعاصي والضلالة في البرِّ والبحر، فنزلت العقوبات بأنواعها كالقَحْطِ والغرق وغيرها بسبب الذنوب التي وقع فيها الناس؛ ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم كي يتوبوا إلى الله، وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ، فلمَّا بُعِث دخل الناس في دين الله أفواجاً، فنَجَوا من العقوبات، وعَمَّت الخيرات.

٤٢- قل - أيُّها الرسول - للمكذِّبين برسالتك: سِيروا في البلاد، فانظروا مصير الأُمم الماضية الذين دَمَّرْناهم؛ لأنَّ أكثرهم كانوا مشركين بالله تعالى.

٤٣- يأمر الله تعالى النبي ﷺ وأُمته أن يتوجَّهوا إلى طاعة الله تعالى، ودينه القويم الإسلام، قبل مجيء يوم القيامة الذي لا سبيلَ لرَدِّه، فلا رادَّ له من أمر الله. في ذلك اليوم يتفرَّقُ العباد إلى الحساب، فريق في الجنة، وفريق في جهنَّم.

٤٤-٤٥- مَنْ كذَّب الله ورسله فعليه إثمُ كُفْرِه، ومن عمل خيراً وأطاع الله فثوابُ ذلك لأنفسهم؛ إذ يهيئون منزلتهم في الجنَّة؛ ليجزيَ الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات ثواباً عظيماً من فضله. إنَّه سبحانه لا يحبُّ الجاحدين بنِعَمِه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٣٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ أعطى قرضاً من المال بقصد الربا، وطلب زيادة على ذلك القرض، ليزيد وينمو فإنَّ الله يمحقه ويبطله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بأنَّ مَنْ أعطى زكاة وصدقة للمستحقين ابتغاء مرضاة الله وطلباً لثوابه، فإنَّ الله سيقبله، ويضاعفه له أضعافاً كثيرة.

٢- تكون مضاعفة الأعمال بحسب الإخلاص؛ لقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، فقد رَتَّبَ الله تعالى الإضعاف على إرادة وجه الله.

٣- في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ عن الموت، أنَّ كلَّ نفس لها أجل محدود.

٤- قُوَّة الإقناع في أسلوب القرآن؛ لأنَّ مِثْلَ هذا التحدِّي في قوله: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ هذا أقوى ما يكون في الإقناع، فكلٌّ منهم سيكون جوابه: لا، إذن لماذا تعبدونها مع الله؟.

٥- في الآية (٤١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ سبب ظهور الفساد في البرِّ والبحر، كالجَدْبِ وكثرة الأمراض إنَّما هو المعاصي التي يقترفها البشر. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بأنَّ الله ﷻ يصيب النَّاس بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها في الدُّنيا؛ كي يتوبوا إليه، ويرجعوا عن المعاصي، فتصلح أحوالهم.

٦- قال العلماء: شملت الآية الفساد الذي يحدث للبيئة الطبيعية (ماء - هواء - تربة)، أو ما يُسَمَّى بالتلوث الطبيعي، فضلاً عن التلوث الأخلاقي المتمثل في السلوك السيِّئ نحو البيئة، وإن قمة الإعجاز في الآية أنها عرضت المشكلة وآثارها في الإنسان، وفي البر والبحر، وكيف يتحمل الإنسان المسؤولية كاملة عما اقترفه من سلوك شائن وجور بحق بيئته ممَّا جعلها غير معطاء وغير صالحة لإعالة ساكنيها من البشر، ومن يشاركهم الحياة فيها من باقي الكائنات؟ (ظهر الفساد في البر والبحر : الكتاب الخامس للمؤتمر الدولي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٦١).

٧- الناس لا يعاقبون إلا بما كسبوه؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾، فيتفرَّع على ذلك أنَّ مَنْ أراد أن تُرفع عنه العقوبة فَلْيَتُبْ إلى الله؛ لأنَّ التَّوبة من أسباب رَفْعِ العقوبة، وكَسْبِ المثوبة.

٨- أسباب هلاك الأُمم السَّابقة كان بسبب إشراك أكثرهم؛ لقوله: ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾.

٩- لا تُقْبَلُ النفقةُ مِنْ صاحبها إلا إذا ابتغى بها وَجْهَ الله، وأخرجها خالصة لله.

١٠- تلويث البيئة وإفسادُها يدخُلُ فيما حرَّمه الله تعالى.

١١- على المؤمن أن يتعرَّف على الأصناف الذين يُحِبُّهُم الله؛ لِيَتَّصِفَ بصفاتهم، ويتعرَّف على الذين لا يُحِبُّهُم الله؛ ليبتعد عنهم، ويُخلِّص نَفْسَه من صفاتهم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٦- ومن دلائل قدرته على وحدانيته إرسال الرياح مبشِّرات، ومُجْلِبات للمطر، ثمَّ الخيرات والثمرات، وليذيقكم من رحمته بإنزال المطر الذي يُخرج النبات، ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بأمر الله تعالى، ولتطلبوا الأرزاق بالتجارة وغيرها، ولكي تشكروا الله بالقول والعمل.

٤٧- وقسماً لقد أرسلنا من قبلك - أيُّها الرسول - رُسُلاً إلى قومهم يهدونهم إلى الحقِّ، فجاؤوهم بالمعجزات العظيمة، فكفر بها أكثرهم، فدمَّرهم الله تعالى عقوبةً على تكذيبهم، وكان حقّاً ثابتاً أَوْجَبْناه علينا تَفَضُّلاً منَّا على المؤمنين بنَصْرِهم على أعدائهم.

٤٨-٤٩- يُبَشِّر الله تعالى البشرية كيف يُنَزِّل الغيث عليهم، وذلك بإرساله الرياح التي تُحَرِّك السحاب، الحافلة بالماء وتَسُوقه أمامها، فيجمعه في أعالي الجو، ويجعله قطعاً متفرِّقة أو متصلة، فتشاهد المطر يخرج من بين السحاب، فإذا أصاب به مَنْ يشاء من عباده إذا هم يفرحون، وإن كانوا قبل نزول الغيث لفي يأس وقنوط.

٥٠- فانظر - أيها العبد - إلى آثار الغيث من الثمرات والخيرات، كيف أنَّ الله يجعل الأرض خضراء بعد أن كانت جرداء؟ إنَّ ذلك الله العظيم الشأن الذي قَدَرَ على إحياء هذه الأرض، لَمحيي الموتى، وهو سبحانه على كل شيء من الأشياء قدير لا يعجزه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٤٦) إخبار مستقبليٌّ عن أسباب إرسال الله ﷻ للرياح، وذلك لنزول المطر، وجَرَيان السفن في البحر؛ ليشكروا الله على ذلك.

٢- في الآية (٤٧) إخبار مستقبليٌّ وبشارةٌ لعباد الله المؤمنين المتَّبِعين لرسلهم، بالنَّصر على المكذِّبين برسلهم.

٣- ظهور الآيات للإنسان سبب لشكر نعمة الله عليه، وهذه تُؤخذ من قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٤- المؤمن يُكْثِرُ من حَمْدِ الله وشُكرِه، اعترافاً منه بفضله وإنعامه، ونِعَمُ الله لا تُحْصى.

٥- تحذير المخالفين له جَلَّ وعلا؛ لقوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

٦- أوجب الله على نفسه نَصْرَ المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا النَّصْرُ لابُدَّ أن يكون؛ لأنَّه أتى بصيغة التعظيم، وما حصل من الانتصارات الخاطفة للكفَّار فهو استدراج من الله ﷻ، حتى يتمَّ النَّصْرُ للمؤمنين في النِّهاية. ثمَّ إنَّه لا يدوم هذا النَّصْر أبداً، فالعاقبة لابُدَّ أن تكون للمؤمنين.

٧- فضيلة الإيمان، وأنَّه سبب للنَّصر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- حكمة الله ﷻ في نزول المطر من أعلى؛ لأنَّه إذا نزل من أعلى عَمَّ النَّازلَ والمرتفع، خلاف ما لو كان يجري في الأرض، فلو كان يجري في الأرض فإنَّه يُغْرِقُ النَّازل قبل أن يصل إلى العالي.

٩- الاستدلال بالمحسوس المنظور على المحسوس المنتظر. المحسوس المنظور ما يَحْصُلُ من حياة الأرض، والمحسوس المنتظر ما يحصل من إحياء الموتى.

١٠- الكافر لا يصبر على البلاء، ولا يَثْبُتُ عند المِحْنَة، وهو كَفُورٌ جَحودٌ لنعمة الله، خلاف المؤمن الشاكر عند الرخاء، الصابر عند البلاء.

١١- في الآية (٥٠) إخبار مستقبليٌّ عن أثر المطر في إحياء الأرض بعد موتها، فإنَّه يُنبتها ويُعْشِبُها، وأنَّ الله ﷻ على كلِّ شيء قدير لا يُعجزه شيء، لا في السابق، ولا في الحاضر، ولا في اللاحق.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير:

٥١- وقسماً لئن أرسلنا ريحاً عاصفة مُفْسدة لزروعهم، فرأوها مُصْفَرَّة يابسة من شدَّة الريح، لَظَلُّوا من بعده مُصِرِّين على جحود نعمة الله تعالى.

٥٢-٥٣- فإنَّك - أيُّها الرسول - لا تُسْمِعُ موتى القلوب سماعَ تَدَبُّر، ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ دَعْوَتَك إلى الحق إذا انصرفوا معرضين عن السماع والتفهُّم، وما أنت بهادي عمي القلوب من ضلالتهم، وما تُسمع سماع انتفاع إلا مَنْ يُصَدِّق بآياتنا المنزلة ومعجزاتنا المشاهدة، فهم منقادون لأمرنا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ على قَليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنَّهم الآن يسمعون ما أقول». فذُكِرَ لعائشة فقالت: إنَّما قال النبي ﷺ: «إنَّهم الآن لَيعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق». ثم قرأت: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية.

(صحيح البخاري ٣٥١ برقم٣٩٨١،٣٩٨٠ - كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل).

٥٤- الله سبحانه هو الذي خلقكم - أيها البشر - من نطفة، ثمَّ جعل من بعد ضعف الطفولة قوَّةَ الشباب، ثمَّ جعل من بعد قوَّة الشباب ضعف الكبر وشَيْبَ الهَرَمِ، يخلق الله ما يشاء من الضعف والقوة، وهو العليم بعباده، القادر على ما يشاء.

٥٥- يُنبئ الله تعالى عن حالة المجرمين يوم القيامة بأنَّهم يحلفون إنَّهم ما مكثوا في الدنيا غير مدَّةٍ زمنية قليلة جداً. مثلَ ذلك الحَلْفِ الكاذب كانوا يكذبون في الدنيا في حَلْفِهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥١) إخبار مستقبليٌّ عن إصرار الكفَّار على كفرهم حين يُرْسِلُ الله عليهم ريح العذاب.

٢- الكُفَّار يُعطِّلون حواسَّهُم بعَدَم تدبُّرِهم واعتبارهم بها، فكأنَّها غير موجودة.

٣- الداعية لا يَيْئَسُ من إعراض المَدْعُوِّين عنه، لأنَّه لم يُقَصِّرْ في دعوتهم.

٤- الدُّنيا قصيرة بالقياس إلى الآخرة، بل هي أقل من الفيمتو وهو جزء صغير جداً من الثانية الزمنية $\frac{1}{1,000,000,000,000,000}$ ثانية؛ لأنَّ زمن الآخرة ما لا نهاية له .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- فيَرُدُّ عليهم المؤمنون العلماء: والله لقد لَبِثْتُم فيما كُتِبَ في اللوح المحفوظ إلى يوم بَعْثِكم من القبور، فهذا يوم البعث الذي كنتم تُكَذِّبون به، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنَّه حقٌّ واقع.

٥٧- فيوم القيامة لا ينفع الظالمين أنفسَهم عُذْرُهم فيما أجرموا، ولا يقال لهم: أرْضُوا ربكم بتوبة.

٥٨- وقسماً لقد بَيَّنَّا للعباد في هذا القرآن الحقَّ، ووضَّحناه لهم من كل مثل؛ ليتبيَّنوا الحقَّ، ويَتَّبعوه، وقسماً إن جئت أيها الرسول للكفَّار بآية تَدُلُّ على صِدْقك ليقولُنَّ: ما أنتم إلا كاذبون فيما تَدَّعون.

٥٩- مثلَ ذلك الطبع على قلوب الكفَّار يطبع الله على قلوب الذين حَرَموا أنفسهم من العلم النافع، فهم لا يعلمون اتِّباع الحق.

٦٠- فاصبر - أيها الرسول - على ما أُمِرْتَ به، وعلى دعوتهم وأذاهم. إنَّ وعد الله بنصرك عليهم حقٌّ ثابت، ولا يحملنَّك على الخِفَّة والقلق ما يفعله الكفَّار الذين لا يُصَدِّقون الرسل.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ سبب بيان الله للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل هو إقامة الحُجَّة عليهم، وإثبات وحدانيَّة الله جَلَّ وعلا.

٢- في الآية (٥٩) إخبار مستقبليٌّ عن طبع الله تعالى على قلوب الذين لم يستفيدوا من مواعظ القرآن الكريم.

٣- الكُفَّار جاهلون لا يعلمون، ولذلك يُكَذِّبون بالحق، ويُنكرون الآخرة.

٤- ذَكَرَ الله أمثالاً مُتَعَدِّدَةً في القرآن، ولا يعقِلُها ويَعِيها إلا المؤمنون العالمون.

٥- لا يَفْقِدُ المؤمنُ يَقينَه بتحقيق وَعْدِ الله، ولا ثِقَتَه بنَصْرِ الله، مهما طالت الطريق، واشتدَّ الأذى، وازداد استخفاف الأعداء وبَطْشُهم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان حقيقة الحكمة وفضلها.

٢ - بيان الدلائل الباهرة على وحدانية الخالق، وعظمته.

٣ - بيان أصول الآداب العالية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢-٤ - هذه الآيات ذات المقام العظيم آيات القرآن الحكيم بأحكامه ومواعظه، هدايةً للعباد إلى طريق الرشاد، ورحمةً للذين يُحْسنون بالأقوال والأعمال، الذين يحافظون على أداء الصلاة بأوقاتها وشروطها ويُعطون الزكاة للمستحقين، وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً دائماً بتصديق اليوم الآخر.

٥ - أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نورٍ من ربِّهم يُرشدهم إلى الحق، وأولئك أصحاب المنازل العالية، هم الفائزون في الدنيا بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بالجنَّة.

٦ - ومن العباد مَنْ يستحبُّ ويختار ما يُلهي القلوب عن طاعة الله، ممَّا نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ؛ ليُضِلَّ عن طريق الهداية إلى طريق الغَواية جهلاً بالإثم، ويتَّخذ دين الله سخرية. أولئك البعداء عن الحقِّ لهم عذاب مُذِلٌّ في نار جهنم.

أخرج الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، عن جابر وغيره، في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال: هو الغناء والاستماع له. (وذكره ابن كثير عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول).

٧- هذا المقبل على لَـهْوِ الحديث إذا تتلى عليه آيات القرآن أعرض عنها كِبْراً، فلا يأبه بمواعظها، ولا يعبأ بأحكامها، كأنَّه لم يسمعها، كأنَّ في أُذنيه صَمَماً، فأخبِرْه - أيها الرسول - وأنْذِرْه بعذاب النار الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- الثَّناء على القرآن بهذا الوصف العظيم، وهو ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ، فليس في القرآن خبرٌ أو حُكْمٌ سِيق عَبَثاً، لقوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ لأنَّ العبث ينافي الحكمة.

٢- إنَّ إقامة الصَّلاة من الإحسان؛ لأنَّ ما بعدها بيان لها ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ﴾.

٣- ذَمُّ مَنْ يركَنُ إلى لهو الحديث، وهو ما لا خير فيه.

٤- ذَمُّ كلِّ ما يصدُّ عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥- تحريم الهُزْءِ بآيات الله.

٦- الكُفَّارُ يَحْرِصون على إشغال النَّاس باللهو واللَّعب؛ ليَصُدُّوهم عن الحق.

٧- كلُّ ما أشْغل الإنسان بالباطل هو من اللَّهْو المُحَرَّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

التفسير:

٨-٩- إنَّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات ثوابهم أجر كريم في جَنَّات النعيم، ماكثين فيها أبداً، وعد الله ذلك حقاً لا يُخْلف الميعاد، وهو العزيز في مَلَكوته، الحكيم في تدبير عباده.

١٠ - خَلَقَ الله السموات السبع من غير أعمدة ترونها، وألقى في الأرض جبالاً ثابتة؛ لئلّا تضطرب بكم، ونشر فيها أصنافاً كثيرة من الدوابِّ، وأنزلنا من السحاب مطراً، فأنبتنا في الأرض من كل صِنْفٍ بهيج المنظر، نافع للبشر.

١١ - هذا الذي تشاهدونه هو خلق الله، فأروني - أيها المشركون - أيَّ شيء خَلَقَتْه آلهتكم التي عبدتموها من دون الله؟ بل هؤلاء المشركون في ضلال واضح بعيد عن الحق.

١٢ - قسماً لقد أعطينا العبد الصالح لقمان الحكيم الفقه في الدين، والتوفيق في أقواله وأعماله، ومن عيون الحكمة، وأمره سبحانه أن يشكر لله نعمه عليه بالقول والفعل، وبَيَّن سبحانه أنَّ نَفْعَ ذلك الشكر يعود لنفس الشاكر. ومَنْ جحد نِعَمَه سبحانه فإنَّ الله غنيٌّ عن شكره، وعن كل شيء، محمود على كل حال.

١٣ - يُبَيِّن الله تعالى وصايا لقمان العظيمة والمواعظ الكريمة - في الآيات السبع التالية - حين خاطب ابنه بقوله: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله أحداً مِنْ خَلْقِه؛ لأنَّ الشرك من أعظم الكبائر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خَلْقُ السماء فَوْقَنا، وَرَفْعُها من دون أعمدة نراها، دليل على وحدانية الله وقُوَّتِه وعَظَمَتِه وقُدرَتِه.

٢ - الجِبال راسية في باطن الأرض بأبعاد محسوبة؛ ممَّا يُقَلِّلُ من اضطراب القارَّات وحَرَكَتها.

٣- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٤ - بيان نعمة الله سبحانه على لقمان بإعطائه الحكمة.

٥ - شُكْرُ الله من الحكمة؛ لأنَّ قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هذا من تفسير الحكمة، والشكر لله لا شكَّ أنَّه من الحكمة.

٦ - الحِكْمَة والمعرفة تقوم على ذِكْرِ الله وحمده وشُكرِه، والذي لا يشكُرُ الله ليس عالماً ولا حكيماً.

٧- في الآية (١٢) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة مَنْ يشكر الله، بأنَّ نَفْعَ ذلك الشكر يعود إلى الشاكر نفسه، وأنَّ مَنْ يجحد شُكْرَ الله فإنَّ الله غنيٌّ عن شكره، غير محتاج إليه.

٨- على الأب أن يهتمَّ بتربية أبنائه وتوجيههم ونُصحِهِم، وأن يُنَشِّئَهم على العقيدة والعبادة.

٩- على الإنسان أن يُحسِنَ لِـمَنْ أحْسَنوا إليه، وأن يَشْكُرَهم على إنْعامِهم وفَضْلِهم، وفي مُقدِّمة هؤلاء الوالدان.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٤ - ووَصَّينا الإنسان بالإحسان إلى الوالدين وبرِّهما؛ حَمَلَتْه أُمُّه جنيناً في بطنها، وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف، كلَّما كَبِرَ الحَمْلُ إلى وقت الولادة، وفطامه عن الرضاعة في مدَّة تمام عامين، وأمرناه بالشكر لي على نِعَمي، وبالشكر لوالدَيك على جهودهما في التربية، إليَّ المرجع يوم القيامة للحساب.

١٥ - وإن بذلا جهدهما ليحملاك على الشرك في عبادة الله تعالى ممَّا ليس لك به عِلْمٌ، فلا تُطِعْهما، وصاحِبْهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركَيْن - واتَّبِعْ طريقَ مَنْ تاب وأخلص لله تعالى، ثمَّ إليَّ مصيرُكم، فأخبركم الأخبار العظيمة عن أعمالكم خيرِها وشَرِّها في الحياة الدنيا.

١٦ - ثمَّ كَرَّر خطاب الاستعطاف لأنَّه أدْعَى للإجابة: يا بُنيَّ إن كانت الحسنة أو السيئة بوزن حبة خردل - وهي أصغر الحبوب - سواءٌ وُجِدَتْ في صخرة، أو في أي مكان في السموات السبع، أو في الأرضين السبع، فإنَّ الله يأتي بها يوم القيامة ويحاسِبُ عليها. إنَّ الله لطيف بعباده، خبير بأحوالهم.

١٧ - يا بُنيَّ أقم الصلاة بأوقاتها وشروطها، وأْمُرْ الناس بطاعة الله تعالى، وانْهَهُم عن المعاصي بحكمة، واصبر على ما يصيبك من الناس حين تدعوهم لذلك. إنَّ ذلك الصبر له شأن عظيم، وهو من الأمور التي ينبغي الحرصُ عليها، والتمسُّك بها.

١٨ - ولا تُمِلْ خَدَّك للناس كِبْراً عليهم، ولا تَمْشِ في الأرض مُعْجباً بنفسك؛ لأنَّ الله تعالى يكره المتكبِّر الذي يرى العظمة لنفسه.

١٩ - وتواضَعْ في مشيتك، واخفِضْ من صوتك. إنَّ أقبح الأصوات لَصوت الحمير حقّاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- طاعةُ الوالدين مُقيَّدةٌ بعدم معصية الله، لأنَّه لا طاعة لِمَخلوق في معصية الخالق.

٢- وجوبُ مُصاحبة الوالدين في الدُّنيا بالمعروف، حتى لو كانا كافِرَيْن.

٣- التحذير والتَّخويف من المخالفة؛ لأنَّ قوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: سأحاسبك أيُّها الإنسان.

٤- قال الشيخ ابن عثيمين: «بلوغ الغاية في البلاغة في القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾، ولم يَقُلْ: فأجازيكم، وذلك أنَّه قد يُنبِّأ الإنسان أحياناً بما عمل، ثمَّ يُغفر له، فذكر الله الإنباء؛ لأنَّه مؤكَّد، أمَّا المجازاة فإنَّ الله تعالى قد يغفر عن المذنب بذنوبه». (تفسير القرآن الكريم ٧/ ١٩٨).

٥- يقول العلماء: إنَّ غاز الخردل المحضر كيميائياً - ليس بنبات - بل هو نتاج لعملية كيميائية معقدة تحضر مختبرياً، وهو مهم جداً في الصناعات الكيميائية سِلْماً وحرباً. (إعجاز القرآن الكريم في الكيمياء: ص٧).

٦- أهمِّيَة الصَّلاة في حياة المؤمنين؛ إذ بدأ بها.

٧- ذَمُّ هاتين الخصلتين: تصعير الخَدِّ للنَّاس تكبُّراً وتعاظُماً، والمشي في الأرض مرحاً.

٨- رَفْعُ الصَّوتِ في غير محلِّه مُحَرَّم؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، فإنَّ هذا التشبيه يقتضي التنفير منه.

٩- على المسلم أن يحرص على القيام بواجبه تجاه إخوانه: بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

١٠- الصَّبْرُ على ما يُصيب المسلم خُلُقٌ عظيم، وزادٌ كبير له؛ ليستمرَّ على القيام بدَعْوَتِه.

١١- المُتكبِّر المُختال الفخور المُتعالي، مكروه عند الناس، بغيض عند الله.

١٢- المشيَةُ الجَيِّدَةُ هيَ المتوسطة المقتصدة المتوازنة، من دون بُطْءٍ مُتَثاقل، ولا إسْراع مُتلاحق.

١٣- تلمح الآية إلى أخطار التلوث البيئي بالضجيج، فقد ثبت بالقياس أن شدة صوت نهيق الحمار تتجاوز مئة ديسيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالعديد من الأمراض، ولذلك يجب أن تخصص لها أماكن بعيدة عن سكن الإنسان. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢٩٨-٣١٢).

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢٠-٢١- ألم تُبْصِروا - أيُّها العباد - أنَّ الله تعالى سَخَّر لكم ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الحيوانات والنباتات والأنهار وغيرها، وأسبغ عليكم بنعمه الظاهرة المرئية، والباطنة في العقول. وبعض الناس مَنْ يجادل في توحيد الله بغير حُجَّة وبيان، ولا كتاب مُنَزَّل من عند الله تعالى في غاية الوضوح. وإذا قيل لهؤلاء الغافلين : اتَّبِعُوا ما أنزل الله تعالى على رسوله من القرآن، قالوا: لا نتبع ذلك، بل نسير على طريقة آبائنا في عبادة الأصنام والأوثان. فأنكر الله تعالى عليهم، ووَبَّخهم: أيتبعونهم، ولو دعاهم الشيطان إلى عذاب النار الملتهبة؟

٢٢- ومن يُخْلِصْ في عبادته لله تعالى وهو محسن في أقواله وأفعاله، فقد استمسك بالإيمان والإسلام. وإلى الله تعالى مصير الأمور كلها للحساب عليها.

٢٣- ٢٤-ومَنْ جحد بالله تعالى - أيها الرسول - فلا يحزنك جُحودُه، إلينا مصيرهم يوم القيامة، فنخبرهم إخباراً مؤكداً عن جرائمهم كلها. إنَّ الله تعالى عليم بما تُخفي القلوب من خير وشر، نُمَتِّعُهم قليلاً في الحياة الدنيا العاجلة، ثمَّ نُلْجِئُهم إلى عذاب النَّار الشديد الموجع.

٢٥- وقسماً إن سَأَلْتَ- أيها النبي- هؤلاء المشركين: مَنْ خلق السموات السبع والأرضين السبع؟ قسماً سيقولون: الله. قل لهم: الحمد لله على ظهور الحُجَّة من اعترافكم. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق، فيتَّبِعُونه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٠) إخبارٌ مستقبليٌّ عن جدال بعض الكفَّار في وحدانيَّة الخالق سبحانه بغير دليل ولا برهان.

٢- قال الشيخ ابن عثيمين: «جواز استخدام ما في هذا الكون في السَّموات والأرض لمصالحنا؛ لأنَّه مُسَخَّر لنا، فإذا كان مُسَخَّراً فلنا أن ننتفع به بما أَحَلَّ الله لنا». (تفسير القرآن الكريم ٧/ ٢١٦)

٣- ذَمُّ الجدل بغير برهان؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، وينبغي للمجادل أن يكون له دليل من العقل أو من النقل؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٤- في الآية (٢١) إخبار مستقبليٌّ عن رَدِّ المجادلين في توحيد الله إذا قيل لهم: اتَّبعوا ما أنزل الله على نبيِّه محمَّداً ﷺ فإنَّهم سيُصِرُّون على الشرك.

٥- كلُّ شيء يوجب العقوبة، فهو من تلبية طلب الشيطان؛ لقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٦- في الآية (٢٢) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال مَنْ أخلص في عبادته وقَصْدِهِ إلى الله تعالى، وهو محسن في أقواله ومتقنٌ لأعمالِه، فإنَّه قد أخذ بأوثق سببٍ مُوصِلٍ إلى رضوان الله وجَنَّته.

٧- الإشارة إلى أنَّه ينبغي لِـمَنْ أسلم وجهه إلى الله وهو محسن أن يصبر؛ لأنَّ العاقبة له، فلا يتعَجَّلُ، أو يستبعد الفرج، أو يستبعد النصر.

٨- ينبغي للإنسان مراقبةُ الله ﷻ دائماً؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٩- التمتُّع في الدُّنيا قليل في زمنه ونوعه. أمَّا زمنه فظاهر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا نوعه فقد قال النبيُّ ﷺ: «لَـمَوْضِعُ سوط أحدكم في الجنَّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها».

١٠- خَلَقَ الله السموات والأرض مُسَخَّرَةً لبني آدم، وخَلَقَ بني آدم لِيَعبدوه وحدَه.

١١- نِعَمُ الله على الناس لا تُحْصى، منها الظَّاهرة ومنها الباطنة، ويجب عليهم أن يشكروه عليها.

١٢- الكافر يُجادل بالباطل، ويُشرك به، ولا يَجِدُ دليلاً نقليّاً أو عقليّاً يعتمد عليه.

١٣- على الإنسان أن يَتَّبع الحقَّ، مهما كان قائله، وأن يرفض كُلَّ ما يتعارض معه، مهما كان صاحبه.

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٦- لله تعالى ملكوت ما في السموات السبع والأرَضين السبع. إنَّ الله هو الغني عن غيره، المحمود في الدنيا والآخرة.

٢٧- ولو تَحَوَّلَتْ كلُّ أشجار الأرض أقلاماً، وصارت مياه البحار مِداداً، فكُتبت بها كلمات الله، لَفَنِيَتْ تلك الأقلام، وانتهت البحار، ولم تنته كلمات الله تعالى الدَّالة على سَعَةِ عِلْمِه. إنَّ الله عزيز في ملكوته لا يعجزه شيء، حكيم في تدبير خلقه.

٢٨- ما خَلْقُكم أيُّها العباد، ولا بعثكم يوم القيامة، إلا كخَلْقِ نفس واحدة وبعثها. إنَّ الله سميع للأقوال، بصير بالأحوال.

٢٩- ألم تَرَ - أيُّها الإنسان - أنَّ الله تعالى يُدْخِلُ كلًّا من الليل والنهار في الآخر، فيزيد في أحدهما وينقص من الآخر، وسَخَّر الشمس والقمر منافع للعباد، فكلٌّ منهما يجري في فَلَكِه إلى وقت يوم القيامة، وأنَّ الله تعالى بكل ما تعملون من الأفعال والأقوال ذو خبرة شاملة كاملة؟

٣٠- ذلك المُشاهَدُ من آيتي الليل والنهار اللَّتين لا تغادران حياة العباد؛ لتؤمنوا، وتتيقَّنوا بأنَّ الله تعالى هو الإله الحق الذي يجب أن يُعبد وحده، وأنَّ كلَّ ما يَعْبُدُ العباد من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له، وأنَّه سبحانه هو العليُّ بذاته فوق جميع مخلوقاته، الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- الكُفَّار يعترفون بوجود الله، وأنَّه الخالق لكل شيء، وما يتردَّدُون فيه هو توحيد الله، ولهذا يُشْرِكُون به غيره من المخلوقين.

٢- الواحِدُ والجَماعةُ والقليلُ سواء عند الله، لأنَّه يقول للشيء: كُنْ، فَيَكون.

٣- يَجِبُ وصف الله بكلِّ كمال، وأن نُسَمِّيَه سبحانه بما سمَّى نفسَه من الأسماء الحُسنى، فهو عزيزٌ حكيمٌ، سميعٌ بصيرٌ، غنيٌّ حميدٌ.

٤ - يقول العلماء: ترشد الآية إلى أحد الاستخدامات الهامة للنبات وهي صناعة الأقلام. ومن قديم الزمان والإنسان يستخدم النبات في هذه المهمة، وقد دَلَّتْه خبرته على أفضل أنواع النباتات المستخدمة في ذلك وهو نبات الغاب (البوص)، وحديثاً يصنع من أخشاب القلم الرصاص. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم : الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٢٧٩).

٥- تعاقُبُ الليل والنهارمن آيات الله، وعلى المؤمن أن يَلْتَفِتَ لها، ويُفيد منها.

٦- نَظَّمَ الله حَرَكَةَ الشمس والقمر والأرض والنجوم، وقَدَّرها تَقْديراً، وجَعَلَها تسير بدِقَّةٍ مُتناهيةٍ.

٧- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣١- ألمْ تنظر - يا عبد الله - أنَّ السفن تسير في البحر بلُطْفِ الله ورحمته؛ ليريَكم سبحانه من عظيم آياته وعجائب قدرته؟ إنَّ في ذلك الأمر العظيم لَعلاماتٍ تَدُلُّ على وحدانيته سبحانه لكلِّ صَبَّار على طاعة الله، شكور على نِعَمِه العظيمة.

٣٢- وإذا هاجت أمواج البحر عند ركوب المشركين السفن، وغطَّاهم الموج العالي كالجبال والغَمام أَخْلَصُوا دعاءهم لله تعالى، واستغاثوا به سبحانه، فلمَّا أنقذهم إلى البرِّ صاروا فريقين، أحدهما: لم يشكر الله تعالى على وجه الكمال، والآخر: رَجَعَ إلى كفره، وما يُكَذِّب بآيات الله تعالى إلا كل غَدَّار خائن شديد الجحود لفضل الله تعالى عليه.

٣٣- يأمر الله تعالى البشر بطاعته، واتِّباع أَمْرِه، والخوف من يوم القيامة للحساب، حين لا يُغْني كلُّ والد عن ولده، ولا ينفع ولدٌ والده بشيء، وحَذَّرهم سبحانه من الانخداع بالدنيا وملذَّاتها، ومن خداع شياطين الإنس والجن ومَكْرِهم للبعد عن الإيمان بالله تعالى.

٣٤- إنَّ الله وحدَه عنده عِلْمُ وقت قيام الساعة، وهو الذي يُنَزِّل المطر بأمره، ويعلم ما تحمل أرحام الإناث من الأجِنَّة وأحوالها، ويعلم ما تَكْسِبُه كلُّ نفس في غَدِها، وما تعلم كلُّ نفس بأيِّ مكان تموت، بل الله تعالى هو المتفرِّد بهذا العلم. إنَّه سبحانه عليم بكل شيء، خبير بأحوال النفوس.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجلٌ يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، ورُسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: يارسول الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأُحَدِّثك عن أشراطها: إذا

وَلَدَتِ المرأة رَبَّتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحُفاة العُراة رُؤوسَ الناس فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهنَّ إلا الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾. ثم انصرف الرجلُ، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ. فأخذوا ليردُّوا فلم يَرَوا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء لِيُعَلِّمَ الناس دينهم.

(صحيح البخاري ٨/ ٣٧٣ - كتاب التفسير - سورة لقمان، (الآية) برقم٤٧٧٧. وصحيح مسلم ١/ ٣٩-٤٠ برقم ٩-١٠ كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان).

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٣١) إخبار مستقبليٌّ عن الحكمة في جَرَيان السفن في البحر بأمر الله، وذلك لِيُرِيَ عباده من عِبَره وحُجَجِه عليهم.

٢- يُري اللهُ الناسَ آياتِه، من خلال نِعَمِه وعَطاياه ورحمته، لكن لا يَلْتفت لها إلا المؤمن.

٣- على المؤمن أن يجمع بين الأمرَين المتقابلَين: الصَّبر على الشِّدَّة، والشُّكر على النِّعمة.

٤- الكافر لا يعرف الله إلا عند الشِّدَّة، وهو ينقُضَ عَهْدَه مع الله عند الرَّخاء.

٥- في الآية (٣٢) إخبار مستقبليٌّ عن حال المشركين فيما إذا ركبوا السفن، وعَلَتْهم الأمواج من حولهم كالسُّحُب، فإنَّهم يصابون بالخوف، فيفزعون إلى الله، ويُخْلِصُون الدعاء له، وإذا نَجَّاهم إلى البرِّ فمنهم مَنْ لم يشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها.

٦- عَدمُ الانخداع والاغترار بالحياة الدنيا وزينتها، لأنَّها تُنسي الآخرة.

٧- الحَذَرُ من الشَّيطان ووساوسه وتزيينه؛ لأنَّه لا يَعِدُ النَّاس إلا غروراً.

٨- مهما بَلَغَ الإنسانُ من العِلمِ فإنَّ عِلْمَه لا يكاد يُذْكَرُ أمام ما يَجهَلُه، ويُخفيه الله عنه.

٩- في الآية (٣٤) إخبارٌ مستقبليٌّ بأنَّ الله وحده يعلم ما في أرحام الإناث. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله وحده يعلم ما تكسبه كلُّ نفسٍ في غدها. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر: وهو أنَّ الله وحده يعلم بأيِّ أرض تموت الأنفس.

النزول: مكية.

الفضائل:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الجمعة سورة الجمعة والمنافقين، وكان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان:١]. (أخرجه مسلم برقم ٦/ ١٦٧).

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ﴾.

(أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤١٢) وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة ٢/ ١٠٨).

المقاصد:

١- بيان عظمة الخالق في بدء خلق الكون ونهايته.

٢- تقرير أصول الإيمان.

٣- الردُّ على شبهات المشركين.

٤- التحذير من خطر المنافقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن.

٢ - هذا القرآن العظيم نزل حقّاً بالتدرُّج، لا شكَّ فيه من ربِّ الخلائق.

٣- بل أيقول المشركون: اختلق محمَّدٌ القرآن؟ لقد كذبوا في زعمهم، بل هو القول الحقُّ، والكلام الصدق المنزَّل من ربِّك؛ لتنذرَ به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا أيها الرسول؛ لكي يهتدوا إلى اتِّباع الحق.

٤ - يُخبر الله تعالى عن كمال قدرته بخَلْقِه السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، ثمَّ استوى على العرش الذي هو أعظم المخلوقات وسَقْفُها، استواءً يليق بجلاله سبحانه. ليس لكم - أيُّها العباد - من وليٍّ غير الله، ولا شفيع يشفع لكم عند الله تعالى إلا بإذنه، أفلا تتدبَّرون اتِّباع الحق؟

٥ - يُدَبِّر سبحانه أمْرَ الخلائق من السماء إلى الأرض، ثمَّ تُرفع أعمال العباد في يوم. ومقدار ذلك اليوم في الصعود والنزول إلى الأرض ألف سنة ممَّا تَعُدُّون من أيامكم.

٦-٩- ذلك الخالق العظيم عالم بكلِّ ما غاب عن الخلق، وبما تشهده الأبصار، العزيز في ملكوته، الرحيم بمخلوقاته، الذي أحسن وأتقن خَلْقَ كلِّ شيء، وبدأ خلق آدم عليه السلام من طين، ثمَّ جَعَلَ ذريَّته متناسلة من نطفة ماء ضعيف وهو المنيُّ، ثمَّ أتمَّ خَلْقَ الإنسان، ونفخ فيه من روحه بعد مُضِيِّ أربعة أشهر بإرسال المَلَكِ له لينفخَ فيه الروح، وجعل لكم - أيُّها الناس - السمع لتسمعوا به الأصوات، وجعل البصر لتُبْصِرُوا به الأشياء، وجعل القلوب لتعقلوا بها. ومع هذه النِّعَمِ فشُكْرُكم لله تعالى بالقول والعمل قليل.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥) إخبار مستقبليٌّ عن تدبير الله تعالى أمور الخلق من السَّماء.

٢- في الآية (٧) كلُّ مخلوق خُلِقَ وَفْقَ ما يناسب حاله. ووجه الدَّلالة من الآية: أنَّه لو لم يكن الأمر كذلك لما كان إحسان خلقه.

٣- تكذيب نظريَّة داروين وفيها: أنَّ الخلق نشأ بالتطوُّر.

٤- اللهُ يُدَبِّرُ الأمْرَ على الأرض، ويُنَظِّم حياة الناس، ويُحاسِبُهُم يوم القيامة.

٥- في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الإنسان رغم إتمام الله لخَلْقِه وإبداعه له، وإحسان خِلْقَتِه، فإنَّ الإنسان قليلاً مايشكر ربَّه على ما أنعم به عليه.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠- يُذَكِّر الله تعالى استهزاءَ مُنْكري البعث: إذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا مختلطة بتراب الأرض، أنُبعث خلقاً جديداً؟ بل أَمْرُهم لم يقتصر على السخرية، وإنَّما بلغوا التكذيب بلقاء الله تعالى.

١١- فردَّ الله عليهم: قل أيُّها الرسول: سوف يَتَوَفَّاكم ملك الموت الذي وُكِّل بقبض أرواحكم، ثمَّ مصيركم إلى ربِّكم؛ ليعاقِبَكم على كفركم. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أنَّ الذي يقبض أرواح الناس مَلَكٌ واحد معين، وقد بَيَّنَ تعالى في آياتٍ أخرَ أنَّ الناس تتوفَّاهم ملائكة لا مَلَكٌ واحد، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧]».

١٢ - ثمَّ بَيَّنَ سبحانه حالهم يوم القيامة حين يقفون بالقرب من النار مُنكِّسِين رؤوسَهم إلى أسفلَ من الخِزْيِ والذلَّة يستغيثون: يا ربَّنا أبْصَرْنا فضائحنا، وسَمِعْنا الحقَّ وعَرَفناه، فارجِعْنا إلى الحياة الدنيا لنعمل بطاعتك، إنَّنا مُصَدِّقون تصديقاً جازماً بوحدانيتك.

لقد بَيَّنَ الله ﷻ أنهم لو أرجعهم الله تعالى إلى ما طلبوا لكذَّبوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ – ٢٨].

١٣ - ولو شئنا هداية العباد جميعاً لَهَديناهم، ولكن وَجَبَ وثبت ثبوتاً لا تبديل فيه: لأملأنَّ نار جهنَّم من عصاة الجنِّ والإنس أجمعين.

١٤ - ثمَّ يُوَبِّخ الله تعالى المشركين المعذَّبين بالنار: ذوقوا عذاب النار؛ بسبب نسيانكم لقاءَ الله في هذا اليوم. إنَّنا تَرَكْناكم اليوم في النار تمكثون فيها أبداً بسبب جرائمكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَلَكَ الموت هو الموكَّل بقبض الأرواح إذا انتهت الآجال، ولن تتأخر لحظة واحدة.

٢ - الموعظة الكبرى بزيارة ملك الموت العظمى.

٣ - بيان فظاعة ما يحلُّ بالكافرين يوم القيامة، من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، والمقدَّر جوابها: لَرأيت أمراً فظيعاً؛ لأنَّ هؤلاء المجرمين المستكبرين في الدُّنيا، الرَّافعين لرؤوسِهم، ستكون حالهم في يوم القيامة على العكس من ذلك؛ لقوله: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾.

٤ - عُقول الكُفَّار ضَيِّقةٌ؛ ولهذا يستبعدون البَعْثَ والحياة بعدَ أن كانوا تُراباً.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

١٥-١٦- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ أن هذه الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ نزلت في انتظار هذه الصلاة التي تُدعى العَتَمَة. (قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (السنن ٥/ ٣٤٦ برقم ٣١٩٦ كتاب التفسير، باب سورة السجدة)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي).

التفسير:

إنَّما يؤمن بآيات القرآن العظيم الذين إذا وُعِظُوا بها استجابوا لها، وخَرُّوا ساجدين لله وحده، مُسَبِّحين الله بحمده، وهم لا يستكبرون عن طاعة الله، تَتَنَحَّى جُنوبُهم عن فرش النوم للتهجُّد في صلاة الليل، يدعون ربَّهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه، وممَّا أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البرِّ.

١٧- فلا يعلم أحد من الخلق ما يتفضَّل الله به عليهم من النعيم، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثواباً لما قَدَّموه من الأعمال الصالحة.

عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أعدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٣٧٥ - كتاب التفسير - سورة السجدة، باب (الآية) برقم ٤٧٧٩. وصحيح مسلم ٤/ ٢١٧٤ برقم ٢٨٢٤ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها).

١٨- أفمَنْ كان في الحياة الدنيا مُصَدِّقاً بالله مُطيعاً له، كمَنْ كان خارجاً عن طاعة الله؟ لا يستوون في الحساب بالثواب أو العقاب.

١٩- أمَّا الذين صَدَّقوا بالله، وعملوا الأعمال الصالحة، فجزاؤهم الجنَّات العالية عند شجرة سِدْرَةِ المنتهى ذات الثمار والأوراق، يأوون إليها؛ تكريماً دائماً بسبب ما قَدَّمُوا من أعمال البر.

٢٠- وأمَّا الذين خالفوا أمر الله تعالى فمصيرهم نار جهنَّم، كلما حاولوا أن يهربوا منها أُعيدوا فيها، ويُقال لهم - إهانة وتوبيخاً -: ذوقوا عذاب النَّار الذي كنتم تُكَذِّبون به، وتسخرون منه.

٢١- وقسماً مُؤَكَّداً سنذيقهم العذاب الأقرب في الحياة الدنيا من المصائب، قبل العذاب الأعظم يوم القيامة، لعلَّهم يتوبون عن الكفر والمعاصي.

٢٢- ولا أحدَ أشدُّ ظلماً لنفسه ممَّنْ وُعِظَ بآيات القرآن والكون، ثمَّ ترك الإيمان بها. إنَّنا من هؤلاء الذين كفروا بهذه الآيات منتقمون بالعذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- من صفات المؤمنين إذا وُعِظُوا بآيات القرآن، أو تُلِيَتْ عليهم سجدوا لربِّهم خاشعين مطيعين.

٢- على المؤمن أن يخضع لله، ولا يكون من المستكبرين.

٣- فضيلة قيام الليل؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَرَه في سياق المدح ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

٤- المؤمن خير من الفاسق، ولو أنَّ الفاسق أعظمُ جاهاً في الدُّنيا عند الخلق.

٥- الإيمان لا يتمُّ إلا بالعمل الصالح؛ لقوله: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فلا يكفي مجرَّدُ العقيدة، بل لابُدَّ من عمل صالح.

٦- أهل النَّار جُمِعَ لهم بين العذاب الجسمي والعذاب النفسي بالتوبيخ.

٧- الله عادل في انتقامه من الكُفَّار؛ لأنَّه يعاقبهم على ذنوبهم، ويُوقع بهم نتائج جرائمهم.

٨- الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها إجرام؛ لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- وقسماً لقد أعطينا موسى عليه السلام التوراة، فلا تكن - أيُّها الرسول - في شكٍّ من لقاء موسى عليه السلام ليلة العروج إلى السماء، وجعلنا موسى عليه السلام بالتوراة هادياً لذريَّة يعقوب عليه السلام إلى اتِّباع الحق، وجعلنا منهم قادة وقدوة يُقتدى بهم في الخير، ويَدْعُون الناس إلى عبادة الله وحده، ونالوا هذا المقام حين صبروا على الطاعة والابتلاء، وكانوا يُصَدِّقون بآياتنا تصديقاً جازماً.

٢٥- إنَّ ربَّك - أيها الرسول - يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين.

٢٦-٢٧- يُوَبِّخ الله تعالى المشركين: أولم يتبيَّنْ لكم كثرةُ مَنْ دمَّرناهم من الأُمَم السابقة الذين كذَّبوا رسل الله، يسيرون في ديارهم فيرون ما حَلَّ بهم؟ إنَّ في ذلك الدمار وما تَبَقَّى من الآثار لَدلالاتٍ على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، أفلا يسمعون هذا الحق؟ أولم يعلموا أنَّنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض القاحلة التي لا يصيبها المطر، فنُخرج بذلك الماء مروجاً من النبات، تأكل منه دوابُّهم، من الوَرَقِ والعشب وأنفسهم من الثمر والحَبِّ؟ أفلا يبصرون ذلك الرزق من عند الله تعالى؟

٢٨-٣٠- ويسأل المشركون سخرية: متى هذا القضاء بعذابنا إن كنتم صادقين في تهديدكم؟ فرَدَّ الله تعالى عليهم: قل أيُّها الرسول: يوم نزول العذاب لا ينفع إيمان الكفَّار، ولا هم يُمْهَلُون للتوبة، فأعرِضْ عنهم، وانتظِرْ ما يحلُّ بهم من العقاب، إنَّهم منتظرون كذلك ما يحلُّ بكم من الابتلاء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إثبات رسالة موسى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وتأكيد هذه الرِّسالة؛ لقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾؛ لأنَّ الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات: اللام، وقد، والقسم المقدَّر.

٢ - يجبُ الإيمان بأنَّ التوراة مُنَزَّلة على موسى ﷺ ولكنَّ اليهود حَرَّفوها بعد ذلك.

٣ - لا تُنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين والدعوة إلى الله.

٤ - يَقتدي الدُّعاة بالأنبياء وبأئمة الهُدى من السَّابقين، فيَثْبُتون على الحق.

٥ - التزامُ شَرْعِ الله يجمع بين الناس على الحق، ومُخالَفَتُه تُؤدِّي إلى الفُرْقَة والنِّزاع والخِلاف.

٦ - قال الشيخ ابن عثيمين: «الاستدلال بالشيء المحسوس على الشيء المعقول؛ لقوله: ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾، أو بعبارة أخرى: الاستدلال بعين اليقين على صدق علم اليقين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ هذا علم اليقين، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليقين».

٧ - مُشاهَدَةُ آثار المُعذَّبين السَّابقين تقود إلى العبرة والعِظة عند المؤمنين.

٨ - من الأدلَّة على وحدانية الله والبعث بعد الموت خروجُ النبات بعد المطر.

٩ - الأصل فيما نَبَتَ من الأرض الحِلُّ، من قوله: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، فالأصل فيما نبت من الأرض أنَّه حلال، حتى يقوم دليل على التَّحريم.

١٠ - الحَثُّ على النظر والتبصُّر، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

١١ - الكُفَّار يَتَهكَّمون بالمؤمنين، ويسألونهم أسئلة يستبعدون بها حقائق العقيدة.

١٢ - المكابر يُعْرَضُ عنه ويُتْرَك حتى ينزل به العذاب، فإذا رأيت مَنْ يكابر تأمره بالحق، ولكن مَنْ يكابر ويجادل، فاتركه.

١٣ - على المُؤمن أن يُعرِضَ عن الكُفَّار بعد دعوتِهم، فلا يَنْشَغِلُ بهم، ولا يتأثَّر لشُبهاتهم.

١٤ - على المؤمن الصبر والثبات على الحق، وانتظارُ الفَرَج من عند الله، فإنَّ دِينَ الله ظاهرٌ بإذن الله.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- التشريع لكيان الأسرة.

٢- بيان غزوة الخندق، وغزوة بني قريظة.

٣- تعظيم رسول الله ﷺ، ونصرته على تألُّف الكفر والنفاق ومكر اليهود.

٤- التحذير من النفاق والمنافقين وترهيبهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١-٣- يُخاطِبُ الله تعالى رسوله ﷺ بشَرَف النبوَّة، ويأمره بالثبات على التقوى بطاعة الله تعالى، ومخالفة الكفَّار والمنافقين. إنَّ الله كان عليماً بعباده، حكيماً في أقواله وأفعاله، ويأمره باتِّباع الوحي المنزَّل من الله تعالى، ويشمل هذا الحكم الأُمة جميعاً؛ لأنَّ الله تعالى خبير بكل ما يعملون، لا يخفى عليه شيء، ثمَّ أمره بالتوكُّل على الله تعالى، وحَسْبُه أن يكونَ الله حافظاً وناصراً لِـمَنْ توكَّل عليه.

٤- ما جعل الله للإنسان قلبين في صدره، فلا يجتمع الإيمان والكفر في صدر أحد، وما جَعَلَ أزواجكم اللاتي تُحرِّمون عليكم جِماعهنَّ بقولكم: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فتجعلوهنَّ كالأمهات محرَّمات عليكم - وكان هذا في الجاهلية طلاقاً فأبطله الإسلام، وجعل فيه كفَّارة -، وما جعل الأولاد الذين تتبنَّونهم أبناءً لكم. ذلكم القول البعيد عن الحقيقة في التحريم، والتبنِّي ليس إلا مجرَّد قولٍ بالأفواه، والله تعالى هو الذي يقول الحقَّ الثابت الذي يجب اتِّباعه للهداية إلى الطريق الصحيح.

٥- انسُبوا الأبناء الذين تَبَنَّيتموهم لآبائهم الحقيقيين الذين هم من أصلابهم، فنسب الولد لأبيه الأصل هو أعدل حكماً، فإنْ جَهِلْتُم معرفة آبائهم فهم إخوانكم في الدين، وليس عليكم جناح فيما وقعتم فيه من خطأ سابق، وعليكم الإثم فيما تَعَمَّدْتُم نسبتهم لغير آبائهم مع عِلْمِكم بذلك. وكان الله غفوراً لِـمَنْ أخطأ، رحيماً به، وبمَنْ تاب وأناب.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن أبا حذيفة - وكان ممَّنْ شهد بدراً مع رسول الله ﷺ - تبنَّى سالماً وأنكحه بنت أخيه هنداً بنت الوليد بن عتبة - وهو مولى لامرأة من الأنصار - كما تبنَّى رسول الله ﷺ زيداً، وكان مَنْ تبنَّى رجلاً في الجاهلية دعاه الناس إليه، ووَرِثَ من ميراثه، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ فجاءت سهلةُ النبيَّ ﷺ.. فذكر الحديث. (صحيح البخاري٧/ ٣٦٥ برقم٤٠٠٠-كتاب المغازي).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٣٧٧ كتاب التفسير- سورة الأحزاب، باب (الآية) برقم ٤٧٨٢. صحيح مسلم ٤/ ٨٨٤ برقم ٢٤٢٥ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة).

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب التَّقوى على الأُمَّة، فإذا كان الرسول ﷺ يُؤْمَرُ بالتَّقوى فغيرُه من باب أَولى.

٢- الإنسان مهما بلغ من المرتبة فإنَّ التَّكاليف لا تسقط عنه.

٣- تحريم طاعة الكافرين والمنافقين، والركون إليهم.

٤- الكافر والمنافق لا يمكن أن يكونا ناصحين للمؤمنين أبداً.

٥- تحذير الإنسان من المخالفة؛ لأنَّ هذا يوجب أنَّنا لا نخالف الله ما دمنا نعلم أنَّه خبير بما نعمل.

٦- وجوب تقديم الوحي على الرأي؛ لقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾، فإنَّ هذا الخطاب مُوَجَّه إلى النبيِّ ﷺ، وإلى أُمَّته بالأولى.

٧- وجوب التوكُّل على الله في الأحوال كلها.

٨- كفاية الله ﷻ فوق كلِّ كفاية؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

٩- تحريم الظِّهار؛ لقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾، فإذا كان الله لم يُشَرِّع ذلك، فإنَّه لا يحلُّ لنا أن نُشَرِّعَه؛ لأنَّ الأمر من الله وحده.

١٠- الإنسان قد يقول قولاً لا يعتقده؛ لقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾.

١١- يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه ﷻ في سؤال الهداية؛ لقوله: ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾.

١٢- وجوبُ نسب الإنسان إلى أبيه ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ يعني: انسبوهم لآبائهم.

١٣- نفي الإثم في الخطأ؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾.

١٤- مدار الأحكام والمؤاخذ عليها هو القلب؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وهذا له شواهدُ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦- النبيُّ محمَّد ﷺ أحقُّ بالمؤمنين أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، وحرمة أزواجه ﷺ حرمة أمَّهاتهم عليهم، في أنَّهنَّ يحرم عليهم نكاحهنَّ من بعد وفاته ﷺ، وذوو القرابات بعضهم أحقُّ بميراث بعض، فهم أَولى في شريعة الله بالإرث من المؤمنين غير الأقارب - لأنَّ الميراث بالهجرة والموالاة نُسِخَ بهذه الآية - إلا أَنْ تُوصُوا إلى أصدقائكم الذين تُوالُونهم، وتَوَدُّونهم من المؤمنين بالبرِّ والإحسان وصيةً. كان ذلك الحكم العظيم والحقُّ الكريم مكتوباً في اللوح المحفوظ، فيجب العمل به.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما مِن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فلْيَرِثْه عصبته مَنْ كانوا، فإن ترك دَيناً أو ضياعاً فليأتني وأنا مولاه». (صحيح البخاري ٨/ ٣٧٧ كتاب التفسير - سورة الأحزاب - برقم ٤٧٨١).

٧-٨- واذكر - أيُّها الرسول - حين أخذنا من النبيين العهد المؤكَّد بتبليغ الرسالة، وأخذنا منك ذلك العهد، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذنا منهم عهداً مؤكَّداً باليمين؛ لتبليغ الرسالة،

ليسألَ الله تعالى هؤلاء الأنبياء وأتباعهم الصادقين هلَ بلَّغوا العباد؟ فمَنْ كَذَّب فقد أعَدَّ سبحانه للمكذِّبين عذاباً موجعاً.

٩- يُذَكِّر الله تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم حين جاء إلى المدينة جُنْدُ الأحزاب من المشركين واليهود والمنافقين فأحاطوا بالمؤمنين، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية اقتلعَتْ خيامهم، وقَلَبَتْ قُدورهم، وأرسل ملائكة من السماء لعون المؤمنين. وكان الله تعالى بكلِّ ما تعملون بصيراً، لا يخفى عليه شيء.

عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأَخَذَتْنا ريح شديدة وقُرٌّ. (صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤-١٤١٥ برقم ١٧٨٨، كتاب الجهاد - باب غزوة الأحزاب). القُرُّ: البرد.

١٠-١١- واذكروا حين جاءكم كفَّار مكَّة ومَنْ حالفهم من فوقكم، وكفَّار نجد من أسفل منكم، وتآمر اليهود معهم على المؤمنين، وحاصروا المدينة، واذكروا حين زاغت الأبصار من شدة الكرب، واضطربت قلوب المنافقين، واعترتهم الظنون السيئة أنَّ الله لا ينصر دينه وجنده، هنالك ابتُلِي المؤمنون بهذه الفتنة الشديدة، وتَمَيَّزَ المؤمن من المنافق، وزُلزلوا بالخوف والجوع زلزالاً شديداً.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾. قالت: كان ذاك يوم الخندق.

(صحيح البخاري ٧/ ٤٦١ - كتاب المغازي، باب غزوة الخندق. وصحيح مسلم ٤/ ٢٣١٦ برقم ٣٠٢٠ - كتاب التفسير).

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب تقديم محبة النبي ﷺ على النفس؛ لقوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.

٢- عِظَمُ شفقة النبي ﷺ على أُمَّته؛ لكونه أولى بهم من أنفسهم.

٣- زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾.

٤- تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لكونهن أمهات المؤمنين.

٥- فضيلة الهجرة، وتؤخذ من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾؛ لأنَّ المهاجر مؤمن، وتخصيصه بالعطف يدل على شَرَفه وفَضْله.

٦- ثبوت الإرث لذوي الرحم، أي: كل قريب ليس بذي فَرْضٍ ولا عَصَبة.

٧- جواز الوصية لِـمَنْ بينك وبينهم موالاة.

٨- عِظَمُ المسؤولية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وجه ذلك أن الله خَصَّهم بأخذ الميثاق، وعِظَمُ المسؤولية على أهل العلم؛ لأنَّهم ورثة الأنبياء.

٩- فضيلة هؤلاء الأنبياء الخمسة عليهم السلام. وجه الدلالة تخصيصهم بالذِّكْر، فإنَّ تخصيص أفراد العام بالذِّكر يدل على شرف ذلك المخصص.

١٠- مسؤولية أُولي العزم، أعظم من مسؤولية غيرهم.

١١- النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظ الماضي، والإعداد بمعنى التهيئة.

١٢- التحذير من خصال الكفر، فقد وردت في النصوص أعمال وأقوال، وصفها الشارع بأنها كفر، فيجب الحذر منها.

١٣- ينظر: خريطة موقع غزوة الخندق، كما في الملحق.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢- ومن الظنون السيئة أنَّ المنافقين والذين في قلوبهم شكٌّ، ولم يستقرَّ الإيمان في قلوبهم يقولون: ما وَعَدَنا الله ورسوله بالنصر إلا وعداً خادعاً لا حقيقة له.

١٣- واذكر - أيُّها الرسول - حين قال بعض المنافقين للمؤمنين: يا أهل المدينة لا إقامة لكم في المدينة بأمان، فارجِعُوا إلى منازلكم واتركوا محمَّداً. وبعض المنافقين يطلب الإذن من النبي ﷺ في الانصراف من المعركة بحجَّة أنَّ بيوتهم غير حصينة يخافون عليها من العدوِّ والسرقة، وما يريدون بذلك إلا الهروب من القتال.

١٤-١٥- ولو دخل الكفَّار المدينة من جميع نواحيها، ثمَّ طلبوا إلى المنافقين أن يرجعوا عن الإسلام، لَفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخَّروا إلا زمناً قليلاً. وقسماً لقد عاهدوا الله على يد رسوله ﷺ من قبل غزوة الخندق ألَّا يَفِرُّوا من القتال. وكان عهد الله مسؤولاً عن الوفاء به يوم القيامة، ومحاسِباً عليه.

١٦-١٧- قل - أيُّها الرسول - لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الهروب إن خفتم من الموت أو القتل، وإذا هربتم لا تتمتعون في الدنيا إلا زمناً يسيراً على قَدْر الأجل. قل لهم: مَنْ الذي يستطيع أن يمنعكم من الله إن أراد بكم نِقْمَة، أو أراد بكم رحمة؟ ولا يجدون من غير الله وليّاً ينفعهم، وناصراً ينصرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الحذر من المنافقين؛ لأنهم ينتهزون كل مناسبة لتثبيط العزائم، وتفريق الصَّف.

٢- الله تعالى ورسوله وعدا المؤمنين بالنصر، لقوله: ﴿ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، والوعد مذكور في القرآن والسُّنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر:٥١]، وفي السنة يقول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعب مَسيْرَةَ شَهْرٍ». (صحيح البخاري برقم ٣٣٥. وصحيح مسلم برقم ٥٢١).

٣- بيان إرجاف المنافقين للمؤمنين.

٤- أولئك المرجفون لم يقتصروا على الإرجاف، بل ضَلَّلوا الناس بقولهم: ﴿ فَٱرْجِعُواْ ﴾، فيستفاد منه فائدة تتفرع على هذا، وهي أن كل مَنْ دعا إلى الرجوع عن الحق ففيه شَبَهٌ بالمنافقين.

٥- قُرْبُ المنافقين من الكفر والشرك؛ لقوله: ﴿ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا ﴾ مبادرين، فلا يتريثون، ويقولون: ننظر في الأمر.

٦- المنافقون أصحاب غدر وخيانة؛ لقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ وهم الآن يحاولون الإدبار.

٧- تحريم تولية الأدبار عند ملاقاة العدو.

٨- لا فِرارَ من قَدَر الله؛ لقوله: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾.

٩- البقاء في الدنيا - وإن طال - قليل؛ لقوله: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩ - إنَّ الله يعلم قطعاً المنافقين المُثبِّطين للعزائم عن الجهاد في سبيل الله، الذين يقولون لإخوانهم في النسب والصحبة: تعالَوا إلينا إلى الأمن والراحة. ومع هذا الخِذْلان فإنَّهم لا يشاركون في القتال إلا نادراً رياءً وسمعة، فهم بُخَلاءُ عليكم بالمودَّة والعون والنصح. فإذا حضر القتال رأيتهم في كرب شديد، حتى إنَّهم لَتدورُ أعينهم في أحداقهم، كحال المَغْشِيِّ عليه من شِدَّة سكرات الموت. فإذا زالت حالة الخوف بانتهاء القتال آذَوْكم بالكلام السيئ من الذمِّ وحرب الإشاعة، ويتخاصمون على الغنائم بسبب بُخْلِهم وحِرْصِهم على المال. أولئك البعداء عن الحقِّ لم يُصَدِّقوا بقلوبهم حقّاً، فأبطل الله ثواب أعمالهم، وكان ذلك الإحباط الذي يبعدهم عن الجنَّة يسيراً على الله.

٢٠- يحسب المنافقون من شدَّةِ خوفهم أنَّ الأحزاب - وهم كُفَّار قريش ومَنْ تَحزَّب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد وَلَّوا عنها، وإن يَرْجِعْ إليهم الكفَّار تارةً ثانيةً للقتال يتمنَّوا لشدَّة جَزَعهم أن يكونوا في البادية بعيداً عن المؤمنين خوفاً من القتل وتَرَبُّصاً للحوادث، إذ يسألون عن أخباركم، ولو كانوا بينكم وقت احتدام المعركة ما شاركوا في القتال إلا مشاركة على استحياء؛ لبُخْلِهم وجُبْنهم.

٢١- قسماً لقد كانت لكم - أيُّها المؤمنون - في رسول الله ﷺ قدوة حسنة في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، فيجب اتِّباعُه لِـمَنْ كان مؤمناً مُخلِصاً لله يرجو ثوابه، ويخاف عقابه، وأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ ربِّه بلسانه وقلبه.

٢٢- يمدح الله تعالى المؤمنين ومواقفهم في غزوة الأحزاب: ولما شاهد المؤمنون جموع الكفر تحاصر المدينة قالوا مستبشرين: هذا الذي نراه من حشود الكفر حول المدينة هو ما وَعَدَنا الله ورسوله من تَحَقُّقِ

إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة، وصَدَقَ الله ورسوله في هذا الوعد، وما زادهم ذلك الحصار إلا ثباتاً على الإيمان، وتسليماً لقضاء الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- بُخْلُ المنافقين بما ينفع المؤمنين، وأنَّهم لا يأتونهم إلا عن كراهية، كالشحيح بدَينٍ ما؛ لقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

٢- جُبْنُ المنافقين؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾.

٣- شدة حَنَقِ المنافقين على المؤمنين، وأنهم عليهم أشداء غلاظ؛ لقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

٤- التحذير من هذه الصفات التي يتصف بها المنافق.

٥- لو عاد الأحزاب مرةً أخرى لَوَدَّ المنافقون أنهم في الأعراب، لا في المدن؛ لقوله: ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾.

٦- هؤلاءالمنافقون لا يريدون أن يشاركوا المؤمنين في معاركهم؛ لقوله: ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾، فهم يحبون أن يكونوا بعيدين عن المعارك لا يتحسَّسون إلا الأخبار فقط.

٧- لايقاتل المنافق - لو شارك المؤمنين في القتال - إلا قليلاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٨- الواجب علينا أن يكون تَأَسِّينا بالنبيِّ ﷺ تَأَسِّياً حسناً، لا غُلُوَّ فيه ولا تفريط؛ لقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لأنَّ الغُلُوَّ زيادة، والتفريط نقصان، ودين الله ﷻ بين الغالي فيه، والمفرِّط فيه.

٩- مشروعية كثرة الذِّكْرِ؛ لقوله: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ولاسيما في المعركة.

١٠- يزداد المؤمن إيماناً عند رؤية الآيات الكونية والشرعية؛ لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

١١- صحة مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص.

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾﴾

التفسير:

٢٣- من المؤمنين رجال عظماء وَفَّوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه من السمع والطاعة، فثبتوا عند القتال، فمنهم مَنْ استشهد في سبيل الله، ومنهم مَنْ ينتظر النصر أو الشهادة في سبيل الله، وما نقضوا عهد الله، وما بَدَّلوه أبداً.

٢٤- ليجزيَ الصادقين بعهدهم جزاءً حسناً؛ بسبب طاعتهم الكاملة، ويُعَذِّب المنافقين إن شاء تعذيبهم باستمرارهم على النفاق، أو يتوب عليهم إن تابوا. إنَّ الله كان غفوراً للتائبين من ذنوبهم، رحيماً بهم.

٢٥-٢٧- ورَدَّ الله تعالى الأحزاب عن المدينة خائبين مكتئبين لم يحوزوا على شيء طمعوا فيه. وكفى الله المؤمنين القتال بما أذاق الكفَّار من النَّكال. وكان الله قويّاً لا يُغالَبُ، عزيزاً في انتقامه. وأنزل الله تعالى يهود بني قريظة من حصونهم؛ لنقضهم العهد، وقذف في قلوبهم الخوف الشديد عند لقائكم أيُّها المؤمنون، فقتلتم طائفة منهم، وأَسَرْتم طائفة أخرى، وأورثكم أرضهم ومساكنهم وأموالهم المنقولة وغير المنقولة، وأورثكم أرضاً لم تَطَأْها أقدامُكم في الفتوحات ما بعد غزوة الأحزاب. وكان الله على كل شيء من الأشياء قديراً، لا يعجزه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٣) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ هناك فئة من المؤمنين من الرجال الذين وَفَّوا بعهدهم مع الله تعالى، ينتظرون إحدى الحسنيين: إمَّا النصر أو الشهادة، وأنَّهم لم يُغَيِّروا عهد الله، ولم ينقضوه.

٢- الثناء على أولئك المؤمنين الذين عاهدوا الله فصَدَقُوه. وَجْهُ ذلك السياق أن قوله: ﴿رِجَالٞ﴾ نكرة للتعظيم، فهم رجال عظماء صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٣- أثنى الله على هؤلاء أنهم أتوا بما عاهدوا الله عليه على وجه الكمال بدون نقص ولا تغيير؛ لقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

٤ – ترغيب المنافقين في التوبة؛ لقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٥ – هؤلاء الأحزاب امتلأت قلوبهم غيظاً على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ فإن الباء للمصاحبة والملابسة.

٦ – إلقاء الرعب في القلوب من أعظم الهزيمة؛ لقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

٧ – البشارة بأن المسلمين سيستَوْلُون على أراضٍ أخرى للكفار. وهذه تُؤْخَذُ من قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

٢٨-٢٩ – يُخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بشرف النبوَّة ويأمره أن يقول لأزواجه – حين طَلَبْنَ منه زيادة النفقة –: إن كنتنَّ تُرِدْنَ سعة العيش في الحياة الدنيا فتعالَيْنَ أُعطيكنَّ متعة الطلاق، وأُطَلِّقُكنَّ طلاقاً من غير ضرار، وإن كنتنَّ ترغبن في رضوان الله ورسوله والفوز بالجنة في الدار الآخرة، فإنَّ الله قد هَيَّأَ للمُحسنات منكنَّ ثواباً مضاعفاً في الجنَّة.

٣٠ – يُبيِّن الله تعالى بعض الأحكام الخاصة بأُمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ: يا زوجات النبيِّ مَنْ يأت منكنَّ بذَنْبٍ صريح يضاعَفْ لها العذاب في الدنيا والآخرة. وكان ذلك العقاب المُضاعَفُ سهلاً على الله تعالى.

٣١- ومَنْ يُطع الله ورسوله منكنَّ - يا أزواج النبي - وتمتثل لأوامر النبي ﷺ، نضاعف لها الأجر، فتناله مِنَّا مرتين، أجر الطاعة والامتثال، وأجر تأسِّي الصالحات بهنَّ، وأعْدَدْنا بقدْرَتِنا وعَظَمَتنا لِـمَنْ أطاعت، واستجابت عطاءً واسعاً زاخراً، وأجراً في الجنات

٣٢- يا زوجات النبي لستن كغيركن من النساء، إن اتقيتنَّ، فأنتنَّ أمهات المؤمنين، وزوجات خاتم النبيين، وأسوة لنساء العالمين، فلا تَمِلْنَ برقيق القول، ورخيم الصوت، فيتأثَّر مَنْ في قلبه مرضٌ ممَّنْ ابتلي بغلبة الشهوة، وقلنَ قولاً طيِّباً حسناً مقبولاً في الشرع والعرف، لا غلظة فيه ولا جفوة.

٣٣- والزَمْنَ بيوتكنَّ، فلا تَخْرُجْنَ منها إلا لحاجة، كطلب العلم، أو لتحصيل أجر ومثوبة، أو نَيْلِ فضيلة كالصلاة في الجماعة، وأعمال البر وصلة الأرحام، ولا تَبَرَّجْنَ بإبداء زينَتِكُنَّ، كما كان حال النساء في الجاهلية، بل ينبغي أن تَكُنَّ محتشماتٍ، وداوِمْنَ على إقامة الصلوات، وبادِرْنَ إلى إخراج الزَّكَوات، وأطِعْنَ الله ورسوله بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي. إنَّما يريد الله بما أَمَرَكُنَّ به من الفضائل والمكرمات، وما نهاكُنَّ عنه من الرَّذائل والموبقات، أن يُطَهِّرَكنَّ من أدناسِ المعصية وأدران الرذيلة يا أهلَ بيتِ النبيِّ، ويُطَهِّرَكُم تطهيراً تامَّاً، يليق بسموِّ مكانتكم، وكريم شمائلكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضائل أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ؛ لأنَّهنَّ اختَرْنَ الله ورسوله، والدار الآخرة.

٢- النية لها أثر عظيم في زيادة الثواب؛ لأنَّه رتَّب هذا الثواب على هذه الإرادة، والنية الطيبة.

٣- مزية عظيمة لزوجات النبي ﷺ؛ فإن إحداهنَّ إذا عملت عملاً صالحاً، وأطاعت الله ورسوله، آتاها الله أجرها مرتين. فلما ضُوعف لها العذاب، ضُوعف لها الثواب، ولهذا قال: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، ومضاعفة الله تعالى أَجْرَ أمهات المؤمنين - رضي الله عنهنَّ - مِنْ تَفَضُّلِه عليهنَّ، ولأنهنَّ قدوة للنساء يترسَّمْنَ خُطاهنَّ.

٤- النهي عن الخضوع بالقول أمام الرجال قطعاً؛ لأطماع مرضى القلوب، وهذا لا يعني كون المرأة جافية غليظة في كلامها مع الرجال؛ ولذا قال تعالى بعد النهي عن الخضوع بالقول ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٥- الأصل هو بقاء المرأة في بيتها، فهو مملكتها وحِصْنُها، وميدان جهادها، ومحضن تربيتها لأبنائها، فلا تخرج إلا لحاجة، وقرارها في بيتها ليس حبساً لها، وقعوداً بها عن ميادين الحياة ومعترك الكفاح، فإنَّ رسالتها الكبرى ومجدها الحقيقي يَشُعُّ من بيتها، لأنَّ التعبير بـ﴿ وَقَرْنَ ﴾ يفيد أنَّ سكينة المرأة وطمأنينتها وسعادتها الغامرة لا تحصل إلا وهي في بيتها.

٦- النهي عن كلِّ ما يتصل بالجاهلية: من عادات ذميمة وخصال قبيحة كالتبرج وغيره.

٧- التبرج رمزٌ للتخلُّف، وشعار للجاهلية.

٨- العدول عن المضارع إلى الماضي في ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ لإفادة تحقق وقوعه.

٩- تكرار خطاب أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - ونداؤُهُنَّ دليل العناية بهن وتكريمِهنَّ.

١٠ - ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾: سُمُوُّ مكانة أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ ورفعة مقامهنَّ لا يتمُّ لهنَّ إلا بتقوى الله تعالى، فهي معراج الوصول ومفتاح القبول.

١١ - تنكير «مرض» للتنويع. والمراد مرض النفاق وضعف الإيمان وغلبة الشهوات.

١٢ - دَلَّ النهيُ عن الخضوع بالقول على أنَّ إظهار مواضع الحلي أبلغ في الزجر. وعلى أنَّ كل ما يُحَرِّك الشهوة أو يثيرها منهيٌّ عنه، كالتعطُّر، والتطيُّب، والتبختر في المشية.

١٣ - ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾: نصٌّ في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت؛ لأنَّ الخطاب هاهنا لهنَّ، وسبب نزول هذه الآيات فيهنَّ.

١٤ - من أعظم مظاهر التقوى وثمراتها على النساء الحِشْمَةُ والحياء.

١٥ - دَلَّت الآية على أنَّ سليم القلب لا يقع فيما وقع فيه مريضه، من الميل إلى الشهوات، وسرعة التأثر، والاستجابة لدواعيها.

١٦ - التعبير بالفعل المضارع ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، ﴿لِيُذۡهِبَ﴾، ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ دلالة على تَجَدُّدِ الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمراً قَدَّره فلا رادَّ لإرادته.

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٤- واذكُرْنَ دائماً للعلم والعمل والتعليم ما يُتلى في بيوتكنَّ من آيات الله العظيمة، وما يُقرأ من سنة نبيه الحكيمة، التي نزلت بياناً وتقريراً لما جاء في القرآن. إنَّ الله تعالى كان - ولا يزال - لطيفاً بعباده في أوامره وأقداره، خبيراً بأعمالهم، يعلم كلَّ ما لَطَفَ وخَفِيَ، ويتعهَّد أولياءه باللطف والرعاية.

٣٥- إنَّ المسلمين والمسلمات الذين امتثلوا لأوامر الله واستسلموا لأقداره وأحكامه، والمؤمنين والمؤمنات الذين صدَّقوا بآيات الله ورسله، والقانتين والقانتات المطيعين لربهم المتبتِّلين له، والصادقين والصادقات مع الله تعالى ومع العباد، والصابرين والصابرات الذين حبسوا أنفسهم على الطاعة، وامتنعوا عن المعاصي، ورَضُوا بأقدار الله، والخاشعين والخاشعات لربِّهم في كل الأحوال، وفي الصلاة والدعاء على وجه الخصوص، والمتصدِّقين والمتصدقات على الفقراء والمساكين، والصائمين والصائمات فرضاً ونَفْلاً، والحافظين فُروجَهم والحافظات عن المحارم والمآثم، والذَّاكرين الله كثيراً والذاكرات، الحريصين المُكْثِرين من الذِّكْر. كل هؤلاء أصحاب الخصال الشريفة والشمائل المنيفة، هيَّأ الله لهم مغفرةً لذنوبهم، وجَنَّة كريمة؛ إكراماً لهم، وثواباً لأعمالهم.

٣٦- وما ينبغي لمؤمن ولا لمؤمنة أن يكون لهما اختيار إذا قضى الله ورسوله أمراً من الأمور، فليس لهم إلا التسليم والانقياد لأوامر الله والإذعان والقبول لحكم الله ورسوله. ومن يَعْصِ الله ورسوله بتَرْكِ مأمورٍ أو فعل محظورٍ، فقد بَعُدَ بُعْداً شاسعاً عن الحق والهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- مكانة أمهات المؤمنين جميعاً رضي الله عنهنَّ، ورِفْعَتُهنَّ. وفي هذا رَدٌّ مُفْحِمٌ على الذين لا يُقِرُّون بفضلهنَّ.

٢- إضافة البيوت إليهنَّ -رضي الله عنهنَّ - إشارة إلى أنَّ السُّكنى في بيت الزوجية حقٌّ للمرأة، وأنها سيدة بيتها، مسؤولة عنه.

٣- تكريم الإسلام للمرأة ومساواتها للرجل في كثير من التكاليف الشرعية، وما يترتَّب عليها من مسؤولية وجزاء.

٤- جمعت الآية عشر خصال هي أبرز معالم الشخصية المسلمة: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدُّق، والصوم، وحِفْظُ الفرْج، وذِكْرُ الله.

٥- قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ من إيجاز القرآن، فقد اكتفى بما ذكره في ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وفيه صونٌ للمرأة، ومراعاة لحيائها الفطري، ومراعاة للفاصلة.

٦- التنكير والتنوين في ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ للتعظيم والتفخيم والتكثير، وتقديم المغفرة على الرحمة؛ لأنَّ تفويت المرهوب مُقَدَّمٌ على تحصيل المرغوب.

٧- من مقتضيات الإيمان الامتثال، والرضا، والتسليم لِما جاء في الكتاب والسنة.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٧- واذكر - يا محمد - حين تقول لِـمَنْ أنعم الله عليه بالإسلام، وأَنْعَمْتَ عليه بالرِّفق والعِتْق وغيره من وجوه الصلة والإحسان، وهو زيد بن حارثة ﷺ، أَبْقِ زوجتك بالمعروف، واتق الله في معاملتها، فلا تَظْلِمْها، وإن كنت غير راضٍ عنها، فإن العدل واجب في الرضا والغضب، وتُخفي في نفسك ما أطلعك الله عليه من طلاق زيد لزينب، وزواجك منها، وهو الذي أبداه الله لك ﷺ، وتخشى قالة الناس، والله أحق أن ترهبه وتخافه. وكانت تلك الخشية إشفاقاً منك عليهم ورحمة بهم، وكان الله تعالى قد أعلم رسوله أنَّ زيداً سوف يُطَلِّق زينب، وسوف يَتَزَوَّجُها ﷺ لحكمة جليلة، وهي إبطال ما درج عليه الناس من تحريم

زوجة المتبنى، فلما طَلَّقها زيدٌ بمَحْضِ اختياره، ولم يبق في قلبه مَيْلٌ إليها، ولا وحشة من فراقها زَوَّجْناكها، حتى لا يكون هناك تأثُّمٌ أو ضيقٌ من الزواج بمَنْ كانت زوجةً للمُتَبَنَّى. وكان قضاء الله نافذاً، فهو سبحانه لا رادَّ لفِعْلِه، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، وزواج زيد من زينب ثم تطليقه إياها، ثمَّ زواج رسول الله ﷺ منها، كل ذلك بتقدير من الحكيم الخبير.

٣٨- إذا كان أمر الله مفعولاً، وقَدَرُه مقدوراً، وقضاؤه نافذاً، فكيف يكون على النبي حَرَجٌ مِنْ تَزَوُّج زينب - رضي الله عنها - في شيء هو من أمر الله الذي فرضه عليه، وقَدَّره له، وسنَّه في النبيين والمرسلين، فهم حملة لواء الشريعة ومعلمو الإنسانية الخير؟ وكان أمر الله قضاء مُبْرَماً، وحُكْماً قاطعاً.

٣٩- هذه طبيعة الأنبياء وحالهم، فهم صفوة الخلق، وأعلم الناس بالحق، وأخشاهم لله تعالى، ورسول الله ﷺ هو أفضلهم مكانة. وكفى اللهُ تعالى حسيباً لأنبيائه على التبليغ، ولأقوامهم على الاستجابة.

٤٠- ما كان محمد أباً لأحد من رجالكم، حتى تثبت حرمة المصاهرة والنكاح، وهذا ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ محمداً تَزَوَّجَ من حليلة ابنه زيد، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، لذا لم يُعْقِبْ ولداً من بعده، لأنَّه لا نبوة بعده. وكان الله عليماً بأقوالكم وأفعالكم وأحوالكم، وبما فيه الصلاح والفلاح لعباده في الدارين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مِنْ قَدَرِ الله في أنبيائه أن يفرض عليهم من الأحكام الخاصة بهم ما يكون عوناً على نشر الدعوة. من ذلك زواجه ﷺ بأكثر من أربعة لمقاصدَ كريمةٍ وحِكَمٍ جامعة، منها حِكَمٌ اجتماعية؛ لتوثيق أواصر الصلة، وتعميق وشائجها مع القبائل، ومنها حِكَمٌ سياسيةٌ، وحِكَمٌ دعوية، وأخرى تربوية وتعليمية، وتشريعيةٌ.

٢- العاقل كما يتحرَّزُ عن المضارِّ، فإنه يتحرَّزُ عن إساءة ظنِّ الناس به.

٣- التعبير بـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ كنايةٌ عن الطلاق؛ لأنَّ الوَطَرَ هو الحاجة التي لصاحبها فيها همة وحرص، ولو قال: «فلما طلقها» لأمكن أن يكون هذا الطلاق متأثِّراً بشيء من هذا الموقف، أي: إن زيداً طلقها وما زال راغباً فيها؛ ولهذا أوثرت هذه الكناية لما فيها من دلالة بيِّنة على نفي أن يكون هناك عاملٌ ما في طلاق زيد لزينب، إلا أن يكون فراغ حاجته منها، وأنه لم يَعُدْ له فيها مأرب، فطلاق زيد لزينب كان برغبته واختياره.

٤- التعبير بالمضارع في ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الأذهان، ولبيان أنَّ البلاغ قائمٌ.

٥- نهوض الدعاة بواجب الدعوة إلى الله تعالى دون التفاتٍ لمقالة أهل السوء والريبة، وشُبَه أهل الضلال والزيغ.

٦- التعبير بـ ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ لأنه ﷺ كان قد رُزق بأربعة أبناء، وكانوا قد لحقوا بربهم قبل أن يَبْلُغوا مبلغ الرجال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤١-٤٢- يا أيها المؤمنون الصادقون، أَكْثِرُوا مِنْ ذكر الله تعالى وتسبيحه في البكور والآصال، فالذِّكْرُ من أجَلِّ القُرُبات، وأفضل العبادات، مع كونه من أيسر الأعمال، وأقواها للنفس، وأزكاها للفؤاد، وتسبيح الله تعالى تعظيمٌ وتنزيهٌ له تعالى.

٤٣- هو الذي يرحمكم، ويُثني عليكم، ويقبل دعاء الملائكة والنبيين والصالحين لكم، وتُصَلِّي عليكم الملائكة بالدعاء والاستغفار، ليُخْرِجَكم برحمته وفضله من ظلمات الشرك والشكِّ، إلى نور الإيمان واليقين. وكان بالمؤمنين رحيماً، يَهْديهم ويُصْلِحُهم ويحفظهم.

٤٤- تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقونه عند الحساب وفي الجنات سلام، يُسَلِّمُ الله عليهم، وتُسَلِّمُ عليهم الملائكة ويُسَلِّمُ بعضهم على بعض، وهي تحية تكريم، وأعدَّ لهم جنات الكرامة.

٤٥-٤٦- يُوَجِّه الله الخطاب لنبيه ﷺ ببيان مهمته الجليلة ورسالته الكريمة، فقد أرسله شاهداً على أُمته وعلى غيرها من الأُمم، وشاهداً على الحقِّ مُقِرّاً له، وحجةً فيه، وأسوةً عليه، ومثالاً له تُطبقه تطبيقاً عملياً، ومبشِّراً للمؤمنين بما لهم عند رب العالمين، ونذيراً من النار، وداعياً إلى توحيد الله ومعرفته وطريقه

بإذنه وأمره، وسراجاً تُنير للناس دروبهم بوحي الله لك وهدايته وتوفيقه، وبشمائلك وفضائلك التي يستنير بها المؤمنون، وهي واضحةٌ وضوحَ الشمس.

٤٧- وَبشِّرْ المؤمنين بما خصَّهم الله به من جزيل الثواب، وعظيم الأجر، وكريم العطاء، ما يفوق أجور الأُمم الماضية، وذلك فَضْلُ الله يختصُّ به هذه الأُمة.

٤٨- ولا تُطع أهل الكفر والنفاق، بل دُمْ على مخالفتهم، ولا تَلْقَ بالاً بأذاهم، بل تَوَكَّل على الله تعالى فهو كافيك.

٤٩- يأمر الله عباده المؤمنين في حالة طلاق النساء قبل الدخول بهنَّ أن يُكْرِمُوهنَّ، ويُفارقوهنَّ فراقاً بالمعروف، وذلك بإكرامهنَّ وأداء حقوقهنَّ من نصف المهر المسمَّى.

الفوائد والاستنباطات:

١- قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ تشبيه بليغ، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لَبْسَ فيها، والتي لا تترك للباطل شبهة إلا كَشَفَتْها، كما يُضيء السِّراج الوَقَّاد ظُلْمَةَ المكان.

٢- الإكثار مِنْ ذِكْرِ الله وتسبيحه، فذِكْرُ الله وتسبيحه خير ما ينشغل به العبد، وحِصْنٌ له، وتنزيه لله تعالى ولأنبيائه وأوليائه.

٣- حَقُّ الرسول أن يُكَرَّم ويُقَدَّم، ولا يَتَعَرَّض له أحد بسوء، فما بالنا بمَنْ كان مرسَلاً من عند الله تعالى، فليحذَرْ، ولْيَقصِرْ كلُّ مَنْ يتعرَّض للنبي ﷺ بأذى.

٤- النكاح قد يطلق على العَقْدِ وحده.

٥- التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ دون الفاء أو الواو، والعطف بها للتراخي؛ للإشارة إلى أنَّ الطلاق ينبغي أن يكون بعد تريُّثٍ وتفكير طويل، ولضرورة مُلِحَّة؛ لأنَّ الطلاق من الأمور التي يُبْغضها الله، إذ فيه هدم وتحطيم للحياة الزوجية؛ ولهذا قال بعض الفقهاء: إنَّ الآية ترشد إلى أنَّ الأصل في الطلاق الحظر، وأنه لا يُباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية، ولم تفلح وسائل الإصلاح بين الزوجين. (تفسير آيات الأحكام للصابوني ١/ ٤٣٨).

٦- وفي وصف السراح بالجميل ذَمٌّ لنقيضه، وهو السَّراح القبيح، كما يقع من الجهلة الذين يشتمون ويضربون ويعيِّرون، ويهتكون الأستار، ويغدرون ويفجرون إذا طَلَّقوا، ووصفه بالجميل؛ لكونه يحتاج إلى تجمُّلٍ، يحتاج إلى ترفُّقٍ وتلطُّفٍ، يحتاج إلى أن يظهر المؤمنُ أفضل ما لديه من أخلاقٍ كريمةٍ وخصالٍ حميدة. قال القشيري: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: «لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تَسْتَرِدُّوا منهنَّ

شيئاً تفضلتم به، فلا تجمعوا عليهنَّ الفراق بالحال، والإضرار من جهة المال». (لطائف الإشارات للقشيري ٣/ ١٦٧).

٧- كفل الإسلام للمطلقة حقَّها في أن تبدأ حياةً جديدةً، فلا يجوز لزوجها أو لوَلِيِّها أن يحرمها من هذا الحق، وعلى الزوجِ أن يتجمَّل في مفارقتها، ويُحْسِنَ إليها، ويتركها وشأنها، فلا يعضلها، ولا يهضم حقوقها.

٨- التعبير بقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه إشارة إلى أنَّه ينبغي أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات، وإلى مراعاة حقِّ المؤمنة. وإن كان الحكم سارياً على كل مطلقة، مؤمنة كانت أو كتابية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

التفسير:

٥٠- يَمْتَنُّ الله على نبيه ﷺ بما أحلَّه له من النساء اللاتي دَفَعَ إليهنَّ مهورهنَّ، وملك اليمين من الغنائم أو الهدايا والهبات التي هي عطاءٌ من الله لك، مثل صفية بنت حُيَي وجُويرية بنت الحارث ومارية القبطية رضي الله عنهنَّ، كما أحَلَّ له بناتِ عمه وبناتِ عَمَّاتِه وبناتِ خالِه وبناتِ خالاتِه اللاتي حَظِين بشرف الهجرة، وامرأة مؤمنة وهَبَتْ نفسها لك؛ لتتزوجَها بغير مهر، إن شئت ذلك فهي حلال لك، خاصةً دون غيرك من المؤمنين، قد عَلِمْنا ما شرعنا وقَدَّرنا للمؤمنين في أزواجهم وإمائهم، ألَّا يتزوجوا إلا أربع نسوة حرائر، وما شاؤوا من الإماء، مع اشتراط الوليّ والمهر والشاهدين، ووسَّعْنا عليك ما لم يُوَسَّعْ على غيرك؛ لئلَّا يضيق صدرُك في نكاح مَن نكحت مِن هؤلاء الأصناف. وكان الله غفوراً لذنوب عباده المؤمنين، رحيماً بالتوسعة عليهم.

٥١- ومن هذه السَّعة أن جعل الله تعالى له الخيار في القسم والتراجع فيه، توسعةً وإكراماً له ﷺ، لكن النبيَّ ﷺ كان يُقْسِمُ بين نسائه حتى تَقَرَّ أعينُهنَّ، وتبتهج قلوبهنَّ، ويَرْضَيْنَ بما منحهنَّ كلهنَّ، والله يعلم طبيعة الرجال والنساء، وما جُبِلَتْ عليه النفوس من الميل. وكان الله تعالى غفوراً لعباده على الذنوب والتفريط، حليماً بهم في تيسيره ومعافاته.

٥٢- لا يجوز لك - أيها النبي - أن تتزوج بعد زوجاتك التسع، ولا أن تَتَبَدَّل بهنَّ من أزواج: بأن تُطَلِّق منهنَّ، وتتزوج من غيرهنَّ، ولو أعجبك حُسْنُهُنَّ، إلا ملك اليمين؛ فلا حَرَجَ عليك. والله يعلم ما في قلوبكم من الرضا بحُكْمِ الله والتفويض إليه. وكان الله تعالى مراقباً للأمور، عالماً بها، قائماً بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

الفوائد والاستنباطات:

١- في التعبير بالاسم الظاهر في موقع الإضمار تفخيمٌ وتكريمٌ للنبي ﷺ، ولبيان سبب الخصوصية، وهو مقام النبوة الذي شَرَّفه الله به. وفي الالتفات للنبي ﷺ ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ اعتناء وامتنانٌ.

٢- وفي قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأنَّ مقتضى الظاهر أن يقال: إن وَهَبَتْ نفسها لك. والغرض من هذا الإظهار ما في لفظ ﴿النبي﴾ من تزكية فِعْلِ المرأة التي تَهَبُ نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة. (انظر: تفسير ابن كثير ٦ / ٤٤٢).

٣- وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: هذا عدلٌ وسَط بين الإفراط والتفريط؛ فإنَّ النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهَدْمِ إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرَّطَتْ فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع. (انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢).

٤- التحليل والتحريم لله تعالى، لا ينازِعُه فيه أحد.

٥- خَصَّ الباري جَلَّ وعلا رسوله الكريم ﷺ في أحكام الشريعة بخصائص في أمور الزواج.

٦- لتعدُّد زوجات النبي ﷺ حِكَم عظيمة، ومقاصد سامية: منها عقد الصلات، وتوثيق العُرا بين النبي ﷺ والقبائل، ومنها تعليم أمهات المؤمنين وإعدادهنَّ لتعليم نساء الأُمة، ومنها حكم تشريعية، فقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في معاملة نسائه، والعدل بينهنَّ، والصبر والترفق بهنَّ، وحكم سياسية فقد تَزَوَّج صفية بنت حُيَي الإسرائيلية، وتزوَّج مارية القبطية وجُويرية بنت الحارث من بني المصطلق أعتقها، وتزوَّجها، وأعتق أهلها، فكانت بَرَكَةً على قومها، وكان لهذا الزواج بالغ الأثر.

٧- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ هذا السَّنن الرباني رُوعي فيه أحوال القلوب وأصنافها، وما يجول فيها من نوازع وخواطر، وما يتصارع فيه من غرائز ورغبات وعزائم، فالله تعالى يعلم ما يُصْلح شأننا، ويُلَبِّي فطرتنا.

٨- اقتران صفة الحلم بالعلم؛ لبيان حِلْمه تعالى بعباده، وتَرَفُّقه بهم، مع معرفته بخبايا نفوسهم، وأنَّه تعالى لا يؤاخذ على ما قد يمر بالنفس من هواجس ووساوس عارضة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

٥٣ - سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ «أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا تزوَّج زينب بنت جحش دعا القوم، فطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدَّثون، فأخذ كأنَّه يتهيَّأُ للقيام، فلم يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، وقام مِنَ القوم مَنْ قام، وقعد ثلاثة. فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فإذا القوم جلوس، فرَجَع، وإنَّهم قاموا فانطلقوا، وجئتُ، فأخبرت النبيَّ ﷺ أنَّهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبتُ أدخلُ، فألقى الحجاب بيني وبينه»، وأنزل الله تعالى هذه الآية. (صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب آية الحجاب برقم ٥٨٨٥). وعن أنس ﷺ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ قال: قلت يا رسول الله: إن نساءك يدخل عليهنَّ البَرُّ والفاجر، فلو أَمَرْتَهُنَّ أن يَحْتَجِبْنَ، فنزلت آية الحجاب.

(صحيح البخاري، أبواب القبلة، باب ما جاء في القِبلة برقم ٣٩٣).

التفسير:

يُوَجِّه الله عباده المؤمنين ألَّا يدخلوا بيوت النبي، إلا إذا أذن لهم أو دعاهم لطعام، غير مُبَكِّرين، بحجة انتظار نُضْجِه وإدراكِه، ولا مترقبين نضجه، لئلَّا يشقَّ على النبي وأزواجه طولُ مكثِكم، فإذا دُعِيتم فلَبُّوا، وإذا فرغتم من الطعام فانصرفوا، ولا تجلسوا بعده للحديث، فيثقلُ ذلك على أهل البيت، ويتأذَّى النبيُّ

من ذلك، فيستحيي منكم. والله لا يستحيي من الحق، بل يُعَلِّمكم ويُهَذِّبُكم ويبصِّركم؛ مراعاة للحقوق والآداب، وإذا سألتموهنَّ شيئاً يُستمتَع به ويُنتَفع به من آلة المنزل ونحوها، أو خاطبتموهنَّ في أمر، فخاطِبوهنَّ من وراء حجاب. ذلك أطهرُ وأنقى، وأزكى لقلوبكم من الهواجس والوساوس، وقلوبهنَّ، وما كان لكم أن تُؤذوا رسول الله بأي وجه من الوجوه، ولا أن تتزوَّجوا بنسائه من بعده. إنَّ ذلكم كان عند الله عظيماً؛ لحرمة نبيكم في حياته وبعد مماته، ولكون نسائه أمهاتٍ لكم.

٥٤- إن تُظهروا شيئاً، أو تكتموه في نفوسكم؛ فإنَّ الله تعالى شاهد على كل شيء، عليم بكل شيء، يعلم ما بدا وما خفي.

٥٥- لا حرج ولا إثم على أزواج النبي ﷺ في دخول الآباء والأبناء وإخوانهنَّ، وأبناء إخوانهنَّ، وأبناء أخواتهم، والنساء المسلمات، وما مَلَكَتْ أيمانُهنَّ من العبيد، وعليهنَّ أن يَتَّقِينَ الله، ويراقبنه. إنَّ الله كان على كل شيء شهيداً، لا يخفى عليه شيء من أمور العباد.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوةٌ لمراقبة الله ﷻ في جميع الأحوال.

٢- أدب النبي ﷺ وحياؤه، والحياء من أجمل الخصال، وأكمل الأخلاق.

٣- حِرْص الشريعة على تزكية النفوس، وطهارة القلوب، وسلامة الصدور.

٤- في مشروعية الحجاب تكريم للنساء وصيانة لهنَّ، وحماية للبيوت، وسَدٌّ لأبواب الفتن، وقَطْعٌ لمطامع أصحاب القلوب المريضة.

٥- ذمُّ الطُّفيليين وتحريم التطفُّل، وهو الحضور بغير دعوةٍ؛ لما فيه من سوء الأدب وهتك الحرمات، وذَمُّ الثقلاء الذين يطيلون الجلوس، ويُكثرون الكلام، فيملُّ الناس من طول مجالستهم.

٦- ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيه التفات من الغيبة للخطاب: وفي الإقبال عليهنَّ بالخطاب اعتناء بهنَّ، وتنبيه لهنَّ.

٧- مقام النبوَّة أسمى المقامات، وإيذاء النبي ﷺ من أعظم الذنوب، وقد عَظَّمَ اللهُ حُرْمَةَ نبيِّه.

٨- الأدب في أمر الطعام، والاستئذان ودخول البيوت.

٩- الأدب في مخاطبة النساء، ومنع الاختلاط والخَلْوة بهنَّ.

١٠- في التعبير عن الانصراف بـ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أدب من آداب القرآن ودقته؛ حتى لا يقف بعضهم عند باب البيت للحديث، ولينصرف كل واحد إلى عمله.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- حقّاً إنَّ الله تعالى وملائكته الكرام يصلُّون على النبي محمد ﷺ، وصلاته تعالى الرحمة والثناء والذكر الحسن، وصلاة الملائكة الدعاء والثناء، فيا أهل الإيمان صَلُّوا على نبيكم الذي أخرجكم الله به من الظلمات إلى النور، وهداكم به، ورحمكم باتباعه وطاعته، وبَذَلَ حياته مجاهداً مربياً معلماً، فصَلُّوا عليه كما عَلَّمكم ربُّكم، وسَلِّموا تسليماً. وصلاة المؤمنين ثناء على الرسول ﷺ، ودعاء لله أن يُعْلِيَ ذِكْرَه ويزيده تعظيماً وتشريفاً.

٥٧- إنَّ الذين يُؤْذُون الله تعالى بمخالفة أوامره وانتهاك محارمه والتعرُّض لأنبيائه وأوليائه، ويُؤْذون رسوله بمخالفة هديه وهجر سنته، أو بانتقاص حقٍّ من حقوقه، أو بإيذائه في أهل بيته وأصحابه، أو بالغمز واللَّمْزِ والطعن في سيرته وشمائله، لعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، فهم البعداء المحرومون، المستحقون للعذاب المهين.

٥٨- والذين يؤذون عباد الله المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا من الذنوب والآثام التي تستوجب العقوبة، فقد ارتكبوا كذباً وافتراءً وذنباً واضحاً، لا ينفكُّ عنهم حتى يتوبوا.

٥٩- يا أيها النبي، قل لأزواجك وبناتك وسائر نساء المؤمنين: يُرْخِين عليهن من جلابيبهن؛ حشمةً وصيانةً وعفَّة وطهارةً؛ لئلا يتعرَّض لهن أحدٌ بسوء، فالحجاب تاج الكرامة، وشعار الفضيلة، ولباس الوقار، ذلك أقرب إلى أن يعرفن بالإيمان والعفة، فلا يتعرَّض لهن أحدٌ بأذى. وكان الله بهنَّ غفوراً لما سلف، إذ لم يكن عندهنَّ عِلْمٌ بذلك، رحيماً بهن.

٦٠-٦١- لئن لم ينته المنافقون ومرضى القلوب، وأصحاب الإرجاف والإشاعات في المدينة من كيدهم وافترائهم، وترويجهم للأكاذيب والشائعات ودسائسهم، لَنُعَرِّفَنَّكَ بهم، ونُسَلِّطَنَّك عليهم، ثُمَّ لا

يساكنونك في المدينة إلَّا قليلاً، حتى يخرجوا منها، مُلاحَقين بالمذمة والعار، محرومين مطرودين أَيْنَما وجدوا وأدركوا، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً، أي الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به.

٦٢- طريقة الله ودأبُه في الذين خَلَوا من قبلُ من المنافقين والمرجفين، وسائر أعداء الدين، أن ينتقم الله منهم ويبدِّد شملهم، ويوهن كيدهم. وسنن الله تعالى لا تتغيَّر ولا تتبدَّل على مر العصور والأزمان.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم أذى النبي ﷺ في ذاته أو في أهل بيته أو صحابته.

٢- في الآية (٥٧) إخبار مستقبليٌّ، وتأكيد من الله ﷻ لوقوع العذاب المذل والمهين على الذين يؤذون الله ورسوله في أقوالهم وأفعالهم.

٣- ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ﴾ التأكيد بـ﴿قَد﴾ والفعل الماضي وصيغة افتعل؛ للإشارة إلى عِظَمِ ما احتملوه، وكونه أمراً لا يطاق حمله إلا بعَناءٍ شديد، وجُهد جهيد.

٤- الحجاب طهرٌ وكرامةٌ، وسترٌ واستقامةٌ، وعفَّةٌ وحياءٌ، وعنوان الإيمان وشعارُ المؤمنات، وسِمَةُ المجتمع المؤمن.

٥- في هذا التفصيل والبيان ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ رَدٌّ على الذين يزعمون أنَّ الحجاب إنما فرض على أزواج النبي ﷺ خاصة، بل هو فرضٌ على كل مؤمنة.

٦- التبرُّج والعُرْيُ تَبَذُّلٌ وتَهَتُّك، وتَعَرُّضٌ للأذى بالكلمات الجارحة والنظرات المسمومة، وربما يصل الأمر إلى اعتداء المفتونين بالمتبرجات.

٧- على الداعية أن يبدأ بأهل بيته أولاً، وأن يهتم بإصلاحهنَّ وتأديبهنَّ.

٨- تنكير ﴿مَّرَضٌ﴾ لتعميمه، فيشمل كل مرض قلبي من أمراض الشهوات العارمة، أو أمراض القلوب من غِلٍّ وحَسَدٍ وكِبرٍ وطَمَعٍ وشحٍ وجُبْنٍ.

٩- لا يجوز تمكين أهل النفاق ومرضى القلوب والمرجفين؛ لما في ذلك من شر مستطير، وخطر عظيم على المجتمع.

١٠- التحذير من مُرَوِّجي الإشاعات الذين يثيرون الهَلَعَ والبلبلة في الناس.

١١- في الآية (٦١) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر والغلبة على الذين يُضمرون الكفر، ويُظهرون الإيمان.

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

التفسير

٦٣- يسألك الناس - أيُّها النبي - عن موعد قيام الساعة، فأجِبْهم أنَّ موعدها في علم الله تعالى الذي استأثر به فلا يعرفه غيره، وأيُّ شيء يُعْلِمُك! لعلَّها تكون قريباً، فماذا أعَدُّوا لها؟

٦٤- إنَّ الله تعالى أقصى أهل النفاق، وحرمهم وطردهم، وألحق بهم المذمَّة والعار، وأعدَّ لهم النار التي تُحرقهم بلَهيبها.

٦٥- ماكثين فيها أبداً، لا يبرحونها ولا يخمد لهيبها، ولا يموتون، فيستريحون من عذابها، ولا يجدون مَنْ يحميهم، ويدفع عنهم.

٦٦- يوم يتقلَّبون على جَمْرها، ويصطلون بسعيرها، فيشعرون بالحسرة والندامة على فوات الطاعة الواجبة، فيصيحون ويتأوَّهون، متمنِّين أن لو أطاعوا الله ورسوله؛ لَنَجَوا من النار.

٦٧- وقالوا متحسرين نادمين شاكِين: ربَّنا إنَّا أطَعْنا سادتنا وكُبَراءنا، رؤساءنا ورؤوس الكفر والضلال الذين لَقَّنوهم الكفر، وزَيَّنُوه لهم، فانقادوا لهم، وأطاعوهم طاعةً عمياءَ في الكفر والضلال والظلم والجهل، فأضَلُّوهم الطريق الصحيحة الموصلة إليك.

٦٨- ربَّنا وآتِهم نظير تضليلهم لنا ضِعْفَيْن من العذاب، وزِدْ في خِزْيهم وعارهم.

٦٩- يا أهل الإيمان: لا تُؤْذوا نبيَّه، فتكونوا كالذين آذَوا موسى، إذ افترَوا عليه بقولهم: إنَّه آدَرُ، فبرَّأه الله تعالى من افترائهم، وكان عند الله تعالى ذا وجاهةٍ ورفعةٍ ومنزلةٍ.

عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْءَةِ بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى عليه السلام يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَالله مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلاَّ أَنَّهُ آدَرُ - قَالَ - فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ - قَالَ - فَجَمَحَ مُوسَى بِإِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ

ثَوْبِي حَجَرُ. حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْءَةِ مُوسَى، قَالُوا: وَاللهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الحَجَرُ حَتَى نُظِرَ إِلَيْهِ - قَالَ - فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْباً». (صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة برقم ٢٧٤. وصحيح مسلم، في الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة برقم ٣٣٩ . والأُدرة: نفخة في الخصية. يقال: رجل آدَرُ بَيِّن الأدرة. الصحاح للجوهري ٣/ ١٣٨).

٧٠- ٧١- يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، اتقوا الله في جميع أموركم، وتَحَرَّوا الصواب والسداد في أقوالكم، يصلح لكم أعمالكم، ويقبلها منكم، ويغفر لكم ذنوبكم. ومَنْ يلزم طاعة الله ورسوله، ويداوم عليها فقد فاز فوزاً عظيماً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الحكمة من إخفاء وقت الساعة؛ لتحفيز الهمم للعمل الصالح، وتَرْكِ التواني والتسويف.

٢- حين يتمادى المنافقون ومرضى القلوب في غَيِّهم وإرجافهم وحربهم للإسلام والمسلمين، يُسَلِّط الله عليهم عباده، فيقرعونهم ويكبتونهم.

٣- الجزاء من جنس العمل: لَـمَّا كان حال المنافقين ومرضى القلوب في الدنيا هو التلوُّن والتظاهر بخلاف ما يضمرون، ومقابلة هذا بوجه ومقابلة هذا بوجه آخر، كان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ لتقلُّبها وتَلَوُّنها، وتقنُّعِها في الدنيا .

٤- طاعةُ غير الله في مخالفة أَمْرِه وأَمْرِ رسوله موجبةٌ لسخط الله وعقابه، و التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، فليحذر المسلم ذلك.

٥- زيادة الألف في ﴿ٱلرَّسُولَا﴾ ﴿ٱلسَّبِيلَا﴾ مع كونها مراعاة للفاصلة؛ فإنَّها تدل على تفخيم شأن الرسول الذي خالفوه، وشأن السبيل الذي ضَلُّوا عنه، مع الدلالة على التأَوُّه والتوجُّع والحسرة والندم. ويناسب ذلك الإطالة في الصوت بما يشعر بالبكاء والعويل والصراخ في جهنم.

٦- الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مُوَجَّهٌ للأُمة كافَّة، فهو على التغليب، ويندرج فيه مَنْ يَدَّعي الإيمان ويتظاهر به، ويَنْدَرِجُ فيه ضعيف الإيمان، وعلى هذا فإدراجهم في الخطاب توبيخ لهم وتبكيت.

٧- التنويه بموسى عليه السلام وما لَقيه من أذى شديد، وكيف بَرَّأه الله تعالى وجعل له الوجاهة.

٨- الوجاهة الحقيقية ما يكون وفق ميزان الشرع، وليس في ميزان الناس، فالعبرة بمقام العبد عند ربِّه. وفي هذا تسلية لكل مَنِ ابتلي بتطاول الناس، وانتقاصهم له.

٩- القول السديد أو تسديد الكلمة يعني سلامة موردها، وصِدْقَ مقصدها، مع صحة رَمْيَتِها، ودقة تصويبها حتى تبلغَ مداها.

١٠-في الآيتين (٧٠-٧١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله يصلح أعمال مَنْ اتَّقاه وقال قولاً سديداً. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو الفوز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة لِـمَنْ أطاع الله ورسوله فيما أمر ونهى.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٢- إنَّا عَرَضنا التكاليف والمسؤولية والفرائض من عبادات ومعاملات وعمارة للكون، وقيام بواجبات الاستخلاف على سائر المخلوقات فامتنَعْنَ عن حملها، واستشعرن عِظَمَ المسؤولية، وثِقَلَ التكليف، واختار الإنسان أن يتحمَّلها مع ما فيها من تبعات. إنه كان شديد الظلم لنفسه، شديد الجهل بقدر المسؤولية.

٧٣- ابتلى الله البشر بذلك ليُعَذِّبَ مَنْ خان الأمانة، ونكث العهد من المنافقين والمنافقات الذين تظاهروا بخلاف ما يُضْمِرُون، والمشركين والمشركات الذين آثَرُوا الشرك على التوحيد الخالص، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات الذين حفظوا الأمانة، وأدَّوا رسالتهم في هذا الكون. وكان الله غفوراً رحيماً يغفر الذنوب، ويتفضَّل على عباده بالرحمة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ثِقَلُ الأمانة وخطرها، فلا ينبغي التفريط فيها، والتهاون بشأنها أو التغافل عنها، أو الجهل بقدرها.

٢- تعريف الإنسان بذاته وطبيعته ورسالته من مقاصد القرآن، وموضوعاته الرئيسة.

٣- ابتلاء الله الإنسان؛ ليميز المؤمن من المشرك والمنافق، ويجازي كُلّاً بما قَدَّمَ.

٤- عدل الله تعالى بالعصاة، ورحمته وتَفَضُّله على عباده المؤمنين.

٥- بُشرى الله لأهل الإيمان، وإنذاره لأهل الشرك والنفاق.

٦- مقابلة العذاب بالتوبة؛ لأنَّها سبب المغفرة والرحمة والنجاة.

٧- أعطى اللهُ الإنسانَ حرية الاختيار، بينما بقيت السموات والأرض والجبال مُسَيَّرة لا تخيير لها.

٨- في الآية (٧٣) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير الإيمان بالبعث، وبيان الحكمة منه.

٢ - تقرير رسالة النبي ﷺ، وعالميتها ومقاصدها.

٣ - رَدُّ كثير من المفاهيم الباطلة، والتصورات المادية التي رسختها الجاهلية.

٤ - بيان عاقبة المستضعفين والمستكبرين، وتخاصُمُهم يوم الدين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - يُثني الله سبحانه على نفسه، فهو المحمودُ قبل أن يَحْمَدَه الحامدون، المتفضِّلُ على عبادِه في الدنيا والآخرة، له ملك السموات والأرض، فالجميع ملكه وعبيده، وتحت قهره وتَصَرُّفه؛ وله الحمد في الآخرة على كمال عدله، وتمام رحمته؛ إذ يَفْصِلُ بين العباد، ويقضي بينهم، فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين، ويُنْصِفُ المظلومين، ويقتصُّ من المجرمين، وهو الحكيم في ملكه وتدبيره، الخبير ببواطن الأمور.

٢- يعلم ما يدخل في الأرض من كائناتٍ، وما يخرج منها من كنوزٍ ونباتٍ، وما ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرَحمات، ولا نازلةٌ ولا صاعدةٌ إلا وقد أحصاها ربُنا عَدّاً، وأحاط بها قدرةً وعلماً، وهو الرحيم نَشَرَ بساطَ رحمتِه، وبَثَّ آثارَها، الغفورُ أمطرَ سحائبَ مغفرتِه وفَتَحَ أبوابَها.

٣- وقال الكفار مُنْكرين للبعث، مستبعدين له، غافلين عن شواهده: لا تأتينا الساعة بأيِّ حال من الأحوال. أجبهم - يا محمد - مؤكِّداً لهم وقوعها بالقسم، بلى وربي الذي أحسن إليَّ وتَعَهَّدني لَتأتينَّكم؛ ليجازِيَكم، ويفصل بيني وبينكم، عالم الغيب يعلم كلَّ ما غاب واستتر. لا يغيب عن علمه شيء مهما صَغُر ولَطُفْ، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مُسَجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حَوَى كلَّ ما كان، وما يكون، وما سيكون، ومن ثَمَّ فهو قادرٌ على بَعْثِكم وحسابكم.

٤- ليفصِلَ بين العباد، ويقضيَ فيهم، فيثيب المؤمنين الذين عملوا الصالحات، بالمغفرة والرزق الكريم.

٥- والذين سعوا في آياته صَدّاً عنها، وقدحاً فيها، وتعجيزاً لِـمَنْ جاء بها، وتثبيطاً لِـمَنْ آمن بها، ودعا إليها هؤلاء البعداء لهم عذاب موجع لأبدانهم.

٦- ويرى الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم النافع والمعرفة الواعية ما أنزل الله عليك هو الحق، ويهدي إلى طريقِ العزيز الذي يعزُّ أولياءه، الحميد المستحق للحمد والثناء فهو طريق العزة، وطريق المجد والثناء.

٧- وقال الذين كفروا ساخرين: هل نَدُلُّكم على رجلٍ يَدَّعي أنكم إذا تَقَطَّعَتْ أشلاؤكم، وتمزَّقَتْ أوصالكم، وصِرْتم تراباً، تُخْلَقُون خَلْقاً جديداً؟ وهذا منهم إمعان في الاستبعاد، ومبالغة في التشكيك.

٨- أفترى على الله هذا القول، أم أصابه ضَرْبٌ من الجنون؟ بل الكافرون بالآخرة مُوغِلُون في الضلال، في تجاهلهم للآيات، وتَنكُّرهم للنبيِّ ﷺ.

٩- يَرُدُّ الله عليهم مُنْكراً أفلم ينظروا نَظَرَ اعتبار لما حولهم من آياتٍ بيناتٍ، وما سبقهم من عِبَرٍ وعظات. إن نشأ نخسف بهم الأرض، فتقبُرهم، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء فتُبيدهم. إنَّ فيما سبق ذِكْرُه والإشارة إليه لآيةً لكل عبد مُقْبِلٍ على مولاه، راجعٍ إليه في كل أحواله.

الفوائد والاستنباطات:

١- القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنِّعَمُ العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.

٢- عِلْمُه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علماً.

٣- تأكيد الرد على مُنْكِري البعث بالقسم واللام ونون التوكيد؛ تعظيماً لهذا اليوم، وتقريراً له على أبلغ وجه؛ أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف، ونَشْرِ بساط الرحمةِ وظلالها.

٤- تقديم العذاب على الضلال؛ لأنهم في شقاء دائم وعذاب حالٍّ وآجِل، كذلك لتقديم ما يسوؤهم ويرهبهم.

٥- بيان موقف أعداء الإسلام من الحق، وأساليبهم في الصدِّ عنه، وتشكيكهم في قدرة الله تعالى، وتثبيطهم للمؤمنين، وبَثِّ روح الهزيمة فيهم.

٦- التعبير بـ﴿ وَيَرَى ﴾ لإفادة تجدُّد هذه الرؤية ودوامها، وهم يرتقون من رتبة إلى رتبة ومن درجة إلى درجة في سلَّم المعرفة واليقين. قال الشيخ السعدي رحمه الله: «وهذه مَنْقَبَةٌ لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنَّه كلَّما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحِكَمِ أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ، احتجَّ الله بهم على المكذِّبين المعاندين». (تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٦٧٥).

٧- دَلَّ إنكارُ الكفارِ للبعث على تَوَغُّلِهم في غَمَرَاتِ الضلال، وتَرَدِّيهم في دركاته، فضلاً عن تَقَلُّبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة.

٨- في شهادة الذين أُوتوا العلم من أهل الكتاب وغيرهم، ممَّنْ تَبَصَّرَ بعِلْمِه، واهتدى به إلى معرفة هذا الحق، حجةٌ على مَنْ لا علم لهم.

٩- في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ عن خَسْفِ الأرض والعذاب من السماء للكفَّار.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠ - وعزَّتِنا وجلالِنا لقد آتينا داود منا فضلاً عظيماً، ضَرَبَ الله مثلاً بنبيه داود عليه السلام يدلُّ على كمال قدرته، وكريم عطائهِ لعباده الصالحين، فقد تَفَضَّل الله على داود عليه السلام بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التآلف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبالُ تتجاوب بأمر من الله تعالى منسجمةً مع هذا الصوت الجميل الخاشع، والطير تشدو. وكما لانَتْ له الجبال مع صلابتها، وأَلِفَتْه الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان اللهُ له الحديدَ ليصنعَ به الدروع السابغات المحكمات، فكان في يده ليناً، من غير طَرْقٍ أو تسخينٍ، يَصْنَعُ منه بدقة وإحكام دروعاً حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، فقد أرشده سبحانه إلى أُسُسِ الجودة، وأصول الإتقان، وفنون الإبداع في صناعتها.

١١ - أمرناه أن اصنع دروعاً سابغةً محكمةً، واضبط حلقاتِها، حتى تكون منتظمة متينةً متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام، وأن يجدُّوا في عمل الصالحات التي يَعُمُّ نَفْعُها، ويمتدُّ أثرُها في العاجل والآجل، إني مطلعٌ على أعمالكم، بصيرٌ بدقائِقِها ولطيفِها، فضلاً عن جليلها.

١٢ - كذلك امتنَّ الله على سليمان عليه السلام، فسَخَّر له الريح، تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده، فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وأذاب له عين النحاس التي تنبع من الأرض؛ لتفيض بالنُّحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، كما سَخَّر الله تعالى له الجنَّ، يعملون بين يديه فيراهم ويُشرف على عملهم، ويوزِّع عليهم المهامَّ، فسَخَّر له الشياطين في بناء المساكن والمحاريب، وصناعة القِصاع الكبيرة والتماثيل، وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار. ومَنْ تَمَرَّد منهم عن أمرنا له بطاعة سليمان نُذِقْه من عذاب النار المحرقة.

١٣ - يُنْشِئُون له ما يشاء من أبنية مرتفعة للعبادة والسكنى، وتماثيل ينحتونها، وقِصاعٍ كالحياض التي يُجبى فيها الماء، وآنية الطبخ ثابتة على قوائمها لعِظَمِها. اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، وقليل من عبادي المكثر من الشكر.

١٤ - فلمَّا نفذ قضاؤنا عليه بالموت، وهو متكئ على عصاه يشرف على الأعمال، والجن مستغرقون في مهامهم؛ هيبة له وإجلالاً، وخضوعاً وإذعاناً حتى أكلت الأَرَضَةُ عصاه، فخَرَّ سليمانُ؛ ليعلمَ الجميع بموته، ويستيقن الإنس أن الجن لا علم لهم بالغيب، وتسقط تلك الأوهام والادعاءات؛ إذ لو كانوا يعلمونه ما لبثوا في هذا العمل الشاق الذي كَلَّفهم به سليمان عليه السلام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَفَضُّل الله تعالى على أنبيائه بالنِّعم الجليلة، والمواهب العظيمة؛ تأييدٌ لهم وتكريم.

٢ - تنكير ﴿فَضْلًا﴾ للتفخيم، وكذلك قوله: ﴿مِنَّا﴾ زيادة في تعظيمه وتشريفه. وقَدَّم الجار والمجرور للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق للمؤخر.

٣ - في قصة داود عليه السلام وتَعَلُّمِه صناعةَ الدروع دليلٌ على تَعَلُّم أهل الفضل الصنائع، وأن امتهانها لا ينقُصُ من مناصبهم. وفي الصحيح عَنْ الْمِقْدامِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»، وإنَّما خَصَّه الله بالذِّكْر لأنَّه مع نبوَّته كان مَلِكاً، فلم يمنعه ذلك من العمل. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٣٤. والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، برقم ١٩٦٦).

٤ - إتقان العمل من شِيَمِ أهل التقى والصلاح، والاجتهاد في تطوير الحرف والصناعات النافعة مطلب شرعي، وأمر ضروري.

٥ - الأنبياء رُوَّاد الحضارات، وحملة مشاعل الهدى والارتقاء، ومُعَلِّمو الإنسانية، وخيرٌ ورحمةٌ لها، والوحي مصدرٌ من مصادر المعرفة الإنسانية، وَهَبَ الله سليمان ملكاً عظيماً وأيَّده بجنود عجيبة، منها الريح والطير والجن، فضلاً عن الإنس، وإذابة عين النحاس له.

٦ - الدعوة إلى توظيف المَلَكات والمواهب والنِّعَمِ في الأعمال الصالحة.

٧ - الشكر من أعمال القلوب والألسنة والجوارح، وهو اعتراف القلب بنعمة الله، واستحضارها، وثناء اللسان، وعمل الجوارح.

٨ - خَصَّ آل داود بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم موضع التأسِّي والاقتداء، ومَحَطُّ الأنظار. وفي هذا دَرْسٌ لآلِ كلِّ داعيةٍ أن يكونوا أسرعَ استجابةً وأشدَّ حرصاً، وأعظم إقبالاً على طاعة الله وشكر نعمه.

٩- قُدِّمَتِ الجِفانُ على القُدور مع أن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل؛ لأنه لَـمَّا ذُكِرَت الأبنية المَلَكية ناسب أن يشار إلى عظمة السِّماط الذي يُمَدُّ فيها فذُكرت الجفان أوَّلاً؛ لأنَّها تكون فيها بخلاف القُدور، فإنَّها لا تحضر هناك. (انظر: روح المعاني للألوسي ١٦/ ٢٧٢).

١٠- إنَّ دابة الأرض هي إحدى الحشرات التي تأكل الخشب، وتحفر فيه؛ لتتخذ منه مأوى وطعاماً في آن واحد، ولذا تعرف باسم ناقرات الخشب (Woodborers) أو القادح، ومنها الأرضة (القرضة).

يقول العلماء في قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: أول إشارة في تاريخ البشرية إلى حقيقة أن من الحشرات ما يعيش على أكل الأخشاب. وأنَّ تاء التأنيث في الفعل ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ تدل على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث من تلك الحشرات الناخرة. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢١٢-٢٢٦).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٥- قسماً لقد كان لقوم سبأ في ديارهم ومساكنهم آيةٌ عجيبة، تدلُّ على قدرة الله تعالى، وسُنَّته الماضية، وعدله في حُكمه: جنتان عن اليمين والشمال، فيهما الأشجار الوارفة الظلال اليانعة الثمار والزروع التي تُسْقَى بالماء النَّمير من الخزانات وراء السدِّ. فهنيئاً لهم هذه الطيبات، وليشكروا ربهم عليها. بلدةٌ وافرة الخيرات، سالمةٌ من الآفاتِ، خاليةٌ من المنغِّصاتِ، طاب فيها المقامُ ورَغَدُ العيشُ، ومساكنُ طيبةٌ، ومناظرُ رائعةٌ، وسهولٌ ممتدةٌ، وربوعٌ خضراءُ، وأنهارٌ تتدفَّقُ بالخيرات، وأشجارٌ تتفتَّقُ بأطايبِ الثمراتِ، وربٌّ غفور يعفو عن الكثير، ويثيبُ على القليلِ، ويمنحُ الثوابَ الجزيلَ.

١٦ - فلم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المُنْعم جلَّ وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسلَّط الله عليهم السيل الجرَّار الذي خَرَّب سَدَّهم، وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت بتلك الحقول والبساتين المثمرة أشجارٌ رديئة الثمر، كالطرفاء والسِّدر وغيرها من الأشجار التي لا تُغْني من جوع.

١٧ - ذلك العقاب بسبب كُفْرِهم وجُحودهم، فلا نُعاقِبُ إلا مَنْ كفر بالنِّعَم، وأصرَّ على ذلك، وتمادى فيه، فيتبدَّل حالُه مِنْ رَغَدِ العيش، وطيب الحياة، ووفرة الثمر إلى القَحْطِ والجدب وتَلَفِ الزروع، وقلة الثمر.

١٨ - وكانوا في نِعَمٍ ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة ليِّنة، وبلاد طيبة آمنة، وقرى متقاربة متواصلة بالخيرات من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام، وجعلنا السير بين قُراهم و القرى التي باركنا فيها سيراً مقدَّراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قريةٍ، والمبيتُ في قريةٍ أخرى، ودَعَوْناهم للسير فيها آمِنِين من كل المخاطر والآفات، مهما ساروا بالليل أو النهار، ومهما طال سفرهم.

١٩ -تعالى القوم على هذه النِّعم، وطلبوا زوالَها، وتمنَّوا لو كان السفر طويلاً، وبلغ الترفُ ببعضهم والدَّعَةُ أن اشتكى من بُعد الأسفار؛ جحوداً وإنكاراً لنِعَمِ الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتملُّلهم، فجعلناهم عِبرةً يتحدث الناس عنهم، ويتعجَّبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرُّقهم بعد اجتماع شملهم، وذُلِّهم بعد عِزِّهم، حتى صار تفريقهم مثلاً سائراً فقالوا في الأمثال، ذَهَبُوا أَيْدِي سَبا وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبا. (مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٧٥). إنَّ في ذلك لمواعظ وعِبَراً لكل مَنْ أكثر الشكر، ووَطَّن نفسَه على الصبر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - سيقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث، وكَذَّبوا بالنبيِّ ﷺ، وأعرضوا عمَّا بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، فالجزاء الدنيوي تمهيدٌ وبرهان ودليلٌ، وعنوانٌ على الجزاء في الآخرة.

٢ - يقول علماء النبات: إنَّ كل أعضاء النبات تحتاج إلى عنصر الأُكسجين، والأُكسجين ينتشر بين حبيبات التربة بالقدر الكافي؛ لتنفس الجذور، فإذا زادت نسبة الماء بالتربة (أغرقت التربة)، فالماء الزائد يَحُلُّ مَحَلَّ الأكسجين فلا يجد الجذر ما يتنفس به من الأكسجين فيموت مختنقاً كما يغرق الإنسان والحيوان، فإذا مات الجذر توقفت عملية امتصاص الماء والأملاح من التربة ومات النبات عطشاً رغم توافر الماء تحت قدميه، وترى النباتات الغارقة بالماء ذابلة كأنَّها تعرضت للفحة الحرارة في قلب الصيف. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٢٨٥-٢٨٧).

٣- عاقبة الجحود والنكران، والغفلة والنسيان: الشقاء والحرمان.

٤- التعبير بـ ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ مُؤْذِنٌ بشدة القرب، حتى كأنهم لم يخرجوا من القرى نفسها.

(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦/ ٢٨٨).

٥- قَدَّم الليالي لأنَّها مَظِنَّةُ الخوف؛ وقد قيل: الليل أخفى للويل، أو لأنَّها سابقة على الأيام، أو يكون التقدير: سِيرُوا فيها آمنين، وإن تطاولت مدةُ سفركم، وامتدت ليالي وأياماً كثيرة.

٦- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بصيغة المبالغة مع اقتران الصبر بالشكر؛ لأنَّه حين تمتزج مرارة الصبر بحلاوة الشكر مع حرارة الإيمان تتفتق عن بصيرةٍ نافذةٍ، وفكرٍ ثاقبٍ، وعقلٍ مستنيرٍ يستنبط الدروس، ويستوعِبُ العِبَر.

٧- تعبيد الطرق وتمهيدُها واجب شرعي على أولياء أمور المسلمين وأثريائهم. وتلك نعمة عظيمة تستوجب حَمْدَ الله تعالى، وشُكْرَ مَنْ يقوم بها، والدعاءَ له.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

التفسير:

٢٠- لما أعرض قوم سبأ عن شُكر النِّعم، ونَسُوا المُنْعِم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، وقعوا في مصايد الشيطان، فَصَدَّق عليهم ظنَّه إلا فريقاً ممَّنْ عصمهم الله بإيمانهم من وساوسه، ونَجَّاهم من إغوائه.

٢١- وما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أنَّ الله تعالى قَدَّر ذلك فتنة وابتلاء للناس، فلم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاء والتزيين، وإنما اتبعوه بأهوائهم الجامحة، بغير حُجَّةٍ ودليل. وحكمة الله من ذلك امتحان العباد؛ ليعلمَ الصادق مِن الكاذبِ، والله يحفظ العباد، ويُحصي عليهم أعمالهم، فيجازيهم بها.

٢٢- قل - يا محمد - للمشركين احتجاجاً عليهم، وتبكيتاً لهم، وتحدِّياً: ادعُوا آلهتكم التي زعمتم، فهم لا يملكون في هذا الكون مثقال ذرة. والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى مُعين.

٢٣- ولا تُقْبَلُ الشفاعة، ولا تُجدي عنده، إلا لِـمَنْ أذن له وارتضاه، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لذلك، فإذا أَذِنَ لهم في الشفاعة فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدثَ شيء من أقدار الله، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم: بماذا أمر ربكم؟ فيجيبونهم، قال: القول الحق، وهو قَبول شفاعتكم للمستحقين لها دونَ غيرهم، استشعارٌ وتعبيرٌ عن هيبته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريدُ وهو العليُّ الكبير المنفرد بالعلو والكبرياء.

الفوائد والاستنباطات:

١- كلُّ مَنْ ضلَّ وغوى فقد صَدَّق فيه ظنُّ إبليس، حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم، إلا عباد الله المخلصين، كما أخبر رَبُّ العزة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

٢- فتنة إبليس ابتلاءٌ وامتحانٌ للناس؛ ليتبيَّن المؤمنُ الصادقُ من الكافر المرتاب، فيُثَبِّتُ الله المؤمنَ، ويعصمُه، ويقعُ المرتابُ في حبائل الشيطان، وبقَدْرِ إيمان العبد بالله واستعانته به، ويقينه باليوم الآخر بقَدْرِ ثباته أمام هذه الفتنة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ من هنا ندرك مدى أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأثره في وقاية الإنسان من مكايد الشيطان، وعصمته من فتنته.

٣- مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربِّهم، خاشعين مُذْعِنين لأمره تعالى مشهدٌ متكررٌ في الدنيا ، كما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا ﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾...» الحديث. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر: ١٨]، برقم ٤٧٠١).

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾

التفسير:

٢٤- قل لهؤلاء المشركين: مَنْ يرزقكم من خيرات وبركات السموات والأرض. إنه الله وحده، أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرةٍ، وإنا أو إيَّاكم لَعلى هدى، أو في ضلال واضح، فالهدى لا يتعدَّد.

٢٥- قل للمشركين: لا تُسألون عن أعمالنا وجرائمنا، ولا نُسأل عن أعمالكم، فكل إنسان محاسب عن نفسه، مسؤول عن عمله، قل لهم: يجمع ربنا بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بالقول الفَصْلِ، والحكم العادل، وهو سبحانه يَفْصِلُ بين عباده بالحق، وهو العليم بصالحهم وطالحهم، لا يخفى عليه منهم شيء.

٢٧- قل: أَطْلِعوني وأَبْصِروني آلهتكم المزعومة التي ألحقتموها بالله تعالى؛ لأنظرَ أيَّ صفةٍ فيها جعلتُها على زعمكم نِدّاً لله تعالى. بل هو الله تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، صاحب العزة الحكيم في أقداره وأحكامه.

٢٨- وما أرسلناك إلا للناس قاطبةً، مبشِّراً مَنْ أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً مَنْ عصى بأليم العقاب، ولكنَّ أكثر الناس لا يدركون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٤) إخبار مستقبليٌّ عن رزق الله تعالى لجميع عباده.

٢- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، أن يقول الرسول ﷺ للمشركين: إن أحدنا لابُدَّ أن يكون على هدى، والآخر لابُدَّ أن يكون على ضلال، ثمَّ يَدَعُ تحديد المهتدي منهما والضال؛ ليثير دوافع التدبر ونوازع التفكر في رِفْقٍ ولُطْفٍ، بعيداً عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء، وفيه أبلغ ما يدل على الإنصاف والموضوعية، والتجرُّد للحقِّ، وابتغائه في رِفْقٍ ولُطْفٍ. وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي للدعاة تَدَبُّره، ويعتمد على الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدال.

٣- لَمَّا كان صاحب الهدى مستعلياً به، مستشرفاً به، كان التعبير بـ (على) في مقابل التعبير بـ (في) للضالِّ المنغمس في ضلاله، الغارق في أوهامه، المحصور فيها.

٤- ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ دليلٌ على الرِّفْقِ بالمخالف، والتلطُّفِ معه في الخطاب، وترغيبه، وكَسْبِ وُدِّه وعاطفته؛ حتى يُقْبِلَ على الحقِّ، ويُذْعِنَ له، فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.

٥- ذُكِرَ الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك. وهذا أبلغ في الإنصاف والتأدُّب في الحوار، وأرجى للقبول.

٦- عموم رسالة الإسلام، وسمو مقاصدها، مع جهل الكثيرين بها.

٧- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي بأنَّ الرسولَ ﷺ أُرْسِلَ للناس أجمعين في الماضي والحاضر والمستقبل، أُرْسِلَ إليهم مُبَشِّراً بثواب الله، ومنذراً عقابه.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- يخبر الله تعالى عن سوء أدب الكفار وفَرْطِ جَهْلِهم إذ يقولون للرسول ﷺ والمؤمنين: متى وقت مجيء يوم القيامة، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه؟ وهذا الاستفهام سؤال إنكار واستبعاد ومراء.

٣٠- قل: لكم أيها الكفار ميعادٌ لا يتخلَّف، قَدَّره الله وحدَّده، فإذا حَلَّ بكم فلا مفرَّ منه، ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله، كما لا يمكن تقديمه بأي حال.

٣١- وأعلن الكفار إصرارهم على الكفر بالقرآن وما فيه من أنباء، فاندفعوا إلى تكذيب لا مُسَوِّغ له إلا سحائبُ الجحودِ الغائمة، وحُجُبُ الإنكارِ الكثيفة التي لا تنجلي عنهم، ولا تنقشع عن عقولهم، ولو

ترى مصيرهم وتخاصمهم لرأيت أمراً عظيماً هائلاً، حين يقف الظالمون بين يدي رب العالمين يتراجعون، ويتراشقون التُّهَمَ فيما بينهم، ويتطارحون اللَّوم والعتاب، يقول الذين استضعفوا في الدنيا للذين استعلوا فيها، وبطروا الحق، وغمطوا الناس: لولا غَوايتكم لنا وقَهْرُكم لكنا مؤمنين، فقد كُنَّا لكم تَبَعاً وعوناً.

٣٢- وهنا يستنكر المستكبرون بقولهم: أنحن صَرَفْناكم عن اتباع الهدى بعد إذ جاءكم واضحاً جلياً، بل اخترتم أنتم طريق الإجرام بإرادتكم، من أجل مصالحكم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، فقد جاءكم الهدى، فما الذي صرفكم عنه أيها المجرمون؟ هل أرْغَمْناكم على اتِّباعنا؟ أو إنه الإجرامُ يَسْري في دمائكم، والتبعيةُ تَحْمِلُكم على الانصياع لنا، ومُمالأتنا.

٣٣- أجابوهم بكل ما لديهم من حسرةٍ وحُرْقَةٍ: أنَسِيتم عَمَلَكم الدائبَ، وكيدكم المتواصل، وتآمركم على الحق وأهله، وصَدَّكم الدائم، وأوامركم الصريحة، ودعواتكم المتواصلة كي نكون وَفْقَ ما أنتم عليه؟ ولما رأوا عذاب النار كتموا الحسرة، وتمنَّوا لو سلكوا طريق الحق. وجعلنا الأغلال تُطَوِّقُ أعناق الذين آثروا الكفر وماتوا عليه، إمعاناً في إذلالهم، ونَكالاً بهم، وجزاءً عادلاً لظلمهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.

٢- يشهدُ يومُ القيامة مواجهاتٍ عنيفةً وحواراتٍ صريحةً بين الأتباعِ والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويتراشقون التُّهَم، ويسعى كلُّ فريق إلى النجاةِ ولو على حسابِ الآخر، وينكشف لكلِّ فريق حقيقةُ الآخر، وتُفْضَحُ النيَّات، ويظهر المستور، وتتهاوى العلاقات الهشَّة، والمودة الزائفة.

٣- إسناد المكر لِلَّيل والنهار يَدُلُّ على استغراقه لكل الأوقات، ودأبهم وهمتهم في نشر الكفر. والتعبير بالمضارع ﴿إِذۡتَأۡمُرُونَنَآ﴾؛ لاستحضار صورتهم وهيئتهم حالَ يُلْقُون عليهم الأوامر، كما يفيد الاستمرار.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٧- وما أرسلنا في قريةٍ من رسول ينذر قومه إلا بادر المترفون بالتكذيب، وأعلنوا كفرهم وإعراضهم، واستبعدوا العذاب متعلّلين بكثرة المال والولد، واهمين أنَّ ذلك سببٌ للنجاة! وهذا منطقٌ عجيبٌ، فأجبهم يا محمد: بأنَّ بَسْطَ الرزق وتضييقَه من شأن الله تعالى، ولكنَّ كثيراً منهم يجهلون هذه الحقائق، فليس بسطة الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم، وليست الأموال والأولاد هي التي تُقرِّب إلى الله وتُدْني منه، إلا لِـمَنْ آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلةً لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بسبب إيمانهم وصلاحهم وقيامهم بحقوق المال والولد. وهم في درجات الرضوان في أعالي قصور الجنة، مُتَنعِّمون مُعافَوْن من كل آفةٍ.

٣٨- أمَّا الذين يسعون في آيات الله، للتكذيب بها، وتعجيز مَنْ آمن بها ودعا إليها، واهمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم؛ فهؤلاء البعداء المحرومون محبوسون، مُعَذَّبون في جهنم.

٣٩- قل لهم يا محمد: إنَّ ربي يفتح أبواب الرزق لِـمَنْ يشاء من عباده، ويمسك عمَّنْ يشاء، لِحِكَمٍ عظيمة، وما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أيِّ باب من أبواب الخير، فإن الله تعالى يُخْلِفُ على المنفق، وهو خير مَنْ يُوَسِّعُ على عباده ويرزقُهم، فاطلبوا الرزق منه، والتَمِسُوا أسبابه، وأنفقوا يُنْفَقْ عليكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- المال ليس له قيمة في ذاته، وليس عصمةً ووقاية لصاحبه، وليس دليلاً على قُرْبه من الخالق الرازق ﷻ، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.

٢- الإتيان باسم الفاعل ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾ لبيان انغماسهم بالترف، حتى صار وصفاً ملازماً لهم.

٣- الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق، ومن معاول هدم الأُمم وإبادة الشعوب، ومن شأن المترفين الركونُ إلى الدنيا ومَلَذَّاتها، والصدود عن الحق، والاغترار بالأماني الكاذبة، والتفاخر بالمال والولد.

٤- في الآية (٣٦) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ وحده يوسِّع الرزق في الدنيا لِـمَنْ يشاء من عباده، ويضيِّق على مَنْ يشاء، في الماضي والحاضر والمستقبل.

٥- الحث على البذل والإنفاق، فالله تعالى يَخْلُف على المنفق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً». (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ...﴾ [الليل: ٥ - ١٠]).

٦- خَصَّ المترفين بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم غالباً أول المكذِّبين للرسل عليهم السلام؛ لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهارجها.

٧- في الآية (٣٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ وحده يُعَوِّضُ المنفق ما أنفقه امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته، وذلك في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٤٠- واذكر يوم يَحْشُرُ الله تعالى المشركين ومعبوداتهم، ثم يقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟ وهذا الاستفهام يتضمن توبيخاً وإنكاراً على المشركين.

٤١ - فأجابوا مُعَظِّمين لله: تنزيهاً وتقديساً لك ربَّنا، نبرأ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكُنا ومُدَبِّر أمورنا! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابةً وطاعةً لشياطين الجن الذين زَيَّنوا لهم ذلك، فصَدَّق أكثرُهم بهم، وسَلَّموا لهم.

٤٢ - فإذا لم تَبْقَ لكم حجةٌ ولا عذرٌ فقد خاب رجاؤكم، وانقطع أملُكم، فلا يملك بعضُكم لبعض نفعاً ولا ضراً، كما كان استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض، ونقول توبيخاً: ذوقوا عذاب النار التي طالما كذَّبتم بها في الدنيا، وبَقِيتم على تكذيبكم.

٤٣ - وإذا تتلى عليهم آياتنا الشاهدة لنا بالوحدانية ولنبينا بالرسالة، مع وضوحها وجلائها، قالوا مُكَذِّبين مُعْرِضين: ما هذا إلا رجل يسعى إلى صَرْفِكم عن عبادة الآباء، وقالوا: ما هذا إلا كذبٌ، وقال الذين اختاروا الكفر، وبَقُوا عليه: ما هذا إلا سحر واضحٌ.

٤٤ - وما آتيناهم قبل هذا الكتاب الذي نزل فيهم من كتب يتدارسونها، وما أرسلنا إليهم قبلك يا محمد من نذير يذكرهم، فكان حَرِيًّاً بهم أن يُقْبِلُوا على هذا الكتاب، ويتمسَّكوا به، ويستجيبوا لهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

٤٥ - وكذَّب الذين كانوا من قبلهم من الأُمم الهالكة، والقرون الغابرة، فما بلغ كفَّارُ قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأُمم التي آتاها الله نِعَماً وفيرة، ومكَّن لهم ما لم يُمَكِّنْ لغيرهم، فما أغنت عنهم النِّعَمُ حين كذَّبوا رسلَ الله. فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم، وتبديلي نِعَمي عليهم بالنِّقم؟ فليَحْذَرْ هؤلاء الكفرة من مصير أسلافهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبوعين، وبين المشركين ومَنْ أشركوهم مع الله.

٢ - لا تبقى للمشركين حُجَّةٌ يتعلَّلون بها، بل يستيقنون من ضلالهم، ويعاينون العذاب الذي طالما استبعدوه، وكذَّبوا به.

٣ - الإتيان بالاسم الظاهر في موضع الإضمار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ لبيان سبب هذه المقولات الكاذبة وهي بقاؤهم على الكفر، وإصرارهم عليه.

٤ - بيان أثر التقليد الأعمى لِـما كان عليه الآباءُ والأجدادُ، في الصدودِ عن دعوة الحقِّ.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٦- قل لهم يا محمد: إنما أُقَدِّم لكم هذه الموعظة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة الصائبة الموفَّقة: أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتَجَرُّد، يحاور كلُّ واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، وينظران معاً نَظَرَ الصدق والإنصاف، أو يراجعُ كلُّ فردٍ نفسَه، فيتفكر ويتأمل بعدلٍ، ويعزم عزماً خالصاً على ابتغاء الحق، فإنَّ مَنْ يَنْشُدْ الحقَّ بعزمٍ وصدقٍ يُوَفَّقْ إليه، ثم تتفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم - أي الرسول محمد ﷺ -، هل صحيحٌ ما تَدَّعُونَه به من جنون، فإن تجرَّدْتُم للحق أدركتم أنه ليس كما زعمتم، وما هو إلا نذير لكم من العذاب الأليم الذي يستحقه المكذِّبون.

٤٧- قل لهم يا محمد: لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم، فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! لا أرتقب إلا ثواب الله، ولا أبتغي إلا رضاه، وهو عالم بجميع الأمور، شاهدٌ عليها، مُطَّلع عليَّ، يعلم نيتي ومقصودي.

٤٨- قل: إنَّ ربي يقذف بالحق، فتتلقَّاه القلوب السليمة ويستقرُّ فيها، ويُلْقِيه إلى أنبيائه، ويَهْدي إليه كل مَنْ ينشده ويتحرَّاه، وهو تعالى الذي أحاط علماً بكل أمور الغيب، فلا تخفى عليه خافية .

٤٩- قل: جاء الحق، ولاحت أعلامه، وتَجَلَّتْ حُجَجُه، وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزَّقَتْ حُجُبُه، وتلاشَتْ شبهاتُه، وتَبَدَّدَتْ ظلماتُه، فلم تَعُدْ له صولة ولا جولة، فهو زاهقٌ، لا يُقيم حقيقة ولا يؤكدها، بل يذهب بلا أثر له، فلا يُلتفت إليه، ولا يُؤْبَهُ به.

٥٠- قل لهم يا محمد: إن ضَلَلْتُ فإثم الضلال على نفسي لا يتحمَّلُه غيري، وإن اهتديت فما كنت لأهتدي إلا بهداية الله لي عن طريق الوحي. إنه سميع لكل صوت، ومجيب لكل مَنْ دعاه، وقريب من عباده بعلمه وقدرته ورعايته.

٥١- ولو ترى هذا الموقف المهيب حين يروعهم الفزع، ويغشاهم الهول، ويستبدُّ بهم الرعبُ، ويُحاطُ بهم من كل جهة، وفي كلِّ موقفٍ عند الموت، وعند دخول القبر، وسؤال المَلَكَين، ويوم الفزع الأكبر، أهوالٌ عظامٌ تتربَّص بهم، فلا مفرَّ منها ولا مهرب، وأخذوا بغتةً، ونُزِعُوا انتزاعاً من الموقف إلى جهنم.

٥٢- وقالوا: صَدَّقْنا بهذا النبيِّ وبما وعد به من البعث. وأنَّى لهم ذلك وقد انصرم الزمان، وفات الأوان، وانطوت الصحائف، وانقضت الدنيا فلا مردَّ إليها، فلا يُسْمَعُ لهم دعاء، ولا يُرْحَمُ لهم بكاء، كيف لهم أن يتعاطوا الإيمان من بُعْدٍ! يعني في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وأنَّى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا!

٥٣- وأنَّى لهم أن يُقبل إيمانهم، وقد كفروا به من قبل، وألْقَوا الشُّبَه والأباطيل، ورَمَوه بالظنون والأوهام في كِبْرٍ واستعلاء ومجاهرة.

٥٤- وحِيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفِها، كما حِيل بينهم وبين نعيم الجنة وملذاتها، وحِيل بينهم وبين الإيمان. إنهم كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يُتَقَبَّلْ منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَضَمَّنت الآية الكريمةُ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ الأصولَ الثلاثةَ: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر.

٢- تفيد (ثم) الترتيب والتراخي الزمني، أي: تتفكروا بعد أن تعقدوا العزم، وتخلصوا النية، وتتجردوا للحقيقة بقيامكم لله تعالى.

٣- وصف الرسول ﷺ بصاحبكم للإيماء إلى أنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم، لأنَّه نشأ بين أظْهُرِهم معروفاً بما ذكرنا. وفي هذا تعريضٌ بتجاهُلِهم، وتنكيرهم له.

٤- الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته، ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.

٥- الهداية تأتي في لحظة واحدة، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تَتَلَهَّفُ عليها، وتتشوق إليها، والتعبير بـ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يفيد قوة الحق، وسرعة وُصولِه للقلوب.

٦- الباطلُ إن تقادم به الزمان لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

٧- تَذَكُّرُ أحوال الآخرة، ومواقفها العظيمة، ومشاهدها المهيبة، مما يُسَلِّي الدعاة، ويُخَفِّف عنهم، ويُهَوِّن عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.

٨- الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقريرُ أركان العقيدة، وبيان أصولها، ورَدُّ شبه الكفار.

٢ - الحديث عن خلق الإنسان، والغاية من خَلْقِه ومصيره الذي ينتظره.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتسريةُ فؤاده ممَّا لحق به من أذى الكفار، وتكذيبهم.

٤ - بيان فضائل حملة القرآن الكريم ومراتبهم وثوابهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - الحمد لله تعالى مبدع السموات والأرض، ومبديها من غير أن يسبقهما مثالٌ، مع ما بَثَّ فيهما من مشاهد الجمال وآيات الجلال، وله الحمد على أَنْ جَعَلَ الملائكة الكرام البررة رسلاً مُوَكَّلين بمهامَّ، وجعلهم متفاوتين في الرُّتَبِ، فمنهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة أو أكثر، ومِنْ شأنه تعالى أن يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ - يُبَيِّنُ الله تعالى أن ما يفتحه على عباده من رَحمات، لا يقدر أحدٌ على إمساكها وحَبْسِها، وما يمسك منها فلا يقدر أحد على إرسالها، فخزائن الرحمات بيده يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيزُ الغالبُ فلا يمتنعُ عليه شيء، والحكيمُ في تصريفِهِ وتدبيرِه وتقديره.

٣ - يُذَكِّر الله الناس جميعاً بنِعَمِه عليهم وواجبُ ذِكْرُها وشكرها، فلا خالق غيرُه ولا رازق سواه، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فكيف تُصْرفون عن الحقِّ مع جلائه ووضوحه؟

٤ - وإن يكذبوك فيما جئت به فقد كُذِّبَت رسلٌ من قبلك، فتكذيبُهم لا مُسَوِّغ له، وشأنُهم شأنُ مَنْ سبقهم من المكذبين، وإلى الله مرجعُهم ومصيرُهم.

٥ - ينادي الله على الناس جميعاً يُذَكِّرهم بحقيقة وعده، وأنه كائن لا محالة، فآمِنوا به، واستعِدُّوا له، ولا تَغُرَّنَّكم زخارفُ الدنيا ومباهجُها، ولا يَغُرَّنَّكم الشيطانُ بوعوده الكاذبة، وأمانيه الباطلة، وتزيينه الخادع.

٦- حقًّا إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ؛ فعادُوه كما يعاديكم وذلك ببُغْضِه ومخالفته وعصيانه، والحذر من مكايده، واليقظة؛ لئلَّا تقعوا في مصايده، فلا غرض له ولا غاية إلا أن يستدرج مَنْ مَالَ إليه، وسار في فلكه، وتحزَّب له، وانجَرَّ لحبائله؛ ليكون من الماكثين في نارٍ تتأجَّجُ بأهلها، وتُسَعَّرُ بهم.

٧- الذين كفروا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد، والذين صدَّقوا بالله ورسله وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله عظيمة، وأجرٌ كبيرٌ على صالحِ أعمالهم.

٨- أفمَنْ زَيَّنَ له الشيطان عمله القبيح، فرآه حسناً كمَنْ هداه الله؟ فإنَّ الله تعالى يصرف مَنْ يشاء عن الحق ويوفِّقُ مَنْ يشاء له، فالهدايةُ لِـمَنْ سلك طريقها، ورام أسبابها، ورَغِبَ فيها بصدقٍ وهِمَّةٍ، فلا تُهْلِكْ - أيها النبي - نفسك حزناً بعد حزن، وهمَّاً إثر هَمٍّ، على مَنْ اختاروا طريق الضلال. والله تعالى عليمٌ بأحوالهم مُطَّلِعٌ على ضمائرهم، ومجازيهم بما يستحقونه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في استفتاح السورة بحمد الله تعالى تنويهٌ وتنبيهٌ على فضائل الحمد، والتعبير بالحمد، بالمصدر أبلغُ وأعمُّ من قوله: احمدوا الله، بالأمر، واللام في الحمد لام الجنس أو الاستغراق، فالحمد كله لله، والمحامد كلها له تعالى.

٢- في الآية (٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ ما يفتح الله للنَّاس من رزق ومطر وصحَّة وعِلْمٍ وغيرِ ذلك من النِّعَمِ، فلا أحدَ يقدر أن يمسك هذه الرحمة، وما يمسك منها فلا أحد يستطيع أن يرسلها بعده ﷻ.

٣- لَفْتُ الأنظار إلى عالم الملائكة، هذا العالَمِ النوراني الذي جُبِلَ على طاعة الله، ومحبة أوليائه، وهم متفاضلون في الرُّتَب. والإيمان بهم ركنٌ، ومحبتُهم فَرْضٌ.

٤- الزيادة في الخَلْقِ عامة وشاملة، منها على سبيل المثال: الخَلْقُ الحَسَنُ، والوجه الحسن، والصوتُ الحَسَنُ.

٥- الدعوة للتأمُّل والنظر فيما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال القدرة، فبقَدْرِ معرفة الإنسان وتَعَمُّقِه يزداد تَذَوُّقه لهذا الجمالِ الكونيِّ الباهر الذي يتجلَّى حتى يراه الجميع، ويدقُّ ويلطفُ، فلا يكتشفُه إلا العلماءُ المدقِّقون.

٦- خزائنُ الرحمات بيد الذي يقول للشيء: كن، فيكون، يجودُ بها على مَنْ يشاءُ من عباده، «وعبَّر عن إرسالِها بالفتح إيذاناً بأنَّها أَنْفَسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون، وأعزُّها منالاً». (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٠).

٧- تسلية النبي ﷺ وتعزيته بمَنْ سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سَجَّلوه من صحائفَ مضيئةٍ بالصبرِ، والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم.

٨- في الآية (٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الشيطان كان - وما يزال - وسيبقى عدوًّاً لبني آدم، يدعوهم إلى الضلال.

٩- في الآية (٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

١٠-التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوةُ لأخذِ الحذرِ من الوقوع في مكايده، والتسلُّحُ بالإيمان والعمل الصالح.

١١-وجوب عداوة مَنْ عادانا في الدين، والشيطان هو العدو الأول.

١٢-من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفه، والانبهار بطلائه الزائف، والعُجب والغُرور، واعتلال النفس، وإهمال النظر.

١٣-قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فيه أبلغ الدلالة على حُبِّه لقومه، وحرصه على هدايتهم.

١٤-في الآية (٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ يُضِلُّ مَنْ يشاء من عباده، ويهدي مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله عليم بقبائح الضَّالين.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٩ - ومن شواهد الوحدانية ودلائل العظمة: أنه تعالى الذي أرسل الرياح وصرَّفها، لتُلَقِّحَ السحاب. فسُقْناه إلى بلدة قاحلة، فأنزلناه، وأحيينا به الأرض بعد جَدْبِها وقَحْطها، كذلك إحياء الله للأموات وبعثهم.

١٠ - مَنْ كان يريد العزَّة، ويطلبها، فليطلبها من الله ﷻ بطاعته وموالاته، فللَّه العزَّة جميعاً، ليس لغيره منها شيء، إليه تعالى يَرْقَى الكَلِمُ الطيب، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح، فكلاهما ينهض بالآخر ويُكَمِّله. والذين يسعون ويحتالُون في تحصيل العزة الواهمة والزعامة الكاذبة بالسيئات من الأعمال، فيجعلونها مطيَّتهم، ويجتهدون في إخفائها، مثل الماكر الذي يدبر الأمر في خفية، ويظهر خلاف ما يُضمره، شأنهم كالذي يغرس في أرضٍ جَدْبَة لا تُنْبِتُ زرعاً، كذلك أعمالهم وكيدهم إلى جَدْب، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

١١ - والله خلقكم من تراب، منه خلق أباكم آدم، ومنه خَلْقُ الغذاء الذي هو عماد الإنسان، ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً ذكوراً وإناثاً، وما من أنثى تحمل وتضع، إلا بعِلْمِه تعالى ولُطْفه وتدبيره. وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ بطول الأجل، وما ينقص من عُمْرِ مخلوقٍ بقِصَرِ أجله، إلا في كتاب قَدَّر الله تعالى فيه هذه الآجال. إنَّ كل ما مرَّ يسيرٌ على الله تعالى.

١٢- وبَيَّنَ تعالى أنَّ البحرَين لا يستويان إن التقيا، فهذا عذبٌ فُرات، وهذا مِلْحٌ أُجاج، ولكلٍّ بحرٍ مكوناته وخصائصه ومنافعه، فلا يستويان في التركيب، ولا في الكثافة، ولا فيما يحويانه من كائناتٍ، إلى غير ذلك من تباين بينهما، تتجلَّى من خلاله عظمةُ الله تعالى، وكمال إنعامه على الناس، وإن اجتمعا في كثير من المنافع، فمنهما نستخرج اللحم الطَّرِيَّ، الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، كذلك من منافع عالم البحار والأنهار حَمْلُ السفن المحمَّلة بالخيرات والمنافع، ونَقْلُها من بلدٍ إلى بلد، ونَقْلُ الناس بقدرة الله تعالى ولطفه وتيسيره؛ كي تشكروا الله تعالى على هذه النِّعم.

١٣- يُدخل الليل على النهار ويُدخل النهار في الليل، فتارة يطول النهار وتارة يقصر، وتارة يطول الليل وتارة يقصر، وفي هذا التنوع منافع كثيرة، والشمس والقمر يجريان بحساب دقيق وتقديرٍ محكمٍ، فلا يتوقفان، ولا يعتريهما تغييرٌ، فأين تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك شيئاً ولو يسيراً كالقِطْمير، وهو القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنَّواة؟

١٤- إنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، كيف وَهُنَّ أصنامٌ لا تسمع؟ ولو قُدِّر لها السماع، فأنَّى لها أن تجيب، ويوم القيامة يُنْطِقُ الله تلك المعبودات؛ لتشهد على مَنْ عبدها بالكفر، وتبرَّأ إلى الله تعالى من الشرك، ولا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل خبير عالم به، لأني خبير بما أخبرت به.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ كل ما يأتينا من ماء عذب إلى الأرض ينشأ من إثارة هذه الرياح للبحار والمحيطات المالحة عندما تنزع عنها طبقة الهواء المتشبعة ببخارها والمتزنة بدرجة محددة من التشبع، فتأتي الرياح بهواء جاف متجدد لتثير البحار كي تطلق كماً آخر من بخار عذب يصنع السحاب. (الإعجاز العلمي في قوله تعالى: تُثِير سَحَاباً، مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٨).

٢- تقرير البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهَدٍ، وهو نزول المطر، وإنبات الأرض، ودورة الحياة.

٣- تنبيهٌ وتوجيهٌ لذوي الأقدارِ والهِمَمِ إلى طريقِ العزةِ، وسبيل نَيْلِها.

٤- في الآية (١٠) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٥- في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن مكر الفاسقين أنَّه زائل.

٦- في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ عن عِلْمِ الله المطلق، فما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وما يُعَمَّر من مُعَمَّر، فيطول عمره، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب عنده، وهو اللوح المحفوظ.

٧- تحذير أهل المكر والخداع الذين يُضْمِرُون ما لا يُظْهِرون، ويحتالون لارتكاب الخطايا.

٨- الالتفات للمتكلم في قوله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ وفيه تنبيه للمخاطب، واعتناء ولطف من الله تعالى بخلقه، وتعظيم لذاته سبحانه، والتعبير بالفعل المضارع ﴿فَتُثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الأذهان، وجَعْلِها ماثلة للعيان، دعوةً للتأمل والتفكر في هذه الآية العجيبة.

٩- التعمير يكون بطولِ الأجَلِ ومَدِّ الأعوام؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نَقْصُ العمر بقِصَرِه؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث، وتبديده في الكسل والفراغ.

١٠- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٥- ينادي الله عباده ممتناً عليهم: أنتم الفقراء إلى الله تعالى في دقائقِ أموركم وجليلها، وعظيمها وهيِّنها، وعسيرها ويسيرها، والله وحده هو الغني الحميد، النافع بغناه خَلْقَه، والجواد المنعم عليهم.

١٦-١٧- لو شاء لاستبدل بكم غيركم، فهو الغني عنكم، لا يفتقر إليكم. وما ذلك على الله تعالى بممتنعٍ ولا عسيرٍ، فهو القادر على كل شيء.

١٨- ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفس أخرى، ولا يستتبعُ ذنبٌ ذنباً غيره، وإن تَدْعُ نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها لم تحمل تلك المدعُوَّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها؟ إنما ينتفع بالنُّذُر ويمتثل لها الذين يخشون ربهم وإن لم يَرَوْه، ويخشونه في الخلوات بعيداً عن أعين الناس، وأقاموا الصلاة كما أمر الله. ومَنْ تَطَهَّر من أدران الشرك، وأدناس المعاصي، وارتقى

لمكارم الأخلاق، فإنَّما تزكيته لنفسه تنفعه في دنياه، وتُنَجِّيه في أخراه. والله تعالى لا تنفعه طاعةُ الطائعين، ولا تَضُرُّه معصيةُ العاصين، والمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

١٩-٢٢- هذا مَثَلٌ للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، أنَّهما لا يستويان أبداً، وهل يستوي مَنْ تعامى عن الحق وأعرض عنه، بمَنْ أبصر الحق واستضاء به؟ وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى؟ وهل يستوي الظلُّ الذي يستروحُ إليه الإنسان ويَقيلُ، ويتقِي به وَهَجَ الشمس، ولهيب الحرِّ، بالحَرورِ الذي لا يتحمَّلُه ولا يطيقه؟ ولا يستوي الأحياء ولا الأموات، ومَنْ شرح الله صدره للإسلام، ومَنْ أقام على الكفر والضلال. إن الله يُسمع مَنْ يشاء إسماعه، وما أنت بمُسْمِعِ الأموات، وأنَّى لهم أن يسمعوا وقد قُبِرُوا وهم أحياء في غَياهِبِ الشرك، ولُحودِ الضلالِ!!

٢٣- ٢٤- ما أنت - يا محمد - إلا نذيرٌ، وقد أرسلناك بالحق داعياً وهادياً ومبشِّراً بالجنة، ونذيراً من النار. وليس ثمة أُمةٌ إلا أَرْسَلْنا إليها مَنْ يُنذرها.

٢٥- ٢٦- وإن يُصِرُّوا على تكذيبك، فالتكذيبُ دَيْدَنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فَعَلَ مَنْ سبقهم مع ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، وبالكتب المنزلة من عند الله، فانظر كيف كان جزاء الكافرين وعاقبتهم، أَخَذَهم أَخْذاً شديداً، وجعلهم عِبْرَةً لكلِّ معتبرٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١- التكذيب دأب الكفار على مَرِّ الزمانِ، وعاقبته وخيمةٌ.

٢- بلاغة اقتران الحميد بالغني، إذ ليس كل غني نافعاً بغناه، إلا إذا كان جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنعم حَمِدَه المنعَمُ عليهم. والله تعالى هو الـمُنْعِمُ على عباده بما لا يحصى، ولا يُعَدُّ.

٣- جَمَعَ الظلمات، وأفرد النور؛ لأنَّ نور الحق وطريق الهدى واحد، أمَّا طرق الضلال وسبل الظلمات فإنَّها كثيرة متشعبة.

٤- من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخِذُ أحداً بجريرةِ غيره، ولا يُحَمِّلُ أحداً وِزْرَ أحدٍ.

٥- لا ينتفع بالإنذار، ويَرْعَوي له إلا أهل الخشية والطاعة مِمَّنْ أحيا الله قلوبهم، وأنار بصائرهم.

٦- بيان مهمة النبي ﷺ وهي النِّذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنَّه لم تَخْلُ أُمةٌ من الأُمم السابقة من نذيرٍ.

٧- دلَّت (ثم) على التراخي الزمني، فالله تعالى لم يُعَجِّلْ لهم العقوبة، بل أمهلهم حتى تُقامَ عليهم الحجة، ومَدَّ لهم حتى لا يبقى لهم عذر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير:

٢٧ - ٢٨ - أَلَمْ تنظر إلى السماء حين تنهمرُ بالأمطار، فتنبت الأرض بالنباتات والأشجار، وتَتَفَتَّقُ الثمار من أكمامها بألوانها البديعة، مَن الذي أبدع هذا الجمال، وصَبَغَ هذه الألوان؟ ألم تنظر للجبال وطرائقها الموشَّاة بألوانها البديعة، فمنها الأبيض ومنها الأحمر، باختلاف درجات اللون، ومنها الأسود الشديد السواد، وكذلك من الناس والدوابِّ والأنعام مختلفة ألوانهم؟ إنَّما يخشى اللهَ حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ المدقِّقون في آياته الكونية، الوَقَّافون على بدائع المخلوقات وعجائب الكائنات. إنَّ الله لا يمتنع عليه شيء، وهو المُعِزُّ لأوليائه، الغفور لعباده.

٢٩ - ٣٠ - إنَّ الذين يواظبون على قراءة القرآن والعمل به ويحافظون على الصلاة بأوقاتها وفرائضها، وينفقون من أموالهم في وجوه الخير، يبتغون الخير في تجارتهم الرابحة مع الله؛ ليحقق لهم ما يبتغون، ويبلغهم ما يأملون، ويضاعف لهم، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم، فيثيبهم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

٣١ - والذي أوحيناه إليك من الكتاب هو الحقُّ كما شهدت بذلك الآيات والدلائل، وهو المُصَدِّقُ لما بين يديه، من بشارات ونبوءات.

٣٢ - ثم أورَثْنا أعظم كتبنا لِـمَنْ اخترناه من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه بلغ حدَّ التقصير، خلط الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصدٌ يكتفِي بتركِ المحرمات، وفِعْل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات، وهم أصحابُ الهِمَمِ العالية، والنفوس المطمئنة، والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ، فذلك هو الفضل الكبير، والشرف العظيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: صور ألوان الجبال، كما في الملحق.

٢- الدعوة إلى النظر والتأمُّل في جمال الكون، وما يحويه من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازجٍ دقيق في الألوان، يشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا، وبديع صنعه.

٣- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي عن حال العلماء في الخشية مع الله، فهم الذين يخشون الله، ويتَّقون عقابه بطاعته، واجتناب معصيته، فهم أعلم الناس به سبحانه وبصفاته وبشرعه، وقدرته على كلِّ شيء.

٤- حصر خشية الله في العلماء؛ لأنَّ الخشية إنما تصدرُ عن عِلْمٍ بجلال الله وعظمته، وكلَّما كانت المعرفة بالله أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانت الخشية له أعظمَ.

٥- الصلة بين العلم والخشية، فالعلمُ يُفْضي للخشية، وبقدرِ العلم تكون الخشية. وفي هذا المعنى يقول نبينا ﷺ: «... أَنَا أَتْقَاكُمْ لله وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِ الله» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، وأن المعرفة فعل القلب برقم ٢٠).

٦- الالتفات في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الغَيبة إلى التكلم تنبيهٌ، ولَفْتٌ لهذه الآية العجيبة.

٧- أورث الله تعالى أعظم كتبه لِـمَنْ اصطفاه، واختاره لحَمْل هذه الأمانة، ونَيْلِ هذه المكانة، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ مسنداً لنون العظمة تعظيماً لشأن هذا الميراث، ولبيان أنَّ هذه النعمة هي بتوفيق الله تعالى خالصةً منه تعالى.

٨- قَدَّم السِّرَّ على العلانية؛ لأنَّها هي الأصل لما فيها من سَتْرٍ على الفقير، وصيانة له، وبُعْدٍ عن الرياء، وإن جاز الإنفاق في العلن، بل قد يَحْسُنُ في بعض المواطن.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٥- جنات عدن وارفة الظلال، يانعة الثمار، وافرة المياه. يدخلونها جميعاً، يُحَلَّون فيها بأساور من ذهب وأخرى من لؤلؤ، أو منهما معاً، ويَرْفُلون في حُلَلِ السندس والديباج، ويلهجون بالشكر والثناء على الله تعالى؛ لما أفاض عليهم من النعم، وأزاح من هموم وأحزان. إنَّ ربنا كثير المغفرة لِذنوب عباده يسترها ويمحوها، عظيم الشكر يضاعف الحسنات، الذي أنزلنا وبَوَّأنا دار المقامة من رحمته بنا، وتَفَضُّله علينا، لا يَمَسُّنا فيها تعبٌ ولا مشقةٌ ولا كَدٌّ؛ لأنَّها دارُ النَّعيم في ضيافةِ الكريمِ .

٣٦-٣٧- والذين ماتوا على الكفر عقابُهم نار جهنم، لا يُحكم عليهم بالموت فيستريحون، ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها الشديد فيستَرْوِحون. وهذا جزاءٌ عادلٌ لكل مَنْ أصرَّ على الكفر ومات عليه، وأعرض عن الحق وصدف عنه. ومن هول النيران يجأرون، ويستغيثون فيها ألماً وحسرة، سائلين ربهم أن يخرجهم منها؛ ليستدركوا ما فاتهم، ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى. وأنَّى لهم ذلك، وقد أمهلهم الله تعالى وأمدَّ لهم في العمر؟ فما استكانوا لربِّهم ولا رَجَعُوا إليه، بل كذَّبوا بالنذر، وأعرضوا عنها، فيقال لهم: ذوقوا العذاب الذي كنتم تستعجلونه استبعاداً وتَحَدِّياً، فلا ناصر لكم لظلمكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قَدَّم الحِلْية؛ لأنَّها أحبُّ إلى النفس من الثياب، والشوق إليها أبلغُ.

٢- الترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ومن عذابها، وشقاء أهلها.

٣- التأمل في مصير الكفار استحضارٌ لعظمة الله تعالى، وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى، وفيه تسليةٌ لأهل الإيمان.

٤- يُجْمَعُ للكفارِ بين العذاب الحسيِّ والمعنويِّ، زيادةً في إيلامهم، وتنكيلاً بهم.

٥- التعبير بالاسم الظاهر ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لبيان علة خِذْلانهم وهي البقاء على الظلم.

٦- مجيء الفعل المضارع ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ على وزن يفتعلون؛ لأنَّ زيادة المبنى تدل على قوة المعنى، فصُراخهم شديد، وأفاد الفعل المضارع التجددَ والاستمرار، فصراخهم دائم لا ينقطع.

٧- تكرار ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ لتأكيد النفي، ونَفْيِ كلِّ حالة على حِدَة لاستقلال كل واحدٍ، وفيه تعديد للنِّعم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٣٨- إنَّ الله تعالى عالمٌ بكل ما غاب واستتر في السموات والأرض، وهو العليم بما يدور في الصدور، وما تكنُّه القلوب.

٣٩- هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، هيَّأ لكم العيش فيها، وسَخَّر لكم ما يُعينكم، وذَلَّل لكم الصعاب، فمَنْ جحد هذه النِّعَمَ فعليه وحده إثم جحوده وعاقبته، ولا يزيده ذلك إلا مَقْتاً وبُعْداً وبُغْضاً من الله تعالى، ولا يزيده إلا الخسارة في الدارين.

٤٠- يأمر الله نبيه ﷺ أن يسأل المشركين سؤال إنكار وتوبيخ وتقرير: هل أبصرتم شركاءكم الذين تدعونهم من دون الله، أطْلِعُوني: أيَّ شيء خَلَقوا من خيرات الأرض، أم لهم نصيب وقَسْم في السموات؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بصيرة ويقين منه؟ فإذا تبيَّن أنهم لم يخلقوا، ولم يملكوا ولا حجة لهم؛ فقد تقرر أن ما بين الظالمين من وعودٍ أمانيَّ كاذبةً، وأوهاماً باطلة.

٤١- إنَّ الله تعالى بما له من العظمة والقدرة يمسك السموات والأرض، ولولا ذلك لزالتا، ولو زالتا ما استطاع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل؟ فيا لَـحِلْمِه تعالى بعباده وإمهاله لهم. ولو شاء لَعَجَّل بهلاك كل مُذْنِبٍ ومُقَصِّر، ولكنه تعالى حليم بهم، يستر ذنوبهم، ويتوب عليهم.

٤٢- وأقسموا بالله أغلظ الأيمان مؤكدين إن جاءهم نذير اهتدَوا بهديه، وكانوا أسبق للهداية، وأحرص عليها، وأمضى على خُطاها من اليهود والنصارى. فلما جاءهم النَّذير ما ازدادوا إلا بُعداً وإعراضاً، وكان أَولى بهم أن يشكروا الله على هذه المِنَّة، لكنهم بالغوا في النفور من هذه الدعوة، واستكبروا عنها، ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه ﷺ.

٤٣- فعلوا ذلك استكباراً ومكراً، فماذا ينتظرون بعد ذلك؟ إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنةَ الله فيمَنْ سبقهم على طريق الجحود والإعراض، أن يعاقبهم بعذاب عاجلٍ مع ما ينتظرهم من العذاب الآجل. وتلك سُنَّةٌ ثابتة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، ولا تنحرف عن مسارها، ولا تصيب إلا مَنْ يستحقُّها.

٤٤- أَقَعَدُوا ولم يسيروا في الأرض، فيُمْعِنُوا النظر في عاقبة الأُمم من قبلهم وآثارهم الغابرة وحضاراتهم الآفلةِ؟ كيف ازدهرت وارتقت، ثمَّ تلاشَتْ واضمحَلَّتْ، فما أغْنَتْ عنهم قوتهم وما كان الله ليمتنعَ عليه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا تغيب عن علمه غائبة، القديرُ على إلحاق العذاب بمَنْ خالفه وعصاه.

٤٥- ومِنْ لُطفِه تعالى وحِلْمه ورحمته بعباده: أنه لا يُعَجِّلُ لهم العقوبة، بل يُمْهِلُهم ويؤخِّرهم؛ لعلَّهم يتوبون ويرجعون، ولو عَجَّل المؤاخذة، وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة، وبادر العصاة بالنقمة والتنكيل، لما بقي على وجه الأرض من مخلوق، ولكن يُمْهِلُ ويُؤَخِّر إلى أجلٍ قدَّره، فإمَّا أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة، وإمَّا أن يَدَّخِرَ لهم العذاب؛ ليكون أشدَّ وأعظمَ نكايةً.

الفوائد والاستنباطات:

١- من نِعَمِه تعالى على البشرية وتكريمه لهم: أن استخلفهم في الأرض، فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة، ومقتضيات هذه المسؤولية العظيمة.

٢- في تكرار ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ لزيادة التقرير، ولبيان استقلال كل زيادة منفيةٍ على حدة.

٣- في الآية (٤١) إخبار مستقبليٌّ عن محافظة الله تعالى على السموات والأرض من الزَّوال والخَلَلِ.

٤- من شواهد العظمة ودلائل القدرةِ ولطائف النعمة: أنَّه تعالى المدبِّر لهذا الكون المصرِّف لأموره وَفْقَ تقديرٍ عجيب، وترتيب محكم.

٥- من أسباب الصدود والإعراض ومظاهره: التخاذل عن نصرة الحق، والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.

٦- في الآية (٤٣) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة المستكبرين الماكرين، وهو العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ طريقة الله لا تتبدَّل ولا تتحَوَّل، وستبقى كما هي، فلا يستطيع أحد أن يُبَدِّل، أو أن يحوِّل العذاب عن نفسه أو غيره.

٧- الدعوة إلى السير والنظرِ في أحوال السابقين وآثارهم، سيرَ تأملٍ ونَظْرَة اعتبارٍ.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تعظيم القرآن الكريم، وبيان مقاصده والدفاع عنه.

٢ - بيان الأدلة على البعث والنشور، والردُّ على منكريه.

٣ - تقرير نبوة محمد ﷺ وتأكيد رسالته، وأنَّه ﷺ بُعِثَ على فترة من الرسل.

٤ - تقرير عقيدة القضاء والقدر، وأن كل شيء مُحْصَى ومُقَدَّر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

١-٢- تلك الأحرف التي بدأت بها عددٌ من السُّوَر تحمل تنويهاً وإشارةً إلى عظمة القرآن وإعجازه، الذي نزل بالعربية على أحرفها المعلومة، إلا أنَّ العَجْزَ عن الإتيان بمثله لا يزال قائماً، شاهداً على أنَّ القرآن كلام الخالق جلَّ وعلا ورسالته السَّامية إلى الإنسانيَّة. يقسم ربُّنا بكلامه الذي جعله أجلَّ وأعظم ما تنطق به الأفواه، ويتردَّدُ على المسامع بخشوعٍ وتَدَبُّر، فهو جامع الحكمة ومورد العلوم والمعارف، وهو الحكيم المنيع، فلا تمتدُّ إليه أيادي العابثين والمُحَرِّفين.

٣-٥- أقسم بقرآنه الحكيم على صدق رسالة نبيِّه ﷺ، واندراجه في ذلك الشَّرف المعلَّى، وانتظامه في سلك المُرسلين، ومضيِّه على طريق معتدلٍ بيِّن، سهلٌ آمن. هذه الرِّسالة وهذا الصِّراط إنَّما هو وحي الله

المنزَّل الذي أنزله بعزته ورحمته، فالله تعالى لا يُعْجِزُه شيء، أنزل كتاباً فيه العزَّة والمنعة، وفيه اليسر والرَّحمة.

٦- مقصود هذا الكتاب تخويف مشركي العرب الذين طال عليهم الأمد، وتوارثوا الكفر والضَّلال جيلاً بعد جيل، حتى أنزل الله آخِرَ كتبه، وبَعَثَ آخر رسله، فكان حَرِيَّاً بهم وقد أظَلَّهم هذا العهدُ، وجاءهم هذا النبي، أن يَتَّبعوه وينقادوا له؛ لينتبهوا من غفلتهم.

٧- لقد حَقَّ العذاب على أكثرهم في الدارين، وسبق عِلْمُنا وأقدارنا فيهم، فهم لا يؤمنون.

٨- ومن هذا العذاب: تلك القيودُ التي تُطَوِّق أعناقهم وتَشُدُّها إلى الأذقان، فإذا هم رافعون رؤوسَهم كالإبل حين ترفع رؤوسها عن الماء، وقد أغمضت أجفانها في حركةٍ عجيبة تأبى الشَّراب، وهؤلاء قد أعرضوا عن الحق، وصَدُّوا عنه، كما تُعْرِضُ الإبلُ المِراضُ عن الماء الذي هو قِوام حياتها، فصاروا عبيداً لتلك القيود والأغلال التي تَعُوقُهم، وتحجبهم عن الحقِّ قيودُ العادات والتَّقاليد، وأغلالُ الأهواء والشُّبهات، فأورَثَتْهم هذا العِناد.

٩- وجعلنا من بين أيديهم سَدَّاً ومن خلفهم سَدَّاً، تحيط بهم من كل جانب، فتحجب عنهم أنوار الهدى، فهم لا يُقبلون على الحقِّ، ولا يتراجعون عن الضلال، بل محصورون بين السَّدَّين، مع الغشاوة التي غَطَّتْ أعينهم، وأَعْمَتْ أبصارهم، فهم في ظُلمة الكُفر والهوى أسارى، وعن الإيمان والهدى محجوبون.

١٠-١١- وسِيَّان عندهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم، فهُم مُصِرُّون على كُفرهم مهما بَلَغَتْهم النُّذُرُ. إنَّما ينتفع بالنُّذُر، ويَقْبَلُ بها مَنْ اتَّبع القرآن، وسار على نهجه، وخاف ربَّه في خلوته وإن لم يره أحد، فبَشِّره بمغفرةٍ عظيمةٍ وأجرٍ كبيرٍ في الجنة على استجابته، واتِّباعه وخشيته.

١٢- إنَّا بعظمتنا وقُوَّتنا نُحيي الموتى، ونَبْعَثُهم من قبورهم، ونُسَجِّلُ عليهم ما قَدَّموا من خيرٍ أو شرٍّ، وخطواتهم وما خَلَّفوه من أعمال ظلَّت باقيةً بعدهم، وكلُّ شيءٍ جمعناه وأحصيناه في كتابٍ واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١- حكمة القرآن الكريم في مقاصده ومعانيه وأساليبه ونسقه.

٢- الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؛ إذ القرآن دليل صدق النبي ﷺ في رسالته، ومعجزته الباقية.

٣- مَنْ حُرِمَ الهداية فهو على خطر عظيم، فليتدارَكْ نفسه، فالعاقل يتلمَّس أسباب الهداية ليصل إليها، ويتجنب أسباب الغَواية حتى لا يقع في شِراكها.

٤- الخشية من أسباب الانتفاع بالقرآن، ومن أسباب فَهْمِه، ونيل خيراته.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٣-١٤- واذكر لقريشٍ مثلاً قِصَّةَ أصحاب القرية، وما كانوا عليه من تكذيبٍ وعناد، حين أرسل الله إليهم المُرسلين، فكيف كان عاقبة كُفْرِهم وعنادهم؟ وذَكِّرْهم حين أرسلنا إليهم رسولَين، فبادروا إلى تكذيبهما، فأيّدناهما وقوّيناهما برسول ثالثٍ، فدعَوا قومهم، وأكّدوا لهم أنّهم مُرْسَلُون إليهم من ربِّهم.

١٥- فرَدَّ الكُفَّار مُنْكِرين أن يرسل الله لهم بشراً، وهكذا يُحَقِّرون من شأن البشريَّة، ويُنْكِرون كلَّ العلوم والمعارف التي جاء بها البشر. ثمَّ أكَّدوا إنكار رسالات الله كلِّها، واتّهموا الرسل بالكذب.

١٦-١٧- قال الرسل مؤكِّدين قولَهم، ومُستشهدين بربِّهم: ربُّنا يعلم إنَّا إليكم لَمُرْسَلُون، فهو الذي أَرْسَلَنا وأيّدَنا، وهو الشاهد علينا وهو حُجَّتنا وبرهاننا، فكيف تَدَّعون أنَّه لم يُرسل أحداً، وما مُهِمَّتُنا إلَّا التَّبليغ بوضوحٍ وبيانٍ، وهل بَشَرِيَّتُنا تقصر بنا عن ذلك؟

١٨- فرَدَّ الكفار بسوء أدب قائلين: إنَّا تشاءمنا منكم، وضِقْنا ذَرْعاً بكلامكم، لئن لم تَكُفُّوا عن دعوتكم لَنَرْجُمَنَّكم بالحجارة حتى نُسْكِتَكم، ولَنُذيقنَّكم عذاباً موجعاً.

١٩- فأجابهم الرسُلُ محذِّرين لهم: تشاؤمُكم معكم لا يُفارِقُكم، إنَّها أعمالكم التي ستودي بكم للهلاك، أهكذا جزاء النُّصح والتَّذْكير! بل أنتم قومٌ غارقون في التَّمتُّع، تحاربون كلَّ مَنْ يقف في وجه رغباتكم الجامحة.

٢٠- ٢١- وبينما السِّجال دائرٌ بين المُرسَلين وأصحاب القرية، إذ جاء رجلٌ من أطراف المدينة يسعى بهمَّةٍ وجِدٍّ، فما إن وصل لساحة الحوار حتى نادى على قومه نداءَ المُحِبِّ المُشْفِق: يا قوم اتَّبِعُوا المرسَلين،

فإنَّهم على الحق و الهدى، اتَّبِعُوا مَنْ لا يسألكم عوَضاً، فتجَرُّدُهم دليلٌ على صِدق دعوتهم، إذ ليست لديهم مطامع، وسيرتهم وسلوكهم يشهد بذلك.

٢٢-٢٤- وكيف لا أعبدُ الذي فطرني، وأوجدني من العدم، وإليه مرجعكم ومآبكم؟ ثم تساءل بأسلوب يُفيد التعجب والإنكار: أَأُشرك بالله تعالى، وأدَّعي له النِّدَّ، وما تملك هذه الأنداد؟ إن يُرِدْنِ الرحمن بضُرٍّ، لا تُغني عني من الله شيئاً، ولا تشفع لي عبادتي له، ولا تُنقذني، فكيف أُشْرِكُها مع الله. إني حقاً منغمس في الضلال البيِّن، إن اتَّخذْتُ هذه الأصنام آلهةَ، وَرَجَوْت شفاعتها ونفعها، إنِّي أُعلن أمامكم وأؤكِّد إيماني بربِّكم الذي خَلَقَكم ورَزَقكم، وصَرَّف أموركم، فاستجيبوا لي، وأَصْغُوا لكلماتي.

٢٥-٢٧- وهنا ينتقل المشهد إلى الدار الآخرة، فقد انتقل الرجل إليها، والظاهر أنَّهم قتلوه حَنَقاً وغيظاً من كلماته الصادقة فنال الشهادة، وانتقل إلى جوار الرحمن ليقال له: ادخل الجنَّة، حيث تنتهي به تلك الرِّحلة ويُفضي به هذا الطريق الذي سلكه إلى جَنَّات النعيم، ولا يزال الرَّجُل يحمل مشاعر طيِّبة نحو قومه، ويرجو هِدايَتهم مع ما جَنَتْه أيديهم الآثمة، فيقول متمنياً هدايتهم: يا ليت قومي على دراية بمغفرة ربي وسِتْرِه لي، ويطلب أن يُلْحِقَه بعباده المكرمين، في جنات النعيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- دعوة الرسل جميعاً واحدة، يعضد بعضهم بعضاً.

٢- أهمية العمل الجماعي في الدعوة، وأثره في النهوض بها.

٣- المبادرة إلى النصيحة دون تَوانٍ أو تقاعُسٍ، أو خوف.

٤- إثبات نعيم القبر، والحياة البرزخية.

٥- دخول الجنة تكريم من الله تعالى لعباده الصالحين.

٦- تنكير ﴿رَجُلٌ﴾ للتفخيم والتعظيم، فهو مثال للرجولة في أروع صورها، كما أفاد أيضاً أنه لا معرفة للرسل به، بل بلغته الدعوة وهو في أطراف المدينة، فأقبل على غير موعد أو اتفاقٍ.

٧- الالتفات في الخطاب من براعة الرجل، وحُسْنِ بيانه وتَرَفُّقِه، وتَلَطُّفِه بقومه.

٨- الإيجابية في الدعوة والنصح، وشَدُّ الرحال والسعي، والجِدُّ والتحرُّك؛ لتبليغ دعوة الله

٩- لم تُذْكَرْ اسم هذه القرية سَتْراً على أهلها، كما لم تذكر اسم القرية التي مر بها موسى والخضر، وهذا درس في الستر.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٨- وما أنزَلْنا على قومِ الرجلِ الصالحِ الذي استُشْهِدَ، مِنْ جند من السماء لعذابهم، فهم أضعف شأناً، وأقلُّ قَدْراً من إنزال ملائكة عليهم لإهلاكهم.

٢٩- ما كان هلاكُهم إلا بصيحة واحدة، صاح بها مَلَكٌ واحدٌ، فإذا هم جميعاً هلكى هامدون.

٣٠- يا ندامةَ العباد يوم المعاد، إذا عاينوا العذاب على استهزائهم برسل الله إليهم، وسُخْريتهم منهم، وكفرهم بهم.

٣١- ألم يعلم هؤلاء المستهزئون المكَذِّبون بهلاك الأُمم المكذبة قبلهم، أنَّهم لم يرجعوا إلى هذه الدنيا بعد هلاكهم؟ فيتعظوا ويعتبروا، فيؤمنوا؛ ليَسْلَمُوا من هلاك الدنيا، وعذاب الآخرة.

٣٢- كل الأُمم سيحضرون بين يَدَي الله للحساب: فإما ثوابٌ، أو عقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عظمة قدرة الله تعالى في شديد عقابه.

٢ - ثبوت ندم العباد المكذبين على ما صدر منهم في الدنيا من استهزاءٍ وتكذيب بالله ورسله.

٣- حرمة الاستهزاء بثوابت الدين، وحرمات رب العالمين.

٤ - على الأُمم والأفراد الإفادة ممَّا يرون ويعلمون من أحداث ووقائع، وما يَمُرُّون به من تجارب.

٥ - من حقائق الإيمان: الإيمان بيوم المعاد، وأن هناك جَمْعاً للعباد، وحساباً وثواباً وعقاباً.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٣- هذه الأرض الميتة الجرداء التي لا نبات فيها ولا مرعى، يُحيِيها الله تعالى بأنواع النبات والحبوب بعد إنزال الماء عليها، فهي مثال دالٌّ على قدرة الله على البعث بعد الموت، لِـمَنْ نظر واعتبر، فمَنْ أحيا الأرض بالنبات، أحيا الخَلْقَ بعد المات.

٣٤-٣٥- وجعل الله في الأرض البساتين من أنواع النخيل، وأصناف الأعناب وغيرها، وفَجَّر فيها عيون الماء لسَقْيها، وليأكلوا من لذيذ ثَمَرِها. كل ذلك من رحمة الله بهم، ونِعَمِه عليهم. وليس بعمل أيديهم خروج الثمار وتنوُّعها، واكتمال فوائدها، فليشكروا الله عليها بحمده والإيمان به.

٣٦- تَنَزَّه الله العظيم الذي تَفَرَّد بخَلْق الأصناف كلها، ممَّا يخرج من الأرض من أنواع النبات، ومن الناس من ذكور وإناث، وممَّا لا يعلمون من أنواع المخلوقات الأخرى، القريبة والبعيدة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير عقيدة البعث بعد الموت.

٢- الاستدلال بالمثال على حصول الإحياء بعد الموت وإمكانه، وتقديم المثال عليه بما تراه العين، ويشعر به الحس، فمَنْ أحيا الأرض بالنبات أحيا الإنسان بعد الممات.

٣- للإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال، عظيمُ الأثر في ضبط سلوك الإنسان في الحياة، ودَفْعِه لفعل الخيرات، وترك الشرور والمنكرات.

٤- تَنَوُّعُ نِعَمِ الله على الإنسان من الإيجاد، والإمداد بالخيرات.

٥- تفرُّد الله - جل وعلا - بالخَلْق قدرةً وحكمة.

٦- التنبيه على نظام الزوجية في المخلوقات: في الناس، والنبات، وسائر الموجودات، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٧- على الإنسان دوام التفكر في مَلَكوت الله تعالى وخَلْقِه.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٧- للناس علامة دالة على كمال القدرة لله ﷻ، وهي هذا الليل حين يُنزع منه النهار، فإذا الناس في ظلام دامس للنوم والراحة.

٣٨- وعلامة أخرى للناس دالَّة على عظمة الخلق، وقدرة الخالق وعلمه، هي هذه الشمس إذ تجري في مجرى قدَّره الله لها، لا تخرج عنه ولا تتعدَّاه، ولا تقصر دونه. هذه الحركة الدائبة والمنظِّمة للشمس هي من تقدير الله العزيز الذي لا يغالَبُ في مُلْكِه، والعليم الذي لا يغيب عنه شيء.

٣٩- والقمر آية أخرى عظمى في خَلْقِه، وتقدير منازله كل ليلة، إذ يبدأ ضئيلاً، ثمَّ يكبر ويكمل ويصير قمراً مستديراً، ثمَّ يصغر ويرجع ضئيلاً أصغر متقوِّساً مثل عَذْقِ النخلة القديم.

٤٠- لايمكن الشمسَ أن تَلْحَقَ القمر لتُغيِّرَ مَسارَه، أو تمحو نوره، ولا يمكن الليلَ أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، واكتمال زمنه. فلكلٍّ من الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام العظيمة فَلَكٌ قَدَّره الله له لا يتعَدَّاه، ولا يخرج عنه، ولا يقصر فيه، فيحقق به نظام الكون، وتنتظم به الحياة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تنبيه الناس على ما في الكون من آيات باهرة، ودلائل ظاهرة على وجود الخالق وقدرته، وعظيم حكمته ورحمته بالناس.

٢- بلاغة القرآن الكريم في سهولة عَرْضِ أدلته القاطعة، وحججه البالغة على القدرة على الخلق والبعث، بما يراه ويُحِسُّه الإنسان حوله مِنْ تَعاقُبِ الليل والنهار، وحركة الشمس في مدارها، والقمر في منازله.

٣- لَفْتُ نَظَرِ البشر لما في الكون من نظام دقيق يسير عليه، ويَدُلُّ على الخالق وقدرته ورحمته بخلقه، فقد خلق هذا الكون ونظَّمه، وسَخَّره لما فيه استقامة الحياة، وصلاح الأحياء.

٤- التفكر المجرد في آيات الله في كونه وخَلْقِه يقود كُلَّ مُنْصِفٍ إلى الحق، وتُعَرِّفُه بالخالق، وما يجب من إيمان به، وطاعة له، وشكر لنِعَمِه.

٥- ما في الآيات من دلالات وإشارات في الأرض والسموات يَدُلُّ على أنَّ القرآن وَحْيٌ من الله، وأنَّ

مَنْ بَلَّغه هو رسول الله ﷺ.

٦- يقول العلماء: إن الشمس تسير باتجاه محدد لتستقر فيه، ثم تكرر دورتها من جديد، وقد وجدوا أن أفضل تسمية لاتجاه الشمس في حركتها هو «مستقر الشمس»، وهو الاتجاه الذي تجري الشمس والمجموعة الشمسية نحوه. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-06-04/447-2012-05-30-00-19-27).

٧- بينت الأبحاث العلمية في العصر الحديث أن كسوف القمر، أي: اختفاء القمر مدة من الزمن ناتج عن وقوع الأرض بين الشمس والقمر فتحجب الأشعة المنعكسة عن القمر فنظن أن القمر اختفى ولا يُرى منه إلا آثاراً بسيطة. ويحدث الكسوف للقمر دائماً عندما يكون القمر بدراً ، ويحدث مرة على الأقل في كل عام، وعند حدوث الكسوف الكلي للقمر يمكن رؤيته بسهولة من أي مكان على الأرض بشرط أن يكون في الجهة المقابلة للقمر. (http://kaheel7.com/pdetails.php?id=253&ft-37). وينظر: صورة توضح كسوف القمر، كما في الملحق.

٨- قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ في قوله (كل) يفيد العموم فهو تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف إذ التقدير (وكل الكواكب)، ويشهد له ضمير الجمع في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مع أنَّ ما سبقه شيئان: الشمس والقمر، لا أشياء، ولهذا يقرر علماء الفلك أن المجموعة الشمسية وغيرها من المجموعات التي تسير في مواقعها وتسبح في أفلاكها لو حادت قيد شعرة عن مسارها المخصص لاختلف نظام الكون كله باختلال نظام الجاذبية بين الكواكب. (مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، ص ١٨٧).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير:

٤١- ودليل آخر للناس على القدرة: أَنَّا حَمَلْنا المؤمنين من ذرية قوم نوح في سفينة نوح المملوءة بأجناس المخلوقات، فأنجَيْناهم من الطُّوفان الذي عَمَّ الأرض، وأهلك الكافرين. وتلك نعمة ورحمة وعِبرة.

٤٢- وخَلَقْنا لهؤلاء المشركين مثل سفينة نوح التي صُنِعَتْ على غير مثال سابق، وأنواع المراكب التي تحمل أثقالهم، وتُبَلِّغهم أوطانهم.

٤٣- وإن أردنا إغراقهم فَعَلْنا، ولن يجدوا مَنْ يُغيثهم، ويُنجيهم من الغرق.

٤٤- إلا أن نرحمهم فننجِّيهم من الغرق، ونمتعهم إلى أجل معلوم، لعلهم يرجعون ويؤمنون.

٤٥- وإذا قيل للمشركين المعرضين: احذروا عقاب الدنيا، وعذاب الآخرة لا يحلُّ بكم بسبب كفركم، فآمنوا بربكم، لعلكم تُرحمون وتَسْلَمُون من العذاب، أعرضوا ولم يَسْلَمُوا.

٤٦- وما تجيء هؤلاء المكذبين من علامة ظاهرة تُبَيِّنُ لهم الحق، وتَدُلُّهم على الرشد إلا كفروا بها، وأعرضوا عنها، ولم ينتفعوا منها.

الفوائد والاستنباطات:

١- نعمة الله على الإنسانية بإنجاء ذرية قوم نوح المؤمنين؛ لتستمرَّ الحياة، ويَعْمُرَ بهم الكون، ولو غرقوا جميعاً لانقطعت الحياة.

٢- رحمة الله بالناس، ونعمته عليهم في هدايتهم لصناعة المراكب، وتسييرها وتسخيرها لهم.

٣- كثرةُ نِعَمِ الله على الناس، وقلة ذكرهم وشكرهم.

٤- العناد والإصرار على الأخطاء يمنع الاستفادة من الآيات البينات.

٥- في إضافة الآيات إلى الرب - جلَّ وعلا - تعظيم لشأنها، وتهويل لموقفهم منها، وكفرهم بها، وفي إضافتهم إلى الرب ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لُطفٌ بهم، ورحمة لهم، وتذكير بمصدر تلك الآيات وعظمتها. فكانت سفينة نوح في صُنْعِها وسيرها فتحاً في صناعة المراكب والسفن.

٦- آيات الله باهرة ومعجزات شاهدة على العظمة والقدرة، تُقْنِعُ العقل، وتأخذ بمجامع النفس.

٧- في الآية (٤٦) إخبار مستقبليٌّ عن تكذيب الكفَّار للبراهين والأدلَّة الربَّانيَّة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٧- وإذا نُصِحَ الكفار أن ينفقوا على الفقراء والمساكين من رزق الله الذي تَفَضَّل به عليكم، أنكروا على المؤمنين الناصحين، محتجِّين بالشُّبَه قائلين: أَنُطْعِمُ مَنْ لو يشاء الله أطعمه؟ ونرزق مَنْ لو أراد الله رَزَقه؟! هذا ضلال منهم، وبُعْدٌ عن الحق، وخطأ في التفكير والتعبير.

٤٨- ويسأل الكفار مُكَذِّبين ومستهزئين: متى يكون هذا البعث الذي تؤمنون به، إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

٤٩- ليس بينهم وبين ما يُوعَدون إلا أن ينتظروا صيحة الفَناء والفزع عند قيام الساعة، تأخذهم فجأة وهم يختصمون، ويتنازعون في شؤون دنياهم، فإذا هم خامدون ميتون.

٥٠- فإذا حصلت هذه الصيحة فجأة، فإنَّ هؤلاء المكذِّبين لن يستطيعوا فِعْلَ شيء، أو توصية أحد بشيء، ولن يستطيعوا الرجوع إلى أهلهم، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم، وهم على أحوالهم فيها. إنه مشهدُ حالةِ الناس عند نفخة الفَناء وصيحة الفزع بحصولها فجأة في أسواقهم وأعمالهم؛ يُفَصِّل ذلك حديث: «لَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْوِيانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلَبَنِ لِقْحَته، فلا يَطْعَمُه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وهو يَليط حوضَه فلا يسقي منه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد رفع أَكْلَتَه إلى فِيه فلا يطعمها». (صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨٦، برقم ٤٣٥٩، ومسلم كتاب الفتن، باب قرب الساعة برقم ٢٩٥٤. اللِّقْحَة: الناقة القريبة العهد بالنِّتاج. يليط: يُصْلِحُ).

الفوائد والاستنباطات:

١- من منهج القرآن الكريم عَرْضُ أقوال المشركين، وشُبَهِ المعاندين بوضوح تام، مهما عَظُمَ فُحْشُها، وبَدَتْ لأهلها قوتها، ثمَّ يردُّها بأبلغ ما يكون.

٢- من طبائع بعض النفوس إيراد الشُّبَه، والحِجاج بها؛ قناعةً أو خبثاً وجهلاً. فأمَّا مُريد الحق فسريعاً ما يرجع، وأمَّا صاحب الهوى فيبقى في ضلاله وغَيِّه. وبهذا التوازن المنضبط تجري عمارة الكون، واستمرار الحياة.

٣- الساعة لا تأتي إلا بغتة، فعلى المؤمنين بها الاستعداد لها.

٤- إثبات عقيدة البعث والجزاء.

٥- لقِيامِ الساعة بدايات وعلامات ونهايات.

٦- استعجال المكذِّبين بالبعث استبعاداً له، واستهزاء به.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٥١- ونفخ المَلَكُ في القَرْن نَفْخَةَ البعث، فإذا الموتى يخرجون من قبورهم بعد إحيائهم، ورَدِّ أرواحهم مسرعين إلى ربهم؛ ليحكمَ بينهم، ويُجازِيَهم على أعمالهم.

٥٢- قال المكذبون بعد بَعْثِهم نادمين: يا ويلَنا وهلاكنا، مَنْ بَعَثَنا بعد موتنا، وأخرجَنا من قبورنا؟ فيُجابون: هذا ما وَعَدَ به الرحمن، وأخبر به المرسلون، وقع وتحقق، ولكنكم كنتم به تكذبون.

٥٣- هذا الحدث العظيم، والبعث الكبير، ليس إلا نتيجة نفخة واحدة من المَلَك، فإذا جميع الخلق حاضرون بين يدي الحق سبحانه للفَصْلِ بين الخلق، فما أعظم قدرةَ الله!!

٥٤- في ذلك اليوم العظيم يتمُّ الحساب والجزاء بالعدل، فلا تُظْلَمُ نفس شيئاً بنَقْص حسناتها، أو زيادة سيئاتها، بل تأخذ جزاء ما كانت تعمل في الدنيا، إن خيراً فخير أو شراً فشر.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.

٢- تصوير بعض مشاهد يوم القيامة وأهوالها.

٣- سهولة بَعْث الخلق من قبورهم على الله.

٤- سهولة جَمْعِ الخلق وحسابهم على الله رغم كثرتهم، وتَفَرُّقهم، واختلاف لغاتهم. فما هم إلا كنفس واحدة.

٥- تأكيد العدل الإلهي يوم الحساب، فكلٌّ يُجزى بعمله، ولا تُظلم نفسٌ شيئاً، فالخوف من ظلم الإنسان لنفسه، لا من ظلم الله له.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التفسير:

٥٥- أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم التي يتلذَّذون، ويتنعمون بها.

٥٦- أصحاب الجنة وزوجاتهم مُتَنَعِّمون بالجلوس، والاسترخاء على الأَسِرَّة المزيَّنة، وتحت الظِّلال الوارفة، حيث لا حَرٌّ ولا برد.

٥٧- ولأصحاب الجنة أنواع الفواكه اللذيذة، ولهم كل ما يطلبون ويرغبون من أصناف النعيم.

٥٨- ولهم نعيم آخر أعظم وأكبر حين يُكَلِّمهم ربهم الرحيم بهم، ويَرَونه فيُسَلِّم عليهم، فتحصل لهم السلامة التامة، والنِّعمة الكاملة، والرحمة السابقة من الله.

٥٩- وبعد الخطاب للمؤمنين بالثواب، جاء الخطاب للكفار بالعقاب، فيقال للكفار في ذلك اليوم: تميَّزوا عن المؤمنين، وانفصِلُوا عنهم.

٦٠-٦١- ويُنْكِرُ الله تعالى على المكذِّبين: ألم أَطْلُبْ منكم على ألسنة رسلي وفي كتبي ألَّا تعبدوا الشيطان، ولا تُطيعوه؛ فإنه عدوٌّ لكم عداوة شديدة ظاهرة، وأنِ اعبدوني وحدي، فطاعتي وعبادتي هي الطريق الموصل لمرضاتي وجناتي.

٦٢- وقسماً لقد أضلَّ الشيطان منكم خَلْقاً كثيراً عن الحق. أفما كان لكم عقلٌ ينهاكم عن اتِّباعه على ضلاله وإغوائه؟

الفوائد والاستنباطات:

١- تصوير لبعض نعيم الجنة بالتفصيل المشوِّق.

٢- هذا التفصيل لنعيم الجنة دليل على النعيم المادي الجسدي، المتوَّج بنعيم الروح، وسلام الله وكلامه لعباده، ونظرهم إلى وجهه الكريم.

٣- وَصْفُ القرآن الكريم لنعيم الجنة هو تقريب لحقيقته، إذ لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفي هذا النعيم ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

٤- تمايز المؤمنين عن الكافرين يوم القيامة.

٥- طاعة الرحمن، ومعصية الشيطان، هي طريق النجاة يوم القيامة.

٦- بيان طريق الحق، وطريق الضلال، فمَنْ أحسن فلنفسه، ومَنْ أساء فعليها، ولا يظلم ربك أحداً.

٧- إثبات إضلال الشيطان لكثير من بني الإنسان، رغم ادِّعائهم العقلَ والتفكير فيما يقذفه في عقولهم من شبهات، وما يُزَيِّنُه في نفوسهم من شهوات.

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٣-٦٤- هذه نار جهنم التي كنتم تُوعَدُون بها في الدنيا على كُفْرِكم بالله، وتكذيبكم رسل الله. ادخلوها اليوم، وذُوقوا حَرَّها وألَـمَها جزاءً لكم على كفركم.

٦٥- في هذا اليوم العظيم يوم القيامة نطبع على أفواه المشركين، فلا ينطقون، ولكن تتكلم أيديهم بما بطشت، وتشهد أرجلهم بما سَعَتْ إليه في الدنيا، وكسبت من الآثام والإجرام.

٦٦- ولو أردنا لطَمَسْنا على أعينهم، فلا يُبْصِرُون الصراط الذي يرغبون في سلوكه واجتيازه، ولكننا لم نشأ ذلك.

٦٧- ولو نشاء لَغَيَّرْنا خَلْقَهم، وأَقْعَدْناهم في أماكنهم، فلا يستطيعون أن يَمْضُوا أمامهم، ولا يرجعوا خلفهم، ولَبَقُوا في أماكنهم لا حَراك بهم، ولكننا لم نفعل.

٦٨- ومن نُطِلْ عُمُرَه حتى يَهْرَمَ نُعِدْه إلى حالة الضعف الأول التي بدأ بها حياته طفلاً ضعيف الجسم والعقل. أفلا يَعْقِلُ الإنسان أنَّ مَنْ فَعَلَ هذا بهم قادر على بعثهم؟

٦٩-٧٠- وما عَلَّمْنا رسولَنا - محمداً ﷺ - الشعر، وما ينبغي له، ويَحْسُن به، أن يكون شاعراً. وما هذا الذي جاء به إلا ذِكْرٌ يتذكر به العاقل، وقرآن كريم يبيِّن الدلائل على الحق، يُنْذَر به من كان حَيَّ القلب، مستنير البصيرة، ويتحقق به وقوع العذاب على المكذبين بالله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَحَقُّق وعيد الله للكافرين يوم القيامة.

٢ - تقرير كمال العدل يوم القيامة، إذ تشهد على الإنسان جوارحُه.

٣ - نُطْقُ الأيدي يوم القيامة بالكلام إقرار لأنها الباطشة، ونطق الأرجل شهادة؛ لأنها المتلبِّسة بالفعل السابق في الدنيا .

٤ - عَجْزُ الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من فاسد أعماله.

٥ - تنبيه الإنسان على قدرة الله على طمس بصره، وإعاقة حركته، ومَسْخِ خلقه.

٦ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وأطوار حياته، إذ يبدأ طفلاً بادي الضعف، فقوياً شديد البأس، فهَرِماً شديد الضعف لا يُحتمل إلا من رحمة وعطف. فما أعظم آيات الله في النفس لِمَنْ يتفكر ويتدبر!!.

٧ - تقرير نبوة الرسول ﷺ وأنَّ النبيَّ ﷺ نبيٌّ مرسل، لا شاعر مُفاخر.

٨ - تقرير أنَّ القرآن الكريم وَحْيٌ وذِكْرٌ، لا شِعْرٌ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

التفسير:

٧١ - أولم يَرَ الناس أنَّا خَلَقْنا لأجلهم أنعاماً مختلفة من الإبل والبقر والغنم وغيرها، ومَلَّكْناها لهم، يتصرَّفون بها كما يريدون.

٧٢ - وسَخَّرناها، فجَعَلْناها منقادةً لهم، فمنها ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه المتاع والأثقال، ومنها ما يأكلون لحمه، ويَتَنَعَّمون به.

٧٣ - وجعلنا لهم فيها منافع كثيرة أخرى، إذ ينتفعون بأصوافها، وأوبارها، وأشعارها أثاثاً، ورياشاً، ولباساً، وكساء، وغير ذلك، كما يشربون ألبانها تَرْوي عَطَشَهم، وتُقَوِّي ضَعْفَهم. أفلا يشكرون الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم من غير حَوْلٍ منهم ولا قوة، فيؤمنون به، ويُوَحِّدونه، ويَصْرِفُون نِعَمَه فيما يرضيه؟

٧٤- واتخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها طَمَعاً في نُصْرَتها لهم، ونَفْعِها إياهم.

٧٥- لا تستطيع تلك الآلهة المعبودة نَصْرَ مَنْ يعبدها ونَفْعَه، ولا نَصْرَ نفسها. فكل من الآلهة المعبودة، والمشركين العابدين لها لا يستطيع أحدٌ نَفْعَ الآخر، ودَفْعَ العذاب عنه في الدنيا والآخرة.

٧٦- فلا يَحْزُنْكَ - أيها الرسول - كُفْرُهم بالله، وتكذيبهم لك، واستهزاؤهم بك، فنحن نعلم ما يُخْفون من أقوال وأفعال، وما يُظْهِرون، وسوف نجازيهم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لَفْتُ نَظَرِ الإنسان إلى ما أنعم الله به عليه من الأنعام.

٢ - تسخير كثير من المخلوقات ومنها الأنعام؛ لخدمة الإنسان وراحته.

٣- لولا تذليلُ الله الأنعام للإنسان وتسخيرها له، لَمَا استطاع الإفادة منها.

٤ - تعداد أنواع النِّعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وما يُوجبه ذلك مَنْ شُكْرِها وذِكْرِها، وحَمْدِ المنعم بها.

٥ - ضلال المشركين بعبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

٦ - أَمَرَ الله نبيَّه ﷺ بألَّا يحزن على ما يسمعه من أقوال المشركين بعد أن حَذَّرهم وأنذرهم.

٧- كمال علم الله، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم، وهو يجازيهم عليها بعدله أو فضله.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٧- ألم ير الإنسان ابتداء خلقه، إذ خلقناه من نطفة ضعيفة مرت بأطوار مختلفة حتى كَبِرَ، فإذا هو كثير الخصام، شديد الجدال.

٧٨- ٧٩- وضرب الإنسان لربه مثلاً لا ينبغي له ضَرْبُه، فقاس قدرة ربه على قدرته، وساوى بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق، واعتقد استحالة إحياء الموتى بعد بلاء عظامها، وتَحَلُّل أجزائها. وتساءل: مَنْ يحيي العظام وهي رميم؟ ولو تَذَكَّر خَلْقَه، وتَفَكَّرَ فيه، لَعَلِم أنَّ القادر على الخلق ابتداءً قادر على الإحياء والإعادة انتهاء. فمَنْ أوجده مِنْ عَدَم، وأنشأه أول مرة، قادر على إحيائه بعد وجوده. ذلكم الله رب العالمين، العليم بأسرار خلقه، ودقائق صنعه.

٨٠- فالله الذي أخرج من الشجر الأخضر الرطب ناراً محرقة تَرَوْنها، وتُوقِدون منها، قادر على إحياء الأموات.

٨١- أليس الذي خلق السموات والأرض بعظمتها، وما فيها من آيات، بقادر على أن يخلق مثلهم، ويعيدهم كما بدأهم؟ بلى إنه قادر على ذلك. فمَنْ يخلق الخلق العظيم يخلق ما دونه، فهو الخلَّاق لجميع المخلوقات، العليم بجميع الكائنات.

٨٢- إنَّ أَمْرَ الخَلْقِ والبعث على الله تعالى يسير جداً، فإذا أراد شيئاً قال له: (كن) فيكون.

٨٣- فتَنَزَّه الله - تعالى وتَقَدَّس- عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء، المتصرِّف في خَلْقِه وأَمْرِه بلا مُدافعٍ ولا مُنازع، قد ظهرت دلائل قدرته، وعظيم حكمته، وتمام نعمته، وإليه يَرْجِعُ الخلائق يوم القيامة للحساب والثواب أو العقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير عقيدة البعث بعد الموت بالبراهين الواضحة، والدلائل القاطعة.

٢- من الخطأ والجهل قياسُ الخالق على المخلوق في القدرة.

٣- من براهين القدرة على البعث الاستدلال بالمبدأ على المعاد، وأنَّ الإعادة في منطق العقل أهون من الابتداء والاختراع. فالقادر على الإيجاد من العدم قادر على إعادة الموجود.

٤- من دلائل البعث خَلْقُ الضد من الضد، كإخراج النار من الشجر الأخضر الممتلئ بالماء، فالقادر على ذلك قادر على الإحياء بعد الموت.

٥- يقول العلماء: إن كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجري والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتي، والخشب والحطب والقش والتبن، وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي لها الأثر الكبير في تكوين الشجر الأخضر، وما وهبه الله ﷻ لها من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على تأيين الماء، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جداً في الغلاف الغازي للأرض لا تتعدى ٠٣ , ٠٪، وذلك بواسطة أيون الأيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأوكسجين إلى الغلاف الغازي للأرض.

(http://www.ahram.org.eg/archive/2002/11/4/OPIN7.HTM)

٦- مشروعية استعمال الحُجَجِ العقلية، والأدلة المنطقية في إثبات القضايا الشرعية، وصياغة الجدل المحمود.

٧- تقرير عظمة الله وقدرته، وأنَّها دائرة بين الكاف والنون.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إثبات وحدانية الله تعالى، وسوق الأدلة الكونية الكثيرة على ذلك.

٢ - تأكيد عقيدة الإيمان بالبعث بعد الموت، وأنه حقيقة ثابتة.

٣ - تماثل مواقف الأُمم من رسلهم، وعَرْضُ جملة من قصصهم.

٤ - تأكيد نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة، وأنَّ العاقبة للمتقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

١-٣- أقسم الله بالملائكة، وهي في صفوفها نظاماً وطاعة، وعبادة واستعداداً لتنفيذ أوامر الله في كونه. وفي الحديث: «ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: يُتِمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف». (صحيح مسلم، باب الأمربالسكون في الصلاة. برقم ٤٣٠).

وإقسام آخر بالملائكة وهي تسوق السحاب وغيره إلى حيث قدَّر الله، وأراد.

وإقسام ثالث بالملائكة وهي تُرَدِّد آيات الله تعالى وكلامه لرسله، وتقديسه سبحانه بالتسبيح، والتحميد، والتمجيد.

٤ - ويأتي جواب ما أقسم الله به من أصناف الملائكة: إنَّه إلهنا ومعبودنا، وإنَّه واحد لا شريك له.

٥ - فالإله الواحد هو خالق السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما والمتصرِّف فيها، وهو سبحانه مُدَبِّر الشمس في مشارقها، ومغاربها، وهذا من أدلة القدرة والوحدانية.

٦-٧- إنَّا - لما لنا من القدرة والعظمة - زيَّنَّا السماء الدنيا، وجَمَّلناها بزينة النجوم والكواكب التي يراها كل إنسان، وحَفِظْناها بالشُّهُبِ من كل شيطان متمرد خارج عن طاعة الله.

٨-١٠- لا تستطيع الشياطين أن تصل إلى الملائكة في السموات العُلى، فتستمع إليهم إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى من شرعه، وأمره، وقَدَره، إذ يُرْجَمون بالشهب من كل جهة حفظاً للسماء منهم، وطرداً لهم عن الاستماع لما يدور في الملأ الأعلى، ولهم في الآخرة عذاب دائم موجع، لكن مَنْ خَطَفَ من الشياطين الكلمةَ بسرعة وخُفْيَة من السماء، فإنَّه يُرْسَلُ إليه شهاب من نار، فيخترقه ويحرقه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان أنَّ الله - جل وعلا - يُقْسِمُ بما شاء من مخلوقاته، وأما الخلق فلا يقسمون إلا به سبحانه.

٢ - في قَسَمِ الله بالمخلوقات بيانٌ لعظمتها، ولَفْتُ نَظَرٍ لفوائدها وخصائصها التي قد يَغْفُل عنها. وكل ذلك دالٌّ على قدرة خالقها وعظمته ووحدانيته.

٣- الملائكة أصناف وأنواع في الخلق والواجبات.

٤ - أهمية الترتيب والنظام، فعليه سار الكون والحياة والعبادة.

٥ - تقرير حقيقة التوحيد الكبرى، وأنه لا إله إلا الله، فلا معبود بحق إلا الله سبحانه.

٦- الكون بسمائه وأرضه ونظامه في مشارقه ومغاربه، ودقة حركته، دليل ساطع على قدرة خالقه وعظمته ووحدانيته.

٧- بيان بعض الحِكَم من إنشاء النجوم، فهي آية من آيات الله، زينة للسماء، وحراسة لها، وعلامات يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

٨- في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن اتِّباع الشِّهاب لكلِّ الشياطين التي تَتَنَصَّتْ إلى أخبار السماء.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١١- اسأل - أيها الرسول - قومك المكذِّبين بالدين، والمنكرين للبعث بعد الموت، سؤال تقرير وتوبيخ ومُحاجَّة: هل خَلْقُهم أعظم وأشق من خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، وسائر الموجودات؟ لا شكَّ أنَّ الجواب الإقرار بأنَّ خَلْقَ السموات والأرض وما فيهما أكبر من خَلْقِ الناس، فقد خَلَقَ الله الإنسان الأول - آدم عليه السلام - من طينٍ لَزِجٍ يلتصق باليد لضعفه، فكيف يُنكر هذا الإنسانُ الضعيف في أصله ومادته وذاته إعادةَ خَلْقِه وبَعْثِه؟!

١٢- بل عجبت - أيها الرسول - من تكذيبهم، وإنكارهم البعثَ بعد الموت، وهو حقاً محل عجب واستغراب. وأبلغ وأقبح من إنكارهم أنهم يستهزئون بك، ويَسْخَرون من قولك ودعوتك، فجمعوا بين الإنكار، والسخرية البالغة.

١٣- وإذا ذُكِّروا بما نَسُوه، أو غَفَلوا عنه، لا ينتفعون بهذا التذكير، ولا يتعظون به، ولا يستفيدون منه، إما جهلاً أو عناداً.

١٤- وإذا رأوا آية باهرة، ومعجزة قاهرة، قرآنية أو كونية، تَدُلُّ على نبوَّتك، وصِدْقِ دعوتك، وإمكان بعثهم بعد موتهم، بالغوا بالاستهزاء والعجب بدل أن يستفيدوا منها، ويؤمنوا بها.

١٥-١٧- وقال الكفار لمحمد ﷺ: ما جئتَ به من قول وفعل إنَّما هو سِحْرٌ بيِّنٌ ظاهر، ولا يُعْقَلُ ولا يُقبل أننا - إذا مِتْنا وتَحَلَّلَتْ أجسادنا، وبَلِيَتْ عِظامُنا - سوف نبعث مرة أخرى وتعود لنا الحياة بعد ذلك. وأبعد من ذلك أن يُبعث آباؤنا الأقدمون الذين اكتمل فناؤهم.

١٨-٢٠- قل لهم أيها الرسول: نعم سوف تُبْعَثُون بعد موتكم، وأنتم أذلاءُ صاغرون، ولا يتطَلَّب بَعْثُكم أكثر من صيحة واحدة من المَلَك في الصُّور، فإذا هم قيام ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى أهوال يوم القيامة. حينئذ يعرفون الحقَّ، ويعترفون به، ويقولون: يا هلاكَنا وخَسارتنا، هذا يوم الجزاء والحساب.

٢١- فيقال لهم: هذا يوم القضاء والحكم بين الخلائق بالعدل الذي كنتم تُكَذِّبون به في الدنيا، فاليوم يُقضى عليكم بما تستحقون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قدرة الله تعالى العظيمة في الخلق والتقدير من أدلة القدرة على البعث بعد الموت.

٢- خالق الشيء الأكبر والأصعب أقدر على خَلْقِ الأدنى والأصغر، فضلاً عن إعادة خَلْقِه وبعثه. وهذه حجة قرآنية، وبَدَهِيَّةٌ عقلية يغفل عنها المُنْكِر المكابر، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١-٨٢].

٣- بيان أصل خلق الإنسان، ومادته الطين. وهذا دليل على ضعفه، فمن الأرض خُلِقَ، وإليها يعود، ومنها يخرج، فهو جزء من دورة الخلق والحياة: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥]. فعلى الإنسان معرفة قَدْره وقدرته.

٤- الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء والحساب ركن من أركان الإيمان، وهو بالغ الأثر في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٥- على الإنسان التعلُّم والتذكُّر، وقَبول الحق بدليله.

٦- العدل أساس الكون، ويوم القيامة يقضي الله بين الناس بالعدل، فيفصل بين المحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، والمؤمن والكافر، فيعطي كل ذي حق حقه.

٧- السخرية صفة دائمة للمكذبين والمنكرين للبعث دَلَّ على ذلك التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾.

﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٢-٢٦- يقال للملائكة: اجمعوا الذين كفروا بالله ونُظَراءهم من العصاة وقرناءهم من الشياطين، وزوجاتهم الكافرات، وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله من الأصنام والأنداد، وسُوقُوهم سَوقاً عنيفاً شديداً إلى نار جهنم، واحبِسُوهم قبل أن يصلوا إلى النار؛ لمساءلتهم عن أفعالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا، سؤال إنكار وتَبْكِيت، فيقال لهم: مالكم لا ينصُر بعضكم بعضاً أفراداً وآلهة؟ إظهاراً لضعفهم وعَجْزهم. إنَّهم اليوم أذِلَّاء منقادون لأمر الله لا يخالفونه، عاجزين عن الانتصار لأنفسهم.

٢٧- وأقبل بعض الكفار على بعض الرؤساء، يتلاومون ويتخاصمون، ويعاتب بعضهم بعضاً على ما كانوا عليه من ضلال، وما انتهوا إليه من عذاب، كلٌّ يُلقي بالمسؤولية على الآخر.

٢٨- قال الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من طريق الدين والحق والقوة، فتُهَوِّنون علينا أَمْرَ الدين، وتُنَفِّروننا منه، وتُزَيِّنون لنا الضلال والمعاصي، وتَحْمِلُوننا عليها.

٢٩- فأجاب المتبوعون: ليس الأمر كما تزعمون، فلم تكونوا مؤمنين، بل كنتم - باختياركم - عُصاةً كافرين، ولم تكونوا صالحين، فأفسدناكم، ولا مُوَحِّدين، فحَمَلْناكم على الشرك.

٣٠- وما كان لنا عليكم من قدرة نقهركم بها، أو حجة نُقْنِعُكم بها، بل كنتم طغاة عصاة فُجَّاراً، لديكم الرغبة والاستعداد للكفر والعصيان؛ ولذلك استجبتم لنا، واتبعتمونا.

الفوائد والاستنباطات:

١- عَرْضُ صورة من صور مواقف يوم القيامة، ومشاهدها.

٢- جَمْعُ الأشباه والنظائر في الكفر والظلم والفسوق، والآلهة المعبودة من دون الله.

٣- نشوب العتاب والخصام بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة الذين اجتمعوا على الكفر والفسق والعصيان.

٤- دَلَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ على أنَّ بعض الضلال والإضلال يأتي عن طريق ادِّعاء الدين والحق، والإيهام بذلك.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٢- ويتابع المتبوعون قولهم لأتباعهم إذ خاطبوهم بقولهم: فوجب علينا، ولَزِمَنا نحن وأنتم وعيدُ ربنا: إنَّا لذائقو العذاب بسبب تكذيبنا ومعاصينا في الحياة الدنيا، فأضللناكم عن دين الله والإيمان به، وزَيَّنَّا لكم الباطل، ودعوناكم إليه، فقد كُنَّا ضالِّين قبلكم، فهلكنا بسبب ضلالنا وكفرنا، وأهلكناكم معنا.

٣٣- فإنَّ الأتباع والمتبوعين يوم القيامة في العذاب مشتركون، كما اشتركوا في الدنيا في الغَواية والضلالة، ولكن كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب إجرامهم، فلا ينفعهم هذا الاشتراك.

٣٤- إنَّا هكذا نفعل بالمجرمين العاصين المكذِّبين، الذين اختاروا في الدنيا الكفر على الإيمان، فنذيقهم العذاب الأليم.

٣٥- إنَّ سبب عذابنا لهم أنَّهم كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله إيماناً بوحدانية الله، وتَرْكاً لما سواه، كانوا يستكبرون عنها، ويُكَذِّبون بها.

٣٦- ويُنْكِرون على دعوة التوحيد: أنترك عبادة آلهتنا من الأوثان والأصنام لقول رجل شاعر مجنون لا عقل له! يعنون بذلك محمداً ﷺ، فجمعوا إلى تكذيبه الكذبَ عليه، بوصفه بما ليس فيه، وما هو بريء منه.

٣٧- كَذَبوا فيما قالوه، فما محمد ﷺ كما وصفوه، بل قال الصدق، وجاء بالحق من القرآن والسنة، وما فيهما من توحيد وإيمان وتصديقٍ لِما جاء به المرسلون السابقون عليه، فيما أخبروا به عن الله سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١- اشتراك الضالِّين والمضلِّين في العذاب جميعاً، وأنَّه لا معذرة لأحد في الكفر والضلال، ولا منفعة في الاشتراك في العذاب.

٢- الاستكبار عن قبول الحق وسماعِه يؤدي إلى الضلال والهلاك.

٣- تعظيم كلمة الحق «لا إله إلا الله»، وأنَّها دعوة الرسل جميعاً.

٤- تصديق الأنبياء بعضهم لبعض؛ لأنَّ دين الله واحد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٣٨- إنكم - أيها المشركون - لَذائقو العذاب الموجع.

٣٩- وما تُعاقَبون به -أيها المشركون- من العذاب في الآخرة إلا جزاء أعمالكم في الدنيا من كفر وتكذيب.

٤٠-٤٣- لكنَّ عباد الله الذين أخلصوا لله في عبادته وطاعته، اختصهم الله برحمته وولايته، فأنجاهم من عذابه، وأدخلهم جنته، وأجرى عليهم رزقه المعلوم وَصْفُه بحسن منظره، ولذة طَعْمِه، وطيب رائحته، مما يشتهون من أنواع الفواكه، وكلُّ ما في الجنة مما يُؤكل إنما هو على سبيل التنعُّم والتفكُّه والتلذذ، مع الإعزاز والإكرام من الله سبحانه لهم في جنات النعيم، فيجمع نعيم الجنة متعة النفس، ولذة الحس.

٤٤- ومن كرامتهم عند ربهم ومزيد نعيمهم، أنهم جالسون على سرر متقابلين فيما بينهم، تواصُلاً وتَحابُباً.

٤٥-٤٧- لَمَّا ذكر الطعام أعقبه بذِكْرِ الشراب، إذ يُدار عليهم في مجالسهم على أَسِرَّتهم بكأس من الخمر من أنهار جارية، لا يخافون نَقْصَها أو انقطاعها، بيضاء في لونها، لذيذة في مذاقها وشربها، ليس فيها أذى للجسم ولا للعقل، كما هو حال خمر الدنيا وما فيها من صُداع الرأس، وذهاب العقل، فخمر الآخرة ذات لون حسن، لذيذة المذاق، بلا كَدَرٍ ولا ضرر، ولا نقص أو انقطاع.

٤٨-٤٩- وعند أهل الجنة الحور العين الجميلات الأعين، كأنهنَّ اللؤلؤ المكنون في أصدافه نقاء، أو البَيْض المصون عن لمس الأيدي، وفضول النظر، لا ينظرنَ لغير أزواجهنَّ عفةً وحياء.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان عدل الله سبحانه مع الكافرين المكذبين، فالجزاء من جنس العمل.

٢- بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين المخلصين بمضاعفة أجر الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ فضلاً منه ورحمة.

٣- وَصْفُ نعيم الجنة وصفٌ عظيمٌ يستهوي السامع، ويُغْري الطامع بالعمل على تحصيله والوصول إليه، وذلك بتحقيق طاعة الله تعالى، والطمع في رحمته.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

التفسير:

٥٠- أقبل أهل الجنة بعضهم على بعض، يتحدَّثون عما جرى لهم في الدنيا وأحوالهم فيها، وما كانوا يُلاقونه ويُعانونه فيها، وما أنعم الله به عليهم في الجنة، وحديث الأجناس من تمام الإيناس.

٥١-٥٣- فقال أحدهم: إنه كان لي في الدنيا صديق يُنكر البعث، ويقول لي: كيف تُصَدِّق بالبعث الذي هو في غاية البعد والاستغراب؟! كيف يُعقل أننا إذا مِتْنا وبَلِينا وصِرْنا تراباً وعظاماً نَخِرةً، نُبعث أحياءً، ونُحاسَب على أعمالنا؟!

٥٤-٥٥- فقال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلِعُون وناظرون معي إلى النار لننظرَ حال الصديق ومصيره؟ فنظر فرأى قرينه وصاحِبَه في الدنيا في وسط النار الموقدة.

٥٦-٥٧- فخاطبه المؤمن عاتباً قائلاً: والله لقد كِدْتَ تُهْلِكُني بإغوائك، ودعوتك لي إلى الكفر والتكذيب. ولولا فَضْلُ الله عليَّ ورحمته بي بهدايتي وتثبيتي على الإيمان، لكنت من الماكثين معك في النار أذوق أهوالها.

٥٨-٥٩- ويستمر في خطابه: هل مازلت على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، لا بَعْثَ بعدها ولا جزاء ولا ثواب وعقاب؟! لقد تَكَشَّفَتْ لك الحقيقة.

٦٠-٦١- إنَّ هذا النعيم الذي نحن فيه بالجنة لهو الفوز العظيم، والظفر المقيم. ولمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد المجتهدون في الدنيا؛ ليحصلوا عليه في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- التحذير من قرناء السوء؛ فإنَّهم سبب لضلال الإنسان.

٢- الحرص على اختيار الصديق، فالمرء على دين خليله، فلينظُرْ المرء مَنْ يُخالِلُ.

٣- بيان سخرية المكذبين بالمؤمنين، إذ يَرَون إيمانهم بالغيب والبعث من قبيل التخَلُّف، والحقيقة أنَّهم هم المتخلِّفون الضالُّون.

٤- بيان بعض صور حوادث الآخرة، وسماع الصوت للمُعَذَّب في النار، وقدرة الله على كل شيء.

٥- تقرير البعث وتحقيقه، وبيان ما يحصل فيه من قول وعمل.

٦- تمام نعيم أهل الجنة بالأنس والمحادثة فيما بينهم.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٢- أذلك الذي سبق وَصْفُه من نعيم الجنة الكامل، والخلود الدائم خير عطاء وضيافة، أم شجرة الزقوم الخبيثة الملعونة التي هي طعام أهل النار؟ لا شك في الجواب، وأنَّ طعام أهل الجنة أفضل وأكمل من طعام أهل النار، لكنه سؤال تقرير للحقيقة، وتوبيخ للكفار.

٦٣-٦٨- إنَّا جَعَلْنا شجرة الزقوم فتنة وابتلاء لظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي، إذ قالوا متعجِّبين مستنكرين مكذِّبين: كيف تنبت في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فلا يُعقل هذا، ولا يُقبل!!. إنَّها شجرة تنبت في قعر جهنم، ثَمَرُها قبيح المنظر والمخبر، متناهي القبح والبشاعة، كأنه رؤوس الشياطين التي تُمَثِّل أبشع ما يتصور ويتخيل من أخبث الثمر طعماً ومرارة، وإنَّ هؤلاء الكفار لآكلون منها، فهي طعامهم الذي لا بديل لهم عنه، فسوف يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم شِبعَاً. ثم إنهم بعد ذلك لشاربون شراباً شديد الحرارة، يختلط مع طعامهم المذكور، فيجتمع لهم بشاعةُ منظرِ الثمر، ومرارةُ الزقوم، وحرارة الحميم، ثم إنَّ مَرَدَّهم بعد هذا الطعام والشراب والعذاب إلى عذاب النار.

٦٩-٧٠- إنَّهم وجدوا آباءهم على الشرك والضلال في الديانة والعبادة فاقتدَوا بهم، وساروا على خُطاهم، وسارعوا إلى متابعتهم على ما هم عليه من غير دليل ولا برهان.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ أحسن الأساليب الدعوية والتربوية هو الجمع بين الترغيب والترهيب؛ لاستثارة أنواع المشاعر في الإنسان.

٢- تقرير البعث والجزاء من خلال عرض صور للأحداث والوقائع التي تتمُّ في يوم القيامة عَرْضاً

تصويرياً معبراً ومؤثراً.

٣- التحذير والتنديد بالتقليد والاتباع للآباء والأجداد وأهل البلاد من غير دليل ولا برهان، وأنَّ هذا من الجهل والتعصب المذموم المؤدِّي إلى الهلاك، وأنَّ الواجب هو البحث عن الحق بدليله.

٤- قُصور النظر العقلي المجرد لأمور الآخرة الغيبية وأحوالها، دون الرجوع إلى الأدلة الشرعية، وأنَّ هذا يؤدِّي إلى الفتنة والضلال؛ لأنَّ الآخرة غيب تَقْصُرُ العقول البشرية عن إدراكه، واستعمالها في تصويره وتحليله خطأ منهجي فادح.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

التفسير:

٧١- والله لقد ضلَّ عن الحق والهدى قبل قومك - يا محمد - أكثرُ الأُمم السابقة.

٧٢- والله لقد أرسلنا في تلك الأُمم مُرْسَلين كثيرين يخوفونهم من عذاب الله، فتمادَوا في غَيِّهم وضلالهم، وكفروا برسلهم.

٧٣-٧٤- فتأمَّل - يا رسول الله - وقومك كيف كانت نهاية تلك الأُمم المكذِّبة، لقد عُذِّبَتْ وصارَتْ مثلاً وعِبْرة للناس، إلا عباد الله الذين استجابوا لله، وأخلصوا دينهم له، فإنَّ الله تعالى خَصَّهم برحمته، ونَجَّاهم من عذابه.

٧٥- وقسماً لقد نادانا نبيُّنا نوح، ودعانا لنصرته على قومه، بعد كفرهم واستكبارهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم، قال: يا ربِّ إني مغلوب فانتصِرْ، فسارَعْنا لإجابته ونُصْرَتِه على قومه، فأَكْرِمْ بنا من مُجيبٍ وناصر.

٧٦- ونَجَّيناه ومَنْ آمن معه من أهله وأتباعه من أذى المشركين، ومن الغرق بالطوفان العظيم الذي عَمَّ الأرض، وأهلك الأحياء.

٧٧- وجعلنا ذرية نوح هم الذين بَقُوا على وجه الأرض بعد غَرَقِ قومه.

٧٨- وأبْقَيْنا له ذِكْراً جميلاً، وثناءً حسناً فيمن جاء بعده من الأُمم والناس يَذْكُرونه به.

٧٩- أمانٌ لنوح وسلام عليه وسلامة له من الله والناس، فلا يُذْكَرُ بسوء، بل تُثني عليه الأجيال والأُمم من بعده.

٨٠-٨٢- هكذا نجزي مَنْ أحسن من العباد في طاعتنا وامتثال أمرنا، فإنَّ نوحاً من عبادنا المؤمنين بيقين، والعاملين بإخلاص؛ لذا أنجيناه وأكرمناه، وأغرقنا أعداءه.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضلال كثير من الأُمم السابقة مع إرسال الرسل إليهم، ووجود المنذرين بينهم.

٢- الهلاك في الدنيا والآخرة عاقبة الكفر والتكذيب.

٣- من سُنن الله تعالى إنجاء المؤمنين الصادقين عند إهلاك المكذبين.

٤- إجابة الله تعالى دعاءَ المرسلين والصالحين من عباده، وإنجاؤهم من الكروب والظلم، فالدعاء هو العبادة.

٥- إكرام الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام بأنواع الإكرام من إنجائه وأهله وقومه المؤمنين، وجَعْلِ ذريته هم الباقين في الأرض، وإعظامِ أجره، ورَفْعِ ذِكْره في العالمين.

٦- فضل الإحسان، وحسن عاقبته في الدنيا والآخرة، عند الله وعند الناس، كما قال سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

التفسير:

٨٣-٨٤- وإنَّ من أنصار نوح على منهاجه ومِلَّتِه نَبِيَّ الله إبراهيم عليه السلام حين جاء ربه، وأجابه بقلب نقي طاهر بريء من كل اعتقادٍ باطل، وخُلُقٍ ذَميم.

٨٥-٨٧- حين قال لأبيه وقومه منكراً عليهم، وموبخاً لهم: ما هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله كذباً وزوراً، وتتركون عبادة الله المستحق للعبادة وحده دون سواه، فأيَّ شيء تظنونه برب العالمين وقد عَبَدْتم سواه؟ هل يترك عقابكم وعذابكم؟

٨٨-٨٩- فنظر إبراهيم نظرة في نجوم السماء على عادة قومه في ذلك، متفكِّراً ومستدلَّاً بها على الحوادث، فقال لقومه معتذراً عن الخروج معهم إلى أعيادهم: إني مريض، فلا أرغب في الخروج، فتركوه وأعرضوا عنه، وخرجوا إلى عيدهم.

٩٠-٩٢- فذهب مسرعاً إلى أصنام قومه، وخاطبها مستهزئاً بها وبمَنْ يعبدها قائلاً: هَلَّا تأكلون هذا الطعام الذي يقدمه لكم سَدَنَتُكم؟ ما لكم لا تَنْطِقُون، ولا تجيبون مَنْ يسألكم؟ وكان هذا تقريراً بأنها آلهة لا تنفع ولا تضر.

٩٣-٩٦- فأقبل على أصنامهم يضربها بيمينه بقوة، ويكسرها بعنف وشدة. فأقبل قومه عليه يَعْدُون مسرعين غاضبين، مستنكرين لِفِعْله فهم يعبدونها ويعظمونها، وهو يكسرها ويُهينها، فأجابهم: كيف تعبدون أصناماً تنحتونها أنتم، وتصنعونها بأيديكم، وتتركون عبادة ربكم الذي خلقكم، وخَلَق عَمَلَكم، وما تعبدون من أصنام وكواكب؟!

٩٧- فقرروا عقابه، فقالوا: ابنوا لإبراهيم بنياناً، واملَؤوه حطباً، وأوقدوه ناراً، ثمَّ ألقوه فيها. واستعمال هذه الشدة منهم إنما هو دليل على ضعف الحجة، وتمام العجز عن رَدِّ حجة إبراهيم عليهم.

٩٨- فأراد قوم إبراهيم به كيداً وعملاً لإهلاكه وإحراقه، فرَدَّ الله كيدَهم ومَكْرَهم في نُحورهم، ونجَّى الله إبراهيم من عذابهم، وجعل نارهم برداً وسلاماً عليه، فعادوا ذليلين خائبين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - دين الله واحد، وهو الاستسلام لله بالطاعة، وإفراده بالوحدانية؛ ولذا كان الأنبياء إخوة يقتبسون من مشكاة واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

٢ - كمال إيمان إبراهيم، وصبره على الابتلاء بالإلقاء في النار وغيره.

٣ - عظمة قدرة الله تعالى وإعجازه في تحويل النار الحارقة برداً وسلاماً على إبراهيم.

٤ - وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه، وظهور المصلحة في ذلك.

٥ - استعمال القوة والبطش في الحوار دليل على ضعف الحجة.

٦ - قول إبراهيم لقومه ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ عُذْرٌ اعتذر به وتَوْرِية، وتعريض بالكلام، وليس كذباً مُحَرَّماً لارتباطه بمقصد شرعي صحيح، وتسميته بذلك من باب التوسع في الكلام، ومراعاة بعض التقديرات.

٧ - جمع قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ كمال النفس والروح؛ فإنَّ سلامة القلب مصدر محامد الأعمال وكمالها، فما أسعدَ مَنْ جاء ربَّه بقلب سليم، مُنَزَّهاً عن كل خلق ذميم، واعتقاد باطل!!.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

التفسير:

٩٩-١٠٠ - وقال إبراهيم مُخْبِراً عن حاله: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أتمكَّن من عبادة ربي بحرية وراحة: فيا ربِّ اهدني إلى خيري الدنيا والآخرة، وإلى المهجر المبارك، وهب لي أولاداً صالحين يؤنسون وحدتي، ويعينونني في غربتي، ويعبدونك معي.

١٠١ - فأجاب الله تعالى دعوته، وحَقَّقَ رغبته، وبَشَّره بوَلَدٍ كريم حليم، هو إسماعيل.

١٠٢ - فلما كَبِرَ ابنه إسماعيل ومشى مع أبيه، وبدا له نَفْعُه وعَوْنُه، قال له أبوه: يا بنيَّ! إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما ترى في هذه الرؤيا؟ فأجابه إسماعيل بجواب أثلج صدره، وأعانه على أمره، وأرضى به ربه، وبرَّ به أباه قائلاً: افعَلْ ما تَرى وما تُؤمر به من طاعة الله، فستجدني - إن شاء الله - صابراً، طائعاً، راضياً.

١٠٣ - ولأنَّ رؤيا الأنبياء حق، استسلم الأب إبراهيم، والابن إسماعيل لأمر الله، وانقادا له طاعة وإيماناً، وألقى إبراهيم ابنه على جبينه على الأرض، ليذبحَه حقيقةً.

١٠٤-١٠٥ - وناديناه إبراهيم في تلك الحالة العصيبة: يا إبراهيم قد حَقَّقْتَ الرؤيا، وصَدَّقْتَها بسرعةِ استجابتك، واستجابة ابنك لها. إنَّا كما جزيناك على تصديقك بتفريج كربتك وشدتك، وإعتاق ابنك وإنجائه من الذبح، كذلك نُنَجِّي، ونجزي كل الذين أحسنوا بإنجائهم من شدائد الدنيا والآخرة.

١٠٦ - حَقّاً إنَّ أمْرَكَ بذَبْحِ ابنك هو الابتلاء والامتحان الشاق العظيم الذي يعجز عنه الكثير من البشر، وقد أبان امتثالُك عن صِدْقِ إيمانك، وقوة يقينك بربِّك.

١٠٧ - واستنقذنا ابنك، فجعلنا بديلاً عنه كبشاً عظيماً يُذبح بدلاً منه، وفداءً له.

١٠٨ - وأبقينا لإبراهيم وإسماعيل ثناءً حسناً، وذِكْراً طيباً باقياً في الأُمم بعده.

١٠٩-١١١ - تحيةً وسلاماً لإبراهيم من عند الله طيبةً مباركة، وكما جَزَيْنا إبراهيم على طاعته لنا، وامتثالِه أَمْرَنا نجزي المحسنين من عبادنا. إنَّ إبراهيم من عبادنا المؤمنين المخلصين الذين أَعْطَوا العبودية حقها، والطاعة مستحقها.

١١٢ - وبَشَّرْنا إبراهيم بولد آخرَ يُولد له اسمه إسحاق، يكون نبياً صالحاً، جزاءً لصبره ورضاه بأمر ربِّه، وطاعته له.

١١٣ - وأنزلنا عليهما البركة في الدين والدنيا، وجَعَلْنا من ذريتهما مَنْ هو مؤمن بربه، محسن لنفسه، ومَنْ هو ظالم لها ظلماً بَيِّناً بكفره بربه، ومعصيته له.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل الهجرة في سبيل الله؛ لتحقيق العبودية لله بحرية وكرامة، وأنَّ هجرة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام كانت أول هجرة في الأرض.

٢ - مشروعية الدعاء بطَلَبِ الولد، واستحباب الدعاء لِـمَنْ رُزق مولوداً بنحو: بُورك لك في الموهوب، وشَكَرْتَ الواهب، وبَلَغَ رشدَه، ورُزِقْتَ بِرَّه.

٣ - الراجح عند الجمهور أنَّ الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق كما يقول بعضهم، ويذهب إليه

اليهود، فإسماعيل كان دعوة إبراهيم، وإسحاق كان بشارة زوجته: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]، وإسحاق بُشِّر به وبعقبه فكيف يُؤْمَرُ بذَبْحِه؟! كما أنَّ إسماعيل وُصِفَ بالحليم وهو ما يناسب موقفه من الذبح، وإسماعيل كان وحيد إبراهيم، فالابتلاء بذَبْحِه وهو وحيده - حين بلغ معه السعي - أبلغُ في الابتلاء وأكمل.

٤- ينبغي للمرء طَلَبُ السلامة والعافية، فطَلَبُ البلاء لا يجوز، لكن إن قُدِّر ووَقَعَ، فعلى المسلم الصبر والرضا واحتساب الأجر.

٥- قد يُبتلى الرجل الصالح بولد عاقٍّ فاجر، فلا يلزم من صلاح الآباء دائماً صلاح الأبناء - وإن كان مظنة ذلك - ولا يعيب ذلك الأب ولا ينقصه؛ فكل نفس بما كسبت رهينة.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١١٤-١١٨- وقسماً لقد مَنَنَّا وأنعمنا على موسى وهارون عليهما السلام بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية، وعلى رأسها نعمة النبوة والرسالة، ونَجَّيناهما وقومَهما من مؤمني بني إسرائيل من الغَرَقِ والمذلَّة، ومن قتل الأبناء، واستحياء النساء، ونصرناهم على عدوهم فرعون وقومه، فكانت لهم النصرة والعزة عليهم، وأعطينا موسى وهارون كتاب التوراة الواضح في أحكامه، والبليغ في بيانه، ودَلَلْناهما على الطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى الذي لا اعوجاج فيه ولا ضلال، وهو الإسلام دين الله الذي بَعَثَ به أنبياءه ورسله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] المتمثِّل بالاستسلام لله بعبادته، والانقياد لطاعته.

١١٩-١٢٢- وأبقينا الذِّكْرَ الحسن والثناء الجميل على موسى وهارون في الأجيال بعدهما. سلام من عندنا وثناء عليهما ودعاء لهما، وكما أنجيناهما وجَزَيْناهما خير الجزاء، فإننا نُنَجِّي ونجزي كل مَنْ أحسن من عبادنا المؤمنين المخلصين في عبادتهم وطاعتهم لنا، فإنَّ موسى وهارون من عبادنا المؤمنين بحق، والمخلصين بصدق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان إكرام الله تعالى لموسى وهارون بالنبوة والرسالة، وثناؤه عليهما.

٢ - بيان فضل الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وقومه، وخلاصهم من الرِّق والعبودية التي لحقت بهم، واستعباد فرعون لهم، وقَتْلِ أبنائهم، واستحياء نسائهم، ونَصْرِهم عليهم، وإنجائهم من الغرق الذي أهلك فرعون وقومه.

٣- التوراة كتاب سماوي أنزله الله على موسى ﷺ لهداية بني إسرائيل، بليغ في بيانه، وشامل في أحكامه في وقته وزمنه، إلا أنَّه حُرِّف، ثمَّ نُسِخَ بالقرآن الكريم.

٤ - في قصة إبراهيم ﷺ وقومه، وموسى ﷺ وقومه، مواعظ مؤثرة، ومواقف معبِّرة، وبيانٌ لسُنَنِ الله في خلقه، وإكرامٌ لأوليائه، وإهلاكٌ لأعدائه، وبيانٌ لأثر صدق الإيمان، وكمال الإحسان في ذلك.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

التفسير:

١٢٣-١٢٦ - وإنَّ عبدنا إلياس لَمِنْ الذين أكرمناهم بالنبوة والرسالة، فقد أرسلناه إلى قومه من بني إسرائيل فقال لهم: اتقوا الله وحده، وخافوه ولا تشركوا معه غيره، كيف تعبدون صنماً لايضرُّ ولاينفع، وتتركون عبادة أحسن الخالقين، المتصف بأحسن الصفات وأكملها، الذي هو ربُّكم الذي خلقكم، وخلق آباءكم الماضين قبلكم؟

١٢٧-١٢٩ - فكَذَّب قومُ إلياس نبيَّهم، وإنَّهم يوم القيامة لَمجموعون ومُحْضَرون للحساب والعذاب إلا عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، فإنَّهم ناجون من عذاب الله.

١٣٠-١٣٢ - وجعلنا لإلياس الثناء الحسن الجميل في الأُمم بعده، فسلام وثناء عليه، فكما جزينا إلياس الجزاء الحسن على إيمانه وإخلاصه وإحسانه، نجزي المحسنين من عبادنا المؤمنين. إنَّ إلياس من عباد الله المصدقين بالله تعالى المخلصين.

الفوائد والاستنباطات:

١ – التنديد بالشرك والكفر، والتحذير منه ومن عواقبه.

٢ – بيان فَضْلِ الإحسان، ومجازاة أهله بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة. وهذه قاعدة قرآنية مقررة في هذه السورة المباركة، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

٣– إلياس نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له: إلياس، وإل ياسين في القرآن الكريم.

٤ – تأخُّر عذاب قوم إلياس إلى يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٧].

٥– ينبغي اتباع الحكمة في الدعوة، ومعرفة أخطاء المدعوِّين وأوضاعهم وطباعهم.

٦– ليس في قوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٥] دليل على تَعَدُّد الخالق، أو أن الإنسان يخلق أفعاله، بل المراد وَصْفُ خَلْقِ الله بتمام الحسن وكماله، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

التفسير:

١٣٣-١٣٥– وإنَّ عبدنا لوطاً لَأَحَدُ رسلنا، إذ أرسلناه إلى قومه لهدايتهم وردَّهم عن غوايتهم، فاذكروا حين خلصناه وأنجيناه وأهله ومَنْ آمن معه جميعاً مما حَلَّ بقومه ومن العذاب والهلاك، عدا زوجته العجوز الكافرة، فإنها لم تَنْجُ من العذاب، بل بَقِيَتْ في العذاب مع الهالكين؛ لأنَّها بقيت كافرة لم تؤمن بالله رب العالمين.

١٣٦– ثمَّ أهلكنا الباقين المكذبين الكافرين من قوم لوط هلاكاً شديداً وعذَّبناهم عذاباً أليماً.

١٣٧-١٣٨- إنكم - يا أهل مكة - لَتَمُرُّون على ديارهم ومنازلهم في أسفاركم، وتشاهدون آثار هلاكهم وعذابهم ليلاً ونهاراً، صبحاً ومساءً، أفلا تعقلون وتعتبرون، وتخافون أن يصيبكم ما أصابهم، فتهلكوا كما هلكوا؟

١٣٩-١٤٠- وإنَّ عبدنا يونس من الذين أكرمناهم بالنبوة والرسالة لهداية قومه، فاذكر قصته حين هرب من بلده، غاضباً من تكذيب قومه له، فركب سفينة مملوءة ركاباً ومتاعاً.

١٤١-١٤٢- وحين عَصَفَتْ الرياح، وهاجت الأمواج بالسفينة، فكادت تغرق، أجرى ركاب السفينة القرعة لإلقاء بعضهم في البحر حتى ينجو باقيهم من الغرق، عندما تَخِفُّ حمولة السفينة، فكان يونس من الذين وقعت عليهم القُرعة. فلما ألقي في البحر ابتلعه حوت ضخم، وهو آتٍ بما يُلام عليه من خروجه من بلده بغير إذن ربه، وغضبه على قومه.

١٤٣-١٤٤- فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته، وكذلك وهو في بطن الحوت، لَبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطن الحوت قبراً له، ولكنه وَحَّدَ ربَّه، وسبَّح له، واستغفر ذنبه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

١٤٥- فاستجاب الله نداءه ودعاءه، فألقاه من بطن الحوت على الساحل في أرض فضاء جرداء عارية من الشجر، خالية من البناء، وهو هزيل ضعيف البدن.

١٤٦- وأنبتنا عليه شجرة من القرع؛ لتَسْتُرَه وتُظِلَّه، وتَقِيَه حر الشمس، وأذى الحشرات.

١٤٧- فلما استكمل قوته، واسترجع عافيته، أرسلناه إلى قومه أهل مدينة الموصل الذين كانوا يبلغون مئة ألف، بل يزيدون على ذلك.

١٤٨- فلما جاء قومه آمنوا به وصَدَّقوه، وعملوا بما جاء به، فمَتَّعناهم بحياتهم إلى حيث انقضاء آجالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إثبات نبوة لوط ورسالته.

٢- العِبْرة في النجاة من الهلاك والعذاب للإيمان، وليست للنسب والقرابة والصداقة.

٣- أهمية التدبُّر والتفكر في الأحداث الكونية، وقصص الأُمم والأقوام؛ لأَخْذِ العظة والعبرة منها، ومعرفة سنن الله في الكون والحياة، وتَجَنُّب مصائر الأُمم الهالكة.

٤- إثبات نبوة يونس بن متَّى عليه السلام الذي ذكره الله تعالى باسمه يونس، ووَصَفَه بصاحب الحوت، وبذي النون.

٥- الطاعة والذكر ومعرفة الله في الرخاء من أسباب الفرج عند الشدة والبلاء، كما جاء في الحديث: «تَعَرَّفْ إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة».

٦- القُرعة طريق من طرق القضاء عند التنازع في الأشياء، أو الاعتقاد باستواء الحقوق.

٧- عظمة دعاء يونس عليه السلام معنى وأثراً، وهو قوله في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] بما فيه من توحيد الله، وتقديسه، والتوبة إليه، والاعتراف بالتقصير في حقه سبحانه وتعالى، فهو دعاء كل مكروب.

٩- يستنبط من ذكر الفلك المشحون والحوت أنَّ الموصل كانت تقع على بحر، وهذا يقوي قول علماء الآثار الذين عثروا على بعض حطام سفينة نوح عليه السلام وأنها كانت في مدينة الموصل.

١٠- فَضْلُ قوم يونس، إذ آمنوا برسولهم وصَدَّقُوه، فرفع الله عنهم عذابه، وأحَلَّ عليهم رحمته ونعمته، فمَتَّعهم بسبب إيمانهم إلى انقضاء آجالهم.

١١- في قصة يونس عليه السلام درس بليغ، حين عاتب الله نبيه على غضبه على قومه، وخروجه من بلده قبل إذن ربه له، فقد لامه الله عليه وعَرَّضه لالتقام الحوت له، ثم رحمه وعفا عنه.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

التفسير:

١٤٩- فاسأل - أيها الرسول - قومك كفار قريش سؤال تقريع وتوبيخ: كيف جعلوا لله البنات اللاتي لا يُحِبُّونهنَّ، ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يريدونهم؟

١٥٠- واسألهم - أيضاً - سؤال توبيخ آخر: هل خلقنا الملائكة إناثاً، وهل هم حاضرون عند خَلْقِهم حتى يعرفوا حقيقتهم؟!.

١٥١-١٥٢- إنَّ مِنْ كَذِبِهم القبيح قولَهم: وَلَدَ الله، حين يجعلون الملائكة الأطهار بنات الله، وإنَّهم لَكاذبون في قولهم؛ لأنَّهم يقولون ما لا يعلمون.

١٥٣-١٥٤- لأيِّ شيء يختار الله لنفسه البنات دون البنين، كما تزعمون وتحكمون؟ كيف تحكمون لله بالبنات، ولأنفسكم بالبنين، وأنتم لا ترضَون لأنفسكم البنات؟ بئس الحكم أن تجعلوا لله ما ترونه الأدنى، وتجعلون لأنفسكم ما ترونه الأعلى.

١٥٥-١٥٧- ينبغي أن تَتَذَكَّروا وتعرفوا أنَّه لا يجوز، ولا ينبغي أن يكون لله صاحبة ولا ولدٌ، وأن قولكم بأنَّ الملائكة بنات الله قول بلا علم، فإن كان لكم دليلٌ وحُجَّةٌ صحيحةٌ بَيِّنَةٌ على قولكم، وكتابٌ من الله لكم بذلك، فَأْتُوا به إن كنتم صادقين في زَعْمِكم، فلا دليل شرعي، ولا منطق عقلي على ذلك، فثبت أن لا ولد لله، تعالى عَمَّا يقولون علواً كبيراً.

١٥٨- وزعم المشركون باطلاً آخر حين جعلوا بين الله وبين الجنِّ نسباً، وأنَّ الملائكة بنات الله من الجن، ولقد علمت الملائكة والجن أنَّ المشركين مُحْضَرون للعذاب يوم القيامة على كُفْرِهم وكَذِبهم.

١٥٩-١٦٠- تَنَزَّه الله وتَقَدَّس عن كل ما لا يليق به سبحانه ممَّا يصفه به الكافرون. أما عباد الله المخلصون المؤمنون فإنَّهم يُنَزِّهون الله تعالى عمَّا يصفه به الظالمون، إذ يعرفون لله حَقَّه وقَدْرَه وعَظَمَتَه، فلا يصفونه إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إبطال فرية بعض العرب وغيرهم أنَّ الملائكة بنات الله، بأنَّه قول بلا علم، ورجم بالغيب، فلم يحضروا خَلْقَهم، ولم يأتهم به كتابٌ من ربهم، فهو باطل محض، ليس عليه دليل شرعي، ولا منطق عقلي.

٢ - مشروعية رَدِّ الباطل، ودَحْضُه بالحجج والبراهين، وأنَّ الصراع بين الحق والباطل قائم إلى يوم الدين.

٣- ما جاء به الكتاب والسنة هو الحق بعينه، وما خالفهما هو الباطل بنفسه.

٤ - نصوص الشرع، ومنطق العقل، يَرُدَّان فِرْية الصاحبة والولد لله تعالى؛ لأنَّ اتخاذَهما حاجة وشهوة، والله مُنَزَّهٌ عن ذلك، وهي فِرْيَةٌ عظمى وَصَفَ اللهُ بشاعتَها بما تَقْشَعِرُّ له الأبدان، وتنفطر منه القلوب.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦١-١٦٣- فإنَّكم - أيها المشركون بالله - وكل ما تعبدونهم من دون الله من الأصنام والشياطين وغيرهم، لستم بقادرين على أن تُضِلُّوا أحداً من عباد الله عن دين الله، وتَفْتِنُوه عنه، إلا مَنْ قَدَّر الله ﷻ عليه أن يَدْخُلَ النار، ويَصْلَى الجحيم؛ بسبب كُفْرِه وظُلْمِه وضلاله.

١٦٤-١٦٦- وقالت الملائكة: وما مِنَّا مِنْ مَلَكٍ إلا له مرتبة معلومة، ومقام معروف، فنحن الخاضعون لله، الواقفون صفوفاً في عبادة الله وطاعته، ونحن المنزِّهون اللهَ سبحانه وتعالى عن كلِّ ما لا يليق بعظمته وكبريائه.

١٦٥-١٦٩- وإنَّ كُفَّار مكة قبل بِعْثَتِك إليهم، ونزول القرآن عليهم كانوا يقولون: لو جاءنا من الكتب والأنبياء ما جاء الأولين قبلَنا، لَكُنَّا عباد الله الصادقين في الإيمان، المخلصين في العبادة.

١٧٠- فلما جاءهم ما تمنَّوا من ذِكْرِ الأوَّلِين، وعِلْم الآخرين، بإرسال محمد ﷺ إليهم، وإنزال القرآن عليهم؛ كفروا بذلك كله، فسوف يعلمون، ويَرَون عاقبة كفرهم بالله ورسوله من عذاب الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ كل ما يقع في كون الله هو بتقدير الله وعِلْمِه. ومن ذلك أنَّ مَنْ كتب الله عليه النار فسوف يَصْلاها ويدخلها. ولا يَصِحُّ الاحتجاجُ بالقدَر على الكفر والظلم والمعاصي؛ لأنَّ الإنسانَ مأمورٌ بتحصيل العلم وتحقيق العمل، ولا يدري ما قُدِّر له أو عليه إلا بعد وقوعه، أمَّا الله جلَّ في علاه فلا يقع في كونه إلا ما يعلمه، وقَدَّر وقوعَه.

٢- إثبات عبودية الملائكة، وطاعتهم لله، وعبادتهم له، لا يتجاوزون ما قدَّر الله لهم، وطلبه منهم.

٣- الدقة والنظام من ظواهر خلق الله في كونه وشرعه. وشواهد ذلك في الكون ظاهرة، وفي الشرع معلومة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وصفوف المسلمين في صلاتهم مظهر ظاهر، ومشهد باهر.

٤- بيان كَذِبِ المشركين في ادِّعاء الإيمان الصادق، والعبادة المخلصة لو أُنزل عليهم كتابٌ، وأُرسل إليهم رسول، إذ كفروا لَـمَّا تحقق لهم ذلك.

٥- تهديد الله ووعيده لِـمَنْ كذَّب برسله، وكفر بكتابه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

التفسير:

١٧١-١٧٣- وقسماً لقد سَبَقَتْ كلمتُنا التي لا مَرَدَّ لها، ووعدُنا وقضاؤُنا لرسلنا أنهم هم المنصورون على أعدائهم بالحجة البالغة، والقوة القاهرة، وأن جندنا المجاهدين في سبيلنا هم الغالبون لأعدائهم في كل مقام بحسب الواقع والمآل.

١٧٤-١٧٥- فأعرِضْ يا محمدُ عَمَّنْ عاند وكفر بما جئت به من الحق، حتى تنقضـيَ المدة التي أمهلهم إياها، ويأتيك أمر الله بقتالهم، وأَنْظِرْهم وارتقِبْ ماذا يَحُلُّ بهم من العذاب، فسوف يرون ذلك عياناً بياناً.

١٧٦-١٧٩ - أفيستعجلونك بنزول عذابنا بهم أيها الرسول؟! فلا يستبعدون ذلك، فإن العذاب إذا نزل بِفِناء المكذبين المنذرين، فبئس صباحُهم ذلك اليوم الذي يحلُّ عليهم العذاب فيه. فأَعْرِضْ عنهم حتى يأذن الله بعذابهم، وأَنْظِرْهم وارتقبْ ذلك اليوم، فسوف يرون ما يحلُّ بهم من العذاب والعقاب.

١٨٠-١٨٢ - تَنَزَّه وتقدَّس الله تبارك وتعالى، ذو العزة والجبروت، عن كل ما يَصِفُه به هؤلاء المكذبون المفترون. وسلام الله وتحيته الدائمة وثناؤه وأمانه على جميع رسله. والحمد الكامل لله ربِّ العالمين في الأولى والآخرة، فهو المستحقُّ وحدَه لكامل الحمد والثناء والشكر الذي خَلَقَ جميع الخلق، ورَبَّاهم بنعمه، وأنعم عليهم بفضله.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات (١٧١-١٧٣) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة لعباد الله المرسلين، بأنَّ لهم النصرة على أعدائهم بالحجَّة والقوَّة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، والبشارة لجند الله المجاهدين في سبيله، بأنَّهم هم الغالبون لأعدائهم في كلِّ مقام، باعتبار العاقبة والمآل. وَعْدُ الله لرسله وأوليائه بالنصر، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. ووَعْدُ الله حَقٌّ لا يتخلَّفُ إذا تحقَّقَتْ شروطه، وتوافرت أسبابه.

٢- النصر يكون بالبيان والحجة البالغة، ويكون في ساحة القتال بالقوة والقهر، وقد تَحَقَّق نَصْرُ الله لرسله وأوليائه على أرض الواقع، وبحسب العاقبة والمآل.

٣- إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته لأُمته.

٤- في خَتْمِ الله هذه السورة الكريمة بالتسبيح والسلام والحمد بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تعليمٌ للعباد بأدب الخطاب في الابتداء والختام، فيَحْسُنُ خَتْمُ الدعاء والكلام والمجلس بها؛ لجليل معناها، وعظيم دلالتها، وبليغ عبارتها.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تحذير الأُمة بذكر أخبار الأُمم السابقة المكذِّبة.

٢- تسلية الرسول ﷺ عمَّا يَلْقاه من كفار قومه.

٣- إثبات البعث، وجزاء العاملين بأعمالهم من خيرٍ أو شرٍّ، ووصف أحوال يوم القيامة.

٤- تقرير التوحيد بأدلَّته، والوحي بشواهده، والنبوة بأعلامها، والقرآن الكريم بعظمته وصِدْقِ مصدره.

٥- تقرير عداوة إبليس لآدم وذريته بدافع الكِبْرِ والحسد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

١-٢- ﴿ صٓ ﴾ فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتحدِّي البلغاء أن يأتوا بمثل هذا القرآن. وفي الآية قَسَمٌ تنويهٍ بالقرآن الكريم الموصوف بما فيه من شرف وفضل، وهو تذكير لِـمَنْ نسي وغَفَل، لكنَّ الكافرين مستكبرون على الحق، متعالُون عليه، وفي شقاق وعداء مع الله تعالى ورسوله ﷺ.

٣- كثير من الأُمم المكذِّبة قبل هؤلاء المشركين أهلكناهم لكفرهم بربهم، وتكذيبهم لرسلهم، وحين نزل عليهم العذاب استغاثوا واستجاروا، ولكن فات وقت الاستجارة والنجاة، فلا مَفَرَّ ولا مَنْجَى.

٤-٥- وعَجِبَ هؤلاء الكفار مِنْ بَعْثِ الله إليهم رجلاً منهم؛ لِيَدْعُوَهم إلى ربهم، ويُنْذِرَهم عذابه، فكفروا به وكذَّبوه، وقالوا: ليس رسولاً صادقاً، بل هو كاذب في قوله، ساحر لقومه؛ إذ كيف يُصَيِّر الآلهة الكثيرة إلهاً واحداً؟ إنَّ هذا الذي جاء به من التوحيد ودعا إليه، لَشيءٌ عجيب.

٦-٧- وخرج رؤساء القوم وكُبراؤهم يُحَرِّضون الناس على الاستمرار على الشرك، والبقاء على الكفر وتَعَدُّد الآلهة. إنَّ ما جاء به هذا الرجل ودعا إليه شيءٌ مُدَبَّر، يُقصد منه الرئاسة والسيادة، فما سمعنا به في دين آبائنا من قريش، ولا في دين مَنْ سبقهم من اليهود والنصارى، فما هو إلا كذب وافتراء.

٨-كيف أُنزل عليه القرآن مِنْ بيننا، وليس هو بأكبرنا شرفاً، ولا أكثرنا مالاً، ولا أعلانا رئاسة؟ إنَّ هذا الاعتراض والإنكار ليس عن علم، بل عن حسد وكِبْرٍ وشك، بل قالوا ذلك؛ لأنَّهم ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه، ولم يذوقوا عذابه، ولو ذاقوه ما قالوه.

٩- إنَّ اصطفاءَك للرسالة رحمةٌ من ربك، وفَضْلٌ منه، فهل هؤلاء المُنْكِرون يملكون خزائن رحمة ربك العزيز في سلطانه، الوهَّاب لفضله لِـمَنْ يشاء مِنْ خَلْقِه، حتى يَتَصَرَّفوا بهذه الخزائن والرحمة كما يشاؤون!!

١٠ - أم لهؤلاء المشركين المعترضين مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما، فيتصرفوا بالعطاء والمنع كما يشاؤون!! فليأخذوا بالأسباب الموصلة لهم إلى السماء حتى يملكوا ويتحكَّموا بالعطاء والمنع.

١١ - هؤلاء الجند المكذبون جنود مهزومون، كما هزم غيرهم من الأحزاب قبلهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أقسم الله بالقرآن تعظيماً له، وتذكيراً بما فيه، ولله أن يُقْسِمَ بما يشاء، أما الإنسان فلا يُقْسِمُ إلا بربه تعالى.

٢- بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء في النفوس، وعداء للنبي ﷺ.

٣- بيان جهل المشركين في استنكارهم للوحدانية، وقَبولهم لتعدُّد الآلهة، ودفاعهم عنها.

٤- الكِبْرُ والحسد من موانع قبول الحق، والانقياد له.

٥- مَنْ لا يعلم ولا يملك فليس له حق الاعتراض على مَنْ يملك خزائن كل شيء، ويحيط عِلْمُه بكلِّ شيء.

٦- إن اتِّباع الرؤساء والكبراء بلا عِلْمٍ ولا وَعْيٍ مُهْلِكٌ.

٧- ليس اتباع الآباء، أو التمسك بالواقع، دليل صحة وحق.

٨- قد يكون التحَزُّب مدعاة للخطأ؛ لما يدعو له من تَعَصُّبٍ يمنع من التفكير الحر، والبحث عن الحق.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٢-١٤- كَذَّبَتْ قبلَ قومِك - يا محمد - أقوامٌ كثيرة كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون صاحب القوة والعظمة، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة قوم شعيب أصحاب البساتين والأشجار. أولئك الأقوام والأُمم أصحاب القوة والكثرة والغنى الذين تحزَّبوا على الكفر والتكذيب، واجتمعوا عليه. كلهم كَذَّبوا الرسل، وكفروا بهم، وبما جاؤوا به، فاستحقُّوا عذاب الله، وحَلَّ بهم عقابُه.

١٥ - فماذا ينتظر هؤلاء المشركون المكذِّبون بعد عِلْمِهم بما حَلَّ بالمكذِّبين قبلَهم من عذاب؟ ليس الأمر أكثر من صيحة واحدة بهم ليس لها من رجوع ولا انقطاع حتى تُهلكهم.

١٦ - وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية والاستعجال: ربَّنا عَجِّلْ لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب.

١٧ - اصبِرْ - أيها الرسول - على ما يقولونه، ممَّا تكره سماعه، وتخاف عقابه، واذكر عبدنا ونبينا داود صاحب القوة والقدرة على طاعة الله، والصبر والقوة على أعداء الله. إنَّه تَوَّاب كثير الرجوع إلى الله وما يرضيه.

١٨ - ١٩ - إنَّا سَخَّرْنا الجبال مع داود يُسَبِّحْنَ بتسبيحه أول النهار وآخره، وسَخَّرْنا الطير مجموعةً تُسَبِّح معه بتسبيحه، وتُرَجِّعُ بترجيعه.

٢٠ - وقَوَّينا مُلْكَه، وثَبَّتْناه بالهيبة والقوة والحكمة والنصر، وأعطيناه النبوة، والفصل في الكلام والحكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تسلية الرسول ﷺ وتثبيته على الثبات أمام أذى قومه، وتكذيبهم.

٢ - تهديد المكذبين بالعذاب، وتخويفهم من مصائر المكذبين قبلهم.

٣ - بيان سَفَهِ المشركين بطلب تعجيل العذاب، وجَهْلِهم بقدرة الله، وعظمته.

٤ - مشروعية الاقتداء بالصالحين، والتأسِّي بهم.

٥ - جمال الصوت من النِّعَم، ينبغي توظيفه في طاعة الله من قراءة وتسبيح ودعوة.

٦ - إثبات نِعَم الله على نبيه داود بأنواع النِّعَمِ: من حسن الصوت، وتسخير الجبال والطير تُسَبِّح بتسبيحه، وتُرَجِّعُ بترجيعه، وتلك من آيات الله ومعجزات داود.

٧ - إنعام الله على داود في إثبات ملكه بالقوة والهيبة، والعدل والحكمة، والبيان في الخطاب، وتلك أسباب تثبيت الملك والحكم.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢١-٢٢- هل أتاك - يا محمد - وقومك خبرُ المتخاصمين العجيبُ في واقعه، حين اعتلَوا على داود سُورَ محرابه، ودخلوا عليه مكان عبادته في خلوته، فارتاع من دخولهما عليه، فقالوا له: لا تخف، فنحن خصمان متنازعان، ظَلَمَ أحدنا الآخر، فاقضِ بيننا بالعدل والإنصاف، ولا تَجُرْ علينا في الحكم، وأرشِدْنا إلى الطريق الحق، والسبيل الواضح العادل.

٢٣- قال أحدهما: إنَّ هذا أخي وصاحبي يملك تسعة وتسعين نعجةً من النِّعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة فقط، فطَمِعَ فيها، وقال: أعْطِنيها، وشَدَّدَ علي في الكلام، وأكَّد رغبته فيها، وحِرْصَه عليها.

٢٤-٢٥- قال داود: لقد ظلمك أخوك بسؤاله ضَمَّ نعجتك إلى نعاجه؛ ليُكْمِلَ ما عنده المئة. وإن كثيراً من الشركاء لَيعتدي بعضهم على بعض، ويظلمه بأخذ حقه، وعدم إنصافه من نفسه، إلا المؤمنين الصالحين، فلا يبغي بعضهم على بعض، ويعطون الحق، ويُنصِفُون من النفس، ولكنَّ عددهم قليل. وأدرك داود أنّا اختبرناه بهذه الخصومة، فاستغفر ربه من خطئه؛ لأنه سمع من طرف واحد ثم حكم في القضية، وخَرَّ ساجداً توبة وإنابة لربه، ورجوعاً عن ذنبه. فغفرنا له ذنبه، وأَجَبْنا دعاءه، وجعلناه من المقرَّبين عندنا، وأَغْدَدْنا له كرامة وقُرْبة، وحُسْنَ مرجع عندنا.

الفوائد والاستنباطات:

١- الخوف طبيعة بشرية تعتري الإنسان في حالات كثيرة، ولا يَسْلَمُ منها الأنبياء.

٢- تأكيد حسن الأدب والخطاب حتى عند الخصام والتحاكُمِ من خلال ألفاظ الآية، وإغفال تعيين الباغي منهما، وإنَّما قالا: بغى بعضنا على بعض.

٣- قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ يحتمل أخوة القرابة والنسب، أو أخوة الصحبة والشراكة، وعلى أي منهما، فهما مثال لحسن الخطاب، وأدب المعاملة في خصومة القرابة والصحبة، واستبقاء الصلة، وعدم التقاطع والتدابر.

٤- إثبات نبوة محمد ﷺ، إذ مثلُ هذا القَصص لا يأتي إلا بوحي إلهي.

٥- الإنصاف من النفس شاهد لمدافعة حظوظ النفس وشهواتها، ولهذه العلة لا يجوزه إلا القلة الذين تسامَوا بالإيمان والعمل الصالح، حتى راضَتْ نفوسهم، وانقادَتْ للحق.

٦- من طبيعة الخلفاء والشركاء الاختلاف والبغي فيما بينهم، مما يستدعي توثيق العقود وتفصيلها، منعاً من الاختلاف والتنازع.

٧- وجوب التوبة عند وقوع الذنب والمسارعة لذلك.

٨- بيان فضل داود عليه السلام وإكرام الله له بما أعطاه من نبوة، وملك راسخ، ومعجزات باهرة، وحكمة وبلاغة ظاهرة، وتوبة كاملة، ومنزلة عند الله عالية.

٩- مشروعية السجود عند قراءة قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩)﴾

التفسير:

٢٦- يا داودُ إنَّا استخلفناك في الأرض، فجَعَلْناك خليفة فيها، ومَلِكاً لها. فاحكُمْ بين الناس بالعدل والإنصاف، ولا تتبع الهوى في الأحكام، فيُضِلَّك ذلك عن دين الله وشرعه، فإنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله، ويَتَّبِعُون أهواءهم وشهواتهم، ويتركون شرع الله، فلا يُحَكِّمونه بينهم، لهم عذاب شديد وعقاب أليم؛ بغفلتهم عن الآخرة، ونسيانهم الحساب يوم القيامة.

٢٧- وما خَلَقْنا السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من عجائب المخلوقات وكثرة أنواع، ودقة خَلْقٍ، ما خلقنا ذلك باطلاً ولهواً وعبثاً وسدى، واعتقاد أن ذلك الخلق لغير حكمة هو ظن الذين كفروا، فويل لهم من النار يوم القيامة لكفرهم بربهم، وسوء ظَنِّهم بخالقهم.

٢٨- أَيُعْقَلُ ويُقْبَلُ أن نجعل الذين آمنوا بربهم وأصلحوا في عملهم كالمفسدين في الأرض، الكافرين بالرب؟ أم نجعل الأخيار الأبرار المتقين لربِّهم المطيعين له كالأشرار الفجَّار الكفار؟!

هذه التسوية بين هؤلاء وأولئك غير لائقة بحكمة الله وحُكمه وعدله، فلا يستوون عند الله وعند الناس، بل يُثيب الله المؤمنين الأتقياء الأخيار، ويعاقب المفسدين الأشقياء الأشرار.

٢٩- هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد - وهو القرآن - كتاب عظيم مبارك، كثير الخيرات والبركات والمنافع في الدنيا والآخرة. أنزلناه ليتفكروا في آياته، ويَتَدَبَّروا هداياته ودلالاته؛ ليعملوا بها، وليتذكر أصحاب العقول السليمة القويمة ما أنزله الله عليهم، وما هداهم إليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنسان خليفة الله في أرضه، فواجب عليه اتباع شرعه.

٢- وجوب الحكم بالعدل، وحرمة اتباع الأهواء في الحكم بين الناس؛ لأنَّ الهوى يُعْمِي ويُصِمُّ، ويُوقع في الضلال والهلاك.

٣- نسيان الحساب والغفلة عن الآخرة مَدْعاة للتفريط والخسارة.

٤- تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم والجهل.

٥- عدم التسوية بين الكافر والمؤمن، والأخيار والأشرار. فلكلٍّ عَمَلُه، ولكلٍّ جزاؤه.

٦- في الآية (٢٨) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٧- الحَثُّ على تَدَبُّر القرآن الكريم؛ ومعرفة هداياته ودلالاته، والعمل به.

٨- بركة القرآن الكريم ثابتة ودائمة، ومَنْ طلبها وجدها.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾

التفسير:

٣٠- ورَزَقْنا عبدنا داود بالولد الصالح سليمان، فأنعمنا به عليه، وأقررنا عينه به، فأَنْعِمْ وأَكْرِمْ بعبدنا سليمان، فإنه كان كثير الطاعة والرجوع إلى ربه، والإنابة إليه.

٣١- اذكر حين عُرِضتْ على سليمان عصراً الخيول الأصيلة، وهي تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة حين الوقوف لخفَّتِها ونجابتها، فهي صافنة في وقفتها، سريعةٌ في جَرْيِها، خفيفةٌ في حركتها، جميلةٌ في شكلها، قوية مَهِيبة في منظرها، فما زالت تُعْرَضُ عليه وهو معجب بها.

٣٢- فقال: إنما آثرت حُبَّ الخيل واستعراضها، حتى شغلتني عن ذكر ربي، وأَلْهتني عنه حتى غابت الشمس في حجابها، وغَرَبَتْ في مغاربها.

٣٣- رُدُّوا عليَّ الخيلَ التي عُرِضت عليَّ من قبل، فرَدُّوها عليه، فشرَع يمسح على سيقانها ورقابها - وهذا من الفروسية - وكان يعتب عليها بلطف؛ لأنها شغلته عن ذكر الله.

٣٤-٣٥- ولقد ابتلَينا سليمان بأمر عظيم حين جعلنا على كرسيِّ مُلْكِه شِقَّ ولدٍ رُزِقَ به حين أقسم لَيطوفَنَّ على مئة امرأة من نسائه في ليلة واحدة تأتي كلُّ واحدة بفارس مجاهد، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهنَّ فلم تحمل منهنَّ الا إمرأة واحدة جاءت بشِقِّ ولد، فعرف سليمان السبب، فتاب إلى ربِّه وأناب، وطلب منه مغفرة ذنبه، وإجابة دعوته باستدامة ملكه، وتميُّزه عن ملك غيره بما لا يُعطى لغيره من بعده، فإنَّ الله ﷻ واسع الفضل، كثير العطاء.

٣٦- فاستجاب الله دعوته بقَبول توبته، وتحقيق رغبته وطَلِبَتِه، فسَخَّر له الريح، وذَلَّلها له تجري لَيِّنةً طيبة بأمره، تتجه حيث قصد.

٣٧-٣٨- وسَخَّرْنا له الشياطين يستعملهم في أعماله، فمنهم البنَّاؤون يشيِّدون له الدُّور والقصور والحصون، ومنهم الغَوَّاصون في البحار يستخرجون اللؤلؤ والمرجان، وآخرون من مَرَدَةِ الشياطين وعصاتُهم مُوَثَّقون في الأغلال لمنع شرورهم، وكَفِّ أذاهم.

٣٩- هذا المُلْكُ العظيم، والتسخير الخاص الذي لم يكن لغيرك، عطاؤنا لك، إجابتنا لدعوتك، فأَعْطِ مَنْ شئت، واحْرِمْ مَنْ شئت، لا حساب عليك في ذلك ولا عتاب.

٤٠- وإنَّ لسليمان عندنا في الآخرة لَقُرْبَةً، وحسن مرجع، وعلو منزلة.

الفوائد والاستنباطات:

١- الولد الصالح هبة من الله، ونعمةٌ على عبده، فعلى العبد شكر الواهب وبِرُّ الموهوب.

٢- الحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار عند الوقوع في الذنب مباشرة، وعدم التأخير والتسويف.

٣- جواز استعراض القوة في الأُمة لإظهار القدرة، وشكر النعمة، وردع العدو.

٤- الخيل مربوط بنواصيها الخير، فيها القوة والجمال في حركتها ووَقْفَتِها واستعراضها.

٥- إن لمس الإنسان لسيقان الخيل وأعناقها له الأثر البالغ في تطمينها وإشعارها بالود والمحبة، ويمكن لراكب الفرس أن يعبر له أو لها بما يشاء عن طريق اللمس، كذلك يمكن الفرس أن يتفاهم مع غيره من الأفراس عن طريق لمس جسديهما ببعض. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢٨٠-٢٨٤).

٦- إرجاع ضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ للشمس مع عدم تَقَدُّم ذِكْرِها، إنما هو بقرينة ذكر العَشِيِّ، وحرف الغاية، ولفظ توارت، ولفظ الحجاب، والإضمار للشمس في ذكر الأوقات كثير في الكلام.

٧- الإنسان مُعَرَّضٌ للابتلاء، حتى الأنبياء، وفي ذلك رَفْعُ درجات، وتكفيرُ سيئات، وتذكيرٌ بالنعم والحسنات.

٨- بيان عُلُوِّ منزلة سليمان عند الله، وبيان نِعَمِه عليه في الدنيا، بقَبول التوبة، واستمرار الملك، وتسخير الريح والجن، وتصفيد المردة، وتمكينه من العطاء والمنع، لما لم يكن لأحد غيره من الناس. وفي الآخرة بالتكريم والتقريب وارتفاع المنزلة عند الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٩- لم يُسَمِّ الله فتنة سليمان، وتحديدُها اجتهاد لم يَرِدْ عليه دليل قاطع، فهو ابتلاء عَرَضَ له، ثمَّ خرج منه بإنعام وإكرام؛ فضلاً من الله ونعمة.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٤١ - واذكر - يا محمد - عبدنا أيوب حين دعا ربه بما أصابه، حين قال: إنَّ الشيطان تَسَبَّب لي بتعب ومشقة وألم في جسدي، ومالي، وأهلي.

٤٢ - فقلنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرض ينبع لك منها ماء بارد، فاشرب منه، واغتسل فيه، يذهب عنك ما أصابك من ضر وأذى.

٤٣ - وأعطيناه أهله من زوجةٍ ووَلَد، وزِدْناه مثلهم بنين وحَفَدَة، رحمة منا به، وإكراماً له على صبره، وإجابة لدعوته، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة، والفهوم الصحيحة.

٤٤ - وقلنا له حينما أقسم أيوب عليه السلام أن يضرب أهله: خُذْ بيدك حزمة أعواد من الحشيش ونحوه، فاضرب بها مَنْ أقسمت على ضربه؛ إبراراً بيمينك، حتى لا تحنث، ولا تؤذي مَنْ أحببت. إنا وجدنا أيوب صابراً على البلاء الذي حَلَّ به، فنِعْم العبدُ هو على صبرِه وطاعة ربه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في تذكير النبي محمد ﷺ وقومه بقصص الأنبياء قبله، تسلية وتأسية وعبرة، وتقريرٌ للنبوة.

٢ - من فوائد الاغتسال بالماء البارد ما يلي:

أ- ينبه الجهاز العصبي مما يساعد على سرعة ردود الأفعال.

ب- تنشيط الجسم وزيادة تدفق الدم.

ت- تنشيط غدة البنكرياس وزياة إفراز هرمون الأنسولين في الدم مما يساعد على سرعة احتراق السكر في الدم.

ث- يقلل من الألم لأنه يساعد الجسم على إطلاق هرمون الأندورفين القاتل للألم كما يحسن المزاج وينشط الأعصاب الحسية في الدماغ.

ج- تقوية جهاز المناعة ومقاومة الأمراض. (مجلة الإعجاز العلمي ص٣٢، عدد ٤٥، ذو الحجة ١٤٣٤هـ).

٣- في الابتلاء رفع درجات وتكفير سيئات؛ ولذا يعرض للأولياء والأنبياء.

٤ - فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.

٥- بيان فضل نبي الله أيوب، ونِعَمِ الله عليه، بإجابة الدعاء، ورفع البلاء، وهبة الأهل والأبناء.

٦- رِفْقُ الله بأيوب ومَنْ أحب، حين هداه للبرِّ بيمينه، دون أذى حبيبه، بمخرج شرعي لطيف حين أمره بالضرب بالضغث، حيث لا حِنْثٌ ولا أذى.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٥- واذْكُرْ - أيها الرسول - عبادنا وأنبياءنا: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فإنَّهم أصحاب قوة على الطاعة، وبصيرة في الدين.

٤٦-٤٧- إنا خَصَصْناهم بخاصة عظيمة، وميزة كريمة، فقد جعلنا ذِكْرَ الدار الآخرة حاضرة في قلوبهم لا يغفلون عنها، فعملوا لها بطاعتنا، ودَعَوا الناس إليها، وذَكَّروهم بها. وإنَّهم عندنا من الأصفياء الخُلَصاء الذين اصطفيناهم لرسالتنا، واخترناهم لطاعتنا.

٤٨- واذكر - أيها الرسول - عبادنا: إسماعيل، واليسع، وذا الكفل، بأحسنِ الذِّكْرِ. إنَّ كلاً منهم من الأنبياء والأخيار الذين اختارهم الله لنبوته، واختار لهم أكمل الأحوال والأوصاف.

٤٩-٥١- هذا القرآن ذِكْرٌ وشرف لك - أيها الرسول - ولقومك. وإنَّ لأهل تقوى الله وطاعته لَمصيراً إلينا حسناً، إذ يقيمون عندنا في جنات مُعَدَّة لإقامتهم يُستقبلون فيها بأبواب مفتوحة، وأُعِدَّ لهم مجالسُ يتكئون فيها على الأرائك المزيَّنة، ويطلبون ما يشتهون من الفواكه المتنوعة، وأنواع الشراب المتعددة.

٥٢- وعندهم نساء متساويات في السن، قاصرات أبصارهنَّ على أزواجهنَّ، لا يَنْظُرْنَ لغيرهم، ولا يَتَعَلَّقْنَ بسواهم.

٥٣-٥٤- هذا النعيم المتنوع هو ما تُوعَدُون وتُجْزَون به - أيها المؤمنون المتقون - يوم القيامة، فهو رِزْقُنا لكم، لا انقطاع فيه، ولا نفاذ له.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تكريم الله لأنبيائه بذِكْرِهم والثناء عليهم.

٢ - مَدْحُ الله لأنبيائه وعباده بالقوة في العبادة والطاعة، والبصيرة في الدين.

٣ - ذِكْرُ الآخرة، وعدم الغفلة عنها، مَدْعاة للعبادة، واستحضارِها على الدوام.

٤ - بيان فضل التقوى، والثناء على أهلها، وبيان ما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

٥ - تَنَوُّع نعيم الآخرة للمتقين وعباد الله المؤمنين، بما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ به الأعين، وهو نعيم دائم لا ينقطع، جَمَعَ الكمال في العدد والنوع.

٦ - الأنبياء والصالحون هداة يُقتدى بهم في الدين.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٥-٥٦- هذا الذي سَبَقَ ذِكْرُه ووَصْفُه للمتقين، وأما الطغاة المتجاوزون الحدَّ في الكفر والظلم فلهم شر مرجع ومصير، فقد أُعِدَّت لهم النار يُعَذَّبون فيها، فيشملهم عذاب من جميع جوانبهم كأنَّها مِهاد وفِراش يتقلَّبون فيه، فبِئْسُ المهاد والفراش.

٥٧- هذا عذابهم. وأما شرابهم فماء شديد الحرارة، وصديد سائل من أجساد أهل النار فليشربوه، ولهم أصناف وأنواع أخرى كثيرة من العذاب.

٥٩- عند تَوارُدِ المشركين على النار يتخاصمون بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً فيقولون: هذه جماعة كبيرة من الأتباع قادمة لكم، وداخلة معكم، فيقول الآخرون: لا أهلاً ولا مرحباً بهم، فلهم النار يقاسُون حَرَّها، كما قاسيناه.

٦٠-٦١- فيقول الأتباع للطاغين المتبوعين: بل أنتم لا مرحباً بكم؛ لأنكم أضللتمونا في الدنيا عن الحق، حتى صارت النار لنا مَسْكَناً ومقراً، فبئس دار الاستقرار. فيا رَبَّنا مَنْ أَضَلَّنا في الدنيا عن الهدى وأَدْخَلَنا العذاب، فضاعِفْ عذابه في النار.

٦٢-٦٤- وقال الطغاة المتبوعون: ما بالُنا لا نرى معنا في النار رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم في الدنيا من الأشقياء والأشرار؟ هل تحقيرنا لهم واستهزاؤنا بهم كان خطأ، أو أنهم معنا في النار، لكنْ لم نَرَهُم، ولم تقع عليهم الأبصار؟!

إنَّ ما تَقَدَّم من جدال أهل النار وخصامهم، وحديث بعضهم لبعض، حَقٌّ واقع لا شك فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ذَمُّ الطغيان في الكفر والظلم، وبيان جزاء أهله في الآخرة.

٢ - تَنَوُّعُ عذاب الطغاة والمشركين يومَ الدين بما لا تُطِيقه الأسماع، فضلاً عن الأجسام.

٣- ذِكْرُ صُوَرٍ مِمَّا يجري من الخصام والجدال بين أهل النار للعِظَةِ والاعتبار، وكشف الحقائق والأسرار.

٤ - دعاء الأتباع على المتبوعين بمضاعفة العذاب عليهم؛ لأنَّهم سبب ضلالهم، وهم مَنْ زَيَّن لهم الكفر والمعاصي والفجور.

٥ - بُطْلان معتقدات المشركين، وتصنيفُهم للناس في الدنيا إلى أشرار وأخيار.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٥-٦٦- قل - يا محمد - لقومك: إنما أنا رسول من الله إليكم لأُخَوِّفَكم، وأنذركم من عذاب الله أن يحلَّ بكم؛ بسبب كفركم وتكذيبكم، وأُبَلِّغكم أنه ليس هناك إله مستحق للعبادة والطاعة إلا إله واحد هو الله وحده، الذي قهر كل شيء وغلبه، فهو مالك السموات والأرض وما بينهما، والمتصرِّف فيهما، وهو العزيز في ملكه وانتقامه، الغَفَّار لذنوب مَنْ تاب من عباده، وأناب إلى مرضاته.

٦٧-٦٨- قل - يا محمد - لقومك: إنَّ هذا القرآن خبرٌ عظيم النفع والهداية، أنتم عنه غافلون منصرفون لا تعلمون خيره، ولا تعملون به.

٦٩-٧٠- ليس لي علم باختصام ملائكة السماء في شأن خلق آدم، لولا تعليم الله لي ما لا أعلم وحياً من الله لي؛ لِأُنْذِرَكم عذاب الله، وأبيِّنَ لكم شرعه ودينه.

٧١-٧٤- اذكر - يا محمد - لقومك، قصة خلق آدم حين قال ربك للملائكة مخبراً لهم: إني خالق بشراً من طين، فإذا سَوَّيْتُ خَلْقَه، وأكمَلْتُ جَسَدَه، ونَفَخْتُ فيه من روحي، فدَبَّتْ فيه الحياة، فاسجدوا إكراماً له، وإعظاماً لخلقه، سجودَ تحيةٍ لا سجودَ عبادة، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، طاعةً لله وامتثالاً لأمره، غير إبليس، فامتنع عن السجود تكبُّراً واستعلاءً، وكان في عِلْمِ الله من الكافرين.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير التوحيد بأدلّته وعلاماته.

٢- تقرير نبوة محمد ﷺ، وأنَّ ما جاء به وَحْيٌ من الله بشواهده من الخبر عن الملأ الأعلى، الذي لا يَعْلَم ما يجري فيه إلا بوحي من الله.

٣- إظهار عداوة إبليس لآدم وذريته.

٤- ذمُّ صفة الكبر والحسد، وبيان شرِّها وأذاها على مَنْ اتصف بها.

٥- تقرير الحوار بين الأنداد والأضداد، وعَرْضُ القرآن للشُبَه، والحِجاج عند الخصوم بوضوح وصراحة تامة، والرَّدُّ على ذلك بالحجة البالغة.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير:

٧٥- يخاطب الله إبليس: ما الذي منعك من السجود لِـمَنْ أكرمتُه، فخلقته بيدي؟ ونفخت فيه من روحي؟ أستكبرت عليه، أم كنت من المتكبِّرين المتعالِين على ربك؟

٧٦-٧٨- قال إبليس معارضاً ربه: لم أسجد له؛ لأنني أفضل منه، وهو أدنى مني، فقد خَلَقْتَني من نار، وخَلَقْتَه من طين، والنار خير من الطين. فردَّ الله عليه: فاخرج من الجنة حقيراً شريداً طريداً ملعوناً دائماً إلى يوم القيامة.

٧٩-٨٣- قال إبليس لربه: رَبِّ فأَخِّرْ أجلي، ولا تُهْلِكْني إلى حين تبعث الخلق من قبورهم. فأجاب الله طلبه: فإنك من المؤخَّرين إلى يوم الوقت المعلوم حين تموت الخلائق جميعاً عند النفخة الأولى.

٨٤-٨٥- فالحق مني، ولا أقول إلا الحق، لَأَمْلَأَنَّ جهنم منك يا إبليس، ومن ذريَّتك، ومِمَّنْ تبعك من بني آدم أجمعين، بمَنْ تبع ضلالك، وترك هُداي.

٨٦- قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: لا أطلب منكم أجراً ولا جزاء على دعوتكم وهدايتكم، ولا أدَّعي ما ليس لي، ولا أتَكَلَّفُ شيئاً تَخَرُّصاً وافتراء، بل أَتَّبِعُ ما يُوحى إلي من ربي.

٨٧-٨٨- ما هذا القرآن إلا تذكيرٌ للعالمين جميعاً من الجن والإنس، يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم، وما يُصلح أحوالهم في دنياهم، وسوف تعلمون - أيها المشركون - خبر هذا القرآن وصدقه حين ينتصر الإسلام، ويدخل الناس فيه أفواجاً، وحين يقع عليكم العذاب، وتنقطع عنكم الأسباب، حين ترون أخباره وحقائقه عين اليقين.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيتين (٨٢-٨٣) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ إبليس قد أخذ على نفسه عهداً بأن يُضِلَّ بني آدم، إلا مَنْ أخلص العبادة لله تعالى.

٢- إكرام الله للإنسان حين خلق أباه بيده، وأسجد له ملائكته، وأدخله جنته.

٣- غَضَبُ الله على إبليس وطَرْدُه من الجنة؛ لمعصية ربه، وحسده لآدم وذريته.

٤- بيان غاية إبليس من طلب تأخير أجله؛ ليُضِلَّ الناس، ويُغْوِيهم عن الحق، ويُغْرِيهم بالمعصية، ويُزَيِّن لهم الشهوات، ويوسوس لهم بالشبهات؛ ليكونوا قُرَناءه بالنار. وبهذا تظهر عداوة الشيطان للإنسان.

٥- حِفْظُ الله لعباده المؤمنين المخلصين من إغواء الشياطين.

٦- ذَمُّ التكلُّف المؤدِّي إلى الكذب، والتقوُّل على الله، ورسوله، والمؤمنين.

٧- التذكر بالقرآن والتعلم من قصصه وخبره، وظهور صدقه وأنَّه وحي الله لرسوله ﷺ.

٨- في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة للإسلام وأهله، فقد تَوَعَّد الله المشركين بأنَّهم سيعلمون خبر هذا القرآنِ وصِدْقَه حين يغلب الإسلام، ويدخل النَّاسُ فيه أفواجاً.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير عقيدة التوحيد، وتأكيدها.

٢ - التنويه بشأن القرآن الكريم.

٣ - إبطال عقيدة الشرك، والردُّ على شُبَهِ المشركين.

٤ - إثبات البعث بالمثال، والجزاء يوم الحساب؛ لتُجزى كل نفس بما كسبت، بعدلٍ لا ظلم معه.

٥ - بيان عظمة الله ﷻ في قدرته على تنظيم كونه وقبضته، ممَّا لا يَصِحُّ أن يُشْرِكَ معه غيره.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - ٢ - تنزيل القرآن الكريم إنما هو من الله العزيز في قدرته وانتقامه، الحكيم في تدبيره وأحكامه، فقد أنزلنا إليك - يا محمد - هذا القرآن يأمر بالحق والعدل، فاعبد الله وحدَه، وأَخْلِصْ له عبادتك ودينك.

٣ - فإن الطاعة التامة الكاملة والسالمة من الشرك لله وحده. فأمَّا الذين أشركوا مع الله غيره واتخذوا من دونه أولياء وقالوا محتجِّين: ما نعبد تلك الآلهة مع الله إلا لتشفعَ لنا عند الله، وتُقَرِّبُنا منه، وتَرْفَعُنا عنده منزلة، فقد كفروا بهذه المقولة؛ لأنَّ العبادة والشفاعة لله وحده والله لا يرضى بأن يُشْرَكَ معه غيرُه، فبَطَلَتْ تلك الشبهة. إنَّ الله لا يُوَفِّقُ للهداية إلى دينه مَنْ هو كَذَّابٌ على الله، جَحُودٌ بآياته ورسالاته.

٤- لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاختار من مخلوقاته ما يشاء، واصطفى مَنْ يريد. تَنَزَّه وتَقَدَّس عن أن يكون له ولد، فإنَّه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يَلِدْ ولم يولد، وهو القهَّار لغيره بقُدْرَتِه، فكلُّ شيء خاضع ذليل له.

٥- خَلَقَ الله السموات والأرض وما فيهما بالحق، يَتَصَرَّف فيهما كيف يشاء، يجيء بالليل، ويَذْهب بالنهار، ويجيء بالنهار، ويَذْهب بالليل، وذَلَّل الشمس والقمر، يجري كل منهما في فَلَكه بانتظام إلى قيام الساعة، تتحقق بذلك منافع العباد ومصالح الناس. إنَّ الله الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خَلْقِه بهذه المخلوقات، فأَوْجَدَها وسَخَّرها، هو العزيز على خَلْقِه، الغَفَّار لذنوب عباده.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير التوحيد، وإثبات نبوة رسولنا محمد ﷺ.

٢- بيان مصدر القرآن الكريم، وأنَّه تنزيل من حكيم حميد.

٣- الإخلاص ركن الطاعة الأساس.

٤- بطلان شبهة المشركين في شركهم، بأنهم يريدون مَنْ أشركوا شفعاءَ يُقَرِّبونهم عند الله زُلفى، فالعبادة لله، والشفاعة برضا الله وإذنه.

٥- تنزيه الله عن الولد، فهو الواحد الأحد الذي لم يَلِدْ ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

٦- إثبات قدرة الله على الخلق والتصرف بما خلق، تدليلاً على القدرة والحكمة والنعمة.

٧- حركة الكون والأفلاك مقدرة الأجل، ومحددة المسار، وكلها أدلة على العزيز القهار.

٨- تثبت الدراسات العلمية حتمية فناء كل من الشمس والقمر، فالشمس تفقد في كل ثانية من عمرها (على هيئة طاقة) ما يعادل ٦ , ٤ مليون طن من كتلتها. وقد ثبت أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها ما يقدر بحوالي الواحد من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان، وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها - على ضآلته - يؤدي إلى تزايد مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره مما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة. ويُقَدِّر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يخرجه حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض له إلى نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه وتكون في ذلك نهايته الحتمية. ومن الحقائق الثابتة عن الأرض أنَّها مكورة (كرة أو شبه كرة)، ولكن نظراً لضخامة أبعادها فإن الإنسان يراها مسطحة بغير أدنى انحناء. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٧٥-٥٨٨، ٢٣١-٢٤٤).

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

٦- خَلَقَكم ربُّكم - أيها الناس- من آدم، وخَلَقَ منه زوجَه، وخَلَقَ لكم من الأنعام ثمانية أنواع ذكراً وأنثى: من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما أنه يخلقكم في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور، ومرحلة بعد أخرى، في ظلمات ثلاث: ظُلْمَةِ البطن، وظُلْمَةِ الرحم، وظُلْمَةِ المشيمة. ذلكم الخالق لتلك المخلوقات في تلك الظلمات. هو الله ربُّكم المتفرِّد بالملك، والموَحَّد بالألوهية، المستحق وحده للعبادة، فكيف تَعْدِلُون عن عبادته، وتنصرفون إلى عبادة غيره من خلقه؟

٧- إن تكفروا - أيها الناس- بربكم، فلا تؤمنوا به ولا برسله ولا بكتبه، فإنه غني عنكم، ليس بحاجة إليكم، بل أنتم الفقراء إليه، والضعفاء بين يديه، والله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمرهم به، بل يُحَذِّرُهم منه، وإنما يرضى لهم شُكْرَ نِعَمِه عليهم، ولا تحملُ نفسٌ إثمَ نفسٍ أخرى، بل تُجْزى كل نفس بما كسبت، إلى الله مرجعكم ومصيركم، فيخبركم بعملكم الذي أحصاه عليكم، ويحاسبكم عليه، فهو عليم بأسرار النفوس، وما تُخْفي الصدور.

٨- وإذا أصاب الإنسانَ بلاء وشدة ومرض، تذكَّر ربه، فاستغاث به ودعاه ورجاه، ثم إذا أجاب الله دعوته، وكَشَفَ ضُرَّه، وأسبغ عليه نعمه، نسي دعاءَه ربَّه، وكَشْفَه ضُرَّه، وأشرك معه غيره؛ ليُضِلَّ الآخرين عن الإيمان بالله، ويَصُدَّهم عن دينه، فقل له - يا محمد - مُهَدِّداً مُتَوَعِّداً: تَمَتَّعْ بكفرك قليلاً من الوقت إلى حين يأتي أجلك فتموت، فإنَّك بكفرك وضلالك من أصحاب النار المعذَّبين بها، الخالدين فيها.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: صورة خلق الإنسان في الرحم، كما في الملحق.

٢- تذكير الإنسان بنِعَمِ الله عليه بأطوار خلقه، وتَنَوُّع الرزق.

٣- قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «التفسير الطبي لقوله تعالى: ﴿ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ﴾ وجد أن للظلمة أثراً كبيراً في نمو الجنين داخل الرحم خاصةً جهازه العصبي، فالضوء يعيق نموه وقد يسبب إتلاف شبكية العين، لذلك تكون أجفان الجنين مغلقة أيضاً ولا تُفتح إلا قُبيل الولادة». وينظر: صورة الظلمات الثلاث، كما في الملحق

٤- بيان غنى الله تعالى عن خلقه، وافتقار الخلق إليه.

٥- إثبات عدل الله يوم القيامة، في حُكْمِه بين خَلْقِه.

٦- إحاطة علم الله بخلقه في أحوالهم وأفعالهم، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيتها.

٧- بيان معرفة الإنسان ربه في الشدة، وإعراضه عنه في الرخاء، بما يكشف نفسية الإنسان في تَقَلُّبِه وتَغَيُّره، وعدم ثباته في كثير من حالاته.

٨- في الآية (٨) إخبار مستقبليٌّ عن حال الإنسان الكافر إذا أصابه بلاء وشدَّة ومرض، فإنَّه يتذكَّر ربَّه، ويستغيث به ويدعوه، ثمَّ إذا أجابه، وكشف عنه ضُرَّه، ومنحه نعمه، نسي دعاءه لربِّه، وأشرك معه غيره؛ ليُضِلَّ غيره عن الإيمان بالله وطاعته.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩- أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم مَنْ هو عابد لربه، مطيع له، يقضي ساعات الليل في الصلاة لربه والسجود له، يخاف عذاب الآخرة، ويأمُل رحمة ربه؟ قل يا محمد هل يستوي الذين يعلمون الحق، والذين لا يعلمون شيئاً؟

إنهم قطعاً لا يستوون. إنما يتذكَّر المواعظَ، ويعرف الحقائق، أصحابُ العقول السليمة من الهوى والشبهات.

١٠- قل - يا رسول الله - لعبادي المؤمنين بربهم، المُصَدِّقين برسوله: اتقوا ربكم بطاعته، واجتناب معصيته، فإن للذين أحسنوا في هذه الدنيا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح النافع، لهم حسنة في الآخرة وهي الجنة، مع حسنة الدنيا من صحة ونصر ورزق وغير ذلك. وإن أرض الله واسعة، فهاجروا فيها إلى حيث تعبدون ربَّكم، وتُقيمون دينكم، واعلموا أن الصابرين يُعْطَون ثواب صبرهم في الآخرة بغير حسابٍ كثرةً ووفرة.

١١-١٣- قل - يا محمد - للناس: إنَّ الله أمرني ومَنْ تبعني بإخلاص العبادة له وحده دون سواه، وأمرني أن أكون أولَ مَنْ أسلم من أمتي.

وقل للناس يا محمد: إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من طاعته والإخلاص في عبادته عذابَ يوم القيامة، ذلك اليومِ العظيمِ بأحداثه وأهواله.

١٤-١٥- وقل لهم يا محمد: إني أعبد الله وحده لا شريك له، مخلصاً له في عبادتي وطاعتي.

فاعبدوا أنتم - أيها المشركون - ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام والمخلوقات، فلن يَضُرَّني ذلك شيئاً، بل يَضُرُّكم، وقل لهم: إنَّ الخاسرين حقاً هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بما

أشركوا بالله. إنَّ خُسْران المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة هو الخسران البيِّن الواضح، إذ لا رِبْحَ بعده أبداً.

١٦- أولئك الخاسرون لهم يوم القيامة عذاب عظيم حيث تغشاهم قِطَعٌ من النار من فوقهم كهيئة الظلِّ عليهم، من تحتهم قطع أخرى كذلك. هذا العذاب الموصوف بها ترتعد به النفوس يُخَوِّف الله به عباده، ويُحَذِّرهم منه. فيا عبادي اتقوني بامتثال أوامري، واجتناب معاصِيَّ؛ حتى تَسْلَمُوا من العذاب والعقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- تفضيل أهل العلم على غيرهم عند الله وعند الناس.

٢- تفضيل القانت العابد على العاصي العابث.

٣- وجوب التقوى والصبرِ على الأذى.

٤- تقرير التوحيد، وتأكيد الإخلاص.

٥- الخسران الكامل هو خسران الآخرة، حيث لا ربح بعده، أمَّا خسارة الدنيا فمعوضة.

٦- شدة عذاب الآخرة وتَنَوُّع ألوانه، يُخيف كل صاحب قلب حي.

٧- التقوى وسيلة النجاة في الحياة الأخرى.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

التفسير:

١٧-١٨- والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، وعبادة غير الله، وتابوا إلى الله وأنابوا إليه بعبادته وحده، وإخلاص الدين له، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالتوفيق والهداية والثناء الحسن، وفي الآخرة بالرضوان ونعيم الجنان. فبَشِّرْ - يا محمد - عبادي الذين يستمعون القول، فيتَّبعون أرشده وأحسنه، وأحسن ذلك

كلام الله، وكلام رسوله ﷺ. أولئك هم الذين وَفَّقهم الله للرشاد والهدى والسداد، فهداهم لأحسن الأقوال والأخلاق والأعمال، فهم أصحاب العقول السليمة القويمة.

١٩-٢٠- أفمَنْ وَجَبَتْ عليه كلمة العذاب؛ بسبب عناده وكفره بآيات ربه، فلن تُنْقِذَه من النار، فلستَ عليه بوكيل، ولا عنه بمسؤول، إذ ارتضى الهلاك لنفسه.

لكن الذين اتقوا ربهم - بطاعته وإخلاص عبادته - لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري من تحتها الأنهار، أعدَّها اللهُ، ووَعَدَها عباده المتقين وعداً متحققاً قطعاً، فإنَّ الله لا يخلف الميعاد.

٢١- ألم تر - يا محمد - أن الله أنزل من السماء ماءً فأدخله في الأرض، وجعله عيوناً نابعة، ومياهاً جارية، ثم يُخرج بهذا الماء زرعاً مختلفاً أنواعُه وألوانه، ثم ييبس بعد خضرته ونضارته، فتراه أصفر اللون ثمَّ يجعله حُطاماً متكسراً. إن في هذه الأحوال والأطوار لَعِبْرَةً وذكرى لأصحاب العقول الحكيمة السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- بشارة الله لِـمَنْ تاب وأناب، وترك عبادة غير رب الأرباب.

٢- فضيلة التمييز بين الحق والباطل، واتباع الأحسن في الأقوال والأعمال، وتَرْكِ ما دون ذلك، وشَرَفُ النظر والاستدلال؛ لمعرفة الحق من الباطل، والخطأ من الصواب.

٣- مَنْ وَجَبَتْ له النار لا يمكن هدايته من أحد من الناس.

٤- إثبات نعيم الجنة وتَنَوُّعه.

٥- تذكير الناس بما تراه أعينهم من مظاهر قدرة الله في الخلق والإحياء، وفي الإماتة والبعث، مما هو دليل على كمال القدرة، وتَفَرُّد الألوهية، واستحقاق العبادة.

٦- لاحظ العلماء أن أهم عناصر تترسب في النبات ولها خصائص التحطم هي السيلكا، فالسيلكا تتوافر في النبات في صور بلورات حجرية (phytolith) وهي مكونات الزجاج، وتترسب في أماكن محددة بأوراق النبات خصوصاً نباتات ذوات الفلقة الواحدة مثل الشعير والقمح والذرة وتكون أعلى في حالة توافر الماء حيث تصل النسبة إلى أكثر من ١٠ ٪ من المادة الجافة Dry matter.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

٢٢- أفمَنْ وسَّع الله صدره، فسَعِدَ بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على نور من ربه، وبصيرة من أمره، كمَنْ ليس كذلك؟ لا يَسْتَوون. فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم، وأعرضت عن ذكر الله، فهم في ضلال بَيِّن عن الحق.

٢٣- الله ﷻ هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، الذي هو أحسن الحديث؛ لأنه كلام الله، أنزله متشابهاً في حسنه وإحكامه، وفي لفظه وعدم اختلافه، تُعاد فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات، تقشعرُّ من سماعه وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثُّراً بما فيه من ترهيب ووعيد، ثم تَلِينُ جلودُهم وقلوبهم إلى ذِكْرِ الله؛ استبشاراً بما فيه من وَعْدٍ وترغيب. ذلك التأثر والتذكُّرُ هداية من الله لعباده. والله يهدي بهذا القرآن العظيم مَنْ يشاء من خلقه، ومَنْ يُضْلِلْه اللهُ عن الإيمان بهذا القرآن بكُفْرِه وعِناده، فما له من هادٍ يهديه للدين، ويوفقه للحق.

٢٤- أفمَنْ يُلْقَى في النار مغلولةً يداه، فلا يستطيع أن يتقي النار إلا بوجهه، لكفره وضلاله، خير أم من ينعم في الجنة؛ لأنَّ اللهَ وفَّقه وهداه إلى تُقاه؟ وقيل يومئذ للظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من المعاصي والآثام.

٢٥-٢٦- كذَّب الذين من قبل قومِك - يا محمد - رسلهم، فجاءهم العذاب من حيث لا يشعرون بمجيئه، فأذاق الله الأُمم المكذِّبة العذابَ والهوان في الدنيا، وأعدَّ لهم عذاباً أشقَّ وأشدَّ في الآخرة. لو كانوا يعلمون أن ما حَلَّ بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لاتَّعظوا، واعتبروا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٢٢) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٢ - في الإسلام انشراح للصدر، ونور في القلب واطمئنان للنفس، واقتناع في العقل، بخلاف مَنْ قسا قلبه، وضلَّ عقله، فكفر بربه.

٣ - القلوب قلبان: قلب قابل للهداية، وآخر مُعْرِضٌ عنها غير قابل لها.

٤ - القرآن أحسن الحديث؛ لأنَّه كلام الله، فيه خبرُ ما قبلنا، ونبأ ما بعدنا، وحُكْم ما بيننا، لا تنقضي عجائبه، فهو متشابه في حسن بيانه وبلاغة ألفاظه، وإتقان أحكامه، وصدق قصصه وأخباره.

٥ - عِظَمُ تأثير القرآن الكريم فيمَنْ يتلونه حق تلاوته، ويخشون ربهم حق خشيته.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٢٨- ولقد ضَرَبْنا للناس جميعاً في هذا القرآن من كل مَثَلٍ من أمثال القرون الماضية وقصصهم وأخبارهم تخويفاً وتحذيراً؛ لعلهم يتذكرون ويتعظون، فينزجروا عمَّا هم مقيمون عليه من الكفر والتكذيب، وجَعَلْنا هذا القرآن عربيَّ اللسان، بليغ البيان، واضح المعاني، لا لَبْسَ فيه ولا انحراف بل غزارة معنى في وِجازة لفظ، فلعلهم يتقون الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

٢٩- ضرب الله عبداً مملوكاً لشركاء متنازعين مختلفين، فهو حيرانُ في إرضائهم جميعاً، وعبداً آخر مملوكاً خالصاً لمالك واحد يعرف مراده، وما يرضيه. هل يستويان حالاً ومثلاً؟ لا يستويان، كذلك المشرك هو في حيرة وشك، والمؤمن في يقين إيمان وراحة واطمئنان، فالحق الكامل، والثناء التام لله وحدَه، ولكن المشركين لا يعلمون الحق، ولا يهتدون.

٣٠-٣١- إنَّك - يا محمد - ميت، وإنَّهم ميتون. وتلك حقيقة لا تُنْكَرُ، ثم إنكم جميعاً - أيها الناس - يوم القيامة عند ربكم تتحاكمون وتتخاصمون، فيَحْكُم بينكم بالحق والعدل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أهمية ضرب الأمثال للهداية والإفهام.

٢ - بيان مَثَلِ المشرك بربه، والموحِّد له، فالمشرك في حيرة وشك واضطراب، والمؤمن في يقين واطمئنان وراحة بال.

٣- تقرير حقيقة الموت، فهو مصير كل حي، وأن كل نفس ذائقة الموت.

٤ - إثبات التخاصم والتحاكم يوم القيامة بين البشر، وأن الله يحكم بين الناس بالحق والعدل فيما هم فيه مختلفون ومتنازعون.

٥ - الثناء على القرآن الكريم بجمال المعاني، وكمال المباني.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٢- يُنْكِرُ الله تعالى على الذين يَكْذِبون على الله، ويُوَبِّخهم: لا أحدَ أكثرُ ظُلْماً منهم، ولا أحدَ أكثرُ ظُلْماً ممَّنْ كذَّب بالقرآن العظيم، أليس في جهنَّم مُستقرٌّ لهؤلاء المكذِّبين؟

٣٣-٣٥- يمدح الله تعالى النبيَّ ﷺ والمؤمنين: والذي جاء بالحقِّ الذي أمر الله به من توحيده وهو النبي ﷺ، والذين صَدَّقوه واتَّبعوا سُنَّته، أولئك أصحاب الدرجات العالية هم المُتَّقون حقّاً، لهم ما يتمنَّون عند رَبِّهم في الجنَّة. ذلك المقام العالي جزاء الذين أحسنوا بأقوالهم وأفعالهم، ليغفرَ الله تعالى ذنوبهم، ويُثيبهم بالجنَّة على عبادتهم في الدنيا بأفضل ما كانوا يعملون.

٣٦-٣٧- يُبَشِّر الله تعالى رسوله ﷺ بأنّه حافظ له من كيد المشركين: أليس الله بكافٍ عبده ورسوله من مَكْرِهم؟ ويُخَوِّفُك المشركون - أيُّها الرسول - بأصنامهم وفرسانهم. ومَنْ يُضْلِلْه الله عن الحقِّ فما له من مرشد ومعين، ومَنْ يهده الله إلى طريق الحقِّ فما له من مُضِلٍّ عن الحق. أليس الله بعزيز في ملكوته، ذي انتقام من المجرمين؟

٣٨-٤٠- وقسماً إن سألت - أيُّها الرسول - قومك من المشركين: مَنْ أبدع هذه السموات السبع والأرَضين السبع؟ قسماً سيقولون: الله. قل لهم: أَخْبِرُوني عَمَّا تعبدون مِنْ غير الله، إن أرادني الله بشدَّة، هل تستطيع أن تكشف عنِّي ذلك؟ أو أرادني بخير هل تستطيع أن تمنعه عنِّي؟ قل لهم: الله سبحانه كافيني، عليه وحده يعتمد المتوكِّلون. قل لهم: اعمَلُوا على حالتكم التي أنتم عليها، إنِّي عامل على ما أمرني ربِّي سبحانه، فسوف تعلمون مَنِ الذي يأتيه عذابٌ يُذِلُّه، ويُصِيبه عذاب النار الدائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ.

٢- وجوب الصدق في القول والعمل.

٣- جملة ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ صلة موصول محذوف، تقديره: والذي صَدَّق به؛ لأنَّ المصَدِّق غير الذي جاء بالصدق.

٤- جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خبر عن اسم الموصول. وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز.

٥- في الآية (٣٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الهداية بيد الله ﷻ، فمَنْ يَهْدِه اللهُ فلا أحدَ يَقْدِرُ أن يُضِلَّه.

٦- حماية الله تعالى لرسوله ﷺ.

٧- تهديد الله تعالى بانتقامه من أعدائه، وأعداء رسوله ﷺ.

٨- في الآية (٣٨) جِيء بحرف ﴿هَلْ﴾ في جواب الشرط، وهي للاستفهام الإنكاري أيضاً؛ تأكيداً لما أفادته همزة الاستفهام مع ما في ﴿هَلْ﴾ من إفادة التحقيق.

٩- أسند فعل ﴿يَأْتِيهِ﴾ إلى العذاب المخزي؛ لأنَّ الإتيانَ مُشْعِرٌ بأنّه يفاجئهم كما يأتي الطارق. وكذلك إسناد فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾ إلى العذاب المقيم؛ لأنَّ الحُلولَ مُشْعِرٌ بالملازمة والإقامة معهم، وهو عذاب الخلود.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٤١ - إنَّا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزلنا عليك - أيُّها الرسول - القرآن للعباد بالحقِّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل، فمَنِ اهتدى بنوره فنَفْعُه يعود عليه. ومَنِ انحرف عن طريق الحقِّ فوَبالُ ذلك على نفسه، ولست أنت بمُوَكَّلٍ عليهم؛ لتُجْبِرَهم على الهداية.

٤٢ - الله سبحانه هو الذي يقبض الأنفس من الأبدان عند موتها، ويَتَوَفَّى الأنفس التي لم تمت في منامها، فيمسك النفس التي قضى عليها بالموت، ويرسل النفس النائمة إلى بَدَنِها عند اليقظة إلى وقت محدَّد، هو أَجَلُ موتها الحقيقي. إنَّ في ذلك الأمر العظيم لَعلاماتٍ على قدرة الله تعالى لِـمَنْ تَدَبَّر.

٤٣-٤٤ - يَذُمُّ الله تعالى المشركين، ويُنْكِرُ عليهم إذ لم يتدبَّروا، بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام: قل أيُّها الرسول لهم: أتَتَّخِذُونهم شفعاء، ولو كانوا لا يملكون شيئاً، ولا يعقلون العبادة لهم؟ قل لهم: الشفاعة كلُّها لله وحده، له سبحانه ملكوت السموات السبع والأَرَضين السبع، ثم إليه مصيركم يوم القيامة للحساب.

٤٥ - وإذا قيل أمام المشركين: لا إله إلا الله، أو ذُكِرَ الله وحده دونَ أصنامهم، نَفَرَتْ قلوبهم وانزعجت، وإذا ذُكِرَتْ آلهتهم فهم يفرحون.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تعزية رسول الله ﷺ عمَّا كان يجده من قومه من التكذيب والعناد.

٢ - النومُ وفاةٌ صُغرى، والموتُ وفاةٌ كُبرى. وحياة الإنسان بين هاتين الوفاتين.

٣ - الفاء في ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنَّ ما تَقَدَّم يقتضي مقدراً تُفْصِحُ عنه الفاء لبيان تَوَفِّي النفوس في المقام.

٤ - أفاد تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النفي عمومَ كلِّ ما يُمْلَكُ، فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة.

٥- الشفاعة لله وحده.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٦- قل أيُّها الرسول: يا الله أنت مبدع السموات السبع والأرضين السبع، عالمٌ بما غاب عن المخلوقات وما يشاهدونه، أنتَ تحكم بين العباد فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين.

٤٧-٤٨- يُحذِّر الله تعالى من مَغَبَّة الكفر وعقابه المتحقِّق: لو أنَّ لهم كلَّ ما في الأرض من كنوز وضِعْفَه زيادة عليه؛ ليفتدوا به من شدَّة العذاب يوم القيامة، ما تُقُبِّل منهم، وتَكَشَّف لهم حينئذٍ من أنواع العذاب الذي لم يكونوا يتوقَّعونه. وظهر لهم يوم القيامة جزاء الجرائم التي ارتكبوها، وأحاط بهم العذاب عقاباً على سخريتهم برسولهم.

٤٩-٥١- فإذا أصاب الإنسانَ بؤسٌ دعانا مستغيثاً بنا، ثم إذا كشفنا عنه الكرب قال: إنَّما أُعطيت هذا الفرج على عِلْمٍ من الله بأنِّي مستحق ذلك. وليس الأمر كما يَظُنُّون بل هو اختبار من الله تعالى؛ لينظرَ مَنْ يشكره ممَّنْ يكفره، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ ذلك الفرج اختبار، قد قال مقالتَهم هذه الأُممُ المكذِّبة السابقة، فلم يُغْنِ عنهم حين أتاهم العقاب ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا الزائل، فأصابهم ضرر جرائمهم التي ارتكبوها. والذين ظلموا أنفسهم بالكفر من قومك - أيُّها الرسول - سيصيبهم أيضاً العقاب كسابقيهم، وما هم بمُفْلَتين من عقاب الله.

٥٢- أولم يعلم هؤلاء المشركون أنَّ الله يُوسِّع الرزق على قوم، ويُضَيِّقه على آخرين؟ فليس أَمْرُ الرزق دليلاً على صلاح حال صاحبه، وإنَّما هو اختبار واستدراج. إنَّ في ذلك الأمر العظيم لَدلائلَ ساطعةً لقوم مؤمنين بالله ورسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يُعَلِّم الله ﷻ المؤمنين كيفية الدعاء، واللجوء له ﷻ.

٢ - العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دون أن يقول: بيننا، لما في ﴿عِبَادِكَ﴾ من العموم؛ لأنَّه جمع مضاف؛ فيشمل الحكمَ بينهم في قضيتهم هذه، والحكمَ بين كل مختلفين.

٣ - وجوب اللجوء إلى الله عند اشتداد الكرب والمصائب، وذلك بدعائه والتضرع إليه.

٤ - سُنَّةُ الله معاقبة الكافرين والظالمين على جرائمهم، على اختلاف زمانهم ومكانهم، وهم لا يَغْلِبُون الله، ولا يُعْجِزُونه.

٥ - ينبغي أَخْذُ الموعظة من عاقبة الذين ظَلَموا، ومن الذين فُتِنُوا، ثم دُمِّروا.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

٥٣-٥٤- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قَتَلوا وأكثروا، وزَنَوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخبرنا أنَّ لما عَمِلْنا كفَّارة. فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٤١١ برقم ٤٨١٠ - كتاب التفسير، سورة الزمر، وصحيح مسلم ١/ ١١٣ برقم ١٢٢ - كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ماقبله).

عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول ما لمفتتنٍ توبة وما الله بقابلٍ منه شيئاً، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والآيات التي بعدها قال عمر: فكتبتُها فجلست على بعيري، ثمَّ طُفْتُ المدينة، ثمَّ أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الهجرة وأصحابه من المهاجرين، وقد أقام أبو بكر ﷺ ينتظر أن يُؤْذَنَ لرسول الله ﷺ فيخرج معه.

(أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٣٥) وأخرجه الضياء المقدسي في (المختارة ١/ ٣١٧-٣١٩ برقم ٢١٢-٢١٤)، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى ابن السكن في كتاب الصحابة بسند صحيح (الإصابة ٣/ ٥٧٢).

التفسير:

يُبَشِّر الله تعالى عباده المسرفين المذنبين بسَعة كرمه ورحمته. قل - أيُّها الرسول - ومَنْ قام مقامه من الدعاة لعبادي الذين أكثروا من المعاصي: لا تَيْئَسُوا من رحمة الله الواسعة. إنَّه سبحانه يغفر الذنوب كلَّها، إنَّه حقّاً هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم، وأقبلوا - أيُّها العباد - إلى ربِّكم بالتوبة والطاعة، وأذْعِنُوا له بإخلاص من قبل أن ينزل بكم العقاب، ثمَّ لا ينصركم أحد من دون الله.

٥٥-٥٦- واتَّبِعُوا - أيُّها العباد - أفضل ما أنزل إليكم من ربِّكم وهو القرآن الكريم، والعمل بأحكامه، من قبل أن يفجأكم العذاب وأنتم غافلون عنه؛ لئلَّا تقول بعض النفوس التي أسْرَفَتْ في الذنوب: يا ندامتي على ارتكابي المعاصي في حَقِّ الله، وإنِّي كنت لمن الساخرين بدين الله في الدنيا.

٥٧-٥٩- أو تقول تلك النفس المسرفة في الذنوب: لو أنَّ الله تعالى هداني إلى الإسلام؛ لكنت من المتَّقين لله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه. أو تقول وقت رؤية العقاب: ليت لي رجعة إلى الحياة الدنيا، فأكون فيها من الذين أحسنوا بأقوالهم وأفعالهم. بلى قد جاءتك آياتي المسموعة والمرئية قطعاً، فكَذَّبْتَ بها، وتَكَبَّرْتَ عن الإيمان بها، وكنت من المكذِّبين بالله تعالى.

٦٠- ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا على الله في الأحكام والاعتقاد، وجوههم مسودة، أليس في نار جهنَّم مستقَرٌّ للمتكبِّرين على الحق؟

٦١- ويُنَجِّي الله من نار جهنَّم الذين أطاعوا الله، واجتنبوا نواهيه، بسبب فَلاحِهم بالجنة، لا ينالهم أذى، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١- البشرى للمذنبين أن الله يغفر جميع ذنوبهم، إذا تابوا منها.

٢- الأمر بالتوبة إلى الله تعالى.

٣- الأمر بالتزام أحكام القرآن الكريم.

٤- التحذير من مصير الذين لم يأخذوا بأمر الله تعالى.

٥- بيان مصير المكذبين، وسواد وجوههم يوم القيامة.

٦- البشرى بنجاة المتقين من النار في الآخرة.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٢-٦٣- الله سبحانه خالق جميع الأشياء، وهو القائم بتدبيرها، له مفاتيح خزائن السموات السبع والأرضين السبع، والذين كذَّبوا بآيات الله المسموعة أو المشاهدة، أولئك البعداء عن رحمة الله، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

٦٤-٦٦- قل - أيُّها الرسول - للمشركين مُوَبِّخاً لهم: هل تأمرونني أن أعبدَ غيرَ الله الواحد المعبود بحقٍّ أيُّها الجاهلون؟ وقسماً لقد أُوحي إليك وإلى الأنبياء من قبلك: والله - إن أشركت أيها الإنسان بعبادة الله غيره - ليبطلنَّ عملك قطعاً، ولتكونَنَّ حقّاً من الخاسرين في الدنيا والآخرة، بل أخلِصِ العبادة لله وحده، وكن من الشاكرين لله نِعَمَه بالقول والعمل.

٦٧- يَذُمُّ الله تعالى المشركين من اليهود وغيرهم أنَّهم ما عَظَّموا الله تعالى حقَّ تعظيمه، إذ أشركوا معه غيره، وساووا الخالق بالمخلوق، والأَرَضون السبع في قبضته سبحانه يوم القيامة، والسموات السبع مجموعة بيمينه، تنزَّه وتقدَّس عمَّا يصفه به المشركون.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمَّد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثَّرَى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا المَلِك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجِذُه تصديقاً لقول الحَبْر، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٤١٢ برقم٤٨١١ - كتاب التفسير - سورة الزمر، باب الآية. وصحيح مسلم ٤/ ٢١٤٧ - كتاب صفة القيامة والجنة والنار نحوه).

٦٨- يُبَيِّنُ الله تعالى مشاهد عظيمة من أحوال العباد يوم القيامة في الآيات الثمان الأخيرة: ونفخ المَلَك في القرن النفخة الأولى، فمات كلُّ مَنْ في السموات السبع والأرضين، إلا مَنْ شاء الله بقاءه حيّاً، ثمَّ نفخ المَلَك في القَرْن نفخة ثانية للبعث فجأة يقوم الناس على أرجلهم من قبورهم ينظرون: ماذا يُؤْمَرون.

٦٩-٧٠- وأضاءت الأرض حين يتجلَّى الله تعالى لحساب الخلائق، وأُحضرت صحائف أعمالهم، وجيء بالأنبياء والشهداء على الأُمم، وقضى الله بين العباد كلِّهم بالعدل، وهم لا يُظلمون شيئاً من أعمالهم، فيأخذ كلُّ عبد حَقَّه. والله سبحانه أعلم بما يفعلون في الدنيا من خير وشر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من الكفر ومكايد الكفار.

٢ - الإشارة إلى رجوع السموات كتلة واحدة.

٣ - القضاء بين الخلائق بالعدل بحضور الأنبياء والشهداء.

٤ - الشرك محبط للعمل، فلا يُقبل معه عملٌ مهما كان.

٥ - عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيتَ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتَ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتَ، ويَبْلى كل شيء من الإنسان، إلا عَجْبَ ذَنَبِه، فيه يُرَكَّب الخَلق». (صحيح البخاري ٨/ ٤١٣ برقم ٤٨١٤ - كتاب التفسير - سورة الزمر، باب الآية، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٠ - كتاب الفتن، باب مابين النفختين).

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٥) ﴾

التفسير:

٧١-٧٢- وحُشِرَ الكُفَّار بالضرب والإهانة إلى نار جهنَّم جماعات. حتى إذا وصلوا إليها فُتِّحَتْ أبوابها السبعة، وقال لهم الملائكة الخَزَنَةُ مُوَبِّخين لهم: ألم يأتكم رسل من أنفسكم يتلون عليكم، ويُخَوِّفونكم من هذا اليوم العصيب؟ قالوا: بلى. ولكن وَجَبَتْ كلمة العذاب على الكافرين بسبب جرائمهم، وقيل لهم: ادخلوا أبواب جهنَّم المفتَّحة ماكثين فيها على الدوام. فبئس المستقر الدائم نارُ جهنَّم للمتكبِّرين على اتِّباع الحق.

٧٣-٧٤- وحُشِرَ المتقون لربِّهم إلى الجنَّة جماعات مُكْرَمين، حتى إذا وصلوا إليها فُتِّحت أبوابها الثمانية بتحية طيبة من الملائكة الخزنة: سلام عليكم من كلِّ شرٍّ، طابَتْ نفوسكم وأحوالكم، فادخُلوا الجنة ماكثين فيها على الدوام، وقالوا: الحمد لله الذي أنجز لنا وعده بالثواب في سكن الجنَّة، ننزل فيها حيث نشاء، فنِعم ثوابُ العاملين بطاعة الله الجنة.

عن عاصم بن ضمرة قال: سمعت علياً يقول: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، وجدوا عند بابها شجرة تخرج من تحت ساقيها عينان، فيأتون إحداهما كأنما أُمروا بها، فيتطهرون فيها، فتجري عليهم نضرة النعيم، قال: فلا تتغيَّرُ أبشارهم بعدها أبداً، ولا تشعث شعورهم بعدها أبداً، كأنما دهنوا، قال: ثم يعمدون إلى الأخرى فيشربون منها، فتُذهب ما في بطونهم من أذى وقذى، وتتلقَّاهم الملائكة فيقولون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ قال: ويتلقَّى كل غلمان صاحبهم يطوفون به، فِعْلَ الوِلْدان بالحَميم يقدم من الغَيبة، يقولون: أَبْشِرْ قد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا، ويسبق غلمان من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقولون: هذا فلان - باسمه في الدنيا - قد أتاكنَّ، قال: فيقلنَ: أنتم رأيتموه؟ فيقولون: نعم، قال: فيستخِفُّهنَّ الفرح، حتى يخرج إلى

أسكفة الباب، قال: ويدخل الجنة، فإذا نمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابيٌّ مبثوثة، فيتكئ على أريكة من أرائكه، قال: فينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أصفر وأحمر وأخضر ومن كل لون. (أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن عنه، المصنف ٨/ ٧٤).

٧٥- وترى - أيُّها الرسول - الملائكة مُحيطين بعرش الرحمن من كل جانب يلهجون بالتسبيح بحمد ربِّهم، وقُضِيَ بين العباد بالعدل، وختم القضاء بقول: الحمد لله ربِّ العالمين على ذلك القضاء العادل.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى أبواب جهنم وعددها سبعة.

٢- بيان حوار ملائكة العذاب مع الكفار في جهنم.

٣- بيان الفرق بين المصيرين والخلودين.

٤- الإشارة إلى بركة استغفار حَمَلَة العرش للمؤمنين.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير صدق القرآن الكريم، والرسالة النبوية.

٢ - بيان مقاصد الدعوة، وأصول الحوار في الدعوة.

٣- انتصار أهل الحق، وخسران أهل الباطل في الدارَين.

٤ - إقامة البراهين العظيمة في الآيات الكونية الدالَّة على وحدانية الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن الكريم.

٢ - يمدح الله تعالى هذا القرآن الحكيم، فهو تنزيل من الله العزيز في ملكوته، العليم بأحوال مخلوقاته.

٣- وهو الله الذي يعفو عن ذنوب عباده التائبين ويقبل توبتهم، شديد العقاب للمجرمين المتكبِّرين، صاحب الفضل على عباده المؤمنين، لا معبود بحقٍّ إلا هو سبحانه، إليه مرجع الخلائق أجمعين.

٤ -٥- ما يجادل في آيات القرآن للتشكيك فيها وتكذيبها إلا الجاحدون توحيدَ الله، فلا يخدعك - أيُّها المؤمن - تَصَرُّفُهم وتمتُّعُهم في مَلَذَّات الدنيا ومظاهرها. كَذَّب قبل هؤلاء الكفَّار أُمَمٌ، منهم قوم نوح ومَنْ بعدهم، الذين كذَّبوا رسلهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، وعزمت كلُّ أُمَّة مِنْ أولئك على محاربة رسلهم بالقتل والتنكيل، وجادلوا رسلهم بالباطل والكذب؛ ليُبْطِلوا به الحقَّ من الله تعالى، فأهلكتُهم بالعذاب، فكيف كان عذابي لهم؟!

٦- وكما أهلكنا المُكَذِّبين للرسل من قبلك أيُّها الرسول، فحَقَّ عليهم العذاب، كذلك وَجَبَتْ كلمة العذاب على هؤلاء المكذِّبين من قومك؛ لأنَّهم أصحاب النار، الملازمون لها.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان عظمة القرآن الكريم.

٢- اتفاق الكفار في عدائهم لرسلهم.

٣- لا يُخْدَعُ المؤمن بما عليه الكفار من رفعة ونعمة وتَنَقُّلٍ في البلدان؛ لأنَّهم صائرون إلى العذاب.

٤- التحذير من مصير الكفار.

٥- تسلية النبي ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

٧-٩- الذين يحملون عرش الله سبحانه من أشراف الملائكة ومَنْ حول العرش، كلُّهم يلهجون بالتسبيح بحمد الله ﷻ، ويُصَدِّقون به سبحانه، ويطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، مُتَضَرِّعين بدعاء عظيم

كريم: يا ربَّنا وَسِعَتْ رَحْمَتُك وعِلْمُك كلَّ شيء من مخلوقاتك، فاغفر ذنوب المؤمنين الذين تابوا من الشرك والمعاصي واتَّبعوا دين الإسلام، واصرِفْ عنهم عذاب نار جهنَّم.

يا ربَّنا وأَدْخِلْهم جنات يقيمون فيها أبداً، وقد وَعَدْتهم إياها في الدنيا، وأدخِلْ معهم الصالح من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم. إنَّك أنت العزيز في ملكوتك، الحكيم في تدبير مخلوقاتك، واحفَظْهم مِنْ فِعْل المُنكرات والفواحش. ومَنْ حَفِظْتَه منها ومِنْ عواقبها يوم القيامة فقد رَحِمْتَه، وأنقذته من عذاب النار. وذلك المقام الكريم من الحفظ والنجاة هو الفلاح العظيم بجنة النعيم.

١٠-١٢- يَذُمُّ اللهُ تعالى الكفَّار، ويُبيِّن مصيرهم يوم القيامة أنَّ الملائكة تُناديهم من مكان بعيد وهم في النار: لَبُغْضُ الله تعالى لكم في الدنيا أكبر من كراهيتكم أنفسكم اليوم وأنتم في النار، حين دُعِيتم إلى الإيمان في الدنيا فكفرتم. فقال الكفَّار: يا ربَّنا أَمَتَّنا إماتتين حين كُنَّا في أصلاب آبائنا، فأَحْيَيْتَنا في الدنيا، ثمَّ انقضى أجَلُنا في الحياة الدنيا، ثمَّ أَحْيَيْتَنا للبعث يوم القيامة، فاعترفنا بجرائمنا، فهل إلى خروج من نار جهنَّم؟ ذلكم العذاب الشديد الذي أنتم فيه هو بسبب كفركم بدعوة توحيد الله تعالى، وإن يُجعل له شريك في العبادة تُصَدِّقوا بذلك! فالقضاء لله العليِّ على كل شيء، الكبير الذي كلُّ شيء دونه مُتصاغر.

١٣-١٦- هو سبحانه الذي يُريكم دلائل قدرته ووحدانيته، ويُنَزِّل لكم من السحاب مطراً يكون سبب الرزق الكريم. وما يتَّعظ بتلك الآيات إلا مَنْ يرجع إلى الله بالتوبة والطاعة، فاعبدوا الله مخلصين له العبادة، ولو كره الكافرون ذلك. الله هو العليُّ الأعلى الذي ارتفعت درجاته ارتفاعاً لا مثيل له، وهو صاحب العرش العظيم، يُلقي الوحي من أمره سبحانه على مَن اصطفى من الرُسل، ليُحَذِّر من يوم القيامة الذي تجتمع فيه الخلائق كلُّهم للحساب في صعيد واحد، وهم ظاهرون لا يخفى على الله منهم شيء من أعمالهم، ويقول لهم الله تعالى: مَنْ المالك المُتَصَرِّف في هذا اليوم؟ فيُجيب سبحانه: لله الواحد الذي لا شريك له في مُلْكِه وسلطانه، القهَّار لغيره على ما يريد.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خَصَّ في الآية (٧) طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم. وفي ذلك تنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة.

٢- إثباتُ العرش لله، وهو أعظم من السموات والأرض.

٣- في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ عن استغفار الملائكة حَمَلَةِ العرش للمؤمنين في الماضي والحاضر والمستقبل.

٤ - في الآية (١٣) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله تعالى هو الذي يُنَزِّل الرزق لعباده.

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧- اليوم - يوم القضاء بين العباد - تُثاب كلُّ نفس بما قدَّمَتْ في الدنيا من خير وشرٍّ، لا يُظْلَمُ فيه أحد شيئاً، لا بنقص ثواب ولا بزيادة عقاب. إنَّ الله يُحاسِبُ جميع الناس سريعاً.

١٨- وأَنْذِرْهم - أيُّها الرسول - من يوم القيامة القريب حين تضطرب القلوب، وتكاد تخرج من الحناجر من شدَّة الرعب، مُمتلئة قلوبهم غمّاً وحزناً، وليس للكافرين من قريب أو صديق، ولا شافع يُطاع في شفاعته لهم.

١٩-٢٠- يُحَذِّر الله تعالى عباده مِنْ نظر المسارقة المُحَرَّم، فإنَّه سبحانه يعلم بذلك ويحاسب عليه، ويعلم أيضاً ما يُضْمَرُ في النفس من خير أو شرٍّ، ويُخبر بأنَّه سبحانه يحكم بالعدل بين العباد، والآلهة التي تُعبد من غير الله لا يقدرون على ذلك. إنَّ الله تعالى هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال والأفعال.

٢١-٢٢- أَوَلَمْ يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار ديار المكذِّبين؟ فيُشاهِدوا ما أحلَّ الله بهم من الدمار والنَّكال. كانوا أشدَّ قوَّة وبطشاً، وأقوى آثاراً في الأرض من القلاع والقصور، فدَمَّرَهم اللهُ تعالى بسبب جرائمهم، وما كان لهم من الله مَنْ يحفظهم من ذلك العقاب. ذلك العقاب الشديد بسبب تكذيبهم لرسلهم الذين جاؤوا بالدلائل الواضحة. إنَّه قويٌّ لا يغلبه أحد، شديد العقاب لِـمَنْ كفر به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يوم القيامة قريب، ولا يعلم أحد متى يأتي، فعِلْمُه خاص بالله، لذلك سُمِّي يوم الآزفة.

٢ - النبي ﷺ مكلف بالإنذار، والهداية توفيق من الله تعالى.

٣ - في الآية (١٩) إخبار مستقبليٌّ عن عِلْمِ الله المطلق، فهو يعلم ما تختلسه العيون من نظرات، وما يُضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر.

٤ - وجوب طاعة ما جاء به الله ﷻ لأنَّه حق.

٥ - قال ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مقررة لجمل ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ١٩-٢٠]. فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر، وهو تعريض بأنَّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر، فكيف ينسبون إليها الإلهية؟». (التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٧٥).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٣-٢٥ - وقسماً لقد أرسلنا موسى عليه السلام بآياتنا المعجزات التسع، وحجَّة ساطعة دالَّة على صدقه إلى زعماء الكفر: فرعون وهامان وقارون، فسَخِرُوا منه، وأشاعوا أنَّه ساحر عليم السحر، وكذَّاب فيما جاء به من المعجزات الباهرة، فلمَّا جاءهم موسى بتلك المعجزات من عندنا كَذَّبوه، وأمروا بحرب الإبادة لأبناء المؤمنين بموسى، واستبقاء النساء للخدمة والمهانة، وما تدبير مكر الكفَّار إلا في ضياع وهلاك.

٢٦- وقال فرعون بغرور لزمرته: دعوني أقتل موسى، وليَدْعُ ربَّه لينقذَه منِّي. إنَّني أخاف إن لم أقتله أن يُغيِّر ما أنتم عليه من العبادة، أو أن يفسد في أرض مصر بإثارة الفتن.

٢٧- وقال موسى ﷺ: إنَّني استعنتُ بربِّي وربِّكم من كلِّ مستكبر عن اتِّباع الحقِّ، لا يُصَدِّق بيوم الحساب.

٢٨-٢٩- وقال رجل مؤمن من قوم فرعون يُخفي إيمانه مُنْكِراً على قومه: أتقصدون قَتْلَ رجل لا ذنب له إلا أن يقول ربِّي الله وحده وقد جاءكم بالمعجزات الواضحة من ربِّكم التي تدلُّ على صدقه؟ وإن يَكُ كاذباً فعليه إثمُ كذبه، وإن يكُ صادقاً في رسالته يُصِبْكم بعض الذي يَعِدُكم به من العقاب. إنَّ الله لا يُوَفِّق للحقِّ مَنْ هو متجاوز للحَدِّ، كثير الكذب، يا قومِ لكم اليوم مُلك مصر دون غيركم، فمَنْ يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا بعد قَتْل موسى ﷺ؟ فرَدَّ فرعون بتكَبُّرٍ ومكر: ما أُشيرُ عليكم من النصح إلا بما أُشيرُ على نفسي، وما أُرْشِدُكم إلا إلى الطريق الصحيح.

الفوائد والاستنباطات:

١- يؤتي الله رُسُلَه دلائل وآيات ومعجزات، تدلُّ على أنَّه أرسلهم.

٢- في الآية (٢٥) سُمِّي الرأيُ كيداً؛ لأنَّهم تَشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه، وأنَّهم أضمروه ولم يعلنوه.

٣- الطغاة يظهرون بمظهر المصلحين الحريصين على الناس، ويتَّهِمون الدُّعاة بالإفساد والتخريب.

٤- قد يكون الرجل الذي آمن هو أخناتون ولد فرعون، وذلك حسب دراسة فيها أدلة نقلية وعقلية. (ينظر: فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج ص ١٨٨-٢٠٥). ويؤيد هذا أن الرجل من ذرية فرعون، وكذلك لم يستخدم فرعون الرد المباشر على المؤمن ولم يهدده كفعله مع موسى ﷺ.

٥- الاستفهام في ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ استفهام إنكار، أي يقبح بكم أن تقتلوا نفساً تقول ربي الله.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٠-٣٣- وقال الرجل المؤمن من آل فرعون لفرعون وحاشيته مُحذِّراً ناصحاً: إنَّني أخاف عليكم عاقبة تكذيب موسى عليه السلام فيُدْرككم مثلُ أيام العذاب التي أهلكت الأُمَم السابقة الذين تحزَّبوا على أنبيائهم وكذَّبوهم، مثل حال قوم نوح عليه السلام وعاد وثمود ومن جاء بعدهم، فقد دمَّرهم الله بسبب تكذيبهم، وليس الله بظالم عباده. ويا قومِ إنَّني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة حين يستغيث الكفَّار بعضهم ببعض، ويوم تَفِرُّون هاربين، ليس لكم من الله ناصر يعينكم. ومَنْ يُضْلِلْه الله عن طريق الحقِّ فما له من مُرشد يهديه إلى اتِّباع الحقِّ.

٣٤-٣٥- وقسماً لقد جاءكم نبيُّ الله يوسف عليه السلام من قبل موسى عليه السلام بالمعجزات الساطعة الدالَّة على صدقه، فلا زِلْتُمْ في شكٍّ على نهج آبائكم الذين كذَّبوا رسالته حتى إذا مات قلتم: لن يرسل الله رسولاً من بعده. مثل إضلالكم يُضِلُّ اللهُ الطُّغاةَ الذين يَشُكُّون في وحدانيته سبحانه، الذين يجادلون في الدلائل الواضحة المنزَّلة من عند الله تعالى بغير حُجَّةٍ ولا برهان جاءهم من عنده سبحانه. كَبُرَ ذلك الجدل سخطاً من عند الله وعند المصدِّقين به سبحانه. مثلَ هذا الخَتْمِ على القلوب يختم الله على قلب كلِّ متكبِّر على الحقِّ، طاغية بشدَّة ظلمه.

٣٦-٣٧- وقال فرعون بمكر وكِبْرٍ لوزيره هامان: يا هامان ابن لي قصراً عالياً؛ لعلِّي أصل إلى طرق السموات، فأطَّلعَ إلى إله موسى. وإنِّي لأظنُّ موسى كاذباً في دعواه. ومثلَ ذلك التزيين زَيَّنَ الشيطان لفرعون عمله الباطل فرآه حقّاً، ولم يهتدِ بضلاله إلى طرق الحقِّ. وما مَكْرُ فرعونَ إلا في خسارة وهلاك.

الفوائد والاستنباطات:

١- على الداعية أن يستخدم أحسن الأساليب المؤثِّرة في الدعوة، كما فعل الرجل المؤمن.

٢- تلتقي أحزاب الكفر على حرب الحقِّ على اختلاف الزمان والمكان، ولكنهم خاسرون هالكون.

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تأكيد الخبر بـ«قد» ولام القسم لتحقيقه؛ لأنَّهم مظنَّة أن يُنْكِرُوه لبُعْدِ عهدهم به.

٤- اختيار المضارع في ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ لإفادة تجدُّد مجادلتهم وتكررها، وأنَّهم لا يَنْفَكُّون عنها. وهذا صريح في ذمِّهم، وكناية عن ذَمِّ جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

٥- في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ عن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجَّة، فإنَّ الله يغضب عليهم، ويطبع على قلوبهم.

٦- انتصب ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البدل المطابق لقوله: ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾. وجيء بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب؛ تفخيماً لشأنها.

٧- الطُّغَاة يريدون إشغال الأتباع وإلهاءهم؛ لينصرفوا عن الدعوة والدُّعاة، كما فعل فرعون عندما طلب إلى هامان بناء الصرح.

٨- بُنِيَ فعل ﴿زُيِّنَ﴾ للمجهول؛ لأنَّ المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فاعله، أي: حصل له تزيين سوء عمله في نفسه، فحَسِبَ الباطلَ حقّاً، والضلالَ اهتداء.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٨-٤٠- وقال الذي صَدَّقَ بالحقِّ من قوم فرعون مؤكِّداً نصيحته وخطابه باستمالة قومه بنداء النسب: يا قومِ اقتدُوا بي أرشدكم طريق الحق. يا قومِ إنَّما هذه الحياة الدنيا متعة زائلة، وإنَّ الآخرة هي الحياة الباقية، مَنْ عمل في الدنيا معصية فلا يُجزى إلا عقاباً على قَدْرِ معصيته عدلاً من الله. ومَنْ عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالله ورسله فأولئك أصحاب الدرجات العالية، يدخلون الجنة فضلاً من الله، فيرزقهم فيها رزقاً كريماً لا حدود له ولا انقطاع.

٤١-٤٤- وقال الرجل المؤمن مُستعطفاً قومه بالنسب: ويا قومِ أخبروني كيف أدعوكم إلى طريق الهداية ثم الجنة، وتدعونني إلى الغواية ثم النار، تدعونني إلى تكذيب الله تعالى، والشرك به في عبادة من ليس لي به علم أنَّه يستحقُّ العبادة من دونه، وأنا أدعوكم إلى الله العزيز في ملكوته وفي انتقامه، الغفَّار لِمَنْ تاب من عباده. حقّاً يقيناً أنَّ ما تَدْعُونني إليه من الآلهة ليس بمقدوره إجابة دعاء مَنْ يدعوه في الدنيا والآخرة، وأنَّ مصيرنا جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة، وأنَّ الطغاة المُتَمَرِّدين على الحقِّ هم أهل النار ووقودها، فستذكرون صِدْقَ كلامي عندما يَحُلُّ بكم العذاب، وأتوكل على الله. إنَّه سبحانه بصير بأحوال جميع العباد.

٤٥-٤٦- فكانت نتيجة هذه النصيحة الوقاية من عقوبة الله تعالى التي أصابت فرعون وقومه بسبب مكرهم، فقد أُهلكوا بالغرق، ثم تلاهم العذابُ في قبورهم، فهم يُعْرَضُون على النار صباحاً ومساءً حتى قيام الساعة، فيأمر الله تعالى الملائكة: أَدْخِلوا آلَ فرعون النار التي فيها أقسى العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - على الداعية أن يُبَلِّغَ دعوته، ويحرص على نصح قومه بما يراه من وسائل وأساليب ملائمة.

٢ - قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لِمَا في ﴿مَنْ﴾ من الإبهام من جانب احتمال التعميم، فلفظ ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مرادٌ به عموم الناس بذكر صنفيهم تنصيصاً على إرادة العموم.

٣ - في الآية (٤٠) قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٤ - موافقة دعوة الرجل المؤمن لدعوة موسى عليه الصلاة والسلام، وهو دليل على أن هذا الرجل متأثر بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام.

٥ - قوة مناظرة الرجل المؤمن لقومه.

٦ - استخدام أسلوب الاستعطاف في الدعوة، إذ جاء حواره بلفظ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ويشمل فرعون وهامان وقارون وأتباعهم.

٧ - تَمَيُّز عذاب فرعون وأتباعه في القبر بعَرْضِهم على النار في الصباح والمساء.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٧-٤٩- يُذَكِّر الله تعالى بالحوار بين أهل النار حين يتخاصمون في النار، فيقول الأتباع لسادتهم المتكبِّرين: إنَّنا كنَّا في الدنيا أتباعاً مطيعين لكم، فهل أنتم تدفعون عنَّا جزءاً من عذاب النار؟ فردَّ عليهم القادة المتكبِّرون في الدنيا: إنَّنا جميعاً في نار جهنَّم لا مخرج منها؛ لأنَّ الله تعالى قد قضى بين العباد بدخول المؤمنين الجنة والكافرين النار، فلا نستطيع أن نُخَفِّفَ عنكم شيئاً من العذاب. ويلتمس أهل النار جميعاً من الملائكة الـمُوَكَّلين بالعذاب أن يشفعوا لهم عند الله؛ ليُخَفِّفَ عنهم يوماً واحداً من عذاب النار.

٥٠- ولكنَّ هذا الطلبَ لا يُستجاب له، بل إنَّ الملائكة من خزنة جهنَّم يَرُدُّون على أهل النار بالتنكيل والتقريع: أولم تأتكم رسلكم من عند الله بالحجج الساطعة؟ فاعترفوا بذلك وقالوا: بلى. فردَّ عليهم خَزَنَةُ جهنَّم مُتبَرِّئين من الدعاء لهم: فادعُوا أنتم، وليس دعاء الكفَّار إلا في ضياع، فلا يُستجاب له.

٥١-٥٢- يُؤَكِّد الله تعالى البشرى بنَصْرِ رسله وأتباعهم من المؤمنين في الحياة الدنيا ويوم القيامة، يوم تشهد الملائكة للأنبياء والرسل بالبلاغ، في ذلك اليوم لا تنفع أعذار الكفَّار، ولهم الطرد من رحمة الله، وسوء الدار بعذاب النار.

٥٣-٥٤- وقسماً لقد آتينا موسى عليه السلام التوراة والمعجزات التسع، وجعلنا بني إسرائيل يتوارثون التوراة جيلاً بعد جيل، فيها هداية إلى طريق الحقِّ، وموعظة من خطورة الباطل لأصحاب العقول السليمة.

٥٥-٥٦- فاصبر - أيُّها الرسول - على أذى الناس. إنَّ وعد الله بالنصر على الأعداء حقٌّ ثابت، واستغفر لذنبك لتقتدي بك الأُمَّة، وواظِبْ على التسبيح لله المقرون بالحمد له والثناء عليه في المساء والصباح. إنَّ الذين يُجادلون في آيات الله المسموعة والمشاهدة بغير حُجَّة صحيحة ما في صدورهم إلا تكبُّر عن اتِّباع الحق، ما هم ببالغي مُرادِهم في التغلُّب على المؤمنين، فالتجِئْ إلى الله من شرورهم. إنَّه هو السميع لأقوالهم، البصير بأحوالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «في الآية (٤٨) عِبْرة لزعماء الأُمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم في مهاوي الخسران، فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي، فإن كان إقدامهم ومغامرتهم بأنفسهم وأُممهم على علم بعواقب ذلك، كانوا أحرياء بالمذمَّة والخزي في الدنيا، ومضاعفة العذاب في الآخرة».

(التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢١٢).

٢- في الآية (٥١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة.

٣- قد يكون النصر مادِّياً بالتمكين في الأرض، وقد يكون مَعْنَوِيّاً في الثبات على الحقِّ.

٤- على المؤمن أن يصبر على ما يُواجهه من أذى الأعداء، وأن يُوقن بالفَرَج من الله.

٥- الإكثار من ذِكْرِ الله وتسبيحه وحمده واستغفاره، يُقَرِّب المؤمن من الله، كما فعل رسول الله ﷺ.

٦- تنكير ﴿كِبْرٌ﴾ للتعظيم، أي: كِبْرٌ شديد بتعدُّد أنواعه، وتمَكُّنه من نفوسهم.

٧- جملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

التفسير:

٥٧-٥٨- يُبيِّنُ الله تعالى عَظَمَة قدرته في الخلق، وسهولة أمر البعث عليه: لَخَلْقُ الله للسموات السبع والأرضين السبع أكبر من خَلْق الناس وإحيائهم بعد موتهم، ولكنَّ أكثر العباد لا يعلمون ذلك، وكما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والمُكذِّب لله الذي يقترف الجرائم. قليلاً ما تتعظون أيُّها العباد.

٥٩- إنَّ القيامة لآتية قطعاً لاشكَّ فيها، ولكنَّ أكثر العباد لا يؤمنون بذلك.

٦٠- وقال خالِقُكم ومُدَبِّر أمركم: أيُّها الناس اسألوني أُعْطِكم، إنَّ الذين يتكَبَّرون عن دعائي وطاعتي سيدخلون نار جهنَّم صاغرين.

٦١-٦٢- يُخبر الله تعالى عن عظيم قدرته في فضله على العباد: الله وحده هو الذي جعل الليل مظلماً لراحتكم، والنهار منيراً لمعايشكم. إنَّ الله لصاحب فضل على الناس كلهم، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون الله على هذا الفضل. ذلكم الله العظيم ربُّكم أبدعَ خَلْقَ كلِّ شيء، لا إله يستحقُّ العبادة غيره، فكيف تعدلون عن الإيمان به، وتعبدون غيره؟

٦٣- مثلَ هذا الانصراف من الحقِّ إلى الباطل يُصرف كلُّ مَنْ كَذَّب بآيات الله تعالى.

٦٤-٦٥- يُخبر الله تعالى عن فضله الكبير على الناس في معاشهم وخَلْقِهم: الله وحده الذي سخَّر لكم الأرض مُستقرّاً لكم لمعايشكم، والسماء سقفاً لحمايتكم ورزقكم، وخَلَقكم في أحسن هيئة، ورزقكم من

المطاعم والمشارب المستلذَّة الحلال. ذلكم الله الذي رزقكم هو ربُّكم، فتعاظم وكَثُر خيره وإحسانه، هو الحيُّ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بعظمته، لا إله غيره، فادْعُوه وحدَه مخلصين له الطاعة والعبادة، الثناء الكامل والشكر لله خالق العالمين، ومُدَبِّر شؤونهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الردُّ على منكري البعث.

٢ - توبيخ الذين كَذَّبوا بقيام الساعة.

٣- البشرى باستجابة الله تعالى الدعاء.

٤ - وجوب الشكر على نعمة السكن في الليل، والكسب في النهار.

٥ - الإشارة إلى نعمة تمهيد الأرض للحياة، ونعمةِ بناء السماء، وجَعْلِها سقفاً للأرض.

٦ - بيان عظمة الله تعالى من خلال مخلوقاته.

٧- أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن نسبة الحديد في الأرض ٩, ٣٥٪ من مجموع كتلة الأرض، ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض على هيئة كرة ضخمة (٩٠٪) من كتلة قلب الأرض، أما باقي الحديد فيتوزع على كل من وشاح الأرض وغلافها الصخري بسمك يقدر بحوالي ثلاثة آلاف كيلو متر (٢٨٩٥ كيلو متر) في تناقص مستمر يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلى ٦, ٥٪. وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض من وسائل جعله جرماً مستقراً في ذاته، حيث إن المقصود بأثقال الأرض هو الأحمال الثقيلة، وليست أجساد الموتى فقط. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٩٥-٤١٤).

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾

التفسير:

٦٦- يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يُبَلِّغَ أُمَّته النهي عن عبادة ما سوى الله تعالى؛ لما أنزل عليه من الآيات المسموعة الواضحة والمشاهدة من عنده سبحانه، وأن يُبَلِّغَ بأنَّه أُمِرَ أن يخضع بالطاعة لله تعالى ربِّ الخلائق أجمعين.

٦٧-٦٨- هو الله الذي خلقكم - أيُّها الناس - في الأصل من تراب بخلق أبيكم آدم عليه السلام، ثم جعل تكاثركم بعد آدم عليه السلام من مَنِيٍّ يصير دماً جامداً، ثم يُخرجكم أطفالاً بعد أطوار أخرى، ثم لتبلُغوا كمالكم في القوَّة والعقل إلى أن تصيروا في سِنِّ الشيخوخة، ومنكم مَنْ يموت قبل ذلك، ولتبلغوا بهذه الأطوار المعدَّدة أجلاً مُسمَّى تنتهي عنده أعماركم، ولكي تعقلوا تدبير الله لخَلْقِه، وأنَّه هو وحده المعبود بحقٍّ سبحانه، هو الذي وحده القادر على الإحياء والإماتة، فإذا قضى أمراً فإنَّما يقول له: ﴿ كُنْ ﴾، فيكون كما أراد الله.

٦٩-٧٢- ألا تعجب - أيُّها الرسول - من الكفَّار الذين يُجادلون بآيات الله المسموعة والمشاهدة ويُشَكِّكُون فيها كيف يَعْدِلُون عنها؟ ومن صفتهم: أنَّهم كذَّبوا بالقرآن وبالكتب السابقة المُنَزَّلة من عند الله، فسوف يرون عاقبة تكذيبهم حين تُوضَعُ القيود الحديدية في أعناقهم، والسلاسل في أيديهم وأرجلهم، تسحبهم زبانية العذاب في الماء المغلي، ثم تُوقد بهم نار جهنَّم.

٧٣-٧٧- ثمَّ يُقال لهم توبيخاً: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فيجيبون معترفين: ذهبوا عنَّا فلم ينفعونا، بل لم نكن نعبد شيئاً يستحقُّ العبادة في الدنيا. مثلَ ذلك الضلال يُضِلُّ الله المكذِّبين به، فلا يهتدون إلى الحقِّ. ذلكم الضلال الكبير بسبب ما كنتم تُظهرونه في الدنيا من البهجة والسرور بالمعصية والباطل، وبسبب تَكَبُّرِكم وبَطَرِكم، ويقال لهم ذمّاً وتوبيخاً: ادخلوا من أبواب جهنَّم السبعة ماكثين فيها أبداً، فبئس مأوى المتكبِّرين على الحق. فاصبر - أيُّها الرسول - على أذاهم، إنَّ وعد الله بنصرك عليهم حقٌّ لا ريب فيه. فإن أريناك بعض الذي نَعِدُهم من العقاب فذلك هو المطلوب، أو نَتَوَفَّيَنَّك قبل رؤية عقابهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٦٨) إخبار مستقبليٌّ عن قضاء الله تعالى أنَّه نافذ في عباده في الماضي والحاضر والمستقبل.

٢- على المؤمن الصبر على ما يُواجهه من الأذى، مع اليقين بتَحَقُّقِ وَعْدِ الله بنَصْرِ الحقِّ، وهزيمة الباطل.

٣- حذف مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ﴿كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ عليه، أي: يتحققون ما كذبوا به.

٤- في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمخصوص بالذم محذوف؛ لأنَّه يدل عليه ذِكْرُ جهنم أي: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

٥- عدل عن ضمير (هم) إلى الاسم الظاهر وهو﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للإشارة إلى أنَّ من أسباب وقوعهم في النار تَكَبُّرَهم على الرسل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التفسير:

٧٨- وقسماً لقد أرسلنا رسلاً إلى أُممهم من قبلك أيُّها الرسول، منهم مَنْ أخبرناك بقصصهم بالوحي، ومنهم مَنْ لم نذكر لك أخبارهم، وما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله بنزول العقاب على الكفَّار في الدنيا أو في الآخرة حُكِمَ بالعدل بين المؤمنين والكفَّار، فنُجِّي المؤمنون، وهلك أهل الباطل.

٧٩-٨١- يُخبر الله تعالى عن فضله على العباد، إذ سخَّر لهم الإبل للركوب والأكل، وقَدَّرَ فيها منافع كثيرة كالألبان والجلود والوبر، ولتبلغوا بالحُمولة على بعضها حاجةً في أنفسكم من الوصول إلى البلدان البعيدة، وعلى هذه الأنعام في البَرِّ، وعلى السفن في البحر تُحْمَلُون. ويُريكم الله تعالى دلائله الدالَّة على وحدانيته، فأيَّ تلك الدلائل والبراهين تُنْكِرُون؟!

٨٢-٨٥- أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار ديار المُكذِّبين، فيُشاهدوا عاقبتهم وما أحَلَّ الله بهم من الهلاك والنكال؟ كانوا أكثرَ منهم أعداداً وعُدَّة، وأشدَّ قوَّةً في الأجسام والبطش، وأقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور، فما أغنى عنهم ما عَمَّروا في الدنيا، فحين جاءت هذه الأُمم رسلهم بالشرائع والمعجزات فَرِحَ الكفَّار بما هم عليه من العلم الدنيوي واغتَرُّوا به، فنزل بهم عقاب كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات العظيمة. فلمَّا رأوا شدَّة العذاب وعاينوا أهواله قالوا: صَدَّقْنا بالله وحده، وكذَّبْنا بالآلهة التي كنَّا نعبدها مع الله تعالى. فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا شدَّة

العذاب. سَنَّ الله سُنَّة قد سبقت في عباده ألَّا يقبل الإيمان والتوبة حين نزول العذاب، وخَسِرَ المكذِّبون بالله أنفسهم وقت نزول العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- تنكير ﴿رُسُلًا﴾ مفيد للتعظيم والتكثير، أي: أرسلنا رُسُلاً عددُهم كثير، وشأنهم عظيم.

٢- عَرَّفَ الله بأسماء بعض رُسُلِه وأنبيائه في القرآن، ولم يُعَرِّفْ بالكثير منهم.

٣- في الآية (٨١) إخبار مستقبليٌّ عن مشاهدة دلائل قدرة الله تعالى في الماضي والحاضر والمستقبل.

٤- الإشارة إلى نِعَمِ الله تعالى على عباده في تسخيره لأنواع المراكب للإنسان.

٥- التحذير من تأخير الإيمان بالله تعالى عند رؤية عذابه.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين الدالَّة على عظمة الخالق ﷻ.

٢ - رفعة القرآن الكريم.

٣ - تقرير الرسالة النبوية، وتسلية النبي ﷺ.

٤ - تأكيد بشرية النبي ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - هذا القرآن تنزيل من الرحمن بالخلق أجمعين في الدنيا، الرحيم بالمؤمنين في الدارين.

٣-٤ - كتاب بُيِّنت آياته وأحكامه غاية البيان وأُحكمت غاية الإحكام، مع كونه قرآناً عربياً فصيحاً بمعانيه السهلة، ومبانيه الجزلة في غاية البيان والتمام، لقومٍ يعلمون ما فيه من خير الكلام، وأفضل الأحكام، مُبَشِّراً للمؤمنين بجَنَّات النعيم، ومُنْذِراً للكافرين بعذاب الجحيم، فأعرض أكثر العباد، فهم لا يسمعون سماعَ تَدَبُّرٍ لما فيه من الهداية والتكريم.

٥-٧- وقال المشركون للنبي محمَّد ﷺ بكيد وسفه: قلوبنا في أغطية لا يصل إليها شيء ممَّا تدعوننا إليه من الإيمان، وفي آذاننا صَمَمٌ فلا نسمع، ومن بيننا وبينك - يا محمَّد - حاجز يحجبنا عن إجابة دعوتك، فاعمل على منهج دينك، إنَّنا عاملون على منهج ديننا. فرَدَّ الله تعالى عليهم: قل لهم أيُّها الرسول: ما أنا إلا

بشر مثلكم، يوحي الله إليَّ أنَّما معبودكم الحق إله واحد، فاستقيموا إليه بالطاعة، واطلبوا منه المغفرة لذنوبكم. والهلاك للمشركين الذين لا يُعطون زكاة أموالهم، وهم مُكَذِّبون بالآخرة والبعث.

٨- إنَّ الذين صَدَّقوا بالله، وأَقَرُّوا له بالوحدانية، وعَمِلُوا بطاعته، لهم ثواب جزيل غير منقوص، ولا مقطوع.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإشارة إلى بيان القرآن الكريم لأسلوب الترغيب والترهيب.

٢- الرسول ﷺ بَشَرٌ، ميَّزَه الله على غيره بالنُّبوة.

٣- كلمة «لا إله إلا الله» كلمة جامعة للدِّين كُلِّه.

٤- اعتراف الكفار باليأس من رحمة الله تعالى.

٥- الإشارة إلى أنَّ التخَلُّف عن دَفْعِ الزكاة من صفات الكفار.

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩-١١- يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار، فيأمر رسوله مُحَمَّداً ﷺ أن يقول لهم: كيف تكفرون بالله الذي خلق لكم الأرَضين السبع في زمن يومين، وتجعلون له شركاء مماثلين له في العبادة؟ ذلك الخالق المُبدع هو ربُّ الخلائق أجمعين، وجعل سبحانه في الأرض جبالاً راسخة فوقها، وزاد الأرض خيرات كثيرة، وقَدَّر

فيها أرزاقَ أهلها في أربعة أيام كاملة. هذا التفصيل الزمني بيان للسائلين، ثم قصد سبحانه إلى السماء وكانت دُخاناً من قبلُ، فأَمَرَ السماء والأرض بالانقياد لأمره سبحانه، فأجابتا: أتينا خاضِعِين.

١٢ - ففرغ من تسويتهنَّ سبع سموات في يومين آخرين، ورَتَّب مقرَّراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، وزَيَّنَّا السماء الدنيا - الأولى - بالكواكب المنيرة، وحفظاً لها من الاختلال، واستراق الشياطين السمع بالشهب النارية. ذلك الخَلْقُ البديع، والتدبير الدقيق تقدير الله العزيز في ملكوته، العليم بأحوال مخلوقاته.

١٣-١٦ - فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان للآيات الكونية الدالَّة على الوحدانية، فقل - أيُّها الرسول - لهم مُحَذِّراً: قد خَوَّفْتُكم عذاباً شديداً، صاعقة مدمرة كصاعقة قوم عاد وقوم ثمود حين جاءتهم رسلهم يتبع بعضُهم بعضاً، يأمرونهم جميعاً بدعوة التوحيد، فرَدُّوا على رُسُلهم: لو شاء ربُّنا أن نُوَحِّدَه لأنزل إلينا ملائكة، فإنَّا بما أرسلتم به من التوحيد مُكَذِّبون. فأمَّا قوم عاد فاستكبروا على نبيِّهم هود ومن معه من المؤمنين بالباطل، فقد اغْتَرُّوا بقوَّتهم، وقالوا: لا أحدَ أقوى منَّا. أولم يعلموا أنَّ الله خالقهم هو أقوى منهم، وأقدر عليهم؟ وكانوا بآياتنا الباهرة والمعجزات الظاهرة يُكَذِّبون، فعاقَبْناهم، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرودة في أيام عصيبة؛ لكي نُذيقَهم عذاب الذُّلِّ في الحياة الدنيا. ولَعذابُ الآخرة بالنار أشدُّ، وليس لهم ناصر يُخَلِّصهم من العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - خَلَقَ الله الأرض في يومين، وقدَّر فيها أقواتها في يومين، وخَلَقَ السموات السبع في يومين، فكان مجموع خَلْق السموات والأرض في ستة أيام.

٢ - يجب تحذير المخالفين من العذاب، ولَفْتُ أنظارهم إلى ما أصاب الذين من قبلهم.

٣- الاستكبار والاغترار بالقوة وظُلْمُ الآخرين يقود إلى الدمار والهلاك، كما حصل لقوم عاد.

٤ - ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٥ - ينظر: الدخان الكوني في الملحق.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨ - وأمَّا قوم ثمود فقد أرسلنا إليهم نبيَّهم صالحاً يُبيِّن لهم طريق الهداية، ويُحذِّرهم من الغَواية، فاختاروا طريق الغَواية، فدمَّرتْهم صاعقة العذاب المهين؛ بسبب ارتكابهم الجرائم، وأنقذْنا نبيَّ الله صالحاً عليه السلام ومَنْ صدَّق برسالته، وكانوا يخافون الله بامتثال أوامره.

١٩-٢٠ - ويوم القيامة يُجمَع أعداء الله إلى نار جهنَّم، فيُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرهم؛ ليُساقوا إلى الجحيم، حتى إذا حضروا النار ولم يعترفوا بفضائحهم، شهدت عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم التي يُنطقها الله تعالى، فتذكَّرَ ما كانوا يرتكبون من الكبائر والجرائم.

٢١- وأنكروا على جلودهم الناطقة: لِمَ أقررتم علينا؟ فأجابت: أنطقَنا اللهُ بقدرته الذي أنطق كلَّ شيء، وهو الذي خلقكم الخلق الأوَّل ولم تكونوا شيئاً، وإليه مصيركم للحساب.

٢٢-٢٤ - سبب النزول:

عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كان رجلان من قريش، وخِتْنٌ لهما من ثقيف - أو رجلان من ثقيف، وخِتْنٌ لهما من قريش - في بيت، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال: بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ

وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٤٢٤ برقم ٤٨١٦ - كتاب التفسير- سورة فصلت، باب الآية، وصحيح مسلم برقم٢٧٧٥ - كتاب صفات المنافقين). والختن هو: الصهر.

التفسير:

وما كنتم تَسْتَخْفُون من هؤلاء الشهود حين مباشرتكم القبائح مخافة الفضائح، ولكن ظننتم أنَّ الله تعالى لا يعلم كثيراً ممَّا ترتكبون من الجرائم. ذلكم الأمر البالغ في القُبح: ظَنُّكم الفاسد الذي ظننتموه بربِّكم، الذي أوقعكم في الدمار، فأصبحتم من الخاسرين لأنفسكم وسعادتكم، فإن يصبروا على العذاب فالنار مَنْزِلُهم، وإن يطلبوا إرضاء الله للمغفرة فما هم من المَرْضِيِّ عليهم؛ ليغفر لهم.

٢٥- وقيَّضنا لهؤلاء الظالمين أصحاباً فاسدين من شياطين الإنس والجنِّ، فحَسَّنوا لهم الأعمال القبيحة في الدنيا، ورغَّبوهم فيها، وأنسَوهم ذِكْرَ الآخرة، فوَجَبَ عليهم العذاب ضمن الأُمم السابقة من مَرَدَةِ الإنس والجنِّ. إنَّهم كانوا خاسرين أنفسهم وأعمالهم في الدنيا والآخرة.

٢٦-٢٧- وقال رؤساء الكفر لأصحابهم وأتباعهم في مكَّة: لا تسمعوا محمَّداً إذا قرأ القرآن، وارفعوا أصواتكم عند قراءته؛ حتى لا يُؤَثِّر فيمَنْ يسمعه، ولكي تَغْلِبوه على دينه. وقسماً مؤكَّداً لَنُذِيقَنَّ الكفَّار عذاباً شديد الألم، ولَنَجْزِيَنَّهم في الآخرة جزاءً أقبح ما كانوا يرتكبون من الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينتقم الله من المتكبرين المتجبِّرين، ويجعل قوَّتهم ضعفاً وعَجْزاً، ويوقع بهم الخزي والذل.

٢- جَعَلَ الله إهلاك عاد وثمود عبرة لِـمَنْ بعدهم، ودَرْساً لابُدَّ أن يعلمه الناس؛ ليَحْذَرُوا العذاب.

٣- مَنْ أَحْسَنَ ظَنَّه بالله، وطمع في مغفرته، كان الله عند حُسْنِ ظنِّه.

٤- في الآية (٢٥) إخبار مستقبليٌّ عن جَعْلِ الله تعالى للكفَّار أصحاباً من شياطين الإنس والجنِّ، يُزَيِّنون لهم قبائح أعمالهم في الدنيا.

٥- عادة قادة الكفار أنهم يطلبون من أتباعهم التشويش على القرآن، والصدَّ عنه في أيِّ زمان ومكان.

٦- القرآن سلاح عظيم في أيدي المؤمنين في مواجهة الكَفَرة الملحدين.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير:

٢٨- ذلك الجزاء العظيم جزاء أعداء الله من الكفَّار والعصاة، وهو النار، لهم في جهنَّم دار الإقامة الدائمة؛ بسبب تكذيبهم بآياتنا وحُجَجِنا.

٢٩- وقال الكفَّار بعد دخول النار: يا ربَّنا أَرِنا مَنْ أَضَلَّنا من فريقَي الجنِّ والإنس؛ لكي ندوسَهما بأقدامنا ليكونا من الأذلِّين.

٣٠-٣٢- يمدح الله المؤمنين ويُبَشِّرهم بسعادة الدارين: إنَّ الذين قالوا قولاً صادقاً: ربُّنا الله وحده لا شريك له، ثم استقاموا على أداء فرائضه، تتنزَّل عليهم الملائكة عند الموت، وفي القبر مُبَشِّرين لهم: لا تخافوا ممَّا أمامكم، ولا تحزنوا على ما خَلَّفتم، وأَبْشِرُوا بالجنَّة التي وعدكم الله إيَّاها على لسان الرسل، نحن أنصاركم في الحياة الدنيا، ونكون معكم في الآخرة، ولكم في الجنَّة ما تشتهي أنفسكم من النعيم المقيم، ولكم فيها ما تطلبون من المقام الكريم، مقاماً وضيافة من ربٍّ غفور لذنوبكم، رحيم بكم.

٣٣- ولا أحدَ أفضلُ قولاً ممَّنْ دعا إلى توحيد الله وطاعته، وعمل مع ذلك عملاً صالحاً، وقال: إنَّني من المسلمين المطيعين لله.

٣٤-٣٥- ولا تتساوى الخصلة الحسنة من المؤمنين، والخصلة السيئة من الكافرين والفاسقين، ادفع الإساءة بالخصلة التي أحسن منها، فبذلك يصير المُسيء إليك المُعادي كأنَّه قريب منك. وما يُرزق هذه الخصلة الحميدة بدَفْعِ السيئة بالحسنة إلا الصابرون على طاعة الله، وما يُوَفَّقُ لها إلا صاحب توفيق عظيم من الخير والأجر.

٣٦- وإن يوسوس لك الشيطان؛ لِيَصْرِفَكَ عمَّا أمر به الله تعالى، فاستعذ بالله من شرِّ الشيطان. إنَّه سبحانه هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال والأفعال.

٣٧-٣٨- ومن دلائل وحدانية الله وقدرته العظيمة: اختلاف الليل والنهار، الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وتعاقب الشمس والقمر، الشمس بضيائها، والقمر بنوره، لا تسجدوا - أيُّها العباد - للشمس ولا تَسْجُدوا للقمر، فإنَّهما مخلوقات الله، واسجدوا لله وحده الذي خَلَقَهُنَّ جميعاً، إن كنتم تعبدونه وحده حقّاً. فإن استكبر الناس فإنَّ الملائكة الذين عند ربِّك - أيُّها الرسول - يلهجون بالتسبيح له باستمرار، بالليل والنهار، وهم لا يَمَلُّون تلك الأذكار.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٣١) إخبار مستقبليٌّ عن تأييد الملائكة للمؤمنين بالنَّصر والتسديد في الدُّنيا.

٢- وجوب الاستقامة على شرع الله، والبشرى على ذلك بالاطمئنان في الدارين.

٣- على المؤمن مواجهة نَزَغَات الشيطان ووَساوِسِه بالالتجاء إلى الله؛ لِيَنْجُوَ منها.

٤- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم شرط أساس للانتفاع بتربية القرآن وتوجيهاته؛ لأنَّ القرآن الكريم كتاب تربية وهداية يَقْصِدُ إلى تقوية المؤمن في جانب المعرفة وتقويته في جانب الإرادة، وسعادة المؤمن متوقفة على استكمال هاتين القوتين ودفع ما يضعفهما من الشبهات والشهوات، والاستعاذة حصن المؤمن وسياجه الذي يستعصي على نَفَثات إبليس وسهامه.

٥- بيان عظمة الدعوة إلى الله تعالى.

٦- الثناء على الذين يسبحون الله تعالى.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٩- ومن دلائل قدرته على البعث: أنَّك - أيُّها الإنسان - ترى الأرض يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها المطر تَحَرَّكَتْ بالنبات وازدانت، وزادت بالثمرات والخيرات. إنَّ الذي أحيا هذه الأرض بالإنبات لَـمُحْيِي الموتى يوم القيامة. إنَّه سبحانه على كلِّ شيء قدير لا يُعْجِزُه شيء.

٤٠- إنَّ الذين يُكذِّبون بآيات القرآن ويُحرِّفونها لا يَخْفَوْنَ على الله، أفمن يُلقى في النار لكفره خير أم الذي يأتي يوم القيامة آمناً من عذاب الله؟ والإجابة على هذا الاستفهام محذوفة للعلم بها بداهة طلباً للإيجاز، وتقديرها: بلى إن مَنْ يأتي آمناً يوم القيامة هو خير وهم المؤمنون الموحدون لله. ثم يتوعَّد الله الملحدين: اعملوا ما شئتم، إنَّه سبحانه بكلِّ ما تعملون بصير، لا يخفى عليه شيء منه.

٤١-٤٢- إنَّ الذين كذَّبوا بالقرآن لَمَّا جاءهم من عند الله لهم عقاب لا يكاد يُوصف من شدَّة أهواله، وإنَّ هذا القرآن لكتاب أعزَّه الله وحفظه من كل تحريف وتبديل ونقص وزيادة، فلا يأتيه الباطل من أيِّ ناحية، تنزيلٌ من إله حكيم في الأقوال والأفعال، محمود في كل حال.

٤٣- ما يقول لك هؤلاء المشركون أيُّها الرسول من الإشاعات إلا مثل ما قالت الأُمم السابقة المكذِّبة لرسلها. إنَّ ربَّك لذو مغفرة للمؤمنين التائبين، وذو عقاب موجع للكافرين.

٤٤- ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة أعجمية لَأنكر المشركون، وقالوا: هَلَّا بُيِّنَتْ آياته بلغتنا حتى نفهمها، أكلام أعجمي ورسول عربي؟ فَرَدَّ عليهم سبحانه: قل لهم: هذا القرآن للمؤمنين هداية إلى الحقِّ، وشفاء للقلوب من الشكوك والقلق، والذين يُكَذِّبون به في آذانهم صَمَمٌ عن سَماعه وتَدَبُّره، وهو على قلوبهم

عمى فلا يهتدون به. أولئك البعداء عن الحقِّ كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع داعياً، ولا يجيب منادياً، ولا يعرف هادياً!

٤٥- وقسماً لقد آتينا موسى كتاب التوراة، فاختلف فيه قومه ما بين مُصَدِّق ومُكذِّب. ولولا حُكْمٌ سابق من ربِّك بتأخير الحساب إلى يوم القيامة لَفَصَلَ بينهم بدمار الكفار، وإنَّ المُكذِّبين لفي شكٍّ من القرآن شديد الريبة.

٤٦- يُبَيِّنُ الله عدله بين العباد: مَنْ عمل عملاً صالحاً طاعة لله، فيعود نَفْعُ عَمَلِه لنفسه، ومَنْ أساء فعصى الله ورسوله، فيعود ضَرَرُ إساءته على نفسه. وما ربُّك بذي ظلم لأحد، فلا يُعاقِبُ أحداً إلا بذنبه.

الفوائد والاستنباطات:

١- من الأدلَّة على البعث وإحياء الموتى: إحياء الله الأرضَ الميتة بالماء، وإنبات النبات فيها.

٢- في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ بأن الله بصير بالأعمال، لا يخفى عليه شيء منها، سواء كانت تلك الأعمال في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل.

٣- القرآن محفوظ من التغيير والتبديل، ولن يأتي من حقائق العلم الثابتة ما يَدُلُّ على بُطلان شيء منه.

٤- جميع الرُّسُل قُوبِلُوا بتكذيب الكافرين وشُبُهاتهم واتِّهاماتهم، وقابلوا ذلك بالصبر والثبات.

٥- يختلف تأثير القرآن في الناس حَسَبَ نظرتهم له، فهو هدى وشفاء للمؤمنين، وصَمَمٌ وعمى على الكافرين.

٦- في الآية (٤٦) قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٧-٤٨- يُخبر الله تعالى عن سعة علمه، واختصاصه بعلم قيام الساعة، وما تُخرجه الأشجار من الثمار من أوعيتها، وما تحمله الإناث في بطونها، وما تضع حملها من الأولاد. كلُّ ذلك بعلم من الله سبحانه، ويوم ينادي الله المشركين يوم القيامة توبيخاً وفضحاً لكذبهم: أين شركائي الذين أشركتموهم معي في العبادة؟ أجابوا: أخبرناك ما منَّا مِنْ أحد يشهد اليوم أنَّ معك شريكاً. وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة، وأيقنوا أنَّه لا مهرب لهم من عذاب الله.

٤٩- لا يَمَلُّ الإنسان دائماً من طلب الله الغنى والمال والصحَّة والولد، فإن أصابه مصيبة فهو شديد اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

٥٠- وقسماً إن أذقنا الكافر رحمة منَّا من بعد مصيبة أصابته ليقولَنَّ: هذا الفضل حقٌّ لي قطعاً أستحقُّه، وما أعتقد أنَّ الساعة آتية. وقسماً إن عدت إلى ربِّي بالبعث فإنَّ لي عنده الجنَّة، فلنُخْبِرَنَّ الكفَّار بكل ما ارتكبوه من الجرائم، وقسماً سنذيقهم حقَّاً من عذاب شديد الألم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ ما يُعبد من دون الله هلاك وضلال، ولن يُجْدِيَ شيئاً عن عابديه؛ لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ﴾.

٢- الفرق بين اليأس والقنوط: أنَّ اليأس زوال الرجاء بحيث ينقطع رجاء الإنسان، والقنوط أشدُّ من اليأس، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَيَـُٔوسٞ﴾ يكون هذا ابتداء، والقنوط نهايته.

٣- بيان حالة الإنسان الكافر، وهو كُفْرُه بنعمة الله ﷻ، واعتزازه بنفسه في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

٤- من طبيعة الإنسان أنه يحبُّ الخير دائماً وهو ما يلائم نفسه ومرادها؛ لقوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾.

٥- من صفات الكافر اليأس والقنوط من رحمة الله عند مسّه الضر.

٦- ذَمُّ أهل اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ.

٧- من صفات الكافر إعجابه بنفسه، إذ يضيف الرحمة إلى نفسه، أو إلى استحقاقه إيَّاها.

٨- بيان عُتُوِّ الكافر وعناده، إذ أنكر ما قامت الأدلَّة الشرعيَّة والعقليَّة والحسِّية على ثبوته في قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

٩- تأكيد أنَّ هؤلاء الكافرين سوف يُخبَرُون بما عملوا؛ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾، ويكون هذا يوم القيامة.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٥١- وإذا أنعمنا على الإنسان بخير انصرف عن شُكرِ الله المُنعم، وإذا أصابته مُصيبة فهو صاحب دعاء كثير.

٥٢- قل - أيُّها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله، ثم كذَّبتم به، إذن تكونوا أضلَّ الناس، وفي خلاف بعيد عن الحق.

٥٣- سنُريهم دلائل الحقِّ وبراهين الصدق في نواحي السموات والأرض، وفي خَلْقِ أنفسهم وما فيها من عجائب قدرة الله تعالى، إلى أن يَتَبَيَّنَ لهم أنَّ القرآن العظيم هو الحقُّ من الله تعالى، أولم يَكْفِ هؤلاء المشركين دليلاً على أنَّ القرآنَ حقٌّ، بأنَّ ربَّك شاهد على كلِّ شيء ممَّا يفعله خلقه؟ الجواب: بلى والله إن هذا لكافٍ.

٥٤- ألا فانتبهوا - أيُّها العباد - من خطورة اعتقاد هؤلاء المُشركين الذين هم في شكٍّ من البعث والحساب، ألا فانتبهوا لأنفسكم، واحذروا من سخط الله تعالى، فإنَّه بكلِّ شيء محيط لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٥١) إخبار مستقبليٌّ عن حال الإنسان ضعيف الإيمان مع ربِّه في الرخاء والشدَّة، فإنَّه إذا أنعمه الله بصحَّة أو رزق أو غيرهما أعرض وتَرَفَّع عن الانقياد إلى الحق، وإن أصابه ضرٌّ فهو ذو دعاء كثير بأن يكشف اللهُ ضرَّه، فهو يعرف ربَّه في الشدَّة، ولا يعرفه في الرخاء.

٢ - إنَّ الإنسان من حيث هو إنسان بَطِرٌ عند النَّعماء، مُقْبِلٌ عند الضَّرَّاء؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

٣ - ما يتمتَّع به الإنسان من النعيم هو من عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾.

٤ - التحذير من هذه الحالة، فإذا رأى الإنسان من نفسه أنَّه عند النعمة يفرح، ويبطر ويتهاون بما أوجب الله تعالى عليه، فليعلم أنَّه داخل في هذا الإنسان المذموم.

٥ - وجوب التفكر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي نفسه؛ فهو طريق إلى الحق، وكلَّما ازداد الإنسان تأمُّلاً وتدبُّراً فإنه يزداد إيماناً.

٦ - الاستدلال بالآثار على مُؤَثِّراتها. وَجْهُ ذلك أنَّ الله تعالى استدلَّ بتمكينه للرسول على أنَّه حقٌّ، فالإنسان يستدلُّ بالآثار على مؤثِّراتها.

٧ - الحذر من المخالفة، وهذه فائدة تربويَّة تؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإذا علمت أنَّ الله شهيد على كلِّ شيء، على نفسك وأفعالك وأقوالك، فإنَّك سوف تراقب الله ﷻ.

٨ - بيان حال هؤلاء المكذِّبين، وأنَّ سبب تكذيبهم أنَّهم في شكٍّ من لقاء الله، ومعلوم أنَّ مَنْ كان في شكٍّ من لقاء الله فلن يعمل لله.

٩ - بيان إحاطة الله بكلِّ شيء، علماً وقدرةً وسلطاناً وتدبيراً، وغير ذلك، ومحيط بكلِّ شيء، بأفعاله وأفعال العباد.

١٠ - تحقيق مراقبة الله؛ ذلك أن الإيمان بإحاطة الله تعالى بكل شيء يورث المراقبة التامَّة له.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير الإيمان بوحدانية الله تعالى، والإيمان بالملائكة والرسل والبعث.

٢ - بيان عظمة مبدأ الشورى، وأهميته في حياة المسلمين خاصة، والبشرية عامة.

٣- تقرير هداية القرآن الكريم للبشرية.

٤ - تأكيد وحدة المصدر لدى المرسلين، وأنّه من عند ربِّ العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾

التفسير:

١ -٢ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٣-٥ - مثل ما أوحى إليك ربُّك - يا محمَّد - هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، الله العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته، له كلُّ ما في السموات السبع، وكلُّ ما في الأرَضين السبع، وهو العليُّ بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، العظيم الذي اجتمعت فيه صفات العظمة. ومن عظمته أنَّ السموات السبع تُقارِبُ أن تَتَشَقَّقَ، فهي تتأثَّر بعظمته سبحانه وبكلِّ ما يَمَسُّ هذه العظمة من قول المشركين: إنَّ الله اتخذ ولداً! والملائكةُ كلُّهم يلهجون بالتسبيح بحمد ربِّهم، ويسألون الله المغفرة لذنوب المؤمنين. ألا فانتبهوا أيُّها العباد، ولا تغفلوا عن مغفرته لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان قدرة الله تعالى، حيث إنَّ كلامه المنزَّل على نبيِّه من الحروف التي يتكلَّم بها الناس، ويُرَكِّبون منها كلامهم، ومع ذلك عَجَزوا أن يأتوا بمثله.

٢ - إثبات نبوَّة النبيِّ ﷺ؛ لقوله: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾.

٣- عموم ملك الله ﷻ في قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ اسم موصول يفيد العموم.

٤- بيان عُلُوِّ الله ﷻ الذاتيّ؛ لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

٥- نعمة الله علينا أن سَخَّر لنا الملائكة يستغفرون لنا؛ لأنَّ الملائكة لولا أنَّ اللهَ سَخَّرهم لنا ما استغفروا لنا، لكنَّ الله سَخَّرهم.

٦- تأكيد أنَّ الله ﷻ غفور رحيم، وأكَّد ذلك بثلاثة مؤكِّدات: ﴿أَلَآ﴾، ﴿إِنَّ﴾، ﴿هُوَ﴾.

٧- بيان الحكمة في حُكْمِ الله القَدَرِيّ؛ لأنَّ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كالتعليل لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنَّ قائلاً يقول: لماذا يستغفرون لِـمَنْ في الأرض؟ فتكون الإجابة: لأنَّ الله هو الغفور الرَّحيم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

التفسير:

٦- يُهَدِّدُ الله المشركين الذين اتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها، بأنَّ الله يحفظ عليهم أعمالهم، ويحاسبهم عليها يوم القيامة. لست - أيُّها الرسول - مسؤولاً عن أعمالهم، وإنَّما أنت مُبَلِّغ وقد أدَّيْتَ الأمانة.

٧- ومثل ما أوحينا إلى الأنبياء السابقين أوحينا إليك قرآناً عربياً فصيحاً؛ لتُنْذِرَ أهل مكة ومَنْ حولها من العباد أجمعين، وتُحَذِّر من العقاب يوم القيامة لجمع الخلائق وحسابهم، يوم لا شكَّ فيه، ثم يتفرَّق فيه العباد فريقين: فريق في الجنَّة، وفريق في نار جهنَّم المستعرة.

٨- ولو شاء الله لَـجَعل الناس كلَّهم مهتدين، ولكنَّه أراد أن يُدْخِلَ في رحمته مَنْ يشاء من المؤمنين، والظالمون أنفسهم بالكفر ليس لهم من دون الله مَنْ يَتَوَلَّى أمورهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

٩- يُنْكِرُ الله على المشركين أنَّهم لم يتخذوا الله ولياً، بل اتخذوا أولياء من دون الله يَتَوَلَّونهم، فالله وحده هو الوَلِيُّ بحقٍّ إن أرادوا وليّاً. وهو وحده الذي يبعث الموتى، وهو على كلِّ شيء قدير لا يُعْجزه شيء.

١٠- وما اختلفتم فيه - أيُّها العباد - من أمور الدين فحُكْمه إلى الله في كتابه وسُنَّةِ رسوله ﷺ. ذلكم الله العظيم ربِّي وربُّكم، عليه وحده اعتمدت في أموري، وإليه أَرْجِعُ في كل شؤوني.

١١-١٢- هو سبحانه خالق السموات السبع والأرَضين السبع، جعل لكم من جنسكم أزواجاً ذكوراً وإناثاً لتسكنوا إليها، وجعل لكم من الإبل والبقر والغنم أزواجاً أيضاً، يُكَثِّرُكم، ويَبُثُّكم منتشرين بسبب التوالد، ليس يشبهه تعالى ولا يماثِلُه شيء من مخلوقاته، وهو السميع للأقوال، البصير بالأحوال، له سبحانه ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع، يُوَسِّع رِزْقَه على مَنْ يشاء من عباده، ويُضَيِّقه على مَنْ يشاء. إنَّه سبحانه بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية الدُّعاة إلى الله في مواجهة المعوقات التي تعترض طريقهم.

٢- أهمية معرفة اللغة العربية وتعلُّمها. وَجْهُ ذلك أنَّه إذا كان القرآن عربيّاً، وكنَّا مخاطبين به ومُلْزَمين بالعمل به، فإنَّه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بتعلُّم اللغة العربية.

٣- في الآية (٨) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة الظالمين أنفسهم بالشرك يوم القيامة، فإنَّهم ليس لهم وليٌّ يَتَوَلَّى أمورهم، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله تعالى.

٤- في الآية (٨) قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وقف نبوي، ينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وتفسير سورة الأنعام الآية (٦٥). وقال النحاس: «ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب، ويفصل ممَّا بعدها، إن كان بعدها ذكر النار والعقاب، نحو: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾[سورة الشورى: ٨]، لا ينبغي أن يقول: ﴿وَٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنَّه منقطع مما قبله منصوب بإضمار فعل، أي: ويعذب الظالمين، أو وأوعد الظالمين». (القطع والائتناف ص٨٩).

٥- القائم بالعدل من الناس له ناصر ووليّ، والدَّليل من مفهوم المخالفة، إذا كان الظالم لا وليَّ له ولا نصير، فمَنْ قام بالعدل فله وليٌّ ونصير.

٦- إثبات الولاية لله؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾، فلا ولاية لأحد من دون الله؛ لأنَّ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد الحصر.

٧- وجوب الرجوع إلى حكم الله عند الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٨- الله ﷻ ينشر ويَبُثُّ ويُكَثِّر بني آدم، وما خلق له من الأنعام بسبب التَّزاوج.

٩- الردُّ على المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فهو ﷻ لا مثيل له، لا في الخلق، ولا في الصِّفات، ولا في غيره.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣- يَمْتَنُّ سبحانه على عباده المؤمنين والنبي ﷺ بكرمه العظيم أن شرع لهم من الدين خير الأديان، وهو الإسلام الذي أمر به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وهم أولو العزم من المرسلين، أمرهم بإقامة جميع شعائر هذا الدين، ونهاهم عن الاختلاف والفُرقة في الدين، وذَمَّ المشركين الذين استثقلوا، وأعرضوا عن دعوة النبيِّ ﷺ إلى توحيد الله، الذي يصطفي مَنْ يشاء من المرسلين، ويُوَفِّقُ مَنْ يرجع إليه بالطاعة من المؤمنين.

١٤- وما تفرَّق أهل الأديان والمشركون إلا من بعد ما جاءتهم الرسل بالعلم من عند الله، وما حملهم على ذلك إلا الحسد والعداوة بينهم. ولولا حُكْمٌ سابقٌ من الله بتأخير العقاب لَقُضي بينهم بإهلاك الكفَّار، وإنَّ أهل الكتاب الذين أوتوا التوراة والإنجيل من بعد أولئك الهالكين لَفي شكٍّ في كُتُبِهم أوقعهم في الريبة والحيرة.

١٥- فلهذا الدين العظيم فادع - أيُّها الرسول - واستقم كما أمرك الله، ولا تَتَّبِعْ أهواء المشركين، وقل: آمنت بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأمرني ربِّي أن أعدل بينكم في الحكم. الله ربُّنا وربُّكم

جميعاً، لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، لا جدال بيننا وبينكم بعد ما تبيّن الحق. الله يجمع بيننا وبينكم جميعاً يوم القيامة، وإليه المرجع للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١- دين الأنبياء واحد من نوح عليه السلام إلى محمَّد ﷺ.

٢- إثبات رسالة النبيِّ ﷺ؛ إذ قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٣- الأُمم جميعهم مأمورون بإقامة الدِّين، وعدم التفرُّق فيه.

٤- عصمة الله تبارك وتعالى ﴿مَن يُنِيبُ﴾ من البدع والمخالفات؛ لقوله: ﴿وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ﴾.

٥- الحثُّ على الإنابة إلى الله ﷻ؛ لأنَّها سبب للهداية.

٦- مَنْ خالف الدِّين من بعد مجيء العلم فإنَّه باغٍ معتدٍ؛ لقوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾.

٧- يجب على المرء أن يستقيمَ كما أُمِر، ولا يُحْدِثَ في دين الله ما ليس منه؛ لقوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

٨- تثبيت الله تبارك وتعالى لنبيِّه ﷺ؛ لأنَّ مثل هذه الأوامر والنَّواهي تُؤَيِّده وتُثَبِّته وتُقَوِّيه.

٩- وجوب الإيمان بكلِّ ما أنزل الله من كتاب؛ لقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾.

١٠- وجوب العدل؛ لقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٦ – والكفَّار الذين يُحاجُّون في دين الله تعالى من بعد ما استجاب الناس له حُجَّتهم باطلة عند ربِّهم، وعليهم سَخَطٌ من الله في الدنيا، ولهم عذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧–١٨ – الله تعالى الذي أنزل القرآن وسائر الكتب متسمة بالصدق، وأنزل العدل؛ ليحكم بين الناس بالإنصاف، وما يُعْلِمُك لعلَّ وقت الساعة قريب وأنت لا تدري. تلك الساعة التي يستعجل بمجيئها الكفَّار سخرية، والمؤمنون خائفون من قيامها، ويعتقدون جَزْماً أنَّها واقعة حقّاً. ألا فانتبهوا أيُّها العباد. إنَّ الذين يجادلون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحق.

١٩ – الله سبحانه ذو لطف بعباده، يرزق مَنْ يشاء منهم، وهو القويُّ الذي له القوَّة كلُّها لا يغلبه أحد، العزيز في انتقامه من أعدائه.

٢٠ – يَحُضُّ الله تعالى على العمل للآخرة، فمَنْ كان يريد بأعماله ونيَّته ثواب الآخرة نُضاعف له حسناته، ومَنْ كان يريد بعمله متاع الحياة الدنيا وحدها نُؤْتِه منها ما نشاء لِـمَنْ نريد، وما له في الآخرة من ثوابٍ يستحقّه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: ابنَ آدم تَفَرَّغْ لعبادتي، أملأ صدرك غنى وأسُدُّ فقرك، وإلا تفعلْ ملأت صدرك شغلاً، ولم أسدَّ فقرك».

(أخرجه الترمذي في السنن برقم ٢٤٦٦، وقال: حسن غريب. وابن حبان في (صحيحه ٢/ ١١٩ برقم ٣٩٣) وأخرجه الحاكم من رواية معقل بن يسار بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٢٦) ووافقهما الألباني في (السلسلة الصحيحة برقم ٩٥٠).

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ ابن عثيمين: «إثبات القياس؛ لقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لأنَّ الميزان ما تُوزن به الأشياء ويقارن بينها، ففيه إثبات القياس في الشرائع السماويَّة.... واعلم أنَّ كلَّ مثل ضربه الله في القرآن فإنَّه مُثْبِتٌ للقياس؛ لأنَّ المقصود به قياس هذه الحال على هذه الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤]، عندنا هنا مشبَّه ومشبَّه به، والتشبيه يقتضي الموازنة وإلحاق المشبَّه بالمشبَّه به، وهذا تماماً هو القياس». (تفسير القرآن الكريم ٩/ ٤٧٧).

٢- النبيُّ ﷺ لا يعلم متى تقوم الساعة؛ لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يُعْلِمُك. وهذا حَقٌّ ثابت، فإنَّ جبريل عليه السلام سأل النبيَّ ﷺ قال: أخبرني عن السَّاعة؟ فقال: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل».

(صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، برقم ٥٠، وصحيح مسلم - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم ٩).

٣- المؤمن بالسَّاعة خائف منها؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، ولكنَّهم خائفون خوفاً يحملهم على العمل لها.

٤- التحذير من الحرص على متاع الحياة الدنيا، والدعوة إلى إخلاص العمل لله تعالى لنيل الأجر والثواب.

٥- الآية (٢٠) مقيَّدة بالآية ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]؛ لأنَّ مَنْ أراد حرث الدُّنيا فإنَّه لا يُعطى كلَّ ما أراد.

٦- في الآية (٢٠) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ أراد بعمله الآخرة أو الدنيا، فمَنْ أراد بعمله ثواب الآخرة، فأدَّى حقوق الله، وأنفق في الدَّعوة إلى الدِّين، فإنَّ الله يزيد له في عمله الحسن، فيضاعف له ثواب الحسنة إلى عشر أمثالها إلى ما شاء الله من الزيادة، ومَنْ أراد بعمله الدُّنيا وحدها آتاه الله منها ما قسمه له، وليس له في الآخرة شيء من الثواب.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

٢١- يُوَبِّخُ الله تعالى المشركين: هل لهؤلاء المشركين بالله شركاء من الآلهة والشياطين، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله تعالى؟ ولولا أنَّ حكم الله سابق بإمهالهم؛ لَقَضى بينهم بتعجيل هلاكهم. وإنَّ الظالمين أنفسَهم بالكفر لهم عذاب موجع يوم القيامة.

٢٢- ترى - أيُّها الرسول - الكافرين بالله خائفين يوم القيامة من عقاب الله؛ بسبب ارتكابهم الجرائم في الدنيا، والعقاب نازل بهم، والمؤمنون الذين عملوا بطاعة الله في رياض الجنان الطيبة، لهم ما يتمنَّون من أنواع النِّعَمِ من عند ربِّهم. ذلك الجزاء العظيم هو الفضل الكبير الذي لا يُوصف قَدْرُه.

٢٣- ذلك المقام الكريم الذي يُبَشِّر الله عباده المؤمنين الذين يعملون بما أمرهم الله تعالى. قل - أيُّها الرسول - للمشركين: لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة، ومَنْ يكتسب حسنة نضاعفها له. إنَّ الله غفور لذنوب عباده التائبين، شكور لعباده المؤمنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: عَجِلْتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

(صحيح البخاري ٨/ ٤٢٦ برقم ٤٨١٨ - كتاب التفسير - سورة الشورى، باب الآية).

٢٤-٢٥- يُوَبِّخُ الله المشركين: بل أيقولون: إنَّ محمَّداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ لو افتريتَ ذلك لَطَبَع الله على قلبكَ، ويزيل الله الباطل، ويُثَبِّتُ الله الحق، ويُوَضِّحه بحُجَجِه الحكيمة. إنَّه

سبحانه عليم بما في قلوب العباد، وهو الذي يقبل التوبة من عباده إذا تابوا، ويصفح عن الذنب لِـمَنْ يشاء، ويعلم ما تفعلون من خير وشرٍّ، فيحاسبكم عليه.

٢٦- ويستجيب المؤمنون الذين يعملون الصالحات لِـمَا دعاهم الله إليه من الحقِّ، ويزيدهم من فضله هدىً وأجراً كبيراً، والمُكذِّبون بالله لهم عذاب شديد الألم في نار جهنَّم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ ابن عثيمين: «مَنْ أطاع الزعماء الكبار في تحريم شيء أحلَّه الله، أو تحليل شيء حَرَّمه الله، أو إيجاب شيء لم يوجبه الله، فإنَّه قد اتخذهم شركاء». (تفسير القرآن الكريم ٩/ ٤٩٠).

٢- ما قضاه الله أزَلاً لا يتغيَّر، يعني في الماضي لا يتغيَّر.

٣- في الآية (٢٢) عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمۡۗ﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٤- في الآية (٢٣) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة لعباد الله المؤمنين بالنعيم والكرامة في الآخرة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر عن جزاء مَنْ يكتسب حسنة، فإنَّ الله يضاعفها له بعشر فصاعداً.

٥- بيان شدَّة منابذة الكفَّار لما جاء به النبيُّ ﷺ؛ لقوله: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾.

٦- الطبع على القلب عقوبة من الله يُصيب بها العُصاة.

٧- في الآية (٢٥) إخبار مستقبليٌّ عن تَقَبُّل الله توبة عباده، إذا رجعوا إلى توحيده وطاعته، ويعفو عن سيئاتهم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ يعلم مايصنع عباده من خيرٍ وشرٍّ - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - ، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيهم بها.

٨- فضيلة الإيمان والعمل الصَّالح، وأنَّه سبب لإجابة الله تعالى.

٩- كلُّ مايَنال الإنسانَ من خير فبفضل الله. وعلى هذا يجب على الإنسان أن يقطع عن نفسه الإعجاب والغرور.

١٠- الله تعالى يُنذر النَّاس عن المعاصي والكفر بذكر العقاب.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٢٨- ولو وَسَّع الله تعالى الرزق على عباده فوق حاجتهم، لَحملهم ذلك على الفساد والعدوان فيما بينهم، ولكنَّه سبحانه يرزق بقَدَرٍ ما يشاء لكفايتهم. إنَّه بعباده خبير بأحوالهم، بصير بتدبير شؤونهم، وهو الذي ينزِّل المطر من بعد ما يئسوا من نزوله، وينشر رحمته في خلقه، وهو الوليُّ الذي يتولَّى عباده بفضله، المحمود على كلِّ حال.

٢٩- ومن دلائل قدرة الله: خلق السموات السبع والأرَضين السبع، وما نشر فيهما من أصناف الدوابِّ التي تدبُّ على وجه الأرض، وفي كلِّ سماء، وهو سبحانه على جمع المخلوقات كلِّهم إذا يشاء قدير، لا يعجزه شيء.

٣٠- وما أصابكم - أيُّها العباد - من مصيبة فبسبب معاصيكم التي ارتكبتموها، ويعفو ربُّكم عن كثير من الذنوب، فلا يؤاخذكم بها.

٣١- ولستم - أيُّها العباد - بمعجزين اللهَ في الأرض، فلن تفلتوا منه، وليس لكم من غير الله من وَليٍّ يَتَوَلَّى أموركم، ولا نصير يدفع عنكم ما يؤذيكم.

٣٢-٣٤- ومن دلائل عظمة قدرته سبحانه: السفن الكبيرة التي تجري في البحر كالجبال، إن يشأ الله أن يجعل الريح ساكنة، فتقف السفن ثابتة على ظهر البحر. إنَّ في ذلك التدبير العظيم لَعلاماتٍ واضحة على القدرة الربَّانية لكلِّ صَبَّار على طاعة الله، شكور لنعمه سبحانه، وإن يشأ يُرسل الرياح العاصفة، فيُغرق هذه السفن ومَنْ عليها بسبب ذنوبهم، ويتجاوز سبحانه عن كثير من الذنوب.

٣٥- ويعلم الكفَّار الذين يجادلون في آياتنا المسموعة والمشاهدة بالباطل، ما لهم من فرار من عقاب الله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٢٧) إخبار مستقبليٌّ عن حال العباد فيما إذا بسط الله الرزق، ووسَّعه عليهم، فإنَّهم يبغون في الأرض أشراً وبطراً، ويطغى بعضهم على بعض، ولكن الله يُنَزِّل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم.

٢ - بَسْطُ الرزق وتضييقه من عند الله وحده.

٣- الإشارة إلى أنَّ توسيع الرزق على أحد، وتضييقه على آخر، مبنيٌّ على خبرة وعلم؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٤ - تمام قدرة الله ﷻ بجَمْعِ هذه الدَّوابِّ يوم الحساب؛ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

٥- في الآية (٣٠) إخبار مستقبلي بأنَّ اكتساب الذنوب والآثام يوقع المصائب في الدِّين والدنيا، مع أنَّ الله ﷻ يعفو عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذ عباده بها.

٦- توصل العلم الحديث إلى:

أ- أن السفن تبقى ساكنة، ما لم تؤثر فيها قوة تحركها.

ب- أن للسفن قسماً مغموراً في الماء لا نراه، يُؤَمِّن لها التوازن ويحفظها من الغرق.

ج- تسخير مياه البحار والأنهار وجعلها ذات كثافات مناسبة لتحمل على ظهرها السفن.

د- استخدام الخشب لصناعة السفن؛ لأنَّه أخفُّ من الماء، ومسامير لتثبيت الألواح الخشبية ذات السطح الكبير، ممَّا يزيد من القوة الضاغطة، ويمنع تَسَرُّبَ الماء إلى داخلها.

.(http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=556)

٧- وجوب خوف الله تعالى ورقابته؛ لأنَّ الله ﷻ إذا أراد أن يُعَذِّب العاصيَ فلن يخفى عليه.

٨- التحذير من المعاصي، وأنَّها سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾.

٩- ذَمُّ المجادلة لإبطال الحقِّ؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾، أمَّا المجادلة لإثبات الحقِّ فإنَّها واجبة بالتي هي أحسن في الأسلوب والبيان والبرهان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٤١- يُقلِّل الله تعالى من شأن الحياة الدنيا، فمهما جمعتم - أيُّها العباد - من زخرف الدنيا فلا تغترُّوا به، فإنَّما هو متاع الحياة الدنيا الزائلة، وثواب الله في الآخرة خير من متاع الدنيا، وأبقى أثراً لدوامه. وهذا الخير هو الدائم للمؤمنين بالله المعتمدين عليه. ومن صفاتهم أنَّهم يجتنبون كبائر الذنوب والمعاصي الخبيثة، وإذا غَضِبُوا تجاوزوا عن الذنب، وكظموا الغيظ، والذين أجابوا ربَّهم إلى ما دعاهم إليه من الإيمان به، وحافظوا على الصلاة في أوقاتها، ويتشاورون في مُهمَّات الأمور، وممَّا رزقناهم من المال يتصدَّقون في سبيل الله. والذين إذا تَعرَّضوا للظلم انتصروا لدَفْعِه، بمجازاة المسيء بمثل ما اعتدى من غير زيادة. فمَنْ عفا عن المسيء، وأصلح ما بينه وبين المَغْفُوِّ عنه ابتغاء رضا الله، فأَجْرُ عفوه على الله. إنَّ الله تعالى لا يحبُّ المعتدين، ومَنْ عاقب المعتدي بمثل اعتدائه فلا ذنب عليه.

٤٢- إنَّما الإثم والعقاب على الذين يَتَعَدَّون على الناس، ويفسدون في الأرض بالباطل من القول والفعل. أولئك البعداء عن الحقِّ لهم عذاب موجع.

٤٣- ولَـمَنْ صبر على الأذى وستر على السيئة. إنَّ ذلك الأمر العظيم من الأمور المحمودة التي أمر الله بها وأكَّدها.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٣٦) إخبار مستقبليٌّ والبشارة للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربِّهم يتوكَّلون بأنَّ لهم عند الله تعالى نعيم الجنَّة المقيم.

٢- وجوب التوكُّل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٣- أهمية الشورى في علاج أنواع العنف والقضاء على الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ لأن الكل تحت قبة واحدة ويجب أن يحافظ على هيبة الجماعة ووحدة الكلمة ونبذ الفرقة والشقاق.

٤- مسؤولية مجلس الشورى في الارتقاء بالمجتمع من خلال النتائج السديدة والتوصيات الرشيدة ذات قرارات حكيمة ومخرجات كريمة.

٥- من صفات الذين آمنوا، وعلى ربِّهم يتوَكَّلون: أنَّهم لا يَرْضُون بالظُّلم، وإغفال الأخذ بحَقِّهم؛ لقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾.

٦- يجب على مَنْ انتصر إذا أصابه البغيُ ألَّا يتجاوزَ الحدَّ بالاستيفاء.

٧- في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ جزاء سيئة المسيء فيما إذا أساء فإنَّ عقوبته سيئة مثلها من غير زيادة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو جزاء مَنْ عفا عن المسيء وتَرَكَ عقابه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفوِّ عنه ابتغاء وجه الله، فأجر ذلك العفو على الله.

٨- التحذير من الظُّلم. ووجهه أنَّ في الظُّلم انتفاء محبَّة الله للعبد، وما أعظمَ الخسارةَ فيمَنْ خسر محبَّة الله له!

٩- في الآية (٤٣) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ صبر على الأذى وستر السيئة، فإنَّ ذلك من عزائم الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي أمر الله بها، ورَتَّب لها ثواباً جزيلاً، وثناء حميداً.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٤- ومَنْ يُضْلِلْه الله عن الهداية فليس له ناصر يتولَّى هدايته، وترى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر يوم القيامة حين رأوا العذاب يقولون لربِّهم: هل هناك طريق للرجوع إلى الدنيا لنعملَ صالحاً؟

٤٥-٤٦- وترى - أيُّها الرسول - هؤلاء الظالمين يُعْرَضون على نار جهنَّم خائفين من الخِزْيِ يُسَارِقون النظر من شدَّة الخوف. وقال المؤمنون: إنَّ الخاسرين حقّاً هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم

القيامة. ألا فانتبهوا - أيُّها العباد - من سوء عاقبتهم. إنَّ الظالمين في عذاب دائم، وما كان لهم من أعوان ينقذونهم من العذاب، ومَنْ يُضْلِلْه الله عن الهداية فما له من طريق يخرجه من الغَواية ليصل به إلى الهداية.

٤٧-٤٨- أجيبوا دعوة ربِّكم - أيُّها العباد - لعبادته من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يمكن أحداً أن يَرُدَّه بعد حُكْمِ الله بوقوعه، ما لكم من مَفَرٍّ تلجؤون إليه في ذلك اليوم، وما لكم من ناصر يُعينكم، ولا سبيل لكم لإنكار ما اقترفتم، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة والإيمان، واستحَبُّوا الكفر فما أرسلناك - أيُّها الرسول - عليهم حافظاً لأعمالهم لتحاسبهم عليها، فما عليك إلا تبليغ الدعوة. وإنَّا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - إذا أكرمنا الإنسان برحمة فرح بها، وإن تُصِبْهم مصيبة بسبب ارتكابهم المعاصي فإنَّ الإنسان جَحُودٌ لنِعَمِ الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ المستكبرين على الحقِّ المعاندين يُجازَون بعقاب يناسب معصيتهم. لأنَّهم يُعْرَضُون على النَّار خاشعين ذليلين.

٢- تسلية للدعاة، فالدَّاعي عليه البلاغ، وليس عليه أن يَهْدِيَ النَّاس؛ لأنَّ الهداية من الله.

٣- ما يصيب الإنسان من سيئة هو بسبب عمله؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤- في هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ.

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير:

٤٩-٥٠- لله سبحانه ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع وما فيهما، يخلق ما يشاء من الخلق، فيرزق مَنْ يشاء الإناثَ، ويرزق مَنْ يشاء الذكورَ، أو يرزقهم ذكوراً وإناثاً، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً لا يُولد له ولد. إنَّه سبحانه عليم بأحوال الخلق، قدير على خَلْقِ ما يشاء، ورِزْق مَنْ يشاء.

٥١- وما صَحَّ لأحد مِنَ البشر أن يُكَلِّمه الله إلا بوحي منزل عليه، أو يُكَلِّمه من وراء حجاب، أو يرسل إليه مَلَكاً، فيوحي بإذن ربِّه ما يشاء تبليغه. إنَّه سبحانه عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته، حكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

٥٢-٥٣- ومثلَ ما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك - أيُّها الرسول - قرآناً من عندنا، ما كنت تعرف ما الكتب السابقة ولا الإيمان، ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً يُبَصِّر العباد، نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا. وإنَّك - أيُّها الرسول - لَتَهْدي إلى الإسلام حقَّاً، وهو دين الله الذي له ملك ما في السموات السبع والأرَضين السبع، ألا فانتبهوا أيُّها العباد، فإنَّ مرجع أمور الخلائق إلى الله تعالى للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيتين (٤٩-٥٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ يخلق ما يشاء من الخلق - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فيَهَبُ لِـمَنْ يشاء من عباده إناثاً لا ذكورَ معهنَّ، ويَهَبُ لِـمَنْ يشاء الذكور لا إناث معهم، ويعطي ﷻ لِـمَنْ يشاء من النَّاس الذكر والأنثى، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً لا يُولد له.

٢- لا اختيار للمرء بالنسبة للأولاد؛ لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾، فجعل الأمر راجعاً إلى مشيئته ﷻ.

٣- الإشارة إلى أنَّ ما خالف هَدْيَ النبيِّ ﷺ ليس صراطاً مستقيماً، تؤخذ من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يعني أنَّ غير ما أنت عليه ليس صراطاً مستقيماً.

٤- في الآية (٥٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ جعل القرآن ضياء للنَّاس، يهدي به الله مَنْ يشاء من عباده إلى صراط مستقيم - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل -.

٥- عُقْم أحد الزوجين قَدَرٌ من الله تعالى وابتلاء وبحكمة منه قد لا يعلمها الإنسان، فعليه التسليم ولْيعلم أن ما كُتب عليه في ذلك هو خير له ولْيطمئنَّ به دونما تحسُّر أو جزع.

٦- إثبات الوحي من الله إلى البشر بواسطة.

٧- تقرير هداية القرآن الكريم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير الرسالة النبويَّة.

٢ - تقرير وحدانية الله تعالى بالبراهين الكونية.

٣ - تقرير البعث والحساب بالجنة أوالنار.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢-٤ - قسماً بالقرآن المبين بأحكامه وهَدْيه للعباد، إنَّا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - جعلناه قرآناً عربياً فصيحاً؛ لكي تفهموا معانيه، وتتدبَّروا مَرامِيَه، وإنَّه في اللوح المحفوظ لدينا لَعَلِيٌّ في شرفه ومقامه، حكيم في حِكَمه وأحكامه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فأَمَرَه أن يكتب ما يريد أن يخلق، فالكتاب عنده، ثمَّ قرأ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾».

(أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه، السنة ٢/ ٤١٠ برقم ٨٩٨، وأخرجه الطبري (التفسير ٢٥/ ٤٨) من طريق ابن علية عن الدستوائي به. وإسناده صحيح. (انظر: مرويات أحمد في التفسير ٤/ ٨١ برقم ١٤٩).

٥- يُنكر الله تعالى على الكفَّار، ويُوَبِّخهم: أنترك تذكيرَكم لأجل إعراضكم، ومعصيتكم وإسرافكم في تكذيبكم؟

٦-١٠- ما أكثر إرسالَنا الأنبياء في الأُمم السابقة! وما يأتي تلك الأُمم من نبيٍّ إلا كانوا به يسخرون، فدمَّرْنا مَنْ هم أشدُّ قوَّةً من قومك أيُّها الرسول، ومضى ذكر أخبار السابقين ودمارهم. وقسماً إن سألتهم مَنْ خلق السموات السبع والأرَضين السبع؟ لَيقولُنَّ: خلقهنَّ العزيز في ملكوته، العليم بمخلوقاته. الذي جعل لكم - أيُّها الناس - الأرض فِراشاً، وجعل لكم فيها طُرُقاً؛ لكي تهتدوا إلى مطلوبكم وغايتكم.

١١-١٤- وهو الله سبحانه الذي نَزَّل من السحاب مطراً بقدر الحاجة، فأحيينا به بلدة لا نبات فيها. مثلَ ذلك الإخراج تُخرجون من قبوركم بعد موتكم، والذي خلق الأصناف من المخلوقات كلِّها، وسَخَّر لكم ما تركبون في البحر والبرِّ من السفن والإبل والخيل؛ لتستقرُّوا على ظهورها، وتقولوا: سبحان الله الذي ذَلَّل لنا هذا المركب، وما كُنَّا له مطيقين. وإنَّا إلى ربِّنا بعد مماتنا راجعون للحساب.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى السفر، كَبَّرَ ثلاثاً ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللهم إنَّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى. (صحيح مسلم - كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم ١٣٤٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- كون القرآن باللغة العربيَّة مَنقَبَةٌ كبرى للعرب؛ لأنَّ القرآن العظيم نزل بلغتهم؛ لقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾.

٢- مِنَّةُ الله ﷻ على العرب، فقد أنزل عليهم كتاباً واحداً وبلغتهم، هدايةً للخلق أجمعين إلى يوم القيامة.

٣- إنَّ الله تعالى أقام الحُجَّة على جميع الخلق، ويؤيِّد هذا قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

٤- تقرير نعم الله تعالى على خلقه بما جعل لهم من الطُّرق في هذه الأرض على تباعُدِ أقطارها بالشِّعاب والجبال والنجوم.

٥- في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن سبب جَعْلِ الله الأرض لعباده فراشاً وبساطاً، وسَهَّل لهم فيها طُرُقاً لمعاشهم ومتاجرهم؛ وذلك كي يهتدوا بتلك السُّبُلِ إلى مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

٦- رحمة الله ﷻ بإنزال المطر من فوق؛ لأنَّه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السُّفلى دون أن يصل الماء إلى قِمم الجبال، ولكنَّ الله تعالى جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والنازل.

٧- قياس المعقول على المحسوس، وإن شئت فقل: قياس الغائب على الحاضر؛ لقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

٨- نعمة الله ﷻ على عباده، إذ جعل لهم من الأنعام والفلك ما يركبونه.

٩- استحباب هذا الذِّكر عند الرُّكوب، وهو: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾.

١٠- في الآية (١٣) إخبار مستقبليٌّ عن الحكمة مِنْ جَعْلِ الله السُّفُنَ في البحر، والبهائم في البر، مراكبَ لعباده؛ وذلك لكي يستووا على ظهورها، ثمَّ يتذكَّروا نعمة ربِّهم إذا ركبوا عليها، ويقولوا: الحمد الله الذي سَخَّر لنا هذا، وما كُنَّا له مطيقين. وإنَّا إلى ربِّنا بعد مماتنا لَصائرون، وإليه راجعون.

١١- إنَّ في تقرير الله تعالى لهذه النعم على عباده دعوة لهم للاعتراف بفضله وشكره عليها بالإيمان به وعبادته وحده دون شريك وطاعته والانقياد لأمره وشرعه.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٥- وجعل هؤلاء المشركون لله ولداً سبحانه وتعالى عَمَّا يقولون عُلُوّاً كبيراً. إنَّ الإنسان مبالِغٌ في الكفر، مُعْلِنٌ له.

١٦- يُنكر الله على المشركين: هل اتخذ الله لنفسه البنات، وخَصَّكم بالبنين؟

١٧-١٩- وإذا بُشِّر أَحَدُ المشركين بولادةِ بنتٍ له، صار وجهه مُسْوَدّاً من الكآبة والحزن! أيجعلون لله ولداً مِنْ شأنه النشأة في الزينة، وهو في الجدال عاجز لقُصور بيانه؟ وجعل هؤلاء المشركون الملائكة الذين هم يعبدون الرحمن إناثاً! هل حَضَرُوا عند خَلْقِهم حتى يحكموا بأنَّهم إناث؟ ستُكْتَبُ مقالتهم المزعومة، ويُعاقَبون عليها في الآخرة.

٢٠-٢٢- وافترَوا أيضاً بقولهم: لو شاء الله الرحمن ألَّا نعبد هؤلاء الشركاء ما عبدناهم. ليس لهم دليل على ما يَدَّعون، وما هم إلا يكذبون. هل أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن، فهم ملتزمون بالعمل بما فيه؟ فلم يأتوا بحُجَّةٍ على ما يزعمون، بل اعترفوا بأنَّهم مُقَلِّدون لدين آبائهم وكفرهم، وأنَّهم سائرون على منهج آبائهم في الكفر.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنكار على هؤلاء الذين جعلوا لله ولداً؛ لقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾.

٢- التنديد التام بهؤلاء؛حيث إنَّهم إذا بُشِّروا بالأنثى صارت لهم هذه الحال، وهم يَدَّعُونها للخالق ﷻ.

٣- ضعف المرأة في الخصام، بكونها لا تُبَيِّنُ ما في قلبها من الحُجَّة.

٤- تهديد أولئك المفترين بأنَّ شهادتهم ستُكتب، ويعاقبون عليها.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٣- وكما تبع هؤلاء الكفَّار آباءهم بغير حجَّة، كذلك فعل الذين من قبلهم من الأُمم المكذِّبة، فما بَعَثْنا قبلك - أيُّها الرسول - من نذير إلا قال أهل البطر والترف: إنَّا وجدنا آباءنا على دين، وإنَّا على طريقتهم سائرون مُتَّبِعون.

٢٤-٢٥- يُخبر الله تعالى أنَّ النبي محمَّداً ﷺ ومَنْ قبله من الرسل قد أنكروا على الكفَّار تقليد آبائهم في الكفر، وقد جاءهم المرسلون بالهداية من عند الله، ولكنَّ الكفَّار أصَرُّوا على غَوايتهم، فقالوا: إنَّا بما جئتم به من الرسالة جاحدون، فأهلكناهم. فانظر - أيها الرسول - كيف كان مصير المكذِّبين بالله ورسله؟

٢٦-٢٨- واذكر - أيُّها الرسول - حين قال إبراهيم ﵇ لأبيه (آزر) وقومه: إنَّني بريء من هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، لكن ربِّي الذي خلقني هو الذي أعبده، ويهديني إلى طريق الحق. وجعل إبراهيم ﵇ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) باقيةً في ذريته من بعده، ووصَّاهم بها؛ لكي يرجعوا إلى طاعة ربِّهم، وتوحيده.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية النبيِّ ﷺ بأنَّ هذا الذي قيل له قد قيل لِـمَنْ قبله من الرسل، كقوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣].

٢- اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو تكذيب الرُّسل.

٣- إنَّ هؤلاء القوم المكذِّبين للرسل ليس لديهم حُجَّة إلا اتِّباع آبائهم.

٤- بيان معالجة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام للمكذِّبين، فهم يأتون بالحُجَجِ المقنعة، ولكن الكافرين يعاندون.

٥- عاقبة المكذِّبين الهلاك والدَّمار.

٦- تحذير هذه الأُمَّة من تكذيب رسولها أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.

٧- قوَّة رجاء إبراهيم بالله ﷻ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾، والسين هذه تدلُّ على التَّحقيق.

٨- تمام نصح إبراهيم ﵇ لعَقِبِه، إذ جعل كلمة التوحيد باقية فيهم، وهذا بمنزلة الوصيَّة للعَقِبِ أن يقوموا بهذه الوصيَّة.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩-٣٢- ولم يُحَقِّق المشركون من قومك - أيُّها الرسول - وصيَّة إبراهيم، ولم أُعَجِّلْ لهم العقوبة، بل مَتَّعتهم هم وآباءهم بالنعم، حتى جاءهم القرآن ورسولٌ مُوَضِّحٌ لهم طريق الهداية بالمعجزات العظيمة، فبيَّن كلَّ ما تحتاج إليه الأُمَّة من خير فتفعله، ومن شرٍّ فتتركه، ولَمَّا جاءهم القرآن أنكروه، وقالوا: هذا الذي جاء به محمَّدٌ سحر، وليس بوحي من عند الله، وإنَّا به مكذِّبون، وقالوا بسفاهة ومكر: هلَّا نزل هذا القرآن على رجل من كبار زعماء مكَّة أو الطائف! فأنكر الله عليهم: أهؤلاء يَقْسِمُون رحمة ربِّك - أيُّها الرسول - فيَمْنَحُون النبوَّة مَنْ أرادوا؟ لا، نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض، فجعلنا بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً؛ ليكون كلٌّ منهم مُسَخَّراً للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً. ورحمة ربِّك العظيمة - أيُّها الرسول - بإدخالهم الجنَّة خير ممَّا يجمعون من حطام الدنيا.

٣٣-٣٥- ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سَعَةٍ من العيش، ويصيروا مِلَّة واحدة في الكفر، لَأَغْدَقْنا على الكُفَّار ملذَّات الدنيا، وجعلنا لهم القصور ذات السقوف الفضية، والسلالم المريحة للارتقاء، والأبواب الفضية، والسُّرُر الفارهة التي يتكئون عليها، وأثاثاً من الذهب. وما كلُّ ذلك النعيم العاجل الذي نُعطيه للكفَّار إلا شيء يُتَمَتَّعُ به في الحياة الدنيا الفانية، وأمَّا نعيم الآخرة فمُدَّخَرٌ عند ربِّك للمتقين في الجنة الباقية.

الفوائد والاستنباطات:

١- ما جاء به النبيُّ ﷺ فهو الحق، إن كانت أخباراً فهي صدق، وإن كانت أحكاماً فهي عدل.

٢- شدَّة عِناد المكذِّبين للرسول ﷺ، إذ أعلنوا إعلاناً صريحاً أنَّهم كافرون به.

٣- إقامة الدليل الذي لا انفكاك عنه، بأنَّ كفَّار قريش لا يستطيعون قَسْمَ رحمة الله؛ لقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾، فهذا لا يمكنهم إنكاره.

٤- في الآية (٣٢) إخبار مستقبليٌّ عن الحكمة في رفع الله العباد بعضهم فوق بعض درجات، هذا غنيٌّ، وهذا فقير، وهذا قويٌّ، وهذا ضعيف؛ ليكونَ بعضُهم سبباً لبعض في المعاش.

٥- هذه المتعة الدُّنيويَّة ما هي إلا متاع الحياة الدنيا، وهي زائلة، فلا يتعلَّق الإنسان بها.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٩- ومَنْ يُعْرِضْ ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن، نجعل له شيطاناً يُغويه لا ينفكُّ عن الوسوسة، فهو ملازم له لا يفارقه. وإنَّ شياطين الإنس والجن لَيمنعون هؤلاء الكفَّار الضالِّين عن الهداية، فيُزَيِّنون لهم الغَواية، ويَظنُّون أنَّهم على بصيرة وهدى من أمرهم، حتى إذا جاء الكافر مع قرينه يوم القيامة للحساب ندم وصاح: يا ليت بيني وبينك مثلَ بُعْدِ ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحبُ القبيح أنت. ولن ينفعَكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخِلَّاؤكم، فلن يواسيَ بعضكم بعضاً، ولن يكون العذاب مُوَزَّعاً عليكم فيُخَفَّفَ لأجل الشركة؛ لأنَّكم اشتركتم في الظلم والكفر.

٤٠- أفأنت - أيُّها الرسول - تُسْمِعُ الصُّمَّ عن سماع الحق، أو تَهْدي العُمْيَ عن إبصار الهدى، وتهدي مَنْ كان في انحراف عن الحقِّ؟

٤١-٤٥- فهؤلاء لم يبق لهم إلا العذاب والنَّكال، فإن تَوَفَّيناك - أيُّها الرسول - قبل هلاكهم، فإنَّا منتقمون منهم بعدك، أو نُرِيَنَّك الذي وعدناهم من العذاب حقَّاً، فإنَّ لنا القدرة التامَّة على نصرك عليهم، فتمسَّكْ بقوَّة بما أمرك الله، إنَّك على دين الإسلام. وإنَّ هذا القرآن لَشَرَفٌ لك ولقومك حقَّاً إذ نزل

بلغتهم، فهم أعرف الناس به، وسوف تُسألون يوم القيامة عن الإيمان والعمل به. واسأل - أيُّها الرسول - أتباع المرسلين قبلك: هل أَذِنَ الله بعبادة الأوثان من دون الله؟

عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ فقال: قال أنس: ذهب رسول الله ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله نبيه ﷺ في أُمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي إلا وقد رأى العقوبة في أُمته إلا نبيكم ﷺ. (أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٧ - كتاب التفسير. وصححه ووافقه الذهبي)، وأخرجه البيهقي في (شعب الإيمان ٤/ ١١٨-١١٩ برقم ١٤١٠). وأخرجه الضياء المقدسي في (المختارة ٦/ ١٠٧-١٠٩ برقم ٢٠٩٧-٢١٠٠) من طرق عن حميد الطويل، عن أنس به. وصححه محقق الشعب: رجاله ثقات).

٤٦-٤٧- وقسماً لقد أرسلنا موسى ﷺ بالآيات الدالَّة على وحدانيتنا، وبالمعجزات الدالَّة على صدق رسالته إلى فرعون وأعوانه، فقال موسى: إنِّي رسول إليكم من ربِّ العالمين. فلمَّا جاءهم بالآيات والمعجزات قابلوه بالضحك والسخرية؛ تعبيراً عن إنكارهم رسالته.

٤٨- وما نُري فرعون وأعوانه من معجزة إلا هي أعظم ممَّا قبلها، وأخذناهم بأنواع العذاب؛ لعلَّهم يرجعون عن كفرهم، فيؤمنون بالله.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٣٦) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ يُعرض عن القرآن، فلم يخفْ عقابه، ولم يهتد بهدايته، فإنَّ الله سيجعل له شيطاناً في الدنيا يُغْويه، فهو له ملازمٌ ومصاحب، يمنعه الحلال، ويبعثه على الحرام.

٢- التحذير من الغفلة عن ذكر الله؛ لأنَّ الغفلة عن ذكر الله تُورث وساوس الشيطان.

٣- تبرُّؤ الإنسان من قرينه يوم القيامة يوم تتكشَّفُ الحقائق وتُزال الأقنعة.

٤- تسلية النبيِّ ﷺ، فقد كان يحزن على ضلال قومه.

٥- بيان غَلَبَةِ قدرة الله ﷻ على كلِّ قدرة؛ لقوله: ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾.

٦- القرآن الكريم شرف لهذه الأُمَّة، وبقدر الشرف تعظم المسؤولية ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾.

٧- إقامة البيِّنة الكبرى على أنَّه لم يقل أحد من الرسل السَّابقين: إنَّ هناك آلهة تُعْبَدُ من دون الله؛ لقوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

٨- إنَّ عدم قول أحد من المرسلين السابقين بوجود آلهة تعبد من دون الله لَـهو من البيِّنة الكبرى على وحدانية الله تعالى وألوهيته.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٩-٥٠- وقال فرعون وزمرته: يا أيها العالِم - وكانوا يُسَمُّون السحرة علماء - ادعُ الله لنا بعهده الذي عهد إليك أن يكشف عنَّا العذاب، إنَّنا مُصَدِّقون برسالتك. فدعا لهم، فكشف الله عنهم العذاب، وقابلوا ذلك بنقض العهد.

٥١-٥٣- وأعلن فرعون مُنادياً في قومه بفخر وكِبْر: أليس لي ملك بلاد مصر، وهذه أنهار النيل تجري من تحت قصوري؟ أفلا تُبْصِرُون عظمةَ سلطاني؟ ثم قال بسفاهة ومكر: بل أنا أفضل من موسى الذي هو ذليل لا عزَّة له، ولا يكاد يُفصح عن الكلام. فهلَّا أُلقي على موسى عليه السلام أساور من ذهب إن كان عظيماً، أو جاء معه الملائكة متتابعين مصاحبين له، يشهدون له بالرسالة.

٥٤-٥٦- فاستخَفَّ فرعون عقول قومه، فأغراهم بمتاع الدنيا، وأغواهم بالضلالة فأطاعوه، إنَّهم كانوا قوماً مخالِفين أمر الله، فلمَّا أغضبونا بكفرهم انتقمنا منهم عاجلاً، فأغرقناهم كلَّهم في البحر، وجعلناهم قدوة للكافرين بعدهم في استحقاق العذاب، وموعظة للآخرين.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان كَذِبِ فرعون وزمرته؛ لأنَّهم وَعَدُوا أن يهتدوا إذا كشف عنهم العذاب، بل أصَرُّوا على الكفر.

٢- بيان غرور فرعون، وسوء أدبه مع موسى عليه السلام.

٣- أثبت العلماء حديثاً أن الأماكن الأثرية حيث توجد الأهرامات في مصر، كانت ذات يوم مليئة بالأنهار والغابات. وهذه الحقيقة العلمية لم يتم التأكد منها إلا في منتصف عام ٢٠١٢م في دراسة علمية استغرقت عدة سنوات. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-35-47/1265-2013-05-02-18-34-36)

٤- من عادة الطواغيت خداع أتباعهم بطلب مزيد من البراهين غير المتوافرة في تلك الحالة.

٥- اتفاق الرسل على التوحيد.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

٥٧-٥٩- سبب النزول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد علمتُ آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أَعَلِمَها الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يَفطَنُوا لها، فيسألوا عنها؟! ثمَّ طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألَّا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد، قلت: يابن عباس، ذكرتَ أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أَعَلِمَها الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطَنُوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأتَ قبلها. قال: نعم، إنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنَّه ليس أحد يُعْبَدُ من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أنَّ النصارى تعبد عيسى بن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً؟ فلئن كنت صادقاً فإنَّ آلهتهم لكما تقولون. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. قال: قلت: ما يَصِدُّون؟ قال: يضجُّون، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.

(أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٢٨-٣٢٩ برقم٢٩٢١، وصححه المحقق أحمد شاكر، وأخرجه ابن حبان (برقم٦٨١٧) مختصراً، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٤٨)، وصححه السيوطي (لباب النقول ص ١٨٩).

التفسير:

ولمَّا ضربَ الله تعالى عيسى بن مريم مثلاً؛ لكونه مثل آدم، خلقهما من غير أبٍ، قابله المشركون بالصياح والضجيج، وبافترائهم أنَّ محمَّداً يريد أن نتخذه إلهاً نعبده، كصنيع النصارى مع عيسى. وقالوا: أآلهتنا التي نعبدها خير أم محمَّد فنعبده، ونترك آلهتنا؟ ما مَثَّلوا لك هذا المثل - أيُّها الرسول - إلا خصومة يخاصمونك بها بأنَّهم يلتمسون الخصومة بالباطل، ما عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالإيمان والنبوَّة، وجَعَلْنا ولادته من غير أبٍ آيةً ودليلاً على عظمة قدرتنا لبني إسرائيل وغيرهم.

عن أبي أُمامة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل» ثم تلا هذه الآية: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾. (أخرجه ابن ماجه في السنن ١/ ١٩ برقم ٤٨ - المقدمة، باب اجتناب أهل البدع والجدل، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه (الجامع الصحيح - التفسير - سورة الزخرف) وقال الألباني: حسن (صحيح ابن ماجه ١/ ١٥). وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٤٧، ٤٤٨).

٦٠ - ولو نشاء لجعلنا منكم - أيُّها البشر - ملائكة خلفاء في الأرض بدلاً منكم.

٦١-٦٢- وإنَّ نزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة لَعلامةٌ على قرب قيام الساعة، فلا تَشُكُّوا في ذلك، وأطيعوني فيما آمُركم به، هذا طريق قويم إلى الجنَّة، ولا يمنعكم الشيطان بغَوايته من طاعتي وهدايتي. إنَّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

٦٣-٦٤- ولمَّا جاء عيسى ﷺ بالمعجزات الباهرة إلى بني إسرائيل قال لهم: قد جئتكم بالنبوَّة حقَّاً، ولأوضِّح لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمور الدين، فخافوا الله، وأطيعوا أمري. إنَّ الله تعالى هو ربِّي وربُّكم جميعاً، فأَخْلِصُوا له العبادة وحده، هذا هو الطريق القويم إلى الجنَّة.

٦٥-٦٦- فاختلفت الفرق المتحزِّبة من اليهود والنصارى في شأن عيسى ﷺ والغلو فيه، فويل للظالمين أنفسهم بالكفر من عذاب يوم موجع يوم القيامة، هل ينظر هؤلاء المختلفون في عيسى ﷺ إلا الساعة أن تأتيهم فجأة وهم في غفلة عنها؟

٦٧-٧٣- الأصحاب المتحابُّون من أجل الدنيا وشهواتها يُعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة، إلا الذين يخافون الله تعالى بطاعته ويَتَحابُّون في الله، فيقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم من عقابي، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا. الذين صدَّقوا بآياتنا، وكانوا مطيعين خاضعين لله، يقال لهم: ادخلوا الجنة من أبوابها الثمانية، أنتم وأزواجكم تَنْعَمُون فيها، يُطاف عليهم في الجنَّة بطعام في أوعية من ذهب، وأكواب من ذهب فيها الشراب، وفيها لهم ما تشتهي أنفسهم، وتَلَذُّ الأعين من أصناف النِعَمِ، وهم فيها ماكثون

أبداً، وتلك الجنَّةُ العالية المقام التي أورثكم الله إياها بسبب ما قَدَّمتم من الخير في الدنيا، لكم في الجنَّة فاكهة متنوِّعة كثيرة، من كل صنف تأكلون.

الفوائد والاستنباطات:

١- نزول المسيح ﷺ آخرَ الزمان من علامات الساعة.

٢- العرب المشركون كانوا يجادلون بالباطل؛ ليتغلَّبُوا على الحق، وهذا حال المشركين دائماً.

٣- المسيح ﷺ جاء بالحكمة وبيان الدِّين، وحَلِّ الخلاف بين بني إسرائيل.

٤- اختلف النصارى في المسيح على أقوال كثيرة، والحقُّ أنَّه عبدُ الله ورسولُه.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

التفسير:

٧٤-٧٦- إنَّ الذين ارتكبوا الجرائم والكبائر في عذاب نار جهنَّم ماكثون، لا يُخَفَّف عنهم العذاب فترة، وهم فيه آيسون من رحمة الله، وما ظلمناهم بهذا العذاب ولكم كانوا هم الظالمين أنفسهم بالكفر وفعل القبائح.

٧٧- خاطب هؤلاء البائسون خازن جهنَّم واسمه مالك، يطلبون منه أن يقبض الله أرواحهم؛ ليتخلَّصوا من العذاب، فرَدَّ عليهم مالك: إنَّكم مقيمون في العذاب أبداً.

٧٨- قسماً لقد جئناكم بالحقِّ الثابت عن طريق الرسل، ولكنَّ أكثركم للحقِّ كارهون.

٧٩-٨٠- يفضح الله تعالى مكايد الكفَّار: أم أحكموا كيداً للنبيِّ ﷺ فإنَّنا مُحْكِمُون أمرنا وكيدنا لهم بتدميرهم وإهلاكهم، أم يحسبون أنَّنا لا نسمع ما يُسِرُّون في صدورهم، وما يتهامسون فيما بينهم، بلى نسمع ونعلم ذلك، ورُسُلُنا من الملائكة الحَفَظَةِ يكتبون فضائحهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- عدلُ الله مطلقٌ في الجزاء والحساب، فلم يَظْلِم سبحانه مَنْ في النار، إنَّما هذا جزاءُ إجرامِهم.

٢- الإعراضُ عن الحق والاستكبار مُؤَدٍّ بصاحبه إلى النار.

٣- الترهيب من كتابة الملائكة؛ فإنها تُحصِي كلَّ الأعمال والأقوال في السرِّ والعلن.

٤- في الآية (٨٠) إخبار مستقبليٌّ عن سَمْعِ الله وعِلْمِه المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل فيما يُسِرُّه المشركون في أنفسهم، وفيما يتناجون به بينهم، ورسل الله من الملائكة الكرام الحَفَظَةِ يكتبون عليهم كلَّ ما عملوا.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

٨١-٨٣- قل - أيُّها الرسول - للمشركين الذين يزعمون أنَّ لله ولداً: لو فُرِضَ هذا فأنا أوَّلُ العابدين له سبحانه، ولكن لا ولد له، فأنا أعبده بأنَّه لا ولد له. وهذا ممتنع في حَقِّه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز. تنزَّه الله وتعاظم خالق السموات السبع والأرَضين السبع، ربُّ العرش العظيم عمَّا يصف هؤلاء المشركون من الكذب، فدَعْهم يخوضوا في ضلالهم ويلعبوا في دنياهم، حتى يُلاقُوا يوم القيامة الذي يوعدون به لعقابهم.

٨٤-٨٥- وهو الله الذي هو إله في السماء، وفي الأرض هو إله، لا معبود سواه، وهو الحكيم في تدبير خَلْقِه، العليم بمصالحهم، وتمجَّد الله تعالى، وتكاثرت خيراته، الذي له ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع وما بينهما، وعنده وحده علم قيام الساعة، وإليه المصير للحساب.

٨٦-٨٧- ولا يملك المعبودون من دون الله الشفاعة عند الله ولو كانوا ملائكة، لكن مَنْ شهد بالحقِّ على بصيرة، وأقرَّ بالوحدانية لله، وعَلِمَ حقيقةَ ما أقَرُّوا به، وشهدوا به، فإنَّه تنفع شفاعتهم عنده سبحانه بإذنه لهم. وقسماً إن سألت المشركين مَنْ خَلَقَهم؟ لَيعترفُنَّ بأنَّ الله خلقهم حقّاً، فكيف يَعْدِلُون عن عبادة الله إلى عبادة غيره؟

٨٨- وقال النبيُّ محمَّد ﷺ متضرِّعاً إلى ربِّه شاكياً له: إنَّ هؤلاء المشركين قوم لا يُصَدِّقون بالله ولا برسالتي.

٨٩- فأجابه الله تعالى: فاعفُ عنهم، ودَعْهم، وقل لهم: سلام عليكم؛ لإعلامهم بالإعراض عنهم وتَرْكِهم، فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم. وفي ذلك تهديد ووعيد.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على الذين يفترون على الله الكذب بأنَّه اتخذ ولداً سبحانه وتعالى.

٢- تعليم الله تعالى لعباده المؤمنين التأدُّب معه، ولاسيما إذا ذُكر أنَّه اتخذ ولداً، فإنَّه ينبغي تعظيمه بالتسبيح كما عَلِمْنا في الآية (٨٢).

٣- اعتراف المشركين بأنَّ الله خالقهم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير نزول القرآن الكريم.

٢ - تقرير البعث، وبيان بعض علامات الساعة.

٣ - بيان مصير الأُمم الكافرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢-٧- قسماً بالقرآن المبين، بضروب بلاغته وأنوار هدايته، إنَّنا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزلناه في ليلة القدر ذات الخيرات. إنَّنا كُنَّا مُخَوِّفين الناس من السيئات، في تلك الليلة العظيمة يُبيِّن الله ويُفصِّل كلَّ أمر محكم من الآجال والأرزاق. هذا الأمر الحكيم في شأنه هو أمر عظيم جدَّاً صادر من ربٍّ كريم، إنَّنا كنَّا مُرْسِلين رسلاً هادين، رحمةً واسعة من ربِّك، أيُّها الرسول. إنَّه سبحانه هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال والأفعال، وهو خالق السموات السبع والأرَضين السبع وما بينهما من المخلوقات، إن كنتم موقنين بذلك الأمر العظيم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنك لَترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثمَّ قرأ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يعني: ليلة القدر. ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل. (المستدرك ٢/ ٤٤٨-٤٤٩ - كتاب التفسير) وصححه الحاكم والذهبي، وأخرجه البيهقي عن الحاكم به (شعب الإيمان ٧/ ٢٦١-٢٦٢ برقم ٣٣٨٨) وقال المحقق: إسناد رجاله ثقات).

٨-٩- لا إله يُعبد بحقٍّ إلا الله وحدَه لا شريك له، يُحيي الأموات، ويُميت الأحياء وحده، ربُّكم وربُّ آبائكم السابقين، لكنَّ الكافرين ليسوا مُوقنين بالإيمان بالله وطاعة رسوله، بل هم في شكٍّ من ذلك، فهم غافلون لاهون عن ذلك.

١٠-١٤- سبب النزول:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ: إنما كان هذا لأنَّ قريشاً لـمَّا استعصَوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. فأنزل الله ﷻ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال: فأتى رسولَ الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسق الله لـمُضَرَ؛ فإنها قد هلكت. قال: مُضَر؟ إنك لجريء، فاستسقى، فسُقُوا، فنزلت: ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله ﷻ: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال: يعني يوم بدر.

(صحيح البخاري ٨/ ٤٣٤-٤٣٥ برقم ٤٨٢١ - كتاب التفسير - سورة الدخان، باب الآية، وصحيح مسلم ٤/ ٢١٥٦-٢١٥٧).

التفسير:

فانتظر - أيُّها الرسول - يوم تأتي السماء بدخان كثيف واضح، يُغطِّي الكفَّار جميعاً، ويعتريهم كرب شديد فيقولون: هذا عذاب موجع، ويتضرَّعُون إلى الله: يا ربَّنا اكشف عنَّا هذا العذاب، إنَّنا مُصَدِّقون بك! كيف ومن أين لهم التَّذَكُّر بعد نزول العذاب، وقد جاءهم محمَّد رسول الله ﷺ برسالة ظاهرة المعالم؟ ثم أعرضوا عنه، واتهموه بأنَّه يُلَقَّن من بشر، وأنَّه مجنون!

١٥-١٦- إنَّنا سنَصْرِفُ عنكم العذاب مدة قصيرة، ثم سترجعون إلى الكفر، يوم نُعَذِّب الكفَّار في الدنيا - كما وقع يوم بدر - وفي الآخرة بعذاب النار، إنَّنا منتقمون منهم في الدارين.

عن مسروق قال: كنا عند عبد الله جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! إن قاصَّاً عند أبواب كندةَ يقُصُّ ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس! اتقوا الله، مَنْ عَلِمَ منكم شيئاً فليقُلْ بما يعلم. ومَنْ لم يعلم. فليقل: الله أعلم. فإنَّه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. فإنَّ الله ﷻ قال

لنبيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]. إنَّ رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً. فقال: «اللهم! سَبْعٌ كسَبْعِ يوسفَ». قال: فأخذتهم سنةٌ حَصَّتْ كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع. وينظر إلى السماء أحدهم، فيرى كهيئة الدخان. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإنَّ قومَك قد هلكوا، فادعُ الله لهم. قال الله ﷻ:﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إلى قوله:﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ قال: أفيُكْشَفُ عذاب الآخرة؟ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فالبطشة يوم بدر، وقد مضت آية الدخان، والبطشة، واللزام، وآية الروم. (صحيح مسلم ٤/ ٢١٥٥-٢١٥٦ برقم ٢٧٩٨ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان. وصحيح البخاري، الاستسقاء برقم ١٠٠٧، والتفسير برقم ٤٨٠٩. واللفظ لمسلم).

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان قدرة الله تعالى؛ إذ إنَّ كلامه المنزَّل على نبيِّه من الحروف التي يتكلَّم بها الناس، ويُرَكِّبون منها كلامهم، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله.

٢- بيان عَظَمَة ليلة القدر، وما فيها من البركات.

٣- نزول القرآن الكريم وما فيه من العلوم رحمة عظيمة من الله تعالى.

٤- تسلية النبي ﷺ في مواجهة العقبات.

٥- الإيمان لا ينفع عند رؤية العذاب.

٦- الدخان من علامات الساعة.

٧- حرب الإشاعة من أساليب الأعداء في كل زمان.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨- وقسماً لقد اختبرنا قبل مشركي مكة قوم فرعون، وجاءهم رسول جامع لخصال الكرامة وهو موسى ﷺ، ودعاهم إلى أداء حقِّ الله من العبادة، وحقِّ تسليم بني إسرائيل إليه، وأكَّد أنَّه مُرْسَلٌ من الله، وهو أمين على الوحي والرسالة.

١٩-٢٢- وألَّا تَتَرَفَّعوا عن طاعة الله تعالى، إنِّي آتيكم بحُجَّة واضحة على صدق رسالتي، وإنِّي لجأت إلى ربِّي وربِّكم أن تقتلوني بالحجارة، وإن لم تُصَدِّقوني فكُفُّوا عنِّي، فدعا موسى ﷺ ربَّه شاكياً له أنَّ فرعون وقومه مجرمون؛ بسبب كفرهم.

٢٣-٢٧- فأوحى الله تعالى لموسى أن أَسْرِ بعبادي الذين صَدَّقوك، إنَّكم مُلاحَقون من فرعون وجنوده، واترك البحر ساكناً مفتوحاً على هيئته بعد ضَرْبِه بالعصا حتى يدخل فيه فرعونُ وجنودُه، ثم يغرقوا في البحر، وقد غرقوا جميعاً وتركوا بساتين خضراء، وعيونَ ماء، وزروعاً متنوعة، وقصوراً فارهة، وعيشة حافلة بالنِّعَم الناضرة.

٢٨-٢٩- كذلك أهلكناهم، وأورثنا مُلكهم وديارهم قوماً من بني إسرائيل، فما حزن عليهم أحد في السماء ولا في الأرض، وما كانوا عن العقوبة التي قَدَّرها اللهُ عليهم مُؤَخَّرين.

٣٠-٣٣- وقسماً لقد أنقذنا بني إسرائيل من عذاب فرعون المُذِلّ. إنَّه كان مُتكَبِّراً من المسرفين في الطغيان والكبر، وقسماً لقد اصطفينا بني إسرائيل - على عِلْمٍ منَّا بهم - على أهل زمانهم، وأعطيناهم من الدلائل على وحدانية الله، ومن المعجزات ما فيه اختبار واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ابتلاء قوم فرعون موعظة لِـمَنْ بعدهم.

٢- الثناء على نبيِّ الله موسى ﷺ.

٣- اتفاق الأنبياء على الدعوة إلى توحيد العبودية.

٤ - البشرى من الله تعالى للمؤمنين بالنجاة من الكرب والعذاب.

٥ - النِّعَمُ مهما عظمت في الدنيا فإنَّها زائلة.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٧- إنَّ هؤلاء المشركين - أيُّها الرسول - لَيقولون بسَفَهٍ ومكر: ما الموت إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا، وما نحن بمبعوثين من قبورنا، فإن كان البعث حقًّا فهاتوا آباءنا الذين ماتوا قبلنا، إن كنتم صادقين في اعتقاد البعث، أهؤلاء المشركون خير في القوَّة أم قوم تُبَّع الحميري؟ والذين مِنْ قبلِهم من الأُمم الكافرة دمَّرناهم لأنَّهم كانوا يرتكبون جرائم الكفر والكبائر؟

٣٨-٣٩- وما خَلَقْنا السموات السبع والأرَضين السبع وما بينهما من المخلوقات عبثاً من غير غاية، ما خَلَقْناهما إلا بالحقِّ الذي لا يصلح التدبير إلا به، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون اتِّباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير البعث.

٢ - الموعظة بالأُمم الهالكة.

٣- ذَمُّ المشركين لجهلهم، وعدم استفادتهم من الوحي، وما فيه من الهدى والآداب.

٤ - ينظر: خريطة موقع قوم تبَّع، كما في الملحق.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٤٠-٤٢- يُهَدِّد الله تعالى ويتوعَّد الكفَّار بمشاهد من أحوالهم وعذابهم يوم القيامة: إنَّ يوم القضاء بين الخلائق للحساب هو وقت موعدهم جميعاً للعذاب، يوم لا ينفع قريب عن قريب شيئاً، ولا هم يمنعون من العذاب إلا مَنْ رحم الله من المؤمنين بالشفاعة. إنَّه سبحانه العزيز في مَلَكُوته وانتقامه، الرحيم بمَنْ آمن من عباده.

٤٣-٥٠- إنَّ شجرة الزقُّوم الخبيثة التي تخرج في أصل الجحيم هي طعام المسرفين بالكبائر من المشركين والكفَّار، وهو طعام كالمَعْدِن المذاب يغلي في بطونهم غَلْيَ الماء الذي يفور من حرارته، تُؤْمَرُ الزبانية: خذوا هذا الأثيم، وسُوقوه بالضرب إلى وسط الجحيم، ثم صُبُّوا فوق رأسه الماء المغليَّ، ويُقال له تَهَكُّماً وتوبيخاً: تَذَوَّقْ هذا العذاب، إنَّك أنت المُعَزَّز المُكرَّم. إنَّ هذا العذاب الذي كنتم به تَشُكُّون وتُجادلون.

٥١-٥٧- يُبَشِّر الله تعالى المتقين في الآخرة بالمكانة الكريمة الأمينة من كل شرٍّ، فهم في جنات نضرة وعيون عذبة، يلبسون أجمل الثياب من الديباج الرقيق أو الغليظ حسب الرغبة، مُتقابلين في مجالسهم. ومثلَ هذا المقام الكريم للمتقين أكرمناهم بالتزوُّج من الحوريات الحسان، ذوات العيون الجميلة الواسعة. يطلب هؤلاء المتقون كل صنف من فواكه الجنَّة، آمنين من كلِّ شيء يَضُرُّهم، لا يذوقون فيها الموت أبداً، وحماهم من عذاب نار الجحيم. هذا العطاء الواسع المتنوِّع فضلاً منه سبحانه. ذلك الفضل الكريم هو الفلاح العظيم.

٥٨-٥٩- فإنَّما أنزلنا القرآن بلغتك - أيُّها الرسول - ولغة قومك، وجعلناه مُيسَّراً بألفاظه ومعانيه؛ لكي يَتَذَكَّروا ما فيه من الهدي القويم. فانتظِرْ - أيُّها الرسول- ما وَعَدْناك من النصر، إنَّهم منتظِرون موتك وقهرك.

الفوائد والاستنباطات:

١- الرد على المشركين منكري البعث.

٢- بيان رحمة الله تعالى بالترهيب من ألوان العذاب في جهنم.

٣- البشرى للمتقين، وما أعدَّ الله تعالى لهم من البركات.

٤- في الآية (٥٦) إخبار مستقبليٌّ والبشارة لعباد الله المتقين بأنَّهم لا يذوقون في الجنَّة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدُّنيا، وبأنَّ الله سيَقيهم عذاب الجحيم.

٥- بيان مكانة اللغة العربية؛ فهي اللغة التي نزل القرآن بها.

٦- التيسير لبيان القرآن الكريم للاستفادة من هديه الحكيم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إقامة الدلائل على وحدانية الله تعالى.

٢ - بيان عظمة القرآن الكريم في هدايته.

٣ - الردُّ على مُنْكِري البعث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - يُثْني الله تعالى على القرآن، فهو تنزيل من الله العزيز في ملكوته، الحكيم في مصالح مخلوقاته.

٣-٤ - إنَّ في خلق السموات السبع والأرَضين السبع، لَدلائلَ عظيمةً على قدرة الله تعالى ووحدانيته، للذين يُصَدِّقون به، ويُقِرُّون له بالوحدانية، وكذلك في خَلْقِ أنفسكم - أيُّها العباد - في أطوار مختلفة، وفيما ينشره الله من الدوابِّ التي تَدِبُّ على وجه الأرض، دلائلُ على قدرة تدبيره شؤونَ مخلوقاته لقومٍ يُوقنون بوحدانية الله تعالى.

٥ - وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وفي إنزال المطر الذي فيه أرزاق الناس، إذ به تحيا الأرض بالنبات، وفي تصريف الرياح لمنافعكم، دلائل عظيمة على قدرة الله لقوم يعقلون اتِّباع الحق.

٦ - تلك آيات الله الكريمة، ذات الفوائد العظيمة، نتلوها عليك - أيُّها الرسول - مُتَّسِمَةً بالحقِّ في أحكامها، وبالصدق في أخبارها، فبأيِّ كلام بعد كلام الله وحُجَجِه يُصَدِّقون؟

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان قدرة الله تعالى، حيث إنَّ كلامه المنزَّل على نبيِّه من الحروف التي يتكلَّم بها النَّاس، ويُرَكِّبون منها كلامهم، ومع ذلك عَجَزوا أن يأتوا بمثله.

٢- لَفْتُ الأنظار إلى البراهين في السموات والأرض.

٣- في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ في الحكمة مِنْ خَلْقِ النَّاس، وخَلْقِ ما تَفَرَّق في الأرض من الدوابِّ التي تَدِبُّ عليها، فهي حُجَجٌ وأدلَّة لقوم يوقنون بالله وشرعه.

٤- بيان عَظَمَة وحدانية الخالق سبحانه من خلال خَلْقِ بني آدم، وما سَخَّره لهم من المخلوقات.

٥- ذكر ضروب البراهين الأخرى التي تدل على وحدانية الله تعالى؛ لإقامة الحجة على المشركين.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٧-١٠- يتوعَّد الله تعالى بالويل والعذاب كلَّ كذَّابٍ مُفْتَرٍ على الله، مُكْثِرٍ من الجرائم والكبائر، يسمع آيات الله تُقرأُ عليه، ثمَّ يتمادى في كفره مستكبراً عن الإيمان بآيات الله، كأنَّه لم يسمعها، فبشِّره - أيُّها الرسول - بعذاب شديد موجع. وإذا عَلِمَ هذا الأثيم بعض الآيات اتخذها سخرية. أولئك البعداء عن رحمة الله، لهم عذاب يهينهم ويخزيهم، لقد أقبلوا على الدنيا، ونَسُوا وراءهم نار جهنَّم التي تنتظرهم، ولا ينفعهم ما تملَّكوه في الحياة الدنيا من الأموال والولدان، ولا تنفعهم الأصنام والأوثان التي عبدوها من دون الرحمن، ولهم عذاب عظيم النيران.

١١- هذا القرآن الكريم هدى إلى الطريق القويم، والذين جحدوا آياته لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترهيب من عذاب المكذِّبين بآيات الله تعالى.

٢- التحذير من ترك أحكام الله تعالى، ولاسيما مَنْ عَرَفَ هذه الأحكام.

٣- التحذير من الاستهزاء بآيات الله تعالى.

٤ - الترغيب في هداية القرآن الكريم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٢-١٣- يَمْتَنُّ الله على عباده بما تَفَضَّل عليهم من النِّعم الكثيرة: فقد ذَلَّل لكم البحر للركوب عليه بالسفن بإذنه، ولتطلبوا من فضل الله من أنواع التجارة والمنافع، ولكي تشكروه على نِعَمِه بالقول والفعل، وسَخَّر لكم ما في السموات السبع والأرَضين السبع، وما فيهما من الخيرات والبركات. إنَّ في ذلك العطاء الكريم لَدلائلَ على قدرة الله لقوم يتفكَّرون في هذه الآيات الكونية.

١٤-١٥- قل - أيُّها الرسول - للمؤمنين بالله أن يَعْفُوا عن الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون عقابه، ليعاقب الله أولئك المشركين بسبب ارتكابهم القبائح والفضائح. مَنْ عمل عملاً صالحاً فثوابه لنفسه، ومَنْ أساء باقتراف المعاصي فعلى نفسه وِزْرُ عمله، ثمَّ إلى ربِّكم ترجعون جميعاً يوم القيامة للحساب على عمل الخير والشرّ.

١٦-١٧- وقسماً لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة والإنجيل والمُلك، وجعلنا منهم الأنبياء، ورزقناهم من الطيبات المستلَذَّة، وفَضَّلْناهم على عالَمي زمانهم، وآتيناهم دلائل واضحة من أمور الدين، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم من عند الله، ومنه بعثة الرسول محمَّد ﷺ. وسبب هذا الخلاف هو الظلم وطلب السيادة. إنَّ ربَّك - أيُّها الرسول - يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال العلماء: للبحر قانون يقول: «إن كل جسمٍ غاطسٍ في الماء يتلقَّى من الأسفل إلى الأعلى دفعاً عمودياً قائماً مساوياً لوزن الماء المعادل لحجم هذا الجسم، ولولا هذا القانون لما أمكن أن يُركب البحر، ولما وجدت في البحر سمكةٌ واحدة». (http://nabulsi.com/blue/ar/artp.php?art-4035)

٢ - بيان الحكمة من تسخير ما أودعه الله في البحر من النِّعَم.

٣ - من خُلُق المؤمن ألَّا يَرُدَّ الإساءة بالإساءة.

٤ - ذَمُّ الاختلاف والتحذير من الظلم.

٥ - من عدل الله تعالى القضاء بين الخلائق.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩ - ثمَّ شرعنا لك - أيُّها الرسول - شريعة كاملة تدعو إلى كلِّ خير، وتنهى عن كلِّ شرٍّ من أمرنا ووحينا، فاتَّبِعْها بغاية جهدك، ولا تَتَّبع ضلالات المشركين والجهلة. إنَّهم لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم. وفيه تحذير الأُمَّة؛ لأنَّ النبي ﷺ معصوم من ذلك. وإنَّ الظالمين أنفسَهم بالشرك والكبائر بعضهم أنصار بعض، والله يتولَّى وينصرُ الذين يخافونه، ويطيعونه.

٢٠ - هذا القرآن الوحي المنزَّل بصائرُ للعباد يُبَصِّرُهم بما ينفعهم وما يَضُرُّهم، ويهديهم إلى طريق الحقِّ، ورحمة واسعة من الله لقوم يوقنون بالحساب والثواب والعقاب.

٢١-٢٢ - يُنْكِرُ الله على أهل المعاصي: هل ظَنَّ الذين يرتكبون الكبائر والجرائم أن نجعلهم كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونساويهم بهم في الحساب في حياتهم وبعد موتهم؟ بئس الحكم الذي اعتقدوه! وخلق الله السموات السبع والأرضين السبع بالعدل، ولتُجْزَى كلُّ نفس في الآخرة بالذي كسبت من خير أو شرٍّ، وهم لا يُظلمون بنقص ثواب، ولا زيادة عقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان عَظَمَة الرسالة العظيمة والشريعة الحكيمة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ.

٢ - الاستغناء عن غير المسلمين بالاستعانة بالله تعالى والاستجابة لشريعته.

٣ - بيان عَظَمَة القرآن الكريم وهدايته ورحمته للناس.

٤ - ترغيب المؤمنين، وترهيب غيرهم، ولا يمكن أن يتساووا عند الله تعالى.

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٣- أخبِرْني - أيُّها الرسول - عن حال مَنْ ترك عبادة الله وعبد هواه! وأضلَّه الله تعالى حال كونه عالماً بالحقِّ، وطبع على سمعه وعلى قلبه، فلا يَتَّعِظُ ولا يتدبَّر، وجعل على بصره غطاءً لا يُبصر الرشد، فمَنْ الذي يقدر على هدايته بعد هذا الضلال؟! لا أحدَ يقدر على ذلك، أفلا تعتبرون بهذا الهدي؟

٢٤-٢٦- وزعم المشركون بالله بأنَّه لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت قوم، ويعيش قوم آخرون، واعتقدوا أنَّه ما يهلكهم إلا مرور الزمن، وليس لهم دليل من عقل أو نقل، ما هم إلا يتخرَّصون من غير حُجَّة، وإذا تتلى عليهم آيات القرآن واضحات الدلالة على الإيمان بالبعث، ما كان حُجَّتَهم إلا قولُهم: أحْيُوا لنا آباءَنا الأوَّلين إن كان ما تقولونه حقّاً. قل لهم أيُّها الرسول: الله الذي خلقكم هو الذي يُميتكم عند انقضاء آجالكم، ثمَّ يبعثكم جميعاً يوم القيامة. لا شك في ذلك، ولكنَّ أكثر العباد لا يعلمون قدرة الله على البعث.

٢٧- ولله ملكوت السموات والأرَضين السبع، ويوم تقوم الساعة يخسر الجاحدون بآيات الله.

٢٨-٢٩- وترى - أيُّها الرسول - كلَّ أُمَّة من الأُمم جاثمين على رُكَبِهم. كلُّ أُمَّة تُدعى إلى صحيفة أعمالها، ويقال لهم: اليوم تُجزون مقابل ما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شرٍّ، هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحقِّ من غير زيادة ولا نقصان، إنَّا كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم.

٣٠- فأمَّا المؤمنون الذين عملوا بما أمر الله، فيُدْخِلُهم ربُّهم في جَنَّته برحمته. ذلك المقام العالي هو الفلاح الواضح.

الفوائد والاستنباطات:

١- الهداية من عند الله تعالى.

٢- في الآية (٢٤) إخبار مستقبليٌّ، وإثبات للبعث بعد الممات.

٣- بيان مشهد من حوار غير المسلمين؛ ليَظْهَروا أنَّهم على حق.

٤- الترهيب من قيام الساعة، وبيان خسارة الجاحدين آنذاك.

٥- دقة الحساب بعد إحصاء ونسخ الأعمال.

٦- البشرى والترغيب للمؤمنين بالجنة.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٢- وأمَّا الكفَّار فيقال لهم: أفلم تكن آياتي القرآنية تُقرأُ عليكم في الدنيا، فاستكبرتم عن الإيمان بها، وكنتم قوماً ترتكبون الجرائم والكبائر؟ وإذا قيل لكم: إنَّ وعد الله بالبعث حقٌّ واقعٌ، وأنَّ قيام الساعة أمرٌ لا شكَّ فيه، قلتم: ما نعلم ما الساعة؟ ما نتوقَّع وقوعها إلا ظنّاً، وما نحن بمتحقِّقين أنَّ الساعة آتية.

٣٣-٣٤- وظهرت لهؤلاء المجرمين صُحُفُهم الحافلة بالفضائح والقبائح، ونزل بهم من العقاب والعذاب ما كانوا به يسخرون، ويُقال لهم: اليومَ نترككم في عذاب النار، كما تركتم الإيمان بهذا اليوم الآخر، ومصيركم النار، وما لكم من أنصار ينصرونكم.

٣٥- ذلكم العذاب الشديد بسبب استهزائكم بآيات الله وحُجَجِه، وانخداعكم بشهوات الحياة الدنيا، فاليوم لا يُخرجون من عذاب النار، ولا يُطلَبُ منهم أن يُرْضُوا ربَّهم بالتوبة والطاعة.

٣٦-٣٧- فلله الثناء الكامل والشكر الشامل، خالق السموات السبع والأَرَضين السبع والعالَمين ومُدَبِّر شؤونهم، وله سبحانه العظمة والسلطان والكبرياء في كل السموات والأَرَضين، وهو العزيز في انتقامه وملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- ذمُّ الاستكبار تجاه ما يَرَونه من البراهين.

٢- الجزاء من جنس العمل، فكما ترك الكفار شرع الله تعالى، فإنَّه يتركهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

٣- بيان عَظَمَة الله تعالى.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير العقيدة، وتفنيدُ شُبَهِ المشركين حول التوحيد والرسالة والبعث.

٢ - تعظيم القرآن الكريم وتقرير نزوله، وذِكْر الشواهد على كونه من عند الله تعالى.

٣ - بيان إعراض الكفار عن القرآن، وعاقبة إعراضهم في الآخرة.

٤ - بيان دلائل النبوة وأعلامها وشواهدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - هذا القرآن نزل بالتدرُّج من عند الله، العزيزِ في سلطانه وملكه، الحكيمِ في أفعاله وكلامه.

٣-٤ - ما خَلَقْنا السموات السبع والأَرَضين السبع وما بينهما من المخلوقات إلا بالحقِّ، وإلى أجلٍ زمانُه معلوم عنده وحده سبحانه، والكفَّار عَمَّا أنذرهم القرآن من الأهوال مُعْرِضون عنه، لا يأبهون به. قل لهم - أيُّها الرسول - مُنْكِراً عليهم: أخبِروني عن حال آلهتكم من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من غير الله، أروني أيَّ شيء خَلَقُوه من الأرض؟ أم لهم مشاركة مع الله في خلق السموات السبع؟! هاتوا لي كتاباً من عند الله مِنْ قَبْلِ هذا القرآن، أو هاتوا بَقِيَّةً من عِلْمٍ من علوم السابقين التي يُعْتَدُّ بها، إن كنتم صادقين في دعواكم المزعومة.

٥ - لا أحدَ أشدُّ ضلالاً من المشرك الذي يعبد آلهة من غير الله لا تقدر على استجابة دعائه، ما بَقِيَتِ الحياة الدنيا، وهي عن دعاء مَنْ يعبدها عاجزة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في إيراد الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إشارة إلى أنَّ هذا الكتاب عزيز؛ لأنَّه من عند العزيز، وحكيم فيما اشتمل عليه من أحكام ومعانٍ؛ لأنه من عند الحكيم، فمَنْ تمسَّك به نال العزة في الدارين، وهُدِيَ إلى الحكمةِ.

٢- عَطْفُ ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به، فالأجل المسمى يومُ القيامة، وهو يومُ الحق.

٣- تقديم ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ على متعلقه وهو﴿مُعۡرِضُونَ﴾ للاهتمام بما أُنذروا به، وكذلك رعايةً للفاصلة.

٤- بيانٌ لعظمة القرآن، وإرشادٌ للعباد إلى وجوب التمسك به، وتلاوته وتدبُّره والعملِ به، والدعوة إليه، واقتباس أنواره، واستخراج كنوزه.

٥- لم يُخْلَق هذا الكون عبثاً، وإنما خُلِقَ لأسمى غاية.

٦- مع هذه المسَلَّمات الواضحة، فإن الكفار في إعراضٍ وغفلة عن الآيات والنذر.

٧- قال ابن العربي في الآية (٤): «وَهِيَ أَشْرَفُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّهَا اسْتَوْفَتْ أَدِلَّةَ الشَّرْعِ عَقْلِيَّها وَسَمْعِيَّها». (أحكام القرآن ٧ / ١٢٩).

٨- قال ابن عاشور: «الأمر في ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي إنْ لم يخلقوا من الأرض شيئاً، فلا تستطيعوا أن تُروني شيئاً خلقوه في الأرض، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدّعي بالدليل على إثبات دعواه». (التحرير والتنوير: ٢٦/٨).

٩- قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إفحامٌ وإثارةٌ لهم بأنهم لا يأتون بحجَّة لا من جانب العقل، ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور. وفيه إيجازٌ بالحذف، فقد حُذِف جوابُ الشرط، لدلالة السياق عليه.

١٠- براءةُ المشركين يوم القيامة مما كانوا عليه في الدنيا من شِرْكٍ.

١١- أهمية علم الآثار في معرفة التاريخ والحضارات، وأسباب سقوطها.

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾

التفسير:

٦- وإذا جُمِعَ العباد يوم القيامة كانت الآلهة التي يَدْعُونها في الدنيا لهم أعداء، إذ يتبرّؤون منهم، ويجحدون عِلْمَهم لعبادتهم إيّاهم.

٧- وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين آيات القرآن مُوَضِّحات لطريق الهداية، زعم الكفّار حين جاءهم القرآن الحقُّ أنّه سحر واضح.

٨-١٠- سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحدٍ يمشي على الأرض: «إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام». قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾. (صحيح البخاري ٧/ ١٦٠ برقم٣٨١٢ - كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام ﷺ، وصحيح مسلم ٤/ ١٩٣٠ برقم٢٤٨٣ - فضائل الصحابة، باب فضل عبد الله بن سلام).

التفسير:

أيقولون: اختلق محمَّد هذا القرآن، وافتراه من تلقاء نفسه؟ قل لهم أيُّها الرسول: إن اختلقتُه على الله - على سبيل الافتراض - فلا تستطيعون أن تَرُدُّوا عنّي شيئاً من عذاب الله إن عاجلني به، هو سبحانه أعلم بما تخوضون فيه من القدح في القرآن. كفى بالله شاهداً يشهد لي بالصدق، ويشهد عليكم بالجحود، وهو الغفور للتائبين، الرحيم بهم. قل لهم: لستُ بأوّل رسول، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء والرسل، وما أدري ما يَفْعل الله بي وبكم في الدنيا، ما أتّبع إلا ما يُوحى إليَّ من القرآن، ولست أنا إلا نذيراً بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة. قل لهم: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله، وجَحَدْتم به، وشهد رجلٌ من

بني إسرائيل - كعبد الله بن سلام ﷺ - على صدق القرآن، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به. إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين إلى اتِّباع الحق.

١١-١٢- وقال الكفَّار للمؤمنين: لو كان هذا القرآن خيراً ما سَبَقَنا إليه هؤلاء الضعفاء والفقراء، وإذ لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح معالمه وإعجازه فسيقولون: هذا كذب منقول عن السابقين. ومن قبل القرآنِ التوراةُ التي أنزلها الله على موسى قدوةً يُؤْتَمُّ بها في دين الله، ورحمةً لِـمَنْ صَدَّق بها وعمل بما فيها. وهذا القرآن مُصَدِّق لما قبله من الكتب نزل بلسان عربي فصيح؛ ليُخَوِّف الكفَّار والفجَّار، ويُبَشِّر المحسنين الأبرار.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إضراب انتقالي إلى نوع آخر من ضَلال أقوالهم، أي: إذا كان قولهم: إنَّه سحرٌ، عجيباً، فإنَّ دعواهم بأنَّه مفترى، أعجب.

٢- وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أن الله لا يُقِرُّ أحداً على أن يفتري عليه، بل يفضحه ويعاقبه.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ردٌّ على مَنْ يُغالُون في شأن الأولياء، ويَدَّعون معرفتهم بالغيب، فإذا كان سيد البشر وخاتم النبيين لا يعرف الغيب، فكيف بغيره؟.

٤- اتفاق الشرائع السماوية في الأصول، وفي كثير من الفروع، فكلها من عند الله تعالى جاءت بصلاح الدين والدنيا، وإن كانت رسالةُ الإسلام قد جاءت خاتِمةً متممةً لما قبلها.

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ ردٌّ على شبهات أعداء الإسلام الذين طعنوا في الشريعة الغَرَّاء، وسَعَوا جاهدين إلى تشويه محاسنها، وطمس معالمها، فطعنوا على سبيل المثال في الحجاب، وطعنوا في تعدد الزوجات، وفي فريضة الجهاد، مع أن هذه الأحكام كانت في شرائع مَنْ قبلنا، ودلَّ على ذلك القرآن، ولازالت كُتُبُهم مع تزييفها وتحريفها تشهد بذلك.

٦- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أسلوب القصر؛ لقَصْرِ الاتِّباع على الوحي، فالوحي طريق الاتِّباع ومنهجه، كذلك قَصْرُ مهمته ﷺ في البلاغ المبين.

٧- المقابلة بين الإيمان والاستكبار؛ لبيان علة كفرهم وصدودهم عن الحق، وهو استكبارهم.

٨- عَبَّر عن التوراة بـ ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ بطريق الإضافة دون الاسمِ العَلَمِ وهو التوراة؛ لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتابٌ أُنزِلَ على بشر، كما أُنزِلَ القرآن على محمد ﷺ.

٩- الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يَقُلْ: لينذرهم للتعميم، وكذلك لبيان ظلمهم، وحاجة الظالم إلى مَنْ يُنْذِرُه.

١٠- المقابلة بين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ و﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾: فالظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه، وهو بَخْسٌ للحق، وتَعَدٍّ على الآخرين، ومجاوزةٌ للحد، أمَّا الإحسان فإنه إتمام وتفضلٌ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

١٣-١٤- إنَّ الذين جمعُوا بينَ التوحيدِ الذي هُو خلاصةُ العلمِ، والاستقامةِ في أمورِ الدينِ التي هي مُنتهى العملِ، فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا. أولئك أصحاب الدرجات العالية هم أهل الجنَّة ماكثين فيها أبداً، نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على ما قَدَّموا من الأعمال الصالحة في الدنيا.

١٥- وأَمَرْنا الإنسان أمراً جازماً بالإحسان بالوالدين بالقول والفعل، إذ حَمَلَتْه أُمُّه جنيناً في بَطْنِها بمشقَّة، ووَلَدَتْه بمشقَّة أيضاً، ومُدَّة حَمْلِه وفطامه ثلاثون شهراً قمرياً، حتى إذا بلغ نهاية قواه الجسدية والعقلية، وبلغ أربعين سنة قال: يا رَبِّ ألهمني أن أشكرَ نعمتك العظيمة التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ في الدين والدنيا، ووفِّقْني أن أعمل عملاً صالحاً تتقبَّله منِّي، واجعل الصلاح سارياً في ذُرِّيَّتي من الأولاد والأحفاد ومَنْ بعدهم. إنِّي تبت إليك من جميع ذنوبي، وإنِّي من المطيعين لك، الخاضعين لحكمك.

١٦- أولئك الشاكرون التائبون، أصحاب المنزلة الرفيعة، الذين نتقبَّلُ منهم أعمالهم الصالحة، ونصفح عن ذنوبهم في جملة عداد أهل الجنة. هذا الوعد الصادق الذي وَعَدْناهم به عن طريق رسلنا.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقديم نفي الخوف على نفي الحزن؛ لأنَّ دفع المخاوف مقدم على إذهاب الأحزان وجَلْب المسرات، وفي هذا بيانٌ لعِظَم نعمة الأمن.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ وإنما تعدَّى بـ ﴿فِي﴾ لتضمُّنِه معنى الطُفْ بي في ذُرِّيَّتي، أو لأنه جَعَلَ الذرِّيَّة ظرفاً للصَّلاح.

٣- التوحيد والاستقامة طريق السعادة في الدارين.

٤- الوصية بالوالدين والبر بهما والإحسان إليهما.

٥- أقل مدة الحمل ستة أشهر أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقوله تعالى في الرضاع: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾.

٦- شُكْرُ نِعَمِ الله تعالى، والاستعانة بالله تعالى على ذلك.

٧- من دواعي الإجابة والقبول: التوبة إلى الله تعالى، ولزوم طريق الإسلام.

٨- بلوغ الأربعين حَدٌّ فاصلٌ بين مرحلتين، وبلوغها يستدعي وَقْفتين: وقفة مع الماضي الذي مَرَّ، والتوبة مما سلف من تفريطٍ وإفراط، ووقفة لما يستقبله العبد من الزمان الحاضر والآتي.

٩- في الآيتين (١٥-١٦) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنِ استجاب لوصيَّة الله بالوالدين، فأحسن في صحبته لهما برّاً بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فجزاؤه: أن يتقبَّلَ الله منه أحسن ما عمل من صالحات الأعمال، ويصفح عن سيئاته.

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨- وثمة جاحدون لنِعَمِ الله، وذلك من قبيل الذي تَضَجَّر من والديه حين دَعَواه إلى الإيمان بالله، وأنكر عليهما قائلاً: أتَعِدانني أن أُخرَجَ من قبري حيّاً، وقد مَضَتِ القرون من قبلي، ولم يُبعث منهم أحد؟ وهما يستغيثان الله تعالى هداية الولد، ويقولان مخوِّفَيْن له: ويلَك آمِنْ بالله، إنَّ وَعْدَ الله بالبعث حقٌّ لا شَكَّ فيه. فيردُّ عليهم بغرور: ما هذا القول إلا ما سَطَّره الأوَّلون من الكذب. أولئك البعداء عن الحقِّ الذين وَجَبَ عليهم العذاب في جملة الأُمم السابقة من كَفَرَةِ الجنِّ والإنس. إنَّهم كانوا خاسرين أنفسهم في الآخرة.

١٩-٢٠- ولكلٍّ فريق من المؤمنين والكفَّار منازل عند الله يوم القيامة بما قَدَّموا من عمل في الدنيا، ولَيُوَفِّيَنَّهم الله جزاء أعمالهم، وهم لا يُظْلَمون مثقال ذرَّةٍ بنقص ثوابٍ أو زيادة عقاب. ويومَ القيامة يُعْرَضُ الكفَّار على النار، ويُقال لهم ذمّاً وتوبيخاً: أَذْهَبْتُم طيباتكم بما أصبتم في الحياة الدنيا، فاغتررتم بلذَّاتها، ورضيتم بشهواتها، فاليوم تُجزون عذاب الذلِّ بسبب استكباركم على الناس بغير الحقِّ، وبسبب ارتكابكم الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترهيب من عقوق الوالدين ومعصيتهما إذا أمرا بطاعة، وبيان شدة حِرْصِهما وشفقتهما على ولدهما العاقّ.

٢- قوله تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان الشديد، وإضافته إلى الهُون لعراقته، وتَمَكُّنه فيه.

٣- حِرْصُ الأبوين الصالحين على هداية وَلَدِهما، واستقامته على الحق وهو من الواجب عليهما تجاهه.

٤- جزاء كل كافر بقَدْرِ عمله، وإن اشتركوا في سوء العاقبة، فالنار دَرَكات، كما أنَّ الجنة درجات.

٥- قد يُبتلى الوالد الصالح بالابن الطالح، وهذا امتحانٌ من الله للعبد.

٦- طَلَبُ الهداية من الله تعالى، كما يوحي بذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾، فيُستَحَبُّ الدعاء للولد بالهداية.

٧- الدعوة للزهد والتقشف، وقد كان رسول الله ﷺ زاهداً في حطام الدنيا الزائل، متواضعاً في ملبسه ومأكله، ومسكنه.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢١- واذكر - أيُّها الرسول - لقومك نبيَّ الله هوداً، أخا عادٍ في النسب، حين أنذر قومه بمدينة الأحقاف في حضرموت - وقد مَضَتِ الرسل التي أَنْذَرَتْ أُممها قبل هود - وحَذَّرهم بألَّا يعبدوا إلا الله وحده، إنِّي أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يوم عصيب.

٢٢- فرَدُّوا عليه مُنْكِرين بسَفاهةٍ وغُرور: يا هود أجئتنا بدعوتك لتَصْرِفَنا عن عبادة آلهتنا؟ فَأْتِنا بما تَعِدُنا به من العذاب، إن كنت من الصادقين في إنذارك.

٢٣- وقال لهم هود عليه السلام محذِّراً لهم من جهلهم: إنَّما العلم بنزول العذاب عليكم عند الله وحده، وأُبلِّغكم ما أرسلت به إليكم، ولكنِّي أراكم قوماً تجهلون قدرة الله في نزول العقاب.

٢٤-٢٥- فلمَّا رأوا الريح التي تزجر سحاب العذاب مُتجهة إلى أوديتهم قالوا: هذا سحاب عارض يأتينا بالمطر. فقال لهم هود عليه السلام: بل هو العذاب الذي استعجلتم به، إنَّها ريح تحمل عذاباً مُوجعاً، تُدمِّر

كلَّ شيء تمرُّ به بأمر ربِّها سبحانه - ويصحُّ أن يكون القول لله تعالى وليس لهود - فأصبحوا هلكى لا يُرى من آثارهم شيء سوى ديارهم الخاوية. وكما جزيناهم نجزي القوم الكافرين.

عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَـهَواتِه إنما كان يبتسم قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاءَ أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَ في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يُؤْمِنِّي أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ٤٤١ برقم ٤٨٢٩ -كتاب التفسير - سورة الأحقاف، باب الآية). واللهاة: اللحمة في سقف أقصى الفم. (النهاية ٤/ ٢٨٤).

٢٦-٢٧- وقسماً لقد مَكَّنَّا لقوم عاد من أسباب التمكين والقوَّة ما لم نُمَكِّنكم يا أهل مكَّة، وجعلنا لهم نعمة السمع والأبصار والأفئدة للفهم والإدراك، واستعمالها في طاعة الله تعالى وسعادة الدارَين، فاستعملوها فيما يسخط الله عليهم فلم تنفعهم شيئاً، إذ كانوا يكذبون بآيات الله المسموعة والمشاهدة، ووقع بهم العذاب الذي كانوا به يسخرون، وقسماً لقد دمَّرنا ما حولكم من أهل القرى - يا أهل مكَّة - كعاد وثمود ولوط ونحوهم، وبَيَّنَّا لهم أنواع الدلائل والبراهين؛ لكي يرجعوا عن كفرهم.

٢٨- فهلَّا نَصَرَتْهم آلهتهم التي اتَّخذوها للعبادة من غير الله، ويَتَقَرَّبون بها إلى الله. لم تَنْصُرْهم، بل غابت تلك الآلهة عن نصرتهم. وذلك الضلال البعيد هو كَذِبُهم وافتراؤُهم على الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: خريطة موقع الأحقاف، كما في الملحق.

٢- لما أقام الله تعالى عليهم الحُجَجَ الباهرات والدلائل النيرات، وأزال ما أثاروه من أباطيل وشبهات، وأخذهم بالترغيب والترهيب، أقام عليهم الحجةَ بهذه القصة التي سار بها الركبان، ولا زالت آثارها باقية، ومسرح أحداثها قائماً.

٣- مَكَّنَ الله تعالى لأُمم غابرةٍ ما لم يُمَكِّن لنا، مع ما في هذا العصر مِنْ تَقَدُّمٍ وازدهار حضاري، ولكن التمكين نسبيٌّ، فعلى الرغم من التقدُّم العلمي، وهذا التحوُّل التِّقَنِيُّ، وهذه المخترعات والتطورات التي لم تخطر على بال مَنْ قبلنا، إلا أن الحضارات البائدة تميزت بمنجزات لم تتهيأ للحضارة المعاصرة، وعلماء الآثار والتاريخ يعلمون ذلك.

٤- التعبير بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصيغة المضارع للدَّلالة على أن افتراءهم متكرر.

٥- تشابه مواقف الكفار من أنبيائهم على مَرِّ التاريخ، وتشابُهِ عاقبتهم.

٦- قد تقتضي الضرورة مصارحة الجاهل بجَهْلِه ليكونَ على حَذَر، ويُبَدِّدَ ظلام الجهل بنور العلم والحكمة.

٧- السمع والبصر والفؤاد من نِعَمِ الله تعالى التي ينبغي أداء شكرها، وحسن الانتفاع بها، وإلا فإنها تصير نِقْمَةً ووَبالاً على صاحبِها، حين يُسيء استغلالها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- وإذا كان كفار قريش قد كَذَّبوا النبي الأمين ﷺ، فإنَّ الله تعالى قد أيّده بمعجزة عظيمة حين آمنت الجن. من أجل ذلك أثنى الله تعالى على الجنِّ المؤمنين، وسماعهم القرآن من النبيِّ ﷺ - كما في الآيات الأربع التالية - حين بعث الله تعالى طائفة من الجنِّ يستمعون القرآن من النبي ﷺ، فلمّا حضروا التلاوة قال بعضهم لبعض: أَنْصِتُوا؛ لنستمعَ القرآن، فلمّا فرغ من التلاوة رجعوا إلى قومهم يُخَوِّفونهم العذاب إن لم يؤمنوا بالله تعالى. عن علقمة قال: قلتُ لابن مسعود ﷺ: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكن قد افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة، فقلنا: اغتيل أو استُطير، ما فُعِلَ به؟ فبِتْنا بشَرِّ ليلة بات بها قوم، حتى إذا أصبحنا أو كان في وجه الصبح، إذا نحن به يجيء من قِبَل حراء، قال: فذكروا له الذي كانوا فيه، فقال: «أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم» فانطلق، فأرانا أَثَرَهم، وأَثَرَ نيرانهم».

(أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح». (السنن ٥/ ٣٨٢-٣٨٣ برقم ٣٢٥٨ - كتاب التفسير)، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) وأخرجه مسلم من طريق علي بن حجر به نحوه، وأخرجه مسلم (الصحيح ٢/ ٢٤ - كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن).

٣٠-٣٢- ودَعَوا قومهم بنداء النسب لاستمالتهم، يُبَشِّرونهم أنَّهم سمعوا قرآناً عجيباً أُنزل من بعد موسى ﷺ، مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتب المنزَّلة، يهدي إلى الدين الحقِّ والطريق الصحيح. يا قومنا أجيبوا محمَّداً رسول الله ﷺ الذي يدعو إلى الإيمان بالله، وصَدِّقوا برسالته، يغفرِ الله من ذنوبكم، ويُخَلِّصْكم من عذاب موجع. ومَنْ لا يُجِبْ رسول الله إلى دين الإسلام فلن يُفْلِتَ من الله طَلَباً، ولا يُعجزه هرباً، وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله. أولئك البعداء عن الحقِّ في ضلال عن الحقِّ ظاهر.

٣٣- يُنْكِرُ الله على مُنكري البعث: أولم يعلم هؤلاء الكفَّار أنَّ الله العظيم الذي أبدع خلق السموات السبع والأرَضين السبع؛ ولم يعجز عن اختراعِهِنَّ بقادر على إخراجهم من قبورهم أحياء؟ بلى، إنَّه سبحانه على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

٣٤- ويوم القيامة يُعْرَضُ الكفَّار على النار، ويُقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أليس هذا العذاب هو الحقَّ الذي كنتم تُنكرونه؟ فأجابوا: بلى وربِّنا هو الحقُّ. فيُرَدُّ عليهم: فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

٣٥- فاصبر - أيُّها الرسول - على أذى قومك، كما صبر أولو العزم والثبات من الرسل - وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد - ولا تتعجَّلِ العذاب للكفَّار بالدعاء عليهم، فإنَّه مصيبهم، ويوم يرونه كأنَّهم لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار. هذا الوعظ بلاغ عظيم لهم ولِـمَنْ بعدهم، ولا يُدَمِّر اللهُ تعالى إلا القوم المخالِفِين أمرَه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١- بلاغة لغة الجن في وصف القرآن الكريم، ومقارنته بالكتب السابقة، وبيان موقفه منها، وبيان مقاصده، وتقرير الرسالة النبوية.

٢- من المعلوم أنَّ الإنجيل بعد التوراة، وإنَّما قالوا بعد موسى ﷺ؛ لأنَّ الإنجيل جاء مُكَمِّلاً للتوراة، ناسخاً لبعضِ أحكامها.

٣- تكرير النداء: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ لإظهار العناية والتلطف بهم، ولفت أنظارهم.

٤- ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾: ﴿مِّن﴾ بيانية أي جميع الذنوب؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، أو للتبعيض لاستثناء الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، فإنها لا تغفر إلا بأداء الحقوق أو تقديم العوض، أو العقوبة، أو المسامحة.

٥- تقييد الإعجاز بكونه في الأرض؛ لبيان أنه لا مَفَرَّ ولا مَهْرَبَ لكفار الجن، لا على ظهر الأرض ولا في بطنها.

٦- تقرير الإيمان بالجن، وأن فيهم المؤمن، وفيهم الكافر.

٧- فضل الاستماع للقرآن؛ فهو طريق التدبُّرِ والانتفاع بهدايته.

٨- التواصي بالتأدُّب والخشوع عند الاستماع للقرآن.

٩- ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لبيان علة مصيرهم وسبب شقائهم، وهو الكفر.

١٠- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الفاءُ واقعةٌ في جواب شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كما مرَّ من أول السورة؛ فاصبر كما صبر من قبلك أولو العزم من الرسل؛ فإن كل ما ورد في السورة مما يُثبِّت الفؤاد، ويُسَلِّي النفوس.

١١- فضلُ الهمَّة العالية والعزيمة القوية في العمل الصالح، والدعوة إلى الله.

١٢- التحذير من الفسق وسوء عاقبته، فهو من أسباب الهلاك.

١٣- عَرْضُ الكفار على النار قبل إلقائهم فيها؛ تنكيلاً وترويعاً لهم.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين في مواجهة الكفرة والمنافقين.

٢- إعداد المؤمنين وتربيتهم؛ ليكونوا مُؤَهَّلين لمواجهة هذه التحديات الصعبة.

٣- التهديد والوعيد للكفار والمنافقين؛ لتَرْويعِهم وتذكيرهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١-٣- يَذُمُّ الله تعالى الكفَّار الذين صَدُّوا أنفسهم والناس عن دينه، ويُحَذِّرهم من بطلان أعمالهم، ويمدح المؤمنين الذين عملوا بما أمر الله، وصَدَّقوا بالقرآن الذي أُنزل على محمَّد ﷺ، وهو الحقُّ الثابت، وهو كلام ربِّهم، ويُبَشِّرهم بفلاح سعيهم إذ كفَّر عنهم ذنوبهم، وأصلح شأنهم وحالهم. ذلك الجزاء العظيم العادل بسبب اتِّباع الكافرين غواية الشيطان ومعصية الرحمن، وبسبب اتِّباع المؤمنين هداية القرآن وطاعة الرحمن. مثلَ هذا البيان يُبَيِّنُ اللهُ أحوالَ أهلِ الكفر وأهل الإيمان.

٤-٦- يُحَرِّض الله تعالى المؤمنين على ضرب العدوِّ من الكفَّار في ميدان المعركة وكسر شوكته، فإذا لقيتموهم فواجهوهم بأروع فنون القتال، واضْرِبُوا الرِّقاب والرؤوس وكلَّ طَرَفٍ منهم. حتى إذا أضعفتموهم بكثرة القتل فأحْكِموا قيد الأسارى، ثمَّ بعد ذلك لكم الخيار في التعامل معهم، فإمَّا أن تَـمُنُّوا عليهم بعد انتهاء المعركة بفكِّ أسرهم، وإطلاقهم بغير عوض، وإمَّا أن تأخذوا منهم فِدْيَةً بالمال أو تقوموا بتبادل الأسرى. وليكن هذا شأنكم حتى تنتهي الحرب، ذلك هو الأمر الحاسم والحكم الجازم.

ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال، ولكن ليختبرَكم، فشرع الجهاد لنصرة دينه، والذين قُتِلُوا في سبيل إعلاء كلمة الله فلن يُبْطل أعمالهم، سيُوَفِّقُهم إلى طريق الجنَّة، ويُصْلِحُ حالهم في الآخرة بالتجاوز عن سيئاتهم، ويُدخلهم الجنَّة من أبوابها الثمانية، وقد عَرَّفهم منازلَهم فيها ودرجاتِهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- العاقبة المحمودة تكون للحق وأهله، أما الباطل - مهما انتفش - فمصيره إلى الزوال.

٢- الإيمان هو الأساس والمنطلق لأي عمل صالح.

٣- سُنَّةُ الله تعالى في الابتلاء؛ ليميز المؤمن من الكافر.

٤- الصراع والتدافع بين الحق والباطل سُنَّةٌ ربانية.

٥- ليس الغرض من القتال في الإسلام إبادة الكفار واستئصالهم، وإنما كسر شوكتهم، ودفع شرِّهم وإضعافهم.

٦- الأخذ بأسباب النصر، والتمكين من العمل والجهاد.

٧- حِرْصُ الإسلام على حقن الدماء، والخروج من المعارك بأدنى خسائر، فالحرب في الإسلام ليست حرب إبادة انتقامية، وإنما هي جهاد لإعلاء كلمة الله، وكسر شوكة الأعداء.

٨- موقف الإسلام من الأسرى يدل على سماحته وعدله.

٩- فضل الشهادة في سبيل الله، ومكانة الشهداء وكرامتهم، وتَنَعُّمُهم في الجنان.

١٠- في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر على أعداء الله، وذلك لأن الله ﷻ جعل عقوبتهم على أيدي المؤمنين، وذلك بالجهاد. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو: أنَّ الحكمة من شرع الجهاد اختبار الله المؤمنين بالكافرين، ولكي ينصر الله بهم دينه. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ جزاء مَنْ قُتِلَ في سبيل الله من المؤمنين فلن يُبْطل الله ثواب عمله، بل سيوفِّقه إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنه في الدنيا والآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢ ﴾

التفسير:

٧- يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين مؤكِّداً أنَّهم إذا نصروا دين الله تعالى بالجهاد في سبيله، واتِّباع أحكامه، فإنَّه ينصرهم على عدوِّهم، ويُثبِّت أقدامهم في ميدان المعركة.

٨-١١- والذين كَذَّبوا الله ورسوله فدَماراً وخِزْياً لهم، وأبطل ثواب أعمالهم، أفلم يسيروا في الأرض، فيَروا في طريقهم كيف كان مصير الأُمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط؛ ليعتبروا؟ فقد أهلكهم الله، وآثارهم باقية، وللمكذِّبين أمثالُ ذلك العقاب. ذلك الدمارُ العظيم الذي أتى عليهم لِحَقِّهم؛ لأنَّ اللهَ ناصرُ المؤمنين، وأنَّ الكفَّار لا ناصرَ لهم.

١٢- يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين الذين يعملون بما أمر الله بالثواب في الآخرة، فإنَّه يُدْخِلُهم جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ويَذُمُّ الكافرين بأنَّهم يتمتَّعون بشهوات الدنيا، ويأكلون مثل البهائم، إذ لا هَمَّ لهم إلا بطونهم، ونار جهنَّم مأواهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة لعباد الله الذين صَدَّقوا به، واتَّبعوا الرسول، ونصروا دينه بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنَّ الله سينصرهم على أعدائهم.

٢- من بدائع القرآن وقوع ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ في جانب الكفار مقابلة قوله للمؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

٣- الدعوة إلى السير في الأرض، والنظر في آثار السابقين للعِظَةِ والاعتبار.

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ الإظهار في موضع الإضمار؛ لبيانِ العلَّةِ في هلاكهم وللتعميم، فيشمل كل كافر.

٥- ولاية الله لعباده المؤمنين.

٦- التنفير من الكفر.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١٣ - كم من أهل قرية - أيُّها الرسول - كان أهلها أشدَّ بأساً من أهل قريتك مكة، الذين كانوا سبباً في خروجك منها دَمَّرْناهم، فلا ناصرَ لهم يمنع العذاب عنهم.

١٤ - هل مَنْ كان على حُجَّةٍ وبصيرة من أمر دينه، مثل مَنْ زَيَّنَ له الشيطان قبيحَ عمله، فرآه حسناً، واتَّبع هواه الباطل؟ والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأوَّل، وإنكار زعم المشركين أنَّهم خير من المؤمنين. ومعنى وصف البيِّنة بأنَّها من الله: أنَّ الله أرشدهم إليها، وأثار أذهانهم، فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجَّة حجَّة في نفسها، وكونها من عند الله تزكية لها، وكشف للتردُّد فيها، وإتمام لدلالتها.

١٥ - صفة الجنَّة العجيبة الشأن التي وَعَدَ الله بها عباده المتقين: فيها أنهار جارية من ماء عذب لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر طيبة لذيذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى من الشوائب، ولهم فيها أصناف الثمرات، ومغفرة من ربِّهم لذنوبهم، هل مَنْ هو في هذا المقام الكريم، كمَنْ هو ماكث أبداً في نار الجحيم، وسُقوا ماءً حارًّا مغلياً فقطَّع أمعاءهم؟

١٦ - ومن هؤلاء الخاسرين شِرْذِمَةٌ من المنافقين الذين يستمعون إليك أيُّها الرسول، حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لِـمَنْ حضر من أهل العلم بسخرية: ماذا قال محمَّد في الماضي القريب؟ أولئك البعداء عن الحقِّ الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يفقهون، واتَّبعوا أهواءهم في النفاق. وسياق الكلام يَدُلُّ على ذَمِّ هذا السؤال لقوله عقبه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، فهو سؤال يُنبئ عن مَذَمَّة سائِليه.

١٧ - وأمَّا المؤمنون الذين اهتدَوا إلى طريق الحقِّ، فزادهم الله توفيقاً، وألهمهم رُشْدَهم.

١٨ - فهل ينتظر هؤلاء الكُفَّار إلا قيام الساعة التي وُعِدُوا بها أن تجيئهم فجأة؟ فقد ظهرت بعض علاماتها، فمن أين لهم الاتِّعاظ إذا جاءتهم الساعة؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - شتَّان بين مَنْ كان على هدى وبصيرة من ربه، ومَنْ التبست عليه الأمور، من هنا ندرك أهمية توعية الناس وتبصيرهم؛ حتى لا يقعوا فريسة سهلة للدعاية المضللة، وتزيين الباطل.

٢ - تشويق القلوب، وترويح النفوس، وتقوية العزائم، بذكر نعيم الجنان وما فيها من أنهار جارية وثمرات طيبة، ومغفرة عظيمة.

٣ - المقارنة بين عاقبة المؤمنين، وعواقب الكفار مما يُثبت القلوب، ويُسَلِّي النفوس، ويَشْحَذُها بالزاد في مواجهتها الصعبة للمكايد والتحديات.

٤ - تنكير ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مع نِسْبَتِها إلى الربِّ تعالى تعظيم وتفخيم لها.

٥ - من أهم أسباب الصدود عن الحق اتباع الأهواء.

٦ - المؤمن يزيده الله هداية ونوراً، والكافر والمنافق لا يزداد إلا بُعداً وضلالاً وتخبُّطاً.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٩ - فاعلم - أيُّها الرسول - أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، واستغفر لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات. والله يعلم تَصَرُّفَكم في معايشكم، ومستقركم عند راحتكم من العمل، وفي البرزخ ودار القرار في الجنَّة أو النار.

٢٠-٢١ - ويقول المؤمنون حرصاً على نصرة الدين: هَلَّا نزلت سورة من الله تعالى فيها أحكام الجهاد وآدابه. فإذا نزلت سورة مُحكمة في بيانها وأحكامها، وذُكِرَ فيها الجهاد، رأيت المنافقين الذين يَعْتَرِي قلوبهم

الشكُّ في الدين، ينظرون إليك - أيُّها الرسول - نَظَرَ المغمى عليه في شخوص أبصارهم، جبناً وخوفاً من الموت في ميدان القتال. فخيرٌ لهم طاعة الله ورسوله، وأن يقولوا قولاً سديداً طيّباً يدلُّ على الإيمان، فإذا جَدَّ الأمرُ وفُرِضَ القتال، فلو صدقوا الله في الإيمان والعمل، لكان خيراً لهم من العصيان.

٢٢-٢٣- فلعلَّكم - إن أعرضتم عن الإسلام - أن تَرْجِعُوا إلى أفعال الجاهلية في سفك الدم الحرام، وتقطيع الأرحام. أولئك البعداء عن الحقِّ طردهم اللهُ من رحمته، فأصَمَّهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى.

٢٤- يُوَبِّخ الله تعالى المنافقين وكلَّ مُعْرِضٍ عن القرآن: أفلا يفهمون القرآن؛ ليُدْرِكُوا أحكامه ومواعظه؟ بل قلوبهم قاسية طُبِعَ عليها، فلا تتأثَّر بالقرآن.

الفوائد والاستنباطات:

١- العلم قبل العمل، فطن الإمام البخاري بمَلَكته الفقهية في تبويب «الصحيح»، فعقد باباً في كِتاب العِلْمِ بعنوان «بَاب: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾».

٢- قال ابن عاشور في الآية (٢٠): «هذه الآية إنباء عمَّا سيكون من المنافقين حين يَجِدُّ الجِدُّ، ويجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلمَّا بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحُد، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين: ما ندري عَلامَ نقتلُ أنفسنا هاهنا أيُّها النَّاس؟ ورَجَعَ هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين». (التحرير والتنوير ٢٦/ ٩٣).

٣- الإعراض عن الحق، وإطلاق العنان للأهواء، من أسباب الفساد والقطيعة.

٤- الفساد في الأرض، وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر.

٥- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات؛ إيذاناً بأنَّ ذِكْرَ هَناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب . (تفسير أبي السعود ٨/ ٩٩).

٦- تنكير القلوب: إمَّا لتهويل حالها وتفظيعِ شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرة لا يُعْرَفُ حالها، ولا يقادَرُ قَدْرُها في القساوة، وإما لأنَّ المراد بها قلوب بعضٍ منهم، وهم المنافقون. (انظر: تفسير أبي السعود ٨ / ٩٩).

٧- قال النسفي: «وأُضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأنَّ المراد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح». (مدارك التنزيل للنسفي ٤ / ١٤٩).

٨- وجوب تَدَبُّر القرآن الكريم، ومن صوارف التدبُّر وعوائقه قسوة القلوب، وإغلاقها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٥-٢٨- يَذُمُّ الله تعالى المرتدين عن الإسلام، الراجعين على أعقابهم كفَّاراً بالله، من بعد ما عَرَفوا طريق الهداية، إن الشيطان قد زَيَّن لهم الغَواية، وغرَّهم بالأماني الخادعة. ذلك الأمر الخطير والشرُّ المستطير، بسبب قولهم لليهود والكفَّار الذين كرهوا ما نَزَّل الله تعالى على نبيِّه ﷺ من الوحي: سنطيعكم في بعض أموركم، كالقعود عن الجهاد جهادكم. والله تعالى يعلم مكايدهم الخفية، فكيف تكون حالُهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامعَ من حديد؟ ذلك العذاب الرهيب بسبب اتِّباعهم ما يُغْضِبَ اللهَ من الكفر والنفاق، وكُرْهِهِم العملَ الصالح الذي يرضاه، فأبطل أعمالهم.

٢٩- أم ظنَّ المنافقون أنَّ الله تعالى لن يكشف ما في قلوبهم من القبائح كالحقد والحسد؟

٣٠- ولو نشاء - أيُّها الرسول - لَأَرَيْناك المنافقين، فعرفتهم بعلامات خاصَّة بهم. وقسماً لَتعْرِفَنَّهم من فحوى كلامهم، وحركة ألسنتهم. والله تعالى يعلم كل أعمالكم - أيُّها العباد - من خير أو شرٍّ.

٣١- قسماً سنختبر المؤمنين بالجهاد؛ حتى يظهر المجاهدون في سبيل الله منكم والصابرون، ونختبر أقوالكم وأفعالكم؛ حتى تميِّزوا الصادق من الكاذب.

٣٢- إنَّ الكفَّار الذين منعوا الناس عن الإسلام، وعادَوا الرسول ﷺ من بعد ما عرفوا أنَّه نبيٌّ صادق من عند الله تعالى، لن يَضُرُّوا الله بهذه القبائح، وسيبطل أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أدب القرآن الرفيع وبلاغته في التعبير، إذ أرسى أصول الآداب، ومكارم الأخلاق، وأسَّس الكلمة الطيبة. عن إسماعيل بن كثير قال: قال لي مجاهد: تدري ما قولُ الله ﷻ: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾؟ قلت: ما هو؟ قال: وأستاهَهم، ولكن الله ﷻ كريم يَكْني.(التفسير من سنن سعيد بن منصور ١/ ١٥٢).

٢- بيان منهج القرآن في توطين النفوس، وتهيئتها لمواجهة البلاء، واستقباله بنفس راضية مطمئنة، وقلب ثابت راسخ.

٣- قال إبراهيم بن الأشعث: «كان الفضل إذا قرأ هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بكى، وقال: اللَّهم لا تَبْلُنا، فإنَّك إن بَلَوْتَنا فَضَحْتَنا، وهَتَكْتَ أستارنا وعَذَّبْتَنا». (الكشف والبيان للثعلبي ٩ / ٣٨).

٤- الحَثُّ على إعلاء كلمة الحق، ورفعة الأُمة.

٥- بيان أسباب الارتداد، وأنَّها ليست خَلَلاً في منهج الإسلام أو قصوراً فيه، وإنما هي ثمرة الاستجابة لتسويل الشيطان وإملائه.

٦- التحالف والتواطؤ بين المنافقين والمرتدين، وبيان الكارهين لما أنزل الله من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم.

٧- سُنَّة الله في كشف أصحاب القلوب المريضة، وفَضْحِهم.

٨- حرف الاستقبال في الآية (٣٢)؛ لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلُّ على أنَّ الله محبط أعمالهم من الآن.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير:

٣٣- يأمر الله تعالى المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فيما بَلَّغهم من الشريعة في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة، ونهاهم عن إبطال أعمالهم الصالحة بالكفر.

٣٤- إنَّ الكفَّار الذين منعوا الناس عن الإسلام، ثمَّ ماتوا على ذلك، فلن يغفر الله لهم جرائمهم.

٣٥- فلا تَهِنُوا - أيُّها المؤمنون - عن جهاد أعدائكم، وتَجْبُنوا عن قتالهم، فتدعوهم إلى الصلح، وأنتم الغالبون عليهم، والله معكم بنصره، ولن ينقصكم من ثواب أعمالكم مثقال ذرَّة.

٣٦-٣٧- يُزَهِّد الله تعالى عباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنَّها لَعِبٌ في الأبدان، ولهو في القلوب. وإن تُصَدِّقوا بالله، وتَتَّقوه بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، يُعْطِكم ثواب أعمالكم، ولا يأمركم بإخراج أموالكم جميعها في الزكاة، بل يأمركم بإخراج بعضها، إن يسألكم أموالكم فيَجْهَدْكم ويُلِحَّ عليكم، تبخلوا بها، وتمتنعوا عن آدائها، ويُخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

٣٨- ها أنتم - معشر المؤمنين - تُدْعَوْن لتُنْفِقُوا في نصرة الدين، فمنكم مَنْ يبخل بالنفقة، ومَنْ يبخل فإنَّما يعودُ وَبالُ بُخْلِه على نفسه بفوات الثواب. والله هو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه، وإن تُعْرِضُوا عن طاعته يجعل بَدَلَكم قوماً آخرين، ثمَّ لا يكونوا أمثالكم في الإعراض عن أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإسلام لا يرضى لأتباعه بالمذلة والهوان، والهزيمة النفسية، والاستسلام للأعداء.

٢- الإسلام دين السلام العادل، سلام العزة والكرامة، وليس السلام الزائفَ، سلامَ الضعف والإجحاف.

٣- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، فهو من وسائل الجهاد، وقد تَرَتَّب على ترك الإنفاق أو التقصير فيه هزائم، ونكبات حَلَّت بالأُمة.

٤- الإسلام دين وسطي، يراعي التوازن في الحقوق والواجبات، والتكليف بما يطاقُ.

٥- من سُننه تعالى سُنَّةُ الاستبدال؛ ليمضيَ رَكْبُ الدعوة.

٦- في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة عظيمة لعباد الله المؤمنين به وبرسوله بالنصر والظفر على الأعداء، فيما إذا لم يضعفوا عن جهاد المشركين، وتجنَّبوا قتالهم.

٧- في الآية (٣٨) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة المؤمنين فيما إذا تَوَلَّوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره، فإنَّ الله سيهلكهم، ويأت بقوم آخرين، ولا يكونوا أمثالهم في التَّوَلِّي عن أمر الله، بل يطيعونه، ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

النزول: مدنية.

فضل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سأله فلم يُجبه: فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاث مراتٍ، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحَرَّكْتُ بعيري، ثمَّ تقدَّمت أمام الناس، وخَشِيتُ أن ينزل فيَّ القرآن، فما نَشِبْتُ أن سمعت صارخاً يصرخ بي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجِئْتُ رسولَ الله ﷺ فسَلَّمْتُ عليه، فقال: «لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ، لهيَ أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾».

(وما نَشِبَ: ما لَبِثَ). (صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الفتح، باب (الآية) ٨/ ٤٤٦، برقم ٤٨٣٣).

المقاصد:

١- البشارة الكبرى بهذا الفتح المبين والنصر العزيز صلح الحديبية، وما أعقبه من فتح مكة، وفتح خيبر، وغيرهما من الفتوحات.

٢- تقرير أهمية تربية الأجيال وإعدادها؛ لتنهض بحمل رسالة الإسلام.

٣- بيان فضل الله على نبيه ﷺ، وكريم شمائله.

٤- بيان مناقب الصحابة وفضائلهم، وتضحياتهم وصدقهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١-٣- يُبَشِّرُ الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بالفتح: إنَّا - لما لنا من العظمة والقدرة - فتحنا لك - أيُّها الرسول - فتحاً مُبيناً في ظهور الحق على الباطل في صلح الحديبية، فإنَّه تحقق بسببه مصلحة كبيرة، ثمَّ تحقَّقَتِ البشرى بالفتوحات تترى، وذلك الفتح الذي يحتاج إلى جهود؛ لكي يغفر الله لك ما تَقَدَّم من ذنبك وما تأخَّر. وفيه بشارة أخرى للنبيِّ ﷺ في هذه المغفرة التي خُصَّ بها، وليتمَّ نعمتَه سبحانه عليك بإظهار الدين وانتشاره، ويهديك إلى دين الإسلام، وينصرك الله نصراً أكيداً منيعاً.

عن أنس ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال: الحديبية. (صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الفتح، باب (الآية) ٨/ ٤٤٧ برقم ٤٨٣٤، وأخرجه بنحوه بسنده عن البراء (صحيح البخاري - المغازي - غزوة الحديبية برقم ٤١٥٠).

٤-٦- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾. قال شعبة: فقدمتُ الكوفة، فحَدَّثت بهذا كله عن قتادة، ثم رَجَعْتُ فذكرت له، فقال لي: أمَّا ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ فعن أنس، وأما «هنيئاً مريئاً» فعن عكرمة. (صحيح البخاري - المغازي، باب غزوة الحديبية برقم ٤١٧٢).

التفسير:

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب الصحابة ﷺ يوم الحُديبية؛ ليزدادوا تصديقاً مع تصديقهم. ولله جنود السموات السبع، والأرَضين السبع، من الملائكة والجنِّ والبراكين والغرق وغيرها ينصر بها دينه. وكان الله عليماً بأحوال خلقه، حكيماً في تدبير شؤونهم. ودَبَّر هذا التدبيرَ؛ ليُدْخِلَ أهل الإيمان جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ماكثين فيها أبداً، ويمحو عنهم خطاياهم. وكان ذلك المقام الكريم عند

الله فلاحاً عظيماً في جَنَّات النعيم، وليعذِّب الله أهل النفاق وأرباب الشرك المتصفين بسوء الظنِّ بالله تعالى بأنَّه يخذل المؤمنين، ويتركهم غنيمة للكفَّار، فعلى هؤلاء وحدهم تدور دائرة العقاب، وسَخِطَ الله عليهم بكفرهم وأبعدهم عن رحمته، وهيأ لهم نار جهنَّم، وساءت مرجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: خريطة موقع فتح مكة، كما في الملحق.

٢- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن المستقبل، فقد وصف اللهُ الفتحَ بالمبين، على خلافِ ما رآه كثير من الصحابة لصلح الحديبية بادئ الأمر.

٣- استفتاح السورة بهذه البشارة العظيمة، فقد كان صلح الحديبية فاتحة خير على الدعوة، وتمهيداً لما تَبِعَه من فتح مكة، وفتح خيبر وغيرها.

٤- نيل المغفرة، واستجلابُ النِّعَم، وتحصيل الهداية، من أسمى أهداف المسلم في سعيه وجهاده ودعوته.

٥- قال ابن عاشور: «تأكيد الكلام بـ (إنَّ) لما في حصول ذلك مِنْ تَرَدُّدٍ بعض المسلمين أو تساؤلهم، فعن عمر أنَّه لَمَّا نزلت ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال: «أوفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لفتح». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٢٢) والأثر صحيح.

٦- ذِكْرُ المؤمنات مع المؤمنين هنا لدَفْعِ تَوَهُّمِ أن يكون الوعدُ بهذا الإدخالِ مختصَّاً بالرجال.

٧- الإيمان يزيد بالطاعات والأعمال الصالحات.

٨- المقابلة بين نِعَمِ الله وإكرامه لعباده المؤمنين، وبين نِقَمِه وسخطه وعذابه للكفار والمنافقين. وهذا من تمام البشارة، وكمال البهجة لأهل الإيمان.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

التفسير:

٧- ولله تعالى جنود السموات السبع والأرضين السبع، ينصر بها دينه ويسحق بها أعداءه. وكان الله عزيزاً في انتقامه، حكيماً في تدبيره.

٨-٩- إنَّا - لِمَا لنا من العظمة والقدرة - أرسلناك - أيّها الرسول - شاهداً على الخلق بالتبليغ، فلا يعذر المخالفون عن شريعتك، ومُبَشِّراً المؤمنين بجنَّات النعيم، ومُخَوِّفاً الفاسقين من نار الجحيم؛ لكي تُصَدِّقوا - أيّها العباد - بالله، وتُقِرُّوا له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وتُجِلُّوا وتُعَظِّموا الرسول ﷺ، وتُسَبِّحوا الله في الصباح والمساء.

١٠- إنَّ الذين يُبايعونك - أيّها الرسول - على السمع والطاعة يوم الحديبية إنَّما يُبايعون الله تعالى، ويعقدون الصفقة الرابحة معه؛ ابتغاء رضوانه. يد الله فوق أيديهم، فهو يعلم ذلك العهد، فمَنْ نَقَضَه فإنَّما يعود عقاب نَقْضِه عليه، ومَنْ وَفَّى هذه البيعة العظيمة بطاعة رسوله ﷺ، فسيكرمه الله تعالى بجنَّة كريمة.

١١- يُحَذِّر الله تعالى نبيَّه ﷺ مكر المنافقين الذين تَخَلَّفوا عن الخروج معه يوم الحديبية، بقولهم: شُغِلْنا عن الخروج معك بالأموال والعيال، فاطلب لنا من الله المغفرة. يقولون خلاف ما يُبْطِنون من الكذب، قل لهم أيّها الرسول: مَنْ يمنعكم من قضاء الله إنْ قَدَّر عليكم شرّاً أو خيراً؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل الله مُطَّلِعٌ على فضائحكم وقبائحكم.

١٢- يفضح الله ما أخفاه المنافقون: بل حَسِبْتُم أنَّ الرسول وأصحابه لن يرجعوا إلى ديارهم في المدينة أحياء، وزَيَّن الشيطان ذلك الظنَّ الخبيث في نفوسكم، وظننتم بالله سوء الظنِّ أنَّه لن يَنْصُرَ رسوله، وكنتم قوماً هلكى؛ بسبب هذا الظنِّ السيِّئ.

١٣- ومَنْ لم يؤمن بالله ورسوله إيماناً صادقاً بالقول والطاعة، فإنَّنا أعتدنا للمكذِّبين بالله ورسوله من المنافقين وغيرهم عذاب السعير في نار جهنَّم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال الرازي في الآية (٧): «كَرَّرَ اللفظ لأنَّ جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين». (التفسير الكبير ٢٨/ ٦٥).

٢- تثبيت قلب النبيِّ ﷺ والمؤمنين بذكر جنوده في السموات والأرض؛ لنصرة أوليائه.

٣- بيان مهمة الرسول والمرسَل إليهم.

٤- تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

٥- وجوب الوفاء بالعهد وحرمة نكثه.

٦- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الغيب المستقبلي، وتحققه كما أخبر.

٧- بيان ظاهرة النفاق، وكشف خبايا المنافقين.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٤- ولله تعالى ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع، يغفر برحمته لِـمَنْ يشاء من عباده المؤمنين التائبين، ويعذِّب بعدله مَنْ يشاء من الكافرين والمنافقين. وكان الله غفوراً لِـمَنْ تاب من عباده، رحيماً بهم.

١٥- يكشف الله تعالى أمراً غيبياً من خداع المنافقين وطَمَعِهم بالغنائم، سيقول هؤلاء الذين تَخَلَّفوا يوم أُحُد والحديبية للنبيِّ ﷺ وأصحابه: إذا انطلقتم إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها: دَعُونا نخرج معكم. يريدون بذلك أن يغيِّروا وَعْدَ الله لأهل الحديبية أن تكون لهم غنائم أيضاً. قل لهم أيُّها الرسول: لن

تخرجوا معنا إلى خيبر، بمثل ذلك الأمر العظيم أَمَرَنا الله. فرَدَّ المنافقون: ليس الله أَمَرَكم، بل أنتم تقولون ذلك حسداً منكم؛ لئلَّا نشارككم في الغنائم. وليس الأمر كما ظَنُّوا، بل كانوا لا يفهمون اتِّباع الحقِّ إلا نادراً.

١٦-١٧- قل - أيُّها الرسول - للمتخَلِّفين عن القتال من أهل البادية: ستُدْعَوْن إلى قتال قوم أصحاب قوَّة ضاربة، وعزيمة صارمة في ميدان القتال. شرع لكم جهادهم ولكم النصر عليهم، أو يدخلون دين الإسلام من غير قتالهم، فإن تستجيبوا وتنفروا إلى الجهاد يرزقكم الله الغنيمة أو الجنَّة، أو هما معاً، وإن تتخَلَّفوا كما تَخَلَّفتم في يوم أُحُد والحديبية يُعَذِّبْكم الله عذاباً موجعاً. ويُستثنى أصحاب الأعذار: الأعمى والأعرج والمريض، فليس عليهم إثم. ومَنْ يطع أمر الله ورسوله، يدخله الله تعالى بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ومَنْ يتخلَّفْ عن الجهاد في سبيل الله مع المؤمنين، يُعَذِّبه الله عذاباً مُوجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الفقه في الدين من أسباب العصمة والنجاة والإنصاف.

٢- إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الأمور المستقبلية.

٣- فتح باب التوبة والقبول أمام المخلفين، وتلك رحمة الله تعالى، يفتح باب التوبة من كل ذنب مهما عظُم.

٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ﴾ الآية (١٦) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ الآية (١٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٦- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار والمرضى، وهذا من رحمته تعالى وتيسيره لعباده مع فتح ميادين الطاعة التي ينافسون فيها المعافين.

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩- قسماً لقد رضي الله عن المؤمنين، حين بايعوك تحت الشجرة بأرض الحديبية، فعَلِمَ الله ما في قلوبهم من السمع والطاعة، فأنزل السكينة عليهم، وجازاهم على هذه البيعة بفتح خيبر - تقع شمال المدينة مسافة (١٦٠) كيلاً - وما بعدها، ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر وغيرهم. وكان الله عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيماً في تدبير شؤون خلقه.

٢٠- يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين بوعده الكريم في كسب الغنائم الكثيرة من العدوِّ على جهادهم وصبرهم، فعَجَّل للصحابة ﷺ غنائم خيبر، فمنع أن تمتدَّ أيدي الأعداء إليهم بسوء، فأخذتم الغنائم بدون جهد وقتال، ولتكون هذه الغنائم دلالة واضحة على قدرة الله تعالى في نصرة المؤمنين، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح الموصل إلى الجنة.

٢١- وعدكم الله سبحانه - أيُّها المؤمنون- مغانم أخرى لم تقدروا على أَخْذِها، عند نزول هذه الآية. عِلَمِ الله أنَّها ستكون لكم بإذنه. وكان الله على كل شيء قديراً لا يعجزه شيء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. (أخرجه أبو داود الطيالسي، وسنده رجاله ثقات إلا سماكاً الحنفي لا بأس به، فالإسناد حسن، ينظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٩١-١٩٢، وأخرجه البيهقي بلفظ: هو ما أصبتم بعده (دلائل النبوة ٤/ ١٦٣).

٢٢-٢٣- يُبَيِّنُ الله تعالى رعايته للنبيِّ ﷺ والمؤمنين: ولو قاتلكم كفَّار مكة لانهزموا فارِّين، ثمَّ لا يجدون مَنْ يُواليهم، ولا مَنْ يُعِينهم على القتال، سُنَّة الله التي سَنَّها في الأُمم السابقة أن ينصر عباده المؤمنين، ويهزم أعداءَه الكافرين، فلن تتغيَّر هذه السُّنَّة في العالمين.

٢٤- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم. مُتَسَلِّحين يُريدون غِرَّة النبي ﷺ وأصحابه فأخذهم سِلْماً، فاستحياهم. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (الآية) ٣/ ١٤٤٢ برقم ١٨٠٨).

التفسير:

والله تعالى هو الذي كَفَّ عنكم أيدي المشركين الذين حاولوا البطش بكم، وكَفَّ أيديكم بالعفو عنهم في الحديبية، بعد ما قدرتم عليهم. وكان الله بكلِّ ما تعملون بصيراً، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- قد دُعِيَتْ هذه البيعة بيعة الرضوان من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

٢- رضا الله جلَّ وعلا خير ما يُؤَمِّلُه العبد، وأعظم ما ينالُه، فهو غايتُه، ومنتهى أمله.

٣- الالتفات من الغيبة للخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ للعناية بالمؤمنين، والإقبال عليهم بعد الحديث عنهم بالثناء.

٤- فضائل صحابة رسول الله ﷺ، وكريم شمائلهم، من ذلك بيعة الرضوان التي تَدُلُّ على صدقهم وثباتهم وطاعتهم، ونُصْرَتِهم لنبيهم ﷺ.

٥- سُنَّة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين على الكفار.

٦- سلامة الأبدان، وحِفْظ النفوس، من مقاصد الإسلام، ومن لُطْفِ الله بعباده المؤمنين.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٥- كُفَّار مكة هم الذين كذَّبوا بالله، ومنعوكم من الطواف بالمسجد الحرام، ومنعوا الهَدْيَ من الأنعام عن بلوغ مَنْحَرِه في الحرم. ولولا طائفة من المؤمنين والمؤمنات يعيشون مع كفَّار مكّة، يكتمون إيمانهم خوفاً من بطش الكفَّار لم تعرفوهم؛ خشيةَ أن تقتلوهم مع الكفَّار، فيقع عليكم إثم بغير علم، لأَمَرْناكم بقتالهم؛ ليُدْخل الله في رحمته مَنْ يشاء، فينَجِّي المؤمنين، ويرجع كثير من الكفَّار إلى الإسلام، لو تميَّز أهل الإيمان عن الكفَّار، وخرجوا من بينهم، لَعَذَّبْنا الكفَّار أشدَّ العذاب بالقتل والأسر.

٢٦- سبب النزول:

عن المسور بن مخرمة ومروان - يُصَدِّقُ كل واحد منهما حديث صاحبه - قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق... فذكر الحديث بطوله وفي آخره: فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أَرْسَلَ، فمَنْ أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنّهم لم يقروا أنّه نبي الله، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

(صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ٥/ ٣٢٧-٣٣٣ برقم ٢٧٣١-٢٧٣٢).

التفسير:

حين جعل الكفَّار في قلوبهم الكِبْرَ والبَطَرَ وهي عصبية الجاهلية، جعل الله تعالى الطمأنينة والصبر على رسوله ﷺ وصحابته ﷺ، وألزمهم قول: (لا إله إلا الله) والقيام بها، وكان المؤمنون أحقَّ بهذه الكلمة العظيمة من المشركين، فهم أهل لها. وكان الله بكلِّ شيء عليماً، لا يخفى عليه شيء في السموات السبع والأرَضين السبع.

٢٧- قسماً لقد جعل الله رؤيا رسوله ﷺ صادقة مُحقَّقة، وهي دخوله ﷺ وأصحابه بيت الله الحرام آمنين من العدوِّ، مُحَلِّقين شعر رؤوسكم، ومُقَصِّرين بعد طواف العمرة وسَعْيِها، فعَلِمَ اللهُ من المصلحة في تأخير هذه العمرة ما لم تعلموا أنتم، فجعل من دونِ دخولِكم مكَّة الذي وُعِدْتم به فتحاً قريباً، وهو صُلْحُ الحديبية، ثمَّ فتح خيبر.

٢٨- الله تعالى بمَنِّه وكرمه أرسل رسوله محمَّداً ﷺ بالهداية إلى الخير ودين الإسلام؛ ليُعْلِيَه على الأديان كلِّها. وكفى بالله شاهداً على صِحَّةِ رسالتك، وأنَّه ناصرك.

٢٩- لما بَيَّن صدق الرسول ﷺ في رؤياه، واطمأنت نفوس المؤمنين، أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول ﷺ، والثناء على المؤمنين الذين معه. فيمدح الله سبحانه نبيَّه ﷺ والصحابة ﷺ: محمَّد رسول الله ﷺ والذين معه من أصحابه غِلاظٌ على مَنْ يعاديهم من الكفَّار، متراحمون فيما بينهم، تراهم راكعين ساجدين، يطلبون من الله تعالى وحده رحمته ورضوانه، علامة طاعتهم ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة. ذلك الوصف الكريم ورد في كتاب التوراة والإنجيل، وصِفَتُهم في هذين الكتابين مثل زرع أخرج فروعه، فقَوِيَ حتى صار غليظاً، فقام الزرع واستقام على أصوله، يُعْجِبُ الزارع من جمال منظره، ليغيظ الكفَّار بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وتَوادِّهم وشدَّة بأسهم على أعداء الله تعالى، وعد الله المؤمنين الذين عملوا بطاعته المغفرة لذنوبهم، والرزق العظيم في جَنَّة النعيم.

قال ابن عاشور: «ثمَّ تكون أحكام الشدَّة على الكفَّار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعلماء الإسلام فيها مقال». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٧٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- قَوْله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تَفْصِيلٌ لِلصَّحابَةِ، وإِخْبارٌ عَنْ صِفَتِهم الكريمة من العِفَّةِ عَنْ المعصِيَةِ، والعِصْمَةِ عن التَّعَدِّي، حتى إنهم لو أَصابُوا مِنْ أُولئكَ أَحَداً لَكانَ مِنْ غيرِ قَصْدٍ.

٢- قابَلَ بين حمية الجاهلية وسكينة أهل الإيمان، وأضاف الحمية وهي: الأَنَفَةُ والعصبية إلى الجاهلية تأكيداً لذَمِّها. والعطف بالفاء يفيد المقابلة كما تقول: أكرمني فأكرمته.

٣- رؤيا الأنبياء حق، وقد يتأخر وقوعها.

٤- المستقبل لهذا الدين، والآمال معقودة على دعاته وحملة لوائه، فلم يَعُدْ للبشرية من سبيل سواه بعد أن تبدَّدت كل الفلسفات، وتحطمت كل التصورات، وفشلت القوانين الوضعية في إصلاح طريق البشر.

٥- استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ على تكفير الذين يُبْغِضُون الصحابة ﷺ، قال: لأنَّهم يُغيظونهم، ومَنْ غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية. قال ابن كثير: «ووافقه طائفة من العلماء على ذلك». (التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج ٢٦/ ٢٢٧).

٦- يُعَلِّمنا القرآن الكريم ذِكْرَ المشيئة، فالله تعالى يفعل ما يشاء.

٧- رَبْطُ المسجد الحرام بالأمن؛ لأنه من أخَصِّ صفاته، فهو حرمٌ آمنٌ.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان معاني الإيمان ومقتضياته.

٢- تعظيم شرع الله تعالى وتقديمه.

٣- تعظيم النبي ﷺ، وحُسْنُ التأدُّب معه.

٤ - حماية المجتمع المسلم من أسباب الشقاء والريبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾

١ -٢- سبب النزول:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أنَّه قَدِمَ ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّرِ القعقاع بن مَعبد، وقال عُمر: بل أَمِّرِ الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أَرَدْتَ إلى - أو إلا - خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خِلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية. (صحيح البخاري-كتاب التفسير- سورة الحجرات، باب (الآية) ٨/ ٤٥٧ برقم ٤٨٤٧).

التفسير:

يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى أدب التعامل في مخاطبة النبيِّ ﷺ، فينهاهم عن المسارعة في الأشياء بين يديه وقبله، وعن قضاء أمر من أمور الشريعة دون أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ويأمرهم بتقوى الله فيما أمر وزجر. إنَّه سبحانه سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأفعال، ونهاهم سبحانه في أثناء المخاطبة عن رَفْعِ أصواتهم فوق صوته ﷺ، ونهاهم عن الجهر عند ندائه ﷺ كما يجهرون فيما بينهم إذا نادى بعضهم بعضاً، بأن يُنادى بنداء يليق بمقام النبوَّة؛ خشيةَ أن تبطل أعمالهم، وهم لا يشعرون بذلك.

قال ابن عاشور: «ولقد تَحصَّل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ، إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٨٣).

٣-٤ - ويُؤَكِّد الله سبحانه ذلك بثنائه على الصحابة ﷺ الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ: أولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اختبر الله قلوبَهم، وأخلصها لتقواه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لهم من الله تعالى مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم في جنَّة النعيم. ويُؤَكِّد مرَّة أخرى ذَمَّ الذين ينادونه ﷺ من وراء بيوت نسائه بصوت مرتفع، ووصف أكثرهم بأنَّهم لا يعقلون التعامل مع النبيِّ ﷺ، ولا يدركون مقامه. قال ابن عاشور: «ونَفْيُ العقل عنهم مراد به عقل التأدُّب الواجب في معاملة النبيِّ ﷺ».

(التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٨٨).

٥- ولو أنَّ هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم انتظروا حتى يخرجَ إليهم النبي ﷺ من بيته، لكان أفضل لهم عند الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- أفاد تذييل الآية الأولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مراقبة الله تعالى في القول والعمل، وتجويدهما.

٢- حرمة الرسول ﷺ بعد مماته كحرمته في حياته، فلا يُقَدَّمُ قولٌ أو رأيٌ على كلام الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويُراعَى الأدب في مجالس العلم وخَفْضِ الصوت عند قبر رسول الله ﷺ.

٣- الحذر من محبطات الأعمال، وضرورة اليقظة.

٤- الأدب من كمال العقل، وثمرة التُّقى.

٥- مراعاة الأوقات الملائمة للزيارة، وأدب الاستئذان.

٦- عَلَّق البقاعي على حرمة رفع الصوت على النبي ﷺ بقوله: «وهذا يدل على أن أذى العلماء الذين هَيَّأهم الله لتَلَقِّي فَهْمِ دينه عنده شديد جداً، فإنَّ تكديرَ أوقاتهم يمنعهم عن كثير من ذلك».

(نظم الدرر ٧/ ٢٢٦).

٧- الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الأولى والعقبى.

٨- تنكير مغفرة؛ لتعظيمها وتفخيمها. وفي هذا إيماء إلى إثم مَنْ رفع صوته عند رسول الله ﷺ.

٩- ينظر: صورة حجرات النبي ﷺ، كما في الملحق.

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

٦- سبب النزول:

عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ﷺ قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمَنْ استجاب لي جمعت زكاته، فيرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً إبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظَنَّ الحارث أنّه قد حدث فيه سخطة من الله ﷻ ورسوله، فدعا بسَرَوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حَبْسَ رسوله إلا من سخطة كانت، فانطَلِقُوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث، وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «مَنَعْتَ الزكاة وأَرَدْتَ قَتْلَ رسولي». قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ إلى هذا المكان: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧٩، وأخرجه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤، برقم٣٣٩٥). قال ابن كثير: وقد روي من طرق، ومن أحسنها ما

رواه الإمام أحمد .. فساق هذا الحديث. وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ١٠٩)، وقال السيوطي في الدر:.. بسند جيد. ا.هـ. وله شواهد عن مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري. وقال محققو المسند: حسن بشواهده، دون قصة إسلام الحارث بن ضرار الخزاعي (المسند ٢٥/ ٤٠٣-٤٠٥ برقم ١٨٤٥٩).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خبر الفاسق، بأنَّه يجب التثبُّتُ من صحَّة الخبر قبل تصديقِه ونَشْرِه، خشية أن يجرَّ هذا الخبر إلى الوقوع في ظلم الناس الأبرياء، فيندموا على ذلك التسرُّع.

٧-٨- واعلموا - معشر المؤمنين - أنَّ بين أظهركم رسولَ الله ﷺ، فعَظِّمُوه ووَقِّرُوه، وانقادوا لأمره، فإنَّه أعلم بمصالحكم؛ لأن الله تعالى لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، ولو يُطيعكم في كثير من اقتراحاتكم واجتهاداتكم، لَوَقَعْتُم في مشقَّةٍ وحرج، ولكنَّ الله بفضله حَبَّب إليكم الإيمان وزَيَّنه في قلوبكم، وكرَّه إليكم أنواع الضلال من الكفر والخروج عن طاعته وارتكاب المعاصي. أولئك أصحاب المنازل الرفيعة هم المهتدون إلى اتِّباع الحقِّ. هذا الهدي العظيم فضل كريم من الله ونعمة منه. والله عليم بأحوال عباده، حكيم في تدبيره.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قرأ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ قال: هذا نبيكم ﷺ يُوحى إليه، وخيارُ أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر لَعَنِتُوا، فكيف بكم اليوم؟ .

(أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. (السنن ٥/ ٣٨٨-٣٨٩ - كتاب التفسير، باب سورة الحجرات برقم ٣٢٦٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

٩- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبيّ؟ قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرضٌ سَبَخةٌ، فلمّا أتاه النبي ﷺ قال: إليك عنِّي، فوالله! لقد آذاني نَتْنُ حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله! لَحِمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضَرْبٌ بالجَريد وبالأيدي وبالنِّعال. قال: فبلغَنا أنَّها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾. (صحيح البخاري - كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح برقم٢٦٩١. وصحيح مسلم ٣/ ١٤٢٤ - كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٩). أرض سبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تُنبت إلا بعض الشجر. (النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٣٣).

التفسير:

يحثُّ الله تعالى المؤمنين على الصلح إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين، فيجب أن تقوم طائفة أُخرى من المؤمنين بالصلح بما يُرضي الله تعالى، ويؤكِّد سبحانه وجوب الصلح، وأنَّه إذا اعتدت إحدى الطائفتين

على الأخرى ولم تَرْضَ بالصلح، وجب قتال الطائفة المعتدية إلى أن ترجع إلى حكم الله تعالى ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، بإعطاء كلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه بالقسط والعدل. إنَّ الله يحبُّ العادلين بين الناس.

١٠ - ثمَّ يُؤَكِّد سبحانه ذلك مرَّة أخرى بأنَّ المؤمنين إخوةٌ في الدين، فيجب الإصلاح بين الإخوة، ثم يأمرهم بتقواه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لكي تفوزوا برحمة الله الواسعة؛ وفيه ترغيب في الصلح أيضاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب التثبُّت من الأخبار والتحري والدقة، وقبول خبر الواحد، والاحتجاج به إذا كان عدلاً.

٢ - الأمر بالتثبت من خبر الفاسق لا يعني إهمال خبره إذ قد يكون صادقاً؛ فيترتب على إهمال خبره وقوع مفسدة، أو تفويت مصلحة.

٣ - تَنَوُّع الأساليب القرآنية في النهي عن المنكرات، والتنفير منها، والترهيب من عاقبتها مع إيجاز في ذلك بليغ.

٤ - المؤمن إذا ارتكب كبيرة من الكبائر لا يخرج عن الملة.

٥ - وقوع الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين لا يُخرجهما عن الإيمان، بدليل نسبة الطائفتين إلى المؤمنين.

٦ - ضرورة الإسراع إلى رأب الصدع، والمبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين.

٧ - وجوب قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله.

٨ - من ثمرات التقوى أنَّها تجلب رحمة الله تعالى.

٩ - ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أما في حياته فظاهرٌ، وأما بعد مماته فبهَدْيِه وسيرته وسنته. وتلك نعمة من الله وعصمة لعباده المؤمنين ألا يُتْرَكوا بلا منهج ولا أسوة، فيبيتوا نهباً لأصحاب المذاهب الهدامة، والتصورات الباطلة.

١٠ - دَلَّ قوله تعالى ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ على أنَّ المعاصي متفاوتة، وبعضها أقبح من بعض فبدأ بأشنعها وهو الكفر، ثمَّ الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والمجاهرة بالعصيان، ثمَّ العصيان.

١١ - ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾ وَضَعَ الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المخاطبين؛ لاستثارة عاطفة الأخوة واستنفارها.

١٢ - إذا كانت المبادرة إلى إصلاح ذات البين من المهمات الواجبات، فإن الإفساد بين الناس والسعي بالنميمة والوشاية والتحريض، وإضرام الفتن، من أكبر المنكرات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾

١١- سبب النزول:

عن أبي جبيرة بن الضحاك ﷺ قال: نَزَلَتْ هذه الآية في بني سلمة: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ قال: قَدِمَ علينا رسول الله ﷺ، وليس منَّا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي ﷺ يقول: «يا فلان» فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾. (أخرجه أبو داود في السنن ٤/ ٢٩١، ٢٩٠ برقم٤٩٦٢ - كتاب الأدب، باب في الألقاب، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (السنن ٥/ ٣٨٨ برقم ٣٢٦٨)، وابن ماجه (السنن ٢/ ١٢٣١ برقم٣٧٤١)، وأحمد (المسند ٤/ ٢٦٠) والطبري (التفسير سورة الحجرات ٢٦/ ١٣٢)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٤٦٣). وصححه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود برقم٤١٥١).

التفسير:

وبما أنَّ السخرية من أسباب نشوب القتال، فقد نهى سبحانه المؤمنين ألَّا يهزأ قوم من قوم آخرين، عسى أن يكون المهزوء بهم خيراً من الهازئين، ولا يهزأ نساء من نساء، عسى أن تكون المهزوءُ بها خيراً من الهازئات، ولا يَعِبْ بعضكم بعضاً، ولا يُعَيِّر بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب. بئس الصفة والاسم الفسوقُ، كالصفات المنهيِّ عنها بعد أن صِرْتُم من أهل الإيمان. ومَنْ لم يَتُبْ من هذه الصفات القبيحة فأولئك البعداء عن الحقِّ هم الذين ظلموا أنفسهم بالوقوع في هذه المُحَرَّمات.

١٢- يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من سوء الظنِّ بالمؤمنين، وأن يجتنبوه؛ لأنَّ بعض ذلك الظنِّ يوقع صاحبه في الإثم، ونهى عن البحث عن عورات المسلمين وتَتَبُّعِ عيوبهم، ونهى عن أن يذكر المؤمن أخاه بما يكره في غيبته، ونَفَّر منها: أيُحِبُّ أحدكم - أيُّها المسلمون - أَكْلَ لحم أخيه المسلم وهو مَيِّت؟! فكما تكرهون ذلك فاكرَهوا الغِيبة، واتَّقوا الله بطاعة أمره. إنَّ الله توَّابٌ على عباده المؤمنين، رحيم بهم.

١٣- لما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يُصْلحوا بين الطَّوائف المتقاتلة، ونهاهم عن السخرية، واللَّمْزِ، والتنابز، والظنِّ السوء، والتجسُّس، والغِيبة، ذَكَّرهم بأصل الأخوَّة في الأنساب التي أكدتها أخوَّة الإسلام.

فيُخاطب الله البشر: إنَّا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - خلقناكم من ذَكَرٍ أبٍ واحدٍ هو: آدم، وأنثى أُمٍّ واحدةٍ هي: حواء، فلا تفاخُرَ بينكم في الأنساب، وجعلناكم بالتناسُلِ شعوباً، ومن الشعوب قبائل متعدِّدة؛ ليعرف بعضكم بعضاً. إنَّ أَفْضَلَكم منزلةً عند الله أتقاكم له. إنَّ الله عليم بعباده، خبير بأحوالهم، وتدبير أمورهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «دلَّ قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ على أنَّ ما نُهُوا عنه مذموم؛ لأنَّه فسوق يعاقب عليه، ولا تزيله إلا التوبة، فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دَلَّ عليه التذييل، وهذا دالٌّ على أنَّ اللَّمْزَ والتنابُزَ معصيتان؛ لأنهما فسوق». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٠٨).

٢- الأصل في الشريعة التساوي بين الرجال والنساء في الأحكام، إلا ما دَلَّ الدليل على اختصاصه، وإنما خَصَّ النساء بالنهي عن السخرية لكثرة وقوعه منهنَّ، ولتعظيم حرمة المرأة.

٣- جاء النهي عن اللمز بلمز النفس؛ لأنَّ المؤمنين كالنفس الواحدة، ومَنْ لَمَز غيره فكأنما لمز نفسه.

٤- النهي عن اجتناب كثير من الظن؛ لأن بعضه جائز كحُسْنِ الظنِّ بالمسلم.

٥- يجوز ذِكْرُ الآخرين بعيوبهم للتحذير أو للنصح أو للشكاية؛ فالضرورة تُقَدَّر بقَدْرها دون أن يتمادى الشخصُ.

٦- التحذير من الشائعات، وخطرها على المجتمعات، فهي سلاحٌ من أسلحة أعداء الإسلام يسعون من خلاله إلى زعزعة الأمن، وإثارة الفتن، وبَثِّ العداوة، والنيل من الشرفاء.

٧- المساواة بين الناس جميعهم في الخلق والأصل.

٨- التفاضل بين الناس عند الله تعالى بتقواهم.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

التفسير:

١٤-١٥- قال بعض الأعراب من أهل البادية: صَدَّقْنا بالله ورسوله تصديقاً تامَّاً بالقول والعمل. قل لهم أيُّها الرسول: لم تبلغوا مرتبة الإيمان ولكن قولوا: أَسْلَمْنا، ولَمَّا يدخل الإيمان الكامل في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. إنَّ الله غفور للتائبين من ذنوبهم، رحيم بهم. ثمَّ أرشدهم إلى مرتبة الإيمان: إنَّما المؤمنون الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، وعَمِلُوا بشريعته، ثمَّ لم يَشُكُّوا وشاركوا بالجهاد بالمال والنفس في سبيل نصرة دين الله. أولئك أصحاب الدرجات العالية، هم الصادقون في إيمانهم.

١٦-١٧- قل - أيُّها الرسول - لهؤلاء الأعراب: أتخبرون الله بإيمانكم وإسلامكم، والله يعلم كلَّ ما في السموات السبع والأرَضين السبع؟ والله بكلِّ شيء عليم، لا يخفى عليه شيء، يَمْتَنُّون عليك بإسلامهم ونُصْرَتِهم لك، قل لهم: لا تمتنُّوا عليَّ بدخولكم الإسلام، بل الله يَمْتَنُّ عليكم أن هداكم إلى الإيمان به وبرسوله، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

١٨- يُخبر الله تعالى أنَّه يعلم غيب السموات السبع والأرَضين السبع. والله بصير بكل ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ، وسيجازيكم على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإيمان نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ كبرى من الله لعباده. والله تعالى غنيٌّ عن إيمان المؤمنين، فمَنْ آمن فلنفسه.

٢- قال الرازي: «وفيه تحريض على الإيمان الصادق، لأنَّ مَنْ أتى بفعلٍ من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطي عليه أجراً فقال: وإن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص».

٣- قال النسفي: «أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقيل: قل لم تؤمنوا مع أدب حسن، فلم يقل كذبتم تصريحاً، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: «لم تؤمنوا» عن أن يقال: «لا تقولوا آمنا»؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظٍ مُؤَدَّاه النهي عن القول بالإيمان».

(مدارك التنزيل للنسفي ٤/ ١٦٨).

٤- قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ حسن أدب إذ لم يقل: لا تمنوا علي، بل لي المنة عليكم، حيث بيَّنت لكم الطريق المستقيم. (التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٩١).

٥- في خَتْمِ السورة دعوة إلى إصلاح القلوب، وتجديد الإيمان، وإصلاح الأعمال؛ فالله تعالى مطَّلعٌ عليها.

٦- اسْتُهِلَّتِ السورة الكريمة بصفتي السمع والعلم، وخُتِمَتْ بصفتي البصر والعلم. وهذا من التناسب بين المطلع والختام.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، وتسرية نفوسهم.

٢- بيان أصول العقيدة: التوحيد والرسالة والبعث.

٣- تعظيم القرآن الكريم، والدعوة لتصديقه والعمل به.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

التفسير:

١-٣- ﴿قٓ﴾ تَقَدَّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطَّعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيانَ إعجاز القرآن. وقسماً بالقرآن الكريم ذي المجد والشرف على كلِّ كلام، إنَّك يا محمَّد رسول الله حقّاً، وإنَّ البعث لَـحَقٌّ. بل عجب كفَّار مكة أن جاءهم مُنْذِرٌ من جنسهم فاستنكروا. وقالوا: هذا شيء يُتَعَجَّبُ منه! أَإِذا متنا، وتَفَتَّت عظامُنا مع التراب نُبعث أحياء؟ ذلك البعث بعيد الوقوع لا نُصَدِّقه!

٤- قد عَلِمْنا علماً قاطعاً ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وتأكله من لحومهم ودمائهم إذا ماتوا، وعندنا أيضاً كتاب حافظ لذلك، ولكلِّ ما يجري في حياتهم ومماتهم وبَعْثِهم.

٥- فلم يُصَدِّقوا ما جاء به النبي ﷺ من الحقِّ، بل كَذَّبوا به حين جاءهم، فهم في أمر ملتبس.

الفوائد والاستنباطات:

١- وصف القرآن بالمجيد؛ لمجد منزلته، ولأنَّ مَنْ آمن به وعمل نال المجد والعزة في الدارين.

٢- قال قتادة: «معناه مَنْ ترك الحق مرج إليه أمره، وألبس عليه دينه». وقال الحسن: «ما ترك قومٌ الحقَّ إلا مَرَجَ أمرُهُمْ». (تفسير البغوي ٤/ ٢٧١).

٣- حُجَجُ الكفار في إنكار البعث حُجَجٌ واهية.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٦-٨- **يُنْكِرُ** الله تعالى على هؤلاء الكفَّار بالبعث: أفلم ينظروا نَظَرَ تَدَبُّر إلى السماء الدنيا فوقهم كيف رفعناها بلا عَمَدٍ، وزَيَّنَّاها وما ترى لها من شقوق ولا عيوب، والأرض فرشناها ووَسَّعناها، وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تحفظها من الاضطراب، وأنبتنا فيها من كلِّ نوع من النبات بهجة للناظر من حسن ألوانه وثماره؟ خَلَقْنا هذه الآيات الكونية العظيمة؛ تبصيراً منَّا للعباد، وتذكيراً لهم بكمال قدرتنا لكلِّ عبدٍ مُقبلٍ على الله بالحُبِّ والخوف والرجاء.

٩-١١- **ونَزَّلْنا** من السحاب مطراً كثير الخيرات والبركات، فأخرجنا به البساتين الناضرة، وحبوب الزرع المحصود، وأشجار النخيل العالية ذات الثمار المتراكبة بعضها فوق بعض. أنبتنا هذه الخيرات رزقاً للعباد؛ لينتفعوا، وأحيينا بهذا الماء المبارك الأرضَ الميتةَ الجَدْبَةَ، فصارت ذات مروج خضراء. مثلَ هذا الإحياء نُخرجكم أحياء من قبوركم.

١٢-١٥- **يُهَدِّدُ** اللهُ تعالى مُنْكِرِي البعث، فيذكر لهم الأُمم التي كَذَّبت قبلَهم، كقوم نوح وأصحاب بئر الرسِّ، وقوم ثمود وعاد وفرعون وقوم لوط، وأصحاب الشجر الملتفِّ في مدين من قوم شعيب، وقوم تُبَّع الحميري. كلُّهم كَذَّبوا رسلهم فوقع بهم العذاب، ثمَّ أنكر الله تعالى عليهم: أفعَجَزْنا في ابتداء الخلق حتى نَعْجِزَ عن إعادتهم بعد الموت؟ لا يُعْجِزُنا ذلك، بل هم في شَكٍّ واضطراب من أمر البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١- إثبات البعث بأدلة حسيةٍ مشاهدة.

٢- وجود الإنسان دليل على إمكان وجوده في حياةٍ أخرى، فالذي خلقه قادرٌ على أن يعيدَه كما بدأه.
(السراج المنير ٤/ ٥٠).

٣- لم يقيّد في قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ العباد بالإنابة، وقيّده في قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لأنَّ التذكرة لا تكون إلا للمنيب، والرزق يعمُّ كل أحد، غير أنَّ المنيب يأكل ذاكراً أو شاكراً للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص بقيد.

٤- يقول العلماء: تعمل النخلة كنوع من أنواع الروافع حيث يوجد بها قوة متمثلة في جذع النخلة، ومقاومة في الوريقات (السعف) وهي مطوية بصورة مائلة على محورها وعلى محور الورقة (السعفة)، ومحور ارتكاز متمثل في مجموع جذري وتدي متميز، هذا النوع يمكن من تكوين الجذور العرضية بسرعة، وانتشارها خاصة في التربة الرملية، وهذا الشكل يعطي النخلة قوة تثبيت عالية في التربة.

(معجزة النخيل بين العلم والقرآن: مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٥).

٥- هلاك المكذِّبين تسلية للنبي ﷺ، إذ كَذَّبه قومه، وفيه دليل على البعث والجزاء.

٦- ينبغي تأمُّلُ آياتِ الله في الكون، وما فيها من إتقان وإبداع.

٧- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٨- ينظر: صورة النخل الباسقات، كما في الملحق.

٩- ينظر: خريطة موقع الرس، كما في الملحق.

١٠- ينظر: خريطة موقع قوم تبَّع، كما في الملحق.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦-١٨- وقسماً لقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تحدَّث به نفسه سرّاً، ونحن - بعِلْمِنا - أقرب إليه من العِرْق الذي في صفحة العنق المتصل بالقلب، حين يكتب المَلَكان الموكَّلان بالإنسان أعماله وأقواله، أحدهما قعيد عن يمينه؛ لكتابة الحسنات، والآخر قعيد عن شماله؛ لكتابة السيئات، ما يتكلَّم الإنسان من قول إلا ويسمعه مَلَكٌ يرقبه في القول والفعل، فهو متابع له لا يفارقه.

١٩-٢٢- وحضرَتْ هذا المكذِّبَ بآيات الله سَكْرَةُ الموت بالأمر الحقِّ بشدائدها وأهوالها. ذلك الأمر ذو الكرب الذي كنت منه تنفر وتهرب، ونفخ المَلَكُ في القرن نفخة البعث الثانية. ذلك الوقت الشديد بالأهوال هو يوم الوعيد الذي تَوَعَّد الله به الكفَّار، وجاءت كلُّ نفس معها مَلَكٌ يسوقها إلى المحشر، ومَلَكٌ آخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا. قسماً لقد كنت - أيُّها الكافر - في غفلة من هذا المشهد الرهيب، فأَزَلْنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا، فبصرك اليوم قويٌّ نافذ.

٢٣-٢٦- وقال المَلَك الموكَّل به: هذا ما عندي من كتاب أعمالك حاضر مُهَيَّأ. ثمَّ يأمر الله المَلَكين السائق والشهيد: أَلْقِيا في نار جهنَّم كلَّ كافر مبالغ في التكذيب، معاند للحقِّ، شديد المنع للخير من وصوله إلى مستحقيه، يظلم الناس، يشكُّ في أمر الدين، الذي أشرك مع الله آلهة أخرى فعبدها، فأَلْقِياه في عذاب نار جهنَّم الشديد الألم.

٢٧-٣٠- ويحاول التخلُّص من العذاب بذكر ضلال الشيطان له، فيردُّ عليه الشيطان: ربَّنا ما أضللتُه بل هو كان ضالاً معانداً للحقِّ. فرَدَّ الله تعالى عليهم: لا تتخاصموا لديَّ اليوم، وقد سبق أن أنذرتُكم على ألسنة الرسل بعذابي، ما أُغَيِّر حكمي بعقابكم، ولست ظالماً حتى أُعَذِّب بدون ذنب. واذكر - أيُّها الرسول - لقومك يومَ القيامة يومَ نقول لجهنَّم: هل امتلأت؟ فتجيب: هل من زيادة من الجنِّ والإنس؟

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٦) إخبار مستقبلي بعلم الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو خالق الإنسان، حتى إنَّه يعلم سبحانه ما تحدِّث به نفس الإنسان، فهو سبحانه أقرب إليه من العرق الذي في العنق المتصل بالقلب.

٢- قال الدكتور محمد جميل الحبَّال: «حبل الوريد هو جذع الدماغ (Brain Stem). فعبارة (حبل الوريد) لا تعني بالضبط وعاءاً دموياً لأن الحبل وهو ما يكون غير مجوف (غير أنبوبي) ولا يمكن أن يسمى حبلاً إذا أصبح مجوفاً. ولقد ربط الله ﷻ في هذه الآية بين وسوسة النفس وبين قربه من حبل الوريد، والوسوسة تحصل في الدماغ. وإن الحبل الذي عن طريقه ترد المعلومات من وإلى الدماغ (ذهاباً وإياباً) هو تبيان لتوريد المعلومات».

٣- الله تعالى خالق الإنسان، وأعلم بما في نفسه، وأقرب إليه.

٤- مراقبة الله تعالى، فالملكان الموكَّلان يُسَجِّلان كل قول وفعل.

٥- استحضارُ مشاهدِ القيامة، ففيها الرهبة والروعة، وفيها العظة والعبرة.

٦- تنكشف الحقائق وتنجلي بالموت، فيرى الإنسان ما لم يكن يراه.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٥- وقُرِّبَتِ الجنَّة للمُتَّقين مكاناً غير بعيد، يُقال لهم: هذا هو الثواب الذي وُعِدْتُم به على ألسنة الرسل، لكلِّ تواب إلى الله مطيع له، حافظ لعهد الله، مَنْ خشي الله في سرِّه، حيث لا يراه أحد إلا الله ﷻ، ولَقِيَه يوم القيامة بقلب سليم تائب من الذنوب، ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كلِّ شرٍّ. ذلك اليوم العظيم هو يوم الخلود في الجنَّة أبداً، لهم فيها ما يريدون، ولدينا زيادة نعيم، أعظَمُه النظرُ إلى وجه الله الكريم.

٣٦-٣٧- ودَمَّرْنا قبل مشركي مكة أُمماً كثيرة كقوم عاد وثمود، كانوا أشدَّ منهم قوَّةً وتسلُّطاً، فطَوَّفوا في البلاد، وعَمَّروا وخَرَّبوا فيها، فهل من مَنْجَى من عقاب الله؟ إنَّ في ذلك الدمار للأُمم السابقة لَموعظةً لِـمَنْ كان له قلب حيٌّ يعقل ويتدبَّر، أو أصغى السمع وهو حاضرُ القلب.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترغيب في الجنة ونعيمها المقيم، والحضُّ على العمل لها.

٢- سعة فضل الله تعالى، وواسع كرمه بعباده المنعَّمين في الجنان.

٣- فضل الأوبة - أي الرجوع إلى الله تعالى - وحفظ النفس، وحفظ الدين. وصيغة المبالغة ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ تدل على تمكُّن الصفة.

٤- وعيد المشركين وتذكيرهم بحال الهالكين من المكذبين.

٥- قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألْقِ سمعك، واحضر حضور مَنْ يخاطبه به مَنْ تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى:﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجَّه سَمْعَه، وأصغى حاسَّة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب». (الفوائد ١/ ٣).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٨- وقسماً لقد خلقنا السموات السبع والأَرَضين السبع وما بينهما من المخلوقات في ستَّة أيام، وما أصابنا من ذلك الخلق أيُّ تعب.

٣٩-٤٢ - فاصبِرْ - أيُّها الرسول - على ما يقوله الكفَّار من الشرك والتكذيب، وسَبِّحْ بحمد ربِّك، وصَلِّ له صلاة الصبح قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل الغروب - وهذان الفَرْضان كانا قبل الإسراء والمعراج - وصَلِّ من الليل تَهَجُّداً، وسَبِّحْه، وأكثِرْ مِنْ ذِكْرِه سبحانه بعد الصلاة المفروضة. واستمع يوم ينادي الملك بالنفخة للبعث من موضع قريب، يوم تسمع الخلائق هذه الصيحة بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه. في ذلك اليوم العظيم يخرج الناس من قبورهم أحياء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره أن يُسَبِّحَ في أدبار الصلوات كلها، يعني قوله: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾».

(صحيح البخاري-كتاب التفسير- سورة ق، باب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ ٨/ ٤٦٢-٤٦٣ برقم٤٨٥٢).

٤٣-٤٤ - إنَّنا - بما لنا من العظمة الشاملة والقدرة الكاملة - نُحْيِي الموتى، ونُميت الأحياء في الدنيا، وإلينا مرجعهم يوم القيامة للحساب، يوم تَنْشَقُّ الأرض عن الموتى المقبورين بها، فيخرجون مسرعين إلى الداعي. ذلك الإخراج العظيم، وبعثهم وجمعهم سَهْلٌ علينا.

٤٥ - يُهَدِّدُ الله المشركين بسبب افترائهم: نحن أعلم بما يقولون من الكذب على الله، وما أنت - أيُّها الرسول - بجبَّار تُكرههم على الإسلام، فذكِّرْ بهذا القرآن مَنْ يخاف وعيدي.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على ضلال اليهود، وزَعْمهم أنَّ الله لَمَّا خلق السموات والأرض استراح يوم السبت.

٢- الدعوة إلى الصبر والتأني، والتزوُّد بالتسبيح والتحميد في الأوقات الفاضلة، فهي خير زاد على هذه الدعوة.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتسرية فؤاده من اهتمامه بدعوتهم، وحُزْنُه على إعراضهم.

٤- العناية بالمؤمنين المتقين وتذكيرهم، فهم أرض خصبة، وتربة طيبة تُجْدي فيهم النصيحة، وتَنْفَعُ الموعظة.

٥- التنويه بشأن القرآن الكريم وعظيم قدره في مفتتح السورة وخاتمتها، فهو قرآن عظيم الشأن والقدر وإنما يتذكر به ويتَّعظ مَنْ خاف قائله ووعيده سبحانه ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تقرير وقوع البعث.

٢- إقامة البراهين في الآيات الكونية على وحدانية الخالق سبحانه.

٣- الاعتبار من دمار الأُمم المكذبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١-٦- يُقْسِمُ الله تعالى بأربع مخلوقات عظيمة، فبدأ قَسَمه بالرياح التي تَهُبُّ مُحَمَّلَةً بالخيرات، أو الفاجعات بأمر الله تعالى، فالسُّحُبِ الحاملات بالأمطار والبرد، فالسُّفُنِ التي تجوب البحار بسهولة، فالملائكة التي تُقَسِّم أَمْرَ الله في خَلْقِه. إنَّ الذي تُوعَدون به - أيُّها العباد - من الحشرِ والنَّشْرِ لَوَعْدٌ صدق، وإنَّ الجزاء على العمل لَكائن مُحقَّق.

عن عبد الله بن الكَوَّاء الأعور من بني بكر بن وائل قال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة، ولا تَعُدْ لمثل هذا، ولا تسألْني عن مثل هذا، قال: فما ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾؟ قال: ذات الخَلْق الحسن. (المختارة ٢/ ١٢٢-١٢٦ برقم ٤٩٤، وأخرجه الحاكم من طريق أبي الطفيل قال: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قام على المنبر فقال: سَلوني قبل ألَّا تسألوني، ولا تسألوا بعدي مثلي فقام ابن الكَوَّاء... فذكر مختصراً... وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، وأخرجه المقدسي من طريق أبي الطفيل به (المختارة ٢/ ١٧٦ برقم ٥٥٦)، وصححه الحافظ ابن حجر (تغليق التعليق ٤/ ١٤٩).

٧-٩- وقسماً بالسماء ذات الزينة والخلق الحسن، إنَّكم - أيُّها المشركون - لفي قول متناقض في القرآن وفي رسول الله ﷺ، يَصْرِفُ عن الإيمان بالقرآن والرسول ﷺ مَنْ صرفه الشيطان عن الإيمان بهما.

١٠-١٤- لُعِنَ الكَذَّابون على الله الذين هم في أعماق الضلال، غارقون في الغفلة والحيرة، إذ يسألون بسخرية: متى يوم الحساب؟ يوم الحساب يدخلون نارَ جهنَّم، ويُحْرَقُون بها، ويُقال لهم توبيخاً: ذُوقوا عذاب النار الذي كنتم به تستعجلون هازئين في الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر: مخطط جريان الفلك، كما في الملحق.

٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣- القادر على خلق أمور بديعة قادر على تحقيق البعث الموعود.

٤- أثبت العلماء وجود نسيج محكَم في السماء، فأطلقوا عليه مصطلح (النسيج الكوني)، وكتبوا عنه فقالوا: (كيف حُبِكَت الخيوط في النسيج الكوني)، واستخدموا الكلمة Weave باللغة الإنكليزية، وهي تماماً تعني حبك. (http://quran-m.com/container2.php?fun-artview&id-969). ينظر: صورة اتقان النجوم في السماء، كما في الملحق.

٥- الآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ إحدى معجزات القرآن العلمية، التي تشير إلى تَعَدُّدِ مجاميع الكواكب، وإلى الجاذبية.

٦- إن أصل كلمة الفتن هو إذابة الجوهر؛ لِيَظْهَرَ غِشُّه، ثم استعمل في التعذيب والإحراق.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١٥-١٩ - إنَّ الذين يخافون الله بالاستجابة لأحكامه في جنات خضراء وعيون ماء، حائزين ما رزقهم الله من مقام كريم. إنَّهم كانوا قبلُ في الدنيا مُحسنين في أعمالهم وأقوالهم، ومن ذلك أنَّهم كانوا لا ينامون إلا قليلاً من الليل، ويستغفرون الله قبل الفجر، وينفقون من أموالهم حَقَّ المحتاجين الذين يَسْألون والذين يَتَعَفَّفون.

٢٠-٢٢- وفي الأرض مخلوقات هي دلائل واضحة على قدرة خالقها للموقنين بوحدانية الله، وفي أنفسكم آياتٌ وعِبَرٌ من مبدأ خَلْقِكم إلى منتهاه، أفلا تُبصرون قدرةَ الله في خَلْقِكم؟ وفي السماء أسباب رزقكم وما تُوعَدونه من الرزق والجزاء في الدنيا والآخرة.

٢٣- وقسماً برَبِّ السماء والأرض، إنَّ ما تُوعَدون به من الرزق والبعث لَـحَقٌّ واقعٌ، مثل نُطْقِكم الذي لا تشكُّون فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.

٢- الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا فإنَّ الله تعالى سيحسن لهم الثواب.

٣- استحباب قيام الليل، وذَمُّ نومه كله.

٤- أثبتت دراسات الأرض: أنَّ الأرض مبنية من عدة نُطُقٍ محددة حول كرة مصمتة من الحديد والنيكل، تعرف باسم لُبِّ الأرض الصلب (الداخلي)، ولهذا اللب الصلب - كما لكل نطاق من نُطُق الأرض - دوره في جعل هذا الكوكب صالحاً للعمران بالحياة الأرضية في جميع صورها. وأنَّ للأرض مجالاً مغناطيسياً ثنائيَّ القطبية، له صلة وثيقة بلُبِّ الأرض الصلب، وحركة إطاره السائل من حوله، ويتولد المجال المغناطيسي للأرض من حركة المكونات فيها وفيه. (آيات الاعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٧٩-٩٨).

٥- دعوة الله ﷻ عبادَه إلى التأمُّل والتفكُّر في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات العظام، فكلُّها عِبَرٌ وآيات، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته، وعظيم رحمته بهم.

٦- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «من أهم هذه الآيات الباهرات في الأنفس (الإنسان) التي تَوَصَّل إليها العلم مؤخراً، ولايزال يعمل لإكمال الكشف عن حقائقها هي: البصمة الوراثية، أو الخارطة الجينية (Genetic Map) وما يسمى أيضاً الجينوم البشري (Human Genome) التي هي أساس تكوينه، وتُشَكِّل جميع صفاته وخواصِّه ظاهراً وباطناً! وتَمَيُّزه ليس فقط عن جميع المخلوقات، وإنَّما أيضاً عن كل فرد من أفراد البشر، حيث إنَّه لكل واحد منهم خارطته الجينية الخاصة به!».

٧- قال العلماء: يُفْهَمُ رزق السماء في الأطر التالية:

أ- في إطار فهم السماء بنطاق التغيرات الجوية، فإنَّ رزق السماء هو المطر الذي نرتوي به، ونَرْوي زروعنا منه.

ب- في إطار تفسير السماء بالسماء الدنيا، فإنَّ رزق السماء هو كل صور المادة والطاقة المتولِّدة في داخل النجوم، من مثل شمسنا التي تصل إلى الأرض بصور متعددة.

(http://www.islamicmedicine.org/zaghlool/20.htm)

٨- البشرى بضمان الرزق من الرزاق ﷻ، وفي السماء رزق العباد، فلا يُطلب إلا من الله تعالى.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٤-٢٥- هل أتاك - أيُّها الرسول - حديث ضيف إبراهيم من الملائكة الكرام؟ حين دخلوا عليه في بيته فحيَّوه بتحية الإسلام، فرَدَّ عليهم التحيَّة قائلاً: سلام عليكم، أنتم قوم غرباء لا نعرفكم.

٢٦-٣٠- فانسَلَّ إلى أهله خطفاً، فأخذ عجلاً سميناً فشواه، ثمَّ قَدَّمه مُتَلَطِّفاً في دعوتهم إلى الطعام قائلاً: ألا تأكلون؟ فلمَّا امتنعوا عن الأكل أحسَّ في نفسه الخوف منهم، فعرفوا ذلك، وقالوا: لا تَخَفْ منَّا، إنَّا رُسُلُ الله. وبَشَّروه بولد يكون عالماً، فأقبلَتْ زوجة إبراهيم نحوهم تصيح متعجبة حتى لطمت وجهها وقالت: كيف أَلِدُ وأنا عجوز عقيم؟ فأجابت الملائكة: هكذا قال ربُّك كما أخبرنا. إنَّه هو الحكيم في تدبير شؤون عباده، العليم بمصالحهم.

٣١-٣٧- قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: فما شأنُ مُهِمَّتكم أيُّها الملائكة المرسلون؟ فأجابوا: إنَّنا أرسَلَنا الله إلى قوم اقترفوا جرائم كبيرة؛ لِنُدَمِّرَهم بحجارة من طين مُتَحَجِّر، مُعَلَّمةٍ على المسرفين، بجريمة الفاحشة القبيحة، فأخرجنا مَنْ كان في البلدة من المؤمنين بنبي الله لوط عليه السلام، فما وجدنا فيها غير بيت لوط من المسلمين، فدمَّرْناها، وتركنا فيها آثار الدمار؛ موعظةً للذين يخافون العذاب الموجع.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير نبوة محمد ﷺ.

٢- في ذِكْرِ الله تعالى لقصص الأنبياء السابقين تسليةٌ للنبي ﷺ وتذكيره، فهم أسوة حسنة له.

٣- مشروعية البدء في السلام، ووجوبُ الردِّ عليه.

٤- من أدب المضيف أن يبادرَ بالضيافة.

٥- بيانُ أنَّ من إكرام الضيف أن يُقَدَّم له أكثر ممَّا يأكل، وألَّا يُوضَعَ الطعام بموضع ويُدْعى الضيف إليه.

٦- جواز تَشَكُّل الملائكة بصورة رجال من البشر.

٧- الخوف الفطري عند وجود أسبابه لايقدح في العقيدة، ولا يُعَدُّ شركاً.

٨- خَصَّ الله تعالى في قوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ صفة العلم؛ لأنَّها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل، لا الصورة الجميلة والقوة، كما يعتقد بعضهم.

٩- تقرير حقيقة علمية وهي: أنَّ كل مؤمن صادق الإيمان مُسلمٌ، وليس كل مسلم مؤمناً، حتى يُحسن إسلامه وفق أركان الإيمان الستة.

١٠- تشنيع جريمة اللِّواط، وهو سبب من أسباب هلاك الأُمم السابقة.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير:

٣٨-٤٠- وجعلنا في قصَّة موسى عليه السلام موعظة حين أرسَلْناه إلى فرعون بالحُجَجِ الدامغة، والمُعجزات الساطعة، فتكبَّر فرعون مُغتراً بقوته، وأشاع عن موسى بأنَّه ساحر مُحترف أو مجنون مخرِّف، فأخذنا فرعون وجنوده إلى البحر فألقيناهم، وأغرقناهم فيه، وهو مُقترفُ ما يُلام عليه من الكِبْر والكفر.

٤١-٤٢- وموعظة ثالثة في قصَّة عاد وتكذيبهم لنبيِّهم هود عليه السلام، حين أرسلنا عليهم الريح العاتية التي تُدمِّر كلَّ شيء مرَّت عليه، فما تركَتْ شيئاً إلا جعلته هالكاً مُتفتِّتاً.

٤٣-٤٥- وموعظة رابعة في قصَّة قوم ثمود، وتكذيبهم بنبيِّهم صالح عليه السلام، حين أنذرهم بأن يتمتَّعوا بالحياة إلى انتهاء آجالهم، فعَصَوا أمْرَ الله، وعقروا الناقة، فأخذَتْهم صاعقة العذاب المُدمِّرة وهم ينظرون إليها، فما استطاعوا أن يفلتوا من العقاب، وما كانوا مُنتصِرين لأنفسهم.

٤٦- وأهلكنا قوم نوح عليه السلام من قبل هؤلاء فأغرقناهم. إنَّهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تأكيد الله ﷻ عِظَمَ معجزات موسى عليه السلام لبني إسرائيل.

٢ - الدلالة على عِظَمِ شأن القدرة الربانية، ونهاية فرعون وقومه.

٣ - اتهام المبطلين لأهل الحق دَفْعاً للحق، ورَفْضاً له، يكاد يكون سُنَّةً بشرية في كل زمان ومكان.

٤ - قوة الله تعالى فوق كل قوة؛ إذ كلُّ قوة في الأرض هو خالقها.

٥ - وجوبُ أَخْذِ العظة والعبرة من قصص الأقوام السابقة.

٦ - من عوامل الهلاك العتوُّ عن أمر الله، والخروج عن طاعته وطاعة رسله.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٧-٤٩ - يُخبر الله تعالى عن قدرته العظيمة ونِعَمِه الكريمة: والسماء بنيناها بقوَّة وقدرة عظيمة. وإنَّا لَـمُوسِعُون لأرجائها، والأرض جعلناها فِراشاً للخلق، فنِعْمَ الخالقون نحن، وخَلَقْنا من كلِّ جنس من الأجناس صنفَين مُختلفَين؛ لتتذكَّروا قدرة الله وعظمته في خلقه.

٥٠-٥١ - قل لهم أيُّها الرسول: فالجَؤُوا - أيُّها العباد - إلى الله تعالى بالعبادة والصلاة. إنَّني لكم منه نذير بكلِّ بيان ووضوح، ولا تَجْعَلُوا مع الله معبوداً آخر.

٥٢-٥٣ - مثل ما كذَّب كفَّار مكَّة رسولَهم محمَّداً ﷺ كذَّبت الأُمم السابقة، فلم يَأْتِ رسول إلا واتهموه بالسحر أو الجنون، فهل أوصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب؟ لم يُوصِ بعضهم بعضاً، بل حَمَلَهم الطغيان والتكبُّر والإعراض عن اتباع الحقِّ.

٥٤-٥٥- فأعرِضْ عنهم أيُّها الرسول، فلا لومَ عليك ولا عتاب، وواظِبْ على الموعظة بالقرآن، فإنَّ الموعظة ينتفع بها المُصَدِّقون بالله تعالى.

٥٦-٥٨- وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدوني وحدي، ما أريد منهم من رزق، فأنا الغنيُّ، وما أريد أن يُطعموني، فأنا الرزَّاق للخلق أجمعين، ذو القوَّة والقدرة، الشديد.

٥٩-٦٠- يَتَوَعَّدُ اللهُ تعالى الكفَّارَ: فإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العقاب، مثل نصيب أصحابهم الذين سبقوهم بالكفر، فلا يستعجلون العذاب، فإنَّه واقع بهم قطعاً، فويل للذين كَذَّبُوا بالله من يوم القيامة الذي وعدهم بالعذاب فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تذكير الله ﷻ ببعض ما امْتَنَّ به على عباده من النِّعَمِ، ممَّا يستوجب عليهم عبادته وحده.

٢- تقرير التوحيد والبعث بمظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء، ومظاهر العلم والحكمة المتجلية في كل شيء.

٣- ظاهرة الزوجية في الكون في الذَّرَّة انبهر لها العقل، وهي ممَّا سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾. فدلَّ هذا على أن القرآن وحي الله، وأنَّ مَنْ أُوحي إليه هو محمد بن عبد الله ﷺ.

٤- تأكيد قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات ومن أمثلة ذلك:

أ- الزوجية في الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات.

ب- الزوجية في الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية.

ج- الزوجية في النطفة الذكرية التي قد تحمل صبغي التذكير أو صبغي التأنيث.

د- الزوجية في الصبغيات في نواة الخلية الحية.

هـ- الزوجية في حاملات الوراثة (المورثات أو الجينات) على كل صبغي من الصبغيات.

و- الزوجية في بناء الحمض النووي.

ز- الزوجية في الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة، وإلكتروناتها التي تحمل شحنة سالبة.

ح- الزوجية في الجُسَيمات الأولية، أي في الوجود والعدم. (مقالات الدكتور زغلول النجار في الأهرام، ص٦١٥).

٥- ثبت علمياً أنَّ دورات تَكَوُّن القارات، وتبادلها مع المحيطات، ودورات البناء والهدم على سطح القارات تتكون من السهول الخصبة، والتربة الغنية، والصخور الرسوبية المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية من مثل النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والمياه تحت السطحية، وركازات

العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسب أو بواسطتها، ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران!. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٠٣-٣١٨).

٦- أثبتت الأرصاد الفلكية حقيقةَ تَوَسُّعِ الكون، وتباعُدِ مجرَّاته عنا، وتباعُد بعضها عن بعض بمعدَّلات تقترب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بنحو ثلاثمئة ألف كيلٍ في الثانية)، وقد أيَّدت كل من المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ١١١-١٢٠). وينظر: صور توضيحية تمثل تمدُّدَ الكون، وابتعاد المجَرَّات عن بعضها البعض، كما في الملحق.

٧- الحث على الفرار إلى رحمة الله من عذاب الله، وذلك بإخلاص العبادة له وحده دون سواه.

٨- بيان إنكار الله ﷻ اتفاق الكفار على تكذيبهم لرسلهم بوصفهم بالسحر أو الجنون، والتعجيب من حالهم.

٩- الحث على التذكير والموعظة؛ لأنَّه يزيد المؤمن بصيرة وقوة.

١٠- بيان الحكمة من خلق الإنس والجن.

١١- تقديم ذِكْرِ الجن على الإنس في الآيات، وذلك لتَقَدُّمِ خَلْقِهم على خَلْقِ الإنس في الوجود.

١٢- إثبات صفة الرزق والقدرة وشدة القوة لله ﷻ.

١٣- التحذير من استعجال العذاب، والاعتبار بمَنْ سبق من الأقوام السابقة.

١٤- التهديد والوعيد للكفار من عذاب يوم القيامة.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تقرير البعث والحساب.

٢- الردُّ على شبهات المشركين حول التوحيد والرسالة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

١-١٠- يُقْسِمُ الله تعالى بستة أشياء عظيمة: بجبل الطُّور في صحراء سيناء، وبالقرآن المكتوب على جلد رقيق، وبالبيت المعمور بالملائكة التي تطوف حوله في السماء السابعة، وبالسقف المرفوع وهو السماء الدنيا، وبالبحر المسجور الحافل بالمياه. إنَّ عذاب ربِّك - أيُّها الرسول - بالكُفَّار لَواقع، ليس له دافع يدفعه عنهم. في ذلك اليوم الرهيب تتحرَّك السماء باضطراب، وتُنْسَفُ الجبال نَسْفاً.

عن علي رضي الله عنه قال: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ بيت في السماء بحيال البيت يقال له: «الضراح» حُرْمَتُه في السماء كحرمة هذا في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون فيه. (إتحاف الخيرة: كتاب التفسير، سورة الطور، برقم ٢٩٥. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٦٨). وأخرجه الفاكهي في تاريخ مكة بنحوه من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً وصحح إسناده الحافظ ابن حجر (الفتح ٦/ ٣٠٩).

١١-١٤- يَتَوَعَّدُ اللهُ الكفَّارَ، ويُهَدِّدُهم بالويل في ذلك اليوم للمُكَذِّبين بالله ورسله، الذين هم منغمسون في اللهو والباطل، يوم يُساقون إلى نار جهنَّم سَوْقاً بالدَّفْعِ والضَّرْبِ والسَّحْبِ، ويُقال لهم: هذه نار جهنَّم التي كنتم بها تَسْخَرون، ولا تُصَدِّقون بها.

١٥-١٦- ويُوَبَّخُون فيها: أفسِحْرٌ ما تُشاهدونه، أم أنتم عُمْيٌ لا تُبصِرُون؟ ذوقوا حرارة هذه النار الشديدة، فاصبروا على آلامها، أو لا تصبروا عليها، فلن تُخرجوا منها، فالصبر والجزع سواء، إنَّما تَنالون جزاء أعمالكم السيئة في الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١- القسم بجبل الطور دلالة لفضله على الجبال.

٢- لله أن يُقْسِمَ بما شاء من مخلوقاته. أما العبد فلا يجوز أن يُقْسِمَ بغير الله.

٣- تقرير البعث والجزاء.

٤- ثبت علمياً أنَّ كل محيطات الأرض بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي، وأعداداً من بحارها مثل البحر الأحمر، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المُندفِعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تُمزِّق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قِيعان البحار والمحيطات. (آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار الصفحات ١٨٣-١٩٩).

٥- بيان بعض أهوال يوم القيامة للموعظة والترهيب.

٦- تقرير قاعدة: الجزاء من جنس العمل.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

١٧-٢٠- يُبَشِّرُ الله تعالى المُتَّقين الذين يخافون الله، ويُطيعونه بما أعَدَّ لهم من المقام الكريم في جنَّات النعيم، مُتَنَعِّمين بما أعطاهم ربُّهم من الخير العظيم، ونَجَّاهم من عذاب نار الجحيم، ويُقال لهم: كُلُوا واشربوا ما تشتهون من الأكل الطيب والشراب السائغ؛ جزاءَ ما كنتم تعملون بطاعة الله الكريم. مُتَّكِئين على سرر مُتقابلة، وزَوَّجناهم بنساء جميلات حسان واسعات العيون.

٢١-٢٨- والذين آمنوا بالله واتَّبعتهم ذريَّتهم في الإيمان، ألحقنا بهم ذريَّتهم في درجتهم في الجنَّة، وما نقصناهم شيئاً من ثواب عملهم. وكلُّ عبد مرهون بعمله، لا يُؤاخَذ بذنب غيره، وأمددناهم بأنواع الفاكهة واللحوم التي يشتهونها، يتجاذبون في الجنَّة كأس خمر لا تُؤَدِّي بشاربها إلى هذر القول، ولا يلحقهم منها إثم، ويطوف عليهم وِلْدانٌ لخدمتهم كأنَّهم اللؤلؤ المصون في أصدافه في جمالهم. وأقبل أهل الجنَّة يتسامرون يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم في الدنيا، قالوا: إنَّا كُنَّا بين أهلنا خائفين من ربِّنا، فأكْرَمَنا الله بالهداية والمغفرة، وحمانا من عذاب نار جهنَّم وحَرِّها المُحرق المؤثِّر في الجسم. إنَّا كنَّا من قبلُ نعبده وحده، ونتضرَّع إليه. إنَّه هو اللطيف بعباده، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- العناية بأسلُوب الترغيب والترهيب بذكر حال المؤمنين بعد حال الكافرين.

٢- بيان جزاء المتقين وما أعَدَّ لهم من النعيم في الجنة.

٣- بيان فَضْلِ الله على أهل الإيمان والتقوى.

٤- مشروعية الدعاء بكلمة هنيئاً لِـمَنْ أكل أو شرب؛ أسوة بأهل الجنة.

٥- البشارة من الله لعباده المؤمنين بإلحاق ذرياتهم الذين اتَّبعوهم في الجنة.

٦- بيانُ أنَّ خمر الآخرة تختلف عن خمر الدنيا، وإن تشابهت الأسماء.

٧- الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة وليست ثمناً لها؛ لأنَّ الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنَّما العمل الصالح يُزَكِّي النفس، فيُؤَهِّل صاحبه لدخول الجنة.

٨- تقرير قاعدة أنَّ المرء يوم القيامة يكون رهين كَسْبِه، لا يُحَرِّرُه إلا الله ﷻ، فمَنِ استطاع أن يحرر نفسه فليفعَلْ، وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- فواظِبْ - أيُّها الرسول - على تذكير العباد بالقرآن، فما أنت بفضل الله عليك بالرسالة والأمانة بكاهن يرجم بالغيب كذباً، ولا بمجنون، كما يَفْتري المشركون.

٣٠-٣١- يُنكر الله تعالى على المشركين خمس عشرة مرَّة في الآيات التالية الأربع عشرة: أم يقول المشركون هو شاعر ننتظر به نزول الموت؟ قل لهم أيُّها الرسول: انتظروا موتي، فإنِّي منتظر هلاككم.

٣٢-٣٤- أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب؟ أم هم قوم معتدون مُتكَبِّرون؟ أم يقولون: إنَّ محمَّداً اختلق القرآن؟ ليس الأمر كما يزعمون، بل لا يُصَدِّقون بالقرآن، فليأتوا بكلامٍ مثلِ القرآن، إن كانوا صادقين في زعمهم.

٣٥-٣٦- أم خُلِقُوا من غير ربٍّ ولا خالق؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ أم أبدعوا خَلْقَ السموات السبع والأرَضين السبع؟ لا بل هم لا يُصَدِّقون قطعاً.

٣٧- أم يملكون خزائن رزق ربِّك للعباد؟ أم هم الأرباب المتصرِّفون في المخلوقات؟

٣٨- أم لهم مصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي، فيَعْلَمون أنَّهم على حقٍّ؟ فليأتِ مَنْ يزعم ذلك بحُجَّة واضحة على صدق دعواه.

٣٩- أم لله البنات ولكم البنون كما تزعمون؟

٤٠- أم تطلب - أيُّها الرسول - منهم أجراً على تبليغ الرسالة، فهم بسبب ذلك الغُرْم الملزِم لهم مُجْهَدُون؟

٤١- أم عندهم علم الغيب، فهم قد اطَّلَعُوا على ما لم يَطَّلِعْ عليه الرسول ﷺ فكَذَّبُوه، فهم يكتبون ذلك، ويُبَلِّغُونه للناس؟

٤٢ - أم يبتغون مكراً بالنبي ﷺ والمؤمنين؟ فالكفَّار هم الذين يقع عليهم عاقبة مَكْرِهم.

٤٣ - أم لهم إله يعبدونه من دون الله؟ تنزيهاً لله، وتعظيماً له عمَّا يُشركون به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب التذكير والوعظ والإرشاد على أهل العلم بالكتاب والسنة.

٢ - تحريم الكِهانة؛ لأنَّها من أعمال الشياطين.

٣ - إبطال الله تعالى لمزاعم المشركين، ودَحْضُ حُجَجِهم، والردُّ عليها.

٤ - ذَمُّ الطغيان فإنَّه منبع كلِّ شرٍّ، ومصدر كل فتنة وضلال.

٥ - حرمة الكذب مطلقاً، وعلى الله ورسوله بخاصة؛ لما ينشأ عنه من فساد الدين والدنيا.

٦ - التنقل بكلمة ﴿أَمْ﴾ في خمس عشرة آية من المعجزات القرآنية. (روح المعاني ٢٧-٢٨/ ٣٩).

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٤-٤٧ - يُبيِّن الله تعالى عناد المشركين وإصرارهم على الكفر: إنَّهم إذا رأوا قِطَعاً من السماء لعقابهم قالوا: هو سحاب متراكم بعضه فوق بعض. فاترُكْهم - أيُّها الرسول - في ضلالهم حتى يُلاقوا يوم القيامة الذي فيه يصعقون من أهواله. في ذلك اليوم لا ينفعهم مَكْرُهم شيئاً من عذاب الله، ولا أحد يمنع عنهم العذاب، وإنَّ لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم عذاباً يذوقونه في الدنيا قبل عذاب يوم القيامة، وذلك بمصائبَ تلحقهم في الدنيا، ثمَّ عذاب القبر، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون ذلك العذاب.

٤٨-٤٩ - واصبرْ - أيُّها الرسول - على قضاء ربِّك، فإنَّك بمَرْأى منَّا وحِفْظِنا لك، وواظِبْ على التسبيح والتحميد لربِّك حين تقوم إلى الصلاة، وحين تقوم من نومك، ومن الليل فسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّك، وفي صلاة الصبح حين تغيب النجوم عن الرؤية.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان عناد كفار قريش ومكابرتهم في الحق.

٢- تسلية الرسول ﷺ، وهي للدعاة بعده أيضاً.

٣- تقرير سوء عاقبة الظلم في الدنيا قبل الآخرة.

٤ - وجوب الصبر على قضاء الربِّ، وعدم الجزع.

٥- مشروعية التسبيح عند القيام من النوم بنحو: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت، وهو على كل شيء قدير، والحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني، وإليه النشور.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تقرير وقوع الوحي.

٢- تقرير توحيد العبودية والربوبية.

٣- تقرير وقوع البعث.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

١-١١- يُقْسِمُ الله تعالى بالنجم إذا سقط وذهب ضَوْءُه، ما حاد النبيُّ محمَّد ﷺ عن الحقِّ، وما تأثَّر بغَواية، وإنَّما كان إمام الهداية، وما يتكلَّم عن هوى، إنَّما هو وحي يوحى إليه من الله، علَّم محمَّداً ﷺ مَلَكٌ شديد الأسباب، وهو جبريل عليه السلام، ذو قوَّة وخُلُق حسن، فاستوى على صورته الحقيقية، وهو بأُفق الشمس عند مَطْلَعِها، ثم قَرُبَ جبريل من النبيِّ ﷺ لتبليغه بالوحي، فكان في قُرْبِه منه قَدْرَ قوسين - أي ذراعَين تقريباً - أو أقرب من قوسين، فأوحى الله سبحانه إلى محمَّد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل. ما جحد قلب محمَّد ﷺ ما رآه بَصَرُه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير النبوَّة لمحمد ﷺ وإثباتها بما لا مجال للشك والجدال فيه.

٢- إضافة الضمير إلى كفار قريش في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إعلاماً بوقوفهم على تفاصيل حاله الشريفة، وإحاطتهم بمحاسن شؤونه، فهو تبكيت لهم على أبلغ وجه.

٣- تنزيه الرسول ﷺ عن القول بالهوى، أو صدور شيء من أفعاله أو أقواله من اتِّباع الهوى.

٤- شدة اقتراب جبريل عليه السلام من الرسول ﷺ.

٥- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على حقيقته مرتين. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ قال: إنَّه رأى جبريل له ستمئة جناح. (صحيح البخاري ٨/ ٤٧٦ - كتاب التفسير - سورة النجم ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ برقم ٤٨٥٦. وصحيح مسلم - الإيمان - باب في ذكر سدرة المنتهى ١/ ١٥٨ برقم ١٧٤).

٦- الإبهام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ يفيد التعظيم.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾

التفسير:

١٢-١٨- أفتُجادِلُون - أيُّها المشركون - محمَّداً على ما يراه بعينه من آيات الله العظيمة؟ وقسماً لقد رأى محمَّد ﷺ جبريل مرَّة أخرى عند شجرة النبق المشهورة بسدرة المنتهى، وهي في أعالي السماء السابعة، عندها جنَّة المأوى التي وُعِدَ بها المتقون، إذ يغشى شجرة السدرة فَراش من ذهب، وأمور عظيمة لا يُطيق البشر أن يحيطوا بها، فما انصرف بَصَرُ النبيِّ ﷺ ولا تجاوَزَ ما أُمِرَ برؤيته. قسماً لقد شاهد محمَّد ﷺ ليلة المعراج من آيات ربِّه العظيمة من مشاهد الجنَّة والنار وغيرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾. قال: فَراشٌ من ذهب. قال: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لِـمَنْ لم يُشرك بالله من أُمته شيئاً - المُقحِمات -. (صحيح مسلم ١/ ١٥٧ - كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى برقم ١٧٣).

١٩-٢٣- أخبِرونا - يا معشر المشركين - عن الآلهة الثلاثة التي تعبدونها: اللَّات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، هل لها القدرة على جَلْبِ الخير، أو دَفْعِ الشر؟ أتجعلون لكم الذَّكَرَ الذي هو مرغوب فيه عندكم، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي تَظنُّون أنَّها الأدنى؟ تلك القسمة ظالمة. ما هذه الأوثان إلا أسماء لا حقيقية لها، ابتدعتم تسميتها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من حجَّة. ما يتَّبعون في عبادتها إلا مجرَّد الظن،

وما تشتهيه أنفسهم بتزيين الشيطان لهم. وقسماً لقد جاءهم من ربِّهم الحقُّ بالقرآن العظيم بواسطة النبيِّ الكريم ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عن أبي ذر ﷺ، قال: سألتُ رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نور أنَّى أراه؟». (صحيح مسلم ١/ ١٦١ - كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنَّى أراه؟»، برقم ٧٨).

٢ - تقرير رحلة الإسراء والمعراج.

٣- حَذْفُ المرئيِّ في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾؛ لتفخيم الأمر وتعظيمه.

٤ - توبيخ الله لكفار قريش؛ وذلك لترجيح جانبهم الحقير على جناب الله تعالى العزيز الجليل.

٥ - التنديد بالشرك والمشركين، وتسفيه أحلامهم.

٦ - عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله:﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾، «كان اللات رجلاً يَلُتُّ سَوِيقَ الحاج». (صحيح البخاري ٨/ ٤٧٨ - كتاب التفسير - سورة النجم، باب (الآية)، برقم ٤٨٥٩).

٧- عن خالد بن الوليد ﷺ أنَّه أتى العُزَّى لتدميرها، فإذا هي امرأة ناشرةٌ شَعْرَها تحتفن التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رَجَعَ إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى». (التفسير: ٢/ ٣٥٧-٣٥٩ برقم ٥٦٧، وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٢/ ١٩٦برقم٩٠٢). وقال محقق النسائي: إسناده حسن، وقال محقق مسند أبي يعلى: إسناده صحيح).

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٤-٢٦- ليس للإنسان كلُّ ما يشتهيه حتى يطمع بشفاعة الأصنام، فللَّه سبحانه الملك كلُّه، فله أمر الآخرة والدنيا، وكثير من الملائكة الكرام في السموات السبع لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله لِـمَنْ يشاء ولِـمَنْ يرضى الله عنه من المشفوع لهم.

٢٧-٣٠- إنَّ الكفَّار الذين كذَّبوا بالحياة الآخرة لَيُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى بقولهم: هي بنات الله! وما لهم بهذا الافتراء من دليل صحيح، ما يَتَّبِعون إلا الظنون الفاسدة. وإنَّ مثل هذا الظنِّ الباطل لا يقوم مقام الحقِّ، فدَعْ - أيُّها الرسول - هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن القرآن، ولم يريدوا إلا شهوات الحياة الدنيا. ذلك هو الضلال البعيد الذي تَوَصَّلُوا إليه من العلم. إنَّ ربَّك وحده هو أعلم بمَنْ سلك طريق الغَواية، وهو وحده أعلم بمَنْ سلك طريق الهداية.

٣١-٣٢- ولله سبحانه ملك ما في السموات السبع والأرَضين السبع، وعاقبة أمر العباد أن يجزي الله مَنْ ارتكب السيئات بالنار، وأن يجزي مَنْ اكتسب الحسنات بالجنَّة، والمحسنون هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب، وعن الجرائم التي عقوبتها الحدود، إلا الذنوب الصغيرة فإنَّ الله يغفرها. إنَّه سبحانه واسع المغفرة لعباده، هو أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، وحين أنتم أَجِنَّةٌ في بطون أُمَّهاتكم، فلا تُزَكُّوا أنفسكم بالمدح، هو سبحانه أعلم بمَنْ خاف عقابه، وطَمِعَ في ثوابه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الإنسان لا يُعطى بأمانيه، ولكن بعَمَلِه وصِدْقِه فيه.

٢- كل شفاعة تُرْجَى لا تحقق شيئاً إلا بتوافر شرطين، الأول: أن يأذن الله للشافع في الشفاعة، الثاني: أن يكون الله قد رضي للمشفوع له بالشفاعة.

٣- توبيخ الله لعبدة الأوثان بما توهَّموه من شفاعتهم.

٤- أكثر الأمراض مَرَدُّها إلى قلب لا يؤمن بالآخرة.

٥- أكثر الفساد في الأرض هو نتيجة الجهل وغياب العلم اليقيني.

٦- في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الآية (٣١) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٧- النهي عن المبالغة في الحرص على هداية الكفار المعرضين عن عبادة الله.

٨- استدلَّ بالآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١].

٩- تكرير لفظ الجزاء اعتناءً بأمره، والتنبيه على تَبايُنِ جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين.

١٠- النهي عن تزكية النفس.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٣٣-٣٧- أفرأيت - أيُّها الرسول - قُبْحَ حالة مَنْ أُمر بعبادة ربِّه، ثمَّ أعرض عن ذلك، وأعطى قليلاً من ماله ثمَّ امتنع بخلاً وعصياناً؟ أعنده علم الغيب فيكون له الرؤية الصحيحة بأنَّ ما يقوم به هو الحق؟ أم لم يُخبر بالأمور العظيمة التي وردت في التوراة المنزَّلة على موسى عليه السلام، وفي صحف إبراهيم عليه السلام الذي وفَّى أوامر الله تعالى؟

٣٨-٤٤- هذه الصحف الكريمة فيها من الأخبار العظيمة الواردة في الآيات السبع عشرة التالية: ألَّا تُؤْخَذَ نفس بذنب غيرها، وأنَّ الإنسان لا يثاب من الأجر إلا على ما قَدَّمَ لنفسِه من خير، وأنَّ ما قَدَّمَه سوف يُرى في صحيفة أعماله، ثمَّ يُحاسَب على ما عَمِلَ من مثقال ذرَّة خير أو شرّ جزاءً وافياً، وأنَّ إلى ربِّك

مصيرَ الخلائق، وأنَّه سبحانه أضحك مَنْ شاء في الدنيا والآخرة بالفرح والحُبور، وأبكى مَنْ شاء في الدنيا والآخرة بالغمِّ والعذاب، وأنَّه سبحانه هو وحده الذي يميت الأحياء ويحيي الموتى.

٤٥-٤٩- وأنَّه سبحانه خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى، من الإنسان والحيوان، من نطفة دافقة في الرحم، وأنَّه سبحانه يعيد الخَلْقَ حقّاً بعد مماتهم، وأنَّه سبحانه هو أغنى مَنْ شاء مِنْ خَلْقِه، ومَلَّك مَنْ شاء منهم، وأرضاهم بما رزقهم، وأنَّه سبحانه هو ربُّ الشِّعرى - وهو: نجم مضيء -.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقديم ذِكْرِ صحف موسى؛ لكونها أشهر عند كفار قريش.

٢- بيان أنَّه لا يُجازى عامل إلا بعمله، خيراً كان أو شراً.

٣- تقرير عدالة الله تعالى في حكمه وقضائه.

٤- ذِكْرُ الله لبعض آياته الدالة على الألوهية.

٥- مظاهر قدرة الله تعالى في عِلْمِه وحكمته.

٦- ينظر: صورة النطفة، كما في الملحق.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير:

٥٠-٥٤- وأنَّه سبحانه دَمَّرَ عاداً الأولى وهم قوم هود عليه السلام، وأهلك ثمودَ قوم صالح عليه السلام، فلم يَبْقَ منهم أَحَدٌ، وأهلك قوم نوح عليه السلام من قبل هؤلاء، إنَّهم كانوا هم أشدَّ بطشاً وإجراماً من الذين جاؤوا بعدهم، وأهلك مدائن قوم لوط عليه السلام، فجعل عاليها سافلها، فأصابها من صنوف العذاب.

٥٥- فبأيِّ نِعَمِ الله عليك تَشُكُّ وتخاصِمُ؟

٥٦-٥٨- هذا القرآن الذي جاء به محمَّد ﷺ نذيرٌ لكم أن يحلَّ بكم ما أصاب الأُمم المُكذِّبة برسل ربِّها، اقترب قيام الساعة، لا يقدر على كَشْفِها وردِّها إلا اللهُ تعالى.

٥٩-٦٢- يُنْكِرُ الله على المشركين: أفمِنْ هذا القرآن تَعْجَبُون إنكاراً له، وتضحكون منه سخرية، ولا تبكون خوفاً من وعيده، وأنتم لاهون عمَّا فيه من العِبَر؟ فاسجُدوا لله وحدَه، وأخْلِصُوا العبادة له.

الفوائد والاستنباطات:

١- الموعظة من هلاك الأقوام السابقة.

٢- ترهيب الظلمة والطغاة من أهل الكفر والشرك من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الدمار والخسران.

٣- بيان قُرْبِ الساعة، وخَفاء زَمَنِ وقوعها عن كلِّ خَلْقِ الله.

٤- الترغيب في البكاء من خشية الله.

٥- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية لِـمَنْ يتلوها، ولِـمَنْ يستمع لها، وهي من عزائم السجدات في القرآن الكريم. ومن خصائص هذه السجدة أنَّ المشركين سجدوها مع رسول الله ﷺ حول الكعبة، كما في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». (صحيح البخاري ٨/ ٤٨٠ -كتاب التفسير - سورة النجم، باب (الآية) برقم ٤٨٦٢).

وعن عبد الله ﷺ قال: أولُ سورةٍ أُنزلت فيها سجدة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾. قال: فسَجَدَ رسولُ الله ﷺ وسَجَدَ مَنْ خَلْفَه، إلا رجلاً رأيته أخذَ كَفّاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً، وهو أُميةُ بنُ خَلَفٍ. (صحيح البخاري ٨/ ٤٨٠ -كتاب التفسير - سورة النجم - باب (الآية) - برقم ٤٨٦٣. وصحيح مسلم ١/ ٤٠٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير معجزة انشقاق القمر.

٢ - تقرير الوحي والرسالة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٣- اقترب وقت قيام الساعة، وانشقَّ القمر إلى شقَّين؛ معجزةً للنبيِّ ﷺ حين سأله كفَّار مكَّة أن يريهم آية، وإن يَرَ المشركون حجَّة واضحة يُعْرِضُوا عن التصديق، ويزعموا أنَّه سحر دائم، وكَذَّبوا النبيَّ ﷺ واتَّبعوا ما زَيَّن لهم الشيطان من الباطل، وكلُّ أمرٍ من خيرٍ أو شرٍّ مستقر واقع بأهله يوم القيامة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا خَطَبَ احمرَّت عيناه، وعلا صوتُه، واشتد غضبه. حتى كأنَّه مُنْذِرُ جيشٍ، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتَين»، ويَقْرِنُ بين إصبعيه السبابة والوسطى. (صحيح مسلم ٢/ ٥٩٢ - كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم ٨٦٧).

٤-٦- وقسماً لقد جاءهم من الأخبار العظيمة ما فيه كفايةٌ لرَدْعِهم عن غَوايتهم. هذا القرآن حكمة عظيمة بالغة غايتها، فماذا تنفع التحذيرات لِـمَنْ أَصَرَّ على الكفر؟ فأَعْرِضْ - أيُّها الرسول - عنهم، وانتظِرْهم يوم يدعو الـمَلَكُ إلى أمر عظيم، تَوْجَلُ منه القلوب في مشاهد القيامة والحساب.

٧-٨- ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رَفْعَها من شدَّة الهول، يخرجون من قبورهم، كأنَّهم في انتشارهم وسَوْقِهم حشود جراد منتشر في الأُفق، مسرعين للاستجابة للمَلَكِ الذي يدعوهم، ويقول الكفَّار: هذا يوم شديد الهول.

الفوائد والاستنباطات:

١ - عن أنس ﷺ قال: «سأل أهل مكة أن يُريهم آية، فأراهم انشقاق القمر». (صحيح البخاري ٨/ ٤٨٣-٤٨٤ - كتاب التفسير - سورة القمر، باب (الآية)، برقم ٤٨٦٧. وصحيح مسلم، برقم ٢٨٠٢).

٢ - تَوَصَّل العلماء إلى حقيقة علمية وهي: أن القمر كان قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، بدليل وجود تمزُّقات طويلة جداً وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من الكيلو متر، وأعراضها بين نصف الكيلو متر وخمسة كيلو مترات، وتمتد إلى مئات من الكيلو مترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة. ويزيد قطرها على الألف كيلو متر. ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم بحر الشرق (Mare Orientalis)، ومن هنا فقد فُسِّرت على أنَّها من آثار انشقاق القمر، وإعادة التحامه. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٥٣٧-٥٤٨). وينظر: صورة انشقاق القمر في الملحق.

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - انشقاق القمر معجزة له ﷺ.

٥ - إنذار الله تعالى لعباده بدُنُوِّ يوم القيامة، وقرب فَناء الدنيا، وأَمْرُهم بالاستعداد لأهوال يوم القيامة.

٦- التنديد باتباع الهوى، والتحذير منه فإنه مهلك.

٧- ترك دعوة الكفار عند العلم بأنَّ ذلك لن يؤثر فيهم.

٨- بيان حال الكفار يوم القيامة، وما يواجهون من أهوال عظام.

٩- يقول العلماء: إنَّ سِرْبَ الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض تقدر بأكثر من ألف كيلو متر مربع، ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلو متر المربع الواحد، وتعرف باسم الأسراب الطباقية. إنه تشبيه عجيب عندما يتزاحم الناس وهم يُساقُون إلى أرض المحشر، وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة في مقدمة السِّرْب. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٨٢-١٩٦).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾

التفسير:

٩-١٤- كَذَّبَ قبل قومك - أيُّها الرسول - قومُ نوح ﷺ، فكذَّبوا عبدنا نوحاً، واتهموه بالجنون، وانتهروه بغلظة، وهدَّدوه بالقتل. فدعا نوح ربَّه: يا ربِّ إنِّي ضعيف عن مقاومة هؤلاء، فانصرني عليهم. فأجبنا دعاءه، ففتحنا أبواب السماء بهطول المطر بأبلغ ما يكون من الصَّبِّ، وفَجَّرنا الأرض عيوناً متدفقة، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، فتكَوَّن الطوفان الذي قدَّره الله لإهلاكهم، وحملنا نوحاً ومَنْ آمن معه على سفينة ذات ألواح خشب مشدودة بمسامير، تجري بمَرْأَى منَّا وحِفْظِنا، وأغرقنا المكذِّبين عقاباً على كفرهم.

١٥-١٦- وقسماً لقد جَعَلْنا قصَّة الطوفان للموعظة، فهل من مُتَّعِظٍ يتَّعظ بها؟ فكيف كان عذابي وإنذاري لِـمَنْ كَذَّب رسلي ولم يتَّعظ بآياتي؟

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية الرسول ﷺ بسيرة الأنبياء والرسل السابقين.

٢- تحذير قريش من الاستمرار في الكفر والمعاندة.

٣- إضافة نون العظمة في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ تفخيم لنوح ﷺ، ورفع لمحَلِّه، وتشنيع لمكذِّبيه.

٤- دعاء نوح على قومه بعد اليأس من إيمانهم.

٥- ينظر: صورة الماء المنهمر، كما في الملحق.

٦- ينظر: صورة العيون المتفجرة منها الأنهار، كما في الملحق.

٧- تقرير حادثة الطوفان.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧ - وقسماً لقد يَسَّرنا القرآن للتدبُّر والتلاوة والحفظ لِـمَنْ أراد أن يتذكَّر، فهل من مُتَّعظٍ يتَّعظ به؟

١٨-٢١- كذَّبت قبيلة عاد نبيَّها هوداً فأهلكناهم، فكيف كان عقابي وإنذاري لِـمَنْ كفر بي؟ إنَّنا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد في يوم عصيب، مستمرٌّ عليهم بالتعذيب والتنكيل، تخطف الناس من ديارهم، فترمي بهم على رؤوسهم، فتجعلهم كالنخل المنقلع من أصوله، فكيف كان عذابي وإنذاري لهم؟

٢٢ - وقسماً لقد يَسَّرْنا القرآن للتدبُّر والتلاوة والحِفْظ، لِـمَنْ أراد أن يتذكَّر ويعتبر، فهل من مُتَّعِظٍ يتَّعظ به؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - سَهَّلَ الله تعالى فَهْمَ القرآن والاتعاظ به، لكثرة ما ضُرِبَ فيه من الأمثال البليغة.

٢ - فضل الله على هذه الأُمة بتسهيل القرآن؛ للحِفْظِ والتذكُّر.

٣ - كل قصة من قصص الأقوام الهالكة فيها عظة وعبرة.

٤ - بيان أنَّ قوة الإنسان مهما كانت أمام قوة الله تعالى هي لا شيء، ولا تَرُدُّ عذاب الله بحال.

٥ - استمرَّ عذاب قوم عاد عدةَ أيام حتى أهلكهم.

٦ - التهويل والتعجب من فَرْطِ عُتُوِّ قوم عاد.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾

التفسير:

٢٣-٢٧- كَذَّبت قبيلة ثمود نبيَّها صالحاً بالآيات التي أنذرهم، فأنكروا عليه: كيف نتبع واحداً مثلنا في البشرية؟ إنَّنا إذاً لفي ضلال عن الحقِّ وجنون، هل أُنزل عليه الوحي واصْطُفِي بالرسالة من بيننا؟ بل هو كثير الكذب والتكبُّر. فرَدَّ الله عليهم مُهَدِّداً ومُوَبِّخاً لهم: سيعلمون في الآخرة مَنْ هو الكذَّاب المتكبِّر؟ إنَّنا مخرجو الناقة التي طلبوها من الصخرة ابتلاءً لهم، فانتظر - يا صالح - عاقبة كُفْرِهم، والزَمِ الصبر على أذاهم.

٢٨-٣١- وأخبِرْهم خبراً عظيماً أنَّ الماء مقسوم بين قومك والناقة: للناقة يوم تحضر للشرب، ولهم يوم يحضرون للشرب. فبَطِرُوا ونادوا أحدهم من أشقى القوم، فحَثُّوه على عَقْرِها، وغامَرَ بقَتْل الناقة، فكيف كان عذابي لهم على كفرهم، ونُذُري على تكذيبِ رسولهم؟ إنَّنا أرسلنا عليهم العذاب بصيحة واحدة، فكانوا كالتِّبْنِ اليابس المفتَّت.

٣٢- وقسماً لقد يَسَّرْنا القرآن للتدبُّر والتلاوة والحفظ، لِـمَنْ أراد أن يتذكَّر، فهل من مُتَّعظٍ يتَّعظ به؟

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان سُنَّة الله في إهلاك المكذبين.

٢- تكذيب أحد الرسل هو تكذيب لهم جميعاً؛ لاتفاقهم على أصول الشرائع.

٣- التعبير بلفظ (ألقي) دون (أنزل) لأنَّه يتضمن العجلة في الفعل.

٤- الذي عَقَرَ الناقة هو قدار بن سالف، وكان أجرأ قومه.

٥- دعوة الله إلى حفظ القرآن والتذكير به؛ فإنَّه مصدر الإلهام والكمال.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٩- كَذَّبَتْ قبيلة لوط بإنذار نبيهم لوط عليه السلام فاستحَقُّوا العذاب، إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً ترميهم بحجارة إلا أهل لوط - من دون امرأته - نجَّيناهم في آخر الليل، نعمة من عندنا عليهم. ومثل ذلك الجزاء نجزي من شكر بالقول والعمل. وقسماً لقد أنذرهم لوط عليه السلام انتقامنا منهم فشَكُّوا في ذلك. وقسماً لقد طلبوا منه بكلِّ وقاحة أن يفعلوا الفاحشة القبيحة بضيوفه من الملائكة فأعميناهم، فذوقوا عقابي وإنذاري الذي حَذَّركم منه رسولي لوط عليه السلام. وقسماً لقد جاءهم وقت الصباح عذاب مستأصل للكفرة متصل بعذاب الآخرة، فذوقوا عذابي الشديد وإنذاري السديد.

٤٠ - وقسماً لقد يَسَّرْنا القُرْآن للتدبُّر والتلاوة والحفظ لِـمَنْ أراد أن يتذكَّر ويعتبر، فهل من مُتَّعِظٍ يتَّعظ به؟

٤١-٤٢ - وقسماً لقد جاء قوم فرعون الإنذار بواسطة موسى عليه السلام، فجحدوا بآياتنا الباهرة، وحُجَجِنا الظاهرة، فدمَّرناهم بالغرق تدمير عزيز لا يغالَبُ، مقتدرٍ على ما يشاء.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته.

٢- بيان جزاء الشاكرين لله تعالى بالإيمان به، وطاعته وطاعة رسله.

٣- فائدة التكرير في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً.

٤- تيسير القرآن وتسهيله للحفظ والاعتبار.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٣-٤٥- يُنْكِرُ الله تعالى على كفَّار مكَّة ويُقَرِّعهم: هل كُفَّاركم خير وأشدُّ من الأُمم السابقين الهالكين البعيدين عن رحمة الله؟ أم لكم براءة من عذاب الله مسطَّرة في الكتب المنزَّلة بالسلامة من العقاب؟ أم يقولون بغرور: نحن جماعة واثقون بكثرتنا وقوَّتنا، منتصرون على محمَّد؟ سيُهزم هذا الجمع ويُوَلُّون الأدبار، كما حصل يوم بدر.

٤٦-٥٠- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر. فنزلت:﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾. (صحيح مسلم ٤/ ٢٠٤٦ - كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، برقم ٢٦٥٦).

التفسير:

بل يوم قيام الساعة موعدهم بالعذاب. وعذاب السَّاعة بنيران جهنَّم أشدُّ ألماً وحرارة من عذاب الدنيا. إنَّ الكفَّار بالله في بُعْدٍ شديد عن الحقِّ، ونارٍ مُسَعَّرة بهم، يوم تَسْحَبُهم ملائكة العذاب بشدَّة على وجوههم، ويُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذُوقوا شدَّة عذاب نار جهنَّم. إنَّنا كلَّ شيء من المخلوقات خَلَقْناه بقضاء سبق عِلْمُنا به، وجرى به القلم. وما أَمْرُنا للشيء إذا أردناه إلا أن نقول كلمة واحدة وهي: ﴿كن﴾ فيكون كسرعة لمح البصر.

٥١-٥٣- وقسماً لقد دَمَّرْنا أمثالكم في الكفر من الأُمم السابقة، فهل من مُتَّعِظٍ يتَّعظ بهم؟ وكلُّ شيء من خيرٍ أو شرٍّ، وصغير وكبير، من أعمالهم مكتوب في صحفهم.

٥٤-٥٥- إنَّ المتقين لله بطاعته في جنَّات ذات أنهار عذبة يوم القيامة، في مقام كريم عند مليك عظيم، مقتدر على كلِّ شيء سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ من دلائل النبوة لأنَّها آية مكية، وقد نزلت ولم يُفْرَضِ الجهادُ بعدُ، ففيها إخبار عن الغيب، وهذا من معجزات القرآن.

٢- عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أُنزِلَ على محمد ﷺ بمكة، وإني لَجَارِيَةٌ ألعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٤٨٦ - كتاب التفسير - سورة القمر (الآية) برقم ٤٨٧٦).

٣- تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٤ - كتب الله كلَّ قَدَرٍ قَدَّره في مخلوقاته، في اللوح المحفوظ قبل وقوعه.

٥ - أعمال العباد مدونة في كتب الكرام الكاتبين لا يُترك منها شيء.

٦ - بيان حُسْنِ حالِ المؤمنين بعد بيان سوء حال الكفرة؛ ليتكافأ الترهيب والترغيب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين الكونية للإنس والجن على توحيد الربوبية لله تعالى.

٢- تقرير البعث والحساب.

٣- تعظيم الله تعالى على نعمه الكثيرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) ﴾

التفسير:

١ -٢- الله الرحمن بالإنس والجانِّ، عَلَّمَهم القرآن بتيسير التلاوة والبيان.

٣-٤- خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعَلَّمَه أنواع البيان؛ لما في نفسه من المقاصد والرغبات.

٥- والشمس والقمر يجريان في محاورهما ومنازلهما بحساب منتظم.

٦- والنجوم في السماء والأشجار في الأرض كلُّها تسجد لله، وتخضع لما سخَّرها له من مصالح العباد.

٧-٩- والسماء رفعها فوق الأرض سقفاً لها، ووضع العدل بين العباد في الأقوال والأفعال؛ لئلَّا تظلموا وتبخسوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالعدل، ولا تُنْقِصُوا الميزان إذا وزنتم.

١٠-١٢- والأرض بَسَطَها ومَهَّدَها؛ ليستقرَّ عليها الخَلْقُ، فيها أنواع الفاكهة، والنخل ذات أوعية الثمر، وفيها الحبوب ذوات القِشْرِ، وفيها كلُّ نبتٍ طيبِ الرائحة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لما كانت السورة تعداداً للنعم الدنيوية والأُخروية صَدَّرها سبحانه بالرحمن.

٢- الرحمن مِثْلُ اسم الله، لا يصح أن يُطْلَقَ على غير الربِّ تبارك وتعالى، فيقال: فلان عزيز أو رحيم أو عليم أو حكيم، ولكن لا يقال: فلانٌ رحمان، كما لا يقال: إله أو الله.

٣- إنَّ الله بدأ بتعليم القرآن؛ لأنَّه أعظم النعم شأناً، وأرفعها مكاناً، فهو مدار السعادة الدينية والدنيوية.

٤- ميَّز الله تعالى الإنسان عن الحيوان، بالبيان وهو التعبير عمَّا في الضمير وإفهام الآخرين.

٥- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

٦- وجوب العدل في الوزن، وتحريم البخس فيه.

٧- ينظر: صورة وصف الميزان، كما في الملحق.

٨- وجوب شُكْرِ الله على آلائه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

١٣- فبأيِّ نعم خالقكما تجحدان أيُّها الإنس والجن؟ وينبغي للمسلم أن يُقِرَّ بالنِّعم، ويشكر الله عليها.

١٤-١٦- خلق الله تعالى أبا البشر آدم من طين يابس كالفَخَّار، وخَلَقَ الجِنَّ من لهب النار ذات الألوان بعضها فوق بعض، فبأيِّ نِعَمِ خالِقِكما يا معشر الإنس والجنِّ تجحدان؟

١٧-١٨- هو سبحانه رَبُّ مَشْرِقَي الشمس ومَغْرِبَيْها في الشتاء والصيف، فبأيِّ نعم ربِّكما يا معشر الإنس والجنِّ تجحدان؟

١٩-٢٣- ومن نِعَمِه سبحانه أنَّه جعل ماء البحرَين المتجاورين المالح والعذب يلتقيان، فيصبُّ الماء العذب في الماء المالح، وجعل بينهما حاجزاً ليبقى الماء العذب عذباً والمالح مالحاً، فبأيِّ نعم ربِّكما يا معشر الإنس والجنِّ تجحدان؟ يخرج من ماء البحرين اللؤلؤ بأنواعه والمرجان بأحجامه، فبأيِّ نعم ربِّكما يا معشر الإنس والجنِّ تجحدان؟

٢٤-٢٥- وله سبحانه السفن الجارية لمنافع الناس في البحر بأشرعتها كالجبال، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما يا معشر الإنس والجنِّ تجحدان؟

الفوائد والاستنباطات:

١- عن جابر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلةَ الجن، فكانوا أحسن منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِك ربَّنا نُكَذِّب، فلك الحمد».

(أخرجه الترمذي، السنن- التفسير- باب ومن سورة الرحمن برقم ٢٢٩١، حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم٢٦٢٤، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك٢/ ٤٧٣).

٢- نتيجةً لدوران الأرض حول محورها انبعجت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين، ونتيجة لذلك أصبح لكلٍ من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكلٍ من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كلٌ منهما مرة أقصى الشروق، ومرة أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات٤٨٧-٥٠٢).

٣- ينظر: صورة البرزخ بين البحرين، كما في الملحق.

٤- الإشارة إلى كسب اللؤلؤ والمرجان .

٥- ينظر: صورة نموذج من اللؤلؤ، كما في الملحق.

٦- ينظر: صورة نموذج من المرجان، كما في الملحق.

٧- وجوب شُكْرِ الرحمن على إنعامه على الإنس والجان.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٨- كلُّ مَنْ على وجه الأرض من الخلق هالك، ويبقى وجه ربِّك ذو العظمة والكبرياء والمجد، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما المالك أيُّها الإنس والجن تجحدان؟

٢٩-٣٠- يسأله سبحانه جميع مَنْ في السموات السبع والأرض كلَّ ما يحتاجون، كلَّ يومٍ هو في شأن، يُغني ويُفقر، يُحيي ويُميت، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان يا معشر الإنس والجنِّ؟

٣١-٣٢- سنفرغ لحسابكم على ما قَدَّمْتُمْ في الدنيا أيُّها الإنس والجن، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟

٣٣-٣٦- يا معشر الجنِّ والإنس إن استطعتم أن تخرجوا من فلك السموات والأرض هروباً من حُكْمِ الله في الدنيا وحسابه في الآخرة فاخرجوا، لن تَقْدِرُوا على ذلك إلا بقوَّة وحجَّة لا تملكونها، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجنُّ؟ وإذا حاولتم الخروج يُرْسَلُ عليكم لهبٌ من نار ونحاس منصهر يُصَبُّ عليكم لا تَقْدِرُون على النفوذ منه، ولا أحدَ يقدر على دَفْعِ ذلك، فبأيِّ نِعَمِ الله تجحدان أيها الثقلان؟

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢- الحَثُّ على العبادة، وصَرْفُ الزمان اليسير إلى الطاعة.

٣- المنع من الوثوق بما يكون للمرء، فلا يقول إذا كان في نعمة: إنها لن تذهب، فيترك الرجوع إلى الله، معتمداً على مالِه ومُلْكِه.

٤- في الآية (٢٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ كلَّ مَنْ على وجه الأرض من الخلق هالك.

٥- التهديد والوعيد من الله للجن والإنس بمحاسبتهما ومجازاتهما.

٦- في الآية (٢٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ يسأله مَنْ في السموات والأرض حاجاتهم، فلا غنى لأَحَدٍ - في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - عنه سبحانه، فهو كلَّ يوم في الماضي والحاضر والمستقبل في شأن: يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويعطي ويمنع.

٧- وجوب حمد الله تعالى وشكره على السراء والضراء.

٨- تؤكد المعارف الحديثة عَجْزَ كل من الجن والإنس عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسموات على حدة؛ لأنَّ الأرض ليست تامة الاستدارة؛ لانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القُطْبَيْن، ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية؛ لأنَّه من الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها. (آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٣٧-٣٥٠).

٩- من الثابت علمياً أن عنصر النحاس يَتَخَلَّق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللَّبِنات الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذَرَّات العناصر الثقيلة ومنها النحاس، والنحاس منصهر، وتَغْلي قطراته في صفحة السماء، ويُعَدُّ عقاباً رادعاً لكل محاولة من الإنس أو من الجن لاختراق أقطار السموات والأرض. (آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص٣٣٧-٣٥٠).

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٧-٤٠- فإذا تَصَدَّعت السماء يوم القيامة، فكانت حمراء مثل لون الورد، وكالمعدن الُمذاب، فبأيِّ نِعَم ربِّكما تجحدان أيُّها الثقلان؟ ففي ذلك اليوم العصيب تُبعث الخلائق، فلا يُسأل أحد من الإنس والجنِّ عن ذنبه، كأن يُقالَ: أنت مذنب؛ لأنَّ العلامات في الوجوه واضحة، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجن؟

٤١-٤٥- تعرف ملائكة العذاب المكذِّبين لله بعلاماتهم، فتخطفهم من مقدِّمة رؤوسهم وأقدامهم، فتقذفهم في نار جهنَّم، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ ويقال لهم تقريعاً: هذه نار جهنَّم التي

يُكذِّب بها المجرمون في الدنيا. يَتَرَدَّدُون بين نار جهنَّم الموقدة، وبين ماء حارٍّ شديد الحرارة، فبأيِّ نِعَمِ ربكما تجحدان أيُّها الجانُّ والإنسان؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان الانقلاب الكوني، وخراب العالم للقيامة.

٢ - يبعث الناس من قبورهم ولهم علامات تميزهم، فيُعْرَفُ السعيد والشقيُّ.

٣- لا يُسأل الإنسان عن ذنبه عند الخروج من القبور والحشر إلى الموقف؛ لأنَّه معروف بسيماه.

٤ - الإذلال والإهانة لأهل الكفر والإجرام.

٥ - ينظر: صورة موقع الناصية من الرأس، كما في الملحق.

٦ - التنديد بالإجرام وهو الشرك والظلم والمعاصي.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

التفسير:

٤٦ -٥٣- ولِـمَنْ خاف مقام ربِّه من العباد، فامتثلَ أَمْره وترك المعاصي، جنتان عظيمتان، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الثقلان؟ هاتان الجنتان ذواتا أغصان كريمة من الثمار الطيبة، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الثقلان؟ فيهما عينان عَذْبتان من المياه الجارية، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانّ؟ فيهما من كلِّ أنواع الفاكهة صنفان، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تكفران أيُّها الثقلان؟

عن عبدالله بن قيس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «جَنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن».

(صحيح البخاري ٨/ ٤٩١ - كتاب التفسير، باب ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ برقم ٤٨٧٨، وصحيح مسلم - كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، برقم ١٨٠).

٥٤-٥٩- مُتَّكِئين على فُرُشٍ مُبَطَّنة بديباج سميك، وثمر الجنتين قريب التناول، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيها الثقلان؟ في هذه الجنَّات زوجات قاصرات أبصارهنَّ على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم، أبكار لم يَقْرَبْهُنَّ إنس قبلهم ولا جانّ، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ كأنَّ هؤلاء الزوجات الحور الياقوت والمرجان في جمالهنَّ، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟

٦٠-٦١- هل جزاء مَنْ أحسن بالقول والعمل في الدنيا إلا الإحسان إليه بالجنَّة في الآخرة؟ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل الخوف من الله تعالى.

٢- تَعْدادُ الله سبحانه لبعض آلائه ونِعَمِه لعباده المؤمنين في الآخرة؛ من أجل شكره سبحانه.

٣- حُبُّ نساء أهل الجنة لأزواجهنَّ بحيث لا ينظرنَ إلا إليهم.

٤- الإشارة إلى أفضل النساء في الدنيا تلك التي تَقْصُرُ نَظَرَها على زوجها، فتحبه ولا تحب غيره من الرجال.

٥- بيان أنَّ الجنَّ المتقين يدخلون الجنة ولهم أزواج، كما للإنس، سواءً بسواء.

٦- الإشادة بالإحسان، وبيان جزائه.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير:

٦٢-٦٧- ومن دون الجنتين السابقتين جنتان أقلُّ منهما منزلةً، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ هاتان الجنَّتان قاتمة الخضرة، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ فيهما عينان فوَّارتان بالماء العذب لا تنقطعان، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟

٦٨-٧٨- فيهما أصناف الفاكهة وأشجار النخيل وأشجار الرمَّان، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ في هذه الجنان الأربع زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ هؤلاء الزوجات من الحُور مَصُوناتٌ في الخيام العظيمة، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ هنَّ أبكار لم يقربهنَّ إنس قبلهم ولا جانّ، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ مُتكئين على وسائدَ خُضرٍ وفُرُش مزخرفة، فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تجحدان أيُّها الإنس والجانُّ؟ تعاظَمَتْ وتكاثرت خيرات اسم ربِّك صاحب العظمة والكبرياء والإكرام لعباده.

عن عبد الله بن قيس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة خيمةً من لؤلؤة مجوَّفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يَرَون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون». (صحيح البخاري ٨/ ٤٩١ - كتاب التفسير - سورة الرحمن، الآية برقم ٤٨٧٩، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٨٢، برقم ٢٨٣٨).

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أن نعيم الآخرة أعظم وأجَلُّ من نِعَمِ الدنيا.

٢- إفراد الله النخل والرمان لفَضْلِهما.

٣- فضل المرأة المقصورة في بيتها.

٤- بيان أنَّ الجن الصالحين يدخلون الجنة، ويسعدون فيها.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان أحوال العباد يوم القيامة.

٢ - إقامة الدلائل والبراهين على توحيد الربوبية لله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

١-٣- يُذَكِّر الله تعالى بأهوال ومشاهد من القيامة إذا قامت، فكلُّ الخلق يراها رأي العين، لا يتجرأ أحد أن يُكَذِّب بوقوعها، وهي خافضة لأهل الكفر والطغيان في الدَّرَكات السفلى من النيران، رافعة لأهل الإيمان في الدرجات العليا من الجنان.

٤-٦- إذا زُلزلت الأرض، وارتَجَّتْ ارتجاجاً شديداً، وفُتِّتَتِ الجبال تفتيتاً، فكانت بسبب ذلك غباراً منتشراً.

٧-١٦- وكنتم - أيُّها العباد - أصنافاً ثلاثة: فأصحاب اليمين في الدرجات الرفيعة، ما أكرم مقامَهم! وأصحاب الشمال في الدركات السفلى، ما أتعسَ حالَهم! والسابقون إلى الحسنات والخيرات في الدنيا هم السابقون إلى النعيم المقيم في الآخرة. أولئك أصحاب المنازل العالية هم المقرَّبون عند الله، في مقام كريم وجنَّات النعيم، يدخلها جماعة كثيرة من الأُمم السابقة، وقليل من الآخرين، وهم من أتباع محمَّد ﷺ من السابقين والآخرين، يجلسون على سُرُرٍ منسوجة بالذهب، متكئين عليها يقابل بعضُهم وَجْهَ بعض؛ لمزيد من الأُنس والنعيم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير البعث والجزاء في الآخرة.

٢- عَبَّرَ الله تعالى عن يوم القيامة بالواقعة؛ للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة.

٣- وصف القيامة بأنَّها خافضة لأقوام، رافعة لآخرين؛ تقريراً لعظمتها، وتهويلاً لأمرها.

٤- الإيمان والتقوى يرفعان، والشرك والمعاصي يضعان ويخفضان.

٥- بيانُ أنَّ الناس على ثلاثة أصناف يوم القيامة.

٦- السابقون إلى الطاعات لهم فضل السبق في كلِّ زمان ومكان.

٧- تأخير ذكر السابقين مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم في الفضل؛ ليردف ذِكْرهم بيان محاسن أحوالهم.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٧-٢٣- يطوف عليهم غلمان على الدَّوام؛ لخدمتهم بأقداح وأباريق وكأس من خمر لذيذة جارية، لا تتصدَّع رؤوسهم من شُرْبها ولا يسكرون، ويُقَدِّمون لهم الفاكهة المفضَّلة، ولحم الطير الذي يشتهونه، ولهم زوجات ذوات عيون واسعة حسنة، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه في جماله.

٢٤-٢٦- استحَقُّوا هذه النعم العظيمة جزاءً لهم؛ بسبب ما قَدَّمُوا من خير في الحياة الدنيا، لا يسمعون في الجنَّة الكلام الباطل، ولا يلحقهم إثم ممَّا يسمعون، إذ لا يسمعون إلا القول الطيِّب والسلام فيما بينهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير البعث والجزاء، بذكر أحوال الدار الآخرة.

٢- بيانُ أن السابقين يكونون من سائر الأُمم المسلمة.

٣- بيان فَضْلِ خَمْرِ الجنة على خمر الدنيا المحرمة.

٤- تشبيه الله تعالى الحور العين بالجنة باللؤلؤ المكنون؛ لأنَّه الأصفى والأبعد عن التغير.

٥- إفشاء السلام من صفات أهل الجنة.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٤٠- ثمَّ ذكر الله سبحانه أصحاب اليمين، ومقامهم الكريم، وجزاءهم العظيم: فهم تحت أشجار السدر - النبق - لا شوك فيه، مثقل بالثمار، وموز متراكب بعضه فوق بعض، وظلٌّ واسع دائم، ومياه عذبة جارية، وأصناف الفاكهة الكثيرة الدائمة الدانية لا تمنع عنهم، وفرش عالية وثيرة. إنَّا خَلَقْنا نساء أهل الجنَّة خِلْقَةً متميزة عن خلقة الدنيا في طهارتهنَّ، وجمالهنَّ وجعلناهنَّ أبكاراً لم يَمَسَّهنَّ أحد، مُتَحَبِّبات لأزواجهنَّ، في عُمْرِ الشابَّات الكاملات، أنشأناهنَّ؛ ليستمتعَ بهنَّ أصحاب اليمين، وهم جماعة كثيرة من السابقين، وجماعة كثيرة من هذه الأُمَّة.

عن أبي هريرة ﷺ يَبلُغ به النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عامٍ لا يقطعها. واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾». (صحيح البخاري ٨/ ٤٩٥ - كتاب التفسير - سورة الواقعة، الآية، برقم٤٨٨١. وصحيح مسلم ٤/ ٢١٧٥ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها...).

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان إكرام الله وإنعامه على المؤمنين المتقين.

٢- تفصيل شؤون أصحاب اليمين، وما أعدَّ الله لهم في الجنة.

٣- استخدام أسلوب التعجب؛ لتعظيم ماهم من السعادة وعلو الشأن.

٤- العجوز في الدنيا إذا دخلت الجنة تصير شابة حسناء حوراء عروباً.

٥- من صفات الحور أنَّهنَّ أبكار، متحببات لأزواجهنَّ، متساويات في السن.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤١-٤٨- وأصحاب الشمال ما أتعس حالهم! في ريح حارَّة من النار، وماء شديد الحرارة، وفي ظلٍّ خانق من دخان شديد السواد، لا باردٍ مريح، ولا حسنِ المنظر. إنَّهم كانوا في الدنيا مترفين بالشهوات والمُحرَّمات، وكانوا يُصِرُّون على شِرْكِهم بالله، وكانوا ينكرون البعث ويقولون: هل نُبْعَثُ نحن وآباؤنا وأجدادنا الأوائل، وقد صِرْنا تراباً وعظاماً مُتفتِّتة؟

٤٩-٥٠- قل لهم أيُّها الرسول: إنَّ الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيُحشرون ليوم الحساب الذي حدَّده الله تعالى بوقت معلوم.

٥١-٥٦- وبعد البعث إنَّكم - أيُّها الضَّالون عن الهدى، المكذِّبون بالبعث - لآكلون حقّاً من شجرة الزقُّوم الخبيثة ذات الطعم الذي لا يُطاق، فمالئون منها بُطونكم، ثمَّ تشربون على ذلك الطعام ماءً شديد الغليان، فشاربون منه بكثرة، كشرب الإبل العطاش. هذا العذابُ هو ما أُعِدَّ لهم من سوء الطعام يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

١- أصحاب الشمال يدخل فيهم كل كافر وجد على وجه الأرض.

٢- تفصيل أحوال أصحاب الشمال، وبيان هَوْلِها وفَظاعَتِها.

٣- توضيح الأسباب التي استحق بها أصحاب الشمال ذلك العذاب والجحيم.

٤- التنديد بالترف في هذه الحياة الدنيا؛ فإنَّه يقود إلى ترك التكاليف الشرعية، فيهلك صاحبه.

٥- ذَمُّ الترف، وبيان عاقبته الوخيمة.

٦- تقرير عقيدة البعث والجزاء بما لا مزيد عليه من العرض والوصف.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٧-٦١- نحن - بما لنا من العظمة والقدرة - خَلَقْناكم أيُّها الناس، فهلَّا تُصَدِّقون بالبعث، أخبروني عمَّا تقذفونه من المنيِّ في أرحام النساء: أأنتم تخلقون هذا المنيَّ بشراً سوياً، أم نحن بقدرتنا خلقناه؟ نحن قضينا عليكم بالموت، وما نحن بعاجزين على أن نُدَمِّرَكم، ونستبدل قوماً غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خِلْقة لا تعلمونها.

٦٢- وقسماً لقد عرفتم أنَّ الله أنشأكم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئاً، فهلَّا تَتَذَكَّرون قدرة الله على إنشائكم مرَّة أخرى.

٦٣-٦٧- أخبروني عن البذر الذي تبذرونه في الأرض، أأنتم تُنبتون سنابله في الأرض أم نحن القادرون على ذلك؟ لونشاء لجعلنا هذا الزرع هشيماً مُتكسِّراً لا ينتفع به في طعام، فأصبحتم تتفجَّعون على ما أصاب الزرع، وتَلُومون أنفسكم بقولكم: إنَّا لخاسرون مُعَذَّبون، بل نحن محرومون الرزق.

٦٨-٧٠- أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً، أأنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ لو نشاء لجعلناه مالحاً جدّاً، فهلَّا تشكرون ربَّكم بالقول والفعل على نِعَمِه الجليلة عليكم.

٧١-٧٣- أخبروني عن النار التي تُوقَدُونها من الشجر، أأنتم الذين خَلَقْتُمْ شجرها أم نحن الخالقون لها؟ نحن جعلنا نار الدنيا تذكيراً لكم بنار جهنَّم، وجَعَلْناها منفعة للمسافرين.

٧٤- فسَبِّحْ - أيُّها الرسول - بذِكْرِ اسم ربِّك العظيم وبحمده على فضله الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أن الآجال بيد الله تعالى وحده.

٢- إقامة الأدلة والبراهين على صحة البعث وإمكانه عقلاً.

٣- بيان أنَّ القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة.

٤- امتنان الله بإنبات الزرع لعباده، ولو شاء لأهلكه.

٥- خَصَّ الله تعالى الماء بالشرب مع تَعَدُّدِ منافعه؛ وذلك لأنَّ الشرب أعَمُّ المقاصد المنوطة به.

٦- وجوب شكر الله تعالى على إفضاله وإنعامه.

٧- ذَكَرَ الله حِكْمَتَه مِنْ خَلْقِ النار، فهي تُذَكِّر بنار جهنم.

٨- وجوب تسبيح الله وتنزيهه عَمَّا لا يليق بجلاله وكماله، من العبث والشريك.

٩- عن عقبة بن عامر ﷺ، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجعلوها في سجودكم».

(أخرجه أبو داود، السنن ١/ ٢٣٠ برقم ٨٦٩ - كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٥/ ٢٢٥ برقم ١٨٩٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٧٧).

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

٧٥-٧٦- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطِرَ الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صَدَقَ نَوْءُ كذا وكذا»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء، ١/ ٨٤، برقم٧٣).

التفسير:

قَسَماً مؤكَّداً بمنازل النجوم ومطالعها، وإنَّ هذا القسم - لو تعلمون - عظيم القدر في مدلوله.

٧٧-٨٠- والمقسم عليه: إنَّ هذا القرآن حقٌّ لا شكَّ فيه، وإنَّه عظيم القدر والمنافع في الدارَين، في كتاب محفوظ من الباطل والتغيير، مصون في اللوح المحفوظ، لا يَمَسُّ القرآنَ إلا المتطهِّرون من الملائكة، ومن الذين هم على طهارة في القلب بالإيمان، وطهارة في البدن بالوضوء أو الغسل، وهذا القرآنُ مُنَزَّل من الله ربِّ العالمين على نبيه الأمين ﷺ.

٨١-٨٧- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ يعني الأنواء، وما مُطِر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مُطِرْنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾. أ.هـ. (أخرجه ابن المنذر بسند صحيح عن ابن عباس. التفسير الصحيح ٦/ ٥٨).

التفسير:

يُنْكِرُ الله تعالى على الكفَّار مُوَبِّخاً لهم: هل بهذا القرآن أنتم مكذِّبون؟! وتجعلون شكركم لنعم الله عليكم - ومنها هذا القرآن - أنَّكم تُكَذِّبون بهذه النعم، فهلَّا إذا بَلَغَتِ الروحُ الحلقومَ عند معالجة سكرات الموت، وأنتم حضور تنظرون إليه، ونحن أقرب إليه منكم بعِلْمنا وملائكتنا، ولكنَّكم لا ترونهم، فهل تستطيعون إن كنتم غير محاسبين على أعمالكم أن تَرُدُّوا رُوح هذا الميِّت إلى جسده؟ إن كنتم صادقين في إنكاركم البعث والحساب.

٨٨-٨٩- فأمَّا إن كان الميِّت من السابقين بالدرجات العُلا، فله عند الله راحة ورزق كريم بجنَّة النعيم.

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخْرُجي حميدة، وأَبْشِري برَوح وريحان». (أخرجه ابن ماجه، السنن برقم ٤٢٦٢ - الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، (مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤٩)، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٢٠)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧-٤٠).

٩٠-٩١- وأمَّا إن كان الميِّت من أصحاب اليمين فيقال له: سلام لك من العذاب، ومن كلِّ شرٍّ، لأنَّك من أصحاب اليمين.

٩٢-٩٤- وأمَّا إن كان الميت من المكذِّبين بالله والبعث، والضالِّين عن الهدى، فيُقَدَّم له شراب في غاية الحرارة، وهو يصطلي بنار جهنَّم.

٩٥-٩٦- إنَّ هذا الذي ذَكَرْناه - يا رسول الله - لَهو الخبر اليقين، فسَبِّح بذِكْرِ اسمِ ربِّك العظيم، وبحمده على فضله الكريم.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «...وإذا كان الرجل السوء قال: اخرُجي أيتها النفس الخبيثة! كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فلا يُفتح لها». (أخرجه ابن ماجه، السنن برقم ٤٢٦٢ - الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، (مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤٩)، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٢٠)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧-٤٠).

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير الوحي الإلهي، وإثبات النبوة المحمدية، وأنَّ القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى.

٢ - بيان أنَّ الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن العبد لا يقسم إلا بربه تعالى.

٣- وجوب صيانة القرآن الكريم، ومَنْعُ مَسِّه دون طهارة.

٤ - عظيم قدر القرآن، وأنَّ الله تعالى تَوَلَّى حِفْظَه، وصِيانته عن التحريف والتبديل.

٥- بيانُ عَجْزِ كل الناس أمام قدرة الله تعالى.

٦- بيان أحوال الناس عند الموت.

٧- في الآيات دلالة على أنَّ الروح بعد مفارقة البدن: إما مُنَعَّمَةٌ أو مُعَذَّبة.

٨- بيان فضل السابقين على أصحاب اليمين.

٩- مَقَرُّ أرواح المؤمنين الجنة، ومَقَرُّ أرواح الكفار في النار.

١٠- تأكيد وجوب التسبيح والتنزيه لله تعالى.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- تقرير توحيد الربوبية لله تعالى بالبراهين والدلائل الكونية.

٢- المقارنة بين عظمة الآخرة، وحقارة الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾

التفسير:

١-٢- يُخْبِرُ الله تعالى عن عظمة قدرته، وسَعَةِ سلطانه: إنَّ جميع المخلوقات في السموات السبع والأرَضين السبع تلهج بالتسبيح والتحميد لربِّها، تُنَزِّهُه عمَّا لا يَليق به وتُقَدِّسُه، وهو سبحانه العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته، له ملك السموات السبع والأرَضين السبع، يَتَصَرَّف فيهما، يُحيي بقدرته الموتى، ويميت الأحياء كيف يشاء، وهو على كلِّ شيء قدير، لا يُعْجِزُه شيء من الأشياء.

٣- هو سبحانه الأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وهو بكلِّ شيء من الأشياء أحاط علماً.

٤- هو سبحانه الذي أبدع خلق السموات السبع والأرَضين السبع في ستَّة أيام، ثمَّ استوى - استواءً يليق بعظمته - على عرشه الذي هو أعظم المخلوقات وأعلاها، يعلم وحده ما يدخل في الأرض من خيرات ومخلوقات، وما يخرج منها من النبات والثمرات، ويعلم وحده ما ينزل من السماء من بركات وعقوبات، وما يصعد فيها من حشود الملائكة وثمرات الأعمال، وهو سبحانه معكم - أيُّها العباد - بعلمه وقدرته وعنايته أينما كنتم، وهو سبحانه بصير بكلِّ ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ قال: هو على العرش، وعِلْمُه معهم. (مجموع الفتاوى ٥/ ٤٩٥-٤٩٦، ورجاله ثقات وسنده حسن).

٥- له ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع، وإليه سبحانه مصير أمور المخلوقات، ومحاسبتها.

٦- يدخل ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد ساعات النهار، ويدخل ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد ساعات الليل، وهو سبحانه عليم بالنيات والخفايا في صدور الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل التسبيح، وأفضله: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. (أيسر التفاسير ٤/ ٢٠٣).

٢ - اتصافه سبحانه بالقادر الذي لا ينازعه شيء، والذي رتب كل موجود على ترتيب حُكْمِيّ، تامّ القدرة.

٣ - مظاهر القدرة والعلم والحكمة في هذه الآيات الخمس هي موجبات ربوبية الله تعالى وألوهيته، وهي مقتضية للبعث الآخر والجزاء فيه.

٤ - في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ عن عِلْمِ الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو يعلم ما يدخل في الأرض من حَبٍّ ومطر وغير ذلك، وما يخرج منها من نبات وزروع وثمار، وما ينزل من السماء من مطر وغيره، وما يعرج فيها من الملائكة والأعمال، وهو سبحانه بعِلْمِه مع خلقه، أينما كانوا، وهو بصير بأعمالهم التي يعملونها، وسيجازيهم عليها.

٥ - في الآية (٦) إخبار مستقبليٌّ عن عِلْم الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، كيف لا وهو يعلم بما في صدور خلقه؟

٦ - وجوب مراقبة الله تعالى والحياء منه؛ وذلك لعِلْمِه بظواهرنا وبواطننا وقُدْرَتِه علينا، عاجلاً وآجلاً.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٧- يأمر الله تعالى عباده أن يُصَدِّقوا به، ويُقِرُّوا له بالوحدانية، وبرسوله بالرسالة، ويأمرهم بالإنفاق من أموالهم التي جعلهم خلفاء له سبحانه في التصرُّف فيها، ووَعَدَ المُستجيبين له في هذه الأوامر بالثواب العظيم والنعيم المقيم في الجنة.

٨- ويُؤَكِّدُ هذه الأحكام بإنكاره على مَنْ لا يستجيب: وأيُّ عُذْرٍ لكم في تَرْكِ الإيمان بالله، وها هو الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربِّكم، وقد أخذ الله عليكم العهد المؤكَّد باليمين على ذلك، إن كنتم مُصَدِّقين بالله؟

٩- هو سبحانه الذي ينزِّل على محمَّد ﷺ آيات مفصَّلات من القرآن الكريم والمعجزات العظيمة؛ من أجل أن يخرجكم من ظلمات الغَواية إلى نور الهداية. وإنَّ الله بكم شديد الرأفة، واسع الرحمة.

١٠- وأيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في نصرة دين الله، وجميعُ الأموال في السموات والأرض مصيرُها إلى الله تعالى؟ لا يستوي في الفضل والثواب مَنْ أنفق ماله، وقاتل الأعداء مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة، مع مَنْ أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة. أولئك أصحاب الدرجات العالية أعظم درجة عند الله من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح، وكلا الفريقين وعده الله الجنَّة. والله بكلِّ ما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء منه.

١١ - يَحُضُّ الله تعالى على الإنفاق في نصرة دين الله: إنَّ مَنْ ينفق في سبيل الله يُضاعَف له الثواب، وله جزاء كريم في جنَّة النعيم.

١٢ - يوم القيامة ترى - أيُّها الرسول - المؤمنين بالله والمؤمنات في تلك الظلمات يمتدُّ نورهم أمامهم وحولهم - وهو نور حقيقي - على قَدْرِ أعمالهم الصالحة. وقد صَحَّ عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم: منهم مَنْ نورُه مثل الجبل، وأدناهم نوراً مَنْ نورُه على إبهامه، يَطْفي مرةً، ويَقِد أخرى». (أخرجه الحاكم بسند حسن وصححه ووافقه الذهبي المستدرك ٢/٤٧٨). وقد صَرَّحَ النبي ﷺ بأنَّه يعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم. (ينظر المستدرك ٢/٤٧٨). ويُقال لهم: بشارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان دخول بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً. ذلك المقام الكريم هو الفلاح العظيم.

١٣ - ويلتمس أهل النفاق من أهل الإيمان ذلك النور في ظلمات يوم القيامة إذ ينادونهم ويطلبون منهم شيئاً يسيراً من ذلك النور، فيُرَدُّ عليهم باستهزاء: ارجعوا إلى الدنيا فاطلبوا نوراً آخر. فضُرِبَ بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب، باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة من نعيم الجنان، وظاهره من جهة المنافقين فيه جحيم النيران.

١٤ - يصيح المنافقون: ألم نكن معكم في الدنيا نقيم شعائر الإسلام؟ فيردُّ عليهم المؤمنون: بلى كنتم معنا في الظاهر، ولكنَّكم دَمَّرْتُم أنفسكم بالنفاق، وشككتم في أمور الدين وانخدعتم بالأماني الباطلة، وتمنَّيتم أن تقع المصائب بالمؤمنين حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان بتزيينه لكم الكفر والمعاصي.

١٥ - ففي هذا اليوم العصيب لا يُقْبَلُ منكم - أيُّها المنافقون - عِوَضٌ ولا من الكفَّار، مصيركم جميعاً نار جهنَّم هي مستقركم، وبئس المرجع والمستقرُّ النار.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان لُطْفِ الله ورأفته ورحمته بعباده، ممَّا يستلزم محبته وطاعته وشكره.

٢ - الإنفاق في الشدائد والحرب أفضلُ منه في اليسر والعافية.

٣ - بيان مراتب الصحابة، وأنَّ الفضلَ للسابق.

٤ - في الآية (٧ - ١١) إخبار مستقبليٌّ عن عِظَمِ أَجْرِ المنفق في سبيل الله محتسباً من قلبه بلا مَنٍّ، ولا أذى، فإنَّ الله سيضاعف له الأجر والثواب.

٥ - من بشائر السعادة لأهل الإيمان قبل دخول الجنة تَلَقِّي الملائكة لهم، وإعطاؤهم كُتُبَهم بأيمانهم وسطوع نور عال يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يتقدَّمهم على الصراط إلى الجنة.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٦ - ألم يَحِنِ الوقت الذي فيه تَرِقُّ قلوب المؤمنين عند ذِكْر الله العظيم، وسماع القرآن الكريم، ولا يكونون في قسوة القلوب كاليهود والنصارى الذين طال عليهم الزمانُ الذي بينهم وبين أنبيائهم، فبَدَّلوا كلام الله، وكثيرٌ منهم مخالفون أمر الله؟

١٧ - اعلموا - أيُّها العباد - أنَّ الله تعالى يُحيي الأرض الميتة بالمطر، فكذلك القلوب تحيا، وتَطْمَئِنُّ بذِكْرِ الله العظيم والقرآن الحكيم.

١٨ - إنَّ الذين تَصَدَّقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله تعالى، وأنفقوا في سبيل نصرة دين الله، يُضاعَفُ لهم الأجر الكريم، ولهم جنَّات النعيم.

١٩ - والذين صَدَّقوا بالله تعالى، وأقرُّوا له بالوحدانية، ولرسله بالرسالة، هؤلاء أصحاب المنازل العالية هم الذين بلغوا مرتبة الصدِّيقين ومرتبة الشهداء، لهم ثوابهم الكريم، ويُؤْتَون نورهم العظيم يوم القيامة، والكفَّار والذين كذَّبوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة، أولئك البُعداء عن رحمة الله مُلازِمُون نارَ الجحيم.

٢٠- اعلموا - أيُّها العباد - أنَّ هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب بالأبدان، ولهو للقلوب، وزينة في الملابس والمراكب، وافتخار بالأموال والأولاد والأنساب، ومباهاة بكثرتها، مثلها شبه مطر غزير أصاب أرضاً فأعجب الزُّرَّاع نباته الناشئ عن المطر، ثمَّ يجفُّ بعد خضرته فتراه مُصْفَرّاً، ثمَّ يتكسَّر بعد جفافه، فيصبح فُتاتاً تُطَيِّره الرياح. والجزاء في الآخرة عذاب شديد بالنيران للكافرين، ومغفرة من الله ورضوان للمؤمنين، وليست الحياة الدنيا إلا متاعاً، وهو غرور لا حقيقة له لِـمَنْ رضي بها وترك الآخرة.

٢١- سارعوا في السبق - أيُّها العباد - في ميدان الدنيا إلى أسباب المغفرة من التوبة النصوح ومرضاة الله بطاعته، وسابقوا في الدنيا إلى جنَّة عظيمة، عَرْضُها كعرض السماء والأرض، أُعِدَّت للمصدِّقين بالله تعالى وبرسوله ﷺ. ذلك المقام الكريم في الجنان فضل الله يرزقه مَنْ يشاء من عباده، والله صاحب الفضل العظيم على أهل الإيمان.

٢٢-٢٤- يُطَمْئِنُ الله تعالى عباده أنَّ ما يقع في الأرض من مصائبَ وما يصيب العباد منها، أُمورٌ مقدَّرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الناس. إنَّ ذلك الأمر العظيم من الإثبات على الله هيِّن، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تفرحوا فَرَحَ بطر؛ بسبب ما رزقكم من متاع الدنيا. والله لا يحبُّ كلَّ متكبِّر معجب بما أعطاه الله من الخير. هؤلاء المتكبِّرون هم الذين يبخلون بأموالهم عن الإنفاق في سبيل الله، ويُرَغِّبون الناس في البخل، ومَنْ يعرض عن الإنفاق فإنَّ الله هو الغنيُّ عن خلقه، المحمود على كلِّ حال.

الفوائد والاستنباطات:

١- صَحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، إلا أربعُ سنين. (صحيح مسلم، التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] برقم ٣٠٢٧).

٢- التحذير من الغفلة ونسيانِ ذِكْرِ الله، وما عنده من نعيم، وما لديه من نَكالٍ وعذاب.

٣- النهي عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب.

٤- تأكيد فضل الصدقة، وعِظَمُ أَجْرِها عند الله.

٥- مرتبة الصِّدِّيقين أعلى مرتبة من الشهداء؛ ولهذا قَدَّمهم عليهم في الآيتين.

٦- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا.

٧- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

٨- بيان الحكمة في معرفة القضاء والقدر والإيمان بهما.

٩- حرمة الاختيال والفخر والبخل، والأمر بالبخل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٥- قسماً لقد أرسلنا رُسُلَنا بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة، وأنزلنا معهم الكتب الحافلة بالأحكام الشرعية، ومعالم الميزان العدل، ليقوم الناس بالحقِّ والإنصاف في معاملاتهم، وأنزلنا الحديد فيه قوّة وصلابة، ومنافع للناس في السلم والحرب، وليقوم المؤمنون بإعلاء كلمة الله، فيَتَبيَّن مَنْ ينصر دينه وينصر رسله. إنَّ الله قويٌّ لا يُغالَبُ، عزيز في انتقامه.

٢٦- وقسماً لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام وإبراهيم عليه السلام إلى قومهما، وجعلنا في ذرِّيتهما كثيراً من الأنبياء، وأنزلنا عليهم الكتب، فمِنْ ذرِّيَّتهما عباد مهتدون، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله.

٢٧- ثمَّ أتبعنا بعدهم برُسُلِنا الذين أرسلناهم، وجعلنا عيسى بن مريم عليه السلام بعد أولئك الرسل، وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين لِيناً وشفقة، ورهبانية ابتدعها الرهبان والقسس والانقطاع للعبادة، ما فرضناها نحن عليهم، ولكن ابتدعوها من جهة أنفسهم بنيَّة رضا الله، فما قاموا بها حَقَّ القيام، فجزينا المؤمنين منهم بالثواب الكريم، وكثيرٌ منهم مخالفون أمر الله تعالى.

٢٨-٢٩- يُخاطِبُ الله تعالى المؤمنين أن يخافوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأن يُصَدِّقوا الرسول ﷺ ويتَّبعوا سننه؛ ليُعْطِيَهم ضعفين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تهتدون به، ويغفر لكم ذنوبكم. والله غفور لعباده، رحيم بهم، يمنحكم الله تعالى ذلك ليعلم اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أنَّهم لا يقدرون على شيء من إنعام الله يضمنونه لأنفسهم أو لغيرهم، وأنَّ الفضل كلَّه بيد الله وحده، يعطيه مَنْ يشاء من عباده، والله صاحب الفضل والإحسان العظيم على عباده.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أفضال الله وإنعامه على الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان.

٢- تمثل عملية إنزال الحديد إلى الأرض وتمايزها إلى سبع أرضين واحدةً من أخطر العمليات في تاريخ الأرض، فلولا هذه العملية ما كانت الأرض صالحة للعمران. ولولا الحديدُ في لُبِّ الأرض ما كان لها مجال مغناطيسي، ولولا المجال المغناطيسي للأرض ما استطاعت الإمساك بغلافها المائي، ولا بغلافها الهوائي، ولا بمختلف صور الحياة على سطحها.

٣- في الآية (٢٥) إخبار مستقبليٌّ، وبيان للحكمة من إرسال الرسل بالحُجَجِ الواضحات، وإنزال الكتاب معهم بالأحكام والشَّرائع، وإنزال الميزان، كل ذلك كي يتعامل الناس بينهم بالعدل.

٤- تَبَيَّنَ للباحثين بعد دراسات تحليلية للآثار الراسخة في صخور الأرض ومعالجات مخبرية لمحتوياتها أنَّ المكونات الأساسية للحياة في الأرض إنَّما نزلت من السماء، وأنَّها ألحقت بتركيبة الأرض بفِعْلِ القَذَفات النيزكية التي كانت تأتي من الفضاء. وكشفت دراسات دقيقة عن مكون هام للنيازك هو هيدرات الحديد الذي أنزل مع هذه الأجسام إنزالاً ملموساً في شكل مركب حديد وماء وأوكسجين. (مجلة الإعجاز العلمي العدد (٣٨) ربيع الآخر ١٤٣٢هـ ص ٣٩).

٥- ذَمَّ الله تعالى الرهبنة لأمرين: ابتداع في دين الله لم يأمر الله به، وعدم التزامهم بما ابتدعوه مع زعمهم أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ.

٦- في الآية (٢٨) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ خاف عقاب الله، وآمن برسوله، فإنَّ الله ﷻ سيؤتيه ضعفين من رحمته، ويجعل له نوراً يهتدي به، ويغفر له ذنوبه.

٧- إبطال مزاعم أهل الكتاب في ضمان الجنة لهم، وإعلامهم بأنَّهم محرومون منها ما لم يُؤْمِنُوا برسول الله ﷺ، ويَتَّقُوا الله بفِعْلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الظهار، والكفارة فيه.

٢ - التحذير من ولاء المنافقين لليهود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾

١ - سبب النزول:

عن خُوَيلة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: والله فيَّ وفي أوس بن صامت ﷺ أنزل الله سورة المجادلة. قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خُلُقُه وضَجِرَ. قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعتُه بشيء فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني على نفسي. قالت: فقلت كَلَّا والذي نفسُ خويلةَ بيَدِه لا تخلص إليَّ، وقد قلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثَبَني وامتنعتُ منه، فغَلَبْتُه بما تغلب به المرأةُ الشيخَ الضعيف، فألقيته عني. قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعَرْتُ منها ثيابَها، ثم خرجت حتى جئتُ رسول الله ﷺ، فذكرت له ما لَقِيتُ منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سُوء خُلُقِه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابنُ عَمِّك شيخ كبير، فاتقي الله فيه. قالت: فوالله ما بَرِحْتُ حتى نَزَلَ فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّيَ عنه. فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (اخرجه الإمام أحمد، المسند ٦/ ٤١٠-٤١١، وأخرجه أبو داود مختصراً (السنن - الطلاق، باب في الظهار برقم ٢٢١٤) وذكره ابن كثير وسنده حسن ثم قال: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة (٨/ ٦٢ طبعة الشعب).

التفسير:

قد سمع الله تعالى حقّاً قول الصحابية خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها التي تحاورك - أيُّها الرسول - في شأن زوجها أوس بن الصامت ﷺ الذي ظاهَرَ منها بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أُمّي - أي: في حرمة النكاح - وهي تتضرَّعُ إلى الله أن يُنْصِفَها، والله تعالى يسمع تَحاوُرَكما في القصَّة. إنَّ الله سميع للأقوال، بصير بالأحوال والأفعال.

٢ - الذين يُحَرِّمون منكم نساءَهم - أيُّها المؤمنون - بالمظاهرة كصنيع أوس بن الصامت ﷺ، فنساؤهم لَسْنَ أُمَّهاتهم، وإنَّما هنَّ زوجاتهم، ما أُمَّهاتهم في الحقيقة إلا الوالدات اللَّاتي وَلَدْنَهم من بطونهنَّ، والحال أنَّ هؤلاء المظاهرين لَيقولون كلاماً كاذباً لا حقيقة له. وإنَّ الله لعفوٌّ غفور لِـمَنْ تاب وأناب.

٣-٤ - حُكم الذين يُحَرِّمون نساءهم على أنفسهم بالمظاهرة منهنَّ، ثمَّ يرجعون عن التحريم، ويعزمون على جماع نسائهم: عليهم عِتْقُ رقبة مِنْ قبلِ الجِماع. ذلكم الزَّجْرُ العظيم تُوعَظون به، والله بكلِّ ما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء، فمَنْ لم يجد رقبة يعتقها، أو لم يملك ثمنها، فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل الجِماع. فمَنْ لم يستطع الصيام فعليه إطعام ستين مسكيناً من أوسط الطعام. ذلك الترخيص لتُصَدِّقوا بالله ورسوله في قبول هذه الأحكام. وتلك أحكام الله فلا تَتَعَدَّوها، وللمُكَذِّبين بالله عذاب موجع. أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ فهو الرجل يقول لامرأته: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمي، فإذا قال ذلك، فليس يَحِلُّ له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يُكَفِّرَ عن يمينه بعِتْقِ رقبة. (التفسير الصحيح ٦/ ٧٦).

الفوائد والاستنباطات:

١- إجابة الله لأوليائه بتفريج كروبهم، وقضاء حوائجهم، فله الحمد والشكر.

٢- تكرير لفظ الجلالة ثلاث مرات في الآية؛ وذلك لتربية المهابة، وإثارة تعظيم مِنَّتِه تعالى، ودواعي شكره.

٣- ظِهار أوس من خولة كان أولَ ظِهارٍ في الإسلام.

٤- تحريم الظهار، وأنّه من الكبائر.

٥- في الآيات دلالة على أنَّ الظهار لم يكن مشروعاً في شرع قديم، ولا في شريعة الإسلام، بل هو من وَضْعِ أهل الجاهلية.

٦- قال ابن عاشور: «دَلَّ على تحريم الظِّهار ثلاثة أشياء، أحدها: تكذيب الله تعالى مَنْ فَعَلَ ذلك. الثاني: أنَّه سَمَّاه منكراً وزوراً، والزُّور: الكَذِبُ. وهو محرم بإجماع. الثالث: إخباره تعالى بأنَّه يعفو عنه ويغفر، ولا يُعفى ويُغفر إلا على المذنبين». (التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٣).

٧- من الحكمة في مشروعية كفارة الظهار: الرَّدْعُ والزَّجْرُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

٥-٦- إنَّ الذين يُخالفون الله ورسوله عَمْداً في أمْرِهما خُذِلوا، كما خُذِلَ الذين من قبلهم من الأُمم الذين خالفوا الأحكام، وقد أنزلنا آيات مفصَّلة الأحكام للعمل بها، وللمُكَذِّبين بها عذابٌ مُذِلٌّ في نار جهنَّم. يوم القيامة يُحيي الله الموتى جميعاً ويجمعهم، فيخبرهم بكلِّ ما عملوا، أحصاه الله وكَتَبَه في اللوح المحفوظ، وهم قد نسوا الله تعالى، وما ارتكبوا من الجرائم. والله على كلِّ شيء مُطَّلعٌ، لا يغيب عنه شيء.

٧- ألم تعلموا - أيُّها العباد - أنَّ الله تعالى مُطَّلع على كلِّ شيء في السموات السبع والأرَضين السبع؟ ما يكون من حديث سرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان اللهُ رابعَهم بعِلْمِه، ولا خمسة أشخاص إلا هو سادسهم، ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلا هو سبحانه معهم بعِلْمِه في أيِّ مكان كانوا، ثمَّ يخبرهم الله يوم القيامة بكلِّ ما عَمِلُوا في الدنيا. إنَّ الله بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

٨- ألم تنظر - أيُّها الرسول - إلى اليهود والمنافقين الذين نهاهم الله عن الحديث سرّاً بما يؤذي المؤمنين، ثمَّ يرجعون إلى ما نُهوا عنه، ويُرَدِّدُون الكلام الحرام بما فيه من الإثم، ومخالفة أمر الرسول ﷺ؟ وإذا جاءك

هؤلاء اليهود حَيَّوك بتحيَّةٍ ظالمة فقالوا: السَّامُ عليك - أي الموت عليك - ويتهامسون فيما بينهم بسخرية: هَلَّا يُعَذِّبنا الله بما نقول لمحمَّد، إن كان رسولاً حقّاً. تكفيهم نار جهنَّم يذوقون حَرَّها، فبئس المستقرُّ هي.

عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، ولَعَنْتُهم. فقال: مالك؟ قالتْ: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: فلم تسمعي ما قلتُ: وعليكم». (صحيح البخاري ٦/ ١٢٤- ١٢٥ - كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، برقم ٢٩٣٥).

عن أنس بن مالك ﷺ: أن يهودياً أتى على النبي ﷺ وأصحابه فقال: السامُ عليكم، فَرَدَّ عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: هل تَدْرُون ما قال هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، سَلَّمَ يا نبيَّ الله. قال: لا، ولكنه قال كذا وكذا، رُدُّوه عليَّ، فرَدُّوه قال: قلتَ السامُ عليكم؟ قال: نعم. قال نبيُّ الله ﷺ عند ذلك: إذا سَلَّمَ عليكم أَحَدٌ من أهل الكتاب فقولوا: عليك. قال: عليك ما قلتَ. قال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٤٠٧ - كتاب التفسير، وصححه الألباني. صحيح سنن الترمذي برقم ٣٣٠١. وهو كما قالا).

الفوائد والاستنباطات:

١- مَنْ عادى اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ أذلَّه الله وأهانه، وجَعَلَ الهزيمةَ مصيرَه.

٢- إحاطةُ عِلْمِ الله بكل شيء وشهوده لكل أعمال العباد، يُوجب مراقبة الله تعالى، والخشيةَ منه، والحياء منه أشد الحياء.

٣- عِلْمُ الله تعالى بأحوال المنافقين وأحلافهم اليهود.

٤- الإرشاد إلى أن التناجي للمشاورة في الخير ينبغي أن يكون عدد المتناجين ثلاثة أو خمسة أو سبعة ليكون الواحد عدلاً مرجحاً للخلاف، قاضياً فيه، إذا اختلف اثنان فلابُدَّ من واحد يُرَجِّحُ جانب الخلاف، وإذا اختلف أربعة فلابُدَّ من خامس يرجح جانب الخلاف.

٥- إذا سَلَّم الذمِّيُّ وكان سلامُه بلفظ: السلام عليكم، فلا بأس أن يُرَدَّ عليه بلفظه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

التفسير:

٩-١٠ - يأمر الله المؤمنين إذا تحدَّثُوا بينهم سرّاً ألَّا يتحدَّثوا بما فيه ذنب وعدوان على الآخرين، ومخالفة لأمر الرسول ﷺ، وأن يتحدَّثوا سرّاً بما فيه خيرٌ، وطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه، ثمَّ أمرهم بالخوف منه سبحانه، الذي هم إليه يرجعون للحساب. ويُؤَكِّد سبحانه أنَّ النجوى بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان، من أجل أن يُدْخِلَ الحزن في قلوب المؤمنين، وليس ذلك بمُؤْذِيهم شيئاً، إلا بأمر الله تعالى، وعلى الله فليعتمد المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ. عن عبد الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث». (صحيح البخاري ١١/ ٨٤ - كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث برقم ٦٢٨٨. وصحيح مسلم ٤/١٧١٨ برقم ٢١٨٤ - كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث).

١١ - ويأمرهم أيضاً أن يتوسَّعوا في المجالس إذا طُلب إليهم ذلك، وأن يقوموا منها لأمر من الأمور التي تنفعهم، ثمَّ بَشَّرَ المؤمنين وأهل العلم برفع درجاتهم في الجنَّة. والله خبير بكلِّ أعمالهم، وسيجازيهم عليها. عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: أنَّه نهى أن يقيم الرجل الرجل من مجلسه ويجلس فيه الآخر، ولكن تَفَسَّحُوا، أو وَسِّعُوا. (صحيح البخاري - الاستئذان، باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، برقم ٢٦٧٠).

١٢-١٣ - يحثُّ الله تعالى الصحابة ﷺ على تقديم الصدقة لأهل الحاجة إذا تَكَلَّموا مع رسول الله ﷺ سِرّاً. ذلك التقديم الكريم خير لكم؛ لما فيه من العون والثواب، وأزكى لقلوبكم، فإن لم تجدوا ما تُعْطُونه صدقة فلا إثم عليكم؛ لأنَّ الله تعالى غفور لعباده المؤمنين، رحيم بهم، ثمَّ أكَّد الله تعالى ذلك: هل خِفْتُمْ - أيها المؤمنون - الفقر في تقديم الصدقات للمحتاجين قبل مناجاتكم لرسول الله ﷺ؟ فإذ لم تُقَدِّمُوا الصدقة، وشَقَّ ذلك عليكم، وتاب الله عليكم بترخيص الترك، ورَفَعَ هذه المشقة، فواظِبوا على إقامة

الصلاة وإعطاء الزكاة، وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كلِّ أحوالكم. إنَّ الله خبير بكلِّ ما تُقَدِّمون من أعمالكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التحذير من مكر اليهود والمنافقين، وكيدهم للمؤمنين في كل زمان ومكان.

٢ - ضرورة تطهير المجتمع من الإشاعات والأحاديث الموهنة للعزائم.

٣ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ التحدُّث خفية بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان، فهو المزيِّنُ لها، والحامل عليها، وأن ذلك ليس بمُؤْذِي المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته.

٤ - وجوب التوكل على الله، وتَرْكُ الأوهام والوساوس، فإنها من الشيطان.

٥ - من أدب مجلس العلم أن يُوَسِّعَ المسلم لأخيه، والقيام للكبير والعالم لإجلاسه.

٦ - في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ طُلِبَ إليه أن يُوَسِّعَ لغيره في المجلس فوَسَّع له، فإنَّ الله ﷻ سيُوَسِّعُ عليه في الدنيا والآخرة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله تعالى خبير بأعمال عباده في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يخفى عليه شيء منها.

٧ - فضيلة الإيمان، وفضل العلم والعمل به.

٨ - اتفاق العلماء على أن حكم صدقة المناجاة منسوخ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾

التفسير:

١٤-١٥- ألم تنظر - أيُّها الرسول - وتتعجَّب من المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء؟ ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، ويقسمون بالله كاذبين إنَّهم مسلمون، ومُقِرُّون برسالة النبيِّ ﷺ. وهم يعلمون أنَّهم كاذبون في ذلك. أعدَّ الله لهم عذاباً شديد الألم، إنَّهم بئس ما كانوا يعملون من الجرائم.

١٦-١٩- جعلوا أيمانهم الفاجرة حمايةً لهم من القتل، فمنعوا أنفسهم والناس عن الدخول في الإسلام، فلهم عذاب مُذِلٌّ في نار جهنَّم، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً. هؤلاء البُعداء عن رحمة الله هم أهل النار ووَقُودها، مُلازِمون لها. يومَ القيامة يخرجهم الله تعالى أحياء من قبورهم جميعاً، فيقسمون بالله كما كانوا يُقسمون لكم - أيُّها المؤمنون - في الدنيا، ويَظُنُّون أنَّ ذلك سينقذهم. ألا فانتبهوا أيُّها العباد، إنَّهم هم الكاذبون قطعاً، استولى عليهم الشيطان، وشَغَلهم بالشهوات حتى نَسُوا ذِكْرَ الله. هؤلاء البعداء عن الحقِّ أتباع الشيطان، ألا فانتبهوا أيُّها العباد، إنَّ أتباع الشيطان هم الخاسرون أنفسَهم في الدارين.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم موالاة اليهود.

٢- تحريم الحلف على الكذب، وهي اليمين الغموس.

٣- في الآية (١٩) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة الذين غلبهم الشيطان، واستولى عليهم، حتى تركوا أوامر الله والعمل بطاعته، فإنَّ لهم الخسران في الدنيا والآخرة.

٤- من علامات استحواذ الشيطان على الإنسان تَرْكُه لِذِكْرِ الله بقَلْبِه ولسانه، ولوَعْدِه ووَعيدِه، بأعماله وأقواله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- إنَّ الذين يُعاندون حُكْمَ الله ورسوله، أولئك البعداء عن الحقِّ، هم في جملة المُهانين المبعَدين عن رحمة الله.

٢١- قضى الله وحَكَمَ في عِلْمِه السابق بأنَّ النصر لدينه ورسله. إنَّ الله قويٌّ على أعدائه، عزيز في انتقامه.

٢٢- لا تجد - أيُّها الرسول - قوماً يُصَدِّقون بالله تعالى واليوم الآخر يُوالُون أعداء الله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم. هؤلاء أصحاب الدرجات العالية. قدَّر الله لقلوبهم الإيمان، وأمدَّهم بنصر منه، وتأييد على عَدُوِّهم في الدنيا، ويكرمهم في الآخرة بدخول جنات تجري الأنهار العذبة من تحت قصورها، ماكثين فيها أبداً لا يموتون، قَبِلَ الله تعالى أعمالهم، فرضي عنهم، ونالوا ثوابه، فرَضُوا بما أكرمهم. أولئك أصحاب المنازل العالية هم أولياء الله وجنده، الفائزون بالحياة الطيِّبة في الدنيا، وبجَنَّةِ النعيم في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٠) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء الذين يخالفون أمر الله ورسوله، فإنَّهم من جملة المغلوبين المهانين في الدنيا والآخرة.

٢- كَتَبَ اللهُ الغَلَبَةَ لدينه ورُسُلِه.

٣- في الآية (٢٢) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء المُوالِين في الله والمعادين فيه، بأنهم قد كتب الله في قلوبهم الإيمان، وقَوَّاهم بنَصْرٍ منه، وتأييد على عَدُوِّهم في الدنيا، ويدخلهم في الآخرة جنَّات تجري من تحت أشجارها الأنهار.

٤- تحريم موالاة الكافر بالنصرة والمحبة، ولو كان أقرب قريب، وقد قاتل أصحاب رسول الله آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم في بدر. وفيهم نَزَلَتْ هذه الآية تبشِّرهم برضوان الله تعالى لهم، وإنعامه عليهم.

٥- مَنْ سعى للإيمان أمدَّه الله بمزيد من التوفيق.

٦- الخسران لحزب الشيطان، والفلاح لحزب الله.

النزول: مدنية.

عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنّها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذُكِرَ فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير.

(صحيح البخاري ٨/ ٤٩٧ - كتاب التفسير - سورة الحشر برقم ٤٨٨٢).

المقاصد:

١- بيان عقوبة نقض العهد.

٢- بيان أحكام الفيء والغنيمة، وحق الفقراء في ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾

١- سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت غزوة بني النضير - وهم طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وعلى أنّ لهم ما أقلّت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحَلْقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سِبْطٍ لم يُصِبْهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك. ولولا ذلك لَعَذَّبهم في الدنيا بالقتل

والسبي. وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه. (المستدرك ٢/ ٤٨٣ - كتاب التفسير) وصححه الذهبي).

التفسير:

يُبَيِّنُ الله تعالى قدرته العظيمة، وكثرة تسبيح مخلوقاته، وسَعَةَ مَلَكوته: إنَّ جميع المخلوقات في السموات السبع والأرَضين السبع كلِّها تلهج بالتسبيح والتحميد لربِّها، وتُمَجِّده وتقدِّسه، وهو سبحانه العزيز في خلقه، الحكيم في تدبير شؤونهم.

٢- الله سبحانه هو الذي أخرج الذين كذَّبوا رسالة النبيِّ ﷺ من يهود بني النضير من ديارهم - التي جاوروا بها المسلمين حول المدينة - عند أوَّل إجلاء لهم من جزيرة العرب إلى الشام، ما ظننتم - أيُّها المؤمنون - أن يخرجوا؛ لشدَّة حصونهم وقوَّتهم، وظنَّ بنو النضير أنَّ حصونهم تحميهم من أيِّ اقتحام، فجاءهم من أمر الله ما لم يكن في بالهم، فألقى في قلوبهم الخوف، يقومون بخراب بيوتهم بشدَّة من الداخل؛ لئلَّا يسكنها المسلمون، وكان المسلمون يُخربون سائر الجوانب من ظاهرها؛ ليقتحموا حصونهم، فاتَّعِظُوا يا أهل العقول السليمة.

٣- ولولا أنَّ الله تعالى قضى عليهم بالخروج من ديارهم؛ لَعَذَّبهم في الدنيا بالقتل والسَّبْيِ، ولهم في الآخرة عذاب نار جهنَّم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النَّضِير، وأقرَّ قُرَيْظَةَ ومَنَّ عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ، فآمَنَهم وأسْلَمُوا. وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني قينقاع (وهم قوم عبد الله بن سلام)، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة. (صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٧-١٣٨٨ - كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز - برقم ١٧٦٦).

٤- ذلك العقاب العظيم من الجلاء؛ بسبب أنَّهم خالَفُوا أَمْرَ الله وأَمْرَ الرسول ﷺ بعِناد. ومَنْ يخالف الله ورسوله فإنَّ الله شديد العقاب له.

٥- سبب النزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حَرَّق رسولُ الله ﷺ نخل بني النضير وقَطَع، وهي البُوَيْرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. (صحيح البخاري ٧/ ٣٨٣ - كتاب المغازي، باب حديث بني النضير...برقم ٤٠٣١. وصحيح مسلم ٣/ ١٣٦٥ - كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، برقم ١٧٤٦. والبويرة موضع منازل بني النضير بالمدينة. وذكر البلادي أنها لم تعد معروفة (معجم المعالم الجغرافية في الحجاز ص ٥١).

التفسير:

ما قطعتم - أيُّها المؤمنون - من نخلة أو تركتموها باقيةً على ساقها كما كانت، فبأمر الله ورضاه، وليُذِلَّ الخارجين عن طاعته.

الفوائد والاستنباطات:

١- تذكير الله تعالى للمؤمنين بتسبيحهم له تسبيحَ شُكْرٍ؛ على ما مَكَّنهم من فتح بلاد بني النضير.

٢- التعريض ليهود بني النضير بأنَّهم أصابهم ما أصابهم لتكَبُّرِهم عن تسبيح الله حَقَّ تسبيحِهِ بتصديق رسوله ﷺ.

٣- اليهود ذوو غَدْرٍ ونَقْضٍ، لا يدومون على عهد.

٤- تحريم الخيانة والغدر.

٥- بيان أكبر عِبرة في خروج بني النضير، وذلك لما كان لهم من قوة، ولما عليه المؤمنون من ضعف. ومع هذا فقد انهزموا شر هزيمة وتركوا البلاد والأموال، ورَحَلُوا إلى غير رجعة. فعلى مثل هذا يتعظ المتعظون، فإنه لا قوة تنفع مع قوة الله، فلا يغترَّ العقلاء بقواهم المادية، بل عليهم أن يعتمدوا على الله في كل حال.

٦- إنَّ قَذْفَ الرعب في قلوبهم هو من أحوال إتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا، فتخصيصه بالذِّكْرِ للتعجيب من صنعه سبحانه.

٧- احتج بالآية (٢) في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بعض علماء الأصول؛ لإثبات حجية القياس بناءً على أنَّه من الاعتبار.

٨- عطف لفظ الرسول ﷺ على لفظ الجلالة؛ تعظيماً لشأنه، وبيان أنَّ طاعته من طاعة الله.

٩- مَنْ يعادِ الله يُعَذِّبْه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾

التفسير:

٦- وما أفاء الله على رسوله - والفَيْءُ: ما أُخِذَ من مال الكفَّار بحقٍّ من غير قتال - من أموال يهود بني النضير، فلم تركبوا خيلاً ولا إبلاً لتحصيله، ولكنَّ الله ينصر رسله بقَذْفِ الرُّعب في قلوب مَنْ يشاء من أعدائه، فيستسلمون. والله على كلِّ شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

عن عمر بن الخطاب ﷺ حديثاً طويلاً ومنه: إنَّ الله قد خَصَّ رسوله ﷺ في هذه الفيء لم يُعْطِهِ أحداً غيره ثم قرأ: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ووالله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم. (صحيح البخاري - فرض الخمس، باب فرض الخمس برقم ٣٠٩٣).

٧- ما أفاء الله على رسوله من أموال الكفَّار فللَّه ولرسوله، يُصْرَفُ في مصالح المسلمين، ولأقرباء النبيِّ ﷺ من بني هاشم وعبد المطلب، واليتامى الفقراء الذين مات آباؤهم قبل البلوغ، والفقراء، والغريب المسافر المنقطع عن ماله، وذلك حتى لا يكون المال ملكاً متداولاً بين الأغنياء وحدهم، وما أعطاكم الرسول ﷺ، أو شَرَعَه لكم، فخُذُوه، وما نهاكم عن أَخْذِه أو فِعْلِه فانتهوا عنه، وخافوا الله بطاعة أحكامه. إنَّ الله شديد العقاب لِـمَنْ عصاه. قال عمر ﷺ: اجتمعوا لهذا الفيء حتى ننظر فيه، فإني قرأت آيات من كتاب الله استغنيت بها، قال الله: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والله ما هو هؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ والله ما هو هؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. (اخرجه ابن أبي شيبة وسنده حسن. المصنف ٧/ ٦٣٩).

٨- وفي هذا الفيء حَقٌّ للصحابة الفقراء المهاجرين، الذين ألجأهم كفَّار مكَّة إلى الهجرة من بلادهم، فتركوا الديار والأموال، يطلبون من الله الرزق الحلال ومرضاته، وينصرون دين الله ورسوله. أولئك أصحاب المنازل العالية هم الصادقون في إيمانهم.

٩- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنَّ شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يُضيفه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تَدَّخِريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبْية. قال: فإذا أراد الصِّبْية العَشاء فنَوِّميهم، وتعالَيْ فأطفئي السِّراج، ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ اللهُ ﷻ - أو ضَحِكَ - من فلان وفلانة». فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ٥٠٠ - كتاب التفسير - سورة الحشر، باب (الآية) برقم ٤٨٨٩. وصحيح مسلم ٣/ ١٦٢٤ برقم ١٧٣ - كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره. نحوه).

التفسير:

يمدح الله تعالى الصحابة الأنصار ﷺ من أهل المدينة: يُحِبُّون الصحابة المهاجرين ﷺ، ويواسونهم بأموالهم، ولا يجد الأنصار في أنفسهم غيظاً وحسداً ممَّا أُعطي إخوانهم المهاجرون من الغنيمة، ويُقَدِّمون المهاجرين والفقراء على أنفسهم، ولو كان بهم حاجة وفقر، ومَنْ سَلِمَ من البخل فأولئك أصحاب الدرجات الرفيعة، هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

١٠- ويُثني الله سبحانه أيضاً على المؤمنين، الذين جاؤوا بعد الأنصار والمهاجرين، يلهجون بالاستغفار والدعاء لإخوانهم، يقولون دائماً: ربَّنا اغْفِرْ لنا ذنوبنا، واغْفِرْ لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا

تجعل في قلوبنا حسداً وحِقْداً لأحدٍ من المؤمنين. ربَّنا إنَّك رؤوف بالمؤمنين، رحيم بهم. ولقد استجاب الله تعالى لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤٧].

الفوائد والاستنباطات:

١- عن عمر ﷺ قال: كانت أموال بني النضير ممَّا أفاء الله على رسوله ﷺ، ممَّا لم يُوجِفِ المسلمون عليه بخَيل ولا رِكاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصةً، يُنفق على أهله منها نفقةَ سَنَتِه، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُراع عُدَّة في سبيل الله. (صحيح البخاري ٨/ ٤٩٨ - كتاب التفسير - سورة الحشر، باب ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ برقم ٤٨٨٥. وصحيح مسلم ٣/ ١٣٧٦-١٣٧٧ - برقم ١٧٥٧ - كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء).

٢- مصارف الفيء حدَّدها القرآن وفَصَّلَها، حتى يُرْضِيَ كُلَّ أَحَدٍ.

٣- الإسلام حريص على الحلول المستوعبة للمشكلات؛ ولذلك أعطى المهاجرين حتى يغتنوا ويستقلُّوا.

٤- وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر، والانتهاء عمَّا نهى.

٥- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشُّحَّ أهلك مَنْ كان قبلكم، حَمَلَهم على أن سَفَكُوا دماءَهم، واستحَلُّوا محارمهم». (صحيح مسلم - كتاب البر، باب تحريم الظلم ٨/ ١٨. ط المكتب التجاري).

٦- بيانُ فَضْلِ المهاجرين بالهجرة وترك الديار، وفَضْلُ الأنصار بالإيثار، وأنَّ حُبَّهم إيمان، وبغضهم كفران.

٧- فضيلة إيواء المهاجرين ومساعدتهم على العيش في دار الهجرة. والمهاجرون هم الذين هاجروا في سبيل الله تعالى؛ فراراً بدينهم ونُصْرَةً لإخوانهم المجاهدين والمرابطين.

٨- الفقراء المستحقون للفيء ثلاثة أقسام هم: المهاجرون، والأنصار، ثم الذين اتَّبعوهم بإحسان.

٩- فضل الإيثار في حظوظ النفس والدنيا.

١٠- خطر الشُّحِّ، وهو البخلُ بما وَجَبَ إخراجُه من المال، والحرص على جَمْعِه من الحلال والحرام.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

التفسير:

١١ - ألم تنظر - أيُّها الرسول - إلى المنافقين، يتقرَّبون إلى إخوانهم يهود بني النضير، ويَعِدُونهم بالنصر كَذِباً بقولهم: قسماً إن أخرجكم محمَّد ومَنْ معه مِن دياركم؟ قسماً لَنَخْرُجَنَّ معكم، ولا نطيع أمر محمَّد في قتالكم، ولا نسمع من أَحَدٍ أبداً إذا أَمَرَنا بخِذْلانكم، وإن قاتلكم أحد، لَنعاوِنَنَّكم عليه. والله تعالى يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون حقّاً فيما وَعَدُوا به بني النضير. قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أُبي وأضرابه حين بَعثوا إلى يهود بني النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به».

١٢- قسماً إن أُخرِجَ اليهود من ديارهم، لا يخرج المنافقون معهم أبداً، وقسماً إن قُوتل اليهود لا يقاتلون معهم، وقسماً إن قاتلوا معهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار فراراً، ثمَّ لا تنفعهم نصرة المنافقين.

١٣- لَأنتم - أيُّها المؤمنون - أشدُّ مهابةً وخوفاً في صدور المنافقين واليهود من الخوف من الله. ذلك الرعب المخيف؛ بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون قدرة الله وعقابه.

١٤-١٥- لا يقدر اليهود على قتالكم - أيها المؤمنون - مجتَمِعين إلا إذا كانوا في قرى محصَّنةٍ بالأسوار والخنادق، أو من وراء الحيطان؛ ليتستَّروا بها. عداوتهم فيما بينهم شديدة، تظنُّ أنَّهم مجتمعون على أمر واحد، ولكنَّ قلوبهم متفرِّقة غير متفقة. ذلك الوصف الغريب بسبب أنَّهم قوم لا يعقلون اتِّباع الحقِّ.

صفة بني النضير فيما وقع لهم من الطرد والذُلّ، كصفة كفَّار مكَّة يوم بدر ويهود بني قينقاع، إذ ذاقوا عاقبة إجرامهم، ولهم عذاب موجع.

١٦- مَثَلُ المنافقين في خداع يهود بني النضير بالوعود الكاذبة، كمثل الشيطان حين خدع الإنسان بالكفر ثمَّ تركه إذ قال له: إنِّي بريء منك، إنِّي أخاف عذاب الله خالق العالمين.

١٧- فكان عاقبة الشيطان والإنسان الذي انتكس بالكفر أنَّهما في نار جهنَّم، ماكثين فيها أبداً. وذلك العذاب الدائم جزاء المعتدين على حدود الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير أنَّ الكافرين والمنافقين ملة واحدة.

٢- المنافقون يُوالُون اليهود، ويرتبطون بهم ارتباط مصير.

٣- خُلْفُ الوعدِ آيةُ النفاق، وعلاماته البارزة.

٤- تثبيت الرسول ﷺ والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

٥- تقرير الرهبة التي يصاب بها أعداء الإسلام من رسول الله ﷺ ودينه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهرٍ». (أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١)، برقم (٣٣٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص ٥١٩).

٦- في الآيات تشجيع للمؤمنين على منازلة الكفار المقاتلين، والحَمْلِ عليهم، وتبشيرٌ لهم بأنهم المنصورون الغالبون.

٧- في الآية (١٤) إخبار مستقبليٌّ، وتأكيدٌ لمواجهة اليهود لعباد الله المؤمنين، وقد وصف الله حال اليهود عند مواجهة المؤمنين بأنَّهم لا يُواجِهُونهم مجتَمِعِين إلا في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الجدران.

٨- من شِدَّة جُبْنِ اليهود وحُلَفائهم أنَّهم لا يُقاتِلُون إلَّا مُتَحَصِّنين مُجتمِعين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩- يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعة أوامره واجتناب نواهيه، ولتتأمّل كلُّ نفس ما قدَّمت من خير ليوم القيامة، ثمَّ كرَّر الأمر بالتقوى؛ لبيان أهميتها. إنَّ الله خبير بكلِّ ما تعملون في الدنيا، وينهاهم أن يكونوا كالذين نَسُوا ذِكْرَ الله، فعاقبهم بنسيان حقوق أنفسهم. أولئك البعداء عن الحقِّ هم المخالفون أمر الله.

٢٠- لا يتساوى يوم القيامة أصحاب النار المعذَّبون، وأصحاب الجنَّة المنعَّمون، أصحاب الجنَّة هم الفالحون في الدنيا والآخرة.

٢١- يُخبر الله تعالى عن مكانة القرآن الكريم وهيبته في الخلق العظيم، فلو أنزله على جبل عظيم، ففَهِمَ ما فيه من الوعظ والذكر الحكيم، لَرأيته على صلابته خاضعاً متشقِّقاً من خشية الله تعالى. وتلك الأمثال العظيمة نُبيِّنها للعباد؛ لكي يتفكَّروا في آثار قدرة الله وتوحيده.

٢٢- يُبيِّن الله تعالى في الآيات الثلاث الأخيرة بعض أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، فإنَّه هو الله المعبود بحقٍّ لا إله إلا هو، عالم بما غاب عن عِلْم جميع خَلْقِه، وعالم بما شاهدوه وعلموه، هو الرحمن بالخلق جميعاً في الدنيا، الرحيم بالمؤمنين في الدارين.

٢٣- هو الله سبحانه المعبودُ بحَقٍّ لا إله إلا هو، المَلِكُ لجميع الأشياء، المتصرِّف فيها وحده، القُدُّوس: المنزَّه عن كل نقص، السَّلام: الذي سَلِمَ من كل عيب، المؤمن: المصدِّق رسلَه وأنبياءَه بإظهار المعجزات على أيديهم، المهيمن: الرقيب الحافظ لكلِّ شيء، العزيز: الذي لا يُغالَب، الجبَّار: الذي قَهَرَ جميع خلقه، المتكبِّر: الذي له الكبرياء والعظمة، تَنَزَّه وتَقَدَّس الله عن كلِّ ما يُلْحِقون به من الشركاء.

٢٤- هو الله سبحانه الخالق البارئ لجميع المخلوقات، المصوِّر لخلقه كيف يشاء، له سبحانه الأسماء الحسنى الكثيرة، يلهج له بالتسبيح والتحميد كلُّ ما في السموات السبع والأرَضين السبع، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل التقوى وعظمها.

٢- وجوب التقوى بفعل الأوامر، وترك النواهي.

٣- في الآيتين (١٨-١٩) إخبار مستقبليٌّ عن عِظَمِ خبرة الله سبحانه وتعالى بما يعمله عباده - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فإنَّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهو مجازيهم عليها.

٤- وجوب ذِكْرِ الله تعالى، وعدم نسيانه؛ لأنَّ مَنْ نسي الله نسيه فلن يجد له ولياً يواليه، أو ناصراً ينصره.

٥- وجوب التميُّز عن الكافرين، والبُعد عن مشابهة الكافرين.

٦- توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم خشوعه عند تلاوة القرآن، وقلة تَدَبُّرِه فيه.

٧- وجوب مراقبة الله تعالى والنظر فيما قَدَّمَ الإنسانُ للآخرة، وما أَخَّر.

٨- استحسان ضرب الأمثال؛ للتنبيه والتعليم والإرشاد.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - **بيان أصول الولاء والبراء.**

٢ - **خصائص أحكام بيعة النساء اللاتي يدخلن الإسلام.**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن عُبيد الله بن أبي رافعٍ كاتب عليّ يقول: سمعتُ علياً ﷺ يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمِقداد قال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظعينة معها كتابٌ فخذوه منها. فذهبنا تعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحنُ بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتابَ. فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب، أو لَنُلْقِيَنَّ الثياب. فأَخْرَجَتْه من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممَّنْ بمكة يُخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنتُ امرأً من قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع

إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ: «إنَّه قد صدقكم». فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال: «إنَّه شهد بدراً، وما يُدريك لعلَّ الله ﷻ اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غَفَرتُ لكم». قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٥٠٢ - كتاب التفسير - سورة الممتحنة، باب (الآية) برقم٤٨٩٠، وصحيح مسلم ٤/ ١٩٤١-١٩٤٢ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم٢٤٩٤).

التفسير:

يُحَذِّرُ الله تعالى المؤمنين من التودُّد للأعداء، وينهاهم عنه: لا تَتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم الذين كذَّبوا بالله ورسوله أنصاراً وأحباء، تُحِبُّونهم وتُصادقونهم، وقد كذَّبوا بالدين والقرآن، يُخرجون الرسول ﷺ ويخرجونكم من مكة لأجل إيمانكم بالله ورسوله، إن كنتم خرجتم من دياركم للجهاد في سبيل نُصْرة الدين، ومن أجل طلب رضايَ، فلا تَتَّخِذُوهم أنصاراً تُبَلِّغونهم الأسرار نُصْحاً وتَقَرُّباً لهم، وأنا أعلم بما أسررتم وأظهرتم. ومَنْ يفعَلْ ذلك الأمر الخطير ذا الشر المستطير، فقد حاد عن طريق الحقِّ.

٢-٣- إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسِرُّون إليهم بالمودَّة يكونوا حرباً عليكم، ويَمُدُّوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالشتم، وتَمَنَّوا قبل كلِّ شيء لو تكفرون كما كفروا، فتكونون سواء، لن تفيدكم قَراباتكم وأولادكم شيئاً حين تناصرون الكفَّار من أجلهم. يَفْصِلُ الله بينكم وبينهم يوم القيامة، فيُدْخِلُ المؤمنين جنَّات النعيم، ويدخل المجرمين نار الجحيم.

٤- يُرَغِّبُ الله تعالى في القدوة الحسنة التي جاء بها إبراهيم ﵇ والذين معه من المؤمنين، حين قالوا لقومهم بكلِّ صراحة وجرأة: إنَّنا بريئون منكم حقّاً، وممَّا تعبدون من الأصنام من غير الله سبحانه، كفرنا بما آمنتم من الأصنام، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ما دمتم على كفركم، حتى تُقِرُّوا لله بالتوحيد. لكن يستثنى من الاقتداء استغفار إبراهيم ﵇ لأبيه آزر حين أقسم بالله: لَأَستغفرنَّ لك ربِّي، وما أدفع عنك من عذاب الله من شيء - فلا تَقْتَدُوا بهذا لأنَّه كان عن موعد وعد به أباه - يا ربَّنا عليك اعتمدنا متوكِّلين، وإليك رجعنا تائبين، وإليك وحدَك المصير يوم القيامة.

٥- يا ربَّنا لا تَجْعَلْنا مفتونين في ديننا بتسليط الكفَّار علينا، واغفر لنا - يا ربَّنا - ذنوبَنا، إنَّك أنت العزيز في انتقامك، الحكيم في تدبيرك.

الفوائد والاستنباطات:

١- الولاء لأعداء الله يهدم الإيمان، ويتناقض معه.

٢- يجب أن يكون الولاء في الله، ولله، لا للقرابة والنسب.

٣- قد يُخطئ المؤمن ويَضعُفُ، كما وقع من حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، ولكن لا يُخرِجُه ذلك من الإسلام.

٤- الخوف على المال والولد لا يُبيح الفتنة في دين الله.

٥- تقرير قبول توبة الموالي لهم إذا ألجأته ضرورة قصوى.

٦- مَنْ يتجسس على المسلمين بإفشاء أسرارهم للعدو يُعَدُّ خائناً، وتجري عليه أحكام الخيانة.

٧- فَضْلُ أهل بدر وكرامتهم على الله ﷻ.

٨- قَبول عذر الصادقين الصالحين ذوي السبق في الإسلام، إذا أخطأ أحدهم؛ اجتهاداً منه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

٦- قسماً لقد كان لكم - أيُّها المؤمنون - في إبراهيم ﷺ والمؤمنين معه قدوةٌ حميدة حقّاً في التبرُّؤ من الكفَّار، لِـمَنْ كان يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه في الآخرة. ومَنْ يُعْرِضْ عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فإنَّ الله وحده هو الغنيُّ عن عباده، الحميد في ذاته وصفاته، المحمود على كلِّ حال.

٧- لعلَّ اللهَ تعالى يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من أقاربكم المشركين محبَّة ومودَّة بدخولهم الإسلام. والله قدير على كلِّ شيء، لا يُعْجزه شيء، غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

٨-٩- لا ينهاكم الله - أيُّها المؤمنون - عن الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يُخرِجُوكم من أوطانكم، أن تَبَرُّوا إليهم، وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم. إنَّ الله يحبُّ العادلين في جميع أمورهم. إنَّما ينهاكم الله عن مودَّة الذين حاربوكم بسبب الدين وأخرجوكم من أوطانكم، وناصروا الكفَّار على

إخراجكم، أن تَتَوَلَّوهم بالنصرة والمحبَّة. ومَنْ يَتَّخِذْهم أنصاراً على المؤمنين فأولئك البعداءُ عن الحقِّ هم الظالمون لأنفسهم ومجتمعهم.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمتْ عليَّ أُمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ قلتُ: إنَّ أُمي قدمتْ وهي راغبة، أفأَصِلُ أُمي؟ قال: «نعم، صِلي أُمَّكِ». (صحيح البخاري ٥/ ٢٧٥ - كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ برقم ٢٦٢٠، وصحيح مسلم ٢/ ٦٩٦ - كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم ١٠٠٣).

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب التأسي بالصالحين والاقتداء بهم.

٢- ﴿عَسَى﴾ من الله تفيد وقوع ما يرجى بها ووجوده لا محالة، بخلافها من غير الله فهي للترجِّي والتوقع، وقد يقع ما يُتَرجى بها وقد لا يقع. (أيسر التفاسير ٤/ ٢٢٤).

٣- العلاقات في المجتمع ينبغي أن تقوم على الأخوَّة في الله قبل الرحم والنسب.

٤- يجوز للمسلم أن يصل أقاربه المشركين إن لم يكونوا مُحارِبين، أمَّا المُحارِبون فلا تجوز صِلَتُهم بحال من الأحوال.

٥- جواز معاملة أهل الذمة بالإحسان، وجواز الاحتفاء بأعيانهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

١٠ - سبب النزول:

عن المسور بن مخرمة ومروان - يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه - قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق... فذكر الحديث بطوله، وفيه قوله: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أُم سَلَمَة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ فطلَّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أُمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة. (صحيح البخاري ٥/ ٩٢٣ - ٣٣٣، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، برقم ٢٣٧٢).

التفسير:

يا أيُّها المؤمنون، إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فاختبروهنَّ؛ لتتأكَّدوا من صدق رغبتهنَّ في الإسلام. الله أعلم بحقيقة إيمانهنَّ، فإن علمتموهُنَّ بعد الاختبار مؤمنات فلا تَرُدُّوهنَّ إلى أزواجهنَّ الكفَّار، لأنَّه لا تَحِلُّ المؤمنات للكفَّار، ولا يَحِلُّ للمؤمنين نكاح الكافرات، وأعطوا الأزواج الكفَّار ما أنفقوا من المهور على زوجاتهم المهاجرات إليكم. ولا حَرَجَ عليكم أن تتزَوَّجوا

هؤلاء المهاجرات إذا آتيتموهُنَّ صداقهنَّ، ولا تَتَمَسَّكوا بعقد زواج الكافرات الباقيات في دار الكفر أو اللاحقات بها، واطْلُبوا من الكفَّار ما أنفقتم من صداق نسائكم اللاتي ارتددن عن الإسلام، ولحقنَ بهم، وليطلبوا هم ما أنفقوا من صداق نسائهم اللاتي أسلمنَ، ولحقنَ بكم. ذلكم الحكمُ هو حكمُ الله الكريم يحكم به بينكم فخُذُوه بقوَّة. والله عليم بالأحوال، حكيم في الأقوال والأفعال.

١١ - وإن ارتدَّ بعض زوجاتكم ولَحِقْنَ بالكفَّار، ولم يعطكم الكفَّار صداقهنَّ الذي دفعتموه لهنَّ، ثمَّ تمكَّنتم من هؤلاء الكفَّار، فأعطوا الذين فقدوا زوجاتهم من الغنائم وغيرها مثل ما أعطوا من الصداق، واتقوا الله بطاعة أحكامه الذي أنتم به مصدِّقون.

١٢ - يا أيُّها النبيُّ، إذا جاءك النساء المصدِّقات بالله تعالى ورسوله ﷺ يعاهِدْنك على ألَّا يجعلنَ مع الله شريكاً في عبادته، ولا يسرقنَ شيئاً، ولا يزنينَ، ولا يقتلنَ أولادهنَّ بعد الولادة أو قبلها، ولا يُلْحِقْنَ بأزواجهنَّ أولاداً ليسوا منهم، ولا يُخالِفْنَك في معروف تأمرهنَّ به، فعاهِدْهنَّ على ذلك الأمر العظيم، واسأل الله لهنَّ المغفرة من ذنوبهنَّ. إنَّ الله غفور لذنوب عباده التائبين، عظيم المغفرة والرحمة.

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أنَّ رسول الله ﷺ كان يمتحن مَنْ هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمَنْ أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مَسَّتْ يدُه يدَ امرأة قطّ في المبايعة، ما يبايعهنَّ إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك». (صحيح البخاري ٨/ ٥٠٤ كتاب التفسير - سورة الممتحنة، الآية، برقم ٤٨٩١، وصحيح مسلم ٣/ ١٤٨٩، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، برقم ١٨٦٦).

١٣ - ينهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الذين غضب الله عليهم؛ لشركهم وكفرهم، أنصاراً وأصدقاء، قد تَمَكَّن اليأس في نفوسهم من ثواب الله في الآخرة، كمثل يأس الكفَّار من إحياء الأموات والاستفادة منهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يَحْرُمُ نكاح المؤمن من المشركة والمشرك من المؤمنة.

٢ - جواز زواج المؤمنات المهاجرات بعد أن يمضي عليهنَّ طُهرٌ، وبشرط دفع ما يَسْتَحْقِقْنَ من مهور.

٣- عن أُمِّ عطية رضي الله عنها قالت: بايَعْنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ونهانا عن النِّياحة، فقبضَتِ امرأةٌ يدَها، فقالت: أسْعَدَتْني فلانةٌ، فأريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ

شيئاً، فانطلقَتْ ورَجَعَتْ، فبايعها. (صحيح البخاري ٨/ ٥٠٦-كتاب التفسير- سورة الممتحنة، باب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ برقم ٤٨٩٢).

٤- التعويض على مَنْ خَسِرَ شيئاً من ماله حتى يأخذ كلُّ إنسان حقَّه، وتقوم الحياة على العدل والقسط.

٥- المرأة المسلمة لا تَحِلُّ للكافر، بل يجب طلاقها منه. وكذا المسلم لا يجوز استمرار زواجه بالمشركة.

٦- بيعة النساء دلالة على تكريم هذا الدين لهنَّ.

٧- تحريم مصافحة النساء للرجال الأجانب عنهنَّ؛ اقتداءً بالرسول ﷺ.

٨- تكرار موضوع الولاء في أوَّل السورة وآخرها دلالةٌ على أهميَّته.

٩- مكانة النساء ودورهنَّ العظيم في نصرة الدين، ومشاركتهنَّ في كل مراحل الدعوة.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- بيان بعض أحكام القتال وآدابه.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتثبيته لمواجهة معوقات الدعوة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾

١- سبب النزول:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٤١٢-٤١٣ برقم ٣٣٠٩ - كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصف، وأخرجه الدارمي (السنن ٢/ ٢٠٠ - كتاب الجهاد، باب الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/ ٤ برقم ٤٥٩٤)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٦٩)، وصححه الحافظ ابن حجر، فتح الباري ٨/ ٥٠٩).

التفسير:

يُبَيِّنُ الله تعالى عظمته في الكون، وإذعان جميع مخلوقاته له سبحانه، فكلُّ ما في السموات السبع وما في الأرضين السبع سَبَّح لله وبحمده؛ تمجيداً وتقديساً، وهو سبحانه العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

٢-٣- يعتب الله تعالى على المؤمنين: لِمَ تقولون من دعوى الإيمان ما لا تُصَدِّقونه بالفعل؟ عَظُمَ بُغْضاً عند الله أن تقولوا شيئاً، ثمَّ لا تفعلوه.

٤ - يثني الله على المجاهدين، ويؤكِّد محبَّته لهم، حينما يقاتلون في سبيل نصرة دينه، حالة كونهم صافِّين صفّاً، كأنَّهم بنيان متماسك محكم، لا ينفذ منه العدو.

٥- واذكر - أيُّها الرسول - حين خاطب موسى عليه السلام قومه مُستعطفاً بقرابة النسب: يا قومِ لماذا تُؤْذونني بالعصيان وسوء الأدب، وأنتم تعلمون يقيناً أنِّي رسول الله مرسل إليكم؟ فلمَّا انحرفوا عن الحقِّ صرف الله قلوبهم عن قبول اتِّباع الحقِّ. والله لا يهدي القوم المخالفين أوامرَه تعالى.

قال ابن كثير: «وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]».

٦- واذكر - أيُّها الرسول - حين قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا بني إسرائيل إنِّي رسول الله مرسل إليكم مُؤَيَّداً، ومصدِّقاً لما جاء قبلي من التوراة، ومبشِّراً بمجيء رسول يأتي من بعدي اسمه (أحمد)، وهو محمَّد ﷺ. فلمَّا جاءهم محمَّد ﷺ بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، زعموا أنَّ ذلك سحر واضح.

٧- ومَنْ أشَدُّ عدواناً ممَّنْ اختلق الكذب على الله، كاتهام رسل الله تعالى بالسحر، وادِّعاء الشركاء لله تعالى، وهو يُدْعَى إلى الدخول في دين الإسلام؟ والله لا يهدي القوم الظالمين أنفسهم ومجتمعهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تحريم الكذب وخُلْفُ الوعد؛ إذ قول القائل أفعل كذا ولم يفعل، كَذِبٌ وخُلْفٌ وَعْدٍ. ويُعَدُّ قولُه من المقت الذي هو أشدُّ البغض، ومَنْ مَقَتَه الله فقد أبغضه أشدَّ البغض، وكيف يفلح مَنْ مقته الله؟

٢- التحذير من مواصلة الذنب بعد الذنب، فإنَّه يؤدي إلى الطبع وحرمان الهداية.

٣- وجوب الوفاء بالنذر.

٤ - استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفاً كصفوف الصلاة، وأنَّه يُسْتَحَبُّ سَدُّ الفُرَجِ والخِلَلِ في الصفوف.

٥- فضل الجهاد في سبيل الله، والانضباط في القتال من أهم قواعد الحرب في الحاضر والماضي.

٦- الوَحْدة عامل مهم من عوامل القوة والنصر.

٧- تسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار قومه، وأَمْرُه بالصبر.

٨- يجب على المسلمين احترام الأنبياء، وعدم إيذائهم بالقول والفعل.

٩- الجزاء من جنس العمل كما في الآية (٥) في زيغ القلوب.

١٠ - في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ لا يُوَفِّق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٨- يريد هؤلاء الظالمون أن يَرُدُّوا حقائق القرآن العظيم بحرب الإشاعة التي أعلنوها ضدَّ النبي ﷺ، والله تعالى مظهر دينه وناصره، ولو كره المكذِّبون بالله ورسوله.

٩- الله سبحانه هو الذي بعث رسوله محمَّداً ﷺ بالقرآن ودين الإسلام؛ ليُغْلِبَه على كلِّ الأديان المخالفة بنشره والعمل به، ولو كره إظهاره المعاندون بالشرك.

١٠-١٣- يُرَغِّبُ الله تعالى المؤمنين في الجهاد بالنفس والمال: هل أُرْشِدكم إلى تجارة رابحة، تُنْقِذُكم من عذاب موجع؟ تواظبون على تصديقكم بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله بالأموال والأنفس. ذلكم العَرْضُ العظيم خير لكم من كلِّ تجارة سواها، إن كنتم تعلمون عظمة الصفقة الرابحة ذات المميزات الفريدة، إذ يغفر الله ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار العذبة، ويُكْرِمُكم بالمساكن الطيبة بكلِّ مواصفاتها في جنات إقامة دائمة. ذلك المقام الكريم هو الفلاح العظيم. وفي هذه الصفقة نعمة أخرى تُحِبُّونها، هي نَصْرٌ مُؤَزَّرٌ من الله تعالى، وفَتْحٌ عاجل. وبشِّر - أيُّها الرسول - المؤمنين بهذه التجارة العظيمة المتميزة.

١٤- يا أيُّها المؤمنون، كونوا أنصار دين الله، كما كان أصحاب عيسى عليه السلام أنصاراً لدين الله، حين قال لهم: مَنْ ينصرني، ويكون عوناً لي لنصرة دين الله؟ قال أصحابه المخلصون: نحن أنصار دين الله. فآمنت طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى عليه السلام، وكفرت طائفة أخرى منهم، فأيَّدْنا المؤمنين، ونَصَرْناهم على أعدائهم الكافرين، فأصبحوا غالبين بالحُجَّة والإيمان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: الطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في زمن عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾. (أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف ٧/ ٤٦١ وسنده صحيح).

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم الكذب على الله، وأنه من الكبائر العظيمة.

٢- تقرير أن الظَّلَمة يحاربون الحق وينصرون الباطل، بعد أن سيطر الظلم والضلال على عقولهم.

٣- في الآية (٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ النصر والعاقبة للإسلام وأنه سيعم الأرض.

٤- تقرير نبوَّة الرسول محمد ﷺ.

٥- إنَّ الله حكم - وحُكْمُه الحق - أن نور الإسلام سوف يَظْهَرُ، ويَعُمُّ أرجاء الأرض.

٦- إنَّ الله أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الإسلام؛ لما فيه خير العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

٧- ورد في الآية (١١) ذِكْرُ أربعة عناصر يُقَدِّمُها المؤمن، ويكون جزاؤه في أربعة أمور عظيمة، كما في الآية (١٢) و (١٣).

٨- في الآيات (١٠-١٣) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء الذين يداومون على إيمانهم بالله ورسوله، ويجاهدون في سبيل الله؛ لنصرة دينه بما يملكون من الأموال والأنفس، فإنَّ الله ﷻ سينصرهم على عدوهم.

٩- تقرير فضل الجهاد في سبيل الله، وهو على نوعين: الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال.

١٠- تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم، والثبات أمامهم، والتحذير من الزيغ عن ذلك.

١١- الترغيب في السخاء ببذل النفس والمال في سبيل إعلاء الحق، وزهق الباطل.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- تقرير توحيد الألوهية والربوبية لله تعالى.

٢- بيان بعض أحكام صلاة الجمعة.

٣- تقرير رسالة النبي ﷺ، وبيان مقاصدها الجليلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾

التفسير:

١- يلهج بالتسبيح والتحميد لله تعالى كلُّ ما في السموات السبع وما في الأرَضين السبع؛ تمجيداً وتقديساً له، وهو سبحانه المالك لكلِّ شيء المتصرِّف فيه، القُدُّوس: المُنَزَّه عن كل عيب، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

٢-٣- سبب النزول:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأُنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال قلت: مَن هم يا رسول الله؟ فلم يُراجِعْه حتى سأل ثلاثاً - وفينا سلمان الفارسي، وَضَعَ رسول الله ﷺ يده على سلمان - ثم قال: لو كان الإيمان عند الثُّرَيَّا لَناله رجال - أو رجلٌ من هؤلاء».

(صحيح البخاري ٨/ ٥١٠ - كتاب التفسير - سورة الجمعة، ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ برقم ٤٨٩٧. وصحيح مسلم ٤/ ١٩٧٢ - ١٩٧٣ - كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس بنحوه).

التفسير:

الله سبحانه هو الذي أرسل محمَّداً ﷺ رسولاً إلى العرب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة - إلا نادراً - وإلى الإنس والجنِّ أجمعين، يقرأ عليهم القرآن، ويُطَهِّرهم مِنْ دَنَسِ الشرك والمعاصي، ويُعَلِّمهم القرآن والسنَّة، وإن كانوا من قبلِ بعثته في انحراف عن الحقِّ ظاهر بالشرك والمعاصي، وبعثه سبحانه إلى أُمم آخرين بعد الصحابة ﷺ من شتَّى الأجناس إلى يوم القيامة. والله هو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبير خَلْقِه.

٤ - ذلك الأمر العظيم الشأن والشرف من بعثة النبيِّ ﷺ إلى الإنس والجنِّ كافَّة، فَضْلٌ من الله يعطيه مَنْ يشاء من عباده. والله وحده صاحب الفضل الواسع على خلقه.

٥ - مَثَل اليهود الذين عُلِّمُوا التوراة وكُلِّفوا العمل بها، ثمَّ لم يعملوا بها، كمثل الحمار يحمل كتباً لا يَعْرِفُ ما فيها. ساء مَثَلُ القومِ المكذِّبين بآيات القرآن، ومعجزات النبيِّ ﷺ. والله لا يهدي القوم المكذِّبين إلى اتِّباع الحقِّ حيث كانوا من الظالمين المعتدين على حقِّ الله تعالى ورسله وكتبه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - معجزة رسول الله ﷺ، فإنَّه مع كونه أُمياً بعثه الله يتلو على أُمته القرآن، ويُطَهِّرها من الشرك، ويشرح صدورها بالإيمان.

٢ - أعظم نِعَمِ الله على العرب وعلى العالم بعثةُ النبيِّ محمد ﷺ.

٣ - الدلالة على عموم رسالة محمد ﷺ لجميع الأُمم.

٤ - فضل صحابة رسول الله ﷺ من العرب ومن غيرهم.

٥ - في الآية (٣) معجزة من معجزات النبوة، وذلك إخبار عن غيب وقع، والبشارة بدخول أُمَمِ غيرِ العرب في الإسلام. (تفسير القاسمي ٩/ ١٥٩).

٦ - في الآية (٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ لا يُوَفِّقُ القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده، ويخرجون عن طاعته، سواء كانوا في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

٧ - ذَمُّ مَنْ يحفظ كتاب الله، ولم يعمل بما فيه.

٨ - التنديد بمَنْ يأتيه كتاب الله، ولا يعمل به أو يكفر به، ووَصْفُه بأسوأ الأوصاف.

٩ - تحذير المؤمنين من مشابهة اليهود في ترك كتابهم القرآن.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦-٧- قل - أيُّها الرسول - لليهود الذين يزعمون أنَّهم أحبَّاءُ الله: إنْ زعمتم أنَّكم أحبَّاء الله دون غيركم من الناس فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين في ادِّعائكم حُبَّ الله لكم. ولا يتمنَّون الموت أبداً حرصاً على الحياة الدنيا؛ بسبب ارتكابهم الجرائم. والله عليم بالمعتدين.

٨- قل - أيُّها الرسول - لهؤلاء اليهود: إنَّ الموت الذي تهربون منه فإنَّه مدرككم، ثمَّ تُرْجَعُون يوم البعث إلى الله العالم بكلِّ ما غاب وما حضر، فيخبركم بكلِّ ما كنتم تعملون في الدنيا للجزاء عليه.

٩-١٠- يا أيُّها المؤمنون، إذا أُذِّن لصلاة الجمعة الأذان الثاني فامْضُوا إلى سماع الخطبة والصلاة، واتركوا البيع والشراء، وكلَّ ما يشغلكم عن الصلاة. ذلك الأمر العظيم الشأن خير لكم، إن كنتم تعلمون ما فيه من الخير ورضا الله تعالى، وإذا أدَّيتم الصلاة فانتشروا في الأرض، واطلبوا من رزق الله بسعيكم، واذكروا الله ذِكْراً كثيراً؛ لكي تفوزوا برضاه.

١١- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبلَتْ عِيرٌ يوم الجمعة - ونحن مع النبي ﷺ - فثار الناسُ إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٥١١ -كتاب التفسير- سورة الجمعة برقم ٤٨٩٩. وصحيح مسلم ٢/ ٥٩٠ - كتاب الجمعة، باب في قوله تعالى: (الآية)، برقم ٨٦٣).

التفسير:

يعتب الله على بعض المسلمين أنَّهم إذا رأوا تجارة أو لهو الدنيا وزينتها أقبلوا عليها، وتركوك - أيُّها الرسول - قائماً على المنبر وأنت تخطب، قل لهم: ما عند الله الكريم من الجزاء العظيم خير من اللهو بزينة

الدنيا، وخير من التجارة مهما كانت رابحة. والله تعالى خير مَنْ رزق وأعطى، فاطلبوا الرزق منه في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان أن ذوي الجرائم أكثر الناس خوفاً من الموت وفراراً منه .

٢- في الآيتين (٦-٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ اليهود لا يَتَمَنَّون الموت أبداً، إيثاراً للحياة الدُّنيا على الآخرة، وخوفاً من عقاب الله لهم؛ بسبب ما قَدَّموه من الكفر وسوء الفعال. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ هؤلاء اليهود يعلمون علم اليقين بأنَّهم مذنبون بكفرهم وسوء فعالهم، لذلك لا يتمنَّون الموت، ويُؤْثرون الحياة الدُّنيا على الآخرة، ويخافون من عقاب الله لهم. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ عليم بالظَّالمين - سواء مَنْ كانوا في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فهو لا يخفى عليه من ظلمهم شيء.

٣- تقرير واقعة البعث والجزاء وإحصاء الأعمال، ثم الجزاء عليها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٤- أهمية المسارعة في طاعة الله، ومن أعظم الطاعات صلاة الجمعة.

٥- وجوب صلاة الجمعة والذهاب إليها، عند سماع النداء الثاني.

٦- تحريم البيع والشراء وسائر العقود، إذا شرع المؤذن يؤذِّن الأذان الثاني.

٧- في الآية (١٠) دلالة على تقديم الخطبة على الصلاة.

٨- مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة في الصلاة.

٩- إنَّ مَنْ توكل على الله، وفَوَّضَ أَمْرَه إليه، وعَمِلَ بالأسباب الموجبة، رَزَقَه من حيث لا يحتسب؛ لأنَّه خير الرازقين.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - التحذير من المنافقين ومكايدهم.

٢ - بيان طرق الوقاية من آفة النفاق وكيد المنافقين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن زيد بن أرقمَ ﷺ قال: «خَرَجْنا مع النبي ﷺ في سَفَرٍ أصاب الناسَ فيه شدة، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه: لا تُنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا مِنْ حوله. وقال: لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فأتيت النبي ﷺ فأخبرتُه، فأرسل إلى عبد الله بن أُبيّ فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل. قالوا: كَذَب زيدٌ رسولَ الله ﷺ. فوقع في نفسي ممَّا قالوا شِدَّةٌ، حتى أنزل الله ﷻ تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفرَ لهم، فلَوَّوا رؤوسهم. وقوله: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء». (صحيح البخاري ٨/ ٥١٥ - كتاب التفسير - سورة المنافقون، باب قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ برقم ٤٩٠٣، وصحيح مسلم ٤/ ٢١٤٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم ٢٧٧٢).

التفسير:

يُحَذِّرُ الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين من دجل المنافقين ومكرهم: إذا جاءك - أيُّها الرسول - المنافقون وقالوا بألسنتهم رياءً: نشهد بأنَّك يا محمَّد رسول الله حقّاً، والله تعالى يعلم أنَّك رسوله حقّاً، والله يشهد بكذب المنافقين قطعاً.

٢-٣- اتَّخذوا أَيْمانهم الفاجرة وقايةً لهم من القتل والأسر، فمنعوا أنفسهم والناس عن دين الله. بئس ما كانوا يقترفون من الجرائم، ذلك الإفساد بسبب أنَّهم أعلنوا الإيمان بألسنتهم فقط، ثمَّ كفروا بقلوبهم، فختم الله على قلوبهم؛ بسبب كفرهم، فهم لا يفهمون اتِّباع الحقِّ.

٤- وإذا رأيتهم - أيُّها الرسول - تُعْجِبُك هيئاتهم، وإن يتكلَّموا تُصْغِ لكلامهم؛ لفصاحة حديثهم، كأنَّهم أخشاب مُسَنَّدة إلى الحائط؛ لفراغ قلوبهم من الإيمان والعلم النافع، يحسبون كلَّ صوت ونداء عليهم، وأنَّهم مقصودون بذلك، فهم على خوف دائماً. هم الأعداء حقّاً، فاحْذَرْهم، أخزاهم الله ولعنهم، كيف يعدلون عن الحقِّ، ويتمسَّكون بالباطل والضلال؟

٥- وإذا نصحهم الصحابة ﷺ بأن يأتوا إلى رسول الله ﷺ تائبين؛ ليطلب لهم المغفرة من الله تعالى حَرَّكوا رؤوسهم سخرية وإصراراً على الكفر، ورأيتهم يُعْرِضُون عن الاستغفار، وهم مُتَكَبِّرون عن التوبة.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب الحذر من المنافقين؛ لما يتصفون به من الخداع والكذب، والتلبيس على الناس والحَلْف الكاذب.

٢- من صفات المنافقين صَدُّهم عن سبيل الله بما يفعلونه في السر من محاربة المؤمنين.

٣- التحذير من الاستمرار على المعصية، فإنَّه يُوجب الطبع على القلب، ويَحرم صاحبه الهداية.

٤- تقرير أنَّ مظهر الإنسان لا يُنْبِئ عن حقيقته.

٥- الكشف عن نفسية الخائن والظالم والمجرم، وهو الخوف والتخوف من كل سوء؛ خشية أن يكون ذلك بياناً لحالهم، وكشفاً لجرائمهم.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦- سواءٌ على هؤلاء المنافقين استغفارُك لهم - يا محمد - أو عدم استغفارك. لن يصفح الله تعالى عنهم؛ لإصرارهم على النفاق. إنَّ الله لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الحقِّ.

٧- يفضح الله تعالى قبائح المنافقين، بأنَّهم هم الذين يقولون لأهل المدينة: لا تُنفقوا على المهاجرين من أصحاب محمَّد حتى يتركوه. ومن القائلين بذلك عبد الله بن أُبي رأسُ النفاق. ولله وحدَه ملك خزائن السموات السبع والأرَضين السبع، يرزق جميع المخلوقات، ولكنَّ المنافقين لا يفهمون تدبير الله لمخلوقاته.

٨- ومن فضائحهم قول رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بغرور: والله إن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ فريقُنا الأقوى فريقَ المؤمنين الأذلَّ. ولله تعالى العزَّة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين الصادقين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون تلك الحقيقة.

٩-١٠- يا أيُّها المؤمنون، لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن عبادة الله، ومَنْ تشغله الدنيا عن الآخرة وعبادة الله تعالى فأولئك البُعَداءُ عن الحقِّ، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة. وأَنْفِقُوا من أموالكم التي رزقناكم في وجوه البرِّ من قبل مجيء علامات الموت، فيقول أحدكم: يا ربِّ هَلَّا أَمْهَلْتني، وأَخَّرْتَ موتي إلى زمن قليل، فأُنفق من مالي، وأُصبح من الصالحين العاملين بأحكامك.

١١- ولن يُؤَخِّرَ الله تعالى نفساً عن الموت إذا حضر أجَلُها المكتوب. والله خبير بكلِّ ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ وسيجازيكم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير مخاطر المنافقين على الأُمة، وتفريقهم لها، وتآمرهم عليها.

٢- لا يجوز الاستغفار للمنافقين ولا محبتهم، ولا الاجتماع بهم، ولا الصلاة عليهم في حال موتهم.

٣- في الآيات (٩-١١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ تشغله أمواله وأولاده عن عبادة الله وطاعته، فهو مغبونٌ حَظَّه من كرامة الله ورحمته. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بأنَّ مَنْ لم يبادر إلى الإنفاق ببعض ما أعطاه الله في طرق الخير، وجاءه الموت وبدأ يرى دلائله وعلاماته فإنَّه سيقول نادماً: ربِّ هَلَّا أَمْهَلْتني، وأَجَّلْتَ موتي إلى وقت قصير.

٤- الرزق كله من عند الله يرزق البَرَّ والفاجر، ولا يقدر أحد على مَنْعِه؛ لأنَّه سبحانه المعطي المانع.

٥- النصر والغلبة تكون دائماً للمؤمنين في كل زمان ومكان.

٦- النفاق يطبع على قلوب أصحابه فلا يقدرون على تمييز الحق من الباطل.

٧- وجوبُ ذِكْرِ الله، وتحريم الاشتغال بالمال والولد عن دين الله، وأنَّ مَنْ يفعل ذلك من الخاسرين.

٨- العزة الحقُّ لله ولرسوله وللمؤمنين، فلذا يجب على المؤمن ألَّا يذلَّ ولا يهون لكافر.

٩- حرمة تأخير الحج مع القدرة على أدائه تسويفاً، مع الإيمان بفَرْضيته.

١٠- عظمة الصدقة، وفِعْلُ الأعمال الصالحة من البر والإحسان.

١١- الإنفاق في سبيل الله من أخلاق المؤمنين، والإمساك من أخلاق المنافقين.

١٢- إنَّ الله لا يؤخر أجل نفس إذا استوفته.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١- تقرير التوحيد والبعث.

٢- الموعظة من هلاك الأُمم السابقة.

٣- الحث على طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾

التفسير:

١- يلهج بالتسبيح لله تعالى جميع ما في السموات السبع وما في الأرَضين السبع وما بينهما؛ تنزيهاً عمّا لا يليق به، وتمجيداً وتقديساً لعظمته، له سبحانه الملك، والتصرُّف في كلِّ شيء، وله الثناء الكامل والشكر الشامل في كلِّ وقت، وهو على كلِّ شيء قدير لا يعجزه شيء.

٢-٣- الله تعالى هو الذي خلقكم أيُّها الناس: فريق منكم جاحد به، وفريق منكم مُصَدِّق به، مُقِرٌّ له بالتوحيد. والله بكلِّ ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ بصير، لا يخفى عليه شيء، أبدع خلق السموات السبع والأرَضين السبع بالحكمة البالغة، والغاية المقصودة، وخَلَقكم في أحسن تقويم وهيئة، وإليه المرجع يوم القيامة.

٤- يُبيِّنُ الله تعالى سَعَةَ عِلْمِه بما في السموات السبع والأرَضين السبع، وما بينهما، ويعلم كلَّ ما تخفونه وما تظهرونه. والله عليم بما في الصدور من الأسرار.

٥-٦- يُنْكِرُ الله تعالى على المشركين موبِّخاً لهم: ألم يأتكم خبر الكفَّار السابقين الذين أصابهم العقاب جزاء كفرهم، ولهم عذاب النار الموجع؟ ذلك العقاب العظيم في الدنيا والآخرة؛ بسبب إنكارهم على

الرسل التي جاءتهم بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، فقالوا: هل بشر مثلنا يَهْدُوننا إلى الحقِّ؟ فكذَّبوا رسلهم، وأعرضوا عن اتِّباع الهدى، واستغنى الله عن عبادتهم. والله غني عن خلقه، محمود في كلِّ حال.

الفوائد والاستنباطات:

١ - كلُّ ذرة في الوجود تُسَبِّحُ الله المعبود، فهو مالك الملك، المستحق للحمد.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٣- إثبات البعث والجزاء.

٤ - وجوب مراقبة الله تعالى، والحياء منه؛ لأنَّه عليم بذات الصدور.

٥ - وجوب الاعتبار بما حَلَّ بالأُمم السابقة من الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٧- زعم الكفَّار أنَّهم لن يَخْرُجوا من قبورهم أحياء يوم القيامة. قل لهم أيُّها الرسول: بلى قسماً بربِّي لَتَخْرُجُنَّ حقّاً من قبوركم أحياء، ثمَّ لَتُخْبَرُنَّ الأخبار الشنيعة بما ارتكبتموه في الدنيا. وذلك البعث والإخبار سَهْلٌ على الله تعالى.

٨- فصَدِّقوا - أيُّها المشركون - بالله ورسوله، والقرآن الكريم الذي أنزلناه على رسولكم، والله بكلِّ ما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء.

٩- يوم القيامة يجمعكم - أيُّها العباد - ليوم الحشر، ذلك يوم القيامة الذي يظهر فيه غبن الكافر نفسه بتكذيبه لرسل الله، وغبن المؤمن نفسه بتقصيره في طاعة الله، ومَنْ يُصَدِّق بالله ويُقِرَّ له بالوحدانية، ويعمل بأحكام الله، يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات نضرة، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً. ذلك المقام العالي الكريم هو الفلاح الحقيقي العظيم.

١٠ - والذين كَذَّبوا بالله وبالآيات والمعجزات التي جاء بها الرسل من عند الله، أولئك الكفَّار البعداء عن رحمة الله، هم أهل النار ماكثين فيها أبداً. وقَبُحَ المرجع الذي صاروا إليه في نار جهنَّم.

١١ - يُطَمْئِنُ اللهُ تعالى عباده الذين نزلت بهم المصائب: أنَّ كلَّ ما أصيب به العبد من محنة، فإنَّما هو بقضاء الله وقدره، ومَنْ يُصَدِّق بالله، ويُقِرَّ له بالتوحيد، يَهْدِ قلبه لأركان الإيمان، وللتسليم والرضا بقضائه سبحانه، والله تعالى بكلِّ شيء من الأشياء عليم لا يخفى عليه شيء منها.

١٢ - وأطيعوا الله تعالى في أحكامه العظيمة، وأطِيعوا الرسول في حكمته الكريمة، فإن أَعْرَضْتُمْ عن هذه الطاعة فليس على رسولنا مسؤولية إلا أن يُبَلِّغكم ما أُرسل به بلاغاً في غاية البيان.

الفوائد والاستنباطات:

١- بعث الخلائق ونشورهم واقع لا ريب فيه.

٢- يوم القيامة هو اليوم الذي يغبن فيه الكافرون؛ بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله.

٣- ممَّا يُخَفِّفُ وَقْعَ المصيبة اعتقادُ المؤمن أنَّها قَدَرٌ مُقَدَّر.

٤- في الآيتين (١١-١٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله سبحانه لا يصيب أحداً بشيء من البلاء — سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - إلا بإذنه وقضائه وقدره. وأنَّ مَنْ يؤمن بالله يهد قلبه، للتسليم بأمره والرضا بقضائه. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أن الله ﷻ بكلِّ شيء عليم - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - لا يخفى عليه شيء من ذلك. وأنَّ مَنْ أعرض عن طاعة الله ورسوله، فليس على الرسول ضَرَرٌ في إعراضه، وإنَّما على الرسول أن يُبَلِّغ ما أرسل به بلاغاً واضح البيان.

٥- وجوب الصبر عند نزول المصيبة والرضا، والتسليم لله تعالى في قضائه وحكمه، ومَنْ تكن هذه حالُه يهد الله قلبه ويرزقه الصبر وعظيم الأجر، ويلطف به في مصيبته، وإن هو استرجع قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون، أَخلفه الله عَمَّا فقده، وآجره.

٦- ما من مصيبة تحدث ولا نازلة تنزل إلا بإذن الله وقَدَرِه. وهذا يقتضي الصبر عند المصائب، والرضا بقضاء الله.

٧- وجوب طاعة الله وطاعة رسوله فيما أمر به وما نهى عنه.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١٣ - الله وحدَه لا معبود بحقٍّ سواه، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون.

١٤ - يا أيُّها المؤمنون، إنَّ بعض أزواجكم وأولادكم أعداء لكم، يشغلونكم عن طاعة الله، وعمل الخير؛ بسبب حُبّكم لهم، فاحذروا موافقتكم لهم في ذلك. وإن تعفوا عن ذنوبهم بترك العقاب، وتَصْفَحوا عنهم بالإعراض عنها، وتَرْك اللوم، وتستروها عليهم، فإنَّ الله عظيم المغفرة لعباده التائبين، عظيم الرحمة بهم.

١٥ - إنَّما أموالكم وأولادكم اختبار لكم، فقد تشغلكم مسايرتهم عن طاعة الله. والله عنده ثواب عظيم.

١٦ - فاتقوا الله بامتثال أَمْرِه، واجتناب نهيه على قَدْرِ جُهْدِكم، دونَ التكلُّف فوق طاقتكم، واسمعوا ما تُوعَظون به، وأطيعوا الله ورسوله، وتَصَدَّقوا من أموالكم في وجوه البرِّ، يكن ذلك خيراً لأنفسكم، ومَنْ سَلِمَ من البخل والطمع فأولئك أصحاب الدرجات العالية، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

١٧-١٨- إن تَصَدَّقْتُم في سبيل الله عن طِيب نفس، يضاعف الله لكم الثواب أضعافاً كثيرة، ويغفر لكم ذنوبكم. والله شكور للمحسنين، حليم بالمذنبين لا يعاجلهم بالعقوبة، وهو سبحانه عالم بكلِّ ما غاب وما حضر، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب التوكل على الله تعالى، وهو فعل المأمور وترك المنهي، وتفويض الأمر لله بعد ذلك.

٢- بيان أنَّ مِنْ بعض الزوجات والأولاد عدواً، فعلى المؤمن أن يحذر ذلك؛ ليَسْلَمَ مِنْ شَرِّهم.

٣- عداوة بعض الأولاد لوالديهم، والزوجات لأزواجهنَّ، وكونهم فتنة لهم.

٤- التحذير من الانشغال بالأولاد والأزواج عن عبادة الله تعالى.

٥- عن بُريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما. (أخرجه الترمذي وحسنه السنن ٥/ ٦٥٨ برقم ٣٧٧٤ - كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٥١-١٥٢ برقم ١٨٠١) وابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٠٢ برقم ٦٠٣٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك (١/ ٢٨٧) وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه برقم ٢٩٠٠). وحَسَّن محققا ابن خزيمة وابن حبان إسناده).

٦- في الآية (١٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ سَلِمَ من البخل ومَنْعِ الفضل من المال، فهو الظَّافر بكلِّ خير، الفائز بكلِّ مطلب.

٧- في الآية (١٧) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ أنفق أمواله في سبيل الله بإخلاصٍ وطيبِ نفس، فإنَّ الله ﷻ سيضاعِفُ له ثواب ما أنفق، ويغفر له ذنوبه. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ شكور لأهل الإنفاق بحسن الجزاء على ما أنفقوا. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ حليمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبة مَنْ عصاه.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الطلاق.

٢- تقرير حقوق المرأة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١ - يُخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بشرف النبوَّة؛ لبيان حقوق المرأة في الطلاق، ليعمل بذلك هو والمؤمنون: إذا عزمتم على طلاق نسائكم فطلِّقوهنَّ في طُهْرٍ لم يَقَعْ فيه جِماع، واضبطوا وقتَ العِدَّة، واتَّقوا الله في طاعة أحكامه، لا تُخرِجُوا المُطلَّقات من البيوت التي يَسْكُنَّ فيها إلى أن تنقضيَ عِدَّتُهنَّ كاملة بثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار وَفْقَ مصلحة للزوجين. ولا يجوز لهنَّ الخروج منها إلا إذا وقعت في فاحشة الزنى، فتخرج لإقامة الحدِّ عليها. وتلك أحكام الله العالية القدر، ومَنْ يتجاوز هذه الأحكام فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، لا تدري - أيُّها المُطلِّق - لعلَّ الله يُحْدِثُ بعد طلاقك إيَّاها رجعة.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يقول: إذا طلَّقتم قال: في الطهر في غير جِماع. (أخرجه الطبري، وصححه الحافظ ابن حجر (الفتح ٩/ ٣٤٦).

٢-٣- فإذا قاربن انقضاء عدتهنَّ، فيجب أن تراجعوهنَّ مع حُسن المعاشرة والإنفاق عليهنَّ، أو فارِقوهنَّ بمعروف بوفاء حقهنَّ، وأشْهِدوا على الرجعة أو الطلاق رجلين عدلين منكم، وأقيموا - أيُّها الشهود - الشهادة بالحقِّ دون تحيُّز لأحد. ذلكم الأمر العالي الشأن في هذه الأحكام يُوعَظُ به مَنْ كان يُصَدِّق بالله وباليوم الآخر، ومَنَ يَتَّقِ الله بطاعة أحكامه يجعل له مخرجاً من كلِّ ضيق، ويُسَهِّلْ عليه أسباب

الرزق من حيث لا يخطر على باله. ومَنْ يعتمد على الله فهو كافِيه، إنَّ الله نافذٌ أَمْرَه وقضاءه. قد جعل لكلِّ شيء مقداراً لا يتعدَّاه.

٤ - والمطلَّقات اللَّاتي انقطع عنهنَّ دم الحيض لكِبَرِ سنِّهنَّ، إن شككتم في عدتهنَّ فحكمهنَّ: العدَّة ثلاثة أشهر قمرية، والمطلَّقات الصغيرات اللَّائي لم يحضن فعدتهنَّ ثلاثة أشهر أيضاً، والحوامل عِدَّتُهنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهنَّ. ومَنْ يَتَّقِ الله في طاعة أحكامه يُسَهِّل عليه أمره في الدنيا، ويُوَفِّقه في الآخرة.

عن أبي سَلَمَةَ قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالسٌ عنده فقال: أفتني في امرأة وَلَدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: آخر الأجلين، قلتُ أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة ﷺ: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمة، فأرسل ابنُ عباس إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتل زوجُ سُبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضَعَتْ بعد موته بأربعين ليلة، فخُطِبَتْ، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمَنْ خطبها. (صحيح البخاري ٨/ ٥٢١ - ٥٢٢ - كتاب التفسير - سورة الطلاق - ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ برقم ٤٩٠٩).

٥ - ذلك المذكور من الأحكام العالية القَدْر أَمْرُ الله الذي أنزله إليكم - أيُّها العباد - لتأخذوا به بجِدٍّ، ومَنْ يَتَّقِ الله بطاعة أحكامه يَمْحُ عنه ذنوبَه، ويجزل له الثواب بدخوله الجنَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الطلاق معالجة مشكلة أسرية اجتماعية، ولكن هذا العلاج بعد معالجات سابقة هو بمنزلة: «آخر الدواء الكَيّ».

٢ - بيان السُّنَّةِ في الطلاق، وهي أن يُطَلِّقَها في طُهْرٍ لم يَمَسَّها فيه بجِماع. عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه طلق امرأته وهي حائض. في عهد رسول الله ﷺ. فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «مُرْه فليُراجِعْها، ثمَّ ليتركها حتى تطهر، ثمَّ تحيض، ثمَّ تطهر. ثمَّ إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العِدَّةُ التي أمر الله ﷻ أن يطلق لها النساء». (صحيح مسلم ٢/ ١٠٩٣ كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها برقم ١٤٧١).

٣ - وجوب إحصاء العدَّة؛ ليعرف الزوج متى تنقضي عدة مطلقته؛ لما يترتب على ذلك من أحكام الرجعة والنفقة والسكنى.

٤ - وجوب السكنى للمطلقة ما دامت في عدَّتها.

٥ - تحريم إخراج المرأة من بيت الزوجية إلى أن تنقضي عِدَّتُها، مالم ترتكب فاحشة ظاهرة كالزِّنى.

٦- بما أنَّه ثبت عن الصحابة والتابعين الوجهان في معنى القُرْء بأنَّه الطهر، فيُنظر في مصلحة الزوجين أيهما أفضل، فإذا كان الأمل بالإصلاح فينظر في أبعد الأجلين، وإذا كان الأمل معدوماً وقد بلغ الخلاف ذروته، فينظر في أقرب الأجلين، فيكون الجمع بين الوجهين. وينظر تفسير سورة البقرة الآية (٢٢٨).

٧- في الآية (١) إخبار مستقبليٌّ أنَّ مَنْ تجاوز أحكام الله، فقد ظلم نفسه، وأوردها مورد الهلاك.

٨- لا تَصِحُّ الرَّجْعَةُ إلا في العِدَّة، فإن انقضتِ العِدَّةُ فلا رَجْعَةَ للمطلقة، ولها أن تتزوج مَنْ شاءت هو أو غيره من ساعة انقضاء عدتها.

٩- إذا قاربت عدة الزوجة المطلقة على الانتهاء وجب على الزوج عزم أمره: إمَّا الاستمرار في الطلاق، أو الرجعة قبل نهاية المدة.

١٠- لا تَحِلُّ المراجعة للإضرار، ولكن للفضل والإحسان وطيب العشرة.

١١- وجوب الإشهاد على النكاح، واستحباب الإشهاد على الطلاق والرجعة. أخرج الطحاوي - من طرق يقوي بعضها بعضاً - عن عمران بن حصين في رجل طلق ولم يُشْهِدْ، وراجع ولم يُشْهِدْ قال: بئس ما صنع، طَلَّق في غير عدة، وراجع في غير سُنَّة. ليُشْهِدَ على ما صنع. (أحكام القرآن ٢/ ٣٢٨ برقم ١٨٠٤-١٨٠٧).

١٢- في الآيتين (٢-٣) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ خاف الله فعمل بما أمره به، واجتنب مانهاه عنه، فإنَّه سيجعل له مخرجاً من كلِّ ضيق، ويُسَبِّب له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانه. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو جزاءُ مَنْ تَوَكَّل على الله، فإنَّ الله هو كافيه ما أهمَّه في جميع أموره. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ بالغُ أمره، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وفيهما إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله - جَلَّت قدرتُه - قد جعل لكلِّ شيء أجلاً ينتهي إليه، وتقديراً لا يتجاوزه.

١٣- لا يجوز للزوج أن يُمْسِكَ زوجته بعد طلاقه إيَّاها؛ ليُضِرَّها بإمساكها.

١٤- عِدَّةُ المطلقات الحوامل وَضْعُ الحَمْلِ، بقطع النظر عن المُدَّة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾

التفسير:

٦- أسكِنوا - أيّها المؤمنون - المطلَّقات المعتدَّات في مساكن مثل مساكنكم، على قَدْر سَعَتكم، ولا تُلْحِقُوا بهنَّ ضرراً في السكن أو النفقة، وإن كانت المُطلَّقاتُ حواملَ فأنفِقُوا عليهنَّ في عِدَّتهنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهنَّ، فإن أرضعنَ لكم أولادكم منهنَّ بأجرة بعد الفراق، فأعطوهنَّ أجورهنَّ مقابل الرضاع، ولتكن أُموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مَضارَّة، وإن لم تنفقوا على إرضاع الأمّ، أو طلبت الأُمّ أكثر ممَّا يحقُّ لها، فيَحِقُّ للأب استئجار مرضعة أخرى.

عن فاطمة بنت قيس، أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة. ثم أخذ الأسود كفَّاً من حصى فحصبه به، فقال: وَيْلَكَ! تُحَدِّثُ بمثل هذا. قال عمر: لا نترك كتاب الله وسنة نبيِّنا ﷺ لقول امرأة، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت لها السكنى والنفقة. قال الله ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. (صحيح مسلم ٢/١١١٨-١١١٩، بعد حديث ١٤٨ - كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها).

٧- لينفِقْ الموسِرُ ممَّا أعطاه الله على المطلَّقات والمرضعات، ومَنْ ضُيِّقَ عليه رزقه فليُنْفق على قدر طاقته. لا يُكَلِّف الله نفساً إلا بقَدْرِ ما أعطاها الله من الرزق، سيُبَدِّل اللهُ العُسْرَ يُسْراً عاجلاً أو آجلاً.

٨-٩- وكثير من القرى تجبَّرَ أهلُها، وأعرضوا عن أمر الله ورسله، فحاسبناهم على جرائمهم حساباً شديداً، وعَذَّبناهم عذاباً عظيماً مُنكراً، فذاقوا سوء عاقبة تَجَبُّرِهم وكُفْرِهم، وكان جزاء كفرهم دماراً في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

١٠-١١- أعَدَّ الله هؤلاء المتجبِّرين عذاباً شديد الألم، فاتقوا الله بطاعة أحكامه يا أصحاب العقول السليمة، الذين أقرُّوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، قد أنزل الله إليكم قرآناً عظيماً، وأرسل رسولاً كريماً، يتلو عليكم آيات من كلام الله تعالى، مُفَصَّلات في غاية البيان؛ كي يخرج المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة من غَواية الشيطان إلى هداية الرحمن. ومَنْ يُصَدِّق بالله، ويعمل بطاعته سبحانه، يُدْخِلْه جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ماكثين فيها أبداً، قد وَسَّعَ الله له رزقه في الجنَّة.

١٢- الله تعالى وحده الذي خلق سبع سموات، وخلق سبعاً من الأرَضين، يتنزَّل باستمرار وحي الله بأمره وقضائه إلى رسله بين السموات والأرضين؛ لتعلموا - أيُّها العباد - أنَّ الله على كلِّ شيء قدير لا يعجزه شيء، قد أحاط حقَّاً بكلِّ شيء عِلْماً، فلا تخفى عليه خافية.

الفوائد والاستنباطات:

١- وجوب السكن والنفقة لِـمَنْ طلقت طلاقاً رَجْعِيّاً، وكذا للمطلقة الحامل حتى تضع ولدها.

٢- تستحق المطلقة نفقة إن أرضعت الطفل، فنفقة الولد على الوالد.

٣- الأم لا تُجْبَرُ على الرضاع حيث وُجِدَ غيرُها، وقَبِلَ الصبيُّ ثديها، وإلا أُجبرت على الإرضاع.

٤- المطلقة طلاقاً بائناً إن أرضعت ولدها لها أجرة إرضاعها، حسب اتفاق الطرفين الأم والأب.

٥- بيان مِنَّةِ الله على هذه الأمة بإنزال القرآن عليها، وإرسال الرسول ﷺ إليها.

٦- قدرة الله تعالى وعظمة صُنْعِه في خلق الكون؛ ممَّا يقتضي من العباد توحيده، والعمل في طاعته وتحكيم شرعه.

٧- في الآية (١٢) إخبار مستقبليٌّ عن الحكمة في خلق الله السموات السبع والأرَضين السبع، وإنزاله الأمر ممَّا أوحاه إلى رسله، وما يُدَبِّر به خَلْقَه بين السموات والأرض؛ وذلك كي يعلمَ النَّاسُ أنَّ الله على كلِّ شيء قدير لا يعجزه شيء، وأنَّه قد أحاط بكلِّ شيء عِلْماً، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته.

٨- ينظر: مخطط طبقات الأرض السبع، كما في الملحق.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - التحذير من تحريم ما أحلَّ الله تعالى.

٢ - بيان أدب المرأة المسلمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾

١ - سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتوصَّيْتُ أنا وحفصة أن أيَّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقُلْ: إنِّي لأجد منك ريح مَغافير، أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: «لا بأس، شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له»، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربتُ عسلاً. (صحيح البخاري-الطلاق، باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ برقم ٥٢٦٧).

التفسير:

يُخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بشرف النبوَّة، ويعتب عليه حينما امتنع من وَطْء أَمَة له، إذ حلف ألَّا يطأها؛ مراعاةً لرغبة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وأوصى حفصة ألَّا تحدِّثَ أحداً بالحَلْف، أو جاء العتاب حينما امتنع عن شرب العسل بعد أن شربه عند زينب رضي الله عنها، فاتفقت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنّي لأجد منك ريح مَغافير - وهو مادَّة نباتية حُلْوَةٌ لها رائحة كريهة-. فقال الرسول ﷺ لحفصة: لا بأس، شربتُ عسلاً عند زينب، ولن أعود له. من أجل ذلك جاء العتاب: لِمَ تمتنع عن هذا الأمر الذي أحلَّه الله لك، تبتغي إرضاء عائشة وحفصة رضي الله عنهما؟ والله عظيم المغفرة والرحمة.

٢- قد شرع الله تعالى لكم - أيُّها المؤمنون - ما تَتَحَلَّلُون به من أيمانكم بأداء الكفَّارة، بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيام، والله ناصرُكم ومُتَوَلِّي أمركم، وهو العليم بتدبير خلقه، الحكيم بأحكامه.

٣- وإذ أَسَرَّ النبي إلى زوجته حفصة رضي الله عنها ما امتنع عنه من نكاح الأمة، أو شرب العسل، فلمَّا أخبرت عائشة بذلك، وأطلعه الله على إفشائها سِرَّه لعائشة رضي الله عنها، أعلم حفصة بعض ما أفْشَتْ به، وأعرضَ عن إعلامها بعضَه تَكَرُّماً. فلمّا أخبرها بما أَفْشَتْ من الحديث قالت متعجِّبَةً: مَنْ أخبرك بأنّي أفشيتُ سِرَّك؟ فأجاب النبي ﷺ: أخبرني به الله العليم، الخبير بالسرِّ والعلن.

٤- يعتب الله على عائشة وحفصة رضي الله عنهما بسبب غَيْرتهنَّ: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما محبَّة ما كرهه رسول الله ﷺ من إفشاء سِرِّه، وإن تتعاونا على النبي بما يسوءُه فإنَّ الله وليُّه وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد نصرة الله أعوان له على مَنْ يؤذيه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أردتُ أن أسأل عمر ؓ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، مَنِ المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممتُ كلامي حتى قال: عائشة وحفصة».

(صحيح البخاري ٨/ ٥٢٦ - كتاب التفسير - سورة التحريم - ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ برقم ٤٩١٤).

٥- سبب النزول:

عن عمر ؓ: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيرة عليه، فقلتُ لهنَّ: عسى ربُّه إن طَلَّقكن أن يُبَدِّله أزواجاً خيراً منكنَّ، فنزلَتْ هذه الآية. (صحيح البخاري ٨/ ٥٢٨ -كتاب التفسير- سورة التحريم ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ برقم ٤٩١٦).

التفسير:

يخاطب الله تعالى بعض زوجات النبيِّ ﷺ: إن طلقكنَّ محمَّد ﷺ عسى ربُّه أن يُزوِّجه بدلاً منكنَّ زوجات خيراً منكنَّ، خاضعات لله بالطاعة، مُصَدِّقات بالله ورسوله، مطيعات لله، راجعات إلى ما يحبُّه الله، كثيرات العبادة له، صائمات، متأمِّلات في خلق الله، منهنَّ الثيِّبات، ومنهنَّ الأبكار.

٦- يا أيُّها المؤمنون، احفَظُوا أنفسكم وأزواجكم وأولادكم من نارٍ شديدة، بطاعة أمر الله واجتناب المعاصي. تلك النار التي تُوقد من أجساد الكفَّار والحجارة الملتهبة، يقوم على تعذيب أهلها ملائكة غلاظ القلوب أقوياء الأجسام، لا يخالفون أمر الله، ويُنفِّذونها.

الفوائد والاستنباطات:

١- عِظَمُ شأن النبي ﷺ عند الله، وهو ﷺ بشرٌ يتأثر مما يتأثر منه البشر.

٢- من لُطْفِ الله بالنبي ﷺ وبالمسلمين، ومن رحمته أن شرع لهم تَحِلَّة القَسَم بأداء الكفَّارة لليمين.

٣- مَنْ حَرَّمَ على نفسه زوجة أو طعاماً، لم تَحْرُمْ عليه، وتلزمه كفارة يمين.

٤- لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَنْ يُركن إليه من زوجة وصديق، وأنَّه يلزمه كتمانه.

٥- حسن العشرة مع الزوجات، والتلطف في العتب، والإعراض عن استقصاء الذنب.

٦- إكرام الله ﷻ لنبيه ورسوله محمد ﷺ بما أطلعه على ما كان من زوجَتَيه، وتأديب الله لهما، وأمرهما بالتوبة.

٧- فَضْلُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد قال تعالى في حقهما: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- وجوب أمر الأولاد والأزواج بطاعة الله واجتناب معاصيه. ويشمل كل مَنْ هو تحت ولاية المرء، ومَنْ يأتمر بأمره.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٧- يُقال للكفَّار وهم في النار: لا تعتذروا عن ذنوبكم، فإنَّه لا ينفع اليومَ الاعتذارُ، إنَّما تُعاقَبون على ارتكابكم الجرائم في الحياة الدنيا.

٨- يا أيُّها المؤمنون، توبوا إلى الله تعالى من ذنوبكم توبة خالصة بالندم على الذَّنب والإقلاع عنه، والعزم على ألَّا يعودَ إليه. لعلَّ الله يمحو عنكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، يوم لا يُخزي الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين معه، نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة يسير أمامهم ومن حولهم حين يسعون يوم القيامة إلى الجنَّة يدعون الله: يا ربَّنا أتمِمْ لنا نورنا حتى نصل إلى الجنَّة، واسْتُرْ علينا ذنوبنا. إنَّك على كلِّ شيء قدير، لا يعجزك شيء.

٩- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفَّار والمنافقين؛ لنصرة الدين والمحافظة على المسلمين، وأن يستعمل معهم الحزم والحجَّة والبرهان، ومصيرهم نار جهنَّم. وساءت جهنَّم مصيراً ومُستقرّاً.

١٠- يضرب الله تعالى الأمثال لأحوال المؤمنين والكافرين: إنَّ اتصال الكافر بالمؤمن وقربه في النسب لا ينفعه شيئاً، وإنَّ اتصال المؤمن بالكافر لا يَضُرُّه شيئاً مع قيامه بالواجب عليه؛ لعلَّه يتوبُ إلى الله، كما في الآيات الثلاث التالية: فقد ضرب مثلاً لحال الكفَّار امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام كانتا زوجتَي نَبِيَّيْن،

فخانتاهما في أمر الدين، فلم يدفع هذان النبيَّان عن زوجتيهما من عذاب الله، وقيل لزوجتيهما توبيخاً: ادْخُلا نار جهنَّم مع الداخلين فيها.

١١-١٢- وضرب مثلاً لحال المؤمنين آسيا امرأة فرعون، إذ قالت: يا ربِّ اجعل لي بيتاً في الجنَّة، وأنقذني من طغيان فرعون وجرائمه، وأنقذني من القوم المعتدين، وضرب مثلاً آخر لحال المؤمنين مريم بنت عمران التي حفظت فرجها من الفاحشة، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يَنْفُخَ في جَيْبِ قميصِها، فحَمَلَتْ بعيسى عليه السلام، وصَدَّقَتْ بكلمات ربِّها وكتبه وما فيها من الشرائع، وكانت من أهل الطاعة لله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١- اعتذار الكافرين يوم القيامة لا يُجدي، ولا يفيدهم شيئاً.

٢- المؤمنون لهم نور يكرمهم الله به، يكون من أمامهم وعن يمينهم يوم القيامة.

٣- البيئة لا تتحكَّم في الإنسان، ولكنَّها تُؤَثِّر، والمؤمن هو الذي يُؤَثِّر في البيئة، ولا يتأثَّر.

٤- يَحْسُنُ بالداعية أن يستخدم ضرب الأمثال؛ لإرشاد الناس إلى ما يدعوهم إليه.

٥- وجوب التوبة الصادقة من الذنوب.

٦- وجوب جهاد الكفار المقاتلين بالقوة، وجهاد المنافقين باللسان.

٧- تقرير خيانة امرأتَي نوح ولوط في الدين.

٨- تقرير مبدأ: «لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى»؛ فالكافر لا ينتفع بالمؤمن يوم القيامة.

النزول: مكية.

فضل السورة: ورد في فضل سورة الملك عدد من الأحاديث تفيد أنَّها تحمي قارئها، وتُنْجيه من عذاب القبر. ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غُفر له، وهي ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». (رواه أحمد برقم ٧٩٧٥ (١٣/ ٣٥٣) ط الرسالة، وأبو داود في كتاب الصلاة، برقم ١٤٠٠ (٢/ ٥٧) والترمذي برقم ٢٨٩١ (٥/ ١٤) تحقيق د. بشار عواد).

المقاصد:

١ - إثبات عظمة الله تعالى وقدرته على كل شيء.

٢ - إقامة الحجة على الكافرين المنكرين للبعث والجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - تبدأ السورة الكريمة ببيان عظمة الله تعالى، وأنه سبحانه يملك الخير كله، ويَهَبُ البركة لِـمَنْ يشاء، وله التصرف المطلق في هذا الكون، وقدرته سبحانه لا حَدَّ لها، فلا يُعجزه شيء، ويتصرف في مُلْكِه كيف يريد.

٢ - من دلائل قدرة الله تعالى أنه هو الذي يميت ويحيي، فالموت والحياة مخلوقان من جملة ما خَلَقَ، وهو الذي يَهَبُ الحياة لِـمَنْ يشاء، فيحيا بعد أن كان ميتاً، ويُميته بعد ذلك دون إرادةٍ منه، فالإرادة في الإحياء والإماتة لله وحده. وتُبَيِّنُ الآيةُ الحكمةَ من خلق الموت والحياة، وهي اختبار العباد وامتحانهم، ليَظْهَرَ إحسان المحسن وإساءة المسيء، وهو سبحانه الغالب، النافذ حُكْمُه وأمره، الكثير السَّتْر لِـمَنْ تاب وأصلح.

٣- ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه خلق السموات السبع على هيئة طبقات بعضها فوق بعض، وهي خالية من العيوب، لا تَصَدُّعَ فيها ولا شقوق، ولا تبايُنَ ولا تَخالُفَ، فانظر - أيها الإنسان - إلى السماء مرة بعد مرة، وتأمَّلْ في هذا الخلق العظيم، فلن ترى فيه أي عيب أو خلل.

٤- يطلب الله تعالى في هذه الآية الكريمة إلى الإنسان أن يُعيد النظر والتأمل في خَلْقِ السماء، ومدى إحكامه وإتقانه، وأن يتفحص ويبحث عن العيب والنقص في هذا الخَلْقِ المُحْكَم البديع. ونتيجة هذا النظر والبحث والتنقيب عن العيوب في الخلق هي التيقُّن من إبداع الخلق وإتقانه، وأنَّ مَنْ يبحث عن العيب والنقص فيه سيصاب بالحسرة والخيبة والإعياء.

٥- بعد أن بَيَّنَتْ الآيةُ السابقةُ خُلُوَّ السماء من العيب والخَلل، تُبَيِّنُ هذه الآية مظهراً من مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته، وهو تزيين السماء الأولى القريبة من الأرض بالنجوم والكواكب، التي تُرى من الأرض على هيئة المصابيح المضيئة، ولها مهمة أخرى وهي رصد الشياطين الذين يحاولون الدنوَّ من السماء، وهَيَّأَ الله للشياطين عذاباً شديداً في الآخرة، وهو نار حامية مستعرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في افتتاح السورة الكريمة بالإخبار عن عظمة الله والثناء عليه، براعة استهلال لندرة البدء بمثله في لغة العرب. وفي اختيار لفظ ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ إشارة إلى أهمية البركة وفضلها، وهي أمر معنوي يُشْعَر به، ولا تُدْرَك حقيقته.

٢- تَقَدَّمَ ذِكْرُ الموت على الحياة؛ لأَنَّه أسبق في الوجود، ولأنَّ مُدَّتَه أطول من مدة الحياة، ولأن قدرة الله تعالى فيه أوضح وأظهر.

٣- كما أن الحياة نعمة عظمى فإن الموت نعمة كذلك، فهو السبيل للوصول إلى الجنة والنعيم، وبه تحصل الراحة من الهموم والغُموم، وفيه العِبْرَةُ والعظة لجميع الخلق؛ ولذا ورد في الأحاديث الحثُّ على تَذَكُّرِه وتَرَقُّبِه، كما في قوله ﷺ: «أَكْثِرُوا من ذكر هاذم اللذات». (رواه أحمد في المسند برقم ٧٩٢٥ (١٣/ ٣٠١) الرسالة، ورواه آخرون، وهو حسن، وهاذم بالذال: قاطع).

٤- الإتقان والإحكام والإبداع ظاهر في الخلق كله، كبيره وصغيره، حَيِّه وجَمادِه، مَرْئِيِّه وخَفِيِّه، ظاهره وباطنه، ولا يزيد البحث والتنقيب عن الخلل في الخَلْق هذه القاعدةَ إلا ثباتاً وتحقُّقاً.

٥- النص على البصر في الآيات دون غيره من الحواسِّ؛ لأَنَّه الوسيلة المثلى عند الإنسان للفحص والاختبار والتأكد من سلامة الشيء، أو حصول العيب فيه.

٦- في إضافة الخلق إلى اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى عموم رحمة الله تعالى بخلقه، وأن الرحمة هي مبدأ التعامل مع الخلق، ولا يُحرم منها إلا من لا يستحقها.

٧- تشير الآيات إلى أنَّ تَفَحُّصَ الشيء للتيقُّن من سلامته أو عيبه يحتاج إلى النظر فيه مراراً عديدة، فقد لا يظهر العيب من بادئ النظر وأوَّله.

٨- ما تُرْجَمُ به الشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح مُنْقَضَّةً، وتسمى الشُّهُبَ.

٩- ينظر: زينة الكواكب في السماء، كما في الملحق.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

٦- تُبَيِّنُ الآية الكريمة أن للكافرين من بني آدم ومن الشياطين عذاباً مُهَيَّأً ومُعَدّاً في جهنم، فهم سيعذبون يوم القيامة جزاء كفرهم، وبئس ما يصيرون إليه، وهو جهنم.

٧- حين يُلقى الكفار في نار جهنم يصدر منها صوت مُنْكَرٌ قبيح، وحين يسمعونه يزيد ذلك من عذابهم وفزعهم، وتكون جهنم في حالة غليان لشدة لهيبها.

٨- تكاد جهنم تَتَقَطَّعُ وينفصل بعضها عن بعض؛ من شدة غيظها وغضبها على الكافرين، الذين استحَقُّوا دُخولَهَا بسبب سوء فِعْلِهم. وفي هذا تصوير لقوة اشتعالها وعظيم نارها، وكلما دخلها جماعة من الكافرين بادرهم خَزَنَةُ جهنم بالسؤال توبيخاً لهم: ألم يرسل الله تعالى إليكم رسولاً يدعوكم إلى الهداية، ويَحُثُّكم على الخير، ويُنْذِرُكم هذا العذاب الأليم.

٩- قال أهل النار للملائكة مُقِرِّين ببعثة الرسول: بلى، قد حصل، وجاءنا رسول من الله ولكنا لم نَتَّبِعْه ولم نؤمن به، واتهمناه بالكذب على الله، وزَعَمْنا أنه هو وأتباعه ضالُّون ضلالاً كبيراً، وكنا نظنُّ أنفسنا على الصواب.

١٠ - بدأ أهل النار بلوم أنفسهم ومعاتبتها، فقالوا فيما بينهم: لو أننا أعمَلْنا عقولنا وأسماعنا، واتَّبعنا الرسول فيما دعانا إليه من خير وهدى، لَنجونا من عذاب النار.

١١ - هذا الاعتراف من أهل النار لا ينفعهم، فقد حصل في وقت غير مناسب، وهم مستحقون للهلاك والعذاب الشديد الذي هم فيه.

١٢ - بعد بيان مصير الكافرين، تبيِّن هذه الآية مصير المؤمنين الذين عَظَّموا الله تعالى في الدنيا، وخافوا من عذابه دون أن يَرَوْه، فهم مستحقون لأن تُغْفَرَ ذنوبُهم، ولأن ينالوا ثواباً عظيماً في مقابل إيمانهم بالله.

١٣ - تُبَيِّنُ هذه الآية شمول علم الله تعالى للسر والعلن. ويشمل ذلك كلَّ ما يمكن أن يُسَرَّ ويُعْلَنَ من نيات، واعتقاد، وهَمّ، وعلم، وعمل، فالله تعالى يعلم الأمور الخفية في القلوب، كما يعلم الأمور الظاهرة.

١٤ - وكيف لا يعلم الله تعالى الأسرار والخفايا، وهو الذي خلقها، وخَلَقَ كل شيء؟ ومن مظاهر قدرته البالغة عِلْمُه بالخفايا ودقائق الأمور علماً يقيناً محيطاً بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - نسبة الغيظ والشهيق إلى جهنم: إمَّا أن يكون على ظاهره، وإمَّا أن يُحمل على تشبيه صوت لهيبها وسرعة تبادُرِها بصوت الغضبان وحركته، وإمَّا أن يكون المقصود به الزبانية. (الفخر الرازي، التفسير الكبير ٣٠/ ٥٦).

٢ - تَدُلُّ الآية الكريمة أنَّ الكافرين يدخلون جهنم أفواجاً متتابعة، وأنَّ دخولهم إليها يكون مصحوباً بالإهانة والصغار، إذ يُلْقَون فيها إلقاءً.

٣ - لا ينفع الندم إذا حصل في غير وقته المناسب.

٤ - عِلْمُ الله تعالى محيط بكل الدقائق، وشامل لجميع الأسرار والخفايا في هذا الكون، وهذا من لوازم ألوهيته سبحانه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - سَخَّرَ الله سبحانه الأرض لكم أيها البشر، وجَعَلَها مُذَلَّلَةً يَسْهُلُ السير فيها، فسيروا في أنحائها في طلب المعاش والرزق، والتمِسُوا من نِعَمِ الله فيها، وكُلوا وانتفعوا ممَّا رزقكم الله، واعلموا أنَّ مرجعكم ومآلكم إليه سبحانه.

١٦ - انتقل الخطاب في هذه الآية من عموم البشر إلى الكافرين منهم من خلال سؤالهم: أأمِنتُم - أيها الكفار - عقابَ الله لكم على كفركم به، وقدرتَه أن يحرك الأرض ويزلزلها، ويذهب باستقرارها فتضطرب، ويختلَّ نظامها؟

١٧ - أم أَمِنتُم - أيها الكفار - عقاب الله لكم على كفركم بأن يُرْسِلَ عليكم حجارة من السماء يعذبكم بها، كما حصل مع بعض الأُمم السابقة؟ إنَّكم حين ترون ذلك ستُوقنون أن الإنذار والتخويف من الله حق، وأنَّه قادر على إنفاذ وعيده.

١٨ - تبدأ هذه الآية بالقَسَم على أنَّ الأُمم السابقة لهذه الأُمة كَذَّبَتْ رُسُلَها، فكان عقابهم على ذلك أليماً، فقد نزلت بهم أصناف من العذاب عقاباً لهم، وإنكاراً من الله تعالى عليهم.

١٩ - تلفت هذه الآية أنظار الخلق إلى إحدى نِعَمِ الله ودلائل قدرته، وتدعوهم إلى النظر فيها والاعتبار بها، فإنَّ الله سَخَّرَ الهواء لحَمْلِ الطيور، تبسط فيه أجنحتها في أحوال، وتَضُمُّها وتخفق بها في أحوال أخرى. وكل هذا برحمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي يمسك هذه الطيور أن تسقط برحمته، وهو سبحانه البصير بكل شيء، العليم بكل حال، المبدع في خلقه.

٢٠- تُخاطب هذه الآية المشركين، وتسألهم عَمَّنْ يستطيع أن يمنع عنهم عذاب الله حين يقع، ومعلوم أنّه لا أحد يُمكنه ذلك، ولكن الكافرين مصابون بالغرور، ويظنون أنّهم في منأى من عذاب الله أن يصيبهم، وأن آلهتهم تحفظهم منه.

٢١- تسأل هذه الآية المشركين: هل يملك أحد أن يرزقكم إنْ مَنَعَ الله عنكم الرزق، وحَجَبَه عن الوصول إليكم؟ والجواب واضح أن لا أحد يملك ذلك، ولكنَّ الكافرين يرفضون التسليم بذلك، ويتمادَون في عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق.

٢٢- في هذه الآية مقارنة بين المشرك الذي يسير على غير هدى، ويتخبَّط في سيره، ويتعثر ويخرُّ على وجهه بسبب وعورة طريقه، وعدم تبيُّن السبيل له، وبَيْنَ المؤمن الذي يسير قائماً معتدلاً يرى طريقه بوضوح، ويعلم معالمه، ويصل إلى غايته، فهل يستوي هذا وذاك؟

٢٣- هذا أمر بإعلام الخلق أنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم، وأحسن خَلْقَهم، بأن مَكَّنَهم من السمع والإبصار والإدراك؛ ولذا فهو المستحق للعبادة والطاعة والشكر على هذه النعم العظمى، ولكن عدداً قليلاً مِنْ عباده مَنْ يعلم قيمة هذه النِّعَم، ويحافظ عليها، ويشكر خالقه على مَنْحِه إياها.

٢٤- والله تعالى هو الذي بَثَّ الخَلْقَ على هذه الأرض، وفَرَّقهم في أنحائها، لتعمرَ الأرض بالحياة. ومرجع هؤلاء الخلق إليه وحده يوم القيامة، إذ يحشرهم ويحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أمر الله تعالى بالمشي في الأرض طلباً للرزق، ولم يأمر بالسعي، لما يعلمه سبحانه من حال الإنسان في الحرص على الرزق والمبالغة في طلبه، فكأنَّ الأمرَ بالمشي دون السير للتخفيف من الاندفاع، والتقليل من الاجتهاد البالغ في طلب الرزق.

٢- كَشَفَ العلمُ أن الطيور الصافَّة تُركب من التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصَفَّت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقياً فتصُفُّ الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى. وتوصَّل العلم إلى أن كل طائر عندما يضرب بجناحيه يعطي رفعة إلى أعلى للطائر الذي يليه مباشرة، وعلى ذلك تتخذ الطيور المهاجرة - بإلهام الله تعالى - الطيران على شكل الرقم (V). وهذا الشكل يُمَكِّنُ الطيرَ من الطيران مسافات إضافية قُدِّرَتْ على الأقل بـ«٧١٪» زيادة على المسافة التي يمكن أن يقطعها فيما لو طار بمفرده. (صور إعجازية في القرآن الكريم ص ١٧٧ - ١٧٨).

٣- التعبير عن قبض أجنحة الطيور في الهواء بالفعل المضارع ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ دلالة على تجدُّد هذه الحركة واستمرارها وضرورتها من أجل إتمام عملية الطيران للطيور.

٤- في قوله تعالى: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ تشبيه لحال المشرك بالدابَّة في مَشْيِه مُكِبّاً على وجهه مُنَكِّساً رأسه، فهذا حال الدوابِّ في هَيْئَتِها ومَشْيِها.

٥- قُدِّمَ السمع على البصر في الآية الكريمة؛ لأنَّ الجهاز السمعي يعمل عند الإنسان قبل الجهاز البصري، وأُفْرِدَ السمع مع جمع الأبصار؛ لأنَّ الإنسان إذا كَثُرَتْ حوله الأصوات لا يستطيع تمييز بعضها من بعض، ولكنْ إذا رأى عدداً كبيراً من الناس يستطيع التمييز بينهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٥- يسأل الكافرون النبيَّ الكريم ﷺ والمؤمنين عن يوم البعث والجزاء قائلين لهم: إن كان كلامكم صحيحاً في ثبوت هذا اليوم فأعْلِمُونا متى يكون؟

٢٦- يأتي الجواب عن سؤالهم بتوجيه النبي ﷺ أن يقول لهم: عِلْمُ يوم البعث والجزاء عند الله وحده، وتنحصر مهمتي في إعلامكم بحصوله وتأكيد وقوعه، وتبيين الحق، والدعوة إليه.

٢٧- في يوم الجزاء وهو آتٍ لا ريب فيه، وكلُّ آتٍ قريب، تَسْوَدُّ وجوه الكافرين، ويظهر عليها الكآبة والذِّلَّة، وتقول لهم الملائكة: هذا اليوم الذي كنتم تُنْكِرُون وقوعه، وتستعجلون حصولَه استهزاءً وتكذيباً، قد حصل ووقع.

٢٨- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين الذين يَتَمَنَّون موتك ومَوْتَ مَنِ اتبعك من المؤمنين: أخبروني إن هلكتُ أنا وأتباعي، أو بقيت حياً برحمة الله وفضله، هل ثمة مَنْ يَحْميكم من عذاب الله حين ينزل بكم؟ وفي هذا إقامةُ الحجة على المشركين بأقوى عبارة وأبلغ أسلوب، فعذابهم حاصلٌ لا محالة، وليس مرتبطاً ببقاء النبيِّ وأتباعه، أو بموتهم.

٢٩- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين: نحن آمنَّا بإلهنا الرحمن إيماناً جازماً، وعَلِمْنا يقيناً قدرته وعظمته، فلم نتوكَّلْ إلا عليه، ولم نسأل العون إلا منه، وأنتم كفرتم به، وسيظهر يوم القيامة - حين يحاسب اللهُ الخلقَ - الفريقُ الخاسر المغرق في الضلال والتيه.

٣٠- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين: أخبروني بعد تفكُّر وتَأَنٍّ، إن حُرمتم من نعمة الماء فذهب في أعماق الأرض بعيداً، مَنْ يستطيع أن يغيثكم بماء عذب جارٍ، قريب التناول، سهل الاستخدام؟ وتنتهي الآية دون ذكر الجواب؛ لأنَّه لا يمكن إلا أن يكون الله وحده هو القادر على الإغاثة والإتيان بالماء؛ لأنَّه صاحب الأمر في هذا الكون، ولا قدرة لأحد على مثل هذا الفعل العظيم. وفي هذا السؤال وجوابه إقامة الدليل على وحدانية الله وعظمته، ووجوب عبادته وحده دون ما سواه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تأكيد أن علم الغيب لله وحده سبحانه، ولا يمكن لأحدٍ عِلْمُ شيء من الغيب إلا أن يُعْلِمَه الله به.

٢- إقامة الحجة على المشركين من خلال سؤالهم عن أمور لا يقدر عليها أحد إلا الله، مثل: مَنْ يجيرهم من العذاب يوم القيامة؟ مَنْ يأتيهم بماء معين إن غار ماؤهم؟

٣- وقع التعبير عن الموت في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّ الموت هلاك، ووقع التعبير عن الحياة بالرحمة؛ لأنَّ حياة المؤمنين فيها زيادة طاعات وفِعْلُ خيرات.

٤- وَضَعَ الظاهرَ موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وبيان أنَّه السبب في عدم نجاتهم. (الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٣٥٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إخراج للكلام مَخْرَجَ الإنصاف؛ إذ فيه تسوية بين الفريقين، وجعلهما محتملين للضلال بنسبة واحدة، مع حصول اليقين لدى صاحب الحق به، وهو من أساليب الإقناع.

٦- تشير الآية الكريمة الأخيرة في السورة إلى أهمية الماء في حياة الإنسان، فبدونه تستحيل الحياة. ومن رحمة الله بخَلْقِه إمدادُهم بالماء على نحوٍ دائم لا ينقطع، ولا يَغُور في الأرض.

٧- قد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكون الصدوع والخسوف الأرضية، كما قد يغور بالضَّخِّ المفرط الزائد على معدل تَدَفُّقِ الماء إلى البئر، وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوضه إذا غار إلا رب العالمين. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص٤٥١-٤٦٨).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان قدر رسول الله ﷺ.

٢- الردُّ على اتهامات المشركين للنبي ﷺ.

٣- تهديد المكذِّبين، وبيان سوء عاقبتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

التفسير:

١ - تبدأ السورة الكريمة بحرف (نون) وهي آخر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، وحكمة الابتداء بهذه الحروف التنبيه على إعجاز القرآن، وأنّه من جنس هذه الحروف، ثم أقسم الله تعالى بالقلم، وبما يُكتب به.

٢- تنفي هذه الآية الكريمة - وهي جواب القسم - عن النبي ﷺ ما اتهمه به المشركون من جنون، وتُبيِّنُ أنَّ النبوة نعمة عظمى من الله تعالى خَصَّ بها نبيَّه الكريم ﷺ.

٣- تؤكد هذه الآية أنَّ للنبي ﷺ ثواباً كبيراً دائماً لا ينقطع؛ لتحَمُّلِه أعباءَ الرسالة وقيامه بحقها حق القيام.

٤ - تؤكد هذه الآية الكريمة أنَّ النبي ﷺ يتحلَّى بأعظم الصفات، وأحسنها وأطيبها، ويتمتع بالأخلاق العالية النبيلة المثلى، وقد جمع ﷺ محاسن الأخلاق، واتصف بأرقى ما يتصف به بَشَرٌ من حُسْنِ خُلُقٍ، ونُبْلِ سلوك.

٥ -٧- إنَّ مَنْ كان متصفاً بمحاسن الأخلاق لا يمكن أن يكون مجنوناً، وستعلم - أيها النبي الكريم، وسيعلم المشركون من قومك عِلْمَ يقين لا امتراء فيه - مَنِ المستحقُّ للوصف بالجنون حين تنكشف لهم

الحقائق، ويُظهر الله تعالى لهم ولجميع الخلق ما يعلمه سبحانه، فإنه يعلم مَنِ اتَّبع سبيله، ومَنْ لم يتبعه، ويعلم مَنْ يستحق الوصف بالجنون، ومَنْ هم العقلاء مِنْ خَلْقِه.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القسم بالقلم وبما يُكتب رفعةٌ لشأن العلم والعلماء، وتنبيه لأهمية الكتابة وفضلها، ودورها في نشر العلم وحفظه.

٢- تَوَلَّى الله تعالى الدفاع عن نبيه ﷺ؛ وذلك لعظيم مقامه عنده، وبَيَّنَتْ لنا هذه الآياتُ عظيمَ خُلُقه، وعظيم الأجر الذي أكرمه الله تعالى به.

٣- سار مشركو مكة على طريقة مَنْ سبقهم من مشركي الأقوام السابقة في اتهام نبيِّهم بالجنون، وكأنَّهم تواصَوا على ذلك. ولعل لجوءَهم إلى هذه التهمة لسرعة تَبادُرِها إلى الأذهان، وكثرة حصول الاتهام بها بين الناس.

٤- بدأت الآيات الكريمة بنفي تهمة المشركين للنبي ﷺ بالجنون، ثم ببيان محاسنه وعظيم أخلاقه. وفي هذا تعليم لنا أن نُزيل الباطل قبل تثبيت الحق.

٥- يُلْحَظُ كثرة المؤكدات في الآيتين (٣-٤) وهي: التأكيد بـ (إنَّ)، والخطاب بالكاف، وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكَ﴾، وتنكير ﴿لَأَجْرًا﴾، ووصفه بأنَّه غير منقطع، واستعمال ﴿على﴾ المفيدة للاستعلاء والتمكُّن.

٦- اجتمع في النبي الكريم ﷺ سماتُ القدوة الحسنة من الصفات الحسنة، والأخلاق الفاضلة، ولم يكن أحدٌ لِيعيبَه بشيء من هذا الجانب. ومن أحسن ما وُصِفَ به خُلُقُه الكريم ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها في حقه: «كان خُلُقُه القرآن». (رواه أحمد برقم ٢٤٦٠١، ٤١/ ١٤٨ الرسالة. وهو صحيح).

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٨- تَنْهَى هذه الآيةُ النبيَّ ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين الذين كذَّبوا به وبرسالته، وكان طلبُهم أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة.

٩- وهم راغبون في أن تستجيب لطلبهم هذا، وأن تَلِينَ لهم، وتُوافِقَهم فيما يطلبون إليك، وهم من جانبهم مستعدون للتنازل في مقابل ذلك.

١٠- تنهى هذه الآية الكريمة النبي ﷺ عن الاستجابة لما يطلبه المتصف بالصفات السيئة المذكورة، وهي: أنه كثيرُ الحَلْفِ بالباطل، حقير النفس والرأي.

١١- يعيب الناس ويغتابهم، ويسعى للوقيعة بينهم، وينقل كلام بعضهم في بعض، أو في الافتراء عليهم.

١٢- بخيل يمنع ماله، ويمنع الآخرين من الإنفاق، ظالم، متجاوز للحَدِّ، كثير الوقوع في الإثم.

١٣-١٤- غليظ الطبع، لئيم النفس، وهو بعد ذلك كله مُجاهِرٌ بالشَّرِّ، مُغْتَرٌّ بما عنده من مال وأولاد.

١٥- وبلغ به الغرور والسفه أن يقول عن آيات القرآن الكريم: إنَّها أباطيل السابقين وخرافاتهم.

١٦- إنَّ المتصف بهذه الصفات سيُعاقَبُ يوم القيامة بعقوبةٍ مُذِلَّةٍ له، إذ تُظهره بين الخلق بمظهر مهين، وهي علامة ظاهرة على أَنْفه، أو في وجهه؛ ليعرف بسوئه. وهذه الآيات عامة في كل مَنْ اتصف بهذه الصفات، وهم موجودون قديماً وحديثاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- طَلَبُ المداهنة والتنازل عن بعض الحق من قِبَلِ المشركين قديمٌ حديثٌ، وهو ممَّا يندرج ضمن اتباع خطوات الشيطان، إذ يبدأ التنازل بخطوة، ثم تتبعه خطوات.

٢- جميع الصفات المذكورة في هذه الآيات لِـمَنْ نهى الله عن طاعته صفات ذميمة سيئة، ينبغي للمرء المسلم أن يترفع عنها، وأن يتخلق بحسن الأخلاق وطيبها.

٣- التفصيل الذي ورد في هذه الآيات للصفات الذميمة فيه تنفير منها، وممَّنْ يتصف بها.

٤- في التعبير عن الأنف بالخرطوم، واختيار السمة، وهي العلامة فيه، لزيادة الإذلال والإهانة للمتكبر المتعالي على الخلق، الذي يشمخ بأنفه على الناس.

٥- ذكر بعض المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في شخص محدد من مشركي قريش، ثم اختلفوا في تحديده. والقول بالعموم أولى؛ ليشمل ذلك كلَّ مَنِ اتصف بهذه الصفات الذميمة.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

في هذه الآيات الكريمة قصة أصحاب الجنة، الذين أرادوا مَنْعَ المحتاجين حَقَّهم، فعاقبهم الله بتخريب جنتهم، فندموا وأصلحوا شأنهم، وكان ذلك عبرةً لهم، ولِـمَنْ علم بقصتهم.

١٧-١٨ - تخبر الآية الكريمة أنَّ البلاء أصاب مشركي مكة كما أصاب قوماً من قبلهم كان لهم بستان، واتفقوا فيما بينهم، وحلفوا الأيمان أن يقطفوا ثمار بستانهم صباحاً، ولا يتركوا فيه شيئاً للمحتاجين.

١٩-٢١- فأرسل الله تعالى على بستانهم وهم نائمون في الليل ما أذهب ثماره وأهلكها، وهم لا يعلمون بما حصل.

٢٢-٢٣- ولما أصبح أصحاب البستان نادى بعضهم بعضاً أن أسْرِعوا، وانطلِقوا مبكرين إلى بستانكم لقَطْعِ ثماره، كما اتفقوا عليه ليلاً.

٢٤-٢٦- فذهبوا وهم يتحدثون بصوت خافت أنَّهم لن يسمحوا لأحد من المساكين بالدخول إلى بستانهم، فهم أصحاب البستان، ولهم الحق في التصرف فيه، ومَنْعِ مَنْ يشاؤون من دخوله.

٢٦-٢٧- فُوجِئ أصحاب البستان حين رأوه وقد هلكت ثماره وزالت، وظنوا أنَّهم قد وصلوا إلى غيره، وأنَّهم تاهُوا عن الطريق، ولكنَّهم حين تأملوا تيقنوا أنَّه بستانهم، وعَرَفُوا أن الله عاقبهم على قصدهم السيِّئ، وحَرَمَهم من ثمار بستانهم لَـمَّا أرادوا حرمان المساكين حقهم.

٢٨-٢٩- قال أحدهم وهو أعدلهم رأياً، وأفضلهم حالاً: ألم أطلب منكم أن تُنَزِّهوا الله تعالى وتذكروه، ولا تمنعوا المساكين حقهم في مالكم، قالوا: نُنَزِّه الله تعالى عن الظلم فيما فعل بنا، واعترفوا بقصدهم ظلم المساكين بمنعِهم حَقَّهم من المال.

٣٠-٣٢- وبَدؤُوا يلوم بعضهم بعضاً، واعترفوا بذنبهم، وتجاوُزِهم الحدَّ فيما عزموا عليه، ودعوا الله تعالى أن يعوضهم خيراً مما أهلكه لهم، قالوا ذلك وهم راجُون من الله العفو، وقبول التوبة الصادقة.

٣٣- وبمثل هذا العقاب الذي أصاب أهل البستان يُعاقب اللهُ كلَّ مَنْ تعدَّى وكفر، ولم يستجب لأمر الله تعالى، وهو عذاب هيِّن يسير مقارنة بعذاب الآخرة، ولو أنَّ المشركين والمعرضين عن أمر الله عَلِمُوا ذلك لما عَمِلُوا بما يؤدي إليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تشابُهُ حالِ أهلِ الكفر والباطل في القديم والحديث.

٢- ما حصل من أصحاب البستان من توبةٍ وإنابةٍ سريعة إلى الله، هو الأصل في كل مَنْ تضعف نفسه، ويقع في المعصية.

٣- دَلَّتْ هذه الآيات على أنَّ مَنْ عزم على فعل المعصية، وأخذ بالأسباب المؤدية إليها يُعَدُّ عاصياً، وقد يزجره الله عن ذلك الفعل.

٤- كان إهلاك ثمر البستان مانعاً لأصحاب البستان من فعل المعصية التي عزموا على فعلها، فكان أمراً ظاهره الشرُّ وباطنه الخير لهم بمنعهم من فعل القبيح، وهلاك البستان أهون ممَّا عزموا عليه من معصية.

٥- يقول العلماء: عندما يتعرض النبات للأعاصير الصاعقة أو الرياح الشديدة المصحوبة بالصاعقة يهلك الزرع، فالصاعقة تميت وتجفف، فإذا ارتفعت شدتها تؤدي إلى الإحراق والتفحم، والرياح الشديدة تحطم وتكسر ما جففته الصاعقة. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص٤٠٢).

٦- اتفاق مجموعة من الناس على فِعْلِ الأمر، خيراً كان أو شراً، يزيد من اندفاعهم ورغبتهم في أدائه، وانفراد شخص واحد به يسبب له وحشة وتردُّداً، ومن هنا كان كثير من العبادات في الإسلام تُؤَدَّى على نحوٍ جماعي لرفع الهمم، وتقوية الدوافع.

٧- دَلَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ على وجود بذرة الخير، ولو عند واحد من الجماعة العازمين على الشر، وعلى توجُّهه إليهم بالنصح ألا يفعلوا ما عزموا عليه إلا أنه مع ذلك وافقهم فيما أرادوا، ولم يمنعه ما فيه من خير من ذلك.

٨- من طبع الناس التَّلاوُمُ فيما بينهم عند حصول ما يُذَمُّ، ومحاولة إقصاء الاتهام عن النفس، ولو بإلقائه على الآخرين، ولو كان فاعل ذلك على يقينٍ من كذبه.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٤- تُبيّنُ الآية الكريمة أنَّ الله تعالى أعَدَّ لِـمَنْ آمن به واتقى عذابه ومعاصيه نعيماً عظيماً ورغد عيش في الجنة.

٣٥- يُنكر الله تعالى على المشركين موبخاً لهم: فهو سبحانه لا يُساوي في الحساب والجزاء بين مَنْ آمن به وأسلم له، وبين مَنْ كفر به ولم يؤمن.

٣٦- يخاطب الله تعالى من يُسَوِّي بين المؤمن والكافر في الحكم، مُنكِراً عليه هذا الحكم الذي يستحق التعجيب من أمره، والتساؤل عن مبدأ حكمه، فإنه حكم معوج يدل على خَلَلٍ، وفَقْدِ اتِّزان.

٣٧-٣٨- يسأل الله تعالى الكافرين عن سبب كفرهم، هل عندكم - أيها الكافرون - كتاب مُنَزَّلٌ عليكم من الله، تجدون فيه الإباحة لِفِعْلِ ما تريدون وتشتهون، دونَ حساب ولا عقاب.

٣٩- أحصلتم على أيمان مؤكدة وعهود من الله لكم مستمرة إلى يوم القيامة، يأذن لكم فيها أن تحكموا لأنفسكم بما ترغبون فيه من الخير، أم أنكم تفترون على الله الكذب في ذلك؟

٤٠-٤١- اسألهم - أيها النبي الكريم - أثَمَّةَ مَنْ يكفل مِنْ بينهم، ويضمن ذلك الذي يزعمون من خير وحسن جزاء عند الله، أم يعرفون مَنْ يوافقهم على هذا القول، ومَنْ يحميهم من عذاب الله، فليدعوهم لنصرتهم والشفاعة لهم إن كانوا موجودين.

٤٢-٤٣- تُخبر الآية أن أحداث يوم القيامة فيها أهوال بالغة، وأحوال مفزعة، ويؤمر المشركون أن يسجدوا فلا يُمْكِنُهم ذلك، وتَغْشاهم الذلة والمهانة، وقد كانوا في الدنيا حين أُمِروا بالسجود والطاعة قادرين على ذلك فأبَوا، ولذا يحال بينهم وبين القدرة على السجود يوم القيامة.

٤٤-٤٥- هذا تهديدٌ للمكذبين بالقرآن يُبَيِّنُ الله تعالى فيه أنَّه قادر على إهلاكهم أيَّ وقت يشاء، ولكنه سبحانه اختار إمهالهم، وتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهم لا يشعرون بذلك، ويَظُنُّون الإمهال إكراماً لهم وتفضيلاً لهم على المؤمنين، ولأنَّهم أهل مكر وكيد عامَلَهم الله بمثل صنيعهم.

٤٦-٤٧- ما السببُ الذي يدعو هؤلاء إلى الكفر والجحود؟ أتسألهم أجراً مقابل تبليغ الرسالة لهم، فيكون ذلك مانعاً لهم من الإيمان؛ لأنَّه يثقل عليهم دَفْعُ هذه الغرامة؟ أم أنَّهم اطلعوا على ما في اللوح المحفوظ من غيب فكتبوه واتبعوه؟ وبما أنَّه لم يحصل أيٌّ من هذين الافتراضين وجب عليهم الإيمان بك واتِّباعك.

٤٨-٥٠- هذه دعوة للنبي الكريم، ولكل مَنْ سار على دربه، أن يصبر على ما قضى الله من إمهال الكافرين، وأن يواصل الدعوة والتبليغ على الوجه الأتم والأحسن، وألا يعجل كما حصل مع نبي الله يونس ﷺ حين غادر قومه غاضباً منهم لعدم إيمانهم، وكان فِعْلُه هذا اجتهاداً منه، وليس بأمر الله تعالى، فابتلعه الحوت في البحر، فعلم أن هذا ابتلاء له من الله فاستغاث بربه سبحانه، وهو ممتلئٌ غيظاً على قومه، فاستجاب الله له ورحمه، وأنجاه من بطن الحوت، وحَفِظه. ولولا رحمة الله به لَأُلْقِيَ في أرض خالية من النبات والزرع وهو مستحقٌّ اللومَ على ما بدر منه، ولكن اللهَ مَنَّ عليه بالقبول والرضا والاصطفاء، فقبل توبته، وشفَّعه في قومه، وأعاده إليهم ومَتَّعهم به، وهو نبي كريم موصوف بالصلاح الكامل. وفي هذه الحادثة عبرة عظيمة لكل مسلم أن يلتزم بأمر الله، وأن يصبر على الأذى ويحتمل حتى يأذن الله بأمره.

٥١-٥٢- وإنَّ الكافرين من شِدَّة عداوتهم لك، ونظرهم إليك بحقد وعداوة، لَيكادُون يُزيلونك عن مكانك، حين سمعوا ما تدعوهم إليه من الآيات البينات، وزادوا على ذلك اتهامك بالجنون، وكيف يستقيم هذا الاتهام ويُقبل، وقد أنزل الله على نبيه كلاماً معجزاً هادياً للخلق أجمعين؟ وفي هذا إبطال لزَعْمِهم، ورَدٌّ عليهم بأبلغ عبارة، وأعظم دليل.

الفوائد والاستنباطات:

١- دَلَّ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتضمن مقابلة المسلم للمجرم، أنَّ الكفر من أعظم الجرائم التي تحصل من الإنسان، ويستحق الكافر أن يلقب مجرماً.

٢- عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف الله ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَنْ كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». (رواه البخاري برقم٤٩١٩ في كتاب التفسير، باب سورة القلم). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في

معنى الآية: «هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة». (أخرجه الطبري وغيره بسند حسن، يُنظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٤٢٨، الصحيح المسبور للدكتور حكمت ياسين ٤/ ٥٢٤).

٣- الأمر بالسجود يوم القيامة ليس من باب التكليف؛ إذ لا تكليف في ذلك اليوم، ولكنه للتقريع والتخجيل.

٤- الاستدراج هو إيقاع الآخر في الحيلة بتمهل وخفاء دون أن يشعر بذلك، ومن الاستدراج ما يظنه الكافرون المُنْعَمُ عليهم بالمال أنهم أعطوه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

٥- العادة ألا يُعلِمَ المستدرِجُ المستدرَجَ بما يخطط له، ولا يخبره به ليتمَّ له الاستدراج كما يرغب، ولكن الله سبحانه عدلاً منه ورحمة بعباده أعلمهم باستدراجه إياهم ليأخذ الفَطِنُ اللبيب منهم حِذْرَه، وينجوَ من الاستدراج والإملاء.

٦- عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجل يُمْلي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلته». (رواه البخاري برقم ٤٦٨٦ كتاب التفسير، باب سورة هود، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٣، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم).

٧- يُستدل بقوله تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ على إمكان حصول الإصابة بالعين، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابقَ القدر سَبَقَتْه العين». (رواه مسلم برقم ٢١٨٨ كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي).

٨- كما بدأت السورة بنفي الجنون عن النبي الكريم ﷺ خُتمت به، وفي ذلك توافُقٌ والتئام بين البدء والختام.

٩- في بيان أنَّ رسالة الإسلام عامة للعالمين في هذه الآيات، التي تُعَدُّ من أوائل ما نزل مع بدء الدعوة، وما رافق ذلك من تضييق وإيذاء للنبي ﷺ ومَنْ آمن به من أصحابه، إشارات إلى أنَّ النصر لهذا الدين قادم بإذن الله، وأنَّه ليس خاصاً بأهل مكة ولا بما حولها، وفيه إشارات وبشائر بنصر هذا الدين، وأنه سيَعُمُّ العالم كله.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إثبات يوم القيامة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

١ -٣- الحاقة: اسم من أسماء يوم القيامة، سُمِّيَتْ بذلك لتحقُّق وقوعها. وافتتحت السورة بذكر هذا الاسم ليوم القيامة، ثم الاستفهام عنه بـ ﴿مَا﴾ وبـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ تهويلاً لشأنه، وتفخيماً لأمره، فإن يوم القيامة حدث عظيم، تتغير فيه الموازين، وتنقلب فيه الظواهر، وهو يوم الحساب والجزاء والخلود.

٤ - بعد أن أخبرت الآيات السابقة عن تحقُّق حصول يوم القيامة، انتقلت الآيات للحديث عن مصير بعض الأقوام الذين كَذَّبوا بها، وتبدأ بِذِكْر ثمود وعاد. وسُمِّي يوم القيامة هنا بالقارعة؛ لأنَّها تَقْرَعُ القلوبَ بأهوالها وفظائعها.

٥ - كان جزاء ثمود - وهم قوم صالح- على تكذيبهم بالآخرة، وجحودهم بالله ورسوله، أن أهلكهم الله تعالى بصيحة عظيمة مجلجلة، لم تُبْقِ منهم أحداً.

٦ - وكان جزاء عاد - وهم قوم هود - على تكذيبهم أن أهلكهم الله بإرسال ريح مدمرة شديدة بلغت الغاية في بَرْدِها وشدتها، فلا يقف في طريقها شيء، ولا يمنع من ثورانها مانع.

٧ -٨- استمر هبوب هذه الريح العظيمة المهلكة على عاد، سبع ليال وثمانية أيام متواصلة متتابعة بلا توقف ولا انقطاع، وتركت قوم عاد أمواتاً مُلْقَيْنَ في الأرض على هيئة أصول النخل المقتلعة من أماكنها،

الخالية الأجواف، وقد عَمَّتهم هذه الريح بالهلاك، فلم يَنْجُ منهم أحدٌ، ولا يمكن أيَّ راءٍ في أرضهم أن يَرى باقياً منهم، فقد هَلَكُوا جميعاً.

٩-١٠- وأهلك الله فرعون وجنوده، ومَنْ كذَّب بالله والبعث قبلهم من الأُمم، وأهلك قرى قوم لوط، فإن هؤلاء جميعاً اقترفوا الفعلة السيئة، وهي الكفر ومعصية رسولهم، فاستحقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وكان هلاكهم في الدنيا بعذاب أليم.

١١-١٢- وأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وأنجى نوحاً ومَنْ آمن معه في السفينة التي جرت في الماء بأمر الله وحِفْظِه، وجعل الله في ذلك عبرةً وذكرى لِـمَنْ كان ذا سمع يَعِي به الحق، وينتفع به.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَعَدُّد أسماء يوم القيامة، ومنها الحاقة والقارعة، يدلُّ على أهميته وعظمته. ولكلِّ اسم من هذه الأسماء دلالة على حَدَثٍ من أحداث هذا اليوم العظيم.

٢- وضع الاسم الظاهر موضع المضمر في ﴿مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ لزيادة التهويل.

٣- استمرت الريح التي أهلكت عاداً قومَ هود سبع ليال وثمانية أيام مع إمكان إهلاكهم في لحظة واحدة؛ لبيان عظيم قدرة الله، ولتقضي عليهم قضاء تاماً لا يَفْلت منه أحد.

٤- خاطب الله الذرية في قوله: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ مع أنَّ المحمول أجدادهم لا هم، لاستحضار المشهد، ولأنَّ إنجاء السابقين إنجاءٌ لِـمَنْ توالد منهم بعد.

٥- كان إهلاك ثمود بصيحة عظيمة رهيبة، وُصفت في بعض الآيات بأنَّها رجفة، وفي بعضها بأنَّها صاعقة، وكل هذا للدلالة على عظمتها وقوة أثرها. (روح المعاني، ٢١/ ٢٠٨).

٦- يُفْهَمُ مِنْ قوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أن ابتداء عذاب عادٍ كان أول النهار، وأنَّه انتهى آخر النهار كذلك، ولذا كان عدد أيامه زائداً على عدد لياليه بواحد.

٧- يقول علماء النبات: النخيل من الأشجار القوية العملاقة الباسقة المتحدية لظروف الجفاف والرياح والرمال وما شابه ذلك، ومع ذلك فإنها تصاب بالهرم والشيخوخة، وعند الشيخوخة تَصْفَرُّ أوراقها، وتجف قمتها، وتبقى واقفة في الهواء كالوتد العملاق، وبعد فترة من الزمن يخترق الجفافُ نُخاعَها قبل الأجزاء الخارجية من الجِذْع فتصبح خاوية، فإذا هَبَّتِ الريحُ تساقطت على الأرض خاوية اللُّب. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص٤٠٤).

٨- الضمير في ﴿لَهُم﴾ من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ يعود على عاد وثمود».

٩- سُمِّيَتْ قرى قوم لوط بالمؤتفكات؛ لأنَّها قُلبت بأَنْ جُعِلَ عاليها سافلها، وهو عذاب مناسب لما أقدموا عليه من ذنب، فيه قَلْبٌ للفطرة، وطبيعة الخَلْق.

١٠- أفرد لفظ ﴿رَسُولَ﴾ في الآية الكريمة ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مع أن المتحدَّثَ عنه رسولان، إذ أُرْسِلَ موسى إلى فرعون، وأرسل لوط إلى قومه؛ لأنَّ دعوة الرسل كلهم واحدة، فكأنهما رسول واحد، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦].

١١- في إفراد لفظ ﴿أُذُنٌ﴾ وتنكيره في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ إشارة إلى قلة مَنْ يَعي من الناس، وأن هؤلاء لهم عند الله مكانة كبيرة، وإنْ قَلَّ عددهم مقارنةً بالكثير من الناس الذين لا يَعُون، ولا ينتفعون مما يسمعون. (الكشاف ٤/ ٦٠٠).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾

التفسير:

١٣- فإذا نفخ المَلَكُ الموَكَّل بالنفخ في البوق إيذاناً ببدء يوم القيامة، وهو إسرافيل عليه السلام، والمقصودُ في الآية النفخة الأولى.

١٤- يرافق النفخَ في الصُّور أحداث عظيمة، منها أن تُزالَ الجبال عن أماكنها، وترفع هي والأرض، ويُضرب بها حتى تَنْدَقَّ وتتكسر الجبال فتزول وتتفتَّت، وتصبح الأرض مستوية.

١٥- إذا حصل ذلك فهذا إيذانٌ ببَدْءِ يوم القيامة، وسُمِّيَتْ القيامة واقعة تأكيداً لحصولها.

١٦- وتَنْشَقُّ السماء في ذلك اليوم، وتتفتح أبوابها لنزول الملائكة، وتصبح هَشَّةً ضعيفة غير متماسكة.

١٧- وتكون الملائكة في جوانب السماء ونواحيها بانتظار أمر الله للقيام به، ومن الملائكة صنف يحملون العرش فوق سائر الخلق، وهم ثمانية من الملائكة العظامِ الخَلْقِ، أو ثمانية صفوف هائلة في الكثرة والقوة.

١٨- في هذا اليوم يُعْرَضُ الخلق على الله تعالى وذلك بعد النفخة الثانية التي تبعثهم من قبورهم، فيقومون صفوفاً بانتظار الحساب والسؤال، وهم في فزع ودهشة. والله تعالى عالم بهم وبأسرارهم، لا يغيب عن علمه أحد، ولا يخفى عليه سِرٌّ ولا أمر.

١٩-٢٠- في هذه الآية بَدْءُ الحديث عن الفريق الأول وهم الذين يتسلَّمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى، فإنَّ أحدَهم يبادرُ بمخاطبة مَنْ حوله طالباً منهم أن يقرؤوا كتابه، لأنَّ ما فيه يُسِرُّ ويُشَرِّفُ؛ بدلالة تَسَلُّمِه باليد اليمنى، وقد كان متيقناً من حصول البعث والحساب، مؤمناً بالله وبما أخبر به.

٢١- تُبَيِّن هذه الآيات جانباً من نعيم أصحاب اليمين في الجنة، فمقامهم فيها كله رضا وسرور ونعيم دائم لا ينقطع ولا يزول.

٢٢- وسُكْناهم في جنة عظيمة القدر، ذات قصور عالية شامخة.

٢٣- والثمار فيها قريبة التناول، يحصل عليها الراغب فيها دون عناء ولا جهد.

٢٤- من صور النعيم في الجنة تناوُلُ الطعام والشراب؛ تَفَكُّهاً وتَلَذُّذاً، لا عن حاجة إليها. وكل هذا النعيم جزاءً لهم مقابل ما قَدَّموا في الحياة الدنيا من طاعة وعبادة.

٢٥-٢٧- ثم ذكر القسم الثاني، وهم الذين يَتَسَلَّمون صحيفة أعمالهم بيدهم الشمال، فإنَّ كلَّ واحد منهم يتمنى أنه لم يبعث، ولم يَتَسَلَّمْ كتابه، ويتمنى لو أنَّ الموت لم يُعْقِبْه بعث ولا نشور؛ لَـمّا تيَقّن من سوء المصير لحظة تَسَلُّمِه كتابه بشماله.

٢٨-٢٩- ويَعْلَمُ في ذلك الموقف أنَّ ماله الذي أحبه في الدنيا، وجمعه بشتى الوسائل، لن يغني عنه شيئاً، ولن يمنع عنه عذاب الله، وأنَّ الجاه والسلطان والمكانة التي حصلت له في الدنيا لن تنفعه شيئاً، وقد زالت ولم يَبْقَ لها أثر.

٣٠-٣٢- يأمر الله تعالى الملائكةَ الذين يُعَذِّبون أهل النار أن يأخذوا هذا الكافر إلى جهنم، وأن يجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال، ويحيطوا جسده بسلسلةٍ طويلة زيادةً في تعذيبه وإهانته.

٣٣-٣٤- تُبَيِّنُ هذه الآيات سببَ حصول هذا العذاب لِـمَنْ يعذب به، وهو كُفْرُه بالله، ومنعه الخيرَ عن المساكين، من نفسه ومن غيره، فكان لا يُطعم المساكين، ويَنْهى غيره عن إطعام المحتاجين.

٣٥- لا يجد هذا الكافر مَنْ يحميه من العذاب، ولا مَنْ يُجيره منه، فقد شُغِلَ أصدقاؤه بأحوالهم.

٣٦- ولا يجد هذا الكافر في النار طعاماً إلا ما يَسيل من أبدان أهل النار من صديد ودم.

٣٧- لا يأكل هذا الطعامَ إلا مَنْ تَعَمَّدَ الكفر بالله، وعدم الإيمان به، وفَعَلَ ما يجلب سَخَطَ الله وعقابه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يُؤخذ من الآيات التي تبين حال الجبال يوم القيامة ثبوت عدة مراحل من التغيير لها، منها الدَّكُّ المذكور في هذه السورة، ومنها: النسف، والتسيير، وأن تصير هباءً، وأن تصير سراباً، وأن تصير كالعِهْن المنفوش، ولبعض المفسرين اجتهادات في ترتيب هذه المراحل. (الفخر الرازي، التفسير الكبير ٣١/ ١٢).

٢ - ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خُذُوا، ويجوز فيه الهمز والقصر: هاء وها، وتتصل به كاف الخطاب. (الدر المصون، ١٠/ ٤٣٢).

٣- الهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ هاء الوقف التي تُجتلب حال الوقف على الكلمة لتبيين حركة آخرها، وتثبت هاؤها وصلاً لثبوتها رسماً.

٤ - في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أقوى رادع للكَفِّ عن محارم الله، واجتناب ما يُسْخطه سبحانه سراً وجهراً.

٥ - يتمنى الكافر يوم القيامة الموت بقوله: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ مع شدة كراهيته له؛ لما يرى ممَّا هو عنده أشنع من الموت وأَمَرُّ. (أورد الطبري عن قتادة كلاماً بمعناه في تفسيره جامع البيان ٢٩/ ٣٩).

٦- حَصَرَتِ الآية الكريمة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ طعام أهل النار في هذا الصنف، وورد في آيات أُخَرَ أنَّه من الضريع، ومِنَ الزَّقُّوم، ولا تعارُضَ بينها، إذ تُحْمَلُ على تَنَوُّعِ عذاب أهل النار، فيُعَذَّبُ بعضهم بهذا وبعضُهم بغيرِه، أو على حصول بعض العذاب في مراحلَ، وبعضه في مراحل أخرى.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٨-٤٠- فأُقْسِمُ قَسَماً مؤكداً، بما تبصرونه من المرئيَّات وما لا تُبصرونه، على أنَّ القرآن مُبَلَّغ لكم بوساطة رجلٍ جامعٍ لمحاسن الأخلاق والفضائل.

٤١-٤٣- تنفي هذه الآيات عن القرآن الكريم تهمة الشعر والكهانة، فإنَّه لا يُشبه كلام الشعراء ولا الكهنة، لأنَّه كلام الخالق العظيم سبحانه، أنزله على نبيه للهداية والعبرة، إلا أنَّه لم يؤمن به، ولم يعتبر ويتعظ بما فيه إلا عددٌ قليل ممَّنْ تُلِيَ عليهم القرآن، وسمعوه.

٤٤-٤٧- ولو أنَّ هذا النبي الكريم ادَّعى على الله شيئاً لَعاقبه سبحانه على ذلك بعقوبة عاجلة تُنْهي حياته، ولا يملك أحد أن يمنع تلك العقوبة عنه.

٤٨-٥٢- تتحدث هذه الآيات عن القرآن الكريم، مُبيِّنة أنَّه تذكرةٌ وعِبْرَةٌ وموعظةٌ لأصحاب التقوى ينتفعون بما فيه، ويعملون بما أُمروا به. والله تعالى يعلم أن من الناس مَنْ يكذِّب بالقرآن، وسيكون القرآن حسرةً وندامة على مَنْ كفر به، حين يَرَوْنَ ثواب المؤمنين، وما أعدَّ لهم من عقاب وعذاب. وإنَّ القرآن هو الحق البين الواضح الذي لا امتراء فيه ولا ريب، فنَزِّهْ ربَّك، واذكر اسمه العظيم، حامداً إياه على نعمة القرآن، وعلى سائر النعم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَضَمَّنَ قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ القَسَمَ بكلِّ شيء، فالمبصَر وغير المبصَرِ يشمل الخالق والمخلوق والدنيا والآخرة، والنعم الظاهرة والباطنة، وما نعلم من الخلق وما لا نعلم.

٢- يشير النص في القَسَم بما لا نُبْصِرُ إلى وجود عوالم لا يستطيع الإنسان رؤيتها. ومجرد الجزم بوجود هذه العوالم يفتح للإنسان آفاقاً هائلة من العلم بمدى ضعف الإنسان، وقلة حيلته أمام هذه العوالم العظيمة، ويتعالى بعِلْمِه على الذين يَحْصُرون إدراكَهم في عالم مَرْئِيٍّ ضيق الحدود. وفيه دعوة إلى التأمل والتفكر والبحث، والاجتهاد.

٣- يُنْسَبُ القرآنُ إلى النبي ﷺ، كما في قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ بوصفه مُبَلِّغَه للناس، ويُنْسَبُ إلى جبريل ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠] بوصفه المرسل به من الله إلى رسوله، ويُنْسَب إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥] لأنَّه قائله سبحانه.

٤- وَجْهُ الجَمْعِ بين الشِّعْر والكِهانة - في الآيات مع اختلافهما - لأمور منها: أنَّ الكهان كانوا يجتهدون في تحسين كلامهم بالسجع والمحسنات اللفظية؛ ليقوى تأثيرُ كلامهم فيمَنْ حولهم.

٥- مع عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله، إلا أنَّه لو حاد عن الصواب وافترى على الله كذباً، فإن عقابه سيكون عظيماً سريعاً. وبهذا الكلام يتأكد أن النبيَّ ﷺ بَلَّغَ ما أُنزل إليه، ولم يَكْتم منه، ولم يُغَيِّر فيه.

٦- الوتين: عِرْقٌ يصل القلب بالدماغ، وإذا انقطع مات الإنسان فوراً؛ ولذا كان النص على قَطْعِه لسرعة حصول الموت بذلك.

٧- في قوله تعالى: ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ وجهان، أولهما: أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته، ومثله: عين اليقين، وثانيهما: أن يكونا بمعنى واحد، ويكون من إضافة الشيء إلى نفسه بلفظ مغاير، وهو أسلوب شائع معروف في اللغة. (الهداية ١٢/ ٧٦٩٣. الدر المصون ١٠/ ٢٣٢).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير البعث.

٢ - إثبات قدرة الله تعالى على ما يشاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١ - ٢ - دعا داعٍ من المشركين على نفسه وعلى قومه بنزول العذاب؛ ليخدعَ الناس، ويبرهن لهم أنَّه ومَنْ معه على الحق، حقاً أن العذاب سيقع على الكافرين، وليس ثمة ما يمنعه.

٣ - ٤ - العذاب الذي سيصيب الكافرين من الله العليِّ سبحانه الذي يَعْرُجُ إليه جبريل عليه السلام والملائكة الكرام يوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي يبلغ مقداره خمسين ألف سنة من سِني الدنيا.

٥ - يدعو الله تعالى نبيَّه ﷺ إلى الصبر على إيذاء المشركين واستهزائهم به، وطَلَبِهم تعجيل العذاب، وأن يكون صبره جميلاً لا جَزَعَ فيه، ولا شكوى لغير الله.

٦ - ٧ - إن هؤلاء المستهزئين يُنْكِرون حصول يوم القيامة؛ ولذلك يستهزئون به، ويستعجلون حصوله، وهو في الحقيقة ثابت يقيناً، ولذا كان التعبير عن حصوله بالقرب، فإنَّ كل آتٍ قريب.

٨ - في ذلك اليوم ستتغير السماء، وتنقلب طبيعتها، وتصبح كالنحاس الذائب.

٩ - وينقلب حال الجبال فتتطاير من أماكنها، وتصبح كالصوف المتناثر المصبوغ بألوان الجبال المتعددة.

١٠ - وفي ذلك اليوم ينشغل كل امرئ بنفسه من شدة الهول والفزع، فلا يُبالي الصديق بصديقه الحميم، ولا يلتفت إليه، ولا إلى ما هو فيه من كرب.

١١-١٤- ومع أنَّ المرء يوم القيامة يرى مَنْ كان يعرفهم في الدنيا من أبنائه وإخوانه ومعارفه، إلا أنَّه لا يتكلم معهم لانشغال كل واحد بنفسه، أما الكافر فإنَّه يرغب أن يُقَدِّم مكانَه للحساب - وهو يعلم أن مصيره العذاب المهين - أبناءَه وزوجه وأخاه وأفراد عشيرته التي كان ينتسب إليها، وكلَّ مَنْ في الأرض مِمَّنْ لا يعرف من الخلائق؛ لينجوَ بنفسه من العقاب.

١٥-١٨- إنَّ هذا الافتداء الذي يرغب فيه الكافر لن يحصل، وإنَّ جهنم التي تلتهب نارها فيها صنوف من العذاب، منها نَزْعُ جِلْدَةِ الرأس، أو أطراف الإنسان من أماكنها، وتطلب أصحابها الذين يحاولون الفرار منها، والتولِّي عنها، وكانوا في الدنيا يجمعون المال، ويبالِغُون في حفظه، ولا يُؤَدُّون حقَّ الله فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١- التنكير في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ لبيان أنَّ المقصود ليس التعريف به، أو تبيين هويته، والقصد منه العموم، إذ ينطبق ما في هذه الآية على كل مَنْ يصدر عنه مثل هذا السؤال.

٢- الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن؛ لأنَّ ﴿سَأَلَ﴾ بمعنى دعا، واللام في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمعنى على، أو يكون الكلام على تقدير سؤال سائل: لِـمَنْ هذا العذاب الواقع؟ فيُقال: للكافرين.

(أبو حيان، البحر المحيط١٠/ ٢٧١).

٣- وَصْفُ الله تعالى بأنه ذو المعارج لم يقع في غير هذه الآية، والمعارج هي المصاعد، ويُفْهَمُ منه أنَّ للملائكة الكرام طُرُقاً أو أبواباً، أو وسائلَ خاصة للصعود إلى السماء.

٤- في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تحديد مدة يوم القيامة إلى ما قبل دخول الجنة والنار بخمسين ألف سنة - على قولٍ في تفسير الآية - وفي سورة السجدة تحديده بألف سنة. والجمع بينهما أن في يوم القيامة مواقف متنوعة لها مُدَدٌ يصل بعضها إلى ألف سنة، ومجموعها خمسون ألف سنة، ويخفف الله تعالى هذه المدة على المؤمنين؛ لما ورد في الحديث عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ قال: قيل يا رسول الله: ما أطولَ هذا اليوم! فقال: «والذي نفسُه بيده إنه لَيُخَفَّفُ على المؤمن حتى يكون أخَفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا». (رواه أحمد في المسند برقم ١١٧١٧، وحَسَّنه ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨).

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

١٩-٢١- تُخْبِرُ هذه الآيات عن صفات الإنسان، إذا لم يُهَذِّبْه الإيمان بالله. وهذه الصفات هي: شدة الحرص، وقلة الصبر، وكثرة اليأس والضجر إذا أصابه شر، وإذا أصابه خير من مال وسعة رزق منعه عن غيره، وهذا كله من فرط حب الإنسان لنفسه وذاته، وتعلقه بلذَّاته.

٢٢-٣٥- يُستثنى من الاتصاف بهذه الصفات القبيحة للإنسان مَنْ آمن بالله واستجاب لدعوته، وعمل للنجاة من العذاب الواقع حقاً يوم القيامة، وداوم على أداء الصلوات، وأخرج حقَّ الفقراء في ماله، وتَصَدَّق عليهم، وحَفِظَ نفسَه من الوقوع في الموبقات، وحَفِظَ فَرْجَه من الزنى، وما أشبهه من التجاوزات، والتزم بما أباحه الله له من زوج ومُلْكِ يمين، وأدَّى الأمانة، وحفظ العهد مع الله ومع الخلق، ولم يشهد إلا بالحق والصواب، دون ميل لأحد أو عليه، وحافظ على الصلاة في مواعيدها، وأقامها كاملةَ الأركان، مستوفية الشروط. إنَّ مَنْ جمع هذه الصفات الحسنة يستحق دخول الجنة والإقامة فيها مُكَرَّماً غاية التكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات (١٩-٢١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الإنسان جُبِلَ على الجزع وشدَّة الحرص، فإنَّه إذا أصابه المكروه والعسر فهو كثيرُ الجَزَعِ والأسى، وإذا أصابه الخير واليُسر فهو كثير المنع والإمساك.

٢- ورد ذكر الصلاة في الآيات مرتين، الأولى مع تبيين ديمومتها، والثانية مع تبيين المحافظة عليها، وبكلا الأمرين يحصل الكمال في إقامة الصلاة.

٣- المقصود بـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: الإماء، وهنَّ النساء المملوكات، وتفيد الآية جواز وطء الأمة من سيدها، وللإماء كما للعبيد أحكام مذكورة في كتب الفقه.

٤- على الإنسان أن يسعى إلى تهذيب طباعه، وأن يحمي نفسه من الجزع والهلع والطمع؛ ليكون من المكرمين في جنات النعيم.

٥- في استثناء أهل الإيمان والاستقامة من عموم الناس دليل على قلة الموصوف بهذه الصفات، إذ المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه.

٦- تفصيلٌ لأبرز صفات المتقين الذين يدخلون الجنة.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٩- تبدأ الآية بالاستفهام عن السبب الداعي لجماعة من المشركين أن يجتمعوا حول النبي ﷺ جماعات عن يمينه وعن شماله (ذكره عدد من المفسرين منهم البيضاوي، أنوارالتنزيل ٥/ ٢٤٧)، هل يطمع هؤلاء أن يدخلوا الجنة وهم على حالهم غير مؤمنين؟ كلا إنَّ ذلك لن يحصل أبداً، وليس لهم أن يتكبَّروا على المؤمنين، وعلى غيرهم من الخلق، وهم مخلوقون من المادة التي يعلمونها، وهي النطفة المستقذَرة.

٤٠-٤١- هذا قَسَمٌ بمَشارق الشمس ومغاربها، أو بمشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها. والمقسم عليه: إنَّ الله تعالى قادر على إهلاك المشركين، واستبدال قوم آخرين بهم أفضل منهم، يستجيبون لأمر الله ولا يَعْصُونه، وهو سبحانه ليس بعاجز عن ذلك.

٤٢-٤٤- فاترك - أيها النبيُّ الكريم - هؤلاء المشركين في لَـهْوِهم وباطلهم حتى يأتيهم العذاب في يوم القيامة الذين يكذبون به، وسيخرجون في ذلك اليوم من قبورهم مسرعين إلى أرض المحشر، كما كانوا في الدنيا يسرعون إلى آلهتهم، ولكنهم في يوم القيامة الذي كانوا يُكَذِّبون به، ولا يؤمنون بوقوعه، ستكون أبصارهم ذليلة منكسرة، ويحيط بهم الهوان والذل.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات الكريمة تعجيب من المشركين الذين أحاطوا بالنبي ﷺ، وسمعوا كلامه، وما يدعوهم إلى الإيمان به، ورأوا المعجزات، ومع ذلك لم يهتدوا ولم يتبعوه، وفي المقابل مِن الناس قديماً وحديثاً مَنْ آمن بمجرد سماع آية أو آيات.

٢- يطمع الكافرون مع ما هم عليه من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله بدخول الجنة، إن حصل اليوم الآخر حسب زعمهم، وفي المقابل يخشى المؤمنون من عذاب الله أن يدركهم، مع ما هم عليه من إيمانٍ وبذل وعمل صالح.

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية لطيفة عن المنيِّ المستقذر، وفيه لفت النظر إلى عظيم قدرة الله على خَلْقِ الإنسان من الشيء الحقير القليل.

٤- بتعدُّد المواقع على خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول، وعلى خط الطول الواحد يتعدد خطوط العرض، وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعدداً مذهلاً. وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء، ونتيجةً لتكوُّرها ولدورانها حول محاورها، ولسَبْحها حول أجرامٍ أكبر، فإن مشارقها ومغاربها تتعدَّد تعدُّداً كبيراً. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص٤٨٧-٥٠٢).

٥- وَرَدَ في هذه الآية جَمْعُ المشارق والمغارب بحسب اختلاف مكان حصولهما كل يوم وزمانه، وورد في آية أخرى تثنيتهما بحسب مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وورد في آية ثالثة إفرادهما بحسب عموم الجهة والوقت.

٦- في تشبيه إسراع الكافرين حال الخروج من القبور يوم القيامة بإسراعهم إلى آلهتهم في الدنيا تَهَكُّمٌ بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وسارعوا إلى طاعته جهلاً وضلالاً.

٧- وَصَفَتِ الآياتُ الكريمة أفعالَ المشركين بالعبث واللعب، فلا هدف لها، ولا انتظارَ أجرٍ لِـمَنْ فعلها، وفي المقابل كان وصف أفعال المؤمنين بالمداومة والمحافظة عليها؛ لما فيها من جِدٍّ وابتغاء الأجر العظيم.

٨- لا يملك المشركون - كما هو حالُ سائر الخلق - حين يُؤْمَرُون بالبعث من قبورهم إلا أن يستجيبوا للأمر، وقد كانوا في الدنيا يتكبَّرون عن أمر الله، ويُعْرِضُون عنه.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- بيان قصة نبي الله نوح عليه السلام، ومعاناته مع قومه.

٢- بيان عظمة الله تعالى من خلال الإبداع في خلق السموات، والأرض، والإنسان.

٣- تسلية النبي ﷺ وأصحابه في مواجهة المشركين، وإيذائهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾

التفسير:

١- يخبر الله تعالى عن نفسه بضمير العظمة، وبالتوكيد المفيد للاهتمام بالخبر، أنَّه بعث نبيه نوحاً إلى قومه ليدعوَهم إلى توحيد الله تعالى، ويُخوِّفَهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وهو عذاب مؤلم موجع.

٢-٣- قام نوح عليه السلام بأداء مهمته وأعلم قومه أنه مرسل من الله تعالى إليهم ودعاهم إلى توحيد الله وخوَّفهم من عاقبة الكفر به سبحانه، ووَضَّح لهم محتوى الرسالة، وأمرهم بعبادة الله تعالى على الوجه الذي يُرضيه، وباجتناب ما يغضبه، كما أمرهم بطاعته فيما يدعوهم إليه، فهو المبلغ عن ربه.

٤- أعلم نوحٌ قومَه أنَّهم إن أطاعوه وآمنوا بالله فإن الله تعالى يغفر لهم ما مضى من ذنوب وسيئات قبل حصول الإيمان منهم، ويبارك لهم في أعمارهم، ويرفع عنهم العذاب الذي يَنْزل بالكافرين، ولكن إن حان موعد موت أحدهم فإنَّه سيلقى حَتْفَه دون تأخير، لأنَّ هذا مُثْبَتٌ في عِلْمِ الله، ومُقَدَّرٌ على جميع الخلق، ومَنْ عَلِمَ هذا سارع إلى الإيمان والتصديق.

الفوائد والاستنباطات:

١- اختيار أن يكون النبيُّ مرسَلاً إلى قومه لا إلى غيرهم؛ ليكون ذلك آنسَ لهم، وأقربَ إلى الاستجابة.

٢- تقديم الإنذار لمناسبة المقام وللاهتمام، وعُطف عليه التبشير بمغفرة الذنوب والبركة في العمر.

٣- سَلَكَ نبيُّ الله نوح عليه السلام مع قومه أسلوبَ التقرُّب والتودُّد إليهم، فنسبهم إلى نفسه، وذكَّرهم بأنَّهم قومه، وأنَّه منهم.

٤- يمكن تلخيص دعوة النبي الكريم في ثلاث جمل هي: اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون.

٥- أكّد نوح عليه السلام كلامَه لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليُزيلَ تَرَدُّدَهم، وقدَّمَهم في الذِّكر ﴿لَكُمْ﴾ ليشعرهم بالاهتمام بأمرهم.

٦- تفيد ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بيانَ أن الذنوب التي تُكَفَّر بحصول الإيمان هي ما سبق من الذنوب، وما لا تَعَلُّق له بحقِّ آدمي.

٧- من فوائد الإيمان بالله حصول البركة في العمر.

٨- الأجل المقدَّر في علم الله تعالى ثابت لا يتأخر، ولا يتقدَّم.

٩- حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ما قبله عليه، وهو: لسارعتم إلى الإيمان، والاستجابة لما يأمركم به نبيُّكم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾

التفسير:

موضوع هذه الآيات تفصيل حديث نبي الله نوحٍ عليه السلام عن دعوته قومه إلى الإيمان والأساليب المتعددة المتنوعة التي سلكها:

٥- ٦- قال نوح مناجياً ربه شاكياً إليه موقف قومه من دعوته إياهم: يا ربِّ، لقد دعوتُ قومي إلى الإيمان والطاعة في أوقات الليل، وفي أوقات النهار، بحثاً عن الوقت الأنسب لاستجابتهم، ولكنهم لم يستجيبوا إلى نصحي ودعوتي إياهم إلى الإيمان، وكانوا كلما دعوتهم نفروا مني، وأعْرَضُوا عني إعراضاً بالغاً.

٧- وكانوا حينما أدعوهم إلى الإيمان والاستقامة، وأُبَيِّن لهم أن الإيمان سبب لمغفرة ذنوبهم يبالغون في الإعراض عن سماع كلامي إلى درجة أن يضعوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلَّا يسمعوا كلامي، ويَغُطُّوا رؤوسهم وأجسادهم بثيابهم لئلَّا يَرَوْني، واستمروا على هذا الفعل مستكبرين عن طاعتي واتباعي.

٨-٩- واصَلَ نوحٌ ﷺ كلامه مبيناً أنه سلك أساليب متنوعة في دعوة قومه، فقد دعاهم جِهاراً في العلن، وسِرّاً في الخفاء، وهذا يَدُلُّ على دعوته إياهم مجتمعين ومتفرقين، وفي ذلك موافقةٌ لحال المدعوين، فإن منهم من يناسبه الدعوة في العلن والاجتماع، ومنهم مَنْ يناسبه الدعوة في السرِّ والانفراد.

١٠-١٢- في هذه الآيات تفصيلُ بعضِ ما كان يقوله نوح ﷺ لقومه من باب الترغيب والحَثِّ على الإيمان، فقد دعاهم إلى الاستغفار بعد الإيمان بالله العظيم الذي يستجيب فيغفر الذنوب، وهو كثير المغفرة لمن يقبل عليه بالتوبة، ووعدهم إن آمنوا واستغفروا أن يُنْزِلَ الله تعالى عليهم الغيث متتابعاً غزيراً، وأن يزيد في أموالهم وأولادهم، وأن يُوَسِّعَ عليهم في المعيشة، فتصبح في أرضهم بساتين مثمرة، وتجري لهم الأنهار يَسْقُون منها، ويتمتعون بها.

١٣-١٤- في هاتين الآيتين انتقالٌ من الترغيب إلى التوبيخ، فقد سأل نوح ﷺ قومه عن السبب الذي يصدهم عن الإيمان بالله وتعظيمه ورجاء رحمته والخوف من عقابه، وهم يرون دلائل وجود الله وعظمته بأعينهم، ولا يملك أي مخلوق ادعاء أنه فاعل ذلك، وهو خَلْقُ الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة، وتَغَيُّرُ حاله ونموه بعد ولادته طفلاً فصبياً فشاباً. إن في هذا الخلق أعظمَ دليلٍ على الله، فما الذي صرفهم عن الإيمان به؟

١٥-١٦- في هاتين الآيتين دليلٌ آخر على عظمة الله، بَيَّنَه نوحٌ لقومه وهو يدعوهم إلى الله؛ ليؤكِّدَ عظمة الخالق من خلال خَلْقِ السموات السبع الواسعة العظيمة المركبة بعضُها فوق بعض، ومن خلال خَلْقِ القمر والشمس في السماء الدنيا من هذه السموات، وجعل القمر منيراً لأهل الأرض ينتفعون من نوره، ويعلمون من مراحله الشهور والأيام، وجعل الشمس مصباحاً يهب للأرض الضياءَ والحرارة.

١٧-١٨- عاد نوح ﷺ إلى تذكير قومه بنعمة الخلق، مُذَكِّراً إياهم بأنَّ اللهَ خَلَقَ أباهم آدم من تراب الأرض، وبأن الإنسان يعود بعد الموت إلى الأرض، فيدفن فيها، ويتلاشى في جوفها، ثمَّ يُخرجه الله منها يوم القيامة، وهذه الثلاثة: الخَلْقُ من الأرض، والإعادة فيها، ثمَّ الإخراج منها، من أعظم الأدلة على قدرة الخالق سبحانه.

١٩-٢٠- لَفَتَ نوحٌ ﷺ نَظَرَ قومه إلى آية واضحة قريبة من آيات الله، وهي هذه الأرض التي نحيا عليها، وهي ممَهَّدة مسخَّرة للإنسان فيسير في أرجائها لقضاء مصالحه، وابتغاء مَعاشه.

الفوائد والاستنباطات:

١- على الداعي إلى الله تعالى أن يسلك جميع الوسائل، والسبل المتاحة له في دعوته، وأن يبذل كل جهد ممكن في سبيل هداية المدعوين، ومخاطبة كل إنسان بما يلائمه، وفي الظرف الذي يناسبه، فمنهم مَنْ يُرجى استجابته إذا دُعي جهاراً، ومنهم مَنْ يُرجى استجابته إذا خُوطب منفرداً.

٢- يُلْحَظُ مبالغة قوم نوح في التهرُّب من سماعه ورؤيته، وإصرارهم على الكفر، واستكبارهم عن طاعته. كل هذا بسبب تأصُّلِ الكفر في نفوسهم، وتَعَلُّقِهم بالدنيا الزائلة.

٣- أكَّد نوح عليه السلام صفة المغفرة لله تعالى بأكثرَ من مؤكِّد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ حيث استخدم ﴿إِنَّ﴾ و﴿كَانَ﴾ الدالة على ثبوت هذه الصفة، وصيغة المبالغة فعَّال، هذا التأكيد لتعظيم رجائهم بربهم.

٤- في الآيتين (١١-١٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ جزاء التوبة والإستغفار هو إنزال الله المطر الغزير المتتابع، وإكثار الأموال والأولاد، وجعل الحدائق التي ينعم بثمارها وجمالها، وجعل الأنهار التي تُسقى منها الزروع والمواشي.

٥- جَمَعَ نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وبين فوائد الإيمان الدنيوية والأخروية، وبين لفت النظر إلى الآيات العلوية في السماء والدنيا في الأرض، ويَدُلُّ ذلك على بذله عليه السلام غاية الجهد في سبيل هداية قومه.

٦- من ثمرات الإيمان في الدنيا حصولُ رَغَدِ العيش، والسَّعة في الرزق، وكثرة المال والولد، كما بَيَّنَتْ هذه الآيات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ولا يمنع هذا من حصول البلاء والضيق على فترات، أو لأفراد من الأُمة ابتلاء واختباراً.

٧- ينظر: صورة أطوار خلق الجنين، كما في الملحق.

٨- الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ عِلْمية وليست بصرية، فليس بإمكان الناس رؤية ما بعد السماء الأولى.

٩- وصفت الشمس بالسراج؛ لأنها ملتهبة ونورها ذاتي صادر عنها إلى الأرض، ووصف القمر بالنور؛ لأن نورها ليس ذاتي إنما هو انعكاس لأشعة الشمس.

١٠-مصدر «أنبت» المتعدي: إنبات، ومصدر «نبت» اللازم: نبات، ودَلَّ ذلك على وجود حَذْفٍ في الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ والتقدير: والله أنبتكم من الأرض إنباتاً فنبتم نباتاً، فحذف في كل جملة ما أثبته في الأخرى، وهو نوع من أنواع البلاغة. وفي هذه الآية تشبيه نمو الإنسان بنمو النبات.

١١ -يُستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ على كُروية الأرض، لأنَّ الشكل الكُرَوِيَّ هو الشكل الوحيد الذي يمتد وينبسط، ويتصل أوله بآخره بلا انقطاع، وهو ما عَبَّرت عنه الآية بالبسط.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

٢١ - تخبر هذه الآية على لسان نوح عليه السلام شكواه من قومه، وأنَّهم لم يطيعوه فيما أمرهم به من الإيمان والاستغفار، وأنهم فَضَّلوا على ذلك اتباع كبرائهم الذين لم ينتفعوا مما رزقهم الله من مال وولد، فأنفقوا أموالهم للصدِّ عن سبيل الله، وأَمروا أولادهم بالكفر، واستعانوا بهم على تأييد الأتباع، وكان ذلك سبباً لزيادة خسارتهم.

٢٢ - إنَّ الكُبَراءَ من قوم نوح عَمِلُوا بخَفاء، ودَبَّروا الإساءة لنبيهم، واجتهدوا في ذلك كثيراً، وبذلوا له وَقْتَهم وفكرهم، وكان من هذا المكر ما أخبرت به الآية التالية:

٢٣ - أَمَرَ الكُبراء من قوم نوح أتباعهم بالتمسك بعبادة الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وهي آلهة متعددة منها: وَدّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، وهي أصنامٌ لرجال صالحين كانوا من قوم نوح. فلما تُوُفُّوا أغرى الشيطان قومهم أن ينصبوا لهم تماثيل في مجالسهم، ويُسَمُّوها بأسمائهم؛ ليكون ذلك أعون لهم على الطاعة إذا رأوا صور الصالحين.

٢٤ - وكان هذا التحريض من الكُبراء لأتباعهم بعبادة الأصنام سبباً لإضلالِ كثيرٍ منهم، فإنَّ من عادة الناس اتباعَ كُبرائهم فيما يُوَجِّهونهم إليه. وقد استدعى هذا الفعل من الكبراء وأتباعهم أن يصدر من نوح عليه السلام دعاء عليهم جميعاً: بأن يزيدَ الله في ضلالهم، وأن يُعَذِّبهم بعد ذلك على كفرهم، وشِرْكهم به.

٢٥ - وكان نتيجة كفر قوم نوح وعنادهم وإصرارهم على الضلال أن أُغرقوا بالطوفان، وسيُعَذَّبون يوم القيامة بعذاب النار جزاءَ ما عملوا، ولم يكن لهم في الدنيا حين أغرقهم الله، ولن يكون لهم في الآخرة

حين يعذبهم الله نصير من آلهتهم ولا غيرها يمنع عنهم العذاب، فلم تنفعهم هذه الآلهة، ولم تُغْنِ عنهم شيئاً.

٢٦-٢٨- وكان نوح عليه السلام قد دعا على قومه بالهلاك والاستئصال بعد أن يئس من إيمانهم، وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فطلب إلى ربِّه أن يهلك هؤلاء القوم، وألَّا يبقي منهم أحداً يسكن في الديار، مُعَلِّلاً ذلك بأنهم إن بَقُوا على ما هم عليه فإنَّهم سيتمادون في الكفر والإضلال، وسيستمر الضلال في ذريتهم وأبنائهم من بعدهم، خاتِماً دعاءَه بطلب المغفرة لنفسه ولوالديه، ولكلِّ مَنْ دخل داره مؤمناً ولجميع المؤمنين والمؤمنات، ثمَّ دعا مرة أخرى على أهل الكفر والظلم بالهلاك والخسران التام.

الفوائد والاستنباطات:

١- يجتمع أهل الباطل على محاربة الحق، ويبذلون في ذلك جهداً كبيراً.

٢- حُرمت الصور والتماثيل من باب سَدِّ الذرائع. وهو باب واسع من أبواب المحافظة على الدين، وذلك لئلَّا تُعبد من دون الله بعد أجيال أو قرون.

٣- ذمُّ المبالغة في تعظيم الأشخاص وتبجيلهم.

٤- بَلَغَ مِنْ حِرْصِ قوم نوح على التمسك بآلهتهم أن أضافوها إلى أنفسهم (آلهتكم).

٥- يسلك الشيطان حيلاً ظاهرها الخير ومآلها الشرّ، فليكن المرء في غاية الحذر من حيل الشيطان ومكايده.

٦- قال ابن عاشور: «ذُكِرَتْ (لا) مع ثلاثة من أسماء الأصنام، وحُذِفَتْ من الاثنين الآخرين، لأنَّه لا يزاد في التوكيد على ثلاث مرات». (التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١٠).

٧- ينظر: خريطة مواقع الأصنام، كما في الملحق.

٨- مع طول مدة دعوة نوح عليه السلام، ومع كثرة ما لقي في دعوته من شدائد وإيذاء، لم يَدْعُ على قومه بالهلاك إلا بعد ان أعلمه الله بأنه لن يؤمن أحد من قومه، فلم يبق معه بعد هذا الإعلام مجال للدعوة، وكان لابُدَّ في هذا الحال من التغيير والاستبدال.

٩- يلحظ أثر البيئة المحيطة بالمرء في سلوكه وعمله، فمَنْ يَعِشْ في بيئة أهل الضلال والهوى يتأثر بها ولو بشكل يسير.

١٠ - دعاء نوح عليه السلام لنفسه بالمغفرة من باب التمهيد؛ لإتمام الدعاء لِـمَنْ سيذكرهم بعد ذلك، ولتعليم من بعده من الداعين أن يتدرَّجوا في الدعاء بهذه الطريقة بَدْءاً بالنفس فالوالدَين فالمعارف، فعموم أهل الإيمان.

١١ - بيان كرامة الصالحين على الله تعالى، وعظيم منزلتهم عنده، فقد أهلك قوم نوح، وجَعَلَ ذلك آيةً كبرى، وهي الطوفان انتقاماً لنبيه وأتباعه، وإن كانوا قلة في العدد، فهم في ميزان الله ذوو منزلةٍ عظمى ومكانةٍ كبرى.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إثبات وجود الجن وأنهم مُكَلَّفون بالإيمان والطاعة كالإنس.

٢ - بيان تَفَرُّدِ عِلْمِ الله تعالى بالغيب، وأن الجِنَّ لا يعلمون شيئاً من الغيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

التفسير:

١ - بَلِّغْ - أيها النبيُّ الكريم - كلَّ مَنْ يَصِلُه بلاغك أن الله تعالى أعلمك أن جماعة من الجن - عددُهم ما بين الثلاثة والعشرة - استمعوا إلى القرآن، فهالهم وأثَّر فيهم، فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: لقد سَمِعْنا كلاماً في غاية العجب؛ لفصاحته، وعظيم بلاغته، وهو كلام يخالف المألوف مما نسمعه عادة.

٢ - يتضمَّن هذا الكلامُ الإرشادَ إلى الحقِّ والدعوة إليه، والتعريف به؛ ولذا سارَعْنا إلى الإيمان بأنَّه كلام الله الخالق، وسنستمرُّ على هذا الإيمان دائماً، ولن نعود إلى الشرك الذي كُنَّا فيه من قبل.

٣ - تخبر هذه الآية وآيات بعدها عن مضمون كلام الجن الذين استمعوا القرآن، وبَلَّغوه قومهم، إذ قالوا لهم: لقد عَلِمْنا من خلال ما استمعنا إليه من كلام الله أنه سبحانه تَنَزَّه في عظمته وجلاله عن الزوجة وعن الولد، فهو مُستغنٍ عن كل شيء، وهو صاحب العظمة المطلقة.

٤ -٥- وأن ما كان يقوله لنا الجاهل السفيه إبليس، ورؤساء الضلال من الجنِّ عن الله تعالى، خطأ وكفر، وبعيد عن الحق والصواب، ولم نكن نتوقع أن يتجرأ أحد من الخلق، فيكذب على الله، ويختلق كلاماً باطلاً عليه سبحانه.

٦- وتَبَيَّنَ لنا كذلك خطأ ما يفعله أفراد من الإنس من اللجوء إلى عظماء الجنِّ؛ طلباً للحماية من صغارهم. وكان هذا اللجوء يعجب كبراء الجن؛ لِما يحصل لهم بسببه من تعظيم، فازدادوا كِبْراً واعتداداً بحالهم، وإعجاباً بشأنهم.

٧- وكان هؤلاء الإنس المستجيرون بالجنِّ على بعضهم غير مؤمنين بالله ولا بالبعث، وكذلك كان عتاة الجنِّ، فتشابهوا في الكفر والضلال.

الفوائد والاستنباطات:

١- الجِنُّ مخلوقات غيبية، يملكون إرادة وفهماً، وهم مُكَلَّفون كالإنس، ومخاطبون بكلام الله تعالى، وأن منهم المؤمنَ والكافر.

٢- ورد في الحديث بيان سبب استماع الجن للقرآن، وهو أنَّهم لما حِيل بينهم وبين خبر السماء، انطلقوا في الأرض يبحثون عن سبب ذلك، وأن النفر الذين تَوَجَّهوا نحو تهامة سمعوا رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه صلاة الصبح، فاستمعوا لتلاوته فآمنوا، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم، ويَدْعُونهم إلى الإيمان، وتَدُلُّ رواياتٌ على حصول لقاء أو لقاءات بعد ذلك، استمعوا فيها إلى النبي ﷺ، وتحدَّثوا معه. (ينظر الرواية في: صحيح البخاري، برقم ٧٧٣، وصحيح مسلم، برقم ١٤٩).

٣- في سرعة استجابة هذا النفر من الجن للإيمان، ومبادرتهم إليه مع قِلَّةِ ما سمعوه من آيات، عبرة عظيمة ودعوة إلى سرعة الاستجابة لأوامر الله سبحانه، وتوبيخ لِـمَنْ سمع الآيات ولم ينتفع بها.

٤- الجَدُّ في اللغة: العظمة والجلال، وورد هذا المعنى في الأثر عن أنس ﷺ قال: «كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدَّ في عيوننا»، أي: عَظُم، ومنه ما ورد في الحديث: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ». (الحديث رواه البخاري برقم ٨٤٤، ومسلم برقم ٢٠٦، ويُنظر: فتح الباري لابن حجر ١/ ٩٧).

٥- تَأَدُّب الجن في حديثهم عن الله، فقد نسبوا إرادة الخير والرشد إليه، ولم ينسبوا إليه إرادة الشر، إذ قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

٨-٩- وأنّا حين اقتربنا من السماء لاستراق السمع، كما كنا نفعل من قبل، مَنَعَنا من ذلك حُرَّاسٌ من الملائكة الشِّداد، وأرسلوا شُهُباً حارقة على مَنْ يحاول الوصول إلى السماء، ولا ينجو من هذه الشهب أحد بعد بعثة النبي ﷺ، وكُنَّا قبل ذلك نصعد إلى السماء، ويستمع مَنْ ينجو منا من الشهب إلى شيء من أخبار الأرض التي لم تحصل بعد، ونخبر به أولياءنا من الإنس، مع ما نضيفه إليه من أكاذيبَ وافتراءات.

١٠- ولم نكن قبل استماع القرآن نعلم السبب الذي مَنَعَنا من محاولة السمع، وذهبت بنا الظنون إلى توقُّعِ حصول شَرٍّ بأهل الأرض، أو تَوَقُّعِ وجودِ خيرٍ أراده الله بهم، ولذا هيَّأ له أسباباً منها هذا الأمر.

١١- وكُنَّا قبل الهداية بالقرآن متفرقين منقسمين إلى فئات عديدة، فمنَّا أهل الصلاح والخير، ومنَّا فئة أقلُّ منهم درجةً أو درجات، ومنا أهل الشرور والآثام، وأهل الكفر والطغيان.

١٢- وكنا نعلم أننا مهما بَلَغَتْ قوتنا فإن الله تعالى قادر علينا، ولا يمكننا الفرار من أمره، ولا النجاة من عذابه، وفي هذا القولِ دليلٌ على أن قائلي هذه العبارات كانوا من صالحي الجِنِّ قبل إيمانهم.

١٣- وإنَّا بعد أن سمعنا آيات القرآن الداعية إلى الخير والهدى، انتقلنا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه، ونحن نعلم أنَّ الله تعالى لا يَظْلم أحداً ممَّنْ يؤمن به، ولا يُكَلِّفُ عباده فوق قدرتهم وطاقتهم. وفي هذا دلالة على يُسْرِ التكاليف، وحصول الجزاء العدل على الأعمال.

١٤-١٥- تفيد هذه الآية الكريمة أن الجنَّ بعد أن بَلَغَتْهم الدعوة، بوساطة النفر الذين استمعوا القرآن، انقسموا إلى صنفين: مُسْلِمِين استجابوا لأمر الله، وآمنوا به بعد أن بحثوا عن الحق الذي يُنَجِّيهم

من العذاب، ويستحقون باتباعه الثواب، ومائلين عن الحق، مُصِرِّين على الكفر. وهؤلاء يستحقون العذاب على ذلك، وسيكونون وقوداً للنار يوم القيامة جزاءَ كُفْرِهم وضلالهم.

وإلى هنا انتهى كلام الجن الذي حَكَتْه لنا الآيات الكريمة، وانتقل الكلام إلى الله تعالى:

١٦-١٧- يخبر الله تعالى الخَلْقَ أنَّ استجابة المكلَّفين من الإنس والجنِّ، واستقامتهم على منهجه مفتاح لخير كثير، إذ يفتح الله سبحانه عليهم من بركات السماء والأرض جزاءً لإيمانهم، واختباراً لهم؛ ليظهر صادقُ الإيمان من مُدَّعيه، أما مَنْ أعرض عن الإيمان بالله وطاعته فإنه يستحق عذاباً مؤلماً.

١٨- يخبر الله تعالى الخلق أنَّ المساجد بُنِيَتْ لعبادته وتعظيمه وذِكْرِ اسمه سبحانه، وينبغي أن تبقى كذلك، وألَّا ينحرف الناس بها عن هذا الهدف، وألَّا يُعَظَّمَ فيها أحد سوى الله، ولا يُعْبَدَ فيها غيره، ولا يُمْدَحَ فيها أهل الباطل والفجور، والحكام والأمراء الظَّلَمة.

١٩- يخبر الله تعالى الخلق أنَّ الجنَّ الذين استمعوا إلى تلاوة النبي ﷺ آيات القرآن كادوا من شدة حرصهم على الاستماع، ومن شِدَّةِ رغبتهم في الدنوِّ من النبي ﷺ وازدحامهم عليه أن يكونوا جماعات متراكبة بعضها فوق بعض.

الفوائد والاستنباطات:

١- يدل مَنْعُ الجن مِن استراق السمع أنَّهم كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يسمعون بعض ما يُقضى في السماء من أمور الأرض، وكانوا يزيدون عليه أكاذيبَ وأقاويلَ، ويُخبرون بها أولياءهم من الإنس. (يُنظر الحديث في صحيح البخاري، برقم٤٧٠١ و٤٨٠٠، وفي سنن الترمذي برقم٣٣٢٣). فيظن هؤلاء أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، فيَرْهبونهم، ويُعَظِّمونهم.

٢- القسط هو النصيب بالعدل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الرحمن: ٩]، وإن أخذ قِسْطَ غيره كان بمعنى الجور، كما في قوله تعالى:﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، والإقساط أن يعطي قِسْطَ غيره، وذلك إنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]. (المفردات في غريب القرآن، مادة قسط ٤٠٣).

٣- كان في محاولة الجن استراق السمع خطورةُ قَذْفِ الشُّهُبِ عليهم قبل الإسلام، وزاد الخطر عليهم بعد الإسلام إلى درجة الاستحالة، إلا أنَّهم يفعلون ذلك، لما ينتج عنه من تعظيمٍ لهم ورَفْعٍ لمنزلتهم عند أوليائهم من الإنس، ولظنهم احتمال النجاة، ورغبتهم في فعل الممنوع، وقد يفعلون ذلك في لحظةِ غفلةٍ ونسيانٍ، كما يحصل مع بني آدم.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إفادةُ أنَّ من ثمرات الاستقامة الرخاء، وأن من أسباب الرخاء تَوافُرَ الماء وكثرته، وأن من الرخاء ما يكون ابتلاء واختباراً.

٥- نسبة المساجد إلى الله تقتضي الاعتناء بها، وتطهيرها من الأدران المادية والمعنوية، وإخلاص العبادة والدعاء فيها لله وحده، والتزام الآداب التي تَليق بها فيها.

٦- جاء وَصْفُ النبي ﷺ بالعبودية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ رَفْعاً لمقامه، وتشريفاً له، فإنَّ مقام العبودية مقام شريف عظيم الشأن.

٧- يُسْتَحَبُّ في مجالس الخير التقاربُ، والدنُوُّ من المتحدِّث؛ ليحصُلَ الاستماع إلى كلامه على نحوٍ أفضل، وللحصول على الرحمة التي تنزل في هذه المجالس. وفي الحديث عن أبي واقد الليثي أنَّ رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأمّا أحدُهما فرأى فرجة في الحَلْقَةِ فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخَرُ فأعرض، فأعرض الله عنه».

(رواه البخاري برقم ٦٦، ومسلم برقم ٥٨١٠).

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- قل - أيها الرسول الكريم - للخلق أجمعين، ومنهم المشركون الذين لم يستجيبوا لدعوتك: إني لا أعبد إلا ربي الذي خلقني وأرسلني، ولا يمكن أن أشركَ به غيرَه، وأدعوكم إلى توحيد الله وعبادته.

٢١- ومع أني رسول الله إلى الخلق فإني واحد من البشر، لا قدرة لي على إلحاق الضرر بمَنْ عاداني، ولا على إلزامكم بالإيمان. إنما عليَّ البلاغ، وكل إنسان مُكَلَّف من الجن والإنس مسؤول عن اختياره.

٢٢-٢٣- ولا يمنع عني عذاب الله تعالى، ولا يحميني من نزوله بي إلا قيامي بتبليغ ما أمرت به من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله، وتنفيذ ما أرسلت به من الدين الحق، وإذا كان هذا هو حال الرسول الكريم ﷺ فكيف يكونُ حالُ غيرِه؟ وقد أعدَّ الله لِـمَنْ لم يؤمن به وبرسوله الداعي إلى الحق المبين، ولِـمَنْ عصى أمْرَه وأمْرَ رسوله عذاباً مؤلماً في النار، وهو عذاب دائم لا نهاية له.

٢٤- سيبقى المشركون في كفرهم وعنادهم حتى يعاينوا العذاب الذي وُعِدُوا به، فيحصل لهم وَقْتَها العلمُ اليقين بأنَّهم كانوا في ضلال، وأنَّه لا قدرة لأحد من الخلق أن يَنْصُرَهم ويحميَهم من العذاب، إذ تتلاشى قوتهم مهما عَظُمَتْ، أمام قوة الله وعظمته، ويتضاءل عددهم مهما كَثُروا أمام أعداد أهل الإيمان المؤيَّدين بالملائكة الكرام.

٢٥-٢٧- قل - أيها الرسول الكريم - إني لا أعلم الغيب، فلا أعلم متى سيحصل العذاب الذي سينزل بكم، ولكني أعلم أنه كائن كما أخبر الله سبحانه، وهو من عِلْمِ الغيب الذي اختصَّ الله تعالى به نفسه، ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خَلْقِه، إلا مَنْ شاء إطلاعه على بعض الغيب من رسله الكرام؛ ليكونَ معجزة لهم، وتأكيداً لصِدْقِهم. ومَنْ أطلعه الله تعالى من الرسل على شيء من الغيب فقد هيَّأ له من الملائكة حَفَظَةً يَحْمُونه من أذى الجن والإنس؛ ليقومَ بتبليغ الرسالة على أتمِّ وجه وأكمله.

٢٨- إنَّ الله تعالى يعلم علماً يقينياً أن الرسل السابقين قاموا بما أُمروا به من تبليغ الرسالة على أحسن وجه، وعِلْمُ الله شامل لكل شيء، ومنه عِلْمُ ما حصل بين الرسل وأقوامهم، وعلم كل دقيق أو عظيم، ظاهر أو باطن، قديم أو حديث، دائم أو منقطع، فعِلْمُ الله محيط بعالم الغيب والشهادة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تأكيد أن الضرَّ والنفع بيد الله وحده، فالله سبحانه هو الخالق، وهو المتصرِّفُ في خَلْقِه كيف يشاء، ونفيه عن النبي ﷺ نفيٌ له عن غيره.

٢- ينبغي لكلِّ امرئ القيامُ بما يُكَلَّفُ به على أحسنِ وجهٍ، وأتمِّ حال، وإذا كان القيام بالواجب يجير من العقوبة، فإنَّ التقصيرَ فيه يستلزمها.

٣- يُلْحَظُ ورود الجمع بعد الإفراد في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فالإفراد في ﴿يَعْصِ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ مراعاة للفظ ﴿مَن﴾ وهو مفرد، والجمع في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مراعاة لمعنى ﴿مَن﴾ وهو جمع.

٤- يُطْلِعُ الله تعالى مَنِ ارتضى أن يُطْلِعَه من الرسل على غيب خاص، ويتمُّ ذلك بعد حماية كاملة من الشياطين؛ كيلا يَنْقُلُوه إلى أوليائهم، فيُفْتِنُوا به الناس. (أيسر التفاسير ٤/ ٥٦٩).

٥- المقصود بالعلم في قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أو ظهور العلم للمخلوقين، فإنَّ الله يعلم الأشياء كلها قبل حصولها. (تفسير ابن كثير ٨/ ٢٤٨).

النزول: مكية، وهي من أوائل ما نزل.

المقاصد:

١- فضل قيام الليل، وأثره في القرب إلى الله.

٢- تقرير البعث بذِكْرِ بعض أهوال يوم القيامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

التفسير:

١-٤- يخاطب الله العلي العظيم رسوله الحبيب محمد ﷺ: يا أيها المتلفِّفُ بثيابه، دَعِ التلفُّفَ، وقم إلى الصلاة متقرِّباً بها إلى الله، ومُعِدّاً نفسَك لتحمُّلِ أعباء الدعوة ومتطلِّباتها، واقسِمْ وقت الليل بين القيام في الطاعة والعبادة، وبين الراحة والنوم، بجَعْلِ معظمِ الليل أو نصفِه أو ثُلُثِه للقيام والعبادة، وباقيه للراحة والنوم، واقرأ القرآن بتَرَوٍّ وتمَهُّلٍ، مع تبيين حروفه وألفاظه؛ ليكون أعونَ لك على حضور القلب والفهم والتأمل في معنى ما تقرأ.

٥- في هذه الآية إعلامُ النبيِّ ﷺ بأنَّ ما سينزل عليه من الآيات كلام عظيم القدر جليل المقام، قوي التأثير، يحوي المعانيَ العظيمة، والتوجيهاتِ الساميةَ. وفي هذا الإعلام تهيئة له أن يستعدَّ لما سيلاقيه من أحداثٍ جسامٍ تَتَضَمَّن التكذيب والإيذاء؛ بسبب إنزال هذا القول الثقيل عليه.

٦- إن أوقات الليل أنسبُ للطاعة والعبادة، وأكثر مناسبةً لحصول الخشوع، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً؛ لما في أوقات الليل من الهدوء والبعد عن الصَّوارف، وإقبال القلب على الله، مع ما فيها من صعوبةٍ وثِقَلٍ على النفس بهَجْرِ الفراش، وتَرْكِ النوم.

٧- أما أوقات النهار فإنها تمتلئ بالأعمال، وإنجاز المهامِّ، وقضاء المصالح الدنيوية، فيصعب أن يحصل فيها فراغ القلب مما يشغله.

٨- وحافِظْ على ذِكْرِ الله تعالى في أوقاتك كلها، في الليل والنهار، ولا تَصْرِفَنَّك أعمال الحياة في النهار عن ذِكْرِ الله، وأقبِلْ في ذِكْرِك لله عليه بجميع حَواسِّك، واقطَعْ نفسك في وقت الذِّكْرِ عن الصوارف، وفَرِّغْ قلبك للخشوع، والإقبال على الله.

٩- لله سبحانه مُلْكُ ما بين المشرق والمغرب، ويشمل ذلك الخلق كله، وهو وحده المعبود بحق، فاعتمِدْ عليه في جميع أمورك، وتَوَكَّلْ عليه وحده، فهو صاحبُ القدرة المطلقة.

الفوائد والاستنباطات:

١- وَصْفُ النبي ﷺ بالمزمِّل في هذا النداء من باب التلطُّفِ في ندائه، والتهوين عليه، وتبيين الحالة التي كان عليها بعد أن لقيه جبريل عليه السلام أول مرة في حراء، فرَجَعَ إلى بيته يرجف فؤاده، وهو يقول: «زَمِّلُوني زَمِّلُوني» (رواه البخاري، برقم ٣). وفي هذا دلالة على أنَّ الآيات الأولى من سورة المزمل من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

٢- أَمَرَ اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ بقيام قَدْرٍ من الليل، ولم يأمر بقيام الليل كله؛ لما في ذلك من المشقة والصعوبة، ويتفاوت هذا القَدْر بين ثلثي الليل وثلثه.

٣- الأكمل في قراءة القرآن أن تكون مرتَّلة مجوَّدة متقنة، بتَأَنٍّ وتَمَهُّل، وحضور قلب، وتفكُّر في المعاني، واستشعار عظمة قائل هذا الكلام؛ ليحصلَ الانتفاع منها، ويعظم الأجر بها.

٤- وُصِفَ القرآن الكريم بأنَّه قول ثقيل؛ لأنَّه كلام الله الخالق العظيم، ولما حواه من المعاني الغزيرة، والتشريعات السليمة، ومحاسن الأخلاق، وقصص السابقين، وكل ذلك بنَظْمٍ مُعْجِزٍ.

٥- فضيلة المحافظة على ذِكْرِ الله في أوقات المؤمن كلها، فلا ينشَغِلْ عنه في أثناء القيام بأعمال الدنيا ومعاشها؛ ليبقى القلب موصولاً بالله في جميع الأحوال والأوقات.

٦- الأمور العظيمة بحاجة إلى تهيئة وإعداد، ومن أعظم الأمور حَمْلُ الرسالة، ونَشْرُ الدعوة إلى الحق والخير، وقد استجاب الرسول ﷺ والسابقون من أصحابه لأمر الله بالتهيئة لما هو قادم بقيام الليل، وترتيل الآيات، وإدامة الذِّكْر. قالت عائشة رضي الله عنها: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلاً حتى انتفخَتْ أقدامهم...». (رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٢٦٩، وابن حبان برقم ٢٥٥١، وقال محققاهما: إسناده صحيح). فصبروا بعد ذلك، وتَحَمَّلُوا أعظمَ المشاقِّ، ورَكِبوا الأهوالَ، واستحَقُّوا لذلك نَصْرَ الله.

٧- تَضَمَّنَتْ هذه الآياتُ ذِكْرَ ثلاثة تعليلات للأمر بقيام الليل، أولها: أنَّ القيام في الليل أجمع للخاطر، وأكثر مواطأة بين القلب واللسان، وثانيها: أنَّه أثقل على النفس من الطاعة في النهار، وبالتالي فهو أكثر

تقويماً للنفس، وتهذيباً لها، وثالثها: أنَّ في النهار فسحةً من الوقت كافية للنوم، وقضاء المصالح، فليكن تفريغ الليل للقيام.

٨- أمر الله تعالى بخمسة أمور وهي: قيام الليل، وترتيل القرآن، وذِكْر الله، والانقطاع إليه، والتوكل عليه.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٠- واصبر على ما يصيبك من إيذاء وجهالة من قومك، ولا تُقابِلْ إساءاتهم بمثلها، بل أَعْرِضْ عنهم، واترُكِ الردَّ على إيذائهم بمثله، واحتَمِلْ ذلك في سبيل الله، وفي سبيل تبليغ دعوته.

١١- وأعرِضْ عن الذين كَذَّبُوك وآذَوك، ولا تَرُدَّ عليهم بمثل ما فعلوا، واترُكْهُمْ لي أَتَوَلَّى جزاءهم بما يستحقون. ومعظم هؤلاء المكذِّبين من المترفين والمتنعِّمين في حياتهم، ولكن مُدَّةَ هذا التنعُّم قليلة ستنتهي قريباً بموتهم، أو بظهور الإسلام.

١٢-١٣- أعَدَّ الله تعالى لهؤلاء المكذبين بالحقِّ قيوداً عظيمة ثقيلة يُوثَقُون بها، وناراً هائلة يَصْلَونها، وطعاماً في جهنم يَعْلَقُ في حُلوقهم، ويَغَصُّون به، وأصنافاً أخرى من العذاب المؤلم المهين؛ جزاء تكذيبهم بالحق، والإعراض عنه.

١٤- وسيكون هذا العذابُ في اليوم الذي تُزَلْزَلُ فيه الأرض، وتُدَكُّ فيه الجبال، وتتحَوَّل إلى رمال هشة ضعيفة.

١٥- إن إرسال رسولنا محمد ﷺ إليكم؛ ليُنْذِرَكم ويَدْعُوَكم إلى الحق، وليكون شاهداً لِـمَنْ آمن وعلى مَنْ كفر، ليس بدعاً من الأمر، فقد سبقه إرسال رُسُلٍ آخرين إلى أقوامهم، ومنهم موسى عليه السلام الذي أرسل إلى فرعون وقومه.

١٦- ولم يُؤْمِنْ فرعون بموسى وبما أرسل الله، فاستحقَّ الهلاك على ذلك، وكان هلاكُه عِبرةً مدويَّة، فقد أغرقه الله وجنوده في البحر، وفي ذلك عِبرة لِـمَنْ يُخاطَبُ بهذه الآيات.

١٧ - فاحذروا - أيها الناس - عقاب الله لكم إن لم تؤمنوا، وسيكون هذا العقاب في يوم القيامة الذي يشيب مِنْ هَوْلِه الصغار؛ لما يكون فيه من فظائع الأمور، ورهيب الأحداث.

١٨ - من الأحداث الرهيبة في ذلك اليوم: تَشَقُّقُ السماء، وتَمَزُّقُها وتناثرُ ما فيها من كواكب ونجوم، وهو مشهد مخيف مُجَلْجِل. وإنَّ هذا اليوم واقعٌ يقيناً؛ لأنَّ الله أخبر عنه، ووَعَدَ بحصوله، ووَعْدُ الله لا يُخْلِفُ.

١٩ - إنَّ ما ورد في هذه الآيات من ذِكْرِ العذاب والتوعُّد به عِبرة عظيمة وموعظة، ودعوة إلى الإيمان والطاعة، وزَجْرٌ ورَدْعٌ للخَلْقِ عن الكفر والجحود، فلْيَغْتَنِمْ مَنْ شاء هذا التذكير، وينتفع من هذه العبرة، فيسلك طريق الإيمان ودَرْبَ الهدى وسبيل الحق المبين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في أَمْرِ النبيِّ ﷺ بترك أمر المشركين وجزائهم إلى الله وعيد عظيم لهم، وترهيب كبير لِـمَنْ كان له قلب يتعظ ويَعِي، وتعظيم لمقام النبي الكريم ﷺ، وإجلال لقدره.

٢ - قال ابن عاشور: «لم تَرِدْ النَّعمة بفتح النون في القرآن الكريم إلا هنا، وفي سورة الدخان: (٢٧)، وهي في الموضعين في سياق الذَّم لِـمَنِ اتَّصَفَ بها، حيث لم ينتفعوا ممَّا أنعم الله عليهم، وأقبلوا على الملذَّات، وأعرضوا عن الهدى». (يُنظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٧٠).

٣ - في ذِكْرِ بعض صور جزاء الكافرين في النار، رادعٌ كبير عن الكفر والفسوق والعصيان، فإن شكلاً واحداً من أشكال هذا العذاب كافٍ لتنغيص الحياة، وتحويلها إلى عذاب دائم.

٤ - في ذِكْرِ إهلاك فرعون بعذابٍ وَبيل - مع ما كان عليه من جبروت واستعلاء وظلم، لم يصل طغاة مكة إلى بعضه - تخويف لهم، وإعلام بأنَّهم - إن بَقُوا على حالهم - سيَلْقَون مصيراً كمصيره أو أشدَّ.

٥ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل يذكر أحداث يوم القيامة: «ثم يُقال: أَخْرِجوا بَعْثَ النار، فيقال: مِنْ كم؟ فيقال: من كل ألف تسعَ مئة وتسعةً وتسعين، قال: فذاك يوم يجعل الولدان شِيباً». (رواه مسلم، برقم ٢٩٤٠).

٦ - من رحمة الله بعباده إعلامهم بأحداث يوم القيامة وأهواله؛ ليستَعِدُّوا لها، ويَتَرَقَّبوها، ولا يفاجَؤُوا بها، ويُعِدُّوا لهذا اليوم عُدَّتَه من الإيمان والعمل الصالح. ومن رحمته سبحانه بهم عدمُ إلزامهم بالإيمان أو بالكفر، وترك المشيئة والاختيار لهم؛ ليكونَ فِعْلُ المرء حاصلاً من ذاته وتابعاً لاختياره، ويكون المرء بذلك مستحقاً للجزاء على ما اختار بمَحْضِ إرادته، دون إلزام ولا إجبار.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٠ - يُخبر الله تعالى عن عِلْمِه باستجابة النبيِّ ﷺ وأصحابه للأمر بقيام الليل في أول السورة، وأنهم فعلاً قاموا نحو ثُلُثَيه ونصفه وثلثه، فهو سبحانه العالم بجميع ما يحصل في الكون. ولما كان الاستمرار في قيام الليل وجوباً لا ندباً فيه مشقة عظيمة، حصل في هذه الآية تخفيف حُكْمِه من الوجوب إلى الندب في حق المسلمين جميعاً، وبَيَّنَتِ الآية أسباب التخفيف، وهي: عِلْمُ الله أنَّ قيام الليل على وجه الوجوب غير مستطاع، وعِلْمُ الله تعالى بحصول العَوارضِ التي تمنع من قيام الليل كالمرض والسفر والجهاد، إذ يَشُقُّ على النفوس القيام في هذه الأحوال. وهذا التخفيفُ في الحكم رحمة من الله تعالى بعباده، ومراعاة لظروفهم وأحوالهم، ووَجَّه الله سبحانه بعد ذلك المؤمنين من عباده إلى فِعْلِ الطاعات والقُرُبات، بأداء الصلاة على وجهها الأتمِّ الأكملِ، وإخراج الزكاة إلى مستحقِّيها، والإكثار من التصدق، وعمل الخير في وجوه البر المتعددة، وسيجد كل امرئ لما عمل من طاعة وعمل صالح جزاءً أفضل منه، وأجراً مضاعفاً عند الله الكريم العظيم. ومن رحمة الله بعباده جميعاً توجيههم إلى الاستغفار، وهو طَلَبُ المغفرة من الله تعالى، ولا يستغني عن الاستغفار أحدٌ من الخلق. والله سبحانه واسع المغفرة، رحيمٌ بعباده.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَأَخُّر نزول هذه الآية عن أول السورة سنةً واحدة، كما في الرواية عن عائشة رضي الله عنها: «إنَّ الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلاً حتى انتفخَتْ أقدامهم، وأمسك اللهُ خاتمتَها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة». (رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٢٦٩، وابن حبان برقم ٢٥٥١، وقال محققها: إسناده صحيح).

٢ - من رحمة الله بعباده التخفيف عنهم في العبادات، ومن ذلك تخفيف وجوب قيام الليل إلى الندب، إذ يَشُقُّ على الناس القيام كلَّ ليلة؛ لما يعرض لهم من مرض وسفر وقتال، ولحاجة أجسامهم إلى الراحة والنوم بعد عَناء النهار في طلب الرزق والمعاش. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٩/ ٥٣، والتحرير والتنوير٢٩/ ٢٨٥).

٣- الاستغفار عبادة عظيمة القدر، عالية المقام، وهي مشروعة من الطائع والعاصي، وفي كثير من الأحوال وفي أعقاب العبادات، وبها يستدرك ما عسى أن يقع في الطاعات من تقصير.

٤- عُلِمَ التخفيفُ في حُكْمِ قيام الليل من قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ أي: إنه لم يَعُدْ محدَّداً بنصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فيحصل القيام بأيِّ قَدْرٍ مهما قلَّ، ولم يَعُدْ واجباً، بل هو مندوب، والمراد بالقراءة في الآية الصلاة، وهو من إطلاق البعض على الكل، وفيه إشارة إلى جواز القيام بتلاوة القرآن والذِّكْرِ، والتسبيح والاستغفار.

٥- يلحظ في هذه الآية الاعتناء بدقائق الوقت وتفاصيله، فقد ذُكِرَ فيها ثُلُثُ الليل ونصفُه وثُلُثاه، وما هو أدنى منها، وفي هذا دعوة للاعتناء بالوقت، والاهتمام به وبأجزائه الدقيقة.

٦- احتوت سورة المزمل على تقسيم بديع للمهمات في اليوم على النحو التالي:

أ- بَدْءُ اليوم بقيام الليل، وترتيل القرآن.

ب- العمل الجادُّ في النهار.

ج- الإكثار من ذكر الله، والتخَلُّق بالصبر.

د- استحضار الاعتبار.

النزول: مكية.

والآيات الخمس في أولها هي ثاني ما نزل، بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يُحَدِّث عن زمن الوحي، فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرَعَبْتُ منه، فرَجَعْتُ، فقلت: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فحَمِيَ الوحيُ وتتابع». (رواه البخاري برقم ٤، ومسلم برقم ١٦١).

المقاصد:

١ - تقرير رسالة سيدنا محمد ﷺ.

٢ - تقرير البعث بعرض أسباب دخول النار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

١ -٥- تبدأ السورة بنداء النبي ﷺ: يا أيها المتغَطِّي بثيابه، قُمْ من مضجعك؛ لتنذرَ الناس، وتُبَشِّرَهم وتُعَلِّمُهم بما أُرْسِلْتَ به، وخُصَّ ربَّك الذي خلقك وأرسلك بالتكبير، وخُصَّ نفسك بتنقيتها مما يسخط الله، وثيابك بتطهيرها من النجاسات، وابتعد عن الأصنام والأوثان التي تُعْبَدُ وتُعَظَّم من دون الله، وعن كل رجز وقبيح من قول أو فعل.

٦- ولا تنظر إلى ما تنفقه من مال وجهد وعلم ودعوة على أنه كثير، بل اجعله في نظر نفسك قليلاً.

٧- ومن أجل رضا الله والقرب منه احتمِلْ ما يصيبك من ضر، واصبر على ما تسمع وما ترى، وما ينزل بك من إيذاء قومك؛ بسبب دعوتك إياهم إلى التوحيد والهدى.

٨-١٠- فإذا نفخ في الصور نفخة البعث والقيام، فزع الخلائق واضطربوا، وخرجوا من قبورهم. وهو يوم شديد قاسٍ على الكافرين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله في الدنيا، أمَّا المؤمنون فيكون يوماً يسيراً عليهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أصل المدَّثِّر: المتدثِّر، فأُدغمت التاء في الدال. والدِّثار هي الثياب الظاهرة، ويقابلها: الشِّعار، وهي: الثياب التي تلي الجسد.

٢- نداء النبي ﷺ بالمدَّثِّر ملاطفة في الخطاب، وتبيين للحالة التي كان عليها عند حصول النداء له.

٣- تقديم المفعول على الفعل في عدد من هذه الآيات نحو ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ؛ للاختصاص، فلا يكون التكبير لغير الله.

٤- ورد الأمر بتكبير الله تعالى بعد الأمر بالإنذار؛ لتنبيه النبي ﷺ ألَّا يكترثَ بالكفار، ولا يبالي بهم ولا بتهديدهم وإيذائهم، وألَّا يُرْهِبَ إلا الله، فإنَّ كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه.

٥- يرى عدد من المفسرين أن المراد بالأمر بتطهير الثياب تطهير القلب والنفس؛ وذلك لأن الثياب كالشيء الملازم للإنسان، فكُنِيَ بها عنه، ومثل هذا قول بعضهم: المَجْدُ في ثوبه، والعفَّةُ في إزاره، ولأنَّ الغالب أن من يطهر باطنه فإنه يطهر ظاهره. (التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/ ١٧٠).

٦- أُمِرَ النبيُّ ﷺ بهَجْرِ الأوثان والأصنام، وسَيِّئ الأخلاق مع أنه ﷺ كان بعيداً عنها، ليدومَ على ذلك البعد ويحافظ عليه، وليعلم أنَّ ما فعله بفطرته حق وصواب.

٧- في الأمر بألَّا يستكثر العطاء والعمل حِكَمٌ كثيرة، منها: الحَثُّ على دوام العمل واستمراره، وعدم الاغترار به وبالنفس.

٨- عَبَّرَتِ الآية الكريمة عن النفخ في الصور بالنقر في الناقور. والنَّقْرُ في اللغة: هو القَرْعُ المُفْضِي إلى النقب، والناقور: الصُّور. (المفردات للراغب، مادة نقر، ٥٠٣). وفي هذا التعبير إشارة إلى شدة هذا الصوت وعِظَمِه.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة، كما ذكر كثير من المفسرين، وكان من أشدِّ أعداء هذا الدين، وله موقف عجيب ذكرته هذه الآيات.

١١-١٥ - تبدأ هذه الآيات بالوعيد الشديد لِـمَن اتصف بالصفات التي ستُذْكر لاحقاً، إذ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اتْرُكْ لي أَمْرَ عقاب هذا الكافر وجزائه، وقد كان وقت ولادته وحيداً لا مال له، وجعلتُ له بعد ذلك مالاً وفيراً كثيراً، ورَزَقْتُه عدداً من الأولاد، يحضرون معه المحافل والمشاهد، ويأنس بوجودهم حوله، وبَلَغَ من الرفاهية ورَغَدِ العيش منزلةً عالية، وأصبح أحد كبار قومه، ومع حصول كلِّ هذه النعم كان يطمع في الزيادة عليها.

١٦ - كلا لن تحصل له زيادة على ما أعطي، فهو لا يستحق ذلك؛ لعدم إيمانه بالله ومعاندته للحق، مع تبيُّنه له.

١٧ - وسيُعَذَّب يوم القيامة في النار عذاباً شديداً يُرْهِقُه، ويُذْهِبُ قوته، وذلك في مقابل طَمَعِه في زيادة النعيم والرفاهية.

١٨ - ٢٥ - تَذْكُرُ هذه الآيات موقفاً لهذا الكافر المعاند للحق، وتروي كتب السيرة والتفسير (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٣ و٢٤٤، وجامع البيان للطبري ٢٩/ ٢٥٦، وتفسير البغوي ٥/ ١٧٦): أنَّ الوليد بن المغيرة بعد أن استمع مرة لتلاوة النبي ﷺ وتأثَّر بها، وامتدح ما سمع، خاف زعماء قريش أن يُسْلِمَ، وأن يُؤَثِّر إسلامه في أهل مكة، فذهب إليه بعضهم، وطلبوا منه كلاماً واضحاً صريحاً في شأن القرآن؛ ليكون مَقْنَعاً لِـمَنْ يسمعه، ليقولوه للناس، ويَصْرِفُوهم عن اتباع الحق. فقال الوليد بعد أن فَكَّر وتأمَّل، وأمعن النظر مراراً: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يُفَرِّقُ بين الرجل وأهله وولده؟ وما هذا الذي يقوله إلا سِحْرٌ نقله عَمَّنْ علَّمه إياه. وفي هذه الآيات وصف هذه الحادثة، إذ تبيَّن أنه دخل في صراع كبير مع نفسه، وبَحَثَ بدأبٍ عن كلامٍ مقنع لِـمَنْ يسمع هذا القرآن، فأكثر من التفكير، وتَرَيَّثَ قبل أن يعلن ما توصَّل إليه من رأي في القرآن، وتَهَرَّبَ من إعلان الحق الذي استقر في قلبه، وهو مستحق للَّعْنِ والطرد من رحمة الله على ما فعل،

بسبب العناد والجحود. ونتيجةَ الاضطراب الهائل في نفسه والتفكير الطويل في قلب الحقيقة قَطَّب وجهه عابساً، ثم زاد في ذلك العبوس والتجهّم، حتى تَوَصَّل إلى ما افتراه.

الفوائد والاستنباطات:

١- تشير الآيات الكريمة (١١-١٦) إلى فضيلة القناعة والرضا بالمقدَّر، فلا يُكثر من التطلع إلى زيادة المال، ولا يبالغ في السعي إلى المنصب والجاه، كما تشير إلى التنفير من خُلُقِ العِناد المذموم والمؤدِّي إلى كثير من المساوئ.

٢- تُبيِّنُ الآيات الكريمة (١٨-٢٥) ما أصاب الوليد بن المغيرة من حَيْرة وتَرَدُّد، إذ تُبيِّن أنه فَكَّر ورَتَّب في نفسه ماذا يقول عن القرآن من إفك مفترى، وهو مستحق - لِفِعْلِه - هذا اللَّعْنَ والطَّرْدَ من رحمة الله، فما أعجب تقديرَه، وما أغربَ صنيعَه، وما أجرأَه على تبديل الحق، والافتراءِ عليه، وما أشدَّ عذابَه على ذلك!!.

﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٩- في هذه الآياتِ بيانُ ما سيُعَذَّب به هذا المعانِدُ المكابر، حيث إنه سيدخل جهنم، و «سقر» من أسمائها أو إحدى دَرَكاتها، والاستفهام عن سقر للتهويل والتفظيع، وزيادة التخويف منها، فما أعلمك حقيقةَ سقر؟ إنَّها لا تُبقي أحداً ممَّنْ يستحق دخولها، ولا تَذَرُ لِـمَنْ دخلها لحماً ولا عظماً إلا أَهْلَكَتْه، ولعظمتها يراها الناس من مسافات بعيدة تُلَوِّح لهم، وتَظْهَرُ بهيئتها المرعبة.

٣٠- يُشْرِفُ على أهوال جهنم من ضروب العذاب تسعة عشر مَلَكاً، أو تسعة عشر صنفاً من الملائكة.

٣١- جعل الله القائمين على أمور العذاب في النار ملائكة، وجعل في هذا الصنف من الملائكة غلظة وشدَّة وقدرة كبيرة على التعذيب. وفي الإخبار بعَدَدِهم ابتلاء واختبار للخلق أدَّى إلى تَيَقُّنِ أهلِ الكتاب من صِدْقِ النبي ﷺ؛ لتوافِقَ هذه المعلومةُ مع ما في الكتب المنزَّلة من قبل، وأدَّى إلى زيادة إيمان المؤمنين وتثبيتهم على الحق أكثر، فهم يُصَدِّقُون كل ما يخبر به الله تعالى من أمور الغيب، فإذا وافق ذلك تصديقُ

أهل الكتاب به، كان أدْعَى لتصديقه. أمَّا أهلُ الكفر والنفاق وضعاف الإيمان فقد استنكروا إعلام الله تعالى عباده بهذه المعلومة، وعجبوا من ذلك، فجاء السياق يرد عليهم أن الله تعالى يعلم مَنْ يستحق الهداية فيَهْديه، وييسر له سُبُلَها، ويعلم مَنْ يستحق الضلال، فيتركه وما أراد بعد أن يُبَيِّنَ له الحُجَجَ والبراهين. ثم بَيَّنَ سبحانه أنه وحده يعلم تفاصيل كل ما يتعلَّق بجنوده من الملائكة وغيرهم، من كثرة وقوة وتَنَوُّعِ مَهامَّ، وقد أعلم الله تعالى خَلْقَه عن النار وصفاتها وأهوالها؛ ليتذكَّروا ويعتبروا، ويعملوا للنجاة منها.

٣٢- إلا أن فريقاً من الناس لا ينتفع من الذِّكْرى، ولا يستجيب للحق. وهذا الفريق يستحق الرَّدْعَ والزجر لما هو فيه، ثم أقسم سبحانه بالقمر، وهو من الآيات العظمى الدالة على الخالق سبحانه.

٣٣-٣٤- وأقسم سبحانه بالليل حين ينتهي وقته، وبالصبح الذي يَتْبَعُ الليل، فينشر الضياء والنور في أرجاء الأرض.

٣٥-٣٦- إن جهنم وما فيها من أهوال وعذاب أمرٌ هائل ثقيل. وفي هذا الوصف تخويف وإنذار للبشر جميعاً؛ لينجُوا من عذابها.

٣٧- فمَنِ انتفع من هذا النذير تَقَرَّب إلى الله بعمل الطاعات، وسبق إلى الخيرات، وفاز بالجنات، ومَنْ لم ينتفع به، وتأخر عن الاستجابة، وأقام على الشرك والضلال، فهو ممَّنْ سيلقى سوء المصير.

الفوائد والاستنباطات:

١- من طبيعة الناس أَنْ تَتَبايَنَ مواقِفُهم، وتَتَعَدَّد اتجاهاتهم، وتختلف نظرتهم نحو شيء واحد؛ نظراً لاختلافِ طبائعهم، وتفاوُتِ تقديرهم، واتباع فريقٍ منهم الهوى.

٢- اختيار اسم (سقر) لجهنم في هذه الآيات دون غيره من الأسماء؛ لما فيه من مشاكَلةٍ لكثير من آيات هذه السورة في الوزن، وفي الحرف الأخير منها.

٣- من صفات المؤمن الحق المبادرةُ إلى التصديق والانقياد لما يخبر الله سبحانه ولما يأمر به، ولو لم يعلم الحكمة، فالله أعلم بما شرع وأنزل.

٤- استقلَّ بعض المشركين عدد خزنة جهنم من الملائكة، وأنهم تسعة عشر، فقال أبو الأشدِّ وهو رجل من قريش: يا معشر قريش لا يَهُولَنَّكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ووَرَدَ قريبٌ منه عن أبي جهل. (ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٢٦٥، ولباب النقول للسيوطي ٢٠٦-٢٠٧-٢٢٣).

وهذا كله دليل غرور، وإجحاف بحق الملائكة الكرام لظَنِّهم أنَّهم كالبشر؛ ولذا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٥- ينظر: صورة إدبار الليل، كما في الملحق.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

التفسير:

٣٨-٣٩- يخبر الله سبحانه أنَّ الناس جميعاً ينالون عقابهم على ذنوبهم ويُمْنَعُون من النعيم يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وضلالهم، أما المؤمنون فإنهم يدخلون الجنة، ولا يُمنعون منها؛ بسبب أعمالهم الحسنة.

٤٠-٤٢- يُدْخِلُ الله المؤمنين أصحاب اليمين الجنة، فيتساءلون عن مصير الكافرين، إذ لم يروهم معهم في الجنة، فيَعْلَمُون أنَّهم في النار، ويُسمح لهم بالحديث معهم، فيسألونهم عن سبب دخولهم النار، وحِرْمانهم من الجنة.

٤٣- ٤٨- يذكر أهل النار في الجواب أسباب دخولهم النار وهي: غفلتهم عن أداء العبادات المطلوبة منهم - وأهمُّها الصلاة - وعن الإحسان إلى المحتاجين، وعن إطعام المساكين، وغفلتهم عن مراقبة النفس وما يصدر عنها من أقوال وأفعال غير لائقة ولا حسنة، والكفر بالله تعالى وعدم التصديق بحصول يوم القيامة، وأنَّهم بَقُوا على هذه الحال حتى أتاهم الأجل، وماتوا على غير الهدى، فاستحَقُّوا دخول النار، ولأنَّهم لا يستحقون الشفاعة، فلن يشفع لهم أحد من عباد الله الصالحين. وعلى افتراض حصول شفاعة أحدٍ لهم، لن تُقبل هذه الشفاعة لهم.

٤٩-٥١- وإنَّ ممَّا يُستغرب: ابتعادَهم وإعراضَهم عن القرآن وهدايته، وقد كانوا يُدْعَون إليه في الدنيا، ولكنهم كانوا يعرضون عنه إعراضاً شديداً، كما تنفر الحمر الوحشية، وتَفِرُّ فَزِعَةً إذا رأت أسداً مقبلاً عليها يريد إهلاكها، فتتفرق في كل اتجاه بلا هدف سوى الهرب والنجاة. وهذا النفور من المشركين عن الحق مستغرب جداً، فهم يُدْعَوْن إلى الهدى والرشاد، لا إلى الهلاك والضلال، ولكن الوهم الذي في نفوسهم، وتَمَكُّنَ الكفر من قلوبهم هَيَّأ لهم ذلك الإعراض.

٥٢-٥٣- بلغ من كفر المشركين وعنادهم، طَلَبُ حصول كل واحد منهم على كتاب من الله يخاطبه فيه، ويطلب منه الإيمان. كلا إنَّ ذلك لن يحصل، فهم ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا يخافون العقاب في ذلك اليوم، ولذلك تجرَّؤوا على مثل هذا الطلب.

٥٤- ٥٦- حقاً إنَّ في القرآن ما يُغني عن ذلك وعن غيره، فهو كتاب الهداية، وفيه كثير من المواعظ والعِبَر التي تدعو الخَلْقَ إلى الإيمان بالله، وإلى العمل الصالح. ولا ينتفع بهذه الآيات إلا مَنِ استجاب لأمر الله، واهتدى بهداه، وهم الذين شاء الله هدايتهم، ونَوَّر قلوبهم؛ بسبب إقبالهم عليه وإيمانهم به، وهم يعلمون أنَّه - سبحانه - هو العظيم المستحق للعبادة والتقوى، وأنَّه هو الذي يغفر لهم ما سلف مِنْ كُفْرٍ وذنوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- يبلغ العِنادُ والغرور ببعض الناس مبلغاً عظيماً يُوصِلُهم إلى طلب المستحيل، ومن ذلك طَلَبُ المشركين كتباً يخاطبهم الله بها بأعيانهم وأسمائهم، يدعوهم فيها إلى الإيمان به. وكان الرد على هذا الطلب المقرون بالعناد والغرور أنهم لا يستحقون ذلك.

٢- بيان أكبر الجرائم وهي: تَرْكُ الصلاة، ومَنْعُ الزكاة، والخوض في الباطل، وإنكار الحساب. (أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري ٤/ ٥٨٥).

٣- تشبيه هيئة المشركين في هُروبِهم من الهدى والرسول بالحُمُرِ الهاربة، فيه احتقارٌ لهم، وإظهار أنَّهم لا يستخدمون عقولهم، وأنَّهم يجتمعون على الباطل.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إثبات يوم القيامة وذكر بعض أحداثه.

٢ - تسلية النبي ﷺ بحفظ القرآن في قلبه.

٣ - إقامة الأدلة على عظمة قدرة الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١-٢- يقسم الله تعالى بيوم القيامة وهو يوم البعث والجزاء، ويقسم بالنفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير والإهمال.

٣-٤- ينكر الإنسان الكافر بالله البعث والحساب، ويجزم بأنه لا يمكن أن يُعاد جَمْعُ عظامه بعد أن تَبْلَى وتَفْنَى. والاستفهام في الآية للتوبيخ، ويَرُدُّ الله تعالى عليه بأنه سبحانه قادر على أن يعيده كما كان، خلقاً سوياً، وهو قادر على أن يُعيدَ أدقَّ ما فيه كأطراف الأصابع، وما أشبهها في الدقة وبديع الصنع.

٥-٦- ينكر الكافرُ البعثَ؛ ليستمرَّ على ما هو فيه من ضلال وانغماس في الشهوات، دونَ رادع أو زاجر، ولذا يسأل هذا الكافر عن وقت حصول يوم القيامة استهزاءً، وتكذيباً به.

٧-٩- يبلغ من تأثير أحداث يوم القيامة أن يزيغ بصر الإنسان، وينبهر من هول ما يرى. ومن ذلك أن يذهب نور القمر، فيصبح مظلماً، وأن يُضَمَّ إلى الشمس، فتغدوَ الشمس والقمر شيئاً واحداً.

١٠-١٢- يسأل الإنسان الكافرُ الفزِعُ من هول ما يرى: أين أجد ملاذاً ومهرباً من هذه الأهوال العظام؟ ويأتيه الجواب مصحوباً بالردع والزجر عن السؤال، وعن طلب الفرار، بألّا ملجأ أو مهرب،

فهذا يوم البعث والرجوع إلى الله سبحانه للجزاء على الأعمال، حيث مستقر العباد في دار النعيم، أو في دار الجحيم.

١٣-١٥ - يُحاط الإنسان في أثناء الحساب يوم القيامة بجميع أعماله، أولها وآخرها، عظيمها وحقيرها، حسنها وسيئها، كما يُحاط بما كان يريد عمله أو يجب عليه عمله ولم يعمله؛ بسبب التسويف والمماطلة أو العجز والكسل. يُعلم الإنسان بكل هذا مع أنه عالم بما كَسَبَتْ نفسُه، ومع ذلك يحاول الإنكار والتنصُّل من أعماله السيئة؛ ظناً منه أن ذلك ينفعه، ويختلق الأعذار الواهية ويجادل عن نفسه بالباطل، ولا ينفعه ذلك لأنه في قرارة نفسه عالم بكذبه، ولأن أعضاءه ستشهد عليه بما عمل، فلا تبقى له حجة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يفيد دخول (لا) النافية قبل فِعْلِ القسم تأكيدَه، وهو من أساليب العرب، وفيه إشارة إلى أن الأمر واضح ولا يحتاج إلى قسم.

٢- جمع سبحانه في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوَّامة؛ لأنَّ المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوَّامة، والحكم عليها إلى السعادة أو إلى الشقاء. (التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/ ١٩١).

٣- استخدام صيغة المبالغة في وصف النفس باللوَّامة؛ لكثرة حصول هذا الأمر من الإنسان، وفي ذلك امتداح لِـمَنْ يكثر من لوم نفسه على التقصير في حَقِّ الله والعزم على المسارعة إلى الخيرات.
(التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ١٩١).

٤ - نَصَّتِ الآية الكريمة على قدرة الله تعالى أن يعيد تسوية البنان كما كان، وفيه إشارة إلى ما اكتشفه العلماء أن البصمة التي على أطراف أصابع اليدين تميِّز كل إنسان عن غيره، حتى في التوائم المتشابهة. وهذه من أعظم الدلائل على إتقان الخلق وإبداعه.

٥- ينظر: صورة خَسْفِ القمر، كما في الملحق.

٦- أعيد لفظ الإنسان في هذه الآيات خمس مرات؛ لأنَّ المقامَ يقتضي توبيخه وتقريعه، وتسجيل الظلم والجحود عليه. (التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٥/ ٢٨١).

٧- أعظم شاهد على الإنسان نفسه، وفي هذا أكبر واعظٍ له أن يستقيم على أمر الله، ويعمل بما يرضيه سبحانه؛ ليجعلَ من نفسه شاهداً له، لا عليه.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ قال: فاستمِعْ له وأنْصِتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه. (رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي، ومسلم في كتاب باب الاستماع للقراءة، ومعنى قوله: «وكان مما يحرك شفتيه» أن من مظاهر هذه الشدة تحريكه شفتيه بكثرة وسرعة؛ خشية أن ينسى).

التفسير:

١٦-١٧- نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن العجلة في ترديد الآيات في أثناء نزول جبريل عليه السلام بها عليه، وتلقينه إياها، تعجُّلاً منه ﷺ لِحفْظِها، وحرصاً منه على تثبيتها في ذاكرته، فالله تعالى يتعهَّدُ له بتثبيت هذه الآيات في قلبه، وأن يحفظَها فلا ينساها مطلقاً.

١٨- فإذا قرأ جبريل عليه السلام الآيات فأنصِتْ أيها النبيُّ الكريم إليه، واستمع لتلاوته حتى ينتهي منها، وتكون قد ثبتت في قلبك فاقرأها، وقم بتبليغها كما أُمرت بذلك.

١٩- تَعَهَّدَ سبحانه بحِفْظِ الآيات في قلب نبيه ﷺ، وتَعَهَّدَ ببيان معناها، وتوضيح المراد منها.

٢٠-٢١- تبدأ الآيات بالردع والزجر عن إنكار البعث، مع وضوح دلائله، وكثرة حُجَجِه، وممَّا يحمل الناس على ذلك التعلق بالدنيا وملذاتها وشهواتها، ممَّا يُؤَدِّي إلى نسيان الآخرة، وعدمِ العمل لها، والخطاب في الآيتين للكفار.

٢٢-٢٣- ثم بَيَّنَ سبحانه جانباً من حال السعداء والأشقياء يوم القيامة، فقال: وجوه أهل السعادة والنعيم مشرقة تظهر عليها النضارة والبهاء، وهي تنظر إلى ربِّها ذي الجلال والجمال والكمال، فتنعَّمَ بذلك غاية النعيم، ورؤية الله تعالى في الجنة أعظم النعم.

٢٤-٢٥- ووجوه أهل الشقاء مظلمة عابسة، مكفهرة، فهي ترقَّبُ قبلَ دخولِ النار عذاباً عظيماً يصيبها، وداهية كبرى تقصم فقار الظهر.

الفوائد والاستنباطات:

١- هذه الآيات الأربع لا صلة مباشرة لها بسياق الآيات، فهي جمل معترضة جيء بها في ثنايا كلام متصل للإشارة إلى أهمية الموضوع الذي تتحدث عنه، وأنه لا يحتمل التأخير حتى الانتهاء من الحديث، فأدخل التنبيه في وسط الكلام للإشعار بأهمية الأمر وخطره. (بيان إعجاز القرآن للخطابي، ٤٠-٥١).

٢- تدل هذه الآيات على عظيم حِرْصِ النبي ﷺ على حِفْظِ الآيات وتثبيتها في قلبه؛ ليقومَ بتبليغها على أحسن وجه وأتمّه دونَ نَقْصٍ ولا تحريف، كما تدلُّ على إكرام الله تعالى له بإعفائه مِنْ بَذْلِ الجهد والوقت في حِفْظِ الآيات، فقد تَوَلَّى سبحانه تثبيتَها له في قلبه دون حاجة إلى معالجةٍ وجهد منه ﷺ.

٣- جعل الله تعالى قراءة جبريل عليه السلام قراءته ﷺ، وفيه دلالة على عظيم شَرَفِ جبريل عليه السلام، وعُلُوِّ منزلته ومقامه.

٤- ورد في إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين في الجنة أحاديث عديدة، منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تُمارون في القمر ليلةَ البدرِ ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تُمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنَّكم ترونه كذلك. (رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود، ومسلم في كتاب الإيمان باب رؤية المؤمنين ربهم سبحانه).

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾

التفسير:

٢٦-٢٩- تبدأ الآيات بالردع والزجر عن إيثار الدنيا على الآخرة، ثم تخبر بأن الروح إذا بلغت عظام الترقوة، وهي العظامُ المحيطة بثغرة النحر أي: أسفل الرقبة وأعلى الصدر، بدأ مَنْ حولَ المحتضِرِ يسألون عن طبيبٍ يعالجه ويَشْفيه؛ ظناً منهم بإمكان ذلك، وأنه لم يحضر أَجَلُه بعد، وتيقَّن هو مِنْ حصول الأجل ومفارقة الدنيا وما فيها، وظهرت عليه علامات الموت ومنها التواء إحدى ساقيه والتفافُها على الأخرى، وعدم قدرته على تحريكهما؛ لأنَّ الموت دَبَّ فيهما.

٣٠- يُساق الخلق جميعاً، ويُحْشَرُون إلى الله تعالى يوم القيامة، فيحاسِب كُلّاً منهم على عمله، ويقضي بينهم بحكمه.

٣١-٣٣- في هذه الآيات ذَمُّ مَنْ كفر بالله تعالى، فلم يصدق بالقرآن، ولم يستجب لأمر الله بأداء الطاعات ومنها الصلاة، واستمر في تكذيب الحق والإعراض عنه والتولِّي عن الاستجابة، وزاد على ذلك التكبر والغرور والتطاول على الآخرين.

٣٤-٣٥- سبب النزول:

أخذ رسولُ الله ﷺ بيد أبي جهل وقال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تُهَدِّدني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، وإني لَأَعَزُّ أهل هذا الوادي، ثم انْسَلَّ ذاهباً، فأنزل الله كما قال له رسول الله ﷺ. (رواه النسائي في كتاب التفسير، وقال محققه: إسناده صحيح، وينظر: الصحيح المسبور ٤/ ٥٦٩).

التفسير:

وعيد لهذا الكافر المتمرد المختال بعذاب شديد وعقاب أليم، يتنامى ويتضاعف جزاء كفره وعناده.

٣٦- يظن الكافر من بني الإنسان أنه خلق عبثاً، وأنه لا بعث ولا نشور بعد الموت، ولا حساب ولا جزاء على الأعمال، وهذا ظَنٌّ باطل، والدليل على البعث ما ذكر في الآيات التالية:

٣٧-٣٩- تُبَيِّنُ هذه الآياتُ أصلَ خَلْقِ الإنسان، حيث يبدأ تكوين الجنين من التقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة، وتخصيبها، فتنمو حتى تصبحَ علقةً في جدار الرحم، ثم يتكامل خَلْقُ الإنسان، ويُولَدُ سويَّاً خالياً من العيوب والآفات، واقتضت حكمة الله أن يجعل البشر من نوعين ذكرٍ وأنثى.

٤٠ - إنَّ مَنْ خلق الإنسان من ماء حقير قليل يُراق في الرحم قادر بلا ريب على إعادة خَلْقِه بعد الموت، فإنَّ الإعادة في عرف الناس أهون من الإنشاء، فمَنْ أنشأ الخَلْقَ قادرٌ على إعادته من باب أولى.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ دليل على أنَّ الروحَ تخرج من الجسد بتدرُّج حتى يتكاملَ خروجُها منه، وتحصل حينئذ الوفاة. (ينظر: التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٢٠٤).

٢- ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أنه كناية عن اجتماع شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكربه. (جامع البيان للطبري، ٢٩/ ١٩٥).

٣- التمطِّي: التبختر في المشي تكبراً، وقد ورد ذَمُّها في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». (رواه أحمد في المسند برقم ٥٣٤٠ وقال محققه شعيب الأرنؤوط: صحيح).

٤- بدأت السورة، واختُتمت بتأكيد حصول البعث، وردَّت على مُنْكِريه عدة مرات، كل ذلك بأسلوب غاية في القوة والزجر.

٥- عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك، فبكى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. (رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، وقال أبو داود بعد الحديث: قال أحمد: يعجبني في الفريضة أن يدعو بما في القرآن. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود).

٦- ورد حديث يفصل المدة التي يعرف بها جنس الجنين ذكراً أو أنثى، فعن حذيفة بن أُسيد ﷺ عن النبي ﷺ قوله: «إذا مَرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها مَلَكاً، فصَوَّرها، وخَلَقَ سَمْعَها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها: ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ماشاء». وفي رواية: بضع وأربعين ليلة. (أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٤٥)، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي برقم ٢٦٤٤-٢٦٤٥).

وقد ذكر هذا الحديث الدكتور محمد جميل الحبَّال، ثم ذكر موافقة الطب الحديث لذلك، فقال:

أ- تكون الغدد التناسلية للجنين (Gonads) غير متميزة من ناحية نوعية الجنس (مشتركة) حتى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين (Sexually undifferentiated) وبعدها تبدأ بالتميز، بأن تأخذ المسار الذكري أو الأنثوي!.

ب- لقد اكتُشِفَ حديثاً وفي السنوات الأخيرة فقط، وعند دراسة آلاف الحالات من الحمل في بداياته لمعرفة نوع جنس الجنين، وذلك بواسطة آلة التصوير بالأمواج فوق الصوتية المتطور، وبالدوبلر الملون ومتابعتها بعد الولادة، والتأكد من صحة النتائج اكتشف أن ظهور الجنين مع بدايات تكوين زغابات المشيمة وأوعيتها الدموية (Chorionic Villi) في نهاية الأسبوع السادس أو منتصف الأسبوع السابع (مابين ٤٢-٤٥) يوماً تقريباً بالضبط وما بعدها.. كما ظهر من النتائج أن معظم حالات الحمل الذَّكَرية كانت تظهر في انغراسها (التعشيش) (Implantation) في بطانة الرحم في الجهة اليمنى والأنثوية في الجهة اليسرى منه وذلك بنسبة ٩٧,٥٪ من الحالات.

وينظر: الملحق لبيان صورة الجنين في اليوم الثاني والأربعين.

النزول: مكية في قول جمهور العلماء، وهو الذي تعضده الروايات، ويناسبه موضوع السورة، وتوافُر خصائص الآيات المكية فيها، وقيل: هي مدنية، وقيل: بعض آياتها مدني، وكلاهما لم يصح. (المكي والمدني من السور والآيات ٤٧٢-٤٧٨).

فضل السورة:

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السجدة: ١-٢] و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾. (رواه البخاري في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، ومسلم في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة).

المقاصد:

١- تقرير توحيد الربوبية لله تعالى.

٢- تقرير البعث والحساب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

التفسير:

١- قد مرَّ على الكون مُدَدٌ متطاولة من الأزمان، وهو خالٍ من وجود جنس الإنسان، وذلك قبل خَلْقِ هذا المخلوق، فلم يكن معلوماً ولا موجوداً، فالاستفهام بـ (هل) للتقرير.

٢- ثم خلق اللهُ ﷻ الإنسانَ، وجعل لهذا الخلق مراحل تبدأ من النطفة، وهي الماء القليل المحتقر، إذا استقرت في الرحم، والتقت بالبويضة واختلطت بها، إلى أن يتكامل خَلْقُ الإنسان، فيُولَد مخلوقاً سَوِيّاً يسمع ويرى، والحكمة من الخلق هي الابتلاء والاختبار.

٣- بعد أن أعلم تعالى بالحكمة من الخلق وهي الابتلاء، أعلمهم بأنَّه يَسَّرَ لهم سبل الهداية الموصلة إلى التوحيد والطاعة، يهتدي بها أناس، فيحمدون الله ويشكرونه، ويضل عنها آخرون، فيكفرون بالله سبحانه.

٤ - بعد أن ذكر الله تعالى انقسامَ الناس إلى مؤمن وكافر، ذكر جزاء كل فريق منهم، بإيجاز في جزاء الكافرين، وتَوَسُّعٍ في جزاء المؤمنين، فقد هيأ الله سبحانه للكافرين به صوراً متعددة من العذاب، منها القيد في السلاسل، وتشد أيديهم إلى رقابهم؛ إمعاناً في تعذيبهم وإهانتهم، ويقاسون مع ذلك حرَّ النار التي تحيط بهم من كل جانب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في إعلام الإنسان أنه مخلوق طارئ على الكون فوائد عديدة، منها: أن يعلم أن له خالقاً عظيماً يستحق العبادة، وأن يعرف قَدْرَه بين سائر المخلوقات، فيتواضع، ويبتعد عن الغرور.

٢ - ورد إعلام الإنسان بالحكمة من خَلْقِه في ثنايا الحديث عن بدء الخلق؛ ليستشعرَ الإنسان أثره في الحياة، وليعلمَ رفعة منزلته عند مولاه، فيعمل بما يقوده إلى السعادة والنجاة.

٣ - من رحمة الله بعباده أقام لهم دلائل الهداية، وبَيَّنَ لهم سبيل التوحيد والطاعة، وهي ظاهرة في الأنفس والآفاق، وسائر المخلوقات.

٤ - ورد في الآية الكريمة ﴿كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة إنكاراً؛ لكثرة حصول الكفر من الإنسان مع أنَّ دلائل الهداية تحيط به من كل جهة، ويشعر بها في كل وقت.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

٥-٦- بدأ الحديث عن جزاء أهل الجنة بوصفهم بالأبرار، وفيه إشارة إلى السبب الذي استحقوا من أجله هذا النعيم. ومن صور النعيم في الجنة: أنَّهم يشربون الخمر الممزوجة بالكافور، فيُضفي على الشراب طيب الطعم والرائحة، ويتدفق من عينٍ في الجنة كما يتدفق الماء، وهم يتلذذون بهذا الشراب، ويستمتعون به، ويمكنهم تحويل مجرى العين إلى حيث شاؤوا زيادةً في إمتاعهم.

٧- من الأعمال الصالحة التي كان الأبرار يعملونها في الدنيا واستحقوا بها دخول الجنة: الوفاء بالنذر، وهو ما يُلزم الإنسان به نفسه من طاعة، زيادة على ما افترض عليه، والخوفُ من العذاب يوم القيامة، وهو اليوم الذي تعظم أهواله وتَعُمُّ جميع الخلائق.

٨- ومن أعمالهم الصالحة: إطعام المحتاجين ممَّا يأكلون وممَّا يرغبون من أنواع الطعام، والمحتاجون أصناف: فمنهم المسكين الذي لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، واليتيم الذي فقد أباه، فحُرِمَ من عَطْفِه وعطائه، والأسير الذي فَقَدَ حريته، ووقع في أيدي أعدائه.

٩-١٠- فقد جعل هؤلاء الأبرار غايتهم من الإطعام الذي يقدم للمحتاجين، وهو نيل رضا الله سبحانه، فلا يبتغون من ذلك رَدّاً لهذا الجميل ممَّنْ يُقَدِّمونه له، ولا يطلبون منهم شكرهم عليه، فهو عمل خالص لوجه الله تعالى، ابتغاء رضوانه وخوفاً من عقابه يوم القيامة، وهو يوم شديد عظيم الأهوال فظيع الأحداث، تعبس فيه الوجوه خوفاً من العقاب، وتأثراً بما ترى من أهوال.

١١-١٢ - تَقَبَّلَ اللهُ تعالى العمل الصالح من هؤلاء الأبرار، فحَفِظَهم من شدائد يوم القيامة، وأمَّنَهم من الفزع فيه، وأنعم عليهم بإعطائهم نضارةً وحُسْناً في وجوهم، وسعادة وسروراً في قلوبهم، وأدخلهم مقابل صبرهم الجنة دار النعيم المقيم، يلبسون فيها ثياب الحرير متنعِّمين مترفين.

١٣-١٤ - ومن نعيم أهل الجنة جلوسُهم على هيئة الاتكاء، فقد هيئت لهم الأماكن المناسبة لذلك من السرر والوسائد، ومن زيادة النعيم اعتدال الجو حولهم، فلا يُعانون فيها من إزعاج شدة الحر أو شدة البرد. ومع غياب شمس الجنة فهي مضيئة لأهلها على نحوٍ دائم، ومن زيادة تكريم أهل الجنة إدناءُ ظل الأشجار منهم، وتقريب ثمارها إليهم حتى لا يبذلوا جهداً في تناولها، وليكونوا في غاية الترف والنعيم.

١٥-١٦ - ويقوم الخَدَمُ في الجنة بالمرور على أهلها بأواني الطعام الفضية، وأكواب الشراب التي تجمع بين نقاء الزجاج وصفائه، وبياض الفضة ولمعانها، وما كان في هذه الأكواب من الشراب مناسب لحاجة الشاربين، بحيث لا يزيد فيها شيء يفضل ويبقى بعد شربهم، ولا تنقص عن حاجتهم، فيحتاجون إلى زيادة عليها. وفي المرور على أهل الجنة تكريم لهم، فلا يحتاج أحدهم إلى الانتقال إليه، إذ يأتيه كل ما يريد وهو في مكانه.

١٧-١٨ - ويُسْقَى أهلُ الجنة خمراً ممزوجاً بالزنجبيل؛ لتصبح رائحته أطيب وطعمه ألذ، ويُقَدَّم لهم في كؤوس ممتلئة، ويشرب أهل الجنة من عينٍ فيها اسمها: سلسبيل. وتَدُلُّ هذه التسمية على عذوبة الماء، وسهولة جريانه في الحلق.

١٩ - في هذه الآية وصفُ خَدَمِ أهل الجنة بأنهم غِلْمانٌ في مقتبل العمر، دائمو النضارة، فلا يهرمون ولا يتغير حالهم، هيئتهم في قيامهم وحركتهم كاللؤلؤ المتناثر، من روعة جمالهم، وحسن حالهم. وشُبِّهوا باللؤلؤ المنثور؛ لأنَّ اللؤلؤ إذا تَفَرَّقَ انعكست أشعة بعضه على بعض فيكون أجمل وأروع، وإذا كان هذا حال الخدم فكيف يكون حال المخدومين؟

٢٠ - كل ما في الجنة نعيم دائم، وما يتمتع به أهل الجنة ملك لهم، وإذا رأيت ما في الجنة من نعيم تبين لك عَظَمَتُه وكثرته وتنوُّعه، ومُلْكُ المؤمن في الجنة واسع، يزيد مُلْكُ أقلِّهم درجةً على عشرة أضعاف مساحة الدنيا، فكيف بأصحاب الدرجات العلى؟

٢١ - يلبس أهل الجنة ثياباً من الحرير الرقيق أخضر اللون، تَعْلُوه طبقة أو طبقات أخرى من الحرير الثخين والمزركش، ويُحَلَّى أهلُ الجنة بأساورَ من فضة لتكميلِ زينتِهم وزيادةِ جمالهم، ويَمُنُّ الله سبحانه عليهم بشرابٍ بالغِ الطَّهارة، يُطَهِّر أجسامهم وقلوبهم.

٢٢ - كل هذا النعيم لأهل الجنة جزاء إيمانهم وطاعتهم لله في المنشط والمكره، ومكابدتهم في الدنيا وهم يستحقون الشكر على ما بذلوا وضَحَّوا وتحمَّلوا، وما أعظمه من جزاء، وما أروعه من شكر!!.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النَّذْرُ: هو التزام المرء القيامَ بطاعة زيادة على الفريضة، وهو نوعان: النوع الأول بلا شرط وهو مستحب، والنوع الثاني يكون فيه العمل الصالح في مقابل أمر كشفاء مريض، أو انفراج كرب، أو حصول مأمول. وهذا النوع مكروه؛ لِـمَا فيه من اشتراط حصول نعمة في مقابل القيام بعمل صالح؛ ولذا نهى عنه رسول الله ﷺ وقال: «إنه لا يَرُدُّ شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل». (رواه البخاري في كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، ومسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر).

٢ - وُصِفَتْ أحداث يوم القيامة في آيتين في هذه السورة بالشَّرِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ والمقصودُ بالشر فيهما الشدائد والأهوال التي تحصل فيه، وسُمِّيَتْ شراً من باب التوسع. (التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/ ٢٤٧).

٣ - وُصِفَتْ أساور أهل الجنة في هذه الآيات بأنَّها من فضة، ووُصِفَتْ في سورة الكهف بأنَّها من ذهب، ووُصِفَتْ في سورة فاطر بأنَّها من ذهب ولؤلؤ، ويجمع بينها بأنَّهم يُحَلَّون بصنف تارة، وبصنف آخر تارة أخرى، وقد يجمعون بين صنفين أو أكثر.

٤ - لم يطلب الأبرار من الخلق جزاءً ولا شكوراً ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ فمَنَّ الله عليهم جزاءً وشكراً مقابل ذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

٥ - بدأت هذه الآيات بذِكْرِ شرابِ أهل الجنة وخُتِمَتْ به؛ لأنَّه أروعُ ما يتلذذ به، ولشدة حاجة الإنسان إليه، وكثرة تَلَهُّفِه عليه، فهو لا يصبر على فَقْدِه، كما يصبر على فقدان الطعام.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- إنَّا - لما لنا من القدرة العظيمة - نزلنا عليك - أيها الرسول - القرآن الكريم مفرقاً حسب الحوادث والملابسات، فاصبر - أيها الرسول - على كفرهم، واحتمِلْ أذاهم، ولا تستجب لما يدعوك إليه من ترك الدعوة أو التنازل عن بعض الثوابت مَنْ كان منهم غارقاً في الإثم، أو مُوغلاً في الكفر والعناد.

٢٥-٢٦- واملأْ وقتك بذكر الله تعالى، والتقرب إليه بالأعمال الصالحات، وخُصَّ الليل بمزيد من الطاعة والتقرب، فأكثِرْ فيه من التسبيح والسجود فإنه مَظِنَّةُ حضور القلب والخشوع وإجابة الدعاء.

٢٧-٢٨- ولا تأبه بمَنْ كَذَّبَك وكفر بك، فإنَّهم منغمسون بتفضيل الدنيا على الآخرة، غير مبالين ولا مؤمنين باليوم الآخر، وهو يومٌ ثقيلٌ لما فيه من أحداث عظام، وأهوال جسام، وهم غافلون عن خالقهم الذي أوجدهم من العدم بقدرته، وأحسَنَ خَلْقَهم، ومَكَّنهم من مزاولة الأعمال، وهو القادر سبحانه على إهلاكهم وتبديلهم بخلق آخرين يطيعونه إن شاء ذلك، إلا أنَّ حكمته اقتضت أن يُمهل خلقه، ولا يَعْجَلَ بالعقوبة.

٢٩-٣٠- إن هذه الآيات المنزلة على الرسول الكريم فيها موعظة للخلق أجمعين، فمَنْ أراد سلوك طريق الخير والهداية أخذ بالأسباب الموصلة إليه، وأطاع ربه، واستجاب لأمره. وهذه المشيئة لا يمكن أن تصدر من الإنسان إلا أن يشاء الله ذلك، فهو سبحانه الخالق ومقدر الأمور في هذا الكون، وكل مشيئة من الخلق تابعة لمشيئته المطلقة، وقد سبقت مشيئة الله سبحانه بدعوة عباده إلى طاعته والتقرب إليه. وهو سبحانه عليم بأحوال عباده حكيم في تقديره وأمره.

٣١- يُدخل سبحانه في رحمته وجنته مَنْ يستحق ذلك، وهم المؤمنون من عباده، أما الظالمون فقد أعَدَّ لهم عذاباً أليماً يستحقونه جزاءً على فِعْلِهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- لنزول القرآن الكريم مفرَّقاً منجَّماً حِكَمٌ عديدة منها: تثبيت قلب النبي ﷺ، والتدرج في تعليم القرآن، وتربية الصحابة، وموافقة الحوادث والوقائع.

٢- مقاومة ما يحصل من أعداء هذا الدين من إلهاء وصَدٍّ عن سبيل الله لا ينبغي أن يُشْغِلَ المؤمن عن الذكر والعبادة.

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ جمع بين الآثم والكفور. والفرق بينهما أن الآثم هو المُقْدِم على المعاصي أياً كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً.
(التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/ ٢٥٩).

٤- النصُّ على تخصيص وقت الليل بالعبادة والسجود والتسبيح، دليلٌ على فضيلة العبادة في هذا الوقت؛ لما فيه من صفاء النفس وسمو الروح، واستحضار الخشوعِ، والقُرْبِ من الله تعالى.

٥- وَصْفُ الدنيا بالعاجلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ تعريض بحماقةِ مَنْ يُؤْثِرُها إذ رَضُوا بالدُّون لأنّه عاجل، وليس ذلك من شيم أهل التبصر. (التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩/ ٤٠٨).

٦- من الأدلة على أن القرآن كلام الله: كَشْفُه لخفايا النفوس، وما تُخْفي القلوب، فهو سبحانه العالم بذات الصدور، ولا يَخْفَى عليه من أحوال خلقه شيء.

٧- المشيئة المطلقة في هذا الكون لله سبحانه، وأيُّ مشيئة لأحد مِنْ خَلْقِه تابعة لها، ولا يمكن أن تقع إذا خالَفَتْها ولم تَدُرْ في فلكها. والمقصود هنا المشيئة الكونية لا الشرعية.

٨- تُعَدُّ سورة الإنسان مبيِّنة لسورة القيامة، فسورة القيامة أكدت حصول اليوم الآخر، وسورة الإنسان بَيَّنَتْ ما يكون في هذا اليوم، وما أعَدَّ الله فيه لصِنْفَي الناس: الكفار والأبرار، كما أنَّها تذكر الطريق للنجاة يوم القيامة.

النزول: مكية.

فضل السورة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أُم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها أنَّها سمعته يقرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فقالت: يا بُنَيَّ لقد ذَكَّرْتَني بقراءتك هذه السورة إنَّها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. (رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح).

المقاصد:

١ - إقامة الحجج والبراهين على إثبات وقوع يوم القيامة والحساب.

٢ - تربية النفس على الخوف والخشية من الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

١ -٢- يُقْسِمُ اللهُ سبحانه بالرياح التي تَهُبُّ متتابعةً بيُسْرٍ وسهولة، وينتفع بها الخَلْقُ جملةً من المنافع، ويُقْسِمُ سبحانه بالرياح العاصفة التي تُهلِكُ المكذبين، وتُؤَدِّي إلى التدمير والتغيير.

٣-٧- ويُقْسِمُ سبحانه بالملائكة التي تنشر أجنحتها وهي خاضعةٌ لأمر الله منقادة له، وتَفْرُق بين الحق والباطل، والخير والشر، وتُلْقِي الذِّكْرَ إلى الرسل، وتبلغه كما أُمِرَت، وهذا الوحي فيه إعذارٌ من الله لخَلْقه؛ لئلَّا يبقى لهم حجة، وفيه إنذار لهم من نقمة الله وعذابه، أقسم بما سبق على أن الذي توعدونه من حصول يوم القيامة حاصل بلا ريب.

٨-١٥- ثم بَيَّنَ سبحانه بعض أحداث ذلك اليوم، إذ تزول النجوم ويذهب ضَوْءُها، وتنشق السماء وتُفَتَّح أبواباً، وتتطاير الجبال فلا يبقى لها وجود ولا أثر. ويُفْصَلُ بين الرسُل وأقوامِهم في وقت محدد من أوقات يوم القيامة، وتم تأجيل الفصل بين الرسل وأممهم ليوم الفصل؛ لأنَّه اليوم العظيم الذي يجتمع فيه جميع الخلائق، ويحاسب الله فيه العباد، فناسب الفصل فيه بين الخلق، ومنه الفصل بين الرسل وأقوامهم، والاستفهام في ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ وفي ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ للتعظيم والتهويل، فإنه يوم البعث والحشر والقضاء بين الخلق جميعاً والجزاء على الأعمال، وفيه عذابٌ شديد مؤلم مهين لِـمَنْ كَذَّبَ بالله ورسله.

١٦-١٩- يقرر سبحانه أنَّه أهلك الأُمم السابقة كقوم نوح وعاد، وأهلك أقواماً أتت بعدهم تَبِعَتْهم بالكفر والتكذيب كقوم لوط وشعيب. ومثلَ هذا الإهلاك يُهْلِكُ الله كل مَنْ كفر به وسار في ركاب المجرمين المعاندين للحق، ولهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم وإجرامهم. وفي هذا الإخبار وعيد وتخويف من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة لِـمَنْ كفر به، ولم يتبع الحق والهدى.

٢٠-٢٤- هذا تذكير بأصل الخلق؛ للاستدلال به على قدرة الله وعظمته، فإنه سبحانه خلق الإنسان من ماء مستقذر وهو النطفة، إذ يلتقي بالبُويضة في الرحم، الذي جَعَلَه الله مُهَيَّأً لحصول الحمل، ففيه كل ما يحتاج إليه الجنين من حماية وغذاء وراحة، إلى أن تتمَّ مدةُ الحَمْلِ المحدَّدة في عِلْمِ الله سبحانه الذي أحسنَ كلَّ شي خَلَقه، وقَدَّر أمور الخَلْقِ بقدرته التي لا يعجزها شيء. وفي الآخرة عذاب شديد لِـمَنْ لم يؤمن بالله تعالى وهو يرى آثار قدرته في خلقه وتكوينه.

٢٥-٢٨- إن الله سبحانه جعل الأرض مُهَيَّأة مُذَلَّلة للبشر، يعيشون عليها، ويُدْفَنُون في جوفها، فهي بمنزلة الأُم الكبرى لجميع بني الإنسان، ظاهرها لأحيائهم، وباطنها لأمواتهم، وجعل الله فيها الجبال العالية التي تحميها من أن تنزلقَ أو تضطربَ، فهي الأوتاد لها، كما أنه سبحانه أوجد الماء العذب ليشربَ منه الإنسان، ويسقيَ الأرض، ويستعينَ به على مصالحه. ولولا الماءُ لَهَلك الإنسان، ولانتهت الحياة على الأرض. وفي الآخرة عذاب شديد لِـمَنْ كفر بالله، وكَذَّب رُسُلَه مع تَوافُرِ النِّعَمِ، ورؤيتِه آثارَ قدرة الله في كلِّ ما حوله.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعدُّ سورة المرسلات مبيِّنَة لسورة الإنسان، التي تحدثت عن جزاء المؤمنين بتوسُّع، وعن جزاء الكافرين بإيجاز، فجاء الأمر مفصلاً في هذه السورة بالتوسُّعِ في الحديث عن جزاء الكافرين والمكذبين، والإيجاز في الحديث عن جزاء المؤمنين.

٢- ينظر: صورة عصف الرياح، كما في الملحق.

٣- لما كان مدار هذه السورة على الوعيد والتهديد ناسب أن تُذكر فيها جملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، لما في ذلك من زيادة التخويف بالعذاب العظيم المُعَدِّ لِـمَنْ كفر بالله وكَذَّب بما أخبر به.

٤- ورد في هذه الآيات التذكير بأصل الخلق قبل التذكير بنعمة تذليل الأرض وتسخيرها؛ لأن النِّعَمَ التي في الأنفس كالأصل للنِّعَمِ التي في الآفاق، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكناً. (التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/ ٢٤١).

٥- في ذِكْرِ مظاهر قدرة الله وإنعامه على خَلْقِهِ في هذه الآيات، دعوة للإيمان به، وشُكْرِه على نِعَمِه الكثيرة العظيمة.

٦- في القَسَمِ بالرياح دعوة إلى التأمل في هذا الخَلْقِ العجيب الذي يكون نعمة في حال ونقمة وهلاكاً في حال آخر، وهو من أعظم الأدلة على قدرة الله، وعظمته.

٧- وصفت الآية الكريمة الرحم بأنه قرار مكين، حيث هُيِّئَ هذا المكان لاستقبال الجنين من جميع الجوانب، ومن لحظة تكونه إلى لحظة ولادته، وهو محاطٌ بوسائل حماية عديدة منها عظام الحوض المحيطة به، وكونه في وسط الجسم تماماً. (الطب محراب للايمان د. خالص جلبي ٢/ ٢٤١-٢٥١).

٨- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٩- تقول الدكتورة حنان العوضي المتخصصة في علم البيولوجي: «إن الكائنات الحية الدقيقة وبخاصة البكتريا تُلازِمُ الجثث الميتة ملازمة تامة، ممّاً يوضح بأن الذي يقوم بتحلل الجثث هي كائنات حية تلازمها؛ لأنَّها هي التي أوكل إليها الله تَحَلُّلَ الجثث للتخلص منها، وقد جاءت هذه الحقيقة كسابقة علمية، وَضَّحَ فيها سبحانه بأن هناك كائنات حية تُلازم الجثث الميتة وتَكْفِتُ - أي تضم - معها ضماً إلزامياً في باطن الأرض». (التحلل في علم الميكروبيولوجي: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص١٣).

١٠-ذُكِرَ في العلم الحديث أن الجبال تُسْهِم في تنقية الماء ممّاً علق به من فيروسات ومواد ملوثة في أثناء نزوله من الجو، وأن الماء النازل من السماء والعابر للصخور الموجودة في الجبال يمتزج ببعض المعادن والأملاح في تلك الصخور، ويكتسب الطعم المستساغ. وهذا ما عبَّر عنه البيان الإلهي بكلمة ﴿فُرَاتًا﴾.

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٢٩-٣١- انتقلت الآيات إلى الحديث عن بعض مشاهد يوم القيامة، إذ يوبخ الله تعالى المكذبين بيوم الدين: اذهبوا إلى جهنم، إذ يتشعب ظل دخانها إلى ثلاثة اتجاهات من كثرته وعَظَمَتِه، وبسبب تَفَرُّقِه لا يعود ظلاً يصلح للاحتماء به من لهيب جهنم وحرها، فتسميته ظِلّاً من باب التهكم بهم.

٣٢-٣٤- ويتطاير من جهنم قِطَعٌ عظيمة من النار بسبب شدة اتقادها وعظيم لهيبها. هذه القطع من النار، بعضها يشبه القصر، وهو البناء العظيم في حجمها، وبعضها يشبه حبال السفن العظيمة، فإذا كان هذا حالَ الشرر المتطاير من النار فكيف يكون حال النار؟ إنَّ مَنْ يُعَذَّبُ في النار مستحق للويل والهلاك، وأشدِّ العذاب؟

٣٥-٣٧- يومَ القيامة لا يتكلم الكفار، ولا يُسمح لهم بالاعتذار، وقد مضى وقت الإذن بذلك، وأعطي كل امرئ الفرصة للدفاع، والعذاب الشديد لِـمَنْ لم ينفعه العذر، ومُنِعَ من الكلام؛ بسبب كفره في الدنيا.

٣٨-٤٠- يومَ القيامة يفصل الله بين العباد، ويقضي بينهم بعَدْلِه، ويجمع الأولين والآخرين، فإن كان عند أحدٍ حيلةٌ للخلاص والنجاة من العذاب فليفعَلْ. وهذا الأمر من باب التعجيز والتوبيخ، إذ لا يمكنهم ذلك ولا يقدرون عليه، وهم مستحقون لأشد العذاب بما كفروا، وكذبوا.

٤١-٤٥- ثم انتقل الحديث إلى وصف حال أهل الجنة الذين اتقوا الله، والتزموا أمره في الدنيا، فهم في ظلال الأشجار الوارفة تحيط بهم عيون الماء الجارية، يتلذَّذون بأَكْلِ ما يشتهون من أصناف الفاكهة وثمار الجنة، ويقال لهم على سبيل التكريم: كُلوا ما شئتم، واشربوا شراباً هنيئاً، فأنتم تستحقون ذلك؛

بسبب تقواكم لله، وخشيتكم من عذابه. فهذا الجزاء لكم مقابل حسن عملكم في الدنيا، أما الكافرون المكذِّبون فهم مستحقون للعذاب العظيم.

٤٦-٤٧- تهديد ووعيد للكافرين، أن يأكلوا ما شاؤوا، ويتمتعوا قَدْرَ ما يستطيعون في حياتهم، فإنه زمن قليل إذ يوافيهم الأجَلُ، فيَقْطَعُ عنهم مُتْعَتَهم، وهم لا يستحقون متعة أكثر من ذلك، فهم مجرمون معتدون، ولهم عذاب موجع في الآخرة.

٤٨-٤٩- وكانوا في الدنيا إذا أمروا بطاعة الله والركوع له؛ تعظيماً لشأنه وتَذَلُّلاً له، يأبون ذلك، ويرفضون الانقياد لأمر الله، فلهم عذاب شديد مقابل هذا الإباء والتكذيب.

٥٠- إن لم يؤمن هؤلاء المكذِّبون بالقرآن، وما فيه من إثبات وجود الله وعظمته وقدرته، وإثبات البعث والحساب والجزاء، وما فيه من روعة البيان وجمال الأسلوب وغزارة المعاني ووجوه الإعجاز، فبأيِّ شيء يؤمنون بعد ذلك؟ وهذا دليل على شِدَّةِ كفرِهم وعِنادِهم، مع وضوح الحُجَّةِ، وظهور البيِّنَة، ودليل على عظمة هذا القرآن المعجز.

الفوائد والاستنباطات:

١- في مقابل حرمان أهل النار من الظل يتمتع أهل الجنة بالظلال المتعددة، وكلٌّ مَجْزِيٌّ بما يستحق.

٢- يظهر التهكم في أمر أهل النار بالانطلاق إلى ظل غير ظليل لا يغني شيئاً ولا يمنع حَرّاً، وهم مستحقون لهذا التهكم، فكم صدر منهم في الدنيا تَهَكُّمٌ وسخرية، واستهزاء بالرسل وأتباعهم.

٣- في تشبيه الشرر بالقصر تَهَكُّم بالكافرين؛ لأنَّ القَصْرَ موضع الأمن، وفيه إشارة إلى أن الكافر يُعَذَّب بما يَتَوَقَّع منه الأمن. (غرائب القرآن للنيسابوري ٢٩/ ١٣٩).

٤- عَبَّرت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ عن الصلاة بالركوع؛ لأنَّه من أهم أركان الصلاة، ولأن الركوع فيه تعظيم للرب حين ينحني العبدُ له.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- تقرير عقيدة البعث والحساب.

٢- إقامة البراهين على قدرة الله تعالى.

٣- بيان الفرق بين مصير المتقين ومصير الكافرين، وما يتحقق بذلك من الترغيب والترهيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

١-٣- عن أيِّ شيء يسأل المشركون؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن، وهو القرآن الكريم الذي يُؤكِّد وقوع البعث، وهم في ذلك يَشُكُّون ويُجادلون.

٤-٥- ليس الأمر كما يُكَذِّب هؤلاء المُضِلُّون، سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثمَّ سيتأكَّدون ذلك يوم القيامة.

٦-١٦- ألم تُقِرُّوا - أيُّها العباد - أنَّنا جَعَلْنا لكم الأرض منبسطة ومهيأة للسكن، والجبال ثوابت للأرض؟ وأنشأناكم وقدَّرناكم - أيُّها الناس - أصنافاً ذكراً وأنثى؟ وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم؟ وجعلنا الليل يغشاكم بظلامه، فيكون لكم كاللباس الذي يستركم؟ وجعلنا النهار المبصِرَ وقتاً لطلب المعاش الذي تقوم به حياتكم؟ وبَنَيْنا فوقكم سبع سموات محكمة قوية البنيان، ليس فيها خلل؟ وجَعَلْنا الشمس سِراجاً مُضيئاً؟ وأنزلنا من السحاب مطراً غزيراً؟ لأجل أن نُخْرِجَ به الحبوب والثمار والبساتين ذات الأشجار الملتفَّة أغصانها بعضها على بعض.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان مظاهر القدرة والحكمة والرحمة الإلهية.

٢- ثبت علمياً أنَّ التغيّرات الأرضية تمَّت بقدرة الله تعالى وأمره وأدّت إلى بناء القارات، ورفعها فوق مستوى البحار والمحيطات على هيئة مجموعات من منظومات وسلاسل، وأحزمة جبلية شاهقة، ظَلَّتْ يُضاف بعضها إلى بعض بانتظام وبطء؛ لتزيد من مساحة القارات التي كانت في بادئ الأمر جبلية وعرة، لا تسمح وعورتها بعمرانها، ثم بدأت عوامل التعرية في الأخذ من تلك الجبال الشاهقة بالتدريج حتى حَوَّلَتْها إلى السهول الواسعة، والهضاب والنُّجود المنخفضة، والأودية المحفورة، والرواسخ الثابتة التي تُشَكِّلُ أواسط القارات اليوم حتى وصلت الأرض إلى صورتها المناسبة للعمران بواسطة الإنسان.

٣- رحمته سبحانه بخَلْقِهِ في توقيت وقت معين لنومهم وراحتهم، ووقتٍ لطلب معاشهم.

٤- يقول الخبراء: إنَّ المعصرات هي مجموعة من السحب الطباقية والركامية التي تُشْحن شحناً كبيراً ببخار الماء وقطراته، والتي تحدثها الأعاصير المدارية التي تتكون فوق مساحات شاسعة من الماء في البحار والمحيطات، أو الدوَّامات الهوائية التي تتكون فوق اليابسة على هيئة سحب طباقية، أو تساق ببطء حتى تتآلف وتتجمع، ثم تُرْكَمُ إلى أعلى لتُكَوِّنَ السحب الركامية التي ترتفع إلى ما يزيد على (١٥) كيلاً، المشبعة بالماء (المعصرات) مهيأة لإسقاط المطر الغزير (الثجَّاج)، والذي قد يستمر في السقوط عدة أيام دون انقطاع. (http://www.ahram.org.eg/archive/2002/7/8/OPIN8.HTM). وينظر: صورة هطول الماء الثجَّاج، كما في الملحق.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

١٧-٢٠- إنَّ يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الظالم والمظلوم من الخلائق كان وقتاً مُحَدَّداً للخلق أجمعين، يوم يَنْفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ إيذاناً بالبعث، فتجيئون أُمماً وزُمراً، وشُقِّقت السماء فكانت طُرقاً وأبواباً، وقُلِعَتِ الجبال فصارت سراباً مثل كثبان الرمل.

٢١-٢٦- إنَّ نار جهنَّم تنتظر، وتترقَّب نزلاءها الذين اقترفوا الجرائم حتى بلغوا الكفر، ماكثين فيها دهوراً إلى الأبد، لا يَذُوقون ما يُبَرِّد شدَّة الحرِّ عنهم، ولا شراباً يَرْوي عطشهم، إلا ماءً شديد الحرارة، وصديد أهل النار المُنتن، يُجازَون بذلك جزاءً عادلاً موافقاً لأعمالهم الخبيثة.

٢٧-٣٠- إنَّهم كانوا لا يتوقَّعون الحساب، وجحدوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة جُحوداً عنيداً، وكلَّ شيء عَلِمناه وكتبناه عليهم، فذوقوا - أيُّها الطغاة - من عذاب النار، فلن نزيدكم إلا عذاباً فوق عذابكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- من أمارات يوم القيامة ومظاهرها النفخُ في الصُّور؛ لبَعْثِ مَنْ في القبور.

٢- التنديد بالطغيان، وبيان جزاء الظالمين.

٣- التنديد بالتكذيب بالبعث والمكذبين به.

٤- الجزاء في الآخرة عادل في تقدير الأعمال، فمَنْ أحسن فله الجزاء الحسن، ومَنْ أساء فله الجزاء السَّيِّئ.

٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذِكْرِ آثارها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣١-٣٧- إنَّ للذين يخافون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فوزاً عظيماً بدخولهم الجنَّة التي فيها حدائق حافلة بالأشجار والأعناب، ولهم زوجاتٌ حديثات السنِّ قد استدار ثَدْيُهنَّ، ولهم كأس مملوءة خمراً زكيةً، ولا يسمعون في الجنَّة قولاً باطلاً ولا آثماً. كلُّ ذلك الثواب يُقَدِّرُه الله للمتقين؛ فضلاً منه سبحانه، ومقابل أعمالهم الصالحة. إنَّه رَبُّ السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما، الرحمن بعباده في الدنيا والآخرة لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه.

٣٨-٣٩- يومَ القيامة يقوم جبريلُ عليه السلام والملائكةُ مُصطفِّين، لا يتكلَّمون ولا يشفعون إلا لِـمَنْ أَذِنَ الله الرحمن له في الشفاعة، وقال صواباً من القول، وأصوبه: هو كلمة لا إله إلا الله. ذلك اليوم العظيم الحقّ الذي لا شكَّ فيه، فمَنْ أراد منكم - أيُّها العباد - النجاة في ذلك اليوم، فليتخِذْ إلى ربِّه مرجعاً بالمبادرة في الأعمال الصالحة.

٤٠ - إنَّنا - لِما لنا من العظمة والقدرة - حَذَّرْناكم عذاباً قد قرب منكم، يوم ينظر كلُّ عبد ما عَمِلَ من خير أو شرٍّ، ويقول المكذِّب بالله، ويَتَحَسَّر الكافر يومئذٍ، ويتمنَّى أن يكون تراباً فلم يُبعث، ولكن هيهات.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان فضل التقوى، وما للمتقين الأبرار من الكرامة عند الله.

٢- ذَمُّ الكذبِ واللَّغو، وأهلهما.

٣- للعبد فرصة في الدنيا ليتخذ طريقاً إلى الله، وذلك بعبادته وتوحيده وطاعته؛ ليكون له ذُخْراً في يوم الفصل بين الخلائق.

٤- الترغيب في العمل الصالح، واجتناب العمل السَّيِّئ الفاسد.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير عقيدة البعث والحساب.

٢ - الإيمان بأصناف الملائكة.

٣ - تسلية نبينا رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١-٧- يُقْسِمُ الله تعالى خمسة أقسام عظيمة: بالملائكة التي تنزع أرواح الكفَّار بعنف، وبالملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين بلطف وسهولة، وبالسابحات من الملائكة، والنجوم والسفن، وغيرها من المخلوقات التي تسبح في الفضاء والمياه، وبالملائكة التي تَسْبِقُ غيرها في مُهِمَّاتها، وبالملائكة المُدَبِّرة التي أُمِرَتْ من عند الله تعالى، لَتُبْعَثُنَّ ولَتحاسَبُنَّ يوم تتزلزل الأرض، فتموت البشرية بالنفخة الأولى، ثمَّ تتبعها نفخة أخرى لبعث الموتى من قبورهم أحياء.

٨-١٠- قلوب الناس في ذلك اليوم خائفة وهي قد خرجت من القبور، وأبصارهم ذليلة من ذلك الموقف.

١١-١٢- يُنْكِرُ المُكَذِّبون بالبعث حيث قالوا: أنرجعُ إلى الحياة بعد أن نموت، وندفن تحت التراب؟ هل نرجع إلى الحياة وقد صِرْنا عظاماً مفتَّتة؟ تلك الرجعة البعيدة الوقوع لا خير فيها.

١٣-١٤- لا تَحْسَبُوا الرجعة بعيدةً، فإنَّما هي صيحة واحدة، فإذا هم فجأة أحياء على وجه الأرض.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يُقْسم الله بما يشاء من مخلوقاته، بخلاف العبد لا يجوز له أن يقسم بغير ربه تعالى.

٢ - وظائف الملائكة متعددة منها: قبض الأرواح، وتنفيذ أوامر الله، وتدبير الكون بإذن الله.

٣- بيان أنَّ روح المؤمن تُنْزَعُ عند الموت نزعاً سريعاً، لا يجد من الألم ما يجده الكافر.

٤- الإشارة إلى الاستعداد للموت، فسبحانه من قهر عباده بالموت وكفى بالموت واعظاً.

٥- جهل المشركين وسفاهتهم في إنكارهم للبعث.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٥-١٩- يُشَوِّق الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ: هل أتاك خبر موسى عليه السلام حين كلَّمه ربُّه سبحانه في وادي «طوى» المطهَّر؟

فقال لموسى: اذهب إلى فرعون مصر إنَّه قد تجاوز الحدَّ في الفساد والتكبُّر، فقل له: هل ترغب أن تُطَهِّرَ نفسك من رجس الكفر، وأرشدك إلى طاعة ربِّك فتخشاه؟

٢٠-٢٥- فأظهر موسى عليه السلام لفرعون الحُجَّة الكبرى بالعصا واليد الدالَّة على صدق رسالته، فكذَّب فرعون، وخالف أمر الله تعالى، ثمَّ أعرض عن الإيمان، ومضى يسعى في الفساد، فجمع قومه وأتباعه، ونادى فيهم بغرورٍ وكيد قائلاً: أنا ربُّكم الأعلى. فانتقم الله منه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة سيُعَذَّب بالحرق.

٢٦- إنَّ في ذلك العذاب العظيم لموعظة حقّاً لِـمَنْ يخاف عقاب الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية الله لرسوله محمد ﷺ بأنَّ رسوله موسى عليه السلام قد عانى قبله من فرعون.

٢- منهج الله في الدعوة اللين في القول، واللطف في المعاملة؛ لتأليف القلوب.

٣- دعوة الله لرسوله ﷺ إلى الصبر على معاناة قومه حتى يحين الأجل الذي حَدَّده الله لنصره عليهم.

٤- إثبات كلام الله لموسى عليه السلام.

٥- إنَّ الله عَذَّب فرعون عذابين: عذاباً لادعائه الألوهية، وعذاباً لادعائه الربوبية.

٦- وجود المعجزات لا يستلزم الإيمان، فقد رأى فرعون أعظم الآيات كالعصا واليد، ولم يؤمن.

٧- التنديد والوعيد الشديد لِـمَنْ يدَّعي الربوبية والألوهية، فيأمر الناس بعبادته.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٣٣- يُنكر الله تعالى على المُكذِّبين بالبعث مُوَبِّخاً لهم: أأنتم - أيُّها العباد - في تقديركم أصعب إيجاداً، أم خَلْقُ السماء أشدُّ؟ إنَّه بناها بإحكام: جعلها عالية البناء، معتدلة الأرجاء، وجعل ليلها مظلماً، ونهارها مضيئاً، والأرض بعد خلق السماء بسطها، أخرج من باطن الأرض ماءها، وأنبت فيها الكلأ، وأثبت فيها الجبال لئلَّا تتحرَّك. وكلُّ هذه النعم منفعة لكم ولأنعامكم مدَّة من الزمن.

٣٤-٣٦- فإذا جاءت القيامة الكبرى التي تتضمن كلَّ هائلة من الأمور، فتغمر سواها بأهوالها، حينئذ يُعْرَضُ على الإنسان كلُّ عمله من خيرٍ وشرٍّ فيتذكَّره ويقرِّبه، وجيء بجهنَّم، فأُظهرت ليراها العباد.

٣٧-٤١- يُذَكِّرُ الله بمصير الفريقين، فأمَّا مَنْ تجاوز الحدَّ، فتكبَّر حتى كفر، وقدَّم متاع الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، فإنَّ نار الجحيم هي مستقرُّه، وأمَّا مَنْ خاف القيام بين يدي ربِّه للحساب، وكفَّ نفسه عمَّا ترغب فيه من المعاصي، فإنَّ الجنَّة هي مُستقرَّه.

٤٢-٤٦- يسألك المشركون - أيُّها الرسول - ساخرين عن وقت قيام الساعة: متى وقوعها؟ ليس عِلْمُها إليك حتى تَذْكُرَها لهم، إلى ربِّك مرجع علم وقوعها، ما واجِبُك إلا إنذار مَنْ يخاف القيامة، كأنَّهم يوم يُشاهدون القيامة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

الفوائد والاستنباطات:

١- فَضْلُ الله على عباده بما هَيَّأ لهم من المنافع والأسباب في حياتهم . وما بَيَّنه من الأحكام والبراهين.

٢- أثبتت الدراسات الفلكية أنَّ لمحور دوران الأرض عدداً من الحركات التي تستغرق أوقاتاً مختلفة يبلغ أقصرها عشرة أيام، ويبلغ أطولها ١٨,٦ سنة من سِنِينا. (آيات الاعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٢١٧-٢٣٠).

٣- ثبت أنَّ كل الماء على سطح الأرض قد اندفع من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتنقسم خزانات الماء تحت سطح الأرض إلى نوعين رئيسين كما يلي:

أ- خزانات ماء مالح أو شديد الملوحة، وهذا الماء المالح عادة يكون في أعماق بعيدة من سطح الأرض، ومن أمثلته الماء المصاحب للنفط في مكامنه.

ب- خزانات ماء قليل الملوحة إلى متوسط الملوحة: وهو ماء متجمع من ماء المطر النازل من السماء.

(آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات ٤٥١-٤٦٨).

٤- سوء عاقبة الطغاة الذين آثروا شهوات أنفسهم، ونسوا أمر ربهم.

٥- حسن عاقبة المؤمنين الذين منعوا أنفسهم من أهوائها وشهواتها.

٦- اختصَّ الله وحده بعلم الساعة.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين الدالّة على قدرة الله تعالى.

٢ - الترهيب من أهوال يوم القيامة.

٣ - بيان اهتمام النبي ﷺ بدعوته لقريش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ويُقبل على الآخر ويقول: أترى بما تقول بأساً، فيُقال لا، ففي هذا أُنزل. (اخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٤٣٢ - كتاب التفسير، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأخرجه ابن حبان وصححه الأرناؤوط (الإحسان ٢/ ٢٩٣-٢٩٤ برقم٥٣٥)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في المستدرك ٢/ ٥١٤).

التفسير:

١-٢- يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى العناية بالضعفاء، بعتابه النبيَّ ﷺ حين جاءه الصحابي الأعمى عبدالله بن أُمِّ مكتوم ﷺ قبل إسلامه يقول: يا رسولَ الله، أرشِدْني. وكان الرسول ﷺ مُنشغلاً بدعوة بعض زعماء قريش إلى الإسلام، فعبس رسول الله ﷺ، وأعرض عن ابن أُمِّ مكتوم.

٣-٤- وما يُعْلِمُك - أيُّها الرسول - لعلَّه بإرشادك له يتطهَّر بهدى الإسلام، أو يتَّعظ بقولك، فتنفعه الموعظة؟

٥-٧- أمَّا مَنْ عَدَّ نفسه غنياً عن الإيمان بك فأنت تتعرَّض له، وأيُّ شيء سيلحقك إذا لم يُسْلِمْ هذا الكافر؟

٨-١٠- وأمّا هذا الأعمى الذي جاءك بجِدٍّ وعزيمة وهو يخشى الله، فأنت تنشغل عنه.

١١-١٦- حقّاً إنَّ هذه الآيات موعظة لِـمَنْ أراد أن يتذكَّر، فمَنْ أراد من عباد الله أن يتّعظ بآيات القرآن حصل له ذلك، وهذا مكتوب في صحف شريفة رفيعة القدر، مُطهَّرة من كلِّ نقص ودنس، كُتِبَ بأيدي رسل الله من الملائكة الأخيار المُطيعين لله.

١٧-٢٢- دعاء على الإنسان الكافر باللعن والطرد من رحمة الله على شدَّة جحوده بنِعَمِ الله، أيُقِرُّ من أيِّ شيء خلقه الله؟ خَلَقَه من مَنِيٍّ، فقدَّره بعد ذلك أطواراً في الخلق، ثمَّ سهَّل الله له الخروج من بطن أُمِّه، ثمَّ بعد بلوغ رشده بَيَّنَ له طريق الخيرِ والشرِّ، ثمَّ بعد الحياة حكم عليه بالموت، وأمر بدفنه في القبر، ثمَّ إذا شاء أحياه وبَعَثَه للحساب.

٢٣- لِيرتدعْ هذا الكافر، فإنَّه لم يُؤَدِّ أوامر الله التي أنزلها على رسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١- العظيم مَنْ كان في ميزان الله عظيماً، وليس العظيم مَنْ كان في موازين الناس عظيماً.

٢- عتاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عتاباً لطيفاً، تعليماً لأُمته في وجوب المساواة بين الناس، وأنَّ دين الإسلام دين العدل.

٣- بيانُ مقام النبي ﷺ وأنَّه أشرف مقام وأسماه، دَلَّ على ذلك أسلوب عتاب الله تعالى له، فقد خاطبه في أسلوب شخص غائب حتى لا يواجهه بالخطاب فيؤلمه، فتلطف معه.

٤- أمانة رسول الله ﷺ حين بَيَّنَ عتاب ربِّه له كما نزل عليه، دون زيادة أو نقصان.

٥- مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتبليغ، وليست مهمته إجبار الناس على الإيمان.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٤-٣٢- فليتأمَّلِ البشرُ شأن طعامهم كيف دَبَّرناه ويسَّرناه؟ إنَّنا أنزلنا المطر الغزير من السماء، ثمَّ شققنا الأرض بالنبات شقّاً، فأنبتنا في هذه الأرض الحبوب والأعناب والأعلاف والزيتون والنخيل،

وبساتين ذات أشجار ضخمة بظلالها وأوراقها، كريمة بثمارها وخيراتها، تنتفعون بها أنتم وأنعامكم مدَّة من الزمن.

٣٣-٣٧- فإذا جاءت الصيحة الشديدة يوم القيامة التي تَصُكُّ الآذان، يوم يهرب المرء من إخوانه وأبويه وزوجته وأبنائه؛ لأنَّ لكلٍّ واحد منهم همّاً وغمّاً يشغله عن غيره.

٣٨-٤٢- في هذا اليوم ينقسم العباد إلى فريقين: فريق قد أضاء وجهه، وضحك من فرحه بما سيلقاه من النعيم، وفريق قد اسودَّ وجهه وغشيته الذلَّة والكآبة بما سيَصْلاه من نار الجحيم. أولئك البعداء عن رحمة الله هم الذين جحدوا النعم والآيات، وارتكبوا الجرائم والسيئات.

الفوائد والاستنباطات:

١- طعامُ الإنسان نعمة من الله تعالى وآية عظيمة تدل عليه سبحانه، فقد ذكرت الآيات أهم النباتات التي تُكَوِّن الطعام الرئيس لكل من الإنسان وأنعامه:

أ- فكلمة ﴿حَبًّا﴾ تشمل جميع أنواع الحبوب من ذوات الفلقة الواحدة، وتسمى (العائلة النجيلية)، وهي أهم عائلة نباتية بالنسبة لكل من الإنسان والحيوانات الآكلة الأعشاب كالأنعام.

ب- ﴿وَعِنَبًا﴾ يشير إلى رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هي رتبة العنابيات.

ج- ﴿وَقَضْبًا﴾ إشارة إلى العائلة البقولية، وهي ثاني أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه في طعامه.

د- ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾: يشير إلى عائلتين من أهم العائلات النباتية هما العائلة الزيتونية، والعائلة النخيلية.

هـ- ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: تشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات، وبخاصة نباتات الظل، والزينة، والأخشاب. (مقالات الدكتور زغلول النجار، ص ٦٨٠).

٢- الاستدلال بالصنعة على الصانع، وأن أثر الشيء يدل عليه.

٣- من نِعَمِ الله على خَلْقِه: تيسير سبل الحياة. ودعوته للنظر والتأمل في نعم الله عليه.

٤- بيان شدة الهول يوم القيامة.

٥- ثمرة الإيمان والتقوى تظهر في الموقف نوراً على الوجه وإشراقاً له وإضاءة، وعاقبة الكفر والفجور تظهر ظلمة وسواداً على الوجه وغباراً.

النزول: مكية.

فضل السورة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ». (أخرجه الإمام أحمد، المسند ٢/ ٣٦، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٥٧٦) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٣/ ٧٠ برقم ١٠٨١).

المقاصد:

١ - بيان أهوال يوم القيامة.

٢ - تقرير الوحي والرسالة.

٣ - دعوة المشركين وترهيبهم من أهوال يوم القيامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١ -٦- يَعِظُ الله تعالى العبادَ بالأهوال التي تطرأ على المخلوقات العظيمة يوم القيامة؛ ليستعدُّوا إلى الحساب لنيل العقاب أو الثواب، وذلك في الآيات الأربع عشرة التالية: إذا الشمس فقدت ضوءَها، وإذا النجوم تساقطت وتَغَيَّرت، وإذا الجبال نُسفت وتَحَوَّلت إلى هباءٍ متناثر، وإذا النُّوق الحوامل التي بلغت الشهر العاشر من حملها قد تركت، وإذا الحيوانات البريَّة التي تنفر من الإنسان قد خرجت من أوكارها وجحورها وجُمِّعَتْ كلُّها، وإذا البحار أوقدت بالنيران فذهب ماؤها.

٧-١٤ - وإذا النفوس قُرِنَتْ بأمثالها: المؤمن مع المؤمن، والمنافق مع المنافق، وإذا البنت البريئة المدفونة وهي على قيد الحياة سُئلت: ما الجريمة التي فَعَلْتِها حتى يدفنك أهلك؟ - وفي ذلك جَبْرٌ لخاطرها

وإنصاف لها وتقريع للذي دفنها -، وإذا صحف أعمال العباد فُتحت لتُقرأ، وإذا السماء تَحَوَّلَتْ من مكانها، وإذا نار الجحيم أُوقدت، وإذا الجنَّة قربت من أهلها، إذا وقعت هذه الأهوال عَلِمَتْ كلُّ نفسٍ ما قَدَّمَتْ من خيرٍ أو شرٍّ.

الفوائد والاستنباطات:

١- إن في قيعان المحيطات والبحار شبكة هائلة من الصدوع تتركز عند مرتفعات وسط المحيط حيث يندفع منها اللافا البازلتية في درجات حرارة عالية تصل إلى ألف درجة مئوية فتظهر كأنَّها كتل من النيران الهائلة تحت سطح الماء، حيث إنَّ الماء لا يستطيع أن يطفئ جذوتها ولا الحرارة على شدتها تستطيع أن تبخر الماء لكثرته. ولولا هذه الصدوع لانفجرت الأرض منذ أول لحظة لتكوينها نتيجة لما يحدث في باطن الأرض من تفاعلات نووية وكيميائية هائلة. (ملامح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: في مجال علوم البحار، مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٧).

٢- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مُكَوَّران يوم القيامة». (صحيح البخاري، باب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، برقم ٣٢٠٠).

٣- تقرير الوقائع الكونية التي تحدث عند بداية وقوع القيامة.

٤- يقترن كل إنسان بعمله كما تقترن الأرواح بالأجساد.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، إذ بهما المصير إلى الجنة.

٦- الترهيب من الشرك والمعاصي، إذ بهما المصير إلى النار.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

١٥-٢٢- قسماً مؤكَّداً بالنجوم التي تختفي في النهار، والتي تجري في فلكها مع الشمس والقمر، وتستتر وقت غروبها، وبالليل إذا أقبل، أو أدبر، وبالصبح إذا بزغ ضَوْءُه. إنَّ هذا القرآن حقّاً تبليغ جبريل عليه السلام صاحب قوَّة عظيمة، وذو منزلة عالية عند الله تعالى، تُطيعه الملائكة التي أُمِّر عليها، ومؤتمن على الوحي لا يخون، وما محمَّد ﷺ بمجنون.

٢٣-٢٥- وقسماً لقد رأى محمَّدٌ ﷺ جبريلَ ﷺ في أفق السماء الواضح، وما هو ببخيل في تبليغ الوحي فلا يكتمه عنكم، وليس القرآن بقول شيطان ملعون مطرود من رحمة الله، ولكنَّه كلام الله تعالى.

٢٦-٢٩- فأيَّ طريق تسلكونه في تكذيبكم للقرآن بعد هذا البيان؟ ما هذا القرآن إلا موعظة من الله لكم - أيُّها المكلَّفون - من الإنس والجانِّ، وذلك لِـمَنْ أراد أن يستقيم على طريق اتِّباع الحقِّ، وما تشاؤون - أيُّها العباد - الاستقامة إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّ العالمين ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- اكتشف علماء الفلك أنَّ بعض النجوم العادية تصدر وابلاً من الأشعة السينية، ولم يجدوا تفسيراً علمياً لذلك إلا وقوعها تحت تأثير أجرام سماوية غير مرئية ذات كثافات خارقة للعادة، ومجالات جاذبية عالية الشدة؛ وذلك لأن النجوم العادية ليس في مقدورها إصدار الأشعة السينية من ذاتها، وقد سُمِّيَتْ تلك النجوم الخفية باسم الثقوب السود (Black Holes) - التعبير الأبلغ الخنَّس الكنَّس - وقد سميت بالثقوب؛ لقدرتها الفائقة على ابتلاع كل ما تمر به أو يدخل في نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادة والطاقة من مثل الغبار الكوني والغازات والأجرام السماوية المختلفة، ووصفت بالسواد لأنها معتمة تماماً لعدم قدرة الضوء على الإفلات من مجال جاذبيتها، وقد اعتبرت الثقوب السود مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٢١١-٢٣٢). وينظر: صورة توضح الثقب الأسود، كما في الملحق.

٢- تمكَّنَتِ العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء، ومنها قوة الجاذبية، وهي تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٥٦٣-٥٧٤).

٣- ينظر: صورة انتهاء الليل ودخول الفجر، كما في الملحق.

٤- ثبوت حقيقة علمية وهي أنَّ النهار أو الصبح ما هو إلا رئة كبيرة تتنفَّس تنفساً حقيقياً، وأنَّ أنفاسه ما هي إلا حركة جزيئات الهواء بصورة دائمة صعوداً وهبوطاً؛ نظراً لارتفاع مستويات الطاقة نهاراً، وانخفاضها ليلاً. (الإعجاز العلمي في إثبات حقيقة تنفس الصبح،بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة،ص١٦).

٥- بيان صفات جبريل الكمالية: الأمانة، القوة، علو المكانة، الطاعة، الكرم.

٦- براءة الرسول مما اتهمه به المشركون.

٧- رؤية رسول الله ﷺ لجبريل على هيئته التي خَلَقَه الله عليها.

٨- بيان أنَّ مشيئة الله سابقة لمشيئة العبد، فلا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة التكوير.

المقاصد:

١ - بيان أهوال يوم القيامة.

٢ - سبب الكفر هو إنكار يوم الحساب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

التفسير:

١ -٥- يُؤَكِّدُ الله تعالى عظمة قدرته بمشاهد عجيبة ومخيفة من مخلوقاته يوم القيامة، ليؤمن العباد بالمعاد ويوم الحساب للثواب والعقاب: إذا السماء انشقَّتْ، وإذا النجوم تساقطت، وإذا البحارُ فُتِحَ بعضها على بعض، وإذا القبور أُثيرت، فخرج الموتى منها أحياء، حينئذ علمت كلُّ نفس الذي عَمِلَتْه من خير، وما أَخَّرَتْه من عمل يلحقها ثوابه، أو سُنَّةٍ يُعمل بها بعد موتها.

٦ -٨- يُنكر الله تعالى على مُنكر البعث: أيُّ شيء خدعك بربِّك الكريم حتى عصيته، وخالَفْتَ أمْرَه؟ الذي أوجدك من العدم، فجعل خلقك حسناً بتقويمه وتَناسُبِه بين أعضائه، في أيِّ هيئة شاءها خلقك.

٩ -١٢- ارتدِعوا - أيُّها المخدوعون - بالشيطان، فأنتم لستم على حقٍّ، بل أنتم تُكَذِّبون بيوم الحساب، وإنَّ عليكم حفظة من الملائكة يرقبون أعمالكم ويكتبونها، وهم شرفاء أمناء يكتبون أعمالكم، فهم يعلمون كلَّ ما تفعلون في السرِّ والعلن.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان تغير نظام الكون عند قيام الساعة، ومن ذلك تَشَقُّق السماء، وتفجير البحار.

٢ - ذَمُّ الغرور والتنكر لنعم الله على العبد في خلقه من العدم.

٣ - كلُّ إنسان يلازمه ملائكة، يسجِّلون عمله خيراً أو شراً.

٤ - التحذير من التكذيب بالبعث والجزاء، فإنَّه أكبر عامل من عوامل الشر والفساد.

٥ - تقرير عقيدة كتابة الأعمال حسنها وسيئها والحساب بمقتضاها يوم القيامة، بواسطة مَلَكَيْن كريمين على كل إنسان مكلف. (أيسر التفاسير ٤/ ٣٧٤).

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٣ - إنَّ المؤمنين العاملين بطاعة الله لفي نعيم الجنَّة حقّاً.

١٤-١٦ - وإنَّ المجرمين الذين أفسدوا بالكفر والكبر، لفي نار الجحيم قطعاً، يدخلونها فيحترقون بلهيبها يوم الحساب، ويمكثون فيها أبداً.

١٧-١٩ - وما أعلمك - أيُّها الإنسان - ما شدائدُ يوم الحساب؟ ثمَّ ما أعلمك ما أهوال يوم الحساب؟ يوم الحساب والجزاء لا يستطيع أَحَدٌ أن ينفع غيره بأيِّ شيء، والأمر كلُّه لله تعالى وحده.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيانُ حُكْمِ الله في أهل الموقف، إذ هم ما بين بار صادق فهو في نعيم، وفاجر كافر فهو في جحيم.

٢ - وجوب تعظيم يوم الدين لما فيه من نشر الأعمال، وحساب العباد.

٣ - المسؤوليةُ والتَبِعةُ فردية، فلا يملك أحد لأحد شيئاً أو ينفعه بشيء يوم الحساب والجزاء.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - الوعيد من الظلم في الميزان.

٢ - بيان الفروق بين مصير المتقين ومصير الكافرين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. (أخرجه ابن ماجه في السنن - التجارات، باب التوقي في الكيل والوزن - برقم٢٢٢٣ وحسنه البوصيري (مصباح الزجاجة ٢/ ١٨١)، وحسنه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/ ١٩)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٧/ ٢٠٨ برقم ٤٨٩٨)، والحاكم في (المستدرك ٢/ ٣٣) قال الحاكم: حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٦٩٥-٦٩٦)، وكذا (الحافظ السيوطي، باب النقول ص ٢٢٨).

التفسير:

١-٣- يُحَذِّرُ الله تعالى الناس من الخيانة في حقِّ الوزن والكيل، ويتوعَّد بالعقاب والهلاك الذين يبخسون حقَّ الناس، إذا أخذوا كيلهم أو وزنهم من الناس أخذوا حقَّهم تامَّاً غير ناقص، وإذا كالوا للناس، أو وزنوا لهم، فإنَّهم يُنقصون حقَّ الناس، أو يزيدون الكيل والوزن لأنفسهم زيادةً على حقِّهم من حساب الناس.

٤-٦- يَذُمُّ الله تعالى منكري البعث والحساب مُنكِراً عليهم: ألا يعلم هؤلاء المطَفِّفون أنَّ الله يُخرجهم من القبور أحياءً يوم القيامة الذي عَظُم بأهواله؟ يوم يقوم العباد أمام ربِّ الخلائق للحساب.

٧-٩- ليس الأمر كما يعتقدون من عدم وقوع البعث، وأنَّهم لَمَّا يُحاسبوا على خيانتهم، بل إنَّ ما كُتب من كبائر المجرمين في ضيق دركات الأرض السفلى لا يتغيَّر، وما أعلمك ما سِجِّين؟ هو كتاب مكتوب مُثبَت فيه جميع ما اقترفه هؤلاء.

١٠-١٧- يُهَدِّدُ الله تعالى المُكذِّبين بيوم الحساب، بالهلاك والعقاب، وما ينتكس في هذا التكذيب إلا كلُّ معتدٍ على حقِّ الله، وحقِّ العباد، مبالغٍ في الوقوع في الجرائم، إذا قُرِئت عليه آيات القرآن قال: إنَّها أقاصيص من كذب السابقين، ليس الأمر كما يزعمون، ولكن غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يرتكبون من الخطايا، حقّاً إنَّ هؤلاء المُكذِّبين ممنوعون قطعاً من رحمة الله تعالى يوم القيامة، ثمَّ إنَّهم سيدخلون النار يذوقون لهيبها، ثمَّ تُوَبِّخهم الملائكة المُوَكَّلة بالعذاب: هذا العذاب الذي كنتم لا تُصدِّقون به.

الفوائد والاستنباطات:

١- أهمية العدل في الوزن.

٢- تحريم التطفيف في الكيل أو الوزن، أو في كل عمل يتعامل به الناس مع بعضهم.

٣- الويل والهلاك لِـمَنْ يُكَذِّبُ بيوم البعث.

٤- الذنوب والخطايا تحجب القلوب عن قبول الحق.

٥- تقرير رؤية الله ﷻ يوم القيامة لأهل الجنة الأبرار، ويحرم منها أهل الشقاوة والعياذ بالله.

٦- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

١٨-٢١- حقّاً إنَّ كتاب المؤمنين العاملين بطاعة الله في مرتبة عالية في السماء السابعة، وأيُّ شيء أعلمك - أيُّها الرسول - ما هذه المكانة الراقية؟ فهو كتاب مثبتة فيه الأعمالُ الصالحة، يحضره ويحفظه المُقرَّبون من ملائكة كلِّ سماء.

٢٢-٢٨- يُبَشِّر الله تعالى هؤلاء الأبرار بما أعدَّ لهم في الجنَّة، فإنَّهم في مقام كريم ونعيم مقيم، على الأسرَّة المُزيَّنة ينظرون إلى أنواع النعيم، وأعلاه رؤية الله تعالى، ترى في وجوههم البهاء والفرحة بالنعيم،

يسقيهم خدمُ الجنَّة من خمرٍ طيِّبة مختوم غِطاؤها بمسك تفوح منها رائحته. وفي ذلك المقام العالي الكريم يتسابق المتسابقون؛ لنيله، وهذا الشراب المُطعَّم بالمسك من عين اسمها (تسنيم)، خاصَّةٍ بالمقرَّبين من أصحاب الدرجات العالية.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقريرُ ما أعدَّ الله للأبرار، وهم أهل الطاعة والصدق والإخلاص.

٢ - تأكيد حقيقة البعث والجزاء والحساب.

٣- التنافس ينبغي أن يكون على الآخرة، وصالح العمل.

٤ - الثناء على الأبرار، وبيان مقامهم في الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التفسير:

٢٩-٣٤- إنَّ الذين اقترفوا جرائم الكفر والنفاق كانوا في الدنيا يسخرون من المؤمنين ويضحكون منهم، وإذا مرُّوا بهم أشاروا إليهم بحركات السخرية، وإذا عادوا إلى أهلهم عادوا مُتَلَذِّذين باستخفافهم بالمؤمنين، وإذا رأوا المؤمنين رَمَوْهُم بالضلال عن اتِّباع الحقِّ، وما أرسل الله تعالى المجرمين ليحكموا على المؤمنين ويتابعوا أعمالهم، فيوم الجزاء يضحك المؤمنون من الكفَّار، جزاءَ ما ضحكوا منهم في الدنيا.

٣٥-٣٦- هؤلاء المؤمنون يجلسون على الأسرَّة والفرش الفاخرة ينظرون إلى ما أكرمهم الله به من النعيم والمقام الكريم، هل جُوزِيَ الكُفَّار بهذا العذاب بما كانوا يرتكبون من الجرائم؟ نعم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التنديد بالإجرام والمجرمين.

٢- تقرير أنَّ الجزاء من جنس العمل، فالمجرمون الذين يضحكون من المؤمنين في الدنيا سوف يضحك منهم المؤمنون في الآخرة.

٣- ينظر المؤمنون يوم القيامة إلى ربِّهم، خلافاً للكافرين الذين يُحْجَبُون عنه.

٤ - بيان إكرام الله لأوليائه، وإهانته تعالى لأعدائه.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُه في فضل سورة التكوير.

المقاصد:

١ - بيان أهوال يوم القيامة.

٢ - إقامة البراهين التي تدل على عظمة قدرة الله تعالى.

٣- وجوب تعظيم القرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١-٥- يُبَيِّنُ الله تعالى عظمة قدرته في طاعة السماء والأرض له؛ ليعتبر العباد بهذه المخلوقات العظيمة، فيستعدُّوا ليوم القيامة والحساب: إذا السماء تَصَدَّعت، وأطاعت أمر ربِّها، وحُقَّ لها أن تطيع، وإذا الأرض بسطت، وأخرجت ما فيها من الموتى وتَخَلَّتْ عنهم، وأطاعَتْ أَمْرَ ربِّها، وحُقَّ لها أن تطيع، فإذا وقعت هذه الأمور رأى الإنسان ما قَدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ.

٦- يا أيُّها الإنسان إنَّك تعمل عملاً تلقى الله به، خيراً كان أم شرّاً.

٧-٩- فأمَّا المؤمن الذي أُعطي صحيفة أعماله بيمينه فسوف يُحاسَبُ حساباً سهلاً، ثمَّ ينصرف بعد هذا الحساب إلى أهله في الجنَّة فرحاً.

١٠-١٥- وأمَّا المُكذِّب بالله الذي أُعطي صحيفة أعماله بشماله من وراء ظهره، فسوف يُنادي بالهلاك على نفسه، ويدخل نار جهنَّم الموقدة، إنَّه كان في أهله في الدنيا فرحاً بمعاصيه، وكان يعتقد أنَّه لا يُبعث ولا يُعاقب، بلى سيُبعث ويُحاسَبُ على كلِّ أعماله التي كان الله مُطَّلعاً عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان مقدماته في انقلاب الكون.

٢ - الله الذي يأمر الكون بالانتظام، هو الذي يأمره يوم القيامة بالانهدام.

٣ - الإنسان يقطع رحلة العمر في مكابدة ومعاناة حتى يلقى الله.

٤ - يُحاسَبُ المؤمن حساباً يسيراً لا نقاش فيه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

١٦-١٩- قسماً مؤكَّداً بالشفق - وهو الحمرة التي تظهر عند غروب الشمس -، وقسماً بالليل وما جُمع فيه من الخلق، وبالقمر إذا استدار وصار بدراً، لتلاقُنَّ - أيُّها العباد - حقّاً طوراً بعد طور في الدنيا والآخرة.

٢٠-٢٥- يُنكر الله تعالى على المُكَذِّبين بالله مُوَبِّخاً لهم: فما لهم لا يُصدِّقون بالله ولا بالبعث؟ وإذا سمعوا قراءة القرآن لا يسجدون خضوعاً لله؟ ولكنَّ الذين جحدوا بالله من سجيتهم تكذيب ما جاء عن الله تعالى، والله أعلم بما يُضْمرون في صدورهم من الكفر وعداوة الإسلام، فأخبِرْهم - أيُّها الرسول - بما سيلقونه من العذاب الموجع، لكن مَنْ تاب منهم وآمن، وعمل صالحاً بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، فإنَّ لهم ثواباً من الله دائماً كاملاً.

الفوائد والاستنباطات:

١- يقسم الله بأشياء في الكون؛ ليلفتنا إلى بدائع قدرته.

٢- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية وهي: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾.

٣- الكافرون مستكبرون على الله، وكلام الله. فلا يتأثرون بالقرآن.

٤- يقول العلماء عن تفسير ظاهرة الشفق: عندما تسقط أشعة الشمس على الغلاف الجوي للأرض فإنَّها تخترق بلورات الثلج الصغيرة في هذا الغلاف وكأنَّه منشور زجاجي يتحلل الضوء من خلاله إلى ألوان الطيف الضوئي السبعة.

(http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-06-04/448-2012-05-30-00-20-59)

٥- في الآيات (١٦-١٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ النَّاس سيركبون أطواراً متعدِّدة، وأحوالاً متباينة: من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، إلى الموت، إلى البعث والنشور.

٦- في الآية (٢٢) إخبار مستقبليٌّ أنَّ سجيَّة الذين كفروا في الماضي والحاضر والمستقبل التكذيب ومخالفة الحق.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان منقبة الثبات على الإيمان.

٢ - عظمة قدرة الله تعالى في الانتقام من الطواغيت.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

١ -٧- يلعن الله تعالى أصحاب الأخدود - في اليمن قبل البعثة النبوية - بطردهم من رحمته سبحانه، الذين حفروا في الأرض شقًّا كبيراً وأضرموا فيه النيران الموقدة؛ لتحريق المؤمنين بالله، وهم قعود حول النار، وهم يُشاهدون تعذيب المؤمنين وتحريقهم، ويؤكِّد سبحانه هذا اللعن بأربعة أقسام: إذ أقسم بالسماء صاحبة النجوم ومنازلها، وبيوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، وأقسم بكلِّ شاهد يرى أو يشهد على أحد، وبكلِّ مُشاهَدٍ أو مشهودٍ عليه.

٨-٩- وما انتقم هؤلاء المجرمون من المؤمنين لذنب فعلوه؛ إلا بسبب تصديقهم بالله العزيز في انتقامه، المحمود على كلِّ حال، الذي له ملك السموات السبع والأرضين السبع، وهو سبحانه على كلِّ شيء من الأشياء مطَّلع.

١٠ - إنَّ الذين عَذَّبوا أهل الإيمان، ثمَّ لم يتوبوا إلى الله تعالى، فإنَّ الله سيُعَذِّبهم بنار جهنَّم يحرقهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ينظر: مخطط موقع أصحاب الأخدود، كما في الملحق.

٢ - يقسم الله ببعض عجائب خلقه؛ ليلفت أنظارنا إلى إبداعه وقدرته سبحانه.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - الترهيب والترغيب في ذكر جزاء الكافرين والمؤمنين الصالحين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

١١ - إنَّ المؤمنين الذين عملوا بطاعة الله لهم جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العذبة. ذلك المقام العالي القدر هو الفلاح العظيم.

١٢-١٦ - إنَّ انتقام ربِّك - أيُّها الرسول - من أعدائه لشديد حقّاً. إنَّه سبحانه هو يُبدئ العذاب على الكفَّار في الدنيا، ويعيده عليهم في الآخرة، ويُبدئ الخَلْقَ، ويعيده قطعاً، وهو سبحانه الغفور لعباده التائبين، الودود المُحبُّ لأوليائه المُحبِّين له، وهو صاحب العرش الكريم الذي هو أعظم المخلوقات، فعَّال دائماً لكلِّ ما يريد.

١٧-٢٢- هل أتاك - أيُّها الرسول - خبر الجموع التي تَهَيَّأت لحرب رسل الله ودعوتهم: فرعون وقومه الذين كذَّبوا موسى، وقبيلة ثمود الذين كذَّبوا صالحاً؟ نعم قد أتاك خبرهم، ولكنَّ الذين جحدوا رسالتك في تكذيبهم لك أشدّ من تكذيب مَنْ سبقهم. والله تعالى مُطَّلع عليهم وعلى مكرهم لا يفلتون من عذابه، وليس القرآن بشعر وسحر كما يُكَذِّبون، بل هو قرآن كريم شريف، وهو مَصُونٌ من كلِّ نقص، مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير البعث والحساب والجزاء.

٢ - في قصص الماضين عبرة للمؤمنين، وتسلية لهم أمام ما يلاقونه من أعدائهم.

٣- في الآية (١٢) إخبار مستقبليٌّ ووصف لانتقام وعذاب الربِّ جلَّ وعلا من أعدائه، فإنَّ انتقام الله من أعدائه وعذابه لهم عظيمٌ شديدٌ.

٤ - الله قادر على الانتصار من الكافرين، لكنه يُمهل ولا يهمل.

٥ - بيان إحاطة الله تعالى بعباده وأنَّهم في قبضته وتحت سلطانه.

٦- عظمة القرآن الكريم، وأنَّ الله قد أودعه عنده في اللوح المحفوظ، فلا تمسه ولا تقربه الشياطين.

٧- في الآية (١٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ لله ﷻ الإرادة المطلقة، فإنَّه فَعَّال لما يريده سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، لا يمتنع عليه شيء يريده.

٨- في الآيتين (١٩-٢٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الذين كفروا في تكذيب متواصل، كدأب مَنْ قبلهم، وأنَّ الله قد أحاط بهم علماً وقدرةً، لا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شيء.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة قدرة الله تعالى في إمكان البعث.

٢ - إقامة البراهين الكونية على بيان قدرة الله تعالى.

٣- تقرير صدق الوحي بالقرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١-٤- يُحَذِّر الله تعالى عباده من الغفلة عن أعمالهم في الدنيا، أنَّه ما من نفس إلا وعليها حافظ من الملائكة يُحصي الأعمال، ويكتبها للحساب عليها، وأكَّد ذلك سبحانه بقَسَمَين، إذ أقسم بالسموات العظيمة، وبالنجوم التي تَطْرُق ليلاً، المُضيئة في رحاب السماء التي لا يدرك حقيقتها البشر.

٥-١٠- فليتأمَّلِ الإنسان المُكَذِّب بالبعث: ما المادَّةُ التي خُلِقَ منها؟ خُلِقَ من مَنيٍّ يقذف في الرحم، يخرج من العمود الفقري للرجل، وأضلاع الصدر للمرأة. إنَّه سبحانه قادر على أن يردَّ الإنسان حيّاً بعد موته، وذلك كائن يوم تختبر ضمائر الناس وما يُخْفونه، فما للإنسان من قوَّة يدفع بها عن نفسه، ولا أحد من الخلق يعينه.

١١-١٤- قسماً بالسماء ذات المطر المُتكرِّر، وبالأرض التي تتشقَّق، فيخرج منها النبات. إنَّ هذا القرآن لقول يفرق بين الحقِّ والباطل، وليس لعباً ولا لهواً من القول.

١٥-١٧- إنَّ هؤلاء المُكذِّبين بالله وبرسالتك يُدبِّرون المكايد، والله يكيد بهم كيداً أعظم يُدمِّرهم، فاصبر عليهم وأنْظِرْهم قليلاً حتى يأتيهم العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- يقسم الله بالسماء والنجم؛ ليدلَّنا على عظمة هذه الآيات الكونية.

٢- بيان مادة تكوين الإنسان، ومصدر تكوين تلك المادة.

٣- وينظر: صورة توضح رجع السماء، كما في الملحق.

٤- أكَّدت علوم الفلك في دراسة الغلاف الغازي أنَّ كثيراً ممَّا يرتفع من الأرض إليه من مختلف صور المادة والطاقة، يرتد ثانية إلى الأرض راجعاً إليها. كذلك فإنَّ كثيراً ممَّا يسقط على الغلاف الغازي للأرض من مختلف صور المادة والطاقة يرتد راجعاً عنها. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٢٩٣-٣٠٨).

٥- وصف الله تعالى الأرض بأنَّها ذات صدع؛ لأنَّ هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ , ١٥٠ كيلاً، وتمتد عشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات يتصل بعضها ببعض وكأنَّها صدع واحد. فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان. وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٠٤- ٢٠٥).

٦- إنَّ في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعداً لا يتعدى بضعة مليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعداً في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعداً ثالثاً في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات (آيات الاعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ١٦٧-١٧٢). وينظر: صورة توضح صدع الأرض، كما في الملحق.

٧- الحكم بأنَّ القرآن حق منزل من عند الله.

٨- الكافرون يُدَبِّرون المكايد، والله يُدَمِّر تدبيرهم، وهو سبحانه مطلع عليهم.

٩- في الآيات (١٥-١٧) إخبار مستقبليٌّ أنَّ عاقبةَ المكذِّبين للرسول ﷺ وللقرآن، والذين يكيدون ويدبِّرون العذابُ والنَّكالُ والهلاك.

النزول: مكية في قول الجمهور. وقال ابن عاشور: «وما اشتملَتْ عليه من المعاني يشهد لكونها مكية». (التحرير والتنوير ١٢/ ٢٧٢).

المقاصد:

١ - تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

٢ - تثبيت النبي ﷺ على تَلقِّي الوحي.

٣ - تقرير البعث والحساب للفريقين.

٤ - وحدة دعوة الرسل، ومضمونها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)﴾

التفسير:

١-٣- يخاطب الله سبحانه نبيَّه ﷺ، ويأمره وأُمته أن يُنَزِّهه سبحانه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، فهو الأعلى الذي ليس فوقه شيء، الذي خلق المخلوقات، فأتقن خَلْقَها، ولم يأتِ بها متفاوتةً غير ملتئمة، ووَضَعَ في المخلوق ما يضبط وظيفته، وأبدع مقاديره على نحوٍ منتظم في تأليف أجزائه ودقائقه، فألهم كلَّ مُقَدَّر ما قَدَّر له، وأودع فيه من مَلَكات.

٤ - ٥- والله هو الذي أنبت العشب الأخضر من الأرض، ثم جعل اللهُ هذا الكلأ بعد خُضْرَتِه هشيماً يابساً يميل إلى السواد، بعد أن كان يانعاً.

٦ - سوف نجعلك - يا رسول الله - قارئاً، بأن نُلْهِمَكَ قراءة القرآن بتعليم جبريل عليه السلام، فلا تنسى ما تقرؤه. وهذا وَعْدٌ من الله لنبيِّه بعونه على حِفْظِ ما يوحيه إليه، وعِصْمَتَه من نسيان ما يُقرِئُه؛ لأنَّه متكفِّل بحِفْظِ هذا الوحي.

٧- ولكنك - أيها النبي - سوف تنسى الذي شاء الله لك أن تنساه، فقد ينسخ الله بعض ما أنزل، فلا يُتلى، ولا يُحكم به. والله ﷻ يعلم ما يجهر به العباد، وما يُخفونه من أقوالهم وأفعالهم، ويَدْخُلُ في الجهر ما يقرؤه الرسول ﷺ من القرآن، ويدخل في الخَفِيِّ ما ينساه منه؛ لأنه لم يَعُدْ ينطق به.

٨- بعد تقرير حِفْظ القرآن وصيانته، تأتي تهيئة النبي ﷺ للنهوض بالشريعة، وتيسيرها على مَنْ يؤمن بها، وتيسير خيرها في الدنيا والآخرة، والله ﷻ يُوَفِّق نبيَّه للوفاء بالشريعة التي هي أيسر وأسهل، وهي الحنيفية السهلة. كما ورد في الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما. (أخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك كتاب التواريخ برقم ٤٢٢٠، ٢/ ٦٧٠).

٩- يأمر الله نبيَّه ﷺ بتبليغ الرسالة، والدوامِ على ذلك، فيخاطبه بتذكير الناس كافة. وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى والإعراض عنه أمرٌ استأثر بعلمه، وسوف يكون في القوم مَنْ لا تنفعه الذِّكْرى، ففي هذا التذكير نَفْعٌ للمؤمن، وحُجَّةٌ على الكافر، ولن يخلوَ جيل في أيِّ أرض ممَّنْ يستمع وينتفع بالذكرى، مهما فسد الناس، وقست القلوب.

١٠- بيان لِـمَنْ يُفيد من التذكير، وينتفع بالذكرى. إنَّه الذي يخاف ربه، ويحسب له حساب الوقوف بين يديه. وهذا الخوف على مراتب، وفي درجات الخوف يتفاضل المؤمنون.

١١ - ١٢ - ويتباعد عن تَذَكُّرِ ما تَسْتَلْزِمُه الدعوة، أهلُ الشقاء، وهم الكفرة الذين سيَشْقَوْن في الآخرة لخلودهم في النار، إنَّهم كانوا سادرين في هواهم، فرحين بدنياهم، ولكنهم سيصطلون بالنار العظمى في دَرَكات الجحيم.

١٣ - ويتأكد هول هذه النار بذِكْرِ حقيقةٍ من حقائقها، وهي أنَّه لا راحة من عذابها بموت، وليس ثمة مُخَلِّص من هذا العذاب بحياةٍ يُنتفع بها. فمَنِ اصطلى بهذه النار لم يَزُلْ عنه الإحساس بها؛ لأنَّ الاحتراق لا يبلغ مبلغ الهلاك.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «وتعريف ﴿ٱسْمَ﴾ بطريقة الإضافة إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون تعريفه بالإضافة إلى عَلَم الجلالة نحو: سَبِّحِ اسم الله، لما يُشْعِرُ به وصف (رب) من أنَّه الخالق المدبِّر. وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول ﷺ، فلتشريفه بهذه الإضافة، وأن يكون له حظٌّ زائد على التكليف بالتسبيح». (التحرير والتنوير ١٢/ ٢٧٤).

٢- في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله يعلم الجهر من القول والعمل، وما يخفى منهما، سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

٣- في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ يَخَفِ الله فإنَّه سيتعظ بالذكرى.

٤- قال الرازي في قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: «للتنبيه على أشرف الحالين، وهو وجود النفع الذي لأجله شُرِعَتِ الذكرى، كقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١] فإنَّ القصر جائز عند الخوف وعدمه، فهذا الشرط فيه فوائد، منها ما تَقَدَّم، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأمّا الدعاء الأول فعامٌّ». (التفسير الكبير ٣١/ ١٤٤).

٥- في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الأشقى الذي لا يخشى ربَّه فإنَّه سيبتعد عن الذكرى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٤- ١٥- أما جزاء مَنْ انتفع بالذكرى، وطهَّر ظاهره وباطنه، فهو الفوز بما يطمح إليه؛ لأنَّه طَهَّرَ نفسه، وأفاد ممَّا أنزل الله على رسوله، وبَذَلَ الوُسْعَ والجهد في تزكية نَفْسه. وهذه النفس إذا تطهرت وتزكت اهتدت، فأقبلت على ما ينفعها، وذكرت اسم رَبِّها. وهذا الذِّكْرُ يشمل الذِّكْرَ باللسان تعظيماً لله، كما يشمل حضور الذِّكْرِ في النفس. ويحصل التقرب إلى الله بالصلاة التي هي خضوع وامتثال وثناء.

١٦- ١٧- ولكن الكفار لم يأبهوا بذلك الفوز، وحرصوا على الحياة الدنيا، فهم بعيدون عن التنافس في طلب الفلاح، ولا يتطلعون إلى الحياة الثانية الأبقى، وإذا ذُكِّروا بالحياة الآخرة أضربوا صفحاً عنها. إنَّ هؤلاء أعرضوا عمّا هو خير، وأطول بقاء.

١٨- ١٩- إنَّ هذا الذي تَقَدَّم في بيان فلاح مَنْ تزكَّى، وإيثار الكافرين للحياة الدنيا، وأنَّ الخير والبقاء للآخرة، هو من المواعظ البليغة الثابتة في الكتب المتقدمة عن القرآن، وهي الكتب التي نَزَلَتْ على إبراهيم وموسى عليهما السلام؛ لأنَّ هذا حقٌّ يرجع إلى أصلٍ واحد من الله ﷻ الذي خلق فسَوَّى.

الفوائد والاستنباطات:

١- النجاح الحق هو التطهر من الآثام والمعاصي، والعمل وفق توجيه الله ﷻ.

٢- في الآيتين (١٤-١٥) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة مَنْ طهَّر نفسه من الأخلاق السيئة، وذكر الله، فوحَّده ودعاه، وعمل بما يرضيه، وأقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لشرعه، فإنَّه سيكون من الفائزين.

٣- في الآيتين (١٦-١٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ النَّاس يُفَضِّلون زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، والدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم خير من الدنيا وما فيها.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تثبيت قلب النبي ﷺ على الدعوة.

٢ - تقرير البعث بجزاء أصحاب النار، وثواب أصحاب الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

التفسير:

١-٢- هل وَصَلَك - أيها الرسول - خبر الأهوال التي تَغْشَى الناس ساعة القيامة؟ فثمة أناس تُمَثِّلهم وجوهٌ يعتريها الذلُّ في هذا الموقف المهيب. ويُطْلَقُ الخشوع على المذلة نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥].

٣- وهؤلاء الأشقياء يَبْدُون في حالة من الجهد والتعب؛ لما أصابهم من المشاقِّ في ساحات القيامة. إنَّهم تركوا الخشوع لله، وهجروا النَّصَب في الدنيا للقيام بطاعته، فجزاؤهم ذلٌّ ومشقة وإرهاق في القيامة.

٤- سوف يصطلي هؤلاء بنارٍ تجاوز إيقادها الشديد درجة ما عرفوه في الدنيا التي ينقطع حَمْيها.

٥- إنَّ أصحاب هذه الوجوه وهم يحترقون بالنار المتوهجة يطلبون الشراب، فيكون شرابهم من عينٍ بَلَغَتْ أعلى درجات الحرارة.

٦-٧- وليس لهم من الطعام إلا نَبْتُ الضريع اليابس ذي الشوك وما يخرج منه. وهذا الطعام لا يعود على آكِليه بسِمَنٍ يُصْلِحُ ما اشتملت عليه أجسادهم المحترقة، ولا يدفع الجوعَ الذي تشكو منه بطونهم.

٨-٩- وفي المقابل تبدو وجوه أخرى لأهل الإيمان، إنها الوجوه ذات اللين والبهجة والنعيم، لأناس نهضوا في الحياة الدنيا لصالح الأعمال، وهي حامدة لسعيها عندما امتثلَتْ أَمْرَ الله ورسوله.

١٠-١١- إنَّهم في دارٍ ثوابٍ محفوفة بألوان الكرامة والبهجة. وتختصُّ الجنَّة بالعلوّ الذي يعطيها موقعاً يزيد من منظرها الرائق. ويزيد من نَعماء هذه الجنة خُلُوُّها ممَّا كان فاشياً في مجامع الناس في الحياة الدنيا من الكلام الذي لا فائدة فيه من صروف الباطل، فليس في الجنة إلا السمو العقلي والخلقي، ولا ينطق أهلها إلا بما يزيد النفوس علواً وتزكية.

١٢- وفي هذه الجنَّة عين ماء متدفقة جارية، تَهَب متعة لناظرها وسامعها في حركتها وصوتها، فإذا كان هؤلاء المنعَّمُون قد تَذَوَّقوا بهجة الماء الجاري في الحياة الدنيا، فكيف يكون هذا اللون من النعيم ضمن الجزاء الأوفى في الحياة الآخرة ؟

١٣-١٦- في هذه الجنة سُرُرٌ تستوعب مَنِ استلقى عليها، تتميز بارتفاعها عن الأرض زيادةً في نعيمها، وهم يشربون خمر الجنة من أكواب مهيأة للشراب، لا تُرْفَعُ من بين أيديهم، فلا تنقطع لذة الشراب، وقد هُيِئ لهم وسائد يتكئون عليها، وجُعل بعضها قريباً من بعض، فأينما أراد ذوو الحظ أن يجلسوا أو يَسْتَلْقُوا ظفروا بها، كما هُيِئ لهم بُسُطٌ منسوجة من الصوف الملون الناعم الذي يُفرش على الأرض للزينة، وتتصف هذه البُسُط بدقة الصنع ورقة الخَمْلِ، وهي منتشرة على الأرض.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير واقعة البعث بالجزاء والحساب يوم القيامة.

٢- من أسماء القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.

٣- قال ابن عاشور: «قُوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة، فقُوبِلَتْ صفات: ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾، ﴿ عَامِلَةٌ ﴾، ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾، بصفات: ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾، وقُوبل قوله: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، بقوله: ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾، وقُوبل: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾، بقوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾، وقُوبل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾، بمقاعد أهل الجنة المشعرة بالترف من شراب ومتاع». (التحرير والتنوير ١٢/ ٣٠٣).

٤- الذين سَعَوا في الدنيا بالأعمال الصالحة يَرْضَون عن أنفسهم يوم القيامة، ويَرْضَون بما أعطاهم ربهم من النعيم المقيم.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٧- ٢٠- يُنْكِرُ سبحانه على المشركين إهمال النظر في دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته: كالتأمُّل والنظر إلى هيئة خلْق الإبل التي يتعايش معها هؤلاء القوم صباحاً ومساء، ففي الإبل أموالهم ورواحلهم ولباسهم ونَسْجُ بيوتهم، وقد خَلَقَها الله خَلْقاً عجيباً، ورَكَّبها تركيباً متقناً، وأودع فيها ملكات عجيبة تجعلها تتناسب مع المفاوز التي تقطعها، ومع شِدَّتها تلينُ للحمل الثقيل. إنَّ هذه الإبل لم يخلقوها ولم تَخْلُقْ نفسها. وهذه السماء التي يرونها ويرقبون أنواء المطر ولَـمْع البرق فيها، إنهم لم يرفعوها ولم تُرفع بنفسها. وهذه الجبال التي هي منازل لبعض قبائل العرب، مَنْ الذي رفعها مع شموخها ورُسُوِّها؛ لئلَّا تميدَ الأرض بأهلها ؟ وها هي الأرض مرعاهم ومفترشهم، وقد خلقها الله ممهدة مبسوطة ليُنتفع بها.

٢١- ٢٢- ويأمر الله رسوله بدوام تذكير القوم، فما ينبغي لك - أيها الرسول - أن تيأس من إعراضهم، وإنما أنت واعظ لهم، ولست بمُكْرِهٍ لهم لتُجْبِرَهم على الهداية، ولا تتحرَّج من ضلالهم، وليس عليك تبعة بسبب استمرارهم على الكفر، ولستَ تخلق الإيمان في قلوبهم وتُكرههم عليه، وإنما عليك البلاغ.

٢٣- ٢٤- لكن مَنْ أعرض عن التذكُّر، ودأب على كفره، فإنَّ الله يُجازيه بعذاب شديد يتجاوز الحَدَّ المعتاد. وفي هذا إبطال مَنْ تَوَهَّم أنَّه أصبح آمناً من المؤاخذة على غفلته.

٢٥- ٢٦- وإذا كان النبيُّ ﷺ غير مُكَلَّف بإجبارهم على التذكر، فسوف نحاسبهم عقب رجوعهم إلينا في الدار الآخرة، وقد يتأخر عقابهم، فليس هذا إمهالاً أو انفلاتاً من العقاب، وقد تَكَفَّل الله بحسابهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- من وسائل الدعوة تقريب الأمر إلى ذهن المدعو من خلال ما يعرفه وما يعيشه.

٢- في الكون آيات دالة على قدرة الله على البعث منها: الإبلُ والسماء والجبال والأرض.

٣- مهمة الرسول ﷺ التذكير، وليست إجبار الكفار على الإيمان.

النزول: مكية، إلا ما حكى ابن عطية عن أبي عمرو الداني أنَّها مدنية. (المحرر الوجيز ١٦/ ٢٩٢).

المقاصد:

١- تقرير البعث والحساب.

٢- بيان أصناف الناس عند الابتلاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾

التفسير:

١-٤- يُقْسِمُ سبحانه بالفجر، وهو اسم لوقت ابتداء الضياء، وهو مظهرٌ من مظاهر قدرة الله في إحكام الكون وجريانه بحسبان دقيق. والفجر وقت مبارك يبدأ بيقظة المؤمنين؛ لاستئناف الحياة بعد وفاة مؤقتة يعقبها صلاة. أما الليالي العشر فهي عشر ذي الحجة الأُول وقت مناسك الحج، وهي أيام مباركة وَرَدَ في فَضْلِها آثارٌ صحيحة يتوجَّه فيها المؤمنون للعبادة والطاعة. أما الشَّفْعُ فهو ما يكون زوجاً، وهو يوم النحر، والوتر ما يكون فرداً وهو يوم عرفة. ويُقْسِمُ بالليل إذا مضى يَسْري، ويَذْهَبُ في ظلامه، حتى ينقضي بالضياء في النهار، فهو يسير على المقادير المرتبة له من الله، وهو مظهر من مظاهر قدرة الله وبديع صنعه، وهو وقتُ تَمَكُّنِ ظلمةِ الليل.

٥- قد كان لصاحب عقلٍ وإدراكٍ قَسَمٌ مقنع يصرفه عن المكابرة، فيعلم أنَّ المُقْسِمَ بهذا القسمِ صادقٌ فيما أقسم عليه، ومَنْ كان ذا لُبٍّ عَلِمَ أنَّ ما أقسم الله به فيه دلائل على صنع الله وقدرته، فهو حقيق بأن يُقْسِمَ به لدلالته على مُدَبِّره.

٦-٨- هذا دليل جواب القسم، والتقدير: لَيُرْسِلَنَّ ربك على مُكَذِّبك يا محمد العذاب، كما صَبَّ على عاد وثمود وفرعون. ويخاطِبُ سبحانه الرسولَ ﷺ ليُثَبِّته، ويُعَرِّضَ بالمعاندين، فإنَّ فيما فعله الله بهذه الأُمم موعظة وإنذاراً لهم: ألم تعلم أخبار هذه الأُمم وما فعله ربُّك بقوم عاد قبيلةِ إرم ذات الأبنية المتماسكة، ولم يخلق الله مثل أفرادها في قوة أجسامهم وبَسْطِها، وسعة تدبيرهم.

٩- ويأتي ذِكْر مصارع نماذج من الجبارين السابقين: أما ثمود فهم الذين قطعوا الصخر الضخم ونقبوه؛ لينحتوه، ويتخذوا منه بيوتاً بين الجبل في وادي القرى. وفي هذا دليل على تَمَكُّنِهم وقدرتهم العظيمة على هذا العمل.

١٠-١٣- وانظر - يا أيها الرسول - إلى فرعون صاحب المملكة القوية، وكان له جنود منتشرون يُثَبِّتُون مُلْكَه، فكانوا بمنزلة أوتادٍ له، ولكن هؤلاء الطغاة تجاوزوا الحدَّ في المعاصي في ممالكهم، والخروج عن هدى الله، فأولغوا في الفساد، وتَجَبَّرُوا على أنبياء الله والمؤمنين، والتعدِّي على حقوق الآخرين، وكان هذا سبباً في غضب الله عليهم. لقد حَلَّ عذاب الله بهؤلاء الأقوام، وأفرغ عليهم شدة العذاب؛ لأنَّ السَّوْطَ عند العرب نهاية ما يُعذَّب به.

الفوائد والاستنباطات:

١- لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.

٢- هناك أوقات مخصوصة من الزمن، هي من أعظم الأوقات، منها الفجر وأيام ذي الحجة العشر، فعلينا الإفادة منها .

٣- جاء في الآية (٤) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ بحذف الياء، اكتفاء بكسر الراء؛ لأنها فاصلة في موضع وقف، وفي الوقف تُغَيَّرُ الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان والرَّوم والحذف. (انظر:معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢١، والبسيط للواحدي ٢٣/ ٤٩٦).

٤- في الآية (٥) استفهام تقريري معترض بين القسم وجوابه.

٥- الشَّفْعُ والوتر تخصيص لهذين اليومين بالذكر للاهتمام بهما بعد أن شملتهما الليالي العشر المتقدمة. والشفع والوتر يومان مباركان، وَرَدَ فيهما فضائل وآثار، أو يكون القسم بكل شفع ووتر.

٦- قال الرازي بعد أن ذكر وجوهاً كثيرة في الشفع والوتر: «كلُّ هذه الوجوه محتملة، والظاهر لا شعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبرٌ عن الرسول ﷺ أو إجماع من أهل التأويل، حُكِمَ بأنَّه المراد، وإن لم يثبت وجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على القطع. ولقائل: إنِّي أحمل الكلام على الكلِّ؛ لأنَّ الألف واللام في الشفع والوتر يفيد العموم». (انظر: تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١٤٩).

٧- صاحب العقل يَفْهَمُ كلام الله، ويعلم مراده ومرماه.

٨- بعد دراساتٍ علمية مستفيضة: اتضح وجود آثار مِدَقَّات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة، وبعد دراسة مستفيضة لمعرفة حقيقة تلك الآثار، أجمع الباحثون على أنها هي آثار عاصمة ملك عاد

التي ذكر القرآن الكريم أن إسمها (إِرَمَ)، وقُدر عمرها بالفترة من (٣٠٠٠) ق.م إلى أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية، وقد وصف الباحثون حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٦٠٣-٦١٦). وينظر: مخطط موقع قوم عاد، كما في الملحق.

٩- قال الفراء في قوله في الآية (١٣) ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: «هذه كلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب تُدْخِلُ فيه السوط، ونرى السوط من عذابهم الذي يُعَذَّبُون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب». (معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

١٤- إنَّ الله لا يفوته شيء من أعمال هؤلاء الطغاة المفسدين، ومنزل العذاب بهم هو ربك يا محمد، وهو قادر على أن يعذِّب الذين كذَّبوك، وقادر على أن يرصد كل طاغٍ مُفْسِدٍ بعمله؛ ليجازيَه على عدوانه.

١٥- تَوَهَّم المشركون أنَّ إنذار الرسول ﷺ لهم بالعذاب غير صادق؛ لأنَّ هذا يُخالف ما هم فيه من النعمة والكرامة التي منحها الله لهم. وقد رَدَّ اللهُ مقولتَهم في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] فهم تَوَهَّموا دوام حالهم واستحقاقِهم لذلك، فأعلم اللهُ رسولَه بالحقيقة، ونبَّه على خطأ اعتقاد الجاهلين، وأعلمهم أنَّ أحوال الدنيا لا يُعْتَدُّ بها في تقويم الجزاء على العمل.

١٦- وفي الطرف المقابل ترى الإنسان الذي ابتلاه ربه بتقتير رزقه، وتضييقه عليه، فيردِّد جازماً بأنَّ هذا دليل معاملته من قِبَلِ ربِّه بالهوان والذل والفقر. وفي هذا تَذَمُّرٌ من الضيق والحاجة، فلم يشكر الله على ما وهب له من العافية؛ لأنَّ الكرامة والهوان عنده بكثرة الحظ في الدنيا وقلَّته.

١٧-١٨- ويأتي زجر الإنسان عن اعتقاداته في أحواله وأقواله في السَّراء والضراء، ويشير السياق إلى موقف أهل الجاهلية تجاه الضعفاء، فهم لا يُحْسِنُون معاملة اليتيم - وهو مَنْ مات أبوه صغيراً - ويستولون على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائهم الصغار، وهم لا يكتفون بحرمان المحتاج من الطعام والبذل من أموالهم، وإنما يَحُثُّون أولياء الأيتام على ذلك؛ لأنَّهم لا يكترثون بهذه الفئة.

١٩- ٢٠- وقد دأب طغاة المشركين على الاستيلاء على حقوق هؤلاء اليتامى والمساكين من ميراث آبائهم دأباً شديداً، فيكتسبونه بالغَصْب والاختلاس. إنَّ هؤلاء الطغاة يهيمون في اكتساب المال على نحوٍ واسع.

٢١-٢٢- زجر وردع عن الجرائم السابقة التي سيُحاسبون عليها يوم القيامة، ففي ذلك الوقت تُحْطَم الأرض حَطْماً حقيقياً، ويكسر بعضها بعضاً، وتُدَقُّ جبالها، ويتكرَّر عليها الدكُّ الرهيب، ويتفرَّق أجزاؤها بما يُحْدثه الله فيها من زلازل، فتغدو هذه الأرض مستوية لا يبقى فيها أيُّ نتوء، ولا يبقى على ظهرها شيء. في هذا اليوم يجيء ربك سبحانه لفَصْلِ القضاء بين عباده، ومعه ملائكته صفوفاً صفوفاً.

٢٣-٢٤- وفي هذا اليوم العصيب يجيء الملائكة بجهنم، وتُفتح أبوابها، في هذا الموقف المهيب يتذكر الإنسان الجاحد الطاغي معاصيه، إنَّه يريد أن يعلن التوبة، فمن أين له ذلك؟ وهذا التذكُّر لا ينفعه في شيء. وتراه يُرَدِّد باللسان تحسُّراً وتندُّماً: يا ليتني قَدَّمْتُ في حياتي الأولى قبل الموت الأعمالَ الصالحة؛ لأجل أن أحيا في الحياة الكاملة السالمة من العذاب، التي لا موت فيها.

٢٥-٢٦-وفي هذا الموقف الرهيب يتذكر فيه الإنسان ما سُجِّلَ في صفحته، لن يستطيع أحد أن يُعَذِّبَ مثل تعذيب الله للكافر الذي خالف أمره، ولن يستطيع أحد أن يُقَيِّد مثل تقييد قيوده؛ ليسوقَهم إلى النار.

٢٧-٣٠- يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين الذين اطمأنَّتْ نفوسهم بالإيمان إلى وعد الله ولقائه. هذه النفوس المنيبة المخبتة أيقنت بأنَّ الله ربُّها، ورَضِيَتْ بقضائه، فيقال لها: ارجعي إلى ربك وأنت راضية، بما نالته من كرامة وتكريم وثواب، إذ أُعْطِيَتْ كلَّ ما تطمح إليه، وهي كذلك مَرْضِيٌّ عنها، ممَّا يزيدها ربُّها من العطايا فوق ما رَضِيَتْ به، وادخلي أيتها النفس في زمرة عبادي الصالحين المصْطَفَيْن، وادخُلي في جنة الله عند المليك المقتدر.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (١٤) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ عاقبة مَنْ يعصي الله، فإنَّ الله جَلَّتْ قدرتُه له بالمرصاد، يمهله قليلاً، ثمَّ يأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر.

٢- في الآية (١٥) إخبار مستقبليٌّ عن حال الإنسان مع ربِّه فيما إذا اختبره ربُّه بنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش، فإنَّه يظنُّ أنَّ ذلك لكرامته عند ربِّه، فيقول: ربِّي أكرمن.

٣- من طبع الإنسان الحرصُ على المال والبخل به وحُبُّه، حتى إن الإنسان لحرصه على المال يَحْرُم اليتيم والفقير.

٤- في الآية (١٦) إخبار مستقبليٌّ عن حال الإنسان مع ربِّه فيما إذا اختبره، فضَيَّق عليه رزقه، فيظنُّ أنَّ ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربِّي أهانن.

٥- تحريم أكل أموال اليتامى من ميراث وغيره .

٦- ذَمُّ التهالُك على حُبِّ المال، وبخاصة عندما يكون سبباً في الظلم وبخس الحقوق.

٧- في الآيات (١٧-٢٠) إخبار مستقبليٌّ أنَّ مَنْ أطاع الله فإنَّ الله سيكرمه، وأنَّ مَنْ عصى الله فإنَّ الله سيُهينه.

٨- ذكر بعض المفسرين أن معنى التكرير في ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ أنه دَفَعات على تقدير: دُكَّتِ الأرض دَكّاً بعد دَكٍّ، ولو كان غير مكرر لاشتبه أن يكون دفعة واحدة، أو زلزلة بعد زلزلة. (البسيط ٢٣/ ٥١٦).

النزول: مكية.

المقاصد:

١- بيان عظمة البلد الحرام مكة، ومقام النبي ﷺ فيها.

٢- بيان إبداع الله تعالى في خلق الإنسان.

٣- تقرير البعث للحساب في تصنيف الناس إلى أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

١-٤- يُعَظِّمُ الله تعالى مكة المكرمة، فيُقْسم بهذا البلد العظيم الذي أنت مقيم فيه - أيها الرسول - تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك، كما يقسم الله بآدم، والذي تناسل منه من الأبناء والذرية. وجواب القسم: لقد خَلَقْنا جنس الإنسان يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، فهو لا يخلو: إمَّا أن يكابد الشكر على السَّرَّاء، أو يكابد الصبر على الضراء، فهو في نَصَبٍ وشدة مُلازِمَين له.

٥-٧- أيظنُّ ابن آدم بما جمعه من مالٍ واستجمع من قوة وشدة، أن لن يقدر عليه أحد، ولا ينتقم منه أحد؟ إنَّ الله قادر عليه. ويردد هذا الإنسان تَمَدُّحاً وتفاخراً بذاته، فيذكر إتلاف أمواله الوافرة العريضة في ميادين الترف والفساد، ويَعُدُّ هذا منقبة له. أيظنُّ أنَّه في رُعونته وفساده لا يراه أحد، ولا يُحاسبه على ما تقترفُه يداه، ويلوك لسانه؟

٨-٩- إنَّ هذا الإنسان الغافل عن قدرة الله، وعن علمه المحيط بالكائنات، قد خلق الله له آلات النظر وهي العينان، والإبانة وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مَنْ أنعم بهذا على الناس غير قادر عليهم ؟

١٠- وقد أوضح ربُّه له طريقَي الخير والشر، يميز بينهما، وألهمه ما يدرك به الضارَّ والنافع.

الفوائد والاستنباطات:

١- تبدأ السورة بالقسم، فتكون (لا) مؤكدة لهذا القسم، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: أن تسجد.

٢- جيءَ بـ (ما) دون (مَنْ) التي تستعمل غالباً للعاقل؛ لإرادة التفخيم نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: مولوداً عجيب الشأن. قال ابن عاشور: «ولأنَّ قوة الإبهام في (ما) أنسب بإرادة الجماعة دون واحد معين». (التحرير والتنوير ١٢/ ٣٥٠).

٣- في الآية (٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ لله ﷻ القدرة المطلقة، فإنَّ الله جَلَّتْ قدرتُه سيقدر على من جمع الأموال الطائلة، وعلى غيره من البشر.

٤- في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ يرى كلَّ أفعال عباده، ومِنْ ضمنِهم: الذي يقول متباهياً: قد انفقت مالاً كثيراً، ويظنُّ في فِعْلِه هذا أنَّ الله ﷻ لا يراه، وأنَّه سوف لا يحاسبه، والصحيح أنَّ الله ﷻ يراه، وسيحاسبه على الصغير والكبير.

٥- خَلَقَ اللهُ الإنسان، وزَوَّده بأدوات المعرفة، فالواجب عليه استخدامها فيما يرضي الله ﷻ.

٦- قوله في الآية (١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ النَّجْدُ: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل، وجُعِلا نَجْدَين؛ لأنَّ طريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١١-١٢- هذا مَثَلٌ لمجاهدة النفس والهوى في سبيل تحقيق أعمال البر، فهلَّا تَقَدَّم الإنسان إليها، وتجاوز المشقَّات التي تعترضه دونها، وسعى في الوصول إلى قُرُبات يكون بها النجاة من النار. وأطلق العقبة على العمل الموصل للخير؛ لأنَّ عقبة النجد المرتفع تكون في أعلى موضع فيه، وأيُّ شيء أعلمك: ما اقتحامُ العقبة، وتَكَلُّفُ سلوكِها؟ إنَّه أمر عزيز يحتاج إلى مَنْ يُعْلِمُك به. شَبَّه تَكَلُّفَ الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدته على النفس ومشقته.

١٣-١٧- إنَّه السعي في أوجه الخير المتعددة، ومنها إعتاق رقبة مؤمنة، وتخليصها من إسار الرقِّ والعبودية، ومنها إطعام الطعام في يوم المجاعة، ونُدْرَة القوت. وفي هذا الوقت يظهر شحُّ الناس بالعطاء خشية الاحتياج، فيكون الإطعام في هذا الزمن له فَضْلُه، وهو من اجتياز العقبة، ودون العقبة مصاعد متفاوتة، ثم تيسير وصوله ليتيم ذي قرابة أو مسكين لا شيء لديه، وليس لديه ما يفترشه على الأرض. إضافة إلى ذلك فقد كان باغي الخير من الذين أخلصوا دينهم لله، وممَّنْ أوصى بعضُهم بعضاً بفضيلة الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، ومن الذين تواصَوا بأن يرحم بعضهم بعضاً.

١٨- إنَّ هذه الأفعال المتقدمة من أفعال أهل الإيمان الذين يَتَسَلَّمون كتابهم بأيمانهم، ويقدمون إلى الجنان، فجهة اليمين جهة مكرمة.

١٩-٢٠- أمَّا الذين كفروا فهم الذين يُؤْخَذُ بهم يوم القيامة نحو جهة الشمال إلى النار، وهي جهة الإهانة والذم، إنهم يُكَبْكَبُون في النار، ويُسحبون إليها على وجوههم، وتُغْلَقُ عليهم أبوابها.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضلُ عِتْقِ المأسور أو الرقيق؛ لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه». (صحيح البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى؟ برقم ٦٧١٥. فتح الباري ١١/ ٦٠٧).

٢- فضلُ الإطعام في زمن الحاجة للأيتام والفقراء والمساكين والمحتاجين، وفيه قول رسول الله ﷺ: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». (أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب ٤٢، برقم ٢٤٨٥ (سنن الترمذي ٤/ ٥٦٢). وابن ماجه في كتاب الإقامة، باب ما جاء في قيام الليل، برقم ١٣٣٤ (سنن ابن ماجه ١/ ٤٢٣).

٣- شرطُ قَبولِ الطاعات والقُرُبات الإيمان بالله؛ لأنَّ الكفر به مُحْبِطٌ لكلِّ عمل.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان قدرة الله تعالى في الكون.

٢ - أهمية تزكية النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

١ -٨- تبدأ السورة بالأقسام المتتالية الستة لتأكيد الخبر الذي يُعقبها من الترغيب والترهيب. والقسم بمخلوقات كونية أبدعها الله وَفْقَ حُسْبان دقيق. ومن هذه المخلوقات الشمس، وهي أعظم النَّيِّرات، والضحى هو وقت ارتفاع الشمس. ثم يُقْسِمُ بالقمر عندما يتلو الشمس في الطلوع والأفول، وهو مرتبط بها؛ لأنَّ نوره مستمد من نورها. ثم يقسم بالنهار إذا جَلَّى الشمسَ وقتَ ظهورها، وأعقب القسمَ بالنهار القسمُ بالليل الذي هو آية أخرى من آيات الله، فيُغَطِّي الأرض، فيكون ما عليها مظلماً، ثم يُقْسِمُ بالسماء، وبنائها المتقن المحكم، فكأنَّ رَفْعَها بمنزلة بنائها. ثم يُقْسم الله بالأرض وبَسْطِها، وتسخير ما عليها للإنسان، ثم يقسم بالنفس الإنسانية وخَلْقِها سويةً، غير متفاوتةِ الخَلْق، فقد قَوَّمها الله أحسن تقويم. فعَرَّفها طريقَي الخير والشر، وعَرَّفها بهما، وبَيَّنَ لها ما ينفعها في الدارَين. وهذا الإلهام ناشئ عن التسوية التي يظهر فيها إبداع الخالق، ومن هذا الإبداعِ هذا الإلهامُ، واختيار الإنسان لأحد الطريقين، وقد أودع الله في النفوس من الإدراك ما يجعلها تفهم دعوة الرسل.

٩ -١٠ - ثم جاء الجواب على ذلك القسم المؤكد. فقد فاز مَنْ زكَّى نفْسَه وطَهَّرها، ووَجَّهها للاستزادة من الفضائل، ودفع عنها الرذائل، وقد خَسِرَ مَنِ اختار أن يَلج المعاصيَ والمفاسد، وحال بين نفسِه وفِعْلِ الخيرات، فأرداها في المهالك.

١١-١٢- ثم ذكر نماذج من الجاحدين كقبيلة ثمود التي كذَّبت رسولها صالحاً، فدمَّرها الله تعالى بسبب بلوغها الغاية في التجبُّر والعصيان، إذ توجَّه أشقى أفراد القبيلة - وهو قدار بن سالف - لعقر الناقة، وكان هذا عن إغراءٍ من قومه، وهو آيةٌ على منتهى جرأتهم على الله.

١٣-١٤- كَذَّبَتْ قبيلة ثمود برسولهم صالح، فعرض عليهم آية الناقة، وحَذَّرهم من التعرض لها بسوء، ومن مَنْعِها شُرْبَها في موعد سقيها؛ وذلك لأنَّ الاتفاق بين نبيِّهم وقومه أن يكون للناقة موعد، ولإبل القوم موعد آخر، بيدَ أنَّ القوم خالفوا نبيَّهم، وتغافلوا عن التحذير الذي صدر منه وما يترتب على ذلك من العذاب والاستئصال، وتمالَؤُوا على عَقْرِ الناقة، فما الذي حدث؟ لقد غضب عليهم ربهم، فأخذتهم صيحة العذاب والرجفة التي أُهْلِكوا بها، فأطبق عليهم الأرض. وتَفَرَّع على الإطباق الشامل تسوية جميع الأفراد بهذا الاستئصال، فلم يفلت منهم أحد.

١٥- إنَّ الله هو الغالب الذي لا يقدر أحد أن يتعقب حُكْمَه، وما حصل عقب إنزال العذاب بهؤلاء لا معقب لحكمه فيهم، ولا تبعة عليه منهم، وهو لا يحسب حساباً لأحد فيما يراه.

الفوائد والاستنباطات:

١- لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يُقْسموا إلا بالله.

٢- بَثَّ الله ﷻ آياته في الكون، ولكنَّ إلْفَ الناس لهذه الآيات يجعلهم غافلين عن صانعها.

٣- تؤكد الدراسات العلمية أن فترة النهار التي تعتري نصف الأرض المواجهة للشمس بسمك لا يتعدى مئتي كيلاً فوق مستوى سطح البحر بما فيها من هباءات الغبار، والرطوبة، وكثافة الغازات، هي التي تعكس موجات الضوء المنظور من أشعة الشمس وتشتته، فيظهر لنا بهذا النور الأبيض المبهج، ويُجْلي لنا الشمس. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٤٦٧-٤٨٢).

٤- تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل هاجس المؤمن وسبيله للفلاح.

٥- في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ طهَّر نفسه ونمَّاها بالخير فإنَّ له الفوز.

٦- في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ أخفى نفسه في المعاصي فإنَّ له الخسران.

٧- يقال: دَمَّم عليه القبرَ إذا أطبقه، و «دمدم» مكرر دَمَّم للمبالغة.

٨- تحريم الطغيان والفساد في الأرض؛ لأنَّ عاقبته الهلاك والعذاب كما حدث لقوم صالح.

النزول: مكية. وقيل: إنَّها مدنية. (انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٣١٥). وقد رجَّح الدكتور محمد الفالح أنَّها مكية. (المكي والمدني، ص ٥٤٨-٥٤٩).

المقاصد:

١ - إقامة البراهين الكونية على القدرة الربَّانية.

٢ - تقرير البعث بالبشرى للمؤمنين والوعيد للمشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

١-٣- قسماً بالليل إذا غَطَّى البسيطة بظلامه، فأخفى ما عليها، وقسماً بالنهار إذا أسفر بضيائه. وهما آيتان من آيات الله المبثوثة في الكون، تَدُلَّان على الصانع المدبِّر، ثم يُقْسم بمظهر من مظاهر قدرته، وهو خَلْقُ آية الزوجية فيما يَدِبُّ على الأرض، وما يتبعها من تناسل الكائنات.

٤-٧- وبعد هذا القسم المؤكد ثلاثَ مرات، يأتي جواب القسم لبيان ما يفيد أنَّ أعمال الإنسان وتصرفاته مختلفة بين عامل للدنيا، منصرفٍ إليها، مقتنعٍ بزخارفها، وحريصٍ على الآخرة، فيُقَدِّم الخير بين يدي كَسْبِه، فالأعمال متخالفة، والمسالك شتى، ثم بَيَّنَ بعض أوجه هذه المسالك، ووصف عمل فريقين: فريق مُيَسَّر لليسرى، وفريق مُيَسَّر للعسرى، فالأول فريقٌ بَذَلَ حُرَّ ماله بدون عوض، وحَسِبَ حساباً للقاء ربه، فاتقى عذابه، وآمن بموجبات شهادة التوحيد. فهذا الفريق نُوَفِّقُه لعمل الخير والشريعة الميسَّرة، وسوف تكون عاقبته سعيدة سريعة في دخول الجنة.

٨-١١- وأما الفريق الثاني فقد ضَنَّ بحُرِّ ماله، وأظهر الشُّحَّ، واستغنى ملتبساً بشهوات الدنيا عن لقاء الله وجزائه، ورأى أنَّه في غنى عن رحمة ربه، وكَذَّب بشهادة التوحيد، وكَذَّب رسوله، فسوف نُوَفِّقُه في حياته للشقاء الذي يؤول إلى سرعة دخوله النار، وهل ينفع هذا الشقيَّ مالُه العريض الذي جمعه، وضَنَّ به في تفادي السقوط والكبكبة في دَرَكات الجحيم؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - يقسم الله بآيات كونية ليلفتنا إلى ما لها من أهمية.

٢ - لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.

٣ - في الآيات (٥-٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ بذل ماله واتَّقى الله في ذلك، وصدَّق بالحساب والثواب على أعماله، فسيرشده الله إلى أسباب الخير والصلاح، وسيسِّر له أموره.

٤ - في الآيات (٨-١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ بخل بماله، واستغنى عن جزاء ربِّه، وكذَّب بالحساب والثواب، فسيعيش في الشقاء، ولا ينفعه ماله الذي بخل به.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١٢ - يتكفل الله سبحانه ببيان طريق الهدى ولوازمه، وذلك من فضله وحكمته، فتولَّى إرشاد الناس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم على فساد كَسْبِهم، وهَدَى الإنسان إلى التمييز بين الصلاح والفساد.

١٣ - إنَّ الدار الآخرة التي سيجمع الله فيها الخلائق هي ملك لله، وكذلك الدار الأولى في الحياة الدنيا، فله التصرف فيهما كيف يشاء، فلا يَظُنَّ أحدٌ أنَّ له حقاً لازماً على الله.

١٤-١٦ - حذَّر الله سبحانه عباده نار جهنم التي تتوهَّجُ وتلتهب، لا يصطلي بحَرِّها إلا الشقيُّ البائس الذي يُنْبَذُ فيها نتيجة تكذيبه للرسول ﷺ، وإعراضه عن هدى ربِّه، وهذا الأشقى لم تُكتب له السعادة.

١٧-٢١ - وسوف يكون بعيداً عن نار الله الموقدة ذلك التقيُّ النقيُّ الذي عَرَفَ ربَّه حقَّ المعرفة، وبذل في سبيل الله مالَه، ودفع زكاته؛ لتطهير نفسه من الشُّحِّ. إنَّ بَذْلَ المؤمن لماله لم يكن مكافأة لِـمَنْ أسدى إليه معروفاً، وإنَّما هو خالص لله ﷻ الأعلى ابتغاء وجهه الكريم. ووَعْدٌ أكيد من الله ﷻ بثوابٍ جزيل يُرضي صاحبه، بما يجعله في سرور وحبور.

الفوائد والاستنباطات:

١- لا يمكن للعقلِ البشري أن يَسْتَقِلَّ بمعرفة الهدى، ولذلك بَيَّنَ اللهُ ﷻ الهدى للإنسان.

٢- كون المؤمن مَرْضِيّاً عنه يعني أنَّه حاز راحة النفس وقرة العين، بالإضافة إلى النعيم المحسوس المحاط به.

٣- العاقل مَنْ يتَّعظ بإنذار ربه، فلا يختار طريق الشقاء والهوى.

٤- مَنْ تَوَلَّى عن الحق وأعرض عنه فسوف يلاقي جزاءه.

٥- في الآيات (١٩-٢١) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ سوف يعطي شديد التقوى الذي يبذل ماله ابتغاء المزيد من الخير، والذي ينفق ماله ليس مكافأة لِـمَنْ أسدى إليه معروفاً، ولكنَّه يبتغي بذلك وجه ربِّه الأعلى ورضاه، فإنَّ الله سوف يعطيه في الجنَّة ما يرضى به.

النزول: مكية.

المقاصد:

بيان عظمة منزلة الرسول ﷺ عند ربه، وفضله عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

سبب النزول:

ما ثبت في صحيح البخاري أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قُرْبَك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. (صحيح البخاري برقم ٤٩٥٠، باب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ٨/ ٥٨٠).

التفسير:

١-٢- قسماً بوقت الضحى، وهو اسم لوقت ارتفاع الشمس، والمقصود به النهار كله؛ لأنَّه قابل الضحى بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، ثم يؤكد هذا القَسَمَ القَسَمُ بالليل وقت سكونه، وامتداد ظلامه.

٣- ثم جاء جواب القسم بأن الوحي لم ينقطع عنك أيها الرسول، ولم يُوقِفْ إنزال الآيات عليك، وربُّك ما أبغضك حين أبطأ الوحي عنك.

٤- إنَّ الجنة في الحياة الآخرة خير لك من الدنيا، مع أنَّ الله أعطاه في الدنيا شرف النبوة الذي يتضاءل عنده كلُّ شرف ومكرمة في الدنيا، ولما كانت الدنيا كظل زائل وطريق عابر لم تكن بالقياس إلى الآخرة شيئاً مذكوراً.

٥-٨- تَعَهَّدَ اللهُ ﷻ بأن يُكْرِمَ نبيَّه بعطاء غير محدود، سوف يعطيه الفتح والتمكين في الدنيا، والمنزلة الرفيعة في الآخرة، فيُرضِيه بجزيل عطائه الواسع، من خير لنفسه ولأُمته، ثم شرع في تَعْداد ما أفاضه الله عليه من النعم من مبدأ نشأته ولطفه في الشدائد، على طريقة الاستفهام التقريري، فقد ألفاك ربك يتيماً

- توفي أبوه وهو جنين - فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهَيَّأ لك رعاية تناسبك، وبذلك تكون قد نَشَأْتَ على تَعَهُّدٍ لأحوالك، وكنت غافلاً عمّا يُراد بك من أمر النبوة، فلم تكن تدري شيئاً عن الوحي والشريعة، وكنت في حيرة عمّا تَتْبَعُ من الحق، فعَلَّمَك ما لم تكن تعلم، ووجدك فقيراً ليس لديك مال، فأغناك بفضله وكرمه، وأرضاك بما منحك من الرزق.

٩- ثم يأتي التوجيه الربَّانيُّ لرسوله الكريم ﷺ ولأُمته، إلى التعامل مع اليتيم الضعيف، فلا تقهره بالشدة والغلظة والإذلال.

١٠- وأما مَنْ يسأل الناس العون والصدقات فلا تنهره، ولا تزجره بالقول، بل أعطِه، أو رُدَّه برِفْقٍ وعطف.

١١- يأمر الله سبحانه نبيَّه أن يُظْهِرَ نِعَمَ الله عليه للناس، ويخبر بها، ونِعَمُ الله على نبيِّه كثيرة، منها شرف النبوة، وهو رسولٌ تجب طاعته، وواجبٌ شكرُ مُسْدِي النعم. وهذه التوجيهات الربانية للنبي ﷺ وأُمَّته.

الفوائد والاستنباطات:

١- لله أن يُقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يُقْسموا إلا بالله.

٢- أهمية الزمن، وقيمة الوقت.

٣- حذف مفعول ﴿قَلَىٰ﴾ لدلالة ﴿وَدَّعَكَ﴾ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف، ومثله قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾.

٤- جيء بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ لإفادة كون العطاء عاجل النفع، بحيث يحصل به رضا المعطي عند العطاء، فلا يترقب أن يحصل نَفْعُه بعد تَرَبُّص. (انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ٣٩٨).

٥- حذف المفعول الثاني لـ﴿يُعْطِيكَ﴾ ليعُمَّ كلَّ ما يرجوه من خير لنفسه ولأُمَّته.

٦- معرفة نِعَم الله وشكرها، والتحدُّث بها.

النزول: مكية.

المقاصد:

بيان منزلة النبي ﷺ عند ربه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - قد شَرَحْنا لك صدرك أيها الرسول. وخَصَّ الصدر لأنّه محلُّ أحوال النفس من العلوم والإدراكات؛ لينهض بشأن الدعوة، ويَحمِلَ أعباءَ النبوة، ويكون خير أسوة للمؤمنين، وهذا إنعام عليه بكلِّ ما تطمح إليه نفسه.

١ -٣- وأزال عنك ما كنت تَتَحَرَّج منه من عادات أهل الجاهلية ممَّا لا يلائم سُمُوَّ فطرتك، ذلك الذي أثقل كاهلك، وكان شديداً عليك، فغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، وهداك إلى الحق، وأزال حيرتك.

٤ - ورَفَعَ الله ذِكْرَك في الدنيا والآخرة بصفات الكمال، ويتناول رَفْعُ الذِّكْرِ جوانبَ متعددة، كبشارة الأنبياء به، وذكره في أعلى عليين، والثناء عليه.

٥ - ٦ - وعدٌ من الله مؤكد بأنْ يكونَ مع الضيق سعة، ومع الكرب فرج، ومع الشدة لين.

٧- فإذا أنهيت عملاً من أعمال التبليغ والعبادة فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، وجِدَّ في العبادة، أي: إذا أتممت عملاً فأقبِلْ على عمل آخر، فتكون أوقاتك معمورة بالأعمال النافعة.

٨- وتَوَجَّهْ دائماً إلى ربِّك، فلا يُعَوَّلُ في جميع الأمور إلا عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- إذا وقعت الشدة كانت علامة على قرب الفرج.

٢- جملة ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تأكيد لجملة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. ومن المقرر أنَّ المقصود في مثله هو تأكيد الحكم الذي تَضَمَّنه الخبرُ، ولا شكَّ أنَّ الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله، فكان التأكيد مفيداً لترجيح أثر اليسر في أثر العسر.

٣- قال ابن عاشور: «الفاء في قوله: ﴿فَارْغَبْ﴾ رابطة للفعل؛ لأنَّ تقديم المعمول لَمَّا أفاد الاختصاص نشأ منه الاشتراط نحو تقديم المجرور ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]». (التحرير والتنوير ١٢/ ٤١٧).

٤- وقت الداعية معمور بالإنجازات، فإذا فرغ من إنجاز أمر، شرع في غيره.

٥- قال الزمخشري: «فإن قلت إنَّ (مع) للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أنَّ الله تعالى يصيبهم بيُسْرٍ بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقَرَّبَ اليسر المترقَّب حتى جعله كالمقارِن للعسر؛ زيادةً في التسلية وتقوية للقلوب». (الكشاف ٤/ ٢٦٧).

٦- في الآيتين (٥-٦) إخبار مستقبليٌّ وتأكيد بأنَّ الفَرَجَ من الله يأتي مع شدَّة الضيق.

٧- تَعْدادُ هذه النِّعم يبعث النفوس الزكية على الشكر والاجتهاد في العبادة.

النزول: مكية، وروي عن ابن عباس وقتادة: أنها مدنية. (تفسير القرطبي ٢٢/ ٣٦٣).

المقاصد:

١- بيان كرامة الإنسان في خلقه على أحسن هيئة.

٢- تقرير البعث والحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٤- قسماً بالتين الذي يأكله الناس، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت، وهما طعامان نافعان للبدن، ثم يُقْسِمُ بالجبل المبارك الذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السلام، وهو في الأرض المقدسة، ويُقْسم الله ﷻ بالبلد الآمِنْ مكة لمنزلتِه وحُرْمته، ثم يأتي جواب القسم: لقد خلق الإنسان في أحسن تسوية وتعديل، وخَلَقه على الفطرة السليمة، وكَوَّنه تكويناً متناسباً مع ما خُلِقَ لأجله. وقد اشتملَتْ خِلْقَتُه على بديع الخلق، وعجيب الصنع.

٥-٦- بَيْدَ أنَّ الإنسان سوف يصير إلى دركات الجحيم السفلى، إذا لم ينهج نهج الهدى، وقال ﴿سَافِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأنَّ الإنسان في معنى الجمع، وهم باعتقادهم الضلالة قد غَيَّروا فطرتهم، واعتقدوا بإلهية الحجارة أو الدهر، ثم استثنى من الجمع السابق، إلا الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة، فلهم أجر واسع غير مقطوع، وثوابهم دائم على طاعتهم، فالإنسان يبقى على ما خَلَقَه الله في فطرته السليمة، ولكنَّه ارتدَّ إلى أسفل سافلين بضلاله. أمَّا المؤمنون العاملون فهم مستثنَون من ذلك؛ لأنَّهم رَجَعُوا إلى أصل الفطرة السليمة.

٧- فإذا عرفتَ - أيها الإنسان الكافر - أنَّ الله خَلَقَكَ في أحسن تقويم، وسَوَّاك فعَدَلك، وأنَّه يَرُدُّك أسفل سافلين، فما الذي يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، ولقاء ربِّ العالمين، مع أنَّ الأدلة واضحة نيِّرة؟

٨- إنَّ الله ﷻ هو أتْقَنُ الحاكمين قضاءً وتدبيراً في كلِّ شأن.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يُقْسِمُوا إلا بالله.

٢ - في السورة قسم بأماكن هي مهبط الوحي تعظيماً لها، وهي فلسطين وطور سينين ومكة.

٣- ينظر: فوائد تفسير سورة المؤمنون الآية (٢٠).

٤ - ينظر: صورة التين وصورة الزيتون، كما في الملحق.

٥ - خِلْقة الإنسان في أحسن تسوية واعتدال دليل ساطع على عظمة الخالق المبدع.

٦ - فطرة التدين هي أحسن هيئة خلق عليها الإنسان .

٧- يرتدُّ هذا الإنسان إلى دركات السافلين إذا تحوَّل إلى جاحد خصيم كنود.

النزول: مكية، وهي أول سورة نزلت من القرآن الكريم.

المقاصد:

١- تقرير الرسالة الخالدة.

٢- تقرير البعث ببيان مصير الطغاة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١-٢- هذا أول الوحي الذي نزل على النبي ﷺ وهو يتعبَّد في غار حراء. وفي الآية إيذان بأنَّ هذا النبي الأُمي سيكون تالياً لكتاب الله بعد أن لم يكن كذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: قبل نزول القرآن. والمقصود من طلب القراءة أن يَتْلُوَ ما سيُملى عليه، ويقرأ ما سيلقيه إليه من القرآن مبتدئاً مستعيناً باسم الله الخالق، والإقبال على ذِكْرِ غيره ممَّا ليس بخالقٍ إقبال باطل. ولما كان المقام مقامَ ابتداء دعوة التوحيد كان مقتضياً لذِكْر أدلِّ الأوصاف على وحدانيته. وفي قوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى ابتداء خلق الإنسان، وإلى بديع أطواره. والعَلَق قطعة صغيرة من الدم الغليظ الجامد، فقد اختلطَتْ نُطْفَتا الذكر والأنثى، وبدأت أطوار تَكَوُّنِ هذا الإنسان وفق تقدير خالقه.

٣-٥- ﴿ اقْرَأْ ﴾ الثانية توكيد للأولى؛ للاهتمام بفعل القراءة، وربُّك يا محمد الكثير الإحسان والمتفضل بالنعم، عَلَّم الكاتبين القراءة، وأزال بذلك ما خطر ببال النبي ﷺ من تَعَذُّرِ القراءة؛ لأنَّه لا يعلمها ولا يعلم الكتابة، فالذي عَلَّمَ الناس الكتابة بالقلم قادر على أن يُعلِّمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة. وفي هذا تطمين لنَفْس النبيِّ ﷺ بأنَّ عدم معرفته الكتابةَ لا يحول دون قراءته؛ لأنَّ الله عَلَّمَ الإنسان ما لم يكن يعلم.

٦-٧- حقاً إنَّ مِنْ طبع هذا الإنسان أن يتجاوز حدود الله، ويتعاظم مستكبراً، إذا أحسَّ مِن نفسه أنَّه واسع الغنى، إلا مَنْ عَصَمه دينُه؛ وذلك لأنَّ النفوس الضعيفة تُحَدِّث صاحبها بأنَّه غير محتاج إلى أحد، فيطغى ويتجبر، ولا يُبالي بشيء.

٨- موعظة وتثبيت للنبي ﷺ، أي: فلا يحزنك طغيان هذا الطاغي أبي جهل، فإنَّ مرجعه إليَّ، وهو لا يدري ما يصير إليه من العواقب.

٩-١٤- أعَلِمْتَ أعجب من جبروت هذا الآثم المستكبر، الذي هَدَّد النبيَّ ﷺ حين رآه يُصَلِّي في الكعبة فمنعه؟ أعَلِمْتَ إن كان هذا العبد الذي ينهاه عن الصلاة متمكناً من الهدى، أو آمراً بتقوى الله، أينهاه على هذه الحال؟ أعَلِمْتَ إنْ جَحَدَ هذا المستكبرُ الخيرَ الذي دُعي إليه، وأعرض عنه؟ أتظنُّ أنَّ الله غير مُطَّلع على أفعاله؟

١٥-١٦- ليرتدعْ هذا الطاغية عن جرائمه، ولئن لم يرتدع عن غَيِّه، لَنَقْبِضَنَّ على مُقَدَّمِ شعر رأسه قبضاً شديداً، ولَنَجْذِبَنَّه جَذْباً عنيفاً إلى النار، فلن يفلت من قبضتنا. وهذه الناصية تابعة لهذا الآثم العاصي، فهي جديرة بالإذلال؛ لكَذِبِ صاحبها وخطئه.

١٧-١٨- وهذا الآثم أغرى المجتمعين في النادي لإيذاء النبي ﷺ، ودعاهم ليسطوا عليه، ولكنَّ الله دعا ملائكة العذاب الشداد الغلاظ من خزنة جهنم.

١٩- لا تترك - يا محمد - صلاتك في المسجد الحرام، ولا تخش منه، فإنَّه لا يَضُرُّك، وتابع سجودك، واجتهد في القرب من مرضاة الله بالصلاة.

الفوائد والاستنباطات:

١- هذا الدين عِلْمٌ، يدل على ذلك أن أول كلمة نزلت منه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

٢- من كرم الله ورحمته بالإنسان تعليمه إياه.

٣- القلم أهم إبداع في حياة الإنسانية.

٤- على الإنسان أن يستذكر دائماً أصل خلقته، وينبغي أن يدعوه هذا إلى التواضع.

٥- لدى الإنسان استعداد للتجبر والطغيان إذا خلا من تطهير نفسه وتزكيتها.

٦- في الآية (٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الإنسان إذا أبطره الغنى فإنَّه سيتجاوز حدود الله.

٧- بيان عصمة الله نبيَّه من أذى الجاهلين الآثمين.

٨- ينظر: صورة الناصية في الملحق.

٩- مشروعية السجدة بعد نهاية قراءة هذه السورة.

النزول: مكية، وعن ابن عباس والضحاك أنَّها مدنية، ونسبه القرطبي إلى أكثر المفسرين. (تفسير القرطبي ٢٢/ ٣٩٠). ويرجح هذا تَضمُّنها الترغيبَ في ليلة القدر، ورمضان فُرض بعد الهجرة.

المقاصد:

بيان فضل القرآن العظيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١-٣- إنَّا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزَلْنا هذا القرآن العظيم في ليلة القدر العظيمة، وقد أنزله الله تعالى جملةً واحدةً في هذه الليلة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ. وليلة القدر: هي الليلة التي ابتُدِئ فيها نزول القرآن، ولها الشرف والفضل بما تشتمل عليه من البركة، وهي في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فأيُّ شيء يُعرِّفك ما ليلةُ القدر؟ إنَّها خيرٌ من ألف شهر بما اختصَّتْ من تنزيل القرآن الكريم، وما فيها من الأعمال الصالحة، ومضاعفة الحسنات.

٤- تكرر نزول الملائكة وجبريل عليهم السلام فيها، وفي هذا تعليم للمسلمين أن يُعَظِّموا أيامَ تكريمهم بالقرآن، وقد أخفى تعيينها ليكرر المسلمون عبادتهم في ليالٍ كثيرة تحرِّياً لموافقتها، ونزول الملائكة إلى الأرض لأجل ما يَحُفُّهم من بركات، وكان هذا بسبب إذن ربهم لهم في النزول. وهذا الإذن منه في كل أمر يقضيه الله تعالى في تلك السنة.

٥- يبشر تعالى بأنَّ تَنَزُّل الملائكة ليلةَ القدر لنشر الخير للمسلمين، ويشمل السلامُ الغفرانَ والثواب وإجابة الدعاء وثناء الملائكة على أهل هذه الليلة. وليلة القدر المعمورة بالملائكة والسلامة، ولا ينقطع خيرها إلى وقت مطلع الفجر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - اكتمل نزول القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة، بدءاً بليلة القدر من رمضان.

٢ - خَصَّ الله سبحانه بعض الليالي بالفضل، كما خَصَّ بعض بلاده وعباده وشهوره بالفضل.

٣- يُنْدَبُ قيام تلك الليلة والدعاء فيها؛ ابتغاء قبول الدعوة فيها. وقد حَثَّ رسول الله ﷺ على التماسها في العشر الأواخر من رمضان.

٤ - تعظيماً لليلة التي نزل فيها القرآن فإنَّ الملائكة تَنْزِلُ وتملأ السماء والأرض، وتُسَلِّم على المؤمنين القائمين حتى مطلع الفجر.

٥ - قيام ليلة القدر مغفرة للذنوب.

النزول: ثمَّة خلافٌ بين كونها مكية، أو مدنية. قال ابن عاشور: «وكونها مدنية هو الأظهر لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب». (التحرير والتنوير ١٢/ ٤٦٧، وانظر: تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠٥، والإتقان ١/ ٧٩).

المقاصد:

١ - تقرير الرسالة النبوية.

٢ - تقرير البعث بثواب المؤمنين وعقاب كفرة أهل الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾

التفسير:

١ - ما كان الكفار من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - وعَبَدَةِ الأوثان، تاركين ما هم عليه من الاعتقادات المحرَّفة والمناقضة لتوحيد الله الخالص، ومنتهين عنها، حتى يأتيَهم ما يَبِينُ به الحقُّ في كل شيء، فكانوا ينتظرون بعثة هذا النبي الكريم، ويقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لا نترك ديننا حتى يُبْعَثَ النبيُّ الموعود.

٢-٣- إنَّ هذه البيِّنة هي بعثة رسول الله ﷺ، الذي يقرأ صحفاً مُنَقَّاة منزهة عن الباطل ورذائل الأخلاق. وفي هذه الصحف أحكام قيِّمة أنزلها الله ﷻ، وتشتمل على التوحيد والأخلاق.

٤ - فإذا كان هؤلاء الكفار قرروا ألا يتركوا عقائدهم حتى تأتيهم البيِّنة، فها هي البيِّنة قد جاءتهم، ولكنهم اختلفوا وتَفَرَّقوا، فمنهم مَنْ آمن، ومنهم مَنْ بقي على كفره. وما فرَّقهم عن الحقِّ إلا مجيء الرسول ﷺ. قال أبو السعود: «الآية مسوقة لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جناياتهم ببيان أنَّ تَفَرُّقَهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتَبَيُّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية». (تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٧).

٥- إنَّ هؤلاء أمرهم ربُّهم أن يعبدوه، قاصدين بعبادتهم وجهه، مائلين عن الأديان كلها إلى الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم دين الحنيفية السمحة، ملتزمين بما اشتملت عليه شريعة التوحيد والإخلاص لله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك هو دين الإسلام، دين الملة المستقيمة والبُعْدُ عن الزيغ.

٦- تَبَيَّنَ موقف هؤلاء المشركين، وإصرارهم على هواهم، على الرغم من تحقق ما كانوا ينتظرونه مما نصَّت عليه كتبهم، وما كانوا عليه من فساد عقائدهم. إنَّهم بهذا الموقف سيكون مصيرهم وقودَ نار جهنم خالدين في دَرَكاتها، وهم شرُّ الخلائق عند الله، ولن يكون منهم إلا كل شرٍ وأذى بالمؤمنين، وإنما كانوا كذلك؛ لأنَّهم ضَلُّوا بعد تَلَبُّسِهم بأسباب الهدى، فأما أهل الكتاب فلِعُدُولهم عن أصل كتبهم قبل تحريفها، وأما المشركون فلأنَّهم ضَلُّوا عن الحنيفية، وأدخلوا الأصنام فيها.

٧-٨- وفي مقابل هذه الفئة الضالة، فئة أخرى آمنت بهذه البيِّنة الواضحة، وعملت الصالحات التي جاء بها في كتاب الله العزيز، فهذه الفئة هم خير خلق الله ﷻ. إنَّهم استحَقُّوا ثواب الله العظيم وهو جنات إقامة دائمة، ينعمون فيها بنعيم متجدد يرضيهم، وسوف تجري من تحتهم الأنهار، من تحت قصور هذه الجنات وأشجارها، وهم في هذا النعيم لا يَمَسُّهم نَصَبٌ ولا تعب، فيحلُّ عليهم رضوان الله، وهم قد رَضُوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والمكرمات. وذلك الجزاء يستحقه مَنْ خاف الله، وعظَّمه بما يليق به.

الفوائد والاستنباطات:

١- الديانات التي كانت قبل الإسلام تَعَرَّضَتْ للتحريف والتبديل من الذين تعاقبوا عليها، واتبعوا أهواءهم فيها، فكان من قضاء الله وقدره أن يختار الإسلام؛ ليكون الدين الخاتم للبشرية.

٢- قال الفخر الرازي: «فإن قيل: لِمَ ذكر ﴿كَفَرُوا﴾ بلفظ الفعل، و﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهاً على أنَّ أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر؛ لأنَّهم ماتوا مُصَدِّقين بالتوراة والإنجيل، ومُقِرِّين بمبعث محمد ﷺ، ثم إنَّهم كفروا بذلك بعد مَبْعَثِه عليه السلام، بخلاف المشركين، فإنَّهم وُلِدُوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر». (التفسير الكبير للرازي ٣١/ ٤٩).

٣- معيار الخير والشر في منظور الإسلام هو الإيمان، والعمل الصالح الذي يحقق شريعته.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان هول ما يحدث يوم القيامة.

٢ - تقرير البعث ودقة الحساب فيه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - إذا تحرَّكت الأرض تحريكاً شديداً وقت البعث، وذلك جزء من الاضطراب الكونيِّ الكبير الذي يعقبه التوجُّه للوقوف بين يدي الله للحساب.

٢ - وإذا أخرجت الأرض ما في بطنها من طبقات ودفائن ومعادن؛ وذلك من تكرار الانفجارات الهائلة التي أذن الله بها، وكذلك تخرج ما في بطنها من أموات.

٣- وترى هذا الإنسان لا يملك من أمره شيئاً: فيفزع ويُصيبه الذُّهول؛ لأنَّه يرى ما ليس له به عَهْد، فيتساءل ماذا في الأمر؟

٤-٥- في هذا الوقت العصيب الرهيب، إذ زُلْزِلَتِ الأرض، وأَخْرَجَتْ أثقالها، وقال الناس: ما لها؟ يومئذ تُحَدِّث الناس بأهوال أخبارها، ولماذا أخرجت أثقالها؟

٦- يوم إذ يحدث هذا كله يخرج الناس إلى الحشر أصنافاً متفرقين، كل صنف إلى جهةٍ بحسب أعمالهم ومنازلهم، تشبيهاً بانصراف الناس عن الماء بعد الوِرْد. إنَّهم يَصْدُرون ليتلقَّوا جزاء أعمالهم، ويروها رَأْيَ العين.

٧-٨- فمَنْ يعمل أيَّ عمل - مهما كان صغيراً في وزنه أو حجمه - فسوف يلقاه، وهذا في جانب الخير والشر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يُقَدِّر الله يوم البعث أحداثاً كونية كبرى تؤذن بانقلاب هائل في عالي الأرض وسافلها.

٢ - ثبت علمياً أن البراكين الكبيرة تسبقها دائماً زلازل كثيرة في عددها، وهذا يؤكد ما قرره القرآن من أن الأرض تُخرج أثقالها بعد حدوث زلزالها. (مجلة الإعجاز العلمي: ص١٠، العدد (٣٣)، جمادى الآخرة، ١٤٣٠هـ).

٣- جرى الأسلوب في الآيتين (٧-٨) على الإطناب؛ لتكون كلُّ جملةٍ مستقلةَ الدلالة على المراد؛ لتختصَّ كل جملة بغرضها من الترغيب والترهيب.

النزول: مكية.

المقاصد:

١- فضل الخيل والفروسية.

٢- إحصاء أعمال الإنسان، والحساب عليها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا (١) فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا (٢) فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا (٣) فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا (٤) فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا (٥) إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ (٧) وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ (١١)﴾

التفسير:

١-٥- يُقْسِمُ الله تعالى بثلاثة أقسام: بالخيل المُسرعة وهي تحمحم بصوتها من شدَّة الجري، فالخيلِ التي تُخرج شرر النار بوَقْعِ حافرها على الحجارة، فالخيلِ التي تُغير على العدوِّ صباحاً فتثير الغُبار من شدَّة سرعتها في مواقع العدوِّ، فتتوسَّط بفرسانها جَمْعَ الأعداء، فأصبحوا وسط ميدان المعركة.

٦-٨- يُقسم سبحانه تعالى بذلك على أنَّ الإنسان جَحُودٌ بنِعَمِ ربِّه التي لا تُحصى، وأنَّه على ذلك الجُحود معترف أمام نفسه بذنوبه في يوم الحساب، وإنَّه لحبِّه المال لَحريص جدّاً.

٩-١١- أجَهِلَ عاقبة أمره فلا يدري هذا الإنسان إذا أُثير ما في القبور، فأُخْرِجَ منها الموتى للحساب، وأُحْصِيَ ما في صدور الخلائق ممَّا كانوا يُسِرُّونه، أفلا يعلمُ هذا الإنسان أن الله عليم بجميع ما كانوا يصنعونه، وهو مُجازيهم عليه أوفر الجزاء؟

الفوائد والاستنباطات:

١- يُقْسِمُ الله بالخيل العادية إعلاءً لشأنها، ولاسيما إذا كانت للجهاد .

٢- لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.

٣- قال الخبراء: إن الخيول تتمتع بنظام تشريحي غير عادي في قاع الجمجمة، يعمل على تبريد الدماء التي تصل إلى المخ. فالحيوانات الرياضية كالخيول يجب أن تظلَّ درجة حرارة رؤوسها أقل من أربعين

درجة مئوية خلال التدريبات العنيفة، وإلا تعرضت إلى تَلَفٍ في المخ، ويؤكد العلماء أنه لولا هذا النظام للتبريد في رؤوس الخيول، لما استطاعت العدو السريع.

(http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-22-19-30/1169-2013-04-07-20-54-31)

ومن هنا يتجلى التناسب العلمي العظيم بين هذه الآيات الكريمة.

٤- في الآية (١٠) قال أهل اللغة: الحاصل من كلِّ شيء ما بقي وثبت، وذهب ما سواه. والتحصيل تمييز ما يحصل، والاسم الحصيلة. قال الشاعر:

وكلُّ امرئ يوماً سيعلم سَعْيَه   إذا حُصِّلَتْ عند الإله الحصائل

٥- إذا انسلخ الإنسان من قيم الإيمان ارتكس في حمأة الهوى والشح.

النزول: مكية بالاتفاق.

المقاصد:

إثبات وقوع البعث، وما يصاحبه من أهوال في الكون ثم الحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

١-٣- القيامة تقرع القلوب بأهوالها. وأيُّ شيء أعلمك أيها الرسول بحقيقة شدائدها؟

٤-٥- في هذا اليوم العصيب يكون الناس في موقف مهيب، فهم كالفَراش المنتشر المتفرق على وجه الأرض، يخرجون من قبورهم المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك في ضعفهم وحَيْرَتِهم وسَيْرِهم على غير هدى، وخروجهم في وقت واحد، أمَّا الجبال العظيمة الراسية فسوف تكون كالصوف المبعثر المتفرق الأجزاء الذي يتطاير؛ وذلك لأنَّ الجبال تندكُّ بالزلازل ونحوها، فتتفرق أجزاؤها.

٦- ٧- ويكون الناس صنفين: الأول هو الذي رَجَحَتْ حسناته على سيئاته، والثاني هو الذي رَجَحَتْ سيئاته على حسناته، أو ليس له حسنة كالكافر، فالفريق الأول سوف يكون في حياة طيبة ليس فيها نَكَدٌ وتعب.

٨-١١- وأما الفريق الآخر فهو الشقيُّ السيئ الحال، فليس له مأوى ومآل إلا النار، والأم عادة هي مأوى الولد ومفزعه، أتدري ما المصيرُ الذي ينتظره؟ إنَّ هذا لشيء عظيم، إنها نار دائمة الإيقاد الحامي، فهي بذلك تختلف عن نار الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١- الهاء في ﴿هِيَهْ﴾ في الآية (١٠) هاء السكت، تُجْلَبُ لأجل تخفيف اللفظ عند الوقف عليه.

٢- في الحديث عن الفريقين لون من المحسنات البديعية يسمى الاحتباك، وهو أن يُحْذَفَ من كل نظير ما أثبته في الآخر، حَذَفَ من الأول (فأمه الجنة)، وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، وحذف من الآية الثانية: فهو في عيشة شقية، وذكر ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾، فحذف من كلٍّ نظير ما أثبته في الآخر.

٣- أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ قال: «من أسماء يوم القيامة، عَظَّمه الله، وحَذَّره عباده». (تفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٢، التفسير الصحيح ٤/ ٦٦٤).

النزول: مدنية. وقيل: إنَّها مكية. والراجح أنَّها مدنية؛ لما ثبت عن أُبي بن كعب أنه قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. (أخرجه البخاري، في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال ٧/ ١٧٥. (فتح الباري ١١/ ٢٧٥). قال ابن العربي: «وهذا نص صحيح مليح»، أحكام القرآن ٤/ ٤٤٢، ورجحه السيوطي، الإتقان ١/ ٨٠).

المقاصد:

١- العبرة والموعظة من التهديد والوعيد بمصير الكفار وعقابهم على تَفاخُرِهم بكثرتهم، وكثرة أموالهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٢- يخاطب الله تعالى سادة المشركين: قد شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به، وهو التنافس والتباهي بالمال والجاه والقبيلة، وكثرة المناصب. فهذا التنافس والتباهي من خصال أهل الشرك، وينبغي أن يعلم المسلمون أن التلبُّسَ بهذا الخُلُقِ مذموم عند الله، وقد مَضَيْتُم على هذا التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي: إلى أن متُّم، فالإنسان مجبول على التكاثر إلى أن يموت.

٣-٤- يأتي الزجر والردع عمَّا هم عليه، وسوف تعلمون أمْرَكم إذا رَجَعْتُمْ إلى الآخرة، وأنَّ هذا التكاثر لا ينفعكم، والجملة الثانية زيادةٌ في الزجر والتهديد، فهو وعيد إثر وعيد.

٥- حقاً لو تعلمون عِلْمَ اليقين لَعَرَفْتُم أنَّكم في ضلال، ولَمَّا ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله؛ لأنَّكم غافلون.

٦- ٧- قسماً مؤكداً أنَّكم ستشاهدون الجحيم عِياناً. قال الألوسي: «هذا جواب قسم مضمر أكَّدَ به الوعيد، وشَدَّد به التهديد، وأوضح به ما أُنْذِرُوه بعد إبهامه تفخيماً». (تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٢٥).

٨- وفي ذلك الموقف العظيم والله لتُسألُنَّ عن النعيم، وهذا يشمل المؤمن والكافر، فالكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع، فلم يُؤَدِّ حقَّ النعمة، فقد أشركوا بالله، واستحقوا أن يُسألوا عمَّا أنعم عليهم توبيخاً لأنَّهم ضَيَّعُوا النعمة. والمؤمن يُسأل إظهاراً للمِنَّةِ عليه، وإذا كان قد قام بشكره فلا عُتْبَ عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- عن أبي هريرة ﷺ في حديث الجوع الذي أخرج أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم دخلوا بيت الأنصاري وقد ذبح لهم شاة، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العِذْق، وشربوا. فلما شبعوا وروووا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِه لتسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». (صحيح مسلم، كتاب الأشربة برقم ٢٠٣٨، ٣/ ١٦٠٩)

٢- يظل حال الناس على هذا الانشغال والتنافس فيما بينهم حتى يُلاقوا الموت.

٣- العلم مراتب، أعلاها عين اليقين.

٤- جديرٌ بالمسلم أن يكون تَنَعُّمُه في هذه الحياة وَفْقَ الضوابط الشرعية.

٥- ذمُّ التنافس والانشغال بالدنيا عن العمل للآخرة.

النزول: مكية. وقيل: إنها مدنية، والراجح أنها مكية.

المقاصد:

١- بشرى للمؤمنين العاملين الصابرين.

٢- دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

التفسير:

١-٣- أقسم الله تعالى بالوقت الذي هو ما بين آخرِ وقت الظهر واصفرار الشمس، ويعني الزمان لما يقع فيه من اختلاف الأحوال والمشاهدات، وهو الزمان الذي يعيشه الخَلْقُ، ثم يأتي جواب القسم: إنَّ الإنسان في خسارة بسوء العاقبة في الآخرة، ويُستثنى من ذلك كلُّ مَنْ آمن، وعمل الأعمال الصالحة، وهي التي أمروا بعملها، وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق، وهذا من عمل الصالحات، وقد عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به. فمن العمل المأمور به إرشادُ المسلم غيرَه إلى الحق، ويشمل التواصي بالحق تعليم حقائق الهدى. والصبر هو مَنْعُ المرءِ نفسَه من تحصيل ما يشتهيه، وهو مِلاكُ فضائلِ الأخلاق.

الفوائد والاستنباطات:

١- أهمية الزمان في فوز الإنسان.

٢- أتى بقوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ليكون أبلغَ من قوله: لَخاسر؛ وذلك أنَّ «في» للظرفية، فكأنَّ الإنسان منغمسٌ في الخُسْرِ، والخُسْرانُ محيطٌ به.

٣- جاء الخبر مؤكَّداً بالقسم وحرف التوكيد؛ ليفيدَ الإنذار بالحالة المحيطة بالناس، وجاء ﴿خُسْرٍ﴾ مُنكَّراً؛ ليفيدَ تنويعَ خُسْرانِه وتعميمه وتهويله.

٤- تضمنت هذه السورة الكريمة مع صغرها صفات النفس الناجية يوم القيامة وهي: الإيمان بالله، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر. فعلى المؤمن أن يتعاهد نفسه فيها. ذكر الشيخ محمد العثيمين قول الشافعي: «لو لم يُنْزِلِ اللهُ على عباده حُجَّةً إلا هذه السورة لكفتهم». وقال: «يعني كَفَتْهم

موعظةً، وحَثّاً على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله والصبر على ذلك. وليس مرادُه أنَّ هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كَفَتْهم موعظةً، فكل إنسان عاقل إذا عرف أنَّه في خسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنَّه سوف يحاول بقَدْرِ ما يستطيع أن يتصف بهذه الصفات الأربع، وإلى تخليص نفسه من الخسران». (تفسير جزء عم ص ٣١٧).

النزول: مكية.

المقاصد:

الوعيد لِـمَنْ ينتقص من كرامة الإنسان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

١ - يتوعَّد الله سبحانه بالهلاك لِـمَنْ يقوم بإيذاء المسلمين بفعله وقوله، وذلك بأن يسخر منهم ويعيبهم، ويؤذيهم بلسانه. وقيل: إنَّ الهمّاز هو المغتاب، واللمّاز هو الذي ينال الآخرين بالحاجب والعين.

٢ - وهذا الذي دأب على هذا الأذى قام بجمع المال، وأكثر من هذا الجمع، ومضى يُعَدِّد موارده منه، فصار أكبرُ هَمِّه أن يجد أمواله في نماء.

٣- ويظن هذا الإنسان أنَّ ماله سيجعله خالداً باقياً في هذه الدنيا، ويُطيل عمره.

٤ - إنَّ هذا الإنسان لَجدير أن يُرْدَع عن عمله واعتقاده. إنَّه لم يقم بما أوجب الله عليه من البذل وتوجيه المال نحو الخير، إنَّه لَيُطْرَحَنَّ طَرْحاً في جهنم التي تُفَتِّتُ مَنْ يقع فيها، وتُكَسِّره.

٥ - وأيُّ شيء أعلمك عن حقيقة هذه النار العظيمة التي تُحَطِّم كلَّ مَنْ وقع فيها؟

٦ - إنَّها نار الله المسَعَّرة التي لا تخمد أبداً، وأضافها سبحانه إلى نفسه؛ لأنَّه يُعَذِّب بها، ولا يعذِّب عذابه أحد، وهو عذاب عدل، وكان عذابُهم على وزن فِعْلِهم، فهم هُمَزَةٌ لُمزة، وهي حُطَمة؛ ليكون الجزاء مطابقاً للعمل حتى في اللفظ.

٧- وهذه النار يصل أثرها وإحراقها إلى القلوب من شدة حرارتها، مع أنَّ القلوب مكنونة في الصدور يفصلها عن الجلد طبقات.

٨-٩- ويصطلي بها هذا اللمّاز، الجمّاعُ للمال، المنّاع للخير، وهي مغلقة الأبواب مطبقة، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان،و لا يُرجى لهم فرج؛ لأنّهم يركسون فيها، وهم موثوقون في سلاسل وأغلال مطولة؛ وقد أطبقت عليهم الأبواب ثم شُدَّت بأوتاد، فلا يُفتح عليهم باب.

الفوائد والاستنباطات:

١- من أخلاق الكافرين الهمز واللمز، أما المؤمنون فلا يليق بهم ذلك.

٢- تحريم الهَمْزِ واللَّمْزِ واغتياب الناس، والتنقُّص منهم أو إيذائهم.

٣- ذَمُّ مَنْ يشتغل بجَمْعِ الثروة، ولا ينفقها في سبيل الله.

٤- التفاضل بين الناس بقيم الإيمان لا بجمع الأموال وكثرتها.

٥- قال الطبري في الآية (٢): «أي: أحصى عدده، ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يُؤَدِّ حقَّ الله فيه، ولكنه جمعه، فأوعاه وحفظه». (تفسير الطبري ٣٠/ ١٨٩).

٦- التهديد والوعيد لِـمَنْ يَغْتَرُّ بماله، فيَصُدُّه عن طاعة الله.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان عظمة الكعبة وقدسيتها، وحماية الله تعالى لها.

٢ - تثبيت النبي ﷺ بأنَّ الله يدفع عنه كيد قريش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - يُذَكِّر الله تعالى رسوله ﷺ وأُمته بقصة أصحاب الفيل المشهورة بقيادة أبرهة الحبشي وجيشه المعزز بالفيلة، حينما توجه من اليمن إلى مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة: قد علمت - أيها الرسول الأمين عِلْمَ اليقين - ذلك الدمارَ الذي عاقب به الله تعالى ذلك الجيش.

٢ - ألم يُصَيِّر الله ما دبَّروه من شر ومكر في تضييعٍ وإبطال وخسران.

٣ - وأرسل على جيش أبرهةَ طيراً في جماعات إثر بعض متتابعة.

٤ - تقذفهم الطير بحجارة من طين متحجر صلب، فأصبحوا كأوراق الشجر اليابسة التي رَعَتْها البهائم، ووَطِئَتْه بأقدامها حتى تَفَتَّتْ، فأهلكتهم. وأخرج الطبري عن قتادة: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ هو التِّبْنُ. (تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٤، التفسير الصحيح ٤/ ٦٧٠).

الفوائد والاستنباطات:

١ - إذا عَجَزَتْ أسباب البشر عن نصرة دين الله فإنَّ أسباب الله لا تعجز عن ذلك.

٢ - كل مَنْ أراد شعائر الله بسوء فإنَّ الله تعالى يجعل كيده في نحره.

٣ - لم يستطع العرب أن يفعلوا شيئا لنصرة البيت الحرام؛ لتفرُّقهم من ناحية، ولضخامة جيش الأحباش، ولوجود الفيلة معهم من ناحية أخرى.

٤ - الله تعالى غالب على أمره، ولا يُعجزه أحد.

٥ - إنَّ لله جنوداً يُسَخِّرهم حيث أراد، ولا أحد يعلم حقيقتهم إلا هو سبحانه.

النزول: مكية.

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾

التفسير:

١-٢- يَمْتَنُّ الله تعالى على قبيلة قريش، وما خَصَّها به من الأمن والتجارة التي اعتادوا عليها إلى اليمن والشام، فيَحْظَون بخيرات الصيف والشتاء التي ينبغي أن يشكروا الله تعالى عليها: اعجبوا لعادة قريش التي اعتادوها في رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وما فيهما من النعم والإكرام.

٣-٤- فليُخْلِصُوا العبادةَ لربِّ المسجد الحرام، الذي رزقهم من الخيرات وبهيمة الأنعام، وآمَنَهم من الخوف والتَّعَدِّي على ممتلكاتهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- اختيار الله ﷻ نعمتَي الأمن الغذائي والأمن الفكري، وامتنانه على قريش بهما، دليل أهميتهما في أيِّ مجتمع.

٢- إنَّ مُسْدِيَ النِّعَمِ على الإنسان هو الله؛ لأنَّه إمَّا أن يَهَبَها له على نحوٍ مباشر كالغيث، أو يُيَسِّرَ له الأسباب لتغدوَ في متناول يده.

٣- البيت الحرام معظَّمٌ قبل الإسلام، وزاد تعظيمُه بعد الإسلام، وطَهَّره اللهُ.

٤- وجوب شُكْرِ الله على نِعَمِه، ولا يكون هذا الشكرُ إلا بحمد الـمُنْعِم، وعبادته وطاعته.

النزول: مكية في قول الأكثرين، وقيل: مدنية. وفي الإتقان من أولها إلى قوله:﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ مكية، والباقي مدنية. (١/ ١٠٥).

المقاصد:

١ - تقرير البعث والحساب.

٢ - تقرير العبودية لله تعالى وحده.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١ -٣- يَذُمُّ الله تعالى الذين يُفَرِّطون في حقِّ الله وحقِّ عباده المُحتاجين، فيخاطب رسوله الأمين وأُمته: أعرفت الذي يجحد بالحساب في الآخرة؟ فذلك المُكَذِّب بالحساب يوم القيامة هو البعيد عن كلِّ حقٍّ الذي يظلم ويزجر اليتيم - الذي مات أبوه ولم يبلغ سِنَّ الرشدِ - زجراً عنيفاً، ولا يَحُثُّ غيره على إطعام المُحتاجين الذين أسكنتهم الحاجة.

٤ -٧- وبما أنَّ المُحافظة على الصلاة تُعالج هذه الآفات المُتقدِّمة لأنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمُنكر، فقد تَوَعَّد الله تعالى بالهلاك والعقاب المُصَلِّين، الذين يتشاغلون عن أداء الصلاة في وقتها وبشروطها، الذين يتظاهرون بأعمالهم وصلاتهم ليراهم الناس، وهذا من خصال المُنافقين. وتَوَعَّد أيضاً بالعقاب الذين لا يُعطون الزكاةَ مُسْتَحِقِّيها، ويمنعون إعارة الأشياء التي لا تَضُرُّ مُعِيرَها بشيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - من علامات الذي يُكَذِّب بالدين قسوةُ القلب على المستضعفين.

٢ - قد يسهو المصلي في صلاته، فيجبر السهوَ، ولكنَّه لا يسهو عنها، فلا يُؤَخِّرها عن وقتها، ولا يتساهل في إقامة أركانها.

٣ - ذَمُّ الله تعالى مَنْ يمنعُ الخير عن الناس، ويُظهر شُحّاً في بَذْلِه.

٤- حرص الإسلام على رعاية الفئات الضعيفة كالأيتام والمحتاجين.

٥- تأكيد أهمية المحافظة على الصلاة.

٦- التحذير من الرياء.

٧- التحذير من الوقوع في خصال الكفار المذكورين في السورة.

النزول: مكية عند الجمهور، وعن الحسن وآخرين أنها مدنية. (تفسير القرطبي ٢٢/ ٥١٩).

المقاصد:

رعاية الله تعالى لرسوله ﷺ وبشارته أنه أُعطي الخير العميم في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

التفسير:

١-٣- إنَّا - لِما لنا من العظمة الكاملة والقُدرة الشاملة - أغْدَقْنا عليك - أيها الرسول - الخير الكثير في الدارَين، ونهراً في الجنَّة يتميَّز بخيام اللؤلؤ المُجوَّف، وعلى حافتيه العِطر من المسك، فواظِبْ على صلاتك، وأخلِصِ العبادةَ لله تعالى، شكراً له، واذبح البهيمة مُسَمِّياً بالله سبحانه وحده، وشُكراً له وحده. إنَّ عدوَّك الذي يبغضك هو المنقطع عن كلِّ خير.

الفوائد والاستنباطات:

١- إضافة «ربّ» إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبيِّ ﷺ وتقريبه.

٢- عطاء الله للنبيِّ ﷺ لا حَدَّ له.

٣- شُكرُ الله على نِعَمِه بالصلاة.

٤- ما انفكَّ أعداءُ الدعوة في كلِّ زمان يثيرون الأوصاف المناوئة للدعوة ورجالها.

٥- في الحديث الذي رواه مسلم: «أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنَّه نهرٌ وَعَدَنِيه ربي ﷻ، فيه خيرٌ كثير». (صحيح مسلم، كتاب الصلاة، برقم ٤٠٠، ١/ ٣٠٠).

النزول: مكية، وقيل: مدنية. (انظر: تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٣٣).

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية لله تعالى وحده.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١-٢- يأمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يقولَ ويُعلن للكفَّار الذين يَدْعونه إلى عبادة الأوثان: لا أعبد الذي تعبدون من دون الله.

٣- ولا أنتم - يا أيُّها المشركون - عابدون اللهَ تعالى الذي أعبده.

٤- ولا أنا عابد مثل عبادتكم في الحال والاستقبال.

٥- ولستم أنتم بعابدين الله تعالى الذي أعبده.

٦- لكم دينكم وهو الشِّرْكُ الذي أنتم عليه، ولي ديني الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لي.

الفوائد والاستنباطات:

١- جيءَ بـ(ما) الموصولة في قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ على كثرة استعمال (ما) لغير العاقل لقصد الإبهام لتفيد التفخيم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾. [الشمس: ٥].

٢- دين الله لا يقبل التنازل عن شيء ممَّا جاء به.

٣- صلابة موقف الداعية إلى الله في مواجهة ما يَمَسُّ عقائد الدين.

٤- نفى أن يَعْبُدَ آلهتهم بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت، وتقدَّمت بالجملة الفعلية، لأنَّ المقام يقتضي مزيد بيان وإطناب لتأييسهم ممَّا راودوه عليه، وجيء بالفعل الماضي في قوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾ للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مَضَتْ.

٥- التكرار في هذه السورة لتأكيد نفي طلبهم عبادةَ رسولِ الله ﷺ لأصنامهم؛ لأنَّ من معاني التكرار التأكيد.

النزول: مدنية بالاتفاق.

المقاصد:

الوعد بالنصر الكامل من عند الله، والبشارة بدخول الناس في الإسلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾

التفسير:

١ - إذا حَصَلَتْ - يا محمد - الغلبة على العدو بنصر عزيز مبين، وأعانك الله على فتح مكة، وقد وعدك الله بذلك غير مرة، وكان المسلمون يرجونه، ويَتَوَقَّعونه.

٢ - وعَقِبَ هذا الفتحِ المبين سوف يُعْلِنُ كثير من الناس دخولهم في دين الإسلام جماعات إثر جماعات، وسوف ترى هذا بأُمِّ عينيك.

٣- فإذا حَصَلَتْ هذه البشرى، وحصل النصر والفتح المبين، ودخول الناس في دين الله، فنَزِّهِ اللهَ عن كلِّ ما لا يليق به، واحْمَدْه يا محمد حَمْدَ إقرار بهذا الامتنان على هذا الفضل، واستَغْفِرِ اللهَ على كلِّ تقصير؛ لتتهيأ للقاء الله، وانتهاء أعمال الطاعات والقُرُبات التي تزيد من رَفْعِ الدرجات، فلم يبق إلا أن يسأل ربه التجاوُزَ عمّا يعرض له. إنَّ الله كان كثير التوب والغفران لعباده.

الفوائد والاستنباطات:

١ - النصر وعدُ الله لهذا الدين ولهذه الأُمة.

٢- الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه دليلٌ ظاهر على صِدْقِ نبوته ﷺ؛ لأنَّ هذا من الإخبار بغيب المستقبل.

٣- ينبغي أن يقابَلَ النصرُ بالشكر.

٤ - استنبط بعض الصحابة من هذه السورة بأنَّها تَضَمَّنَتْ نَعْيَ النبيِّ ﷺ، وقُرْبَ أجله.

النزول: مكية بالاتفاق.

المقاصد:

تسلية الله تعالى لرسوله ﷺ بوعيد أبي لهب وامرأته، وزجرهما.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جَرَّبْنا عليك كذباً. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تَبّاً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٦٠٩-٦١٠ - كتاب التفسير- سورة المسد برقم٤٩٧١، وصحيح مسلم ١/ ١٩٣-١٩٤ برقم ٢٠٨ - كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾).

التفسير:

١- يَذُمُّ الله تعالى المُضِلَّ الذي آذى رسولَ الله ﷺ: هلكت يدا أبي لهب (عبد العُزَّى بن عبد المطلب)، وهلك أبو لهب معهما بإيذائه رسول الله ﷺ.

٢- ما أفاده مالُه وما دفع عنه عذاب الله، وما نفعه جاهُه ولا أولاده.

٣-٤- سيدخل نار جهنَّم ذاتِ التوقُّدِ المحرقة، هو وامرأته (أُم جميل أخت أبي سفيان) التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس للإفساد، وكانت تحمل الشوك، فتنثره في طريق النبيِّ ﷺ لإيذائه.

٥- في عنق هذه المرأة حبل غليظ والليف الصُّلْب تُرْبَطُ به، وتُعَذَّب به في النار.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير إهلاك الله للظلمة المكذبين لآياته ورسوله ﷺ.

٢ - يلقى الداعية من المعوقات وضروب الأذى القدر الكبير، وله في رسول الله أسوة حسنة في الصبر عليها ومواجهتها.

٣- هذه السورة من الإخبار بغيب المستقبل، فقد مات أبو لهب وزوجته على الكفر، وهذا من إعجاز القرآن.

٤ - قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على الضمير المستتر في ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾، و﴿حَمَّالَةَ﴾ مفعول به على الذمِّ، أي: أخصُّ بالذمِّ حمالة.

٥- إن المال والولد لا يُغْنيان عن العبد شيئاً يوم القيامة.

٦- لم ينفع عَمَّ النبي ﷺ عمومته له ، فقد كان أعدى الأعداء، وغداً سيكون في أشد العذاب.

٧- بيان عُلوِّ قَدْر النبي ﷺ.

٣- في السورة رَدٌّ على المشركين الذين اعتقدوا أن الملائكة بنات الله، ورَدٌّ على الذين قالوا: عيسى ابن الله.

النزول: مكية، وقيل: مدنية. والراجح ما ثبت عن أُبي بن كعب ﷺ أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٤٥١-٤٥٢ برقم ٣٣٦٤- كتاب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص، وابن خزيمة (التوحيد ١/ ٩٥ برقم١١ -٤٥)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٣/ ٣٥٦). وحَسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم٢٦٨٠).

فضل السورة:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشَقَّ عليهم ذلك، وقالوا: أيُّنا يُطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن». (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيه عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ، برقم ٥٠١٥).

المقاصد:

١ - إثبات توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

٢ - الردُّ على كل مَنْ نسب إلى الله تعالى الولد والبنات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

سبب النزول: تقدَّم في نزولها المكي.

التفسير:

١-٤- يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يقول قولاً جازماً حاسماً للمشركين الذين قالوا: انسب لنا ربك، فعَلَّمَه أن يردَّ عليهم: إنَّ ربِّي هو الله المستحق وحده أن يُعبد، لا يشاركه في عبادته أحد، وهو سبحانه الذي كمل في سؤدده وشرفه، لم يلد، ولم يتخذ ولداً ولم يكن له مثيلاً ولا مساوياً لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الله واحد في صفاته وأفعاله ليس كمثله شيء.

٢ - تأكيدُ تنزيهِ الله ﷻ، فهو جامعٌ لصفاتِ الكمال، الغنيُّ عن كلِّ ما سواه.

النزول: هي في قول الأكثرين مكية، وقيل: مدنية. (انظر: القرطبي ٢٢/ ٥٦٧).

فضل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أن النبيَّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلةٍ جَمَعَ كَفَّيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

(صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، برقم ٥٠١٧).

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ -٢- يخاطب الله ﷻ نبيَّه، وأُمته كذلك، بالاستعانة به: ألجأُ إلى فالقِ الصبح؛ منجاةً من شرور الليل، فالله هو الذي خلق الصبح الذي كشف الليل.

٣- ألجأُ إلى الله من شرِّ الليل إذا اشتدَّتْ ظلمته. وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ يُراد به العموم، وقوله:﴿وَقَبَ﴾ أي: غمر، وتغلغل ظلامُه في كلِّ شيء، وهو وقت يَتَحَيَّنه أصحاب الشر والغدر لتحصيل المكروه الذي ينشدونه.

٤ - ألتجئ إلى الله من شرِّ الساحرات اللواتي ينفخنَ في الشيء مع تحريك اللسان، ويفعله السحرة إذا وضعوا سِحْرهم في شيء، وعقدوا عليه عُقَداً، ثم نفثوا عليها. ويزعم السحرة أنَّ السحر يستمرُّ ما دامت تلك العُقَدُ معقودةً؛ ولذلك يخافون مِنْ حَلِّها، فيدفنونها في مكان لا يُهتدى إليه.

٥ - ألتجئ إلى الله من شرِّ الحاسد إذا حسد، وهو أن يتمنَّى الحاسد زوال نعمةٍ في الآخرين لأجل الغيرة، وهو خلاف الغبطة؛ إذ يتمنَّى المرء أن يكونَ له من الخير مثلُ مَنْ تروقهم حاله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يَحْسُنُ بالمسلم أن يلتجئ إلى الله؛ ليحفظه من الشرور وأصحابها.

٢ - في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة ما تفعله السَّاحرات اللاتي ينفخنَ فيما يعقدنَ من عقد هو السحر.

٣ - في الآية (٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة حسد الحاسد المبغض للناس على ما وهبهم الله من نِعَمٍ هو زوال النعم عنهم.

٤ - الحسد مرض خطير، ومعصيه لله عظيمة.

٥ - السِّحْرُ مدخل من مداخل الكفر، وكبيرة من كبائر الذنوب.

النزول: مكية، وقيل: مدنية على حسب الخلاف في سورة الفلق. (انظر: القرطبي ٢٢/ ٥٦٦).

فضل السورة: تَقَدَّم ذكره في فضل سورة الفلق.

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١-٣- يخاطب اللهُ النبيَّ ﷺ وأُمَّته للالتجاء إلى الله والاعتصام به من شرِّ ما يلقيه الشيطان في قلوب الناس، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، والله هو الملك الحق الغنيُّ عن الخَلْقِ، المستحقُّ للعبادة الذي لا معبود بحقٍّ سواه.

٤- وهذا الالتجاء إلى الله حاصل من أذى الشيطان الذي يتحدَّث بالكلام الخفي عند الغفلة، وما يخطر بنفس المرء من الخواطر الشريرة والمتوهمة، ويشمل الوسواسُ كلَّ ما يتكلَّم كلاماً خفياً من الناس، وهم أصحاب المكايد الذين يريدون إلحاق الأذى بالآخرين، ويُغْرُون الناس بذلك، وهذا الشيطان الذي يُتَعَوَّذُ منه يختفي ويتوارى عند ذكر الله.

٥- وهو الذي يبثُّ الأذى والشك في صدور الناس؛ ليَثْنِيَهُم عن عقائدهم الراسخة.

٦- وأنا أعتصم بالله من شرِّ الجنِّ، وشرِّ الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١- لبيان فضل الناس، كَررت السورة ذِكْرَهم خمس مرات، وخُتمت بهم كلمات الكتاب.

٢- لا يستغني الإنسان عن مصدر للقوة وللعزة يلجأ إليها دائماً، وليس له إلا الله تعالى.

٣- قال ابن كثير: «هذه ثلاث صفات من صفات الربِّ ﷻ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له ومملوكة، عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوَّذ بالمتصف بهذه الصفات». (تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧٤٩).

٤- في الآيتين (٥-٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة أذى شياطين الجنِّ والإنس الذين يوسوسون في صدور النَّاس عند الغفلة أنَّهم يبثُّون الشرَّ والشكوك.

أهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم – طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة.
- آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل، مكتبة الأنجلو المصرية.
- أبحاث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة الكويت ١٤٢٧هـ .
- أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة دبي ١٤٢٥ هـ.
- أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ .
- أبحاث مؤتمر كليَّة الشريعة السابع إعجاز القرآن الكريم- جامعة الزرقاء الأهليَّة- الأردن، ٢٠٠٥م.
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق عبدالعزيز الرشودي – رسالة ماجستير كلية الحديث – الجامعة الإسلامية.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ت ٩١١هـ، مطبعة الحلبي، القاهرة ط٤، سنة ١٣٩٨هـ.
- أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعارف، بيروت.
- أحكام القرآن للجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير، د. محمد علي البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- أسرار الكون بين العلم والقرآن: عبد الدائم الكحيل: ط١، ٢٠٠٦م .
- أسماء سور القرآن الكريم، د. محمد الشايع، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٢هـ.
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: السيد عبد الستار المليجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٥م .
- أضواء البيان، للشيخ محمد الشنقيطي، طبع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض، ١٤٠٣ هـ.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: منهج التدريس الجامعي، الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح والدكتور عبد الجواد الصاوي ، دار جياد للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨م.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة : نايف منير فارس، دار ابن حزم ، ط١، ٢٠٠٦م.
- إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران: يحي وزيري، عالم الكتب ، ٢٠٠٨م.
- الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم د.سليمان عمر غوش، دار الثقافة، ١٩٩٥م.
- الأنوار الساطعات لآيات جامعات للشيخ عَبدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ السّلمانِ رحمه الله، طبعة الرياض.
- أنوار التنزيل، البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- إيجاز البيان في سور القرآن، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، مكة المكرمة.
- أيسر التفاسير، أبي بكر الجزائري، بدون ذكر الطبعة.

- بيان إعجاز القرآن للخطابي.
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، طبعة مؤسسة التاريخ، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزيء، دار الفكر، بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، لابن ابي حاتم الرازي ت ٣٣٧هـ عشرة رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعة أم القرى، مكتوبة على الآلة الكاتبة، وطبع منها مجلدان - مكتبة الدار - المدينة المنورة.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت.
- تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت.
- تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه وعلق عليه: إياد القيسي، دار ابن الجوزي.
- التفسير الصحيح، موسوعة التفسير المسبور من التفسير بالمأثور، إعداد أ.د. حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي.
- تفسير القاسمي، المسمى محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي - الدمام.
- تفسير القرآن الكريم لفضيلة الشيخ ابن عثيمين، دار النجاح للكتاب، القاهرة.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت.
- التفسير المنهجي، مجموعة من المفسرين، دار المنهل، ط الأولى، ٢٠٠٤ م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، بيروت.
- التفسير من سنن سعيد بن منصور.
- التفسير الموضوعي، سور القرآن الكريم، إعداد نخبة من المفسرين إشراف د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٣١ هـ.
- التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز، د. وهبة الزحيلي، إحياء التراث العربي، بيروت.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبدالرحمن بن بن ناصر السعدي، طبع وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبعة الرياض.
- الجواب الصحيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ونسخة بتحقيق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر - ونسخة بتحقيق معالي الأستاذ الدكتور عبد الله التركي.
- جامع الرسائل لابن تيمية.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت ٦٧١ هـ طبعة دار إحاء التراث العربي، بيروت.

- داء الإيدز والأمراض التناسلية، تأليف الفاضل العبيد عمر، ط دار النفائس سنة ١٩٩٣م.
- درء تعارض العقل والنقل، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- الدر المصون، السمين الحلبي، تحقيق: د. محمد أحمد الخراط، دار القلم، بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود شكري الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الزهد، لأحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١هـ دار الكتب العلمية، لبنان سنة ١٣٩٨هـ.
- السراج المنير للخطيب الشربيني.
- السلسلة الصحيحة، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- سنن الدرامي، للإمام الدارمي، تحقيق وتخريج وفهرسة فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، نشر دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- السنن الكبرى، للإمام البيهقي ومعه الجوهر النقي، للعلامة المارديني، تحقيق عبد القادر عطا، طبعة دار الفكر.
- سنن الله الكونية: الدكتور محمد أحمد الغمراوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٣٦م.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق طه سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.
- شرح السنة، للإمام البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي ١٣٩٠هـ.
- شعب الإيمان للبيهقي، صورة عن الطبعة الهندية، دائرة المعارف.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢،١٤١٤ هـ.
- صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير - بيروت - ط٣.
- صحيح الجامع الصغير، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ.
- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ.
- صحيح سنن أبي داود باختصار السند، للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- صحيح سنن الترمذي، باختصار السند - للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- صحيح سنن النسائي باختصار السند، للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بشير ياسين، دار المآثر، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط الرابعة، ١٤٣٠هـ.
- صور إعجازية في القرآن الكريم: الدكتور جمال محمد الزكي، الفا للنشر والتوزيع.
- الطب محراب للايمان د. خالص جلبي.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني - ت ٨٥٢ هـ، طبعة دار الفكر - بيروت - نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، لصدّيق حسن خان، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤١٢هـ.
- فتح القدير للإمام الشوكاني، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، ط الثالثة، ١٤٢٦هـ.
- فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، تأليف حمدي بن حمزة الصريصري، ط٤، الرياض ١٤٣٠هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، لأبو الحسن علي بن محمد الخازن بحاشية البغوي، دار الفكر، بيروت.
- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل.
- لباب النقول في أسباب النزول، للإمام السيوطي ت ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٩م.
- مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٨م.
- مجلة الإعجاز العلمي: الأعداد (٢١، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٨)، إصدار الهيئة العالمية لإعجاز القرآن الكريم - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ت ٨٠٧هـ بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، مطبعة دار الكتاب، بيروت، ط٢ ١٩٦٧م.
- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض.
- المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ.
- المختارة، للضياء المقدسي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة، مكة المكرمة.
- مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- مدارك التنزيل للنسفي، دار الفكر، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين، للحافظ الحاكم، وبذيله التلخيص، للحافظ الذهبي صورة عن الطبعة الهندية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق نخبة من العلماء، إشراف معالي د. عبدالله التركي.
- المسند، أبو داود الطيالسي، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند.
- المصنف في الأحاديث والآثار، للإمام ابن أبي شيبة، تحقيق مختار أحمد الندوي، مطبوعات الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى١٤٠١هـ.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت.
- معاني القرآن للزجاج - دار ابن الجوزي - الدمام.

- المعجم الأوسط، للحافظ الطبراني، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- المعجم الكبير، للحافظ الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.
- المقتطف من عيون التفاسير لمصطفى الحصن المنصوري، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- المنظار الهندسي في القرآن: خالد فائق العبيدي، ط١، دار المسيرة - عمان، ٢٠٠٩م.
- المكتفى في الوقف والإبتداء للإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، دار الفكر، بيروت.
- المكي والمدني من السور والآيات، د. محمد الفالح، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
- من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- من روائع الإعجاز في القرآن: الدكتور جمال الدين الفندي، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ.
- منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- موسوعة التفسير الموضوعي.
- موطأ مالك مع شرحه تنوير الحوالك للسيوطي - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
- نظم الدرر، للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود طناحي، المكتبة الإسلامية بمصر.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ.

المواقع الالكترونية:

- موقع الدكتور زغلول النجار /http://www.elnaggarzr.com.
- موقع الدكتور محمد راتب النابلسي /http://nabulsi.com.
- موقع الدكتور نظمي خليل أبو العطا http://www.nazme.net/ar/?p=home.
- موقع المهندس عبد الدائم الكحيل /http://kaheel7.com.
- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة /http://quran-m.com.
- موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة /http://www.eajaz.org.
- موقع اليوتيوب http://www.youtube.com.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الفاتحة	١
تفسير سورة البقرة	٦
تفسير سورة آل عمران	١٣٩
تفسير سورة النساء	١٩٩
تفسير سورة المائدة	٢٧٨
تفسير سورة الأنعام	٣٣٥
تفسير سورة الأعراف	٣٩١
تفسير سورة الأنفال	٤٦١
تفسير سورة التوبة	٤٩٧
تفسير سورة يونس	٥٥١
تفسير سورة هود	٥٨٠
تفسير سورة يوسف	٦١٧
تفسير سورة الرعد	٦٤٩
تفسير سورة إبراهيم	٦٦٥
تفسير سورة الحجر	٦٧٩
تفسير سورة النحل	٦٩٤
تفسير سورة الإسراء	٧٢٥
تفسير سورة الكهف	٣
تفسير سورة مريم	٢٩
تفسير سورة طه	٤٨
تفسير سورة الأنبياء	٧٠
تفسير سورة الحج	٩١
تفسير سورة المؤمنون	١١٢
تفسير سورة النور	١٣٤
تفسير سورة الفرقان	١٦٠
تفسير سورة الشعراء	١٧٤
تفسير سورة النمل	١٩٤
تفسير سورة القصص	٢١٥
تفسير سورة العنكبوت	٢٤٠
تفسير سورة الروم	٢٦٠

تفسير سورة لقمان	٢٧٦
تفسير سورة السجدة	٢٨٧
تفسير سورة الأحزاب	٢٩٥
تفسير سورة سبأ	٣٢١
تفسير سورة فاطر	٣٣٨
تفسير سورة يس	٣٥٢
تفسير سورة الصافات	٣٦٩
تفسير سورة ص	٣٩٢
تفسير سورة الزمر	٤٠٧
تفسير سورة غافر	٤٢٦
تفسير سورة فصلت	٤٤٤
تفسير سورة الشورى	٤٥٦
تفسير سورة الزخرف	٤٧١
تفسير سورة الدخان	٤٨٥
تفسير سورة الجاثية	٤٩٢
تفسير سورة الاحقاف	٥٠٠
تفسير سورة محمد	٥١٢
تفسير سورة الفتح	٥٢٢
تفسير سورة الحجرات	٥٣٣
تفسير سورة ق	٥٤٢
تفسير سورة الذاريات	٤٤٩
تفسير سورة الطور	٥٥٨
تفسير سورة النجم	٥٦٤
تفسير سورة القمر	٥٧١
تفسير سورة الرحمن	٥٧٩
تفسير سورة الواقعة	٥٨٧
تفسير سورة الحديد	٥٩٥
تفسير سورة المجادلة	٦٠٤
تفسير سورة الحشر	٦١٣
تفسير سورة الممتحنة	٦٢٣
تفسير سورة الصف	٦٣٠
تفسير سورة الجمعة	٦٣٤

تفسير سورة المنافقون	٦٣٨
تفسير سورة التغابن	٦٤٢
تفسير سورة الطلاق	٦٤٧
تفسير سورة التحريم	٦٥٣
تفسير سورة الملك	٦٥٨
تفسير سورة القلم	٦٦٦
تفسير سورة الحاقة	٦٧٤
تفسير سورة المعارج	٦٨١
تفسير سورة نوح	٦٨٦
تفسير سورة الجن	٦٩٣
تفسير سورة المزمل	٧٠٠
تفسير سورة المدثر	٧٠٦
تفسير سورة القيامة	٧١٣
تفسير سورة الإنسان	٧١٩
تفسير سورة المرسلات	٧٢٦
تفسير سورة النبأ	٧٣١
تفسير سورة النازعات	٧٣٥
تفسير سورة عبس	٧٣٩
تفسير سورة التكوير	٧٤٢
تفسير سورة الانفطار	٧٤٥
تفسير سورة المطففين	٧٤٧
تفسير سورة الانشقاق	٧٥٠
تفسير سورة البروج	٧٥٣
تفسير سورة الطارق	٧٥٦
تفسير سورة الأعلى	٧٥٨
تفسير سورة الغاشية	٧٦١
تفسير سورة الفجر	٧٦٤
تفسير سورة البلد	٧٦٩
تفسير سورة الشمس	٧٧٢
تفسير سورة الليل	٧٧٤
تفسير سورة الضحى	٧٧٧
تفسير سورة الشرح	٧٧٩

تفسير سورة التين	٧٨١
تفسير سورة العلق	٧٨٣
تفسير سورة القدر	٧٨٥
تفسير سورة البينة	٧٨٧
تفسير سورة الزلزلة	٧٨٩
تفسير سورة العاديات	٧٩١
تفسير سورة القارعة	٧٩٣
تفسير سورة التكاثر	٧٩٥
تفسير سورة العصر	٧٩٧
تفسير سورة الهمزة	٧٩٩
تفسير سورة الفيل	٨٠١
تفسير سورة قريش	٨٠٢
تفسير سورة الماعون	٨٠٣
تفسير سورة الكوثر	٨٠٥
تفسير سورة الكافرون	٨٠٦
تفسير سورة النصر	٨٠٧
تفسير سورة المسد	٨٠٨
تفسير سورة الإخلاص	٨١٠
تفسير سورة الفلق	٨١١
تفسير سورة الناس	٨١٣
فهرس المصادر والمراجع	٨١٤